تأليف
هنري مورتن روبنس
ترجمة
الأب أنطون سليم صايغ



الكاردينال

قصة تاريخية اجتماعية

الكاردينال

قصة تاريخية اجتماعية

إهداء المؤلف

إلى

سيسيل ويوسف فورمان

إهداء المترجم

إلى شقيقه

چورچ صايغ

الكاردينال

قصة تاريخية اجتماعية

بقلم
المؤلف الأمريكى
هنرى مورتن روبنسون

ترجمة
الأب أنطون سليم صايغ

دار المعارف بمصر

طبع بإذن الرؤساء

مقدمة المؤلف

قد يجوز لكل مؤلف أن ينفى كل صلة بين أبطال قصته والناس الذين حوله ، أحياءً كانوا أم أمواتاً . وإنى إذ أعلن عن رغبتى هذه بشأن كثير من الأشخاص فى قصتى : « الكردينال » لا أدعى — مع ذلك — أن شخصية « ستيفن فرمويل » هى كلها وليدة مخيلتى ؛ والقول الأصح ، فى ظنى ، هو أن ستيفن فرمويل مزيج من كل شخصيات الكهنة الذين عرفتهم . وبالخصوص هؤلاء الكهنة الذين طبعوا فى حداثتى آثاراً سرّية بعملهم المقدّس .

وإنى مدين لتلك الانطباعات الثابتة . وقد ازدادت الآن رسوخاً وحيويّة منذ اليوم الذى غُرستْ فىّ ، بمعرفتى لبواطن الحياة الكهنوتية . وعلى هذه الأسس التى قد تبدو ضعيفة فى ظاهرها ، مع أنها مستندة إلى دراسة أمينة وملاحظة دقيقة ، لم آلُ جهدى لبناء شخصية ستيفن فرمويل المتشعبة الأطراف . وقد يظن البعض أن هذه المحاولة تميل إلى المكابرة فقد يقال : « كيف يجرؤ رجل على أن يقترب من الهيكل كخادم ، ويدخل كرسىّ الاعتراف كغافر للخطايا ، أو يمسك بالصولجان ويلبس القبعة الحمراء المخصّصة لأمراء الكنيسة ؟ » وإنى إذ أسلم بأن نفس الكاهن مستودع تكتنفه الأسرار ، أشعر مع ذلك بأن الحياة الكنسية تقدّم للمؤلف القصصىّ تحدياً حقيقياً فى حقل قد طال إهماله .

وقد يسر القارئ أن يعرف أنى كنت وما زلت كاثوليكيا . أما كونى كاثوليكيا ديّناً أمْ لا ، فهذه حقّاً مسألة تخصنى وخالقى . إنى لم أتُقْ قط أن أصير كاهناً . إنما ككاتب ، ومنذ أمد بعيد ، قد صُعقت عجباً ورهبة أمامَ مهمة الكهنوت . ففى « الكردينال » قد حاولت التعبير عن هذه المشاعر بأن وصفت كاهناً ذا هبات نادرة مع كونه بشراً حقّاً يتمّم الغاية التى كرّسَ لأجلها وسيطاً بين الله والبشر .

وقد يجد بعض القراء بطلى رجلا فاضلا فوق ما هو عليه ، وقد يشكو بعض آخر من أنه قد نسى حيناً — فى بعض المواقف — دعوته الإلهية . إنى وإن كنت لا أرغب فى تجريد ذاك النقد من سلاحه ، أطلب فقط أن يستند الحكم على ستيفن

فرمويل — كما على كل البشر — ليس إلى شهادة بعض الحوادث المنفردة . وإنما إلى الغاية الباهرة من حياته كلها .

ليس « الكردينال » دعاوة للكنيسة أو عليها . وهو بدون شك ليس مقالة لاهوتية أو سنداً للتاريخ . إنه فقط قصة من نسج الخيال تقرأ كموضوع إنشائى كتبه أحد المراقبين لعالمنا ، وهو يؤمن أنه وإن بدت الشرور مخيفة ، فالإيمان والرجاء والرحمة تحفز الرجال ذوى النوايا الطيبة ، أين وجدوا .

هنرى مورتن روبنسون

وودستوك ، نيويورك
١٩ يناير ١٩٥٠

٧

« إرادتك سلامنا »

دانتى : « الفردوس »، النشيد الثالث

س — لماذا خلقنا الله ؟

جـ — إن الله خلقنا لنعرفه ونحبه ونخدمه فى هذه الحياة ولنكون سعداء معه إلى الأبد فى الآخرة .

الدرس الأول من التعليم المسيحى

الديباجة

فى أعالى البحار

كان الرّبان « جيتانو أورسلى » قائد الباخرة الفخمة « ڤيزوڤيو » ، على غرار كثيرين من أترابه فى فلورنسة ، مفرطاً فى شغفه بالجواهر . ففى شبابه ، لم يكن ليصمد طويلا أمام التجربة ، فيزين نفسه وخصوصاً يديه بأثمن الحجارة الكريمة . أما الآن وقد بلغ أشده فى الأربعين من كهولته ، فقد أصبح ذوقه رفيعاً أنيقاً ، حتى لقد أضحت اللآلئ فى ذاتها هوايته ، فيكتفى كل مرّة بلبس خاتم واحد فقط ، معتمداً فى تصرفاته على بديهته الباهرة بانتقاء الحجر الملائم لكل مناسبة .

فى تلك الليلة ، كان الربان أورسلى ينتقى خاتمه بعناية كبيرة . إنه سيظهر قريباً على متن الڤيزوڤيو أمام نخبة من المسافرين كان قد وجه إليهم دعوة خاصّة ليكشف لهم النقاب عن عجائب الفضاء بما فيه من نجوم وكواكب وأبراج . فسرّح طرفه فى علبة خواتمه ورفرف يده عليها حائراً بين زمرّدة مستديرة مشطورة وياقوتة حمراء من بورما . كان يملك من الخواتم عشرات ، وفى وسعه أن يحصل على مئات منها ، لولا عادة فيه مستحكمة أن يهدى هذه الخواتم إلى السيدات ، مفضلا منهن الشماليات وخصوصاً من كان شعرهن حنطى اللون ، وكانت صدورهن بارزة وعيونهن زرقًا . ووقع اختياره على الياقوتة فأدخلها بأناقة على ظفره اللامع فى سبابته اليمنى وثبتها حتى عقلته . ثم عطر لحيته المثلثة على طريقة « دى ريشلث » ، وثبت قبعته المذهبة فى مستوى زاوية مداخن الڤيزوڤيو ، وأخيراً ألقى نظرة شاملة إلى الأمام والخلف والجوانب فى مرآة طويلة مثلثة الزوايا . ربما لا يرى البعض فيه سوى شاب متأنق ، إلا أن الربان أورسلى اكتشف صورة سيد عظيم من عصر الازدهار تنعكس صورته فى المرآة بأصدق بيان ، مع ابتسامته الساخرة .

وضع الربان بين أسنانه الجميلة سيجاراً إنجليزيًّا ، ثم صعد على ظهر الباخرة . كان الليل صافياً والقمر غائباً ، والنجوم فى السماء تتألق بأشكالها الهندسية

اللامعة . صعد أورسلى طرفه بين الماء والسماء بنظرة بحار يحدد مكان الڤيزوڤيو بدقة تشبه حساسية الأسطرلاب ومقياس الزمن . فأيقن من نجمة القطب وكوكبة العواء أن باخرته كمثيلاتها من البواخر الجبارة تسير عبر الأطلسى فى اتجاه شمالىّ غربىّ ، وأنّ رأس ڤنسنت فى الأفق البعيد نحو الجنوب الغربىّ من أوربا يتضاءل شيئاً فشيئاً من عن يمين الباخرة .كان الڤيزوڤيو بعد إقلاعه من ناپولى بيومين ونصف اليوم ، قد عبر البحر المتوسط وجاز مضيق جبل طارق بنحو خمسين ميلا ، وهو الآن يمخر عباب الأطلسى الكبير ووجهته بوسطن .

على جانبى الباخرة وفى الوسط رسم العلم الإيطالى وُسلطت عليه الأنوار الكهربية من فوق إلى أسفل . إنه تنبيه ملكى إلى الغواصات بأن الڤيزوڤيو هو ملك لدولة محايدة . ومع ذلك فالرّبان أورسلى لم يكن ليخشى خطراً منها . ففى أبريل ١٩١٥ ، عندما حثت ألمانيا إيطاليا على التحالف مع قوات أوربا الوسطى ، ضد فرنسا وبريطانيا ، كان قواد الغواصات يحسنون معاملة السفن الإيطالية ، تلطفاً واحتراماً . إلا أن الألغام التائهة فى هذا الجزء من المحيط لم تكن لتضمن مثل هذا الاحترام . فأمس صدم الطراد الإنجليزى « فروبيشر » لغماً، وأمس الأول غرقت مدمرة فرنسية . وحيث إنه لا مأمن من تلك الأهوال الخفية التائهة — سواء هبطت السرعة إلى ثمانى عقد أم ارتفعت إلى ثمانى عشرة عقدة — فقد كان أمر الربان أورسلى الدائم أن « استمروا فى السرعة » .

واندفع الڤيزوڤيو عبر شمال الأطلسى بسرعة عشرين عقدة .

اجتمع بعض ركاب الدرجة الأولى على ظهر الباخرة حيث كل شىء مظلم سوى غرفة القيادة بنورها الضئيل . كان الربان نفسه قد اختارهم لأسباب تتأرجح بين السياسة وأغراضه ، وقد وجه اهتمامه أولا إلى مغنية سويدية أمريكية صوتها صادح متوسط وقوامها كالملكة برونهيلد ، وشعرها ذهبى خافت اللون معقود كاليونانيات على أسفل العنق . كانت « إيرنا ثاركلند » ، وهو اسمها فى الأوساط الفنية ، عائدة إلى وطنها أمريكا بعدما أثارت عاصفة من الإعجاب فى ميلانو وروما وناپولى على حد تعبير النشرة السياحية فى السفينة . أما الربان أورسلى فإنه يشك فى قصة إثارتها لمثل هذا الإعجاب ، إلا أنه لاحظ عندها ألواناً شيقة

لشخصيتها وتصرفاتها . والآن إذ انحنى على يدها مخاطباً إياها بفخامة : « أيتها السامية » ، فإنه لم يضطرب قط لعدم تجاوبها معه . كان جيتانو أورسلى رجلا يجيد الصبر .

ثم تقدم الربان محيياً « كورنيليوس ديجان » من ركاب الدرجة الأولى الفاخرة مع امرأته وحاشيته . كان كورنيليوس ديجان رجلا من ذوى الملايين بفضل عقوده الرابحة التى أمضاها مع بلدية بوسطن لشحنات من الطوب والزلط ، وهو الآن عائد من روما حيث نال وسام الشرف البابوى تقديراً لسخائه فى ترميم دير « تلمارا » الإرلندى — وفى الستين من عمره ما زال لون حمرة الطوب فى شعره وخشونة الحجارة فى يديه المقشفتين . وقد صحبته امرأته « إغناطيا » ، وهى سيدة مهيبة معتزلة ، تقوم على خدمة زوجها وأولادها السبعة وتساعد بضعة عشر طفلا من الكاثوليك اليتامى ، ونحو مئة من الأقارب الفقراء .

لم يزد الربان أورسلى فى اعتباره لأسرة ديجان على المقدار الذى يمنحه رسام شهير لزوجين من أعيان الريف وقفا أمام لوحته . وكان بين حاشية ديجان ، كاهن شاب مفتول القوام يدعى الأب ستيفن فرمويل ، يتضح من مظهره المهيب أنه حديث الرسامة فى الكهنوت . فأحنى له الربان رأسه احتراماً يضطر كل كاثوليكى ، وإن اشتد كرهه للدين ، أن يؤديه لرجال الكهنوت . ثم حيا مَن وجد من الآخرين وهم : ملحق سفارة إيطالى مع زوجته الفاتنة ، ومدير مصرف إنجليزى يسعى إلى مدينة « يورك الجديدة » (نيويورك) لعقد قرض جديد لصالح البحرية الملكية ، وخبير من شيكاجو فى الحقوق الكنسية لم يُوَفق قط أمام محكمة « الروتا » الرومانية فى مرافعة له ببطلان الزواج .

وشرع الربان يشرح لهم باختصار علم الفلك مشيراً إلى النجوم التى لم تزل منذ أجيال ترشد البشر وتصحبهم . وحدق أورسلى ببصره تجاه زاوية الشمال كما يفعل كبار الرحالة فى المحيطات ، وقال وقد أشار إلى بنات نعش المتألقات كالنار فوق رؤوسهم : « أترون الدب الأصغر ، إنه يحوم حول النجم القطبى محاولا الالتفاف على ذيله ، وفى طرف أنفه ترون نجمة الغول المحبوبة إلى حُداة الإبل . وأنهرُ الذهب تلك التى بين الدبّ الأصغر والدبّ الأكبر يسميها الشعراء " ضفائر

برنيس " أو " ذات الشعور " . نعم ، حتى ضفائر النساء تحلى وجه السماء ، أوَ أسرد لكم قصة هذه الخرافة الممتعة ؟ »

فى ظلام السفينة أخذ الحضور العجب من لغة الربان الشعرية ولحيته المعطرة وإصبعه المحلاة بالياقوته ، كما دهشوا من جمال النجوم التى أشار إليها فى الفضاء ، فقد كان الرّبان أورسلى رجلا فريداً فى نوعه لكثير منهم ، إذ كيف يستطيع قائد باخرة تربو على خمسة وعشرين ألف طن أن يستمر فى سرعة قصوى فى مياه مشحونة بالألغام ، ويجد أيضاً وقتاً ليعطر لحيته ويتحدث شعراً عن النجوم . كان ذلك حقا مثار دهشة عند الكثيرين ولا سيما السيد كرنيليوس ديجان ، الذى كان مثالا راسخاً فى الآداب من قبل اختياره عضواً فى جمعية « فرسان القديس سلفستر » . فأسرَّ إلى زوجته منبهاً إياها إلى الناحية الأدبية من الموقف : « إنى لا أستسيغ ذلك ، يا إغناطيا . إن من واجب هذا الرجل أن يكون أكثر حكمة فى قيادتة والغواصات تحوم حولنا » .

لاحظ الربان أورسلى نفور الإيرلندى وزوجته ، ولكنه استمرّ فى قيادة سفينته بسرعة عشرين عقدة ساخراً منهما وآسراً لبّ مستمعيه الآخرين بسحر شخصيته المعطرة . فاتخذ وقفة شاعر بحرىّ ونقرَ ناعماً على قيثارته . إن قصة برنيس لفرصة سانحة ليفيض بمشاعره ويدلى برسالته . وأيقن الجميع أن الربان رجل جرىء . أما كتفاه العريضتان فتنبئان بقوة قاهرة تستميل إليها النساء الناضجات . وقد شعرت بهذا المغنية السويدية الأمريكية الشقراء كما شعر به الآخرون . ولم يفته ذلك منها . إلا أنه أراد تنبيهها إلى أنه — لوشغف بشعرها الذهبى أكثر من ولعه بالجواهر — لم يكن ليتردّد أبداً ، إذا أتيح له التمتع بضفائرها ، أن يتخلى بسرور عند الضرورة عن ياقوتته ، خصوصاً فى ليلة مرصّعة بالنجوم ، فابتدأ :

— « كانت برنيس ملكة مصرية نادرة الجمال » . ولقد وَد الربان لو تكلم بالإيطالية ، ولكنه تحدث بالإنكليزية ليثبت مهارته فى معالجة اللغات . « ولما قام زوجها بحملة خطيرة على سورية ، قصّت برنيس شعرها الذهبى — واستدارت قبضة أورسلى على شكل منجل يحصد القمح عند جذوره — وقدمته على مذبح آمون رع . أيوجد اليوم نساء كتلك ؟ » وهزّ الربان لحيته المحددة بمسحة من

الأسى ، ثم أشار ثانية إلى البرج قائلا : « وكانت مكافأة هذه التضحية العظيمة أن سرد الإله ضفائر برنيس فى السماء . ولذلك فالبحارة والعشاق يرون فى ليالى الربيع بهاء ضفائرها فى أعالى الجوزاء » .

جاء وقع هذا الإلقاء على المستمعين ضعيفاً . زمجر كرنيليوس ديجان من برودة الجو ، وأحكمت البلبلة الأمريكية لف فروتها على عنقها . أما الربان أورسلى فقد حملته خبرته الطويلة فى الظهور على مسرح الكواكب على أن يتوقع تأييداً أكثر حماسة . وخيل له أن قد كان يجدر به لبس الزمردة بدلا من الياقوتة ، وأوشك أن يتطرق إلى الحديث عن « المرأة المسلسلة » ؛ وإذا بصوت جهورى قد سأل : « وأين لوسيفير ؟ » كان السؤال حادًّا ، موزوناً ، متعمداً .

وفى الظلام أحس الربّان أورسلى بالهجوم . لم يميز من وجّه إليه السؤال ولكنه تعرف على تلك النبرة الإكليريكية المكتسبة فى روما . لا شك أن الصوت صوت الكاهن الشاب المرافق ديجان . فقرر الربان أن يداعب فى هدوء هذا الكاهن الحديث العهد :

— « لوسيفير ؟ الملاك الساقط ؟ ولماذا ترغب فى تحديد مكانه ؟ أتخشى مصيره يا أبت ؟ » وتطاير الضحك بين الحضور .

— « أخشى ، تخشى ، نخشى » ، جاءه الجواب فى الظلام خفيفاً مرحاً . « كلا أيها الربان ، إن اهتمامى بلوسيفير هو أنه ، كسميه ، يسافر متخذاً أسماء مستعارة كثيرة » .

استحسن الربان أورسلى عرض الكاهن الشاب شكلا ومعنى . وكأستاذ فى مبارزة الأسواط ، كان يستمتع بلسعة خصمه المصيبة .

— « إنك على حق يا أبى فهذا النجم قد دعى بأسماء مختلفة : لوسيفير ، وفوسفور ، وهسپيروس . وجميعها فى الواقع تشير إلى واحد » . ثم أشار الربان بإصبعه إلى الأفق الغربى : « وها هوذا هنالك ، أحمر قاتماً ، ساقطاً ، وما زال متكبراً » .

وتحت بريق السيجار ، عكست الياقوته فى إصبع أورسلى لون الكوكب الحقيقى . وأردف قائلا : « وأغرب ما فى الأمر أن هذا النجم نفسه سوف يطلع

غداً صباحاً فوق البحر أشقر ، ذهبيًّا ، باسم الزهرة . ألا تدعو إلى العجب حقاً هذه الكيمياء الليلية ؟ »

مزج الربان سؤاله فصاحة وخبثاً ، فما توقع ولا انتظر ردّاً ، فقد شرع المدعوون ينصرفون .

وتقدّم الربان أورسلى بين مدعويه بثبات وعظمة . إن اشتباكه مع الكاهن الشاب قد زاد تباهيه اندفاعاً . وأخفى أورسلى احمرار وجهه الفجائى من هذه اللمسة البسيطة بإتيانه بعض الحركات الواسعة والكلمات المستفيضة ، كما يفعل التوسكانيون . وانحنى تحية واحتراماً – ولكن استهزاء – بديجان كما يفعل الممثلون . وتوجه إلى ستيفن وأثنى عليه بعطف كما يفعل بطل عالمى فى مبارزة السيوف إذا امتدح تلميذه فى لمسة ناجحة .

– « إن قبضتك لسريعة ، أيها الأب . لقد لمستنى بظرف فى تصريفك أنا أخشى ، أنت تخشى ، نحن كلنا نخشى . ها ! أليس حقًّا ؟ إن الكبرياء – رائدة الخطايا الرئيسية – يتعثر فيها الكبار دائماً . " إنها الزلة الأخيرة لذوى العقول الكبيرة " كما يقول شاعركم ملتون . هل أستذكر خطأ ؟ » ثم استدار فى عظمة نحو كرنيليوس ديجان قائلا : « علينا بالرجوع إلى النص ، أليس كذلك ، وإلا فقدنا كل تقدير . »

أغرى ارتباك الفارس الخجول أورسلى بمعاكسة ديجان بما يتنافى واللياقة فقال : « ألا نعيد الكرة فى مقصورتى ، يا أبى ؟ إن شرفى التوسكانى يطلب تعويضاً ، وتقول النجوم إن الليل لم يبدأ بعد . أيمانع أصدقاؤك فى ذلك ؟ » .

أحست إغناطيا ديجان بموجات حارة تنبعث من عنق زوجها ، إشارة خطيرة خبرتها بأن فارسها كورنى يشد على قبضته الخشنة وأنه فى لحظة أخرى قد يطيح بها إلى أنف الربان . فتقدمت :

– « اذهب معه يا ستيفن . إننى وكرنيليوس متعبان على كل حال ، وسوف نذهب إلى الفراش » . ثم حدقت بعينيها إلى السماء كما لو لم تكن رأتها قط حتى الآن ، وأردفت تقول : « حقاً ! إن هذه الليلة الجميلة لا مثيل لها للمناقشة ! »

تردد ستيفن . إن دعوة أورسلى المغرية قد نفذت إليه . وهو يتوق إلى مناقشة

خصمه المتعجرف على انفراد . أما قبوله الدعوة فسوف يعد تقصيراً لا يغتفر فى صداقته لديجان . كان عليه أن يختار : إما أن ينقاد لهذا الرجل المادىّ الفتان ، أو يبرهن لكورنى وإغناطيا ديجان عن تمسكه بهما . فرجح ستيفن كفة صداقته على رغبته فى الاستزادة من معرفة أورسلى . فقال :

— « أخشى ، أيها الربان، أن أظهر أمامك الليلة خصماً تافهاً . ولست أجازف فى أن أقطع إرباً والنوم يثقلنى . ألا تؤجل ذلك لوقت آخر ؟ »

ومن طرف عينه ، تنبه أورسلى إلى رجل الأعمال الإنجليزى وهو يجامل إيرنا ثاركلند . فرجحت عند أورسلى كفةُ الخطر الإنجليزى على اللمزتين اللتين أصابه بهما هذا الكاهن الشاب . فرفع قبعته المطرزة ذهباً وقال : « فى أى وقت شئت أيها الأب . إنما تذكر ، فالسفر قصير ، وليس لدينا سوى سبعة أيام أخر لنتبارز » . وكشف لديجان عن أسنانه الجميلة : « إلى الغد ! » .

— « إلى الغد ! » أجاب ستيفن، وهو يتساءل فى طريقه إلى مقصورة ديجان فى الطابق الأعلى ، « متى وأين اجتمعت بلصّ جرىء ظريف كهذا ؟ » .

* * *

كانت مقصورة ديجان من طراز « الباروكو » مثقلة بالثراء الذى ألفه الأمريكيون على البواخر الإيطالية فى العقد الثانى من هذا القرن . كانت ببسطها الوثيرة وزيناتها الذهبية العديدة تليقُ بالفارس الجديد كورنى ، وهو جالس على مقعد مبطن من طراز « الروكوكو » ، وقد رفع على مسند مستدير أمامه قدميه العريضتين اللتين تسلقتا فى الماضى عدداً كبيراً من السلالم وهما مثقلتان بدلاء الأسمنت ؛ ثم ترك العنان لمشاعره المكتومة تنصب على الربان أورسلى . . قال لستيفن :

— « إنى أمتعض من هذا الرجل يا ستيفن . فلحيته المعطوة بالزيوت وهراؤه حول النجوم ، كل هذا سخيف للغاية . لكن ما لا أستطيع احتماله هو رؤية رجل يلبس خاتماً فى سبابته » .

ظهر كورنى فى انفعاله كأنه ينفض غبار الطوب عن شعره . وقدّر ستيفن فرمويل مشاعر صديقه الأكبر حق قدرها . لكن هل فى إمكان السيد كرنيليوس أن يستجيب له أو يفهم . إن الساعات الثمانى والأربعين الأخيرة قلبت عنده كل

موازين الكلام . أما صبر ستيفن فقد أوشك الآن أن ينفذ . وفى أمانة أخذ على عاتقه مهمة إيضاح الأمور .

— « إن لبس الخواتم فى السبابة عادة قديمة عند الطليان ، يا كورنى . وفى عهد الازدهار ، ومنذ أيام لورنزو ، كان كل شريف يلبس خاتماً . إنه تقليد عظيم وعريق فى القدم » .

أجاب ديجان يائساً من إيجاد تعبير فى كلماته المفردة المقاطع : « أما هذا فلا أعرف . . . لكنى ما زلت لا أحب هذا الرجل . إن كل شعرة فى بدنى تشمئز من كبريائه الوقحة يا ستيفن » .

— « إنى أدرك ما تعنى » . وكان الكاهن الشاب حذراً فى رده . لقد فهم تماماً ماذا عنى كورنيليوس ، ولكنه لم يبد له مخالفة أكثر من ذلك باعتباره ضيفاً عليه .

— « وكم كنت فخوراً بك ، يا ستيفن ، عندما جندلته بتسديد ضربتك وسؤالك عن لوسيفير » . واحمرّت وجنتا كورنيليوس طرباً : « سوف أعرّف الكردينال بذلك شخصياً متى ذهبت إلى بوسطن لأقدُم له احترامى » .

فتوسل ستيفن : « أرجوك ، يا كورنيليوس ، كلا . . . عدنى أنك لن تذكر شيئاً من ذلك لأحد ، وخاصة للكردينال » .

— « ولم لا ؟ » وارتفعت ثانية عصبية ديجان .

— « الواقع ، يا كورنى ، أنى خجل بعض الشىء مما حدث على ظهر الباخرة » .

— « خجل ؟ لقد رددت ضحك الحضور منك إلى ضحك على هذا الإيطالى المتعجرف ، واضطرته إلى احترام الكاهن فيك كما هو مفروض . فأى خجل من هذا ؟ » .

صعب على ستيفن تفسير بعض الأمور لمضيفه . وندم لحظة على مرافقته ديجان . لكن لا ، فقد كان هو وزوجته طيبى القلب وخيرين . فلا بد له من أن يوضح موقفه .

— « اسمع يا كورنى . لما سألت " أين لوسيفير ؟ " تعمدت المشادة . وأردتُ بسؤالى إحراج الرجل فى غروره . وقد شعر بالهجوم ، وتفاداه بأن ردّ الضحك منه إلى ضحك علىّ » . وتوقف ستيفن قليلا ثم تابع : « فى الحقيقة أنى كنت مزكيًا

نفسى قليلا عندما وجهت إليه سؤالى بالإيطالية » .

فسألت إغناطيا ديجان : « أليست هذه لغته ؟ »

— « لكنه كان يتحدث بالإنجليزية فى ذلك الحين » أضاف ستيفن .

فهزّ كورنيليوس ديجان رأسه استغراباً : « إنك تتصوّر الأمور على نحو غريب ، يا ستيفن ، لا كما يتصورها أمريكى . هل لقنوك أن تفكر بهذه الطريقة فى روما ؟ »

مر ستيفن بإصبعه على نقوش تزين المنضدة وقال : « إنهم لا يلقنوننا شيئاً محدداً ، يا كورنى . لكن إذا ما قضيت مدة فى روما فسوف تلمس غنى فى الميول والاتجاهات لا تجده مطلقاً فى بلد آخر ، كالنقوش التى تراها على هذه المنضدة . خذ ربانا مثلا . إننى لا ألومك إذا امتعضت من اعتزازه بنفسه . لكن عليك أيضاً أن تسلم يا كورنى بأن جيتانو أورسلى رجل فريد فى ثقافته ليس فى وسعنا اللحاق أو التشبه به فى ولاياتنا المتحدة » .

— « رجل فريد ؟ هلا أوضحت قولك الآن ؟ »

— « دون شك . إن أورسلى ، مع مزاياه النادرة كبحار وقائد باخرة ، لغوىّ وشاعر وذو ذوق مرهف . ألم تستمتع بمراقبته وهو يأكل الطيور الليلة ؟ وهو أيضاً خبير فى المشروبات ، واللآلئ ، والسيجار ، و . . . (وسبرهما ستيفن ليعرف هل تنبها إلى صوت المغنية الرفيع) — والمسارح . بل ربما يحسن الغناء ، أو أقله الهمهمه بالمقطوعات الشهيرة لواجنر ، وپوتشينى ، وڤردى . . . »

صعق كورنيليوس وامرأته . . . كيف يمكن لكاهن ، وكاهن شاب ، أن يكون على علم بهذه الأمور الدنيوية ؛ وحسبه أن يكون على علم بها فقط ، إنما يسردها ويعلى من شأنها أيضاً . لاحظ ستيفن استياء هما فقال :

— « لا غروَ أن أورسلى رجل مادىّ شرس وممتهن للقيم الروحية وعديم الأخلاق . لست أدافع عنه يا كورنى . أقول فقط إن عند هؤلاء الطليان شيئاً يذكرنا بحلم لذيذ قد امحى من عالمنا الغربى » .

وتابع ستيفنُ حديثه بحماسة جديدة .

— « سوف تضحك يا كورنى أو ربما تغضب إذا قلت لك إن أستاذى فى روما ، المونسنيور " ألنيو كارنجى " ، عظيم الشبه بربانا . قد كان متنسكاً وعالماً

إلى حد لم أشهد له قط مثيلا ، لا خاتم له ولا عطر : وقد أذاب نفسه بالصلوات والأصوام . ومع تباينهما الشاسع ، فهذان الرجلان متشابهان . ويمكن القول إن كارنجى بأناقته وجاذبيته وذكراه الدائمة ، لهو رسم طاهرٌ لربابنا » .

حان الوقت لكورنيليوس ديجان أن يضع حدًّا لتلك المقارنة الجريئة بين المونسنيور وأورسلى . فإذا زاد الأب ستيفن على ذلك فى معارضته فقد قارب الإلحاد . فشد السيد كورنيليوس على وتر الآداب ورن صوته كالجرس فى تدريس الأخلاق .

ـ « ربما اجتمعا فى ثقافتهما وتفكيرهما على نحو لا نستسيغه فى أمريكا . لكن خذها منى كلمة شرف ، يا أبت ـ وهنا سمح كورنيليوس ديجان لرأيه أن يرنّ عالياً واضحاً ـ خذها منى كلمة شرف ، إن الربان أورسلى هذا ما هو إلا طبل فقط ، خاو من الآداب والأخلاق . جرب واضغط عليه فينفقعْ » .

فهز ستيفن رأسه شكًّا وقال : « ربما تكون على حق ، ياكورنيليوس ». ثم أدرك أنه سيمسى سخيفاً إذا امتد به النقاش مع مقاول زادته فروسيته عناداً . فنهض مبتسماً وحياه متمنياً له ليلة سعيدة .

هدأ تسليم ستيفن عصبية كورنيليوس ديجان . فتبخرت عند الفارس حدة خيلائه ، وزال عنه كل اعتداد بنفسه من أنه المقاول الأوحد فى بوسطن . ولم يبق على وجهه من هذا كله سوى ابتسامة عريضة كالتى أشرق بها محياه يوم غادر مقاطعته « ونكلو » فى طريقه إلى أمريكا منذ أربعين عاماً على دكة مركب قضى عشرين يوماً فى رحلته منذ أقلع من « مدينة الملكة » (كوينزتاون) .

ثم شدّ كورنيليوس على يد الكاهن الشاب وقال : « قد أصبحت يا ستيفن إيطاليًّا طبعاً وطابعاً . تعرف متى تثبت وتعرف متى تنسحب . هذه مهارة لم يتقنها والدك قط . وإنى أتساءل عما سوف يقوله دونيس فرمويل الذى اعتدنا أن ندعوه الآمر الناهى ، عندما يجد نفسه فى نقاش مع ابنه ، ذى الثقافة الرومانية ؟ »

نال هذا الكلام من سعة تفكير الأب ستيفن فرمويل وافتخاره فأجاب : « إنى لن أناقشه أبداً ، ياكورنى . وسوف تكون له الكلمة الأخيرة فى كل ما يتداوله معى . فبعد هذه السنوات الأربع الطويلة ما زلت أتوق لأرى قبضته الضخمة

تضرب المنضدة وعينيه الزرقاوين يندفع منهما الشرر والغضب . جعلنى الله أهلا لأكون ابنه ! »

* * *

« جعلنى الله أهلا لأكون ابنه ! »

ركع ستيفن فرمويل قرب كرسيّ مذهب فى خلوة غرفته ، وأحنى رأسه ، وتأمل باتضاع ، بما يتعذر عليه إدراكه فى سموّ حالته الكهنوتية . لم يجد صلاة تكفى للتعبير عن فرحته . والكلمات الشفوية لم تكن بالقوة المرغوبة لتحمل عربون محبته وشكره لله الآب . مكث صامتاً دقائق طويلة ، ثم صلى ببطء « أبانا » بكل ذهنه وكل قلبه ممجداً مع كل مقطع اسم الله وملكوته وإرادته . ثم فتح كتاب الساعات وقرأ صلاة السحر والتسابيح مقدماً للغد ، وتلا الصلاة الإعدادية :

« يارب افتح شفتىّ لأسبح اسمك القدوس . نق قلبى من كل فكر زائف بطال ، مضطرب . أنرْ عقلى وأشعل قلبى لكى أقدم لك هذه الصلاة كما يليق بك ، بانتباه وتقوى ، وأستحق أن أستجاب لدى عظمة مجدك الإلهى ، بالمسيح ربنا . آمين » .

« ياربى يسوع المسيح أقدم لك هذه الساعة بالاتحاد مع نيتك الإلهية التى بها ، وأنت على الأرض ، سبحت الله الآب » .

ثم ترك ستيفن عالم المناقشات الزائف والتجأ إلى عالم الصلاة الروحى . وإذ هو يقرأ السحر والتسابيح ، تجددت فيه قوّة دعوته ونقاوتها . وكلما ركع للصلاة اتضح له جوهر تدرّجه نحو الكهنوت . كانت صلة ستيفن فرمويل مع الله صلة رأسية كالتى بين البئر والنبع . لم تثر فيه رغبة تصوفية ليذيب نفسه فى الله الآب ، لا ؛ بل شعر برغبة قاهرة فى أن يعد نفسه جدولا فقط من النبع الإلهى . ولأنه ابن ومفوّضٌ ، فقد قرّر أن يمثل الله الآب بين البشر .

— « إنهم يدعوننى أباً . وأباً سوف أكون » . لقد نذر . « إلى العذراء المباركة وإلى الكنيسة أمنا ، سوف أقدّم تفانىّ وإخلاصى ، وإنما إليك أنت ، أيها الأقنوم الأوّلُ من الثالوث الأقدس ، سوف أكرس كل كيانى . »

في نهاية الصلاة ، انتصب ستيفن وخرج إلى نجوم الليل . ومال على قضبان السفينة وسرّح طرفه في جمال البحر الفتان . وإذا بالذاكرة تأتيه ببيت للشاعر « كيتس » :

إن المياه المتدفقة
حول شواطئ أرض البشر
تواصل عمل تطهيرها
كما يقوم الكاهن بعمله . . .

عمل الكاهن ! تذكّر ستيفن فرمويل أنه منذ حداثته كان يرغب في أن يصير كاهناً . وأتته الدعوة سريعاً . كان قد ناهز الرابعة عشرة من عمره حين شعر أن قلبه متعلق ببيت الرب . كان نفساً من تلك النفوس الكثيرة المختارة بين الأمريكيين الإرلنديي الأصل ، التي حل عليها الروح القدس سريعاً وحقيقة . وطوال سنواته الدراسية ، ظهر عليه طابع الكهنوت بوضوح . وإذ هو قد كرس ذاته في داخله ، وإن لم تظهر التقوى فيه مستنيضة ، فقد كان في سن الثانية والعشرين مرشحاً فذّاً للتخصّص في الجامعة الأمريكية الشمالية بروما .

لم تنقض أربع سنوات حتى مال ستيفن إلى حب المدينة المقدسة . حركت الشقةُ الواسعة بين الماضي والحاضر — من " تراجان وبرامنتي وكانوفا " ، ومن « هلدوبرند وسكستوس ومايكل أنجيلو » — حرّكت فيه عطفاً شديداً نحو روما المجيدة الخالدة . شغفته آثارها . لكن الذي ملك لبه أكثر من عجائب البناء ، وأثبت وأبقى من الكنائس ، هو العقل الروماني نفسه .

التفكير الروماني ! ما هو في الحقيقة ؟ حاول ستيفن أن يحدده ، وأخفق ، كما أخفق غيره ، في تشخيص هذا المركب من تنبه عالي واعتقاد هادئ راسخ في الأولوية بين الشعوب . العقل الرومانيّ ذو الإلمام النافذ ! كم من مرة أعجب بمهارته في العمل كآلة مختبرة للتقلبات في جميع الأجواء . فمن أستاذ واحد ، المونسنيور كارنجي على الخصوص استخلص حكمة الكنيسة الجامعة رؤيا لم يكن ليتخيلها من قبل أو يقدر على الإلمام بها حتى الآن . ووجد ستيفن في كارنجي مثاله في الكهنوت : صوته الصافي ، ويداه الناعمتان ، وتجاعيد النساك على جبهته وشفتيه ،

وكتفاه العاليتان الضيقتان كمقبض سيف من طليطلة . وقد يخيل للناظر إليه أن محور العالم يمرّ فى عقل كارنجى . فمعرفته الواسعة بهذا العالم ، ونظرياته السياسية والاجتماعية الصائبة لم يعادلها سوى تعلقه الشديد بالكنيسة . فمنه سياسى ، ومنه أستاذ ، وكله كاهن ، أضحى هذا الرجل الفريد عاملا أساسيًّا فى التأثير على الإكليركى الشاب .

تدفقت الذكريات ، دون علاقة بالأشخاص ، فى مخيلة ستيفن وهو يحدق فى ظلام البحر . كان تقدمه فى درجات الكهنوت الصغرى أشبه بدرر ناصعة تحدد تقربه من الرسامة الكاملة . إن الميرون المقدس ، وكلمات الأسقف الراسم « أنت كاهن إلى الأبد » ، والتقديس مع الآخرين — كل هذه تركت فى نفس ستيفن فرمويل آثاراً لا تمحى .

والآن هو عائد إلى أمريكا ليتسلم مهامه ككاهن رعية . كان عليه فى الظروف الاعتيادية أن يسافر بالدرجة الثانية مع فريق من رفقائه ، لكن ليلة سفره حضر كورنيليوس ديجان إلى الدير فى حلة بهية فاخرة تغاير تماماً « العفريتة » التى ألف ستيفن أن يراه بها . وطلب كورنيليوس ، باعتباره صديقاً للأسرة أن يؤذن للكاهن الشاب بمرافقته على الفيزوفيو . كان لمركز ديجان كفارس بابوى وقع كبير ، فأجيب إلى سؤله . فسافر ستيفن إلى أمريكا فى مقصورة فاخرة بدلاً من أن يشارك رفيقاً له فى غرفة بسيطة .

كان له من العمر تسعة وعشرون عاماً ، وكان قوى البنية ، فخوراً . ربما فخوراً أكثر مما كان ينتظره من أعمال وضيعة . وأتته الآن كلمات كارنجى الأخيرة . « احذر يا ستيفن ، من الزلة الكبرى : الكبرياء ، أعظم تجربة لعقل الإنسان . اعمل على أن تكون وضيعاً بين الناس ، لتستطيع أن تكبر فى عينى الله » . وكان أن كارنجى أشار إلى المصلوب المعلق على صدره بسلسلة من فضة ، وقال : « هذه هى التضحية العظمى . فبها قد أضحى الابن أهلا بالآب » .

قد أضحى أهلا بأبيه !

وللمرّة الثانية فى ساعة واحدة ، صلى ستيفن قائلا : « امنحنى ، يا إلهى أن أصبح أهلا لأكون ابنك » .

* * *

اهتز المتوازيان المثبتان أمام مقصورة الرّبان تحت ثقل مئة وتسعين رطلا وزن جيتانو أورسلى . وتصبب العرق من لحيته وهو يدفع برجليه إلى أعلى معتمداً على قبضتيه ثم ينطوى ثانية على عضلات سواعده البارزة . وباستدارة رشيقة من الكتفين قفز من مؤخرة المتوازيين وحط على أطراف قدميه . حركة لا يجيدها إلا رياضى خبير يخاطر فيها بعنقه إذا لم تنجح .

فصفق ستيفن بكلتا يديه وهو ينعم بدفء الشمس مُمدداً على كرسيه متظاهراً بالتعب وقال : « عليك باستعراض آخر كهذا وستراني منهوك القوى . ألا تذكر أنك عرضت على أن نلعب " الموهل " ؟ »

بسطَ أورسلى منشفة ومسح بها سيل العرق من وجهه وصدره . وقد سره أن يستعرض مهارته الرياضية أمام هذا الكاهن الأمريكى الشاب . وكغيره من الرياضيين المحترفين كان أورسلى فى حاجة إلى حضور يتذوقون فنه ، فأظهر له ستيفن دون توقع منه مزيجاً من النقد النافذ والتهكم اللاذع لم يألفهما الربان منذ سنين . كانت استمالتهما الواحد إلى الآخر متبادلة . فقد قضيا الثلاثة الأيام الماضية يتمشيان ويأكلان ويتناقشان معاً ويلعبان الكرة الطائرة والموهل ، والڤيزوڤيو يشق طريقه عبر الأطلسى ، والمياه حوله كفراء بيض .

— « أرى أنك فى اشتياق إلى " علقة " أخرى فى الموهل . حسناً . فلدىّ من الوقت ما يكفى لتشريحك قبل الغداء . تفضل إلى حجرتى ، يا سيدى ، فهذه الشمس اللافحة لا يستسيغها سوى من كان دمويًّا ومفتولا من الإنجليز » .

دخل ستيفن مقصورة أورسلى وأعجب بشكلها المحدودب ونوافذها الواسعة حتى تسهل فيها الرؤيا من كل زاوية على الأفق . أثثت حجرة الربان على طراز نوادى الرجال فى عهد الملك إدوارد السابع ، بالأبنوس والنحاس والجلود المنقوشة . ولم يدل على كونها غرفة بحار سوى مصباح يتأرجح من السقف ومنظار صغير مثلث الأرجل . وغطيت جدران المقصورة بصور مهداة إلى أورسلى يظهر فيها جنباً إلى جنب مع الملوك والرؤساء والسفراء والممثلات . فشرع ستيفن يفحصها واحدة فواحدة : رسالة من ڤيكتور عمانوئيل تجاورها لقطة من تيودور روزڤلت ويده حول كتف أورسلى وممهورة بإمضائه « بعد سفر رهيب » ؛ ثم صورة مجملة لساره

برنارد « إلى جيتانو أورسلى ، ربانى المفضّل — برنارد » وصور أخر لنساء جميلات لا يعرفهن ستيفن .

وضع أورسلى لعبة الموهل على منضدة صغيرة وقال : « يؤسفنى يا أبى أنّ نذرك الفقر لا يخول لك المقامرة بالنقود . أى خراب كنتُ أنزلته بك ! »

كان الربان أورسلى من محترفى لعبة الموهل وهى مزيج من لعبة الشطرنج والسيجا . وحرفة اللعب بالموهل تنحصر فى إخفاء تحرّكات الواحد وكشفها عند الآخر مقدماً بما لا يقل عن ثلاث تنقلات متتابعة . لعبا دورين وخسرهما ستيفن ، فدفع باللعبة جانباً .

— « لست لك خصماً قويًّا فى هذا ، أيها الربان . فشىء ما يفوتنى فى هذه اللعبة » .

فعزاه أورسلى : « إن لعبة الموهل قديمة جدًّا وأوروپية صميمة . وعقلكم الأمريكى لا يستطيع الإحاطة بفكرتها الجوهرية . إنكم تكشفون أنفسكم وتتعرضون للهجوم . وليس فى تفكيركم تورية . وربما فى مئة سنة أخرى تتعلمون قيمة التورية وضرورتها » .

من النافذة المفتوحة سرّح ستيفن طرفه فى المياه المتلألئة . لم يكن هناك ظل أو تورية ، بل شمس مشرقة تعكس أشعتها على مساحات شاسعة من اللآلئ فى حوض من اللازورد . وانفرجت أساريره لجمال الماء والسماء . لم يرغب فى مناقشة أورسلى حول فائدة التورية فى الحياة وفى الفن . إنما أحس أن هذا اليوم هو أجمل الأيام التى مرّت ، وأنه قد اندمج فى جمال الطبيعة ذاهلا مشدوهاً .

ثم تمتم : « الجوّ جميل » .

فأجابه الرّبان : « الجوّ جميل حقًّا . ولا جو ألذ على الإطلاق من جو الأطلسى فى الربيع . إنما يالالأسف — وأشار بيده إلى الأفق البعيد — ليته غدا ملكاً مشاعاً بين الجميع ! »

— « وما قصدك ؟ »

فبان الحقد فى صوت أورسلى : « ألم تفهم ؟ لقد أصبح الأطلسى ملكاً للبحرية البريطانية . ونحن نبحر بإذن منها فقط . ألم تسمع بقصة رئيس بحارة

بجلالته البريطانى ؟ » .

— « ما سمعت شيئا قط » .

— « سيق رئيس بحارة بريطانى أمام محكمة عسكرية لصفعه قائد غواصة ألمانى وقع أسيراً . وكان دفاعه أمراً مطرداً مجمعاً » . وهنا قلب أورسلى صوته التوسكانى إلى خنفة لندنية شرقية : « لم أعبأ ، يا سيدى ، بهذا الأجرب إذ حاول نسفنا بالطوربيد . واعتبرت أمراً طبيعياً رفضه الإجابة عن سؤال مؤدب لقائدنا . ولكن ، يا سيدى ، لما بصق هذا الأجرب فى محيطنا ، ناولته ما يستحق » .

قهقه ستيفن عالياً لما أتى به أورسلى من تمثيل مزج فيه لكنته الفلورنسية بلكنة « ذئاب الجحور » ، وقال : « أيها الربان ، إن أبى قد يسر جداً بهذه القصة . إنه لا يزال يعتقد أن الإنجليز أناس ظالمون كما كانوا فى عهد كروموبل » .

أجاب أورسلى بوجوم : « كروموبل ، كليف ، أو رودس » ، أى فرق فى هذا ، ما دام الظالم المستبد إنجليزياً دوماً ؟ »

— « لكن إذا دخلت إيطاليا الحرب فسوف تنحاز دون شك إلى الجانب البريطانى . »

ففكر أورسلى برهة وهو يداعب لحيته ثم قال : « إن مصلحة بلادى هى أن تتجنب الحرب ، فهى غير مستعدة مادياً ومعنوياً . وستكون الحرب نكبة لها . والآن قد أمسى الأمر أمرَ أيام » . ودق أورسلى على جانبى صدره : « هل ظننت أنى كنت أتصبب عرقاً على هذين المتوازيين للتسلية ؟ إذا ما أعلنت إيطاليا الحرب ، فعلى ضباط الاحتياطى فى البحرية ألا يكونوا مكتنزين شحماً » .

وتضاربت المشاعر عند أورسلى : فمن جهة ازدراؤه كإيطالى لسائر الشعوب ، ومن جهة أخرى اعتقاده الشخصى بأن إيطاليا قد خلفت عصرها المجيد وراءها . فقال : « إننا إذا دخلنا الحرب فسوف نخسرُ ، مع هيبتنا وأرضنا ، المؤسسة الوحيدة التى انتشلت العالم من البربرية » .

— « وما هى ؟ »

فاندفع أورسلى يقول بالإيطالية : « هى فكرة الرجل الأوحد . الرجل الأوحد المجيد ، هذه الخليقة التى رأت النور فى فلورنسه فى القرن الثالث عشر . الرجل

الغنى . مشيد المدن . والشاعر المتعطش إلى الشهرة . الرجل قاهر الفردوس . والمتغنى بجمال هذه الدنيا . صُنع المثال فى إيطاليا . أما أصله فانبعث من مدينتى مسقط رأسى ثم انتشر شمالا . ولم يزدهر هذا الرجل فى أى مكان آخر من العالم ، ولم يكتمل ، ولم ينتشر ، مع أنه شخصية محدودة الزمان والمكان ، كما ازدهر فى إيطاليا » . ثم لاحت الكآبة فى صوت أورسلى : « كان الرجل الأوحد مجدنا ، واليوم أصبح فجيعتنا . ما أكثر الرجال العظام فى إيطاليا . عصفت الأحزاب وتضاربت الآراء حتى لم يعد صوت واضح يسمع » .

أجاب ستيفن : « أوافقك فى الرجل الأوحد . لقد كان قبلا ، ولكنه ليس موجوداً الآن . ربما يعود ثانية . وإذا ما ظهر ، فسوف تكون ممتلكاته وأسلحته من غير هذه الدنيا » .

— « برهن على ذلك » . كان أورسلى يرمى إلى إعجاز ستيفن .

— « إليك مثلا يواكيم پتشى وهو البابا لاون الثالث عشر . عندما فقد البابا ممتلكاته سنة ١٨٧٠ ظن الكثيرون أن البابوية قد زالت . لكن لاون قد أحياها . ولا جيش له سوى حرسه الشرفى برماحهم الطويلة . وكانت روح لاون المعنوية شيئاً جديداً لم يعهده العالم . ولقد برهن برسالاته الجامعة أنه إذا ما ظهر رجل قوىّ نزيه فجميع القوى الأخر سوف تتحطم تحت وطأته . وأوضح پتشى أن . . . »

* * *

وإذا بضابط يتقدّم ويؤدّى التحية : « أسف لمقاطعتك ، يا سيدى . إن برج المراقبة يعلن عن وجود طراد بريطانى أمامنا . ولقد أشار إلينا بالرموز العالمية بأن نتوقف حالا » .

فى لحظة كان الربان جيتانو أورسلى على قدميه ، فأمسك بمنظاره وتأكد من رسالة مساعده : « ها هى ذى بريطانيا . انظر كيف تشق مياه جلالته . أيها الضابط ، قل للقيادة أن تخفف من السرعة » . واستدار أورسلى نحو ستيفن وقال : « إنها الفرصة للظهور بأبهى الحلل . كلا . لا تنسحب يا أبى . ربما أصبحت فى حاجة إلى تلك العزيمة التى ذكرتها لى الآن عن البابا لاون الثالث عشر . إليك هذا المنظار وشاهد ما يجرى حتى أرتدى ثيابى » .

صوّب ستيفن المنظار نحو القطعة الحربية المتقدمة بسرعة نحو الڤيزوڤيو ، فظهر له هيكلها الأغبر وبرجها الفولاذى العظيم ، مرتفعاً وسط تحصيناتها المنيعة .

ارتاب ستيفن وهو يتطلع إلى المدافع الطويلة الدائرة حول أبراجها فيما عسى أن يكون حظ « الرجل الأوحد » ، فى حين كان أورسلى مشغولاً بتعطير إبطيه .

وصاح الربان فى خادمه : « أعطنى بذلتى البيضاء وأخرج حذائى اللندنى . علينا بالذوق والدقة فى هذه المقابلة . فالإنجليزى لا يتساهل فى الرسميات . وسوف نقدم له من الشكليات ما يشبعه وأكثر » . واندفع نحو الهاتف وطلب البرج : « أنزلوا سلم المرشد واستقبلوا زائرينا بكل احترام » .

رأى ستيفن الطراد الإنجليزى « تريتون » وعلى ظهره حشود من الرجال ، ينساب نحو الڤيزوڤيو . وأنزل القارب ، واتخذ ثمانية من الملاحين أماكنهم فيه ، ووقف ضابطان فى المؤخرة . وتمايلت المجاذيف فى حركة واحدة موزونة ، وضربت الماء ، واتجه القارب نحو الڤيزوڤيو .

أقبل الربان أورسلى — والقارب على بعد نحو مئة متر — مرتدياً بذلة إنجليزية بهية من كتان أبيض ، وبين شفتيه سيجار إنجليزى ، وفى بنصره اليمنى لؤلؤة تشع نوراً . وقال فى هدوء لستيفن :

— « إنى أعلم ما يريدون . تعال ، يا أبى ، وراقبنى كيف أقابلهم على أرسخ أرض فى العالم ، على متن باخرتى » .

وسأله ستيفن : « ألا تفضل استقبالهم دون وجودى ؟ »

— « على العكس . ألا تقدر أنت وجود شاهد أمريكى على ما عسى أن يكون حادثاً عالمياً . وإذا خانتنى إنجليزيتى — وانفرجت أسارير أورسلى عن ابتسامة عريضة — فقد أدعوك لتقوم بالترجمة » .

عند سلم الڤيزوڤيو تقبل الربان تحية فريق من الضباط الطليان . « راحة ، أيها السادة . وأعدوا رجلا ليختزل المحادثة » . وتذوق أورسلى سيجاره وهو يجول على ظهر الباخرة كمدير فرقة موسيقية فى أثناء فترة الاستراحة ، فى تمثيلية مرحة .

فى أعلى السلم ظهر الضابط الإنجليزى ، أنيقُ الملبس ، دقيق القوام جليله . ودلت الشرط الثلاثة على كم بذلته على أنه قائد فى البحرية الملكية البريطانية .

أما قبعته المقوقعة فهى ميزة كل بحار عريق فى الأسفار ؛ وخطوته الثابتة ، خطوة رجل قوىّ فى الثلاثين من عمره . وقد ثقلت عيناه تعباً من قيامه بحراسة مضنية فى المحيط طوال الأسابيع الثلاثة الأخيرة . وتبعه ضابط بحار خشن وقح ، ولاح خلفهما الرمح الخفى المثلث السنان ، شعار القوّة البحرّية البريطانية .

رفع الإنجليزى إصبعين إلى قبعته وقال : « القائد راميلى ، من بحرية جلالته» . قالها بأنفه كمن يرمى بقطعه ذهبية على رخامة بائع للسيجار : « إن الربان " نسبيت " قد رغب إلىّ بشكركم على استجابتكم السريعة لإشارتنا . ونأسف لما نكون قد سببناه لكم من إزعاج » .

— « لا شيء من هذا ، يا سيدى القائد . وأرجوك عند قيامك بتقديم تحياتنا إلى الرّبان نسبيت أن تؤكد له أن قلب كل بحار على الڤيزوڤيو ينبض سعادة بالشرف الكبير الذى منحته بحرية جلالته لباخرتنا . . . ألك فى سيجار ، ياسيدى القائد ؟ »

ألقى الإنجليزى نظرة إلى خاتم السيجار وصنعه ثم تمتم : « أشكرك . لا » . فوضع الربان أورسلى علبة سيجاره الذهبية فى جيبه وانتظر حتّى تعرفه البحرية البريطانية مرادها من وجودها على الڤيزوڤيو .

أحرجت خطة السكوت هذه القائد راميلى فقد توقع موقفاً تحتدم فيه المناقشة . وبينما هو محدق ببصره فى ركن من الباخرة كمن يرجو العثور على حفنة من التّراب مهملة ، لم يكف أورسلى عن تذوق سيجاره الهاڤانا فى صمت .

ففطن ستيفن إلى لعبة الموهل القديمة ورجحت نوعاً كفة تكهناته بمقدرة الرجل الأوحد .

ثم تقدم أورسلى نحو حاجز السفينة وفى حركة واسعة مسرحية نفض رماد سيجاره فى المحيط . وحينئذ فقط تكلم الإنجليزىّ ، سارداً كلامه بصوت ضعيف متثاقل .

— « يوجد بين رجالك عامل يتجوّل باسم " ماتيو سلڤوتشى " . فالرجاء ياسيدى الربان أن تتكرّم وتدعوه إلى ههنا بأوراقه » .

فسأله أورسلى : « وعلى أى أساس تتقدم بطلبك ؟ »

من الواضح أن الإنجليزى كان إما تعباً أو صبوراً . فأغمض عينيه وقال : « سيتضح لك ذلك بعد معاينتى » .

وقدر الربان أورسلى الموقف بسرعة ، وأصدر أمره : « أحضروا سلڤوتشى إلى ههنا » .

كانت مدافع التريتون تعلو وتهبط رهيبة مع الأمواج . ومثل ماتيو سلڤوتشى أمامهم . كان من قمة رأسه الأصلع الذى ما زال يمسح عنه الفحم والشحم بكرة من نفاية القطن ، حتى أخمص قدميه القذرتين وحذائه الممزّق وقد نفرت منه أصابعه السوداء — كان مثلا حيًّا لعامل الفحم الإيطالى فى المناجم ، زائغ البصر ، أحمر العينين ، مبللا بالعرق ، لم يألف قط نور الشمس بل ما كان ليعرف ما هو !

فسأله أورسلى بالإيطالية : « أأنت ماتيو سلڤوتشى ؟ » فأومأ الرجل برأسه وقدّم إلى ربانه بطاقة شخصيته . فألقى عليها أورسلى نظرة سريعة ثم قدّمها إلى الإنجليزى.

قلب القائد راميلى صفحات البطاقة وكأنه حاكم رومانى يتهم ويقضى معاً فى أمور من هم أدنى منه شأناً وبلغة لا يفقهونها .

— « أين ولدت ، يا سلڤوتشى ؟ »

— « فى ناپولى »

تبين أن نائب جلالته الإمبراطورية لم يسمع قط بهذا المكان . فأخرج من حقيبة كانت فى يد الضابط مساعده صورة شمسية وعرضها كوثيقة أولى . ثم سرد كلامه كمألوف عادته . قال :

— « هذه الصورة أخذت فى هامبورج منذ ستة أشهر . إنها صورة لرجل ألمانىّ يدعى " رُودلف كتسبوم " . أتنكر أن هذه صورة منك ؟ »

ما كاد أورسلى يترجم سؤال الإنجليزى حتى اندفع لسان الرجل بالإيطالية كالسيل . فقال أورسلى :

— « إنه ينكر ذلك . إنه ينكره بلهجة ناپولية صميمة ، لا أثر فيها للهجة ألمانية. ومع ذلك ، فهل لى أن أنبه سيادتكم أن الشبه بين هذا الرجل والصورة التى بين أيديكم غيرُ ثابت قطعاً » .

— « إن الأميرالية البريطانية هى الحكم فى هذا » .

وإذ سُمعت الاعتراضات وثبت البرهان فلا بد من إصدار الحكم .

— « أسف أيها الربان ، لكن علىّ أن أقتاد رجلك إلى لندن لمتابعة التحقيق معه » .

حينئذ قذف جيتانو أورسلى عقب سيجاره فى الأطلسى وكاد أن يلمس أنف القائد راميلى . ولاحظ ستيفن تراجع الإنجليزى. كما انتفخت الشرايين غيظاً فى عنق مساعده . وقال أورسلى :

— « وأنا أيضاً أسف ، أيها القائد. فإنى لا أستطيع السماح لك باقتياد هذا الرجل من باخرتى » .

فأردف راميلى ببرود : « لا اختيار لك فى هذا ، أيها الربان » .

— « كيف لا ؟ » ورّن صوت الإيطالى هزءاً : « إن لدى احتمالات كثيرة . فيمكننى أولا إعلان السكوت دقيقة ، نستطيع فيها بوضوح سماع مساعدك يتحشرج غيظاً . ويمكننى أيضاً مرافقتك حتى قاربك ، ثم متابعة سيرى » .

فأوضح له القائد راميلى أن الاحتمال الأخير قد يسبب ألماً لجميع من يهمهم الأمر ، وحوّل بصره قليلا نحو الطراد البريطانى تثبيتاً لملاحظاته .

قال أورسلى : « إنى أعلم تماماً أن طراداً كالتريتون يحمل اثنى عشر مدفعاً قطر تسع بوصات ، وعشرة مدافع قطر ست بوصات ، وأن قذيفة واحدة فقط تستطيع قصف الدفة أو تفجير السخانات . لكن لنجعل العقل رائدنا فى الحديث ، أيها القائد . فليس لضابط فى البحرية البريطانية أن يجهل ما يدور فى العالم من أحداث فى هذا الوقت » .

ورنت فى صوت أورسلى نغمة من الشفقة لهذه الفريسة الناعمة المتأرجحة على صنارة الجهل .

— « إنك ربما تقدّر ، ياسيدى راميلى ، أنه بينما نحن هنا نتبادل المزاح ، تسعى السياسة البريطانية — كيف تصفها — لاهثة إلى كسب إيطاليا لتكون بجانبها فى هذه الحرب الشؤمى . وماذا يكون رأى رئيس وزرائكم الأفخم السيد أسكويث أو شيخكم الأكرم اللورد جراى ، فى سطرين من جريدة " الزمان "

اللندنية : " قطعة حربية بريطانية تقذف بالقنابل باخرة إيطالية "» . وداعب أورسلى لحيته بوقار . « وكيف — إنى أترك لك تقدير ذلك ، يا سيدى القائد — كيف يكون وقعُ مثل هذا العنوان فى الجرائد الإيطالية ؟ فيجب مراعاة تلك المشاكل السياسية ، أليس كذلك ؟ »

فكر ستيفن فى نفسه : « ليت كورنيليوس ديجان هنا » .

وحول الإنجليزى مجرى الحديث ، قال : « إن نظرياتك السياسية ظريفة جداً ، أيها الربان ، إنما الواقع هو أن التريتون لديه أوامر من الأميرالية باقتياد هذا الرجل . والأوامر يجب تنفيذها » .

والتقت عينا نلسون بعينى لورنزو . وابتسم لورنزو . وقال أورسلى :

— « لكن هل يجب ذلك ؟ إنى أذكّرك، يا سيدى القائد، أن أميراليتكم قد أسست أمرها على مقدمة . ونصت هذه المقدمة على أنه ما من أمر تصدره البحرية الملكية البريطانية يمكن مخالفته . إنها قصة قديمة . فقد نجحت دائماً فى الماضى حقوق الإنجليز فى التفتيش ، وحقوق الإنجليز فى القبض ، وحقوقهم بالهجوم على من شاؤوا فى أعالى البحار . وأظن أن الأوامر قد صدرت إليكم الآن على اعتقاد أنها قد تنجح مرّة أخرى » .

وتسابقت الكلمات على شفتى الطليانى بعزّة وازدراء لم يُعهد بها منذ ستة قرون : « أما الآن ، فأنا جيتانو أورسلى الفلورنسى أخالف هذا الأمر . أقاومه سياسيًّا وأدبيًّا . فالتمويه الإنجليزى قد زال عهده . والحل الوحيد الذى لديك الآن ، يا سيدى القائد ، هو أن تبرق إلى أميراليتكم بأن جيتانو أورسلى ، ربان الباخرة المحايدة ڤيزوڤيو ، يرفض تسليم أحد من فحاميه » . وخفض أورسلى من صوته وأسر للقائد : « إنى أتكهن أنه سوف يأتيك هذا الرد : " دعوا الڤيزوڤيو يتابع سيره بأمان " ، وسيكون هذا الرد ممهوراً بإمضاء " تشرشل" . . » .

وأيقن القائد راميلى حالا ضرورة الرجوع إلى رؤسائه فقال : « يجب أن أبلغ موقفك إلى الربان نسبيت . انتظرحتى تأتيك أوامر أخر » .

فأجاب أورسلى : « كلا ، فحالما أصحبك إلى السلم ، سوف يواصل الڤيزوڤيو سرعته . وفى إمكان التريتون ، إذا رغب ، أن يتبعنا باحترام عن بعد إلى أن تأمره

الأميرالية بالعودة . أما الآن ، يا سيدى القائد — وأخرج أورسلى علبة سيجار مرصعة باللآلىء — فهل تتكرم بتقديم هذه إلى الربان نسبيت كعربون لتقديرى . إنها ليست فى ذاتها ثمينة القدر ولكنها تحتوى على نصف دستة من سيجاركم الفاخر ، صُنع لندن » .

كان على الضابط الإنجليزى أن يراعى العادات الرياضية التقليدية ، وكاد أن يوفق فى هذا إذ قال : « أظن أن الربان نسبيت سوف يسر بهديتكم أكثر من تقريرى » . ثم حيا واستدار ليذهب ، وهو يقول : « وهل لى ، يا سيدى الربان ، أن أضيف ، خصوصاً فى صالح مساعدى ، أنه لو قدر لى أن أكون قائداً للتريتون ، لشطرت سفينتك شطرين إلى ألفين من اليردات بكمية من الحديد كافية لإقناعك » .

فقهقه أورسلى وقال : « الشباب ، الشباب ! تهور الشباب ! عندما يسمح لك سنك بقيادة طراد ، يا مستر راميلى ، ستكون أكثر اتزاناً فى حكمك » .

ثم انحنى للإنجليزى على السلم . واستدار نحو ضابط القيادة وأصدر إليه الأمر : « زدْ من سرعة الباخرة » .

فاندفع الضباط نحو ربانهم أورسلى متصايحين بالنصر . وتزاحموا حوله ، واحتضنوه ، وقبلوه على خديه وعنقه دون حياء أو خشية . وكانوا يصرخون : « عاش ، عاش أورسلى ، عاشت إيطاليا . عاش الفيزوفيو » .

« عاش الرجل الأوحد » فكر ستيفن ، ثم تقدم أخيراً وشد على يد أورسلى . « لقد كنت عظيما ! ما هذا الاستعراض ؟ إنها أظرف مداعبة سياسية رأيتها . لم يكن الإنجليزى ليعرف قط ما حدث لمدافعه . لقد تبخرت » . وضغط على يد الربان إعجاباً وهو يقول : « كيف فعلت هذا ؟ »

وضحك أورسلى وأجاب : « يمكنك القول إنى حصرت الإنجليزى فى سياسته بين الهواء والماء . لقد أسعدنى الحظ فى الحصول على المعلومات الضرورية فى الوقت المناسب . ولئن تراقصت البحرية البريطانية بأجمعها أمامى حول التريتون ، فمدافعها أضعف من أن تقاوم الأحداث العالمية الجارية » .

فأضاف ستيفن : « لا ، بل أكثر من ذلك . لقد تغلبت عليه فى السياسة طبعاً ، لكن مقدرتك ظهرت فى شىء آخر . ظهرت فى شجاعتك الأدبية

وإيمانك بالرجل الأوحد » .

وأردف أورسلى بقوله ، متواضعاً على غير عادة : « أغريب هذا فى رجل إيطالى ؟ أنسيت خطبتك عن يواكيم پتشى والأعمال العجيبة التى قام بها بجفنة من حرسه ؟ ألم تقل منذ برهة أن ليس كل سلاح ماديًّا . حسناً — وتطاير الضحك من شدقيه الواسعين — فبعد هذه المقابلة الوجيزة مع الإنجليزى بدأت أعتقد شخصيًّا بما تقول . هلم نتمشى قليلا » .

تقدما معاً نحو مقصورة أورسلى ، ومن تحت المظلة راقبا برج التريتون يتمايل فى الأفق . ثم أخرج أورسلى ساعته وانتظر عشرين دقيقة تماماً قبل أن يتكلم ، ثم قال :

— « نحن الآن بعيدون عن متناول مدافع الإنجليزى ، ومنذ ستة قرون لم يُتحْ لفلورنسى واحد أن يتذوق السعادة كما أتذوّقها أنا الآن » .

بينما كان الربان يتكلم ، لمح ستيفن فى الطابق الأسفل رجلا وامرأة يسيران يداً بيد . كانت المرأة « إيرنا ثاركلند » ، والرجل المنحنى نحوها مستلطفاً مدير المصرف الإنجليزى . وبرز قوام المغنية كاملا فى ردائها البحرى الأزرق ، ووضح لون بشرتها البيضاء وشعرها الذهبى ، وزادتها المسحوقات حيوية وجمالا . ولسبب لم يستطع ستيفن أن يعلله ود ألا يلاحظ أورسلى هذا الزوج .

أما أورسلى فلم يفته ذلك ، وتتبعهما بنظره طويلا . ثم اهتزت كتفاه استخفافاً ومالت لحيته المتشعبة على صدره كالإشارة معلنة نهاية السبق . وقال بحدة : « ما من أحد يأمن أبداً بعاده عن متناول المدافع الإنجليزية » .

* * *

فى الليلة الأخيرة من السفر ، والڤيزوڤيو على مرأى من منارة مينوت دق أورسلى باب غرفة ستيفن .

— « أتيت أودّعك ، يا أبى . فغداً صباحاً سيحصل ازدحام وضوضاء من تلاق وافتراق . ولا شك أن أسرتك ستكون فى انتظارك على الرصيف » .

— « أترقّب ذلك ، أيها الربان » .

— « هل سترافقهم إلى البيت ؟ »

— « كلا . فلدى أوامر بالمثول حالا أمام مكتب الأبرشية ، وهو القيادة العامة كما تعلم . وهناك سوف أتسلم التفويض ، وهو بمثابة إذن كنسى يخوّل لى الحق فى القيام بمهام وظيفتى . وبعد ذلك ، إذا سعدت حظاً ، فسأعين فى إحدى الكنائس حول بوسطن » .

ربّت الربان بيده على كتف ستيفن وقال : « محظوظة الكنيسة التى ستعمل فيها . ثم هل لى أن أتكهن بأنك سوف تتقدّم صعداً فى الدرجات» .

— « ليس لى رغبة فى ذلك ألبتة . وطموحى الوحيد أن أصبح كاهناً صالحاً » .

— « سوف تكون ذلك طبعاً . إنما سوف تتقدّم إلى أعلى . أوتدرى لماذا ؟ »

— « لماذا ؟ »

— « لأنك لا تخاف من الدنيا . لست أقصد أنك دنيوىّ . كلا ، بعيداً عنك ذلك . لكنك تملك هذه الميزة بجعل نفسك كل شىء للكل . وإذا أمكننى القول فإنى أقرّر أن هذه الميزة نادرة بين الأمريكيين . لقد راقبتك وأنت تعالج الحديث مع صديقك ديجان . ولا أخفى عنك شعورى لعطفك بى — قالها أورسلى وكأنه تلميذ خجل — فى حادث المغنية الشقراء . تقول : سخافة . ربما . لكن ذلك كله ينبئ بإنسانية جمة سوف تستغلها الكنيسة فى أوسع قدر » .

ثم أغمد أورسلى أصابعه فى جيب صغير خفىّ من صدرته ، وأخرج خاتماً ذهبياً ، وأمسك به بين إبهامه وسبابته ، وقال : « إنها عادة شرقية عريقة عندنا فى توسكانيا أن نقدّم هدية قيمة لكل صديق عزيز نفارقه. فهل لى الشرف أن تتفضل بقبول هذا الخاتم عربوناً لذكرانا ؟ »

فحص ستيفن الهدية الثمينة . حجر جمشت مستطيل مغروس بين اللآلئ فى ذهب خالص . فبادره الشعور فى وجوب رفض مثل هذه الهدية .

— « إنه لخاتم رائع ، أيها الربان . وأقدر تماماً شعور من يلبسه . لكن كيف يمكننى قبوله ؟ فى أمريكا . لا يجوز أبداً لكاهن رعية أن يلبس خاتماً كهذا » .

فأجاب أورسلى : « ليس هذا خاتم كاهن — إنه خاتم أسقف » . وأطبق يد ستيفن على اللؤلؤة : « احتفظ به يا بنىّ . ضعه جانباً . انسه الآن . لكن أخيراً إذا ما لبسته ، فاذكر فى صلاتك من أعطاك إياه ، ذاك الرجلّ الفلورنسى

الشرير المتهجم على الدين » .

فقال ستيفن بابتسام : « قد بدأت الصلاة من أجله منذ أسبوع » .

ثم سُمع صوت صفير طويل . « قد صعد المرشد » ، قال أورسلى هذا وضغط على يد ستيفن : « سوف لا يعود الڤيزوڤيو إلى بوسطن مرة أخرى لوقت طويل ، لكن إذا عاد . . . فتذكر يا أبى أننا جُعلنا لنلتقى ثانية . إلى اللقاء ! »

— « إلى اللقاء ، وعلى بركة الله ! »

بعد منتصف الليل توقفت آلات الڤيزوڤيو عن الحركة وأقبلت الزوارق البخارية على نداء صفيره الأجش لتجرّه إلى الميناء . وعند الفجرلم تزل الزوارق تعمل جاهدة فى جرّ الباخرة الضخمة إلى مكانها على رصيف الكمنويلث . كان ستيفن يحلق ذقنه عندما شعر بصدمة خفيفة . قد لمست السفينة أراضى أمريكا . إنه الآن فى وطنه .

فى هذا الصباح المشرق من أبريل نزل ستيفن من الباخرة بصحبة ديجان ، ولمح والديه يلوّحان له بأيديهما من بين الجمع المحتشد على الرصيف . بلل الدمعُ عينيه لما ضغط دونيس فرمويل على خدّه بشاربه المقنفذ . وامتزجت دموعه بدموع « سيليا فرمويل » لما رفعت يديها وطوقت بهما عنق ابنها الكاهن . وصاحت فتاة ناعمة ، سوداء الشعر : « أنا مونيكا » . لم يصدق ستيفن أن هذه هى أخته التى كان قد تركها صغيرة يتدلى شعرها على كتفها . أما برنارد وفلورى فقد جراه وتعلقا به ، والمناديل مبللة فى أيديهما .

كم من حبّ وكم من عطف فى عالمنا ! وما ألذ الشعور بذلك ! نسى ستيفن فرمويل بضع ساعات أنه كاهن مكرّس ، وأصبح ابناً وأخاً بشراً ، مفيضاً الحب لأهله ، ومحبوباً منهم بالمثل .

الجزء الأوّل

الكاهن

الفصل الأوّل

ما هذه العربة الزرقاء ، المقوقسة ، المخلعة المتمايلة فى سيرها التى ألف ركوبها الجديع فى سهول النهر الغامض (مستيك) ، بين بوسطن ومدفورد ؛ فى أوائل هذا القرن ؟

إنها دون شك عربة الترام رقم ٣ ، هذا العامل البائس الكادح على أربع عجلات ، الذى نقل نحو ستة ملايين راكب ، بخمسة سنتات عن كل فرد ، نقلهم صباحاً إلى أعمالهم فى مكاتب كجحور الأرانب ، ومساء إلى الضواحى فى مآوٍ اكتظت بساكنيها كالفئران . لقد براه هذا الجهد المتواصل . ربما كان الترام رقم ٣ أحدوثة زمانه فى شبابه ، لكنه فى سنة ١٩١٥ ، أضحى هيكلا مخلعًا متداعياً ، لا أمل فى ربط فرامله المنهارة أو إصلاح آلاته المتآكلة ، ولا يزال يشكل خطراً مستمرًّا فى مفاتيحه الكهربية إذا كان الصباح بارداً أو ما بعد الظهر حارًّا . أما كيف قدر لهذا الترام أن يتحرك أو يقف أو يقوم ثانية فهو سرّ مغلق على العمال العاملين فى مخازن مدفورد حيث يأوى الترام رقم ٣ كل ليلة إلى مكانه كحصان منهوك القوى يستعيد أنفاسه لليوم المقبل .

ويقول « برتولوميو جلين » (أو باتى) ، رئيس المستودع والفيلسوف معاً ، إن الترام رقم ٣ كان يحتفظ بتوازنه بقوة إيمان قائده فقط ، « دونيس فرمويل » . وهذه كلمات باتى نفسه : « هنا العقل يخوننا . فالأجدر بعربة دونيس أن توضع فى متحف . إنما الإيمان يفوق العقل . إذن فالترام رقم ٣ يسير إما بقوة إيمان دونيس وإما — وكان باتى دائماً يضيف هذه الكلمات بخفة وخبث — بمفعول أعماله الصالحة ، أكثر مما يسير بقوة العقل » .

لم تكن تلك البراهين التى ما زالت الألسن تلوكها لتقنع دونيس فرمويل . فقد كان رأيه معروفاً تماماً بشأن الترام رقم ٣ . كان شاربه المقنفذ ينتفض كالأنياب

إذا ما قيل له إن الترام رقم ٣ سوف يرمى به بعيداً ويؤتى إليه بآخر جديد ، قوى ذى ست عشرة عجلة وفرامل تضغط بالهواء كما هو من حقه بسبب أولويته . ثم إن ما حمل النظار على التساهل وعمال المصانع على الصمت هو احترامهم له أو ربما خوفهم من انتفاض شاربه. والركاب المعذبون الذين كانوا يتعلقون بمساند الترام الجلدية المدلاة المفككة لم يجرُؤوا هم أيضاً على أن يعربوا عن أملهم فى أن يروا يوماً هذا الترام مُهملا أو مفككاً أو طعماً للصَدإ .

فى مساء دافئ من أواخر أبريل كان الترام رقم ٣ يتقدم متثاقلا بسرعة تسعة أميال فى الساعة — وهى سرعته القصوى — نحو مستودعات مدفورد ، يقوده دن فرمويل ومعه المحصل « مارتى تيمنس » فى المؤخرة . وانعطف الترام فى شارع « الهضبة العالية » (هايلند) وعجلاته تصر صريراً مزعجاً ، ثم انحدر رويداً نحو الضواحى إلى مقرّه .

وعندما مرّ الترام أمام باب كنيسة « الحبل بلا دنس » رفع دونيس يده عن الفرامل ونزع قبعته عن رأسه . لم يكتف بلمس قبعته فى حركة آلية كما قد يُظنّ ، بل كشف رأسه احتراماً وسجوداً للكائن — ولم يكن فى استطاعة دونيس فرمويل أن يفسّر كيفية وجوده — فى بيت القربان على المذبح الكبير فى الكنيسة . فى ذلك اليوم قام دونيس بفعل السجود هذا اثنتى عشرة مرة : ست مرات فى طريقه إلى بوسطن ، وست مرات أخر فى عودته إلى المستودع . البارحة ، وقبل البارحة كشف أيضا رأسه اثنتى عشرة مرة . ولمدة خمس وعشرين سنة ، أى منذ إنشاء خطوط الترام ، لم يكف عن نزع قبعته عن رأسه كلما مرّ أمام باب الكنيسة . ولو أن العروق المتعقدة فى قدمه اليمنى لم تؤلمه حتى الموت ، لظل الأمل يراوده فى تكرار فعل احترامه وسجوده هذا لمدة خمس وعشرين سنة أخرى . أو أقله خمس عشرة سنة . وحينئذ سيتحصل لديه فى الخدمة ثمانية شرط على كمّ ردائه . حياة واحدة وعمل واحد ! . . .

عند رفع دونيس قبعته اعتاد أن يضيف دائماً صلاة صغيرة . وكانت هذه مفضّلة عنده : « مباركة العائلة المقدسة » لكنه كان ينوّعها كلما اقتضت ظروف نفسه أو جسمه . فإذا آلمته العروق فى قدمه . كما هى الآن ، كان يهمس قائلا :

« مباركة جراحات يسوع » . وإذا التهب حلقه ، كما هى عادته قرب المساء ، كان يتضرع قائلا : « مبارك عطشه المقدس » . كل هذا فى ثوان معدودات تتبعها راحة واطمئنان فى النفس لا يعتم أن يعبر عنهما بالغناء ، فى نشوة وطرب .

واندفع دونيس بصوته الجهورى الأجش يترنم بالمقطع الأول من « عروس أورورك المزيفة » ، أغنية حفظها منذ صباه فى كورك بإرلندا . وعلت شفاه الركاب المتعبين ابتسامة وهم يستمعون إلى النغمة السلتية تعلو على قرقعة العجل ، ويتغامزون فيما بينهم: بخبث كمن يتهيبون المثول أمام رجل رجل . . و « جريسى مكناب » نفسه مفتش الشركة السرى ، الذى كان يتحرق إلى ضبط مارتى تيمنس وهو يختلس القروش من ثقب الصندوق ، كان يتغامز معهم أيضاً ويبتسم . لم يشك قط فى أن مارتى يختلس قروشاً عديدة ، مما جعله يتميز غيظاً لمهارة المحصل المحنك فى إخفاء اختلاساته . لكن عذوبة تأثير أغنية دن فرمويل خففت من شدة حقده ، وطارت به إلى حقول وادى كونوت ، وجعلته يتغامز مع هذا الذى يحاول أن يضبطه .

وفكر جريسى فى نفسه قائلا : « لا يجيد هذا العمل سوى بروتستنتى متعصب » . وكف عن التغامز .

فى منتصف الأغنية ، نقل دونيس فرمويل كل ثقله ، مئة وتسعين رطلا ، على ساقه اليسرى الصحيحة ، ونقر خفيفاً بقدمه اليمنى على الجرس فى الأرضية . وسير الترام بين الخطوط المتشعبة إلى أمام المخزن . أتقن دن فن وقف الترام دون هزة ، ولم يكن أحد ليتنبه إلى هذه العملية الفنية سوى مارتى ودونيس وحدهما . وتدفق من تبقى من الركاب مترجلين رويداً كالخيال المستطيل فى أشعة شمس المغيب .

جرسان من مارتى : دنج ، دنج . ثم تقدم الترام داخل المستودع الرطب الطويل ، وتمايل أمام القطار الضخم ذى الست عشرة عجلة ، وتوجه إلى مقره عند الزاوية . ونزع دونيس مفتاح القيادة وقد جلاه قفازه لكثرة الاحتكاك ، وأسقطه فى جيب بذلته الزرقاء ذات الأزرار النحاسية الصفراء . فى السابعة من صباح غد سوف يضع أيضاً المفتاح فى دائرته . وإلى أن يحين الصباح ، فلن يستطيع

أحد أن يحرّك الترام ، أو أن تساوره رغبة فى ذلك . كان الترام ، وإن بدا تافهاً فى ذاته ، ترامه الخاص .

تقدم دونيس فى الترام الفارغ حتى المؤخرة حيث كان مارتى تيمنس يراجع بعينين مُحمرتين أرقام العداد المثبت على الباب . بدا مارتى تيمنس ببذلته المقفعة عند الركب والمدلاة عند الجيوب شبيهاً بأولئك الناس الضعفاء ذوى القامة الوقصاء الذين يحلو للقضاة إدانتهم من النظرة الأولى . وقد تظن رقته ضعفاً ، وتواضُعه جبناً . أما ذقنه فمستطيل خشن ، ونقطة العرق لا تنفك تنحدر على أرنبة أنفه المحدودب . وقبل أن يلحق به دن ، كان مارتى قد دون الأرقام فى دفتره ، وأطبق على دفتيه قبضته .

— « هل كل شىء على ما يرام ، يا مارتى ؟ »

فحك المفتش طرف أنفه بظهر يده المتسخة وأومأ برأسه موافقاً . لقد نال منه انفراده أكثر مما أثر فيه صمته ؛ ولم تسعفه لغته للتعبير عما انتابه منذ سنة من ذهول وخمول وانزواء . وعند وفاة امرأته نورا بعد ولادتها ستة من الأطفال وطرحها ثلاثة آخرين ، كان مارتى لا يزال ينشد تعزيته فى هذا المصاب الفادح فى شيئين اثنين فقط : أولهما الويسكى وثانيهما دن وهو يربت على كتفه بيده الغليظة. والآن فيد دن على كتفه ؛ أما الويسكى فلوقت آخر .

لم يشر دن ، تلطفاً بمارتى ، إلى وجود جريسى مكناب فى الترام ، كما أنه لم يكن فى استطاعته نصحه الآن أو فى أىّ وقت آخر بالإقلاع عن المسكر . فضغطت الأصابع الغليظة على الكتف الهزيلة ، وربتت اليد المقشفة على الظهر المنحنى .

— « ليلتك سعيدة يا مارتى . وإلى بيتك رأساً » .

— « ليلتك سعيدة ، يادن. إنى ذاهب » .

إن الأميال التى قطعها هذان الزميلان فى الترام رقم ٣ تكفى لتحوّط الأرض عشر مرات بإطار .

وقف دونيس فرمويل عند بوابة المستودع أمام شباك صغير ، واحتك شاربه بقضبان الحديد ، وقال : « هل عندك شىء لى ، يا أنجوس ؟ »

فتش الرجل فى علبة ملأى بالظروف وأبرز واحداً من الطاقة . فأخذه دن ولمس ما فيه من أوراق نقدية وقطعة نصف الدولار . إنها أجرته الأسبوعية : سبعة وعشرون دولاراً وخمسة وستون سنتًا ، باعتبار أربعين سنتاً فى الساعة ، فى إحدى عشرة ساعة يوميًّا ، فى ستة أيام بالأسبوع ، مع علاوة قدرها خمسة وعشرون سنتاً عن كل شريط ذهبى على كم بذلته .

وضع دونيس الظرف فى جيبه وتوجه نحو الغرب فى أشعة الشمس الحمراء . كانت الساعة السادسة مساء . مشى يعرج على ساقه المتشنجة من الوقوف المستمر فى موضع واحد النهار كله ، وسار متثاقلا فى طريق جانبى وحل غير مرصوف ، تناثرت بالقرب منه منازل ذات ثلاثة أدوار وبعض قطع أرض فضاء . وأشاح بقبعته إلى الوراء وكشف عن جبهته ليجففها نسيم الربيع العليل . فظهرت على جبهته علامة عميقة حمراء خطتها جلدة قبعته . إنها علامة الخدمة الحقة وجرح حياته فى العمل .

وانتابه وخز أليم سرى من رسغ قدمه إلى وركه . فأسرع فى خطوته ، علّ الحركة تساعده على دوران الدم المختزن فى عروقه المتعقدة . سوف يهدأ الألم ، بل ربما يزول ، عندما يستلقى على كرسيه الهزاز ويرفع قدمه على كرسى آخر . وشجعه الأمل فى تحسن حالته ، فانعطف صُعداً فى طريق جانبى تدرج منه رويداً إلى شارع « مرج الغاب » (وودلون) . إن أعذب لحظة فى يومه تنتظره: زجاجة من الجعة المثلجة تقدمها له سيليا من الثلاجة فوراً عندما تسمع وقع خطواته على باب المنزل الخلفىّ ، وقطعة من سمك القدّ محشوة بكسر من الخبز الناشف تُحمر الآن على النار ، والمائدة البيضية الشكل ، ثم وجوه أولاده الذين وإن كبروا الآن فهم يستطيعون حسن التفاهم إذا ما شعروا بوجوده .

« مباركة العائلة المقدسة ! »

فى هذه الليلة سوف تُسمع موسيقى أدبية نادرة ، وستوضع الفوط البيض حول المائدة مع حقة من المخلل الطازج ، وسوف تلمع عينا سيليا ببريق من الفخر . فى هذه الليلة سيأتى ستيفن إلى العشاء : ستيفن الكاهن المكرّس الثابت فى مشيته ، الخطيب فى وقفته ، ستيفن بكر دونيس وسيليا فرمويل ، ستيفن ابن سائق الترام ،

الذى بز رفقاءه أربع سنين متوالية فى معهد « الصليب المقدس » . سيأتى ستيفن إذن فى هذه الليلة للمرة الأولى منذ عودته من معهد أمريكا الشمالية فى روما .

قد رأوه لحظة عند نزوله من الباخرة ، ولكنها نظرة خاطفة ذهب بها التأثر والاضطراب . أما الليلة فسوف يتذوق دن فى راحة ومهل جودة ابنه ، وربما يدخل معه فى مناقشة ويعجم علمه الرفيع بلذعات من عنده ، ولكنه يأمل مع ولعه الشديد بالمجادلة ألا يزهو ابنه كثيراً بالتماسك معه فى الجدال .

حمدَ دونيس الله فى قلبه عندما بلغ آخر منزل فى أعلى الطريق . كان المنزل رقم ٤٧ بشارع مرج الغاب ، مربعاً ، بنى اللون ، قبيح الواجهة ، مرتفعاً على دورين ، قد أوشك دن أن يقتنيه بعد أن عاش فيه نحواً من خمس وعشرين سنة . قشف نفسه وحرمها الكثير ليستطيع كل أسبوع إيداع دولار واحد فى مصرف « الإنشاء والتسليف » حتى تجمع لديه ألف وثمانى مئة دولار دفعها من أصل الثمن ، وتبقى عليه أيضاً دين قدره ألف ومئتا دولار . إنه لأسهل على جمل أن يدخل من ثقب الإبرة من أن يقتنى سائق ، أب لستة أولاد ، حقًّا خالصاً على بيت أصبح بالفعل ملكاً له .

وكعادة العمال ، دخل دن بيته من الباب الخلفى . وعرف من رائحة السمك المشوى والخبز المحمص بالقرفة ، والمقشات الرطبة المحفوظة فى الممرّ الخلفى — عرف أنه فى بيته . كانت سيليا أمام الموقد ، فبدرت منها نصف استدارة ، ونصف ابتسامة ، ونصف قبلة أرسلتها ترنّ فى الهواء نحو زوجها المنحنى أمامها . كانت سيليا فرمويل فى التاسعة والأربعين من عمرها ، مكتنزة ، بدينة ، مهملة تنسيق شعرها الأغبر ، ولكنها لم تزل مرحة نشيطة . قد كانت فى شبابها راقصة ماهرة لا تعرف التعب ، يُشهد لها فى المراقص الإرلندية العديدة . أما الآن وقد عرفت تماماً مركزها من رجلها وأولادها فهى امرأة متفائلة دون خوف من العالم .

مدّت سيليا يدها وانتظرت . فسحب دن ظرف النقود من جيبه ووضعه على كفها . فخبأته سيليا فى صدرها . وبدلا من أن تشكر زوجها شفاهاً ، قدمت له شيئاً أجمل كثيراً ألا وهو عنايتها به كزوجة .

— « لحظة ، يادن ، وسأقدم لك الجعة . دعنى أنظف لك الحوض أولا » .

كانت سيليا فرمويل تتقن الطبخ ولكنها لم تكن لتعير الترتيب اهتماماً كبيراً . اعتادت أن تترك مطبخها تتراكم فيه الحلل والمقالى والصحون والقنانىّ والحقق وبعض الثياب المعدّة للكىّ . فأفرغت فى الحوض مكاناً صغيراً وضعت فيه طشتاً تحت صنبور الماء الساخن ، وذرت فى الطشت حفنة من مسحوق الصابون الأصفر وأدات المنشفة إلى أسفل حتى يظهر منها الجزء الناشف النظيف .

— « هلم الآن ، يادن » .

ترنم دونيس فرمويل بهذه الكلمات : « أغسل يدى بالنقاوة » . ثم علق قبعته ومعطفه فى مكانهما المحدد وطوى كميه وغسل يديه ووجهه ، والماء يتطاير من حوله . ثم نزعت سيليا غطاء زجاجة الجعة ووضعتها على المائدة . لم تتعود قط سكب الجعة فى القدح كما يلذ لدن . فسكبها هو كما يروق له . وأخذ منها جرعة ثم مر بظهر يده على شاربه المندّى بفقاقيع رغوة الجعة ، وأمسك بصحيفة « العالم » .

بدأ يتتبع الأخبار كما يفعل قاضى الاستئناف فى قضية دقيقة . ثم صاح : « ما هذا ، ياسيليا ؟ تعالى انظرى » . وقرأ بصوت مرتفع العنوان الرئيسى :

« الإنجليز يتراجعون إلى موانئ بحر المانش »

— « إن ڤون فالكنهاين يسوق ”حمر الأعجاز“ أمامه مع ما معهم من فناجين الشاى وعلب المدفعية وكل شىء . إنه يسوقهم أمامه إلى داخل قناتهم نفسها . انتظرى وسوف ترين » .

ما زال دن يعتقد أن الجيش البريطانى هو مستعبد الإرلنديين ومضطهد ديانتهم ، وبيوتهم ، وأولادهم ، أما سيليا ، وقد ولدت فى بوسطن ، فلم تثرها كثيراً هذه العداوة المستحكمة بين « حمر الأعجاز » و « ثعالب الغوط » . فقد حصرت فكرها فى أشياء أخر مهمة تتطلب اهتمامها الآن ، ومن بينها الموقد الخلفى ، الذى لم تبرح تعالج مفاتيحه فى قلق كقلق مخرج الرواية ليلة افتتاح المسرح .

— « اقرأ لنفسك يادن فلا فرق بيننا ، لأنى فى نصف الساعة الباقى مشغولة فى تحضير عشاء ستيفن ، والموقد كما تعلم ضعيف الحرارة بسبب رداءة الفحم وانسداد المدخنة » .

تسرّبت إلى المطبخ نغمات پيانو يصحبها صوت رفيع ، فأرهف دن أذناً

ناقدة ، وقال مخاطباً نفسه : « لاشك أن برنى يلعب مسرحية جديدة . علىّ أن أسمع ذلك » . فجرّ قدمه حتى غرفة المائدة ، ومرّ وسط ستارة من الخرز تفصل المائدة عن البهو ، حيث جلس شاب بدين ، ذو شعر مفروق من الوسط وياقة عالية منشاة وسترة منكمشة من الخلف ، وحذاء عال من التيتل — جلس إلى پيانو كبير فى زاوية نافذة منخفضة . إنه برنارد ، ثانى أبناء دن ، مغن هَوٍ ؛ والحق يقال ، غيرُ مبدع فى غنائه .

جلس دن على معقد من الجلد وفى يده قدح الجعة وفى الأخرى جريدته ، واستمع كمن يحتفظ بحكمه النهائى ، إلى أن فرغ برنارد من مقطوعته مستقرّاً على جواب الراست .

— « جديد يا برنى ؟ »

فأحنى الشاب رأسه إيجابا وقال : « إنها أحدث أغنيات " شانسى أولكوت " : " إرلندة هى الجنة ، فأمىّ أتت منها " ودمدم بها . إنهم سوف يعجبون بها جدّاً فى " ملعب الديوك " . . »

— « ملعب الديوك ؟ أليس هذا هو المنزل الغريب فى شارع واشنطن ، يا برنى ؟ »

فصحح برنى : « إنه ملهى ، يا أبى . وليلة غد سوف أقوم بتجربتى هناك . وإذا سعدت حظّاً ، فسيؤهلنى ذلك إلى العمل أسبوعين بأجر قدره عشرون دولاراً فى الأسبوع » .

وشد برنى على صوته فى « إذا » . إنه برنى . ثم مد دن ساقه على مسند أمامه وقال : « كن الآن ولداً طيباً وغن لى أنشودة " عماد فنجارى " . . »

— « بكل سرور ، يا أبى » . إن برنى دائم المجاملة . نفض رأسه المعطر إلى الوراء وشرع يغنى قصة شعرية تسرد أطواراً غريبة لبعض أثرياء الإرلنديين فى حفلة عماد طفل عُرف باسم « الطفل الحلو دونيس » .

خانته ذاكرته فى المقطع الأول ، فاسترسل فى الثانى :

حضر الأعيانُ جميعهم إلى الحفلة
مكارثى الجرىء القوىّ الشديد

مع بريچيتا بيديليا فوجــارتى
الفرنسية ، كما تقول ، أصلا لا لفظاً .

أبعد دن قدح الجعة عن شفتيه ، وانضم إلى ابنه فى الغناء :

ثم توجهوا جميعاً إلى المائدة
حيث المضغ والقرض متوفر بكثرة
وشرب المدعوّون نخب الغبطة
من ويسكى وخمر وشاى وقهوة .

وإذا بالباب الأمامى ينفتح ويقطع عليهما انسجامهما الهادئ ، وتدخل امرأة شابة ثقيلة الردفين ، طويلة الذقن . تقدّمت فلورنس فرمويل إلى البهو وهى أشبه بامرأة شرطية مرتبكة الهندام ، لم تزل فى سن الخامسة والعشرين محدودة التفكير ، غريبة الأطوار ، بطيئة الحركة . كانت تعمل محاسبة فى مكتب لبيع السيارات ، بأجر كأجر والدها ، ولم يمض عليها ست سنوات . وبعد أشهر قليلة ستصبح العاملة الوحيدة ،التى يزيد مرتبها عن الباقين فى ٤٧ من شارع مرج الغاب .

– « ألم يأت ستيفن بعد ؟ أما من أحد يساعد ماما فى المطبخ ؟ وأين مُنى ؟ »

تتابعت الأسئلة على لسان فلورى كضربات المطرقة ، وهى تنزع دبابيس قبعتها وقد أظهرت امتعاضها من وجود الرجلين فى البهو لا عمل لهما سوى الغناء . كانت تظن أنْ ما من شىء يتم بدونها . والأجدر أن تدعى « المديرة » . هذه هى فلورنس .

فخاطب دن نفسه قائلا : « لا عجب أنها تصدّ الرجال » .

دارت فلورنس حول أخيها وهى تنظر إلى قدميه ، وقالت : « أرى أنك اشتريت حذاء من التيتل ، يا برنى . ما وراء ذلك ؟ قد أعطيتك الدولارات العشرة لتشترى حذاء متيناً وليس لمثل هذه الأناقة السخيفة » .

– « ما العمل ، يا فلورى ؟ ! كنت فى حاجة إلى شىء يناسب المقام عندما أقوم بتجربتى الليلة » .

ولكى يقطع المناقشة جرى بيده اليسرى على البيانو وغنى :

وبينما المرح شامل ، إذا بمايك كرونن

كرونن الجبار ، دون سلام أو كلام
ابتلع رطلا من هريسة الأكباد
أكباد إوز مطهية بدهنها الفوّاح

ومرّة أخرى قطعت عليهما فلورى نشوة الغناء بصوتها الآمر الناهى وهى تنادى أختها فى أعلى الدرج : « مُنى ، مُنى . أسرعى . انزلى وهيئى المائدة . لقد قُصم ظهر ماما وهى تعمل فى المطبخ . والأب ستيفن سيكون ههنا بين لحظة وأخرى . هلمى انزلى حالا وسريعاً » .

نزلت مونيكا : ربيع فى السادسة عشرة ، وجمال نحيف كالمرجان ، ووجه حلو كعرائس الأفراح تكسوه الآن غضبة الأطفال . قضت مونيكا ساعتين فى غسل شعرها وتجفيفه وتسريحه وتشبيكه بالدبابيس وتصفيفه حول رأسها كالكعكة فبدا فى سواده لامعاً براقاً . وترقبت أن يدفع عنها والدها مشاكسات فلورى بعد أن حرمتها التطلع إلى المرآة طويلا ، وهو العمل المفضّل عندها . ولكى تكسب جانبه . ، وضعت على خده قبلة ، وجلست كالقطة على يد كرسيه . فداعب ذقنها بسبابته كما لو كانت بعد طفلة .

أثار هذا المنظر غضب فلورى وكانت قد كتمت غيظها طويلا . أما الآن فقذفت أختها مُنى بما كانت تخفيه من مرارة .

— « ما هذا الذى أسمع عنك أنك كنت تتجوّلين الليلة الماضية حول خزان الماء ؟ كان المفروض أن تذهبى إلى جمعية الآنسات » .

لم تفلح منى فى تكتم الأمر ، واختفى الدم من وجنتيها : « مَن . . . من قال إنى كنت أتجول حول خزان الماء ؟ »

فسخرت منها فلورى قائلة : « ها ها ، إنها تجرؤ على السؤال . » .

فتدخل برنى : « بحق السماء ، يا فلورى ، كفى عن مشاكسة الطفلة » .

— « سوف أفعل إذا ما هى كفت عن الجولان فى الغابات مع آيكى رامپل ».

فاستدارت منى فى تحد : « ليس اسمه آيكى ، بل بانى » .

— « آيكى أو بانى ، أىّ فرق فى هذا ؟ ألا يوجد بين الشبان الكاثوليك من يُغنى عن تجوالك مع يهودى ” صبارصى “ ؟ »

انتفضت منى وقد برزت مخالبها : « ليس بانى بصبارصى إنه أنبل ولد فى المدرسة وسوف يتخرج طبيباً فى الأسنان » .

انقلب على منى ضعف دفاعها ، فكانت المدعية فلورى هى الرابحة . فانفرطت منى فى البكاء وهربت صاعدة إلى غرفتها .

ساء دن هذا الحادث المؤلم ورفع صوته مؤنباً . كان يستسيغ المناقشات الحادة فى السياسة ، ولكنه لم يكن ليتحمل مناقرة النساء .

— « كفّى عن هذه المنازعات ، أتفهمين يا فلورى ؟ إن أختك سوف تتجنبك إذا ما استمررت فى معاكستها » .

— « إنما ذلك لصالحها ، يا أبى » .

فغلى الغضب فى عينى دن . قد يجوز لفلورى أن تساهم بالقدر نفسه فى مصروف البيت ، ولكن دونيس لم يزل هو رب البيت . فأرعد بصوته : «دعينى وأمك نقرّ ر ما هو لخير أولادنا » . ثم هدأ من ثورته كما لو كان يعالج فرامل ترامه وقال : « يجب ألا يرانا ستيفن متشاجرين . اذهبى وبللى وجهك يا فلورى ، فتهدئى . وأنت يا برنى ، دق البيانو . »

— « دون شك ، يا أبى . أتحب سماع " كثير من المستردة " ؟ » .

— « أسمع أى شىء يزيل سوء التفاهم والمشاجرة فى هذا البيت » .

فضغط برنى على المفتاح السفلى بقوة ، وارتج البيانو بصوت ضخم تحت نقر أصابعه . وتغنى بالكلمات الأولى من « كثير من المستردة » (وهى لازمة دون تابع) واسترسل فى اللازمة :

لم أرعَ ابنى ليكون جنديا
بل ربيته لفخرى وفرحى
من يجرؤ على وضع سلاح فى يده
ليقتل به ابناً آخر عزيزاً على أمه . . .

وإذا صوت هادئ قد أتى من الممرّ الأمامى يقول : « أقوى ، أقوى ، يابرنى . إنهم لا يسمعونك فى المخازن . »

استدار برنى على مقعده ، وسقط « العالم » من يد دونيس . وصرخا بصوت

واحد : « ستيف » وتوجّها معاً نحو المدخل إلى الكاهن الشاب .

ظهر ستيفن نحيف القوام ، ثابت البنيان ، ضيق الردفين ، طويل الساقين ، عريض الكتفين ، خفيف الحركة مثل سيليا ، قويّ الشكيمة مثل دن . أما لونه فخاصّ به : شعر وحواجب وعيون سود على وجه أبيض ، وأنف دقيق كالنساك ، وجبين مكشوف . إن الشبه كبير بينه وبين أخيه برنى الجالس إلى البيانو . أما الآن فكل هذا قد اختفى فى فرحة اللقاء .

— « عاش القديس دونيس ! » قالها ستيفن بأعلى صوته ، وأخرج من جيبه علبه من التبغ : « هذا لغليونك القديم ، يا أبى » . فقد اعتاد ستيفن أن يقدّم هدايا صغيرة . ثم ناول برنى علبة من السجائر وهو يرمقه مبتسماً ومعجباً بسترته المنكمشة وحذائه التيتل :

— « برّاق ، يا برنى ، وبالخصوص حذاؤك . على كل حال ، ليس هذا من مستلزمات كاهن شاب مثلى . ولكن للمثول على المسرح . . . » وحاكى ستيفن بحذائه الأكسفوردى اللامع مشية الممثلين .

فردّ برنى بسرعة : « هو هذا بعينه ، فلكى تمثل على المسرح عليك ارتداء ما يلائم الموقف . الرسميات ! إن الحضور يترقبون ذلك » .

عند خروج سيليا من المطبخ ، أبصرت خلال ستارة الخرز ابنها البكر . فلم تقوَ على ضبط شعورها وانهمر الدمع من عينيها . وكما عوّدت نفسها على بعاد ستيفن ، عليها الآن أن تعوّد نفسها على وجوده فى البيت مرّة أخرى .

— « ستيڤى » ، شهقت سيليا وهى تبسط يديها فى حركة لا تجيدها إلا الأمهات . أما الآن فيداها أقصر من أن تطوله ، فتركت ستيفن يطوّقها بذراعيه .

— « عندى شىء لك يا أماه ! » وفتح علبة صغيرة فيها ذخيرة مطرزة : « هذه الذخيرة من معبد القديسة تريزا ، وقد باركها البابا نفسه » .

« باركها البابا نفسه ؟ » ورددت سيليا هذه الكلمات برهبة ، وهى تُرِى زوجها غلاف الشمع المنقوش : « سأضعها جانباً » .

تبادل دونيس والأب ستيفن النظرات والضحكات . فقد أصبحت عادة سيليا بوضع الأشياء جانباً نكتة معروفة فى أسرة فرمويل . مفارش المائدة ،

والبياضات ، والمناشف ، والفوط ، والصحون ، والأكواب ، والفضيات — كل ذلك كان يوضع جانباً لمستقبل لم يستهل يومه بعد . تطبعت سيليا بهذا الخلق منذ طفولتها الفقيرة .

سألها ستيفن : « ولماذا تضعينها جانباً ؟ استعمليها كعلامة فى كتاب صلواتك واذكرى ابنك كل مرّة تفتحينه » .

وسمع صراخ فلورى من المطبخ : « ياماما ، قد استوى سمك القد » .

— « يا مريم الرحيمة ! قد نسيت السمك . اصعد يا بنى واغتسل . خذ أولا منشفة » . وأسرعت إلى درج كانت تضع فيه جانباً أحسن بياضاتها .

— « سأجد مكاناً نظيفاً على منشفة الحائط ، يا أماه ؟ »

فساءها جداًّ أن يستعمل كاهن مكرّس منشفة الحائط . إن ذلك لا يليق به . فقالت له : « لن تفعل ذلك » ، وناولته منشفة مطرّزة كانت قد ربحتها منذ خمس عشرة سنة فى مباراة ويست أقامتها جمعية الكنيسة .

وقالت وهى تحدج زوجها بنظرها : « قد يضحك البعض عندما أضع شيئاً ما جانباً ولكن الضحك يتجمد عندما يعرفون لأىّ غاية أضعه جانباً » .

وضع ستيفن المنشفة على ساعده كما يفعل وقت القداس ، وقبل أن يصعد إلى غرفته مرّ بالمطبخ . كانت فلورى بوجهها المحمرّ من حرارة الموقد تقشر البطاطا قبل سحقها . إنها طباخة ماهرة . فطوقها ستيفن بذراع واحدة .

— « أهلا ، ستيف » ، قالت هذا وهى مستمرة فى عملها .

ما زال يفرق بينهما ميل شديد إلى المنافسة ، بل إلى التباعد ، وكان ذلك فى الغالب من جهة فلورى . ففكر ستيفن فى نفسه قائلا :

— « هل أرطب خاطرها الآن بزجاجة العطر التى فى جيبى ؟ كلا ، إنها لمنى » .

فقال لفلورى : « سوف أرجع بعد لحظة » . وقفز على درجات السلم الخلفى مثنى مثنى .

وجد كل شىء كما تركه منذ أربع سنوات : المشمع القديم على السلم هو هو ، والتشقق فى الجبس هوَ هوَ ، حتى أنابيب الماء فى ٤٧ بشارع مرج الغاب لم تتغير . فمنذ أربع سنوات وهو فى روما ، لم يتغير شىء . الماء ينساب خيطاً

رفيعاً من صنبور دقيق فى حوض من الزنك تسنده رجلان من حديد . إنه دوام الأشياء الزائلة !

غسل ستيفن يديه بصابون أزرق ، ورش ماء على وجهه ونشفه بمنشفة الكتان . ثم أحسن بالجوع يقرصه . إنه مسرور من وجوده بين أسرته ، متلهف إلى تذوق طعام البيت ، والتحدث إلى ذويه .

رجعت به الذاكرة إلى الأيام التى قضاها فى هذا الجزء الخلفى من البيت . وجد الورق البنى الذى يكسو الحائط قد نَصَل لونه ، وتشحم ظاهره ، وتمزّقت أطرافه من أسفل ؛ ورأى أمامه أبواب غرف النوم بمزاليجها القاتمة ؛ ثم البساط على الأرض ، وقد تقطعت الآن خيوطه ، وهو الذى أحبه طفلا عندما كان يلعب عليه حافى القدمين ، وأبقى من كل هذا وأعمق أثراً اشتم تلك الرائحة العائلية التى يصعب على الإنسان تفسيرها .

ثم رأى على الشمال غرفة هيلانة ، وقد بقيت مهجورة منذ تركتها لتذهب وتعيش فى دير الكرمليات بثوب الراهبات وتحقق الحلم الذى داعبها منذ طفولتها بتكريس محبتها لله . شعر ستيفن بحرارة الطهارة التى فاضت من حياة أخته تشعّ من الغرفة المقفلة . كيف يمكن لهذه الشمعة الضئيلة أن تشتعل وتبعث شعاعاً منعشاً مقوياً ، ولا تحرق ذاتها حتى الرماد ؟ إنه وقود القلب السرّى العجيب !

وفى وسط الممشى ظهر سلم خشبى يقود إلى علية ، (هى غرفة نوم الأولاد كما تسميها سيليا) ، شارك ستيفن أخاه چورج فيها . فشعر ستيفن بدافع يحثه على الصعود إليها ليراها مرّة ثانية ، فهنا درس ونام حتى أصبح عمره ثمانى عشرة سنة . وجد العلية أكثر نظافة وترتيباً مما كانت عليه من قبل . وأنبأه كل ما فيها أن أخاه چورج يستعملها كمكتب ؛ مصباح بغطاء على المكتب ، ومقعد جديد ، ورفوف تكدست عليها كتب القوانين والحقوق . أما النافذة الصغيرة المطلة على السطوح وحدائق الرواند فى شارع مرج الغاب ، فحرّكت فيه عواطف أعمق من الذكرى وأشد تأثيراً . فى هذه الغرفة قرّر أن يصير كاهناً ، وبجانب هذا السرير الأجوف ركع للصلاة مكرّساً حياته لخدمة ربه الذى أشار إليه آمراً : « انهض وامسك بيدى وتعال اتبعنى » .

فركع الآن أيضاً برهة على ركبة واحدة شاكراً الله ، ثم ترك العلية وأسرع في النزول .

وعند مروره بحجرة مني سمع نشيج بكاء ، ماذا ؟ دموع؟ فنقر على الباب خفيفاً وفتحه . فرأى أخته الصغيرة ممددة ووجها على السرير ، تبكي . فجلس صامتاً إلى جانبها ووضع يده في شعرها عند عنقها .

— « حبيبتي مني — وهكذا اعتاد أن يدعوها — أنا ستيڤ . ماذا جرى يامني ؟ »

وضربت مني بقدمها قائمة السرير بغضب : « فلوري هذه ! إنها بغيضة » .

— « إن فلوري تعبة ، ومضطربة قليلا ، ولا تعني ما تقول » .

— « إنها رديئة . هذا حقًّا ما هي » . وغرست مني وجهها المبلل بالدموع في المخدة : « إنها تعاملني كطفلة » .

— « وأجمل طفلة — قال ستيڤ — والآن استديري لأراك » .

فاستدارت مني على ظهرها ، وتفرّست في أخيها . ولمعت عيناها بالدموع برّاقة قاتمة .

— « أتظن حقًّا أني جميلة ، يا ستيڤ ؟ »

نفذ غرورُ هذه المرأة الطفلة إلى هذا الرجل الناظر إليها ، والذي يكاد يكون مجهولا عندها .

— « إنك جميلة كأحد ملائكة روفائيل . لا يستطيع أحد أن يكون جميلا بهذا القدر . أما أنت فأجدت . ثم . . . ألا يتغنى الشبان بسواد عينيك وسواد شعرك؟»

فتنهدت مني : « أودّ لو كنت شقراء ، زرقاء العينين » .

— « شقراء وزرقاء العينين ؟ هذة سخافة . أعتقد أنك لم تسمعي قط بما قاله واحد من الشعراء القدماء في حسنائه السمراء » .

— « وماذا قال ؟ »

— « وماذا لم يقل ؟ إنه نقب اللغة تنقيباً ، ينشد أمثالا في امتداح اللون الأسود. رمى باللآلئ والذهب في سلة المهملات ، ولم يرقه في وصف شعر حبيبته وعينيها سوى لون خشب الأبنوس وأجنحة الغربان » .

لم يكن فى استطاعة ستيفن معرفة مقدرة منى العاطفية. ولم يشأ أن ينفرها بسرده المقطوعة الشعرية فى كل بهائها وعظمتها . ولكن أى شىء يؤول إلى تسكين ألمها جدير بالتجربة . فليسمعها مثلا المقدمة . فأخفى كل شىء فى صوته سوى نبرة عاطفية ، واستهل الربع الأول :

أحب عينيك اللتين ترثيانى ،
وعلمى أن قلبك يعذبنى بجفائه .
لبستا السواد ، ما أحبهما باكيتين ،
تنظران برحمة واسعة إلى شقائى .

ظلت منى ممددة تحدق ببصرها فى أخيها الكاهن ، مصعوقة بلغة لم تفهمها وصوت عذب لم تسمعه من قبل . لم يحثها الفضول على السؤال عن اسم الشاعر كاتب هذه الأسطر ولم يحفزها التفكير لتفهم معانيها أو تقدير جودتها . اكتفت فقط بأن تعبر بنظرتها لستيفن عن دهشتها من أن كلمات كهذه يحتمل وجودها وأن كاهناً يمكنه التلفظ بها .

وغير ستيفن مجرى الحديث : « عندى شىء لك ، يا عصفورتى » . وضم أصابعها المبللة على زجاجة العطر ،وقال : « والبائع أوصى باستعمالها بحكمة . هلمى الآن فإنهم فى انتظارنا تحت للعشاء » .

ـ « إنك ظريف جداً ، يا ستيف » . ودت لو أضافت أنه بتصرفه هذا ، تصرّف مختلف طبعاً ، يذكرها ببانى رامبل . ولكن اللحظة فاتت . فنهضت ومسحت عينيها بمنديل ستيفن ونزلت للعشاء وذراع أخيها حولها .

* * *

إن العشاء عند الفرمويل يتكون من صنف واحد فقط . طعام جوهرىّ شهىّ ، طعام عمال ، ليس فيه بهرجة زائفة . لما فرغ الأب ستيفن من صلاة بركة المائدة ، بدأت سيليا بتحضير الطبق الأوّل . فوضعت فيه سمكاً ، وقليلا من هريسة البطاطا وملعقتين من مرق البيض ، وكمية من المخلل للزينة وفتح الشهوة . كان دن فى هذا البيت المخدوم الأول دائماً . والآن أيضاً قدمت سيليا زوجها على ابنها الكاهن ، وناولته طبقه الملىء وقالت : « رجل جائع رجل غاضب ! »

لم ينتظر دن الآخرين بل انكبّ على الطعام بشهوة عامل قرصه الجوع . وقال بين لقمتين : « أتعلم يا ستيف أن كل شيء هنا لم يزل على ما كان عليه؟ إنى لم أجد بعد أحداً يصنع الشاى كفلورى . إنها تصبّه ساخناً وأسود غامقاً » . وقدم فنجانه إلى ابنته الكبرى قائلا : « إنها الطريقة التى تلذ لى » .

إن ملاطفة دن هذه ، هى كل ما تبقى لفلورى منذ عهد طفولتها ، حينما كان لها وحدها الامتياز فى الترجح على ركبتى دن وهو يقرأ « العالم » .

ولما كبرت تركت هذا المكان المحبوب لإخوتها الصغار ، ولكنها استعاضت عن هذه العاطفة المحببة إليها بإتيانها بعض الأشغال النسوية . فكان صبّ الشاى لوالدها اللذة الوحيدة التى بقيت لها من محبتها المتبادلة مع أبيها . تذكّر ستيفن المشادة العنيفة التى دارت يوماً بينها وبين أختها ريتا عندما جرؤت هذه الأخيرة وصبت الشاى لأبيها . لكنه لما راقب الآن فلورى وهى تقوم بعملها الملائكى الذى لا ينازعها فيه أحد ، تيقن أنها تؤدّى عملا من أعمال التقوى الصادقة . وفهم من احمرار وجنتيها بالسعادة — وكان هذا منذ المساء الدليل الأول على المرح الذى بدا على وجه فلورى — فهم ستيفن من ذلك ، أكثر مما قد يتاح له ، كل ما تخفيه فلورى من حبّ لوالدها ، كما لمس نفورها وحدة خلقها .

ثمّ رمى دن بهذا السؤال : « ما رأيك فى موناجان ، رئيسك ، يا ستيف ؟ »

فأجاب ستيف : « لم يمض علىّ سوى يومين فى كنيسة القديسة مرجريتا ، ولم يدعنى بعد الرئيس إلى مكتبه . والحق يقال ، وجدته خشن المعاملة عندما استقبلنى . وظنى أنه ربما لم تعجبه رؤية بطاقات الشركة الإيطالية على حقائب سفرى » .

— « سوف تلطف من طبعه » ، قالت سيليا هذا وهى كبيرة الثقة واسعة الصدر .

وأردف دن : « يقال إنه أمهر وكيل فى تحصيل المال فى هذه الأبرشية ؟ »

لم يكن من حق أحد أن يتلفظ بهذه الكلمات سوى كاثوليكى صميم . أما دن الذى لم يكن عنده من الاحترام قدر ما كان له من التقوى ، فكان الشخص الوحيد الذى يروق له استعمال حقوقه بكل حرية .

فقال ستيفن ضاحكاً : « إن الأب موناجان ليس بالفقير حقًّا ، ولكن إذا

ما أخذت بعين الاعتبار أنه يقوم ببناء مدرسة جديدة ، ويشرع فى بناء بيت للكنيسة بعد الفراغ من المدرسة — تُرى ، أقول إنه فى حاجة ماسة إلى مال كثير » .

قالت سيليا : « إن بيت الكنيسة له نحو من تسعين سنة » . إنها تعرف كل كنيسة فى الأبرشية . « ومنذ أيام الأب "نيد هالى" الرجل القديس ، والبيت يتآكل بسرعة . فعتبة الباب كانت مفتتة مهدمة عندما وقفت إشبينة لآنى ، ابنة "داليا دوهارتى" الثانية ، فى مايو سنة ١٩٠٥ ، أى منذ تسع سنوات . هل أجرى فيها شيء من الترميم حتى الآن ، يا ستيف ؟ »

— « لا يزال شكل البيت كالثكنات ، ولكن الأب موناجان قام بإصلاحات كثيرة ، على ما يقال ، فقد جدد الدهان وغيّر الأنابيب . إنه رجل مدبر » .

قالت فلورى : « قد اقتنى فى الأسبوع الماضى سيارة باكار ودفع ثمنها نقداً أيضاً » .

فقاطعها الأب ستيفن قائلا : « إن رئيس رعية كبيرة يحتاج إلى سيارة جيدة . »

قالت سيليا : « ولكن الأب هالى قبله لم يكن عنده سيارة وكان يعود المرضى مشياً على الأقدام فى الثلج الموحل فى كل شوارع مولدن . ولم يلبس حذاء واقياً من المطاط . ويقال إنه كان يتبرّع بحذائه لأوّل فقير يلقاه » .

فنظر ستيفن فرمويل إلى أمه بدهشة وقال : « قد سمعت ذلك عن الأب هالى » . ورغبةً منه فى معرفة ما يؤول إليه الكهنة فى أيامهم الأخيرة أردف بسؤاله : « وماذا جرى له ؟ »

— « قد قذفوا به إلى موضع فقير فى مكان ما قرب تانتون — لا أذكر اسمه الآن — وأغلب أفراد رعيته من الكنديين الفرنسيين . مرّة ذهبت داليا دوهارتى لتزوره هناك ، ورجعت تحكى لنا كيف تهدّم كنيسته . فأرسلت إليه دولاراً فى عيد الميلاد ، ثم فقدت أثره » .

شعرت سيليا بأن الحديث سوف ينحرف إلى مواضيع خطيرة ، فغيرت من اتجاهه وقالت : « وكيف أنت مع الكهنة الآخرين » .

— « أظن أنى سأتفق معهما ، وبالخصوص الأب بولس آيرتون . إنه كاهن قويّ الجسم ولكنه هادئ ويؤدى عملا عظيماً كمساعد للرئيس وأميلُ إلى الاعتقاد

بأنه يفضّل العمل فى كنيسة خاصة يديرها بنفسه » .

– « سوف ينتظر وقتاً طويلا » ، قال دن هذا وقد تقلصت عضلات وجهه استعداداً للمناقشة : « لو أن الكردينال فى عظمة حكمته قبل فقط أن يجزئ الرعيات الكبيرة ويقتص بعض الشحم من بعض الكهنة القدامى ، ويمكننى ذكر أسمائهم ، لاستطاع الكهنة الأحداث أن يعمل كلٌّ منهم فى كنيسة خاصة به قبل فوات الأوان » . وأعربت عينا دن عن أمل كبير فى أن يختر ابنه هذا الأنيق ، ذو الجبين العالى الجميل ، ويمسك بالشص الملقى أمامه : المناقشة .

ولكن سيليا أسرعت تقول : « إذا رغب نيافته فى مشورة لإنشاء رعيات جديدة ، فإنه سوف ينزل إلى المخازن فى طلبها » . وكانت يدها ترتجف بشدة وهى تبهّر السمك حتى إنها لم تستطع كتم عطستها : « المعذرة ، يا بنىّ . لقد خانتنى يدى . وما قولك فى المساعد الآخر ؟ »

افتر ثغر ستيفن عن ابتسامة صغيرة وقال : « إن الكاهن المساعد الآخر شاب ظريف تقىّ يدعى "ميلكى ليونز" وهو يهوى الموسيقى الغريغورية ويرغب فى تكوين جوقة موسيقية ، ولكن – وهنا صعد ستيفن حواجبه السود دلالة على اليأس فى هذه القضية – ولكن موناجان لا يرغب فى ذلك مطلقاً » .

وسألت مونيكا : « ولماذا يدعونه ميلكى ؟ »

– « لأن فى بشرته وصوته لمعان اللبن وصفاءه ، أو لأنه فريد فى نوعه ، أو .. »

وقوطع الأب ستيفن فى كلامه بصوت جهورى قوىّ رن فى أرجاء المنزل .

– « ستيفن . . . ستيف . . . أأنت هنا ؟ »

إنه چورچ فرمويل شاب مكتمل فى سن العشرين . رمى چورچ برزمة من الكتب على الخزانة وأسرع نحو أخيه ويداه مبسوطتان ليعانقه . لم ير الواحد منهما الآخر منذ أربع سنوات . فتخاصرا وتعانقا كلاعبى كرة بعد إصابة الهدف . ثم تباعدا قليلا وتفقد أحدهما الآخر .

نظر ستيفن إلى كتفى چورچ العريضتين ، وتقاطيع وجهه وفكه الطويل ، وصفاء بشرته ، ثم سأله : « أين دفنت ذاك الولد ذا الوجه المحبحب ؟ »

– « حيث دفنت أنت ذاك الإكليريكى ذا الوجه المعجن . ماذا يا ستيف ؟

إنك أكبر وأجمل . وأعتقد أن جو المروج ، أو أظن جو الحروب فى روما ، قد وافقك كثيراً » .

— « هو هذا ، يا چورچ اجلس الآن وذق هذا السمك . إنه صنع ماما ، رمز مسجل ، ولذيذ جدًّا . ثم خبرّنى عن نفسك » .

— « إن وقتى قصير يا ستيف » . ومال چورچ بعنقه ليرى ساعة المطبخ: « إن المحاضرة فى الحقوق تبدأ فى الثامنة . وكان لدى ساعة فراغ بعد العمل ، ففكرّت فى المجىء لأراك » .

جلس چورچ فى المكان الذى حددته له سيليـا وفلورى وشرع يأكل السمك .

وقال ستيفن : « قد تغيرت ، يا چورچ . فعندما كنت أنام معك على سريرنا الصغير فى العلية ، كنت ترفض أن تتحرك من مكانك . والآن فأنت تقطع خمسة أميال لترانى فقط . يغفر لك الله . . وكيف أنت والحقوق ؟ » .

— « إنها مربية قاسية ، كما يقول شيشرون : "المحامى يخلق ولا يُصنع" » .

وأورد چورچ كلامه باللاتينية ، وأخطأ فى التصريف .

فقال ستيفن : « كلا يا چورچ ، فالفعل والفاعل فى اللغة اللاتينية كما فى الإنجليزية ، يتفقان فى العدد » .

وأشار چورچ إلى الحضور حول المائدة وقال : « أتعلمون ما هو ؟ إنها قضية طالب فى الحقوق ، مدعى عليه ، وخبير فى اللاهوت ، مدعى . فالمدعى عليه ، وهو أنا الشاب المتليتن ، لا مفرّ له أمام الخبير . ألا تذكر ، يا ستيف ، تلك الليلة التى قضيتها معى تساعدنى فى اللاتينى قبيل تقدمى للامتحان فى معهد الصليب المقدس ، وتنبهنى بكل دقة إلى أىّ الأفعال أصرّف وأىّ جزء من النحو أستذكر — (بهر المستمعون لسحر بيانه) — وحقًّا ، عندما أمسكتُ بورقة الامتحان فى اليوم التالى كنت أستطيع أن أقسم بأن الأسئلة كانت قد تسربت إلى ستيف ، مع كل تفاصيلها . وشرفك ، يا ستيف ، كيف أمكنك معرفة الأسئلة قبل أوانها ؟ »

— « لم أكن أعرف الأسئلة ، يا چورچ . ولكنى عرفت واضعها ، وهو

" لورنس بورك " من الآباء اليسوعيين . إنه جزّار . فتصوّرت ما يمكن أن يفعله جزّار بطلابه » .

— « ويا حضرات المستمعين : لم يترفق الجزار فى أسئلته » ؛ قالها برنى ، وهو يكشر كالمغنيين الإرلنديين . فأثارت حركاته المسرحية ضحكات الجميع . وانفرجت أسارير دن لرؤيته أولاده الثلاثة يتداولون الكرة بينهم والتقت عيناه بعينى سيليا . وتفاهما : « إنهم أولادنا » . كانت هذه اللحظة أثمن مكافأة تستطيع الحياة العائلية وحدها أن تأتى بمثلها ، نمت وكبرت فنضجت للقطوف . وقدم دن فنجان الشاى إلى ابنته الكبرى ، وقال :

— « اسكبى لى منه أيضاً ، يا فلورى » .

راقب ستيفن فلورى وهى تنحنى على والدها وتمسح له بمنشفتها حبات الشاى الملتصقة بشاربه : عمل محبة وتأنيب معاً . مسكينة فلورى !

وقالت سيليا : « أخبرنا عن المدينة المقدسة ، يا بنىّ . هل هى عظيمة حقاً كما يقولون ؟ فيها معابد وكنائس عديدة تتلألأ بأضواء الشموع ، والصلوات تقام فيها كل ساعة من النهار والليل ؟ »

ابتلع ستيفن قطعة من السمك المملح وأخرى من الخبز الحلو المحمص . كيف يمكنه ، وهم على المائدة ، أن يشرح فى جُمل صغيرة مقتضبة عظمة روما وخلودها ، بناياتها الأرضية الزائلة وغايتها السماويّة الخالدة ؟ ما العمل ليقرّب إلى سيليا فهم كل هذه الأمور فى كلمات تستوعبها بسهولة ؟ عليه أن يجرّب .

— « إن روما ، ياماما ، لأعظم أيضاً مما يقولون . فالزمن هنالك يجرى فى اتجاهين : إلى الوراء منذ بدأ التاريخ ، وإلى الأمام نحو وعد بشىء واسع كالعالم » . وبسّط كلامه ليساعدها على فهم كلماته : « ليتك ترين الكنائس العديدة ، مئات منها ؛ كل واحدة على اسم قديس ، ومنهم كثيرون لم نسمع بهم فى أمريكا ، مثل أبولينير ، وفيليب نيرى ، وقزما وداميان — وكل كنيسة منها مبنية بنوع خاص من الأحجار كأنها قطعة من الموسيقى » .

— « هل زرت كل هذه الكنائس ، يا ستيف ؟ »

— « أغلبها ، يا أماه » .

– « وهل رأيت الأب الأقدس أيضاً ؟ »

– « مرات عديدة . ففى حفلة تتويج البابا بنديكتس الخامس عشر اصطف جميع طلاب اللاهوت فى أجنحة كنيسة القديس بطرس . ما كان أجمله تطوافاً ! الشمعدانات المذهبة تشع نوراً كألسنة من نار ، والموسيقى تنبعث من أجواق السرافين ، والكرادلة من كل بلد فى معاطفهم الواسعة الحمراء يبخرون بنديكتس وهو يقترب من عرش " صياد البشر " .

وتوقف ستيفن ليتيح لهم تخيل الموقف . ثم تابع قوله :

– « وفى أبهة هذا الاحتفال أتدرون ماذا حدث ؟ »

– « وماذا حدث ، يا ابنى ؟ »

– « فى اللحظة التى أصبح فيها الاحتفال فى أبهى مظاهره ، تقدم راهب ملثم أمام البابا وأوقف التطواف ورفع فى يده قطعة من حبل مدخن » .

تعذر على سيليا إدراك هذه الرموز فقالت : « ولماذا فعل الراهب هذا يا ستيف ؟ »

– « إن قطعة الحبل المدخن تمثل أمجاد العالم الزمنية ، مآلها الزوال كالرماد ، فى برهة من الزمن » .

فتنهدت سيليا قائلة : « ما أعجبك يا ابنى وأنت تفسر لى هذه الأمور . كان لك دائماً هذه المقدرة . أذكر عندما كنت ولداً صغيراً كيف شرحت لى فائدة الأسلاك الواقية من البرق – كان ذلك واضحاً حتى إننى ما نسيته إلى الآن . أوتصدق ؟ – أضافت – إنى ما خفت قط منذئذ إذا ما أبرقت السماء » .

قال چورج : « هذا لأنك كنت ثابتة فى الأرض ، يا أماه » .

ولم يدرك هذه التورية سوى ستيفن . أما برنارد ، وقد أخذه الدهش ، فوجد سلواه فى قطعة من الخبز المحمص بالزبدة ، واشتاق إلى قطعة من الموسيقى أسهل منالا مما يسمعه .

وسأله دونيس : « ما قولك فى الحرب ، يا ستيف ؟ » ربما يغتر أيضاً هذا الخطيب المفوه ، فينساق إلى الحديث ، وتبدأ مناقشة جديدة .

أجاب ستيفن بتؤدة : « سوف ندخلها عاجلا أم آجلا . إن القرض الأمريكى

للإنجليز ثقيل جداً ويربطنا بهم رباطاً وثيقاً . ولا يمكننا التخلى عن الإنجليز أولاد عمنا الأعزاء ، كما تعلم » .

فتوقف دن عن قضم قطعة الخبز المحمص وقال : « لمن قلت أعطى القرضُ الأمريكى ؟ لمن ؟ »

— « للإنجليز . بليون من الدولارات . أليس لهم علم بذلك فى بوسطن ؟ أوَلم يذكر ذلك فى "العالم" ؟ »

— « كلا . لا شىء من هذا . وأين التقطت خبر تلك الصفقة الشنيعة ؟ »

— « لقد حدثنى بذلك أولا المنسنيور كارنجى أستاذى فى اللاهوت فى الخريف الماضى بعد انكسار الإنجليز فى " مونس " . ويعتقد أن شركة مصارف مورجان هى التى ساقت ولسون إلى التحالف مع الإنجليز ، ولا يمكنه التراجع الآن . — وأدار ستيفن نظره فى الحاضرين — وهذا هو حديث جميع السفارات فى أوروپا . إنها ورطة ولسون ، كما يدعوها كارنجى ، ويعنى بذلك الهوّة المخيفة التى تفصل بين مثل الرئيس العليا وبين الموقف الذى ورّطته فيه المصارف العالمية . أعتقد أنى لا أقصّ عليكم شيئاً جديداً » .

قال چورچ : « إنه جديد بالنسبة لى » .

لاحظ ستيفن أن ذلك جديد أيضاً على دن . ولما علم دن أن أمريكا وهبت أولئك « الحمر الأعجاز » الممقوتين قرضاً ماليًّا ، تدلى شاربه وهمدت نار الشرر فى عينيه ، ولم يضرب المائدة بقبضته استياء لأن الأخبار التى أوردها ستيفن أضعفت قواه تماماً . أما العجب فهو كيف تسنى لابنه أن يحصل على معلومات ليس لها أثر فى « العالم » . وقضم دن فى قطعة الخبز المحمص كرجل كسرت الظروف شوكته إلى حين .

ثم رمى ستيفن بهذا السؤال : « ما أخبار هيلانة ، يا أماه ؟ »

كان سؤال ستيفن كلمسة مبارز يضرب بسيفه الهواء ، إشارة بالانتصار .

نقبت سيليا فرمويل فى جيب مئزرتها وأبرزت رسالة . وقالت : « قد وصلت هذه الرسالة فى بريد بعد الظهر ، يا ستيف . ولم يَرَها والدك بعد . اقرأها على مسمع منا ، يا بنىّ » .

سحب ستيفن من الظرف ورقة رخيصة الثمن وتأمل لحظة خطّ أخته هيلانه . إنه معروف لدى الجميع : ناعم ، ضئيل ، خفيف ، كما لو كانت كاتبته تخشى أن تضغط على سنّ الريشة .

« أحبائى أمى وأبى ، إخوتى وأخواتى ،

« إنى متيقنة أنكم سوف تشاركوننى سعادتى إذا أخبرتكم أننى أستعد لأعقد نذرى الأوّل فى الأيام القلائل القادمة . وبإذن من رئيستى ، قد اخترت اسم " وديعة تريزا " ، الأول لأعبر عن عدم استئهالى الوضيع ، والثانى احتراماً وتقديراً للنفس القديسة التى أسست رهبنتنا . فأتوسل إليكم جميعاً أن تتحدوا معى فى الصلاة حتى تذود ابتهالاتكم المحبوبة عن ضعف تضرعى .

« إن قلبى ليطفح بمشاعر عديده ممزوجة رهبة وسعادة وأنا أقترب من هذه اللحظة الرهيبة . ورجائى ، يا أحبائى الذين هم بعد فى العالم ، أن تتأكدوا بأننى لا أكفّ عن ذكركم باستمرار فى صلواتى . إنما أرغب إليكم أيضاً أن تعرفوا بأننى لست وحيدة فى خدمة واحد فقط يملك على كل قلبى . فبواسطته تزداد لكم جميعاً محبتى ، ولا زلت . . . »

ابنتكم وأختكم التى تحبكم

هيلانة

حرّكت رسالة هيلانة عند كل فرد من الأسرة شعوراً مختلفاً . فدونيس فرمويل تذكر الحزن العميق الذى سببته له ابنته عندما دخلت الدير ، فعرف حينذاك أنه فقدها إلى الأبد ، لأن قانون رهبنتها يقضى على الأعضاء بترك العالم وراءهنّ وعدم رؤية ذويهنّ مرّة أخرى . تحرّق دن إلى وجود هيلانة بالقرب منه ، فهو لم يذق قط سلواناً بعد ذهابها .

أما سيليا فكانت دائمة الاضطراب بسبب ضعف رئتى هيلانة . كيف تقدر فتاة مريضة مثلها أن تتحمل معيشة الكرمليات القاسية ؟

أما فلورى ، وإن لم توافق مبدئياً على ما حصل ، فإنها شعرت براحة عندما

تركت هيلانة البيت إلى الدير . فعنى هذا أن خصمـاً آخر قد توارى وأفسح الطريق لمحبة دن لها .

تبين لستيفن أن روح الانجذاب ينبعث من هذه الورقة الغبراء الرخيصة . أحس بين يديه وسمع تلك النفس السرية تتكلم فى صدق نادر عن دمج كيانها فى كائن أسمى لتصبح نقطة ماء فى بحر محبة الله اواسعة .

وقالت سيليا ، وكأنها تخاطب نفسها : « أرجو أن تتحمل صحتها هذا العبء من المشى حافية القدمين على البلاط البارد والصوم المتواصل » .

فشجعها ستيفن بقوله : « لا تجزعى ، ياماما . إن المتصوف الحقيقى هو أقوى شخص فى العالم . ها هى ذى القديسة تريزا ، إنها فعلا لم تأكل قط . ولكن اسمعى ماذا عملت » . واندفع ستيفن فى وصف حياة القديسة تريزا وأعمالها : « إنها أصلحت نظام الكرمليات ، وبنت الأديرة ، ومع ذلك وجدت وقتاً كافياً لتكتب سيرة حياتها بيدها ، وكل هذا ، أتدرين ، وهى فى حالة انهيار جسمى يشبه النزاع ، حتى إنهم كانوا يحملونها على نقالة فى كل أعمالها » .

قالت سيليا : « لا شك أنها كانت امرأة تقية جداً » .

— « لا بل أكثر من ذلك . كانت امرأة قديسة ، ونابغة أيضاً . إن القداسة جزء فقط من حياتها السرية . كانت تريزا فنانة مبتكرة شهيرة مثل روفائيل ، وشيكسپير ودانتى ، أو أى من هؤلاء العظماء الذين اجتاحوا العالم بصيتهم » .

لم يدرك أحد لهذه الأسماء معنى سوى چورچ . وأسرعت سيليا بالسؤال رغبة منها فى سماع ابنها الكاهن يستمر فى الكلام : « يتهيأ لى أنه ليس لدينا قديسون فى أيامنا هذه . لماذا ، يا ستيڤ ؟ »

كانت سيليا تتفنن دائماً فى جر ابنها الأكبر إلى الحديث ليظهر ما عنده من معرفة .

— « يظهر ، يا أماه ، أن القداسة ، من حيث هى حياة وانقطاع إلى العمل المقدس ، قد فقدت بعض أهميتها منذ سنة ١٤٠٠ ، وذلك لأسباب كثيرة . فإنه عندما وقف پترارك متلهفاً على قمة هضبة صغيرة ، وعزم أن يهدى قصائده إلى حبيبته لورا ، بدلا من أن يقدمها إلى سيدته السماوية ، تبدلت القيم الأخلاقية

وبدأت فى الهبوط . كذلك الأمر فى رسومات " جيوتو " و " مساكيو " ، فقد ظهرت فيها المواقف المادية والخلاعية التى تجذب الإنسان إلى الأرض وتمنعه من التطلع نحو السماء . كل ذلك غريب حقاً ، لأننا إذا فكرنا فى الأمر نرى أن جاليليو ، بعدهم بقليل ، برهن بوضوح أن الأرض ليست هى مركز الجذب العالمى على الإطلاق » .

انقضت برهة من الزمن تراءى فيها لستيفن شبح المنسنيور كارنجى وهو يهز له رأسه تشجيعاً . فطريقة تفكير ستيفن هى التى يفضلها أستاذه . لكن هذه الرؤيا تضاءلت عندما شعر ستيفن بانسحاب الحاضرين . فاستسلم خجلا من تفلسفه ، لأنه لم يكلم كارنجى بل بالحرى أشخاصاً بسطاء اعتاد أن يحبهم بكل جوارحه ؛ ومع ذلك لا يصلح هذا الموقف للتظاهر بالعلم . وعليه من الآن فصاعداً أن يصقل أفكاره وتعبيراته فى مستوى تستطيع العقول والقلوب البسيطة أن تجاريه فيها . يجب على العلم أن ينحدر إلى مستوى الرعية .

فغير ستيفن مجرى الحديث وقال : « أسمعنا قليلا من الموسيقى ، يا بنى » .

وقال دن : « لقد ألهمك الله تلك الفكرة المنعشة » .

انحنى چورچ نحو ساعة المطبخ وقال : « على أن أنصرف الآن ، يا ستافى ، وإلا فاتتنى المحاضرة . أسف لقطع الحفلة عليك » ثم قبل أمه والتقط رزمة كتبه .

فتبعه ستيفن إلى الباب الأمامى ، وشد على يد أخيه الأصغر قائلا : « يجب أن نلتقى مراراً يا چورچ لنرى ما خفى على أحدنا . »

أجاب چورچ وهو يضع يده بعطف حول ستيفن : « كلما شئت يا أبى » . وأسرع ينحدر على السلم الخارجى .

* * *

نحو الساعة التاسعة مساء حضرت ريتا يتبعها الطبيب چون بيرن . كانت ريتا بلونها الأسمر كسائر الفرمويل أنعم عوداً من فلورى وأقوى بناء من هيلانة وأقل جمالا من منى . ولكنها كانت بين جميع أخواتها المفضلة عند ستيفن لأنها مثيلته وشبيهته فى الخلق والعاطفة . ففى مدة عملها كمدرسة عرفت ريتا كيف توازن

بين فهمها للحياة وحساسيتها كما هو مألوف بين الفتيات الأمريكيات ذوات النسب المتوسط . والآن أشرق وجهها ورن صوتها حبوراً وهى تطوّق أخاها وتعانقه .

— « ستيڤى . . . ما ألذّك وأنت بين يدىّ . إنك جميل وقوىّ . والفتيات سوف يعجبن بك حتى الجنون » .

فأجابها ستيفن ضاحكاً : « هذا ما تقولينه لجميع الكهنة الجدد . سَعِدتُ مساء ، ياچون » . وحيّا الطبيب بيرن ببشاشة ، وهو رجل طويل ، بارز العظم ، شاحب اللون من طول السهر فى المستشفيات ، تسطع من جبينه نزاهة هادئة متينة . إنه كسب للأسرة .

— « ما أحلى وجودك بيننا ثانية ، يا أبتِ » . وإذ قال الطبيب بيرن ما فيه الكفاية ، جلس هادئاً على الأريكة ، وترك لأعضاء أسرة فرمويل الفرصة ليفيضوا بما تجيش به صدورهم .

جرى الحديث متتابعاً بين ريتا وستيفن ، دون منافسة بينهما . الواحد يسبق الآخر ويكمّله فى مجاذبة طريفة . ثم أرته ريتا خاتم خطوبتها : ذهباً رقيقاً غرست فيه لؤلؤة دقيقة الحجم ، لم يرَ ستيفن من قبل حجراً أصغر منها . وتذكّر المثل السائر : « الحب أعمى كالحجر » لكنه لم يشأ أن يعكّر على ريتا هناءها بقوله لها ذلك . فهمس نحوها : « ما أجمله ! »

— « سوف نعقد قراننا حالما يتمّ چون تمرينه فى مستشفى الولادة » .

فوجه ستيفن سؤالا إلى الطبيب چون : « أليس هذا من أرقى مستشفيات بوسطن ؟ كنت أظن أن " براهمة " الطب فى " الخليج الخلفى " (باك بيه) ، يحتفظون بهذه المراكز لطلابهم فقط » .

قال دِن : « ليس فى استطاعتهم أن يلجموا الكفايات »

وسرى ألم حاد فى عجز قدمه ، انقبضت له شفتاه وتجاعيد وجهه . وارتأى أنه من الأفضل له لو ذهب إلى الفراش قبل أن يتنبّه له الطبيب چون بنظرته الخبيرة فأنزل قدمه من على المسند وحاول الوقوف . ولم تخف هذه الحركة على الطبيب بيرن ، فقال :

— « ألا زالت العروق تؤلمك ، يا سيد فرمويل ؟ »

ـ « غمزة حيناً ولمزة أحياناً » .

فاغتنمت سيليا فرصة وجود مؤيدين لها ، فتدخلت فى الأمر : « يغفر لك الروح القدس ، يا دونيس فرمويل ، الكذبة التى تفوّهت بها الآن » . ثم استدارت نحو ستيفن : « إن عروقه تتكتل كالبيض على ساقه ، وهو دائماً يهملها » .

قال ستيفن : « ماذا ؟ أصحيح هذا ؟ ـ لو وجد طبيب فى البيت . . . »

وتلقف الطبيب چون بيرن هذا القول كالكرة : « إن تكتل العروق خطير ، يا سيد فرمويل ـ وربت بيده على كتف دن ـ دعنا نصعد إلى غرفتك لنلقى نظرة » .

لم يكن لدن من مفرّ الآن . فقفز على الدرج يعرج ، مكشراً بشاربه كالدب وتبعه ستيفن مع الطبيب چون .

قال له الطبيب بيرن . « اخلع ثيابك والزم فراشك » . وبعد برهة وجيزة كانت أصابع الطبيب الطويلة الرفيعة وعيناه الثابتتان تفحص قدم دونيس فرمويل اليمنى ، وقد برزت منها العروق الزرقاء ، معقودة فى شكل قبيح . فأدار قدم دن يميناً وشمالا ، وطواها برقة عند الكاحل ، ثم ضغط بإصبعه على المأبض ، وقال :

ـ « قد أهملت ساقك زمناً طويلا وربما احتجت إلى إجراء عملية جراحية ، يا سيد فرمويل » .

ـ « فى المستشفى ؟ »

ـ « سوف تلقى عناية أكبر فى المستشفى ، يا سيد فرمويل . والعملية بسيطة جدًّا . والإخوة مايو يجرونها بنجاح ـ وأنا شخصيًّا فى بعض الأحوال قد سررت بنتائجها » .

كان الطبيب بيرن من فئة الجراحين الذين يؤيدون نظرية شرح الأمور لمرضاهم .

ـ « إننا نقطع العرق المريض . ثم تمكث فى الفراش حتى يجد دوران الدم طريقه ثانية إلى القلب بواسطة العروق الصغيرة . ولا يتطلب كل هذا أكثر من أسبوعين » .

قال دونيس فرمويل منتفضاً : « أسبوعين ؟ » وحاول النهوض من السرير .

« لا ، لا ، إنى لا أستطيع المكوث أسبوعين بعيداً عن عملى » .

فاضطره ستيفن إلى ملازمة الفراش ، دافعاً إياه بيده إلى الوراء .

— « تصوّر الوضع كما هو ، يا بابا . إنه إحدى اثنتين . إما أن تمكث أسبوعين الآن فى الفراش، وإما — واستدار نحو الطبيب بيرن ليؤيّده — وإما أن تلزمه طويلا فيما بعد إذ تتفتح القروح وتضطر حينئذ إلى استعمال العكاز ، ولا يمكنك قيادة التّرام بهذا الوضع . فما الأفضل أن تعيش معذباً أو سائقاً ؟ »

فحاورهما دن كسباً للوقت ، وغمغم قائلا : « لكن ذلك سيكلفنى كثيراً » .

فقال الطبيب بيرن : « إن سرير المستشفى يكلفك دولارين فى اليوم . أما أنا فلست أطالبك بأتعاب » .

— « هذا لطف منك ، أيها الطبيب ، لكن . . »

كان دن يحاول التخلص من شبح العملية الجراحية .

— « لكن ماذا ؟ » سأله ستيفن ، فقد شعر أن شيئاً ما غير المصاريف يزعج أباه ؛ شىء ليس بمحدد ولا يمكن أن يوصف بأنه عناد .

— « ألا يمكننى لبس جورب من المطاط ؟ » إن دن الليلة خبيث كالشيطان .

لم يكن الطبيب بيرن من أولئك الذين يضغطون على مرضاهم لإقناعهم بقبول العملية الجراحية . « فى رأيى أن ساقك قد فاتت هذه المرحلة ، إنما إذا أردت أن تجرب واحداً من جوارب المطاط — ونزع قلماً من جيب صدرته ، وكتب اسماً وعنواناً على بطاقة — فاذهب إلى السيد " ماك جواير " ، فهو يهتم بك . » ورمى الطبيب چون بطاقته على المكتب وغادر الحجرة .

فلما أصبح ستيفن وحده مع أبيه ، انفجر غاضباً : « يا بابا ، إنك عنيد كالتيس . ما هذا الكلام الفارغ بشأن جوارب المطاط والمصاريف ؟ قل لى الآن ، ما الذى يحول حقًّا دونك والعملية الجراحية ؟ »

وابتسم دونيس فرمويل لابنه : « أنحن فى كرسى الاعتراف ؟ »

— « إنه الاعتراف بالثقة بين أب وابنه . قل لى ، ما هو ، يا بابا ؟ »

وأمسك دونيس بيد ابنه الرقيقة بين راحتى يديه المقشفتين ، وقال : « اجلس هنا على السرير ، يا ستيفى ، وأنصت إلى ما أقوله لك . ربما لاتدرك ما سوف أقوله — فليس

خطأ عند رجل شاب ، وإن كان كاهناً ، أن ينقصه الإدراك . فذلك لا يأتى إلا بالخبرة » .

وتردّد دن قليلا . ثم قال ، « إن المسألة ، يا ستيف ، أن مارتى تيمنس ، منذ وفاة زوجته ، قد تعوّد اختلاس مال الشركة » .

— « وما شأن هذا بعروقك المتعقدة ؟ »

فسرّح دن طرفه فى السقف ، وقال : « إنك لا تدرك ، يا بنى ، الصلة التى تتوثق بين رجلين عملا معاً فى ترام واحد قطعا به نحو مليون من الأميال . إن كلا منهما يتوكأ على صاحبه . حتى الحيوانات التى تجرّ عربة الجعة تشعر بذلك . فاسمع إذاً . طالما عينى ترقب مارتى ، فهو يعمل بصدق ونزاهة . لكن إذا تركته وحده أسبوعين ، فسيرجع إلى اختلاس مال الشركة ، وسيضبط فى سرقته ، ويطرد من عمله ، ويلقى فى السجن . فلهذا السبب علىّ أن أمكث معه فى العمل ، يا ستيف » .

— « هل كلمت مارتى بهذا الشأن ، وأنذرته بما قد يحدث ؟ »

— « مراراً كثيرة . إنه يبكى ، ويعد أن لا يدع نفسه يقع حتى فى التجربة . ثم فى اليوم التالى يأتينى ويقول لى إن التجربة تتنازعه . إنها معركة متواصلة ، يا ستيف ، وأخشى أن يسقط مارتى فى القتال . إنه يسعدنى ، يا بنى ، أن أساعده فى هذا الموقف الحرج » .

عقد السكوت لسان الأب ستيفن فرمويل . ماذا يستطيع قوله لهذا الرجل العنيد الممدد على السرير ؟ فليس من نصيحة تحلّ مشكلة مارتى أو تحرر دن من واجبه فى مساعدة صديق يتعثّر . وتساءل ستيفن عما يكون موقف المنسنيور كارنجى فى هذه الحال ؟ أولا يوجد هنالك حلّ عند الإكوينى أو الليجورى يمكن تطبيقه لهذا الوضع ؟ ودارت عينا ستيفن فى الغرفة الوضيعة حتى استقرّت على صليب صغير من الآبنوس معلق فى ورق الحائط القائم فوق سرير أبيه .

وقال : « لنجرّب جوارب المطاط مدة من الوقت » .

قد يستطيع أن يقول لهذا الرجل أشياء كثيرة عن القرض الحربى البريطانى ، وعن تأثير پترارك فى التفكير الغربى ، أو عن أقاويل السفارات الأوربية ، لكن

لن يستطيع إضافة شيء ألبتة إلى معرفة دونيس فرمويل بالعظة على الجبل .

فتمنى لأبيه ليلةً سعيدة وأغلق بلطف كبير باب غرفة النوم الضيقة .

لما نزل ستيفن من السلم الخلفى إلى المطبخ ، كانت الساعة العاشرة مساء والسكوت مخيماً على الدور الأول . فقد ذهب برنى إلى نادى الديوك . وفلورى ومنى فى الفراش . والطبيب بيرن وريتا يتجاذبان أطراف الحديث فى خلوة غرفة الجلوس . وسيليا فرمويل فى المطبخ تعجن أقراصاً وتقذفها بخفة من يد إلى أخرى قبل وضعها على الصاج لخبزها . فنظرت ، هى صانعة خبزهم اليومى ، إلى ابنها بحنان وديع . إنها رقيقة الشعور ، لكنها لم تعرف الميوعة أبداً . وهمها الآن هو زوجها .

— « ماذا قال الطبيب چون عن ساق والدك ؟ »

— « لقد أشار باستعمال جوارب المطاط » .

ثم وضعت سيليا قرصاً على الصاج : « إن ليزى چيلن تقول إن جواربها يريحونها كثيراً . اجلس الآن يا ستيڤى ، وتناول قطعة من الخبز بالدبس قبل أن تذهب » .

— « وهل هذا ، يا أماه ، يجعل شعرى مجعداً ؟ قد ألفت أن تقولى لى ذلك » .

جلس ستيفن إلى مائدة المطبخ ولاحظ كيف تهيئ له أمه الخبز بالدبس . قد أمسى شعرها منكوشاً فى أثناء عملها هذا المساء . واحمرّ لون بشرتها السمراء تحت أشعة المصباح الكهربى العارى ، والتهبت عُقل أصابعها المشققة . أما أظافرها فلم تعن بها . واتضح من حركتها فى المطبخ أنها فقدت شيئاً من جلادتها وصبرها على التعب ، كما عهدها ستيفن إذ كان غلاماً .

— « لا شك أنك متعبة ، يا أماه » .

فأجابته ببشاشة : « كلا ، يا بنى ؛ قد كنت تعبة منذ ساعة ، أما الآن فأنا على ما يرام . قد قامت فلورى بتنظيف الصحون . وليس بالمهمة الكبيرة خبز قرص من العجين . سأستريح الليلة وأصبح فى أحسن حال » .

ما أعظم شجاعتها ! إنها وراثة أثمن من الذهب .

قطعت سيليا رغيف الخبز ، وسكبت قليلا من الدبس فى طبق وجلست

أمامه ، وأسندت ساعديها اللذين لم يزالا مليئين مستديرين ، على مئزرتها الملونة ، وحدقت بعينيها السمراوين كلون السائل الذى سكبته ، فى أبنها الكاهن وهو يغمس فى الدبس قطعة من الخبز البيتىّ .

فسألها : « أتذكرين كيف كنت أنهال على هذا الطبق ؟ »

— « إنى أذكر كل شىء عنك ، يا ابنى . أذكر حفلات الفانوس السحرى التى كنت تقيمها فى المخزن المعتّم ، ومكبس الطباعة فى القبو ، والمنظار فى العلية ، والأرانب فى ركن الحديقة ، والكمنجة فى غرفة الاستقبال ، والحلويات التى كنت تصنعها فى المطبخ ، والبيسبول فى الصيف والهوكى فى الشتاء ، والرقص ، وتقليدك صوت الناى ، ومحاولتك التكلم من معدتك . أذكر البطارية المائية التى صنعتها لجرس الباب الأمامىّ ، والوح الخشب الذى كدت تقتل عليه منى وأنت تزحلقها على منحدر تل الهلال (كريسنت) ، وسلك الهاتف الذى نصبته فى مؤخر الحديقة . إنى أذكر كل صغيرة ، يا بنى ، حتى الفتيات التى كنت تتعقبهن ، ولا أذكر اللواتى كنّ يهمن بك » .

ثم توقفت سيليا فى هذا التعداد التاريخى ، وعيناها تحاولان سؤالا :

— « قد أردتُ دائماً أن أسألك عن شىء ، يا ستيف ، منذ أطلعتنى على رغبتك فى هذه الدعوة . ربما لا ألقى الردّ الذى أتوقعه . ولكن قل لى يا بنى ، قل لى حقيقة ، هل قررت أن تصير كاهناً لأنى أنا رغبت فى ذلك ؟ »

أمعن ستيفن الفكر فى ما يجاوب به أمه . أيجرؤ أن ينبئها بالحقيقة المرّة بأن حبه لها ، وإن عظم ، لا يمكن أن يقارن بهذا الميل القوى الذى دفعه إلى الكهنوت وقيده الآن به ؟ كيف يمكنه أن يفهمها بأن قوّة هذا الحب الأعظم وعمقه لا حدّ له ، وأن هذا الحب قد غمره وتملكه ، وأنه أقوى من كل حب يمكن أن يشعر به ابن نحو أمه ؟

فأجاب بقدر طاقته وبكل نزاهة ، المرأة المتعبة الواقفة أمامه : « كلا ، يا أماه ، إن رغبتك لم تحفزنى لأصير كاهناً . كنت أساءل نفسى عن هذا عندما كنت شابًّا . أما الآن فإنى أعلم أنى كاهن لأنه ليس شىء فى الوجود أريده غير هذا . الأمر بسيط جدًّا ، ولن يتغير أبداً » .

فرجفت قليلاً أركان شفتيها المتجعدة : « هذا هو الجواب الذى كنت أتوقعه ، يا ستيف ؛ قد عرفت أمهات كن دائماً فى عقب أبنائهن حتى يصيروا كهنة ، واعتقد هؤلاء الأبناء ، بسبب ضعفهم ، أن حبهم لأمهاتهم هو دعوة لهم . فكان جزاؤهم الشقاء » .

ازدان صوت سيليا بالشجاعة والتعقل . إلا أن ستيفن أحس بأن جوابه قد خيّب أملها . حقًّا ، إن لديه ألف طريقة ليخفف ألمها . فعالجها بقوله لها : « غداً ، سأقدم قداسى الأول على نيتك » .

ثم نظر إلى ساعة المطبخ : « إنها العاشرة والنصف مساء . إن موناجان سيرغى ويزبد . مفروض أن أكون فى غرفتى قبل الحادية عشرة » . واقتنص قبعته السوداء وانحنى ليقبل أمه على خدها .

ــ « أعطنى بركتك ، يا بنى » .

ورسم إشارة الصليب على رأسها المنحنى .

ــ « أعطينى بركتك ، يا أماه . إنها أثمن عندى » .

وانحدر مسرعاً فى شارع مرج الغاب نحو المخازن ، وهو لا يزال يشعر بإبهام يدها يرسم الصليب على جبهته .

كان رذاذ الربيع يتساقط خفيفاً . فأسرع ستيفن فى خطاه ، وفى اعتقاده أنه يجرى ، من شدة فرحه ، وأمله كبير فى العمل المؤتمن عليه . ولما لمح نور الترام وهو يغادر المستودع ، بدأ يركض فعلا ، وفى ثقة من نفسه قفز على السلم .

بينما كان الترام يتقدم مرتجاً نحو ميدان مولدن ، قرأ ستيفن صلاته ، ثم طوى كتابه ، ورنين أجراس السحر فى أذنيه .

« أنا الكرمة الحقيقية ــ أجابه الصدى ــ وأنتم الأغصان .
من يثبت فىّ يأتى بثمر كثـــير . أليلويا . أليلويا » .

بعد دقائق ، دخل ستيفن فرمويل دار كنيسة القديسة مرجريتا ، وصعد على أصابع قدميه على سلم غطاه بساط رقيق . وبلغ إلى سمعه رنين ساعة تدق فى

غرفة الأب موناجان ، ولمح باب الرئيس يفتح ببطء . وظهر فى أعلى الممرّ شبح ضخم : إنه وليم موناجان نفسه بشكله المرعب .

وسأله الرئيس فى صوت هازئ جاف : « أهذه عادة مواعيدك ، أيها الأب فرمويل ؟ »

* * *

الفصل الثانى

لو لم يكن وليم موناجان كاهناً ، لأمكنه فى أزمنة وأمكنة أخر أن يكون قائد مئة فى عهد پومپى ، أو صاحب مركب شراعى ، أو مدير مصنع الفولاذ لبسيمير. قوامه أشبه برامى الأثقال الأولمبى ، وأوتاره الصوتية كتلك التى لرئيس الملائكة ميخائيل ، وقد اخشوشنت دون شك بسبب سوء استعمالها المتواصل فى كنيسة واسعة ذات صدى مزعج . مزاجه دموى مقرون بنسبة صفراوية ، وشعره المبيضّ المتموّج الذى يسرحه على شكل سمكة ينتفض كزمبرك الساعة عندما يثار غضبه . لم يجرؤ مساعدوه الكهنة أو الأفراد على معارضته . كان يدير رعية القديسة مرجريتا كما يقود سائق مخضرم قاطرته بحزم ومسؤولية ظاهرة ، على نظام مالى دقيق كأنما يسير على قضبان من فولاذ .

إن مدينة مولدن ، حيث توجد كنيسة القديسة مرجريتا ، منحصرة كشطير من الفطير على بعد خمسة أميال شمال بوسطن ، بين مستنقعات سوجاس إلى الشرق، وغابة صغيرة مهملة من مدفورد إلى الغرب . أسس المدينة سنة ١٦٣١ فريق من المهاجرين المتطرفين. وحتى سنة ١٩١٥ لم يزل طابع المدينة بروتستانيًّا متطرفًا . من الناحية الاجتماعية ، كان كبار القوم يحضرون الصلاة سواء فى الكنيسة العمادية بأجراسها العظيمة ، أم فى كنيسة القديس يهوذا الأسقفية القائمة فى شارع الجميل (پليزانت) بهيكلها الغوطىّ بين شجيرات اللبلاب . أما من الناحية العددية ، فرعية وليم موناجان تؤلف الجزء الكبير من المدينة . فإن ما يزيد على أربعة آلاف مؤمن متعبد يدخلون كنيسة القديسة مرجريتا كل يوم أحد لحضور القداديس الثلاثة التى تقام فيها . والمشهد يدعو إلى التقوى من كل الوجوه ، ما عدا منظر القساوسة البروتستان الذين كانوا يزمون شفاههم حسداً عندما يفكرون فى رنين القطع الفضية وهى تتساقط فى الصوانى التى كانت تجمع فى كنيسة القديسة مرجريتا على مدار السنة ، اثنين وخمسين أحداً ، على التوالى .

إن ألمع هؤلاء القساوسة وأقلهم حسداً ، المعلم آرثور لتبريدچ ، المجاز فى علوم اللاهوت من أوكسن . ظن أنه أول من عقب بتورية لاذعة على اسم وليم موناجان . كان ذلك عقب مجيئه إلى كنيسة القديس يهوذا ، فى حفلة غداء أنيقة فى نادى « كنيل ورث » ، حيث دعاه « دولار بل » . لكن هذه النكتة كانت فى الحقيقة مشاعة بين أفراد رعية الأب موناجان . كانوا قد نعتوه باسم دولاربل منذ عشر سنوات ، عندما أعلن لهم بصراحة ، فور تسلمه شؤون كنيسة القديسة مرجريتا ، أن الملاليم والقروش يصلح وضعها فقط فى الآلات الأوتوماتيكية لبيع المصطكى .

وقيل إنه أورد هذا النص : « إن اللون الأخضر فى جميع مشتقاته يسرّ الله كثيراً » . ربما كان هذا النص بدعة . مع ذلك فقد ضحك له الكردينال عند سماعه .

إذا كانت النزعة المالية قد تأصلت وتوسعت فى نفسية وليم موناجان فإن لها أسباباً كثيرة واقعية ملموسة . كان الجوع قد قرصه وهو شاب حتى طواه من الألم . لكن ما حز فى نفسه أكثر من كل ذلك هو الكره والسخرية التى كان أغنياء بوسطن (أو البراهمة كما يدعوهم الجميع) يعاملون بها أترابه من الإرلنديين الفقراء فى جنوب بوسطن . كانوا ينعتونهم بالقذرين « والحشاشين » والموائين ، فقد كان عملهم الحفر فى الطرقات ، وقيادة عربات القاذورات أو العمل فى المقاهى . وتدريجاً رأى الأب موناجان شعبه يصعد سلم المجتمع حتى أضحى فيهم الشرطى ، والسائق ورجل الإطفاء . وبعد عشرات السنين من الجهاد أمسى فيهم المحامون والمعلمون والأطباء . فنزحوا عن جنوب بوسطن ، وهاجروا إلى دورشستر وراكسبيرى وامتلكوا حججاً على منازل أصبحت ملكهم . وإذا كان الأب موناجان يعنى كثيراً بحجج الملكية فلأن وسطه الاجتماعى كان يخصها بعناية كبيرة أيضاً . كانت الملكية عنوانَ وأساس العضوية فى المجتمع ، وكان البيت العربونَ المادى لقبول شخص فى المجتمع . فثبت فى رأيه أن كنيسة متينة البنيان على حجر سماقى من كوينسى أو مدرسة رعائية مزدهرة مشيدة على طوب متين جميل ، هى البرهان الساطع المادى الذى لا تقوى على أن تزعزعه نوائب الزمن .

ذلك ما دعا وليم موناجان إلى أن يعنى بالدولار ويحث أفراد رعيته على مواصلة التبرع به .

وإذ كان الكردينال يعرف جيداً صفات الأب موناجان فقد دعاه إليه يوماً فى سنة ١٩٠٦ ، وسلمه ورقتين ، كتب على الورقة الأولى : « مدينة ديدهام ، رعية القديس إيرونيموس . الكنيسة لا دين عليها . بيت الكنيسة جديد . والمدرسة فيها تسعة فصول » . وعلى الثانية : « مدينة مولدن ، رعية القديسة مرجريتا . الكنيسة مدينة بثلاثين ألف دولار . بيت الكنيسة مهدّم . وليس فيها مدرسة » .

وقال له الكردينال : « ألق اختيارك ، أيها الأب » .

— « أختار رعية القديسة مرجريتا ، يا سيدى » .

— « شكراً ، أيها الأب » .

وتبخرت « السيادة » من شخصية الكردينال وظهرت شخصية المدبر الكبير الذى مدّ لموناجان يداً عطوفاً قائلا : «أتمنى لك حظاً سعيداً ، يا بل » .

فى عشر سنوات كان وليم موناجان قد سدد دين الكنيسة ، ثلاثين ألف دولار بكاملها ، وهو الآن يقوم بعمل قرض أكبر ، بموافقة الكردينال طبعاً ، لبناء المدرسة الرعائية الجديدة . وفى أثناء ذلك كان يسكن مع مساعديه الكهنة الثلاثة فى مبنى خشبى متآكل ، وكان يتوق بمخيلته إلى اليوم الذى يزول فيه هذا المخبأ المتهدّم ويقوم مكانه بيت للكنيسة حديث مشيد بالطوب والحجر . وكافأه الكردينال على أتعابه فى هذا الحقل الذى كان يوما قاحلا ، بأن أنعم عليه برتبة رئيس دائم ، تأكيداً له بالاحتفاظ مدة حياته كلها بهذا العمل الجبار .

لم يأرق قط وليم موناجان من صعوبة العمل الملقى على عاتقه ، لكنه فى المدة الأخيرة اشمأزّ نوعاً ما من الكهنة المساعدين الذين أرسلوا إليه . لم يكن عندهم دافع للعمل . كانوا جميعاً موجهين اهتمامهم إلى الأناقة فى ترتيب الاحتفالات الكنسية ومختلف التعبدات الإكليريكية المتشعبة . أما فى الأعمال الرعائية الشاقة فلم يفلحوا .

هوذا مثلا الأب ليونز — إنهم ينعتونه « بالأبيضانى » حتى إن الرجل الضرير

نفسه يستطيع معرفة السبب لهذا اللقب . إن الأب ليونز إذا تساقط عليه بعض ذرات من المطر وهو في طريقه لتأدية خدمة ، كان يهرول راجعاً إلى البيت وقد استبدّ به الخوف من الإصابة بنزلة شعبية . ولماذا ؟ ثم إنه لم يكف عن التكلم فى الموسيقى الغريغورية . ما الضرورة لكاهن بأن يترنم دائماً بمؤلفات « پالسترينا » . وفى رعيته مئتان من المرضى طريحى الفراش ، جميعهم محتاجون إلى تشجيع الكاهن وعزائه ، وأن يمدّ لهم يد المساعدة ؟

ثم هذا الشاب الجديد فرمويل ، البضاعة الأنيقة الواردة من روما . إنه دون شك ناقد ماهر فى علوم اللاهوت وخصم عنيد واسع الإطلاع فى الحقوق الكنسية ، تكسوه صبغة إيطالية ، ويساوره زهو مستتر فى نبرات صوته . أما الأب وليم موناجان فلم يذهب قط إلى روما ، لكنه عرف كثيراً من الكهنة الشبان المتخرّجين حديثاً من الجامعة الأمريكية الشمالية هناك ، وكانوا جميعاً مسبوكين فى قالب واحد . فكان من عادته أن يهمهم لصديقه « فلين » ، راعى كنيسة « لين » ، قائلا : « كلهم أناقة دون متانة » . وكان يعقب بقوله : « إن أقدامهم النحيفة ، يا چينى ، لا تقدر على حمل أفكار رؤوسهم » . قد تكون نزوة إرلندية ، لكنها كانت تجد أذناً صاغية عند صديقه فلين .

فى هذا المساء الممطر من شهر أبريل ، بينما كان وليم موناجان يجوب حجرة مكتبه إذا بعنقه قد زاد احمراراً من فرط عصبيته . كان يحلم بذلك الكاهن المثالى ذى الأقدام العريضة والأيدى التى لا تعرف كللا . زد على ذلك أن أموراً أخر كثيرة تزعجه ويقف لها شعر رأسه . فقد كان عدد كبير من الإيطاليين ينسابون كالسيل إلى رعية القديسة مرجريتا . وأصبحت كل البقعة غربى السكة الحديدية « بوسطن ومين » تعجّ بالمهاجرين من ناپولى — قوم صياحون ، معربدون ، مدمنو خمر ، سريعون إلى شهر خناجرهم الفولاذية ، بطيئون فى التبرع بقطعهم الفضية . لاشك أنهم كاثوليك ، وبالتالى مقبولون لدى الله ، لكنهم فى نظر الأب موناجان ، الذى لم يكن رباً وإنما مدبراً فقط لرعية تكفى أودها ، كانوا غير مرغوب فيهم نهائياً . وذلك لسببين : أولهما أنهم لم يساعدوا راعيهم بكرم ، وثانيهما أنه لم يعرف كيف يتعامل معهم . كانوا ذوى انفعال ، خرافيين ، قذرين ، ومتهكمين ليسوا بأدب

كالسلتيين ، لكن على طريقتهم الوطنية الخاصة . وفى كلمة مختصرة لم يكونوا إرلنديين . والأنكى أنهم يدفعون بالإرلنديين إلى الخارج . إن الأسماء الجميلة القديمة مثل « فينان ، وفينجان ، وفولى » بدأت تختفى لتظهر مكانها على بجرن العماد أسماء أخر مثل « كستلوشى ، وفوپيانو ، وماريندلى » . فإن لم يدافع ميخائيل رئيس الملائكة أو أى قديس مجاهد آخر عن بل موناجان فى جهاده مع أبناء رعيته « اللاتين » فلا حياة بعدئذ فى كنيسة القديسة مرجرينا .

أى قديس مجاهد ؟ إن الأب موناجان كان يفضل لو حظى بكاهن مساعد غيور .

دقت ساعة الحائط العاشرة والنصف ، وانتفخت العروق باحمرار متزايد فى عنق الرئيس من شدة عصبيته . أين هو الآن هذا الكاهن الجديد فرمويل فى مثل هذه الساعة ؟ مرّ موناجان سريعاً بطرفه على برنامج القداديس الأسبوعى الذى كتبه الأب آيرتون بخطه المستطيل .

بارك الله بالأب آيرتون ، إنه كاهن نظامى ومساعد قيم ، دل البرنامج على أن الأب ستيفن فرمويل معين لقداس الساعة السادسة والنصف غداً صباحاً وأن خادمه على الهيكل هو « چيمى سپلين» . أليس من الواجب على كاهن شاب ، عشية إقامته القداس فى رعيته الأولى الجديدة ، أن يكون راكعاً فى غرفته ليستعد بالصلاة والتأمل ؟ لكن أين هو الأب فرمويل ؟ نعم ، إن هذا الشقّ المتأنق يزور أهله فى غرب مدفورد ، ولاشك أنه يسليهم بقصصه الطريفة عما رآه وعمله فى روما ، وكيف شاهد الكرادلة ڤانوتلى وميرى دلڤال يغادران الڤاتيكان وكل منهما ممسك بذراع قداسة البابا وهم فى طريقهم إلى كاتدرائية القديس بطرس ليحتفلوا بالقداس الرسمى الكبير ؛ أو حكايات أخر من هذا القبيل .

غلى الغضب فى موناجان لما بدأ عقرب الدقائق يرتفع ويقترب من الحادية عشرة إذا بالباب الكبير الخارجى يفتح ثم يدخل الكاهن الجديد البيت ويصعد على أطراف قدميه . فقفز بل موناجان من مقعد الرئاسة بجسمه الضخم وتوجه نحو باب مكتبه وأمسك بأكرته البنية اللون . ولما كان واجب الرؤساء توجيه الكهنة

المساعدين وتدريبهم على النظام ، فقد أوشك موناجان أن يخلع الباب من أساسه ويقوم بواجبه كاملا ، لولا أن لمعت عيناه الزرقاوان المتطاير منهما الشرر والغضب إذ وقع بصره على صورة صغيرة فى إطار بيضى الشكل فضى اللون .

الصورة لكاهن شاب ذى شعر مسرّح على شكل سمكة وذقن مغمز مربع . لم تكن عينا الكاهن الشاب مرتفعة نحو السماء ولا منحدرة نحو الأرض ، بل مستوية فى أمل ، وثابتة فى هدف . التقطت صورة الأب وليم موناجان هذه يوماً بعد رسامته وكم كان أبواه فخورين بها ! لقد وضعاها فى هذا الإطار الفضى وحفظاها فى القاعة فوق المدفأة فى جنوب بوسطن حتى توفاهما الله . كان ذلك منذ زمن بعيد . لم يظنا ، والأب وليم موناجان نفسه ، أن هذه الصورة تمثل مزيجاً من جميع الكهنة المساعدين ذوى الأقدام العريضة والأيدى العاملة القديرة التى بنت أبرشية بوسطن حجراً حجراً على مرّ الزمن . والآن أيضاً ليس عند وليم موناجان أىّ ذكر لكل ذلك . إن الصورة ذكرته فقط بأن أغلب الكهنة المساعدين لهم أهل فى مكان ما ، وأنه لا ضير مطلقاً على ثوب الكاهن إذا ما امتدت إليه يد والدته لتداعبه .

لكن هذه الفكرة لم تثن عزمه عن إعطاء الأب فرمويل درساً قوياً . ففتح الباب بسرعة وفى صوت ربان باخرة يستوضح مساعده لماذا بحق السماء لا تتجه الباخرة نحو أىّ هدف ، سأل :

— « أهذه عادةً مواعيدك ، أيها الأب فرمويل ؟ »

فكّر ستيفن أن جواباً رقيقاً هو المأثور فى مثل هذا الموقف : « إنى أسف لهذا التأخير ، يا أبى . سوف لا يحدث ذلك مرّة أخرى » .

— « اعمل على ألا يحدث » . وأوشك موناجان أن ينهى الحديث ويقفل الباب ، وإذا به يلمح شعر هذا الكاهن الشاب ذى القدمين العريضتين مندى قليلا كأنه مشى قليلا تحت المطر . وجد أن علامة الشجاعة هذه عند الكاهن المساعد تدعو إلى الانشراح . بعكس ما وجده عند الأب ليونز الأبيضانى وخوفه من التبلل . يجب إذن استيضاح هذا الأمر .

— « تفضّل إلى مكتبى ، أيها الأب فرمويل » . وفى نظرته الثاقبة قدّر موناجان كمية الماء اللامع فى شعر ستيفن . فألقى بملحوظة استكشافية .

ـ « أرى أنك لا تخاف قليلاً من المطر » .

أجاب ستيفن : « إنى أحب المطر » .

ـ « اجلس » .

غاص ستيفن ملتوياً فى مقعد من طراز « موريس » هوى قعره ، وسرّح نظره فى الغرفة . إنها قاعة ومكتب وحجرة نوم معاً . لها طابع غريب غير محدود لا يجيده أو يفهمه سوى رجل أعزب دائب العمل .

ليس فيها شيء يناسب الآخر . المكتب قديم من خشب البلوط المدخن ، ذو غطاء عال منحدر ، وفى كل ركن منه أوراق وظروف وسجلات ورسومات وأكياس للنقود . والمكتبة سوداء من خشب الجوز بشعة المنظر ، اكتظت بها المجلات الدينية المهملة . أما السرير فضخم ومرتفع على أربعة أعمدة ، على الجانب الواحد منه حمالة نحاسية للملابس وعلى الجانب الآخر صورة زيتية للقديسة سيسيليا تلعب الأرغن . أما أرض الغرفة فمغطاة ببساط متهدل . وأما السقف فقد تدلت منه ثريا من الكريستال أعدت منذ عهد « ولباخ » لتضاء بالغاز ، والآن جهزت بأسلاك الكهرباء ، تتمايل فيها قطع الكريستال بجلبة كلما مرّ الترام فى الشارع .

وتساءل ستيفن : ما هذا الشكل المحزن ؟ وتذكر مكتب كارنجى ، بجداره الأبيض خاوياً إلا من منضدة بسيطة وكرسى خشبى ورفّ يحمل كتباً مذهبة : حجرة ناسك . لكن تلك الحجرة ماذا تنبئ عن الرجل الساكن فيها ؟

بدأ موناجان يجوب حجرته بين الباب والنافذة ، وقد نزع ياقة قميصه ولبس خفًّا فى رجليه ، وشبك يديه وراء ظهره ، ووجهه الأحمر منصبًّا إلى الأمام . كان يحاول جاهداً ألا يوجّه نظره إلى شيء ما : ألا وهو قدما مساعده . لكنه أخفق . فتوقف عن المشى وحدق فى قدمى ستيفن .

هيه ! هيه ! ياللشقّ ! . . . ضيق نوعاً ما . . ربما احتاج إلى توسيع قليل . . . يجب إقناعه بلبس حذاء ذى عنق طويل بمسامير بارزة للسير على الثلج . . ولكن ليس الآن ، فيما بعد . . .

وسأله موناجان : « ألم تؤلمك قط قدماك ؟ »

— « أبداً » . تساءل ستيڤ متعجباً عما يرمى إليه موناجان . وتصوّره فى مشيته وقوامه كثور ضخم يجرّ المحراث دون عناء . ثم توجّه موناجان فى خط مستقيم نحو النافذة ، وألقى نظرة من بين الستائر ، وقال :

— « أملى أنك لم تأت إلى كنيسة القديسة مرجريتا وأنت مثقل بعادات . . »
ولفظ كلمته الأخيرة ببطء ، متثاقلا على المقطع الأخير . . « بعا . . دات . . . »

فأجاب ستيفن : « عادات ؟ أى نوع من العادات ؟ »

لوّح موناجان بيده الغليظة على مكتبه بعصبية : « أعنى عادات مختلفة . . . متنوعة . . عادات غريغورية . . . أعنى هذه العادات الصغيرة . . . الضئيلة . . . التافهة . . . التى يحاولون تعليمكم إياها فى روما . . »

تحكم ستيفن فى كل أعصابه . . . سوى الدهشة وقال : « إنى لا أفهم ما تعنى ، أيها الأب . إن كل ما أشعر به وأعرفه هو أن الكنيسة تسلك سلوكاً أبعد شىء عن العادات » .

فأردف موناجان بحدة : « لم يكن كلامنا عن الكنيسة . كنا نتكلم عن الكهنة المساعدين . . . الكهنة المتطلينين المتروّمين . . هذا ما أعنيه . . . »

سرى شرر الغضب فى جميع أعضاء ستيفن . ما قوله هذا : الكهنة المتطلينين المتروّمين؟ هل فى نية موناجان أن يسدد لكمة بكلماته تلك ؟ هل هذه فكرته حقّاً ؟ هل يوجّه مثل هذا الهجوم الجاف الخبيث إلى الثقافة الفنية والعلمية التى أنتجت أناساً أمثال پتشى ، ورمپولا ، وميرى دلڤال — أو إلى فلاسفة وسياسيين وأمراء الكنيسة ؟

أراد ستيفن أن يوجه إليه ردّاً لاذعاً ، من أمثال كلمات أبيه القاسية ، كأن يقول له : « صه ! يا غليظ ! » لكنه ردع نفسه وأجاب بهدوء ثابت :

— « ما من أحد حاول أن يؤثر علىّ بأىّ حال . قد تبعت برنامج الدروس العادى فى جامعة أمريكا الشمالية » .

— « فهذا إذاً ! » أجاب موناجان كمن يقول : « نحن هنا » ! وأردف قائلا : « وهل يزعجك أن تسرد علىّ لائحة العلوم التى تلقنتها ؟ »

قررّ ستيفن أن يحتفظ بحلمه وصبره . فقال :

— « هذا لا يزعجنى ألبتة . فقد درسنا اللاهوت المقدس والحقوق الكنسية ،

والفلسفة الأدبية ، واستمعنا إلى بعض المحاضرات فى السياسة الكنسية . وبالطبع لم نهمل درس الكتاب المقدس وتفسيره ومعارضته ومقارنته » .

— « تعارض ماذا ؟ »

لم يأبه ستيفن لهذه الحركة المسرحية، وقال : « إننا نعارض النصوص بعضها مع البعض الآخر ونقارنها » .

لكمة ثابتة سدّدها ستيفن إلى فك موناجان الغليظ ثم قال : « قد قارنا ترجمة القديس إيرونيموس للعهد الجديد ، بالنسخة الآرامية واليونانية » . . ضربة أخرى ! . . سوف تسوّيه ! . .

— « حقاً فعلت كل هذا ؟ » لم يهتزّ موناجان ، لكنه هزّ رأسه نحو صورته فى إطارها الفضىّ ، كمن يقول : « أترى كيف يدربون الكهنة فى أيامنا ؟ » ثم استدار نحو ستيفن وقال : « وماذا تعلمت أيضاً فى روما ؟ »

— « فى السنة الأخيرة زاد اهتمامنا بدرس الترتيبات الكنسية » .

فرك موناجان يديه طرباً كوكيل للنيابة عند سماعه أحد الشهود يتلعثم فى كلامه ويثبت على نفسه التهمة فقد سرّته هذه البراهين المختلفة . إن حب الأب فرمويل للمطر وقدميه العريضتين رجحت كفة ثقافته الأنيقة . لكن لابأس من إيجاد براهين غيرها .

— « فى أثناء دراستك هذه الأنيقة ، أيها الأب فرمويل ، ألم — وتصنع التوقف فى كلامه كما يفعل المحامون — ألم تسق قط عربة للّبن ؟ »

فأجاب ستيفن فى غير اهتمام : « كلا ، لم أفعل » .

— « حسنا ! إنّ خبرتى إذن فى هذا الشأن على الأقل تفوق خبرتك . لأننى فى صغرى قد سقت مثل تلك العربة . فى تلك الأيام كنا نسكب اللبن من صفائح مفتوحة فى جرادل وأوعية أو فى أىّ شىء يقدّمه لنا عملاؤنا . لكن أترك الآن تلك الناحية من قصة حياتى لأبين لك الميزة التى يتمتع بها من ساقوا فى حياتهم عربة للّبن على سواهم » . وأتى موناجان بحركة من إبهامه اليمنى كمن يدعك قطعة من العجين فى راحة يده اليسرى ، تورية منه فى إلقاء درس على مساعده : « هذه الميزة تتركز فى مقدرتك على معرفة جودة الحصان الذى يجرّ عربة اللبن عن بعد

نصف ميل . أتدرك معنى كلامى ، أيها الأب ؟ »

— « نعم ، أرى أنك تضرب مثلا » .

— « مثلى يرمى إذن إلى القول بأن كثيراً من الحيوانات الذكية تتعثر بين عجلات العربة ، لأنها لم تتعود العمل . ثم هناك صنف آخر من الحيوانات ، من فصيلة فضلى ، تحاول الجرى بعربة اللبن كما لو كانت عربة للسفر أو عربة عجلاتها من المطاط ؛ وهذا كما ترى ، أيها الأب . . »

فتمتم ستيفن : « ليس هو الحال » .

— « الشبه بعيد . لا ، بل هو معدوم . أما الآن فالمطلوب على عربة اللبن ، أيها الأب ، هو مخلوق مطيع ، دائب العمل ، يقدر على جر الحمل صعداً ونزلا ، يسير مع الإشارة ويقف دون ربط . وهذا ، إذا فسرنا المثل ، هو عمل الكاهن المساعد هنا فى كنيسة القديسة مرجريتا » .

اتسعت فتحتا أنف ستيفن لكنه لزم الصمت .

— « هل هذا يزعجك ، أيها الأب فرمويل ؟ »

— « قليلا » . ثم قام ستيفن من مقعده ، ودون انتباه وضع قدميه فى الحذاء الذى يلبسه رئيسه وتمشى فى عرض الغرفة ، ثم قال : « إنى أعلم يقيناً أن الكاهن المساعد ليس بهلواناً يتسلق أعلى قبة الجرس ، وأعلم أيضاً أن عملى فى الكنيسة لن يدور على عجلات من المطاط . إنى أترقب عملا شاقاً . وأهلا به ! لكن . . . » وفى هذه اللحظة مر ترام فى الشارع ، وانتظر ستيفن حتى تتوقف قطع الكريستال فى الثريا عن إحداث ضوضائها . . . « لكن هل كان من الضرورى أن تصور مثل عربة اللبن بهذه البشاعة ؟ »

أجاب موناجان : « إن الغموض عندنا لا يفيد شيئاً . والأجدر استعمال الوضوح ، أو الصراحة كما تحب ، فى البداية بدلا من التأرجح ببعض العادات » .

ياالله ! — هم ستيفن أن يصرخ بأعلى صوته — كفاك استعمال هذه الكلمة . قد جعلت منى حصاناً يجر عربة اللبن ، حسناً ! وسأتحرك على أول إشارة ، وأطوف بالرعية حتى أصبح هيكلا عاجزاً مكسراً على مثالك . حسناً أيضاً ! . . لكن ، أثناء ذاك ، ما قولك فى أعمال العقل والروح ، فى أن يكرس الشخص ذاته للآب ،

وأن يروّض نفسه على الاقتداء بالقديسين ؟ ألا يكون لهذه الأعمال قيمة فى كنيسة القديسة مرجريتا ؟

تلاحقت الأسئلة فى مخيلة ستيفن ، وهو يحدق بنظره فى شكل الحجرة المحزن ، لكنها بقيت دون جواب . كيف يمكنه حقًّا إقناع هذا الرجل الغليظ ؟ أو كيف يمكنه النفوذ إلى عقله المتحجر ، الضيق الأفق ؟

درننن . . . !

شخص يدقّ الجرس بشدة : « سأرى من الطارق » قال ستيفن متطوعاً . ثم جرى نازلا على السلم المتآكل وفتح الباب . فظهر أمامه رجل قصير القامة مرتد سترة يبرز من تحتها قميص النوم ، وفى نظراته أخبار مزعجة . وبدأ الرجل يتلو كلامه تباعاً كحامل البرق :

— « السيدة فيتزچيرالد . . . تهبط بسرعة . . . الطبيب فاريل يقول للأب موناجان . . . احضر سريعاً » .

وإذا بصوت الرئيس الأجش يهدر من أعلى الدرج : « أليست آنى فيتزچيرالد ، فى ١٤ شارع براكنبيرى ؟ »

أجاب المرسل : « إنها هى . . . إنى زوجها أوين فيتز. من فضلك، يا أبى احضر سريعاً » .

فأجاب موناجان : « سأكون عندك بعد خمس دقائق » .

فى قفزتين أصبح ستيفن فى أعلى الدرج . وقال متوسلا : « دعنى أذهب ، يا أبى ، إن ثيابى علىّ وأنا مستعدّ — ولم يستطع الإضافة : — إنى أصغر منك سنًّا . . . ومفاصلى تتحرك بسهولة أكثر منك » .

أما « دولار بل موناجان » فهزّ رأسه وهو يعقد سترته وقال : « أشكرك أيها الأب فرمويل . يجب أن أهتم بهذا الطلب شخصيًّا . إن آنى فيتزچيرالد عاشت فى الآلام ثلاث سنوات . وهذه المرأة المسكينة قد لا تعرف كيف تموت من دونى » . ثم لبس حذاءه العالى المطاط وأردف : « لكن لو تكرمت أيها الأب فأسرع إلى المقدس وأحضر لى قارورة الزيت المقدّس . ستجد المفتاح معلقاً على لوحة البرنامج . إن آنى فيتز ستحتاج إلى الأسرار الأخيرة فى هذه الليلة » .

أسرع ستيفن . وعند رجوعه بالقارورة ، كان وليم موناجان يخرج سيارته الباكار من المخزن بالمؤخرة . وقال ناصحاً الأب فرمويل : « خذ قسطاً جيداً من الراحة فى هذه الليلة ، فإنك سوف تقدم قداسك الأول فى الكنيسة غداً . ولا شىء يزعج مخلّصنا ويؤلمه أكثر من رؤية كاهن يتثاءب ويتثاقل على الهيكل . أتفهمنى ، أيها الأب ؟ » .

أجاب ستيفن : « كيف لا ؟ » ووقف عارى الرأس فى الممشى حتى اختفى الضوء الأحمر من مؤخرة السيارة فى الظلام الممطر .

* * *

بزغت شمس مايو من وراء سهول النهر الغامض ملوّنة بأشعتها الذهبية كل شىء سواء أكان مقدساً أم دنيويًّا : الصليب على قبة جرس الكنيسة وخزان الغاز البنى القذر الموجود وراءها . خرج الأب ستيفن من بيت الكنيسة ونزل ثلاث درجات إلى الفِناء ، وكتاب الصلاة بين يديه وقبعته السوداء على رأسه ، وذقنه يلمع بعد حلاقة ناعمة . تنشّق نسيم الربيع العذب مترنماً بالشكر لصانع الكون وخالق الزمن ، وبالخصوص لمبدع يوم الربيع هذا . فى هذا اليوم ، وفى دقائق معدودة — وبالتحديد فى الساعة السادسة والنصف — سيمارس الأب ستيفن فرمويل الحياة الكهنوتية المجيدة ، سيقوم بمراسيم قداسه الأول بوصفه كاهناً مساعداً فى كنيسة القديسة مرجريتا الرعائية .

تقدّم فى ممرّ الفناء الضيّق بين البيت والكنيسة ، وفتح باب المقدس ودخل . كان الهواء الرطب مشبعاً بروائح البخور والطيب . فلمح على ضوء المصباح الأحمر فى المقدس الصندوق الكبير الذى يحتوى على الملابس الكهنوتية . سرّ ستيفن لأن القندلفت « ڤال ماك جواير » لم يفتح باب الكنيسة ولأن الولد المعين لخدمة القداس لم يكن قد وصل بعد . أحب الكاهن الشاب أن يمكث قليلا وحده ليُعِدّ نفسه لأعظم عمل فى حياته ، وهو يصبو إليه الآن بأقصى جوارحه وفى فرح متزايد .

أحنى ركبتيه على مركع مخادع ، وطأطأ رأسه وغطى وجهه بكلتا يديه وتوسل فى داخله إلى الله الآب أن يجعل منه كاهناً مخلصاً غيوراً . عند انتهاء هذه الصلاة الخصوصية التى أرادها قصيرة ليتفادى كل شعور عاطفى تافه ، قدم ستيفن قداسه

على نية والدته . ثم انتصب رغسل يديه مردّداً مطلع صلاة غسل الأيادى : « أعطنى ، يارب » . ثم خلع قبعته ووضعها على المركع وتقدّم ليرتدى الثياب المقدسة .

تلقّن ستيفن فرهويل علومه فى الترتيبات الكنسية والقواعد المختلفة فى الاحتفالات المقدسة ، على يد « جوليلمو زوالدى » من الآباء اليسوعيين . فاقتبس منه معرفة كاملة دقيقة للتقاليد العريقة التى تحوط بذبيحة القداس الرهيبة . والآن ، فقد سطعت عند هذا الخادم الإلهى ، وكأنه فنان ، روح الدقة والاحترام فى أبهى مظاهر الفنّ العاطفى . كل نبرة من صوته ، كل حركة من رأسه ، أو يديه ، أو جسمه كان يؤدّيها بعناية فائقة : إنه تمرينه الأول فى حياته الكهنوتية .

وضع ستيفن المنديل الأبيض على كتفيه ، ورتب قميصه الأبيض بحيث ينزل متساوياً على قدميه . ثم ربط وسطه بالحزام مردداً باللاتينية هذه الصلاة : « حوّطنى يا رب بحزام الطهارة ، وأطفىء فى أحشائى كل رغبة شهوانية ، حتى تمتلىء نفسى من قوة العفة والنقاوة » . ثم تناول الكمّ وقبّل الصليب المرسوم عليه فى الوسط ، ووضعه على ساعده الأيسر ، رمزاً للمتاعب الدنيوية الواجب على الكاهن تحملها . ثم أمسك المعنقة بكلتا يديه ، قائلا : « ردّ لى ، أيها الرب ، ثوب الخلود الذى فقده أبوانا الأولان بالخطيئة » . وأوشك أن يلبس المعنقة المقدسة ، حين فتح باب المقدس ، ونفذ منه ولد صغير يلهث تعباً ، ومرّ بالقرب من المركع ، وقذف بقبعة الأب ستيفن إلى الأرض ، ثم التقطها ثانية ، ووقف مدلّى اليدين فى وسط المقدس .

قال الأب ستيفن دون أن يدير رأسه : «حسناً ، يا چيمى ؛ البس بذلتك » .

بينما كان الأب ستيفن يلبس المعنقة على صدره ألقى نظرة حوله فرأى ولداً صغيراً لم يتجاوز التاسعة من عمره . شعره منكوش ووجهه غير مغسول ، مرتدياً معطفاً طويلا أخضر اللون متساقط الأزرار مشكولا فى وسطه بدبوس كبير معكوف.

— « إنى لست چيمى — أجاب الصغير متلعثماً — إننى چامى » .

ثم تنهد الصغير قائلا : « كان چيمى مريضاً الليلة الماضية . وتقيّأ مرتين على السرير . وقال أبى إن سبب ذلك هى أقدام الخنزير التى هيأتها لنا أمنا للعشاء ، وتشاجرا وطلب منى چيمى أن أحل مكانه وأخدم على الهيكل فى هذا الصباح » .

تطلع چامی بدهشة إلى القبعة التي التقطها ، وقال متردداً : « لا شك أنى رميتها على الأرض » .

فحاول الأب ستيفن ألا يسرح بمخيلته ، وقال : « ضعها على المركع والبس قميص الخدمة ، يا چامى . ستجده فى تلك الخزانة بالقرب من الباب » . وفى هدوءٍ لبس الأب ستيفن المشملة ، ولف الشريط حول ظهره ثم ربطه من الداخل على صدره .

من طرف عينه لمح « چامى سپلين » وهو يجاهد فى خلع معطفه الكبير . وسمع من خلفه القندلفت « ڤال ماك جواير » يدخل المقدس ليتحقق من سبب تأخير القداس . فلاحت بين عينى الأب ستيفن بوادر التضجّر . لكنه لم يدع صوته يخونه عند توجيهه كلامه إلى خادمه الصغير : « لا شك أنك تعرف الأجوبة يا چامى ؟ » .

— « لا بأس ، يا أبى » .

فخطر لستيفن أن مساعده لا يصلح الاعتماد عليه ، وقال له : « أعطنى قبعتى ، من فضلك » .

أمسك الأب ستيفن بالكأس بيده اليسرى ، ووضع يده اليمنى على غطاء الكأس ، وحملها أمامه ، دون أن يسندها إلى صدره أو يبعدها كثيراً عنه . ثم أشار إلى چامى أن يتقدمه ، وتبعه ماشياً بكل وقار نحو الهيكل ، وذهنه مركّز فى كيفية إتمام عمله المقدس .

لم يكد الأب ستيفن يتلفظ بالكلمات الأولى ، حتى تبين له أن مساعده لا يجيد لفظ اللاتينية مطلقاً . ففى الأجوبة الأولى ، تعثر چامى فى ذاكرته ، ثم بدأت تخونه ، ولم يلبث طويلا أن بدأ يتلعثم فى كلامه يائساً . وبعد قليل أصبحت أجوبة الصغير وحركات يديه وقدميه ولسانه تدعو إلى الشفقة . ووقع له حادث صغير وهو يحمل الكتاب من يمين الهيكل إلى شماله : لما صعد درج الهيكل تعثّرت قدمه وكاد يقع لو لم يمدّ الأب ستيفن يديه ويمسك بالكتاب و بالولد قبل أن يتدحرج .

غلى الأب ستيفن فرمويل غضباً لما رأى هذا « الأراجوز » يفسد له قداسه

الأول بتمتمته وشخلعته . فالعمل الفنيّ الروحي قد لوثته أيد قذرة ، والذبيحة الإلهية التي تعتبر محور الصلوات وتُمارَس بكل دقة وترتيب قد فقدت رهبتها ورونقها .

في يأس جاهد الأب ستيفن لطرد تشتّت الفكر الذى سببه له جهل خادمه في تحركاته . وفي وقت التقدمة حاول جاهداً أن ينسى كل شيء سوى القربان الذى بين يديه . وفي صوت خافت وانتباه كامل ، وفي وضوح وخشوع نطق بالخمس الكلمات : « خذوا فكلوا هذا هو جسدى » التي بها يتم سرّ التحويل المقدّس الذى يشعّ نوراً على حياة البشر .

لحسن حظه ، لم يفعل چامى شيئاً ليفسد رهبة الموقف . لكنه في وقت المناولة غشيه الخجل إذ نسى أن يقدّم الصينية حينما كان الأب ستيفن يناول القربان المقدس للمؤمنين القليلين الذين حضروا قداسه الباكر .

في انتهاء القداس ترك الأب ستيفن الهيكل في غاية الاشمئزاز حتى إن الفكرة ساورته بأن يركل « چيريمى سپلين » على مؤخرته . وعند دخوله المقدس تدافعت الكلمات اللاذعة على شفتيه ، لكنه كتمها . ثم وضع الكأس على المنضدة وبدأ في خلع ثيابه المقدسة . في البدء حاول بصعوبة أن يهدّئ من ثورة غضبه . لكنه في أثناء خلعه ثيابه المقدسة – المشملة الثقيلة المطرزة بالذهب والفضة ، والكم الحريرى الثمين ، والقميص الكتان الناعم – انتابه شعور غريب بحقيقة الأمر .

تذكر أنه ارتدى ملابسه المقدسة بروح الخيلاء وليس بروح الاتضاع ، وأنه تقدّم إلى الهيكل بنزعة من العلياء الأنيقة التي لا بدّ أن تفسد اكتمال عمله الكهنوتى . لكن ارتباك چامى وحركاته البهلوانية خلّصته من التمادى في خيلائه ، لأن الصغير كان قد جعل من جسمه النحيل الممدد أمام الهيكل جسراً حيًّا وقى الأب ستيفن من الهبوط في جُبّ الكبرياء المظلم الفاغر فاه تحت أقدامه .

– « چامى ، تعالَ هنا » .

أطاع چامى الأمر وتقدّم مطأطئ الرأس لعلمه بإخفاقه وسوء طالعه . كان قد خلع قميص الخدمة ولم يرتد بعد معطفه الأخضر . فبدأ صدره أشبه بالدجاجة النحيلة المرطاء ، وعليه قميص داخلى ممزق قذر . وبدلاً من الحزام ، كانت قطعة

من القماش تربط بنطلونه المخمل المقلم .

لم تكن ملابس چامى معطرة بالطيب والبخور ، أو محفوظة فى خزانة لتقيها من الرطوبة والعفن ، لكنها ملابس يومية تلبس وتبلى على جسم يتصبب عرقاً معرّض للحرّ والغبار .

فى محبة وضع ستيفن أنامله تحت ذقن الولد البارز ورفع رأسه العريض الأشعث الشعر وحدّق فى وجهه المبتل بالدموع .

— « كانت خدمتك على الهيكل سيئة ، يا چامى » .

— « نعم ، يا أبى » .

— « لكن قبل أن نفترق ، يا چامى ، أتمنّى أن تحسن خدمتك على الهيكل فى المستقبل ، وأتمنى لنفسى أيضاً — وهنا ابتلّت عينا الأب ستيفن بغمامة طفيفة — أن أصير بعون الله كاهناً أفضل » .

* * *

لن يعلم أحد ألبتة حقيقة ما همس به القندلفت « ڤال ماك جواير » فى أذن وليم موناجان . لكن القندلفت قد عبر بطريقة أو بأخرى عن شعوره بأن الكاهن المساعد الجديد لم يُجد التصرّف فى إقامه القداس .

عند الظهر جلس وليم موناجان إلى مائدة الغداء جائعاً . فقطع شريحة كبيرة من اللحم البارد مع كمية من البطاطس المحمرة . ثم فتح زجاجة عصير الطماطم ، وقال دون أن ينظر إلى أحد : « بلغنى أن قداس السادسة والنصف هذا الصباح قد انقلب إلى سرك » . واستمر الرئيس فى تقطيع شريحة اللحم ببطء : « إنما هنالك فرق — ثم قذف بكلمات قاطعة — وهو أن السرك يبدأ فى الوقت المحدّد » .

لم يَفُه الأب بولس آيرتون بكلمة لأنه ظل نائماً حتى السابعة صباحاً . إن موقفه موقف مراقب برىء بعيد عن خط النار . أما الأب ليونز الأبيضانى فأصدر صوتاً مكتوماً يدل على الدهشة كما لو أراد أن يقول : « أيمكن أن تحصل مثل هذه الأشياء ؟ » أمام هذا الصمت أصبح الأب ستيفن معرّضاً من كل جهة . تُرَى هل مثل هذه المواقف المحرجة معدّة خصوصاً للكهنة المساعدين الجدد فى بيت موناجان ؟

البارحة فقط ، فى عنفوان شبابه ، كان من السهل لستيفن أن يجذب إليه عشرات الأصوات المضادة لموناجان . والآن أيضاً ساوره الشك وكاد يقول : « إذن ، يوجد فى رعية القديسة مرجريتا من يتناقل الأخبار ؟ » لكنه ردع نفسه ونظر بهدوء إلى رئيسه ، وقال فى شبه اعتذار :

— « لقد حصل شىء من التأخير ، أيها الأب . لم أكن مُلِمـّاً إلماماً كافياً بترتيب الثياب المقدسة » .

أما الرئيس موناجان فقد كان مصمـّماً فى ذلك الوقت على إلقاء محاضرة فى النظام فقال : « وما رأيك فى هذه الحركات البهلوانية حول الكتاب ؟ بلغنى — كان موناجان يستسيغ هذه العبارة — أنك وخادمك كنتما تتلقّفان الكتاب بينكما . هل هذا آخر ما وصل إليه فريق الجامعة الأمريكية فى روما ؟ » .

خفّ الأب بولس آيرتون إلى مساعدة ستيفن قائلا : « إنها غلطة الولد الصغير ، أيها الأب . إن چيمى سپلين مرض الليلة الماضية واضطر إلى إرسال أخيه الأصغر لينوب عنه فى آخر لحظة . وقد أخبرتنى السيدة سپلين بالقصة كاملة ، وقصص غيرها ، عندما قابلتها فى الميدان هذا الصباح . »

لكن هذه المعلومات بدلا من أن تهدئ من حرقة موناجان زادته استفزازاً فقال : « ما هذا ؟ چيمى سپلين يمرض والقداس يُمسخ . بحق السماء ، أليس لدينا سوى ولد واحد ليخدم على الهيكل ؟ ألا يستطيع البعض منكم ، أنتم أيها الكهنة المساعدون ، أن يهتم بشؤون الهيكل ، أو يعلّم نصف دستة من الصغار كيف يخدمون القداس ؟ » .

لاحظ ستيفن أن موناجان محقّ فى انفعاله . كان من حقه ، وهو الغارق فى هموم الرعيّة الماليّة ، أن ينتظر من أحد كهنته المساعدين ليقوم بتدريب الصغار على الخدمة فى الهيكل . رغب ستيفن فى أن يتطوّع ، من حين لآخر ، لكن الأب « فرانك ليونز » سبقه بإشارة خفية خجلة ، قائلا : « فى استطاعتى أن أعلّم بعض الصغار الترتيل فى الكنيسة » .

فهاج موناجان لهذه الفكرة : « لا أريد ترتيلا عندى هنا . هذه كنيسة رعائيّة ، وليست بكاتدرائية » . ولفظ كلمته الأخيرة كما لو نطق باسم داءٍ خبيث .

فما كان من الأب ليونز إلاّ أن مال على فنجان اللبن وشربه بصمت. وتدخل حينئذ ستيفن قائلا: «سوف أدرّب بعض الأولاد على خدمة الهيكل أيها الأب».

— «ليكن ذلك إذن عملك. ولا أريد أناقة تافهة، من فضلك كل ما فى الأمر أن يجاوب الصغار فى لغة لاتينية صميمة محترمة، وأن يدركوا فى احترام ما يقومون به من عمل فى الهيكل. أتفهم؟»

— «فهمت، أيها الأب».

ثم قام الرئيس موناجان وصلّى الشكر بسرعة وغادر المائدة إلى حجرته متلهفاً إلى السيجار المعطر الذى كان يحفظه فى صندوق مرطّب. وجلس الكهنة الثلاثة المساعدون فى صمت محملقين بأبصارهم بعضهم فى بعض.

قال الأبيضانى فى حدّة: ما الذى يزعجه فى الترتيل؟ إنه جميل جدّاً، وذو أهمية كبيرة أيضاً. إن البابا پيوس العاشر نشر عنه مقالة، أتعلمون؟».

قال ستيفن: «نعم، أليست هى المقالة التى ورد فيها أن الآلات الموسيقية لا تستطيع أن تحلّ محلّ الأصوات البشرية لتمجيد الله؟».

فأجاب الأبيضانى متحمساً: «هو هذا بعينه. إن الحبْرَ الأعظم يحثّ جميع الرؤساء الكاثوليك على أن يعيروا اهتمامهم لتدريب أجواق الأولاد فى الترتيل الكنسىّ. وليس هذا فقط...» بالطبع كان الأب ليونز يعرف المقالة عن ظهر قلب — «إن البابا ينتقد أيضاً كثرة الأجوبة وطولها عند الشعب، ويقول إن..»

— «عفواً — قال الأب بولس آيرتون — يجب الرجوع إلى الظروف التى كتبت فيها هذه المقالة. فأولا، كان البابا پيوس العاشر بطريركاً على البندقية. أتذكرون البندقية تلك المدينة التى ناضلت فى وجه الشرق المجيد؟ لم يكن فيها مراكب آليّة، ولا أنوار كهربائية، وإنما عدد كبير من الجوندولا ومراكبيّة يغنّون بين القصور المبنية على أعمدة فوق المياه، وما شابه ذلك. هذه هى العادات التى نوّه إليها البابا پيوس العاشر. أما الآن فلديكم رجل كرئيسنا، متشبّع من محبته للغرب لا يميّز العلامة المربّعة من المستديرة، ويعيش فى مدينة صناعية حيث الكهرباء

زهيدة الثمن . فلماذا ، بحق السماء ، يجب عليه أن يفضّل أصوات الأولاد على الأرغن الكهربائى الجديد الذى اشتراه أخيراً بعشرة آلاف دولار ؟ »

قال الأبيضانى : « لكن الترتيل بالأصوات الطبيعية إرث عريق فى الكنيسة إنه يرجع مئات من السنين إلى القرون الوسطى » .

وقال الأب بولس آيرتون : « أضف إلى ذلك ثلاثة قرون من العادات البريطانية أعنى الأنجليكانية . وليس من المعقول أن تطلبوا من رجل شبَّ فى بلد ثارت على سيده ، أن يتمسّك بعادات سيّده ، أليس كذلك ؟ »

فهزأ به الأبيضانى بقوله: «أرى أنك ضيّق التفكير» .

فصحّح الأب بولس آيرتون العبارة بقوله : « تعنى أننى بالحرىّ إرلندىّ من بوسطن » .

تذوّق ستيفن قهوته متحفّظاً فى حكمه . إن الشكّ ساوره دائماً فيما عسى أن يتناقش فيه الكهنة بينهم . ولا يعقل أن تكون المناقشة دائماً قيّمة كهذه . كانت براهين كلا الطرفين معلومة لديه : الأب آيرتون ، على مثال دن فرمويل ، وكورنى ديجان ، وموناجان نفسه ، لم يفعل سوى إعادة بعض النظريات الحزبيّة ، فى حين أن الأب ليونز كان يدافع ، دون نتيجة ملموسة ، عن نظرية عامة كان ستيفن قد اعتنقها فى روما . أيمكن التوفيق بين هاتين النظريتين ؟ أتستطيع أمريكا أن تدرك معنى أوسع للكنيسة المقدسة الرومانية الرسوليّة ، تلك الإدارة التى تفوق اللغات والفنون والحدود الوطنيّة ؟ أوتستطيع روما أيضاً أن تقدّر هذا النمو الجبّار والحيويّة المتدفّقة فى الكنيسة عبر الأطلسى ؟

طوى الأب بولس آيرتون فوطته على شكل مستطيل كالعصا ثم عقدها من الوسط ورمى بها أمامه كمن يستسلم ولا يريد مناقشة بعد ذلك . وشعر ستيفن بمزيد من الإعجاب لهذا الكاهن الفيلسوف القنوع الذى لديه كل البراهين ولكنه يأبى التورّط أو الانقياد إلى مناقشة نظريّة لا طائل منها .

ثم أشار الأب بولس آيرتون بسبابته نحو الكاهن الجديد وقال : « بعد الظهر اعترافات . ستبدأ مع الصغار . ادخل منبر الاعتراف الذى على اليسار ، فى الساعة الرابعة ، واستعد لتسمع كل البلاهات التى تصدر من فم الأطفال » .

* * *

انتابت ستيفن رعشة لم يشعر بها قط من قبل وهو يفتح باب منبر الاعتراف ويجلس داخله فى شبه ظلام . ورفع توسلاته إلى فاحص قلوب القديسين والملائكة : « لا تدعنى أحكم على غيرى بشدة ، أيها الرب ، كما أنك فى رحمتك لم تحكم علىّ » . ثم دفع بيده إلى الوراء شبكة صغيرة ، وغطى عينيه بيده . قد بدأ ستيفن فرمويل عمله كغافر للخطايا .

من خلال الشبكة وصل إلى سمعه تمتمة سريعة مكتومة لفتاة فى الثانية عشرة : « باركنى ، يا أبى ، لأنى خطئت . قد اعترفت منذ أسبوع مضى وتقرّبت من المناولة المقدسة وأتممت القانون المفروض علىّ » . ثم سردت كمية من الخطايا العرضية : « تكلمت فى الكنيسة ثلاث مرات . تشاجرت مع أختى لأنها استعملت جواربى . صفعت أخى مرّة ، لا . . بل مرتين . وتناقشت مع أمى لما طلبت منى شيئاً أعمله . وكنت مزهوة بنفسى وأنا أتطلع إلى المرآة فى أثناء ارتدائى ثيابى » . ثم توقّفت برهة « و . . . وخطئت ضد الطهارة . . . »

سألها ستيفن بلطف : « كيف ؟ »

ــ « كنا نلعب " حاور دوّر " وسمحت لولد أن يقبلنى على فمى » . ثم تنهدت مسرورة بأنها ألقت عنها هذا الثقل . « فأطلب منك الغفران ، يا أبى ، من أجل تلك الخطايا والتى يمكن أن أكون قد فعلتها . »

لم تستغرق الفتاة فى سرد شريط حياتها العادية سوى دقيقة واحدة : المناكفات والمشاجرات ، الزهو بالنفس الطالع عند الفتيات أمام المرآة ، وعناد الشباب ، ثم القبلة الأولى تعطى اعتباطاً وتُقبَل بغباوة . كان ستيفن يعلم هذا كلّه . لكن كيف يقدّم نصحه فى أمور لا تعدو أن تكون اعتيادية يوميّة ؟ إنها ليست خطايا ، فالتعبير شديد لنعت مثل هذه الأعمال الصبيانيّة . أىّ نصيحة تصلح لهذه النفس البريئة ؟ رأى ستيفن محرجاً فى الغرور أمام المرآة . فقال :

ــ « إن أخطاءك هذه تشبه بقعاً صغيرة فى نفس جميلة . فإذا ما نَظَرَتْ مريم أمّنا المباركة فى مرآة قلبك ، فاجتهدى ألا يوجد فيها أقل عيب » .

ــ « نعم ، يا أبى ، سأحاول » .

— « من أجل قصاصك، تقولين ثلاث مرات " السلام عليك " . والآن قولى فعل الندامة من كل قلبك . » ثم رفع يده ليمنحها الغفران .

مكث الأب ستيفن ساعتين فى سماع اعترافات الصغار : فهرس معروف من الأعمال اليومية لا تنويع فيها أو خطورة تذكر : « كذبت . حلفت خمس مرات . ساورتنى أفكار رديئة مرتين . استرقت النظر إلى أختى وهى تلبس ثيابها » . وهكذا دواليك على طريقة ملائكة صغار أتوا حديثاً على الأرض ، وكما سيكون دائماً إلى منتهى الدهر .

فى الساعة السادسة خرج الأب ستيفن من منبر الاعتراف ولما وصل إلى باب الكنيسة كانت عينه تطرف كالقنفذ من ضوء أشعة شمس المغيب . فى الفناء كان الأب بولس آيرتون يروح ويجىء ملتمساً نسمة عليلة قبل العشاء ، وقد بدا مرحاً.

— « كيف حال مساعدنا الجديد ، كاهن النفوس . هل انتهيت من حفلة الأولاد ؟ » .

واقترب منه ستيفن ومشى بجانبه وقال : « إذا ما اتخذت عمل هذا المساء قاعدة للمستقبل ، فإن الصغار فى مولدن ، ماساشوستس ، يكوّنون فرقة ظريفة من الخطأة ، لا يمكن التمييز بينهم » .

— « إنها حقًّا فرقة ظريفة مرحة بالنسبة لما سوف تسمعه الليلة . »

ثم ألقى الأب بولس نظرة إلى ساعته . « لدينا من الوقت قبل العشاء ما يكفى لنزهة صغيرة . هيّا بنا » .

فى السابعة والنصف رجع الأب ستيفن إلى منبر الاعتراف . كانت المتقدمات الأول سيدات تقيات متزوجات ، سرَدْن فى طريقة تناسب أعمارهنّ الهفوات التافهة عينها التى سردها قبلا أبناؤهنّ : « تكلمت فى حق الغير مرّتين . حسدت جارتى على البيانو الجديد الذى اقتنته . تأخرت مرة عن القداس ، لكن كان يمكننى الحضور فى الميعاد لو كنت نهضت فى الوقت المناسب . أكلت لحماً يوم الجمعة لأنه لم يوجد شىء فى البيت سوى البيض . أخذت خمسة وستين سنتاً من جيب زوجى وأنكرت ما فعلت . و . . . ورفضت لزوجى حق الزوجيّة مرتين ، بسبب أن . . . »

لاحظ ستيفن أن النساء عموماً يخففن من أخطائهن أكثر من الرجال الذين لا يحجمون عن قول ما يريدون دون خشية ، مثلا : « قد زنيت أربع مرات » . أما النساء فيحاولن الدوران حول المسألة بكل نوع من التعبيرات الصبيانية . بدأ الشك يساور ستيفن بأن شيئاً ما فى نفسية المرأة يحثها على عدم توضيح الأمور .

وبينما هو مسرّح فكره بسرور خفىّ لمقدرته على معالجة الأمور المستعصية ، حدث له مالم يتوقعه . عندما فتح الشبكة على يساره ، تنسّم راحة عطر ثمين ، ربما رائحة قرنفل ، صدمته . وطفق صوت امرأة رقيق يسرد الأخطاء الطفيفة العادية . كانت المرأة ذكيّة، لكنها متهجّمة . وبعد برهة من التردد قالت دون حياء أو غرور :

— « مدة الأشهر الستة الأخيرة كنت على اتصال برجل ، عدة مرات » .

فسألها ستيفن السؤال التقليدى : « ولم لا تتزوجين ؟ .

— « لأنه بروتستنتى وأسرتى لا تريد أن أتزوج خارج الكنيسة » .

— « ألم تسأليه أن يصير كاثوليكيّاً ؟»

— « قد توسلت إليه مراراً ، يا أبى . ولكنه يكره الكنيسة . ويتفوه بأشنع الألفاظ عليها » .

— « لكنك لا تزالين ترافقينه » .

فصرّحت بعناد: « نعم ، يا أبى ،لأننى أحبّه كثيراً» . ثم تخلّت عن عنادها المصطنع وقالت ببؤس : « كيف العمل ؟ »

إنها المشكلة المعروفة بين أسرتى « مونتيج » و « كاپوليه » . مع ما يكتنفها من تعقيدات حزبيّة طائفيّة .

ودّ ستيفن لو أتيح له الخروج من المنبر والسير قليلا حتى يتسنى له التفكير فى جواب ما . لكن الراحة كانت محظورة عليه الآن، فعليه أن يمكث فى مكانه دون حراك . لم يكن واجبه مقصوراً على المكوث داخل حدود منبر الاعتراف ، لكن ما هو أهم من ذلك ، عليه أن يمكث فى حدود إيمانه . فواجبه كمعرّف هو أن يرشد هذه الابنة التائهة عن الكنيسة بتلقينها بعض الحقائق الثابتة . فطفق ينصحها بعطف :

— « إن الأمر لا شك عسير لكن لا بد لك من أن تقطعى صلتك بهذا الرجل . فإنه لا يوجد لكليكما مسلك آخر للسعادة الدائمة . ثم إنه إذا ما تزوجته خارج الكنيسة ، فذلك يعنى أنك ستعيشين حياتك محرومة من الخيرات الروحية ، ولا أذكر الاستفزازت العاطفية التى تنشأ عن الزيجات التى يختلف فيها المذهب » . وتوقف ستيفن قليلا وقال : « ثم بالطبع لا بدّ لك من الانقطاع عن مثل هذه العلاقات المحرّمة . إنها خطرة ، وخليعة ، ورخيصة » .

فرفعت المرأة رأسها فى غير اقتناع وقالت : « إنها ليست رخيصة مطلقاً ، يا أبى » .

— « لكنك تنوين الانقطاع عنها » .

فهزّت الفتاة رأسها قائلة « لا أستطيع » .

فقال ستيفن : « فى هذه الحال ، ليس فى استطاعتى أن أمنحك الغفران ، لا يمكنك قبول سرّ الاعتراف حتى تقصدى قصداً ثابتاً الإقلاع عن سلوك حياتك الخاطئ » .

فانتصبت الفتاة وتمتمت بحنق : « ما الذى أتى بى إلى ههنا . كان علىّ أن أعلم . » ثم خرجت هاربة من منبر الاعتراف ، تاركة وراءها شذا عطر القرنفل .

أوشك ستيفن بغريزته أن يلحق بها ويمسكها ويتوسل إليها كى تكون صبورة معه ومع الكنيسة . لكن لم يكن فى استطاعته أن يحمل شيئاً من هذا كلّه . كان متيقّناً أن حكمه صحيح مبدئيًّا فى رفض الغفران ، لكنه سلّم أيضاً أن معاملته كانت خشنة قاسية ، ينقصها اللطف .

كاد ستيفن لا يسمع ما يقوله التائبون القليلون الباقون : « ضربت ابنى فى سورة غضب . . . رفضت حقوق الزوجيّة . . لم أعتن بترتيب البيت. . . » .

وانتفض من غيبوبته على رائحة خمر حادة عفنة كرائحة البول تفوح من رجل أدمن على السكر . كان الرجل ضخماً بحيث إن راسه وفمه التصقا بالشبكة . صدم الأب ستيفن برائحة تنفّسه المتعفّن ، فأخرج منديله وغطى به أنفه . لم يفقد الرجل وعيه تماماً ، لكن علامات الكدر والتوبة كانت واضحة فى صوته المتهدّم ورأسه المطأطأ .

— « قد أخلفت بوعدى ثانية ، يا أبى » . قالها بغمغمة ، خجلا من نفسه : « عدت إلى الشرب يوم السبت الماضى . . . منذ أسبوع » .

فى هذه المرة ، وفى احتراس أكبر ، ظل الأب ستيفن منتظراً .

— « قد صرفت كل مرتبى ، وضربت زوجتى لما سألتنى عما فعلته به . بكت كثيراً بحرقة ، ليس بسبب اللطمة على ما أظن ، لكن لرؤيتى منطرحاً ثملا أمام أولادى ، مطروداً من عملى بعد أن أخلفت وعدى » : ثم تنفس بشدة ، وصمت متحسراً على ذاته .

— « أين تذهب للشرب ؟ فليس فى مولدن حانات » .

— « أذهب إلى بوسطن ، غالباً حول شارع دوفر » .

كان ستيفن يعرف المكان . إنه مقرّ الساقطين . « ولماذا تفرغ كل هذا السم فى جسدك المصنوع على صورة الله وشبهه ؟ »

هزّ الرجل الضخم رأسه فى يأس قائلا : « لا أدرى ، يا أبى — لو سألتنى ، كما تفعل الآن ، فلا أدرى ما أقول لك ، ليس فى نيتى أن أسكر . إنى لا أريد ذلك . لكنى أفعله . »

هكذا ، دون حاجة إلى رفاق يحتسون معه الخمر ويحثّونه على تداول الكؤوس على أصوات الغناء والموسيقى . لكنه كان مدمناً بضرورة شخصيّة ، متهافتاً على عنق زجاجته .

أما ستيفن فقد بَعُدَ عنه الأمل وظل صامتاً ، يكاد يختنق برائحة نَفَس الرجل . فتوسّل فى قلبه إلى الله عساه أن يساعده بنور نعمته .

— « كم عمرك ؟ » وفى نيّة ستيفن أن يكسب الوقت حتى لا يفلت هذا أيضاً من يده .

— « واحد وأربعون » .

ليس من نور بعد . لا بل نفور وشعور بالقيء .

— « وماذا تعمل ؟ » .

« أعمل بنّاء ، يا أبى . وأجيد صنعتى . وفى استطاعتى دائماً إيجاد عمل ، إن أكن قنوعاً » .

ساءت حالة ستيفن بسبب الرائحة العفنة . ربما يضطرّ إلى الهرب لحظة ليستنشق الهواء النقى فى الخارج . لكن القديس إسطفانوس ، شفيع البنّائين ، لا شك قد تعطّف بحال سميّه الذى كاد يغلبه اليأس — لأن النور المرتقب قد أضاء له الطريق .

فقال ستيفن : « تعال غداً بعد الظهر إلى دار الكنيسة . سوف نتحدث معاً . وسأعمل على إيجاد عمل لك كمساعد للأب موناجان فى بناء المدرسة الجديدة . وهكذا سوف لا تعود إلى طرق أبواب الحانات فى شارع دوفر » .

— « أحقاً ستعمل هذا ، يا أبى؟ » .

— « سنرى . أما الآن ، فقل فعل الندامة واسأل الله أن يرحمك ويرحم أسرتك » .

فى انتهاء الاعترافات ، فى العاشرة والنصف ليلا ، خرج الأب ستيفن من منبر الاعتراف متعثراً فى مشيته ، منهوك القوى ، متعب الجسم ، وجميع أوصاله وأعصابه تخزه وخزاً أليماً . شعر كأن مطرقة تدقّ رأسه ألماً . كانت خدوده منتفخة وحنجرته ملتهبة جافّة . أما ذهنه الذى كان متوقداً وقت العشاء فقد انحط الآن إلى الحضيض .

فى شبه دوخة تلمّس طريقه نحو الهواء الطلق وتمشى قليلا فى الفناء ، وما انفكّ يكلّم نفسه قائلا : « لم أكن لأعلم . لم أكن لأعلم ذلك . فليغفر لى الله . لم أكن لأعلم كل ذلك » .

فلحقه الأب بولس آيرتون ومشى بجانبه صامتاً ، لكن مستجدياً الحديث .

— « لم ينبّهنى أحد ، يا بولس » .

فأجابه الأب آيرتون : « هذا غير ممكن » .

ضغط الأب ستيفن على صدغه المضطرب بأصابعه وقال : « فى جميع الكتب يصوّرون الخطيئة كفكرة معنويّة مجرّدة ، أو كنظرية تبعد كل البعد عن شخصية الإنسان وإخفاقه فى تتميم إرادة خالقه . لكنها فى الواقع بثرة خبيثة تنخر فى الجسم ، وداء كلب يسرى فى الدم ، ووخز قتال يبرى عقل الإنسان ، وعاصفة تقصف فى أحشائه » .

— « أحنِ ظهرك للعاصفة ، يا ستيفن ، وإلاّ قصمته » .

— « لست أفكر فى نفسى ، يا بولس ، لكن فى أولئك الأشخاص التعسين مع زكيبة أخطائهم الصغيرة ، أوحمل أوزارهم الخبيثة . أمِنَ المستطاع مساعدتهم؟ ».

كان تألم ستيفن شبه إقرار بغلطته وحزناً شديداً على البشر أقرانه : « ما العمل إذن ؟ »

فقال الأب بولس : « هل أثقلتك المهمة ؟ »

— « حتى الحضيض » .

فوضع الأب بولس آيرتون ذراعه حول كتف الكاهن الشاب . وقال : « لست بحاجة لأطيل الشرح فى حالتك هذه ، يا ستيف » . إن لها سابقة بعيدة الأثر . فلا تنسَ أبداً أن المسيح أيضاً قضى ليلة كئيبة منطرحاً على الأرض ، تحت بعض شجر الزيتون بعيداً جداً عن مولدن ، ماساشوستس .

وتمشّيا قليلا ذهاباً وإياباً فى فناء الدار المبلّط . ثم قال الأب آيرتون : « هيا بنا إلى الدار ، فأعطيك قرصين من الأسبرين » .

* * *

الفصل الثانى

إن من يرغب فى تدوين الحوادث المدنيّة أو الكنسيّة التى وقعت فى أبرشية بوسطن يوم الأحد ، الثانى من مايو ١٩١٥ ، سوف يلاحظ أن مذكرته قد امتلأت قبيل مغيب الشمس بعدد كبير من الأنباء المتنوّعة .

* * *

ركعت « فيلومينا راستوتشى » وعيناها غائرتان أمام معبد العذراء فى مغارة كنيسة القديسة مرجريتا ، وحدّقت بنظرها فى قلب العذراء المحلّى بالزنابق وأشعلت شمعة من أجل سرعة شفاء حبيبها « ڤكتور پروڤنزانو » . لو لم يصب ڤكتور بضربة خنجر فى معركة منذ أربع وعشرين ساعة ، لكان قد تزوجها فى ذلك اليوم . أما الآن وفيلومينا حامل فى شهرها الثانى ، فهى تبكى بمرارة وتبتهل من أجل معجزة : « دعيه يعيش ، ياسيدة الحزانى ، أوقفى الدم النازف من فمه ، وسأجعل لك من حياتى تساعية دائمة » .

ثم رفعت عينيها إلى تمثال مريم العذراء وصرخت بأعلى صوتها إذ رأت دماً يتساقط من قلب العذراء المكلّل بالزهور .

* * *

كان « رالف بايلى » المدير المساعد فى شركة بوسطن للترام ، يجوب مكتبه بسرعة موجهاً كلامه إلى فريق من الموظفين مختلفى الطول والحجم والحركات ، لكنهم جميعاً لهم نصيبٌ شبّه بالعرسة فى الأنف والعينين . إن المدير المساعد بايلى الذى يمكن اتخاذه مثلا تاريخيًّا فى كل ما ذكرته الكتب عن أمراض المعدة وقروحها ، كان الآن يبضع قروح مستمعيه ، ويصرخ فيهم قائلا :

— « إن المحصّلين فى جميع أنحاء بوسطن يختلسون كميات كبيرة من النقود . وإذا أنتم أيها المراقبون لم تقبضوا فى مدة أسبوع على هؤلاء اللقطاء القذرين ، فسأهتمّ بالأمر شخصيًّا وأطلب طردكم جميعاً » . ولوّح أمامهم بكشف فى يده : « هذه الأرقام تدلّ على أن الشركة تفقد شهريًّا خمسمائة دولار من القروش المسروقة من الصناديق المثقوبة . ويجب أن تتحوّل هذه الأرقام إلى صفر . أتسمعون ؟ ... إلى صفر » .

ثم غيّر بايلى صوته وخطّته وتطرّق إلى الاتّهام بدلا من التوبيخ وأشار بسبابته المصفرّة من النيكوتين إلى مستمعيه المتزاحمين حوله : « هنالك قانون ينصّ على معاقبة المراقبين الذين يتفقون فى السرقة مع المحصّلين . والآن هيا اخرجوا جميعاً من هنا . وبرهنوا على أنكم جديرون بالثقة فيكم...هيا اخرجوا...وإلى الجحيم ! » .

* * *

مونيكا ، ألطف شخص فى أسرة فرمويل ، تسلّلت باضطراب إلى ركن خفى من مقابر « فورست ديل » لتقابل حبيبها الذى لم يسمح لها بدعوته إلى البيت . ومن وراء شجرة زان أحمر تقدّم شاب يهودى نحيف جميل الطلعة وقال : « يا حبيبتى ، ظننت أنك لن تأتى إلى ههنا » . ثم أخذها بيدها وقادها إلى ركن آخر من المقابر بعيد منزو حيث جلسا على طابية مخضرة وتجاذبا أطراف الحديث والقبلات حتى المساء .

* * *

سبيريدون لاريوس ، صاحب حانة «ملعب الديوك » سحب ورقة بعشرة دولارات من رزمة قذرة وقدّمها إلى شاب طويل قوىّ على عنقه ياقة منشاة ويلبس حذاء عالياً من التيتل ، وقال له : « هيا اذهب لقد أزعجت سمع زبائنى . إنهم يقولون لى : يا سيد لاريوس ، إن المكان هنا جميل ، ولكن من قال لك إن تلك الدجاجة البرّية الإرلندية تجيد اللعب على الناى ؟ »

ثم ضحك لاريوس من نكتته وصب لنفسه قدحاً كبيراً من البراندى المتكساس .

* * *

نيافة الكردينال لورنس جلينون . جلس إلى واحد من البيانوات « ستينويه » الثلاثة ، فى المكتب الفاخر فى قصره الأسقفى : يتمرّن وكأنه فى انجذاب ، على مقطع صغير للموسيقار « باخ » . نزع من خنصره اليمنى خاتم اللازورد الثقيل ووضعه على مسند الموسيقى ، ليسهل عليه تحريك أصابعه فى هذا المقطع الصغير الذى يحتوى — فى ظن الكردينال — على جميع أسرار الأوزان العكسيّة وأتم الكردينال معالجة هذا المقطع ، وإذ مدّ يده إلى مقطوعة أخرى رفع عينيه الكبيرتين البندقيتّين إلى رسم قديم قاتم اللون « لمونتينا » تنعكس عليه أشعة الشمس الذهبية ، بعد ظهر

ذلك اليوم . كان جبين الكردينال البارز ينمّ عن هدوء عميق ويخفّف من حزّ فمه المنحرف . أما انتفاضات شرايين صدغه المتكرّرة من حلمة أذنه إلى أسفل ذقنه العريض دون ضخامة ، فكادت تنبئ كل شخص في حاشيته بأن « رقم واحد » أوشك على الانفجار .

لم يوجد أحد من حاشيته فى المكتب فى ذلك الوقت . كانوا جميعاً قد لجأوا إلى غرفهم وكانوا فى شغل شاغل لإيجاد ما يقيهم من العاصفة المرتقبة .

هدأ هذا المركّب الفنىّ « باخ – مونتينا » شعور الكردينال لورنس جلينون مدة عشرين دقيقة تذكر بعدها السبب الذى دعاه إلى تهدئة أعصابه . وفجأة عاد إليه كل شيء . فترك البيانو ولبس خاتمة اللازوردى فى إصبعه المخصّص له . وانتزع بعنف نسخة من « المرشد » ، وهى مجلة كاثوليكية أسبوعية تصدر تحت إشرافه ، وألقى نظرة مستاءة قصيرة إلى صفحتها الأولى ثم قذف بها على ظهر مكتبه اللامع المرصّع بالصدف . وصرخ فى صوت عميق :

– « ألا يوجد فى هذه الأبرشية كاهن يستطيع كتابة الإنجليزية فى شيء من التهكّم ؟ » .

وإذ لم يأته ردّ ، أسرع إلى شريط مطرز ليدق الجرس . وفى سرعة يابانية ، ظهر كاتم أسراره والقرطاس فى يده والقلم معدّ . فقال الكردينال : « فتّش كل رعية فى بريطانيا الجديدة (نيو إنجلاند) واعثر لى على ناشر يستطيع إحياء هذه المجلة . والآن أرسل لى المونسنيور أوبراين . أريده أن يكتب مقالة رنانة ضد جرائم القتل التى يقترفونها فى مستشفيات الولادة ببوسطن . أليسوا يهشّمون رؤوس الأطفال ؟ فأريد أن يعلم تماماً كل طبيب فى بوسطن ما هو موقف الكنيسة الكاثوليكية فى هذا الشأن . »

وضغط بخاتمة الثقيل على راحة يده اليمنى كمن يصدّق على قرار الحكم الصادر على قتلة الأطفال : « ابعث إلى بأوبراين » .

* * *

فى المطبخ ، فى منزلهم الأرضىّ المكوّن من خمس غرف مستطيلة على شارع تلستون فى مولدن ، كان البنّاء جيمس سبلين الضخم البدين يتحدث إلى زوجته

عن آماله : « يا چوليا ، إن ذلك الكاهن الشاب لقديس . قد تحدّث إلىّ الليلة ساعة عندما ذهبت إليه . لم يقصّ علىّ قصصاً خرافية عن الديانة . بل قال لى : " يا چيم ، أتظن أنك تمكث قنوعاً إذا حصلت على عمل هنا فى مولدن يمنعك من التجوّل حول حانات شارع دوڤر ؟ " فقلت : " بكل تأكيد ، يا أبى ، ولمَ لا ؟ إنها رائحة المشروب التى تنبعث من الحانات هى التى تجعل الأمر عسيراً علىّ " . فقال لى : " قد همست بكلمة إلى الرئيس موناجان ليجد لك عملا فى صبّ أساسات المدرسة الجديدة . فيمكنك الذهاب إلى عملك والرجوع إلى بيتك دون المرور على الحانات . وأما الباقى فعليك ، يا چيم " . . . »

فقالت چوليا سپلين : « أصحيح ما قاله إذن من أنى سأقبض مرتبك ؟ »

— « صحيح كل الصّحة . يمكنك الذهاب كل يوم سبت إلى دار الكنيسة وتسلّم مرتبى من الأب فرموپل نفسه » .

ففكرت چوليا سپلين فى نفسها قائلة : « بارك الله فى الأم التى ولدته . لا شك أنها امرأة نادرة » .

* * *

كشف الأب وليم موناجان الثوب عن صدره قدر ثلاثة أزرار ، ومدّ ساقيه الكبيرتين تحت مكتبه فى حجرته ، وأشعل سيجاره كما يفعل كل مساء . كان قد انتهى من عشائه المفضّل : حساء من الشعير ، ولحم مشوىّ ، وبطاطس مسلوقة . واستعدّ لجرد حسابات الأسبوع ، وهو أسعد وقت عنده . فى الدرج الأعلى من مكتبه أربعة أكياس من القماش ، ثلاثة منها مملوءة بورق النقد والقطع الفضية التى جمعت فى القداديس الثلاثة : الساعة التاسعة ، والعاشرة ، والحادية عشرة يوم الأحد . والكيس الرابع يحتوى على قطع مختلفة ، أغلبها قروش وسنتات ، جمعت طوال الأسبوع المنصرم من صناديق الفقراء ، ومن تقدمات الشمع المنذورة ، ومن بيع المنشورات الكنسية .

فلما وصل إلى نصف سيجاره بدأ يحسب . ولما انتهى من حساب آخر سنت عنده كان سيجاره الثالث قد أصبح عقباً بارداً بين شفتيه . وجمع ما لديه : ١١٥٦,٤٤ دولاراً : مبلغ يعتمد عليه . فإذا خصم منه الضريبة المفروضة لخزانة

الأبرشية ، تبقى لديه أيضاً ما ينيف على الألف دولار ليسدّ حاجات رعيّته : قسط للأرغن الكهربائى الجديد ، مرتبات كهنته المساعدين ، والعناية بدار الكنيسة ، هذا عدا مبلغ صغير يجب ادّخاره لتصليح مدفأة الكنيسة وأنابيب البخار التى عفّى عليها الزمن .

والمدرسة الرعائية الجديدة ! ؟ . . .

سحب الرئيس رزمة صغيرة من الإيصالات ونزع عنها المطاط الذى يربطها ، وشرع يراجع أرقامها : مصرف مولدن للتوفير ٥٥٠٠ دولار — مصرف مولدن للإيداع ٣٥٠٠ دولار — مصرف بوسطن الأهلى الأوّل ١١,٠٠٠ دولار — مصرف ميدفورد للتوفير ٤٢٠٠ دولار — وجمع الكل : ٢٤,٢٠٠ دولار . استراحت عيناه الزرقاوان المتجلّدتان لما رأى أن رصيده النقدى يكفل له تماماً البدء فى بناء مدرسته الرعائية ذات الضرورة الملحّة .

كان موناجان فى القداس الاحتفالى ذلك الصباح قد ألقى كلمة فى جمع غفير احتشد فى الكنيسة ، وقال لهم فى صوته الخشن من أعلى المنبر : « أيها الأبناء الأعزّاء ، بمعونة الله وبمساعدتكم سنبدأ غداً حفر أساسات المدرسة الجديدة . إنه بعد عشر سنين طوال من التضحيات بتقدماتكم والادخار المتواصل من طرفى ، قد وصلنا إلى هذا الوقت المناسب والمكان الملائم . لكن إذا بدأنا ، فليكن معلوماً أنها بداية فقط . سوف تتكلف المدرسة ثلاث مرات ضعف ما بين أيدينا . لكن وإن وعدت المصارف بمساعدتنا ، فذلك يعنى ، أيها الأبناء الأعزاء ، أنّ من واجبكم الاستمرار فى العطاء ، ومن واجبى الاستمرار فى الادّخار . مع ذلك فالمصروفات الكنسيّة الاعتياديّة لا . . . ماذا أقول . . . لا تتناقص . فهذه الكنيسة التى تقيمون فيها عباداتكم تحتاج إلى أدوات تدفئة جديدة . والمدفأة وأنابيب البخار لايجدى فيها إصلاح ألبتّة . والبيت الذى يعيش فيه راعيكم مع كهنته المساعدين فى حاجة إلى الهدم من أساسه . إنه قديم جدّاً . كم من مرة استوقفنى البعض فى الطريق وقالوا لى : "أيها الأب موناجان ، متى ستشرع فى بناء الدار الجديدة لرعية القديسة مرجريتا ؟ فالدار القديمة مخجلة جدّاً" . فكان جوابى عليهم دائماً : "سيكون لرعية القديسة مرجريتا بيت جديد بعدما يتمّ بناء

المدرسة الرعائية ودفعُ ديونها . " أما فى أثناء ذلك فأرجو ألا تقلقوا على مصيرى ومصير الكهنة مساعدىّ . فسوف لا يتساقط المطر على أحدٍ منا فى سريره ، كونوا متأكدين من ذلك . أما الآن فسأقرأ عليكم إنجيل هذا الأحد . ولكن قبل ذلك ، أودّ أن أنبهكم إلى شىء آخر . إذا وجد بينكم من يطلب عملا فى بناء المدرسة الجديدة فلا يأت إلىّ . "إن أبناء بورنى إخوان" المقاولين المشهورين هم المختصّون بهذا العمل . اتصلوا بهم . فإنى أدير رعيّة كنسيّة، لا مكتب تخديم . الإنجيل لهذا الأحد . . . »

من ركن فى مكتبه ، سحب الأب موناجان أنبوبة فيها رسومات ، وبسطها أمامه بإعجاب ، وسرّح طرفه فى رسومات المدرسة الجديدة : علوّها ثلاثة أدوار ، وواجهتها بحجر سمّاقى من كوينسى ، وثلاثون حجرة للدرس ، ومقرّ للألعاب الرياضية ، وفناء للعب ، ومعبد للراهبات . كل شىء فيها حديث جدًّا ومحصّن ضد النار . وستدعى « مدرسة شيفروس » إكراماً لذكرى لويس شيفروس ، أسقف ماساشوستس ، ذلك المرسل المجاهد العظيم المتوفى منذ زمن بعيد . فقد اختار الكردينال نفسه هذا الاسم .

من الخارج تصاعدت إلى نافذة موناجان أصوات غريبة حادّة مزعجة . فألقى نظرة إلى ساعته : العاشرة إلا ربعاً ليلا . ما هذه الضجة فى مثل هذه الساعة؟ فتح موناجان نافذته فرأى جمعاً من الناس مزدحمين فى فناء الدار عند مدخل مغارة الكنيسة . مشهد غريب ،شاذّ . يتحتّم وضع حدٍّ لكل هذا . تقدّم الرئيس موناجان نحو الباب وصاح بصوت آمر : « أيها الأب فرمويل » .

فأجابه الأب فرمويل من باب حجرته : « نعم ، أيها الأب » .

— « أسرع انزل انظر ما سبب كل هذا الضجيج . يبدو أنهم خليط من بعض الطلاينة السكارى ممنّ يأكلون المكرونة بالفاصوليا ، وبعض الإسبان الحمر. أخرجهم من هنالك . أتفهم ؟ » .

— « حالا ، يا سيدى » . ثم التقط قبعته وأسرع إلى أسفل . وفى الفِناء سمع أصواتا : « معجزة ! معجزة ! . . إن العذراء الجميلة قد صنعت معجزة » . شقّ ستيفن طريقه بكتفيه بين الجمع إلى أن رأى « ڤال ماك جواير » محشوراً

بين ضفتى باب مغارة الكنيسة .

— « ما الخبر ، يا ڤال ؟ »

فشرع القندلفت يشرح له ما يجرى ، ووجهه يتصبب عرقاً : « يقولون إنه حدثت معجزة ، يا أبى . فبعد الظهر أتت إلى هنا فتاة وأشعلت شمعة أمام هيكل العذراء المباركة . ثم رجعت إلى بيتها ووجدت خطيبها الذى كاد يموت من طعنة خنجر ، جالساً فى فراشه ومتلهفاً على طبق من المكرونة . ومنذ ذلك الوقت لم يكف هؤلاء الغجر عن التدفق إلى الكنيسة . وأنا الآن أعمل جهدى لأخرجهم حتى أقفل الكنيسة » .

تقدمت امرأة عليها شال وبين يديها طفل وشقت طريقها إلى الأب ستيفن ، وصاحت ببكاء : « إن طفلى يتقيأ منذ ثلاثة أيام . لكن العذراء المباركة ستجعله يحتفظ باللبن فى جوفه » .

— « انتظرى أيتها السيدة الصغيرة . سندخل جميعاً معاً » . واستدار ستيفن نحو الجمع ورفع صوته وكلمهم باللغة التى يفضلونها .

— « يا أبناء مريم ، ملكة السماء العجائبية . انصتوا إلى كاهنكم » . قالها فى صوت مرتفع مسرحى يناسب مزاجهم .

— « إننا نصغى إليك . تحدث إلينا ، يا أبانا » .

— « إن العذراء صنعت اليوم هنا آية عجيبة . وأنتم — أولادها الباكين والمتألمين فى وادى الدموع هذا — ترغبون فى إكرام هذه الشفيعة ، أحن الشافعين . أتيتم لتوقدوا الشموع وتصلوا وتطلبوا وساطتها . إن ذلك يسرها جداً . لكن يجب أن يتم كل ذلك بروح التقوى والترتيب . سأدخل أمامكم فاتبعونى فى صمت واحترام إلى تمثال سيدتنا العذراء » .

فغمز القندلفتُ مالك جواير الأبَ ستيفن فى ذراعه ، وقال له شاكياً والساعة فى يده : « لكنها الساعة العاشرة ، ويجب أن أقفل الأبواب » .

« هيا ، يا ڤال ، ضع هذه اللعبة فى جيبك . إن المعجزات لا تحدث فى زمن محدد . والآن ، ساعدنى فى ترتيبهم صفاً واحداً . إنك رجل طيب .»

بعد أن هدأ ضجيج الجمع قليلا قادهم ستيفن فى ضوء الكنيسة الضئيل نحو

الجناح الجانبي إلى حيث يرتفع تمثال العذراء. فملأوا المقاعد بالقرب من المعبد وتزاحموا في الجناح مدندنين كالزنابير الهائجة. واقترب ستيفن من نصب الشموع المتوهّجة أمام كوّة صغيرة وضع فيها تمثال للعذراء من الجبس الأبيض رديء الصنع حسب ما كان يقتضيه الفن والذوق في ذلك العهد. كان رأس العذراء مكللا بتاج ذي رؤوس حادّة، ووجهها يشعّ منه الهدوء والطهارة، وعلى ساعدها الأيمن طفلها الرضيع في حين تشير بسبابتها اليسرى نحو قمة قلبها المكلّل بالزنابق. ركع ستيفن أمام المعبد وتطلّع نحو التمثال. فرأى نقطاً حمراء كالدم تتساقط من قلب العذراء وتتجمع في حفرة صغيرة ملطّخة قاعدة التمثال.

تساءل ستيفن هل في استطاعته أن يغمس إصبعه في هذا السائل. لكن صَدَر من ورائه طنين يشبه طيران زنابير هائجة. ليس الآن وقت التحقيق. فالمشاعر تزداد هيجاناً وخطورة. وكان لا بدّ من تهدئتهم. لكن كيف؟

بالصلاة. لكن أي صلاة؟ السُّبحة دون شك.

فاستدار ستيفن نحو الحضور وقال: « اليوم هو الأحد الأول من مايو، وهو شهر مريم ». لم يُسمع في الكنيسة سوى بكاء طفل صغير. « فلنكلّلها بالزهور، زهور أسرار المجد الخمسة من الوردية المقدسة ».

دخل الأب موناجان كالعاصفة في مغارة الكنيسة ليتحقق بنفسه عما يجرى، فرأى خمسمائة من الرؤوس المطأطأة وسمع صوت الكاهن مساعده يلفظ بوضوح الجزء الأول من السلام الملائكي:

« السلام عليك يا مريم، يا ممتلئة نعمة الرب معك، مباركة أنت في النساء، ومباركة ثمرة بطنك يسوع ».

فأجابه خمسمائة صوت:

« يا قديسة مريم، يا والدة الله، صلي لأجلنا نحن الخطأة، الآن وفي ساعة موتنا آمين. »

تسلّل الأب موناجان إلى خارج الكنيسة على رؤوس أصابعه، مردّداً في داخله: « حقًّا لقد نجح مع هؤلاء الغجر. »

ردّد الأب ستيفن فرمويل الورديّة المقدّسة بكاملها خمس مرات حتى هدأ

الجمع تماماً . فى أثناء ذلك ، لم تكف النقط عن التساقط . وامتلأت عيون الطليان رهبة عندما مرّوا واحداً فواحداً أمام تمثال العذراء قبل خروجهم . كان آخر من خرج المرأة أم الطفل المريض . فقالت للأب فرمويل ، والسرور يملأ صوتها وعينيها : « انظر ، إنه لم يتقيأ أبداً منذ بدأنا الوردية المقدسة . »

لم تخلُ الكنيسة إلا الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . فقال الأب ستيفن : « لنرى الآن ما الخبر » . ثم فتح باب المعبد الحديدى واقترب من التمثال ومدّ يده ليلمس القلب الأحمر بإصبعه . فى هذه اللحظة سقطت على ظفره نقطة حمراء ولطخته .

تطلع إلى أعلى نحو السقف فوق رأس العذراء . كان الماء المصدأ يتسرّب من أنابيب البخار وينحدر نقطة نقطة فى قلب مريم ! أذابت النقطُ اللونَ الأحمر الرخيص واستمرّت تتساقط حمراء على الأرض .

فقال الأب ستيفن : « سوف نرى ما يقوله دولار بل عندما يعلم بهذا » .

إنها معجزة أنبوب البخار المثقوب ، كما دعاها الأب بولس آيرتون . فأصلحه فريق من السمكرية فى الصباح التالى . وعلى صوت مطارقهم تبخّرت الموسيقى الروحانية وماتت ، لكن صداها امتدّ بعيداً . امتدّ إلى قلب فيلومينا راستوتشى التى تزوجت بعد بضعة أيام من ڤيتوريو ، فى قداس حافل أقامه الأب ستيفن فرمويل . وامتدّ صداها أيضاً إلى المرأة ذات الشال التى مات طفلها من إمساك فى الأمعاء . وامتدّ صداها خصوصاً فى ذاكرة الراعى وليم موناجان .

أسرّ موناجان إلى صديقه الحميم " فلين " : « أخيراً عثرت على كاهن مساعد حقًّا . إنه لمزيج عجيب أيضاً . فهو أمريكى ذو قوام متين ومنبته إرلندىّ حرّ من الفرمويل فى مدفورد . ولو دلّ القوام على شىء ما يا چين ، فأغلب الظن أنه سيتوصّل إلى لبس التاج الأسقفىّ . وبلغنى أن أباه يعمل فى شركة الترام وله أخت فى دير الكرمليات . لكن أظرف ناحية فيه ، يا چين ، أقول إن أظرف ناحية فيه ، هو أنه يعلم كيف يتفاهم مع هؤلاء " الطلاينة " . »

كان حديث موناجان مع صديقه أشبه برجل من « لپنستر » يقصّ على جاره أغرب القصص الخياليّة .

* * *

لما حظى الأب موناجان بكاهن مساعد وفق هواه ، شرع يوجد عملا له . والعمل كثير ، متشعّب . ولما كان الأب ستيفن متيماً بحبه للكهنوت الذى يحثّه على العمل كالمنخس ، اندفع بكل جوارحه فى خدمة الرعية . كان يقيم القداس يوميًّا الساعة السادسة والنصف صباحاً بالتناوب مع الأب ليونز ، ويعمّد الأطفال ، وذاعت شهرته فى تهدئة صراخهم عندما يسيل الماء المقدّس على رؤوسهم الحمر الناعمة . سألته يوماً أم حديثة السن ّ بعدما هدأ عويل طفلها : «أين تعلّمت هذه الطرق ، يا أبى؟»

فأجابها ستيفن ضاحكاً : « قد تمرّنت على هذا كثيراً عندما كنت صغيراً ، فكنت ألعب دائماً وعلى يدىّ طفل حتى بلغت الرابعة عشرة . المهمّ هو الحركة . دعينى أبيّن لك كيف . ليس عموديًّا من فوق إلى أسفل وبالعكس ، كلاّ إنما الأطفال يحبون الحركة الأفقية ، وهم ممدّدون على ظهورهم . وإذا أردت مداعبتهم فاحمليهم على كتفيك . هكذا . . . »

كان على الأب ستيفن أن يمكث فى الدار ثلاث ليال فى الأسبوع تحت الطلب . وكان يستمع بصبر إلى قصص العجائز الثرثارات اللواتى كنّ يأتين بصور وأيقونات ليباركها الأب ستيفن ، ثم يشرعن يسردن تفاصيل لا تنتهى من حياتهنّ . كان الأب ستيفن يقودهنّ إلى الخارج بمهارة مدهشة وهنّ لا يزلن يحكين قصصهنّ التافهة ، وينهى الحديث معهنّ بلطف دون أن يشعرهنّ بذلك . فلما رأى الأب موناجان نجاح هذه الطريقة الفنّية التى يعالج بها الأب ستيفن أولئك العجائز ، عيّنه سريعاً مرشداً روحيًّا لأخوية النساء المتزوّجات .

فأجابه ستيفن ببساطة حائراً : « لكن ماذا أقول لهن ؟ » .

فهدر الأب موناجان بضحكة طويلة متهدّجة : « أليس لأبيك وأمك أسرة كبيرة؟» .

— « نعم » .

— « أو ليست أمك كانت تحضّر العشاء لأبيك عند رجوعه من العمل ؟ « أولم يكن العشاء حاضراً دائماً ، ليلة بعد ليلة ، أيًّا كانت الظروف ؛ وكان هو دائماً المخدوم الأول ؟ »

— « نعم ، هذا صحيح . وكانت أمى تقول دائماً "رجل جائع رجل غاضب" وكانت تناوله طعامه » .

ــ « إنها امرأة نبيهة . وبعد العشاء ألم تكن تغسل الصحون والأطباق فى حين يقرأ والدك جريدته وقد خلع الحذاء من رجليه ؟ »

ــ « عادة » .

ــ « ثم يتحدّثان قليلا فى شؤون البيت ، عن المصاريف أو عن الأولاد ، أحياناً بهدوء وأحياناً فى نقاش ربما أدّى إلى مشاجرة عائلية إذا لم يقتنع الواحد بنظرية الآخر ويقبلها . أليس الأمر كذلك ؟ »

ــ « على التقريب . »

ــ « ثم حوالى التاسعة أو التاسعة والنصف يذهب والدك إلى الفراش فى حين لا تزال أمك تدور فى البيت ترقّع الجوارب أو تخبز قرصاً من العجين وهى تتحدث إلى أولادها . وعندما تتمّ عملها تذهب إلى غرفة نومها وتريح رأسها المتعب على المخدة بالقرب منه » .

وحدّق الأب موناجان بعينيه الزرقاوين فى وجه الكاهن الشاب مستقرئاً الموافقة على كلامه : « أليس الأمر على ما ذكرته ، أيها الأب فرمويل ؟ »

فأحنى ستيفن رأسه موافقاً . كانت الصورة التى رسمها دولار بل عن الموقف تتميّز بالدقة فى المعرفة لا أثر فيها لعاطفية تافهة .

ــ « فأرى الآن أنك لن تجد مشقة فى انتقاء الكلمات اللازمة والمطلوبة منك فى أخويّة النساء المتزوجات » .

تفتحت قليلا التموجات المتعقدة فى شعر الرئيس : « وفى رأيى أيها الأب ، أن أحسن تدريب للكهنوت هو أن يشبّ الإنسان وسط أسرة كبيرة فى رعاية أب وأمّ فاضلين . ولو قدر لى أن أكون البابا وأكتب منشوراً ، لقرّرت أن هذه الخصال الثمينة هى آمال العالم . »

لم يقل ستيفن لرئيسه إن أحد الباباوات قبله قد كتب مثل هذا المنشور . على أىّ حال ، لم يكن موناجان ليقرأه . وليس هو فى حاجة لأن يقرأه ، كما ظنّ ستيفن . إذن لو أعوزت المادة المرشدَ الروحىَّ الجديدَ فى عظاته لأخوية السيدات المتزوجات ، فما عليه إلا أن يغترف من ذاكرته ما كان يعرفه عن حياة سيليا ودونيس فرمويل .

* * *

كانت العادة ، منذ أمد بعيد ، أن تؤول إدارة مدرسة الأحد للتعليم المسيحى إلى الكاهن المساعد الأصغر سنًّا . فكان ستيفن كل يوم أحد بعد الظهر يستمع إلى الأولاد وهم يتأتئون أو يتمتمون أو يكرّون الأجوبة كرًّا على أسئلة التعليم المسيحى فى كتاب أزرق وأخضر . (س) من هو الله ؟ (ج) الله هو خالق السماء والأرض وكل الأشياء . (س) لماذا خلقنا الله ؟ (ج) خلقنا الله لكى نعرفه ونحبه ونخدمه فى هذه الحياة ولنكون سعداء معه إلى الأبد فى الآخرة .

ما أعظم بساطة هذا التعليم المسيحى الرخيص الثمن فى إثبات المعانى الجوهرية للعهد الذى يربط بين الله والبشر ! إن دقة التعبير هذه فى طريقة السؤال والجواب ذكّرت ستيفن بما كان يكتبه معلم الكنيسة الملائكى توما الأكوينى وهو يعلن تعاليمه الملهمة بصوت شديد كالرعد . والآن بعد مضى سبعمائة سنة ، كانت تلك التعاليم نفسها ، دون تغيير أو تحوير ، تحفظ فى لغة غربية جديدة لم يكن الأكوينى ليحلم أبداً بوجودها . أوليس من المحتمل أيضاً أن تدرس هذه الأسئلة والأجوبة فى لغات لم ترد بعد على لسان بشر ؟

أما الأب ستيفن فكان يلذّ له أن يسأل طلابه الصغار فى مواضع لا يذكرها التعليم المسيحى . ففى يوم أحد بعد الظهر طرح سؤالا صعباً على طلاب فصله لا تزيد سنهم على الثالثة عشرة .

وسألهم : « هل يستطيع البروتستانت الدخول إلى السماء ؟ » .

تطلعت إليه جميع الوجوه فى حيرة ودهشة . ماذا يبغى الأب فرمويل من وراء هذا « المطبّ » . ولمح ستيفن ولداً نبيهاً كثير الكلام ، شارلى باول ، رافعاً يده .

— « حسناً ، يا شارلى ، هل يستطيع البروتستانت الدخول إلى السماء ؟ »

— « طبعاً لا ، يا أبى كل واحد يعلم أن الكاثوليك وحدهم يسمح لهم بالدخول» . وتلعثم صوته فى صيحة مضحكة .

هزّ الأب ستيفن رأسه فى هيبة ، ولا تزال الوجوه متعلّقة به . « أتوافقون جميعكم على ما قاله شارلى ؟ » .

فأتاه الجواب شاملا فى صوت واحد : « نعم ، أيها الأب » .

وقال ستيفن : « أسف ! ولكنكم جميعكم على خطإ ، ولا يهمنى أين سمعتم

ذلك . إن الكنيسة الكاثوليكية تعلّم أن كل إنسان ــ بروتستانيتًا كان أم يهوديًا أم محمّديًّا ــ يؤمن بإخلاص فى ديانته ويعيش حسب تعاليمها ، يستطيع الدخول إلى السماء » .

وتوقف قليلا تاركاً لصغاره وقتاً ليدركوا أهمية هذه الحقيقة ، ثم تابع كلامه :

« لا شك أن الله قد منح الكنيسة الكاثوليكية بركات خصوصية وجعلها وسيلته الإلهية للخلاص . لكن أليس من الظلم الاعتقاد أن هذا الإله نفسه الذى أحب البشر لدرجة أنه أرسل إليهم ابنه الوحيد ، يعرض بوجهه عن الملايين من أولاده؟» .

وتوقف ستيفن ثانية ، حيران فيما تستطيع عقولهم الصغيرة إدراكه . ثم قال :

« يجب علينا أن نحترم ديانة جارنا كما احترم الكردينال لافيچيرى ، ذلك المرسل العظيم ، ديانة المسلمين الذين ذهب إليهم ليبشّرهم . واجتهد مخلصاً أن يقودهم إلى العقيدة الكاثوليكية . وكان من فرط احترامه لديانتهم أنه كلما مرّ بجامع كان ينزل من عربته ويمشى على رجليه » .

سمع الأولاد ما قاله الأب فرمويل ، وعرفوا أنه يعنى ما يقول ، لكنهم لم يقتنعوا . ولما تركهم الأب ستيفن ، قام شارلى باول وتكلم باسم الجميع متمتماً :

« إذا صحّ ما يقوله من أن أىّ واحد من هؤلاء البروتستانت المتعنّتين يستطيع الدخول إلى السماء ، فما الفائدة من كل " وجع الرأس " هذا لنصبح كاثوليكاً ؟ »

* * *

كان موناجان يعنى كثيراً بالزيارة الرعائية ، تلك الدوريات المنتظمة لكل بيت فى الرعية ، ولا ينفك يقول لمساعديه : « اهتموا بقطيعكم » . إنها أهم نقطة فى إدارته . ففى شبابه اشتهر أمام الرب جوّالا لا يكلّ يقرع أجراس الأبواب أو يدق الأبواب التى لا جرس لها . لكنه منذ زمن طويل قد أناب عنه فى مهمة زيارة الرعية كهنته المساعدين ، مشترطاً عليهم أن يقدّموا له لائحة أسبوعية عن البيوت التى زاروها وتقريراً شاملا عن مختلف الحالات التى يواجهونها . دعا يوماً ستيفن إلى مكتبة ولقّنه كيفيه القيام بالزيارات الرعائية من بيت إلى بيت . ثم طفق دولار بل يسأله :

ــ « أتذكر ، أيها الأب ، أهمّ أعمال الرحمة الروحيّة ؟ » .

ــ « طبعاً » .

— « اسردها علىّ كى أجدّد ذاكرتى بها » .

شعر ستيفن أنه فى وضع أحد طلابه فى التعليم المسيحى ، فأجاب : « إن أهم أعمال الرحمة الروحية سبعة وهى : تأنيب الخطأة ، تعليم الجهال ، تشجيع الضعفاء ، تعزية الحزانى . . . » .

فقاطعه موناجان : « هذا جميل . والآن انتبه ، أيها الأب . تلك الأعمال الروحية وضعت لعامة الناس . لكن ذلك لا يعنى أنها لا تهمّ الكاهن . وأفضل طريقة لممارستها ، وليس أفضل منها ، هى الزيارة الرعائية من بيت إلى بيت . إنها قاعدة أساسية عندنا ههنا فى رعية القديسة مرجريتا . لم يحدد لها يوم أو ساعة . لكن إذا أعوزتك الحيلة فيما تعمله يوماً بعد الظهر ، أو إذا انتابك الملل ذات صباح ، فحينئذ كرّس ذلك الصباح أو بعد الظهر لتمجيد الله بالقيام ببعض الزيارات الرعائية . »

— « سأعمل هكذا ، يا أبى » . واستدار ستيفن لينصرف ، لكن موناجان أوقفه بإشارة من إصبعه ، وقال :

— « بعد انتهائك من التأنيب أو التعليم أو الاستماع فقط إلى المشاكل اليومية المختلفة ، سيقدّمون لك بعض المرطبات أو الشاى أو القهوة مع كسرة من الخبز بالزبدة . فأحرّضك بشدة ألا تقبل مثل هذه الأشياء . أولا لأنها فى أغلب الأحيان تسبّب لهم مصروفات إضافيّة ، وثانياً لأن تناول الشاى وأكل الحلويات قد يقود إلى . . . نعم . . . إلى فلتات من اللسان والعقل لا تكون دائماً فى مصلحة الكاهن . أتدرك مُرادى ، أيها الأب ؟ » .

— « تماماً »

— « وأخيراً ، أيها الأب فرمويل . أمر واحد فقط . هؤلاء النساء الفقيرات — لأن من ستقابلهم سيكونون فى الغالب نساء — سيحاولن دائماً أن يضعن بعض النقود فى يدك وأنت تستودعهن . وسيقلن : " هذا لك شخصيًّا ، يا أبى " أو " إليك شيئاً بسيطاً لأعمال الرحمة التى تقوم بها " . كل ذلك صادر من قلبهن الطيب مساعدة منهن للكاهن إذ يعلمن أن مرتبه ضئيل » .

ثم توقف دولاربل ليزن كلماته كأنما يقيس ضغط الدم فى عروقه : « على

كل حال ، فلست مضطراً إلى قبول هذه النقود . وفى أغلب الأحيان ، إن الأشخاص المساكين الذين يقدّمونها هم فى حاجة إليها أكثر منك . لكن إذا ما قبلتها – وهنا طفق موناجان يتكلم بقوة رجل يقذف " شيطان التردّد " من أعلى قمة الجبل – فأريد جميع تلك النقود أن ترجع إلىّ ! لأنها تخص الرعيّة ، فإنك لو لم تكن كاهناً مساعداً فى رعيّة القديسة مرجريتا ، لما كنت حصلت عليها . أهذا واضح ؟ »

– « كل الوضوح » . ثم خرج ستيفن وتوجّه إلى غرفته ليضع ترتيباً لتعليمات رئيسه المختلفة المبعثرة . ما أحكمه رجلا دقيقاً فى العمل ! إنه راع حقيقى لقطيعه ، وماهر فى دقائق التصرفات الرسميّة ، ومحنّك فى تقدير الاحتمالات المتعدّدة ، ومدّخر لا يكلّ لكل قرش يؤول إلى الرعية .

فى غمرة تكهناته تنبّه ستيفن إلى قرع خفيف على الباب . إنها الخادمة «بريدجت لونان » . قالت فى صوت متبرّم ، خصّصته للكهنة المساعدين الجدد : « إن شقيقتك ريتا طلبتك على الهاتف حينما كنت معه . وتريد أن تكلّمها فى بيكن ١٢١٨ . »

كان من عادة السيدة لونان أن تذكر دائماً سيدها بضمير الغائب : « هو يريد أن يراك » « الكردينال يطلب منه أن يهتمّ برعيّة أكبر . »

طلب ستيفن الرقم الغريب . وسمع صوت ريتا ، قلقة مضطربة ، تقول : « عزيزى ستيڤ . أنا عند الطبيب چون فى ١٢ شارع نيوتن الغربى . أتستطيع المجىء إلى هنا هذا المساء ؟ چون فى مشكلة ! » .

– « ماذا فعل ؟ » .

– « السبب الحقيقى هو أنه لم يفعل . آه ، يا ستيڤ ، إنهم يطلبون منه أن يقتل الأطفال بالعدّة أو بشىء آخر . وإذا لم يتعهّد بقتلهم ، فسيفقد وظيفته ولا نستطيع أن نتزوّج » . ثم تمالكت ريتا أعصابها وقالت : « أرجوك يا ستيڤ احضر هذا المساء وسيطلعك چون على كل شىء » .

– « سأكون عندكم فى الثامنة مساء » . ثم رتّب ستيفن أموره ليتمكن من الخروج فى ذلك المساء . فهل يرضى الأب ليونز الأبيضانى أن ينوب عنه فى دوريّته ؟ كلا ، إن الأبيضانى لا يستطيع ذلك ، فإنه مدعوّ للعب الويست ذاك المساء فى بيت «آنى ريجان» طبيب الأظافر ذى المكانة المرموقة فى المحيط الاجتماعى

المتوسط فى مولدن . لم يستطع ستيفن أن يدرك كيف كان يُسمح للأبيضانى بقضاء كل هذا الوقت فى أكل الحلويات وراحة البال . فتوجه فى قلق إلى الأب بولس آيرتون ليطلب مساعدته .

— « دون شك ، يا ستيف ، سأنوب عنك . لا تقل شيئاً من هذا لموناجان . إن مالا يعرفه لا يسيئه أبداً » .

بعد الثامنة بدقائق كان ستيفن يقرع جرس الباب فى بيت متهدّم قائم على شارع نيوتن الغربى ، وهو حىّ من بوسطن يقطن فيه الأطباء الطلبة . وصعد على سلم مظلم إلى الدور الثالث ولمح بصيصاً من النور من زاوية باب مفتوح . ولما دخل حيّاه الطبيب چون بيرن ولونه ممتقع وقد زاد الضعف فى قسمات وجهه . وقفزت ريتا من مقعد مخلّع محشوّ بشعر الأحصنة وارتمت بذراعيها على عنق ستيفن وهى تبكى .

فقال ستيفن : « ما هذا الذى أسمعه عن قتل الأطفال ؟ »

أجاب الطبيب بيرن : « إنه لمِنَ المضحك المبكى لكنها الحقيقة . فلو تفضّلت بالاستماع إلى مشاكل الغير . . . »

كان ستيفن يحبه من أجل هذا بعينه . فجلس بالقرب من ريتا ، وطفق الطبيب يشرح موقفه :

— « كما تعلم ، يا ستيف ، سأبدأ سنتى الأخيرة كطبيب مقيم فى المستشفى المدنى العام . إنها وظيفة لا بأس بها . ومن بين الحالات تمرّ علىّ ولادات كثيرة فى ظروف نادرة قد يتعثّر فيها الإخصائى المتوسط . بالطبع أغلب الولادات طبيعية ، لكن فى الشهر الأخير مر علينا عدد لم نعهده من الأجنة ذوى الرؤوس الكبيرة — إذا أردنا العدول عن استعمال التعابير العلميّة — وكانت رؤوسهم كبيرة إلى حد يصعب عليها المرور من قناة الولادة » .

— « كنت أظن أنهم يقومون بعملية قيصرية فى مثل تلك الحالات » .

— « إن بعضاً من الأطباء الأذكياء الذين يحتاطون للأمر ويعدّون لكل حالة عدّتها يلجأون إلى القيصريّة . لكن عدداً كبيراً من الأمّهات لا يذهبن إلى الطبيب إلاّ فى يوم ولادة الطفل ، مما يجعل الأمر عسيراً لإعداد العدّة . وإذا ما بدأت الولادة وانحشر رأس الطفل . . . (وأمسك الطبيب چون بيد ريتا) . . فالحالة

حينئذ تصبح محرجة . وهذا ما حصل بالفعل ثلاث مرات فى الشهر الأخير » .
— « وماذا تعملون فى هذه الحالة ؟ » .
— « إن العادة المألوفة بين الأطباء غير الكاثوليك تدعو إلى تحطيم رأس الطفل » .

فقال ستيفن : « لكن ذلك جريمة قتل » .

جلس الطبيب چون بيرن فى يأس على طرف مكتبه ، وقال : « أعلم ذلك . ولهذا السبب قد رفضت البارحة القيام بهذا العمل . وماتت الأم » . وحطمت الذكرى أعصابه . « فثارت ثائرة الزوج واشتبك معى . وأنا لا ألومه . وقد رفع دعوى على المستشفى المدنى العام . وعلى أثر ذلك ، وحتى يكون المستشفى فى مأمن من العواقب ، سيتحتم على كل طبيب فى المستشفى أن يوقع على استمارة يتعهد فيها بالقيام بما يسمونه " إجهاض وقائى " كلما دعت إليه الظروف » .

— « وإذا لم توقع ؟ »
— « سوف أفقد مركزى » .

تأكد ستيفن من أن فقدان المركز فى المستشفى المدنى العام سوف يهدم كل أمل فى التقدم بين الأوساط الجراحيّة العالية فى بوسطن . أما فريق أطباء « هارڤارد » الذى يهيمن على أفخم المستشفيات فيمكنه أحياناً قبول طبيب إيرلندى كاثوليكى ذى مواهب نادرة كما هو الحال مع الطبيب چون بيرن . لكن إذا ما فقد أحد مركزه لأى سبب ، فهذا معناه التقهقر إلى الدرجة الثانية والسباق المخزى إلى إجراء عمليات بسيطة كاللوز والبواسير والولادات بخمسين دولارا ، ونادراً عملية فتق ، وفى القمة استئصال الزائدة . لكن ليس من أمل فى الوصول إلى إجراء عملية الغدد ، أو وصل الأمعاء ، أو وصل الشرايين بعضها بالبعض الآخر . إن المستشفيات من الدرجة الثانية التى توظف هؤلاء الأطباء تسمح لهم فقط بمساعدة أطباء المستشفى المدنى العام . فيقفون بجانبهم ويراقبونهم كيف يشقون الأمعاء ، ويعتبرون أنفسهم سعداء إذا سئلوا أن يقوموا بخياطة الأمعاء بعدهم .

مع أن ستيفن كان مضطراً حسب قوانين عقيدة الإيمان إلى التمسك بالوصية الإلهية « لا تقتل » ، فإنه لم يستطع أن يسمح لنفسه بالضغط على رجل طيب حيران فى قراره .

— « متى ستتخذ قرارك ؟ » .

نظر الطبيب چون بيرن إلى يديه الأنيقة العظميّة وكأنه يعتذر إليها عن العمل الشاق الذى ينتظرها وأجاب : « قد انتهيت من قرارى ، يا ستيف . وأعلمت الطبيب" كينارد " فى هذا الصباح أننى لا أستطيع التوقيع » .

فطبعت ريتا قبلة من شفتيها الناعمتين على خدّ الطبيب چون وقالت : « ليس رجلى بقاتل للأطفال » .

أما ستيفن فانتفض غاضباً وهو يقول : « يمكنك الخروج من هذا المأزق . فإذا علم الكردينال بأن القتل أصبح أمراً معترفاً به فى المستشفى المدنى العام ، فسيثير هذه المسألة أمام الرأىالعام . وكلما فكّرت فى هذا زاد غضبى » . وأمسك ستيفن بكتفى چون البارزتين وقال : « ما رأيك فى أن نبلغ الكردينال هذا الأمر ونجعل منه قضيّة عامّة ؟ » .

وهز الطبيب چون رأسه قائلا : « كلا ، يا ستيف ليست هذه هى الطريقة التى تفيد فى معالجة الحال . وكل ما تجنيه من ذلك أن اسمك سيشتهر فى أمر يخرج عن اختصاص الكاهن . مع ذلك فقد بلغنى أن موقف المحكمة الكنسيّة هو الحياد. لا شك أننا سنقرأ مقالة قوية فى مجلة " المرشد " الكنسية ، لكن بالنسبة للتدخل فى أمور المستشفى المدنى الداخلية ، فأرى أن "رقم واحد " أذكى من أن يتورّط فيها » .

ثم تطرّق الطبيب چون بيرن إلى ذكر الناحية الأخرى من الموضوع ، كعادته فى تشخيص المرض : « إنى أدرك السبب ، يا ستيف . إن موقف الكنيسة ، فى نظر الشخص العادى ، فيما يختص بتحطيم رؤوس الأطفال ، لمن الصعب الدفاع عنه — وحوّط بيده ريتا من وسطها — فإن أغلب الناس ، وأنا بينهم ، يعتقدون أن حياة المرأة أثمن من طفل مائت » .

أدرك ستيفن حقيقة الموقف عندما رأى ريتا تخبئ رأسها فى صدر الطبيب چون ، وقال : « وما هى خطوتك التالية ، يا چون ؟ » .

فانفعل الطبيب چون بيرن فى جوابه . لم يدعه وجومه يبتسم ولم تتركه عزيمته يتصلّب ثم قال : « أظن أننى سوف أفتتح عيادة فى جنوب بوسطن وأكتب للمرضى

وصفات للرشح وما شابه . ويمكنني أيضاً الحصول على عمل في شركات التأمين بدولار عن كل كشف طبيّ . ولا تنس أنني مولّد . والناس في جنوب بوسطن ترتفع عندهم نسبة الولادة . وفي اللحظة الأخيرة كما يحدث سيدعون الطبيب بيرن كي يتفضل بالمرور عليهم بشنطته السوداء ، ويتكرّم أيضاً بإحضار قطعة الصابون معه لأن الفئران قد قرضت ما تبقى عندهم في البيت . فالمجال أمامي واسع إذا بدأت عملي . وفي هذه الأثناء ، أنا وريتا . . . أظن أننا سننتظر » .

لأوّل مرة في حياته ودّ ستيفن لو كان لديه مبلغ كبير من المال . إذاً لقال لهما : « أصغيا إليّ . إليكما خمسة وعشرين ألف دولار . تزوّجا حالا وابتاعا بيتاً في بروكلاين يتّسع لخمسة أو ستّة أطفال . ثم أنتَ يا چون ، التمس لك عيادة في شارع الكومنولث بممرّضات وغرف للانتظار والاستقبال ، بعيداً عن هؤلاء الأطباء " البراهمة البوذية " وتلاعبهم بالأسعار الخيالية في الجراحة » .

ما هذه السذاجة ؟ ! كلا ، إن من كان على مثال چون بيرن وريتا فرمويل لن يرضى بالنصر هكذا . لكن ستيفن قال لهما ما يعتقده حقّاً : « إني مسرور لقرارك ، يا چون . الأمر شاق لكن ليس لك غير هذا المخرج » .

ثم قبّل ريتا وشدّ على يد الطبيب چون وتفقد طريقه في الظلام وهو يهبط الدرج ممسكاً بالدرابزين . كان يعلم أنه في اللحظة التي يغلق فيها الباب وراءه سوف تقدّم ريتا شفتيها لچون كي تشجعه بحبها . ففرح لهذه الفكرة ، ولم يشعر بالوحدة أو العزلة في عالم يسوده الألم والغبن والانزواء ، لأن الناس ، رجالا ونساء ، عندما يتعانقون ويتبادلون القبل إنما يفعلون ذلك ليشجّع بعضهم بعضاً .

ارتفعت به فضيلة المحبة الإلهية وحملته كأنما على أمواج . إلا أنه تيقّن وهو يعيد في ذاكرته قرار الطبيب چون بيرن أن الرياح التي يسمح الله بهبوبها على البشر ليست دائماً هادئة صافية . فالإيمان كالبحر يغرق أو يحمل ، والاستسلام لضربات أمواجه العاتية دون تذمرّ يتطلّب ثقة عميقة وعزماً لا ينثني .

ثم رفع ستيفن نفسه بالصلاة قائلا : « إذا ما قرب وقت امتحاني ، فامنحني يارب ألا أعترض قسوة محبتك » .

* * *

الفصل الرابع

وجد ستيفن نفسه يتخبّط فى مشاكل عديدة لم يعهدها وهو يدرّب فرقة الصغار للخدمة على الهيكل .

تطوّرت فى رعية القديسة مرجريتا حالة فريدة قديمة العهد لم يستطع ستيفن أن يدركها تماماً . كان « لويس ضاى » وهو رجل غامض الشخصية ، قد جعل من شخصه مزيجاً من قندلفت « وقوّاص» وخادم خاص للرئيس موناجان ، واعتاد أن يخدم له القداس الكبير فى تفان ومحبة فائقة حتّى اعتقد موناجان أن خادمه يعنى بالكهنة المساعدين كما يعنى به نفسه . لكن فى الظروف الحاضرة ، ظهر أنه يوجد نقص كبير فى أولاد الخدمة وأن درجة معرفتهم بالترتيبات الكنسية تدعو إلى الأسف .

أما لويس ضاى ، مع كونه خادم الهيكل الأفضل فقد أخذ على عاتقه تدريجيًّا العناية بجميع شؤون الهيكل : المفارش والشموع والزهور ، كلها فى عهدته . وكان يقوم بجميع واجباته بدقة تامة ، حتّى لقد كان يمكنه إفساد (وفعلا أفسد) كل المحاولات التى كانت تقوم بها بعض النساء الفاضلات لمساعدته فى خدمة الهيكل . وذهب لويس إلى أبعد من هذا . فقد هيأ له غرفة صغيرة بالقرب من المقدس وجعل منها معملا ومشغلا . وفى صومعته هذه كان يجلو الشمعدانات وينظّف قناديل الزيت. ويمارس فنّه فى الرسم على الرقّ . والزخارف المنيرة فى أعلى الكنيسة من عمل يديه . بل رسم أيضاً باللون الأحمر الذهبى عبارة باللغة اللاتينية يطلب فيها نعمة الطهارة للجسم والروح ، وعلقها فى المقدس فوق المغسلة :

« امنح يارب يدىّ عزماً لنفض كل لطخة حتّى أستطيع أن أخدمك دون وصمة فى العقل أو فى الجسد » .

فى الأيام الأخيرة بدأ لويس يرتق ما بلى من الثياب المقدّسة التى تخصّ

الكنيسة . فاشترى من ماله الخاص خيوطاً من الذهب والفضة ، وفى مهارة نادرة أصلح تطريز الملابس حتى مدّ فى حياتها بعد أن كادت تبلى . كل هذا فعله فى هدوء وانطواء على ذاته حتى لقد أصبح عسيراً على القندلفت « ماك جواير » أو أىّ شخص آخر ، أن يوجّه إليه نقداً أو لوماً .

هذه كانت الحالة عندما شرع الأب ستيفن يجدّد تنسيق نظام الخدمة على الهيكل . مرّات كثيرة لمح لويس ضاى يتسلل كالشبح إلى مشغله أو يركع مطأطئ الرأس أمام الهيكل . لكن ستيفن أحجم دائماً عن التدخل فى أعمال هذا الرجل أو عباداته . ثم ساوره الشك فى الغموض الذى يحيط بهذه النفس الخجول ، فتوجّه إلى الأب بولس آيرتون للاستعلام .

— « ما الأمر مع لويس ضاى؟ » .

— « قصة تعيسة ، يا ستيف . لكن لا سرّ فى ذلك . فعندما بلغ السابعة عشرة أو نحو ذلك ، انضم لويس إلى أحد أديرة الرهبان . ولعلك تدرك لماذا . فليس فيه من ميل دنيوى ، كما ترى . ثم قبل عقده نذوره النهائية — وتغيرّت ملامح الأب آيرتون — تنبهوا فى الدير إلى أن أعصابه ليست على ما يرام . ومع أن قلبه متعلّق بالهيكل ، فلم يسمحوا له بالعمل كاهناً . لذلك صمّم على أن يكون أفضل خادم للهيكل » . ثم حدّق الأب آيرترن بعينيه الرماديتين فى الكاهن الشاب وقال : « عامله بلطف يا ستيف . إنه يتأثّر سريعاً » .

— « هل أسأله مساعدتى مع فريق الصغار لخدمة الهيكل ، أو أعمل دونه ؟ »

تمعّن الأب آيرتون قليلا فى هذا السؤال ثم أجاب : « أرى أن كل محاولة ، من أىّ نوع كانت ، ستثير حساسيته . والأفضل فى نظرى أن تطلعه على خطة عملك » .

عندما تقدّم الأب ستيفن من الرجل الكتوم فى مشغله حاول جاهداً أن يظهر رقيقاً جدّاً فى معاملته له . بدا له لويس ضاى فى نحو الثالثة والعشرين ، نحيل القوام ، شعره دقيق كالحرير ، ورأسه صلعاء فى قمّتها ، كما لو حبتْه الطبيعة بالشعار الذى رفضت الكنيسة منحه إياه . وجده جالساً على كرسىّ مستدير مرتفع ينظّف بنشاط شمعداناً ضخماً من النحاس بسائل معدنى ، وتحوط بهذا

الرجل الغريب رهبة خفيّة منعت ستيفن من مصارحته جليًّا بالأمر كما كان قد اعتزم .

— « يالويس ، إنى أذوب حسداً كل مرة أراك تخدم القداس على الهيكل . أتظن أنك تستطيع مساعدتى فى تدريب بعض الصغار على هذا الفن المندثر ، أى على طريقة مثلى للخدمة على الهيكل ؟ » .

صبّ لويس قليلا من السائل المعدنى على قاعدة الشمعدان وعيناه إلى أسفل وقال : « كيف يمكننى مساعدتك ؟ » وأردف فى صوت يتخلّله اليأس: « إن الكاهن المكرّس لا يحتاج إلى مساعدة تأتيه من منبوذ حقير مثلى . »

ظن ستيفن أنه منزعج المزاج أو أن حساسيته دقيقة ، فليكن . فأردف يقول : « يمكننى تدريب الصغار للقيام بخدمة قداس بسيط ، يالويس ، لكنى فى حاجة إلى من يساعدنى وأنا أدربهم على خدمة قداس احتفالى — واندفع ستيفن فى فرحته — فيمكننا معاً ، أنت كشماس وأنا فى دور الكاهن ، أن نمثّل أمامهم قداساً على منضدة المقدس . وإذا ما رأوا كيف تدور خدمة القداس ، فهذا يعنى أننا بدأنا مرحلة جديدة هنا فى كنيسة القديسة مرجريتا . ما رأيك فى هذا ؟ » .

تضاربت الأفكار عند القوّاص النحيل وأدرك فى وضوح تام أن سيطرته على الهيكل الكبير ستوزّع الآن بين فرقة من القرود . ما هذا الاستسلام المخزى ؟ مع ذلك فالكاهن الواقف أمامه لطيف جدًّا وظريف ، وهو يدعوه ليشاركه فى مشروع ربما يؤول إلى صداقة حقيقية لا يجوز لنفس وحيدة كنفس لويس ضاى أن تنبذها . وبان هذا الصراع الداخلىّ بوضوح فى حركاته العصبية وهو يجلو الشمعدان بقطعة من جلد الوعل . . . أخيراً استيقظ من تردّده ، وترك ما بين يديه ، وقال فى رضوخ : « سأعمل كل ما يرضيك ، يا أبى » .

ثم رفع طرفه فى خجل وصوته يتهدّج حزناً . فتعجب ستيفن واضطرب من استسلامه المفاجئ الكامل الذاتى ولم يتنبه أنه طفق يتكلم بسرعة : « سوف لا تجهد نفسك كثيراً . . . جلستان تكفيان لوضع الأمور فى نصابها . إن بعض هؤلاء الصغار يحتاجون إلى تنظيف تام . أعنى . . . » .

وقطع عليه كلامه صوت يشبه قطيع ثيران صغيرة تحاول جميعها معاً المرور

ن باب المقدس . إنهم فريق أولاد الخدمة الجديد ؛ كانوا جهلاء ، طائشين ، لعّابين
قد أتو ليقوموا بتمرينهم الأوّل . فأقفل الأب ستيفن الباب على لويس وتقدم
ى المقدس ليصلح الأمور . أوقف الأولاد فى صف واحد وحاول أن ينسى أمر
لويس ضاى وحصر كل ذهنه فى كيفـّية التأثير بصوته وعينيه على هؤلاء الصغار
لذين لم يتعوّدوا الهدوء أو النظام .

فشرع يقول لهم : « أيها الأولاد ، منذ الآن فصاعداً ستنالون شرفاً كبيراً لا يعطاه إلا من يخدمون هيكل الله . سيسمح لكم بالدخول إلى منطقة الهيكل . وستصعدون درج الهيكل . وستقتربون من الأوانى المقدّسة ، وستمسكون بكتاب القداس بين أيديكم . لذلك من الضرورى أن تكون أيديكم نظيفة » .

فى الحال أخبأ الصغار أيديهم وراء ظهورهم . فقال ستيفن : « سنقضى ربع ساعة على المغسلة فى المقدس . الصغار أولا ولا تبذّروا فى الصابون » .

بعد ما نظف الأولاد أيديهم ووجوههم وسرّحوا شعورهم اصطفوا مرة أخرى .

فقال الأب ستيفن : « حسن ! لقد جزنا الآن المرحلة الأولى . بعد ذلك يأتى ما نسمّيه بالاستعداد الداخلى . فقبلما يتقدّم أىّ شخص من الهيكل ، كاهناً كان أم خادماً ، يجب عليه أن يقضى وقتاً قصيراً فى الصلاة والتأمّل . هل بينكم من يستطيع أن يقترح صلاة صغيرة ؟ » .

فسادهم صمت كامل مزعج .

ثم لمح الأب ستيفن « چامى سپلين » بمعطفه الأخضر ودبّوسه المعكوف فسأله : « يا چامى ، ما هى الصلاة التى تعوّدنا دائماً تلاوتها ؟ » .

سرّح چامى طرفه فى عالم الغيب وقال : « أبانا الذى ؟ » :

— « جيد ! إن القديس أغسطينوس نفسه قد لا يمكنه تقديم جواب أفضل . والآن لنركع ونتلوها ببطء ووضوح كامل ، كما لو كنا نتلوها للمرّة الأولى » .

فركع الصغار وكأنهم يتصارعون . فتلا الأب ستيفن معهم الصلاة الرّبيّة جاعلا منها درساً فى الاحترام والإلقاء . وعند « آمين » أحنى رأسه . « والآن قفوا . فى المرة القادمة سوف نتلوها باللاتينية . »

فتهامس الصغار مرحين كالقرود : « باللاتينيّة ؟ نعم . . باللاتينيّة الغجريّة ؟

كلا . . . باللاتينية الأصليّة . . . يقول إننا فى المرة القادمة سنتلوها باللاتينيّة » .

ثم سألهم ستيفن « هل يستطيع أحد أن يقول لى لماذا نتلو القداس باللغة اللاتينية ؟ » .

لم يجرؤ أحد على التكلم . وبعد برهة رفع « أندى كورتن » الألكن يده فى تردّد .

— « لماذا ، يا أندى ؟ » .

— « إن القداس ىُ — ىُ — يقال باللاتينية حَ — حَ — حتى لا يفهم النا—ناس ماذا تَ — تَ — تقول » .

— « هذه واحدة للكتاب الأزلى ! » قالها ستيفن مخاطباً نفسه . ثم تذكّر دهشته وهو طفل عند سماعه النبرات الغريبة التى كانت تصدر عن شفتى الكاهن . كانت الحيرة قد تملّكته منذ صغره لاعتقاده بأن لغة الهيكل يجب أن تكون محاطة بهالة من الغموض حتى اليوم الذى أتيح له فيه أن يحضر القداس للمرّة الأولى . فبدأ يتفهّم معانيه تدريجيّاً حتى أصبح من أولع المثابرين على خدمة القداس .

والآن بعد مضى عشرين سنة فها هوذا يدرّب غيره على تعلّم الكلام الحىّ الذى تتناقله الشفاه عبر الأجيال .

فطفق يشرح لهم برقّة : « كلاّ يا أندى. ليس الأمر كما ذكرت . فالكاهن لا يريد جعل ما يقوله سرًّا . بل يريد أن يفهم كل شخص فى كل زمان ومكان ما يقوله على الهيكل . والقداس يقال باللاتينية لأنه لا توجد لغة أخرى — ما عدا العبرانية على ما أظن — عالميّة لا تتغيّر كاللاتينيّة » .

ثم شرع يلقنهم الأجوبة مقطعاً مقطعاً وكلمة كلمة كما يطعم الطير صغاره من فتات الخبز .

لقّنهم كثيراً كلمات القداس الأولى وعلمهم كيف يحرّكون أيديهم وأقدامهم عندما يقتربون من الهيكل . وبعد ساعة من التمرين كنت تراهم يحنون رؤوسهم برهبة كأساقفة صغار .

وبعد مضى أسبوعين كان فى إمكانهم أن يخدموا قداساً بسيطاً بكفاية متوسّطة . لكن ستيفن لم يفته أن هذا لا يكفى للقيام بخدمة القداس الاحتفالى المتشعّب

الترتيبات والذى ترافقه الموسيقى كل يوم أحد فى الساعة الحادية عشرة .

مرّة أخرى قرع الباب على لويس ضاى فى معمله . وقال فى فرح : « إنى فى حاجة إلى شماس . أتستطيع قضاء بضع دقائق معى بعد الظهر ، يالويس ؟ » .

رفع لويس ضاى عينيه عن الثوب الذى كان يطرزه . كان لابساً نظاراته بسبب دقة العمل بالإبرة . وكان يخيط بسرعة حتى تجعد جبينه بخطوط متضاربة . فعند رؤيته الأب ستيفن اختفى تزمّت شفتيه وانشرح صدره واتسعت كتفاه وكأنه تخلّص من حمل أثقله طول الانتظار .

— « إنى طوع إشارتك » .

فانتاب ستيفن ارتباك شديد . إن مهارة لويس فى منحه أكثر مما يُطلب منه ، واندفاعه العاطفى نبّها ستيفن إلى ضرورة معاملة هذا الشاب البالغ التأثّر بعناية فائقة . فلكى يجعل الحديث مرحاً مجرداً عن كل طابع شخصىّ ، أخذ قطعة القماش المطرّز من على المنضدة وهى كمّ من الأطلس الأخضر مرسوم عليه صليب كان لويس يطرزه بخيط ذهبى ، ولم يتأخّر عن إبداء إعجابه .

— « هذا بديع ، يالويس ! » .

— « أتستغرب ذلك ؟ » .

— « حقًّا كلا ! ولمَ الاستغراب؟ فى العصور الوسطى كان لكل دير فنان ، عمله الوحيد ابتكار الرسوم وتصليح الثياب . وأذكر أنى رأيت مشملة من دير "كلونى" من الجيل الرابع عشر ، هى قطعة فنية عجيبة من الحرير المطرّز المحشوّ باللآلىء ، كلها أحجار جمشت ودرر . لا شك أن الرجل الذى صنعها فنان عظيم » ثم أدرك ستيفن أنه تجاوز حدود المديح ، لكنه تابع حديثه : « هنالك أيضاً " سالينى " الذى صنع معطف البابا أكليمنضوس السابع » .

فقال لويس برصانة : « إن سالينى لم يصنع سوى زرّ المعطف ! » كان تصحيحه إنذارا معناه : « لا تحاول اجتذابى بامتداحى ». وأفصحتْ شفتاه المتزمتتان بما معناه : « ربما ظهرتُ لكَ مطيعاً وعاطفيًّا لكنى لست ممن يؤخذوَن فى عقولهم » .

شعر ستيفن كأنه يمشي فى طريق محفوف بالأشواك . لكنه سرّ كثيراً عند سماعه الصغار يتزاحمون فى المقدس فقال : « هاهم أولاء ، يالويس » .

تقدّم ستيفن بعضه أشبه بضابط وبعضه الآخر أشبه بمرضعة ، وقاد أبطاله إلى ركن فى المقدس أبعد ما يكون عن الهيكل ، ثم كلّمهم وكأنه قيصر يخاطب جنوده عشية زحفه على فرنسا :

« أيها الأولاد ، سنقوم اليوم بمغامرة طريفة واحتفال كنسيّ متعقّد ، هو القداس الكبير . قد طلبت إلى لويس ضاى أن يساعدنا ، وأريدكم أن تفعلوا تماماً ما يقوله لكم . والآن سوف أوزّع مختلف الوظائف أوّلا على الأولاد الذين أظهروا اجتهاداً ملحوظاً فى الأسابيع الماضية . أنت ياچامى سپلين ستمسك المبخرة . أندى كورتن وشارلى باول ستمسكان الشموع . وأنتم —وأشار إلى الباقين — تمشون وراءهم » .

ثم تابع الآب ستيفن كلامه : « إن القداس الكبير يبدأ بموكب كبير نحو الهيكل . فى الأول يمشى حامل المبخرة ويهزّها بيده . هو أنت يا چامى . ويتبعه حامل الصليب مع حملة الشموع وراءه من كل جانب . ثم يأتى فريق أولاد الخدمة ويتبعهم لويس كمدير الترتيب ، وفى الآخر الكاهن ، وهو أنا » .

ثم راقب الأب ستيفن تحركاتهم بعين نقّادة . « ابتعدوا قليلا بعضكم عن بعض . لا تزدحموا هكذا كالقطيع . مستعدون ، يا أولاد ؟ لا أريد مسرحيّة الآن . ابدأوا بقدمكم اليسرى ، فالموسيقى ستعزف . هيه ، أنت يا چامى ، ليس هذا حبلا لتطوّحه . إنها مبخرة ملأى بالنار والبخور . اخفض يدك قليلا ! » .

وقف الموكب أمام هيكل المقدس ، وأخذ الأب ستيفن ولويس ضاى يعيدان تنظيم الصغار كل فى المكان المحدّد له . ثم قرأ ستيفن الصلوات الأولية وامتلأ قلبه سروراً لإجابة الصغار باللغة اللاتينية .

كان لويس ضاى وهو يعلّم الأولاد فنّ الخدمة مثالا رائعاً فى النطق باللاتينية بوضوح تام . اهتزت جوارح ستيفن لرؤية تصرفه المتقن الدقيق . ما أجمل هذه التقوى ! وما أصدق هذه الدعوة ! لكن واحسرتاه! كان ذلك الإناء المصطفى يحوى شرخاً خفيًّا .

تتبّع الأولاد هذا الاحتفال المتعقد وهم يتعثرون ويسقط بعضهم على بعض فى حين كان الأب ستيفن ، كما يقتضيه التمرين يدير لهم ظهره . وبدا لويس ضاى يائساً كمدير مسرح ينتشل الواقعين ويحثهم بالكلام والإشارة . كان التمثيل فظيعاً لكن الوقار الذى أحيط به تغلّب على جميع الحركات البهلوانية .

بعد مضىّ ثلاثة أسابيع خدم الفريق الجديد القداس الكبير الذى أقامه الأب موناجان . وهزّ چامى سپلين المبخرة فى حركة معقولة . ودقّ أندى كورتن الجرس برشاقة . وكان الترتيب متقناً طوال الوقت . فأبرقت عينا وليم موناجان فى زهو وفخار . ولويس ضاى أيضاً ، تلك النبتة الحساسة ، لم يخف ابتسامته لما تقدّم إليه ستيفن يشكره بعد القداس .

* * *

الحرّ الذى اجتاح أودية النهر الغامض فى شهر أغسطس يشوى أسفلت الأرصفة وسطوح دار الكنيسة المسقّفة بالخشب . الأطفال يموتون ، والذباب يتكاثر وشواطئ البحر تزدحم بالمصطافين . فقد ستيفن أربعة عشر رطلا من وزنه ، مع أن قوامه الهزيل يدعو إلى الشفقة . كان يعمل بجهد كبير فوق طاقته . لا شك فى ذلك . نبهته والدته سيليا فرمويل وهى تقدّم له طبق سمك القد يوم الجمعة مساء إلى أنه شاحب اللون — حتّى والده دونيس ذو الشارب المقنفذ كرّر عليه القول مراراً بوجوب تخفيف العبء عنه . وسأله والده :

— « ما هذا اللون الجديد الذى تتشكّل به ؟ أهو أخضر يميل إلى بياض ؟ إن شحوب الألوان الكنسية شيء ، يا ستيف ، ولون الجثة شيء آخر . عليك أن تتشبه ببرنى . اذهب إلى ملاعب الكرة واجلس فى المقاعد الأمامية المكشوفة وجدّد شكلك هذا الشاحب » .

جرَّ ستيفن نفسه إلى القيام بواجباته الرعائية وكلمات أبيه تتسارع فى مخيلته المتعبة : الأخضر يميل إلى بياض . . . الألوان الكنسيّة الشاحبة . . . وشكله الشاحب . كان مرهقاً بالعمل ، ويعلم ذلك . ربما كان نحيلا أو شاحب اللون قليلا ، لكن اندفاعه الحار إلى العمل الكهنوتى استمرّ قويّاً . فما كان من ستيفن إلا أن وسّع من برامجه وتضرّع حتّى يعود الجو إلى اعتداله .

لما مرّ فصل الصيف انتاب ستيفن هبوط نفسيّ وشعور بالعزلة . تاقت نفسه إلى روما ! تاقت نفسه إلى بناياتها الفخمة من الحجارة والرخام والمرمر التى صنعتها أجيال من البنائين والمثالين . وبالمقارنة بالفن الأمريكى الممتزج بالفن الغوطىّ ، ظهر له بناء كنيسة القديسة مرجريتا بطوبه الأحمر وحجر الجرانيت الأملس رخيصاً بشعاً . ثم ماذا يقول برامنتى الشهير مبدع كاتدرائية القديس بطرس عن هذا البناء ؟ هل يتبرع ميشيل أنجيلو بابتسامة رضى عند رؤيته تمثال العذراء المصنوع من الجبس فى مغارة الكنيسة ؟ كان ستيفن متيقّناً أن الصلة بين الله والبشر لا تحتاج إلى هياكل من اليشب أو أعمدة من رخام « سيپولينو » النقى . ومع ذلك ، فقد تاقت نفسه إلى روما .

بل أكثر من ذلك فقد تاق إلى النظريّات الرومانيّة ، إلى ولع الرومان بالحوادث العالمية ، التى لم يجد مثيلا لها فى حياة الشعوب ، كاثوليكية كانت أم بروتستنتية ، التى يعيش بينها .

كانت الحرب الكبرى تدور رحاها منذ أكثر من سنة فى مأزق سياسىّ وعسكرىّ معاً محطّمة ما اكتسبته الحضارة الغربيّة . لم يغرب عن ستيفن أن كل شخص فى روما من البابا إلى أصغر موظف يتهافت ساعة ساعة على قراءة البيانات التى تصدرها مفوضيّات الدول ، ويزن ويفسّر كل خبر وإن كان دقيقاً ليعلم مدى تأثيره من جميع الوجوه على الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة . نقّب ستيفن جميع جرائد بوسطن لعله يعثر على بعض الآراء تشير إلى موقف أمريكا من الصراع الدائر . لكنه لم يجد سوى بعض التقارير العسكرية التى تسوق اللوم والتشنيع على الإنجليز مجاملة للإرلنديين . فى اليوم الذى قدم السفير البابوى پاشيلّى إلى القيصر الألمانى عروض بندكتوس الخامس عشر للسلام ، طلع « بريد بوسطن » بعنوان ضخم : « فلاح من ويموث ينتج قرعاً ذا رأسين . » بين المليون كاثوليكى فى أبرشيّة بوسطن ، يضاف إليهم ثلاثة ملايين من البروتستانت فى المنطقة عينها ، على حسب تقدير ستيفن ، قليلون من كانوا يعلمون أو يهتمون ببواطن الأمور فى الحرب الأوروپيّة .

فى صيف تلك السنة كانت الأنظار معلّقة بفريق « الجوارب الحمر » من

بوسطن ، سريعين كالرصاص ، بقيادة « بل كاريجان » ضابط الكرة . كان الجوارب الحمر مرشحين للفوز على « نمور » ديترويت تحت إمرة « تى كوب ». ففى أغسطس ١٩١٥ ، وصل العداء بين بل كاريجان و تى كوب أشدّه . وأعلن كاريجان أنه سيسدّ طريق الدخول بجسمه الضخم على تى كوب كل مرة يحاول فيها غريمه الوصول إلى المربّع . وأقسم كوب أنه سيفتك بكاريجان بمسامير حذائه إذا ما اعترضه على خط الوصول . دام هذا العداء مدة الصيف كله لسرور جميع المتفرجين . فأحياناً كاد هيكل كاريجان الضخم أن يقسم ظهر كوب عند المربّع . وأحياناً كان تى كوب يطوّح بحذائه ذى المسامير الحادة فى جميع الاتجاهات مهدداً ساقى كاريجان . كل ذلك فى سبيل ربح هدف واحد . وبينما كان كوب وكاريجان يديران حرب البيزبول فى جرائد بوسطن ، كانت جولات كردينال هزيل لا يعرف التعب بين ربوع ألمانيا والنمسا وبريطانيا وفرنسا — معدومة الذكر أو تكاد .

تمنّى ستيفن لو قدّر له مجالسة أورسلتى ، حتى يوجز له فى عشر جمل ما يدور فى العالم . لكن منذ أن ودّع ذلك الفلورنسى المتعجرف على ظهر الڤيزوڤيو ، لم يتلق منه سوى كلمة مقتضبة ، وذلك مرّة واحدة !

« إيطاليا تحارب الآن فى جانب السياسة الأقوى حدّاً . إنى أقود طراداً فى المتوسط . قضيت وقتاً ظريفاً مع راميلى فى جنوا الأسبوع الماضى . صديقى العزيز ، حافظ على نفسك ، فلنا مواعيد عديدة سارة بعد الحرب . وأخبرنى عن خطواتك الأولى فى حقل عملك . المخلص ، جيتانو » .

أما كارنجى ، فلا يعلم عنه شيئاً . كتب إليه ستيفن مرتين ولكن إما أن يكون توزيع بريد الحرب بطيئاً وإما أن يكون أستاذه القديم قد نسيه .

وإذ كان ستيفن متشوّقا إلى أنباء روما توجّه يوماً بعد الغداء ، وكان يوم خميس شديد الحرارة ، إلى الأب بولس آيرتون يستوضحه الأخبار . كان غبار ناعم مخنق يتسرّب من النوافذ إلى حجرة الطعام ، وصوت أرغن قديم يرسل نغماته الكئيبة وسط الضواحى المقفرة . جلس الكاهنان يتذوّقان القهوة المثلجة وبضع قطع من الكعك بالقرفة ، نابذين عنهما هموم العمل الذى ينتظرهما طوال بعد الظهر .

أقبل ستيفن على قهوته يحركها بالملعقة ويتمققها بتكاسل. ثم قال : « ما قولك يا بولس ، على سبيل التسلية فقط ، فى أن نتباحث قليلا فى مجريات الأمور العالمية ؟ أعنى فيما يحدث حقيقة فى العالم ، وليس فيما تقوله "آنى ريجان" عن "ليزى چيلن" وهى تعالج أُبنَ أقدام "إغناطيا دويل" ، أو كيف يقدّر "بل دانى" فرص نجاح "الجوارب الحمر" فى المباراة الأخيرة الحاسمة ، كلاّ ! لكن أريد نظرة إلى العالم جديدة مدروسة دقيقة » .

فغمس الأب بولس آيرتون قطعة من الكعك فى القهوة وقال :

« لا أرى أهمية لهذا ، يا ستيف . ما فائدة اندفاعك وراء الأنباء الأوروبيّة لنفرض أن بالقرب من سريرك شريطاً خاصًّا يوصلك بالڤاتيكان . فماذا تعمل ؟ قبلما تنام الليلة ، ربما ستستمع إلى أن السفير البابوى "روجازا" اجتمع ، أو لم يجتمع ، مدة ثلاث ساعات ، بالأمير "منجلورزل" الباڤارى » . ورفع الأب بولس قطعة الكعك إلى فمه : « قل لى ، ماذا يمكن أن يفعله كاهن حديث مثلك ؟ »

— « لا شىء . موافق . لكن افهمنى جيداً ، يا بولس أنا لا أريد حَشْرَ نفسى بين ثرثرات القصور . لكن ما أفتقر إليه هنا فى رعية القديسة مرجريتا هو وجودى بالقرب من محور الأمور ، وهو شعور تعودّته فى روما . إن شيئاً ما يتسرّب من بين الحجارة هنالك ، إنه التنبّه إلى السياسة أو بعد النظر فيها ، أو سمّه كما شئت . » وشرب ستيفن جرعة من قهوته : « إن ما أشعر به هو أنه ما من أحد حولنا ملمّ وإن يسيراً بما يجرى فى العالم » .

فارتسمت على طرفى شفتى الأب بولس آيرتون ابتسامة ساخرة ، قد تكون عند غيره ضحكة عريضة : « إن ما يزعجك فى الحقيقة ، يا ستيف — واعذرنى فيما أقوله — هو هذا العمل الحقير الذى أسندته إليك الكنيسة . اسكت الآن وأصغ إلىّ . بينما الأساقفة يؤدّون التحية وأمراء الكنيسة يمثّلون المراكز الأولى على المسرح —وخرجت الكلمات من شفاه الأب بولس آيرتون حادة لاذعة — هوذا الأب فرمويل المسكين المغرور يتململ من عمله المتواضع ويخشى ألا تواتيه الفرصة للتقدم على المسرح . إنه طموح ، فهو من الفرمويل ! وطموحه شريف ! لكنه يا للأسف ،

بعد ثلاثة أشهر على عربة اللبن ، يتلهف إلى التقدّم وفى رغبته لو قدّر له أن يعيد نظام أبرشية بوسطن ليحصل عليه » .

— « ليس هذا بصحيح يا بولس . إنى لا أسمح لك بتأويل معنى كلامى بهذا الشكل . » وزاد التعب والحر من انفعال ستيفن . « أمنَ الغرور أن نفكّر فى الكهنوت كشىء أفضل من طريق نجرّ عليه عربة اللّبن ؟ هل أشكلّ خطراً على كنيسة القديسة مرجريتا لبرهانى أن الكنيسة هى رومانيّة كاثوليكية — كاثوليكية أى جامعة ، ورومانية أى من روما ؟ »

ضرب الأب بولس آيرتون ذبابة بمذبّته ، كأنه لم يسمع وقال : « انحدر قليلا إلى سفح الجبل ، يا ستيف » . كانت ميزة الأب آيرتون ، كأغلبية الكهنة ذوى الخبرة الواسعة والعزم القوى ، أن يضع النظريات العقلية فى مستوى معتدل بين عدم الاكتراث والتريّث : « دع روما تهتم بشؤونها . إنها قد أحسنت التصرّف مدة أجيال عديدة . وأظن أن عندهم هنالك رجلا قديراً يقوم بالعمل . » وجرّد بولس صوته من نغمة التهكّم وأصبح أستاذاً رقيقاً يرشد تلميذاً أضناه التعب : « أنصحك بالهرب من المدرسة بعد الظهر ، يا ستيف . اذهب لمشاهدة « الجوارب الحمر كيف تفتك بفريق ديترويت . فهذا سيفيدك أكثر مما تمارسه من تضحيات روحية حتى لو قمت بالسفر إلى كمبوستلا » .

— « إن أصوات المتفرجين تزعجنى كثيراً ، يا بولس . ثم إنى متأخر فى جرّ عربة اللّبن . علىّ بعض الزيارات الرعائية ، وقد جعل الله لى هذا اليوم لأقوم بها . »

جفّف الأب بولس آيرتون العرق من شعيرات ذقنه الخشن ، وضحك فى شىء من السخرية وقال : . « لا بأس بذلك . إن الكاهن إذا ما أراد أن يكوّن فكرة شاملة عن الكنيسة فليس لديه طريقة أبشع من أن يقوم بعمل زياراته فى يوم حار خانق كبعد الظهر هذا من أغسطس » .

* * *

أشرفت الساعة على الثانية بعد الظهر عندما بدأ الأب ستيفن فرمويل زياراته الرعائية فى شارع ويجلورث — (على اسم وزير بروتستانى مهاجر : ميشيل ويجلورث) — حيث تكثر فيه اليوم برك ماء الغسيل المتجمّع الذى تقذف به

جماعة من الإرلنديين العمال . خلف هذا الشارع تمتدّ مجارى المدينة ومستنقعات النهر الغامض ، حيث ينساب جدول ماء متعرّج يستحمّ فيه بعض الصغار .
كان رقم ٤٤ ، آخر بيت على اليسار ، أشبه بمربّع خشبيّ ذى سقف مسطح وثلاثة أدوار ، تمتدّ على واجهته ثلاث شرفات متداعية تنبعث منها رائحة كريهة حادة . تقدّم الأب ستيفن فى الممرّ وقد زالت عن جدرانه قشرة الجبس ، وقرأ على صندوق بريد كسرت واجهته بعض كلمات كتبت بالرصاص « چيرى فالون . الدور الأعلى» . تسلّق السلّم بمهارة ، ومرّ بالقرب من طفلين شاحبى اللون فداعب رأسيهما ، وتابع تسلّقه ، دون توقّف ليستعيد أنفاسه . ثم قرع باباً أكله السوس فى الدور الثالث . وسمع حفيف خطوات ناعمة . ثم فُتح البابُ فى حذر بمقدار بوصتين .

— « من أنت ؟ » .

— « أنا الأب فرمويل من كنيسة القديسة مرجريتا . كنت مارًّا بالقرب من هنا وفكّرت بزيارتكم » .

فتحت "كيتى فالون" الباب بأدب واحترام . لم يكن لها أسنان ولا قوام ، لكن شعرها لم يزل سليماً . « تفضّل ، يا أبى . إن الممرّ مظلم . انتبه إلى السرير الذى ينام فيه "پيرلى" تفضل . كنتُ أقدّم لجيرى حساءه » .

تبعها ستيفن فى الممر حيث نُشرت بعض الثياب والمفارش . وفاحت رائحة كيماوية مطهّرة ، ورائحة الكرنب والسمك واللحم والقرنبيط . وصلا إلى غرفة ، كأنها فرن ، تضربها الشمس على سقفها الرقيق . مع ذلك فالنوافذ كلها مغلقة . رأى ستيفن رجلا هزيلا متجمداً كالمومياء ، لابساً قميص نوم طويلا ، جالساً إلى منضدة تراكم عليها كل شىء ، وممسكاً بيده اليسرى قمعاً متصلا بأنبوب من المطاط ، الجزء الآخر منه يختفى فى ثقب مفتوح تحت حرقدته .

لم يقف الرجل أو يتكلّم .

فقالت كيتى فى سرور يزيد عما يتطلّبه الموقف : « ياچيرى ، هذا الأب فرمويل . قد أتى لزيارتنا . تفضل اجلس يا أبى . سأعطى چيرى بقية غذائه » .

جلس الأب ستيفن على كرسى من خيزران بلى قعره وراقب عملية التغذية

الغريبة . أخذت كيتى فالون القمع من يد زوجها ورفعته قليلا عن مستوى فمه وصبّت فيه بعناية ملعقة من حساء اللحم . وانتظرت بضع ثوان حتى ينحدر السائل ثم صبّت ملعقة أخرى فى القمع .

— « هيه يا چيرى ، إنه لذيذ ! » ثم استدارت نحو ستيفن وشرحت له ما حدث . « قد وقع له حادث منذ عشر سنوات . يوماً ما فى نصف الليل شعر بعطش شديد كعطش الشيطان ونهض كالمحموم ، لكن بدلا من أن يضع يده على زجاجة الماء وضعها على أخرى وشرب جرعة كبيرة من ماء النار » .

شهق ستيفن : « يالرحمة الله ! » وقطب جبينه لمجرّد تفكيره فى الضرر الذى قد لحق بإرميا فالون فى أنسجة عنقه » .

وقالت كيتى : «يا لرحمة الله حقًّا ! نحن سعداء أن چيرى لا يزال على قيد الحياة . قد نجا برحمة الله فقط . إن حلقه مسدود تماماً ، ولا يستطيع النطق بكلمة واحدة . لكن شكراً للطبيب فاريل الذى فتح له هذا الثقب الذى تراه ، فبواسطته يستطيع چيرى تناول غذائه .

هوّى ستيفن وجهه بقبعته السوداء .

— « أعلم أن الجوّ حار ، يا أبى . لكننّا لا نستطيع فتح النوافذ حتى لا يتعرّض چيرى إلى تيار الهواء ، فالطبيب فاريل يقول إنه إذا تعرّض للبرد فلا أمل فى شفائه » . ثم دارت بالحديث عن ستيفن . « بلغنى أنك الكاهن الجديد الذى وصل حديثاً من روما » .

— « نعم يا سيدتى . » لم تظهر له روما بعيدة يوماً كما هى الآن ، ولم يساعده لسانه على إقامة مقارنة بين المدينة الأزليّة وبين الدور الثالث من رقم ٤٤ فى شارع ويجلورث . كان ستيفن جالساً مكانه يتبضّع عرقُه ، وكيتى فالون تتلهّف على أن تسمع منه أخباراً وقصصاً عن الرعيّة ؛ وستيفن يفكر فى إيجاد كلمة معقولة يمكنه الاستناد إليها ليبدأ الحديث . فوجد ضالته فى صورة صغيرة ملصوقة على الجدار لولد وفتاة .

— « هل هما ابناك ، يا سيدتى ؟ »

— « نعم ، إنهما پيرلى وميمى ، والصورة أخذت لهما منذ اثنتى عشرة سنة ،

يوم ثبتهما الأسقف "ماك أردل" . إنهما توأمان . ثم تزوّجت ميمى منذ خمس سنوات وتعيش الآن فى "روزلنديل" ولها أربعة أولاد بما فيهم المولود الحديث . ويشتغل بيرلى فى معمل للمطاط . إنه شاب ظريف يا أبى . وبدون مساعدته لا أدرى أين أتوجّه » . وحدّقت كيتى فى الصورة وهى شاردة الفكر . « منذ اثنتى عشرة سنة ! كان ذلك قبل حادث چيرى، وقبل سنة من وصول الأب موناجان إلى كنيسة القديسة مرجرينا » .

— « لا شك أنك تعرفين الأب هالى ، راعيكم القديم » .

فرفعت كيتى عينيها إلى فوق كأنها فى انجذاب : « كيف لا أعرفه : إنه قديس وأعماله مقدّسة . كانت القداسة تشعّ منه وتحيط به كما تُحيط بنا الهواء . ولقد حزنّا جميعاً على بعاده . قد أبعدوه من ههنا . ولا أعلم عنه شيئاً » . ثم تذكرت ما هى فيه وقالت : « أتسمح لى ، يا أبى ، بان أقدّم لك فنجاناً من الشاى ؟ »

فنهض ستيفن بسرعة قائلا : « لا ، أشكرك ، يا سيدتى . يجب أن أذهب ، فأمامى زيارات كثيرة فى هذا اليوم . » وربت بيده على كتف الرجل الصامت الجالس أمامه كقطعة من خشب ، فأحس برطوبة لزجة على قميص نوم الرجل ، وتنسم رائحة الموت تنبعث من هذا الشبح .

هذه هى أعمال الرحمة الجسدية : زيارة المرضى ودفن الموتى .

ثم قال ستيفن: « ليعطنا الله القوّة لتحمّل المتاعب التى يفتقدنا بها ، يا سيد فالون . »

نظر إليه إرميا فالون بعينين ذاويتين ، دون أن يهتزّ لهما رمش ، كعينى سمكة ميّتة فى قعر سفينة صيد !

أما كيتى فالون فكانت تنبش بيدها جيوب حقيبتها السوداء ذلك ما كان يخشاه ستيفن ، فأدار وجهه .

ثم تقدّمت كيتى وفى يدها قطعة من نصف دولار وقالت : « إليك ، يا أبى ، شيئاً يسيراً لأجل أعمالك الخاصة » .

— « لا ، لا ، يا سيدتى حقّاً لا أستطيع . ابتاعى شيئاً لطفل ميمى» . لم يستمع إلى رجائها وتركها ونزل فى الممرّ المظلم ، وهو يقول : « إلى اللقاء ، يا سيدتى

سأصلى من أجل زوجك » . وتعثر فى سرير پيرلى لكنه وجد نفسه على السلم وأسرع مهرولا إلى أسفل . كان الولد والفتاة جالسين صامتين حيث رآهما أولا . ودون أن يتوقف ثانية ليداعب رأسيهما قفز إلى شارع ويجلورث حيث الشمس تقدح كالنار على الحجر .

فتملّكه امتعاض شديد . أتكون هذه هى الدعوة العلويّة التى كرّس ذاته لأجلها ؟ أتكون تلك هى الأعمال التى يجب عليه القيام بها إلى آخر أيّامه ؟ انتابه كره شديد لكل ما يمت إلى أعمال الكهنوت . شعر بالحرارة تلهبه وبالقىء بجتاحه . حسب ذاته قذراً . ولن يفيده شيئاً إقناع نفسه بمثل هذين الشخصين المحمومين ، وهاتين النفسين الوديعتين المستسلمتين للألم دون تذمّر بروح عالية ومحبّة متبادلة فى غرفة ذليلة . فى ساعة تعب ويأس ذاق ستيفن طعم الكراهة والنتن ، وعافت نفسه ما رأى بعينيه وسئمت ما سمع بأذنيه . عاوده صوت خرخرة الحساء فى أنبوب المطاط القذر ، وتحديق العينين المتجمدتين فى الرجل المقعد ، ورائحة الموت تتصاعد من الجسم السقيم كأنما من قبر .

كاد يتيه وييأس من هول حقيقة دعوته . فوقف تحت خيمة بقال على زاوية شارعى ويجلورث ومين . كل ما يبغيه هو الهرب بعيداً عن رؤية ورائحة وحتى ذكرى عائلة فالون ، هذا الكابوس المزعج . لكن أين المفرّ من الشمس المحرقة ؟ لم يزل أمام ستيفن متّسع من الوقت ، ويمكنه القيام بزيارات عديدة ، لكن إرادته خانته . هل يرجع إلى المقدس المظلم فى كنيسة القديسة مرجريتا ويخرّ ساجداً أمام الهيكل ويقرّ بخطيئة نفوره وكراهيته ، ويصلى من أجل تجديد شجاعته ومحبّته ؟ اشمأزّ لهذه الفكرة . ولأوّل مرة منذ رسامته ، لم يجد فى نفسه رغبة ليرفع قلبه بالصلاة بل أتعس من ذلك فإنه خشى إذا ما توسل فى طلب المعونة ، ألا يلاقى إلا إهمالا لتضرعاته .

لمح ستيفن تراماً برتقالى اللون متّجها نحوه ، وعليه لوحة كتب عليها « حىّ ويكفيلد » . إنه يعرف ويكفيلد . هى قرية صغيرة فى الريف تقع إلى الشمال فى آخر خط الترام . تذكر أنه لعب فيها أحياناً البيزبول وأن القرية تحوطها بحيرة صغيرة أشبه ببركة من الجليد . فكر فى الذهاب إلى ويكفيلد . فربّما ينعشه الهواء

الطلق . فقفز على سلّم الترام ولم يكن به من الركاب سوى عدد ضئيل ، وجلس على مقعد فى ناحية الظل واستسلم فى لذة وشكر إلى النسيم الخفيف ليجفّف وجهه المتصبّب عرقاً .

أضحت اليوم بحيرة ويكفيلد ، التى كانت يوماً ملتقى المتنزهين وهواة سباق المراكب فريسة الأعشاب والنباتات التى تجتاح المستنقعات ، فغطّى شواطئها الأسل والقصبُ والخيزران . بليت الأعمدة الخشبية التى يقوم عليها رصيف المراكب الهرم ، وزحفت النباتات على كشك الموسيقى المهمل . دار ستيفن حول البحيرة حتى نهايتها وجلس على بقعة من الرمل الخشن وحملق بعينيه فى الماء العكر . طغى على جسمه وعقله سبات ثقيل أنهك قواه . فخلع حذاءه وسترته وياقته وتمدّد على ظهره وسرّح طرفه فى سحب الصيف وهى تتهادى كجزّات الصوف فى مجموعات مثلثة وسط السماء الزرقاء . ظل يراقبها وقتاً طويلا وهى تبحر فى الأعالى خفيفة متكتلة فى حمى من آلام الأرض الموبوءة .

« سعيد كالقنبرة » — « حرّ كالريح » — « وحيد كالسحاب » ! ما أحب الاندماج فى الحياة الطبيعية وظروفها إلى الناس المضطربين ! لم يشذّ الشعراء قط عن هذه العاطفة . ابتسم ستيفن لذكرى الشعراء وعاطفيّتهم ، وأقفل عينيه ، وذهب فى غيبوبة خفيفة . ثم أفاق من غفوته على شبه صوت حجر يضرب الماء ، فانتصب ستيفن ليرى سمكة تنفذ كالسهم من بين الأسل وتصيد فراشة ثم تختفى آمنة بين سوق الخيزران . أخذته الدهشة والعجب لخفة السمكة الطائرة ودقّتها ، ولم يستطع عقله المتعب أن يتبيّن مغزى هذا الحدث وما فيه من تورية .

بدأ ينزع عنه ثيابه دون انتباه ووقف لحظة يتأمل منظر جسمه العارى تحت أشعة الشمس . ما هذا الشكل الهزيل؟ مع ذلك فقد فقدَ منه أربعة عشر رطلا فى الثلاثة الأشهر الأولى من خدمته . لم يكن لجلده لون — « أخضر يميل إلى بياض » وعضلات ساعديه وساقيه تئن من التعب . فقفز فجأة إلى فكره شعران لبودلير :

أعطنى يارب قوة وشجاعة
لأتأمل جسدى وقلبى دون كراهة !

بودلير ! وماذا جرى له كى يذكر بودلير ؟ رجعت به الذاكرة إلى المرة الأولى

التى سمع فيها بهذين الشعرين . كان ذلك فى روما ، فى سنته الثالثة وهو بعد إكليريكىّ ، وكان المنسنيور كارنجى يلقى محاضرة فى التصوّف ويشرح الدرجات الصعبة للنفس المستنيرة فى تقرّبها إلى الله .

قال كارنجى فى محاضرته : « فى البدء كل شىء دافئ ومنير . والنفس إذ تكون سعيدة باتصالها بالله ، تمرّ فى أرض خصبة غنيّة . وفجأة يتغيّر المنظر وينقلب إلى صحراء جرداء . ويختفى الله من الوجود . ويطغى على النفس شعور بالوحدة والفراغ وينقلب الفرح هباء ، وتفقد الصلاة لذّتها . إن النفس فى الحقيقة تغرق فى ظلام دامس ! » .

ثم يغمض كارنجى عينيه العسليّتين المتحرّقتين كأنه يستذكر ليلة سوداء، ويقول : « هذه يا أصدقائى ، هى الطريقة المألوفة التى خبرها دائماً ومراراً جميع كبار المتصوفين . . . ويختبرها كل كاهن . إن النفس المستنيرة حقّاً تتابع استكشافها ، لكن العقل الضعيف غير المحنك إذ يكبو تحت ثقل المتاعب الدنيويّة والمهام الماديّة فإنه ينحدر حتى يغرق فى اليأس .

« استعيدوا إلى ذاكرتكم حالة بودلير ، ذلك المتصوّف الضعيف ذى الشعور السقيم ، الذى اشمأز وسئم من بشاعة مظاهر الأشياء وتحللها حتى توصّل إلى كره نفسه كرهاً أصبح عنده مرضاً . شعراء قليلون سموا مثله بمواهبهم . وقليلون أيضاً من أصبحوا أتعس منه . يخيّل إلىّ أن سيّدنا يسوع المسيح بعد أن وقع للمرة الأولى تحت الصليب قد هاله ضياع كل تعبه وآلامه ، فلم ينتصب ثانية ليحمل صليبه ! » .

على شاطئ هذه البحيرة الصغيرة التى غمرها القصب والأسل ، رنّت فى أذن ستيفن كلمات المنسنيور كارنجى فى نبراتها التوسكانية الرقيقة : « سوف تكونون عرضة ، يا أصدقائى الأعزاء ، إلى تجربة حقيقيّة تعتقدون فيها أن الله قد أهملكم ، وأن كهنوتكم لا قيمة له ، وأن ثقل الخطإ المميت أعظم من أن تتحمّلوه . فى وسط اضطرابكم وزهق أرواحكم سوف تسألونه علامة أو شعاعاً مضيئاً من نوره الأزلى غير البالى لينير لكم الطريق وسط الظلمة الخبيثة التى تخيّم على العالم . ويحزّ فى نفسى قولى لكم بأن هذه العلامة المنظورة سوف لا تعطى إلا نادراً جدّاً .

فعلّيقة موسى المحترقة ، ويمامة تريزا المرصّعة بالأحجار الكريمة ، وارتداد أوغسطينوس الفجائى ، هذه كلها ليست هى الطرق المستعملة اليوم كما فى أيام الأنبياء والقديسين . إنما النور سيكون فى داخلكم ، وعليكم أن تكتشفوه فى نفوسكم . »

ففكرّ ستيفن فى نفسه قائلا : « لكن أين النور هنا ؟ » . ثم دخل الماء ، ونفسه حزينة ، ومشى على أرض تكسوها حجارة حادةٌ فآلمت قدميه . لمح فى وسط البحيرة مجموعة من الأسل فسبح إليها . وبينما هو يدور حول هذه الحديقة العائمة، تعلقت بقدميه سوق الأسل المتشابكة . وتنشّق النسيم المعطّر برائحة الزهور . فاستدار على ظهره ووجهه إلى السماء ، وفى هذه المرّة امتلأت نفسه سلاماً لرؤيته السحاب يسير فى وسط السماء . لم يكن ستيفن مشركاً حتى بجسم الله فى الوديان وفى أشجار الغابات . لكن أليست هى صورة من العبادة أن يُسبّح خالق هذا الجمال الطبيعى فى ضرباته البطيئة الموزونة على الماء وقد فاحت منه روائح الأسل والخيزران ؟

عاد إليه هدوؤه ، فاستدار نحو الشاطئ ووجهه مدفون فى المياه وهو يضربها بساعديه فى بطء وقطرات الماء تتساقط من يديه كالدرر . وكل مرة كان يدير فيها رأسه ليستنشق الهواء ، كان يرفع قلبه بالشكر لله . ثم أغمض عينيه ليزيد من متعته وهو يعانق المياه . فأحسّ بالحجارة تحت قدميه وتعجّب من أنها لم تؤلمه فى هذه المرة : كانت ناعمة جدًّا .

انتصب ستيفن فى البحيرة والماء عند ركبتيه وفتح عينيه لعالم قد انقلب بفعل قادر إلى خضرة وجمال . وتساءل عمن يكون القديس شفيع البحيرات . فى هذه اللحظة فقط شعر بغصن الأسل يتدلى من معصمه .

إنها العلامة ! طبيعية وعجائبية ! كان غصن الأسل متعلقاً بساعده كشريط من الزمرّد ، يذكّره بمتاعب دعوته الكهنوتية وأثقالها .

فتمتم قائلا : « زدنى ثقلا بأسرارك، يارب » . ثم أحنى رأسه وقبل الزهرة المبللة .

ثم لبس ثيابه . وفى الساعة الخامسة توجه نحو حيّ ويكفيلد وقد استعاد نشاطه وقوته . وجد تراماً واقفاً فى آخر الخط ووجهته مولدن فركبه . ولما دقّ جرس الرحيل أخرج ستيفن كتاب صلاته من جيب سترته السوداء وطفق يقرأ فيه بطمأنينة وتقوى .

* * *

انقضت السنة الكنسية بأعيادها وأصوامها وألوانها المختلفة . واعتدل الجو فى سبتمبر منذ عيد ميلاد سيدتنا مريم العذراء . وانقضى شهر أكتوبر فى جوّ مشبع بالرطوبة . واحتفل بذكرى الأموات يوماً بعد عيد جميع القديسين . وأشرف الوقت الخمسينى على نهايته . على حين بدأت فترة الاستعداد لعيد الميلاد الشريف . واحتفل بمجيء الطفل الإلهى بثياب أرجوانية: إنها بداية فترة من الفرح للعالم ، وتجسد لأمل جديد عند الناس .

لكن ما أهزل هذا الأمل أمام أهوال الحرب الدائرة ! فمن البلطيق إلى المتوسط واجه الناس بعضهم بعضاً بالسونكى . فى الفلاندر احمرّت حقول الخشخاش قبل أوانها . وهلكت جيوش بأكملها قرب بحيرات مازوريا . وامتدت الخنادق . وازداد الموقف فى أوروبا تعقيداً .

فى السادس والعشرين من ديسمبر ، احتفل ستيفن بعيد شفيعه القديس استفانوس أول الشهداء ، وارتدى لهذه المناسبة ثياباً حمراء قانية . ردّدت رسالة العيد قصة الشاب استفانوس ، المملوء نعمة وشجاعة ، الذى رأى السماوات مفتوحة وابن الإنسان واقفاً عن يمين الله . لكن وإن كان نور المسيح لم يزل يضيء العالم فى تلك الحقبة الضيقة من الزمن ، مع ذلك ، فلم يستطع الرجال تحمّل هذه الرؤيا . فانقضوا على استفانوس ورجموه حتى مات . فرقد فى الرب غافراً لمضطهديه بكلمات ملؤها الاطمئنان والمحبة . ثم عند الإنجيل ، قرأ الأب ستيفن رثاء المسيح لأورشليم : « كم من مرّة أردت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها لكنكم لم تريدوا » .

بعد القداس خلع ستيفن ثياب الخدمة وهو يبتسم لما أوحاه إليه مثل الدجاجة وفراخها من حنو وحنان . وإذا بالصغير إرميا سيلين قد وقف أمامه . أصبح إرميا الولد المفضل عند ستيفن لخدمة القداس ، واختفت عنده كل حركة مريبة وهو ينقل كتاب الخدمة أو يحمل الجرس . قد أصبح الآن خبيراً صغيراً فى خدمة

القداس ، ومدعاة فخر وفرح يوميّ لستيفن .

كانت عينا إرميا إحداهما سوداء والعين الأخرى زرقاء فيها سؤال واضطراب : « هل صحيح ، يا أبي ، كما قيل اليوم في صلاة القداس ، من أنه يجب علينا أن نحب حتى أعداءنا ؟ » .

— « هذا بالفعل ما قيل ، يا إرميا » .

— « هل ذلك يعني أنه يجب عليّ أن أحب بعض الأولاد البروتستانت الذين يهزأون بحذاء الجديد الذي اشتراه لي والدي في عيد الميلاد ؟ » .

— « أظن ، يا چيم ، أنه يعني البروتستانت أيضاً . لكن لماذا يهزأون بحذائك ؟ »

— « لأن لحذائي أربطة » .

— « وماذا في الأحذية الأخر؟ »

فانفجر چامي يقول : « إن أولئك البروتستانت الصعاليك عندهم أحذية من الألومنيوم تلبس أقدامهم بكل دقة ، وقائمتها السفلى مقعّرة محدّدة ، وهم يجرون عليها كالسهام . فالبارحة بعد الظهر ذهبت مع بعض أولاد الخدمة إلى البِرْكة لنلعب الهوكي ، وبدأ أولئك الصغار من فرقة القديس يهوذا — وعندهم فرقة موسيقية أيضاً — بدأوا يهزأون بأربطة حذائي » .

— « وذلك أثار غضبك الإرلندي ، أليس كذلك ؟ »

— « بالطبع ، يا أبي ، لكني استدرت نحوهم وقلت لهم : لا بأس ، إن حذائي ليس مشدوداً بالبراغي ، لكن أنا وأخي وديف فولي ههنا سنغلبكم في الهوكي » .

— « وهل لعبتم معهم ؟ »

— « بالطبع ، يا أبي ، لاعبناهم جيداً » .

— « وبالطبع — أردف ستيفن — هروا جلدكم . والنتيجة أن هؤلاء الصعاليك من فرقة القديس يهوذا سحقوا "جدعان" فريق القديسة مرجريتا ، أليس هذا ما حصل ؟ »

فهز إرميا سپلين رأسه مستسلماً : « قد لعبوا بنا . أربعة عشر لصفر » .

تظاهر ستيفن بالاهتمام بهذه المأساة : « هل حصلت منازعة بعد ذلك ؟ » .

— « لقد تقاذفنا بكتل من الجليد — ورفع إرميا رأسه — وبالطبع كان بداخلها حجارة » .

ياللأولاد ! إنهم لا يزالون يتراشقون بالحجارة .

فقال ستيفن : « أربعة عشر لصفر ! ما هذا ؟ إنها علقة نظيفة ، لكنها لا تستدعى حرباً دينية . أظن أن ما ينقص فريق القديسة مرجريتا هو قليل من التمرين » .

— « هذا هو ، يا أبى . أظن أنه يمكننا فعل ذلك . إن القس البروتستنتى ، ليثبريدچ ، يمرّن فريقه » .

هاهوذا البرهان المطلوب . فقال ستيفن : « حسناً . لقد مضى علىّ خمس سنين لم أزلق على الجليد . لكنى لما لعبت مع فريق الصليب المقدس . . »

— « أنت لعبت مع فريق الصليب المقدس! والله ، يا أبى! كلاّ ، يا أبى ، أعنى... يالله ! . . . ألا تريد أن تكون رائدنا ؟ » .

— « إنى مستعد لعمل أىّ شىء لأبرهن على صحة ما سمعت اليوم فى صلاة القداس . اذهب واجمع الفريق اليوم فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر عند البركة . سأكون هناك مع حذاء الانزلاق » .

كان الشهر التالى أسعد أيام ستيفن فروويل منذ كهنوته . كان نشيطاً ورشيقاً وصنع عجباً مع فريق القديسة مرجريتا للانزلاق . علمهم كيف يحفظون الكرة فى تجويف عصا الهوكى وهم يجرون على الجليد وكيف يمررونها فى المجموعة من ولد إلى آخر بدلا من الهجوم بها فرادى . فتهذب فنهم ، لكن ذلك لم يمنع أربطة أحذيتهم من أن تنفك وتخونهم فى أحرج الظروف . كان حلم ستيفن أن يمدّ فريقه بأحذية ذات براغى . فذهب إلى دكان « ترولند » يسأل عن ثمنها فوجد أن ستة أزواج منها ستكلفه أجر أسبوعين من مرتبه . فطلب حينذاك على الهاتف صديقه كورنيليوس ديجان وقال لذلك الفارس الشهم :

— « ياكورنى ، إنى فى حاجة إلى ثلاثين دولاراً لأبتاع أحذية للانزلاق لستة من صغار اللاعبين الشياطين » .

— « ماذا ؟ أحذية للانزلاق ؟ عندما كنا صغاراً أبوك وأنا ، كنا نزلق على

الجليد على قعر بنطلوناتنا » .

— « أعلم ذلك ، ياكورنى . لكن فريقى سوف ينازل فى الهوكى فريق البروتستانت » .

فانفجر كورنى قائلا : « ماذا تقول : البروتستانت ؟ لماذا لم تخبرنى بذلك من اللحظة الأولى ؟ » .

فى اليوم التالى كان فريق القديسة مرجريتا يحوم على الجليد كالنحل ، فى أحذية من الألومنيوم فى حين كان فارس القديس سلفستر يدقّ بقدميه على حافة بركةالجليد معتزًّا فخوراً متحمّساً لدمه الإرلندىّ . لكن ملابس الأولاد المتقطّعة أزعجت كورنى . فصاح فى ستيفن : « إن كل واحد منكم فى حاجة إلى قميص جديد للّعب ، بحروف ذهبية لاسم فريقكم » . وفى الحال كان الفريق يلبس القمصان الجديدة .

بعد أسبوعين من التمرين المتواصل قال ستيفن : « الآن يا چامى رتّب رجالك فإن فريق القديسة مرجريتا على أتمّ حال من الاستعداد » .

دار اللعب فى يوم بارد قارس ، ومرقت الأحذية على الجليد الأزرق كالسهم ، والتحم الأولاد وأعصابهم مشدودة ، كأنهم ورثة أمهر اللاعبين فى العالم . كانت المعركة أمريكيّة وطنيّة محضة . واقتنع ستيفن وهو يراقبهم يلعبون أنه ما من فريق يونانى أو إيطالى تحرك قط بهذه السرعة والرشاقة . كانت النتيجة ٦ / ٦ ، والباقى من الزمن دقيقة واحدة . رأى ستيفن إرميا سپلين يختطف الكرة من بين حلقة من العصىّ ويطير بها متمايلا كالريح . لكن رئيس فريق القديس يهوذا ، وهو شاب أشقر طويل ، هجم عليه واعترضه واصطاد منه الكرة وتقدّم بها نحو هدف فريق القديسة مرجريتا وأحرز لفريقه هدف النصر .

البروتستانت : ٧ — والكاثوليك : ٦ .

لم تحدث حرب دينيّة . فى انتهاء اللعب ، صافح إرميا سپلين رئيس فريق القديس يهوذا . ثم أعدّ كورنى ديجان أكواباً من الشوكولاته الساخنة للفريقين واضطر إلى الاعتراف بأن فريق البروتستانت كان أمهر فى لعبه .

ذهب ستيفن تلك الليلة إلى فراشه تعباً مرهقاً وقلب صفحات كتاب الإنجيل

وقرأ ثانية إنجيل اليوم للقديس استفانوس : « كم من مرة أردت أن أجمع بنيك فيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا » .

أيمكن أن يكون غير هذا يوماً ما ؟ هلاّ يتخلى الناس يوماً عن رشق بعضهم بعضاً بحجارة البغضاء، وينسون حزبيّاتهم وعصبيّاتهم ، ويتّحدون فى تمجيد اسم إله واحد فقط إلى الأبد ؟ شك ستيفن فرمويل فى أن الناس سوف يفعلون هذا يوماً . غير أنه قبل أن يستسلم للنوم تعلّقت مخيّلته بالمشهد الأخير من يومه : إرميا سپلين ، ذو الخدود الحمر ، يصافح فى شهامة رياضية ، رئيس فريق القديس يهوذا للهوكى.

* * *

« هضبة الأقراص » . هو اسم دعى به فى تهكم طريق منحدر فى قلب بوسطن الجنوبى . هو شارع الأطباء . على كل باب علّقت لافتة طبيّة . وبالقدر الذى يصعد فيه المريض ، يرتفع أجر الكشف عليه. كبار الأطباء يحتلّون أعلى الهضبة . وفى منتصف الطريق تتجمّع عيادات الأطباء المشهورين . وفى أسفل المنحدر تتكدّس المكاتب القذرة لصغار الجراحين المبتدئين ذوى الخبرة المحدودة أو الأعمال المشبوهة .

عند أسفل هضبة الأقراص وعلى باب مشوّه فقد طلاءه علّقت لافتة كتب عليها : چون بيرن ، طبيب وجراح . ولم يفت الذين يتصيّدون الفرص للمساومة حين رؤيتهم عيادة الطبيب بيرن ، معرفة أن أجر الكشف هو دولار واحد . ومنذ سنة واللافتة معلّقة ، كثر عدد المرضى ، الذين مرّوا بعيادة الطبيب بيرن حيث يقوم بالكشف عليهم كشفاً كاملا ويكتب لهم علاجاً دقيقاً كأحسن من يزاول هذه المهنة فى هذه البقعة ، بدولار أو بدون دولار ، والذين لا يدفعون عددهم أكبر ! فذاعت شهرة الطبيب چون بيرن . ولو أن دخله ازداد بالقدر نفسه ، لتمّ كل شىء على ما يرام له ولزوجته الحديثة ، ريتا فرمويل .

مساء يوم من أبريل والساعة تشير إلى التاسعة والنصف وخمس دقائق أقفل الطبيب بيرن باب عيادته على آخر واحد من مرضاه : السيدة چوليا ثومبلى ، التى كانت تشكو من تضخم فى الكبد والرجلين ، سبّبه لها تناول عشرين فنجاناً من الشاى يومياً مدة ثلاثين سنة متوالية . كانت چوليا ثومبلى تشكو أيضاً من داء عضال قديم العهد وهو إفلاسها . فأعطت الطبيب بيرن قطعة فضية وقالت : « هذا آخر

نصف دولار عندى فى العالم ، ما عدا نصف دولار آخر أحتفظ به . » فأعاده إليها الطبيب بيرن ، وهكذا انخفض مستوى دخله لهذه الليلة إلى أقل من أربعة دولارات . كشف على خمسة عشر مريضاً وجمع ثلاثة دولارات و ٨٥ سنتاً .

مرّ من مكتبه إلى المطبخ حيث جلست زوجته بعد العشاء تتحدث إلى أخيها الكاهن ، ستيفن فرمويل . تصافح الرجلان فى شوق . وقال چون : « إنّا لا نراك كثيراً يا ستيف . » ثم قبّل زوجته وسلّمها المبلغ الضئيل الذى جمعه تلك الليلة . عدّت ريتا أوراق النقد وقطع الفضة وساعدت زوجها فى خلع سترته البيضاء الطبية . وداعبته بقولها :

— « إن لون سترتك لا يناسب عملك، يا حبيبى. كان الأجدر بك أن تلبس السواد مثل ستيف . فيمكنك حينئذ العمل مجاناً طوال الأسبوع ثم تجمع مبلغاً ضخماً من المال فى أيام الآحاد » .

فقال ستيفن: « إنكِ تلعبين بالمئات . ماذا تفعلين بكل النقود التى يعطيها لك زوجك ؟ » .

التقطت ريتا علبة صغيرة مكتوب عليها "قرفة" من على رفّ فوق منضدة المطبخ وأسقطت فيها ورقة بدولار ، ثم خاطبت ستيفن معلنة : « فى بيتنا هذا "القرفة" تعنى الإيجار ، "والقرنفل" — وأمسكت بعلبة أخرى صفراء اللون — يعنى تركيب معدات جديدة للعيادة — ووضعت ريتا ورقة بدولار فى العلبة الصفراء — أما "جوز الطيب" فيعنى ثياب الطفل المرتقب — ووضعت ريتا فى علبة "جوز الطيب" القطع الفضّية — وهكذا يبقى دولار واحد للأكل والنثريّات الأخر » . ولوّحت ريتا فى انتصار بورقة الدولار الباقية .

وسألها ستيفن : « ما هو نصيب چون من هذا كله ؟ » .

كانت يدا الطبيب بيرن حول زوجته . فقال : « ألم تسمع قط بالتوابل ، يا ستيف . هذا ما ينوبنى » . وقبّل ريتا مرّتين وأردف : « إنى أتّبع فى الأكل نظاماً غير محدّد . ما قولك الآن فى بعض المأكولات الكربونيّة المعتدلة كالقمح المجفّف؟ » .

لم يعهد قط ستيفن صهره مرحاً بهذا القدر . قد أضفى الزواج على شخصيته

القنوعة لوناً جديداً . فجلسوا جميعاً إلى مائدة المطبخ يتناولون الحبوب فى قصعات خطّط دائرها باللون الأزرق . وأمسك چون بورقة صغيرة وأخذ يقرأ فيها مقلّداً جميع أعراض الأمراض التى انتابت أحد مرضاه الثقلاء ، ومتّخذاً صوته الكئيب الحزين :

— « وحياتك يا دكتور . إنى أشعر بجهنم من جرّاء بعض البثرات الخضراء والصفراء حول عينىّ ، ومن سيلان مؤلم فى أنفى ، ومن ضربات خناجر بين كتفىّ ، ومن فراغ فى المعدة كأنها لا قعر لها . يتعسر علىّ البراز ، وأتحرّق عند التبوّل صباحاً وأسبح فى عرق بارد مساء . وأحتاج إلى شىء بسيط يقوّى ضعفى العام من أمام ويهدّئ الأكلان من وراء . ولا أذكر لك الخراج الكبير كالبيضة تحت ركبتى اليمنى ، والآلام الفظيعة فى الإصبع الكبيرة من قدمى اليسرى والشعور بالتنمّل فى قاع قدمىّ الاثنتين » .

وابتسم الطبيب چون بيرن متمتماً : «أتتصوّر أن فى الإمكان تشخيص حالة كهذه فى عشرين دقيقة ؟ » .

استعاد ستيفن فى ذهنه ، على ذكرى لائحة هذه الأعراض المرضيّة، الحالات اليائسة التى مرّت عليه فى كرسىّ الاعتراف . ما هى طريقة الطبيب فى معالجة مثل هذه الحالات ؟

فقال ستيفن : « يهمّنى معرفة ما عملت له » .

— « وماذا يستطيع الإنسان عمله ؟ إنه متشرّد ومدمن على شرب الكحول ، متعطّل ، سيئ التغذية ولا يريد العمل . فتحت له الخراج وكتبت له علاجاً جهنمياً — ستريكين وكافيين وكسكارا — لا بدّ أن يطيح بكل شىءٍ عنده سوى التنمّل فى قاع قدميه » .

ما أكثر المآسى والمصائب فى العالم ! داء مستفحل لا يقوى عليه الطب أو الدين . فكر ستيفن فى درس هذا الموضوع يوماً مع چون بيرن . أما فى الظروف الحاضرة فقد كان ستيفن سعيداً بأن يستمر الحديث على مستوى تجارى . « كيف حال الجراحه فى أيامنا ، يا چون ؟ ألم تجر عمليات فى المرارة أو الزائدة الدودية ؟ »

— « لم أشق بطناً منذ ثلاثة أشهر ، يا ستيف . يمكنك على الأقل أن تتخيّل

شخصاً تعيساً ينهار أمام باب عيادتى وقد تمزّقت أمعاؤه — إن ما يبتلعونه من الكحول يكفى لثقب لوح من الصاج ! لكن الحظ لم يسعدنى بذلك أيضاً . إنى أفتح باب عيادتى مترقّباً عمليّة فى اللوز أو فتقاً فجائيا . لكن أتدرى ما يقفز أمامى ؟ أنوف سائلة وتنملّ فى قاع كلتا القدمين » . وابتسم چون فى تشاؤم : « أظن أن الأمر لا يعدو إلا أن أكون رجل أقراص ومراهم فقط » .

فتدخّلت ريتا معارضة : « لا تصدّق كلمة من ذلك ، يا ستيڤ . اسأله عن عيادة المرضى التى بدأ العمل فيها فى مستشفى القديس يوسف ، وعن العمليات الناجحة التى يقوم بها هناك مجاناً » .

فتكلّم چون فى قناعته المعتادة : « إن ريتا تعزّز موقفى فى عمل الخير فوق ما ينبغى . إن الأمر يا ستيڤ ، هو أن الجراحين المشهورين على هضبة الأقراص — كما يحدث فى أى مكان آخر — يحتكرون العمليات الصعبة لأنفسهم . ويبدو من المستحيل لرجل مستجدّ أن يحظى بعمليّة فى الأمعاء أو حتى فى الزائدة . والشيء الوحيد الباقى هو العمليات البسيطة » . وسكب چون بيرن كمية أخرى من الحبوب فى قصعته : « لهذا السبب تخصّصت فى جراحة الشرايين والأوردة السطحيّة » .

— « وما هذا ؟ » .

— « هى فى الغالب عروق منتفخة . وهو حقل واسع جدًّا للعمل . الأطباء الكبار لا يهتمّون بالأمر ، والدجّالون يقتلون الأشخاص . لكن طرق الجراحة الحديثة تتقدّم بسرعة ، وإنى الرجل الوحيد فعلا فى جنوب بوسطن الذى يعلم بها » .

— « وما هى الغاية من العيادة المجانيّة فى مستشفى القديس يوسف ؟ ألا تقوم بعمل الخير بما فيه الكفاية هنا فى عيادتك ؟ »

فطفق چون بيرن يشرح له الأمر : « إن الجرّاحين يحتاجون إلى وساطة المستشفيات ، يا ستيڤ . إنهم لا يستطيعون العمل دون مستشفى كما لا يستطيع الكاهن العمل دون كنيسة . لكن الحيلة فى الأمر هى هذه . إن أغلب أقسام الجراحة اليوم استوفت رجالها . وعلى المستجدّ أن يشقّ طريقه بنفسه . فوسّطت جامعتى بأن تحاول إقناع الأخت دومينيكا التى تشرف على مستشفى القديس

يوسف ، بأن المستشفى يحتاج إلى عيادة مجانية لعلاج العروق المتعقدة؛ وأن الطبيب جون بيرن هو الرجل المطلوب لهذا العمل » .

فقالت ريتا : « وقد نال ما أراد . ثلاث مرات فى الأسبوع مجاناً ، وعمليّات بكثرة . هل أدركت يا ستيف ، كيف يستطيع جراح فتح الباب بمشرطه ؟ » .

فتأمل ستيفن أخته وصهره بمزيد من الإعجاب : زميلان يحدوهما أمل واحد فى الصعود إلى القمة عن طريق شاق وعر . فقال لهما : «اثنان لا بدّ أن يحرزا الهدف!».

* * *

كانت هضبة الأقراص مظلمة حينما غادر ستيفن بيت الطبيب جون بيرن . وأقفرت الهضبة كلها من المرضى فلا كشف ولا علاج حتّى صباح اليوم التالى . وفيما هو صاعد الطريق حفل ذهنه بالأفكار الطيّبة المنعشة من رجال ونساء يتكاتفون فى المحبة والعمل ويكمّلون ذواتهم يوميّاً بأعمال الخدمة الإنسانية والتشجيع المتبادل . لكن لماذا يستمرّ الكون موبوءاً بالأمراض الجسدية وبمثيلها الروحى وهو الخطيئة ؟ وما دام فى العالم أناس كجون وريتا بيرن يحبّ بعضهم بعضاً ، فلن تقوى قوات الجحيم عليهما أو على العالم الذى يعيشون فيه .

تأكّد ستيفن أن أهم شيء ليس هو اشمئزاز الإنسان أو يأسه من كثرة أعراض الشر فى العالم ، وإنما هو اكتشافه تحت هذه الظواهر الزائلة الحقائق الخفية الإلهية من شجاعة وإيمان ومحبة ينبض بها قلب كل رجل .

كانت الساعة قد فاتت الحادية عشرة ليلا لما دخل ستيفن دار الكنيسة فى مولدن . فوجد على المنضدة فى الممرّ طرداً ورسالة عليها طابع بريد روما وموجّهة إلى الأب ستيفن فرمويل . فاختطفهما وصعد إلى غرفته وشرع يقرأ رسالة ألفيو كارنجى التى كان ينتظرها طويلا .

« عزيزى ستيف ،

« هل تخيّلت يوماً أنى دخلت دير "المدفون الحىّ" ونذرت الصمت الدائم ؟ إنى لا ألومك ، أيها الصديق العزيز . لا شك أن مراسلك الرومانى قد أهمل واجباته نحوك . لكنى أقول الصدق . لم أتمكّن إلا فى هذه اللحظة فقط من أن أغتنم هذه الفرصة السعيدة وأخلو بنفسى وأرد على رسالتك المنعشة

المليئة بالأخبار السارة . إن رسالتك لشعاع يضىء وسط صحراء أوراقى الكثيبة على مكتبى . إنى أحسدك ، يا ستيفن . كل ما تقوله لى عن رعية القديسة مرجريتا وعن رئيسك موناجان يحفزنى إلى الاعتقاد بأن سعادة الكاهن العظمى تتركّز فى خدمة الرعيّة . ولهذا ، يا طبيب النفوس ، يزداد فرحى لحسن حظلك ، وينمو أملى فى أن أحظى يوماً أنا ذاتى بقسط صغير من هذه السعادة الكهنوتيّة . إن كل ما تتوق نفسى إليه وأتضرّع من أجله هو غرفة نظيفة وهيكل صغير ووجوه أبناء رعيّتى . وبإذن الله سوف يأتى ذلك اليوم .

« قد لا يكون غداً . كنت أترقّب بعد عشر سنوات من التعليم (ولا أعتبرها قد ضاعت سدى إذا أنتجت ثمرة مثلك ، ياستيفانو) أن أعين فى رعيّة . لكن الحرب قامت ، وكانوا فى حاجة إلى رجال متضلّعين فى اللغات ، فنقلت من قسم الاجتماعيات وعيّنت كموظف فى أمانة سرّ دولة الڤاتيكان . إن الكرسىّ الرسولى يحتفظ بصلات سياسيّة مع أربعين دولة . وذلك يتطلب منى فى وقت السلم عدداً كبيراً جداً من المراسلات . ولا يسعنى بالحقيقة أن أصف لك موجة الأخبار المفصّلة التى اجتاحتنا منذ قيام الحرب . إنى أقضى ستّ عشرة ساعة فى اليوم لأعدّ التقارير والبرقيات الموجّهة إلى سفراء فرنسا وألمانيا وبريطانيا . ثم أقوم بعرض مذكّراتى على رئيسى المباشر ، وهو نابغة فى السياسة ، المنسنيور أوچينيو پاشيلى الذى يصلح من تعبيراتى السقيمة ويضفى عليها مسحة من السياسة ثم يقدّمها بدوره إلى أمين سرّ الدولة ، الكردينال چياكوبى ، وهو رجل جبّار فى العمل مع تراكم الأشغال على كاهله ، وهو يثير صواعق الڤاتيكان باسم الأب الأقدس .

« إن هذه التهديدات بالطبع لا تساندها قوة ماديّة ، لكن لها تأثيراً كبيراً حيث السياسة تتصل بالأخلاق والآداب . دعنى أذكر لك مثلا . فى الأسبوع الماضى احتجّ قداسته لدى القائد "ڤون فالكنهاين" من أن معاملة الألمان للبلچيكيين العزّل كانت قاسية وظالمة دون ضرورة . وقدّم المذكرة إلى ڤون فالكنهاين شخصيًّا المنسنيور پاشيلى وتحمّل كالمعتاد ثورة غضب الرجل البروسى . أخيراً أنذر سفيرنا البابوى ڤون فالكنهاين أنه إذا استمرّت

ألمانيا في قساوتها نحو النساء والأولاد فسوف تفقد التأييد الأدبي من كافة العالم المسيحي . تقول إنه برهان ضعيف ؟ لكنه أتى ثماره . من يعيد إلى سمعنا حكمة أرخميدس : "أعطني دافعاً أدبيًّا فأحرّك العالم أجمع"؟

تذكّر ستيفن رجلا إيطاليا آخر كان لديه دافع أدبيّ شبيه بذلك : سفينة حربية غبراء ، تلمع بمدافعها ، ترتفع وتهبط مع أمواج شمال الأطلسي . أي قوة كانت تستطيع الصمود أمام عظمتها المادية ؟ ثم هاك سؤال أورسلّي الساذج : « أيّ أثر سيحدثه في جريدتكم "الزمان" اللندنية هذا العنوان : "سفينة حربية بريطانية تنسف باخرة إيطالية" ؟ » إن ذلك الدافع قد أتى ثمارة هو الآخر : بالحقيقة ودون شك توجد قوة تفوق المادة ، ويا ليت الإنسان يجرؤ على استغلال جميع إمكانياتها ! . . .

(واستطرد كارنجي لقوله) :

« مما يدعو إلى الأسف في موقف الڤاتيكان أن كل ما يقوله الأب الأقدس من حقائق يُشوّه ويُستغل في غير معناه . فلو قال : "إن من واجبنا الطبيعي — ونحن نشمل جميع أبنائنا بمحبة متساوية — أن نمكث على الحياد عندما نراهم يتشاجرون" ، إذا بالصحافة البريطانية تستغلّ كلامه هذا لأنه لم يكل اللوم لألمانيا . وإن طالب بتخفيض التسلّح اتّهموه بالهذيان . وإن قدّم خدماته كوسيط وهو الخبير الماهر المحايد أنذروه بألا يتدخل فيما لا يعنيه . إن الأب الأقدس اشمأز ، وإن قلت صُعق لم أخطئ التعبير ، لما وصل إلى علمه أن الاتفاق السرّي بين بريطانيا وإيطاليا ، وهو الاتفاق الذي دفع بإيطاليا إلى الانضمام بجانب الحلفاء ، يتضمّن فقرة تمنع الڤاتيكان من الاشتراك في أيّ مفاوضات بشأن السلام . أليس من السخرية أن الصوت الذي رائده الوحيد هو كلمة "السلام" يضطرّ إلى الابتعاد عن تدعيم السلام الذي أمر به المسيح ، والذي يتوق إليه كل إنسان ؟

« أما الآن فيكفينا هذا المجهود المضني . قد سألتني في رسالتك الأخيرة أين صرت في كتابي "المقتطفات" . فيمكنني القول بأن مطبعة "الأمل" قد نشرته تحت عنوان "سلّم المحبة" . وإني مرسل لك نسخة منه مع رسالتي

هذه . قد حاولت فى هذا الكتيّب الذى أعدّه دون المستوى أن أبين مختلف درجات الحياة التصوفيّة — البعض منها سليم المرمى والبعض الآخر ينقصه الكمال — التى خبرتها نفوس الأتقياء فى مختلف الأزمنة والأمكنة . ونميل نحن الكاثوليك إلى الاعتقاد بأننا احتكرنا التصوّف . لكن ادرس حالة "سويدنبورج" أو حياة الأمريكى الغريبة ، يوسف سميث مؤسس مذهب المورمون . فيم ، تختلف رؤياه للشخصين العجيبين الذين وقفا بجانبه عن رؤيا تريزا أو أغوسطينوس ؟ لا تحاول الإجابة يا ستيڤ قبل الاطلاع على كتابى . وحينئذ أطلعنى على رأيك ، فإنه سوف يشجع ذلك المفكرّ الضعيف الذى وإن عاش بعيداً عن بلد لم يره قط ، لكنه يأمل يوماً زيارته ، ويرتاح ذهنه مع ذلك لعلمه بأن له زميلا فى الكهنوت لا ينفك عن مراجعة الخلاصات السقيمة التى يسردها "سلّم المحبة" .

« قد فاتت الساعة والعالم كله ينساق إلى النوم . وقريباً تطلع بوادر النهار وتمسح الشمس بأشعتها أبراج أسوار لاون ، وتعلو ثانية الصيحات السياسية والعسكرية . اعذرنى إذا ظهرت لك خائر القوى . لست كذلك ياستيڤ . إنما أشعر بثقل فى رأسى . سأذهب الآن إلى الفراش ، وإيمانى الراسخ أن أيامنا بين يديه تعالى . ليلتك سعيدة ، أيها الصديق العزيز . اكتب عاجلا وشاملا إلى

المخلص لك فى المسيح
ألفيو كارنجى » .

زفر ستيفن زفير الإعجاب . كان كارنجى بطريقة أدبيّة سحرية قد أثّر بقلبه وعقله على قلب وعقل من كان فى أشد الحاجة إلى تدعيمهما . شرع ستيفن يقرأ الرسالة ثانية : « عزيزى ستيڤ . . إنى أسترق هذه اللحظة بسرور . . . إنى أحسدك . . . إن سعادة الكاهن العظمى تتركز فى خدمة الرعيّة . . . رجائى الوحيد هو غرفة نظيفة وهيكل صغير ورؤية وجوه أبناء رعيتى » .

هل هذه كلها صور كاذبة رسمت لتخدير أعصاب من يعملون فى الدرجات الصغرى ؟ كلا ، لسببين . أولهما أن كارنجى ذا الشعور السامى لا يمكنه التفوّه بغير

الحق . وثانيهما ، مع ما فى ذلك من التناقض، أن ستيفن تحقّق من أن ذلك الفيلسوف السياسيّ الممتاز ، المعد لأن يتقدّم صعداً فى السلك الكنسىّ ، قد هُضم نوعاً ما حقّه ككاهن .

فكرّ ستيفن فى إمكانية استبدال مركزه معه !

ثم أعاد قراءة الرسالة ثلاث مرات قبل فتح الطرد المرسل معها . يقع سلّم المحبة فى ١٦٨ صفحة من الحجم الكبير بهوامش عريضة وقد طبع على طريقة « ألدوس » فى البندقية . تصفّح ستيفن الكتاب فى اهتمام بالغ ، قارئاً عنواناً هنا وجملة هناك . ثم توقّف ذاهلا مجذوباً عند إحدى المقطوعات : « القديس أغوسطينوس وحبّات الكمثرى . » وقرأ منها الديباجة ، مترجماً إياها بسهولة من لغة كاربجى الإيطالية المرنة .

تذكرُ المقطوعة بعض نزوات أغوسطينوس وهو بعد ولد صغير — كيف أنه سطا مع بعض «رفقائه الأشقياء » على شجرة كمثرى فى قريته، وحملوا منها ما استطاعوا ورموا به للخنازير . ويعلّق كاربجى على ذلك بقوله إن هذا أمر طبيعى عند الأولاد فى كل مكان . لكن القديس ، ثلاثين سنة بعد ذلك الحادث، لايزال ينوح ويكتئب مراراً فى كتابه « الاعترافات » على تلك السرقة : « أيها الرب ، إلهى ، إنى لا زلت أسائل نفسى : أىّ لذة حملتنى عل تلك السرقة ؟ » .

ثم يستخلص كاربجى من هذا سلسلة من البراهين الطريفة: « إن سرقة أغوسطينوس لثمار الكمثرى وتوبته على عمله تبين لنا بجلاء خلق القديس وتوحى إلينا فى ضوء باهر التفاعل الروحى الذى يختبره جميع الذين يتسلّقون سلّم المحبة » .

أدرك ستيفن أنه ليس من السهل استيعاب هذا الكلام البليغ . فقضى ليلته هذه والتى بعدها يقرأ فى كتاب كاربجى. أخيراً فى الليلة الثالثة توصّل إلى قرار . فقال فجأة مخاطباً نفسه فى صوت مسموع : « سوف أترجم إلى اللغة الإنجليزية كتاب سلم المحبة » .

لم يدفعه إلى ذلك سوى التحدىّ الأدبى : أن يذكى فى لغة وطنه الشعلة المتألقة المنبثقة من أفكار كاربجى . فأمسك بقلمه وشرع يترجم . كان فى دقته لصياغة المعنى وانتقاء الكلمات الملائمة شبيهاً بمن يلتقط ذرّات الفضة الدقيقة بين إبهامه

وسبابته . بعد ساعتين من العمل ، توصّل ستيفن إلى كتابة صفحة صغيرة . إنها بداية عمل أحبه وظل كل يوم بعد الفراغ من مهامه الرعائية ، يطوى الليالى فى غرفته لإنجازه .

* * *

فى يوم ما بعد الظهر والجو صاف سنة ١٩١٦ ، كان دونيس فرمويل ممدّداً فى غرفة العمليات فى مستشفى القديس يوسف وهو يسرّح طرفه فى السقف ، والطبيب چون بيرن يقطع له العروق الخبيثة فى قدمه اليمنى . كان العرق قد انفجر فى ذلك الصباح ، وأرسل دن فى سرعة إلى المستشفى لإجراء عملية مستعجلة . لم يهمّه الألم ، فهو كبير أسرة الفرمويل . أما سلامته فهى بين يدىْ صهر أمين قدير . وأما روحه المعنوية فقد كانت منذ زمن طويل فى رعاية العائلة المقدسة . مع ذلك ، كان دن مضطرباً ، وأسرّ باضطرابه هذا إلى ابنه الكاهن الواقف بالقرب من سريره . وقال له فى لهجة الآمر :

— « راقب مارتى تيمنس ، يا ستيف ، واعمل بكل ما فيك من طيبة ألا يسرق القروش من صناديق الشركة . »

ذهب تحذير دن سدى . فبعد مضىّ يومين كان جريسى ماك ناب يضع يده الغليظة على كتف مارتى تيمنس النحيلة ويقول له فى زهو بعد أن حظى بالقبض عليه أخيراً : « هلمّ معى . إن المدير بايلى فى انتظارك . إنه مثلى ينتظرك منذ زمن طويل » .

فألقوا مارتى فى السجن بتهمة سرقة كبيرة وحددوا ضمانه المالى بألفين وخمسمائة دولار . وحمل ستيفن الخبر إلى دونيس فرمويل .

فأوعز دن إلى ابنه قائلا : « اذهب وحاول إقناع المدير بايلى واشرح له قضية مارتى وقل له إنى شخصيًّا أضمن سلوكه عندما أعود إلى عملى . »

لما ذهب ستيفن إلى المدير العام بايلى الذى جعله ينتظر أربعين دقيقة قبل السماح له بمقابلته ، أدرك ما سوف يلاقيه فى الحديث المقبل . ولما سُمحَ أخيراً لستيفن بالدخول ، لم يقف له المدير بايلى ولم يصافحه ولم يوجّه إليه كلمة أو إشارة أو حتّى همهمة . ولما كان المدير « رالف والدو بايلى » من أتباع « إنجرسول » متعصبّاً متحرّراً فى معتقده ، فقد كوّن فى ذهنه فكرتين أساسيتين عن الكهنة

« الرومانيّين » : أولا أن الكهنة يغررون بالفتيات فى كرسىّ الاعتراف ، وثانياً أن الكهنة يغرّرون بالفتيات إجمالا . أضف إلى ذلك أن بايلى كان ممتعضاً من أن الأب فرمويل سوف يفوّت عليه وقتاً ثميناً فى الدفاع عن ذلك الرجل القزم المتباكى ، سارق القروش ، مارتى تيمنس الذى يئن الآن فى زنزانته دون ضمان ، وقد يقدّر له أن يمكث هنالك حتى شهر سبتمبر المقبل – ولم يكن بايلى ليعبأ بذلك – حيث يجتمع مجلس المحلّفين .

بدأ ستيفن كلامه قائلا : « لقد أتيت للسؤال عمّا يمكن عمله بشأن مارتى تيمنس » .

فقاطعه بايلى : « وفّر تعبك » .

– « يا سيد بايلى ، إن الظروف التى تحيط بالقضية تستحق النظر فيها . إن مارتى موظف قديم ، وهذه هى غلطته الأولى » .

فأردف بايلى بقوله : « إن الرجل يختلس القروش منذ سنوات عديدة . وقد قبض عليه متلبساً ، هذا كل ما فى الأمر . ولن تستطيع قول شىء أو عمل شىء لإخراج هذا الرجل » .

لاحظ ستيفن نبرة الحقد فى صوت المدير ، فقال : « أأنت متيقن من ذلك يا سيد بايلى ؟ »

فقال بايلى : « متأكد جدًّا . » ثم ضرب مكتبه ببعض الأوراق وقال : « والآن يا سيدى إنى مشغول جدًّا . نهارك سعيد » .

لما أصبح ستيفن فى الطريق ، كان يغلى غضباً . « مستر بايلى ، سنرى ذلك ! » .

ما أظرف الغضب أحياناً ، لكن كيف يتصدّى للسيد بايلى ذى النفوذ الكبير ، الذى يجمع بين يديه جميع الأوراق يلعب بها كيف شاء !

لأوّل مرة فى حياته شعر ستيفن بأنه تائه بين جملة من الأوضاع . هنالك رجل فى السجن . كيف العمل لإخراجه . الأمر غريب عليه ، والمعاملات القضائية جديدة عليه ومتعقدة . إنه فى حاجة لأن يستشير شخصاً ما ، ربما محامياً . لكن هل يذكر محامياً ؟

چورچى ! چورچ فرمويل ! المحامى الذى كان يعمل نهاراً فى تعبئة السمك

وليلا يتابع دروسه فى المحاماة . لا بدّ أن يعرف چورچ شيئاً عن هذا الوضع . فى نصف ساعة كان ستيفن على الرصيف الطويل يتلمّس طريقه بين براميل السراطين البحرية ، مفتشاً عن أخيه الأصغر – وأخيراً وجد أخاه چورچ وقد ائتزر إلى وسطه وبدأ يعبئ فى البراميل شحنة من السراطين وصلت جديداً من ولاية « مين » ويكسوها ثلجاً. هاهوذا چورچ الرجل الحرّ ، العامل الجبار! سنة أخرى على رصيف السمك ، وسنة أخرى فى المدرسة الليلية ، ثم يتقدم إلى امتحاناته فى المحاماة .

صاح ستيفن « سلام ، أيها المحامى ! » .

وصرخ چورچ : « ستافى ! ماذا تعمل هنا ؟ هل حدث شىء لأبى؟ » .

– « إنه على ما يرام . لكن زميله مارتى فى مأزق حرج . إنى فى حاجة إلى بعض المعلومات القانونية ، يا چورچ . » وسرد ستيفن قصة مارتى وسوء تصرفه كما أخبره عن قساوة قلب المدير بايلى . « والآن كيف أبدأ ، أيها المشير الخبير ؟ » .

ألقى چورچ فرمويل سرطانا فى البرميل وكساه بكمية من كسر الثلج وقال : « الأمر سهل . أولا تضمن الرجل لتخرجه . . . »

– « لحظة . إن القانون الكنسىّ يحظر على الكهنة أن يضمنوا أىّ شخص » .

– « الفكرة ظريفة . » وتساءل چورچ كيف بدأ كل ذلك ؟

ثم قال : « فى هذه الحال أعثر على شخص آخر يضمن لك الرجل ، وادفع له أتعابه » .

– « جميل جداً . لولا الألفان وخمسمائة دولار ، لضمنا خروج مارتى . وماذا بعد ذلك ؟ » .

فكرّ چورچ لحظة وهو يعبئ بعض الحشائش فى البرميل .

– « بعد ذلك ، سيمثل أمام المحلفين فى قفص الاتهام . ولا تغترّ . إنهم سوف يتهمونه دون شك . فإن كل عضو فى صف المحلفين يمتلك أسهماً فى شركة بوسطن للترام » .

أصبح تفكير ستيفن رطناً كالحشائش التى فى يد أخيه .

– « أليس من طريقة لوقف هذا الاتهام ؟ » .

— « إن مجاملة المحلّفين شيء خطير للغاية ، يا ستاف — ورمى چورچ بسرطان آخر فى البرميل — أما إذا كانت هذه القضية من اختصاصى ، فإنى أدع المحلّفين يتهمونه . وبعد أن يعبّر هذا المجلس الرهيب عن غضبهم كلاّك ، سأحاول قليلا من التأثير النفسانى على النائب العام » .

خيّل إلى ستيفن أنه يتخبط فى رمال لزجة .

— « أىّ تأثير نفسانى ونائب عام ؟ » .

— « بكل تأكيد . ما من نائب عام يرضى بهذه القضايا العلنية الانتفاعيّة . والسبب أن الشركات الكبيرة تعتمد على الدخل الصغير ولا يرضيها ضياع القروش . فى رأيى أن المسألة صعبة — ومضى چورچ فى تصفيف قطع الثلج مع الحشائش — لكن إذا ما نوقشت هذه القضية بمهارة أمام المدّعى العام ، فربما لا يوصلها إلى المحاكمة . — وهنا بدأ الشك يساور چورچ — مع ذلك أظن أنه إذا سند القضية شخص مثل "لانسفورد تشالمرز" . . . »

وسأله ستيفن : « ومن هو لانسفورد تشالمرز هذا ؟ » .

— « إنه موظف كبير فى شركة الترام وهو صعب الانقياد » .

لم يكفّ چورچ عن تصفيف السراطين بين قطع الثلج والحشائش . ولم يزل مارتى فى السجن دون كفالة وقضيته معلّقة فى إجراءات وشروط متعددة . كل شىء يدعو إلى القنوط .

فتمتم ستيفن قائلا : « هذا إذن ما يسمونه بالإجراءات القضائية . لم أكن أتصور ذلك قط من قبل . والآن شكراً يا چورچ على معلوماتك القضائية . وحيث إن المسألة وصلت بنا إلى هذا الحد فسأحاول إيجاد الكفالة الضرورية لمارتى . »

قرأ چورچ فرمويل بعينيه الزرقاوين العزم والاهتمام فى وجه أخيه فقال : « توجد طريقة أخرى ، يا ستيف ، لمعالجة هذه القضية توفّر لك التعب الكثير إذا عرضتها على أحد أصدقائك » .

— « ومن هو ؟ » .

— « كرنيليوس ديجان » .

— « كورنى ؟ وماذا يمكنه فعله فى هذا الشأن ؟ »

شرع چورچ يعبئ برميلا آخر وقال : « بل قل ماذا لا يمكنه فعله ؟ إن كورنى ، بعد "الرقم واحد" نفسه ، له من التأثير السياسى أكثر من أىّ شخص فى بوسطن . النّواب العامّون ، والمديرون والعمد حتى المحامون فى شركة الترام ، كلهم ليسوا سوى عجينة فى يده » .

— « حقّا ؟ »

— « سل من أردت . والأحسن ، اسأل الرجل العظيم ديجان نفسه . خذ هذا القرش وهاك صندوق الهاتف على آخر الرصيف » .

طلب ستيفن رقم كورنى ، وهو مشتّت الفكر . فردّ عليه الفارس المقاول نفسه .

فقال ستيفن : « أريدك فى شيء يا كورنى » .

— « وما الخبر ؟ هلمّ حالا ، يا أبى » .

* * *

كان مكتب كورنى الإدارى فى ميدان « بمبرتون » أشبه بدور أرضى فى مستوى الشارع ويؤدّى إليه حتى خيل إلى ستيفن أن هذا السكن ليس إلا ممرّا فى زاوية من الشارع . وفى الحقيقة كان كذلك . فالمكتب الخارجى يشبه حجرة عامة للانتظار تنبعث منها رائحة كريهة تملأ الهواء المكتوم فيها . والعمال والسعاة والموظفون لا ينقطعون ذهاباً وإياباً من البصق فى الأوعية النحاسية المرتفعة التى كانت ترنّ من شدة ما كان يصيبها باستمرار . كل ذلك فى دائرة كورنيليوس ديجان فارس القديس سلفستر ، مدير المديرين ، والمقاول الأوحد ذى السلطة المطلقة لمدينة بوسطن .

حينما دخل ستيفن توقّف البعض عن البصق . والبعض الآخر رفع يده إلى قبعته احتراماً للثوب الكهنوتى ، فمن الصعب مطالبتهم بأكثر من ذلك إذ إن قبعاتهم كانت أشبه بالقصرية التى إذا ما وضعت بإحكام على الرأس فى الصباح قد يصعب نزعها حتى يأوى العامل ليلا إلى فراشه .

تقدم ستيفن من رجل ذى لطع حمر فى وجهه مستند إلى باب فى مؤخر الحجرة فاعتدل الرجل فى وقفته وقال : « هل لى فى مساعدتك ، يا أبى ؟ » .

— « أرجوك أن تقول للسيد ديجان إن الأب فرمويل قد حضر » .

لمح ستيفن الرجل يفتح الباب ويمدّ رأسه فى الفتحة الضيّقة فتذكّر ما كان يجرى على المسارح الشعبية عندما كان الممثلون يمدون رؤوسهم وراء الستائر بوجه ثم يخرجونها بوجه آخر . غير أن الرجل ذا الكلف فى وجهه عاد ولم يطرأ عليه تغيير .

— « إن المدير ينتظرك » وفتح الباب مقدار ثمانى عشرة بوصة فتسلل ستيفن منه إلى حضرة كورنى ديجان .

كان الفارس المقاول جالساً مستريحاً على كرسيين . فوقف عند دخول ستيفن . ثم مد يده الخشنة ولمع وجهه كقطعة من الطوب المجلىّ ، وذلك لسببين مهمّين . أولا لأنه يرى ستيفن أمامه (وهذا سرور سيملأ يومه كله) وثانياً لأن مجلس البلدية قد قبل مناقصة كورنى بمبلغ ٩٠٠,٠٠٠ دولار لرصف شارع « كوزواى » بحجارة سمّاقية مستديرة . كانت كلمة « مقبول » لا تفى بالمعنى المطلوب لأن كورنى كان قد انتزع العقد بجرأة من شركة فى يورك الجديدة قد أهملت عملية بسيطة أولا وهى ملء جيوب الأغلبية فى مجلس بلدية بوسطن .

كان كورنى قد علم بالعملـّية الجراحيـّة التى أجريت لدن . وقام بإشعال عدد كبير من الشموع أمام معبد القديس أنطونيوس فى الكاتدرائية . ومن جهة أخرى على مستوى مادى ، كانت علب التبغ والسجاير والسيجار فى طريقها من برّادات « پيرس » إلى فراش دن .

قال كورنى مطمئناً ستيفن : « لا تجزع . إن والدك سيقفز كما كان فى أيام شبابه عندما يتماثل إلى الشفاء . انزع عنك هذه الهموم وأرنى وجهك الصبوح ، يا بنىّ » .

— « ليس دن سبب انزعاجى . لكن مارتى تيمنس » . ثم قص ستيفن قضية مارتى وحاجته إلى كفالة مالية : « قد قال دن شيئاً عن "الشبان البيض" ذوى الرؤوس المحجبة وهم يسيرون ضدّ فريق "رجال البرتقال"» .

أجاب كورنى : « سوف يسيرون دائماً » ، ثم اتجه ببصره نحو مكتب جانبى صغير حيث يجلس على كرسى عال مستدير رجل ضئيل مكفهر اللون ، يخربش فى سجل كبير ، ونطق بكلمة واحدة : « هيكتور» ، فقفز الرجل من على مقعده وأسرع يجرى كما لو كانت الكلاب تلاحقه .

— « هيكتور ، هوذا الأب فرمويل » .

أراد كورنى أن يشرح الموقف لستيفن : « إن هيكتور بروتستنتى متعصب جدّاً ، لكن أفضل ما فيه ، هو أنه أفضل مراجع حسابات للمدخول المزدوج فى بوسطن . المدخول المزدوج . . . . هاها . . . أليس كذلك يا هيكتور ؟ » .

استقام هيكتور رافعاً كتفيه تقديراً للمديح الذى اعتاد سماعه . وفكر ستيفن فيما تكون علاقة كورنى بهذا الرجل ، الذى يبدو وهو يقفز كالجمل فى مشيته أنه قد تعوّد الاختلاس . لكن كورنى قطع عليه تخيلاته إذ غيّر مجرى الحديث إلى مسألة تجاريّة .

— « يا هيكتور ، ما هى الصكوك التى تحت أيدينا ؟ » .

— « الحىّ المركزى ، بوسطن وضواحيها ، سبعة عشر سهماً يمثلون ١٩٥,٦٧٠ دولاراً — الأملاك التجارية والشركات ، ملك بوسطن — ثمانية أسهم تمثل ٢١٠,٥٠٠ دولار . »

قال كورنى : « اقتطع خمسة آلاف دولار من دين الحىّ المركزى » .

فأسرع هيكتور إلى مكتبه وعاد بالأوراق المطلوبة .

— « هذا أفضل ضمان فى العالم . » وربت كورنى بيده على الأوراق كما لو كانت دواء ناجعاً لكل مرض . وقال : « أرسل إلىّ "چوفاى" » .

ظهر چوفاى المكتنز شحماً وكأنه توأم للبوّاب : القبعة من حديد ، والأنف ذو خطوط زرق ، والمشية متثاقلة . أما رجل !

وقال كورنى : « ياچو ، يوجد رجل من رجالنا ، وهو صديق لى وللأب فرمويل ، ملقى فى سجن مقاطعة سافولك » .

فسأله چوفاى وفى صوته مزيج من الامتعاض : « أليس هو السجن الذى أرسلنا إليه كمية من الزلط ؟ » .

— « هو بعينه . إنهم ألصقوا به تهمة السرقة . واسمه مارتى تيمنس . إنه من رجالنا — وسلّمه كورنى سندات الدين — أسرع إلى موظف المحكمة وسجل هذه الكفالة لصالح هذا الرجل العزيز . واستعلم إذا كان فى حاجة إلى بعض الأشياء من المأكولات أو ربما إلى زجاجة من الجعة المثلجة لتنشطه عندما يخرج إلى

الشارع الحار . وأخبرْه بأن فريق "الشبان البيض" يقولون له أن يثق فيهم ولا يخاف » .

دسّ چوفاى السندات فى جيب بذلته الداخلى وأحكم أزرارها إلى عنقه ، ثم خرج .

أما ستيفن فقد أذهلته سرعة هذه العمليّة .

فقال : « ياكورنى ، إنك إله الحركة ، كما اعتاد قدماء اليونان أن يقولوا . »

فاهتزت طرّة الشعر فى رأس كورنى طرباً لهذا المديح وقال : « إننا فى بوسطن ندعوه بكلمة واحدة "الشغل" . والآن راقبنى كيف أقفل إلى الأبد قضية مارتى والقرش المسروق » .

فتح كورنى الدرج الأعلى من مكتبه وقرأ فى مذكرة صغيرة سوداء ، خاصة به وحده ، وبعيدة عن عينى هيكتور .

— « عندنا طعم لكل سمكة ، يا ستيف . وسوف أهيئ الصنارة بنفسى — ثم شرع يتصفح مذكرته — آه ! هذه هى السمكة الجميلة التى نبحث عنها . . » .

تقدم فارس القديس سلفستر نحو الهاتف بعد أن تناول قرصاً للسعال ، وقال : « هذا يحلّى أنابيب الصوت » .

— « هنا كورنيليوس ديجان — قالها بوضوح — أريد التحدّث إلى السيد لانسفورد تشالمرز . »

تذكر ستيفن الاسم الذى أدهشه منذ ساعة وعرف أنه الموظف الكبير فى شركة الترام . فى الحقيقة إنه لسمكة كبيرة . ترى ما هو الطعم الذى سيلقى به كورنى لهذا الرجل ؟

— « أسعد الله مساءك ، يا لانس — كان لسان كورنى يقطر عسلا — عندى لك أخبار سارة جدًّا — ثم بدّل كورنى صوته كمن يبوح بسرّ إلى أحد أصدقائه — إن مجلس بلدية بوسطن قرّر عقد قرض جديد لرصف الطرقات مدّته عشر سنوات بفائدة ٣,٧٪ فى المئة . وفى استطاعتنا أن نتصرّف فى كمية من الأسهم لأصدقائنا المقرّبين القدماء على أساس ٦٥ » . وتوقف كورنى لحظة حتى يؤدى هذا الخبر السار تأثيره المرغوب ، ثم قال : « هل أقيّد اسمك حسب المبلغ المعتاد ؟ . . ضعف

المبلغ المعتاد ؟ . . بكل سرور ، يا عزيزى لانسفورد » .

غمز كورنى بعينيه نحو ستيفن ، وعكف سبابته على شكل صنارة . ثم استطرد لحديثه قائلا : « بالمناسبة ، يا لانس . . . لدى حالة تعيسة . . . إن واحداً من أصدقائنا ومواطنينا ، مارتى تيمنس . . . يعمل سائقاً مدة عشرين سنة على خط مدفورد . . . يظهر أنه فى ورطة . . أظن أن مديركم السيد بايلى يمكنه أن يقصّ عليك كل ما فى الأمر . . وسأعتبر الأمر جميلا لى شخصيًّا وللسيدة قرينتى إذا رضيت الشركة و . . . بالطبع ، التعويض ، دون شك . أشكرك يا سيد شالمرز » .

ثم قطع المكالمة . وسأل ستيفن فى ابتسامة :

— « والآن ، ما رأيك فينا ، يا ستيفن ؟ » .

فهزّ ستيفن رأسه فى ذهول وامتعاض ، وقال : « أهذه هى الطريقة التى تعالجون بها الأمور فى بوسطن ؟ » .

فأجابه المقاول فى مرح : « إنها الطريقة التى تسوّى بها الأمور فى كل العالم ، يا ستيف ، فى بوسطن ، وواشنجطن ، وروما — أينما توجّهت » .

لم ترق ستيفن طريقة ديجان هذه المطردة فى تسوية الأمور فقال :

— « إنى أكره هذه الطريقة لمعالجة الأمور » .

— « وما الذى لا يروقك ؟ » .

تلكّأ ستيفن قليلا فى تحديد طبيعة وساوسه . على كل حال ، إنه حضر إلى ههنا بنيّة إخراج مارتى من السجن ، مع أنه قد ثبتت عليه تهمة السرقة . والآن بعد أن أتم رسالته الإنسانية ، فضميره يؤنبه . ولماذا ؟

حاول ستيفن أن يحدّد موضع الألم : « أظن أن ما يزعجنى هى الرشوة التى قدمتها إلى لانسفورد تشالمرز منذ لحظة » .

— « إن كلمة رشوة خشنة اللفظ ، يا ستيف . إنّا ندعوها فى السياسة مجاملة صغيرة . وثلاث مجاملات صغيرة تعادل واحدة كبيرة » .

ثم مدّ كورنى يده على المكتب وراحتها إلى أعلى ليبرهن على اعتقاده المادى الراسخ « إن تشققات يدى ليست مدعاة للفخر يا ستيف ، مع أنها لا تليق فى يدىْ كاهن

شاب . أما فى الحياة العملية الشاقة اليومية ، فيحاول الرجال العاديون تنميتها أحياناً . إنها علامة آدم ، كما يقولون ، ولا أعتقد أنها ستمحى قط » .

ثم اختتم كورنى عظته الصغيرة هذه بسحب ساعة كبيرة مذهبة من جيبه ، وقال : « تعال معى يا أبى فى عربتى الجديدة الكاديلاك . سنذهب لزيارة دن ، فهو لا يقدر الآن أن يمدّ نحونا يداً أو قدماً » .

* * *

تماثلت ساق دن إلى الشفاء ، لكن لم تعد إليه سرعة مشيته كما كان فى أيام شبابه . وعندما عاد إلى عمله ، كان ترامه رقم ٣ المحبوب قد اختفى . وأعطوه وحشاً ضخماً جديداً يجرى على ست عشرة عجلة ، يقوم بالعمل فيه رجل واحد يقبض الثمن عند باب الدخول . أما مارتى فترك العمل إذ وجد له كورنى ديجان عملا آخر كمراقب للوقت ، فلم يكن له اتصال بالنقود وكان بعيداً عن التجربة . أما صوت دن ففقد نشوته القديمة . لكنه لم يكف عن غناء « عروس أورورك المزيّفة » فى شيء من الحزن وفى صوت خافت كما لو كان يرشد سامعيه إلى زوال حبّ هذا الدهر . فى كل ذلك ، لم ينقطع عن رفع قبعته بفخر اثنتى عشرة مرة فى اليوم كل مرة يمرّ أمام باب كنيسة الحبل بلادنس ، حيث تسكن الحضرة الإلهية الأبدية على الهيكل الكبير — ولم يكن فى استطاعة دونيس فرمويل أن يشرح لك سرّ هذا الوجود .

* * *

الفصل السادس

لو أن ملاك الرب طاف طائراً فوق أبرشية بوسطن فى أوائل فبراير سنة ١٩١٧ لسجل الوقائع التاريخية التالية :

* * *

كان « ألدن كمبول » مدير مصرف مولدن للإيداع ، وأحد التلاميذ المشهورين فى مدرسة « ماك كنلى » يستعد لمقابلة صاحب التوقيع على الصك الموضوع على مكتبه ؛ إن مداه ثلاثة أشهر ، وقيمته ٧٥٠٠ دولار ، ومستحق الدفع يوم غد . التوقيع لوليم موناجان والغرض من القرض دفع ثمن تركيب الأنابيب فى المدرسة الرعائية الجديدة . توقع كمبول أن يسأله الرئيس موناجان تجديداً لصكه ، ولم يكن ليتأخر عن مساعدته . فقد اعتاد أن يقول لمساعديه المديرين : «إن هذا الإمضاء لأضمن وأعز لثقتنا.» مع ذلك لم يدهش عندما قدم إليه دولار بل قسيمة صحيحة بسبعة آلاف وخمسمائة دولار على مصرف « شركة المستعمرة القديمة المساهمة» فى بوسطن .

ثم أعاد الصك إلى صاحبه وقال له : « الآن وكل شيء قد انتهى ، أريد أن أسألك ، يا أبى ، عن طريقتك فى تسديد كل هذه المبالغ . إن سلفك — هالى أو هاولى — إنى لا أذكر اسمه ، لم يكن قديراً فى ذلك » .

وضع دولار بل الصك الملغى فى حافظته وقال : « إن اسمه هالى — إدوارد إيفريت هالى » . قالها بكل وضوح ، كما لو أراد ألا يسقط مقطعاً واحداً من هذا الاسم .

— « نعم . . . إ . إ . هالى . لم يكن توقيعه ذا أهمية هنا فى هذا المتجر . »

فأردف موناجان قائلا : « حتى توقيع القديس فرنسيس نفسه لم يكن ليزيد الأمر أهمية » . وفى حركة مبهمة من يده ، تطرّق إلى موضوع زيارته : « لى رجاء عندك يا سيد كمبول . يوم الاثنين القادم سنفتتح مدرسة شيفروس ، وسيكون نيافة الكردينال جلينون ضيف الشرف ، وأملى أن يزّين بعض شخصيات مدينتنا الحفل بحضورهم » . ثم حدّق دولار بل بعينيه الزرقاوين فى المدير كما يفعل النجار عندما ما يضع ميزانه على العوارض : « ألا ترغب ، يا سيد كمبول ، فى تمثيل نقابة المصارف ؟ » .

تحير ألدن كمبول فيما يقول . فقد كان الأب موناجان عميلا طيّباً ، لكن كثيرين من أعضاء إدارة مصرف مولدن للإيداع لم يكن عندهم ميل إلى الثقافة الكنسية . فى الحقيقة كانت المدارس الكاثوليكيّة تخفّف العبء عن المدارس الحكومية — وهذا أمر مرغوب فيه — لكن هؤلاء الكاثوليك يتقدّمون سريعاً وفى قوّة . ولو سألت السيد كمبول لقال لك إنهم يتقدمون فى خطى سريعة جدّا .
فشرع فى حيرته يشدّ على ربطة عنقه .

أما الأب موناجان ، فإذ لم تكن له رغبة فى العالم سوى إخراج السيد كمبول من هذا المأزق ، فقد ألقى بكلمة كما لو كانت مصادفة : « أعتقد أنه قد بلغك بأن نيافته يقوم بإيداع مبالغ ضخمة من أموال الأبرشية فى بعض المصارف المشهورة فى الضواحى » .

لم يكن دولار بل فى حاجة إلى إضافة أن يداً تغسل الأخرى وأن الشىء بالشىء يعوّض .

وهكذا ، فى يوم افتتاح المدرسة الرعائية الجديدة ، وقف المدير كمبول على منصة الشرف يحيي نيافته . وتبين للجميع أنهما على وفاق تام . وعلى كلٍّ ، فبعد أسبوع من افتتاح مدرسة شيڤروس ، وُضع فى مصرف مولدن للإيداع مبلغ أربعين ألف دولار ، من مصدر مجهول لا علاقة له بهذا الأمر .

* * *

جلس لويس ضاى فى معمله فى المقدس محاولا استعادة شجاعته فى ما يجب فعله الآن ، فقد انتهى عمله كقندلفت . وسوف يقوم به آخرون . فإنه لما تمّ بناء المدرسة الرعائية الجديدة ، حضر إلى رعية القديسة مرجريتا فريق من الراهبات للتعليم فى المدرسة وللاهتمام بشؤون الهيكل ، وهو ألذّ عمل لهنّ بين الامتيازات التى ينعمن بها . وأعلن موناجان ذلك الخبر منذ شهر . فكان هذا اليوم آخر أيام لويس ضاى كقندلفت ، وعليه أن يرحل .

بدأ لويس يجمع حاجياته : بكرات الخيوط الملونة ، ومقصّات التطريز ، وبعض الإبر المنوّعة ، وبقايا مختلفة من بعض الثياب الكهنوتية التى كان يرتقها . الكل لا يعدو أن يكون صرة صغيرة فى قبضة اليد . مع ذلك فهذا النزر اليسير كان يمثل عند لويس ضاى كل شىء فى حياته ساعده حتى هذه اللحظة فى الاستمرار حيًّا بعد أن رفضوه من الدير . وجد معلّقة هنالك مشملة حمراء عتيقة لا تصلح لشىء ،

فطواها لويس بكل احترام ووضعها في حقيبته ، وتمتم قائلا في نفسه : « ألبس يا رب الآخرين ثياباً لامعة ، وأما عبدك لويس ضاى فأسمالا ورقعاً » .

بقي في علبة صغيرة قليل من سائل معدني للطلاء . فما هي أنفع طريقة لاستعماله ؟ ذهب لويس إلى الخزانة حيث تحفظ الأواني المقدسة وأخذ منها الكأس ، ثم رجع إلى كرسيه وجلس وصب ما تبقى من السائل على الإناء الذهبي وشرع يفركه بقطعة قديمة من جلد الوعل حتى لمعت الكأس ببريق وهاج .

في أثناء عمله ، كان لويس ضاى يتوقف أحياناً ويرهف أذنه كمن يسمع وقع خطوات أمام باب حجرته . آه ، لو دخل عليه الآن الأب فرمويل ليشجع قلبه ويسكب فيه قطرة من المحبة والتعزية ! . . . لكن الأب فرمويل غائب في دير الآباء البندكتان يقوم بعمل رياضة روحية . وقد يكون الآن غارقاً في تأملاته في صومعته ، أو مجتمعاً مع سائر الرهبان في صلاة المساء . فأصم لويس ضاى أذنيه عن سماع وقع خطوات الأب فرمويل ، وكان قد أصم قلبه منذ أمد بعيد عن سماع أي صوت .

نفد السائل المعدني ، فلم يتمكن لويس من تلميع الإناء المقدس من الداخل . فجلس زمناً طويلا والكأس بين يديه كطفل يحاول كبت دموعه . بدأ ظلام المغيب يخيم على المقدس في لون بنفسجي . فأخذ الكأس المقدسة وأعادها إلى مكانها في الخزانة . وعندما انتهى من عمله هذا ، انتصب لويس ضاى أمام درج الهيكل كما يفعل الكاهن قبل بدء القداس .

وتمتم قائلا : « سأتقدم إلى هيكل الرب » .

كان الوقت ليلا ، عندما انسحب لويس خارجاً من الكنيسة حاملا معه كل ما يملكه ، في رحلته الأخيرة .

في صباح اليوم التالي ، وجدوه مشنوقاً في مخزن الفحم في بيت والدته ، مرتدياً ثياب الكاهن المقدسة لصلاة القداس . الثياب قديمة مهدلة وحمراء (رمزاً إلى الشهداء) ، وكلها مطعونة طعنات صغيرة حادة بمقص التطريز ، أمسكت به أيد ملوثة مرذولة .

* * *

ذابت هيلانة فرمويل تحرقاً بروح التقوى وبذات الرئة ، وحملت في ذلك

اليوم على نقالة إلى رقم ٤٧ شارع مرج الغاب . فقد منحتها الأم رئيسة الدير إذناً خاصا رحمة بحالتها المرضيّة .

« إلى أختنا بالروح والمبتدئة المحبوبة ، وديعة تريزا ، بسبب حالتها المرضيّة الخطيرة ، نصرّح لها بالعودة إلى بيت والديها الأرضيّين » .

ليس فى الإمكان كتابة شهادة وفاة أضمن من تلك : تاريخها مطبوع على جسد هيلانة المصفرّ كالرقّ ، وميعادها قريب قصير .

ألقى دونيس فرمويل نظرة غاضبة حزينة إلى ابنته كمالك يتوقع ضياع ملكه ، وصمّم على تمزيق العقد بينها وبين الموت وعلى انتشالها من براثنه . كان دن وحده ضعيفاً . لكن لديه أفضل الاتصالات . فقرر اللجوء إليها دون خشية أو حياء .

فقال لامرأته : « يا سيليا ، يجب أن نرفع طلبنا إلى العذراء مريم نفسها ، لتقدّمه بدورها مع دموعها إلى ابنها الإلهى الذى لا بدّ أن يمنح كل ما تسأله إياه والدته باسم المحبة » .

ثم ركعا فى غرفة نومهما ، ورشقا السماء بطلبات العذراء المباركة . بدأ دن وأعقبته سيليا ، ورنّ صوتهما فى أرجاء البيت .

أيها الرب ارحمنا — أيها المسيح ارحمنا
أيها المسيح استمع لنا — أيها المسيح أصغ إلينا بأناتك

توسلا إلى العذراء الكلية الحكمة ، والكلية الوقار ، والكلية المديح — تضرعا مع مريم ، ملكة الملائكة ، وملكة الرسل ، وملكة الشهداء — وصلّيا إلى مريم الوردة الروحية ، ونجمة الصباح ، وبرج العاج ، وشفاء المرضى ، ومعزّية الحزانى ، لتشفع من أجل ابنتهما هيلانة لدى عرش ابنها الإلهى .

لم تذهب شفاعة العذراء سدى . انتعشت هيلانة قليلا ، ثم انتكست ، وتحرّقت ، ثم هوت ، ومرة ثانية انتعشت فى حين استمرّ توسّل دن المتواصل ودعاء سيليا المتواتر يدوّيان فى أرجاء المنزل .

يامرآة العدل — صلى لأجلنا
يا سبب سرورنا — صلى لأجلنا
يا إناءً مكرّما للعبادة — صلى لأجلنا

يا وردة روحية — صلى لأجلنا

ما عتّمت تلاوة طلبات العذراء كل ليلة ومهارة الطبيب چون بيرن وعناية سيليا الفائقة أن برهنت عن صحة اتصالات دن السماويّة . ففى أواخر فبراير ، لم تزل هيلانة حية ، فقد مزّق دونيس فرمويل وثيقة الموت وأبادها وأعدمها وبصق عليها .

فى هذه الأثناء لم يكفّ ستيفن عن أن يقدّم لأخته العزاء الروحى بالمناولة . دهش من رفض هذا العود النحيل الاحتراق بنيران ذات الرئة . انتصار عجيب ! خامره الشك فى مقدرة هيلانة على تثبيت موقفها المنيع أمام وثبات المرض والموت المخيفة ، وفيما ساعدها فى هذا الصراع . فقط ، ليستمع الإنسان إلى صوت دن يدوّى فى أرجاء البيت ، ولن يعجز عن معرفة الجواب . قد يسميه دن الإيمان ، وفى الحقيقة هو الإيمان . لكن ستيفن وجد أن المحبة لها نصيب كبير فى هذا الأمر ؛ محبة تستمدّ قوةً من الوحدة بالله ، ودعامةً فولاذيةً من الاشتراك مع الآب ، حتى إنه لا جسد ولا موت ولا جهنم النار يمكنها أن تتغلب عليها .

بفقد لويس ضاى تلك المحبة شنق نفسه . أما هيلانة فرمويل فبإحرازها تلك المحبة لن تموت .

مع كل ذلك ، أظهرت هيلانة بعض أعراض غريبة من المشى فى أثناء النوم كما لو كانت متألّبة فى كل منطقة تعيش فيها : سواء أفى عالم الأحلام الروحانية أم فى حقيقة الأوضاع الماديّة . نعم عاشت لكنها أضحت تسير فى أثناء نومها . ومرة وجدتها سيليا راكعة أمام تمثال صغير للعائلة المقدسة فى غرفة الجلوس .

فكلّمتها سيليا بحنان : « حبيبتى هيلانة ، عودى إلى فراشك » .

— « نعم ، يا أماه . لكن دعينى أولا أكرّم ثلاثتنا قبل ذهابى » .

— « ومن هم الثلاثة يا حبيبتى ؟ »

— « ستيفن ثم أبى وأنا . انظرى ، إن أبى يحمل فى يده حملا صغيراً أعنى ستيفن . وبيده الأخرى يسندنى . »

« يا يسوع ومريم ومار يوسف . احفظونا » . قالتها سيليا فرمويل وهى ترتعش خوفاً لذكر تلك الأسماء .

* * *

أرعدت طبول الحرب بشدة ، وأتى كل يوم بأزمة جديدة : مركب تجارى أمريكى أغرق دون أن يترك أثراً ، وقرض أضخم مُنح لبريطانيا ، وصرخة يائسة من فرنسا تطلب المعونة . أخفقت سياسة «وودرو ويلسن» بأكملها لدرء خطر الغواصات . استفزازات مستمرة وإنذارات مهينة أثارت شعور الشعب الأمريكى . وتزاحمت الحوادث بسرعة لما قرأ الرئيس ويلسن نداءه المشؤوم أمام مؤتمر النواب الأمريكى فى الثانى من أبريل سنة ١٩١٧ .

علم ستيفن بهذه الأنباء عند خروجه من المقدس فى طريقه إلى دار الكنيسة . تقدّم إليه الصغير « لويس كوين » يتمايل وسلّمه «العالم» وهو يكاد يرمى به إليه وتركه بسرعه دون أن يرفع يده إلى قبعته . كاد الأب ستيفن أن يدعوه ثانية ليلقى عليه درساً صغيراً فى الآداب لولا أن وقعت عينه على عنوان كبير : « ويلسن يطلب من مؤتمر النواب الأمريكى الدخول فى الحرب » . وفى ذهول ، قرأ ستيفن نداء الرئيس .

« يجب أن يصبح العالم مكاناً آمناً للديموقراطية . . . إن الحق أغلى ثمناً من السلام وعلينا أن نقاتل فى سبيل الأمور التى آمنّا بها بكل قلوبنا ، فى سبيل الديموقراطية . . . فى سبيل حقوق وحرّيات البلاد الصغيرة ، فى سبيل تدعيم الحق بواسطة مجموعة الشعوب الحرّة ، لإرساء السلام والأمن فى كل البلاد . »

شرع ستيفن يجوب الممرّ المعبد بين الدار والكنيسة ، محاولا فهم ما قاله الكاتب النبيل الذى أرسى خياله قواعد التفكير الحربى الأمريكى .

إن النداء مؤثر ومنسجم مع هدف الشعور العام ، ولكنّ ستيفن فطن إلى أنه ينقصه عامل أساسىّ يستطيع وحده إرساء السلام والأمن فى العالم . أىّ عامل أساسىّ ؟ هو الاعتراف بسيادة الله على أعمال البشر . لم تذكر هذه السيادة فى أىّ فقرة من فقرات النداء . الديموقراطية ، وحقوق الشعوب الصغيرة ، والسلام ، والأمن ، والحرّية — كلها نبيلة ومرغوب فيها بحد ذاتها — لكنها ليست سوى أجزاء تافهة لفكرة أسمى خفيت على نظر الرئيس وشعبه . لم يكن ستيفن فرمويل إنساناً شرساً ولا متشائماً ، لكنه هزّ رأسه فى تساؤل عما يخفيه المستقبل من أهوال .

دخل الدار وطوى « العالم » على الطريقة التى تلذّ لموناجان وحشره فى زاوية

الباب . ثم صعد إلى غرفته وقرأ فقرة من كتاب صلاته :

« هلـّموا فانظروا أعمال الرب الذى أتى بعجائب فى الأرض — أزال الحروب إلى أقاصى الأرض . كسر القوس وقطع السيف وأحرق العجلات بالنار — كفـّوا فاعلموا أنى أنا الله — أعلو فى الأمم ، أعلو فى الأرض » .

بعد أربعة أيام ، كانت أمريكا قد دخلت الحرب .

* * *

تحرّكت الآلات الحربية وأخرجت معدات الحرب ورجالها . والدعاوة ، هذا الفن الحديث ، أصبحت تذكى شعور الأمريكيين إلى درجة حرارة الحرب . وتبدّلت الحرب إلى تعبئة شاملة بفضل الإذاعة والكتّاب والرسّامين الفكاهيين ومؤلفى الأغانى . وصدر أمر بالتعبئة العامة فى الخامس من يونية سنة ١٩١٧ لضمان تجنيد العدد الكافى من الرجال . فتقدم عشرة ملايين من الأمريكيّين إلى تسجيل أسمائهم ، وبدأت أفواجهم تتّجه إلى مراكز التدريب .

أما برنى فرمويل فمنعته قدمه المسطحة من تأدية واجبه ، لكن صوته الرقيق أتاح له عملا كمغن فى المعسكر . أما چورچ فرمويل فلم ينتظر طويلا دوره فى التجنيد . فقد توجه إلى أول فرقة بحرية وحصل حالا على وظيفة برتبة ملازم . وودعه ستيفن على رصيف الكومنويلث على نغمات الأغانى الحماسية .

أما المفاجأة الكبرى فكانت تطوع الأب بولس آيرتون كمرشد روحى فى الجيش . ذات ليلة ، نقر على غرفة ستيفن ونقل إليه الخبر بكل بساطة : « إنى ذاهب غداً مع الفرقة السادسة والعشرين يا ستيڤ . هل لى فى توديعك ؟ »

— « تفضل يا بولس . إليك كرسىّ . » وجلس ستيفن على السرير وانتظر حتّى يبدأ صديقه الحديث . أما بولس آيرتون فلم يكن رجلا سهل الانقياد . إنه يفصح عن أعماله إذا أراد ذلك ، وإلا فلا ، وفى الغالب لا يفصح عن شىء . لكن الليلة نقض تكتّمه إذ شعر بدافع قوىّ إلى الكلام . فبدأ :

— « سيقولون لى : ما هذا الانقلاب يا آيرتون ، أمن الثوب الأسود إلى الزىّ العسكرىّ ؟ لا شك أن الزى مختلف ، لكن النظام هو نفسه . . . طابور يمين . . . إلى الأمام سرْ ! سأتعوده سريعاً ، ألا تظنّ ؟ » .

— « لا شك فى ذلك » .

ثم تساءل ستيفن عن سرّ حرقة صديقه . لكنه استطرد لقوله : « لو استطعت إلقاء بعض الجمل الشهيرة مثل "اضرب بالنار كما تشاء ، يا جريدلى" أمكنك دخول التاريخ كما فعل "المرشد الحديدى"» .

وحاول ستيفن أن يجعل الحديث مرحاً فقال : « ما هى رتبتك ؟ » .

فنفض بولس آيرتون عنه تصنّعه وقال: «يوزباشى . أظن أنك تعجب من ذهابى . »

— « لا أظن وطنيّتك هى السبب . ولا أجد علّة لكاهن بلغ التاسعة والثلاثين من عمره للذهاب إلى الحرب » .

— « "ما أعذب أن يموت الإنسان فداء عن وطنه" كما يقول هوراس . لكن ليس هذا سبب ذهابى . قد حاذيته عندما ذكرت سنى . فبعد أشهر قليلة سأبلغ الأربعين . ولا يمكنك أن تتصوّر شعورى بتقدمى نحو الأربعين ، ولا أزال محروماً من رعيّة تخصّنى .»

لا بد للأب آيرتون من أن يتذكّر انتقاداته السابقة بشأن طموح بعض الكهنة . فانفجر قائلا : « لا أبغى كنيسة كبيرة ، يا ستيف . لا بل أقبل أصغر ركن فى الأبرشية وأنام على الأرض ، ما دمت أستطيع أن أدعوه كنيستى » .

— « أدرك ذلك ، يا بولس . إنك تمثّل يعقوب وهو يتوق إلى امتلاك قطيع لنفسه . لكن الوضع هنا فى كنيسة القديسة مرجريتا أن القطيع يخص شخصاً آخر تاريخيًّا يدعى موناجان » .

— « وأىّ سطوة هذه التى يفرضها على مساعديه ! إنه سيمكث أيضاً رئيساً ثلاثين سنة أخرى ! » ثم فرك الأب آيرتون ذقنه الأسود بشدة وقال : « أترى . . . سأستمر فى كونى مساعداً له حتى أبلغ السبعين » .

— « أوتظن أن الذهاب إلى الحرب سيزيد من سرعة الأمور ؟ » .

لا بدّ أن الأب آيرتون قد سأل نفسه هذا السؤال بعينه ، فألقى بجوابه كلاعب فكّر كثيراً قبل أن يرمى بورقة لعبه .

— « ربما يظهر عملى هذا مسألة حسابية ، يا ستيف ، لكنى أعتقد أنه ستحدث بعد الحرب تغييرات هامة فى هذه الأبرشية . ولا بدّ أن تحدث . فالرعاة

الحاليون متمسكون برعياتهم كما كان يفعل الأسياد فى أملاكهم . إنهم يعتبرون أنفسهم ملاكاً فوق ما ينبغى . وشعورى أن الكردينال ينتظر فقط اللحظة المناسبة ليقسم الرعيات القديمة نصفين ويقدم للرجال الشبان فرصة لبناء كنائس جديدة ».

هذا الولع بالبناء ! لابد لستيفن أن يشعر به يوماً . وعاجلا أو آجلا يتحرق كل كاهن ، كما يتوق الأب بولس آيرتون الآن ، إلى بناء كنيسة . فقال ستيفن .

— « إذا استحق رجل واحد أن يعطى فرصة لبناء كنيسة فهو أنت يابولس . ولو كنتُ "رقم واحد" لغرزت دبوساً فى أشق بقعة على خريطة الأبرشية ، وكتبت تحتها : "شيد كنيستك هنا يا أبى" »

فضحك الاثنان لما جادت به مخيلة ستيفن .

— « انتظر وثق يابولس . عندما ترفع أعلام السلام ، تكون ساعتك قد حانت » .

ثم مد بولس آيرتون يده الغليظة قائلا : « إلى اللقاء يا ستيف . صلّ من أجلى . »

— « سأفعل فى كل الظروف » .

واشتبكت الأيادى الأربع بعضها ببعض وتعانق الصديقان فى قبلة وداع تشجيعاً لاحتمال المتاعب الأرضية ، قبل فراقهما .

* * *

أحدث ذهاب الأب بولس آيرتون فراغاً فى كنيسة القديسة مرجريتا ، وفى قلب ستيفن . والآن لما اندمج ستيفن مراراً مع الأب فرانك ليوزز ، اكتشف أن الأبيضانى ، بالرغم من مزاجه الصفراوى وخوفه من المطر ، أهل ليقوم بنصيبه من العمل فى تحمل أعباء الرعية . وفهو وإن لم يكن كما دعاه موناجان «مكتشف الديناميت» ، إلا أنه مندفع وشديد العزم فى أداء واجبه الكهنوتى . غير أنه مع ذلك قليلُ النضوج مما حدا بستيفن أن يمتنع عن وضع ثقته فيه ومحبته كاملة .

ليس للأب فرانك ليوزز سوى قليل من المواهب العقلية بجانب شغفه بالموسيقى . والكتاب الوحيد الذى يقرأه دوماً ، هو كتاب صلواته . أما الأفكار التى تخرج عن محور أعماله الرعائية ، فكانت تخيف نفسه القليلة الخبرة . فكان يقضى معظم أمسياته فى زيارة فريق منتخب من رعاياه ، حيث نجح فى استمالتهم إليه بسبب

قبوله العزف على البيانو ، أو أن يكون رابعاً فى لعب الويست . كل ذلك برىء دون شك ، لكن لو بلغ بل موناجان أن مساعده يقضى أوقاته فى إظهار مشاعره الفنية على أفضل بيانوات الرعية لاستاء دون شك .

لم يكفّ الأبيضانى عن دعوة ستيفن ليرافقه فى جولاته عند الأسر الشريفة من لاعبى الويست . ولما كان ستيفن مشغولا بترجمة كتاب كارنجى ، فكان يضطر إلى التهرب منه مراراً كثيرة . « إنى لا أجيد لعب الويست ، يا ميلكى ، فاتركنى هذه المرّة » .

اعتاد الأبيضانى قبول هذا الرفض كما اعتاد توقّعه وكان ستيفن يعود كل مرة إلى عمله فى ترجمة سلم المحبة . وكلّما تقدّم ستيفن فى عمله ، زاد اكتشافه أن ذلك الكتاب ليس مقالة أدبية أو أطروحة لاهوتية فحسب ، لكنه تمجيد للمحبّة أو بالأحرى اتحاد جديد ينبئ بالاتصال السرّى بين الجسم والروح . فأيهما يفوق الآخر ؟ وأين تسكن النفس فى هيكل الإنسان الترابى ؟ أهى السيد فيه أم الساكن فقط ؟ لم يكفّ كارنجى فى شعوره الروحى والمادى عن التغنى بانتصارات الحياة وحدودها الزائلة كما يعيشها الناس فى أيّامهم . كانت أفكاره الواضحة المنعشة تنساب كالنهر بين شواطئ الروح والجسد ، ملاطفاً كليهما بحنانه عند مروره بينهما .

المحبة الكاملة ، على حدّ تعبير كارنجى ، هى تلك الموهبة الإلهية التى تميل بالبشر إلى محبة الله من أجل ذاته ، ليس كمورد للمساعدة أو المكافأة أو الغفران ، بل كخير أسمى لا حدّ له فى ذاته . لم يفت كارنجى وجود أنواع أخرى من المحبّة ، كالحبة المتبادلة بين أبناء الأرض الذين من واجبهم منحها بعضهم بعضاً والّتى تتوق إليها قلوب جميع البشر وتمتد إليها الأيدى اليائسة ولا تهدأ فى طلبها جميع الأصوات .

« مع ذلك ، استطرد كارنجى لشرحه ، فإن تعزية المحبة هذه ، وإن بدت حلوة ، فهى ليست سوى عرَض دنيوىّ ، ولا تُقارَن مع المحبة الجوهريّة . وكما أنه لا لون الوردة ولا عطرها هو الوردة الجوهرية فى ذاتها ، بل هى ذكريات فقط من الزهرة الكاملة ، كذلك الظواهر الزائلة من المحبة تساعدنا فقط على أن نتذكر بهاء المحبّة الأزليّة » .

مساء يوم من يونيه، وستيفن يتأمل فى تعريف كارنجى للمحبة ، إذا بليونز الأبيضانى قد وقف أمامه فى غرفته ملوّحاً ببطاقتين للمسرح فى يده ، كما يفعل رئيس فرقة موسيقية بعصاه . كانت بطاقات المسرح شيئاً نادراً فى حياة ستيفن . فسمح لنفسه بالسؤال .

— « من أين حصلت عليها ؟ »

فصاح الأبيضانى : « إنه حظ الإرلندى ! ذهبت إلى جريدة " أخبار مولدن" لأعلن عن اجتماع ، وإذا بليون ماك كينون رئيس التحرير يسألنى لو كان فى إمكانى استعمال بطاقتين لحفلة الليلة القادمة » .

— « إنك محظوظ . وما هو موضوع المسرحية ؟ »

— « هى إعادة لمسرحية ڤيكتور هربرت " الفتاة الوحيدة " الموسيقى بديعة . اسمع » .

وشرع الأبيضانى يهمهم بأشهر مقطوعة فى المسرحية مساعداً صوته على كمان خيالى :

فى بعادك عنى يا حبيبتى
ما أثقل الساعات الطوال !
الشمس أمست رماداً يا حبيبتى
والعطر زال من الزهور !

فابتسم ستيفن تلطفاً بهذا الشعور الفياض . . .

وتساءل : أهى مصيدة للطيور ؟ ثم قال : « ومن ستدعو معك ؟ » .

رجع الأبيضانى من شروده وأشار إلى البطاقتين أمام ستيفن وقال : ومن غيرك ، أيها الأب فرمويل ؟ » .

— « كلاّ — أجاب ستيفن وهو يشير إلى أوراقه على المكتب — علىّ أن أنجز عملى هنا ، يا ميلكى . ويكفينى موسيقى هذا النثر الإيطالى . اسأل أحداً غيرى » .

فاستشاط فرانك ليونز غيظاً وصاح يحتج : « اسمع الآن يا ستيف . لا يمكنك الاستمرار فى رفض ما يعرضه عليك زميل لك . فإما أن تأتى معى غداً مساء وإما

أن أمزّق تلك البطاقات الملعونة ههنا أمامك » . ورفع الأبيضانى البطاقتين عالياً كمن يوشك أن ينفذ وعيده : « هل أنت آت ؟ » .

رغب ستيفن أن يكف ليونز الأبيضانى عن استعمال كلمة « زميل » وعن ملاحقته بدعواته . غير أنه حتى هذه اللحظة لم يكن قد دخل المسرح قط منذ دخوله الدير . . . فلا بدّ أن تكون هذه تسلية كبرى ! . . .

ـ « لا تمزّق هذه الوريقات ، يا ميلكى ، سأرافقك » .

فى مساء اليوم التالى جلس اثنان من الكهنة فى الصف الثالث من الوسط ، وصدحت الموسيقى فاتحة « الفتاة الوحيدة » وإذ استغرق ستيفن بكل جوارحه يفكـّر فيما سوف يرى ويسمع ، لم ينتبه إلى بعض الحواجب بين الحضور تتراقص استفهاماً عن وجود الياقات الرومانية فى المسرح . كان ضميره صافياً ، فلديه إذن من رئيسه ، وهو برفقة كاهن محترم . أوّلاً يحق لرجل ناضج أن يتذوّق بعض الموسيقى الرقيقة العذبة ؟ ! . . .

أما الأبيضانى فكان فى السماء السابعة . كان يذوب رقّة أمام الموسيقى كالقصدير أمام النار . وفى آخر الفصل الأول أمسى شبيهاً بقصبة منعزلة قد أحنت رأسها تحت عبء حساسيتها الرقيقة . لم يكن الأبيضانى قد حضر من قبل مسرحية فكاهية موسيقية . فصدمته صدمة عنيفة أدوار العشاق فى شكلها الجديد عليه ، وهى تصاغ فى حوار عاطفى لتنتهى بمأساة . لم تكن القصة عنده سوى المرحلة الأولى فى سلّم اللذّات . طارت به حناجر المغنين المتنوعة ، التى تنقر بحنان على أوتار صامتة تارة ، وتارة تموج وتزخر مندفعة من بين الأوتار العميقة ، إلى عالم آخر من العاطفية لم يعهده ولم يلجه قط ذلك الكاهن الصفراوى . أما الثياب المفهافة والأكتاف العارية لنجمة المسرح الأولى أندريا فرنى ، وهى حقّاً فتاة جميلة ، فقد ملأت كأس خبرة الأب فرانك بآخر ما تبقى من ذرات التسمّم .

فى فترة الاستراحة تنبه ستيفن إلى اضطراب الأبيضانى لكنه لم يعقب عليه بشىء . فالكاهن وإن كان قليل الخبرة له الحق فى ألا يحشر أحد غيره أنفه فى شعوره الخاص . ربما ينفض الأب فرانك عن نفسه هذا التأثير عندما يخرج إلى الهواء الطلق . أما ستيفن فقد شعر بطرب عام مخدّر عندما انتهت المسرحية .

فالموسيقى هدأت أعصابه ، وصور الممثلة الأولى الفتانة ما زالت تتأرجح مرحة فى مخيلته . فخرج إلى شارع بويلسطن وصدره منشرح وكأنه عائد من إجازة فى بلاد أساطير القدماء .

ثم سأل الأبيضانى : « هل لك فى المشى حتى البيت ؟ » .

— « أنمشى خمسة أميال ؟ » .

— « سنستفيد كلانا . دعنا نقطع الطريق عبر الأحياء العامة » .

لم يعترض الأبيضانى . كان شىء يجول فى خاطره ، فربما سنحت له الفرصة فى خلوته مع ستيفن ليفصح عن بعض ما فى نفسه من العواطف المخزونة . اخترق الاثنان حى بوسطن العمومى . كانت أوراق الشجر الناعمة تحجب أنوار الحديقة وتضفى على العشب الأخضر سحراً هادئاً . فأحس ستيفن براحة عجيبة .

— « ما أبدع هذا التمثيل ! قصة طريفة تحكيها موسيقى عذبة مخدّرة . " فى بعادك عنى يا حبيبتى ، ما أثقل الساعات الطوال! " ثم تررّم رى رم . . ما هى بقية الربع يا فرانك ؟ » .

لم يجب الأبيضانى . لقد كان فى أعماق نفسه المتأججة يحاول إلقاء سؤال أثقله . حثته رغبة شديدة وهو يسير بجانب ستيفن فى ليلة الصيف هذه فى أن يحوّل الحديث إلى ما أذهله دائماً وأزعجه ألا وهو النصف الآخر المهمّ من الخليقة : الفتيات ! حاول الأبيضانى فى خجل فتح هذا الموضوع . فسأل ستيفن :

— « ما رأيك فى أندريا فرنى ؟ » .

— « تملأ البصر . جمال حقيقى . وماذا أقول غير ذلك ؟ » .

سارا فى صمت تحت شجر الدردار . وانقضى وقت كاف لمحاولة ثانية . خشى فرانك من الإساءة إلى شعور ستيفن ، لكنه تشجع فألقى بسؤاله سريعاً : « إنى أتساءل يا ستيف عما قد يكون شكل الفتيات » .

اشتمّ ستيفن رائحة المرض تنبعث من الأبيضانى . فنفر منه ورثى لحاله . وخجل من نفسه لما أبداه من رأى جرىء فى أندريا فرنى . فأجاب الأبيضانى وفى صوته رثاء ورفض للخوض فى هذا الموضوع : « توجد مقالات كثيرة فى هذا الموضوع ، يا فرانك ، فمن عهد أوفيد إلى دانتى وصف الخبراء النساء فى كل الظروف والحالات ».

ظهر فى الحديقة العامة مصباح كهربى أخفاه جذع شجرة فأرسل هالة من النور على وجه الأبيضانى المضطرب : « ليس هذا ما أعنى ، يا ستيف . إن الكتب لا تقول لى ما أريد معرفته . لكن لما سمعت تلك الفتاة تغنى هذه الليلة ، ورأيت كتفيها العاريتين » . . . وانتابه ارتعاش فى كل كيانه . . « صدقنى إذا أردت يا ستيف ، فهذا كل ما رأيته فى حياتى من امرأة ، شعرت بأن نفسى قد امتلأت شقاء لم أعهده من قبل » . . . . واختنق صوت فرانك بالألم . . « قل لى يا ستيف لماذا أشعر هكذا ؟ » .

ودهش فرانك ليونز من سؤاله فوقف ساكتاً وانهمرت الدموع من عينيه ، وبدا لونها أزرق تحت ضوء الكهربا . قد بلغ الثلاثين من عمره وحتى هذه اللحظة لم يفطن بعد إلى أن فى العالم نساء . ذهب صغيراً إلى الدير وحجبت معرفته عما يدور من تيارات بين قطبى الجنسين . كانت خبرته بالنساء معدومة . لم يرقص قط مع فتاة ، ولا لعب معها التنس أو تأرجحا معاً . ما قبل فتاة قط أو لمسها . كانت الموسيقى تعزيته العاطفية الوحيدة فضلا عن تقواه الحقيقية بكل ما يتعلق بشؤون الكهنوت . والآن صدمته فجأة هذه القوة التى تنبعث من النساء وتكتنفها الأسرار ، وهذه الصدمة مع صوت أندريا فرنى ما زالت تثير كيان أعصابه .

— « أتشعر كما أشعر أنا ، يا ستيف ؟ »

أجاب ستيفن ببساطة : « كلاّ » .

لم يكن ستيفن يخشى النساء أو يجهل أمورهن . فى تلك الليلة نظر إلى أندريا فرنى بسرور ورآها كما هى فى الحقيقة ، خليقة محبوبة موهوبة فى صوتها وجسمها . إن العالم لمحظوظ بوجود مثل هذه المرأة ! أما حظ ستيفن فأوسع ، لأن وجودهنّ لم يزعج حبه الأسمى .

أما الأب فرانك ليونز فقد تعثّر فى عقد عاطفية بما اكتشفه جديداً فى عالم النساء الخلاّب . وتحقق ستيفن من أن مأساة الأبيضانى هى واحدة من تلك المآسى الشخصية العويصة الواجب على كل إنسان (كاهناً كان أم غير كاهن) أن يجد لها حلاًّ بنفسه . لا شك أن الحميرة المخبأة فى نفس فرانك والتى تتفتح الآن ستجعل منه رجلا أكثر نضوجاً ، وكاهناً أفضل شعوراً .

غير أن الأبيضانى فى اللحظة الحاضرة كان فى حاجة إلى إسعاف عاجل . ورأى ستيفن أن أفضل إسعاف هو إعطاء صديقه فرصة للتحدّث بحرّية كاملة حتى يهدأ عنده غليان فضوله .

لو تبدلت الظروف لبدا رأى ستيفن حكيماً . لكن هواء الليل كان يفوح فى هذه الأحياء المظلمة بعطر الصيف ورائحة العشب والزهور . وحولهم أشباح آدمية ممددة على العشب وعشاق يتبادلون القبلات على كل مقعد ، حتى لقد بدأ ستيفن نفسه يشعر باجتياح عدوى هذا المكان .

— « لنخرج من هذا المكان ، يا فرانك » .

وتوجّه غرباً بخطى سريعة نحو عطفة شارلز . وفى نيته أن يجهد فرانك ليونز بالسير الطويل الحثيث . فاستمر خمس عشرة دقيقة فى سرعته ، وحاول الأبيضانى فى يأس شديد أن يلحق به . ثم وصلا إلى خط الترام عبر مستنقعات النهر الغامض . فتبعاه متلاحقين . لم تكن البقعة غريبة على ستيفن ، فشعر أنه فيها آمن مطمئن .

عكس خط الترام الفولاذى أشعة أضواء أقواس الفحم الكهربية . فتذكر ستيفن أن أباه قد قاد الترام رقم ٣ (ما أغرب هذا العدد الثلاثى) مدة ربع قرن . وفى طفولته ، وقف مراراً وراء أبيه على مفاتيح القيادة . فسرح الآن بأفكاره وراء أبيه ، وعادت إليه الذكريات : دن المدعو الآمر الناهى ، دن الذى يضرب المنضدة بقبضته ، دن الذى يقول دائماً : لا ، دن مشترع القوانين وممثل الله على الأرض . ثم توالت عليه ذكريات فكهة مضحكة : حب دن للغناء والصلاة . وعقليته المحافظة وشغفه بالأحاجى والألغاز التى أتى بها من دوبلين . فحاول سرد بعضها ليرفه عن الأبيضانى ، الذى استمر تائهاً بأفكاره ولم يفقه شيئاً منها ، بل كان يتحرق داخل نفسه ، فأعاد الكرّة مرّة أخرى :

— « ألا تعتقد ، يا ستيف ، أن من واجب الكهنة أن يكون لديهم خبرة أوسع فى شؤون النساء ؟ » .

— « وأىّ ضرورة فى ذلك ؟ » .

— « لكى يفهموهن أكثر » .

— « هذا برهان فاسد ومغالطة كبرى . قد يمكنك أيضاً الادعاء بأن على

الطبيب أن يمرض بالقلب حتى يستطيع التعرّف على أمراض الغير ويعالجهم! » .

ثم ضاق بهما الطريق وهما يعبران جسراً على النهر الغامض فقال الأبيضانى : « لنستند قليلا إلى الحواجز ، يا ستيف . إنى ألهث تعباً ولا مقدرة لى على التفكير » .

فاستندا إلى قضبان الجسر الحديدية وسرّحا طرفهما فى المياه السوداء المنحدرة نحو البحر . وتصاعدت إليهما من المستنقعات الموحلة روائح مثيرة قديمة ، أقدم من عصور الإنسان بذكرياتها وأحاسيسها . جاهد الأبيضانى دون جدوى التخلص من ذكريات هذه الروائح المثيرة ، لكنه وجد نفسه والسؤال على شفتيه مرة أخرى :

— « حقاً يا ستيف ما هو شكل النساء ؟ » ولولا كرب نفسه العميق لبدا سؤاله وقحاً .

— « فى استطاعتى أن أسرد عليك أمثلة كثيرة ياميلكى . غير أنه ما من أحد منها يساعدك بشىء فيما أنت مضطرب بالتفكير فيه » .

— « ولم لا ؟ إذا لم يقبل زميل لى أن يقول لى شيئاً عن النساء ، فكيف أستطيع معرفة شىء عنهن ؟ » .

تضايق ستيفن من كلمة « زميل » هذه البغيضة . فأجابه بحدّة : « أأنت متأكد يا فرانك من أن النساء هن موضوع استعلامك ؟ أوَلا تتحرق فضولا لتعرف شيئاً آخر ؟ » .

— « شيئاً آخر ؟ وما عسى أن يكون هذا ؟ »

وأتاه الجواب سريعاً ، مستقى من كتاب كارنجى : « الحب يا فرانك ، والحاجة إلى الحب » .

فزادت دهشة الأبيضانى عن ذى قبل : « لكن أليس النساء والحب شيئاً واحداً ؟ » .

— « كلاّ . فالنساء هن عادة موضوع الحب ، وهن عند أغلب الناس شىء جميل وجوهرى . والنساء لهن المقدرة على تذكير بعض الأشخاص بوجود الحب . أعنى كما أراده الله أن يكون . لكن حيث إننا كهنة ، يا فرانك ، فإن قوّة أخرى تحثنا ، ليس العارض المادى من الحب ، بل المحبة الجوهرية فى ذاتها » .

ثم تابعا سيرهما مرة أخرى . ظل فرانك ليونز صامتاً وهو يجاهد أن يحتفظ

بخطاه السريعة مع خطى ستيفن الواسعة . شعر فى جنبات صدره الضيق أن رئتيه وقلبه قد عادت إلى طبيعتها بينما استطرد ستيفن يقول :

— « قد قلت منذ لحظة ، ياميلكى ، إن الشعراء لا يستطيعون أن يفصحوا لك عما تريد معرفته عن النساء . إنك على خطإ . فالشعراء والفنانون لهم مقدرة عجيبة على تبديل الحب من مادة إلى فكرة . "الجريكو" عبّر عنه بالرسم ، ودانتى بالشعر — نعم ، والذى ألّف طلبات العذراء كان يتأجج بنار المحبة عندما نعتها بهذه الأسماء المجيدة : البيت الذهبىّ ، نجمة الصبح ، وردة سرّية . . . »

فأضاف الأبيضانى : « برج داود ، إناء مكرم للعبادة » ، وقد تبين للمرة الأولى جمال هذه النعوت .

— « إن الفنان إما أن يكون قديساً أو رائداً نحو مثل أعلى . فى "الفردوس" لم يكتمل حب دانتى لبياتريس فى معانقات مستعذبة كالتى رأيناها الليلة فى الحدائق العامة ، لكنه اكتمل فى رؤيا نور أبهر بصره . فى تلك الرؤيا ظهرت له بياتريس كورقة من الوردة الأزلية ، فأحبها وتاقت نفسه إليها طوال حياته وتنهد قائلا :

بفضل قوّة حبك انتشلْتِنى
من قيود العبودية إلى الحرّية .
فحافظى فىّ على جمالك الطاهر ،
حتى تستطيع روحى وقد تطهّرت من كل رغبة ،
أن تتخلص بفضلك من قيد جسدى » .

لم يدرِ ستيفن كيف يرجع من فردوسه إلى الأرض ، أو كيف يتوقف عن المضىّ فى أوصافه التى ربما تبدو تصنعاً منه أو مكابرة . وأدرك خطر التطرّق إلى الوعظ أو ضرب الأمثال ، لكن شبكة الصّياد التى وُضعت بين يديه عند رسامته (أو مولده) كانت قد أطبقت على فرانك ليونز ، فجذبه إليها دون عناء .

— « أليس هذا هو المثل الأعلى الذى كرسنا لأجله نفسينا ، يا فرانك ؟ فالليلة أعطيت لك الفرصة لتتذكره ، إن لم يكن للمرّة الأولى فبقوة أسمى من ذى قبل ، بواسطة الجمال الحسى والموسيقى. وما من إنسان فى مأمن من تلك الذكريات .

واعتبر نفسك محظوظاً أنك أحسست بها الليلة . لكن تذكر يا فرانك أن هذه كلها أعراض حسية للمحبة ، وليست هى المحبة الجوهرية التى هى غايتنا وموضوع درسنا » .

عند عطفة من خط الترام ، نألقت أنوار مخازن مدفورد . وطنّ رنين الأجراس .

فقال ستيفن : « إذا جرينا فسنلحق بآخر ترام إلى ميدان مولدن » .

فلحقا بالقطار المتحرك وقفزا إليه لاهثين . فارتمى فرانك ليونز على المقعد ومسح جبينه وابتسم خفيفاً إلى صديقه وقال :

— « كان سيرك السريع إسعافاً عظيماً لى » .

فأجاب ستيف ضاحكاً : « انتظر حتى تأخذ حماماً بارداً » .

عند مرورهما بدكان مورجان تناولا عصيراً مركزاً من البرتقال ثم وصلا إلى دار الكنيسة والساعة على مدفأة موناجان تعلن نصف الليل . فى أعلى السلم المتمايل ، مدّ الأبيضانى يده النحيلة إلى ستيفن قائلا :

— « أشكرك يا ستيف على مساعدتك لى فى هذا الأمر » . ولم يتخلّل صوته تصنع ألبتة .

لما انفرد ستيفن فى غرفته خلع ثيابه واستحم ثم جلس إلى النافذة ليستريح قليلا . وبدأت تأثيرات المساء تعمل فيه ما قد خفى منها . بدأ الإسعاف الروحى الذى قدّمه مساعدة منه لفرانك يتلاشى شيئاً فشيئاً . ثم شعر بألم شديد فى كل أعضائه ، وأحسّ أن دمه سينفجر من شرايينه لذكرى رؤيته كتفى أندريا فرنى الجميلة ، وسماع صوتها الخلاّب ، وتخيّله العشاق الممددين على العشب الأخضر فى الحدائق العامة ، ومقالته الفلسفية السامية عن الحب . ما زال المقطع الأول من مسرحية « الفتاة الوحيدة » يدور فى رأسه كالدوامة .

فى بعادك عنى يا حبيبتى
ما أثقل الساعات الطوال !

فى الحقيقة ، ما أصعب الساعات الوحيدة فى حياة الكاهن ! — ساعات يقضيها معظم الناس فى تعزية الحب المتبادل . ما أجمل أن يسمو الإنسان ببصره

نحو أوراق الوردة الجوهرية ! لكن هل له أن يهمل جمال الليالى الصيفية والزهور الأرضية ؟

الشمس أمست رماداً يا حبيبتى

والعطر زال من الزهور !

أى زهور ؟ أسند ستيفن ساعده إلى النافذة وسرّح بصره فى الشارع العام . فرأى تحت أضواء الأنوار الكهربية الباهرة خط الترام يمتدّ أغبر تحت عينيه . ليست هنالك زهور عطرة ، بل واجب وعمل .

مال القمر مكفهرّ الوجه فوق خزان الغاز. وعادت بستيفن ذاكرته إلى قمر صعد من بقعة أخرى من السماء وأضاء على بقعة أخرى من الأرض . كان ذلك فى حفلة رقص فى حدائق الكونت فاليرنى ، من نبلاء روما ، حيث بدت له جيسلانا امرأة الكونت قطعة من أنبل جمال . فتذكر ستيفن كتفيها العاريتين اللامعتين كالزمرد تحت شال ناعم أخضر ، وقد سار بجانبها ما يقرب من مئة خطوة فى ممرات الحديقة المزروعة جوانبها بالآس البرّى . ماذا كان حينذاك ؟ كان شماساً صغيراً يفضى بآماله وأحلامه إلى امرأة تكبره سنّاً (ربما سنتين على الأكثر) قد أنصتت إليه يقول :

« يخيل إلىّ دائماً سماعكِ

تسرّين إلىّ بكلمات حب رقيقة . . . »

حينذاك نظرت إليه ، وعرف ستيفن من عينيها أن وحدته لا تطاق .

مئة خطوة ونظرة صامتة ، لا غير ! . . أما الآن فى غرفته النسكية فكانت أشباح جيسلانا فاليرنى ، المرأة الوحيدة التى أزعجت مثل ستيفن الأعلى فى المحبة ، تتراقص مع نغمات « الفتاة الوحيدة » .

ذهب ستيفن لينام ، فأمست النغمات أحلاماً . لم تكن أحلاماً عن محادثات غرامية صافية ، بل كانت أحلاماً تتقدم فيها نحوه جيسلانا فاليرنى حافية القدمين على العشب الأخضر .

آه ! لو علمت فقط

أنه ليس إلاّ حلماً

لن يتحقق أبداً !

استيقظ ستيفن من حلمه هذا الجميل ، فى الساعة الخامسة صباحاً ، على صوت عجلات التّرام يمرّ تحت نافذته .

أقفل الربان جيتانو أورسلى قائد الطراد الإيطالى « جاريبالدى » ، باب حجرته ونثر على سريره رزمة من الجرائد وطفق يبكى يأساً وحزناً وخجلا .

كاپوريتو ! . . نكبة عند الإيسوزو .

قرأ أورسلى التفاصيل المريعة . انقض الألمان من فوق جبال الألب تحت ستار ضباب كثيف مشحون بالغازات السامة ، فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٧ على جانب الجيش الثانى الإيطالى الذى ظنه العالم منيعاً لا يقترب منه . وفى ثمان وأربعين ساعة أصبح التقهقر هزيمة منكرة . الخمس والعشرون فرقة الإيطالية من جيش القائد « كاپلو » ، ألقت بسلاحها وفرّت إلى داخل إيطاليا . جاهد الضباط الطليان فى يأس ، وهم يشهرون مسدساتهم ، ليوقفوا هذا التقهقر المريع . لكن قبلما استطاع القائد العام « كادورنا » إعادة تنظيم خطوطه ، كان الألمان قد أسروا مئتى ألف رجل ، وألفاً وثمانمئة مدفع ، وملايين من الطلقات .

كاپوريتو ! . . إنها أعظم كارثة حربية فى العصر الحديث .

عض جيتانو أورسلى شارات الذهب على كم بذلته اللندنية الناعمة واقتلع شعار رتبته . وفى جنون شرع ينتف شعر لحيته . أرسى فى مالطة وأقفل على نفسه مقصورته على ظهر الجاريبالدى القديم من طراز طرادات سنة ١٩٠٥ وهى القطعة الحربية الإيطالية الوحيدة التى وضعت تحت إمرة مجموعة من القطع الحربية البريطانية. واستبد بذلك الفلورنسى الفخور نزاع فى نفسه أليم لأن مواطنيه قد أعطوا العالم مثلا فى الجبن سوف يجعل من كاپوريتو أحدوثة البشر أجمع . أما العزاء الخبيث الذى فاه به الإنجليزى اللعين فأصعب مما يمكنه تحمله .

ــ « إنها أقدار الحرب ، أيها الزميل . . . وقد تحدث لكل فرد » .

دمىَ لسان أورسلى واصفر وجهه إذلالا وهو يحملق فى تقارير الجرائد عن الموقعة المشؤومة . كان ما قاله سابقاً عن معرفة ثابتة ، قد تحقق : سوف لا تستفيد إيطاليا شيئاً إذا ما دخلت الحرب ، لا غنيمة ولا قوّة ، حتى لا شرف الآن .

كانت الأحزاب السياسية فى إيطاليا متعدّدة ، والانقسام متفشياً فى الجيش . لم يسمح كادورنا « البناء الحرّ » لكاپياو الكاثوليكى بالاشتراك فى محادثاته السرّية لرسم الخطط الحربية . القواد يتناقضون ويتحاربون . وعمت الفوضى والتمرد فى صفوف الجيش . فى مجلس النواب الإيطالى كانت الأحزاب العديدة تدكّ أركان حكومة قد طال تعفنها .

ما أكثر الأحزاب ! ولكل حزب صحافته . حملق أورسلى فى عشرات الجرائد المفتوحة أمامه . الأحزاب اليسارية واليمينية والوسط ، كلها اتفقت فى تقدير خسارة هذه الكارثة وبشاعتها ، واختلفت فى تقديم الأسباب والعلاج . فى إحدى الجرائد صاح أحد رؤساء التحرير : « يجب جمع قوى إيطاليا المحطمة فى قبضة واحدة شديدة ، وربطها معاً فى حزمة واحدة لا تنفصم . . . »

هز أورسلى رأسه موافقاً : « إنه العلاج الوحيد » . كان اسم الجريدة « الشعب » واسم رئيس التحرير « بنيتو موسولينى » .

* * *

تحت الفوانيس الشرقية فى « مرقص أرض الأحلام » كانت منى فرەويل تدور مع بانى رامپل فى حابة واسعة تلمع أرضها كالجنة . على المرايا الممدودة على ثلاثة من جدران القاعة ، كان من السهل على منى أن تنظر إليها نظرات خاطفة لترى نفسها سابحة على ذراع بانى على نغمات موسيقى سماوية تعزفها فرقة « ماك هاليت » . ولما تقدّم ماك نفسه إلى حابة الرقص تحت الأنوار البرتقالية الخافتة ورفع آلته السكسيّة مبتدئاً لحن « أوهايو الجميل » ، نسيت منى كل ما حولها والتصقت ببانى وحده . وأسرّت إليه :

— « آه ! لو أمكن أن يستمرّ هذا دائماً ! » .

— « يا حبيبتى ، إنه ممكن ، وسيكون دائماً » .

— « لكنك ستذهب للتجنيد » .

— « ليس قبل الصيف المقبل . إن أطباء الأسنان معفون حتى يتمّوا دورتهم. لعل الحرب تنتهى آنذاك — وقرّب شفتيه من أذنها — يا حبيبتى إنى متيّم بك » .

— « وأنا أيضاً » .

— « لنتزوج إذن قبل ذهابى » .

— « ما أحلاك ! هذه رغبتي وما أشدّها ! »
ثم سكتت موسيقى ماك هاليت واختفى معها الحلم الجميل وجاء وقت التفكير .
— « وماذا أقول لأسرتي ؟ » .
— « قولي لهم أي شيء . قولي إن موثقاً مدنياً زوّجك برجل يهوديّ . وإذا كان ذلك صعباً ، فلا تقولي لهم شيئاً ألبتة . تزوجيني فقط » .

فقوبلت رغبته هذه التي تتوق إليها نفسه بتحرّق ، بخطة نسائية معروفة : المماطلة : « اصبر قليلا يا باني . . وقتاً يسيراً فقط حتى أجد مخرجاً . . . »

ثم عادت سكسية ماك هاليت إلى إثارة الرقص من جديد . ومرّة أخرى نسيت مني فرمويل كل ما حولها وتمايلت مع باني رامپل في حلبة الرقص التي تلمع أرضها كالجنة . لم يقرّرا شيئاً . إنما كل شيء كان على ما يرام ، كل مرة هي ورامپل استطاعا أن يلقيا نظرات خاطفة ليريا نفسيهما سابحين معاً في المرايا الحمر الألوان في « أرض الأحلام » .

* * *

قُربَ عيد الميلاد ، ففكّر كورني ديجان في هدية يقدمها إلى الأب ستيفن فرمويل تناسب أعمال كاهن يعيش في المنطقة الشمالية المعتدلة . فأهدى إليه زوجاً من أحذية المطاط للسير على الجليد والثلج . فاحتذاها ستيفن في شتاء ١٩١٧ — ١٩١٨ وخرج ليقوم دون كلل بزياراته الرعائية : إلى المرضى وملازمي البيت أحضر القربان المقدس في حُقّه الذهبي ؛ وفي كثير من الليالي الثلجية ، حَمَل علبة الزيت المقدس سائراً بين الأزقة الخربة ليدهن أعين وشفاه وأعضاء المشرفين على الموت .

كانت أغلب هذه الأعمال اعتيادية . غير أنه من وقت إلى آخر واجه ستيفن بعض المآسي . في صباح باكر من يناير ، تسلق سلماً متحركاً ليسمع اعتراف رجل المطافئ « مايازهارني » الذي كان محشوراً تحت كتلة ضخمة في حادث حريق « المستودع التجاري » . وفيما كان الرجال يُعمِلون بلطاتهم بنشاط في الأخشاب ليخلصوا زميلهم مايلز ، استلقى ستيفن على أرض الحجرة وألصق أذنه بشفتي الرجل التعس ليحفظ للاعتراف سِرّيته التامة ويسمح للمنكوب تلاوة فعل الندامة في طمأنينة .

تنهد مايلز قائلا : « الأجدر بك أن تبتعد من هنا ، يا أبي ، إن الجدران

ستسقط فى أىّ لحظة . نزل ستيفن ، وبعد ثلاث دقائق تقوّضت جدران المستودع .

قُرْبَ أربعاء الرماد ، وقد وقع باكراً تلك السنة ، بليت أحذية ستيفن . وفى هذا الوقت على التقريب فرغ ستيفن من ترجمة سلم المحبة .

لم يفكر مرّة فى أثناء عمله أن ينشر ترجمته لمقالات كاربجى . كان عمله تحدّياً وفى الوقت نفسه لذّة . أما الآن وقد تراكمت على مكتبه مئتا صفحة ، فنمت عنده رغبة طبيعية لإيجاد قراء لكتابه . اختبر وقع هذه الفكرة على ليونز الأبيضانى الذى امتقع لونه من جرأة صديقه . فشهق قائلا :

— « ستنشر كتاباً . ولماذا ؟ . . . لماذا ، يا ستيڤ ؟ . . إن الكهنة المساعدين لا يجوز لهم ذلك » .

— « أتعنى أنه يوجد أمر بابوى يمنع ذلك ؟ » .

استصعب الأبيضانى فكرة طبع أىّ كتاب ، فقال : « كلاّ ، لكن ماذا يقول موناجان ؟ » .

— « لا شك أنى سأستأذنه . فإن قال لا ، فلا . على كل حال فأنا لم أؤلّف الكتاب ، يا ميلكى . إنها ترجمة فقط » .

لم يجد الأبيضانى سوى هذه النصيحة الخجول ولكنها ملائمة : « الأجدر بك أن تختار الوقت المناسب لعرضه عليه » .

ليلة ، بعد عشاءٍ شهىّ من حساء الشعير ولحم مشوى وضع ستيفن مخطوطه أمام رئيسه . لم يكن موناجان قد رأى من قبل كتاباً مخطوطاً . فسأل مستفهماً ومشيراً إليه كأنه عينة من المشروبات الكحولية : « ما هذا ؟ » .

شرح له ستيفن فحوى كتاب كاربجى باختصار . فأشعل دولاربل واحداً من سيجار الهاڤانا الخصوصى وشرع يفحص الصفحة الأولى .

— « ها . . . سلم المحبة . . . وما معنى ذلك فى اللغة الإنجليزية الصحيحة ؟ » .

— « تعرف يا أبى أن الملائكة مرتبون على درجات فى السماء . . الكروبين والسرافين هم الأقرب إلى عرش الله ، وبعدهم الآخرون فى الدرجات السفلى » .

— « نعم ، نعم » .

ولكى يعبّر عن سعادته فى خبرته بهذه الأمور ، نفض موناجان رماد سيجاره

بأناقة وبطء . وأضاف قائلا : « إنهم لا يكفون عن الترتيل قائلين : أوصنا في الأعالى » .

— « هذا هو بعينه . أما الكاتب فيستنتج من هذا بالطبع ، أنه يوجد على الأرض أيضاً درجات مماثلة فى الحياة الروحية . وفى تعبير مختصر ، كل واحد منا يرتّل فى فرقة مختلفة » .

حدد موناجان نظره إلى ستيفن قائلا : « هل شك أحد فى ذلك قط ؟ » .

— «كلا ، لا أظن أحداً قد شك فيه » .

« وكل منا يحاول ترتيل أوصنا فى الأعالى على طريقته . أليس كذلك ؟ ».

— « نعم . . . »

فقال موناجان وهو يتصفح المخطوط :

— « إذن فما فائدة كل هذا الهراء ؟ » .

هدأت حماسة ستيفن ، وحاول تقديم اقتراح : « ألا تتفضل بقراءته وتتعرف على ما فيه ؟ » .

— « حاشا . يكفينى كلامك ثقة. لكنك أتيت هنا لتسأل شيئًا أيها الأب» .

— « أرغب فى استئذانك بإرسال المخطوط إلى مراقب الأبرشية . فإذا وافق عليه فسأرسله إلى الكردينال للموافقه على الطبع » .

قدّر موناجان الأمر من الناحية التى تهمه فقط : « هل هذا . . آه . . هذا الشيء المنسوخ . . .سيورط الرعية مع رقم . . أعنى مع نيافة الكردينال ؟ » .

— « لا أعتقد . بل قد يستطيع الكردينال اعتباره مدحاً لطيفاً لروما » .

— « ربما . ثم . . . لكنى لا أجازف بقراءة أفكار الكردينال — ونظر إلى ستيفن بحنان — ثم إن ذلك مغامرة، يا ستيف . فالكردينال صعب الانقياد جداً فإذا أردت أن تخاطر بنفسك ، وإذا أكدّت لى أن هذا الكتاب لا يحوى أموراً مهينة للدين والآداب ، نعم ، عندئذ أعتقد أنه يمكنك الاعتماد على إذنى بإرسال مخطوطك إلى مراقب الأبرشية » .

— « أشكرك يا أبى » .

فى الليلة نفسها أرسل ستيفن مخطوطه بالبريد ، مع نسخة من كتاب سلم

المحبة وقد ملأ جوانبه وحواشيه بالشروحات ، إلى المنسنيور « لينوس سولى » مراقب الكتب فى أبرشية بوسطن . كان ذلك فى العشرين من أبريل سنة ١٩١٨ ، بعد ثلاث سنوات تقريباً على تعيينه فى رعية القديسة مرجريتا .

* * *

أحدثت هذه السنوات الثلاث تغيراً كبيراً فى أسرة فرمويل ، فزادت عمقاً العلامة فى جبين دن وهى الخط الأحمر الذى تركته قبعته فى أثناء عمله ، وانخفضت كتفاه العريضتان وتقوستا . ومنذ عمليته الجراحية خف الألم فى ساقه ، لكنها ما زالت تؤلمه ، وكان يجرها عند رجوعه إلى البيت . واختفت من سيليا خفة حركتها بسبب عنايتها بهيلانة ، إذ كانت تصعد وتنزل الدرج عشرين مرّة فى اليوم ، وتهيّئ طعاماً خاصًّا لهيلانة . وكانت الأطباق التى تأكل فيها وملابسها تحفظ على انفراد لحماية باقى أعضاء الأسرة من العدوى . كل هذا ضاعف عمل سيليا أمام الموقد وأحواض الغسيل ، فمال لون يديها إلى زرقة قاتمة . وبدلت أسنانها العليا بطاقم جديد اضطرت إلى وضعه طوال اليوم لتعتاده ، فسبب لها ذلك انخفاضاً فى شفتها العليا ، وفى سنّ الثالثة والخمسين كان جمالها الذى لم يزل رائعاً وهى بعد فى سنّ الأربعين قد اضمحل تماماً . ولما كانت سيليا فرمويل امرأة لم تنظر قط إلى مرآة فى حياتها ، فقد تكوّن عندها شعور زائف بأن راحة الليل إذا حظيت بها لن تعوّضها أبداً هذا التغيير الذى طرأ عليها .

ومع أن چورچ قد ذهب إلى الحرب . فالبيت ما زال مزدحماً بساكنيه : برجوع هيلانة من الدير ، وزواج فلورى من «آل ماك مانوس » لأن فلورى قد صممت على إحضار زوجها معها إلى البيت لم يبق مكان فى الدور الثانى . وبرنى المتعطل باستمرار احتل المخدع العلوىّ . وصفت سيليا حالة برنى تلك بأنها « ترتيب موقت إلى أن يجد عملا ثابتاً » . لكن هذا الترتيب الموقت تطوّر إلى حالة مزمنة لم يجتهد برنى فى تغييرها . كان ينام حتى الحادية عشرة صباحاً ، ثم يستيقظ ليتناول إفطاره الشهىّ الذى تهيئه له سيليا ، ويقترض منها نصف دولار ثم يختفى حتى ميعاد الغداء . وفى تمام الساعة السادسة مساءً يعود وهو يصفر على عتبة الباب ، ويقبل والدته ، ويجلس إلى البيانو ، ويشرع يغنى طلباً ، فى الحقيقة ، لعشائه .

كان فى إمكان هذه الخلية العائلية الهادئة ، وإن ازدحمت بساكنيها من فعَلَة

ويعاسبب وملكة مريضة في الدور العلويّ ، أن تكون بيتاً سعيداً جداً ، اللهم لولا الغيظ المتأجج في صدر فلورنس فرمويل . لم يهدئ سورتها زواجها من آل مالك مانوس . كان من الضروري لترويض فلوري إيجاد مخيلة وأعصاب وسوط في يد رجل مثل « پتروشيو » . ولو فُرض أن آل كان حائزاً كل هذه الصفات لما تزوجته فلوري مع ذلك . كان آل ينتمي إلى تلك الطبقة من السمك السقط الذي تزدريه أغلب النساء وترمي به ثانية إلى البحر . أما خلقه فكان طيباً فاتراً ، والاهتمام الذي يبديه في لعب البيسبول والكرات والقوائم الخشبية ضئيل جداً . فكانت فلوري تشمئز من مجرّد النظر إليه .

إذا قلنا إن آل كان يثيرها ، فمني كانت تغضبها إلى حدّ الجنون . تطوّر النزاع بين الأختين إلى حقد عميق . ولعلّ قوام مني النحيف ولون بشرتها الأبيض هو الذي نبه فلوري إلى البقع القاتمة في بشرتها وغلاظة ساقيها . أما رفض مني المساعدة في أعمال المطبخ وعادتها البغيضة في إهمال سريرها دون ترتيب مع أنها تجد وقتاً لتزيّن نفسها بالمساحيق ، كل ذلك كان يسبب لفلوري انزعاجاً وتحرّقاً شديدين . غير أن أعمق خلاف بينهما هو أن مني — مع كل المناقشات العائلية التي سببتها — كانت لا تزال تتجوّل ليلا مع باني راپل : شاب غير كاثوليكي ويهودي وابن حاخام .

أتى ستيفن مرة للعشاء يوم جمعة من أبريل وشعر باضطراب الموقف في البيت . وإذ جلس إلى المائدة ظهر له كل واحد منهمكاً في طبقه وأفكاره . ما أبعد الفرق عشية حضوره منذ ثلاث سنوات وهذا المساء ! حينذاك كان كل شيء أملاً ولم تكف أسرة فرمويل عن التقدّم صعداً .

أما الآن فالأمل زال : قوبي دن تهبط ، وسيليا ترهق نفسها بالعمل ، وهيلانة لا تزال مريضة في غرفتها ، وبرني دائم التعطل وعالة عليهم ، وفلوري شرسة الأخلاق ومني ؟ . . . تطلع ستيفن إلى وجه أخته ، فرآه رقيقاً كالقطيفة لامعاً ، لكن لا تعبير فيه . فما أمر مني إذن ؟ ... إنها — كما لاحظ ستيفن مراراً — كانت شاردة الفكر ، منفردة في عناد ، ولا تنقاد لكلام أو ملاطفة . وضعت على عينيها السوداوين قناعاً — ليس كالقناع الذي تلبسه الفتيات في حفلات التنكّر — لكنه قناع من العداء المستميت ، نجح ستيفن أحياناً في إرغامها على خلعه . كان الحديث عن الرقص يستميلها . أليست هي ابنة سيليا ؟ . . .

ذات مرة أحضر لها ستيفن أسطوانة موسيقية راقصة من « آيرين كاسل » فأدارتها ودارت حولها والضحك يتطاير منها . ثم تنهدت وأفضت بسرّها إلى ستيفن : « هذا فى الحقيقة ما أريده فى حياتى : راقصة باليه ، لا عاملة اختزال فى مكتب سمكرى » . ثم سحبت ستيفن وراء الستائر التى تفصل غرفة الجلوس عن البهو وقالت : « ما من أحد يعرف أننى وبانى قد ربحنا مباراة فى الرقص منذ أسبوعين تقريباً » .

– « وما نوع هذه المباراة ؟ » .

– « إنها مباراة لهواة الرقص ، فى " أرض الأحلام " . فى مقدور بانى أن يصبح راقصاً فنيًّا لولا اضطراره إلى الدرس المتواصل فى شؤون الأسنان وغير ذلك » .

عاد البحث الشائك فى قصة بانى مرة أخرى . ترقب ستيفن أن تستمرّ منى فى حديثها عنه ، وأوشك أن يسألها مساعدتها إياه على مقابلة بانى أحياناً ، وإذا بفلورى قد دخلت فى هذه اللحظة ، وإذا بالقناع قد أسدل مرة أخرى على عينى منى وحجبهما تماماً .

حاول ستيفن إثارة اهتمام منى بسرده بعض القصص والنكات على المائدة ، لكنه أخفق . وبدت سيليا منهكة القوى بسبب عنايتها بهيلانة ، وظل دن صامتاً وهو يقدّم فنجان الشاى إلى فلورى لتسكب فيه « قليلا من الشاى أيضاً » . وكانت فلورى ، وهى تمسح قطرات الشاى على شاربه الأغبر ، لا تنفك تؤنبه قائلة : « انتبه ، يابا . . » أما آل ماك مانوس فكان يأكل البطاطس وسمك القدّ بكلتا يديه وذقنه فى طبقه . فأشارت إليه فلورى برفع رأسه قليلا ، فأطاع . ولما نهضت منى عن المائدة ، انفجرت الصاعقة .

– « إلى أين » ؟ سألت فلورى فى تحدٍّ .

– « هس ــس – نبهتها سيليا – يجب ألا تسمعكما هيلانة تتشاجران » .

– « لا يهمنى من يسمعنى – ورفعت فلورى شوكتها وهمت بالهجوم وراء منى – يجب عليها أن تساعد فى غسل الصحون هذه الليلة على الأقل » .

فاستدارت منى كالقطة ، وبرزت أسنانها ، وصاحت بأعلى صوتها : « أنت

وجنونك . قد زهقت منك ومن الجميع ومن كل فرد فى هذا البيت » .

فسددت إليها فاورى كلمة لاذعة متعمدة : « ربما تفضّلين الذهاب للرقص مع عشيقك الفتان » .

فعل هذا التهكمّ بمنى فعل الجنون . كان على منضدة صغيره بالقرب منها تمثال من جبس للعائلة المقدسة ، فالتقطته ، واستعانت برأس القديس يوسف كمركز ثقل ، وقذفت أختها الكبرى به . فصدم التمثال طبق السمك ، إذ لم تميز منى هدفها فى حنقها ، وتطايرت على المائدة قطع الصينى مع الجبس والسمك .

وطارت قطعة من التمثال وضربت جبهة دن ، فجرحته فى موضع الخط الأحمر ، علامة دعوته ، فسالت منه نقطة حمراء . فمكث برهة لا يعى ثم رفع يده الضخمة فى حنق بالغ ليضرب فاورى ، سبب هذه المشاجرة . لو استقرت ضربته على عنقها لقصمته ، لكن الضربة لم تسقط عليها .

تملك دن أعصابه وأنزل قبضته وقال فى صوت خافت وقد رأى فى خوف روح الشرّ يتسلل من الباب : « يا يسوع ومريم ومار يوسف ، اغفروا لنا » .

وإذ رأت فلورى أنها نجحت فى التخلص من غضب أبيها ، حاولت إثارته من جديد ، فصاحت بأعلى صوتها : « لننته مرة واحدة من هذه المسرحية . إما أن تكفّ هذه العصفورة اللعوب عن مرافقة هذا اليهودى ، وإما أن أغادر البيت مع نقودى وأثاثى » .

أوشك ستيفن أن يقول لها : « مع السلامة ! » لكن كلماته اللاذعة قوطعت بصوت قريب جدًّا غير أنه بعيد، ومعروف لديهم إلا أنه غريب جدًّا ، صوت يصدر من وراء الستائر الخضراء ، وكان شبيهاً بترنيمة معوّذ تتخللها الكآبة :

« السلام عليك أيتها الملكة ، أم الرحمة ، يا حياتنا وحلاوتنا ورجاءنا . . »

انساب شبح هيلانه فرمويل من بين الستائر الخضراء ، عارية القدمين ، ولا تلبس إلا قميصاً للنوم من قطن أغبر ، ويداها مشتبكتان ، كعروس تحمل باقة من الورد ، وجبينها أصفر كالشمع من طول المرض . أهى مستيقظة أم نائمة ؟

تساءل ستيفن دون التوصّل إلى الحقيقة . فقد كانت عيناها مفتوحتين وبدت كأنها تبحث عن شيء .

— فسألتها سيليا بحنان كما تفعل الأم مع ولدها المريض. «عم تبحثين ياعزيزتى؟» .

فتسمت هيلانة والدهش على محيّاها : « أين ذهب التمثال ؟ »

— « أىّ تمثال يا حبيبتى ؟ ».

— « ألا تذكرين يا أماه ؟ تمثال العائلة المقدسة الذى كان يوضع دائماً على هذه المنضدة . هل أخذه أحد ؟ » .

سكت الجميع وتسمرت منى فى مكانها ترتعد خوفاً ، وغطت فلورى وجهها بيديها ، وسرى الدم أحمر قانياً من جبهة دن .

فى لحظة أسرعت سيليا إلى جانب هيلانة تحثّها بلطف : « عودى إلى فراشك ياعزيزتى . سنجد التمثال » .

غابت التعويذة من صوت هيلانة وأصبحت حقيقة ابنة فرمويل : « دعينى أمكث هنا برهة وجيزة يا أماه . أشعر بالوحدة تغمرنى فى غرفتى حينما أسمعكم تتحدثون وتضحكون حول المائدة . كم من مرة فى الدير تذكرت سعادتنا معاً ، أكثر من كل ذكرياتى الأخرى فى البيت . والليلة يا أماه أريد أن أرى وجوه إخوتى وأخواتى مرة أخرى » ...

دعتهم كلاً باسمه مبينة خصالهم الحميدة : 

« فلورى ، إنك تعملين بكدّ وتتحملين مسؤوليات كبيرة . فكونى صبورة بنا — منى ، إنك جميلة وتحبين اللهو ، لكن يجب على الجمال أن يكون كريماً — برنى ، إنك ذو خلق طيب وتحب الغناء . فابق على ما أنت — وأنت يا ستيفن ، واستدارت نحو أخيها الكاهن ، إنك صياد النفوس وأحد القلائل المقرّبين إلى الله — آه ! كم من مديح يجب أن يتصاعد من هذا البيت ! » .

ثم تملكها الدهش ثانية وقالت : « ربما نجد التمثال لو بحثنا جميعاً عنه » . واقتربت من المائدة لتبدأ البحث من جديد ، وأشارت إلى قطعة صغيرة من الجبس الأزرق ملتاة فى طبق السمك : « انظرى ، هذه قطعة من التمثال ، إنها جزء من ثوب العذراء » . وامتدت يد هيلانة إلى شفتيها لتخفى صدمتها بالحقيقة : « آه ! ».

اختفى بريق الحلم رويداً من عينيها وهى تدور حول المائدة جامعة القطع الزرقاء والبيضاء والذهبية المتبقية من الحطام المنتشر أمامهم .

صلّى ستيفن حتى لا ترى هيلانة الدم على حاجب دن . لكن صلاته لم تستجب .

أفاقت هيلانة الآن ورأت على وجه أبيها البقعة . وعلى مثال القديسة ڤيرونيكا أخذت منشفة على المائدة ومسحت جبهة أبيها بحنان فائق كالأمهات ، وكأنها تقول : « كن على يقين يا أبى العزيز ، أن هذا الدم لم يرق سدى » . ودفنت هيلانة شفتيها فى شعر أبيها الفضىّ . لم يستطع ستيفن سماع ما كانت تقوله لأبيها ، لأن دن كان يضمها بشدة إلى صدره .

وقال دن : « سأحملك بنفسى إلى غرفتك » . ورفعها بين يديه القويتين ، فعلت وجهها ابتسامة سماوية . لم تكن هيلانة فى هذه اللحظة العروس التى رذلها الخطيب الإلهى ، بل كانت ابنة دونيس فرمويل المحبوبة إليه جداً .

* * *

جمعت فلورى ما تبقى من الكسر على المائدة وجلس برنى إلى البيانو . وعلى مثال الأسر الفاضلة ، حاول الفرمويل أن ينسوا آثار المشاجرة التى أزعجت مساءهم . كانت هيلانة بمشيها فى أثناء نومها قد قتلت سم النزاع بين أعضاء الأسرة الواحدة . لكن ستيفن كان يعرف أن النزاع سيثار ثانية وينفجر من جديد بين فلورى ومنى ، إلا إذا اقتلعت جزور الشرّ من أساسها .

كانت سيليا تعرف ذلك أيضاً ، وهى جالسة على كرسىّ منخفض بالقرب من ابنها الكاهن . فربتت على ركبته بيدها المزرقّة النحيلة وقالت : « ستيفن ، أتريد أن تعمل لأمك عملا طيباً هذه الليلة ؟ » .

عرف ستيفن مرادها فقال : « سأعمل أى شىء تطلبينه يا أماه » .

— « اذهب إلى منى وحثها على ترك صديقها . أقنعها ، يا ستيفن ، وهى متألمة للانزعاج الذى سبّبته لنا . تحدث إلى قلبها ، يا بنىّ ، تحدّث إليها ككاهن وأخ . استخلص منها وعداً من أجلى ومن أجلها » .

خشى ستيفن المهمة التى تعرضها عليه أمه ، فهو يميل بعاطفته نحو منى ،

التى وإن أتت عملا لا يغتفر بقذفها التمثال ، فقد كانت فلورى هى التى أثارتها . وهو أيضاً يكره التدخل فى مشاعر الغير أو التكلم فى أمورهم الخاصة . أما مع سيليا فلا مفرّ وقد وضعت يدها على ركبته . فصعد الدرج وقلبه مثقل ودق باب غرفة منى .

— « عزيزتى منى . أنا ستيف » . وفى الظلام اصطدمت يده بجبهتها . وأحسّ من نفور أعصابها أن قناع عصيانها القاتم لم يزل مسدلا عليها ، وأن أسنانها الصغيرة الحادة تتحدّاه . كيف يصل إليها ، أبالعقل أم بالمحبة ؟

لا مكان للعقل هنا . فإلى المحبة إذن . والدموع أحياناً تساند الحب.لكن هل الدموع فى متناول الإرادة ؟ . . آه ، لو استطاع البكاء . .

— « حبيبتى منى — وقرب شفتيه من أذنها وهو يجاهد فى الوصول إلى قلبها فى الظلام — ضعى يديك حول عنقى يا منى » .

لم يصدر من جسمها المتجسّد حركة أو تجاوب .

— « تذكرى كيف كنت تحوطيننى بيديك عندما كنت آخذك معى على دراجتى وننحدر على هضبةالهلال . قبل أن نبدأ كنت أعلمك كيف تحوطيننى بيديك ، وكنت أقول لك : لا تخشى أى شىء ، فقط تعلقى بى . وكنت تقولين : سأتعلق بك يا ستيف » . وقلدها ستيفن فى حركاتها .

ثم رفع يديها الصلبتين ووضعهما حول عنقه ، دون تجاوب منها : « تعلقى بى مرة أخرى يا منى . وثقى بى أيضاً هذه المرة » .

وانتظر قليلا حتى التفت يداها حول عنقه كأنها تعنى القول : « سأثق بك دائماً يا ستيفن » .

فلما رأى أنها قد نعمت بين يديه ، قال لها : « أتعلمين يا منى أنك كنت الليلة فتاة شقية ؟ » .

— « فلورى هى السبب . قد استفزتنى . لو تركت البيت ، فلن يكون نزاع فى شأننا » .

— « لا يعدّ هذا ردّاً ، يا منى » .

لم يستطع ستيفن أن يصرّح بقوله : « يجب عليك أن تقطعى علاقتك ببانى

رامپل » . لكنه أضاف سائلا : « لماذا لا تساعدينني على مقابلة هذا الشاب . ربما رضى بأن يصبح كاثوليكياً . فحينئذ تستطيعان كلاكما أن تتزوجا » .

— « إنه لن يغيّر موقفه ، يا ستيڤ » .

— « ولم لا ؟ » .

— « لأن أباه حاخام . وذلك سيقتله ، أعنى إذا أصبح ابنه كاثوليكياً . أعتقد أن لهم أيضاً عزّة فى نفوسهم » .

لم يعد الآن مهرب فسألها : « هل فكّرت فى قطع علاقتك ببانى ؟ » .

— « أقطع علاقتى ؟ ولماذا يا ستيڤ؟ إنا نحب بعضنا بعضاً . كيف يمكنك قطع علاقتك بمن تحب ؟ » .

تذكّر ستيفن حديثاً آخر غير هذا . ليلته الأولى فى كرسىّ الاعتراف . الفتاة العنيدة ذات رائحة القرنفل فى شعرها التى كان قد قال لها : « يجب قطع علاقتك بذلك البروتستانتى » . والتى أجابته: « لا أستطيع . إنىّ أحبه حبّاً شديداً ».

بسبب تشدّده اللاهوتىّ ، كان قد حمل الفتاة على مغادرته دون أخذها الغفران . آه ، ما أتفه علم اللاهوت أمام تيارات القلب ! آه ، القلب ! كانت سيليا قد نصحته قائلة : « تحدّث إلى قلبها » . فعليه الآن إذن محاولة اقتناص هذه العصفورة .

— « لكن إذا كان حبك لهذا الشاب يؤول إلى نزاع عائلىّ . . فما القول فى جرحك شعور أبيك وأمك؟ ألا تريْنَ يا منى ، أنك لا تستطيعين الاستمرار فى إيذاء الآخرين وتعذيبهم » .

وكعصفورة فى الحبال ، حاولت منى التخلص من يدى أخيها . لكنها كانت مقيدة فى شبكة من المحبة والقوّة لم تقوَ على الإفلات منها . فقالت وهى تبكى : لا أستطيع هجره . ولو فعلت فسأموت » .

شعر ستيفن بضعف دفاعها ورثى لحال هذه الطفلة النحيلة . لكن صوت سيليا فرمويل رن فى أذنه : « إن كنت تحبنى وتحبها فحاول أن تستخلص منها وعداً بهجره » .

— « قولى إنك سوف تهجرينه . عِدِينى ، يا منى » .

فى شهقة من البكاء قطعت منى على قلبها وعداً .

نزل ستيفن وكانت سيليا فى انتظاره عند أسفل الدرج . فقال لها : « لقد وعدت ، يا أماه » .

— « فليبارك الله لهذا العمل ، يا بنى » .

لكن ، بينما كان ستيفن منحدراً تلك الليلة فى شارع مرج الغاب شك فى أن بركة الله أو أى خير آخر سوف ينبعث من الجرح الأليم الذى فتحه فى قلب أخته .

* * *

لم يمض أسبوعان على إرسال « سلم المحبة » بالبريد ، حتى أخطر ستيفن بوجوب المثول أمام الكردينال .

أتاه الإخطار فى ثلاثة أسطر مقتضبة :

« مطلوب منك ، لدى تسلّمك هذه الرسالة ، أن تحضر إلى دار الكردينال ، فى أمر يتعلق بمخطوط مرسل إلى هذا المكتب » .

المخلص

المنسنيور داود أوبراين

أمين سرّ الكردينال

زمجر موناجان عندما أطلعه ستيفن على الرسالة ، وقال : « لو سألنى أحد فجأة عن رأيى فى لهجة هذه الرسالة لقلت إنها غير مشجعة مطلقاً » .

على مثال پيلاطس وهو يبرّئ نفسه ، نفض موناجان بعض الغبار عن ثوبه الأسود وأعاد الرسالة إلى ستيفن قائلا : « الأوفق أن تسرع إلى هناك » .

— « ومتى أذهب ؟ » .

— « حالا بعد الظهر . فقد بلغنى أن الكردينال تسودّ أفكاره كلما مال النهار إلى المغيب » .

لما دخل ستيفن حجرة الجلوس فى دار الكردينال كانت الساعة الفلامانية (البلچيكية) تعلن الثانية فى رنات خافتة . الحجرة ضيقة وذات سقف عال . حول الجدران المغشاة بخشب الجوز الأسود ، رصّت بعض المقاعد المبطنة ذوات

الظهور العالية العريضة ، لا مساند لها ، قد رتبت على مسافات متباعدة يبدو بينها الحديثُ مستحيلا .

اختار ستيفن طرف مقعد منفرد وتأمّل فى وجوه الحاضرين : راهب متسوّل ، محتذ بصندل ، لا يرفع طرفه عن قبعته — وكاهن بدين ، يستفاد من ثقل سنيه وجسمه أنه راعى كنيسة ، لم يكفّ عن فتح وإقفال غطاء ساعته الذهبيّة فى عصبيّة ظاهرة ، كلما مرّ بالحجرة واحد من أتباع الكردينال ، كأنما هذه الحركة تزيده ثباتًا وشجاعة — وفى زاوية من الحجرة جلس اثنان أو ثلاثة آخرون . سرى عند ستيفن شعور بأن كل شخص من الحاضرين كان منقبضًا على مقعده ينتظر فى رهبة حكمًا سريعًا سوف ينقض عليه من لحظة إلى أخرى .

فتح بابَ غرفة الكردينال منسنيور ذو ربطة أرجوانية فى عنقه وأشار إلى الكاهن البدين .

— « نيافته ينتظرك الآن ، أيها الأب بويلان » .

أقفل الأب بويلان غطاء ساعته بشدّة كمن يشجع نفسه وتسلل إلى مكتب حضرته . لما خرج بعد خمس دقائق كان يمسح عينيه بمنديله .

— « الأخ أمبروسيوس . . . تفضل من هنا » .

وقف الراهب ودخل . وبعد سبعين ثانية عاد مسرعًا وعلى وجهه علامات الاضطراب كمن لُدغَ بكلمة « لا » حادة مقتضبة ردًّا على سؤله .

بحق السماء ، ماذا يفعل بهم ؟ فكّر ستيفن فى دهشة ، وقام عن مقعده وسرّح طرفه من النافذة القريبة منه ، وإذا به يسمع اسمه يرن فى أذنه بنبرة واضحة .

— « ستيفن فرمويل — جاءه الصوت — ما أطول السنوات » .

عرف ستيفن ذلك الصوت . إنه لرفيقه فى الدراسة « دكْ كلاراهان » الذى كانوا يدعونه « ديكى اللوزى » فى معهد الصليب المقدس ، والآن أصبح الأب رتشارد كلاراهان ذا الشهرة الرائعة فى الخطابة وواحداً فى حاشية قصر الكردينال .

— « هالو دك » . ومدّ له ستيفن يده . لم يستنكف من مجاملة رفيق له قديم ، وإن كانا لم يستسيغا بعضهما بعضًا فى الكلية ، وقال : « إنها فرصة سعيدة أن أرى وجهًا قديمًا من معهد الصليب المقدس هنا فى الإدارة العليا — وابتسم ستيفن —

آه : كدت أنسى . إنك موظف ههنا » .

ظهرت على جبين دك كلاراهان الجسيل حقًّا ثلاثة خطوط : اثنان منها أبديا تأسفه والثالث طغى على الاثنين فى إظهار اعتداده بنفسه .

— « نوعاً ما ، نعم . إنى أقوم بالوعظ فى الكاتدرائية فى أثناء القداس الكبير كل أسبوعين . ويظهر أن الحضور مسرور بذلك » .

— « وهكذا بلغنى . وقالوا لى أيضاً إنك تجذب سامعيك إلى حافة المطهر ، ثم تهوى بهم إلى جحيم النار الآكلة » .

— « مغالاة فقط . مع ذلك أودّ لو سمعتنى أحياناً ، فقد أسرّ بملحوظاتك . أين تكون يوم الأحد القادم الساعة الحادية عشرة صباحاً ؟ » .

— « خادماً القداس فى كنيسة القديسة مرجريتا ، على ما أعتقد » .

— « كنيسة القديسة مرجريتا ؟ التى فى مولدن ؟ أليس كذلك ؟ » وتظاهر دك كلاراهان باستغراب هذا الاسم وظن مولدن قريبة من التيبت . ثم بدأت الذكريات والمقارنات تتعارض على جبهته الرخامية الناصعة : « قل لى ، ألا تكون الرجل الذى أرسل تلك . . . آه ، الترجمة الإيطالية للحصول على إذن بالطبع ؟... أهو أنت ؟ » .

— « إنى هو » .

فأرسل كلاراهان صفيراً طويلا خافتاً وأشار برأسه نحو حجرة الكردنيال : « قال لى المنسنيور أوبراين إن نيافته قد توتّرت أعصابه منذ وقعت عيناه على مخطوطك . ما موضوع ذلك ، يا ستيف ؟ لا تقل لى إنك تميل إلى الصوفيّة الروحانية » .

— « نوعاً ما ، نعم . فإنى لا أستطيع الهروب من تأثير حياة بعض القديسين الذين اصطفاهم الله مثل أوغوسطينوس وبرنردوس وبوناڤنتورا » .

فقال كلاراهان : « إن رقم واحد قد لا يسرّ بذلك » .

وإذا بأمين السرّ المنسنيور أوبراين يعلن : « إنّ نيافته فى انتظارك الآن ، أيها الأب فرمويل » .

فتمتم دك : « السلام لك ! » .

فأجابه ستيفن : « إن الذين يساقون إلى الموت ، يحيّونك يا قيصرا . . استمرّ فى إذكاء نار جحيمك ، يادكى » .

تبع ستيفن أمين سرّ الكردينال ودخل باباً مخروطاً من خشب السنديان ذا أكر حديدية منقوشة وصعد درجاً حجرياً لولبياً ودخل غرفة سداسية الزوايا معروفة باسم حجرة البرج ، تسودها رهبة عسكرية كنسية . نوافذها مزخرفة الألوان ، وسقفها مقوقع وجدرانها مغطاة بستائر قاتمة . فبدت حقيقة كما أرادها الكردينال لورنس جلينون أن تبدو : محكمة قضاء لرئيس « فرسان المعابد » فى عهد الصليبيين. كان للكردينال جلينون حُجَر أخر تناسب أمزجته المتنوّعة لكنه عندما ينوى إرهاب أو صعق رجل ، كان يختار حجرة البرج .

مشى ستيفن على أرض حجرة لابسط عليها ، وتقدّم نحو مائدة الطعام حيث جلس الكردينال لورنس جلينون ، رئيس أساقفة بوسطن ، يغذّى حنقاً مستمراً .

وأسباب ذلك الحنق عديده تشبه فى حدّتها الدبابيس الملونة المغروسة فى الخريطة الكبيرة وراء كرسىّ الكردينال . الخريطة تمثل أبرشية بوسطن ، شرقىّ ماساشوستس ومساحتها ٢٤٦٥ ميلا مربعاً وهى إحدى مناطق الولايات المتحدة الأكثر ازدحاماً بسكانها . وينتمى أكثر من مليون كاثوليكى إلى رعاية جلينون الروحية . أما الكنائس التى يزورونها فيمثّلها على الخريطة ٤٥٢ دبوساً أخضر . وأما الدبابيس الزرقاء الثمانية والتسعون فترمز إلى المدارس الرعائية التى تضم ٨٦,٠٠٠ تلميذ . وأما الدبابيس الحمر الستة والثلاثون فتمثل الأعمال الخيرّية : المستشفيات وبيوت اليتامى ، الملاجئ وبيوت الرحمة ، التى تضم جميعها ٤٠,٦٧٠ شخصاً . ودبابيس أخرى تبيّن للكردنيال أن أبرشيته تأوى جمعيّات من اليسوعيّين ، والأوغوسطينيّين والفدائيين والمتعبدين والفرنسيسكان ، مع ألف ومئة كاهن رعية و ١٦٧٦ راهبة موزّعة معاً فى نحو ثلاثين جمعية للراهبات . كل ذلك يتطلب ترتيباً ونظاماً للعمل والأزدهار ، وهذا ما حدث حقيقة تحت إدارة الكردينال لورنس جلينون النابغة .

مع كل العناية الروحيّة هذه وتعب الفكر الناتج عن إدارة هذه الأبرشية التى تعدّ ثانى أبرشية غنىّ فى العالم ، كان أمير الكنيسة هذا قد أضاف إلى أتعابه علة

جسدية أخرى ، حديثة العهد . فى الأسبوع الماضى فقط نطق طبيبه بالكلمة الرهيبة « ارتفاع فى الضغط » ليعبّر عن آلام الرأس الحادة التى يقاسيها مريضه النبيل . وحيث إن حالة الطب كانت على ما عرفت فى سنة ١٩١٨ ، لم يكن من المستطاع إجراء أىّ تحسين فى حالة ارتفاع ضغط دم الكردينال . كان ذلك عذابه ، وغالباً كان يتحمّل هذا الألم الحاد فى رأسه بازدراء وشجاعة فائقة . أما اليوم فلم يقدر على تحمل الوجع ، وأمسى مزاجه شبيهاً بدبّ تطارده مئات الزنابير .

بالإضافة إلى هذه المتاعب الإدارية الشخصية لم يزل نيافته يقاسى حزناً يثقل كاهله . دون مواربة فى الكلام أو التعبير ، لم يكن جلينون منسجماً مع روما ، وبالخصوص مع الكردينال پيترو چياكوبى أمين سرّ دولة الڤاتيكان . والنزاع بين چياكوبى وجلينون نزاع قديم ومستميت ، ولد بعدما تسنّم پيوس العاشر العرش البابوى بوقت قصير فى سنة ١٩٠٣ . ففى أثناء حفلة موسيقية فى الڤاتيكان ، كان لورنس جلينون (وهو فى ذلك العهد موظف صغير فى جمعيّة نشر الإيمان) قد ارتجل مقطوعة للموسيقار سكارلاتى . لم تخل مؤلفات جلينون عادة من تعبير قوىّ فنى ، وكانت مستملحة . غير أن پيترو چياكوبى ، ابن راعى البقر ، الذى كان ينفر من الموسيقى ومن الأمريكيين على السواء ، قد اغتنم الفرصة ليدلى برأيه عالياً : « إن هذا المنسنيور يعزف على البيانو كما تفعل بقرة فى أمريكا الشمالية » .

فى ذلك الوقت ، لم يترك ازدراء چياكوبى بلورنس جلينون أثراً فى هذا الأخير من الوجهة السياسية . كانت عربة جلينون تابعة لنجم آخر ، هو الرجل اللامع ذو المنبت النبيل ميرى دلڤال أمين سرّ الدولة البابوية حينذاك ، الذى كان مغرماً بالموسيقى وفارساً يجيد ركوب الخيل واللعب بالسيف ؛ ومما يزيد الأمر دهشة أنه كان رامياً ماهراً بالطبنجة . ترعرعت بين جلينون وميرى دلڤال صداقة عميقة دائمة ، استمرت طويلا بعد رجوع جلينون إلى الولايات المتحدة . فى تلك السنين تكاثرت الهدايا والنعم بين روما وبوسطن . وفى قمة هذا الوصال وضع البابا پيوس العاشر قبعة الكردينال الحمراء على رأس جلينون وألبسه فى عنقه صليباً مرصّعاً باللآلئ يتدلى على صدره .

ثم فى سنة ١٩١٤ توفّى پيوس العاشر وسافر جلينون إلى روما لانتخاب أسقف جديد . ألم يكن من حق عاطفته وصداقته أن يأمل رؤية حبيبه ميرى دلڤال متوّجاً بالتاج المثلث ؟ لكن أمل جلينون هذا لم يتفق مع الله فى بعد النظر . فاختار مجمع الكرادلة نبيلا من چينوا ، هو بنديكتوس الخامس عشر ، قيّماً على المفاتيح . فكانت الصدمة الكبرى .

اختار البابا الجديد الكردينال پيترو چياكوبى أمير سرّ لدولته ، وفى الحال تبخّرت كل المودّة بين بوسطن وروما . لم تنفصم بالطبع عرى السلطة الروحية ، لكن سلسلتها تخلخلت . فقوبلت مساعدات جلينون السمحة إلى الكرسىّ الرسولى بشكر إدارىّ جاف . وبتقاعد ميرى دلڤال ، لم يعد لجلينون صديق فى القصر البابوى . فقد تسلم السلطة فريق جديد ، واضمحلّت الأيام الباهرة الماضية ، وأمسى لورنس جلينون يرتعش وحيداً مهملا بعيداً عن الكل .

سمع المنسنيور أوبراين يقول : « يا صاحب النيافة ، الأب فرمويل » .

ألقى الكردينال نظرة ثقيلة تائهة على الكاهن الشاب المتقدّم نحوه . نعم ، ربما هو مترجم هذه المقتطفات الأنيقة التافهة حقًّا فى التصوّف . فى الواقع لم يفكّر نيافته سوءاً بالتصوّف . فقط ، لم يساعده التصوّف فى إدارة أعماله أو حلّ مشاكله . ثم لماذا ، مع كثرة الأعمال التى تتطلب تنظيما وتمويلا مستمرًّا ، يعقّد الأمور هؤلاء الكهنة الشبان بميولهم الشخصيّة فى الترجمة والتنقيب عن مشاعر بعض متصوّفين ماتوا ودفنوا منذ أمد بعيد ؟

أحنى ستيفن ركبته ليقبّل خاتم اللازورد فى اليد التى قدمها له الكردينال ثم سحبها سريعاً . لم يقتنع نيافته قط بتلك التكريمات الكنسيّة . كان يريد فقط التطرّق سريعاً إلى البحوث العملية ، وفى هذه الحالة بالخصوص ، إلى بحث المخطوط الملقى أمامه على المائدة . وأشار إلى ستيفن ألا يقف كالقلع أمامه بل يتخذ كرسيًّا ، هذا الكرسىّ بالذات ، استعداداً للامتحان الدقيق الذى سوف يؤديه .

من زاوية المائدة حدّد نيافته بصره الصائب إلى الكاهن الشاب فاحصاً . اثنان وأربعون عاماً من الخبرة الإدارية تتألّق فى عينى جلينون البندقيتين الجميلتين ، عينان تفحصان فى لمحة واحدة صفوف الكهنة المنحنين والراكعين أمامه . وجلينون

كغيره من مديرى المؤسسات الكبيرة فى حاجة ماسة إلى مساعدين أكفياء . فتساءل فى هذه اللحظة بصراحة : « كيف أستطيع استخدام هذا الرجل ؟ » .

داعب جلينون الصليب على صدره وشرع يفحص الأب فرمويل . هيئته وقوامه : ممتاز . تصرّفه : لا عيب فيه (فجلينون يكره الكهنة المهملين ذوى الأظافر السوداء والأسنان الصفراء والبشرة المتهدّلة) . حركاته : متّزنة تسودها مسحة معتدلة من النبل الكنسىّ . والعلامات الخارجية الأخرى ملائمة . وماذا عن المواهب العقلية ؟ اكتشفت نظرة جلينون الفاحصة عند ستيفن ذلك البريق الروحى الضرورى للكاهن فى المراحل الأولى من عمله . وكشف له المخطوط الذى قرأه بعناية كبرى عن رشاقة أدبية حقيقية فى الإنشاء والتعبير . فباستثناء هذه المقتطفات تبين له أن أبرشية بوسطن فى مقدروها استخدام رجل هذه خصاله ومواهبه . بالطبع يجب على الأب فرمويل أن ينحدر من سلم تصوّفه ويتخلّص من الاتجاهات التى يدور الآن فى محورها ليتعرف طريقه الصحيح على الأرض الصلبة . على كل ، فسلّم المحبّة ترجمة فقط ، لا غير . وقد يمكن إقناع هذا الكاهن الوسيم أن يطرح موضوع بحثه جانباً . ثم مَنْ يمكنه التكهّن بما سوف يقدّمه قلمه الناضج من أعمال بعد فترة من التدريب والنموّ ؟ ولم لا ، ربما أصبح رئيس تحرير مجلة الأبرشية ، « المرشد » .

لم يسمح الكردينال قط لشىء من هذه الأحكام الطيبة أن تظهر على وجهه أو حركاته . لا بد من اختبار آخر يمكن توضيحه بهذا السؤال : « ما هو موطن الضعف فى هذا الرجل ؟ » أهو مغرور أو أبله أو جشع أو متزلّف؟ أراد الكردينال استكشاف الكاهن الماثل أمامه : أيتراجع سريعاً أمام الشدائد ، أم يتهوّر بعقله وأفكاره ، أهو صعب المراس عنيد أم سهل الانقياد من أنفه . كانت لدى جلينون خططه الفنّية الخاصة لاستكشاف مواطن الضعف فى الأخلاق . فالتقط سلم المحبة وأومأ به إلى ستيفن كوثيقة أولى ثم سأل :

— « هل قمت أنت بهذه الترجمة ؟ » .

— « نعم ، يا صاحب النيافة » .

— « ولماذا ؟ » .

— « قد وقع منى الكتاب موقع قوة وجمال عظيمين ، فترجمته إلى الإنجليزية ليتذوّقه الآخرون مثلى » .

— « ومن الآخرون ؟ »

— « أىّ شخص . . . تلذّ له الأفكار والمشاعر النبيلة » .

— « نعم ، نعم ، الطبقة النبيلة ، أما المتعطلون والمتشرّدون والبسطاء الآخرون فلا تميل إليهم ، إيه ؟ ».

احمرّت وجنتا ستيفن لهذا الاتّهام ،وقال: « لو سمحت ، يا صاحب النيافة ، فإنى لا أعبّر عنه بهذه الطريقة » .

— « لكن كتابك يقول ذلك » . ومرّ الكردينال بإصبعه على محتويات الفهرس ، قائلا : « استمع إلى هذه العناوين: "مغالطة أوكام مع موسى حلاقته" "أليجيارى وعذوبة الحب الجديد" "كمثرى أوغسطينوس" — ولا يسوقنّك الغرور ، أيها الأب ، مع كل تخيلاتك وتصوّراتك هذه التافهة التائهة فى الأعالى ، أقول لا يسوقنّك الغرور إلى الاعتقاد بأن تلك المقتطفات سوف تقدّم أىّ مساعدة على الأرض ، أو أىّ أمل فى السماء ، للرجال والنساء البسطاء » .

وثبَتَتْ على طرف لسان ستيفن كلمة لاذعة . فهو يستطيع البرهان على أن مؤلّف كارنجى ، مع ما يحويه من لذّة أدبيّة ، هو فى الأيام التى يمرّ بها العالم مثال أعلى يكمّل وصيّة الله الأولى: « أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك » . أفيكون الرجال والنساء البسطاء معفين من إطاعة هذه الوصّية ؟ وأين إن لم يكن فى محبة الله ، يجب على الإنسان أن يجد أملا فى السماء أو عوناً على الأرض ؟ امتنع ستيفن فى حكمته عن الإدلاء بهذه الردود فقدعرف أن الكردينال ينفعل جدّاً من الانتقاد . وفى رضوخ مكتوم عضّ بأسنانه على طرف لسانه .

ليس الرضوخ عاملا جديداً بالنسبة لجلينون ، فهو يضطرّ كل شخص إلى إعلانه ، وعادة كان يطالب بأن يرافق ذلك الرضوخ بعض التذلّل. لاحظ الكردينال فى ذكائه أن صمت ستيفن لا يحمل معه أثراً ألبتّة للخوف ، فسجل له ذلك فى مذكرته بأحرف من ذهب : هوذا الشخص النادر ، الكاهن الذى فى استطاعته أن يرضخ دون تذلّل . لم يكد يسجل له تلك العلامة الذهبية فى صالحه

حتى بدت ناحية أخرى فى خلق جلينون . كان من عادته بعد اختبار شخص والتحقّق من استعداده الطيب للعمل أن تساوره الشكوك فى أسبابه وغاياته . لنفرض مثلا أن ذلك الكاهن الشاب الموهوب يحاوره متعمداً ضبط أعصابه . ألا يجوز أن تصبح الطاعة قناعاً يتستّر به شخص متزلّف يتوق إلى تقدّمه الذاتى ؟ فقرّر الكردينال متابعة تحقيقه .

ـ « ما هى صلاتك بمؤلّف هذا الكتاب ؟ » .

ـ « كان أستاذى فى الأدب اللاهوتى بجامعة أمريكا الشمالية فى روما » .

آه ! روما ! بدأ الشك ينخر سريعاً فى ذاكرة جلينون : « هل كنت من أصدقائه المقرّبين ؟ »

ـ « يا صاحب النيافة ، إنى لا أجرؤ على استعمال هذه الكلمة الرقيقة . بل كنت معجباً به وكان يغمرنى أحياناً بعطفه » .

ـ « كيف ذلك ؟ »

ـ « كان يقرضنى بعض الكتب ويدعونى أحياناً لمرافقته فى نزهة إلى الأرياف مشياً على الأقدام » .

أدهشت تلك الأسئلة الفضولية ستيفن ولكنه مضى فى حديثه قائلا : « مرتين أو ثلاث مرات زرته فى الكلية حيث كان يلقى محاضرات فى الأدب والفلسفة » .

ـ « وربما فى السياسة أيضاً ؟ أعنى السياسة الكنسيّة ؟ »

تساءل ستيفن عما يكون مراد الرجل : « نظرة عامة فقط ، يا صاحب الفخامة » .

ـ « هل لديك أنباء عن هذا ، آه . . . المنسنيور كارنجى ، منذ غادرت روما ؟ » .

ـ « قد وصلتنى منه ثلاث رسائل » .

ورغبة منه فى توضيح كل الأمور ، أضاف ستيفن : « فى إحدى رسائله ذكر لى المنسنيور كارنجى أنه بسبب مقتضيات الحرب نقل من قسم التدريس إلى أمانة سرّ الكردينال چياكوبى » .

فاحمرّت لحمتا أذنى جلينون من جراء لفظ اسم چياكوبى وغلى الدم فى عروقه وسرى ألم حاد فى جبهته المستديرة واحتقنت بسيل من الحسد والغضب . هذا إذن ! .. قد تحقّقت شكوكه آخر الأمر . فبينما كان هو لورنس جلينون يتخبّط فى الظلام كان ذلك الكاهن الطموح يشقّ طريقه خطوةً خطوةً نحو مراكز الشهرة اللامعة . وفى نشوة مريرة لاكتشافه هذه المؤامرة الدنيئة قذف جلينون بسؤاله متهكّما :

ــ « لا أخطئ القول ، أيها الأب فرمويل ، إنك أغريت رؤساءك فى الڤاتيكان بوعدك إياهم بهذه النشرة الأمريكية ؟ »

أثارت هذه التهمة الخبيثة حنق ستيفن . وصمدت عيناه الزرقاوان ، تراث الفرمويل ، أمام هجوم عينى جلينون البندقيتين ، دون هلع :

ــ « ما أغريت أحداً ، يا صاحب النيافة ، وما وعدت بنشر شيء . إنى كاهن بسيط فكيف ــ وأذهله هذا التناقض الصريح ــ فكيف أستطيع الإقدام على ذلك ؟ » .

ــ « فى استطاعة كاهن بسيط أن يوجّه ذلك السؤال ، لكنى أكتشف عندك ، أيها الأب فرمويل ، نقصاً كبيراً فى البساطه لم أرَ مثله فى جميع السنين التى قضيتها منذ رسامتى . وأحكم أنك واحد من تلك المخلوقات التى لا يتصوّرها عقل ــ إنك كاهن متزلّف » .

مكث ستيفن صامتاً ناكساً رأسه أمام هذا الظلم ، فليس لديه ما يستطيع قوله .

واستطرد نيافته لكلامه قائلا : « فى استطاعتى التغاضى عن ادعاءاتك الأدبيّة ، تلك الصفحات المنتين فى أضواء القمر التصوّفية ، لولا أنك أفسدتها بهذه الغاية الملتوية . توجد كلمة بشعة لمثل هذا الصنف من الأمور ــ كلمة لم تسمح لى الظروف باستعمالها قط منذ قبل ــ وهنا أهوى جلينون بسوطه فى شدة ــ أقولها لك بصراحة ، أيها الأب فرمويل : إنك وصولىّ ، وصولىّ منتفخ ، وسلم المحبة هذا فى التطوّر التصوّفى ليس إلا مسنداً للمتزلّفين مثلك » .

قد يمكن أن تنقلب الجحيم جليداً ، لكن لا يمكن لشخص أيًّا كان أن يتكلم هكذا إلى واحد من الفرمويل . انتصب ستيفن والغضب يخنقه وقال :

« يجب أن تسمح لى بالذهاب يا صاحب النيافة . فكهنوتى لا يسمح لى بالاستماع إلى مثل هذه الإهانات » .

— « لايسمح لك ؟ » انقلبت وجنتا جلينون إلى أحمر قان ، وقال : « ياسيد ، إن كهنوتك سوف يستمع إلى ما تقوله كردينالييّ . — أولاً : لا أمنحك إذناً للطبع . اكتب إلى صديقك الفاتيكانى الظريف ، إن الأمر بأكمله مرفوض » .

قام نيافته عن المائدة وحالاً ظهرت قامته القصيرة وقوامه البدين . خصره سمين متهدّل وساقاه القصيرتان حرمتاه الطول المناسب وجعلتاه قزماً أصلع ينوء بحمل خمسين رطلا أكثر من مقرّر وزنه .

— « ثانياً ، منذ الآن أقيلك من رعية القديسة مرجريتا ، فإنك فى حاجة إلى تغيير الهواء ، أيها الأب فرمويل ، وأعتقد أنى أعرف حق المعرفة بقعة تناسبك لكى تُملّح فيها وتتخلل » .

ثم استدار نحو خريطة الأبرشية وأشار إلى دبوس منفرد فى زاوية إلى أقصى الشمال من ولايته .

— « منذ الاثنين القادم ستكون كاهناً مساعداً فى رعية ستونبيرى ، ولا أتصوّر بقعة أصلح للانزواء فى الظلام . واسم الرعيّة ،رعيّة القديس بطرس — يالسخرية القدر ! لكن سوف لا يضيع مفعولها سدى فى رجل طموح مثلك ، أيها الأب فرمويل . ستكون مساعداً للأب إ. إ. هالى ، وهو مثل رائع للراعى الخائب . أرجو أن تستمتعا معاً » .

ركع ستيفن فى صمت فى حين أتم الكردينال حديثه : « ربما استطاع " نيدهالى " ، تهذيبك فى فضيلة الاتضاع ، مع أنى أشك فى ذلك ، أيها الأب » . وغطّت سحابة فجائية من الكآبه عينى جلينون المشتعلة حنقاً : « لأنه إذا كان الودعاء والفقراء معنا حقيقة فى هذا العالم ، فإنك سوف تتعرّف على أودع عقل وأفقر مدبّر فى أبرشية بوسطن » .

الجزء الثانى

النـــائب

الفصل الأول

كانت سكة حديد « ناشوا » ، التى تصل بين بوسطن ومين فى سنة ١٩١٨ أظلم خط فى بريطانيا الجديدة . فهى تتلوّى عبر أرض فضاء تكثر فيها الغابات المتحطّمة والمدن القذرة، تاركة وراءها مصانع ليتشبورج السوداء ، ثم تنحدر فى أرض تعيسة تكثر فيها المستنقعات المغطاة بالحشائش ، والبيوت الصخرية المتهدّمة ومحاجر الجرانيت المهملة ، وتمتد حتى حدود مقاطعة همشير الجديدة (نيوهمشير) . كانت هذه الأرض فى الماضى فخر المهاجرين من أوربا ، لكن أبناءهم هجروها منذ أمد بعيد إلى المراعى الغربية الخصيبة . لم تكن تلك الأرض جيدة أبداً ، والآن أصبحت موحشة كئيبة على وشك أن تغرق ثانية كما كانت قبل مجىء المهاجرين تحت الصخور والحشائش وشجر الصنوبر .

جلس ستيفن فى العربة الوحيدة رقم ٦٤ التى تصل ليتشبورج بناشوا وتقف على كل المحطات ، وأسند ساعده إلى إفريز النافذة وقلبه متألم من وحشة المكان . كان ذلك فى أبريل والمطر ينهمر راسماً خطوطاً متعرّجة على نافذة العربة المتسخة بذرات الفحم الأسود . تابع ستيفن بنظره قطرات المطر فى انزلاقها السريع إلى أسفل الإفريز .

أهو سراب ذو شجون ؟ ربما لا . لكن هذه الخطوط المتعرّجة المظلمة قد تكون رمزاً لتقلبات البشر وسعيهم التافه . قد ييبس العشب ، وتنحدر قطرات المطر على نافذة قذرة ، وتنقبض قلوب البشر فى منفاها ، أما السروفين فستواصل طيرانها حول العرش الإلهى مرنّمة : المجد فى الأعالى .

وضع ستيفن هذه الصورة الأخيرة نصب عينيه وهو يسرّح طرفه فى الأراضى البائسة حوله . لم يترك لنفسه ثانية واحدة للشعور بالانحطاط بسبب نقله إلى ستونبيرى.

قد يمكن لنيافته الانفجار غاضباً كالإله طور ، أما ستيفن فلا يستطيع إقناع نفسه بالشعور متخوّفاً أو مذنباً وهو يستمع إلى قرار إقالته يتطاير كأسهم من نار . أهو تواضع كاذب ؟ ربما . لكن ليراقبنّ الإنسان قطرات المطر هذه وهى تدفع بعضها بعضاً منحدرة نحو إفريز النافذة حتى يتأكد له أنها عاجلا أم آجلا ستتّصل بالبحر الكبير .

شعر ستيفن بانقباض فى قلبه وهو يغادر رعيّة القديسة مرجريتا . كان افتراقه عن موناجان أليما . أما دولاربل ، فى محاولته الوقوف على الحياد ، فقد نجح فقط فى أن يظهر متجهماً أكثر من المعتاد . لم يقدّم له نصحاً أو تشجيعاً ليكون جنديّاً صالحاً . لكن الدموع ترقرقت فى أعينهما وهو يقدّم له حقيبة للسفر هديّة قائلا بجفاء : « ربما تحتاج إليها فى سفرك ، أيها الأب » . وسالت دموعهما حقّاً عندما ودعه بقوله له : « وداعا يا ستيف ، بركات الله عليك » .

عند باب الدار الخارجى سلّم ستيفن رسالة قائلا : « قدّمها لرئيسك الجديد » . ثم أردف فى حشرجة تشبه نقيق الضفادع : « لا تغلط أبداً فى الحكم عليه بسبب الظروف المحيطة به » .

تقدّم مفتش قصير بدين يحمل فى سلسلة ساعته شارة « الماسونية » وخرم تذكرة ستيفن فى حدّة كأن له معها ثأراً قديماً . لم يعتد الكهنة الكاثوليك السفر على خط ناشوا . وسفر هذا الرجل الكاثوليكى الوحيد يعد غزواً ويثير الشكوك . رجع المفتش إلى مؤخرة العربة فى ركن البضائع ليفكر بهدوء فى الرجال ذوى الياقات المقلوبة ، ومدّ رأسه من الباب ليعلن فقط عن أسماء المحطات المتتابعة .

وأخيراً صاح : « ستونبيرى ، ستونبيرى ، » كأنه يجعل من هذا الاسم توبيخاً لجميع البروتستانت المستقيمى الرأى .

التقط ستيفن حقيبته واندفع إلى رصيف المحطة . وتقدّم حمال ليحمل برميلا صغيراً ، فساعده المفتش بنفور ودحرجاه على الرصيف . ثم تابع القطار سيره وهو ينفخ ويزمجر نحو همشير الجديدة تاركاً البرميل وستيفن وحيدين تحت المطر المنهمر .

كان باب المحطة مغلقاً . تطلّع ستيفن من وراء زجاج النافذة إلى غرفة عامل

البرق ، فرأى مفتاحاً للمورس وعلبة تذاكر نصفها فارغ وسلة للمهملات تراكمت فيها بعض الجرائد القديمة الصفراء . لا أثر لبشر منذ زمن . أوشك ستيفن أن يتقدّم ماشياً على الطريق الموحل ، وإذا بحصان على رأسه مطرقة يجرّ عربة بمقعد واحد — تعرف باسم « الديموقراطية » — قد ظهر متثاقلا أمام الرصيف . فوق رأس السائق تدلت مظلّة متقطعة كانت يوماً برتقالية اللون ولا تزال تحمل إعلاناً عن التبن والحبوب . يبدو من مظهر العربة المتخلخلة والحصان المتبلل والمظلة المتهدلة أن آثار العزم والقوّة قد مسحها المطر بقطراته فأصبحت رمزاً للفناء .

قفز السائق من مقعده وإذا بالمنظر كله يتغيّر . لم يرَ ستيفن قط رجلا مثل هذا السائق قد تكاثرت في ساعديه وساقيه العضلات . كانت خفّته مزيجاً من الثعلب والصقر والبهلوان . قوامه مفتول ، وبشرته سمراء في لون الشاي القاتم وعيناه سوداوان كالقهوة المثلجة ، وشاربه الضخم متسخ بلطع بنية كبيرة من كثرة سائل التبغ الذي يتناثر من فمه ، ويلبس أحذية حطّاب وبنطلوناً مرقعاً بِرُقع غبراء سوداء وسترة لزجة كالزيت وقبّعة قد تكون سرقت من فوق أعمدة الأشباح لطرد الغربان ! . . .

أبصر الرجل قبّة الكاهن فلمس قبعته . أحبّ ستيفن هذا الاحترام المختصر أكثر من جميع التحيات التي تقبّلها من قبل . لا شك أن هذا الرجل الأسمر كاثوليكي . فحيّاه ستيفن بالمثل .

— « أتستطيع أن تدلّني على الطريق المؤدّي إلى كنيسة القديس بطرس ؟ » .

— « الأفضل أن تقفز إلى جانبي . سأقودك إلى هناك » .

لا شك أن الرجل من الكاناك (الكنديين الفرنسيين) نظراً للهجته .

شرع ستيفن يضع حقيبته وراء مقعد « الديمقراطية » لكن الرجل الأسمر وقفه بإشارة من يده كخف الدبّ : « الحقيبة إلى الأمام والبرميل إلى الخلف » . وتوجه نحو البرميل ودحرجه ببطء إلى العربة . ثم في حركة استعراضية كرجل يعرف مدى قدرته ، بصق خفيةً في راحة يده اليسرى وفركها باليمنى وأمسك بالبرميل من طرفيه وأسند ركبته إلى أسفله ثم قذف به كالمخدّة إلى داخل العربة فاهتزّت وتأرجحت تحت ثقله ، فرفع الحصان أذنيه إلى أعلى مستفهماً ، وقال السائق مخاطباً الكاهن :

— « يقول ناپليون إن الشعير سيكون لذيذاً بعدما يجرنا أنا وأنت والبرميل مسافة ميلين » .

وضع ستيفن غطاء الحصان على ركبتيه ولاذ فى حمى المظلة التى وَقَتْهُ قليلا من المطر وشعر بانشراح عظيم عندما تحرّكت العربة. بعد وقت قصير مرّا بوادٍ حجرى ، يكثر فيه الجرانيت ، فى مجموعات عالية من الصوان ويتجمع على شكل هضبات هائلة على جنبات المقالع المهجورة التى بدت كالمغاور المخيفة حفرها الناس فى تلال الجرانيت بعد قصفها بالديناميت . أراد ستيفن سؤال السائق عن قصة هذه البقايا الموحشة لكنه انتظر حتّى يفرغ الرجل من نظراته الجانبية ويبدأ السؤال بنفسه .

— « هل أنت مساعد الأب هالى ؟ » .

— « نعم واسمى الأب فرمويل . وما اسمك ؟ »

— « هرقل منتون » . ولمس هرقل جانب ناپوليون بسوطه المتقطّع وقال : إن الأب هالى رجل طيّب جدّاً . لكنه تعب ، مثل ناپوليون الذى تراه » .

بدا لستيفن أن كل الضواحى موحشة تعبة فسأل : « ماذا يعمل الناس هنا ليعيشوا ؟ »

أومأ هرقل بسوطه نحو مرفع مهمل : « عندما كانت مقالع مرلين تقطع حجارة ضخمة ، كان كل واحد يجد عملا . أما الآن فلا توجد حجارة ». وغطّت صوت هرقل مسحة من الحزن الغابر مما حثّ ستيفن على سؤاله : « هل كنت حجّاراً ، يا هرقل ؟ » .

— « لن تجد أفضل منى ناسفاً للديناميت » .

وانقلب العامل إلى فنان يفيض فى الشرح عن فنه :

— « إنى أثقب أعمق الثقوب فى مارلين كلها — ثلاثين أو أربعين ثقباً فى وقت واحد . إى والله كنت أقطع غلاف الديناميت بأسنانى » .

ظهر هرقل فى حركاته التمثيلية كآلة تجيد العمل فى تفاصيله كلها :

— « ثم أدكّ الديناميت فى الثقب » . وطفق هرقل يضرب ركبته بقبضته :

— « ثم أربط الثقوب كلها معاً جيداً ، ثم أكبس على الناسفة بيدى إلى

أسفل . فيصيح الجبل : يا هرقل ، لم تفعل بى ذلك ؟ ثم ينفجر قطعاً كالجرّة حين تسقط على الأرض » . وحدّق هرقل بعينيه السوداوين بين قدميه عله يرى بقايا الحجارة المتناثرة .

ما كان من ستيفن إلاأن ضحك من هذه التّمثيليّة : « قد نسفت ذاتك من العمل ، يا هرقل . وماذا تعمل الآن ؟ »

ــ « إنى ألعب الربابة أحياناً » . وهز هرّقل رأسه بأسف كأنه يقول : « إن الناس فى هذه الضواحى لا يعنون بالربابة » . ثم انحنى وأخرج من تحت المقعد خشبة تشبه عصا المقشة ، وقال : « إذا كسدت تجارة الربابة فإنى أصنع أفضل فؤوس تباع فى المتاجر » .

لوّح ستيفن بالعصا فى يده فبدت كأنها ثعبان منتصب على ذيله .

ــ « ماذا تقول ، ياهرقل ، إن هذه القطعة رائعة ونحتها جميل . لكن من أين تأتى بالحديد ؟ » .

بصق هرقل فوق كتفه فى اتجاه البرميل الذى تنوء تحت عبثه العربة وقال : « إنى أشتريها بالجملة من بوسطن ، الدستة بخمسة دولارات » . ومضى فى تمثيله كيف يثبّت رأس الفأس على قطعة الخشب. ثم قدّم صنع خياله إلى ستيفن قائلا : « بدولار واحد » . وانفرجت أساريره طرباً .

ــ « لو بعتها بضعف ذلك ، لكانت رخيصة أيضاً » .

وضحك ستيفن . كان شعوره الأكيد أن ناسف الديناميت هذا ، ولاعب الربابة وصانع الفؤوس لابدّ أن يصبح رفيقاً ثميناً سواء كان ذلك فى جزيرة جرداء أم فى رعية فقيرة مهملة .

وصلا الآن إلى قلب ستونبيرى عند مفترق ثلاث طرق نسيت منذ أمد بعيد سبب تقاطعها بهذا الشكل . فى وسط حديقة القرية ارتفعت منصة فرقة الموسيقى وقد غطتها الأعشاب وحوّطها مدفعان قديمان منذ الحرب الأهلية الماضية . إن أعلى مبنى فى المدينة يتكوّن من طابقين . توجه هرقل إلى اليمين وساق عربته فى زقاق كثرت فيه البيوت الصغيرة القاتمة اللون التى لا يتناسب طولها المرتفع مع عرضها المنكمش . هذه هى بريطانيا الجديدة فى أفجع مظاهرها : هو التزمّت تنقصه قشرة من الطلاء .

كانت الشمس قد أشرفت على المغيب لما أشار هرقل بسوطه نحو أكمة غبراء تبعد ميلا عن المدينة . ثم أعلن وهو يوقف عربته : « كنيسة القديس بطرس . أعتقد أن الطريق صعب السير فيه لناپوليون مع البرميل فى العربة » .

فقفز ستيفن من الديموقراطية : « إن ناپوليون معذور . قد خدمنى خدمة لن أنساها طول حياتى . أشكرك ياهرقل » . ثم صافحه ستيفن قائلا : «فليبارككما الله » .

— « أشكرك ، يا أبت . شى ! . . . »

تسلق ستيفن الطريق الموحل وألقى نظرة خاطفة على كنيسة القديس بطرس التى بدت بحجارتها السماقية كأنها تستطيع الصمود خمسة قرون أخرى . لكن متانتها لم تمنع مصيرها الكئيب وشكلها الحزين . دار ستيفن حولها كمن يتفقد خراباً : المياه تنساب من مزاريبها المتكسرة ، النوافذ تنقصها بعض ألواح الزجاج الملون ، والصليب فى أعلى قبة الجرس قد سقطت إحدى يديه . قرأ ستيفن على حجر الزاوية رقماً رومانيًّا بأحرف كبيرة : سنة ١٨٧٢ ، ونصاً لاتينيًّا بأحرف صغيرة: « أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبنى كنيستى » .

تشجع ستيفن بقوة هذا الوعد الثابت وتوجه نحو دار الكنيسة ، وهو منزل مبنى بالحجر يبعد بضع مئات من الخطوات عن الكنيسة . ثم طرق الباب وهو خائر القوى يقرصه البرد ويطويه الجوع . ربما ينتظره عشاء ساخن يزيل أتعابه . فطرق ثانية . ولم يأته رد . فدفع باباً متخلعاً ودخل ممرًّا رطباً ونادى : « أيها الأب هالى ! . . . أيها الأب هالى ! . . . »

لم يأته رد أيضاً . فر ستيفن بغرف مقفلة حتى وصل إلى المطبخ . لا شك أن الخادمة صماء جدًّا . لكن مظهر المطبخ بفرنه القذر ونوافذه العارية ومائدته الغبراء أنبأه بعدم وجود أثر للخادمة .

على رف فوق حوض الماء سمع تكتكة منبه من معدن أبيض ، والعقرب يشير إلى السادسة وخمس دقائق .

لا بد من كائن حى فى هذا المكان . لابد أن أحداً أدار المنبه . غسل ستيفن يديه على صنبور الماء ، وشرع يفتش عن شىء يأكله . لا شك أن فئران الكنيسة كانت تلعن خزائن المطبخ . بعد تنقيب طويل وجد ستيفن ملعقة واحدة من الشاى ،

وقطعة من السمك المدخّن وكسرة من الخبز الناشف . فأشعل النار وأغلى ماءً فى وعاء صغير ، ثم ابتلع جرعتين من الشاى الساخن وقضم نصف كسرة الخبز . أما السمكة فلم يمسها .

أشار المنبّه إلى السادسة والنصف وإذا بالباب الخارجى يفتح . فوقف ستيفن فى انتظار تحية رئيسه . كان وقع الأقدام خفيفاً بطيئاً فى الممرّ . ثم فتح باب المطبخ ، ورأى ستيفن فرمويل نيدهالى لحماً ودماً أمامه .

ما أضأل ما رآه ستيفن : جلد على عظم ! كان وزن الكاهن المسنّ لا يزيد على مئة وعشرين رطلا مع ما فى معطفه من ماء وما فى حذائه من وحل . شعره الأبيض قصير جدًّا ، ويكاد لا يكون له أسنان . تقوّست شفتاه على فكّيه وغارت عيناه اللامعتان تحت جفونه . فرفع حاجبيه فى اعتذار جمّ ولوّح بيده إلى ما حوله ، فقر مدقع وتعب مرهق ، وكأنه يقول : « المعذرة لك ، أيًّا كنت ، عن ... عن كل شيء » .

وقف نيدهالى قرب الموقد ورفع يديه فوق النار التى لم يتعوّد التنعم بحرارتها وتمتم فى شبه غيبوبة : « ما ألذّ النار فى ليلة من مارس ! » لكنه لم يدهش أن غريباً قد أشعل له النار وشرع يسكب له قليلا من الشاى .

وقال ستيفن : « إليك ، يا أبى . اجلس واشرب هذا الشاى » . ثم ساعده فى خلع معطفه المتآكل وقطع له ما تبقى من كسرة الخبز الناشف . جلس نيدهالى إلى المائدة وصلّى قبل الطعام ثم قرّب فنجان الشاى المغلىّ من شفتيه . لم يقو على قضم الخبز ، فنقعه فى الشاى قبل تناوله إياه .

— « أترغب فى بعض السمك ، يا أبى؟ » كاد ستيفن أن يقول : « السمكة » .

— « كلا ، أشكرك . هذا يكفينى . فإنى أتناول طعامى الرئيسى نحو منتصف النهار . لكن إذا رغبت فى السمكة ، يا أبى ... »

— « كلاّ ، كلاّ » أجاب ستيفن وأذكى النار فى الموقد فى حين أنهى نيدهالى عشاءه وصلى الشكر . ثم جلسا فى صمت . لم يستطع ستيفن أن يقرّر ما إذا كان رئيسه خجولا ليسأله : من أنت ؟ أم إذا كان يعلم ذلك ولا يعيره اهتماماً . إما أن يكون تجرّده الروحى رفيعاً وإما أن يكون مرهقاً من التعب . ثم لم يلبث نيدهالى أن

استسلم للنوم بجانب الموقد .

لما أفاق من غفوته ، سلّمه ستيفن أوراق اعتماده ورسالة موناجان . فألقى عليهما الكاهن المسنّ نظرة خاطفة ، وحالاً استعاد نشاطه الفكريّ وقال :

– « إن صديقي القديم وليم موناجان يقول لى فى رسالته إنك كاهن نشيط جداً . وليس المديح عند وليم ضعفاً . لهذا أعتقد فى كل ما يقوله عنك » .

لما أتمّ نيدهالى برهانه هذا وقف وقال : « أهلا بالأب فرمويل فى رعية القديس بطرس فى ستونبيرى » . ثم توجّه بتثاقل نحو باب المطبخ وقال : « أشير عليك بأكل السمكة ، أيها الأب . فلا شك أنك جائع بعد سفرك الطويل هذا » .

لم يذق ستيفن النوم ليلته . كان يتقلّب على فراش القش الناشف ولم يطق الصبر حتى بزوغ الفجر . فالتعرّف على الرعيّة عمل واسع ، وفهم رئيسه يتطلب حذقاً . تخيّل ستيفن الأب هالى واحداً من هؤلاء الكهنة التعساء المدمنين على الويسكى ، رجلاً منعه إدمانه السرّى من التقدم فى الدرجات . لكن ذلك الكاهن النحيل ليس له شبه بالمدمنين . كانت أحماض التقشف قد أذابت فيه كل شىء سوى لمعان ذهنه . لم يكن يأكل !

تقلّب ستيفن على فراشه القاسى والجوع ينخر فى جوفه ، وأفكاره تدور حول لغز حياة نيدهالى . كيف استحق غضب الكردينال ؟ وما هو سبب تجرّده عن الواقع الذى حمله على إهمال شكله وصمته ؟ أهو نقص فى العقل ؟ كلا . فهذا الافتراض مستبعد ؛ فقد قدّر رسالة موناجان حق قدرها . إذن ، فمن أىّ مرض نفسى يشكو هذا الرجل ، وأىّ دواء فى العالم يفيده ؟

تقلّب ستيفن مع أسئلته والجوع ينهشه متطلّعاً إلى الخطوط الفضيّة ، أولى بوادر الصبح الجديد .

نهض فى السادسة وغسل وجهه بماء بارد وأسرع نحو الكنيسة . فى نيّته أن يصلى قداسه ، ثم يتسلل إلى المدينة لشراء بعض المأكولات ويهيئ إفطاراً لرئيسه وله أيضاً . لكنه لما فتح باب المقدس وجد نيدهالى يستعد لارتداء ثياب الصلاة قبل القداس . وفى صمت تقدّم ستيفن ليخدم القداس وتوجّه نحو الهيكل .

صعق ستيفن عند دخوله الكنيسة من شكلها الحزين المتهدّم : الجدران

والسقوف متشقّقة وقد تساقط منها الجبس من سيل الأمطار وتقشّر طلاؤها من الرطوبة . المقاعد متكسّرة متخلعة وأيقونات مراحل الصليب الخشبيّة السقيمة تتدلى فى اعوجاج . الدرابزين الأمامى تنقصه قطعتان من الخشب ، وبساط الهيكل مهلهل . الهيكل نفسه فى حاجة ماسة إلى طلاء جديد وإلى إزالة مفارشه القديمة المتقطعة . الأوانى المقدسة فقدت طلاءها الذهبى وكتاب القداس فقد ظهره الجلدىّ .

نعم ، كانت خدمة القداس لنيدهالى فى هذا الهيكل الحزين أثمن خبرة فى حياة ستيفن . لما رفع الكاهن المسنّ يديه النحيلتين بالتقدمة تألّقت ثيابه المهلهلة وبدت الكأس الخافتة اللون لامعة . واستنار جسده الأرضى الضعيف بنور سماوى من كثرة ما أذاب نفسه بالوحدة مع ذبيحته الإلهية فى تخليد ذكرى الجلجلة السرّى .

فى آخر القداس قدّم لستيفن شكره فى طيبة وتجرد : « أشكرك يا أبى . والآن سوف أخدم لك القداس » .

شعر ستيفن بقداسة نيدهالى تطوّقه فى حقل من المغناطيس ، فرافقه فى بطء إلى الدار . أحسّ ستيفن بحميته الغريزية تدفعه إلى رفع أثقال خدمة الرعية عن كاهل رئيسه المتعب ، وترقّب أن يمدّه رئيسه بالتعليمات اللازمة ويحدّد عمله . لكن فى تلك الساعة كان نيدهالى فى حاجة إلى شيء واحد فقط : التأمل الروحى وهو المتعة الوحيدة لأولئك الذين صلّوا قدّاسهم . فدخل مكتبه وركع على مسند وأخفى وجهه بين يدين نفرت منهما العروق الزرقاء .

كاد الجوع أن يذيب ستيفن سكيباً . أين السمكة ؟ لابدّ أن يأكل نصفها الآن . فتح باب الخزانة فى المطبخ وإذا به يجد على رف صغير لا سمكة واحدة فقط ، بل سمكتين مدخنتين ، وبالقرب منهما رغيفان من الخبز ، وعلى قطعة من الورق كمية من البن المطحون .

يا للأعجوبة ! الخبز والسمك والقهوة أيضاً !

هيّأ ستيفن القهوة ، ورتّب المائدة لاثنين وانتظر حتّى يحضر الأب هالى ويشاركه الإفطار . أخيراً بعد صلاته الطويلة خرج الرئيس من مكتبه وجلس إلى

مائدة المطبخ مثل أليشع ، لا أسنان له ، شاكراً السماء على طعامه اليومىّ . انتظر ستيفن حتّى فرغ رئيسه من وضع قطع الخبز فى قهوته ، وتجرّأ على سؤاله :

— « ألديك مانع ، يا أبى ، فى أن أجُول فى الرعية لزيارتها ؟ » .

— « كلا ، مطلقاً . اعتبر نفسك حرًّا فى الخروج والدخول كيف شئت ».

وسكت نيدهالى برهة ثم قال : « غير أنى أخشى مع ذلك أن تجد صعوبة فى معرفة أماكن رعايانا » .

— « هل هم متفرقون فى الضواحى ؟ » .

— « كلا إنهم فى مكان واحد . لكن ذلك المكان صعب إيجاده » .

— « أرى فى الأمر سرًّا » .

— « نعم ، الأمر غريب حقًّا فرعية القديس بطرس ، قانوناً ، تتاخم حدود مدينة ستونبيرى . أما فى الوقت الحاضر فستجد رعيتنا متجمّعة فى واد صخرى يدعى " السندیان "» .

— « اسم غريب » .

— « هكذا دعاه الكنديون الفرنسيّون » .

واستطرد الرئيس لكلامه يفيض فيه كأىّ شخص آخر جادت قريحته : « منذ عشرين سنة ، عندما ازدهرت مقاطع مرلين ، اشتهر فى ذلك المكان مصنع للحديد ومطعم للأكل . كانت العربات التى تجرّها الثيران تحمل قطعاً ضخمة من الجرانيت إلى رصيف محطة ستونبيرى وتقف عند السنديان لإجراء بعض التصليحات ، وتناول بعض المرطبات . ثم احترق المطعم منذ زمن واندثر مصنع الحديد لقلة العمل فيه . غير أن الكنديين الفرنسيين العاملين فى المقالع — وجميعهم كاثوليك ، طبعاً — لا يزالون يتمسّكون بجوانبه » .

— « وماذا يعملون ليعيشوا ؟ »

— « لا شىء يذكر . إن التجارة الرئيسية فى هذه البقاع ، هى جمع التوت فى الصيف ، وقطع الثلوج فى الشتاء . وبعض الرجال يقطعون الأخشاب » .

بدأ ستيفن يدرك كيف توصّلت كنيسة القديس بطرس إلى مثل هذا الإهمال فى الترميم .

ــ « كيف الوصول إلى السنديان ، يا أبى ؟ » .

ــ « سأطلعك » . وقاد نيدهالى مساعده الجديد إلى الباب الخلفى من الدار وأشار إلى واد عميق ملىء بالأشجار وقال : « إن السنديان تقع فى الجانب الآخر من الوادى . إنى شخصياً لا أستعمل الطريق المختصر عبر الوادى ، ففيه مهالك خفية ومستنقعات موحلة غاشّة . فيستحسن أن تتبع الطريق العام الذى يمرّ أمام باب الدار مسافة لا تزيد عن ثلاثة أرباع الميل. ثم انحدر شمالا فى طريق متربة واستمر عليها حتى تصل إلى مصنع حديد محترق . وحينئذ سوف تعلم من هيئة الناس وكلامهم أنك فى السنديان » .

أجاب ستيفن بثقة : « سأجدها » .

ــ « لا أشك فى ذلك » ــ ووضع نيدهالى إصبعاً على شفته السفلى وفكّر قليلا ثم قال : « أشير عليك فقط ، وأقدّم لك ذلك كنصيحة ليس إلا ، ألاّ تدخل بيوت هؤلاء الناس إلا إذا دعوك إلى ذلك . إن فقرهم مدقع وإذا طرق كاهن بابهم ــ وأعرب الراعى المسنّ عن فكرته بكلام لطيف ــ ألا ترى ما سوف يتخيّلونه ، يا أبى ؟ » .

أجاب ستيفن: « نعم أدرك هذا جيداً » .

كانت أفكاره متنازعة بين نظرية موناجان فى القيام بزيارة الرعية ووصف الكردينال جلينون نيدهالى بأنه راع خائب . قد يجوز لكل منهما أن يكون محقاً فى حكمه وطريقة تفكيره . لكن بطريقة أخرى ــ وهى الحساسية التى لم يستطع جلينون أو موناجان إدراكها ــ كان نيدهالى على حقّ أيضاً .

* * *

بعد سير حثيث مدة ربع ساعة وصل ستيفن إلى السنديان . مرّ فى الطريق العام المرصوف بروافع للأثقال متحطّمة وآلات قديمة صدئت مداخنها من كثرة التعرّض لتقلبات الجوّ ومالت رؤوسها على آبار مهملة كانت يوماً ترنّ بهدير المطارق والمثاقب وأما اليوم فهى ملأى بالرواسب الكثيفة .

ماذا حدث هنا ؟ ومنذ كم من الزمن؟ من يقدر أن يحكى له قصة هذه المقالع الموحشة ومصير هؤلاء الرجال الذين عملوا فيها ؟ أدار ستيفن رأسه فى حركة آلية ،

لعله يرى عربة هرقل الغبراء تدق الأرض . لكن الطريق كان عارياً أمامه وخلفه. أين هم السكان ؟ استغرب ستيفن هذا المنظر وهو يحدّق ببصره فى هذه الأرض القاحلة الجرداء .

ثم انحدر شمالا فى الطريق المتربة كما أوصى بذلك نيدهالى ، وأتى إلى العلامة الأولى وهى مصنع الحديد المحترق . المدخنة الحجرية لا تزال قائمة ، والسنديان الهائل الذى أعطى المكان اسمه ملقى على الأرض بين كومة من المخلّفات . خطر لستيفن أن الأشياء التى لا حياة فيها هى أوحش الأشياء . بعد أن سار خمسين خطوة انتقل من منطقة الخراب الموحشة إلى مسرح واسع يزخر بالحياة .

انتصب أمامه تلّ معرّض للرياح من ثلاث جهات ، وعلى سفوحه رصت ــ كأنها على درجات مسرح ــ أكواخ غطّيت بورق قطران أسود يأوى إليها سكان السنديان . حثّت أشعة الشمس الدافئه السكان على الخروج من مساكنهم الوضيعة والتنعم بجمال صباح الربيع . كانت بعض النساء الملتحفات بشيلان ينشرن الغسيل على حبال مرتخية وقد وضعن المشابك فى أفواههن . أما الرجال فكان بعضهم مستنداً إلى أبواب متخلّعة يدخّن غليونه المصنوع من الفخار الأسود ، والبعض الآخر متعلق على سلالم ارتجالية يصلح الثقوب فى السقوف بقطع من الصاج أو الخشب . ثم أطفال وكلاب ودجاج وخنازير خرجت من جحورها بعد حبس الشتاء الطويل وطفقت تمرح فى البرك الموحلة على التلّ . خيّل إلى ستيفن أنه يعيش فى عصور الإنسان البدائى .

لم يلتفت إليه أحد ألبتة وهو يصعد وينزل فى الطرقات الموحلة محاولا تكوين فكرة عن الناس ومساكنهم فى السنديان . قد يعود محصّل الضرائب يائساً إذا قدّر له العمل فى هذا المكان . إن المكسب عند هؤلاء الناس شىء لا يتصوّره العقل . كانوا يحجمون عن الغريب ويكرهون طرقه المقنّعة الملتوية . لم يرفع الرجال أيديهم إلى قبعاتهم ، وفرّ الأطفال عندما اقترب ستيفن منهم . لم تكن السنديان تلك البقعة الغناء التى تُرْوَى عنها الأساطير ، أو تلك القرية التى يحلم بها الكاهن ، وحوله أبناء رعيته يقدمون له ثماراً من أتعابهم وغلاتهم . كلا ، إنه شىء غريب جديد عليه ، هى الحقيقة المرة فى أحطّ وأبشع مظاهرها كما لم يتصورها ستيفن فى حياته من قبل .

شعر ستيفن بكاهله ينوء تحت ثقل منفاه . فهنا ، بين أناس غرباء نُفُر ، يجب عليه أن يعمل على خلاص نفسه وخلاص نفوسهم أيضاً إن أمكن ، ؟؟ وكيف ؟ على سنديان الحقيقة المرة . كيف وأين يبدأ ؟ كان قد تدرب فى مدرسة موناجان على الزيارة الرعائية من بيت إلى بيت . فتاقت نفسه إلى طرق باب هؤلاء الناس وكسر عنادهم بأعمال محبته وخدماته الإنسانية . لكن لديه الآن أوامر أخرى . عليه ألا يثقل على سكان السنديان بزيارته بيوتهم . آه لو استطاع اللقاء بهرقل منتون ، ذلك الرجل الأسمر الشهم ، لدلّه على أفضل طريقة لكسب قلوبهم ، أو كسب ابتساماتهم الخالصة على الأقل .

رأى ستيفن بالقرب من مكتب البريد فريقاً من الرجال يدخنون الغليون فسألهم : « هل تعرفون أين يوجد هرقل منتون ؟ »

تبادل الرجال نظرات غامضة يدعو بها بعضهم بعضاً إلى الصمت والحذر ، ثم طفقوا يتفرّقون . فتملّك ستيفن الغضب من سوء معاملتهم ، وهمّ أن يمسك أحدهم بكتفيه ، وإذا به يسمع صوت جرس مزعج . فالتفت ورأى فى وسط الطريق الموحل عربة غريبة الشكل . كانت يوماً بيضاء ، ثم أفناها الوحل والزمن ، وعلى جانبها علّقت لوحة كتب عليها : « ڤيكتور تينار ، لحم ومأكولات » . فى مؤخر العربة وقف رجل عليه مئزر ملطخ ببقع الدم ، يلوّح بساطوره فى ازدراء لا يتقنه إلا القصّابون المحترفون ، ويهم بتقسيم قطعة قديمة من لحم البقر .

اقترب ستيفن من العربة . أمعاء وسجق بشعة الشكل تتدلّى من علاّقات حديدية . فرغ الرجل من تقطيع اللحم . ثم التقط الجرس ودقه وهو يصيح بصوت عال كما يفعل الدلاّلون : « لحم طازج ، أسعار مغرية » . فخرجت نساء السنديان جرياً من أكواخهن على صوت جرسه وصوته ، ملتحفات بشيلان سود على رؤوسهن وتجمّعن فى مؤخرة العربة وشرعن يخطفن قطع اللحم من القصّاب وهنّ يتزاحمن ويمسك بعضهن بعضاً ويتمايلن فى حركات منتظمة حول العربة حتى يخيّل للناظر أنها رقصة دينية عند بعض القبائل البدائية المنسيّة .

أسرع ستيفن يبتعد عن عربة اللّحام وقد تملكه الاشمئزاز وبعض الجزع . لم ينس قطّ أن عليه الصمود أمام تجربة الشعور بالقنوط والكراهية ، لكن هذا

التزاحم الذى يشبه الحرب من أجل بعض بقايا لحم فاسد وضع تحدياً لمثله الأعلى فى الآداب الاجتماعية . فى صعوده التل أيقن كم تتحمل النفوس من عبء أميالها الجسدية : تيارات الشهوات والرغبة الجامحة التى هى جزء من متاعب الإنسان اليومية . تطلع إلى ورائه من أعلى التل فرأى مشهداً غريباً تحت قدميه يعيد الذكرى إلى رسومات « بروجل » فى تصوير حياة الناس وأعمالهم . كان سكان السنديان يقومون بأعمالهم المختلفة: الضرورية ، البائسة ، التافهة .

سأل ستيفن نفسه : « ماذا كنت أنتظر من هؤلاء الناس ؟ آداباً عالية ، مناقشات فلسفية ، أم تقوى ساذجة ؟ هراء! » وأخذته الشفقة والمحبة . وبدأ يدرك نفسيّة أولئك الأشخاص ، وأنه يجب عليه فى كل عمل يقوم به للتقرّب من تلك النفوس الساذجة تقدير واقع الأمور الدنيوية الفانية .

استدار ستيفن فرأى الممرّ الضيّق العالى الذى أشار إليه نيدهالى ، وفى القمة الأخرى ظهرت كنيسة القديس بطرس بحجمها الضخم . تغاضى ستيفن عن تحذير رئيسه وقرّر السير فى الطريق الذى يقطع الوادى . فقاده الطريق الضيق الذى يكاد لا يتسع لشخص واحد ، إلى منحدر تحوطه الأشواك داخل أرض موحلة لزجة تراكمت فيها الأشجار المائتة وقد دفن نصفها فى برك من الماء العكر لم تلبث أن أصبحت مهاوى خطرة تغطّيها الحشائش والأعشاب . وقف ستيفن وحاول أن يقتلع حفنة منها لكنه دهش من قوّة التصاق الأعشاب بالأرض الرطبة . ما أصلب تمسك الأشياء بالأرض التى أخرجتها ! مع ذلك فعند معاينته الأعشاب الخضراء وجدها بديعة التشكيل تشتبك فيها الخيوط والرؤوس فى دقة تفوق شغل الإبرة . قرّب العشب من أنفه فوجد رائحته تشبه مزيجاً من الموت يميل إلى الحياة : إنها أولى روائح الطبيعة !

بدأ الطريق يصعد رويداً ، واختفت المستنقعات وظهرت أشجار الصنوبر عظيمة رهيبة ضخمة الساق غليظة الأغصان كثيفة الأوراق . وكلما توغل ستيفن فى الغابة ، انخفض الضوء وانقلب لونه أخضر تخترقه أحياناً أشعة بيضاء تنبثق من الشمس كالسهام . كان ستيفن ملمّاً بالتوريات والأمثال التى استعملها الرجال من كل عصر فى وصف الغابات . فداعب نفسه بهذا السؤال : « أىّ غابة هذه ؟ » ليست الغابة التى التقى فيها دانتى برائده القديم الذى قاده وسط

الجحيم والمطهر . ليست أيضاً غابة « جرندل » الحزينة الموحشة ، أو المغارة المتشابكة الأغصان التى أخفت جزّة ياسون . أبعد ستيفن من مخيّلته هذه الصور السامية الغابرة . فقد أوحت إليه أشجار الصنوبر المختفية فى الوادى بين السنديان وكنيسة القديس بطرس بمعنى آخر قريب يمسه ، لكنه لا يزال كالداء متخفياً بين طياته .

وقف ستيفن على بساط من الإبر الخضراء ورؤوس الصنوبر البنية القاتمة ، وسرّح طرفه بين الأغصان الغليظة التى تمتدّ فوق رأسه كالشمعدانات الثقيلة . وقرّر فى نفسه أن يأتى وحده غالباً إلى هذا المكان ـ أيّاً كان السر الذى يكتنف هذه الأشجار ـ ليتلو صلاته وينسى وحدته كبشر ، ويذكّر نفسه بالغاية الروحية التى كرس لها ذاته كاهناً .

تبع الطريق وسط الغابة وتسلّق سفحاً عالياً وخرج من هذا المضيق إلى باب دار الكنيسة الخلفىّ . قد قام بدورة كاملة حول رعيته . والتقى بالفقر والانحطاط والتعاسة والإهمال . واكتشف السنديان الذى يرتكز عليه مصيره . ورحّب ببوتقة الخبرة التى سوف تصهره فولاذاً أقوى وأصلب .

١

فاق فقر رعية القديس بطرس ما كان يتصوّره ستيفن . لم يكن عند سكان السنديان دخل يسدون به أودهم ، فأهملوا راعيهم . لم يدفع أحد اشتراكه . كانت التقدمة التى اعتادوها فى القداس سنتاً واحداً . ومرّة فى يوم أحد ممطر من أبريل جمعت التقادم اثنين وتسعين سنتاً فقط . أستغفر الله ! فالله نفسه لا يستطيع أن يدير رعيّة على هذا الدخل !

ذات مرّة حثّهم الأب هالى على التبرّع فى ظرف خاص من أجل « فلس القديس بطرس» — وهو تبرّع سنوى تقوم به جميع الكنائس لمساعدة الحبر الأعظم فى روما — فجمع له أبناء رعيته دولاراً واحداً وخمسة وثمانين سنتاً . واعتاد الراعى أن يضيف إلى هذا المبلغ بعض القطع الفضية المتوفّرة عنده ويطلب إلى مساعده أن يرسل حوالة بريدية بمبلغ دولارين ونصف دولار إلى أمين صندوق الأبرشية .

سرّ الأب فرموبل سروراً عظيماً فى داخله وهو يكتب الحوالة البريدية . تصوّر الكردينال وهو يمرّ سريعاً بإصبعه على لائحة التبرّعات الرعائية ثم يتوقف عند : رعية القديس ، بطرس ، ستونبيرى ماس ، ٢,٥٠ دولار . ربما ينتاب نيافته نزيف فى المخ . .

زاد دهش ستيفن من تفنّن رئيسه فى العمل دون دخل ثابت . فقد عوّد نفسه أن يقتات من الفضلات التى يأتى بها رعاياه : بيضة من عند « برتا كريفكور » ، وسمكة مدخّنة أو كسرة خبز من عند « أجاتا ديون » . أما طعامه الرئيسى فيتألف من طبق حساء من البسلّة كانت تضعه خفية على الرف فى المطبخ السيدتان بوشار ولوبلان . تعوّد الرجل المسنّ العيش على هذه الكمية الضئيلة ، لكن الجوع الصارخ دفع ستيفن إلى الذهاب إلى البقال فى ستونبيرى حيث صرف آخر خمسة وعشرين دولاراً على شراء كمية من المأكولات الضروريّة الأساسية : بن ، أرز ، بطاطس ، لبن مركز ومأكولات محفوظة . لكن ما

العمل عندما تنتهى هذه المدخرات ؟ فضّل ستيفن ألا يفكرّ فى هذا الموضوع الآن .

فى يأس قلّب فى فكره طرقاً ووسائل لإنعاش دخل الرعيّة . كانت الوسائل الاعتيادية لجمع التبرعات من حفلة للعب الويست أو سوق خيرية ، بعيدة المنال . ما من أحد يلعب الويست فى السنديان ، أو كانت لديه النقود الكافية لشراء الحلويات أو تذاكر اليانصيب أو التحف القديمة التى تباع عادة فى السوق الخيريّة ؟ فى لحظة يأس أوشك ستيفن أن يرسل طلب نجدة إلى كورنيليوس ديجان : « خلّص نفوسنا بالدفع نقداً » . لكنه تذكّر أن الفارس المقاول هو الآن فى رحلة مزدوجة إلى دوبلين فروما — حيث يقوم بترميم الأديرة الخربة فى الأولى ويعيد تنظيم الخطوط الكهربائية فى الأخرى . كان على ستيفن أن يختار طرقاً أخر أوضع وأفقر لطلب المعونة .

بعث برسالة إلى بل موناجان يطلب فيها مفارش قديمة للهيكل وبعض الثياب الكهنوتية ، فجاءه الرد صرّة بالمستعجل مع قسيمة بعشرين دولاراً باسم الأب هالى من أجل نياته الخاصة . أوشك ستيفن أن يقنع رئيسه بصرف هذه النقود على ترميم سقف الكنيسة ، وإذا براهب متسوّل (وهو الأخ أمبروسيوس الذى رآه ستيفن فى قاعة دار الكردينال) يحتذى صندلا ، مرّ بهذه البقاع . فوقّع نيدهالى على القسيمة وأعطاها للأخ أمبروسيوس . ثم شرح موقفه لستيفن فى حياء قائلا : « هذا لكى نساعد الرجل الطيب على متابعة عمله فى نيجيريا العليا » .

أمام هذه البراءة ، لن يفيد الاعتراض شيئاً . على كل حال ، لن تحلّ العشرون دولاراً المشكله المالية فى رعية القديس بطرس . كان نيدهالى فى حاجة إلى دخل ثابت ، وإن زهيداً . لكن قبل حصوله على هذا الدخل كان من الضرورى لسكان السنديان أن يجدوا عملا مستمرّاً . قلّب ستيفن فى فكره عشرات المشاريع لإيجاد العمل لهم . وخطر له أن المقلع الهائل القريب من المستنقعات قد يمكن تحويله إلى حصى لرصف الطرقات . لكن تحرياته أثبتت له أن ستونبيرى ليس لديها الرصيد الكافى لإقامة هرّاسة ولا تحتاج إلى حجارة . النتيجة : صفر .

مرّة بينما كان يتعثّر على سفح تل صخرىّ رأى بعض شجرات الغار البريّة ، وتذكّر أن بائعى الزهور يستعملون أوراقها الزاهية فى الزينة . فجمع منها حفنة

وذهب بها وكلّه أمل إلى بائع زهور بالجملة فى ليتشبورج . فقال له الرجل إن الأوراق ممتازة والطلب عليها يزداد ، غير أنه صدر قانون جديد فى المقاطعة يمنع جمعها لأغراض تجارية .

باءت جميع محاولات ستيفن بالإخفاق فى العثور على مصادر أخرى لإحياء دخل الرعيّة . فى هذه الأثناء ، بينما كانت تبرّعات أيام الآحاد تتناقص تدريجيًّا ، بلغه أنه — إلى أن يحين موعد قطف التوت — قد يصل سكان السنديان إلى آخر رمق .

وإذا به ، فى الوقت الذى ضاع فيه كل أمل ومال وطعام ، قد عثر على منجم قد يُظنّ ذهباً خالصاً .

فى عودته من جولة طويلة عقيمة حول الرعيّة ، انحدر إلى مضيق عميق بين السنديان وكنيسة القديس بطرس ، واختار طريقه عبر الأراضى الموحلة حتّى وصل إلى غابة الصنوبر القاتمة . وإذا به يسمع فى زاوية الغابة صوت ضربات بلطة معدنيّة تتجاوب مزدوجة بانتظام . فتقدّم فى ظلال الأشجار الخضراء المعتّمة ووقف تحت غصن صنوبرة ضخمة وإذا به يرى رجلين يلوحان ببلطتيهما فى طريقة لا يجيدها إلا الكنديّون الفرنسيّون . كانا يعملان بسرعة فى قطع شجرة ضخمة ، وبالقرب منهما شجرتان مرميّتان فى فسحة صغيرة وبجوارهما منشار كبير لقطع الأخشاب .

لم يكد ستيفن يضع قدمه فى الفسحة الخضراء حتّى صرخ أحد الرجلين واختفى كالظبى بين أشجار الغابة . أما رفيقه فرفع بصره فى دهشة ، ولما رأى الكاهن ارتمى على ركبتيه ، وطفق يقرع صدره ، ويردد فى جزع : « خطيئتى عظيمة » .

كان الرجل الجاثى على ركبتيه هو هرقل منتون .

توسل هرقل عندما اقترب ستيفن : « اغفر لحطّاب فقير ، هى فقط الشجرة الثالثة التى قطعناها . العفو ، يا سيد » .

فسأله ستيفن فى دهشة : « لماذا تطلب عفوى ؟ — قف يا رجل ولا تركع أمامى » .

انتصب هرقل ، وشارباه متدليان ندماً .

سأله ستيفن : « هل تملك هذه الأشجار؟ » .

فهزّ هرقل رأسه بشدة : « كلاّ » .

— « ومن يملكها ؟ » .

— « الكنيسة تملكها » .

— « أتعنى أن هذه الغابة تخصّ رعية القديس بطرس ؟ »

أحنى هرقل رأسه إيجاباً : « منذ عشرين سنة ترك "ڤينس ترودو" كل هذه الأشجار للرعية » . ثم أضاف وفى صوته رجاء بالمعذرة : « قد قلت للأب هالى فى العام الماضى إن القدم من خشب الصنوبر تساوى ثلاثة عشر سنتاً فى ليتشبورج».

— « أعتقد أنك كنت ستقطع هذه الأشجار وتبيع خشبها ثم تأتى بالنقود إلى الأب هالى ؟ » .

أمام هذا التفسير اللطيف المخالف للواقع ، زمجر هرقل فى سرور : « نعم ، هذا ما كنت أفكر فيه » .

فأشار عليه ستيفن بقوله : « حسناً ياهرقل ، امتنع الآن حيناً عن خدماتك الإنسانيّة ، فيجب أن أهيئ الأب هالى لهذه الصدمة » . وقدّر ستيفن الدخل الوارد من مئة ألف قدم من خشب الصنوبر بواقع ثلاثة عشر سنتاً فى القدم فحثه ذلك على أن يكون عطوفاً بحال هذا الرجل : مختلس الخشب ، وصانع الربابة وناسف الديناميت المتعطّل .

— « لا تقل شيئاً من هذا لأحد يا هرقل . أعتقد أنه فى استطاعتنا تشغيل جميع سكان السنديان القادرين على العمل ، لأوّل مرّة منذ أقفلت مقالع مرلين أبوابها » .

فى ذلك المساء بعينه أشار ستيفن فى حديثه مع نيد هالى إلى موضوع غابة الصنوبر ، وكان ذلك بعد عشائهم المعتاد من شاى وخبز وسمك مدخّن . فبدأ حديثه بقوله :

— « أبلغتُ اليوم فى القرية أن الرعية تملك بقعة واسعة من شجر الصنوبر ».

— « شجر الصنوبر ؟ » وبدا صوت الرئيس نيد شبيهاً بمريض يحاول تذكّر الوقت الذى تناول فيه دواءه سابقاً .

— « نعم ، فى أسفل الوادى ، ألا تعلم ؟ » .

— « أعتقد أنى أتذكر المكان . وفى عيد الميلاد نقطع شجيرات خضراء . إن الأشجار هنالك ضخمة جدًّا » .

— « ضخمة وثمينة جدًّا أيضاً . أتتصور يا أبى أنه يوجد ما يوازى عشرة آلاف دولار ثمن أخشاب فى تلك الغابة ؟ »

— « حسناً ! حسناً ! لم أفكّر فى ذلك ألبتة » .

قرّر ستيفن أن يعطيه فكرة عن الموضوع ، فاستطرد للقول : « قد سمحت لنفسى يا أبى ببحث الموضوع مع واحد من أبناء الرعية : هرقل منتون » .

— « نعم ، هرقل . إنه صديق محسن عزيز . إنه لطيف جدًّا ، فيملأ أحياناً صندوق الخشب بصدقاته » .

واستطرد ستيفن لحديثه قائلا : « يؤكّد لى هرقل أنه بمساعدة رجال قلائل — آه — من الأصدقاء الأعزاء ، يستطيع قطع أخشاب فى الشهر القادم ، قيمتها عدة مئات من الدولارات » .

لم يمانع نيدهالى إلى الآن فى إسعاد كاهنه المساعد ، لكن فكرة قطع أشجار الصنوبر لم ترقه كثيراً . فسأل ستيفن بسذاجة : « وما لنا والتورّط فى تجارة الأخشاب؟ » .

— « لماذا ؟ » كاد ستيفن أن يفقد أعصابه : « لماذا ؟ »

أوشك ستيفن أن يقول : « لنحصل على المال حتى نجعل من كنيستنا مكاناً محترماً لائقاً بالقربان المقدس حتى نقوى على مساعدة المرضى والفقراء فى الرعيّة . حتى يكون لدينا خبز ولحم على المائدة » .

قد يستطيع ستيفن قذف قوام موناجان الضخم بهذه البراهين ، لكن تجرّد نيدهالى وسكون عينيه الغائرتين خفّفت من حدّة حماسته فى تجارة الخشب . فقال :

— « قد أردت فقط أن أعرض عليك مورداً لدخل الرعيّة » . ولو قال شيئاً آخر لصَدمَ نيدهالى فى اختصاص سلطته .

— « أشكر لك هذه الفكرة ، يا أبى » .

لا أكثر ولا أقل . لا مواربة ولا تهكم ! . . .

ـــ « أنا الذى يدير هذه الرعية » .

لا مبادئ نظرية وخيالية فى فضيلة الفقر . لا اعتذار عن الماضى الحزين أو الحاضر التعيس . فقط رفض دون تكلف أمام عرض يستحيل تنفيذه ! . . .

تلقن ستيفن من هذا الرفض الرقيق حقيقة روحية أعمق أثراً من كل ما تعلمه من القديس فرنسيس أو من ألفيو كارنجى . تبين له أن هذا الكاهن المنسى لديه ثقة هادئة ثابتة فى خيرات لا يستطيع اللصوص أن يمدوا لها يداً ولا الصدأ أن يفسدها . لم يذكر نيدهالى نص القديس متى من ألا يحمل أحد معه كيساً أو مزوداً . كان فقط الرجل الذى لا مزود له ، يرفض فى شدة وجزع أن يثقل نفسه بكنوز زائلة .

أمسى ستيفن جزعاً أيضاً على مثال رئيسه من إحراز كنوز فانية . بعد ذلك العشاء من خبز وسمك لم يهتم قط بالمال . أدرك أن الإنسان يمكنه العيش دون مال ، أو على كل حال دون التهالك عليه . أدرك أيضاً أن كل التعب الذى قضاه فى استنباط وسائل لزيادة الدخل كان مضيعة لوقته وذهنه .

وأخيراً ثبت الإيمان ستيفن فرمويل لمستقبل حياته كلها ـــ الإيمان بأن المال سوف يأتى بطريقة أو بأخرى ، وإذا لم يأت فهو خير حل أيضاً .

كان يرد بإبهام على أسئلة هرقل منتون بشأن غابة الصنوبر ، ثم وجه كل عنايته إلى عمله الحقيقى فى رعية القديس بطرس .

* * *

اهتم ستيفن فى بدء الأمر بتثبيت مبادئ التعليم الدينى وممارسته التى أهملها سكان السنديان . ألف فصلا مختلطاً للمناولة الأولى من صبيان وبنات ولقنهم مبادئ العلوم الإلهية فى كتاب التعليم المسيحى الأزرق والأخضر ، وكان من وقت إلى آخر يعطيهم درساً فى القراءة والكتابة الإنجليزية . ثم علم فريقاً من الصغار المتفوقين الطريقة الصحيحة فى خدمة القداس ، مع معلومات أخرى فى كيفية استعمال الصابون والماء والفرشاة والمشط . كل يوم جمعة مساء فى أثناء الصوم الأربعينى الكبير كان يقوم بتلاوة صلاة درب الصليب الجميلة ، رمزاً

لآلام المسيح . كان الأرغن معطلا لا أمل فى إصلاحه ، فعلّم ستيفن مساعديه كلمات القطع وموسيقاها غيباً . فى الأوائل كانت أصوات الصغار يتردّد صداها فى كنيسة فارغة ، لكن تدريجيًّا بدأ الكبار يتسلّلون إلى داخلها ليراقبوا الموكب الرمزى ، ثم انضموا يردّدون فى لهجتهم الفرنسية المتعثرة صلوات الوردية فى أسرارها الخمسة الحزينة . وامتنع ستيفن فى حذر كبير من جمع التبرعات التى تختتم بها عادة هذه الصلوات .

عند تحضير عظته ليوم الأحد اتخذ ستيفن الأب هالى مثلا له يحذو حذوه . لم يكن الأب هالى موهوباً فى الوعظ ولم ينصح أو يردع أو يصدر أحكاماً أدبية لاهوتيّة بشأن السكر أو الزنى أو إهمال حضور القداس . لم يرث لحال رعاياه ولم يمدحهم بما يحوزونه من فضائل . حالاً أيقن ستيفن أن هذا التساهل الظاهر ما هو سوى حكمة من نوع خاص موجّهة بدقة تامة فى مستوى تفكير رعاياه . فترك لغة الفلسفة والبيان وتحدّث ببساطة واختصار إلى مستمعيه الجهلة دون أن يثقل عليهم قط بما لا يستطيعون حمله .

ثم تقرّب تدريجيًّا إلى سكان السنديان فوجدهم باستثناء فقرهم المدقع لا يختلفون عن باقى العائلات الإرلنديّة أو الإيطاليّة الأصل التى عرفها فى رعيّة القديسة مرجريتا . كان أولئك المنفيّون من الكنديّين الفرنسيين أقل حماسة وحركة من الإرلنديّين وأبطأ ذكاء من الطليان . كانوا أناساً بدائيين ، خرافيين ، يخشون الغريب ويهربون — كالحيوانات الصغيرة — إذا اقترب منهم أحد فجأة . غير أنهم كانوا يمرحون كالأطفال ويغالون فى وصف الأخبار (وهرقل منتون مثل رائع لهم) مما حدا بهم إلى التفاخر والكذب . وما يُظنّ فيهم كسلا كان استسلاماً فلسفيًّا ليأسهم الشديد البائس . راقب ستيفن فريقاً من الرجال مستندين فى ارتخاء إلى الجدار وهم يدخّنون غلاييهم بملل ، فذكّره ذلك المشهد برجال قذفت بهم العاصفة إلى الشاطئ بمركبهم وباتوا ينتظرون المدّ ليحملهم ثانية إلى هدفهم .

كانت ميزة رجال السنديان حفر الخشب بالمسفن . فقرّر ستيفن استغلال هذه المهارة النادرة عندهم . اقنع « ألفونس بواڤير » بإصلاح الصليب المكسور على قبة الكنيسة . فقام بواڤير بإصلاحه بحذق ، ثم رمّم ودهن المقاعد التى سبّبت لستيفن

حزناً شديداً . وحتّى لا يشعر هرقل منتون بالضيم سأله ستيفن أن يجدد أيقونات مراحل الصليب . ولما أتمّ هرقل عمله ، وقف فخوراً خارج الكنيسة يوم الأحد وخاطب فريقاً من المعجبين به قائلا : «أترون هذه الأيقونات اللعينة ! إنها أفضل مما تشترونه فى المتاجر» . فعقّب ستيفن على كلامه قائلا : « إنّك على حق يا هرقل ، لو حذفت فقط كلمة اللعينة من كلامك » .

مضت الأسابيع ومع ذلك لم يدخل ستيفن عتبة باب واحد فى السنديان . انتظر فى صبر دعوة لدخول أحد هذه الأكواخ القذرة ، لكن لم يدعه أحد . كان نيدهالى يقوم بجميع زيارات المرضى سائراً على قدميه فى جميع أنحاء رعيّته ثم يعود معفّراً موحلا وقد أنهكه التعب . كم من مرّة توسّل ستيفن إلى رئيسه أن يخفّف عنه أتعابه لكن نيدهالى كان دائماً يرفض له طلبه بكلمته الرقيقة : « إن سكان السنديان تعودوا رؤيتى . والمستقبل أمامك يا أبى » .

جاءه المستقبل بفرصته . كان ذلك يوم جمعة ظهراً فى منتصف مايو . كان ستيفن مستنداً إلى حاجز حجرى فى السنديان يتداول مع « روى بواڤير » فى أمر تصليح نافذة فى الكنيسة وإذا به يرى امرأة هرقل منتون تصعد التل نحوه . كانت آديل منتون فى سن الخامسة عشرة مضرب المثل فى الجمال ، بين فتيات اسكتلندا الجديدة ، لكن عشرين سنة من الفقر وإنجاب الأولاد وتربيتهم قد أذابتها حتى ضمر عودها . كانت مرتدية جلباباً أحمر خافت اللون متّسخاً ، وبدا فمها منكمشاً من كثرة التعب المزمن المرهق . إن ما تبقى من جمالها هو شعرها الذى ما زال أسود اللون ، تعقده على عنقها بمشط رخيص . رفع ستيفن قبّعته وحيّاها مبتسماً ، لكنّ عينى آديل منتون العقيقيّتين لم تختلجا . شعر ستيفن أنها ليست فى حاجة إلى كلامه وإرشاده بل إلى شراء بعض الأكل والصابون ومشط جديد لشعرها ، وبعض الملابس القطنية لأولادها . تسلّلت آديل داخل كوخ لا باب له . ما أتعسها امرأة لرجل دون عمل ! . . .

لم يكد ستيفن يفرغ من حديثه مع بواڤير حتى خرجت آديل مسرعة وهى تصيح : « إن هرقل قد شق قدمه . هلمّ سريعاً » . فقفز ستيفن ودخل الكوخ . كان المكان مليئاً بالذباب ، وطفل عارٍ يلعب على الأرض ، وبعض بقايا

الطعام مبعثرة على مائدة دون غطاء ، وحوض حديد أسود تراكمت فيه الأوانى والصحون القذرة ، ووعاء ماء ساخن يغلى على موقد من الصاج البالى . فى زاوية من الحجرة رأى ستيفن سريراً من حديد وعلى فراش عارٍ وجد هرقل منتون يشهق بالألم والدم ينفر من كاحله .

كانت معرفة ستيفن بالإسعافات الأوليّة ضئيلة ، مع ذلك فقد قبض بكلتا يديه على ساق هرقل السفلى . رأى الشريان المقطوع وكأنه قطعة من المكرونة المبتورة ، فثبّت إبهامه عليها بقوّة . لكن الدم لم يزل ينفر وخشى ستيفن أن يهبط هرقل من فقدان دمه . فقال لآديل :

— « أعطينى شيئاً أربط به ساقه . مزّقى قطعة من الفراش أو من غطاء المخدة ، أو أى شىء آخر » .

لكن لم يكن لدى آديل منتون فراش أو غطاء مخدّة لتقطعه . كان أقرب شىء عندها جلبابها الأحمر الذى ترتديه . أوشكت أن تمدّ يدها لتمزّقه وتأخذ منه قطعة ولكنها امتنعت لعلمها أنها سوف تقف عارية بعودها النحيل أمام كاهن . وحثّها غريزتها النسائية البدائية فنزعت المشط من رأسها وفكّت خصل شعرها وأتت بمقص وقطعت خصلة من شعرها الأسود .

— « هل ينفع هذا ؟ » .

أخذ ستيفن حبل الشعر وربط به الشريان المقطوع واستعان بالمقص ولوى شعر آديل منتون حتى ربط قدم هرقل ربطاً محكماً . وبينما هو فى عمله إذا بالطبيب البيطرى « باربى لوبلان » قد ظهر فى الكوخ وقال مهنّئاً ستيفن : « إسعاف جميل يا أبى » .

ثم حدّق البيطرى ببصره فى جرح هرقل وقال : « لو زاد الجرح ربع بوصة أخرى ، لسبّب لنا متاعب جمة . لكن يمكننا معالجة ذلك بغرزة واحدة حالا » . وأخرج إبرة وخيطاً من حقيبته وخاط طرفى الشريان معاً فى دقة وعناية .

ثم سأل مستبعداً الجواب الشافى : « أعتقد أن ليس عندكم أربطة فى البيت » .

تقدّمت منه عجوز شمطاء لا أسنان لها وفى يدها سبت مملوء طحلباً أبيض نديًّا ، وقالت : « هذا أفضل من الأربطة » . وقدمت منه حفنة إلى باربى فى

ثقة تفوق ثقة الأطباء فى دواء واف شاف

– « لا بدّ من استعماله الآنّ » ، تمتم باربى ، وهو يغطّى بالطحلب الجرح الدامى ليمتصّ ما تبقى من دم . ثم فك ربطة الشعر وأمر آديل منتون أن تهيّئ فنجالا من الشاى لزوجها .

وقال : « سيعيش زوجك » .

وإثباتاً لهذه النبوءة ، فتح هرقل عينيه . ولما رأى ستيفن وباربى والجيران تضيق بهم الحجرة ، استعاد فى ذاكرته ما حدث له ، وتمتم فى اعتذار : « هذه البلطة اللعينة ! قد زلقت من يدى . أيتها العذراء الطاهرة ، ما أتعس حظى ، لأنى أكلت أرنباً يوم الجمعة » .

فشجّعه ستيفن بقوله : « لاتيأس . عليك الآن بالراحة لتتحسن حالك » .

لكن ما العمل فى حجرة قذرة ازدحمت بسكانها وأثاثها ! لن يحل هذه المشكلة سوى عقل أذكى من عقل ستيفن . وهرقل يعرف من هو هذا العقل المدبر . فقال لزوجته كمن يسألها بإحضار شخصيّة بارزة : « أرسلى فى طلب لالاچ » .

– سأله ستيفن: « من لا لاچ ؟ » .

– « هى ابنتى الكبرى ، وتعمل ممرضة فى ليتشبورج . عندما تسوء الأحوال هنا – وحرك هرقل إصبعه فى حركة متعرّجة – فلالاچ تقوّم كل شىء » .

– « لا بدّ أنها عبقريّة » أردف ستيفن ، وسرّح طرفه ببطء حول الحجرة القذرة . لو استطاعت لالاچ أن تقوّم هذا الخليط فلا شك أنها فتاة عجيبة . ربت ستيفن على كتف هرقل مشجعاً ثم استدار نحو آديل منتون ولم تزل واقفة عند قدمى السرير ، وقال لها :

– « يقول الشعراء إن الشَّعْر هو إكليل مجد للمرأة . وقد برهنت على ذلك اليوم » . تخيّل ستيفن ، لكونه رجلاً وكاهناً معاً ، أن آديل منتون سوف تدرك على الأقل جزءاً مما عناه بقوله .

* * *

عندما عاد ستيفن فى اليوم التالى ليتفقّد حال هرقل ، وجد الكوخ قد تغيّر تماماً . لا أطباق قذرة فى الحوض ، الأرض تبرق ، والأطفال يشرقون كالملائكة

وقد فاحت منهم رائحة الصابون ، وهرقل ممدّد على كرسيّين وقدمه ملفوفة برباط أبيض نظيف من كاحله إلى ركبته .

سأل ستيفن : « من قام بهذا العمل العجيب ؟ » .

ابتسم هرقل لدهشة الكاهن وقال : « هى لالاچ . إنها تأتى حالما أرسل فى طلبها . لم تهدأ الليلة الماضية فى ترتيب كل شىء » . ثم نادى : « لالاچ : تعالى سلّمى على الأب فرمويل » .

حوّل ستيفن رأسه فرأى امرأة شابة تدخل الحجرة ، أشبه بالغادة السمراء التى تتغنّى بها الأساطير وقد برزت الآن إلى الحياة . كانت ترتدى ثوب الممرضات أبيض ناصعاً كالقرنفلة . فحيّاها ممتدحاً بشاشتها ووجودها بالقرب من والدها .

— « إن مريضك قد تحسّنت حاله سريعاً . قد صنعت حقّاً عجباً » .

اندفع الدم إلى وجنتى لالاچ لهذا المديح ، وقالت : « أشكرك يا أبى » .

وإذ أحسّت بشعور غريب يتملكها خفضت من طرفها وصوتها ، ولم تنظر إلى ستيفن بل راحت ترتب المخدات والمفارش كأن أصابعها تجعل كل ما تقع عليه يدها منظماً .

قدّر ستيفن خجل الفتاة وامتناعها فقال : « هل ترسلين فى طلب الطبيب چوننجز من ستونبيرى ؟ »

— « لا أعتقد ، اللّهم إذا تعفّن الجرح . إن ذلك الطحلب المقيت كان ممزوجاً بأشياء كثيرة غريبة لا يصلح وضعها على جرح . لكنى قمت بتنظيفه الليلة الماضية » .

لم تذكر لالاچ ما قامت به من تنظيف شامل فى أرجاء البيت بل قالت : « أعتقد أن كل شىء سيسير على ما يرام ، إذا مكث أبى فى فراشه نحو أسبوع تقريباً » .

قال هرقل مساوماً : « سوف لا أتحرك من مكانى ، إذا لم تتحركى أنت من هذا المكان » . ذكّر هذا الصوت الحزين ستيفن بصوت دونيس فرمويل وهو يتحدث إلى هيلانة .

— « سأمكث أسبوعاً — قالت لالاچ — إذا وعدتنى بحفر يد ربابة وأنت ممدّد

هنا على فراشك . سيساعدك ريف . — ثم استدارت نحو ستيفن — ألا ترى معى أن وجود اثنين من لاعبي الربابة فى البيت يقتضى صنع كمنجة من وقت إلى آخر ؟ »

— « أعتقد ذلك ، دون شك » .

وأمام اتفاق رأيهما ، انتعش صانع الربابة فخراً وقال : « قولى لريف أن يحضر لى قطعة الإسفندان من على الرف الأعلى . مع الإزميل وحجر المسن أيضاً . وسترون من يستطيع أن يصنع أفضل ربابة لعينة تشترونها فى بوسطن » .

خرجت لالاچ يتبعها حفيف ثوبها المنشى ، ثم رجعت مع أخيها روفائيل : شاب فى السادسة عشرة ، وهو صورة ناطقة مصغّرة لأبيه هرقل ، ولفائف أوراق الخشب ، دليل جميع من يعملون فى حفر الخشب ، تتعلق ببنطلونه المتمزق وشعره الأسود . كان يحمل فى يد قطعة من خشب الإسفندان وفى الأخرى أنواعاً من الأزاميل والمقاور والمسافن .

— « هذه ، يا أبى ، قطعة الإسفندان التى طلبتها » .

التقط هرقل قطعة الخشب ولوّح بها إلى ستيفن وقال : « إن قطعة الخشب هذه لها ثلاث سنين — ومرّ بإصبعه على تموّجات الخشب — انظر إلى هذه الشعلة . إنها أفضل شعلة فى أمريكا الشمالية » .

فشرحت لالاچ : « بالشعلة يعنى خطوط الخشب الحمراء . انظر ، سوف أريك » .

وانحنت لترسم بإصبعها على قطعة الخشب الخطوط المتموّجة التى يعتزّ بها صانعو الربابات . وفى انحنائها تطايرت خصلة من شعرها المنساب ولمست خدّ ستيفن . وقالت :

— « هذا ما يجعل الربابة تغنى . أبى وريف اكتشفا بنفسيهما شجر الإسفندان وقطعاه ثم تركاه ينشف — وأعادت القطعة إلى هرقل — والآن سيبدأأن حفره وتقعيره » .

بدأ هرقل عمله الدقيق فى حفر وتقعير يد للكمنجة ، بمساعدة ريف الذى كان يعدو ذهاباً وإياباً لإحضار الأدوات ، وآلات المقاييس . راقبهما ستيفن ما يقرب من ساعة ورأى المقاور ترسم على الخشب دوائر ذهبية دقيقة . وبينما أكبّ الأب

وابنه على عملهما . ابتسمت لالاچ لستيفن ووضعت إصبعاً على شفتيها .

وابتسم لها ستيفن أيضاً مقتنعاً نفسه بعد كل ما رآه منها : أن لالاچ منتون هي دون استثناء أبرع وأشجع وأبدع بنات آدم جميعاً . وبينما هو راجع إلى دار الكنيسة عبر الوادىّ الحجرى : تطرّق إلى مخيلته أن لالاچ باستثناء واحدة فقط ، هي أيضاً أجمل مخلوقة على الأرض . حينئذ فقط تذكّر شعوره الأول عند رؤيتها .

تساءل ستيفن : « ما هذا ؟ هل أندم على قدوم لالاچ إلى بيتها ؟ » .

ذهل ستيفن من تضارب مشاعره وقرّر ألاّ يرى قط هذه المخلوقة الجميلة . مكث بعيداً عن كوخ منتون أسبوعاً تقريباً . وعندما عاد إليهم ثانية كان هرقل يتمشّى فى البيت على عكاز من صنع يديه ، وآديل تختال بثوبها الأحمر الجديد ، ولالاچ قد ذهبت .

* * *

تمايل الصيف نحو الخريف . أخبر بولس آيرتون فى رسالة له إلى ستيفن عن ظفر الأمريكان فى غابة « بلّو » : « إن أسلحتنا ثابتة فى مكانها حتى العرض الأخير » . وفى أوائل أغسطس وردت رسالة أخرى من كارنجى يقول فيها : « عزيزى ستيفانو : النهاية اقتربت . . برلين توفد من يستشفّ الصلح . اكتب لى بالتفصيل عن رعيتك الجديدة . صديقك المحب فى المسيح : ألفيو . ملحوظة : لا تحزن أيها الصديق العزيز ، لما حلّ بترجمتك . إن أعمالنا كأيامنا هى فى يد الله » .

ألقى ستيفن رسائله فى صندوق بريد ستونبيرى كما لو كان يلقى حجارة فى قاع بئر . إن الحياة فى رعية القديس بطرس قد صورت له العالم بعيداً جداً ، أو مسرحاً ينظر إليه خلال عدسات معكوسة . لم تثره حوادث العالم الجارية . أحياناً فى بعض الأمسيّات كان يمسك « بالمرشد » ويقرأ أنباء الأبرشية كما لو كانت تجرى فى كوكب آخر : « ثلاثون من الكرمليات يعقدن نذورهن الكبرى فى دير الشجرة المقدسة » — « الكردينال يضع الحجر الأساسىّ لميتم القديس بونا فنتورا » « المنسنيور ماك ويلى يقوم باحتفال الذكرى الخمسينية لكهنوته » .

المصروفات تزيد والتبرعات تنكمش . والسعال يرنّ صداه داخل الكنيسة

كلها . كما كان منذ البدء ، والآن ، وإلى دهر الدهور . آمين . . .

ذات مساء خانق فى منتصف الصيف والهواء مشبع بأزيز الحشرات ، أمسك ستيفن بترجمته سلّم المحبّة . لم يفتحه منذ قدومه إلى ستونبيرى ، فشرع يقرأ كمن يقرأ مخطوطاً لقيه فى زجاجة تائهة على شاطئ المحيط . كانت الأفكار والتعابير تنبئ عن رجل حسّاس واسع الاطّلاع خبير فى الحياة الروحيّة التصوّفية . لم يستطع ستيفن تغيير جملة واحدة فى ترجمته لكتاب كارنجى ، الذى — وإن بدا سامياً — لم يكن حجة فى البيان أو طموحاً فى غايته . رأى ستيفن بخبرته الجديدة أن الكتاب فى أحسن الافتراضات محدود المجال . ورنت فى أذنه تهمة جلينون الغاضبة : « ألا يهمّك أمر المتعطّلين والمتشرّدين والبسطاء الآخرين ، إيه ؟ »

فتمتم ستيفن فى داخله قائلا : « . . . لكنت قلت الكلام نفسه على التقريب ». والآن فقط قدّر ستيفن — كما لم يفعل من قبل قط — صحّة غضب الكردينال .

ألقى ستيفن مخطوطه فى قاع درج من خزانة ملابسه ، وإذ همّ بإغلاق الدرج رأى علبة صغيرة مستطيلة كان قد نسيها تماماً . فتح العلبة وإذا به يجد وسط مخمل أبيض خاتماً يلمع تحت ضوء المصباح . حجر جمشت مغروس فى ذهب خالص وحوله درر بيضاء . إنه خاتم أورسلى . خاتم مطران . كان الفلورنسىّ قد تنبأ له قائلا : « ستتقدم صعداً » . وضع ستيفن الخاتم جانباً وقد تأكّد له أنه فقد كل أمل وكلّ رغبة فى تحقّق نبوءة جيتانو أورسلى .

* * *

بعد أيام مرض نيدهالى . وأخذت صحته تهبط تدريجيًّا كل الصيف على مرأى من الجميع . ظهرت علامات الضنى فى شفتيه وجفونه . وزاد ارتعاش رأسه ويديه . أصبح إبهامه وسبابته شبيهتين بإصبعى صيدلى عجوز لا ينفك عن لفّ أقراص الدواء . ثقلت ساقه اليسرى وبدأ يجرها بصعوبة ثم اختلّ توازنه وتمايلت مشيته إلى حدّ مزعج .

ذات ليلة بعد قيامه عن العشاء (شاى وخبز) ، دارت الدنيا بالراعى المسنّ فتمسّك بظهر كرسيّه يستند إليه . فاقتاده ستيفن إلى مكتبه وأجلسه على مقعد الشّعر وقال له : « إنها دوخة عابرة » .

عاودته هذه الدوخة العابرة فى اليوم التالى ، ففرك عينيه بيديه وتمتم قائلا : « أرى كل شىء مزدوجاً » .

ارتاع ستيفن وقال له : « يجب إحضار الطبيب » .

— « لا ، لا ، سيزول كل شىء . غداً سأصبح فى أحسن حال » .

لم تتحسّن حاله فى اليوم التالى ولم يستطع النهوض من فراشه . أما الطبيب المحلّى ، الذى كانت له خبرة فى تشخيص أمراض الحيوانات إذا رأى واحداً منها ، فلم يستطع إيجاد اسم لمرض نيدهمالى .

— « لا بد أن ضعفاً هبط على أعصابه . أعتقد أن الأفضل طلب خبير فى الأعصاب من ليتشبورج » .

— « وكم سيكلف ذلك ؟ »

— « إن رجلا طيّباً كالطبيب سيلفستر يقبل الحضور بخمسة وعشرين دولاراً »

— « أما أنا فأعرف رجلا طيّباً يقبل الحضور مجاناً » .

فى تلك الليلة طلب ستيفن الطبيب چون بيرن على الهاتف وأخبره بأعراض مرض رئيسه .

— « تقول إنه فقد توازنه ويرى كل شىء مزدوجاً ؟ كم عمره ؟ » كان الطبيب چون بيرن يزن تشخيصه بدقة .

— « نحو الخامسة والستين . لكنه يبدو فى الثمانين » .

— « آه ! . . هذه الحالة متنوّعة جدًّا . لا يمكننى الجزم بأىّ شىء . يجب أن أراه . أقول لك ، يا ستيف . يمكننى الحضور يوم السبت بعد الظهر . فإذا كان ما أعتقده ، فالحالة خطرة ، لكنها ليست محرجة . دعه فى الفراش حتى أحضر » .

— « إنى خجل يا چون لاضطرارك إلى هذا السفر الطويل لكنا على الحضيض » .

— « لا تذكر ذلك ، يا ستيف . سأكون عندكم مساء السبت » .

يوم السبت الساعة الخامسة مساءً كان الطبيب چون يقوم بفحص مريضه بعناية فائقة . دقّق النظر فى عينى الرجل المسنّ بواسطة مجهره ، واختبر انفعالاته وبحث بدقة عن الأعصاب أو العضلات الضعيفة ليثبت استنتاجاته . سأله

أن يمسك بملعقة ويقرّبها من فمه . ولما انتهى من فحص مريضه ربت على يده وقال : « سنجتهد فى راحتك ، يا أبى ، إذا قبلت ذلك فى هدوء » .

أجاب نيدهالى : « إنى أقبل كل شىء بالطريقة التى تروق لله تعالى » .

خارج غرفة المريض ، تكلّم الطبيب چون بصراحة وجدّ :

— « إنه يحيّرنى قليلا يا ستيف . لو أن رجلا فى سنّه مع أعراض المرض التى عند رئيسك ، تقدّم إلينا ، لقلنا إنه تصلّب فى الشرايين ، ولا أمل فى ذلك . إن التشخيص يدل على ضعف فى القوى المحرّكة واختلال فى التوازن » .

وشرع الطبيب بيرن يشرح الأمور كعادته :

— « أما مريضك هذا فيشكو من شىء آخر أيضاً . ألم تلاحظ ارتعاش يده لما سألته أن يمسك بالملعقة ؟ »

أجاب ستيف : « إنه يرتعش هكذا إذا أمسك بأىّ شىء » .

فأومأ الطبيب چون برأسه : « نسمّى ذلك "ارتعاشاً اختياريّاً" ، فاليد ترتعش قبل أن تمسك بالشىء ، ملعقة أو فنجاناً — ثم تقوى شيئاً فشيئاً بشكل ملحوظ وهى تقترب من الفم . يمكننى القول ، يا ستيف ، إن رئيسك قد وصل إلى حالة من تصلّب الشرايين متشعّبة » .

— « وما معنى ذلك ؟ »

— « انهيار بعض المراكز فى العمود الفقرى . وفى اختصار أن رئيسك سوف لا يستطيع تدريجيّاً القيام بأعماله الجسدية الخاصة . ولحسن حظه — وربما لسوئه — سيظل عقله سليماً » .

ثم وضع الطبيب چون بيرن سماعته فى حقيبته ، وسأل ستيفن : « منذ كم من الزمن عرفت هذا الرجل؟ »

— « منذ ستة أشهر فقط ، لكنى سمعت عنه منذ سنوات كثيرة » .

— « وماذا سمعت ؟ »

— « الجميع يعتبرونه قديساً » .

. « ألم يلاحظ أحد قط فقراً فى نشاطه ؟ »

. قد تراءى لى دائماً عليلا ، وليس فى الواقع مريضاً ، ومع ذلك فهو

يفتقر إلى القوّة الطبيعيّة » .

قال الطبيب بيرن هذا يثبت قولى إن تصلب الشرايين المتشعبة يصعب التحقّق منه فى أنواعه الخفيفة أو تطوّراته الحديثة . قد يحدث التصلّب فى سن مبكرة وأحياناً يختفى ، لكنه دائماً ينتزع جزءاً من قوّة المريض العصبيّة والجسميّة » .

سأله ستيفن : « أتعنى أنه قد يكون مريضاً منذ سنين عديدة ؟ »

— « يمكننى افتراض ذلك » .

تملّكت ستيفن عواطف ممتزجة من الرأفة والارتياح . إن الضعف الطبيعى يفسّر تماماً افتقار نيدهالى إلى العزم والقوّة .

ثم جلس الطبيب چون يكتب علاجه : « كل ما فى وسعنا هو أن نُقدّم له مسكنات وعناية مستمرة » — ثم نظر إلى ستيفن سائلا : « لا شك أنك سترسل فى طلب ممرّضة » .

— « إذا طلبت أجراً فلا أستطيع » .

— « إذن ، أصغ إلىّ يا ستيف ، إن الأبرشية مضطرة إلى الاعتناء به . أرسل رئيسك إلى دار للعجزة أو إلى مستشفى حيث يعنون به جيّداً . اتبع نصيحتى يا ستيف . أخبر بذلك رئيس الأبرشيّة » .

لكن عناد أسرة فرمويل الموروث قسّى عنق الكاهن .

— « لا أستطيع ذلك ياچون . إن نيدهالى ظل طول حياته مشرّداً ، وخيبة أمل لرؤسائه وكاهناً منبوذاً . لا أستطيع إبعاده عن رعية القديس بطرس . إذا كان سيموت ، فإنه سيموت فى سريره الخاص كراع لرعيته الخاصة » .

— « أعجب لصراحتك ولا أوافقك فى تقديرك » .

وقرّر الطبيب چون علاجين : « أعطه هذا الدواء كما هو مطلوب . ولحسن الحظ سوف لا يشعر بالألم ، والعمل أشقّ عليك منه » .

وقف الاثنان على عتبة الدار : ستيفن وچون ، كتفاً إلى كتف . رجلان مفكران ، شبيهان فى السن والقوام والخلق ، يخدمان إخوانهما ، الواحد يخدم الجسد والآخر يخدم الروح ، يربطهما التفاهم ، تفاهم قريب من المحبة .

— « إلى اللقاء يا چون . قبل عنى ريتا وطفلها » .

ثم تصافحا ، وقال الطبيب : « أرسل فى طلبى إذا ساءت حاله . أخشى أن تقوم بخدمة رجل عاجز » .

أضاف ستيفن إلى واجباته ككاهن رعية عنايته بنيدهالى ، الذى تغلّب المرض على نظامه العصبىّ ، فأصبح فى حاجة إلى من يغسله ويطعمه . كان لا بدّ من خدمات ممرضة ، لكن بسبب نفاد صندوق الرعيّة ، اضطر ستيفن إلى تحمّل أعباء خدمة رئيسه ساعة ساعة . أحياناً كانت « برتا كريفكور » أو « أغاتا ديون » تتناوبان معه الخدمة . لكن المسؤولية الكبرى فى خدمة رجل مسنّ عاجز لا أمل فى شفائه وقعت على كاهل ستيفن بنوع خاص .

فى البدء نفر من خدماته المادية ، وتملّكته نوبة من القىء عند تقديم القصرية والمبولة أو غسل الثياب والمناشف . وأغمض عينيه عند دعكه جسم نيدهالى المهدّل لحمه المتساقط جلده ، وتوقّف عن التنفّس عندما غمرته روائح المرض المتصاعدة من الحجرة .

غير أن هذه المرحلة جازت . وأصبح نفوره رأفة ، وانقلبت الرأفة إلى دهشة لما رأى من صبرٍ وعزّةٍ فى هذا الهيكل اللحمىّ الذى حوى نفس نيدهالى المكللة بالمجد.

* * *

ذات سبت شديد الحرارة من أغسطس قدم زائر إلى ستيفن . فذهب ليرى من الطارق ، وفتح الطاقة الصغيرة التى أكلها الصدأ ، فرأى ولداً ناعماً أكلف الوجه واقفاً على العتبة . لم يتردّد ستيفن فى معرفة صاحب هذا الوجه . فصاح :

« إرميا ! إرميا سپلين ! كيف جئت إلى ههنا ؟ »

— « بالتوصيلة ، يا أبى » .

— « ادخل إلى الطراوة ، فالحر خانق فى الخارج . إنك تذوب على ما أرى وسوف لا يبقى منك شىء . سأحضر لك ما تشرب » . وأحضر ستيفن كوب ماء من صنبور المطبخ .

— « كيف الحال فى رعية القديسة مرجريتا ؟ »

— « على ما يرام ، يا أبى » .

— « أتذكر القداس الأول الذى خدمته ، والحركات البهلوانية التى قمنا بها

بالكتاب ؟ — وضحك الاثنان — ماذا حل بالأبيضانى ، أعنى الأب ليونز ؟ »

— « لا يزال فى عمله . إنه يمرّن فرقة المدرسة فى الموسيقى الغريغورية . يا سلام ! وأىّ تمرين ! »

ثم ضرب چامى على وتر آخر . « إننّا افتقدناك كثيراً يا أبى » .

— « وأنا أيضا ، يا چامى . قد كنتم فريقى الأول » .

— « وكيف حال الأولاد هنا ؟ هل لديك فريق ؟ »

— « كلا ، لا يوجد عندنا فريق . أغلب الأولاد هنا كنديّون يفضلون الصيد والقنص على اللعب بالبيسبول . مع ذلك يجب تأليف فريق متين للهوكى . ما رأيك فى بعض التوت مع اللبن لغذائك ، يا چامى ؟ »

— « مدهش ، يا أبى » .

تناول چامى طبقين من التوت باللبن ثم وضع ملعقته على المائدة العارية . قد يظن الطعام قليلا ، إلا أنه لم يشر إلى ذلك . كان فكره مشغولا بشىء آخر يفوق رصانة قصص الأيام الحلوة التى قضاها فى رعية القديسة مرجريتا . أحسّ ستيفن بما سيأتى وانتظر حتى بدأ چامى .

— « يا أبى ، أريد أن أصير كاهناً » .

اعتراف خجول بالدعوة الإلهيّة ! وقبول مجيد بنعمة الكهنوت ! تذكر ستيفن أيضاً طلبه الخجول المجيد . كان ذلك منذ زمن بعيد ، فى غرفة أخرى حينما سأله الأب « أوكونور » : «كم عمرك يا ستيفن ؟ فأجابه : نحو الخامسة عشر ، يا أبى » .

تبدّل الزمان ودار !

— « كم عمرك الآن يا إرميا ؟ »

— « نحو الخامسة عشرة ، يا أبى » .

— « ومتى رغبت فى أن تصير كاهناً ؟ »

— « منذ ذلك الصباح الذى أفسدت فيه خدمة قدّاسك الأول » .

استعاد ستيفن المشهد فى مخيّلته : ولد صغير مغرم بالبطولات يشهد موكباً لكتيبة من الفرسان ، ويتمنّى شريط ضابط على يده . يحمل كتاب القداس من

جهة إلى أخرى فى حين يرفل الكاهن المصلى فى أثمن الحلل . ويتوق الولد الصغير إلى القيام بما يعمله الكاهن . إنها أقدم قصة فى العالم : الشباب يرسم دائماً لنفسه صوراً فى أعلى المراتب وأمجد القصص . مع ذلك فالحالة هذه تختلف كثيراً . يجب التحقيق .

— « لِنَتَسِرْ قليلا ، يا چامى . أريد أن أريك كنيستنا » .

تقدّما فى طريق بين ظل شجر الإسفندان الأخضر الرطب نحو الكنيسة التى بدت فى جدرانها المغطاة باللبلاب كأنها غارقة فى سلام هادئ .

— « ما رأيك فى حياة الكاهن ، يا چامى ؟ »

استرسل إرميا سپلين باندفاع الشباب فى تصوير بطله : « أرى أن الكاهن شيء مقدس » .

— « لماذا هو مقدس ؟ »

— « لأنه يلمس بيديه كل يوم جسد ربنا فى القربان المقدّس ، وهذا يجعله يتشبّه بسيدنا يسوع المسيح — أعنى على قدر الإمكان » .

— « إذن ، فأنت تعنى أن الكاهن صورة من المسيح ؟ »

— « لا أحب كلمة صورة . " شبيه به " أفضل » .

— « التمييز جيّد . لكن فيم يتركّز هذا الشبه ؟ »

— « فى محبّة الناس ومسامحتهم » .

— « يسامحهم فى أى شيء ؟ »

فبرزت معرفة چامى فى الأدب اللاهوتى على قدر إمكانياته : « لإهانتهم الله وجعله يستاء منهم ويتألم من أعمالهم » .

— « لحظة ، يا چامى . إن الله الآب ، بكونه كلى الكمال والقدرة لا يستطيع أن يتألّم » .

— « لكن ابنه تألّم . وتألم كثيراً لمّا صار إنساناً » .

بهذا تطرّق چامى إلى محور سرّ التجسد الذى به أظهر الكائن الأزلىّ نفسه فى الجسد . فدهش ستيفن من هذا الفتى النمش الوجه واعترافه بألوهيّة وإنسانيّة المسيح . لا شك إذن فى صلاحية الفتى .

ثم وصلا إلى باب المقدس . ودخلا فى الظلام . ثم ركعا أمام الهيكل ، وقدّم إرميا إلى الله أمنيّة فى قلبه ، ثم سرّح طرفه فى الكنيسة . فذهل من فقر كنيسة القدّيس بطرس المدقع بعدما تعوّد رؤية كمال الترتيب فى كنيسة القديسة مرجريتا . ولما غادرا الكنيسة قال : « ما أفقر الكنيسة ، يا أبى ! » .

— « أتخجل من خدمة الله فى كنيسة فقيرة ؟ » .

فكر جامى قليلا ثم قال : « كلاّ ، لا أعتقد » .

حفز الفضول ستيفن إلى معرفة مدى شجاعة الفتى :

— « هل تستطيع ترك أهلك وأصدقائك ، وتذهب إلى حيث ترسلك الكنيسة . يجب أن تفكّر فى هذه الأمور ، ألا تعلم ؟ »

— « لقد فكّرت فيها تماماً ، يا أبى » .

اختبار أخير ، وربما قاسٍ ، ولكنه ضرورىّ .

— « أريد منك أن تتعرّف على الأب هالى ، راعينا . إنه رجل عظيم » .

طرق ستيفن باب الأب هالى :« يا أبى ، إنه زائر من مولدن ، رعيّتك القديمة . أتسمح بالدخول ؟ »

دخل إرميا الفتى إلى حجرة نوم بائسة ، تنبعث منها رائحة المرض والشيخوخة ، ورأى محتوياتها البشعة والسرير النحاسىّ المتخلّع وعليه رجل مسن ّ غابت أسنانه ومتسنّد إلى المخدّات . ثم وقف ستيفن بالقرب منه يقول : « أيها الأب هالى ، هوذا إرميا سپلين ، أوّل من خدم لى القداس » .

تمتم الكاهن العجوز تحيّة ، فسال لعابه من فمه . فمسحه له ستيفن بمنشفة ، ومن طرف عينه راقب إرميا وهو يتجلّد بأعصابه أمام ما صدمه فى نظره وشمّه وسمعه .

طفق الفتى يرتعش واكفهرّ لون وجهه .

هل هى خدعة أو ربما خطأ فى التفكير أن توضع البداية أمام النهاية ؟ لو علم العاشق الشاب ، بعلم الغيب ، ما سوف يحل بمعشوقته فى آخر مراحل فناء جسدها فهل يستمرّ قلبه فى حبّها ؟ أو هل يبرز من الهيكل المائت شبح إصبع خفية تبثه الشجاعة وتوطد عزمه .

رفع نيدهالى يده اليابسة استجابة لهذه المشاعر وقال :

— « إن فيك دعوة » . كان صوته شبيهاً بنبوءة حارس معسكر اهتزّ طرباً لرؤية صديقه : « إنها دعوة رائعة . فليبارك الله يا بنيّ » ورسم الكاهن المسنّ علامة الصليب قائلا : « باسم الآب والابن والروح القدس » . كان ذلك بركة وكلمة سرّ معاً ، وكأن البركة تقول : « تقدّم أيها الصديق ، تقدّم بثقة ومجّد الله دائماً » .

* * *

الفصل الثالث

تألّق نجم الشعرى اليمانيّة فى فم الكلب الأكبر وخرج سكان السنديان إلى قطف التوت الغزير الناضج تحت حرارة أغسطس الملهبة . ولمّا كانت برتا كريفكور وأغاتا ديون منهمكتين طول اليوم فى قطف التوت ، كان عبء خدمة نيدهالى كلّه ملقىّ على ستيفن وحده . كادت أعمال تنظيف البيت وحجرة المريض تقصم ظهره . تراكمت الأطباق فى الحوض ، وأفلت زمام الأمور البيتيّة من يده . وأدرك ستيفن الآن فقط كيف أن العمل البيتى المستمرّ جعل آديل منتون (وملايين من النساء الأخر) فى حالة مستديمة من الضعف .

ذات مساء فى منتصف أغسطس ، حاول الهرب من أعماله الشاقة فى المطبخ وحجرة المريض ، فنزل إلى الوادى وسار بين شجر الصنوبر . ياله من معبد بارد رطب ! نعم . لكن يا لها أيضاً من نقود متجمدة ! . . لو قطعت هذه الأشجار ليسّرت عملا لرجال السنديان المتعطلين ، ودرّت دخلا ضروريّاً للرعيّة . تساءل ستيفن : هل من واجبه إهمال مشورة نيدهالى ، وتحويل هذه الغابة إلى تجارة خشب واسعة ؟ عاد يحسب ويقدّر : كيف الوصول إلى حل؟ دون شك لن يأتيه الردّ ، واضحاً مشجعاً ، من مجريات الأمور الدنيوية الفانية ؛ وإن كان ، فهو حلّ مغرض أو اتفاق عابر تافه . على كلّ قد ساعدته ساعة التريّض هذه على حلّ مسائل كثيرة . فصعد التل منتعشاً هادئاً لا يلاحقه سؤال .

كان المطبخ مضاءً . لعلّ برتا كريفكور تكنس البيت . فتح ستيفن الباب الخلفى ، وإذا به يرى لالاچ منتون أمام الحوض وقد انهمكت فى غسل الصحون .

— « هالو » قالت لالاچ وهى تدعك وعاءً بمسحوق الصابون وليفة من شعر الحديد .

كان دافع ستيفن الأول صرفها . لا بأس أن تقوم سيدة مهيبة بالعمل فى

بيت الكاهن ، لكن هذه المخلوقة الجميلة الشابة التى تتمايل فى ثوبها الضيق لا تليق ألبتة هنا . وتأملها ستيفن وهى تدعك وتفرك ما بين يديها دون النظر إليه . فلم يعبأ بالرسميـّات ونال منه الفضول فسأل :

— « من أين حصلت على ما تدعكين به الأطباق ؟ »

— « أتيت به » . هذا الطبع المداعب ورثته من هرقل .

— « هذا لطف منك » . قالها ستيفن فى مهابة مصطنعة ، واستاء من لهجته هذه بسبب اضطرابه . فأنقذته لالاچ :

— « لا تهتم بى يا أبى . قد أتيت لقضاء أسبوعين من إجازتى ، وأخبرتنى أمى أنك تقوم بالعمل كلـّه وحدك » . ثم استدارت نحوه وفى يدها طبق تجلوه وحدقت فيه وقالت : « أعتقد أنى لا أزعجك بمساعدتى لك ؟ »

— « كلا ، أبداً . لا ، بل أشكرك » .

— « إذن اتفقنا . هل تناولت عشاءك ؟ »

— « نعم ، أشكرك » .

— « وهو ؟ » وأومأت لالاچ بذقنها نحو حجرة نيدهالى .

— « أعطيته قليلا من الشاى فى نحو السادسة مساء . وهذا يكفيه الليلة » .

ثم نظرت لالاچ إلى الأشياء المبعثرة حولها وقالت : « أمامى ساعة كاملة لترتيب كل شىء هنا » .

رضى ستيفن بوجودها لما رآها تقوم بطيبة خاطر بدور مرتا فى هذا البيت المهمل . وقرّر أن من واجبه مجاملة شهامتها وكرمها وإلاّ عدّ سلوكه حياءً كاذباً أو قلـّة احترام . حاول أن يعبـّر عن مشاعره هذه كلـّها عندما تمنـّى لها : « ليلة سعيدة » .

فى الصباح التالى ارتدت لالاچ ثوبها الأبيض كأنـّه تصريح بالمرور ، ودخلت به حجرة نيدهالى المريض . نظفت الحجرة والسرير تنظيفاً كاملا وغسلت جسم نيدهالى بالكحول ونوّعت له إفطاره فأعطته قصعة من الحساء . غمر السرور ستيفن وهو ينظر إلى وجه نيدهالى يشرق وينتعش وقد بدا عليه الارتياح كطفل بين يدى أمه تقلـّبه بعطف وحنان . ومرة بعد أن غسلت له لالاچ جسمه وغادرت الحجرة سأل ستيفن : « من هى ؟ » .

— « إنها ممرضة قانونيـّة ، ابنة هرقل منتون صانع الربابة . هل أطلب إليها أن تغادر المكان » .

انقلبت حيرة نيدهالى إلى هلع وأسرع يقول : « لا ، لا ، لا تصرفها . إنها حقـًّا ممرضة ماهرة » .

فقال ستيفن : « ربما كانت أمهر امرأة على وجه الأرض » .

سرّ ستيفن بموافقة رئيسه فى شعوره نحو لالاچ . ونفض عنه وساوسه وارتباكه فيما يختص بالشكليّات . فى الواقع حتمًّا أن لالاچ قد خفـّفت عنه عبء أعمال البيت المضنى ، فوجد من الوقت ما يسمح له بالتفكير فى الخروج من الضائقة المالية التى ما زالت الرعيـّة تتورّط فيها . وأفضل من هذا كله أن لالاچ خفـّفت آلام نيدهالى فى أيـّامه الأخيرة .

استطاع ستيفن بعد الآن قضاء ساعات طويلة يقرأ ويتحدّث إلى الكاهن المسن . فى أغلب الأحيان يمكث نيدهالى صامتاً لكنه أحياناً يستفيق من غيبوبته ليتحدّث عن الماضى كما يتحدث ربان باخرة متقاعد عن أسفاره فى حداثته إلى الصين أو سيلان . كان نيدهالى يعلم جيـّداً أنه لم يزل رحـّالة سقيماً يعود دائماً من أسفاره بخفـّى حنين بدلا من الأحمال الغنية الثمينة التى يترقـّبها الناس ويطلبونها . فى استطاعته إذن أن يقصّ على ستيفن خيبته فى هذه الرعيـّة أو تلك ، دون التقليل أو التعذّر من أخطائه . إلا أنه كان يأسف فقط على إخفاقه المتكرّر فى مهمـّته . فأسرّ إلى ستيفن ، وهو يسائل نفسه عن طبيعة عامل الضعف هذا ، وقال : « شىء ما كان يصدّنى ويخون عزيمتى . ما هو ؟ لا أعلم . ما الذى كان يصدّنى عندما كنت أحيد عن مهمتى الكهنوتية البحتة (صلاة القداس ، سماع الاعترافات ، زيارة المرضى) وأحاول مواجهة شؤون الرعيـّة فى تنظيمها وتمويلها ؟ »

أليس من الرحمة أن يخبر هذا الكاهن المشرف على الموت أن عامل الضعف الوحيد الذى ثبـّط عزيمته هو المرض الذى لازمه منذ سنى رجولته ؟ فسأله ستيفن ليعرف الحقيقة :

— « ألم تشعر أحياناً أنك ضعيف أو هابط القوى ؟ »

— « نعم حدث ذلك أحياناً . كنت أشعر بضعف ، بهبوط عام كل مرّة

تواجهنى مسؤوليّة — وابتسم فى سأم — لكن لا ، ليس علىّ أن أتهم الجسد . ربما السبب أن عقلى كان ضعيفاً أو لم يكن لى عقل ألبتة لإدارة شؤون الرعية — واستعاد فى ذاكرته قائمة إخفاقه — لم أكن لأعير الأمر أهمية لو كان الأمر يتعلّق بى فقط . لكنى عندما أتذكّر الفرص التى منحنى إياها الكردينال — وتلجلج صوته فى حلقه — آه ! كم من مرة أزعجت نيافته ! . . . »

— « هل كنت تعرفه شخصياً ؟ »

— « هل أعرفه ! ؟ لارى جلينون وأنا نشأنا معاً . اعتدت أن أدعوه " يا هندى يالارى " وكان يدعونى " يا واد يانيد " . قد رسمنا كهنة فى يوم واحد ، وسجدنا على الأرض جنباً إلى جنب نرتجف فرحاً وخوفاً ، وباركنا وربط يدينا أسقف واحد ، ثم انتصبنا وتعانقنا كإخوة فى المسيح » .

ودارت عينا الكاهن الغائرتان فى أنحاء الحجرة ، واستطرد لحديثه : « كان لارى كاهناً ظريفاً قديراً . فسرّت الإدارة بمواهبه وقدّمته فى الدرجات بسرعة . وبينما كنت كاهناً مساعداً ، كان لارى قد أصبح مونسنيوراً . ولما عيّن أسقفاً مساعداً منحنى رعيّتى الأولى ، للقديس " أنسلمو " فى " ستاو " وهى كنيسة صغيرة ، كأخر كثيرات ، مثقّلة بالدين » .

ثم عادت به الذكرى إلى ستاو ورفع كتفيه محاولا بذلك إزالة الدين القديم من على كاهله . لكن محاولته باءت بالإخفاق فأرخى ساعديه مستسلماً ، وقال : « لم أستطع تغطية الدين . فأرسلنى لارى إلى نيدهام ، وهى رعية مزدهرة ولها رصيد فى المصرف . فأغرقت نيدهام فى الديون . فحذّرنى نيافته . ثم أرسلنى تباعاً إلى مولدن ، ثم إلى طاونتون ، ثم إلى إبسفيلد — وكل مرة أنحدر فى عطفه الكبير حتى لم يعد مجال للعطف علىّ ، بل خيبة أمل وسخط لإخفاقى المتواصل » .

وسالت العبرات على خدّى نيدهالى كما تنحدر مياه المطر على نافذة السيارة . فمسح ستيفن عينى رئيسه وفمه وقال :

— « لم يكن ذلك إخفاقاً ، فلا يزال كثيرون من أولئك الرعايا يذكرون طيبة قلبك . ويعلم الكردينال فى أعماق نفسه أنك كاهن صدّيق وقديس » .

ابتسم راعى كنيسة القديس بطرس ابتسامة زائغة : « إنه لطف منك يا أبى

أن تعزّى رجلاً عاجزاً مثلى ، لكنى أعلم أن نيافته يقدّر النجاح — وأنا لم أنجح ... آه ! لو قدّر لى أن أرى لارى مرة أخرى . . لو أتى ، ودعانى " يا واد يا نيد " ، وغفر لى إخفاقى ، لكنت أموت بسلام » .

لم يكد نيدهالى ينهى كلامه ، حتى سمع صوت ڤيكتور تينار وهو يصيح : « لحم طازج ، أسعار رخيصة » وهو جالس على مقعد قذر فى عربته أمام باب دار الكنيسة . ثم دق جرسه بشدة ، فحاكى رنينه صوت جرس الأموات . الصوت والجرس يهتفان : « لحم رخيص . . لحم رخيص . . »

فتح الأب هالى عينيه وابتسم لستيفن المنحنى فوقه ، وظهر فيهما بريق من المرح والهزء والسخرية من حاله البائسة . لكن لم يظهر فيهما أثر للرأفة بما آل إليه .

* * *

انحدرت ماليّة رعيّة القديس بطرس من سيئ إلى أسوأ حتّى بلغت اليأس . لا نقد لثمن الدواء الضرورى لنيدهالى ، والصابون لغسل جسمه ، والطعام الذى يشدد قواه التى ما زالت تنحطّ يوماً بعد يوم . ولما لم يستطع الطبيب چون بيرن الحضور دائماً من بوسطن ، اضطرّ ستيفن أن يدعو الطبيب سلڤستر ، خبير الأعصاب ، من ليتشبورج ، الذى خفض ثمن زيارته إلى خمسة عشر دولاراً فقط ، لكنه أرادها نقداً . وحتّى يواجه جميع هذه الطلبات أرسل ستيفن فى طلب المعونة من أهله وأصدقائه . فجاءته الردود سريعة ، لكنّها ضئيلة جدّاً وتافهة . فى آخر أغسطس لم يبق مع ستيفن سوى دولارين فقط ، وسواء أراد أم أبى فعليه أن يتّجه إلى السلطات الكنسية لطلب العون .

كان أقرب وأضمن مكتب إدارى هو مكتب المنسنيور أندراوس سپرنكل ، راعى كنيسة القديس إيرونيموس فى ليتشبورج وعميد المنطقة التى نشأ فيها منذ صغره . مكث فى ليتشبورج خمساً وثلاثين سنة لم ينس فيها شيئاً مما حوله ولم يتعلّم شيئاً جديداً قط . كان فى ذلك الوقت جالساً إلى مكتبه البائس الشكل يعطس كثيراً (فهو معرّض لداء الزكام) فى حين أخذ ستيفن يقص عليه مرض نيدهالى والحاجة الملحّة إلى النقد لإنقاذ رعية القديس بطرس .

أما الجزء الثانى من القصة فكان معروفاً لأندى سپرنكل . بدأ فى تنظيف

أغشية أنفه الملتهبة ثم استرسل فى عظة كلها تشاؤم : « بالصراحة ، أيها الأب ، إن رعيّة القديس بطرس كانت ولا تزال علامة استفهام كبيرة فى هذه المنطقة . وأستغرب كيف أن الكردينال يحتفظ براعٍ هناك . فى رأيى أن أفضل حلّ هو إقفال الكنيسة ، واعتبارها عملية خاسرة » .

فعارضه ستيفن قائلا : «لكن لا يزال فيها مئتان من الكاثوليك ، من بينهم ما لا يقلّ عن أربعين صبيًّا وبنتاً يحتاجون إلى الأسرار والتعليم المسيحى. فلا يسعك إقفال الباب فى وجوههم هكذا » .

لم يتأثر المنسنيور سبرنكل بهذا الكلام وقال : « يمكن معالجة كل هذه الأمور بسهولة بواسطة كاهن مرسل من ليتشبورج كل يوم أحد . سوف — عطس — أقترح على الكردينال فى تقريرى المقبل إقامة إرساليّات — وكتب العميد كلمة فى مذكرته — وعدا هذا ، كيف حال الأب هالى ؟ أرى مما قلت ، أنه لن يطول أمده فى هذا العالم » .

— « ما هى إلا بضعة أسابيع ، أو ربما بضعة أيام » .

واقترح أندور سبرنكل عرضاً سخيًّا : « فى استطاعتى أن أقدم له سريراً مجّانيًّا هنا فى مستشفانا حيث الراهبات البندكتين يقمن بالخدمة . وسيلاقى عناية كاملة ».

أوشك ستيفن أن يسأله : « أيعجبك أن تنتزع من كرسىّ رعيّتك وتموت فى سرير المتسوّلين؟ » لكن فكرة الحاجة الملحّة إلى المال جعلته أرقّ جانباً فقال : « كلانا ، أنا والأب هالى نفضّل مكوثه حيث هو » .

ثم استطلع ستيفن استعداد العميد وقال : « قد أتيت بنوع خصوصى ، يا منسنيور سبرنكل ، أطلب قرضاً من صندوق المنطقة العمديّة » .

أمّا أندى سبرنكل فإذ كاف مترقبًا هذا الطلب فقد رفضه بأسف قائلاً : « ليس للمنطقة صلاحيّة لتقديم قرض مالى فى مثل هذه الحالات ، أيها الأب . ربما تعرف أو لا تعرف — وأسند ظهره إلى مقعده كمن يستعدّ لإلقاء محاضرة تأديبيّة — أن الكردينال يأمل من كل رعيّة أن تكتفى بذاتها . وإذا لم تقدر رعيّة على الصمود ماليًّا بوسائلها الخاصة ، كما هو الحال مع رعيّة القديس بطرس ، فإعادة تنظيمها يصبح أمراً ضروريًّا » .

جفـّف المنسنيور سبرنكل أنفه بمنديله وقال : « لا تجزع ، أيها الأب ، فلست ألقِى اللوم على رئيسك . إن تقواه معروفة لدينا جميعاً . لكنى أخشى أن افتقاره إلى القوى الجسمية يضعه فى مركز حرج كمدبـّر قدير للرعية » .

ثم ختم المنسنيور محاضرته فى تدبير أمور الرعية بكلمة جافـّة : « قانوناً ، لا يسعنى أن أقدم لك سنتاً واحداً وأجازف به لرعيـّة مفلسة كرعيـّة القديس بطرس » .

وقف ستيفن مكسور الجناح . قد أخفق فى وساطته . ماذا كان ينتظر ؟ أن تمطر عليه السماء الأوراق الخضراء ، أو أن يعطى توكيلا عامـّا ؟ وضع يده على أكرة الباب وهمّ بالخروج وإذا بأندى سبرنكل يقول له فى لهجة مشجـّعة :

ـ « لكن من جهة أخرى خاصة ، أيها الأب ، كهبة شخصيـّة ، هل تنفعك عشرون دولاراً ؟ »

ـ « ستساعدنى كثيراً ، يا سيـّدى » .

مال أندى سبرنكل على علبة خضراء وأخرج منها أربع ورقات كل منها قيمتها خمسة دولارات وسلمها إلى ستيفن قائلا فى شبه لطف : « من كاهن إلى آخر » .

أجابه ستيفن بسذاجة : « أشكرك يا سيـّدى ، وأرجوك رجاء خاصـّا أن ترجئ تقريرك إلى الكردينال حتى . . » .

هزّ أندى سبرنكل رأسه عطفاً وقال : « حسناً أيها الأب . لكنك تدرك أنه عاجلا أو آجلا لابدّ من عمل شىء إنشائى فى رعية القديس بطرس » .

فأجاب ستيفن : « أدرك ذلك تماماً » .

* * *

دفع ستيفن بغصّة خمسة عشر دولاراً ثمينة إلى الطبيب سلفستر عند زيارته الثالثة ، وأضحى ثانية فى مدة ثمانٍ وأربعين ساعة فى حاجة إلى مال . تمدّد على فراشه القش ولم يذق النوم ، يائساً من إيجاد وسيلة للحصول على مال بسرعة . ماذا يعمل الناس الآخرون فى مثل هذه المواقف الحرجة ؟ يستعطون ، يقترضون ، يسرقون ، يبيعون أو يرهنون أثاث بيتهم ، ويرهنون المجوهرات .

المجوهرات ! لكن خاتم أورسلى يعدّ من المجوهرات ، ولا شكّ أن له قيمة رهنيـّة . قفز ستيفن عن فراشه وأشعل مصباح الكيروسين ، وطفق يفتش فى درج

خزانته حيث رأى الخاتم فى المرّة الأخيرة . اطمأن لمّا رأى جمال الجمشت البرّاق . لم يتخيّل قيمته ، لكنه قدّر أن الجوهرة فى حد ذاتها وصنعها الفنى لا بدّ أن تساوى مئة دولار على الأقلّ .

فى الساعة الثانية صباحاً قرّر ستيفن ركوب قطار اللبن إلى بوسطن . بعد ثمانى ساعات بالتدقيق دخل إلى مكتب « ساسكند وفلاتو » للرهونات ، ٨ ميدان سكولى . لم يدخل ستيفن قبل ذلك قط مكتباً للرهونات ، لكنه وجّه للرجل السؤال الصحيح : « كم تدفع لى فى هذا ؟ » ووضع الخاتم على الرخامة .

حدّق « مو ساسكند » بصره فى الخاتم الجمشت فى شك ثم التقط مجهره ليفحص حبّات الدرر المغروسة حول الحجر البنفسجى . هاها . . إنه من فلورنسا . وظهر اسم المصنع معظماً تحت المجهر . « دولشيتيانو : فيرنزا » . إنها دمغة نادرة عند الصيّاغ . رأى موساسكند قبل ذلك هذه الدمغة مرة واحدة فى درسدن حيث كان يعمل صبيًّا خرّاطاً فى المجوهرات . لم ينس قط السيد ساسكند دمغة فى حياته ، لكن لم تكن له رغبة الآن فى اقتناء دمغة السيد دولشيتيانو . ولم يكن ستيفن مستعدًّا للمزايدة على الجوهرة إذا لم تلق إقبالا . وضع مو الخاتم على الرخامة المتآكلة وقال :

— ثمن الرهنيّة ، خمسة دولارات » .

— « كنت أقدّر أكثر » .

— « إذن بعْه ، فتحصل على أكثر » .

— « حسناً ، أبيعه لك » .

— « بأمر الشرطة ، محظور على عملاء الرهونات أن يتعاطوا الشراء . لكن هناك وسيلة أخرى ، يا أبى » .

— « فلتكن حسب القانون » .

— « طبعاً ، حسب القانون . أربعون سنة فى ميدان سكولى ! القانون قبل كل شىء » .

كتب موساسكند اسماً على قطعة من الورق ومدّها إلى ستيفن : « كراكوسيان إخوان . . ستجدهم فى ساحة مرلياف ، رقم ١٢ » .

— « عاجز عن الشكر » .

فى ساحة مرلياف حيث يكثر تجار المخلفات وجد ستيفن دكان كراكوسيان إخوان الأربعة . كان ثلاثة منهم متغيبين فى ذلك الحين ، غير أن نيقولايدس كراكوسيان كان جالساً وسط البسط والحبال والساعات وأدوات الصينى والفضيات والمجوهرات مستعداً للبيع والشراء والمبادلة على السواء . كان دم الشرق كله — الأرمنى واليونانى والتركى والسورى — يجرى فى عروق السيد كراكوسيان ويضغط عليه باستمرار ليقوم بتجارته على أوسع نطاق من الاستغلال بين مئة ، وألف ، فى المئة.

والسيد كراكوسيان يفضل بحكم طبيعته ألا يشترى شيئاً ألبتة قبل معرفته تماماً أين يبيعه . سر إذن سروراً عظيما بخاتم دولشيتيانو لأنه كان يعرف تماماً لمن يقدمه وكم يكسب منه . استهل السيد كراكوسيان كلامه لستيفن قائلا :

— « مقابل عينة معيبة كهذه أعطيك ثمناً واحداً لا مرجع فيه : خمسة وثلاثين دولاراً ».

لم يتعود ستيفن قط المساومة فى حياته ، لكن ازدواج شخصية كراكوسيان أعطته هذه الفرصة . فأجاب كمن يقنع نفسه بما يقول : « خمسة وسبعين دولاراً » .

— « يجب أن أعمل حساباً لإخوتى . أربعون » .

— « ستون وإلا ذهبت إلى الدكان الثانى » .

لم يدرِ ستيفن مَن أو ماذا يلاقى فى الدكان الآخر ، لكن السيد كراكوسيان شعر بأن التهديد حقيقى . ففحص الخاتم مرة ثانية .

— « مع كل احترامى للكهنوت ، فإنه يذهلنى — ورسم على نفسه إشارة الصليب كما يفعل السياح فى المزارات المقدسة — خمسة وأربعون . . . »

— « فليكن خمسين » . ومد ستيفن يده .

سحب التاجر من جيبه رزمة من الأوراق المالية ونزع عنها شريط المطاط وأخرج ورقتين من ذوات العشرين دولاراً من قعر الرزمة وتسع ورقات من ذوات الدولار الواحد من داخل الرزمة ، ثم رد الباقى إلى جيبه وقال :

— « دولار للمعاينه — وسلم ستيفن تسعة وأربعين دولاراً — والآن وقع لى على عقد البيع . الاسم بالكامل مع العنوان الصحيح » .

وقع ستيفن على عقد البيع وأسرع إلى ساحة مرلياف وابتلع فنجاناً من القهوة فى محطة الشمال ، ووصل أخيراً إلى ستونبيرى وقت العشاء .

* * *

بعد ثلاثة أيام ، أحيت جمعية سيدات القديسة اليصابات حفلتها السنوية فى « أوبرنديل » بين حدائق « ڤنسكروس » المملوكة لكورنيليوس ديجان . كان الفارس المقاول الذى عاد حديثاً من رحلته ومهمته الناجحة إلى دوبلين وروما ، يتجول مبتسماً بين الموائد تظللها الأشجار الخضراء التى آوت قديماً شيعة البروتستانت « فروثنجهام » . اشترى كورنى هذا المكان صفقة رابحة ، ولم يدفع غير ستين ألف دولار ، وسجله باسم امرأته آنى « احتياطاً » . ستكون هذه الليلة ذروة المجد فى حياة آنى الاجتماعية ، فإن نيافة الكردينال لورنس جلينون سيحضر فى أى لحظة مع حاشيته كلها تقديراً علنياً لما قامت به الجمعية من أعمال الخير بين فقراء بوسطن وضواحيها .

وقفت سيدات الجمعية وراء الموائد التى صفت عليها أنواع اللعب والتحف والمفروشات والملبوسات القديمة والحديثة . وأخذت كل سيدة مشرفة على مائدة من الموائد تنادى بأعلى صوتها على بضاعتها لتنافس زميلتها وتجلب أكبر دخل لمائدتها.

مدة ثلاث سنوات متتابعة كانت السيدة « ديزى لا مينج بولاند » وهى أرملة ارتدت إلى الإيمان الكاثوليكى ، السيدة الوحيدة التى تحصل على أكبر دخل من الحفلة . لم تكن تدخر وسعاً ولا مالا فى اقتناء ما تدعوه « أدوات الفضيلة » . كان لها حدس عجيب فيما يرغب فيه المغرمون بالمجموعات ، وكانت تشتريها نقداً وسريعاً . تخصصت فى اقتناء السلاسل الذهبية ، والعلب المزخرفة بالميناء ، والنظارات المطعمة بالدرر أو الصدف ، والأمشاط المرصعة باللآلئ ، ودبابيس الشعر والحلى والحلقان وما شابه ذلك . كانت لها شهرة عظيمة ، ولن يصدها حتى بذلُ نفسها عن تثبيت هذه الشهرة .

تهامس القوم وتنادوا ثم ارتفعت الأصوات واشتبكت فى صيحات من المرح والفرح وعلت على أصوات البائعات وطغت على نغمات فرقة الموسيقى الحماسية ، التى كانت تعزف فى كشك الحديقة . وإذا بالجميع يتصايحون : « الكردينال حضر » . ولما ظهر الكردينال فى الحديقة حدث سكوت شامل . تقدم الكردينال على عشب الحديقة وهو مرتد معطفه الأحمر وقبعته الحمراء . يحوطه عدد كبير

من المساعدين وكاتمى الأسرار ، جميعهم فى حللهم الحمراء أيضاً . تقدم إذن أمير الكنيسة هذا وقد عزم ، فيما يظن ، على قضاء نصف ساعة ومنح خمسمائة دولار تشجيعاً لإحدى مؤسساته الخيرية .

توقّف الكردينال أمام الموائد ليشترى ما يليق بمقامه ، والظرف يتطاير من ابتسامته ، وحركاته ، وقوامه ، وكيس نقوده . كان الكردينال ينتقّى قطعة ، وعلى إشارة منه يتقدم المنسنيور داود أوبراين بدفتر قسائم خصوصيّة فيدفع ثمنها .

وقف الآن نيافته أمام مائدة ديزى لامپنج بولاند ، فركعت أمامه ، وتقبّل احترامها ، ثم سرّح طرفه فى « أدوات الفضيلة » المرصوصة أمامه بذوق فائق على المخمل الأسود ، وشرع يتفقّد بعينيه الثاقبتين الخبيرتين البضائع المعروضة . تنقلت عيناه البندقيّتان بتقدير من الحلىّ إلى الدبابيس ورفرفت فى طرب ونشوة على خاتم جمشت مرصّع باللآلئ ، فانحنى والتقط الخاتم يفحصه :

— « خاتم أسقف ! — قال فى صيحة — إنه قطعة رائعة من الفنّ الفلورنسىّ حقًّا . كيف حصلت عليه ؟ » .

فضحكت ديزى لامپنج بولاند بخبث كما تفعل أرملة غنيّة فى مركزها . لم يكن فى نيّتها قط كشف طرقها الخاصة فى الحصول على بضاعتها أمام زميلاتها فى الجمعية . ولم تستنكف من مداعبة رجل سامى المقام كالكردينال . ، فقالت : « ربما وقع أحد أساقفتك فى ضائقة مالية — يجب أن ترفع مرتّبهم ، يا صاحب النيافة » .

كان نيافته يأنف المزاح ، فاشمأز فى هذه اللحظة من ديزى لامپنج بولاند .

تفحّص الجوهرة بإعجاب . إنه حقيقة من صنع دولشيتيانو ، خاتم أسقف حسب التقليد الفلورنسى العتيد . منْ كان يملكه ؟ فى أبرشية جلينون أسقف واحد مساعد فقط ، مولكوين . وهو نفسه أعطى ملكوين خاتماً لمّا رسمه أسقفاً . دون شك ليست هذه الجوهرة الفلورنسيّة لملكوين . لكن من ذا الذى يتاجر بخواتم الأساقفة فى الأبرشية ؟

كان لجلينون طرقه الخاصة لمعرفة ذلك ، فاستطرد لحديثه فى حذر ولطف : « أيمكننى معرفة ثمن هذا الخاتم ، يا سيدتى ؟ » .

— « مئتان وخمسون دولاراً ، يا صاحب النيافة » ..

فأشار الكردينال إلى أوبراين ، فدفع هذا ثمنه .

بعد ساعتين كان الكردينال يزوّد بتعليماته الصريحة مفتش الشرطة « هيو شى » رئيس المخابرات فى بوسطن .

— « هيو ، أريد معرفة القصة كاملة عن هذا الخاتم . من باعه أولا ، وكم قبض ثمنه ، وكلّ التفاصيل . لا أظن الأمر سرقة ، أتفهم ؟ أريد فقط معرفة ما يجرى ، ومَنْ وراء هذا كله ؟ » .

أجاب المفتش شى : « الحصان القصير سهل حَسُّه ، يا صاحب النيافة ، سأهتم بالأمر بنفسى » .

لم تمضِ أربع وعشرون ساعة حتّى عثّر المفتش على هذا الحصان الغريب ، بعد إجراءات ومحاولات بسيطة . ثم توجّه بتقريره إلى رقم واحدى بالذات :

— « حاول رجل يرتدى ثوب كاهن كاثوليكى رومانى أن يرهن الخاتم فى متجر ساسكند وفلاتو ، فى ميدان سكولى رقم ٨ . فأرسله ساسكند إلى تاجر أرمنى يونانى ، اسمه كراكوسيان فاشتراه هذا منه بتسعة وأربعين دولاراً . وجاء به كراكوسيان حالا إلى السيدة ديزى لامپنج بولاند فاشترته منه بمئة وخمسين دولاراً . هذه هى القصة كاملة ، يا صاحب النيافة » .

— « هل عرفت اسم الكاهن ؟ » .

راجع شى مذكرته وقال : « إنه أعطى اسم ستيفن فرمويل وعنوانه ستونبيرى ، ماس » . ولم يخفِ المفتش تحفظه : « لم أرغب فى المضىّ فى البحث دون إذنك يا سيدى » .

— « حسن جدًّا ، يا هيو ، شكراً جزيلا . أرسل المحصل إلى هاهنا عندما تبدأون تجمعون التبرّع لإعانة الشرطة » .

وفى احترام ، ركع المفتش وخرج .

أقفل جلينون قبضته على الخاتم الفلورنسى كما يفعل صبىّ بجرادة فى يده : كان على وشك أن يردّد التعويذة الصبيانية : « يا جرادة ، يا جرادة ، أعطينى عسلاً أسود ، فأتركك تذهبين» . كان العسل الأسود فى يده حقًّا ، لكن من يضمن له المزيد ؟ هل يرسل فى طلب سيارته الدملر السوداء ، ويسرع إلى ستونبيرى

ويعقد جلسة صاخبة ويقوم بالتحقيق فى قاعة دار الرعية ؟ أعجبته فكرة مفاجأة الأب فرمويل كصقر أحمر الجناح ينقضّ على أرنب ملتاع ، وما سينتج عن هذه الصدمة من مواقف مسرحيّة . وداعبته لذة فيما سيحدث من اضطراب داخل تلك الحجرة البائسة :

لكن خالجته أفكار واحتمالات أخرى ، بعيدة المنال ، مملوءة ندماً ورغبة ملحّة فى رؤية رأس ابيض شعره وتألقت حوله القداسة فى هالة ذهبيّة . ما ألذّ الجلوس بجانب نيد والتحدث إليه بكلمات الصداقة والزمالة نفسها التى تعوّداها ، وإنعاش ما مات إلى الحياة بالرجوع إلى الأيام الغابرة الحلوة التى لن تعود .

ما أحلى ذلك ! . . وكم هو مستحيل ! . . سينكّس نيدهالى رأسه لعلمه بما يثقل ضميره من إخفاق مئات المرات ، وسيعقد الاعتذار لسانه . آه ، هذه الصداقة العتيدة البشوشة أيام الدير ! ماتت دون رجاء . . والتفكير فى إحيائها حلم كاذب :

شدّ نيافته على حبل مطرّز ، وظهر المنسنيور أوبراين ، فقال جلينون : « اكتب هذه البرقية » . ثم أملاه :

« الأب ستيفن فرمويل — كنيسة القديس بطرس — ستونبيرى ، ماس — ضرورى حضورك شخصياً إلى مكتب الكردينال غداً الثانية والنصف بعد الظهر » .

— « وقّع على البرقية وابعث بها حالا ، يا ديف . أريد التوصّل إلى معرفة شىء من أساسه » .

* * *

وصلت البرقية فى ظروف صعبة . كان نيدهالى يغرق كسفينة متحطمة ، وفى لحظة قد يمكنه الاختفاء . تردّد ستيفن فى ترك الرجل المسنّ ولو ساعات قلائل . همّ بالإبراق إلى المنسنيور أوبراين وشرح الموقف له والتماس تأجيل المقابلة . لكنه قرأ ثانية نص البرقية « ضرورى حضورك شخصياً » فعدل عن رأيه . كان أمراً وعليه الامتثال له .

ترك ستيفن رئيسه فى عناية لالاچ وركب قطار الصباح إلى بوسطن ، وفى

الثانية والربع بعد الظهر كان جالساً فى حجرة انتظار الكردينال المبطنة بالخشب ، على مقعد عالى الظهر لا مسند له . ينتظر الأمر بالمثول أمام « حضرته » . لماذا أبرق له الكردينال ؟ ما الذى يجول فى خاطره ؟ أخير أم شرّ ؟ لم يؤثر ذلك فى ستيفن ألبتة . كانت الأشهر الستة التى قضاها فى ستونبيرى قد صقلته ضد سهام القدر السياسية ، ويستحيل عليه الآن الانحدار إلى أسفل . هل يمكن أن يقع إنسان عن فراشه إذا ما كان منطرحاً على الأرض ؟

أشار المنسنيور أوبراين إلى ستيفن ، فتبعه عبر باب من البلّوط وصعد الدرج الحجرى اللولبى ومرّ فى حجرة البرج على الأرض العارية واقترب من مائدة الطعام حيث جلس الكردينال لورنس جلينون على كرسيّه الأسقفى .

ركع ستيفن دون اضطراب وقبّل الخاتم اللازوردىّ فى يد الكردينال ووقف صامتاً كتلميذ ينتظر فى خشية أن يبدأ الناظر فى الكلام .

لم يضيّع الكردينال وقته فى المقدمات . أبرز خاتم الجمشت ووضعه على المائدة وقال : « أرأيت هذا من قبل ؟ » .

المفاجأة مدروسة ، كما لو فتح شخص الباب على نجمة سينمائية فى حجرتها . الصدق أفضل وأشفع .

— « نعم ، يا صاحب النيافة . منذ أيام فقط كنت أملكه . لكنى بعته يوم الاثنين الماضى إلى أحد التجار فى ساحة مرلياف » .

قطع هذا الاعتراف الصريح الطريق على النائب العام . كان نيافته يترقّب شيئاً فى حدود التخفّى أو المواربة على الأقل . لكنه انقلب إلى السخرية .

— « هكذا عدلت عن كتابة المقطوعات التصوّفيّة ، وملت إلى التجارة فى الجواهر الكنسية ، إيه ؟ » .

— « أكاد لا أسمّى بيع خاتم تجارة ، يا صاحب النيافة » .

أجاب جلينون فى حدّة : « قل ما شئت. إن مثل هذه التجارة تسىء إلى سمعة الكهنوت . ولن أسمح بذلك فى أبرشيّتى . أتفهم أيها الأب فرمويل » .

— « لن يحدث ذلك مرة أخرى ، يا سيدى » . ولم يفطن الكردينال إلى ما فى لهجة ستيفن من تهكم .

التقط جلينون الخاتم ونظر إليه بعين فضولى خبير ، وقال :

— « كيف حصلت عليه ؟ » .

— « إنه هديه من صديق ، الربان جينانو أورسلّى من الشركة البحرية الإيطالية» .

قال جلينون بخشونة : « يظهر أن لك علاقات كثيرة مع هؤلاء الطليان . ولماذا بعته ؟ » .

— « لأسباب شخصية ، يا صاحب النيافة » .

كان التهرّب من الرد على الأسئلة يثير جلينون .

— « بين كاهن ورئيس أبرشيته ، لا يمكن أن توجد أسباب شخصية كما تسميها أيها الأب فرمويل . أريد أن تقول لى لماذا تصرّفت بهذا الخاتم » .

حسن جدًّا : فكر ستيفن ، إليك ما تطلب !

— « قد بعت الخاتم لأدفع مصاريف علاج الأب إدوارد هالى » .

— « مصاريف ماذا ؟ » كان صوت الكردينال شبيهاً بصوت أحد الوجهاء بلغه نبأ فاجعة حلّت بصديقه . فأردف :

— « هل الأب هالى مريض ؟ » .

— « إنه الآن يموت يا صاحب النيافة » .

— « نيدهالى يموت ؟ » .

تنازع الجزع والندم فى القبض على عنق الكردينال . مكث برهة صامتاً ، لا يدرى ما يقول ثم هزه الغضب كعادته .

— « لماذا لم أبلّغ عن هذا قبل الآن ، أيها الأب فرمويل ؟ » .

رأى ستيفن فتحة له فى دفاع الكردينال الضعيف . فليضحّ إذن بشىء ، فربما يكسب المعركة الأخيرة . فأجاب كمن يدعو إلى المعركة : « قد فرضتُ أن الأمر ربما لا يهمّ نيافتكم » .

ودار لورنس جلينون فى فلك المعركة : « فرضت ؟ » وضرب المائدة براحة يده وقام عن كرسيه : « إن افتراضك يفوق التصوّر ، أيها الأب فرمويل . كيف لا يهمنى أمر نيدهالى ؟ إنه واحد من كهنتى الرعاة القدماء ، إنه رفيقى فى الدير ، إنه صديق طفولتى . . . »

تلعثم لورنس جلينون فى كلماته الأخيرة ، وأدرك فى منتصف كلامه أنه وقع فى حبائل ستيفن ، وأن هاتين العينين الزرقاوين الباردتين فى وجه هذا الكاهن الشاب العجيب ، تحدّقان فيه الآن فى مرح كما يحدّق لاعب الشطرنج ببصره فى تلميذه .

جلس الكردينال على كرسيّه الأسقفىّ ، ليس كمن يرؤس احتفالا دينيًّا وينصت إلى الترانيم فى القداس ، وليس أيضاً كقاض يستعد لإيضاح فقرة من القانون، بل كان جلوسه رضوخاً اعتباريًّا كما يستسلم شاب جميل الطلعة إذا ما رأى نفسه شاحب اللون فجأة فى مرآة عريضة ، أو بالأحرى كان جلوسه استسلاماً كما يفعل رجل عرف أن تظاهره لم يجْدِه نفعاً وقت الفحص الطبى للتأمين على الحياة .

التأمين على الحياة ! . . .

كان لورنس جلينون يعلم تمام العلم أن ثوبه الأحمر القانى وصليبه الأسقفى سوف لا يساعدانه فى قليل أو كثير أمام دِقّة السماعة فى الكشف عن حالة قلبه أو ارتفاع الضغط فى دمه . تراءى له أنه قد تبدّل فى كيانه : انقلب قلبه مرارة ، ونفسه بخاراً مضغوطاً ، وصداقته قسوة . ما أتعس هذه الحياة ! ماذا ؟ حتّى ذهنه الوقاد أمسى خاملا ! . . منذ ثلاثين ، أو عشرين ، أو حتّى عشر سنوات لم يكن ممكناً أن يغرّر به أحد ويوقعه فى حبائله كما فعل هذا الشاب فرمويل .

لكن ها هوذا جالس الآن هنا ، وكرشه يلامس طرف المائدة ، وقلبه مسحوق بين فكى ذاكرته الفولاذية . نيدهالى يموت ! . . .

تزاحمت المشاهد فى مخيّلته متقطعة ملتوية كشريط سينمائى عفا عليه الزمن . ظهر له نيدهالى فى ذلك الوقت شابًّا ذهبى الشعر تشعّ منه الطهارة فى هالة برّاقة حول رأسه وكان واقفاً يبتسم أمام مكتبه .

— « إنى مرسلك إلى ستاو ، يا واد يا نيد . إنها رعيتك الأولى والفرصة عظيمة » .

وإذا بالشريط السينمائى يظلم لما ظهر ثانية نيدهالى : « إنى أمنحك فرصة أخرى طيبة ، يا نيد ، فى نيدهام » .

ثم اضطربت الصور واختل ميزانها وانقلب . . مولدن طاونتون ، إيسفيلد

والله يعلم أين أيضاً . أسماء الرعايا دائماً فى هبوط . شعر نيدهالى فَقَدَ ذهبيته ، وأسنانه ذهبت . وجسمه تضاءل ، وعنقه انحنى تحت أثقال إخفاقه . لكن الهالة البراقة حول رأسه لم يخبُ ضياؤها أبداً . وأخيراً الرعية الميئوس منها . . ستونبيرى حيث يموت حيًّا فى صمت دون تذمّر تحت أحجار المقالع المهملة . . وإذا بالشريط السينمائى يختلج وينقطع .

للمرّة الأولى منذ سنين عديدة سمح لورنس جلينون لنفسه بتوجيه سؤال ٍ طبيعىّ : « كيف هو ؟ » .

أجاب ستيفن : « إنه يهبط بسرعة . أعتقد أنه ربما يموت الليلة » .

— « هل من أحد يقوم على عنايته » .

— « ممرّضة قانونية . ابنة واحد من الرعية (ما أسقم هذا الوصف فى لالاج منتون ! . . .) »

تعلّقت عينا الكردينال جلينون البندقيتان بستيفن طلباً للنجدة . بطريرك شيخ ، ملك الرعاة ، يستند إلى كتف راع شاب ! . . .

— « أيمكنك إبلاغ الأب هالى رسالة منى؟ » .

— « بكل سرور ، يا صاحب النيافة . كلمة منك تجعله سعيداً » .

— « قل له إنى . . . »

مثل رجل تائه ٍ على شاطئ البحر فى الشتاء يحاول جمع قبضة من الصدف فى يده تذكّره بعمق المياه وخريرها الموسيقى فى شهر يونيه ، هكذا كان لورنس جلينون يحاول جمع كلماته .

— « قل إنّى . . . »

وتساقطت قطع الصدف من بين أصابعه . لا يستطيع رسول أن يحمل إلى نيدهالى ما يجب على الكردينال أن يقوله له بنفسه . فقام عن كرسيّه . سيذهب إلى نيدهالى شخصيًّا ، ويقول له ما كان يجب قوله منذ أمد بعيد . ثم سحب حبل الجرس .

لما ظهر المنسنيور أوبراين أمره الكردينال قائلا :

« الدملر . واطلب الشرطة ليرافقونا فى المرور » .

مرة ثانية تعلّقت عيناه بستيفن . أما هذه المرة فكانت أشبه بعيني قائد سفينة مكسور الخاطر أضناه الحزن يستنجد فى ثقة بمساعده . فقال له :

— « يجب أن نصل إلى هناك فى تسعين دقيقة » .

* * *

جلس توم كيني إلى قيادة السيارة واندفعت الدملر السوداء وقطعت المسافة فى سبع وثمانين دقيقة . لم ينبس أحد ببنت شفة . كان الكردينال يسرّح طرفه من وراء زجاج النافذة مدة ثلاثين ميلا وهو غارق بين المساند الحمراء . ثم أخرج كتاب الساعات وكأىّ كاهن آخر شرع يقرأ الصلاة المخصصة لهذا اليوم . وحذا ستيفن حذوه . كان عيد القديس يواكيم ، والد مريم . ردّدت صلاة السحر والتسابيح والغروب كلمات سفر يشوع بن سيراخ حيث يقول : « طوبى للغنى الذى وجد بغير عيب ولم يسع وراء الذهب . من هو فنغبطه لأنه صنع عجائب فى شعبه . ستكون خيراته ثابتة وتخبر الجماعة بصدقاته » .

مال الكردينال نحو ستيفن ، وكتابه لم يزل مفتوحاً وأومأ له بإصبعه إلى الكلمات : « من هو ؟ » .

أغنى الصمت عن الكلام الصريح وتعرّف الكردينال أيضاً على هذه الصورة . منذ ألفين وأربعمائة سنة رسم يشوع بن سيراخ صورة لنيدهالى . وابتسم الرجلان فى مقعدهما .

لما تركوا مصانع لتشبورج السوداء وراءهم ، تكلّم الكردينال للمرّة الأولى .

— « الصدر أدنى إلى النحر ، قد قربنا من النهاية ، إيه ، أيها الأب؟ » .

— « إنها دون شك ليست أجمل نهاية يا صاحب النيافة » . وفى داخله أثنى ستيفن على القصاب ڤيكتور تينار وعربة اللحم ، فلولاهما ما استطاع إدراك معنى كلام الكردينال .

لما تسلّقت الدملر طريق كنيسة القديس بطرس المرتفع طفق ستيفن يفكّر بأصول التشريفات . كيف يعاملون كردينالا فى زيارته . هل الضيف أم المضيف يدير الأمور ؟ لكن هموم ستيفن تبخرت عندما قال له لورنس جلينون : « سيهتم بأمرى توم كيني ، أيها الأب . أما أنت فاهتم بتحضير كل شيء فى الداخل » .

حيّت لالاج منتون ستيفن عند الباب : « قد حضرت فى الوقت المناسب : يا أبى — إنه يهبط بسرعة » .

— « ألم يزل حاضر الذهن ؟ » .

— « إن ذهنه سليم جدًّا » .

— « شكراً لله ! » .

لم يكد ستيفن يحضر المنضدة وعليها الزيت المقدس للمسحة الأخيرة ويضعها بالقرب من سرير المريض ، حتى دخل الكردينال .

— « السلام لهذا البيت » قال لورنس جلينون .

أجاب ستيفن : « ولكل الساكنين فيه » .

تقدّم الكردينال ، لا بجرأة كما يفعل النبلاء ، لكن بتردّد ، على أطراف أصابعه كما يفعل متسلل إلى الأماكن المقدّسة . وقف بالقرب من السرير وألقى نظرة على وجه نيدهالى المتألق بلمعان بشائر الموت . اختفى شكل الوجه الذى عرفه فى شبابه . لم يبق فى هذا الوجه سوى حفرات وعينين رماديتين تعلوهما جفون مثقّلة بالموت .

— « نيد — همس الكردينال — أنا لارى » .

فتح نيد هالى عينيه وتمتم : « يا صاحب النيافة » .

— « لا صاحب نيافة ياواد يا نيد . ليس من صاحب نيافة الآن — وجثا الكردينال على ركبتيه — إنى لارى . . لارى الهندى ، أتذكر ؟ » .

— « ياهندى يالارى . . . كنت أعلم أنك ستأتى . قد عشت حتى أتيت » .

انحدرت الدموع على وجه الكردينال وانحنى على اليد الذابلة يفركها بيديه : « كان من واجبى أن أحضر قبل ذلك ، يا نيد . سامحنى ، فقد كنت أفكر دائماً فى المجىء إليك » .

— « كنت مشغولا بأعمالك العظيمة ، يا لارى . أعمال عظيمة فى أوساط عظيمة . إنى لا أستحق تفكيرك بى » .

— « ما ألطفك يا نيد ، لقد استحققت أكثر مما أعطيتك . كان يجب أن أجعلك معرّفى وأنير خطواتى بالهالة اللامعة فوق رأسك . وبدلا من ذلك ، ثقّلت

عليك الحمل بتعيينك فى رعايا مدينة وخربة » . وأخفى الكردينال وجهه فى غطاء السرير المتقطّع : « سامحنى يا نيد » .

— « سامحتك ، يا لارى . . . بكل شىء . . . »

استدار لورنس جلينون نحو ستيفن وقال : « إنه يذهب . . أحضر الزيت المقدس للمسحة الأخيرة » .

أحضر ستيفن المنضدة الصغيرة ووضعها على يمين الكردينال . فغمس نيافته إبهامه فى الزيت المقدس ودهن به جفنى نيدهالى على شكل صليب قائلا باللاتينية :

— « بهذه المسحة المقدسة وبواسطة رحمته الغنيّة ، فليغفر لك الله كل ما أخطأت فيه بالنظر » .

فكر ستيفن فى داخله . . أى خطايا هذه !

وفى لطف دهن الكردينال أعضاء صديقه فى الصبا : الأنف والأذنين والشفتين واليدين . ثم أشار إلى ستيفن كى يرفع الغطاء ليدهن القدمين . لكن ستيفن ، وعيناه مغرورقتان بالدموع ، لم يقم بالسرعة الكافية ليؤدى هذه الخدمة الأخيرة لرئيسه المائت ، فكانت لالاج منتون هى التى كشفت عن القدمين الهزيلتين لتدهنا بالزيت المقدس .

رسم الكردينال إشارة الصليب بإبهامه على قدمى نيدهالى وقال : « بهذه المسحة المقدسة وبواسطة رحمته الغنيّة ، فليغفر لك الله كل ما أخطأت فيه بقدميك . آمين » .

غطت وجه نيدهالى سحابة من الوداعة الفائقة لم تنفك عنه طول حياته . وتحررت عيناه وأذناه وشفتاه ويداه من أثقالها الدنيوية . والأقدام التى لم تسر إلا فى طريق الاستقامة أضحت تراباً . وطارت نفسه الطاهرة من جسدها الرمادى الفانى وصعدت كالشعلة النقية لتنضم إلى جمهور القديسين والشهداء والمعترفين .

تسرّبت رياح نوفبر إلى أكواخ السنديان الكئيبة . وأذكى ستيفن النار فى مكتب نيدهالى القديم وشرع يتفقّد المذكرات والفواتير المبعثرة أمامه . مكث حتى منتصف الليل يجمع الأرقام ، ثم أمسك بقلمه مسروراً بالنتيجة التى حصل عليها وشرع يكتب تقريره إلى أمين سرّ الأبرشية .

« سيادة المنسنيور

« لى الشرف أن أبعث إلى مكتبكم بحساب كامل عن عمليّات الأخشاب فى رعيّة القديس بطرس ، مع جميع التفاصيل .

« اعتماداً على السلطات الرعائية التى منحتنيها الكردينال فى الثامن عشر من أغسطس سنة ١٩١٨ . . . »

الثامن عشر من أغسطس ! . . يوم دفن نيدهالى ! . . استعاد ستيفن فى ذاكرته أحداث ذلك اليوم ، وهو يسرّح طرفه فى الممر المتأجّج .

تحت مطر غزير ، قاد لورنس جلينون موكب الدفن من الكنيسة إلى المقابر . وحينما توارى تابوت نيدهالى تحت التراب تمتم الكردينال كلمته الأخيرة : « ليسترح بسلام » ، وبارك المعزّين الجاثين على الأرض ، ثم اتكأ على ساعد ستيفن ورجع إلى دار الرعيّة ليتناول فنجاناً من الشاى يشدّد قواه .

أصدر أمراً مقتضباً : « شاى سخن أسود وسكر كثير » . لكن أخفقت ثلاثة فناجين من الشاى القوىّ المنعش فى إزالة غمّ الكردينال الشديد . كان أمين سرّه يتمشى فى الممرّ متسائلا : إلى متى سيظل نيافته حزيناً . غير أنه لم يجرؤ على الاقتراب من الأسقف الغارق فى أفكاره وهو لم يزل جالساً على مقعده يتذوق الشاى الأسود الذى يسكبه له ستيفن باستمرار . كان علاجه الوحيد الصمت وإبريقاً من الماء المغلى . لو عُنى بالكردينال الحزين فى رقة ولطف لاستعاد هدوءه فى أقرب وقت .

أما المنسنيور أندرو سبرنكل فكانت تجيش فى نفسه اعتبارات أخرى حيويّة ، فهو على كل حال عميد المنطقة وتربطه بعض المسؤوليات بحكم عمله . كان هذا هو الوقت المناسب ، والكردينال تتنازعه الهموم ، ليفكّر كل رجل عاقل فى استغلال الفرص لعرض الأمور التى ينشدها قلبه . تسلّل إذن أندى سبرنكل إلى المكتب وقلّب الشاى الذى قدّمه له ستيفن واستهلّ حديثه فى حذر :

— « منذ سنين كثيرة ، كما تعلمون نيافتكم تماماً ، لم تأتِ كنيسة القديس بطرس عملا مثمراً أو تكاد ، وليس لها دخل ألبتة . أليس من الحكمة ، ياصاحب السعادة ، أن نقفل الآن أبوابها ؟ » .

لو وجد الكردينال فى موقف مضطرب كهذا فى ظروف أخرى لأومأ بالإيجاب . لكن شهقة ستيفن السريعة جعلته يدير رأسه مستفهماً : « ألك رأى آخر ، أيها الأب فرمويل ؟ » .

— « نعم لى ، يا صاحب النيافة » .

— « أعرضه » .

— « مع احترامى للعميد سبرنكل أعارضه فى أن كنيسة القديس بطرس لم تأت عملا مثمراً أو تكاد . إن سعادتكم رأيتم مؤمنيها جاثين أمام القبر اليوم . إن عددهم يزيد على مئة وخمسين ، وثلاثون من الصغار يستعدّون للمناولة الأولى . ولا أعتقد أنا نخدم حقًّا مستلزمات نفوسهم الروحيّة هذه بإغلاق أبواب الكنيسة دونهم » .

رأى أندى سبرنكل ، وهو يتفحّص أوراق الشاى فى فنجانه أن رجلا شابًّا أسمر يعترض طريقه . وحيث إن العميد لم يرَ بين يدى الرجل الشاب مالاً فانتظر فى سرور حتى يهدر جلينون كعادته : « ما هو دخل الرعية ؟ » تحقّقت نبوءة سبرنكل أو نصفها بين جرعتين من الشاى : رنّ الكردينال فنجانه على الطبق وسأل :

— « ما هو دخل الكنيسة ؟ » كانت الكلمات قويّة ، أما الهدير فضعيف .

أجاب ستيفن : « يمكن الحصول عليه ، يا صاحب النيافة » .

— « أين ؟ كيف ؟ »

أسئلة مقتضبة تتطلب ردًّا طويلا . سحب ستيفن من درج نيدهالى خريطة

للرعية مرسومة بالرصاص والمداد وفرشها على المائدة وأشار بإصبعه إلى الوادى . وقال : « هذا الوادى ملك للرعيّة . قد وهب للكنيسة منذ عشرين سنة ، لكن الملكيّة لم تسجّل بعد » .

تفحّص لورنس جلينون الخريطة : « وما هى ميزة هذا الملك ؟ » .

— « هى غابة ، وخشبها ممتاز ، يا صاحب النيافة . فيها ما يقرب من ألف ومائتى شجرة صنوبر كاملة النموّ . فإذا قطعنا ثلاثمائة منها ، أى ربع الموجود ، أعتقد أننا نستطيع إذن توفير ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار صافية » .

وإذا بالعميد سپرنكل يعقب بقوله : « إن القانون ، بند ١٤٢ ينصّ صراحة : يمنع الإكليريكيّون من ممارسة التجارة » .

فأردف ستيفن قائلا : « إنى على علم بالقانون ، أيها المنسنيور ، وعملية تجارة الأخشاب هذه لن يديرها كاهن » .

سأل جلينون فى هلع مبهم : « من إذن ؟ » .

— « يمكن أن تكون عملية مشتركة ، يا صاحب النيافة ، على مثال شركات الصيد الكندية ، نوعاً ما . فى اسكتلندا الجديدة ، رئيس الرعية وأفراد الرعيّة يقتسمون المكسب على أساس الوحدات التعاونية . وهنا فى ستونبيرى يمكن للمتعطّلين القيام بقطع الأخشاب ونشرها ، وتدفع مرتباتهم من بيع هذه الأخشاب ، والمبلغ الفائض يعود إلى مالك الأشجار — أى إلى رعيّة القديس بطرس . سيستفيد الطرفان و . . . انحنى ستيفن فى احترام لأندى سپرنكل — والقانون فى أمان » .

غيّر العميد خطته فقال :

— « بغضّ النظر عن القانون ، هل من اختصاص الكنيسة أن تدبّر لأعضائها أعمالا تجارية ؟ نحن نهتمّ بخير نفوسهم الروحى ، نعم . لكنى أخشى أن نجد أنفسنا فى موقف حرج إذا بدأنا نهتمّ بأمورهم المادية » .

كان جلينون يتبع المناقشة بارتياح ، فأعطى صمته ستيفن فرصة للتعقيب :

— « هل لى أن أذكّر العميد بحكمة الأكوينى من أنه " لابد من نسبة ولو ضئيلة من الخيرات المادية لقضاء عيشة سعيدة " ؟ وهل لى أن أبيّن له أن منشور البابا لاون الثالث عشر فى المشاكل الاجتماعية ينصّ فى كل سطر منه على وجوب

توزيع الخيرات بطريقة أوسع وأعدل ؟ » ذهل ستيفن من كلمة « الخيرات » التى أوردها ، لكنه أردف موجّهاً كلامه إلى الكردينال: «أما قطع تلك الأشجار فيبين الفرق البسيط بين الفقر المدقع المتأصل وفرصة الجهاد فى إخراج شعبنا من ويلات الشتاء المقبل » .

أما المنسنيور سبرنكل فاحتفظ ببرهانه القاطع حتّى الآن . فمضى يقول : « إن أصحاب شركات الأخشاب فى ليتشبورج سيعترضون بشدة إذا بدأت رعية القديس بطرس تضاربهم فى مكاسبهم من تجارة الأخشاب » .

— « ربما يكون ذلك صحيحاً — أجاب ستيفن — إذا وجدت حقًّا مصالح من هذا النوع فى ليتشبورج . لكن هذه التجارة اندثرت من تلك البقعة منذ خمس وعشرين سنة ، وليس تجّار ليتشبورج سوى عمال وضعوا اهتمامهم فى شراء قطع الخشب الجافة . قد ناقشتهم فى الأمر ، يا سيادة المنسنيور ، وهم مستعدون لدفع تسعة سنتات فى القدم أيًّا كانت الكمية المعروضة عليهم » .

استراحت عينا جلينون البندقيتان على ستيفن فى تقدير .

وقال : « إن مشروعك ، أيها الأب فرمويل ، لا يخلو من التفنّن . لكن كيف العمل فى السنة التالية ، والتى بعدها ؟ » .

— « لو عنينا بالقطع فى دقّة وقمنا بغرس الأشجار بانتظام فسيضمن لنا ذلك دخلا لا بأس به للرعية ، يا صاحب النيافة . وهذا كل ما نحن فى حاجة إليه لنستمرّ فى فتح أبواب كنيسة القديس بطرس » .

ثم تحوّل ستيفن إلى الدفاع عن قضيته : « إن سكان السنديان مقتصدون وحذّاق . وإذا أدرنا لهم ظهورنا فسيرتبكون فى اقتصادياتهم . لكن بفضل تلك الدولارات القليلة المكتسبة من قطع الأخشاب سيحيون أولا كمواطنين وثانياً ككاثوليك » .

كان برهان ستيفن ذو الحدين هو المحكّ الذى انتزع تردد جلينون : « مشروعك واقعىّ أيها الأب . لا أحب أبداً أن أغلق باب كنيسة ، ولى رغبة حقيقية أن أعطى كنيسة القديس بطرس فرصة أخرى . هذا — واستدار فى حركة تشبه الاحترام نحو المنسنيور سبرنكل — هذا بالطبع إذا لم يجد العميد اعتراضاً على ذلك » .

قلّب العميد أندى سبرنكل ورقات الشاى فى فنجانه فإذا به يرى مالاً فى يدى الرجل الشاب الأسمر ، فقال : « ليس عندى اعتراض ، يا صاحب النيافة » .

— « حسنًا — واستعاد جلينون القوة فى صوته — أفوّضك إذن أيها الأب فرمويل بتجربة هذا المشروع . وستكون سلطتك هنا كرئيس رعية » .

رجعت إلى نيافته الحياة لما رأى نفسه ثانية فى مهام إدارته . انتعشت روحه وسرى الدم فى عروقه ، فالحياة ستستمرّ . وفجأة قرّر لورنس جلينون أن الحياة يجب أن تستمرّ .

— « يجب أن أعود إلى بوسطن » قال الكردينال وهو يقوم عن مقعده ، وقد كان له بمثابة عرش حزن وكآبة : « قل للمنسنيور أوبراين أن يهتم بوضع حقائبى فى السيارة » .

على عتبة الباب رفع أصابعه الثلاثة مباركاً أندى سبرنكل ومودّعاً .

ثم حدّق ببصره فى اهتمام بالغ إلى عالم مغمور بالأمطار ، وقال : « أليس من شمسية فى البيت ، أيها الأب فرمويل ؟ » .

فتش ستيفن فى خزانة بالممرّ فوجد شمسية عتيقة فحملها فوق رأس لورنس جلينون ليقيه من المطر ، ورافقه إلى السيارة ، واضطر فى هذه الحال أن يطوّق بساعده شخصية الكردينال الضخمة . ولما شعر جلينون بقوة العضلات فوق كتفه رفع بصره نحو الوجه الصارم التقاطيع الماثل عليه .

— « لست خائفاً منى ، أيها الأب فرمويل » . كادت تكون ملاحظته سؤالا

— « خائف ؟ أبداً ! » .

— « لكن أغلب الناس يخافون منى . فلم لا تخاف أنت ؟ » .

— « لم أفكر فى ذلك قط . لكن بما أنك تسألنى الآن — وأوضح ستيفن الموقف بصراحة — ربما لأنك تذكّرنى بأبى » .

— « هل أشبهه فى البنية أو الشكل ؟ » .

— « لا . ليس الشبه جسمياً » . حاول ستيفن أن يعزل ميزة واحدة تربط لورنس جلينون بدونيس فرمويل ، وابتسم لما اكتشفها : « قد يكون الشبه أن أبى كان يدعى أحياناً دن الآمر الناهى ، وكان يهدر كثيراً ويضرب المنضدة بقبضته

عندما يريد إيضاح أمر » .

— « ألم تخش شيئاً من هذا ؟ » .

هزّ ستيفن رأسه نفياً : « أيّما كان هديره فهو قد جعلنى دائماً أشعر بأنه يحبنى » .

— « لا شك أنه كان أباً عظيماً . أهو فى قيد الحياة بعد ؟ »

— « نعم والحمد لله . لكن صوته وعزمه يخبوان » .

سرّ جلينون من كلمة « يخبوان » . الصوت الأجش يتعثر على الحافة ! . . . والقوة المحركة تتضاءل مع الساعات ! . .

— « ذلك يحدث لكلّ منّا — تمتم الكردينال — أولا نخبو ثم نهوى » .

انسابت الدملر بالقرب من جلينون فالتفت إلى ستيفن وقال : « أنت هذا العمل هنا ، أيها الأب فرمويل ، وكن راعياً لهذا القطيع فسألاحظ ذلك بنفسى باهتمام كبير » .

ساعد ستيفن راعيه الأكبر وأجلسه بين المساند الحمراء . فقال له الكردينال : « الفرق شاسع ، يا بنى ، بين ترجمة المؤلّفات التصوفية وبين قطع الأخشاب . لكنى أعتقد أن الكنيسة تتّسع لكليهما » . ثم رفع يده فى عطف مباركاً ومودّعاً .

* * *

طوال شهر أكتوبر تهاوت البلطات فى وادى السنديان على أشجار الصنوبر فتمايلت وسقطت . وشذب الحطّابون الأغصان عن السوق ، وجرّوها إلى المنشرة التى ارتجلها هرقل منتون ، ثم حملوها على سيارات النقل التى أرسلتها شركة ليتشبورج للأخشاب . تحت إدارة ستيفن كانت شركة أخشاب رعية القديس بطرس — وهى الأولى من نوعها فى أبرشية بوسطن — قد قلبت أشجار الصنوبر إلى عمل ومال .

واليوم ، فى الثانى من نوفمبر ، انتهت العملية بنجاح . أذهلت الأرقام ستيفن . بعد خصم جميع المصاريف وجد معه مكسباً صافياً (٣٦٨٠,٢٤) دولاراً . سيحصل منها الحطابون الاثنا عشر الذين قطعوا الأشجار ببلطاتهم على أكثر من ألفى دولار ، بواقع (٢٠٤,١٠) دولار عن الشخص لمدة ستة أسابيع — وهو أرفع مرتب عرفه سكان السنديان .

ختم ستيفن تقريره إلى أمانة الأبرشية ونظر فى ذهول إلى المبلغ الضخم (١١٣١,٠٤) دولار ، الذى آل إلى رصيد رعية القديس بطرس . فخاطب الجمر المتأجّج فى المدفأة مسائلا نفسه : « ماذا أفعل بكل هذا المال ؟ » .

أتته الردود سريعة . . .

اهتم ستيفن أولا بوضع حجر على قبر نيدهالى . وجد يوماً فى مجرى ماء حجراً هائلا من الجرانيت المطعم بالمعادن وطلب إلى هرقل منتون أن يختبره بإزميله ليكتشف عيوبه . فكان تقرير هرقل النهائى أن الحجر صاف ، لا عيب فيه . فصقل وجهاً واحداً من الحجر وترك جوانبه خشنة ، وأمره ستيفن أن يحفر على الوجه الناعم البرّاق :

ذكرى دائمة

إدوارد إيفريت هالى

١٠ يونية سنة ١٨٥٥ — ١٦ أغسطس سنة ١٩١٨

«كاهن إلى الأبد ، على رتبة ملكيصادق »

إن قطع الحجر ونحته وحفره كلّف ستيفن ستين دولاراً .

ثم اشترى فسائل وغرسها بالقرب من الأشجار المقطوعة . فكلّفته الثلاثمائة فسيلة وغرسها مئة دولار ، ستعود إليه بعد عشرين سنة عشرين ضعفاً .

أما الجزء الكبير من المال فصرفه ستيفن فى ترميم الكنيسة . جبّس داخلها وطلاه وبدّل عتلات الباب الخارجى بقطع جديدة من حديد منقوش . واشترى بساطاً ملوّناً من بوردو وفرشه على درج الهيكل . واقتنى لمكتبه مقعداً بمساند ، وحشيّة من القطن لسريره كلّفاه خمسين دولاراً . وبعد أن نقّب طويلا فى فهارس بيوت التجارة للمعدّات الكنسية ، أرسل فى طلب بعض الثياب الكهنوتية وكأساً مذهبة كلفته مئتى دولار . ثم دفع لنفسه مرتب شهرين متأخرين (مئة دولار) واشترى لنفسه بذلة جديدة ، وهى الأولى منذ رسامته ، بخمسة وثلاثين دولاراً . فى هذا الوقت ، وصل رصيد الرعية فى البنك إلى ثلاثمئة دولار ، فبدأ الكاهن الشاب يفكّر فى التخفيف من المصروفات .

لكن التوقف فجأة مستحيل . قاد يوماً فتاة حولاء ، فى التاسعة من عمرها هى أنچيلا بواڤير ، إلى بوسطن لإجراء عملية دقيقة لتثبيت عينيها فغيّرت شكل وجهها البشع إلى جمال ملحوظ . فى يوم عودته بأنچيلا من بوسطن دخل ستيفن مكتبة صغيرة ، وسمح لنفسه بساعة من التنقيب فى الكتب . وجد بين كومة كبيرة من الكتب المستعملة نسخة من « فن الطليان فى صنع الربابة » وفيه صور عديدة من الكمنجات والربابات حفرها أشهر فنانى كريمونا . فاشترى الكتاب بخمسة دولارات وأهداه إلى روفائيل منتون فى عيد ميلاده السابع عشر.

تفوّق ريف على أبيه هرقل فى صنع الربابات فجاءت آلاته متينة يعلو صوتها على طرقات أقدام الراقصين فى الساحة الشعبية . لم يغترّ ريف بكمال رباباته ، مع أن الواحدة منها تباع فى المنطقة بخمسة وعشرين دولارًا . كان يدعوها فى احتقار لعباً ويجتهد دائماً فى إخراجها فى أحسن شكل . لكن أسرار رسمها وتركيبها وأسرار الصمغ والطلاء حيّرته . لم يستطع هرقل تعليم ابنه أكثر من ذلك . ولما كان ريف يفتقر إلى مدرس يلقنه هذا الفن ، رأى أن أفضل مشجع له هى الهدية التى تلقاها من الأب ستيفن « فن صنع الربابة عند الطليان » .

فتح ريف الكتاب على خوان عمله وطفق يتصفّحه بشغف وإعجاب . وسأل ستيفن مرة : « هل تعتقد أنه فى الإمكان صنع ربابة رائعة كهذه ؟ » .

— « ذلك ممكن ، يا ريف » . كان ستيفن يقول دائماً ما يعتقده : « إن الفنّانين الأمريكيين سينتجون أعمالا ، من بينها الكمنجات والربابات — لم يحلم بها الفنانون القدماء . بالطبع سوف لا تهمل الطريقة التقليدية . لكن الرسومات القديمة ستكتسب قوّة وبهاء جديرين بالعالم الجديد » .

رفع ريف بصره عن صورة ملونة رسمت فيها كمنجة رائعة مذهبة من صنع « أماتى » وألقى نظرة إلى المنحنيات السقيمة فى قطعة الإسفندان التى كان يحفرها وقال لستيفن :

— « أعلم أنك تعنى ما تقول يا أبى ، لكن فى هذه اللحظة — ورفع قطعة الإسفندان كأنها رصاص — أظن أن من الصعب جدًّا التسليم بذلك » .

* * *

كان هذا أسعد وقت فى حياة ستيفن . قد انتهت الحرب التى قامت لوقف الحرب . أما صواريخ السلام التى ملأت السماء بأمل ذهبى متوهج فلم تنطفئ بعد . تفانى ستيفن فى رعيته ومنحها أقوى سنى حياته وفيضاً من المحبة والجهاد . جاء الشتاء بارداً قارساً مما جعل ستيفن يرتعش لمجرد الافتكار بالمتاعب التى قضت عليها تجارة الأخشاب . لاحظ فى زياراته الرعائية النتائج الطيبة التى جلبها حطابو السنديان بمكاسبهم الضئيلة : اشترى « كريفكور» كرسيًا هزازاً لحجرة النوم ، وجدّد « ديون » ورق القطران على سقف كوخه . فى بيت آخر رأى ستيفن موقداً بمعدن أبيض، وفى آخر بساطاً صغيراً مربّعاً . لبس الأولاد أحذية متينة . وخرجت النساء بثياب جديدة ، أما آديل منتون فاشترت مشطاً جديداً من الصدف لتحبك به شعرها .

كان ستيفن يقوم كل يوم أيضاً بمهام واجباته الكهنوتية الروحية : زار المرضى ، شجّع اليائسين وعزّى كل من يأتيه ويلقى أمامه بهمومه .

أما متعته فكانت الانزلاق على الجليد بعيداً قرب بركة المسرح حيث كان سكان السنديان يقطعون الجليد . فى أمسيات الشتاء كان يعود إلى البيت وهو يزلق على الجليد والبرد يخزه . لكنه كان سعيداً لعلمه بأن الله موجود فى هذه الغابة العارية من الأوراق ، وهو أسعد ما يكون عند مروره فوق بريق الكواكب المنعكس على الجليد .

أما اتصاله بالعالم الخارجى فكان ضئيلا . لم يغادر ستونبيرى إلاّ قليلا ولم يأته نبأ من أحد سوى أهله وبعض الأصدقاء القدماء إلاّ نادراً . كانت ترد أحياناً رسالة من كارنجى يخبره فيها عن بعض الأحداث السياسيّة أو بعض المنازعات القانونية . فى أوقات متفاوتة كانت ترده بطاقة من أورسلّى يعده فيها بتجديد محبتهما عندما تعود أسفار الأطلسى إلى حالتها قبل الحرب . قال له أورسلّى فى خربشته : « ألست أسقفاً بعد؟ » ، فابتسم ستيفن عندما تذكّر آمال أورسلّى فيه . ذكريات بعيدة الأمد ! . . أصداء من عالم آخر ! . . .

فى هذه الجنّة المنسيّة ، تسللت الأفعى فى شخص أرملة جميلة بدينة تدعى « أنيو » . وبلغت همسات إلى ستيفن حول الأرملة التى كانت تقطن عزبة كبيرة

على حدود همشير الحديدة وكانت تتعاطى السحر مع أناس مشكوك فيهم وتصنع لهم أحجبة يدفعون فيها مالا نقداً . وحيث إن النقد كان فى أغلب الأوقات نادراً فكانت تطلب من عملائها أن يعملوا فى أرضها يوماً كاملا . كانت حقول الأرملة أفضل ما فى المنطقة ومخازن أخشابها أوسع المخازن .

لكنّ فراستها خانتها أحياناً . على غرار « غانية باث » كانت تميل إلى الرجال الودعاء والشبّان الأقوياء . فحثّها ضعفها النفسى ، والأمل يداعبها ، على التحرّق والتقرّب إلى روفائيل منتون . التقت به مرّة فى حفلة راقصة وشغفت بموسيقاه التى هيّجت دمها فى عروقها فطلبته حالا للعمل فى بيتها لبعض حفلاتها . فذهب إليها مراراً عديدة .

علم ستيفن بالأمر من أمّ ريف . أتته آديل منتون كئيبة إلى دار الرعيّة يوماً مثلجاً بعد الظهر ، وأخبرته فى بساطة بقصة الأرملة وتحريضها ريف . « تحدّث إليه يا أبى ، حذّره من هذه المرأة ، أنبئه بالخطر الجسيم . . . »

وافق ستيفن على أن ريف فى خطر ، لكن ليس أصل الخطر من الأرملة . عاجلا أو آجلا ، يجب على آديل أن تدرك بأن قلّة العمل فى مقالع ستونبيرى ، والجو الخانق فى السنديان ، هما الخطر الحقيقى لابنها الفنان الموهوب . جلس ستيفن بجانبها وطفق يخفّف من لوعتها ويبيّن لها حكمة الله وعنايته الخفيّة بالأبناء الذين اختارهم . فقال :

— « من السهل علىّ أن ألقى على ريف محاضرة وأستحثّه على الابتعاد عن هذه المرأة . سأفعل ذلك فى الوقت المناسب . لكن الأرملة هى جزء من الخطر الذى يحيق بريف . عليه أن يجاهد ليتحمل عبئاً أثقل . وهو تنمية فنّه ومهارته فى صنع الكمنجات ؛ فنّ نفحه به الروح القدس » .

أما فكرة الروح القدس وصلته بالفنّ فلم تستوعبها آديل منتون . كانت الفكرة جديدة عليها . فمسحت دموعها ، فى حين استطرد ستيفن لكلامه وقال : «من الأفضل أن يبتعد ريف عن السنديان . إنه فى حاجة إلى أن يتخصّص فى فنّ صنع الربابة . والآن ، لا أستطيع أن أقول لك أين سيجد أستاذه المطلوب . لكن لا بدّ من أن يجده » .

ثم ابتسم ستيفن لآديل : « فى هذه الأثناء ، كونى رقيقة المعاملة مع ابنك . امتنعى عن الكلام عن الأرملة . وخففى يدك عنه ، كما يفعل الله أحياناً معنا . فلن يضيع ريف منك . ثقى ، كما أثق أنا ، بأن ابن هذه الدموع لن يهلك أبداً » .

* * *

منذ الصغر ، بدت المغارة جزءاً أساسيًّا من عيد الميلاد . لم يفتأ مشهد العائلة المقدسة فى مظهرها الوضيع يحيط بها المجوس والبقرة والحمار — لم يفتأ هذا المشهد يذكّره بأفراح سرّ التجسد الإلهى . كان يعلم أن جميع الصغار يحبون هذا المشهد فى الحظيرة . وهذه السنة قرّر ستيفن أن يحقق رغبتهم بصنع مذود حقيقى .

فى أوائل ديسمبر إذن طلب إلى جميع النجارين فى السنديان أن يقوموا بحفر أشخاص الرجال والرعاة والحيوانات . خصّ هرقل منتون بحفر شخص مريم . وقام ألفونس بواقير بحفر شخص يوسف . أما روفائيل فرجع إليه الشرف بحفر شخص الطفل يسوع . طوال أسبوعين كنت ترى المسافن والمقاور تعمل فى ضوء لمبات الغاز وتقشّر خشب الصنوبر الناعم حتى ظهرت الوجوه بوضوح .

ثم بدأ عمل الطلاء . وزّع ستيفن عليهم علباً صغيرة ملأى بالألوان وبالأخص الأحمر القانى . مزج برادة الذهب بالزيت الأصفر ليطلى بها تيجان الملوك الثلاثة . أما ثوب العذراء فكان حسب العادة أزرق . بدا ثوب القديس يوسف أصفر (مع كثير من الصمغ) . أما وجنتا الطفل يسوع فكان احمرارهما أشد ما وجد فى الحظيرة . وابتسم ستيفن لما رأى ريف يلوّن عينى الطفل بلون البندق .

بدت كل قطعة جميلة رائعة فى ذاتها . فلما حاول ستيفن ترتيبها وجد أنها لا تتلاءم . أهو التجديد فيها ؟ ربما . كان ريف يفسّر ذلك بقوله : « إن بعضها لم يتعرف بعد على بعضها الآخر » . حاول ستيفن أن يخفى استياءه من منظر المغارة الموحش وجوّها الناشف . حاول مراراً عديدة تغيير مراكز الأشخاص ، لكنه أخيراً أقنع نفسه بأن المغارة ليست عملا فنيًّا من الطراز الأوّل .

ذات مساء ، قبل عيد الميلاد ببضعة أيام دخل الكنيسة وفى عزمه أن يحسّن من ترتيب المغارة . فرأى فى الضوء الأحمر المشعّ من الهيكل امرأة شابة منحنية على المذود . كانت فى وقفتها تشبه أمًّا تتهيأ لوضع طفلها فى فراشه ، وكانت تتمتم فى

سكون وهى تمسك بالأشخاص وتلاطفها ، وعند قدميها رزمة من القش .

امرأة واحدة فقط فى العالم تستطيع أن تمنح بيديها هذه العناية والترتيب . . .

« لالاچ ! »

استدارت لالاچ منتون ، وفى شعرها الأسود نثرات من القش يفوح عبيره العذب على وجهها .

وقالت الفتاة : « أظن أنى لا أزعجك بما أصنع فى مغارتك ؟ » .

— « وماذا تصنعين ؟ » .

— « أحاول جعل المغارة حظيرة . ألا تذكر أنها كانت حظيرة للمواشى ، وفيها حشيش » . ثم وضعت حفنة من الحشيش أمام الحيوانات فبدت كأنها تأكل مأخوذة عجباً بما يدور حولها . وضعت لالاچ أيضاً حفنة من القش حول شخص مريم الجاثى لتخفى تعاريج ثوبها الأزرق ، وقربته قليلا من الطفل يسوع .

— « هكذا ! إنها تبدو أكثر ارتياحاً ، ألا ترى ؟ » .

— « دون شك » . ذهل ستيفن من الطريقة التى تعامل بها لالاچ جميع الكائنات حيّة كانت أم جامدة : « وما هذا الذى تضعينه على القديس يوسف؟ » .

فقالت لالاچ : « لقد كان الجو بارداً حينئذ ! قد صنعت له معطفاً صغيراً من جلد الغنم » . وأثبتت على كتفى النجار القديس المعطف وقبّلته من قفاه : « كل ما نريده الآن هو غطاء لمعدة الطفل » .

وجد ستيفن نفسه يعارض هذه الفكرة . فقال : « أخشى أن عملا كهذا سيظهر الأشياء بمظهر مصطنع . على كل ، فالغاية من المغارة هى تذكيرنا بما حدث فى ليلة عيد الميلاد الأولى . أما القش فهذا ما كنّا فى حاجة إليه وهو يذكرنا بحقيقة الواقع . وأما المعطف للقديس يوسف والغطاء لمعدة الطفل يسوع فهذا تصنّع ، وأخشى أن نفقد مغزى ما يقوم به الأشخاص من دور» .

نظرت لالاچ إلى الثلاثة الأشخاص الأولين محاولة أن تستشفّ منهم معنى . فقالت : « قد نسيت تماماً ما يمثّلون . كان اهتمامى بهم فقط كأشخاص قرصهم البرد فى الحظيرة » .

لو صرّحت لالاچ منتون بأفكارها عمّا تعلمه عن سرّ التجسد أمام محفل

من الأساقفة لجعلهم يبتسمون أو يقطبون وجوههم ، لكن ستيفن أدرك أنها تحمل فى نفسها شيئاً أفضل قيمة — وهو المحبة : ميزة النساء الأولى .

أشرق وجهها وهى تنظر إلى ستيفن وتقول له فى تحدٍّ ساذج : « أودّ لو كنت بالقرب من مريم تلك الليلة ، إذاً كنت لففت طفلها . وسيان عندى من هو ، بغطاء جميل دافئ » .

فقال ستيفن : « ضعيه الآن عليه » .

وبينما هو يراقب لالاچ تلفّ القماش والربط بأصابعها حول شخص الطفل فكّر بأن كل أمّ لن تتردد فى قبول تلك المساعدة ، إذا اضطرت إلى قضاء ليلة باردة فى حظيرة مكشوفة .

غادرا الكنيسة معاً ، وحملت لالاچ ما تبقّى من القش . وقالت لستيفن : « وعدت ناپوليون أن أحضر له كل ما يبقّى » . ولما وصلت إلى خارج الباب تنشّقت عبير القش : « آه ! . . إن رائحة الصيف تفوح منه » . ورفعت يدها الملأى برشاقة نحو وجه ستيفن وقالت : « ألا يذكّرك هذا بشهر أغسطس ؟ » .

أيقظت رائحة الحشيش فى ستيفن ذكريات عديدة ، فى الصيف الماضى ، ليلة وجد لالاچ تنظف له المطبخ ، ويوم لامس شعرها وجنتيه وهما يتأملان ربابة هرقل . تساءل فى عصبيّة : كيف تستطيع امرأة أن تكون شريفة وفى الوقت نفسه جذابة ومثيرة . هذا المزيج فيها من مرح وسذاجة ، ومناورات جريئة مع أنها بريئة ، أكان ذلك كله دليلا على صفاء نفسها الفتية أم كان خطة نسائية ؟ لم يستطع ستيفن إثبات أحد الأمرين فى الماضى وفى الحاضر أيضاً .

سارا معاً فى غسق الشتاء نحو الطريق الذى ستتخذه لالاچ إلى السنديان . أتذهب وحدها ؟ ودّ ستيفن لو رافقها ، لكن الحكمة منعته من المضى فى مصاحبة هذه الفتاة الظريفة . أوشك أن يودّعها تلك الليلة وإذا بها تقول له :

— « أبلغنى أبى أنه رآك تزلق أحياناً على الجليد فى بركة المسرح » .

— « نعم ، أذهب هناك مراراً » .

— « هل تريد أن نزلق معاً هناك ليلة غد ؟ » .

كانت دعوتها بريئة ناصعة كقطعة من الثلج ، غير أن ستيفن امتنع عن

القبول . فرجته لالاچ بعطف : « ستكون المرة الأخيرة التى أزلق فيها على البركة . وأريد أن تكون المرّة الأخيرة معك » .

— « ماذا تعنين بقولك المرّة الأخيرة » .

فأجابته لالاچ فى صوت ثابت : « بعد عيد الميلاد بيوم واحد سأدخل دير راهبات الچيرالدين » .

— « الچيرالدين ! عند الراهبات الممرضات ؟ » .

فأومأت لالاچ وهى تتنشق الرزمة فى يدها : « قد رغبت دائماً فى الذهاب إلى هذا الدير ، منذ كنت طفلة صغيرة . ولهذا السبب درست فنّ التمريض» .

— « لكن الچيرالدين لا يقبلن إلا الحالات المستعصية والميئوس منها فى مستشفاهن ، كحالات ذات الرئة والسرطان الخبيث ، وما شاكلها » .

ضاق ستيفن فى تصوره لالاچ بصحتها النضرة تدفن نفسها حية فى دير الچيرالدين : « إنه أبشع عمل تقومين به » .

أجابته ببساطة : « هو العمل الذى خلقت لأجله »

لو فُهمت بساطتها تأنيباً فهى على كل حال مفاجأة . إذن هذا هو سرّ قلبها الواسع وتفتحها الجذّاب للحياة ! الآن فقط أدرك ستيفن مصدر النبع الخفىّ الذى تفور منه أعمالها . كان فى استطاعتها ، وهى الثابتة فى الدعوة والمكرّسة للطهارة ، أن تفيض من قوّة محبتها على كل شىء تلقاه : على والدها المتفاخر ، على حصان أعرج ،على قطعة من الخشب تمثّل القديس يوسف ، على مخلوق يقترب دون شفاء من الموت ، أو على كاهن يحف به الخطر (ربما) من غلوّه فى تقديره لوظيفته . الكل يهرع إلى طلب معونتها ، حتى الأشياء الجامدة ، وكانت تخدم الجميع حسب احتياجهم . فبدا كل ما تفعله لالاچ منتون أو تقوله مثلا صادقاً لشخصيتها .

أدرك ستيفن ، وهو بجانبها على الطريق المكسوّ بالثلج ، أن الشخص الذى قد يسعد بمحبة هذه الفتاة يجب أن يحسب نفسه موهوباً بنعمة نادرة . ألا يستطيع هو ستيفن ، أن يقابل هذه الروح السامية بكرم مماثل من عنده ؟

قد يحاول ذلك .

فى تلك الليلة ، استطلع ستيفن مشاعره بخصوص لالاچ ، وسأل نفسه فى

صراحة تامة : « ماذا أشعر نحو هذه الفتاة ؟ » ودون مواربة أجاب على نفسه : « إنها أبسط وأطهر امرأة عرفتها . ولأنها تفيض محبة إنسانية للجميع (وهذا ما لا يمكن إنكاره) طلبت إلىّ أن أرافقها لنزلق معاً على الجليد عشية ذهابها إلى الدير . لو رفضت لظهرت فظًّا ، ولو قبلت فسأكون سعيداً وأجعلها سعيدة . إذن سأذهب للانزلاق معها » .

لكنه لم يذهب .

لما حلّ المساء التالى ، ونجوم الشتاء تلمع فى السماء ، لم يسمح ستيفن لنفسه بمقابلة هذه الفتاة التى لن تزلق على الجليد بعد ذلك أبداً . وأىّ عيب فى الالتقاء بلالاچ على صفحة من الجليد تلفحها الرياح ؟ كانا سيمسكان بعضهما بعضاً بالأيدى ويزلقان على الجليد معاً تحت سماء واسعة ، كما يفعل الآخرون . وعند رجوعهما سينعمان برياح ديسمبر الباردة تلسع وجنتيهما . كل ذلك برىء وطاهر .

لكن لم يخفَ على ستيفن أن بعض الملذّات ، وإن بدت بريئة فى ظاهرها ، لا تزكو به . لم يعتد نفسه فاضلا أو كريماً ، لا ، بل شعر فى هذه اللحظة بأنه حقير لأنه لم يتجاوب مع كرم خلق لالاچ منتون .

* * *

اجتمع الشتاء الفولاذى بالصوم الأربعينى القاسى . ثم جاء الربيع وقد أنف التقشّفات والتضحيات ، وقاد الكنيسة والطبيعة بيديه إلى دفء أبريل . وعاد السنديان ينبض بالحياة . الملابس الجديدة تتمايل مع النسيم ، والنساء يتجمّعن على اللحم فى مؤخرة عربة ڤيكتور تينار ، فى حين يتجاذب أزواجهن أطراف الحديث وهم مستندون إلى الجدران ينفثون الدخان فى غلايينهم السوداء الطويلة .

ليس من جديد ؛ ومع ذلك ، فكل شىء قد تغيّر .أدرك ستيفن أن مصدر هذا الفرق هو مشاركته أبناء رعيته أتعابهم وانتصاراتهم . ها هو ذا قد قضى سنة كاملة معهم . قضوا الشتاء معاً وهاهم أولاء يستعدون فى حماسة للدخول فى فترة جديدة من الأمل .

فى السبت الثالث بعد الفصح وصل كورنى ديجان من بوسطن فى سيّارته الكاديلاك السوداء . فزار الكنيسة وأثنى على التجديد فيها ، وقبل الدعوة إلى العشاء .

قامت أجاتا ديون بترتيب المائدة ، ووضعت طبق الطعام الوحيد المكوّن من كرمب ولحم . وجلس كورنيليوس دجان ، الفارس البابوى ، وفى يده سيجار كورونا ، وطفق يتحدث عن روما (التى زارها أخيراً) . وعن سياسة الفاتيكان ، وعن أشياء أخرى كثيرة . فطن ستيفن إلى أن الفارس يخفى شيئاً وراء حديثه ، لكنه لم يستطع استكشافه . ثم تطرّق كورنى إلى ما ينويه الكردينال من إنشاء كاتدرائية جديدة وشرع يشرح هذا المشروع الضخم ، وإذا بستيفن يقاطعه قائلا :

— « بحق السماء يا كورنى ، ما وراء كل ذلك ؟ » .

— « ألا أستطيع ، أنا الصديق القديم ، أن أقضى النهار معك ؟ » .

— « النهار والليل أيضاً . إنى مسرور بوجودك والاستماع إلى أعمالك فى الأوساط العالية » .

فبدا كورنيليوس أكثر واقعيّة : « أتذكر يوم أمسكت بالشمسية فوق رأس الكردينال يوم دفن نيدهالى ؟ » .

— « أذكر ذلك » .

— « حسناً ، ونيافته يذكر ذلك أيضاً ، وتحدّث إلىّ عنه هذا الصباح . قد كان متأثراً جدًّا لكونك لم تخفْ منه ، وتجرأت على تطويق وسطه بذراعك . لكن ما أدهشه هو السبب الذى قدّمته لعدم خوفك منه ».

ضحك ستيفن : « قلت له فقط إنه يذكّرنى بدن . وهذا صحيح يا كورنى . إنه يذكّرنى بوالدى . إن جلينون رجل شديد الشكيمة وعنيد ككل إرلندىّ . وأبى أيضاً على هذا المثال ، إنه أب مثالىّ . ويظهر أن جلينون ، نوعاً ما ، شديد الشبه بوالدى » .

أما كورنيليوس ، وهو أب لخمس بنات وولد وحيد عنيد ، فكان غارقاً فى تأملاته وأفكاره . فأجاب ستيفن بقوله : « كل إنسان يحلم بأن يكون له ابن يحبّه دون خوف. أيدهشك أن تعلم بأن الكردينال يساوره مثل هذا الحلم ؟ » .

— « كلاّ مطلقاً . فالله نفسه له ابن . لكن إلى أين بهذه المقدمات الغامضة ؟ هل ينوى الكردينال أن يتبنّانى ؟ » .

— « ليس التبنى هو المراد ، يا ستيف . لكنه يرغب فى أن يراك حوله . فى

الواقع — حتى لا أطيل عليك الحديث — أن جلينون قرّر أن يجعلك أمين سرّه ».

صعق ستيفن من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . سار حثيثاً فى مكتبه ذهاباً وإياباً ثلاث مرات ، ثم وقف أمام الفارس المقاول وسأله : « هل عدت ثانية إلى ألاعيبك ؟ » .

فرفع كورنى يده عالياً ، كأنه يحلف يميناً مغلّظة يثبت بها براءته من هذه التهمة : « ليس هذا عملى ، ياستيف . إن رقم واحد يعالج أموره بنفسه ، ويختار ثماره بيده . وقد انتقاك من قلب السلّة . ظننت أن هذا النبأ سيسرّك ؟ ».

— « لو كان ذلك فى السنة الماضية كان متعة . أما الآن فأريد المكوث فى كنيسة القديس بطرس . وأستطيع القول بأن عملى لم ينته بعد ، بل إنه لم يبدأ . والحقيقة الحقة ياكورنى ، أنى أحب رعيتى هنا » .

لم يشأ الفارس البابوى أن يرمى ستيفن بحمى سخريته أو يصرعه بلاذع كلامه ، فحبته له تفوق ذلك كلّه . بل قال له يداعبه : « هاها . . إن صاحبنا يحب المكوث ههنا ، أليس كذلك ؟ إنه يحب المكوث فى رعيته الجميلة الخربة ، ليصبح قديساً شفيع الغابات مكرماً عند الكناك الحطابين » . جازف كورنى بهذه المداعبة مع ما تحمله من افتراض باستياء ستيفن منها ، ثم مكث برهة صامتاً وبعدها تكلم بصراحته المعهودة :

— « ظننتك قبلا طموحاً يا ستيفن . وأرى الآن نار الروح القدس قد أحرقت هذا الطموح فيك إلى رماد . لكن ألا تعلم — وهنا انقلب صوت كورنى إلى تشجيع — أن الحجر المصنوع من الرماد هو أفضل مادة للبناء ؟ إن المواد التى تنقلب رماداً بالنار لا تحترق ثانية ولا يؤثر فيها شىء . إن خبراء المقاولين يعلمون ذلك . وجلينون يعلمه أيضاً . ولهذا السبب اختارك لمساعدته » .

ثبّت الفارس المقاول يده الغليظة على كتف ستيفن وقال : « انتهت فترة امتحانك ، يا ستيفن . والوقت الآن للعمل . عليك فى الأربعين سنة القادمة أن تظهر أعنف وأرقّ و "ألعن" كاهن فى جيلك — ابناً جديراً بأبيه — شظية من هذا الصخر ، دن الآمر الناهى » .

* * *

وجد ستيفن أن قطع صلاته مع رعيته كقطع عروقه فى قلبه . فقام بزياراته الأخيرة لسكان السنديان ودخل أكواخهم المتداعية المنخفضة التى كان يسكنها يوماً أناس غرباء عنه . أما الآن ، وقد بدأ هؤلاء الغرباء يعتبرونه بطلهم وصديقهم ، فاضطر ستيفن أن يخبرهم بأمر انتقاله . وعند سماع هذا النبإ ، لم تقوَ بعض النساء اللواتى رآهن أولا يتزاحمن حول عربة الجزار وشعرهن منكوش — لم يقوين على حبس دموعهن فمسحنها بمآزرهن الملوثة بالشحم . والرجال الذين تهرّبوا منه بغباء منذ سنة ، صافحوه الآن بحرارة فى ذهول : « ماذا ، أتتركنا ، أيها الأب ؟ لكنك ستزورنا أحياناً ؟ » فكان ستيفن يجهد نفسه فى الردّ على أسئلتهم التى لم تحتمل ردًّا .

دخل مرّة غابة الصنوبر فى الوادى ووقف تحت الأغصان الضخمة واستعاد فى ذاكرته الحزن الذى اعتراه فى منفاه ، فى هذه الغابة المقدسة ، من أبيات قصيدة « الفتاة السمراء » .

والآن وقد انتهى منفاه ، واختير للمضى صعداً فيمكنه القول :

لا أطيق الذهاب وحدى
رجلا منفيًّا إلى الغاب

امتزجت خاتمة القصيدة الظافرة بمسحة من الأسى . إن الأشخاص الذين تخيّلهم فى الأسطورة — نيدهالى ، هرقل منتون والفتاة السمراء نفسها — اختفوا أو كادوا من حياته . بئست الحياة الزائلة ! . . وأشار بإصبعه نحو فسيل الصنوبر بين الجذور القديمة ، فرآها قد اشتدت فى الأرض أثناء الشتاء القارص الماضى ، ونمت وارتفعت بوصة عن الأرض منذ يوم زرعها .

للمرّة الأخيرة زار مصنع الحديد المحروق وأسند يده إلى السنديان الأثرى الذى أعطى الرعية اسمه . فجثا على ركبتيه بين المخلفات المغطّاة بخيوط العنكبوت وشكر هنيهة « صانع الرموز » واضحة أبدية على ألسنة البشر .

ألقى ستيفن خطابه الوداعى على درج الهيكل فى الأحد الرابع بعد الفصح ، والكنيسة غاصة بالحضور : فى المقاعد الأولى جلس فريق المناولة الأولى . فى الجانب الواحد من الكنيسة جلست البنات بشيلاتهن البيض

وتيجان الورد على رؤوسهن . وفى الجانب الآخر وقف الصبيان ببذلاتهم الكحلية وربطات العنق البيضاء . وجلس وراء الصغار آباؤهم وأمهاتهم ، الرجال أشداء أصحاء ، أما النساء فسنّات قبل الأوان بسبب ما ذقن من الفقر والتعب فى البيت . تطلّع ستيفن إلى وجوههم المألوفة إليه ، فرأى فيها ذلك العزم القوى الذى هو أفضل وقاء وضمان للحياة . رؤيا لم يكن فى مقدور أى إنسان يختلج قلبه محبة إنسانية أن يطلب أفضل منها .

قرأ إنجيل الأحد الرابع بعد الفصح وهو ليوحنا : « فى ذلك الزمان قال يسوع لتلاميذه ، إنى ذاهب إلى الذى أرسلنى » . ولما انتهى من قراءة حديث يسوع المسيح الأخير لتلاميذه ، أقفل السفر وتحدث إلى رعيته :

« أصدقائى الأعزاء . فى الأيام الأخيرة كنا نودّع بعضنا بعضاً ونتصافح فى البيت أو على الطريق كما يفعل جميع الأصدقاء ، ونتبادل التمنيات الأخيرة . وإن كان هذا الوداع حزيناً فقد حاولنا أن نجعله على قدر الإمكان مرحاً ويقول الواحد للآخر : إن بوسطن على كل حال لا تبعد كثيراً عن السنديان . سنزور بعضنا بعضاً مراراً . ستأتون إلينا كما سنأتى إليكم . فلنقل إذن ، إلى اللقاء . إلى اللقاء حتى نجتمع ثانية .

« أودّ من كل قلبى أن يكون فراقنا قصيراً ، وأود من كل جوارحى لو قدّر لى عدم الافتراق عنكم . أود لو أقضى حياتى بينكم أعمّد أولادكم وأعدّهم للمناولة الأولى ، وأقدّم لكم الأسرار وأعيش قريباً منكم فى الصداقة والمحبة ، هذا ما كنت أختاره لو خيّرت » .

ثم توقف ستيفن برهة : « لكن مثل هذه السعادة المحبوبة العذبة ليست من نصيب الكاهن . فخوفاً من أن نتمسك بالعلاقات الزائلة ومن ثمّ ننسى محبة الله الأبديه التى لها كرّسنا ذواتنا ، يجب إذن أن يقول أحدنا للآخر ، ليس فقط إلى اللقاء ، بل وادعاً أيها الأعزاء .

« وداعاً ، إلى الله . إن لغتكم الأصلية فى حكمتها الغابرة الثابتة تعلمنا كيف نخضع لإرادة الله فى أعماله وغاياته .

« قد تحملنا معاً متاعب كثيرة . تساعدنا فى زمن الشتاء القارص وفى وقت

الصوم الأربعيني القاسي . لكننا تغلّبنا فى الفصح والربيع على البرد والموت . ولنا أيضاً انتصارات أخرى : أرى ذلك على وجوه الأولاد والبنات الذين سيتناولون جسد الرب للمرّة الأولى اليوم . وأرى الظفر أيضاً فى محبتكم بعضكم بعضاً ، حبّ الرجل لامرأته ، والأب لابنه ، والجار لجاره . أشعر بالظفر فى روابط الثقة والمحبة المتبادلة التى بدأت ولا تزال تربطنا بعضنا إلى بعض . والآن يجب علينا قطع هذه الروابط . وأعلمتكم بالسبب .

« فى إنجيل هذا النهار قال المسيح لتلاميذه " عندى بعد أشياء أخرى كثيرة أقولها لكم ، لكنكم لا تستطيعون حملها الآن " . أما أنا فلا أعلم تماماً ماذا عنى سيدنا يسوع المسيح بهذه الكلمات لأن الوعد الذى تحويه رهيب وعظيم . لكنى أظن أنه أراد بقوله هذا إعدادنا لقبول الآلام والأفراح على السواء التى يحتفظ لنا بها — ثم تكلم ستيفن فى هدوء — والخضوع لإرادته فى حمل الأعباء والأحزان والأوامر التى يلقيها علينا فى الحياة .

« فبهذه الروح وبهذه الطاعة أقول لكم الآن : وداعاً إلى الله يا أصدقائى .

« وبهذه الروح وبهذه الطاعة أقول : وداعاً إلى الله يا إخوتى » .

فتح ستيفن يديه كما لو كان يعانق شعب السنديان . وقال :

« قد دعوتكم أصدقاء وإخوة . لكنكم أفضل من ذلك . إن الكاهن الذى تدعونه أباً يبادلكم هذه المحبة باسم أعذب أيضاً : يا أولادى ! . . فإلى اليوم الذى نجتمع فيه ثانية فى أحضان الآب الأزلىّ ، أهديكم أعذب كلمات الوداع : وداعاً إلى الله يا أولادى . . . »

ثم رفع يده وباركهم باسم الآب والابن والروح القدس .

الجزء الثالث

الرداء الأحمر

الفصل الأول

في تلك الأيام اشتهرت كاتدرائية الصليب المقدس ، مركز الكردينال لورنس جلينون الأسقفي ، بأنها تحفة هندسية . بنيت على شكل صليب بحجارة من روكسبيري على مساحة تقارب مساحة « نوتردام » في باريس . وعدّت عند تدشينها سنة ١٨٧٥ أجمل كنيسة بين بولتيمور ومونتريال . لكن حظ الكاتدرائية التعيس هو أن البنائين أخطأوا في تقدير اختيار الموقع المناسب لها .

لم يكد البناء العظيم يرتفع بين أحياء جنوب بوسطن الهادئة — التي كانت في ذلك الوقت أهم منطقة في بوسطن — حتى اجتاح المنطقة موجة فجائية من المهاجرين سبّبوا ضيقاً مرهقاً للملاّك وللمشرفين على تخطيط المدينة . غمرت ميناء بوسطن موجات من المهاجرين الإرلنديين الطوال القوام واندفعوا جنوباً وراء الكاتدرائية واحتلوا المواقع الخلفية المنخفضة المجاورة لروكسبيري . ولما زاد عددهم وضاقت بهم طرق المواصلات بنوا لهم خطًّا حديديًّا هوائيًّا مزدوجاً على طول شارع واشنجطن . وفي أواخر سنة ١٨٩٩ بدأ هذا الخط الهوائي عمله ومرّت العربات تهدر في صوت مزعج بالقرب من نوافذ الكاتدرائية كل ثلاث دقائق . فتعذّر على الخطباء إلقاء عظاتهم وضاق المصلّون ذرعاً وقت الصلاة والتأمل ، ونزح السكان الأغنياء هرباً من الضوضاء والمحيط الاجتماعي الموبوء . ولما خلت المنازل وهبط إيجارها هرعت إليها الطبقة الفقيرة وأحاطت بالكاتدرائية حتى لم يكد يُرى بجوارها سوى منازل غصّت بالفقراء ، ومتاجر بائسة ومقاهٍ قذرة .

سبّب موقع الكاتدرائية انزعاجاً نفسيًّا للكردينال جلينون ، لكنه في العلن كان يدافع عن هذه الفكرة . وبرهانه الذي لا يزال يردده هو أن أغلب الكاتدرائيات

الشهيرة كانت تقام فى مناطق المدن الفقيرة . وهذه كاتدرائية القديس بطرس فى روما أقيمت قديماً فى أحياء « بورجو » القذرة ذات الروائح الكريهة . بل كان يحلو بجلينون أن يعلن بأنه يزكو بقواعد هياكل الله الشامخة أن تثبّت بين جمهور الفقراء . مع ذلك لم تمنع هذه التأكيدات العلنية نيافته من أن يدبر للأمر عدّته من استكشاف المواقع المناسبة وتقدير المصروفات المرتقبة لبناء كاتدرائية جديدة . فى أوراقه السرية رسومات لكاتدرائية سوف تكسف بحجمها وعظمتها كاتدرائية شارتر وستّرازبورج ، حتّى كنيسة مانينج الأنجليكانية المقامة على مرتفعات « الصبح المشرق » [مورنينج سايد] .

لا شك أن بناء كهذا سيتكلّف ملايين من الدولارات . اختلفت التقديرات . كان تقدير كورنيليوس ديجان (خمسة عشر مليوناً من الدولارات) تقديراً محافظاً . والكردينال نفسه ، فى طلبه أفخر أنواع الرخام من روتلاند ومسلّتين توأمين تعلو كل منهما خمسين قدماً على بناء «بنكرهيل» ، قدّر عشرين مليوناً تقريباً . على كل حال يمكن الحصول على المال وإن عظمت تكاليف بناء الكاتدرائية . ففى مصارف بوسطن المختلفة مليونان من الدولارات ، وأربعة ملايين أخرى موزّعة على أسهم كثيرة مذهبة الأطراف ، ومسجلة باسم أبرشية بوسطن ، فى شركة مساهمة للجلود . حقّاً ، ليس نقص المال هو الذى يقف عائقاً دون تنفيذ البناء . كلاّ كانت هنالك عوامل أخرى تمنع الكردينال من المضى فى التنفيذ ، كلما سرحت مخيّلته فى السقوف المشتبكة والزخارف الغوطية والمسلاّت الرخامية التى يحلم بها .

ظهرت عوامل صعوبة التنفيذ هذه يوماً بعد الظهر من شهر مارس فى اجتماع الجمعية العامة لشؤون الأبرشية التى رأسها الكردينال . لما كان هذا الاجتماع سريّاً وعلى مستوى عالٍ فقد عقد فى دار الكردينال فى حجرة المديرين . على رأس المنضدة الطويلة من خشب الكابلى ، جلس لورنس جلينون فى ثوب كاهن عادى ، وعن يمين الكردينال سيادة المنسنيور ڤنسنت مولكوين ، أسقف بوسطن المساعد (وخليفته كما يذكرونه أحياناً) ، ذو الحق الجليدى الذى اشتهر به حتى إن حرارته ضربت المثل فى الارتفاع من صفر إلى درجة الجليد فى أثناء أعنف المناقشات . عن يسار جلينون جلس المنسنيور « تيموثى بليك » ، نائب الأبرشية العام ، دموىّ

المزاج واسع الصدر يحمل على كتفيه أثقل أعباء الكردينال الإداريـّة . بالقرب من النائب العام جلس الأب مايكل سپيد ، حافظ أختام الأبرشية ، الذى تقع على عاتقه مهمة تنفيذ المشاريع ، البارع فى التهرّب من المسؤوليات الكبرى . هؤلاء الثلاثة يعملون مستشارين للكردينال فى أبرشيته فى الأمور الإدارية الكبرى . حسب القانون كان لهم حق مكتسب لا يزول فى أن تسمع أقوالهم . والكردينال من جهته ، يضطر إلى الاستماع إليهم ويقدر آراءهم حق قدرها . إنما يرجع القرار النهائى إلى الكردينال وحده ، الذى منه بحكم شخصيته وسلطته الأسقفية المستمدة من الله ، تتركز السلطة العليا فى جميع الأمور المتعلـّقة بأبرشية بوسطن .

فى مؤخرة المنضدة جلس أربعة كهنة آخرون حسب ترتيبهم . وفى آخر الكل جلس الأب ستيفن فرمويل أمين سرّ نيافته منذ عشرة أشهر فقط أو نيـّف ، وهو الآن يقرأ محضر الاجتماع الأخير .

وسألهم جلينون فى احترام تمترج فيه السياسة : « هل من اعتراض على المحضر؟»

حيث لم تسمع اعتراضات ، أدار الكردينال رأسه على محور عنقه القصير وخاطب نائبه العام : « هل عندك شىء بخصوص أعمال المدارس ، ياتيم ؟ » .

— « أظن أن تقرير الأب جورمان سيوضح الأمر ، يا صاحب النيافة » .

وإذا بكاهن فى منتصف المنضدة ، برزت تقاطيع وجهه كالنساك ، فتح ملفاً من المذكرات أمامه . كان الأب داود جورمان رئيساً لكلية ريچيس ، وبحكم طبعه فيلسوفاً . تلقـّن الفلسفة على يد الكردينال مرسيه فى لوڤان . وضعت الظروف الأب جورمان على رأس كلية كاثوليكية فى منطقة زاخرة بالسكان . ربما كانت مهمة جمع المال اللازم لإقامة بناء ضخم تفوق قدرته وتثقل كاهله الضعيف لكن الطاعة التامة لأمر رئيسه منعت الأب داود جورمان من إبداء أىّ معارضة . فشرع يتكلم فى جمل طويلة كما لو كان يترجم مقطعاً مملاً من خطبة لشيشرون .

— « إن تقديراتنا المؤسّسة على مناقصات المقاولين الأساسيـّين والتى رفعها مساعدو المقاولين لغرض فى نفوسهم تدلّ على أن المشروع الذى رسمناه لبناء مبنيين فى كلية ريچيس — أى مكتبة ومختبر للعلوم — يتطلّب مبلغاً لا يقل عن مليون

وتسعمائة ألف دولار ، ولا يزيد على – وهنا راجع الأب جورمان قوائم الحسابات بين يديه – مليونين ومئة ألف دولار » .

أومأ الكردينال موافقاً . « ليست التقديرات خيالية ، أيها الأب جورمان » .

وخاطب جلينون نفسه قائلا : « وداعاً الآن أيتها الزخارف الأنيقة » .

ثم تابع كلامه قائلا : « وماذا ترتئى لجمع المال ؟ » .

فخاض الأب جورمان فى مقطع شيشرونىّ آخر : « لما تبين لنا فعلا أن الجمهور أصبح غير ميال إن لم نقل معادياً لحملات جمع مبالغ ضخمة من المال ، لم نرَ – أعنى لجنتنا – لم نرَ مع ذلك بدًّا من القيام بحملة أخرى وضعنا لها هذا الشعار " قرض أضخم لكلية أضخم " . – واستعاد الأب جورمان أنفاسه ثم قال – : بمساعدة فرسان كولبس وبعض جمعيات كاثوليكية أخر نأمل جمع نصف المال المطلوب بهذه الطريقة » .

فسأله جلينون : « والنصف الآخر ؟ »

تخلى الأب جورمان عن تقليد شيشرون وقال : « بصراحة يا صاحب النيافة ، نحن نعتمد على عنايتكم الشخصية بالكلية فيما ينقصها من مال » .

فقطّب جلينون جبينه : « إنك على حق ، أيها الأب ، فى اعتمادكم على عنايتى بكلية ريجيس . قد غذتنى علماً فى شبابى وقادتنى نحو الكهنوت . وأهمّ من ذلك ، فالكلية تقوم بأسمى الأعمال ألا وهى الثقافة الكاثوليكية » . وتوقف الكردينال برهة كما يفعل قاضٍ ينبّه محامياً إلى شرعية الحقوق ، ثم قال : « لكن كل ذلك لا يشكل حجّة فى زيادة العبء على خزانة الأبرشية فى تحمّل مليون دولار . أرى أن تعدّل من حملاتك لجمع المال ، أيها الأب . إن الكلية تضمّ طلابا أغنياء كثيرين . فدبّر الأمر للاتصال بذويهم » .

فهزّ المربى الكبير رأسه شكًّا وقال : « أعتقد أننا نغالى فى التفاؤل إذا طلبنا إلى لجان المتطوعين أن يجمعوا أكثر من مليون يا صاحب النيافة » .

– « إذن توجه إلى المحترفين . يجب أن نستعمل جميع الطرق الممكنة – لجمع مالا يقل عن أربعة أخماس المال من التبرعات الشعبية » . كان صوت جلينون قاطعاً : « غير أنه يمكنك الاعتماد علىّ بمبلغ فى حدود أربعمائة ألف دولار فقط » .

— « شكراً ، يا صاحب النيافة » ، أجابه الأب داود جورمان بانشراح ممزوج بارتياح وامتنان وخضوع عجز ستيفن عن التعبير عنه فى محضره .

ثم التفت الكردينال ثانية نحو نائبه العام وقال : « هل من تقدّم بشأن جناح الأطفال فى مستشفى القديس يوسف ؟ » .

— « بطيء لكنه مستمرّ ، يا صاحب النيافة » .

لما شرع النائب العام يشرح أسباب هذا البطء فى العمل تزعزع ثباته ، فختم كلامه بقوله : « إذا راجعنا أنفسنا ، أعتقد أننا اتكلنا فوق ما ينبغى على المساعدات المحلية » .

فسأله جلينون : « ماذا تعنى بالمساعدات المحلّية ؟ هل تترقّب مساعدات من الصين مثلا ؟ » .

— « كان يجدر بى القول : مساعدات غير تحزّبية ، ياصاحب النيافة . فلما كان مستشفى القديس يوسف يأوى مرضى من مختلف المعتقدات والأديان ، كنا نرجو أن يتوفر لنا المال الكافى من جميع المصادر البروتستانية واليهودية أيضاً » .

فقال جلينون : « البروتستان لن يعطوا شيئاً ، واليهود يعتنون بمرضاهم . لكن ما القول فى رؤساء الرعايا أنفسهم فى جنوب بوسطن ؟ لماذا لا يقيمون حفلات خيرية ويانصيب ؟ إن ستين ألف دولار ليست بمبلغ عسير الحصول عليه من رعيتّين مزدهرتين ! »

واجه النائب العام بليك الموقف بصراحة : « الحقيقة ، يا صاحب النيافة ، أن منافسة قوية تذكى نارها بين رئيسى هاتين الرعيتين . إن "ماك كونيكى" راعى كنيسة القلب الأقدس يدّعى أن "ميلنسون" يجذب الجماهير إلى كنيسته " العذراء نجمة البحار " » .

صاح نيافته : « وهذا هو السبب بعينه الذى من أجله وضعته هناك . حذّر ماك كونيكى عن لسانى أنه إذا لم يرتدع و . . . واستمرّ فى التدخل — فستثار حينئذ أوامر التنقلات وسيُسمع صريف طقوم الأسنان فى الظلام . كم جمعوا من المال حتى الآن هناك ؟ » .

— « خمسة وعشرين ألفاً على التقريب ، مئة دولار أكثر أو أقلّ » .

— « أشعل النار فوقهم ، يا تيم ، وأذكها ، وبلّغ ماك كونيكى وميلنسون أنى أمنحهم مهلة ثلاثين يوماً لا غير لجمع ما تبقى من المال — وتصفّح جلينون مذكرة صغيرة بالقرب من مرفقه — وأخبرهما أنى سأضع الحجر الأساسى بنفسى فى الخامس عشر من إبريل القادم » .

ظهر نيافته الآن فى موقف إدارى حقًّا . وصدرت أوامره سريعة مقتضبة كأنها شعل من نار . منح « مأوى الكاتدرائية للأطفال اللقطاء » هبة شخصية مبلغ عشرة آلاف دولار . نقل ناظراً لا يصلح لإدارة « معهد الأولاد العمال » . صرّح بوضع الصور فى مجلة « المرشد » (وهى بداية جريئة) . وعيّن الأسقف مولكوين للإشراف على دير راهبات الكلاريس الفقيرات فى غربىّ نيوتون : « اقتلع الدير من قمته إلى أساسه ، ياڤنسنت . أريد تجديداً كاملا شاملا فى المدفأة والأنابيب ، وتسهيلات كبيرة فى المطبخ . إن التقوى لا تكفى وحدها . يجب أن نعنى حقيقة بصحة أولئك الراهبات » .

فكّر الجميع فى اختتام جدول الأعمال ، وإذا بحافظ الأختام مايكل سپيد قد رفع فى يده وثيقة مطوية وقال : « أمامنا طلب آخر من أبناء أسيزى » .

فسأله جلينون : « النغمة القديمة ؟ »

فأومأ حافظ الأختام سپيد بالإيجاب : « قد أضيف إليها مطلبان يتنافيان واللياقة » .

« اقرأ الطلب . كلا ، دع عنك . يمكننى سرده لك غيباً : " نحن الموقّعين أدناه ، الأمريكيين الطليان ، المعروفين باسم "أبناء أسيزى" نحتج للمرة الخامسة والعشرين — أو هل هى الخامسة والثلاثون ؟ — على المعاملة المجحفة التى نلقاها من الكردينال لورنس جلينون فى رفضه لنا السماح بإقامة القداس فى المبنى الواقع فى " شارع الأمير" رقم ٢٥ ، وهو مبنى لائق اشتراه المذكورون عاليه " أبناء أسيزى " ... »

ولوى الكردينال شفتيه فى تكشيرة معبّسة وقال : « أليس هذا ما فيه ، يا مايكل ؟ »

— « حرفيًّا ، يا صاحب النيافة . سوى أنهم أضافوا تهديداً جديداً برفع

الأمر مباشرة إلى رئيس الفرنسيسكان العام » .

فقاطعة جلينون بحدة : « دعهم يرفعون الأمر إلى الأب الأقدس نفسه . فلن أصرّح لهم بسماع أو إقامة القداس فى ٢٥ شارع الأمير حتى يتنازلوا عن ملكهم بمفتاحه ومحتوياته وحجته ، إلى أبرشية بوسطن » .

ورفع سبابته بالأمر إلى ستيفن : « اكتب إلى رئيسهم ، ذلك العربيد الثورى ، بوزّى . أرسل إليه خطاباً عنيفاً . وذكّره بخطاباتنا الماضية وبلّغه أن موقفنا لم يتغير » .

وأدار الكردينال بصره فيمن حوله سائلا : « هل من أمور أخرى ؟ » فلم يتكلم أحد .

وقف الكردينال وأحنى رأسه . ووقف أيضاً أعضاء لجنة شؤون الأبرشية وأحنوا رؤوسهم . وفتح ستيفن الباب .

فقال الكردينال : « لا مقابلات فى الساعة القادمة سأكون فى معبدى الخاص » .

فى معبده الخاص وعلى مسنده الخاص جثا لورنس جلينون يشكر الله . لم يصلّ ولم يتأمل . إن الركوع فقط يهدئ دائماً مزاجه ويخفض ضغط الدم الذى تسببه له أعماله المرهقة . لما استراح عشر دقائق على ركبتيه جلس على مقعده الوثير وأسند يديه البدينتين على بطنه الكبير ، وأرخى لمخيلته العنان ، فداعبته صور حلوة فى هيئة كنيسة « شارتر أمريكية » مبنية على مرتفع وجيه (غير محدّد الموقع) ، بمسلّتين توأمين أعلى من بناء بنكرهيل .

البارحة فقط تصوّر قمة هاتين المسلّتين بوضوح تام ، أما اليوم فغطتهما سحابة من الضباب الكثيف ، وظهرتا بعيدتين فى الأفق . ثم تراءت له بنايات أخر : مكتبة ، وجناح مستشفى للأولاد ، ومختبر للعلوم ، ودير بمدفأة حديثة . تراءت له هذه البنايات صغيرة فى حجمها ، لا شك ، لكن الأبرشية فى أشد الحاجة إليها .

أمسك الكردينال بتوارة « دويه » المزخرفة بجلد مراكشى وتصفّح العهد القديم . كان يفتش عن مقطع فى كتاب الملوك ، ولما وجده ، ظهرت له الكلمات مطمئنة جدًّا :

« وكان أن سليمان بنى البيت للرب .

« وكان البيت الذى بناه الملك سليمان للرب ستين ذراعاً طولا وعشرين عرضاً وثلاثين ذراعاً سمكاً .

« وبنى البيت عند بنائه بحجارة تامة من المقلع ، فلم تكن تسمع مطرقة ولا قلع ولا شيء من آلات الحديد فى البيت عند بنائه .

« فبنى البيت وأكمله وسقفه بجذوع وألواح من الأرز .

« وكان كلام الرب إلى سليمان قائلا :

« هذا البيت الذى أنت بانيه ، إن أنت جريت على رسومى وعملت بأحكامى وحفظت جميع وصاياى جارياً عليها فإنى أحقق معك كلامى الذى كلمت به دواد أباك » .

فى هدوء المعبد ظهرت له كلمات الرب حقيقية . فأمال رأسه وأخذته سنة من النوم وحلم بهيكل مسقوف ذهباً خالصاً يرتفع على أعمدة من اليشب الثمين تكللها الزنابق . ثم أخذ فى الشخير خفيفاً وكان لا يزال يشخر عندما أيقظه ستيفن بعد مضى ساعة من الوقت .

* * *

ازدادت ثقافة ستيفن يوماً بعد يوم فى أمانة سرّ الكردينال ، واكتسب معرفة يحظى بها عدد ضئيل من الأشخاص ، فى الأعمال الداخلية المتعدّدة لأبرشية واسعة ، وخصوصاً فى العمليات المتشعبة التى تدور فى عقل لورنس جلينون .

يبدأ الكردينال يومه فى السابعة والنصف صباحاً بإقامة القداس فى معبده الخاص ، ثم يتناول إفطاراً متنوعاً من الفاكهة والبيض والخبز المحمّص والمربى والقهوة ، وفى أثناء ذلك يتصفح جريدة بوسطن الصباحية « العالم » وجريدة الڤاتيكان الرسمية « المراقب الرومانى » .

فى التاسعة صباحاً يحضر ستيفن البريد مفتوحاً ومرتباً فى التسلسل الذى يروق لجلينون . التبرّعات تأتى أولا . قسيمة بخمسة آلاف دولار تعدّ طالعاً سعيداً ، وإن كان المبلغ أضخم فاليوم كله بهجة .

ثم تأتى رسالات الأشخاص المدنيين أو الكنسيّين . فيضع ستيفن فى رأس القائمة رسالة مديح من عضو فى مجلس النواب أو مدير كليّة يهنىء فيها نيافته على خطاب ألقاه حديثاً فى بعض المناسبات (فقد كان جلينون ، وهو الخطيب

اللامع ، يستمتع بالمديح كسائر الناس) . وفى الآخر تأتى مراسلات رعاة الأبرشية ورؤساء الجمعيات .

أحياناً ، يملى جلينون ردوده بالتفصيل . أما فى أغلب الأحيان فيدلى بالأفكار الرئيسية إلى ستيفن ويترك له مهمة تدبيج الرسالة . وأمر الكردينال هو أن ترسل الردود على كل رسالة يوم تسلمها . ويتطلب هذا العمل من ستيفن بمساعدة اثنين آخرين على الآلة الكاتبة سهراً طويلا فى المساء .

ثم تبدأ المقابلات أو المحاضرات فى العاشرة صباحاً وتستمر حتى الرابعة بعد الظهر ، مع استراحة صغيرة فى منتصف هذه الفترة يتناول فيها الكردينال طبقاً من الحساء مع قطعة من الخبز المحمص وتفاحة .

كانت حجرة الجلوس القائمة المبطنة بالخشب تغص بالرعاة والمهندسين والمقاولين والسياسيين والكهنة المتجولين وعدد كبير من المتسولين . ومهمة ستيفن مرافقتهم داخل وخارج حجرة البرج أو حجرة الموسيقى ، حسب مزاج الكردينال أو حسب طبيعة المقابلة .

اكتشف ستيفن أن نيافته يحتفظ بثلاثة أنواع من الأمزجة فى دورة مستمرة ثابتة . كانت نبرة صوته الغالبة حادة قاطعة تكفى لسلخ الجلد عن الفريسة . فى هذا المزاج الذى يسببه ارتفاع ضغط الدم عادة ، كان جلينون يقول لستيفن : « أيها الأب فرمويل » فى نبرة لاذعة كما فى :(« إن إبهاميك اليوم أضخم من المعتاد ، وهذا غريب ، أيها الأب فرمويل ») — أما طريقته الثانية فكانت إدارية بحتة وكان يقول فيها لستيفن: « أيها الأب» كما فى : (« أيها الأب ، ابحث فى المستندات عن أعمال مجمع الأبرشية سنة ١٩١٠ ») — أما الطريقة الثالثة المتخفية فى مزاج جلينون فكانت عطفاً أبويًّا يظهر فعله فى استعمال اسم ستيفن نفسه ، كما فى : (« ابحث لى ، يا ستيفن عن بطاقتين لحفلة كريزلر الموسيقية يوم الاثنين القادم . سنسهر تلك الليلة معاً ») . وأحياناً يحب نيافته المزاح فيقول لستيفن : « ألق نظرة على قائمة الطعام هذه ، يا ستيفن . إن لويل من هارڤارد سيكون معى على العشاء الليلة. ما قولك فى طبق قواقع على الطريقة المرسيلية وسمك بالطراطور . هل هذا يقنع مدير الكلية بفوائد عادتنا فى الانقطاع عن أكل اللحم يوم الجمعة ؟»

كان وقت العشاء وبعده هو الوقت الملائم كي يرفع جلينون القناع عن شخصيته الرسمية ويبدو رجلا ذا ذوق يستسيغ العشرة النبيلة ويهوى الفنون . كان ذوقه فى الطعام رفيعاً . ومراراً ينوّع قائمة طعامه عند العشاء ، فيتناول أحياناً عشاءه وحده على مائدة طويلة تتوهج بالفضيّات والمفارش الناصعة . مرتين أو ثلاث مرات فى الأسبوع كان يدعو ضيوفاً للعشاء معه مثل حاكم ولاية أو أسقف زائر ، أو أديب يلقى محاضرات دوريّة فى بريطانيا الجديدة ، أو صاحب جريدة « العالم » أو « البشير » ، أو مغنٍّ يعمل مع سيمفونية بوسطن أو نخبة من الأصدقاء القدماء والرفقاء .

بعد ملذّات الأطعمة والمشروبات كان نيافته يتوجه إلى حجرة الموسيقى حيث يجلس إلى أحد البيانوات « ستينويه » ويعزف مقطوعات لباخ وبتهوفن فى مهارة أعظم الهواة ، وُجدَ أم لم يوجد من يشجّعه .

لو أطلّع شخص على مذكرات ستيفن وملاحظاته الخاصة لوجد فيها مصدراً غزيراً لكتابة تاريخ الأبرشية فى ذلك العهد . اتسعت بوسطن واتسعت معها أعمال جلينون الإدارية . كانت مشاريعه البنائية جزءاً فقط من الأعمال الإدارية فى الأبرشية التى يحكمها فى ولاء تام كامل لروما . نعم ، لروما . فمع الاختلاف الشخصى بينه وبين أمين السرّ البابوى للدولة ، لم يكف جلينون عن النظر نظرة صحيحة إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الرسولية الجامعة التى يرأسها الحبر الأعظم ، نائب المسيح على الأرض .

اعتماداً على التشريع الكنسىّ الجديد الذى أصدره البابا بنديكتوس الخامس عشر ، كوّن جلينون فى بوسطن حاشية كاملة التنظيم على غرار النظام الرومانى ، فقامت لجنة الأبرشية بإدارة الأعمال القانونية والنظامية . ومحكمة الزواج هى الأولى من نوعها . ثم مكتب الجمعيات الخيرية ، وقسم المطالبات ، ومكتب انتشار الإيمان التى وإن اتبعت فى تشكيلها النظام الرومانى فقد كانت موجهة إلى احتياجات الشعب الأمريكى ، ومناسبة لظروف حياته .

لم يدرك ستيفن إلا تدريجيًّا اتساع وتشعّب وفعالية الإدارة الكنسية التى يرئسها جلينون ويحفظها فى حركة مستمرة .

كان من عادة الكردينال أن يقسّم الرعايا الكبيرة التى حول بوسطن . فيطلب رؤساء الرعايا فى الضواحى ، الواحد تلو الآخر ، للمثول أمام حضرته ليبلغوا أن ثلث أو نصف أراضيهم ستقتطع منهم لرعاية كهنة شبان . ويتبع الكردينال فى تقسيمه طريقة لطيفة لكن حازمة . يجلس نيافته فى حجرة البرج ويفرد أمامه خريطة الأبرشية ثم يشير بيده إلى زائره قائلا ببشاشة : « اجلس هنا بالقرب منى ، أيها الأب (توم أو چون أو بيل) . وألق نظرة على هذه الخريطة » .

ثم يبدأ الكردينال فى شرح الموضوع : « هذه التقاطيع تدل على غزارة النسبة الكاثوليكية بين الشعب . يمكنك التحقق بنفسك ، أيها الأب ، أن رعيتك قد اسودّت بالتقاطيع مما يدل على أن عدد السكان يزيد على ثلاثة آلاف نفس فى الميل المربع » . ثم يضع الكردينال رأس قلمه على موقع الخريطة الذى يتكلم عنه : « انظر إلى هذه الزاوية الشرقية هنا ، ترى أن منطقة ميلفيلد تتسع بسرعة » .

وإذا براعى الرعية ، وهو يعلم ما يأتى ، يقول : « إن ازدياد عدد السكان ياصاحب النيافة ، لم يمنعنا إلى الآن من معالجة الحال بسهولة تامة . صحيح أن الكنيسة تغصّ بالمصلّين صباح كل يوم أحد . لكن هل سرور أعظم من أن نرى مقاعد الكنيسة تضيق بأصحابها حتى يضطروا إلى الوقوف فى مؤخر الكنيسة ؟ ولو حظيت بكاهن مساعد ، ووفقت إلى طلاء الدور الأرضى من الكنيسة لاستيعاب العدد الزائد ، لكنت دون شك أرضيت الجميع » .

— « إنى متأكد من ذلك ، أيها الأب ، لسنة أو سنتين . لكن ألم يبلغك أن هنرى فورد معنىّ بإقامة مصنع جديد لجمع القطع على حدود رعيتك ؟ وإذا تم ذلك ، فلن تستطيع القيام بكل هذا العمل بل سترهق نفسك . والآن هذا ما قرّرت عمله — ثم يمسك الكردينال بقلمه ويمرّ على خط منقّط — قد اقتطعت الربع الشرقى من رعيتك والنصف الغربى من رعية القديس ڤنسنت وكونت منهما رعية جديدة . فى بدء الشهر القادم . . . »

لمدة بضع دقائق كان الأب (توم أو چون أو بيل) يقف دهشاً ، مكسور الخاطر ، أو غاضباً أو أى شىء آخر يجرؤ عليه . لكن فى آخر الأمر تظهر النتيجة مرسومة على الخطوط المنقطة التى مرّ عليها جلينون بقلمه ، ويخرج الراعى

مستسلماً إلى تقسيم رعيته . أحياناً مع ذلك كان يعدّ نفسه سعيداً لتخفيف الحمل عن كاهله الضعيف الذى لم يعد يقوى على العمل . سومرڤيل ، نيوتون ، لين ، وعشرات أخر من الرعايا الكبيرة قسّمت بهذه الطريقة . فارتفع بذلك عدد الكنائس حول بوسطن بفضل تنظيم الكردينال .

بين الرعايا التى لم تقسّم بعد فى منطقة ميدفورد رعية الأب پاتريك بارلى « رعية الحبل بلا دنس » وهى وقف كنسى موروث عن أحد النبلاء ، واسع الأرجاء ، عريق فى القدم ، ويتحتم تقسيمه دون إبطاء . مراراً عديدة حاول الكردينال أن يقتطع جزءاً صغيراً من حدوده الشرقية ، لكنه لم يجرؤ أبداً على الاقتراب من قلب المنطقة التى يسيطر عليها الأب بارلى ، حتى قيل إن نيافته يخشى « پات » — وربما فى هذا مسحة من الصحة .

كان پات بارلى أقدم راع فى الأبرشية وكان له سنون عديدة يعمل فى رعيته عندما قدم لورنس جلينون أسقفاً على بوسطن سنة ١٩٠٥ . وترجع أيام بارلى إلى الوقت الذى لم تزل فيه الولايات المتحدة أرضاً يعمل فيها المرسلون ، وسلطات الرعاة المحليين واسعة غير محدودة فى الواقع . تمسّك الأب پاتريك بارلى بحقه فى هذه السلطات واستنكر كل تغيير فى الوضع القائم . مثلا : عندما قرّر جلينون توحيد نظام السجلات والدفاتر الرعائية فى الأبرشية كلها ، تمرّد الأب پات علنيًّا ، وقال لمن يريد سماعه : « سأستمر فى حفظ سجلاتى ودفاترى بالطريقة التى احتفظتها بها دائماً ، فى قعر قبعتى » . وقضى جلينون خمس سنوات ليقنع بارلى بوجوب استعمال بعض السجلات وإرسال التقارير المالية الشهرية كالآخرين ، إلى الإدارة المركزية .

كان پات بارلى فى الثانية والثمانين ، حاكماً غليظاً فظًّا ، يخاف منه الكهنة والأفراد على السواء . عرفه ستيفن جيداً ، فهو الذى عمّده . وكم من مرة فى الأيام الباردة وباكراً جدًّا جرى ستيفن من شارع مرج الغاب إلى الكنيسة ليخدم قداس الأب بارلى — وكان يقوم بهذا العمل خوفاً أكثر منه حبًّا . لم تدمّث السنون أخلاقه . تمسك بمركزه وهو مرهق بالأيام والأمراض (من بينها تصلّب فى الشرايين وغشاوة مزدوجة على قرنية عينيه) وقاوم كل تبديل وكل سلطة ، متحدّيًا كل واحد سوى

الموت من اقتلاعه من فوق مقعده الرعائى ، فلا عجب إذن أن جلينون تردد فى تقسيم أملاك بارلى .

لكن لابدّ من تقسيمها . فى السنوات العشر الماضية ، تضاعف عدد الكاثوليك فى ميدفورد . وأصبحت كنيسة الحبل بلا دنس صغيرة تضيق بالحضور ، وأمسى پات بارلى ضعيفاً جدًّا ليحقق وحده جميع طلبات المؤمنين فى ميدفورد . وأضحى الأمر لا يحتمل تأخيراً فى رسم خطوط جديدة للرعية . وحدث أن ستيفن كان حاضراً يوم رسم جلينون هذه الخطوط .

كان الكردينال وحافظ أختامه مايك سپيد مكبّين على خريطة كائنين من ضباط المدفعية ، وإذا بستيفن يدخل عليهما ببريد بعد الظهر . كان جلينون يرسم بقلمه ويقول لحافظ أختامه : « لو اتخذنا مخازن ميدفورد كمحور للدائرة ، استطعنا خلق دائرة صغيرة عند حدود بارلى الشرقية » .

أرهف ستيفن أذنه عند سماعه ذكر مستودعات ميدفورد .

واستطرد الكردينال لحديثه : « يستطيع پات أن يحتفظ بالمنطقة الغنية من رعية الحبل بلادنس القديمة . أما هذه المنطقة الفقيرة فستنضمها إلى الرعية الجديدة » . وأتم الكردينال تنقيط خطوطه وقال : « ما قولك فى هذا يامايك ؟ » .

— « أعتقد أن پات سيهدر كالثور عندما تبلغه هذه الأنباء » .

— « دعه . فقد هدأ هديره وزعيقه منذ زمان . إلا أن ما يشغلنى هو العثور على رجل قدير يستطيع القيام بالرعية الجديدة . فلا شك فى أن من سيذهب إلى هناك سيصطدم بالأفراد القدماء ، وعددهم كبير ، الذين عمّدهم وزوّجهم وعرّفهم الأب پات بارلى . إنهم سيأنفون من القادم الجديد ، كائناً من كان . وعندما يتذكّرون كثرة المال الذى استخلصه منهم العجوز پات بارلى (وما أقدره من رجل فى جمع التبرعات !) سيرفضون كل فكرة فى بناء كنيسة جديدة » .

أدرك سپيد حرج الموقف ولم يشأ التخفيف من الصعوبات التى تكتنفه ، مع ميله القوى لوجهة نظر الكردينال . فقال الكردينال محذّراً : « نحن نفتقر إلى مديرين كُفْىٍ من الدرجة الأولى ، يا صاحب النيافة . سأبدأ فى البحث الدقيق فى كل الأبرشية للعثور على أفضل مَنْ لدينا » .

— « باشر العمل ، ياميك » . قال ذلك جلينون وهو غارق فى أفكاره ، فى

حين غادر ستيفن حجرة البرج . واستطرد الكردينال لقوله: « سوف لا نقرر شيئاً قبل العثور على الرجل المطلوب » .

* * *

منذ سنة لم تكفّ السفن عن حمل أبطال الحرب بزيّهم الكاكى إلى الوطن . فى أول الأمر كانت اللجان المدنية تذهب إلى المرفأ لملاقاتهم بالأعلام والخطب والموسيقى ، وتحيتهم كحماة الوطن ، بعد أن نجوا من معارك « طريق السيدات » ومجزرة غابة بلّو . لكن تدريجيًّا أخفت لجان الترحيب أعلامها وفقدت ألسنتها وأغفلت فرق الموسيقى الذهاب إلى الميناء .

فى ربيع سنة ١٩٢٠ كانت السفن المحملة بالجنود ترسو على الرصيف كأنها مراكب شحن . نزل الجنود شاحبى الوجه وقد أضناهم دوار البحر وقصّوا على رفاقهم أهوال ما لقوه فى « بريست » بانتظارهم سنة كاملة موعد عودتهم إلى الوطن عبر الأطلسى .

وصلت بعض هذه الأنباء إلى الجرائد ، فأجرى مجلس النواب تحقيقاً ، وانتصب « پرشينج » مدافعاً عن حقوقهم ، وصدرت جريدة بوسطن « العالم » بعنوان ضخم : « أرجعوا أولادنا إلى الوطن » . لكن البلاد كانت تفكر فى شىء آخر . كانت أمريكا كسائر العالم تتّجه بعد هذه الحرب نحو ضوء النهار .

ذات صباح من يونيه سنة ١٩٢٠ وستيفن خارج من عند الكردينال بعد أن قدّم له وثائق ومستندات للتوقيع عليها ، إذا به وجهاً لوجه أمام بولس آيرتون وهو يصعد الدرج بزيه العسكرى . لم يزل فى حلّة المرشد الروحى ، وعلى كتفه شعار القائد ، وقد اغبرّ شعره وظهر أكبر من سنيه الثلاث والأربعين . اتسع الفلق فى ذقنه وغار ، ولمعت عيناه فى بأس وشدة . وأسرع نحو ستيفن وعصر يده فى قبضته .

— « لماذا تأخّرت فى العودة يا بولس ؟ أين كنت ؟ » .

— « فى بريست حيث طرق المجد تفضى إلى النسيان ، وحيث كان مليونان من الأمريكيين ينتظرون العودة إلى وطنهم » . وأضاف بولس فى صوت مخنوق : « ولا يزال بعضهم ينتظرون حتى الآن » .

لم يعلّق ستيفن على فاجعة هؤلاء الرجال لكنه لاذ بسؤال عام : « هل الوحل غزير كما يقولون ؟ » .

— « ليس الوحل . إنه البطالة واليأس . لا يستطيع أحد وصفه لك يا ستيف ، ولا أريد محاولة ذلك . كل ما أريد هو رعية صغيرة فقيرة وعمل يكفى ثلاثة أشخاص قل لى : أين أتوجه هنا لطلب التعيين ؟ » .

— « اتبعنى » . لما وصلا إلى باب حجرة حافظ الأختام قفزت إلى ذهن ستيفن فكرة نارية ، فسأل بولس: «هل تقدر أن ترجىء موعد مثولك إلى ما بعد الظهر؟ » .

— « أعتقد أن الأبرشية يمكنها الاستغناء عن خدماتى حتى ما بعد الظهر . لكن ما وراء ذلك ؟ » .

وإذا بستيفن يبتسم فى انشراح محركاً يديه ورجليه فى نشوة وقال لبولس : «لا تبدأ فى التحقيق معى ، أيها القائد . احضر فقط إلى دار الكردينال فى الساعة الثانية بعد الظهر ، اليوم. فسيكون لدى من الوقت ما يكفى لإدارة العجلات الكبيرة» .

ذهب بولس ، وأسرع ستيفن إلى حجرة بالقرب من مكتب حافظ الأختام وسار فى ممرّ صفت على جانبيه خزائن فولاذية لحفظ الملفّات . فتح ملفاً وسار بإصبعه على فهرس حتى وجد ملفّ الأب بولس آيرتون . فتصفّح المستندات على ضوء مصباح كهربائى ذى خمس وعشرين شمعة . فى هذا الملف سجلت حياة بولس آيرتون كلها وأعماله بتفصيل دقيق عجيب .

وقال ستيفن يخاطب نفسه : « إذا لم يقتنع رقم واحد بهذه المستندات ، فهو لا يفقه شيئاً فى أعمال الملفات » .

فى الثانية بعد الظهر ، وحجرة الجلوس تضيق بأصحاب المصالح ومن بينهم بولس ، دخل ستيفن حجرة البرج وتطرّق إلى صلب الأمور دون إبطاء : « يا صاحب النيافة ، فى الخارج المرشد الروحى القائد بولس آيرتون وقد عاد أخيراً من الحرب » .

رفع جلينون طرفه فى استفهام حذرٍ : « وماذا يريد ؟ » .

— « إنه ينتظر التعيين فى الأعمال الرعائية » . قال ستيفن ذلك ، وهو يحاول إخفاء ما فى نفسه والبقاء محايداً . لكنه أخفق فى محاولته وبدأ يترافع عن صديقه

فقال : « إن بولس آيرتون هو أفضل كاهن أعرفه . إن عمره ثلاث وأربعون سنة وكان رئيساً مساعداً مدة عشر سنوات فى رعية القديسة مرجريتا ، وقام بأعمال رائعة فيما وراء البحار . . . »

ــ « ما مرادك من هذا المديح غير المطلوب أيها الأب فرمويل ؟ » .

فاحمرّ وجه ستيفن : « إنى أشير فقط باحترام إلى سيادتكم أن يعيّن بولس آيرتون فى إحدى الرعايا الجديدة » .

فقاطعه جلينون فى تهكم وحدّة : « شكراً لمشورتك أيها الأب . وهل اخترت أيضاً مكاناً لهذا الكاهن الفذّ ؟ » .

ــ « نعم . إنه أصعب مكان وأبعد ما يظن للنجاح فيه » .

ــ « لدينا كثير من هذه الأمكنة . أين ملفّه ؟ »

ــ « إنه معى » . وبسط ستيفن على المنضدة المستندات السرّية الخاصة بالأب بولس آيرتون . فساور الكردينال شكّ فى أن خطة ما تدبّر خلسة فشرع يفحص الأوراق فحصاً دقيقاً على غير عادته .

ــ « هات الآن لنرى . نعم . بولس أمبروسيوس آيرتون . رسم كاهناً فى إكليريكية برايتون سنة ١٩٠٥ . العاشر فى فصله من ستة وعشرين طالباً . هاها ! ليس حقّاً بالنابغة . كاهن مساعد مدة أربع سنوات فى ويكفيلد . التقرير عنه معتدل . نقل إلى رعية القديسة مرجريتا سنة ١٩٠٩ . هاها ! لنر ما يقول عنه دولار بيل ــ وطفق الكردينال ينقّب فى رسالة موناجان ــ الأب بولس آيرتون كاهن فريد فى نوعه . . تقوى سامية . . تفانٍ لا مثيل له فى خدمة الرعية . يعتمد عليه تماماً فى الأمور المالية والإدارية . . التفكير محافظ لكن سليم . . أسف لفقده » .

وإذا بجلينون يسأل فجأة : « ما الذى دعاه للذهاب إلى الحرب ؟ » .

ــ « أعتقد ، يا صاحب النيافة ، أن الآب آيرتون سيجيب عن هذا بنفسه » .

ــ « أدخله » .

كان أسعد أعمال ستيفن التى قام بأدائها ، تقديم بولس آيرتون إلى الكردينال.

سُرّ فخوراً بموقف بولس وهو يركع فى حزم أمام الكردينال وينتصب فى بأس الجندى ، وعينا جلينون تتفحصه بتدقيق .

وفيا يقفل ستيفن باب الحجرة عليهما سمع الكردينال يقول لبولس : « اجلس أيها الأب آيرتون » .

بعد نصف ساعة خرج بولس آيرتون من حجرة البرج والابتسامة تمايل فوق الفلق الذى فى ذقته . وبدا كأنه لا يستطيع النطق .

— « وبعد ؟ — هزّه ستيفن من يده — وبعد ماذا حدث ؟ »

تكلّم بولس آيرتون وكأنه يروى أحلاماً : « إنه مرسلى إلى ميدفورد » .

— « لكى تفتح دكاناً بالقرب من پات بارلى ؟ ما أجمل هذا الموقع ! »

واستطرد بولس لكلامه وهو بعد فى ذهول : « قال لى أن أبنى كنيسة هناك . . وقدّم لى مساعدة مالية للابتداء » .

— « حقًّا ؟ ! . . هذا غريب جدًّا يا بولس ، وكم أعطاك ؟ »

فتح بولس آيرتون قبضة يده . ماذا ؟ . . فى راحة يده قطعة ممسوحة بالية من ذوات الخمسة سنات ! . .

— « إنه أجر الترام إلى رعيتى الجديدة . آه ، يا ستيف . . . لقد تحقق حلمى» .

وحبس بولس آيرتون دموعه فى حلقه ، فاشرأب عنقه حتى كاد يختنق سروراً .

بعد هنيهة ، لما فتح الكردينال باب حجرته شاهدت عيناه البندقيتان مشهداً غريباً حقًّا جدًّا : رجلان ، الواحد أسود والآخر كاكى ، يتجاذبان بفرح بأيديهما ورأسيهما وكتفيهما .

جال فى خاطر الكردينال أن لعبة قد تمت حقًّا ، لكنه بعد إمعان النظر فى مستندات الأب بولس آيرتون تعذر عليه فى تلك اللحظة معرفة أيهما غرّر بالآخر ؟

على غرار كثيرين من الفلورنسيّين قبله ، كان الربان جيتانو أورسلى يجد لذة فى التظاهر عند دخوله سواء إلى قاعة فى المجتمع أم إلى ميناء فى البحر ، ويتذوّق هذا المشهد حتى جعل منه شرطاً أساسيًّا فى الفنون الصغرى . وهو يستعد فى هذه اللحظة للدخول بسفينته إلى ميناء بوسطن للمرة الأولى منذ توقيع الهدنة . ظهرت له من عن يمين السفينة منارة بوسطن التى لم يسعد بمثل ضوئها الجميل قط .

مراراً عديدة فى أثناء سفره تراءى له الفيزوفيو بآلاته الضعيفة وألواح الحديد التى أكلها الصدأ عاجزاً عن التشبه بعابرات المحيطات . أما الآن فالأحوال تغيّرت . شعر أورسلى بذبذبة آلات الفيزوفيو عندما هدأ من سرعته ليسمح للمرشد بالصعود ، وبدا الفيزوفيو كأنه يتراقص تحت أقدام منارة بوسطن . أنزل سلم من الحبل وتسلق عليه المرشد بسرعة قط مذعور . فانتهت حينئذ مسؤوليات الربان وسمح لنفسه أن يتمتع بالهتافات العالية التى تستقبل بها كل سفينة صديقة تدخل الميناء .

فى المقصورة ارتدى أورسلى حلته صنع لندن — وقد اتسعت عليه قليلا عند الحصر بعد أربع سنوات فى حرب مضنية — ثم ثبّت قبعته المطرزة ذهباً فى مستوى زاوية مداخن الفيزوفيو ، وفحص شكله أمام مرآة مثلثة وسرّ من تأثير لمعان لحيته ، واتساع ظهره وتقاطيع وجهه الجانبية كأنه قاهر الأراضى والبحار : صورة لم تخفق قط والآن أيضاً فى إدخال السرور على نفسه .

فى الثامنة والأربعين بدا أورسلّى وكأنه فى الثانية والأربعين ، وبفضل سيدة جميلة لطيفة فى الدرجة الثانية شعر بأنه أقرب إلى التاسعة والثلاثين . اختار الربان من علبة جواهره خاتماً ذهباً على شكل ثعبان سمين بعينين من الزمرّد . ولأنه لن يلبس هذا الخاتم الفريد مرة أخرى فقد قربه إلى شفتيه مودعاً إياه فى حسرة وتمتم قائلا : « إنه جدير بك » . ثم وضع سيجاراً إنجليزيًّا بين أسنانه اللامعة ، وصعد على ظهر السفينة .

سطعت شمس أبريل بأشعتها اللامعة المعتدلة الدفء وانسابت بين شقوق المياه الزرقاء فى الميناء ، وصدحت الموسيقى من كل جهة ترحيباً بالڤيزوڤيو ، وزأرت الصفارات ورفرفت الأعلام ، وأوشكت طائرة فى شكل القفص أن ترتطم بالسفينة وهى تحاول إلقاء باقة من الورد . وشرع برج الإذاعة اللاسلكية فى قلعة بنكس يرسل إشاراته الدولية : « مرحباً بالڤيزوڤيو » ، تجرأ ضابط سخيف عند أسفل البرج بإرسال هذه الإشارة : « تحيا الإسباكنتى ! »

سرّ أورسلتى بهذا الترحيب وهو على ظهر السفينة ، وشرع يوجه اهتمامه إلى فريق من الركاب الوجهاء ، وعددهم قليل : قائد أمريكى بأربعة نجوم عائد من لجنة السلام ، وسياسى إنجليزى مدير مصرف جاء ينشد تخفيض الفائدة على قرض أمريكى جديد ، وممثل بعض الصناعات الألمانية يأمل استعادة بعض المصانع الموضوعة تحت حراسة الحلفاء ، وأخيراً الأسقف « لودوڤيكوريانزى » القاصد الرسولى ممثل عريق للڤاتيكان فى كثير من بلاد أوروپا ، لكنه الآن يرى للمرة الأولى شواطئ العالم الجديد .

لم يكن الأسقف رجلا دنيوياً وإن كانت مهمته سياسية . تخصص فى القانون الكنسى وجاء يعمل على تنظيم الأبرشيات الأمريكية الكبيرة لتطابق فى بنائها وإدارتها النظم الرومانية . وأمله تشجيع التبرعات الخيرية فى العالم الجديد وإرسالها بسرعة إلى خزانة الحبر الأعظم التى أصبحت خاوية خالية أو تكاد . فلا عجب إذن إن ابتسم سيادته فى نشوة عند رؤيته السفن المرصوصة والأرصفة المزدحمة بصناديق الحديد والفولاذ والبضائع الأخر العديدة علامة الازدهار فى هذا الميناء الجبار .

ثم سرح طرفه حول المرفأ فى دهشة وقال مخاطباً الربان : « إنه فى وسع ميناء نابولى ويقربه فى بهاء اللون . أقر أن هذا مفاجأة لى » .

فأجابه الربان : « ستلاقى كثيراً من مثل هذه المفاجآت فى أمريكا ، يا صاحب السيادة . إنها بلد ذو قدرة وإمكانيات تفوق التصور. لاشك أنه بلد حديث العهد ، وتنقصه بعض الحنكة ، لكن لن يمضى عليه جيل حتى تراه

يضاهى إيطاليا فى ثقافتها حتى — هل أكون كافراً ؟ — حتى فى سلطة روما الروحية» .

أهمل أورسلّى ابتسامة الأسقف الساخرة وأشار إلى سفينة ضخمة مستديرة المقدّمة راسية على رصيف جديد : « هذا لڤياثان الذى كان يوماً أمير البحار على خط همبورج وأمريكا ، ثم أسرته الولايات المتحدة فى أوائل الحرب وجعلته سفينة للركاب فحمل نصف مليون جندى أمريكى إلى أوروپا » .

فتكلّم القاصد الرسولى بالإيطالية حتى لا يجرح شعور الرجل الألمانى : « إنه نصب تذكارى للغباء الجرمانى » .

— « تستطيع حقًّا قول ذلك ، يا صاحب السيادة — أجابه التاجر الألمانى — لكن يمكنك الاعتماد علينا بأنّا لن نقع فى الغلطة نفسها . إن ألمانيا الجديدة لن تقع فى أخطاء . أما بخصوص السفن الحديثة — وانحنى بظرف أمام الحصور — فسنبنى مثلها أيضاً » .

— « بكل تأكيد — قال السياسى الإنجليزى — كلنا سنبنى مثلها أيضاً » .

كان أورسلّى أيضاً يعلم صحة ذلك . ففى أحواض أوستيا الكبيرة تبنى سفينة عظيمة للربان العميد أورسلّى الذى يرجع له الحق فى إدارتها باسم الشركة الإيطالية . غير أن ملكيّة السفينة ستمكث فى أيدٍ أجنبية أعنى إنجليزية . فقذف أورسلّى بالحرقة من نفسه الإيطالية أمام مستمعيه وقال :

« نعم ستسير السفن الحديثة مرّة ثانية فى البحار . لكن لن يمنع العلم الذى يرفعونه عليها ، أو المكان الذى بنيت فيه الأمر الواقع ؛ وهو أن مجلساً إداريًّا إنجليزيًّا سيشرف عليها .

قال الرجل الإنجليزى : « هى الحقيقة القاطعة » . فسأل الأسقف فى قلق : « لكن من أين يحصل الإنجليزى على المال ؟ »

أعجب السياسىّ المالىّ الإنجليزى بسذاجة هذا السؤال فأجاب متمتماً بالفرنسية : « وأنّى يحصل عليه الجميع ؟ » .

ضحك الجميع سوى القائد الأمريكى ، فإنه فى زمانه فى « رأس غارب » [ويست پوينت] لم يهتم أحد بتعلم اللغة الفرنسية .

تعلّقت ستة حبال معقودة بالفيزوفيو وجرته إلى رصيفه . وفى هذه اللحظة شعر أورسلّى بأن الخاتم يحرق بنصره . لن يستطيع الزوج الأمريكى الصعود إلى السفينة قبل ساعة على الأقلّ . فخفق قلب أورسلّى .

وقال لمستمعيه : « أعتذر إليكم ، يا سادتى ، إن مهمة إرساء السفينة تزداد صعوبة » . ورفع قبعته المذهّبة تحية للحضور وانحنى احتراماً للقاصد الرسولىّ : « أتمنى لسيادتكم أن تسعدوا بأفضل النتائج فى مهمتكم » .

— « وفى مهمّتكم أيضاً أيها الربّان » . لم يفت الأسقف فى روحاته وجيئاته على ظهر الدرجة الثانية تنسم ريح معطّرة تنبعث من تلك الناحية . ربما يفتح العالم الجديد لسيادته آفاقاً جديدة عديدة ، لكن لن يلقّنه كثيراً فى فنّ السخرية اللاذع .

بعد مضى ساعة من الزمن وقف جيتانو أورسلّى يراقب نزول الركاب . رأى من وراء منظاره البحرى المرأة الأمريكيّة الحسناء تضع على جبين زوجها « قبلة البحار » . فتمتم الرّبان فى عطف وعزاء : « ما أعذبهنّ . تلك الخلائق الخائنة ! » ثم حدّق بمنظاره نحو الطائرة السابحة فوق رؤوسهم وقرأ الكتابة المرسومة تحت أجنحتها . ماذا ؟ أبناء أسيزى ؟هزّ الربّان أورسلّى لحيته فى ذهول . كيف ذلك ؟ إن أبناء القديس فرنسيس فى إيطاليا يسيرون حفاة الأقدام أما فى أمريكا فإنهم يسافرون بجنون على الطائرات .

أدار أورسلّى منظاره والتقط صورة أسقف حائر ينزل سلّم السفينة . ورأى بجانبه كاهناً شابّاً أغبر الشعر يحييه بخضوع واحترام أمريكيّين. لا شك فى أن هذا المقدام العريض الأكتاف وعلامات الترحيب السارة على وجه الكاهن وهو يحيى المبعوث البابوى ، دلائل لا يستطيع أحد جمعها فى هذه الدقة الكنسيّة وحرية الفكر إلا شخص واحد فقط فى العالم .

أمسك أورسلّى بمكبّر الصوت وصاح : « ستيفانو ! »

بين أزيز الصفّارات وتصايح الأصوات ، سمع ستيفن اسمه . تبعت عينه الصوت إلى مصدره ، فرأى رجلا بلحية ياوّح له بمكبّر الصوت من برج القيادة . منعته أصول التشريفات من الرد بصوت عالٍ ، كما أن الوقت لم يسعفه للتسلل سريعاً إلى سلم السفينة بسبب اهتمامه بمرافقة القاصد الرسولى وحاشيته الصغيرة بين

زحام الركاب على الرصيف . فاكتفى بإرسال إشارة سريعة من يديه على شكل شوكة وسكين . فهم منها أورسلتى أن ستيفن سيلاقيه وقت العشاء فى المكان المعروف.

هزّ الربان لحيته اللامعة إعلاناً بالموافقة ، وضحك من طريقة التفاهم اللاسلكية هذه ، وأعجب كثيراً لما رأى ستيفن يتقدّم ضيوفه بين المصورين والصحفيين إلى ساحة صغيرة على الرصيف ، حيث وقف الكردينال لورنس جلينون مبسوط الذراعين يحيّى مندوب الحبر الأعظم البابا بنديكتوس الخامس عشر .

* * *

ارتدى الأب ستيفن فرمويل أحسن حلّة عنده ، وقبّعة ثمنها عشرة دولارات ، وزوجاً من الأحذية الأكسفورد السوداء وسار حثيثاً فى شارع الأمير ليلتقى بالربّان أورسلتى فى مقهى تورينو . إن شارع الأمير هو أحد شرايين بوسطن الكبرى ، إن لم يكن سوى قطعة صغرى من إيطاليا فى قلب بوسطن . قبل مجىء الطليان بزمن بعيد كان الأمريكيون الأوائل العظام أمثال چيمس أوتيس وآدمز وبولس ريڤير قد اعتادوا السير فى هذا الطريق الضيق بين منازله الأرستقراطية ومؤسساته التجارية التى انبعثت منها بوادر التحرّر الأمريكى ، فجرفت عنها موجة المجد الاستعمارى الغابر . ولم تمض أيام حتى تلتها موجات هجرة أخرى غمرت هذا الحىّ بأمريكيّين جدد من ناپولى وصقليّة أحرقت الشمس أجسامهم .

بعد ظهر ذلك اليوم سقط المطر مدراراً فضاقت المزاريب بالمياه وقذفت بالوحل والقاذورات على الرصيف وحول حذاء ستيفن اللامع . إنما لا بأس بكل هذا . المهمّ أن تيارات أخَرَ ذات معنى أخطر كانت تكتسح شارع الأمير . سمع ستيفن خطيباً مشاغباً يهيّج مستمعيه ويحتج أمامهم على ما حدث أخيراً من إلقاء القبض على « ساكو » و « ڤنزتّى » بتهمة جريمتى قتل وسرقة مسلّحة . ولم ينفك الخطيب الطليانى عن الصراخ : « إن ذنبهم الوحيد هو معارضتهم للاستبداد الرأسمالى » . وصرخت الجموع بالتأييد . ومرّ ستيفن فى سبيله .

أمام شركة سفر بحرية وقف فريق من الأمريكيّين الطليان بعيونهم الجاحظة يلوّحون بأيديهم الملأى بأوراق النقد ويتخاطبون فى صياح : « پونزى ، سيجعلنا

أغنياء ! . . پونزى سيكسر أيدى الماليّين المستغلّين الذين يضيّقون الخناق على أعناق الشعب الفقير » .

ساور الشك ستيفن لهذا المنظر . كان يعرف طريقة پونزى ، فقد طيّرت الشهرة اسمه على جميع أحياء بوسطن . كنت تعطى پونزى مئة دولار وبعد ثلاثة أشهر كنت تسترجعها مئة وخمسين . كان پونزى يوهمهم بأنه يستعمل هذه النقود فى شراء ليرات إيطاليّة ويكسب عليها فائدة كبيرة عند صرفها . فى الواقع ، كان ذلك الصقلىّ الأوقص القوام مصاباً بداء الجشع . عاجلا أم آجلا كان لا بد لمؤسسته التجارية من الانهيار ، وهؤلاء السذّج سيفقدون نقودهم . أما الآن فإنهم يكرّمونه ويلعنون المصارف التى لا تدفع لهم أكثر من ثلاثة فى المئة .

هل تضعضعت الأوضاع ؟ . . . حار ستيفن فى الأمر .

ثم مرّ على خشبة فوق حفرة عميقة طويلة موازية للرصيف ، ورأى فى أسفلها فريقاً من الرجال ينتشلون أنبوبة مياه قد انفجرت ويضعون أخرى جديدة مكانها ، وهم يعملون على ضوء مصابيح ضئيلة تشبه القنابل فى شكلها .

لمعت نافذة مقهى تورينو بنور بنفسجى برّاق مختبئ فى عناقيد عنب من الرخام الشفّاف يحملها صبىّ ناپوليتانى بيدين من البرونز ويهمّ بأكلها فى شهوة جامحة . لم يوضع هذا التمثال إعلاناً عن المقهى فقط ، بل كان يمثّل حقيقة صاحب المقهى فى صباه بين كروم ناپولى . إنه يرمز له بشيئين جميلين سعد بهما سعادة خالية من الهموم فى صغره : الشباب والخمر . ذهب كلاهما الآن : الأوّل حقيقة ، والثانى شرعاً ، أما بخصوص شبابه فلن يستطيع تورينو شيئاً ألبتّة ، وأما بخصوص الخمر فقد أعدّ له عدته . كان يصنعه بنفسه فى مزرعته فى ساديبرى ويبيعه شرعيّاً أم غير شرعىّ ، بالقدح أو بالقنينة لروّاد مقهاه .

والليلة كان ڤرچيليو تورينو ينتقى ثلاث زجاجات من أفخر نبيذه الأحمر ترحيباً بضيف كريم رفيع الذوق . سيدفع الربان جيتانو أورسلّى ثمن زجاجتين أما الثالثة فعلى حساب المقهى . إن هريسة لحم الدجاج تختمر الآن على النار مع أوراق الغار ، ومائدة أورسلّى معدة لاثنين فى زاوية من المقهى أسدلت عليها الستائر ، ونافورة المقهى تمطر حجارة الفسقيّة الملساء رذاذاً رطباً ، وزجاجة النبيذ

الأولى تنتصب فى طبق من الخيزران . عاشت الأنخاب ! ... وستبدأ مباهج الحياة ! ...

وإذا بكاهن يدخل المطعم : « هل الربّان أورسلّى هنا ؟ » .

ـ « كلّا ، لكنه سيحضر حالا . هل يتفضّل حضرة الأب بالجلوس ويشرب قدحاً من الخمر ريثما يحضر الربان ؟ »

جلس ستيفن لكنّه لم يشرب خمراً . إن لقاءه بأورسلّى شغله . فمدّ ساقيه الطويلتين تحت المائدة ، واستمع إلى فقاقيع الماء المنحدر من النافورة وألقى نظرة على الضوء المتألق من عناقيد العنب الرخاميّة ثم تناول زيتونة كبيرة من طبق هريسة اللحم ، وسأل نفسه : متى وكيف يجوز القول بأن الأمريكيّين قد فقدوا معنى التمتّع بالحياة ؟

جلس بعض القوم على مائدة مستطيلة يتناولون عشاءهم ، وقام رائدهم ، أشعث الشعر عريض الصدر يشرب نخبهم . لم يلتقط ستيفن كلمة واحدة من خطابه .

وفجأة ارتفع الماء فى النافورة ، واحمرّ الضوء بين عناقيد العنب الرخامية . وإذا بجيتانو أورسلى يظهر فى مدخل الباب فى عزّة وتيه مستطلعاً وجوه القوم فى كل مكان . فدفع بقبّعته المذهبة إلى تورينو وتقدّم سريع الخطى مبسوط الذراعين نحو ستيفن . كان جيتانو أورسلى يجيد فنّ التحية .

ـ « أهو أنت أيها العفريت الصغير ! أنت أيها الإكليريكى الخبيث ! ما ألذ لقياك ثانية » . ومرّ الربّان بيديه الاثنتين على يدى ستيفن ثم على معصميه فمرْفقيه وساعديه وكتفيه وطفق يربت عليهما بإعجاب ويقول : « قد ازددت وزناً وجمالا يا ستيفانو » .

ـ « وأنت أيضاً تبدو أنعم قواماً وما زلت جميلا قويّاً ، أيها الربان » .

التفت أورسلى ليتحقق من صحة هذا الإطراء فى مرآة على الحائط ، فلم يجد . فكشر عن أسنانه البيضاء فى نشوة وابتسم لستيفن قائلا : « أيها المتملق الخبيث ! إن الإرلنديين يفوقوننا نحن الفلورنسيين فى فنّ الإطراء والمديح ! . . يا تورينو . هات مفتاح الزجاجة ! . . فليس لدينا إلا ساعات قلائل . يجب أن نشرب ونتحدث فى آن واحد » .

سكب أورسلّى قدحين من نبيذ سادبيرى ورفع قدحه إلى الضوء يتفحّصه

بإمعان ، فوجد فى لونه القانى مادة أوحت بها إليه قريحته ليشرب نخب ستيفن .

– « إلى الأرجوان » !

أعجب أورسلّى بهذه الكلمة المسرحية وبالنبيذ نفسه ، فارتشف كأسه جرعة واحدة . ثم راجع كلامه فى دهشة .

– « الأرجوان ؟ ماذا قلت ؟ ظننتك منسنيوراً على أقل تقدير ياستيفانو . كيف وصلت إلى هذا المنصب ؟ أخبرنى بكل شىء بكل دقة وبدون اختصار » .

التقط أورسلى بشوكته قطعة من اللحم وقال : « أسرع ، خذ منها ، ومن هريسة اللحم هذه أيضاً » .

شرع ستيفن بين لقمة وأخرى من المتبّلات والأنشوجة والفطر المخلّل ، يقص على أورسلّى حياته مع دولار بل موناجان ، ويشرح له قداسة نيد هالى وفقره . وبينما كان ستيفن يسرد له قصة الخاتم الجمشت صنع دولشينيانو كان أورسلّى قد فرغ من شرب زجاجة النبيذ الأولى فاندفع يشيد بإعجاب ونشوة :

– « إما أن الروح القدس يلهمك – أو أن لك ميزة القط فى الهبوط دائماً على قدميك . فى عالم متقلب كعالمنا ليست ميزة أفضل من أخرى ومن يعلم قد تتشابهان . . . »

كشف تورينو طبقاً من الفخار وقال مطمئناً أورسلى : « لن يجد الربّان فى جميع أرجاء إيطاليا دجاجة ألذ من هذه . إن الملك نفسه لن يحظى الليلة بعشاء فاخر كهذا » .

فعقب الربّان قائلا : « ولن يحظى بها فى ليال أخر عديدة . ليس فى إيطاليا من يحظى بعشاء جيد بعد الآن – وفتح زجاجة النبيذ الثانية – لنشرب نخب الأمة الإيطالية لتحظى بأيام أسعد من هذه » .

رفع ستيفن قدحه وقرّبه إلى شفتيه ثم قال : « أخبرنى عن إيطاليا ، ياجينانو . فليس عندنا أنباء يعتمد عليها عما يجرى حقيقة هناك » .

فقال أورسلّى : « إنها قصة لا تسرّ ، يا ستيف . إن بلادى تشبه رجلا مثخناً بالقروح والدمامل وجالساً على قمة من القاذورات يتنازعه الاضطراب والخوف . إن الحرب خلّفت فينا جرحاً من السونكى هنا – وأشار أورسلّى إلى

جنبه – لكن السلم قسّمنا تماماً – وراح أورسلى يحاكى القصاب فى تقطيع اليدين والرقبة – أما فى ڤيرساى فسيّدكم المستر ولسون قدّم مشروعه السلمى فى أربع عشرة نقطة – والله نفسه، كما تعلم، ليس عنده سوى عشر وصايا – وعاملنا بها كأعداء بدلا من حلفاء مخلصين » .

– « وما قولك فى عصبة الأمم ؟ »

– « إنها عصابة لصوص – وقذف أورسلّى من فمه بقطعة من عظم الدجاجة – قد خسرنا دلماتيا وفيوم . ونالت اليابان حمايات على بعض الدول كانت من حقنا . لكن لا نلوم إلا أنفسنا . إننا منقسمون فى اجتماعاتنا ، محطمون فى بلادنا، وذليلون فى الخارج . فى عالم ينتابه الاضطراب ستتحطّم إيطاليا إذا لم يقم رجل قوىّ ويجمع السلطة فى يد واحدة حازمة . . . »

مدّ تورينو رأسه بين الستائر مستأذناً ، وفى يده زجاجة من المشروب .

– « ما هذا يا تورينو ؟ »

– « إنى أقدم لك تحيات صديق قديم من أصدقائك . إن السيد أرنولدو بوزّى يبعث إليك بهذه الزجاجة راجياً أن تتمكن من شرب نخبه » .

– « بوزّى؟! . . . هل هذا المجرم على قيد الحياة بعد ؟ قل له أن يحضر سريعاً ، فالربّان يسرّ بإطفاء عطشه بصحبته » .

لما ابتعد تورينو طفق أورسلّى يشرح لستيفن : « فى حداثتى تشرفت بعدم الزواج بأخت بوزّى . ومنذ ذلك الوقت وهو يعجب برجاحة عقلى . زد على ذلك أن مستر بوزّى هو أشهر مجرم توصّل إلى الهرب من قبضة الشرطة الطليان . والدم الذى يجرى فى عروقه هو دم متآمر فلورنسى حقيقى . آه ! ها هو ذا المتآمر .. أرنولدو ! »

وظهر رجل ضخم – وهو الرجل ذو الشعر الأشعث الذى رآه ستيفن عند دخوله المقهى يشرب نخب أصدقائه – وسدّ مدخل القنطرة . تشابكت أيديهما فى حرارة اللقاء مع أصوات الدهشة والإعجاب ، وجعل الواحد يفحص الآخر كمن يحاول الوقوف عند صاحبه على سنّ مكسورة أو ضلعة بارزة أو علامة أخرى من نوائب الأيام .

نقل بوزّى نظره من أورسلّى إلى ستيفن مستفهماً .

— « أتستغرب مجالستى الشريفة هذه ، يا أرنولدو . إذن تعرّف على صديقى العزيز ، الأب فرمويل ، أمين سرّ نيافة الكردينال — ستيفن ، أقدم لك أرنولدو بوزّى ، أحد الكربونارى الثوّار » .

استعاد ستيفن هذا الاسم إلى ذاكرته : « قد سمعت مراراً عن السيد بوزّى . أعتقد أنه رئيس جمعية أبناء أسيزى » .

— « عصابة من اللصوص، لا شك فى ذلك — قال أورسلّى— هيا يا تورينو، لا تقف هكذا متكلفاً الابتسام كأصحاب الحانات . نريد مزيداً من الأقداح فقط . اجلس يا أرنولدو ، إذا استطعت حشر كرشك فى هذا المكان الضيّق » .

جلس بوزّى ورفع قدحه وسبابته منتصبة وقال : « إلى الأبد ! » ، وهى كلمة النخب المفضلة عند القنّاصة يمتهنون بها عزوبة الكهنوت . أما ستيفن فلم يرفع قدحه .

— « قل لى الآن يا أرنولدو ، ما هى قصة أبناء أسيزى ؟ ثم هل طائرتك هى التى أوشكت أن تحطم مداخن سفينتى اليوم بعد الظهر ؟ ماذا فعلتُ لأستحق باقة ورد سقطت بعيداً عنى بمئة متر ؟ »

— « إن باقة الورد هى للأسقف ريانزى ، المبعوث البابوى الذى أتى ليصلح من أمور أبرشية بوسطن المضطربة » .

ابتسم ستيفن ابتسامة ذات معنى ، وأدرك بوزّى أن مشاكساته وإهاناته لن تفيده شيئاً . فقد بدا ستيفن فى تحدّيه وابتسامته هادئاً قويّاً . فوجّه إليه بوزّى سؤالا محدّداً .

— « هل أنت حقّا أمين سرّ الكردينال ؟ »

— « نعم » .

— « إذن لك علم بمطلبنا فى إقامة كنيسة إيطالية فى الجزء الشمالى من بوسطن ؟»

فأومأ ستيفن برأسه : « إنى مطلع على المراسلات » .

فتدخل أورسلّى سائلاً : « بحق السماء ما هذا كلّه ؟ لا تقل لى يا أرنولدو إنك أصبحت بطلا فى الدفاع عن الدين ؟ »

فقال بوزّى : « لا بل قل بطلا للطليان الأمريكيين ،واندفع بوزّى يشرح

الأمر لأورسلى شرحاً مغرضاً .

ـ « منذ ثلاث سنوات ، اشترى أبناء أسيزى كنيسة وأصلحوها وزينوها لمصلحة أبناء وطننا المهملين. وأحضرنا من إيطاليا كاهناً فرنسيسكانياً طيباً وقديساً ، وجل ما نطلبه هو أن يقوم بشعائر الصلاة فى كنيستنا . وتوسلنا إلى الإرلندى جلينون أن يصرح لنا بإقامة الشعائر الدينية فيها ، لكن سعادته يرفض الاستماع إلى طلبنا ـ والتفت بوزى إلى ستيفن وقد ظهرت بوادر المجاملة على وجهه الغليظ وقال ـ : قد قرأت طلبنا . فما رأيك فيه ؟ »

فأجاب ستيفن : « إن رأيى مذكور فى رسالة الكردينال الأخيرة » .

فزمجر بوزى . « أترى أيها الربان ؟ . . إنهم جميعهم متضامنون ، هؤلاء الكهنة الإرلنديون الأمريكيون . دعهم فليتضامنوا » .

واستبدل رئيس أبناء أسيزى بطريقته طريقة أخرى وقال : « لا تعجب إذا بلغك أن البابا نفسه يسندنا وأن كردينالكم الإرلندى سيرى نفسه مغلوباً على أمره أمام حبرنا الأعظم الإيطالى المعصوم من الخطأ ـ والتفت نحو ستيفن هازئاً ـ إنه معصوم من الخطأ ، أتفهم ؟ »

فأجابه ستيفن : « أما أن البابا يسندكم فلا أعلم . وأما أنه معصوم من الخطإ ، فلا يسعنى إلا أن أذكرك بقصة الكردينال جيبونز التى يرددها : سأل شخص الكردينال مرة : "هل تؤمن بأن البابا معصوم من الخطإ ؟ " فأجابه جيبونز ضاحكاً: " كل ما أعلمه هو أن البابا فى المرة الأخيرة التى تحدث إلى فيها قد دعانى : چيبونز " . . . »

تطاير الضحك من شدقى أورسلى ، فخفف التوتر : «چيبونز ! هاها ! . . . هيا يا أرنولدو ، ابتسم يا صديقى . لسنا فى مجمع كرادلة » . وملأ قدحه وقدح بوزى .

جرع بوزى قدحه لكنه رفض الاستسلام . كان واحداً من أولئك المتمردين الانفراديين الذين يقاومون كل سلطة أيا كانت . لكنه كان يؤمن فى سلامة نية بالرجوع يوماً إلى حياة القديس فرنسيس البسيطة الهادئة . أما الآن وقد التف

أتباعه وراءه وسدّوا مدخل القنطرة فقد قرّر أن يلقّن هذا الكاهن البارد المزاج درساً قاسياً .

— « فى جميع رسائله إلينا يقول الكردينال : سلّموا إلينا حجة الملكية على الكنيسة ، وأنا أصرّح لكم بإقامة الشعائر الدينيّة فيها . لم هذا ؟ » .

أحس ستيفن برائحة النبيذ والشماتة والمشاكسة تنبعث من سؤال بوزّى وتذكّر المثل القديم القائل : لا تناقش ثملا أو متعصباً . فحاول عدم التورط فى الجدال . لكن الرجل ينتظر جواباً ولا يزال يزمجر كلاعب شطرنج حاصر شاه غريمه ، وأورسلّى ينظر إليه فى ثقة . فاختار ستيفن بين الردود العديدة الممكنة ، ردّا يناسب المقام ويستوى مع ذكاء مستمعيه :

— « يجب أن تعلم ، يا سنيور بوزّى ، أن غاية الكنيسة الدائمة هى العناية أولا بالنفوس . لهذه الغاية وحدها أسس المسيح كنيسته وجعل منها أداة إلهية يمكن أن يكتسب الإنسان بواسطتها اتحاداً دائماً بالله » .

توقف ستيفن برهة ليجعل هذه الحقيقة تنغرس فى أذهان مستمعيه ، ثم استطرد لحديثه قائلا : « والكنيسة هى مصدر النعمة المبرّرة التى تؤهّل الإنسان للوصول إلى هذه الغاية . والكنيسة أيضاً هى الحارس على الحقائق والعقائد الملهمة التى أوصى بها المسيح إلى البشر » .

فقال بوزّى : « كلنا يعلم هذا من التعليم المسيحى . لكن ما صلة هذا مع ملكية الكنيسة ؟ »

أجاب ستيفن : « يمكننى إيضاح هذا الأمر : فإن مجمعاً من الأساقفة الأمريكيين قرّر أن جميع الممتلكات الكنسية الموجودة فى نطاق الأبرشية ، يجب أن تسجل باسم الأبرشية . ويمكننى سرد تاريخ هذا القرار والأسباب التى أدت إلى اتخاذه بسبب الاضطراب وأخطار الانقسام التى تنتج عن نظام إدارة العلمانيين لأملاك الكنيسة ، كما حدث قبل هذا القرار . لكن لو تفضلت فسأحاول شرح المبادئ الدينية التى تستند إليها ملكية الأبرشية لجميع الممتلكات الكنسية » .

فالتفت بوزّى إلى أتباعه محذراً : « احذروا هذا الكاهن الفيلسوف ، وإلا جرّكم إلى الهلاك بكلامه المعسول » .

انتظر ستيفن حتى زال الضحك، واستطرد لكلامه مختصراً أسس برهانه الأول. قال :

— « ليست الكنيسة فقط جسم المسيح السرّى لكنها أيضاً هيئة أرضية ملموسة ، جمعية من الأشخاص، ومنظمة تظهر للعالم بوضوح فى شعائرها الدينيّة العلنيّة وقوانينها ومكاتب إدارتها العديدة . ولها رئيس منظور ، البابا ، الذى من حيث إنه ممثل المسيح على الأرض يتكلم معصوماً من الغلط ، فى حدود العقائد والآداب . — واستدار ستيفن نحو بوزّى عندما نطق بتلك الكلمات — . ومن البابا أو كما يقول بعض اللاهوتيين من الله نفسه ، تنحدر هذه السلطة إلى الأساقفة الذين يحرسون ويفسّرون ويعلّمون تعاليم المسيح المقدسة فى حدود أبرشياتهم . ويسهر الأساقفة حتى لا تتسرّب أخطاء التعليم أو العادات المنحرفة إلى الكنيسة . والكردينال جلينون ، حسب الواجب المقدس الملقى على عاتقه ، هو الحارس والمفسّر ومعلّم التعليم الكاثوليكى الحقيقى فى أبرشية بوسطن » .

قال بوزّى : «حارس الحقيقة ، هذا ممكن ، لكن هل حراسته تمتدّ إلى الأملاك ؟ » .

— « حسب قانون الكنيسة ، نعم تمتد » .

فصاح بوزّى « إذن قانون الكنيسة سخيف ، إن الله لا يهمه من يمتلك بناء من الطوب » .

أجاب ستيفن بهدوء : « إن كان الله لا يهتم بذلك ، فما الداعى لاهتمامك به إذن ؟» .

— « لافض فوك ! — صاح أورسلّى بأعلى صوته — هل أبناء أسيزى يغارون على أملاكهم أكثر من الله ؟ » .

ومدّ بوزّى عنقه على المائدة وقد امتلأ حنقاً وقذف سيلا من الشتائم نحو ستيفن : « إنك وإن أكثرت من الرغى والعلك بكلماتك فلن تنظف وجه الأمور . فأرغِ كما يحلو لك ، إنما الحقيقة هى أن كنيستكم الأمريكية ما هى إلا شركة تجارية كبرى تحاول مدّ أصابعها الجشعة إلى المزيد من الفرائس. فمن الكردينال إلى أصغر شخص فى حاشيته ، قد نسى الجميع تعاليم المسيح ، ولا يفكرون إلا فى الاستزادة من المال والأملاك » .

— « عار عليك يا بوزّى — صاح أورسلّى وهو يمسك بكتف رفيقه — إن الأب فرەويل حاول أن يشرح لك الأمر ببساطة وصدق . إنى لا أسمح بهذا الهجوم على ضيفى » .

قال ستيفن : « دعه يتكلم » .

برزت العروق فى جبهة بوزّى منتفخة بالغضب والنبيذ : « أشكرك ، يا لابس الثوب المحترم ، على سماحك لى بالكلام . يمكنك إبلاغ رسالتى هذه لكردينالك : قل له إن أبناء أسيزى إذا ما رأوا كاهناً يعلّم الفقراء الدين — ويأتى إلينا حافى القدمين ولابساً أسمالا كالقديس فرنسيس — وإذا ما وجدنا أسقفاً أمريكيًّا إرلنديًّا يتخلّى عن المطالبة بأملاك الغير ويقوم فى دعة بتقديم الأسرار إلى أبناء وطنى المهملين — حينئذ وحينئذ فقط (وأدار بوزّى رأسه نحو أتباعه من أبناء أسيزى يطلب موافقتهم على ما سيعرضه) —قلت لك حينئذ فقط نوقّع على حجة الملكيّة ونقدمها للكردينال . ألا يرضيك هذا الحل ؟ » .

— « إنه مرض للغاية وإنك إذا سرت فى طرقات بوسطن فسوف تجد مئات من أولئك الكهنة الراغبين فى العمل حسب شروطك التى ذكرتها . لكنك لن تتعرّف عليهم » .

ثم التفت ستيفن نحو أورسلّى وقال له : « تعال أيها الربّان . لنخرج من هنا . لا بدّ من معجزة لإقناع هذا الرجل » .

فتح ستيفن له طريقاً بكتفيه بين الجموع الهائجة . ولم ينفكّ تورينو يعتذر لهما حتى وصلا إلى باب المقهى . فى شارع الأمير تصاعدت روائح الزيت المحروق من الحفرة التى فى جوف الرصيف ، واختنق الهواء برائحة الماء المتعفن . سار ستيفن وأورسلّى صامتين مقبوضى الصدر وتوجّها نحو الجنوب ، ومرّا فوق لوح الخشب المقام على حفرة المياه .

قال ستيفن : « كم كانت سخيفة هذه المظاهرة ! كان يجب علىّ أن أعلم أن جدال رجل كهذا عبث » .

قال أورسلى مشجعاً : « لم يكن لك بدّ من ذلك ؛ إن بوزّى أرغمك على ذلك . والحق أنك عالجت الأمر بحكمة وتعقل . أيزعجك أن يجد خنزير لذة فى التمرّغ فى حمأة الجهل ؟ » .

— « كان من واجبي أن أعامله بلطف أكثر . لكني كنت متمسكاً بكسب المجادلة ببراهيني ، حتى إني أضعت فرصة تهدئته ورده إلى سواء السبيل » .

أسرعت عربة إسعاف إلى شارع الأمير وصرّت على عجلاتها صريراً مزعجاً وتوقفت عند حافة الحفرة . ونزل منها رجلان بلباس أبيض وطفقا يسألان بعض العمّال عما حدث فأشار العمال إلى الحفرة الموحلة . فجرى أحد رجال الإسعاف إلى العربة لإحضار نقالة ، وشرع رجال الشرطة يجرّدون عصيّهم لتفريق الجمع . ورأى ستيفن رجلا لابساً قبعة حديدية يصعد من الحفرة فخاطبه سائلا إيّاه :

— « ماذا جرى ؟ » .

— « قد انهالت الجحيم علينا ، يا أبي » وأخرج العامل منديلا من جيب بنطلونه الخلفي ومسح العرق والوحل من على وجهه : «كنا نضع أنبوبة جديدة للمياه وإذا بسحاب من التراب والحجارة قد انهال علينا وسدّ مدخل الأنبوبة » . وبدا الرجل كمن يطلب العذر لنفسه : « وعلى إثر ذلك ، أمرت چوسلڤوتشي بالدخول فيها — فإنه أمهر رجل فى فريقنا — لينظفها من الوحل . وفى هذه اللحظة ، تقهقرت سيارة نقل إلى الوراء حتى حافة الحفرة وسقط الجدار بكامله مع السيارة وما فيها ، على الأنبوبة التى دخل فيها چو ». وعاد الرجل يمسح جبينه : « إنه لا شك هالك».

وسأله ستيفن : « هل هو بعد على قيد الحياة ؟ » .

— « إنه محشور كالصرصور . لكن يمكن سماع أنينه » .

أحضر بعض الرجال مرفعاً وشرعوا فى ربط سيارة النقل وجرها حتى يسهل عليهم إنقاذ الرجل . وصرخوا بصوت واحد : « هيلا هوب ! » واشتدت الحبال وتحركت السيارة قدماً واحداً ، ثم سقطت ثانية فى هدير مزعج فوق أنبوبة الماء ، فهشمتها ، كما تفعل مطرقة برأس طفل .

خاطب ستيفن نفسه : « لا أستطيع الوقوف كالمتفرج » . فنزع عنه سترته وقدمها لأورسلّى وقفز إلى الحفرة . فصاح فيه رئيس فرقة الإنقاذ : « هيه ، أنت ، اخرج من هنا » .

زحف ستيفن على يديه وركبتيه تحت سيارة النقل ونقر بقطعة من الحجر على أنبوبة المياه . فلم يسمع رداً من چو سلڤوتشي . فضرب ستيفن الأنبوبة

بشدة . فسمع نترة ضئيلة يائسة أرسلها الرجل المحشور داخل الأنبوبة .

إذن لم يزل چو سلڤوتشى على قيد الحياة . لكن كيف الوصول إليه ؟

زحف ستيفن على أنبوبة الماء حتى وصل إلى فتحتها التى دخل منها چو سلڤوتشى قبله بدقائق . فخنقته رائحة المجارى العفنة . كانت الفتحة ضيقة . فنزع ستيفن عنه ربطة عنقه وقميصه وبنطلونه ، وزج برأسه داخل الأنبوبه وهو بثيابه الداخلية فقط وانسل بوصة بوصة بين الوحل القذر . كاد يختنق من ضيق المكان ، وغطى الوحل جسمه كله فكان يزلق داخل الأنبوبة غير قادر على التقدم خطوة واحدة . فمال على جنبه وشق طريقه بكتفيه .

خيل إلى ستيفن أنه سار ميلاً طويلاً بين القاذورات قبل أن يبلغه صوت أنين خافت . فمد يده فى الظلام ليلمس رأس سلڤوتشى ، الذى كان مضجعاً على ظهره وشفتاه ترتعشان يأساً .

— « أتسمعنى يا چو ؟ »

— « من أنت ؟ »

— « قسيس — الأب فرمويل . جئت لأسمع اعترافك الأخير » .

رنت السعادة فى صوت سلڤوتشى وهو يقول : « أشكر الله يا أبى أنك أتيت » .

أصبح تنفس چو ضيقاً من ثقل السيارة . لكنه بدأ اعترافه قائلا :

— « حلفت باطلا . . . مئة مرة فى اليوم . دائماً أقول المسيح كذا وكذا . . والمسيح كيت وكيت . . . »

— « هذا يدل على أن المسيح هو دائماً قريب منا . وماذا أيضاً ، يا چو ؟ »

— « إنى أسكر . وأذهب إلى بيوت الدعارة . وعندما أعود إلى البيت أضرب امرأتى » .

— « نعم ، يا بنى » .

وخنق الندم كلمات چو الأخيرة : « كنت قاسياً مع أولادى . وطردت ابنى ڤيتوريو من البيت . فأطلب الغفران من الله عن كل ذلك ، يا أبى » .

— « إن الله يدرك ذلك تماماً يا چو . إنه رحيم ويغفر لك ولكل إنسان أسير مثلك ، دائماً وإلى الأبد . هل من شىء آخر الآن ؟ » .

— « شيء ٌ واحد فقط يا أبى » . بدأ تفكيره يتضاءل ، وخانه لسانه فى التكلم بلغة وطنه الثانى ، فطفق يتمتم بالإيطالية : « رددت كثيراً أن الكهنة قوم أشرار ، وأنهم لا يفكرون إلا فى مالهم وثيابهم وبطونهم . ردّدت كثيراً أن الكهنة لا يحبون رعاياهم . إنى أنكر الآن كل هذه الكذبات يا أبى . . . »

غمرّ ستيفن فرح لا يوصف وهو يضع شفتيه قريباً من أذن چو : « قل فعل الندامة من كل قلبك يا بنى » . .

وأتاه صوت چو سلڤوتشى وهو يشهق : « ياربى ، إنى أكره خطاياىَ كلها لأنها تهينك وتجعلنى غير مستحق لتناولك فى قلبى . . . »

— « هيا ، أكمل ياچو » .

— « . . . وأعقد العزم بنعمتك ألاّ أعود إلى الخطيئة فيما بعد وأن أهرب من أسباب الخطيئة ، وأن أتمم القانون المفروض على . . . »

فى آخر الصلاة كانت شفتا چو تختلجان اختلاجاً ضعيفاً . وأحسّ ستيفن بالأنبوبة تضيق عليه . فرجع زاحفاً إلى الوراء فى الظلام الدامس حتى وصل إلى فتحتها ، وإذا بها تتحطم فى فرقعة رهيبة تحت وطأة السيارة .

كان جسم ستيفن مكسوًّا بالوحل والقذارة . لم يستطع الوقوف . كان تائه الفكر منقبض القلب ، منطرحاً نصف عريان فى الوحل ، وكلمات چو سلڤوتشى الأخيرة تطن فى أذنيه .

فسأله أحد العمال : « هل أنت سليم ؟ »

— « إنى على مايرام — إرم فقط علىّ دلوين من الماء ، وبعد ذلك أرتدى ثيابى » .

حاول الوقوف لكنه زلق وكاد يهوى ثانية . فانتشله أورسلّى بيديه القويتين وقرّب لحيته المعطرة من وجهه وقال : « لقد كنت عظيما يا ستيفانو » وغطّى عريه بمعطفه صنع لندن . ثم صرخ فى رجال الإسعاف المأخوذين : « هيا ساعدرنى لنقله إلى العربة » .

فتوسّل إليه ستيفن : «من فضلك ، لا حاجة إلى عربة الإسعاف . خذنى فقط إلى البيت فى تاكسى ، ياجيتانو » .

* * *

فى الصباح التالى نشرت جميع صحف بوسطن هذا النبأ . وضع ستيفن بريد

الكردينال قرب طبقه وحاول مغادرة الحجرة بسرعة .

— « لِمَ هذه السرعة ، أيها الأب ؟ » قال جلينون . وأمسك بجريدة « العالم » وقرأ العنوان بصوت عال : « كاهن يخاطر بحياته ليسمع اعتراف عامل محشور فى أنبوب الماء . . أرى أنك غمرت ذاتك بالوحل — و بالشهرة — الليلة الماضية » .

ثم أخذ الكردينال جرعة من قهوته : « إنك تدرك ، أيها الأب فرويل ، أننى لا أقرّ عادة مثل هذه الأعمال المسرحية المثيرة . إنها تجرّ إلى خلق شعور خاطئ عن حياة الكاهن الاعتيادية » .

بسط الكردينال قليلا من المربّى على قطعة خبز محمص بالزبدة وراح يقرضها برهة من الزمن : « على كل ، توجد فى هذه الحال ظروف مخففة » . وقضم قطعة أخرى من الخبز بالمربى : « ربما يسرّك أن تعلم بأن رجلا يدعى بوزّى حضر إلى ههنا شخصياً الليلة الماضية » .

— « آه ! » .

— « وكان أتباعه معه — أبناء أسيزى — رجال متحمسون . فى ساعتها لم أدرك تماماً ما كانوا يعنونه بكلامهم . . . خاصة بشأن القديس فرنسيس سائراً حافى القدمين بين . . . آه . . . بين الوحل . لكن جريدة " العالم " تشرح الأمر بوضوح . أرجو ألا تكون تأثرت بانغماسك فى القذارة ؟ »

تطلّع ستيفن إلى طرف حذائه وقال : « فقدت فقط بذلتى وحذائى الأكسفورد الجديد ، يا صاحب النيافة » .

— « إن خزانة الأبرشية ستعوّضها لك ، أيها الأب . لكن لنعد إلى بوزّى . قد اعتذر عن مناقشة دارت بينك وبينه . وشفع اعتذاره بعمل جميل — عمل مجيد ، أقول .نعم ، وها هى ذى — حجّة الملكية على البيت فى شارع الأمير فى الجزء الشمالى من بوسطن » .

ثم افترّ ثغر الكردينال عن ابتسامة عريضة . وانتصب واقفاً وضرب المائدة بعقد التملّك وقال ضاحكاً وماداً يده إلى ستيفن مهنئاً : « حصلنا عليها يا ستيفن! أشكرك من كل قلبى أيها الأب . إن الأمر كله بطولة فى تصرّف كهنوتى سليم جاء فى الوقت المناسب » .

ثم خفض الكردينال صوته وأسرّ إلى ستيفن : « إن ريانزى ، المبعوث الرسولىّ ، كان حائراً للغاية . كان لديه أوامر بتأديب هؤلاء البلهاء أبناء أسيزى . لكن لما حضرت لجنة من أولئك المحمومين فى الليلة الماضية وقدّمت راضيةً حجة الملكية لم يسع ريانزى إلا أن وزّع عليهم أيقونات باركها الأب الأقدس نفسه . وفى منتصف الليلة الماضية كنت ترى كل شىءٍ حتى شرف أبرشية بوسطن يتألق ببريق وهاج » .

ثم تضاءل مرح جلينون ، ووضع جانباً حجّة الملكية التى كانت محور همومه ، وعاد فأصبح كاهناً هادئاً مرة ثانية ، وقال مخاطباً ستيفن : « غداً صباحاً فى كنيسة شارع الأمير سأقدم قداساً لراحة نفس چو سلفْوتشى . وسوف يسرّنى جداً ، ويشرفنى ، أيها الأب فرەويل ، أن أراك إلى جانبى لتساعدنى كشماس فى إقامة القداس » .

دخلت مني فرمويل حجرة نومها ورمت بقبعتها ومعطفها على منضدة قرب سريرها وقذفت بحذائها المبطن بالفرو وألقت بجسمها النحيل فى استرخاء على سريرها الضيق . قد أتت من العمل إلى البيت ودخلت من الباب الأمامى دون أن تحيي أباها أو أمها . والآن وقفت سيليا عند قدم السرير كالأم الحنون تمطر منى بأسئلتها الرقيقة : « هل تريدين عشاء خفيفاً فى سريرك ؟ هل تشكين صداعاً ، يا حبيبتى ؟ هل تعلمين أن إيميت سيأتى الليلة ؟ »

أما ردود منى فكانت جافة . لا ، لم ترغب فى عشاء فى سريرها . نعم ، كانت تعلم أن « إيميت بورك » سيأتى . لا ، إنها لا تشكو صداعاً الآن — ربما بعد أسبوع . لا ، نعم . ثم نعم ولا .

— « أرجوك بحق السماء يا أماه ، دعينى وحدى . إنى مرهقة الأعصاب . ربما كان العمل سبب ذلك أو الجو . لا أعلم . إنه شيء ما . أقفلى الباب وراءك » .

جلست منى على سريرها وهمت بفك حمالات جواربها ، شعرت بشيء ما يذيب قواها ويلقى بها على السرير مرة ثانية . شيء ما ؟ ما هو ؟ . . هو كل شيء ! . . العمل ، الكنيسة ، الأسرة ، إيميت بورك ، الكرامة ، والحياة بنوع عام . هو مقر عملها للأدوات الصحية مع حوض الميناء المعروض فى النافذة قرب آلتها الكاتبة ، منازعاتها مع فلورى ، أسئلة سيليا المتواترة ، اجتماعات الخميس مساء فى مقر جمعية النساء العزب ، وإيميت . نعم إيميت ، وتنهداته ، وربطات عنقه المنقطة ، وقص شعره كل أسبوع ، وأحاديثه المملة عن سياسة فرسان كولومبوس .

وقالت منى تخاطب نفسها : « إن أرهقنى إيميت الليلة بأحاديثه عن نادى الصيد ، فسألقى إليه بخاتمه الرخيص على الأرض وأدوسه بقدمى » .

كانت منى مخطوبة إلى إيميت . فى عيد الميلاد أهداها أصغر خاتم يمكن

تصوّره ، وفى مقابل ذلك منحته أصغر قبلة فى الوجود . اعتبر بعضهم إيميت نصيباً جيداً . كانت لوسى كورتين السمراء متيّمة بحبه . ولاحظت سيليا فرمويل فى شخصه الخشن آثاراً من التقوى والانتظام فى الحياة . والراهبة الأخت برناردين التى علّمت إيميت الجغرافيا التجارية فى المدرسة ، قرّرت أيضاً أنه أظرف شاب فى الرعيّة ، وكان يمكنه أن يصير كاهناً لو رضى فقط بتعلّم قليل من اللغة اللاتينية غير أن هذا القليل لم يستطع إيميت الحصول عليه . وعند عودته من الحرب قنع بأن يصبح فرداً صالحاً فى الرعيّة ، وانضم للعمل فى بقالة أبيه بأجر قدره تسعة عشر دولاراً ونصف دولار فى الأسبوع .

كان إيميت يدخر من أجره هذا الملوكى اثنى عشر دولاراً يودعها مساءَ كل يوم جمعة فى مصرف مدفورد التعاونى . وعندما يتجمع لديه خمسمائة دولار سيتزوج بمنى فرمويل . وقد رتب إيميت كل شىء للمستقبل : « سنؤثث منزلنا من أربع حجرات بطاقم خصوصى من عند كالدويل ، يدعى " عش الغرام " بثمن قدره ٢٩٨,٨٩ دولاراً . . . أما المأكولات فلن تكلّفنا شيئاً . وسيزيد أبى مرتبى خمسة دولارات يوم زفافنا . ثم نذهب إلى "پروڤيدنس" لقضاء شهر العسل ، ونحمل معنا مئة قطعة من البسكويت ، وننزل فى فندق ، وكل شىء . . . »

تخيّلت منى شهر العسل القادم سريعاً فى جزع ، فاستدارت على فراشها وضربت مخدتها بقبضتها . سيحضر إيميت الليلة ويطالبها بنفحة صغيرة على شكل قبلة مسائية ، وستترك هذه القبلة على شفتيها طعم السنسن ورائحته . غريب !... فإذا ما أحب شخص فهو لا يبالى بطعم القبلات ولا بالعناق الشديد . كل ما هنالك أن يُلقى الشخص برأسه إلى الوراء ويقدّم شفتيه فى هدوء حتى تغطيهما الشفتان الأخريان ، ثم يذوب فى أعماق الأحلام وهو يتمتم (وأحياناً يفكّر) قائلا : « حبيبى بانى . . . ما أطول الأيام ! » .

فى السابعة مساء تمقّقت منى حساء الذرة الذى حملته إليها سيليا . وكعادتها أجابت أمها بنعم ولا . ثم لا ونعم ، على أسئلتها . ثم شرعت ترتدى ملابسها فى كسل . لم تأبه منى بالتأنّق فى لبسها ، فالمقابلة مع إيميت عادية غير رسمية (السينما وبعدها قطعة من الحلوى) . اكتفت إذن بثوبها الجبردين الأزرق وقميصها

الأبيض . وفى الساعة السابعة وتسع وعشرين دقيقة سمعت رنة جرس إيميت المعتادة . دقة طويلة واثنتان قصيرتان . فتركته ينتظرها ست دقائق كاملة ، ثم نزلت تدق الدرج بكعبها .

كان إيميت ينتظرها فى البهو ، ناعم الذقن ، مرتدياً بذلة بنية اللون (أما البذلة الزرقاء فليوم الأحد فقط) ، وربطة عنق منقطة ، وحذاء أحمر براقاً ، وفى يده قبعة مستديرة جديدة ، وتحت ذراعه علبة حلويات .

فحياها قائلا : « هالو ، منى » كما يفعل اللاعب أمام عجلة القمار وقلبه يختلج شكاً فيما قد يؤول إليه حظه . ثم قدم لها علبة الحلويات فى عدم اكتراث وقال : « حلوى بالزبدة ، صنف ممتاز ، رمز الفارس ، من عند مورجان » .

— « ها ! شيكولاته . شكراً إيميت ! » ودون أن تنظر إلى علبة الحلوى ، وضعتها فوق البيانو .

— « أين نذهب الليلة ؟ » كان سؤال إيميت يتضمن حلولا كثيرة : الرقص على سطح « وستمنستر » أو حفلة استعراض فى ملهى « السيروكو » . لكن ماليتهما لم تسمح لهما بالتفكير فى الذهاب إلى مثل هذه الأمكنة . كان لدى إيميت دولار واحد فقط لهذه الليلة ، ولم تجهل منى ذلك .

فسألته بجفاء : « ماذا يلعبون فى مسرح الحمراء ؟ » .

— « وادى الحب مع ڤيلماڤيل » .

قالت سيليا وهى تفتح علبة الحلوى وتأخذ منها قطعة بالزبدة : « سمعت أن الرواية لذيذة » .

— « إذن سنذهب إلى وادى الحب . . ماما ، ليلتك سعيدة » .

شيعتها سيليا فرمويل ببعض النصائح (التى لن تعبأ بها منى) : « اقضى وقتاً سعيداً » — « كونى فتاة عاقلة » — « وارجعى إلى البيت باكراً » . ثم رسمت على ظهريهما إشارة الصليب وهما ينحدران على السلم الخارجى . وراقبتهما من وراء ستائر النافذة وتنهدت قائلة : « يا يسوع ومريم ومار يوسف احرسوهما » . ثم عادت تخاطب نفسها : « إن إيميت ولد طيب ، إنه طيب حقاً . ويستحق امرأة طيبة تحب بيتها . ما أسعدنى يوم تزف منى إليه بسلام » .

أما منى فكانت تعلم أن أمها كانت تتمتم ببعض الصلوات من وراء الستارة ، وأن جميع الجيران فى شارع مرج الغاب كانوا يتلصصون عليها أيضاً من وراء أستارهم . فاجتاحتها رغبة فى أن تكبس قبعة إيميت الجديدة المستديرة فوق أذنيه وتهرب منه مولولة فى عرض الشارع وطوله .

كانت تريد أن تذهب مع شخص آخر تحبه لترقص معه . غير أن ذلك كان مستحيلا الآن . فسارت فى تصنّع وسط ميدان ميدفورد مع إيميت وهو ماسك بساعدها كما لو كان واحداً من رجال الشرطة ، وأخذ يقص عليها ما حدث اليومَ بعد الظهر فى نادى « حقل الربيع » (سبرينجفيلد) للصيد . ولما هدأت حماسته فى الحديث وعدها بمرافقتها بعد العرض إلى الحلوانى « راپاشيرتى » ويشترى لها عصير موز بالصودا .

لم يكن عرض « وادى الحب » رائعاً ، لكنه على الأقل جلب الدموع إلى عيون الحاضرين . والدموع أحياناً تحسّن الأمور. سالت الدموع من عينى إيميت الزرقاوين جارفة معها همّه وشقاءه فى حب لا تجاوب فيه . وفى دفء الظلام الهادئ أطبق إيميت يده على أصابع منى ، فلم تمانع ، ومكث هو بجانبها يعانى لوعة الحب . واستهل لاعب الأرغن مقطوعة « شيخ العرب » فأضيئت الأنوار وتبدّدت أحلام الظلام .

فقال إيميت : « ياه ! . . ما أجمل هذا العرض . العرض دائماً جميل فى مسرح الحمراء . أحسن من البلازا . لكن التهوية فيه سيئة . أما الأرغن فهو أفضل أرغن فى المدينة . هو أرغن والسلام . بلغنى أن ثمنه عشرة آلاف دولار» .

تردد إيميت قليلا فى مقعده . اضطرته الأنوار أن يرفع يده عن يد منى ، لكنّ ذهنه كان لا يزال متوهجاً من حرارة « وادى الحب » . كاد المسرح يخلو من المتفرّجين ، فحثّته منى قائلة : « هيا بنا ، وإلا قضينا ليلتنا هنا » .

— « لن يكون ذلك من سوء حظنا ، أليس كذلك ؟ » .

كانت هذه الكلمة أفصح إشارة ألمح بها إيميت . ولما لم تردّ عليه منى ، اعتبر ذلك تأنيباً له على رطانته . كاد يعتذر لها حينما تذكر أنه لا يزال لديه

مخرج شريف لهذا المساء . . عصير الموز بالصودا . فوقف وقال فى عظمة : « فلنذهب إلى راپاشيوتى ونشرب عصير الموز بالصودا الذى وعدتك به . . . »

ومرّة ثانية امتنعت منى عن الردّ عليه . ومرّة ثانية حار إيميت فى أمره . كانت منى تستطيع بسهولة مضايقته ، بكلمة أو بدون كلمة ، وحينئذ يسير كل شىء حسب هواها ، دون مقدمات سخيفة ، ثم تتبخر هذه الصداقة الوهمية وتضمحلّ . فى مثل هذه الأحوال كان إيميت يتألم دائماً فى حيرة ويخطئ دائماً فى توجيه هذا السؤال إليها : « ماذا بك يا منى ؟ »

ولم تكن منى تستطيع الرد على سؤاله لأنها لم تكن تعلم حقيقة شعورها . أحست فقط أن أوتار الأرغن حرّكت فيها عاطفة وميلا إلى التجديد . كانت تريد أن تؤخذ إلى أىّ مكان (وليس إلى راپاشيوتى) فى سيارة تنهب بها الأرض ، أو تجلس على مقعد وثير ، أو تُحمل على يدى شخص — آه ، حقًّا ، غير إيميت بورك ، أو تدعى إلى مقهى حيث المقاعد تمتد من زاوية الحائط حتى باب الدخول ، أو تقاد وسط حجرة كبيرة مزدحمة بالمدعوين فى ثيابهم البرّاقة إلى حلبة الرقص حيث يتلقفها بيديه پانى رامپل ، الذى لم تزل تحبه ، وإن جاهدت منع نفسها عنه .

أما الآن فأجابت إيميت : « إنك تثيرنى بسؤالك دائماً : " ماذا بك ؟ ماذا بك ؟ " ليس بى شىء . أو بى كل شىء . . .لنذهب إلى راپاشيوتى » .

— « نعم ، لنذهب إلى هناك . إن عصير الموز عندهم أفضل من عند الپالاس . أليس هذا ما تريدينه : عصير موز بالصودا ؟ . . . »

كان محل راپاشيوتى يجمع بين محل لبيع الفاكهة وصالون لبيع الحلويات والمرطبات مع قناطر صغيرة وكراسى فى مؤخر المحل . على الجدار الأيسر رسم بركان الڤيزوڤيو وهو يقذف بحممه إلى الفضاء ، وإلى اليمين كنت ترى الجندولات الشهيرة المعروفة . لما دخل إيميت ومنى كان لاعب البيانو ومساعده على الكمنجة يعزفان مقطوعة « الدردنيل » . ولما كانت القناطر كلها محجوزة ، اتخذا لهما مائدة بالقرب من الفرقة الموسيقية . الحلوة ؟ ! . . أين هى ؟ فكّرت منى . لكن على افتراض وجودها فماذا إذن ؟ . . أما إيميت فاتخذ دور الأمير الغنى السخىّ وصاح فى الخادم :

« أحضر لنا اثنين من عصير الموز بالصودا . وأحضر لى مثلوجاً بڤانيليا وفراولة مع كثير من المصطكاء . أىّ صنف تريدين يا منى ؟ »

— « الصنف نفسه بدون المصطكاء » .

خشى إيميت صمت منى فسرّح طرفه بين الحضور علّه يجد بعض الأصدقاء. فصاحت به فتاة على قبعتها ريشة حمراء : « ما قولك فى الاشتباك الأخير ؟ » فصاح بها أيضاً إيميت : « قد خسرت فيه حذائى ، يا إيڤا » . فأغرق الجميع فى الضحك . فسرّ إيميت من نفسه ورأى أنه يستطيع أن يصبح رجل ثورة لو أراد ذلك . وتبرمت منى من هذا الموقف . فاضطرب هو أيضاً .

لما أتاه الخادم بعصير الموز ، تناوله بسرعة وقحط طبقه بالملعقة وقال باسطاً يديه بسخاء :

— « بنفسى طبق آخر . وأنتِ يا منى ؟ »

— « لا ، كفى . لنخرج من ههنا » .

اتسم رجوعهما إلى البيت بالجفاء . حاول إيمت جهده ملاطفتها ، لكنه حار فى أمره . ولو فرض أنه رجل ماهر بشوش لبق لوجد منى ، مع ذلك ، صعبة المراس . لكن إيميت بورك ليس واحداً من هؤلاء الرجال . فى سيرهما فى ظل شارع الإسفنداان حدّثها عن لعبة البليادرو التى أقامها حديثاً فرسان كولمبوس . وعند مرورهما بين زهور الزازلخت المتفتحة وصف لها فوز فريق . . « الجوارب الحمر » الذى أحرزوه أخيراً فى كليڤلاند . وعند وصولهما تحت ضوء قوس كهربائى أزرق اللون عند زاوية شارع « الهضبة العالية » بدا إيميت كرجل ضخم يحاول شرح طريقة ضرب النار لفتاة يافعة سرحت أفكارها فى شخص آخر . وفى صعودهما الطريق الوعر إلى الباب الخلفى من بيت فرمويل ، وضع إيميت خفية فى فمه حبّة من السن‌سن استعداداً لقبلة الليل .

كانت منى تخشى عناقه الشديد ، لكنها مع ذلك كانت ترغب فى الحصول على قبلة . ليس من إيميت أو أىّ شاب آخر فى ميدفورد ، لكن من حبيب جميل على سرير كبير من الحرير ، يحدّثها حديثاً رقيقاً ينفذ إلى قلبها ويرفعها إلى عالم الخيال الفتان ، ويحوم حولها بأجنحة الهيام ، يدلّلها ويلاطفها كما يفعل عشاق

الأساطير فى الأحلام والأوهام . أما الآن فقد خسرت ونبذت حلمها اللذيذ إلى الأبد يوم قطعت على نفسها وعداً مع ستيفن .

لما اقتربا من ظل الباب الخانى أعدّ إيميت نفسه لأسعد لحظة فى هذه الليلة ، وانتظر فى صبر جميل ليطالب بقبلته . فلما انحنت منى لتأخذ مفتاح الباب من تحت البساط ،أطبق على فمها بشفتيه المعطّرتين . فتحمّلت ذلك بفتور . ألا يستحق إنسان منحة تعويضاً له عما صرفه من نقود لإدخال السرور على قلب صاحبه ؟ ! . . .

سمعت منى زفير أمها سيليا فى النافذة فوقهما . هل كانت تحلم بالشباب والحب ؟ ربما ! . . .

حيّت منى إيميت بجهد ثم فتحت الباب الخلفى ودخلت المطبخ . فسمعت خطوات إيميت تتعثر على الطريق الوعر المنحدر فى حيرة يائسة . ثم صعدت الدرج وهى تخاطب نفسها : « ليس هذا ذنبه . . مطلقاً . لكن لا فائدة من ذلك . لا أستطيع الصبر أكثر من ذلك . لن أستطيع الزواج به » .

قذفت بقبّعتها على الأرض وجلست على طرف سريرها الضيق . قد حاولت كلّ جهدها أن تتّبع نصيحة ستيفن الذى أرشدها قائلا : « اختارى لك شاباً كاثوليكياً وسيرى معه بانتظام » . وهاهى ذى تسير بانتظام مع إيميت بورك أكثر من سنة . والآن فقط شعرت أنها تكره إيميت وكل شيء فى ميدفورد : العمل والكنيسة والأسرة والحياة بنوع عام . ثم نظرت إلى المرآة وقالت لوجهها البيضى الشكل : « يجب أن أهرب من ههنا ؟ »

بحثت عن قطعة من الورق فى الدرج الأعلى من مكتبها وبقيّة من قلم . لم تأتها الكلمات بسهولة ،وما أقل ما تعرفه منها ! ثم خطّت سطرين على قطعة الورق: « عزيزىّ ماما وبابا ، إنى ذاهبة . أرجو ألاّ تحاولا تتبعى — منى » .

ثم عبّأت حقيبتها وانتظرت حتى نام كل من فى البيت ، وتسلّلت على درج السلم الأمامى ولحقت بالترام الأخير إلى بوسطن .

* * *

أحدث اختفاء منى ضربة أليمة لدِنْ وسيليا . فى بدء الأمر أرسلوا نداءات

ملؤها الأمل فى الصحف اليوميّة : « متى ارجعى إلى البيت . جميعنا نتألم » . لكن فى نهاية الشهر الثالث اضطر دِن فى خجل إلى إبلاغ الشرطة عن تغيّبها . أقيمت صلوات تساعيّة . لكن لم ينجح الشرطة ولا الصلوات الحارّة فى إعادتها . وانتظرت سيليا رسالة لم تأتِ قط . وعند صوت كل خطوة على الباب كانت تنهض من مقعدها أو تترك عملها مترقبة عودتها . وفى المساء كان صوت دن وتجواله فى البيت ، وقد نال منهما الحزن والألم ، يختفيان بعد العشاء فى نظرة صامتة إلى صحيفة « العالم » . حتى غناء برنى انقلب كآبة ، وليلة بعد ليلة ما انفكّ يعزف على البيانو فى لحن خافت هذه الأغنية :

المقاعد فى القاعة كلها تشتاق إليك ،
والرفقة يسألوننى لِمَ لَمْ تعودى ،
البيت كلّه كئيب دونك ،
قد افتقدناك أنتِ دون غيرك ،
وأكثر من الجميع ، أنا ، قد افتقدتك .

— «بحق السماء ، يا برنى ، العب شيئاً آخر أكثر مرحاً . ما هذا ؟ أهنا مشرحة؟ »

هى فلورى ، التى ما زالت ترغى وتزبد أكثر من أىّ وقت مضى . فى أعماقها كانت تلوم نفسها لأنها أبعدت منى عن البيت ، لكن حتى لا تعترف بخطئها كانت تؤنّب كل شخص آخر وبالخصوص زوجها آل ماك مانوسى وتلذعه بسوط توبيخ ضميرها .

كانت هى وزوجها ينامان فى سرير واحد ، ومع ذلك ، لم تتحدّث إليه مدة ثلاثة أشهر . فقد حدث ، فى ساعة باسمة من المضاربات المالية الساحرة ، أن سحب آل ممّا ادخراه معاً ثمانمائة دولار وسلّمها إلى پونزى ليجنى منها ربحاً سريعاً . لكن بعد أسبوع ، أشهرت مؤسّسة پونزى الماليّة إفلاسها . فاستشاطت فلورى غضباً على زوجها وأقفلت عليه حجرة نومها وانهالت على جسمه الجبان ركلا بقدميها وتجريحاً بأظافرها ، وقطّعت ما تبقى من رجولته إرباً بلسانها ، ولم تمهله طوال الليل . ولما بزغ الصباح بادرته بصمت كالجليد وازدراء عميق لم تتخلّ عنهما منذ ذلك الحين .

* * *

كان ستيفن بدافع من محبّته البنويّة يأتى إلى البيت فى بعض ليالى إجازته . غير أن سروره تضاءل فى زياراته . فكان ملاذه الوحيد ، هرباً من التوتّر السائد فى الطابق الأرضىّ ، هو حجرة هيلانة الهادئة . فى هذه الحجرة ، كما فى الدير ، عوّدت هيلانة نفسها تحمُّل نوبات المرض وما تقاسيه من جراء تعاسة أسرتها . رويداً رويداً عادت إليها قوتها . فكانت تجلس كل يوم إلى النافذة ساعة أو ساعتين تطلّ منها وتتأمل فى أزهار الراوند المنثور فى حدائق المنازل فى شارع مرج الغاب ولم تنحصر تأملاتها فى العالم الخارجى ، فقد جعلت من حياتها صلاة وتفكيراً متواصلا فى هدوء الروح وانجذابها إلى خالقها . فتبدو فى حديثها مع ستيفن مرحة متفائلة كعادة المرضى بذات الرئة . وأحياناً ترسم مشاريع صغيرة للمستقبل كزيارة الكنائس المجاورة عندما تتحسّن صحتها ، أو غسل بعض مفارش الهياكل . لا يوجد عمل حقير إذا قدم لله ! . . .

كانت هيلانة تحبّ الشعر فتقرأ أحياناً لأخيها الكاهن بعض مقطوعات فى الكتب بجانب سريرها . والمفضّلون عندها بين المؤلّفين هم : دون ، وكراشاو ، وفرنسيس تومسون . منعها ذوقها السليم من الانحدار إلى الأخطاء العاطفيّة فى القصائد الدينيّة التقويّة . ذات مساء مدّت يدها فوق غطاء سريرها وتناولت كتاباً لجورج هربرت ، وسألت ستيفن :

ــ « أتذكر قصيدة الإكسير لهربرت ؟ »

ــ « أعتقد . على كل اقرئيها لى » .

شرعت هيلانة تقرأ القصيدة الجليلة فى بساطتها حتى وصلت إلى هذه الفقرات :

الكلّ بك [يا رب] يتحد .
ليس فى الدنيا من شىء وضيع
إذا ما قدّم لعزّتك
إلاّ يصبح لامعاً منيراً

العبد إذ يخدمك
يسمو بالعمل الوضيع نحوك

والذى يكنس حجرة طاعة لأمرك
يجعل عمله عظيما بفضلك .

وضعت هيلانة الكتاب بالقرب منها ورفعت بصرها نحو ستيفن مثل ينبوع ماء تنعكس فيه أشعة السماء الصافية . وقالت : « لا شىء أصدق من ذلك » .
أضاف ستيفن : « لا شىء حقًّا » .

لما ترك ستيفن هيلانة تلك الليلة لم يقو إلا على مقارنتها بلالاچ منتون : الاثنتان تنبضان بالمحبة التى وقفتا حياتهما لها . كانت صحّة لالاچ تسمح لها بأن تفيض محبتها دون خوف على البشر جميعاً ، فى حين كان ضعف هيلانة كالمصباح المشتعل يبعث بأشعة القوّة الإلهية من بؤرة شديدة التوهج . فإذا كانت لالاچ تذكره بالحياة النابضة الساطعة بالنور فهيلانة تمثل عنده إناء من المرمر يشع نوراً لن يخمد ضياؤه .

فى الصباح التالى وقت القدّاس ذكر ستيفن هيلانة فى صلواته وطلب إلى الله أن يسمح لمحبتها باختراق جدران حجرتها لتفيض على البشر من حرارتها ولمعانها .

* * *

أشاع رجوع چورچ فرمويل بعض الفرحة فى رقم ٤٧ بشارع مرج الغاب . أتى برتبة يوزباشى مع وسام استحقاق لشجاعته فى معركة « قصر تيارى » ، وجرحٍ فى ترقوته اليمنى إثر إصابته بشظية قنبلة . وادّخر من مرتبه الحربىّ ما يقرب من ألف وسبعمائة دولار . أما نظرته إلى عالم ما بعد الحرب فكانت حقداً وكراهية ، كما أفصح بذلك لستيفن : « إن روح الأخوّة عند البشر كروح الأبوّة عند الله ما هى إلا معانٍ عفا عليها الزمن ولا تصلح لجيلنا » .

لم يأبه چورچ بما يؤول إليه مستقبل العالم بل تابع دروسه فى الحقوق دون إبطاء . لم يرجع إلى العمل على رصيف السمك فقد يكفيه ما ادّخره لتغطية مصاريف الدراسة . أنفق مئتى دولار لإجراء بعض الإصلاحات فى حجرة نومه على السطح ، واشترى له مقعداً وثيراً ، وانكبّ على كتب الحقوق التى كانت طعاماً وشراباً لذهنه المتعطش إلى العلم .

قضى ستيفن أعذب ساعات محادثاته فى حجرة چورچ . وأفضل حديث عند

چورج بعد الحقوق هو السياسة . سبق ولسون بأن أضاف إلى مقترحاته الخيالية بعض الأفكار الاجتماعية والتجارية . كانت البلاد فى ذلك الوقت تمرّ بموجة من الإضرابات ، رأى فيها چورج فاتحة نضال طويل الأجل بين رأس المال والعمل . فكان يقول لستيفن :

— « يجب أن توزّع ثروتنا الوطنية بطريقة أفضل وأعدل ، يا ستافى ، تسمح للعمال بالاشتراك دوماً فى العمل على أساس مرتب أفضل . تصوّر هذا ! . . . إن عمال الفولاذ فى " مدينة پيت " (پيتسبورج) يتقاضون فقط عشرين دولاراً مقابل سبعين ساعة عملاً فى الأسبوع . لا أريد الظهور بمظهر الاشتراكيين ، لكن ألا يدل ذلك على أن إمكانيات أمريكا تستغلّ فى مصلحة بعض الأفراد الأغنياء ؟ »

— « إنك تنطق بما جاء فى منشور البابا لاون الثالث عشر الاجتماعى ؛ إذا أردت مرجعاً ثقة لما قلته منذ برهة فما عليك إلاّ بقراءة منشور البابا لاون الثالث عشر عن " الأمور الجديدة " الذى كتبه فى سنة ١٨٩١ » .

— « ابحث لى عن نسخة بالإنجليزية ، إن مصيبتكم أنتم يا رجال الدين ، كمثل الأصداف فى البحار ، لا يمكن العثور على جواهركم إلا فى اللغة اللاتينية الرفيعة » .

ثم ينفث چورج دخان غليونه ويحثّ أخاه الكاهن على أن يثبّت بالعمل تعاليم الكنيسة فى الحقل الاجتماعى . قد تدور المناقشة بينهما حتى منتصف الليل . لكن وسط حديثهما الجذاب عن الحقوق والدين والتجديد فى البناء الاجتماعى كانت ظلال الحزن تخيم عليهما فى هذا البيت الكئيب . كانت اجتماعاتهما تنتهى دائماً بالحديث عن منى .

ذات ليلة سأل ستيفن چورج : « أتعتقد أنا عملنا كل ما فى وسعنا للعثور عليها ؟ »

— « حقًّا لا أعلم ، يا ستافى » . وعبأ چورج غليونه بالتبغ وقال : « أحياناً أفكر فى أنه يجب علينا اتخاذ طريقة أكثر إنتاجاً للعمل . إن رجال الشرطة لا يهمهم أمر هؤلاء الأشخاص المفقودين . ربما اضطررنا إلى البحث عنها بواسطة مخبرين

سرّيّين . ليسوا حقًّا بالرجال العظام ، لكنهم أحياناً يأتون بنتيجة » .

— « ذلك سيتكلّف نقوداً كثيرة ، ألا تعتقد ؟ »

— « على الأقل عشرين دولاراً فى اليوم ، سوى المصروفات الأخر . . »

هز ستيفن رأسه وقال : « ما من أحد فى هذه الأسرة يستطيع القيام بمثل هذا العمل » .

فألقى چورچ نظرة إلى الكتب أمامه وقال : « يا ستافى ، أظن أنّنى أستطيع ذلك . قد ادّخرت معظم مرتبى مدة ثلاث سنوات . ولا يزال لدىّ ألف وخمسمائة دولار نقداً » .

— « لكن هذا المال سيساعدك على تغطية مصاريف الدراسة » .

— « يمكننى الرجوع إلى عملى القديم على رصيف السمك . ولن أتأخّر دقيقة واحدة ، يا ستاف ، إذا كان ذلك يعيد إلى سيليا حيويتّها وإلى دن صوته الجهورى » .

— « كل ذلك من أجل الحب » ، فكر ستيفن فى نفسه ثم قال :

— « لكن لا يمكننا أن نطلب منك إنفاق نقودك بهذه الطريقة ، يا چورچ . ربما لن نفيد شيئاً ألبتة وتكون كمن ألقى بماله من النافذة » .

— « عندى شعور ، ياستافى ، أننا لن نخسر شيئاً . سأنظر فى الأمر على كل حال » .

فى اليوم التالى ظهراً ، كان چورچ فرمويل يُسرّ فى أذن « لويد برومباو » مدير « مكتب المخبرين الأعلى » بقصة منى . كانت أذُن برومباو بيضاء صلبة لادَمَ فيها كالمحار فى سهول « رأس القد » موطنه . غير أنه كان رجلا خبيراً عليماً بدقائق الأشياء . فاستفسر عن وزن منى ، وطولها ، ولون شعرها ، وعينيها ، وقوامها ، وسائر علاماتها المميزة . سأل عن أصدقائها . وألوان التسلية التى تفضّلها ، واتصالاتها خارج المدينة . فدوّن كل ذلك فى مفكرّته ، وقال :

— « سيبدأ رجال شركتنا فى البحث عن أختكم حالا ، يا سيد فرمويل . بالطبع لا أضمن شيئاً — لكن لدينا طرقنا . أما الأجر فهو ستمائة دولار فى الشهر ، تدفع مقدّماً » .

سحب چورچ من حافظة نقوده ست ورقات من ذوات المائة دولار

وقدمها إلى السيد برومباو .

انقضى شهر ولا أثر لمنى . ودفع چورچ ستمائة دولار غيرها . وذهب إلى عمله القديم على رصيف السمك ، كادحاً طول النهار ، ومتابعاً دروسه فى الحقوق ليلا . وفى أواخر الشهر الثانى وصلته رسالة من « مكتب المخبرين الأعلى » فأسرع فى طلب ستيفن على الهاتف .

ـ « أنباء ، يا ستافى ! يعتقد برومباو أنه علم بمكانها » .

ـ « أين ؟ »

ـ « فى ويلكز بارى . انتظرنى أمام كلية الحقوق الساعة العاشرة مساء . سأطلعك على التفاصيل » .

بعد الساعة العاشرة بقليل كان الأخوان فرمويل جالسين فى مطعم ضيق على شارع بويلسطن . وشرع ستيفن يقرأ تقرير الشركة :

« إن رجالنا قد عثروا على امرأة شابة تشبه فى أوصافها منى فرمويل ، ما عدا نقطة واحدة . العمر بين ٢١ و ٢٣ سنة ــ الطول : ٥ أقدام ، و ٦ بوصات ــ الوزن التقريبى ١١٨ رطلا ــ لون العينين أزرق قاتم ــ والقوام جميل . أما نقطة الاختلاف فهى لون شعرها . هذه المرأة شعرها أشقر ويسهل تعليل ذلك بالصبغة » .

تذكّر ستيفن رغبة منى وميلها إلى الشعر الذهبى . هذا ما أخبرته به بصراحة يوم عودته من روما . ربما كان برومباو على حق . وتابع ستيفن قراءته بسرعة :

« إن المرأة التى عثرنا عليها تسافر باسم " مارجو لاڤار " ويرافقها رجل من النوع الأسبانى ، فى الثلاثين من عمره ، يُدعى رامون كونجارو . يدّعى أحياناً أنه طبيب لكنه يكسب عيشه كراقص محترف . وقد قام هذا الرجل مع أختكم بتقديم استعراضات فى مراقص المدن الصغيرة فى الحانات الرخيصة . ظهرا أخيراً فى " أنباء المرفإ الجديد " (نيوپورت نيوز) ، ثم فى ولمنجتون ، " فالدائرة " (هويلنج) ، فسكرانتون ، فألطونا . وفى الأسبوع الماضى ظهرا ليلتين متتابعتين فى ويلكزبارى . مكانهما الحالى غير محدد ، لكن ربما يقدمان استعراضاً فى چيرسى الجديدة أو فى يورك الجديدة .

« من فضلك أخبرنا إذا كنت ترغب فى الاستمرار فى البحث وأرسل لنا مشكوراً قسيمة بمبلغ ٦٠٠ دولار لموافاتكم بما يستجد من أنباء .

المخلص : برومباو

ملحوظة : إذا رغبتم فى استطاعتنا رفع دعوى على المدعوّ كونجارو لحرقه مرسوم مان » .

ما أبشع تجارة العمل !... نظر ستيفن إلى چورچ وهو يتناول قهوته . لم توجد سوى كلمة واحدة ، وقالها چورچ : « فى اللحظة التى عرفنا مكانها، تفلت النقود من يدنا » . ورمى بدفتر قسائمه على المنضدة : « لم يبق سوى مئتى دولار ، يا ستيف . أتعتقد أن فلورى ستساعدنا بأربعمائة أخر » .

حرّك ستيفن قهوته واليأس يعصره : « الحقّ أنى أكره سؤالها ، يا چورچ . إن المنازعات لم تهدأ بين فلورى ومنى . وبعد حكاية پونزى لا أعتقد أن فلورى فى حالة من المزاج تسمح لها بمدّنا بالمال» .

— « سيكون أسوأ أمر تأتيه إذا رفضت » .

— « لا أريد وضع فلورى أو أىّ شخص آخر فى هذا المأزق الحرج » .

أدرك چورچ عاطفة ستيفن الأخويّة نحوه ، فاقترح عليه : « ربما كورنى ديجان يستطيع مساعدتنا » .

— « لا شك فى ذلك . يمكنه تزويدنا بعشرات من القسائم ويقول : " اطلبوا المزيد إذا احتجتم " . لكن هذه مسألة عائلية ، يا چورچ . إننا لا نستطيع الاعتماد على كورنى ليتحمّل متاعب أسرة الفرمويل » .

— « إذن ماذا نعمل ؟ إننا لا نستطيع فقد أثرها الآن أيضاً ! »

فبدا ستيفن يفكر طويلا ، ثم قال : « لو تجرّأنا فقط على الانتظار قليلا ! »

— « ننتظر أىّ شىء ؟ »

أشار ستيفن بأصبعه إلى أسماء المدن المذكورة فى التقرير وقال : « انظر ، يا چورچ ، إن خط السير واضح تماماً ، إن منى تتّجه نحو الشمال : ڤرچينيا ، ديلاوار ، پنسلڤانيا ، وچيرسى الجديدة . ويقول برومباو إنها ربما تذهب بعد ذلك إلى يورك الجديدة » .

بلغت الحماسة بستيفن أشدّها فاسترسل قائلا : « أعتقد أن ذلك هو غريزتها فى العودة إلى البيت . أراهن أنها ستعود إلى بوسطن فى مدة شهر من الزمن » .

— « لكننا لا نستطيع الجولان على حانات الرقص كل ليلة فى انتظار رؤيتها » .

— « نحن لا نستطيع ، لكن برنى يستطيع ذلك . من الآن سيكون برنى وسيطنا الأوّل ، فإن محور عمله يدور فى حىّ المراقص . وبعون الله وببعض الصلوات الحارة ، سوف أدهش إذا لم نعثر على كونجارو ولاقار فى الأسابيع القليلة القادمة » .

* * *

تحقّقت تكهّنات ستيفن فى دقّة الآلة الحاسبة . ذات ليلة كان عائداً إلى دار الكاتدرائية وإذا بالكاهن المقيم يقول له : « إن أخاك ينتظرك فى حجرة الجلوس » . هناك وجد برنى مرتدياً بذلة خضراء منكمشة من الخلف ضيقة ، وربطة عنق منشاة عالية ، وبنطلوناً ضيّقا ملتصقاً بساقيه ، وحذاء سويديًّا عالى الرقبة . كان مظهره مظهر الشاعر الحالم ، لكن ذقنه المزدوج كان غارقاً بين ربطة عنقه .

وأعلن فى فتور : « قد رأيت منى منذ برهة » .

— « عصفورة البيت ! أين هى ؟ »

— « فى مرقص الميترو . قاعة رخيصة فى شارع تريمونت » .

— « كيف شكلها ؟ هل كلّمتك ؟ »

وانحدرت الدموع على خدّى برنى : « قد نظرت إلىّ فعلا . لكنها لم توجّه إلى كلاماً » .

— « هل كانت وحدها ؟ »

— « كلاّ ، كان معها رجل » .

— « وما شكله ؟ »

— « رجل يشبه الراقصين الإسبان . وقد طردنى » .

المهمّ أن منى عادت إلى بوسطن ، ومعها كونجارو .

وسأل ستيفن : « قلت إنهما فى مرقص الميترو ؟ لنذهب حالا إلى هناك » .

بعد عشرين دقيقة كان ستيفن يتبع أخاه داخل قاعة الميترو المتعرجة ، فى الطابق الثانى من بناية فى أسفل شارع تريمونت ، حيث احتشدت كتل من الشبان ، وأغلبهم أكتافهم مبطّطة ، وشعورهم مزينة ، ينفثون دخان سيجاراتهم بين الرقصة والأخرى . كان ستيفن قد اقترض من برنى منديلا كبيراً من الحرير وربطه عالياً على عنقه فوق ياقته الرومانيّة . صعدوا السلّم وهما يتساءلان أيجدان منى أم لا يجدانها . فى منتصف الدرج وقف برنى أمام شباك وقال : « من فضلك عشر تذاكر » . وقدّم للرجل دولاراً عن عشر رقصات .

كانت حلبة الرقص محاطة بدرابزين يعلو إلى الخصر ، وفى ناحية منه باب حديدى مربعّ يدور على نفسه . وعلى المقاعد استرخت بعض الفتيات منتظرات من يرافقهن للرقص ، فى حين انتثر بعض مئتى زوج من الفتيان والفتيات يتخاصرون ويرقصون رقصة « قفز الثعلب » على أنغام « مارچى » التى تعزفها فرقة « دنچر دون » . أضيئت الصالة بنور برتقالى خافت جعل من الصعب رؤية الوجوه بوضوح .

ألقى ستيفن نظرة فاحصة على الجمهور علّه يحظى بالتفاته من منى . ثم أسرّ إلى برنى : « هل تراها ؟ »

— « ها هى ذى تتّجه نحونا مع رفيقها ذى الرداء البنّى » .

رآهما ستيفن . كان الرجل يبدو متعجرفاً بفنّه وولعه بالرقص ، ويرتدى سترة فى لون الكاكاو وقميصاً أرجوانيًّا ، وزاد من طوله حذاؤه ذو الكعب العالى .

راقب ستيفن منى ترقص ، واليأس يعصر قلبه . كان رأسها مسترخياً إلى الوراء وجسمها الرقيق يطفو كأوراق الزهر بين يدى رفيقها . إنها دون شك جميلة لطيفة ، قد أضفى عليها شعرها الأشقر المصبوغ ، الذى أدهش ستيفن فى بدء الأمر ، مسحة ساحرة من الجمال المسرحىّ . كانت ترتدى ثوباً لامعاً تتخلله كرات حمراء وخيوط من الفضة . فبدت بهذا الشكل ، كما كانت تتخيّل نفسها ، ملكة بين الراقصات الغجر .

انقبضت نفس ستيفن حتّى الموت . وقال لبرنى : « هيا نخرج من هنا ونذهب بعيدا منه » .

— « لا نستطيع ذلك ، يا ستيف ، فالمراقبون المأجورون موزّعون فى كل مكان . إنهم يقذفون بنا من أعلى الدرج » .

سكتت الموسيقى ، وأضيئت الأنوار وخرج الراقصون كالسيل من حلبة الرقص . وخلا المكان إلا من رجل يرفع يده ويريد الكلام . وإذ أخفق فى طلب الصمت أشار إلى ضارب الطبل الذى انهال على دفّه فى ضربات سريعة ختمها بضربتين ثقيلتين . . « بوم — بوم » . فوقف حينئذ مدير الحفل وطفق يتكلم فى أناقة مفتعلة ولكنة سخيفة :

« سيداتى ، سادتى ! . . الليلة ، بعد إذنكم الكريم ، نقدّم لتسليتكم عرضاً جديداً فى مباراة الرقص ، للدورى النهائى داخل حدود مقاطعتنا ، والجائزة كأس من الفضة . وتصفيقكم يقرّر من هو الفائز . . . أشكركم جميعاً وفرداً فرداً » — وأشار آمراً إلى رئيس الفرقة — « والآن الأستاذ دون يفتتح الأغنية الأولى » .

صدحت الموسيقى لحن « الدردنيل » وانساب زوج وسط حلبة الرقص . لم ينتبه ستيفن إلى الراقصين الآخرين . لم ير سوى منى وكونجارو . لم يكن له إلمام قط بفنّ الرقص لكنه أدرك حالا روعة الفنّ فى خطوات منى ورفيقها . اتّسع العرض وتجمهر فريق المشجّعين وعلت أصواتهم وزاد تصفيقهم . واشتدت المنافسة بين أزواج المتراقصين . كل زوج منهم يحاول بذّ الآخر فى حركاته الغريبة . انحنت منى وكونجارو نحو فريق الأصدقاء والمحبذين فى حين دار الزوج الآخر على نفسيهما فى حركة لولبية سريعة ، ونالا نصيبهما من التصفيق . وإذا بكونجارو ، ردّاً على ذلك ، يترك منى تدور على نفسها سريعة كالمغزل ، ثم يلتقطها وهى تقفز فى الهواء ، ويضرب كعبيه على الأرض معاً فى دقّة وكبرياء .

إن ما حزّ فى نفس ستيفن أكثر من كل شىء هو سيطرة ذلك الأسبانى على منى ، وكبرياؤه الشائعة واعتداده بنفسه كأنه يقول لمشاهديه : « هذه الفتاة وحدها لا تساوى شيئاً — لكن بصحبتى . . . »

صمتت الموسيقى ووقف الزوجان فى الوسط وتقدّم مدير الحفل نحوهما والكأس الفضّية فى يده . ولما رفع يده بالكأس على رأس منى وكونجارو دوى المكان بالتصفيق الطويل . ولما وضع يده على الزوج الآخر دوى تصفيق مماثل . مرّة بعد أخرى

أعيد الاختبار ، حتى إذا ما استقرّت الكأس على رأس منى كاد السقف يهوى من شدة التصفيق .

تسلّم كونجارو الجائزة وتقدّم منى نحو باب جانبىّ .

قال ستيفن : « هيابنا ، يا برنى » .

دارا حول حلبة الرقص ودفعا الباب الذى وَلجَه كونجارو ومنى . فى هذه الحجرة الخضراء العارية يتقاضى الراقصون ثمن رقصاتهم . همّ مدير الحفل أن يدفع إلى كونجارو خمسة وعشرين دولاراً عن رقصاته وإذا به يرى ستيفن وبرنى .

فقال متحدياً : « ماذا تريدان ، أيها الغلامان ؟ »

فقال ستيفن : « نريد أن نتحدّث إلى أختنا » .

استدارت منى مرتعدة فرأت ستيفن وحاولت الهرب من الحجرة . فلحق بها ستيفن فى ثلاث خطوات سريعة وأمسك بمعصمها : « حبيبتى منى . . أرجوك . . »

فتقدمّ كونجارو هازئاً : « ما هذا الأمر الجلل ؟ »

— « الأمر الجلل — أجاب ستيفن — أننا لم نر أختنا منذ زمان ، ونريد أن نتحدّث إليها » .

فهزّ الرجل كتفيه العريضتين وقال : « أرى أنها لا ترغب ألبتّة فى التحدث إليكما . »

كان ذلك حقًّا . أطبقت منى جفنيها المكحلين على عينيها ، وأسدلت قناع التمرّد على وجهها . ثم قالت : « رامون ، أخرجنى من ههنا . إن هؤلاء الناس يزعجوننى » .

لم يرغب كونجارو ألبتة فى أن تدقّ عنقه ، فقال : « سأحضر الوحش » .

فخرج وعاد وبصحبته إنسان ضخم معقود العضلات ، تدلّ رقبته الوقصاء الغليظة وسواعده الطويلة المفتولة التى تشبه الغوريلاّ على أنه مصارع سابق .

— « من سبب الاضطراب ههنا ؟ »

— « هو — وأشار كونجارو إلى ستيفن — إنه لا يريد أن يترك صديقتى » .

— « نعم ، سيتركها . ثم قال الغوريلاّ آمراً :

— « ارفع يدك عن السيدة ، يا مستر » . وأهوى بيده الغليظة وأمسك ستيفن

بما ظنّه ربطة عنقه (وهى مسكة معروفة يتدوالها المشاغبون) ونزعها . وإذا بالمنديل الحريرىّ يكشف الياقة الرومانية المخفاة .

— « يا لله ! إنه قسيس » .

والكاهن « تابو » (فى اللغة الزنجية) لا يقترب إليه . فشرع الوحش الضعيف العقل يعتذر : « لم يكن هذا قصدى يا أبى . بالشرف لم أقصد ذلك » .

أجاب ستيفن : « لا تجزع . كل شىء سيسير على ما يرام إذا تركتنى وحدى مع أختى لأتحدث إليها » .

— « بكل تأكيد ، تماماً ، يا أبى . من فضلكم جميعاً » .

وأشار الوحش إلى برنى : « ومن هذا ؟ »

— « إنه أخى » .

وقال ستيفن لبرنى : « اذهب وائت بجورج إلى هنا سريعاً » .

فاختفى برنى سعيداً باجتناب ما سيحدث .

لما أصبح ستيفن وحده مع منى خفّف قبضته عن معصمها : « سامحينى ، يا منى . قد اضطررت إلى التعلّق بك . أخبرينى يا حبيبتى ، أين كنت طوال هذه المدّة ؟ »

فلم تجبه منى إلا بصمتٍ قاس عنيد .

— « أرجوك يا حبيبتى » . وحاول ستيفن أن يضع يديه حول أخته ، لكنها أطاحت بهما ، وأنفاس الحنق تصّاعد من منخريها المرتعشين .

— « لا تحاول أبداً بعد الآن أن تظهر بمظهر الأخ الأكبر . قد جاز ذلك فيما مضى . لكن لن يجوز علىّ بعد الآن . أتفهم ؟ أبداً ، أبداً » .

— « نعم أفهم ، يا منى » .

— « هاها ، تفهم ؟ حسن جدّا . لكنك لا تدرك شيئاً . وكيف تقدر ؟ »

ثم رجّ صوتها هزءاً وغضباً : « إنك لا تدرك ما هو الحب » .

غلبه اليأس فى إقناع منى بمعرفته بسلطان الحب . فقال مستعطفاً : « لايجوز لك أن تقولى ذلك ، يا منى » .

— « سأقول ما يروق لى . قد سئمتك وكلّ الكلمات المعسولة والخرافات التى

تعتقد بها . دعنى وسبيلى أذهب إلى الجحيم . أتسمع ؟ »

— « لكن ليس هذا سبيلك ، يا منى . قد راقبتك وأنت ترقصين الليلة ورأيت كم كنتِ سعيدة وأىّ موهبة تملكين . فلا تضيّعى هذه الموهبة فى استعراضات رخيصة . إن الرقص فنّ من الفنون ، ويمكنك أن تجعلى منه سبيلا فى الحياة ووظيفة » .

— « إنى لا أرغب فى وظيفة » .

— « فماذا تريدين ، يا منى ؟ »

فأجابت فى عناد : « أريد فقط بانى رامبل » .

فحاول ستيفن مراوغتها : « تعالى معى الليلة إلى البيت وسأساعدك على لقياه » .

— « ما من أحد يستطيع الآن مساعدتى على الحصول عليه . قد فات الأوان — واهتز جسمها ألماً — لقد تزوج بفتاة أخرى » .

رنّت فى أذن ستيفن كلمات أيوب الصديق الحزينة القويّة الصارمة ، عالية مرتفعة فوق أنغام فرقة دنجردون الرخيصة ، تتردّد كالرعد بين جنبات الحجرة الخضراء العارية : « لا يستطيع إنسان أن ينقذ أخاه من يد الله » .

شعر ستيفن بحماقته فى التدخل فى أمور الغير وأدرك فظاعة اعتقاده المتسرّع فى إمكان التسلل الفضولىّ إلى قلب البشر . فجثا على ركبتيه بالقرب من أخته .

ماذا يستطيع قوله ليصلح من غلطته نحوها؟ لن يساعده الآن شيئاً تشجيعُها روحيًّا أو تعليل ما فعله استناداً إلى تعليم الدين والكنيسة . فحدثها فى رفق واتضاع ، مسنداً جبينه إلى كتفها .

— « لا يستطيع إنسان إعادة الماضى ، يا منى ، أو محو أخطاء أحكام البشر . لقد كانت غلطتى ، غلطة فظيعة ستترك آثاراً أليمة فى نفسك ونفسى جميع أيام حياتينا » .

ثم قبّلها على خدّها : « إن ألمى ، بعد ألمك ، وربما برنى ، هو الأعظم — وطفق يستعطفها — إن شجاعة سيليا فى هبوط ، ودن يكتئب لذكراك . هل تستمرين فى إحزانهم ، يا منى ؟ »

تضاربت المشاعر فى قلب منى : حبّها لوالديها والقضاء على حياتها . فترك

ستيفن هذه المشاعر تتفاعل فى نفسها ، ثم تقدم بأصغر طلب ممكن .

ـ « منى ، تعالى الليلة إلى البيت فى زيارة قصيرة . لن تضطرّى إلى المكوث . سنقول إن لديك عملا كبيراً فى يورك الجديدة » .

تعادلت الانفعالات فى نفس منى ، وإذا بأبخرة الشرّ تصاعدت فاستمالتها .

ـ « الأجدر بك أن تنهض . إنى غير ذاهبة معك إلى البيت . قد كنت حمقاء إذ عدت إلى بوسطن . أما هذه المرّة فإنى هاربة ولن أعود أبداً » .

ثم سارت نحو الباب الأخضر وفتحته .

كان رامون كونجارو فى انتظارها . فقال فى عظمة : « تعالى يا عصفورتى . سنرقص » .

* * *

الفصل الرابع

أنفق بولس آيرتون قطعة النيكل سريعاً .

قفز من الترام أمام مستودعات ميدفورد وكعادة المحاربين استكشف المكان ، وعرف أنه واقف فى منتصف طريق رعيتين من أكبر الرعايا فى الأبرشية ؛ رعية القديس ڤنسنت إلى الغرب ورعية الحبل بلادنس على بعد ميل نحو الشرق . فى مكان ما بين الاثنتين ، وداخل حدود الخطوط المنقطة التى رسمها الكردينال بيده ، كان على بولس آيرتون أن يخلق رعية خاصة. بطرق دبلوماسية ومالية. عليه أن ينتزع ما يقرب من ألفى نسمة كاثوليكية رومانية من انتسابها لراعيها السابق . وعليه أن يقنعهم بحضور الاحتفالات الدينية فى أماكن جديدة موقته . وأخيراً عليه أن يجمع منهم بلطف مالاً لبناء كنيسة جديدة . ولما كان الإنسان ذو العقل الكامل لا يتردد متأثراً بمثل تلك الاحتمالات ، مع ذلك ، فقد أضاع الأب آيرتون ستين ثانية وهو لا يدرى من أين يبدأ أو كيف يتوجه .

الشهر يونيه ، والشمس تصب أشعتها على الأب آيرتون وهو واقف بين عربات الترام يمسح نقطة من العرق تاهت فى منعطف ذقنه الأزرق الأسود . ذاب الإفطار الخفيف الذى تناوله منذ خمس ساعات وأحس بالفراغ . كان فى نيته ، تقشفاً منه ، ألا يتناول غداء . لكنه رأى أن تناول سائل بارد سيرطب من غشاء حلقه الملتهب. أبصر فى الجهة الأخرى من الطريق صفاً من الدكاكين : حلاقاً بلافتته الحمراء والزرقاء دلالة على شرايين الدم وأوردته ؛ وطبيباً بيطرياً مع آنيته الحمراء والزرقاء أيضاً ، للدلالة عينها ، وبقالا ، وخبازاً ، وبائع فاكهة انتشرت تحت مظلته الواسعة أنواع الفاكهة . رنت فى أذنه فرقعة الفول السودانى . فقطع الطريق إلى بائع الفاكهة واستظل تحت الخيمة وسرح طرفه فى الأصناف المنتشرة أمامه .

البرتقال مرصوص كالأهرامات ، والموز مدلى شهى . تين ويوسفى وبلح وعجوة وليمون ، كلها حركت شهوته . ثم سال لعابه أمام حقة من المخلل . وأوشك

أن يأخذ قرطاساً من الفول السودانى من فوق مقلى النحاس وإذا به يسمع وقع قطع من الثلج فى الأكواب من داخل المحل .

كان بائع الفاكهة ، بقبّعته الپاناما القذرة ، يصب عصيراً من الليمون فى كوب أخضر لرجل يرتدى ثوب شركة ترام بوسطن . اسم صاحب المحل « نيك پاپاچيروس » ، واسم الرجل « برتولوميوجلين » (أو باتى) ، رئيس أقسام الترام فى مستودعات بوسطن ، ومغرم بالفلسفة وعلوم الدين على سجيّته .

فقال باتى سائلا نيك : « هل الستة بثمن الخمسة ؟ »

فضحك نيك لغرابة السؤال : مزاح قديم وعميل قديم .

لما رأى باتى جلين الكاهن رفع قبعته احتراماً وقال : « إذا قلنا خمسة بسعر ستة ، يا أبى ، فذلك يكون ثمناً رخيصاً لعصير الليمون الذى يقدّمه نيك . إنه أفضل ما فى الحىّ » .

فقال بولس : « سأطلب إذن كوباً » .

صبّ السيد پاپاچيروس كوباً كبيراً لعميله الجديد . فرفع بولس كوبه يشرب نخب موظف الترام . فأجابه هذا بطرق كوبه الأخضر معه طرقة قوية . هزّ بولس رأسه استحساناً لما أخذ جرعة من العصير المثلج . فسرّ ذلك السيد پاپاچيروس الذى كان يستحسن أيضاً الأشياء التى تستحق الاستحسان . ثم التقط ليمونة وعضها بأسنانه وفرقع شفتيه استحساناً .

لم يكن بولس آيرتون خبيراً فى العصير ، فكان لا بد له من جرّ الحديث إلى موضوع آخر . فأعطى السيد پاپاچيروس ربع دولار وسأله :

— « هل لك علم بمخزن فارغ فى هذه الأنحاء ؟ »

أدخل نيك يده المشعرة فى كيس نقوده ليعيد الباقى ، وهز قبعته الپاناما فى شك قائلا : « كلاّ ، لا يوجد مخازن فارغة . إن التجارة طيبة ولا توجد أسواق كاسدة » .

— « هل من قاعة إذن ؟ »

— « ما هو حجم القاعة التى تريدها ، يا أبى » ، سأله باتى .

— « آه ، مكان كبير يتسع لثلاثمائة أو أربعمائة شخص يستطيعون

سماع القدّاس يوم الأحد » .

— « ماذا يوم الأحد ؟ »

— « قداس الأحد — أجاب بولس فى هدوء — سأفتتح هنا رعية جديدة » .

جحظت عينا باتى جلين كحبات عناقيد العنب . فمنذ عهد الألبيچيين لم يسمع قط بمثل هذه الحماقة التى تعادل الكفر . فاضطرته استقامته إلى السؤال : « هل الأب پات بارلى يعلم بذلك ؟ »

— « نعم . وسيعلنه من على الهيكل يوم الأحد القادم » .

مكث باتى جلين يحدّق فى كوبه ذاهلا ، فتقدم السيد پاپاچيروس باقتراح : « ما اسم ذلك المكان ، كيف تنطقه ؟ هل هو قاعة ما تاكيست ؟ »

— لا ، لا ، — أجاب باتى بشدة — إنها لا تصلح » .

فسأله بولس : « ولم لا ؟ »

قدم باتى اعتراضه فى تزمت لم يفارقه قط : « إن جماعة من الملوّنين اعتادوا الاجتماع هناك ، يا أبى . واضطرّ الشرطة إلى طردهم من هذا المكان » .

فكّر بولس مليًّا فى هذه المعلومات وقال : « أرغب فى مشاهدة المكان على كل حال . هل تتفضّل بإرشادى إليه ؟ »

فأجابه باتى بعظمة : « إن طلبك عندى أمر ، يا أبى » . وشرع الفيلسوف موظف الترام يرسم بقدمه خطوطاً على النشارة المنثورة على أرض الدكان . ثم أتته فكرة أفضل . نظر إلى ساعته الذهبية التى لم تتأخر سوى ثانيتين اثنتين فقط فى الأسبوع مدة عشرين سنة متوالية ، وقال : « إنه الآن وقت الغداء ، ولدىّ من الوقت ما يكفى . سأرافقك بنفسى إلى هناك يا أبى » .

— « هذه غنيمتى الأولى — قال بولس مخاطباً نفسه — لو وفّقت إلى قيادة هذا العجل الجميل ، فالآخرون يتبعون » .

بعد سير قصير وصلا إلى بناء من ثلاثة أدوار كتب على واجهته الموحشة : ماتاكيست سنة ١٨٨٦ . منذ عهد بعيد ، كانت قاعة ماتاكيست مشهورة فى ميدفورد ، يؤمها جميع رجال الأعمال ، وتقام فيها حفلات الرقص والزواج . كانت حتى سنة ١٩١٠ مقرًّا لاجتماعات فرسان كولومبوس . لكن عندما غادروها

إلى مقرهم الجديد ، قسمت إلى حجرات عديدة احتلها أطباء الأقدام والأسنان ، وقارؤو الكف ،وما شاكل . ثم أقامت شيعة « المترنـّحين المقدّسين » اجتماعاتها فيها فى الدور الأعلى إلى أن بلغ صوت حفلاتهم الصاخبة مسامع الشرطة . وهاهوذا الدور الأعلى – بترابه وخرابه – أمام الأب آيرتون والوكيل الإدارى ، السيد صول سيدلِبنْدِر .

لمحة صغيرة أكدت لبولس أن المكان صالح للاستعمال . قد أقام قداسه فى الخنادق ، وتحت الخيام ، وفى المخازن ، وعلى الرفوف فى مؤخرة العربات الحربية ، فما يضيره لو أقام قداسه فى قاعة ماتاكيست . الأرض القذرة والنوافذ السوداء يمكن تنظيفها . وآثار المترنـّحين المقدّسين (لو لم تزل) يمكن إبادتهابالصلاة والبركة . على كل ، إن ما يهمه هو القدّاس . فبينما رأى باتى جلين قذارة وخراباً ، أبصر الأب آيرتون حجرة كبيرة نظيفة مكنوسة احتشد فيها أبناء رعيته .

– « ما هو الأجر الذى تطلبه ، يا سيد سيدلبندر ؟ »

« الأجر مع التدفئة فى الشتاء ، خمسة وعشرون دولاراً شهريّاً » .

فحدّق الأب بولس فى عينى السيّد سيدلبندر بجرأة وقال : « آخذها لمدة سنة . . بشرط واحد » .

أما صول سيدلبندر الذى لم يدخل بين يديه سنت واحد من القاعة منذ خمس سنوات ، فأجاب بأنه سيستمع إلى أىّ اقتراح معقول .

قال الأب آيرتون : « ان اقتراحى هو هذا : بدلا من أن أدفع إليك مقدماً أجر الشهر الأول ، سأكتب لك تعهداً خطّيّاً مدته ثلاثون يوماً » .

كان الوكيل يعرف عميله من مجرد النظر إليه . فقال : « لا تتعب نفسك يا أبى . إن كلمة وعد من كاهن كاثوليكى تكفينى » .

* * *

أخذ باتى جلين على عاتقه إذاعة النبأ . كان كل ترام يغادر المستودع يحمل معه عناوين كبيرة وتقارير مستفيضة ومقالات رئيسية زوّده بها باتى جلين شاهد العيان . بعد ظهر ذلك اليوم ، أعاد باتى قصته عشرات المرات ، مضيفاً عليها أو منقصاً منها من مخيلته حتى اعتقد سامعوه أن باتى جلين نفسه أصبح اليد اليمنى

للكردينال . واحتفظ باتى بآخر وأفضل رواية عن قصته لدونيس فرمويل السائق، ليلة أودع ترامه الضخم من ذوى العجلات الست عشرة فى مقره .

قال باتى : « ظهر لى الأب آيرتون لطيفاً وحذراً عندما رفع كوب عصير الليمون وشرب نخبى ، وشربت نخبه أيضاً دون أدنى فكرة عمن يكون أو عمّا يريد فعله ، سوى أنى لاحظت أنه يقلب فى طبقات عقله العليا مشروعات كنسية ، ثم ، يا دن ، عندما ظهرت طبيعة هذه المشروعات . . . رأيتنى أقع على الأرض من فرط الدهشة . قال لى : "إنى أبحث عن مكان لأقيم القداس". — قلت : "تقيم ماذا ؟" — قال : "القداس . وهل تعرف مخزناً فارغاً أو قاعة مهجورة فى هذه الأنحاء ؟" — وقبل أن أرجع من دهشتى وجدتنى أقوده إلى قاعة ماتا كيست وأبين له فى كل خطوة سوء سمعة هذا المكان . لكن لما رآه — وكنت واقفاً خلفه تماماً — — أدركت أنه قرر شيئاً فى داخل نفسه ، وقال لسيدلبندر : "سوف أستأجره"... » .

توقف باتى لحظة عن سرد قصته . ثم استرسل :

« وجاءت اللحظة القاطعة . لم يكن معه إيجار الشهر الأول فاضطرّ إلى وضع نفسه تحت رحمة سيدلبندر . هل تستطيع أن تقول لى لماذا تضطرّ أبرشية غنية كاهناً إلى البدء فى بناء كنيسة دون مساعدته بالمال » ؟

لما كان السؤال إنشائيًّا ، استطرد باتى لحديثه دون انتظار جواب : « على كل حال ، يا دن ، هذا ما حدث . ويوم الأحد القادم سنذهب جميعاً لحضور القداس فى جحر كان يوماً مقراً للمترنحين المقدّسين . سلام على الماضى وأهلا بالجديد . لا بدّ أن بارلى يتميز غيظاً » .

حمل دونيس فرمويل الخبر إلى سيليا التى نقلته سريعاً إلى هيلانة فى الطابق الأعلى . وقالت لها : « أخيراً قد قسم الكردينال رعية المنسنيور بارلى . ويوجد كاهن جديد يدعى الأب آيرتون وهو يقوم بإصلاح قاعة ماتا كيست ليجعل منها كنيسة موقتة » .

تملّك هيلانة الفرح لما سمعت هذا النبأ . وتفاعلت فى نفسها عواطف شديدة لم تهدئ من روعتها الصلوات . وطفقت تجوب غرفتها فى اضطراب ظاهر وتخاطب نفسها كفتاة تائهة فى أفكارها تتحدى زمن أنوثتها .

— «هل عندى قوة للقيام بعمل أتوق إليه منذ زمان طويل ؟ — القوة المادية ؟ — نعم . إن صحتى تسمح لى بالقيام بأعمال خفيفة — إن ما ينقصنى هو شجاعة الروح ورباطة الجأش . تنقصنى الشجاعة لأغادر هذه الحجرة وهذا المأوى الهادئ وأعود إلى أمور الحياة التى هجرتها . . أين ؟ وكيف؟ — ومنذ كم من الزمن؟ — حتمًا ! . . مم أنا خائفة ؟ . . »

فى تلك الليلة ، لم يغمض لهيلانة جفن ولم تستطع ردًا على هذه الأسئلة . ولما جاء الصباح نهضت ووقفت أمام نافذة حجرتها تتأمل فى النهار الجديد الطالع على حدائق المنازل وحبال الغسيل . يوم جديد فى مدار الأزلية . يوم كأيام الكائن الأزلى الأبدى ، ستملأه المثل العليا التى تسمو على مظاهر الأشياء الأرضية التافهة . وجاءتها ذاكرتها بهذه السطور سريعة خاطفة :

أرشدنى يا إلهى وملكى
لكى أراك فى كل شىء
وأعطنى أن أعمل كل شىء
لإرضائك أنت وحدك

يومها قررت هيلانة فى نفسها : « سأمضى فى طريقى وأتقبل أى عمل يحدده لى الله ! »

* * *

بعد الإفطار ، بينما كانت سيليا منهمكة فى عملها بالمطبخ ، تسللت هيلانة إلى خارج البيت وسارت مسرعة فى شارع مرج الغاب المنحدر ، ثم مرت بالمستودعات ، وبعد دقائق وصلت إلى قاعة ماتاكيست ، وما زالت فى نفسها بقية من خوف تسر فى أذنها : « ارجعى » . لكن إشارة خفية أوعزت إليها قائلة : « قد حان الوقت وهذا هو المكان » . فصعدت الدرج المظلم وفتحت باب الحجرة العليا ، ورأت رجلاً بقميص أبيض وقد نزع ياقته يكنس بمقشة قديمة الأرضية القذرة .

ومن يكنس حجرة طاعة لأمرك
يجعل عمله عظيماً بفضلك ...

سحب من الغبار تتصاعد وتندفع متلاحقة نحو النوافذ المفتوحة . والكناس

يعطس ويمسح أنفه بمنديله . لم تعبأ هيلانة برئتيها وهمت أن تقول له : « كان يجب عليك أن ترش الأرض أولا . فلا يوجد إنسان فى أيامنا يكنس أرضاً جافة » . لكنها فى الواقع قالت له : « إننى هيلانة فرمويل ، واحدة من أبناء رعيتك » .

— « أنت هيلانة فرمويل ؟ ألست أخت ستيف ؟ » .

فأومأت فى خجل وقالت : « وأنت الأب آيرتون . قد حدّثنى ستيفن عنك كثيراً . وقال لى إنك أفضل كاهن عرفه » .

— « سأفضل ستيفن أيضًا . إنه أفضل كاهن فى الوجود » .

وقف الاثنان فى صمت فى القاعة العارية يتفحص أحدهما الآخر . رأى الأب بولس آيرتون فوق رأس هيلانة هالة القداسة الخفية . ورأت هيلانة فى تقاطيع وجه الأب بولس آيرتون الرجل الذى تحوّل كاهنا . فربط بين روحيهما عهد دائم .

— « متى ستقيم قداسك الأوّل هنا ؟ »

— « أريد أن أقيمه يوم الأحد القادم — ولوّح بولس بمقشته نحو الأرض فى شك — لكن لن يتمّ ذلك إلاّ بأعجوبة » .

— « إن أربعة أيام تكفى لأعجوبة صغيرة كهذه » . وسرّحت هيلانة عينيها العسليتين فى القاعة السوداء ، وشرعت تذكر الضروريات : « ستحتاج إلى هيكل موقّت وبعض المفارش ، بالطبع . سأهتم بذلك لو سمحت لى » .

— « لو سمحت لك ، يا بنيّتى العزيزة ؟ . . »

— « هل عندك ثياب للقداس ؟ »

— «قد وعدنى كثيرون باقتراض بعض الثياب من المنسنيور بارلى . أما ما لاأملكه ولا أعتقد إمكان اقتراضه فهو الكأس وكتاب القداس . أعتقد أن بعض المؤسسات التجارية الكنسية ستتكرّم بأن تفتح لى اعتماداً ماليًّا أدفعه على أقساط . إذا كان سيدلبندر استطاع عمل ذلك ، فربّما يمكنهم ذلك أيضاً » .

— « إذن كل ما نحتاج إليه الآن هو دلو ماء وقطعة من الخيش وبعض الصابون المسحوق » . واحمرت وجنتا هيلانة كأن المكان أصبح بيتها وقالت : « سنجعله يلمع يا أبى » .

جعلاه يلمع تقريباً . أخذ بولس آيرتون يقحط الأرضية وهيلانة تغسل النوافذ. أحياناً كان ينسى أحدهما وجود الآخر ، ثم يعودان إلى نفسيهما ويتبادلان النظرات

مبتسمين ويعودان إلى عملهما ثانية . قضيا اليوم كله فى القحط والغسيل . وعادت هيلانة فى ذلك اليوم منهارة القوى وارتمت على فراشها بعد صلاة قصيرة .

فى اليوم التالى أقنعت هيلانة سيليا بالتنازل عن مفرش من الحرير المزركش ربحته منذ عشر سنوات فى حفلة ويست ولايزال محفوظاً مطوياً فى درج البياضات . فقصته هيلانة اثنين وخاطته على الآلة ثم غسلته ، فجاء مناسباً للهيكل .

أما الهيكل نفسه فصنعه برنى من أخشاب بعض الصناديق المهملة فى حجرة المخزن ، وحمله على ظهره إلى قاعة ماتا كيست ، ثم طلاه مرتين بطلاء أبيض . وقدم أفراد آخرون شمعدانين وزجاجتين صغيرتين للخمر والماء وثلاثة مفارش بيضاء صغيرة .

ولما حل يوم السبت ظهراً كان الأب بولس قد أكمل جميع معداته وجاء بكأس مذهبة وكتاب جديد للقداس . ثم نصبا الهيكل معاً . وتنهدت هيلانة قائلة :

— « إنه جميل . لم أر أجمل من ذلك . سيحبه جميع الناس » .

أجاب بولس : « هذا أملى » .

فى العاشرة صباحاً من يوم الأحد صعد مئتا شخص ثلاثة أدوار من الدرج ليحضروا قداس الأب آيرتون الأول ، فى ميدفورد . وجلسوا على كراسى اقترضها « تيم نونان » ملتزم دفن الموتى . رأوا راعيهم الجديد ، كاهناً متقشفاً رمادى العينين فى الأربعين من عمره ، يتقدم فى ثياب مقترضة . وأحبوا طريقته الخشنة الرصينة . وعندما سمعوا كلمته الأولى علموا أنه يريد عملا جدياً .

قال لهم الأب آيرتون : « فى هذا المكان المرتفع نبدأ مغامرة مشتركة فى رعية القديس استفانوس الجديدة . قد ألقى الكردينال على عاتقنا — عليكم وعلى سواء — مسؤولية وشرف إقامة رعية جديدة . إنها بالنسبة لى تعنى فرصة كنت أتوق إليها منذ زمان طويل . أما بالنسبة إليكم فإنها تعنى الانقطاع ، المؤلم ربما ، عن الرعية القديمة الكبيرة ، والاستعداد لتحمل أعباء جديدة. إنما أؤكد لكم أن هذه الأعباء سنتقاسمها بيننا ونتحملها معاً . وسأعتمد عليكم فى إدارتى فى جميع الأمور والظروف . وبالتالى أنتظر منكم المساعدة والثقة . ومع أن حاجتنا إلى المال ملحة ، لكن يجب ألا نسمح لها بالتغلب علينا أو ننسى الغاية من عملنا فى هذه الرعية . ذلك العمل هو قبل كل

شيء عمل الروح ، وسيستمر هكذا طول مدة إقامتى راعياً لكنيسة القديس استفانوس . . . والآن سأقرأ إنجيل يوم الأحد . . . »

* * *

كانت ميزة الكردينال جلينون فى مفاجأة الأشخاص الذين يعتقدون أنهم ملمّون بأحواله ، خصلةً فريدة من خلقه تأتيه بأعظم النتائج ، كما أوضح ذلك حافظ الأختام مايك سپيد إلى ستيفن يوماً فى صورة موحاة من لعبة البيسبول إذ قال له : « فى اللحظة التى تعتقد فيها أنه سيقذف إليك بكرة سريعة ، تراه يرمى إليك بكرة لولبية » .

لم يمض وقت طويل حتى تعثر ستيفن فى هذه الكرة اللولبية . مرّة فى سياق الأعمال اليومية رفع الكردينال بصره وسأله : « أيها الأب ، هل تذكر مخطوطاً تركته فى حوزتى يوم مقابلتنا الأولى ؟ »

— « سلّم المحبة ؟ »

فأومأ الكردينال برأسه إيجاباً : « حدث أنى ألقيت نظرة على عملك الليلة الماضية واكتشفت فيه بعض المحاسن البيانية » . ثم تذكر الكردينال انتقاده اللاذع لموضوع « ضياء القمر الروحانى » ، فاصطنع سعالاً خفيفاً ، وقال : « ستجد المخطوط على المائدة فى حجرة الطعام ، وفى الصفحة الأولى ستجد التصريح بالطبع . أقترح ، أيها الأب فرمويل ، أن تبدأ فى البحث عن ناشر » .

* * *

بدت عملية البحث عن ناشر لسلّم المحبة عملية شائكة مع أنها مغرية . كان تصريح جلينون من وجهة القانون ضرورياً لكنه فى حد ذاته لم يكن ضماناً لاهتمام القراء بالكتاب .

أرسل ستيفن مخطوطه إلى اثنين من دور النشر فى مرتفعات بيكن وجاءه الردّ سريعاً يعتذر فيه أصحابه عن رغبتهم فى نشره فإنهم « لا يستطيعون تمييز طريقهم فى الوقت الحاضر لإخراج كتاب محدود المجال فى غايته » .

ثم تقدمت دار النشر الكاثوليكية « ريردون وأونيل » بطبع الكتاب ، لكن ستيفن لم يرضَ رؤية مخطوطه ضائعاً بين حفنة من الصلوات التقويّة والإعلانات

الخشوعية . قال لمايك سپيد حافظ الأختام شارحاً وجهة نظره : « إن عمل كارنجي يستحق عناية أدبية . سأبحث حتى أجد ناشراً يقبل طبع الكتاب على أساس أنه كتاب أدبي » .

تطلّب منه هذا البحث مراسلة عدد كبير من الناشرين مدة أشهر عديدة ؛ وأخيراً قام مايك سپيد نفسه بعرض المخطوط على دار « واتيلي » في يورك الجديدة التي اشتهرت في إخراج وطبع المقتطفات ومجموعات الشعر .

عرضت دار واتيلي على ستيفن عقداً صغيراً يقضي بدفع مئتي دولار مقدّماً ، مقابل عشرة في المائة من حقوق المؤلف على الألفين والخمسمائة نسخة الأولى ، واثني عشر ونصف في المئة بعد ذلك . قبل ستيفن هذا العرض بسرور وبعد قليل وصلته نسختان من الملزمة الأولى للتصحيح ، رصّت على طريقة « كاسلون » القديمة ، لكنها واضحة الشكل ، فأرسل إحدى النسختين إلى كارنجي مع هذه الكلمات :

« عزيزي ألفيو ،

أخيراً عثرت على ناشر أمريكي لسلّم المحبة . لا يزال نورك يَسْطَع خلال ترجمتي المظلمة . أعتقد أنك لست تخاف من إقبال القراء والناقدين على كتابك . أرجوك أن تطّلع على هذه النسخة وتصلح فيها ما تراه مناسباً وتعيدها إليّ بأسرع ما يمكن ، فقد مضى إلى الآن وقت طويل . إن دار وايتلي تريد إخراج الكتاب في أول الربيع ، وإذا عالجنا الأمر بالسرعة الكافية أعتقد أننا سنتوصل إلى جعله من أوائل إنتاج الربيع .

مع محبتي واحترامي

ستيفن » .

أعاد كارنجي النسخة دون إحداث تغيير فيها وقال :

« . . . قد أثر فيّ كثيراً لطفك ، يا ستيفانو ، وثباتك على نشر كتابي بين القراء الأمريكيين . أأقول إن ذلك عملي ؟ قد نجحت أيها الصديق العزيز بترجمتك الأنيقة في جعل سلم المحبة عملك الخاص . تفضّل بتبليغ الكردينال شكري العميق للسماح لك بطبعه . أما أنت يا ستيفن فاختر لك في قلبي أعذب مكان وأحلاه إلى الأبد » .

صديقك المحب في المسيح

ألفيو

صدر سلّم المحبة فى إبريل سنة ١٩٢١ وتناولته الصحافة الأدبية والدينية بالثناء والمديح . خصّصت له جريدة « الزمان » فى يورك الجديدة عمودين قارنت فيهما بين اسم كارنجى وأسماء « سانتيانا » و « أورتيجاجاسى » ، ولم تنس منح الأب ستيفن فرمويل حقه من المديح فى ترجمته المهذّبة . وكتبت « أخبار بوسطن » المعتدلة فى آرائها تقول : « أخيراً ظهر كاتب استطاع أن يوفق بين التفكير التصوفى وفن الإنشاء الأدبى الذى انتظرناه طويلاً . يكاد يظن الإنسان أن القديس "بوناڤنتورا" "وإغناطيا ريلييه" قد وحّدا جهودهما لإخراج كتاب فى التصوّف الحقيقى ، فى ذوق سليم جدّاً » .

أما المجلات الكاثوليكية فقد أجمعت على الترحيب بالكتاب . وخصّصت مجلات الدومينيكان والبندكتان واليسوعيين والبولسيين أشهر كتّابهم وأمهر ناقديهم لتحليل إنشائه ومحتوياته اللاهوتية ، حتى إنهم لم يتوصلوا إلى العثور على غلطة إنشائية صغيرة أو غموض فى الحقائق . تنهد ستيفن طرباً عندما قرأ نقد أحد اليسوعيين عن سلم المحبة بأنه تجنب « السقوط فى التفاهات التى سقط فيها أحياناً بعض الكتاب التصوفيين ذوى النيات السليمة والتفكير الضعيف » .

أما ألذّ نصر لستيفن فكان المقالة الرئيسية التى صدّر بها « المرشد » مجلة أبرشية بوسطن . وصفت المقالة حياة كارنجى وأشادت به كعالم ودبلوماسى كبير ، حتى تهيأ للقراء فى بوسطن أنه مستشار الحبر الأعظم نفسه ، ومثل الكردينال چياكوبى أمين سرّ الدولة البابوية . ثم تذهب المقالة فى ادعاء أن هذا الأسقف المتحمس كان على وفاق تام مع أمين سرّ الكردينال جلينون ، الأب ستيفن فرمويل ، شاب من مولدن درس على يد كارنجى فى روما . وأسهب « المرشد » فى فقرات عديدة عن مجهود الأب فرمويل الرائع فى الترجمة . واختتم المقال بكلمة شكر للكردينال لورنس جلينون لاعترافه بالفضل الكبير الذى أسداه هذا العمل .

فلما قرأ نيافته هذا المقال ، اهتزّ طرباً .

هطل الثناء على ستيفن كمطر الربيع . وفى اجتماع مستشارى الأبرشية فى شهر مايو ربت حافظ الأختام مايك سپيد على ظهر ستيفن استحساناً ، حتى الأسقف المساعد مولكوين خرج عن صرامته وصافح ستيفن ، مع أنه لم يقرأ الكتاب ولم

يكترث كثيراً لنجاح ستيفن . بل كان مولكوين يفضّل لو استطاع « محروسه » وربيبه « ديك كلاراهان » انتزاع إكليل النصر المعقود على رأس ستيفن . زد أنه كان ينتقص من أهمية عمل ستيفن ولا ينفكّ يشيد بكلاراهان كلما شاءت الظروف فى مقارنة مواهبهما .

بين رسائل المديح ، وردت إلى ستيفن كلمات مشجعة حارّة من دولاربل موناجان ، وليونز الأبيضانى ، وبولس آيرتون . أما أصدق رسالة وردت إليه فمن ديك كلاراهان الذى كان يقبل التنحّى أحياناً فى حين يتقبل ستيفن تصفيق الجمهور .

كتب إليه ديك يقول : « أتسمح لى باستعمال مقالتك الظريفة التى تحمل عنوان ”كمثرى أغوسطينوس“ كمادة لعظتى يوم الأحد القادم » . فردّ ستيفن على هذا المديح الصادق : « يمكنك أن تمتّع نفسك بانتقاء ما يعجبك من الدرر السخيفة التى تجدها فى كتابى ، لكنى أنذرك أنى سأجلس فى مؤخرة الكنيسة عندما تلقى بهذه الدرر فى عظتك » .

ونفّذ ستيفن وعده . فى الأحد التالى جلس فى مؤخرة الكاتدرائية واستمع إلى كلاراهان وهو ينسج فيضاً من البلاغة أطربت جميع المستمعين . وفى المقدس أثنى ستيفن دون بخل على عظة كلاراهان ، وتملكه الدهش نوعاً لمّا رآه يستملح ويستزيد المديح بسؤاله المتلهف : « ما قولك فى خطابى ؟ هل هو كثير الخيال ؟ »

فجاءه تعليق ستيفن : « الإنشاء غنىّ لكنه سهل المنال » .

قال ديك : « أودّ لو استطعت سماع إحدى محاضراتى التى ألقيها أيام الأربعاء مساءً فى كلية بوسطن . قد دعوت سلسلة هذه المحاضرات ” الأنبياء الكذبة فى عصر المادة الحديث “ . لن تبدو مزهرة بالخيال كخطاب يوم الأحد . فالمادة كثيفة ، وفن الإنشاء ضئيل . أنت تعلم ذلك » .

— « ما هو موضوع محاضرتك يوم الأربعاء القادم ؟ »

— « سأتكلم عن داروين » .

— « أظنك لا تعتقد أنها إساءة للخالق وللإنسان القول إن ” الرجل العاقل “ عاش يوماً على الشجر ؟ »

— « أظنك لا تعتقد ذلك . ما قولك ؟ »

— « ليس الأمر واضحاً حتى الآن . سأحتفظ بحكمى . لكن على افتراض أن الإنسان عاش حتماً يتنقل ويقفز من غصن إلى آخر ، فهذا لا يمنع من أن تكون له روح أبدية لا تموت . أليس ذلك ممكناً ؟ » .

ظن كلاراهان أن ستيفن يداعبه . فقال :

« الأجدر بك ألا تأتى يوم الأربعاء القادم فإنك ستوبئ جوّ المحاضرة . إنما أظنك ستسرّ بما سأقوله عن فرويد بعد أسبوعين » .

— « فرويد ؟ ذلك يهمنى . سأكون هناك » .

فى سنة ١٩٢١ عدّ إلقاء محاضرة عن سيجموند فرويد أمراً مستجدًّا فى بوسطن . نعم ، كانت « المحاولات الأولى » قد ترجمت منذ بضع سنين ونوقشت فى كلية هارڤرد فى أثناء المحاضرات التى استمع إليها كلاراهان . أما ستيفن الذى لم يجهل نظريات فرويد العمومية ، فقد أدرك أن غاية كلاراهان من وراء ذلك هى تحذير الجمهور من عواقب فلسفة فرويد .

فى ليلة إلقاء المحاضرة اجتمع بعض المفكرين الكاثوليك فى إحدى القاعات الصغرى من كلية بوسطن وملأوها إلى ثلاثة أرباعها . وتسلل ستيفن مع الطبيب بيرن إلى المقاعد الخلفية . ثم قام الأسقف مولكوين وألقى مقدّمة مملة نعت فيها المحاضر بأنه « الأمل الوحيد الساطع للفكر الكاثوليكى فى أمريكا » . ثم شرع كلاراهان فى مقدمته . سياق الحديث عنده رائع . وصوته نادر حقًّا يلوّنه كيف شاء . ومفرداته موزونة منتقاة . ونظامه فى التحليل دقيق اكتسبه عن اليسوعيّين . فجاء عرضه لنظرية فرويد عن الحسّ المشترك الخفىّ عرضاً دقيقاً صحيحاً . لكنه لما تطرّق إلى النقطة الجوهرية فى فلسفة فرويد (الشخص والشخصية) تخلّى عن أناقة التعبير وترك العنان للواذع التشهير . قال :

— « إن ذلك العالم الغريب الأطوار الذى بدأ يوماً حياته كوسيط فى التنويم المغنطيسى ، يطلب منا الاعتقاد بأن العوامل الأساسية فى نفس الإنسان — استعدّوا للمفاجأة ، أيها السادة — هى الزنى بين الأقارب ، والقتل ، وأكل لحوم البشر . نعم ، هذه هى مركبات النفس عند فرويد . منذ طفولتنا تدفعنا ثلاثة عوامل : الجماع الشهوانى بين القريب وأقربائه فى الدم ، قتل الآباء والأمهات ، وإعدام

كل من يعترض طريقنا للبلوغ إلى ما نشتهيه » .

توقف كلاراهان قليلاً ليدع الامتعاض يسرى بين الحضور . وفعلاً سمعت بعض همسات الاستياء والاستنكار . واستطرد كلاراهان لحديثه : « لكن خبرة البشر اليومية تدل على أن هذه الترهات ليس لها نصيب من الحق مطلقاً . ولكى يدلل على الفرق بين الواقع والمخيلة . يفترض فرويد نظرية أخرى عقيمة : هى نظرية القمع . إنه يسلم بأن الفرد يتعلم كيف يقمع غرائزه المخيفة نحو الزنى والقتل ، ولكن بأى ثمن ! . . . إن هذه الغرائز ، كما يقول فرويد ، متجمعة فى داخل النفس البشرية ، وإذا بها تتسلل إلى الخارج ملثمة فى الأحلام ، وضيق الخلق واضطرابه ، والاختلال العصبى . . .

ويسأل الكاثوليك : « لكن أين الإرادة الحرة ؟ » — فى فلسفة فرويد ، الإرادة الحرة (وهى محور الاختيار الأدبى) معدومة . والإنسان ما هو إلا خليقة مسيرة بإرادة ضعيفة . تقوده وتسيره التصورات الشهوانية (على حد تعبيره) التى تتدفق من المنخفض النفسانى الذى يتخذه فرويد بديلاً عن الروح .

ثم خفض كلاراهان صوته فى رهبة : « هل يجوز وجود مثل هذه الأمور ؟ وهل نضطر إلى اتخاذ نظرية فرويد فى القمع وكابوس الشهوة بديلاً عن شهادة القديس توما الأكوينى بخصوص نشأة النفس وطبيعتها الإلهية ؟ »

ثم بلغت الحماسة بكلاراهان أشدها وهو يقول : « سنضطر بازدياد فى السنين المقبلة إلى تعليم أولادنا هذه النظريات المهينة . فى هذه اللحظة ، وفى كلية مدنية لا تبعد آلاف الأميال عن هذا المكان ، يحاول بعض الأساتذة أن يشرحوا النفس البشرية كما لو كانت مجموعة من الأنسجة المرضية . أحثكم إذن بصفتكم مربين تواجهون مسؤولية إرشاد الشباب الكاثوليكى ، أن تقتلعوا من المدارس والكليات الكاثوليكية جميع كتب سيجموند فرويد » .

على هذه الكلمة الختامية دوى المكان بالتصفيق . تلت ذلك فترة أسئلة لم تأت بجديد ، فقليلون من مستمعيه لهم القدرة العلمية الكافية لتحليل ونقد ملاحظاته . رغب ستيفن فى الاستفسار عن الفرق بين « الشهوة » عند الأكوينى ، « وغريزة الجنس » عند فرويد ، لكنه خشى أن ينعته مولكوين بالكفر لمجرد اقتراحه هذه المقارنة . لم يوجد إذن سوى كاهن مجهول وجه سؤالاً وجيهاً بين كل أسئلة ذلك المساء .

– « أيها الأب كلاراهان ، ما الفارق بين " الشخصية " عند فرويد ، مع ميولها الطبيعية إلى القسوة الشهوانية ، والتعليم الكاثوليكى بشأن الخطيئة الأصلية ؟ . . . ألا يحاول كل فى طريقته الخاصة أن يحلل هذه الوصمة الوراثية فى النفس البشرية ؟ »

تحت نظر مولكوين اللامع طرباً وعجباً ، فاض كلاراهان عذوبة : « سؤال ماهر ، يا أبى . إن فرويد واللاهوت الكاثوليكى ينظران بعين الاعتبار إلى ميل الإنسان إلى الشرّ . لكن هل لى حاجة يا أبى ، أن أبين لك أن الخطيئة الأصلية – حسب التعليم الكاثوليكى – ليست فى ذاتها إلاّ نتيجة حجز الله مفعول نعمته المبرّرة ، لا أكثر ولا أقل ، شرط يمكن تعويضه بالمعمودية ؟ فى حين أن فرويد يريدنا أن نعتقد – وهنا رن صوت كلاراهان بوضوح – يريدنا فرويد أن نعتقد بأن هذا الشرط لا يمكن تعويضه إلا بالتحليل النفسانى » .

فحيا الجمهور هذه اللمزة بالضحك . وجلس صاحب السؤال .

لما انفض الجمع أثنى ستيفن على رفيقه فى الدراسة قائلا : « إن عرضك واضح ومؤيد بالبراهين ، يا ديك . وأرغب أن أناقشك قليلاً فى " شخصية " فرويد . هل لك أن ترافقنا فى سيارة صهرى إلى المدينة ؟ »

فى مطعم فى ميدان كوپلى طلبوا لبنا وخبزاً محمّصاً . ارتأى الطبيب بيرن أن علماء الطبيعة ورجال الدين أيضاً سيقدّرون فرويد يوماً للضوء الذى ألقاه بنظرياته على المهاوى المظلمة التى تحيط بالنفس البشرّية . ولما عارض كلاراهان بشدة هذا الرأى ، سأله ستيفن :

– « ما خوفك من تعميم فلسفة فرويد يوماً ؟ »

حاول كلاراهان الإجابة بصراحة : « ليس الأمر فى حد ذاته تنسيق فرويد للشهوات الجنسية ، مع أنه يزيد من أهميتها كثيراً جدًّا . إنما عقدة المسألة هى فى الأهمية التى يلقيها فرويد على الحالات المرضية . ويعتقد الشخص ، بعد قراءته ، أن النفس البشرية فقيرة سقيمة . أما أنا فأرى أنه لا يمكن التعرّف على طبيعة النفس البشرية من درس حالاتها المرضية » .

تدخل چون بيرن فى الحديث بهدوء : « لا أرى أنى أوافقك على ذلك ، يا أبى . فى الطب تنقسم الدراسة إلى قسمين : علم الحىّ (بيولوچيا) الذى يقوم على دراسة

الأنسجة الحية أو الصحية — وعلم المرض (پاثولوچيا) الذى يعالج الأنسجة المريضة . ووجدت من خبرتى كجرّاح وطبيب أن الإنسان يكتسب علماً من أمراض الجسم كاكتسابه من حالاته الصحية » .

قال كلاراهان : « ليس كلامنا عن الجسم ، ظننت أننا نتناقش فى الروح » .

بلغ السرور من ستيفن مبلغاً عندما سمع الطبيب چون بيرن يقول فى ردّه : « أعلم ذلك ، يا أبى . إن الإنسان خليقة مركبة من نفس وجسد . لكن فيما يخصّنى وحياتى : لا أستطيع أن أؤكد لك أين ينتهى جسدى وأين تبدأ روحى . ولا أبغى الذهاب فى القول إلى الحدّ الذى ادّعاه " والت هويتمان " من أن " الجسد هو الروح " — لكنهما متحدان بطريقة ما عجيبة ورهيبة » . . . واسترسل جون بيرن فى شرح فكرته : « بعض المرضى يأتون إلى عيادتى بأعراض جسمية سببها بعض الاضطرابات النفسانية الخفية . يوجد عدد لا يحصى من الأمراض — كالسُكَّر مثلاً — تؤذى الجسم بسبب علة فى الروح » .

كان الطبيب چون بيرن كاثوليكيًّا صميماً وطبيباً أميناً . فاستطرد للقول : «سيأتى يوم ، يا أبى ، يضطر فيه الأطباء والكهنة معاً إلى اعتبار السُكَّر ، والانحراف الجنسى ، وبعض الأمراض المزمنة كذات الرئة — ولا أذكر الجنون والانتحار وبعض الطرق الأخر الغامضة لإبادة الإنسان ذاته — سيعتبرون هذه كلها — جروحاً أحدثها الإيذاء الذاتى وغرسها النفس الحاقدة فى الجسد » .

قال كلاراهان : « لا أستطيع مجاراتك إلى هذا الحدّ ، أيها الطبيب » .

فى تلك الليلة مكث ستيفن طويلاً فى فراشه يفكر فى اقتراح چون بيرن الرهيب من أنه يمكن للإنسان إبادة نفسه كالحيوان .

ترى ما هو دافع النفس الداخلى إلى إيذاء الجسد ؟ وهل للجسد من الناحية الأخرى قدرة على محاربة النفس وتشويهها ؟

استغرق ستيفن فى النوم ، يحلم بمنى .

الفصل الخامس

كان المنزل الذى تديره السنيورا « جيومير لاسكيز » (أوجوسى) فى ٥ عطفة « ستانهوب » ، شديد العزلة حتى يدعى فندقاً ، وشديد الوجوم حتى يدعى بيتاً سريًّا . على واجهته المخيفة نوافذ كئيبة أسدلت عليها ستائر خضراء ليل نهار . وعلى الزوايا برزت شرفات من قضبان الحديد أكلها الصدأ ، وفوق حبل الجرس علقت لافتة كتب عليها « كامل العدد » . فى الواقع أنّ هذه اللافتة كذب صريح ، ففى منزل السنيورا لاسكيز حجرات عديدة خالية . لكن بما أن المكان يدار للإجهاض غير المشروع ، فلم تكن جوسى تخاطر بفتح بابها لكل طارق خوفاً من ظهور أحد رجال الشرطة . كان الباب العمومى مقفلاً بالمفتاح ومرتجاً ، وإذا فتح فلن يدع أحداً يدخل سوى نوع مخصوص من الطارقين ، فتيات ونساء يائسات فى يد كلّ منهن خمسون دولاراً وعلى شفاههن كلمة السرّ : « الطبيب رامون أرسلنى » .

وتحثّ الخمسون دولاراً السنيورا لاسكيز لتقوم بعملها معتمدة على بعض الأعشاب والتركيبات الطبية الرخيصة . وإذا أخفق كل هذا ، لجأت إلى بعض الأدوات ولا تستبعد إبَرَ الغزل ، لأن المعالجة بالأعشاب والتركيبات الطبية تتطلب بعض الوقت — ربما ثلاثة أيام أو أربعة . وفى هذه المدة العلاجية تؤوى جوسى عملاءها حسب مقدرتهم على الدفع — فثمن حجرات الدور الأول دولاران فى الليلة الواحدة ، أما حجرات الدور الثالث فيمكن استئجارها بدولارين ونصف دولار فى الأسبوع . وأما الطعام فعلى حساب الساكن . وليس فى الدور الثالث هذا مواسير مياه أو تدفئة ، لكن الساكنين عند السنيورا لاسكيز إذا ألقوا نظرهم من وراء النوافذ القذرة فى هذا الدور العلوى ، كانوا يرون منظراً بديعاً من حىّ بوسطن الجنوبى ، وأيضاً سهام الكاتدرائية فى منتصف الطريق .

فى حجرة من هذه الحجرات العالية وعلى فراش دون غطاء انطرحت منى فرمويل وهى على التقريب فى أواخر أيام حملها . أتت إلى رقم ٥ عطفة ستانهوب

منذ ثلاثة أسابيع متأخرة عن الموعد الذى تستطيع فيه السنيورا لاسكيز القيام بعملها الفنىّ . لكن لما أظهرت منى أوراق اعتمادها ولوّحت بالعشرين دولاراً فى حقيبتها ، رضيت جوسى منحها خدماتها كمولّدة ، وآوت الفتاة الشاحبة المرتعشة فى إحدى حجراتها . قبضت العشرين دولاراً التى قدمتها منى وحدّدت لها إقامتها فى مؤخر الدور الثالث ولم تكن تطعم نزيلتها إلاّ عندما تتذكر ذلك .

انطرحت منى على فراشها المهدّل المكسور المخروق ، وتتبعت بعينيها فلقات الجبس فى السقف . لم تكن تعلم اليسير عن أنهار العالم لترى أن فلقات الجبس هذه تشبه إلى حدّ كبير عجيب نهر الأمازون ، هى تعلم فقط أن مولودها سيأتى من لحظة إلى أخرى ، وهو يرتكض فى داخلها كأرنب يحاول الهروب من الفخّ . كل حركة منه تهزّ منى شعوراً بالخطيئة والرعدة . شعوراً بالخطيئة ، لأن جسمها المنتفخ يقدّم برهاناً على ما ارتكبت ، وشعوراً بالرعدة ، لأنها مريضة ، مفلسة ، وحيدة .

كانت دون شك مريضة . إنما لم تكن مفلسة بالمعنى الحصرى فلم يزل لديها عشرة سنتات فى حقيبتها الصغيرة ، وهو كل ما تبقى عندها بعدما رهنت معطفها على دولارين . لم تكن أيضاً وحيدة تماماً ، لأنها لو أدارت رأسها قليلاً لاستطاعت رؤية سهام الكاتدرائية من نافذتها . منذ رجوعها الاضطرارى الخفىّ إلى بوسطن ، ومنذ ثلاثة أسابيع حتى الآن ، استعادت إلى ذاكرتها وهى تنظر إلى سهام الكاتدرائية فتظنها يدين مرتفعتين نحوها ، استعادت ذكريات طفولتها بالأمن والسلام بالقرب منها.

فى يوم بعد الظهر من يناير والضوء خافت ، تحاملت منى على نفسها واستندت إلى مرفقها وسرحت طرفها فى هذين السهمين رمز الطيبة والأمان اللذين توارت عنهما راضية . فتاقت نحوهما نفسها الفتية . آه لو استطاعت مرة أخرى أن تتسلل وتأوى آمنة بين هاتين اليدين . ضغط الندم على عينيها المليئتين بالدموع ، فبكت كما يفعل من يحلم ببيته وهو فى المنفى ، أو كما تفعل فتاة صغيرة تستيقظ مرتعدة فى أثناء الليل .

طردت الدموع اضطراباتها المتزايدة . للمرة الأولى منذ أشهر عديدة نبت فيها الأمل واتخذ له شكلا فى عالم اضمحلّت صورته فى البؤس والذنوب . نهضت منى من فراشها ونظرت فى حقيبتها لتتأكد من وجود قطعة العشرة السنتات

فيها . ثم مشطت شعرها فى اضطراب . شعر ذهبىّ قذر فى أطرافه وأسود فى جذوره ، حيث لم يُصبْغ منذ عدة أسابيع . وإذا بها ، دون معطف ولا قبعة ، قد تلمست طريقها فى الظلام نحو الدرج العارى ، وجذبت المزلاج فى سكون تام وخرجت من الباب الأمامى من منزل السنيورا لاسكيز إلى عالم يكسوه الثلج المتساقط .

فى البرهة الأولى لفحها البرد ، وفى الوقت الذى قضته للوصول إلى الصيدلية الإسبانية على زاوية شارع واشنجطون كانت أطرافها قد تثلّجت وعقلها قد زاغ . فطلبت فنجاناً من الشيكولاتة الساخنة لتستعيد قواها ، فلم تكن قد ذاقت طعاماً منذ أربع وعشرين ساعة . رمت بالعشرة السنتات على الرخامة وأعاد إليها الصيدلى خمسة سنتات من جيب مئذره المتّسخ .

هذه القطعة الباقية هى نجاتها !

تمققت منى الشراب ببطء محاولة أن تستجمع شجاعتها لتدخل كشك الهاتف القائم فى مؤخر الدكان المظلم .

عندما مرّت أمام خزانة أدوات الزينة ، نفذ إلى قلبها شعور شديد بالخوف . من سيردّ عليها ؟ ماذا سيقولون عند سماع صوتها ؟ فتباطأت أمام خزانة الروائح العطرية . ففرك السيد « هرمنديز » يديه على مئزره القذر وألقى نظرة أمل على شعرها المزدوج اللون ، علّه يبيعها زجاجة من صدأ الحديد . لكن خاب أمله عندما رآها تتجه بثقل نحو كشك الهاتف . إذا تركت امرأة شعرها على هذه الحال ، فمعنى هذا أنه لم يعد يعنيها من أمر الزينة شىء ما ! . . .

دخلت منى كشك الهاتف ويدها مطبقة على قطعة النقود وأقفلت عليها الباب . ذكّرها اتساع الكشك وظلمته وهواؤه المخزون — بماذا ؟ بكرسىّ الاعتراف ! ربما تفتح الطاقة بعد قليل ، ثم تتردّد هى برهة ، ثم تتنفس عميقاً وتقول : « أنا منى ، يا أبى . أريد الرجوع إلى البيت . . . اغفر لى ، يا أبى ، لأنى أخطأت » .

كلا ، هذا الاعتراف مستحيل ! الذنب أكبر من أن يغفر ! مع ذلك فهذا الاعتراف ضرورىّ ! . . .

بيد ترتجف هلعاً ، أسقطت منى قطعة النقود فى صندوق الهاتف وأعطت العامل رقم الهاتف فى ٤٧ شارع برج الغاب . سمعت الرنين المكتوم بررر — بررر ،

رنين الهاتف الموضوع على منضدة السنديان ، فى بهو منزل فرمويل . كانت فلورى منذ زمان طويل قد حشت الجرس بقطعة من القطن لتخفف من رنينه المرتفع . . . بررر — بررر ... الصوت الآن يردّد صداه عبر الستائر إلى حجرة الجلوس حيث برنى يقوم باللعب على البيانو فى حين يرافقه دن بصوته العالى. ربما سيليا تسمع الرنين أيضاً وهى أمام الموقد فى المطبخ وكلها أمل أن شخصاً آخر غيرها لاعمل له يقوم بالرد على الهاتف — وفى الدور الأعلى، فى غرفتها الهادئة ، تستطيع هيلانة سماعه أيضاً ...

رفعت السماعة من العلاّقة فترددت طقطقتها . وسمعت منى أخشن وأقوى صوت فى العالم — صوت رجل ملأ طفولتها بسلطته المرعدة . رنّ صوت دونيس فرمويل قائلاً : « هالو » .

عقد الخوف والصمت لسان منى . لم تستطع النطق بالكلمات التى أعدّتها : أنا منى ، يا أبى . أريد الرجوع إلى البيت . . .

« هالو ، هالو ، استمر دن يقول — من هناك ؟ »

ارتعدت منى وتملكها خوفها القديم وشعرت بخجل عميق من الاعتراف بخطيئتها، فأعادت السماعة إلى مكانها . ثم انتظرت هنيهة حتى قويت ركبتاها على حملها ثم تباطأت خارج كشك الهاتف واستندت برهة إلى خزانة الروائح العطرية . وبعد ذلك خرجت تجرّ قدميها من الصيدلية ووقفت على رصيف شارع واشنجطون البارد .

أين تذهب وجريرتها ترتكض فى أحشائها ؟ إلى من تتجه ؟ لم تسمع قط هذه الفتاة المضطربة الحمقاء صوت صاحب المزامير يصيح فى ثقة وأمل : « إن اضطجعت فى الجحيم فأنت حاضر ؛ إن اتخذت أجنحة الصبح وسكنتُ أقاصىّ البحر فهناك أيضاً يدك تهدينى ويمينك تمسكنى » . لم تقرأ كتاباً فى حياتها ، فكيف تعلم بهذا الشعر الزاخر وعداً : « الخوف لا يبعث إلى الهرب إذا ما كان الحب يبعث إلى البقاء » . — لكن كان لديها شىء أفضل من معرفتها الشعراء وصاحب المزامير ألا وهو ذكراها الحضرة الإلهية المعزّية الباعثة نورها من الهيكل . فدفعتها هذه الذكرى إلى التوجه نحو الكاتدرائية ، دخلت فى سكون الظلام وجثت على ركبتيها على مركع فى مؤخرة الكنيسة وحدّقت ببصرها فى الممر الوسط حيث مصباح الهيكل يتألق بنوره الأحمر مرسلاً أشعة التشجيع والتعزية . لم تشعر بالانجذاب

أو بالتقوى ، لكنها أيقنت أن إحساساً أبعد فى الزمان من كلّ هذه الإحساسات بدأ يلاطفها ويهزّها . شعرت أنها فى أمان حقًّا .

ظهر معبد القديس أنطونيوس متألقاً بضوء الشموع التى ارتفعت فى صفوف كالأهرامات . لم تتذكر منى الزمان الذى أوقدت فيه شمعتها الأخيرة ، لكنها لن تنسى شمعتها الأولى التى أشعلتها لهذا القديس بالذات — شفيع الأشياء الضائعة . كانت أمها قد أرسلتها يوماً إلى المدينة لتبتاع لها يداً خشبية لمكواتها ، وفى عودتها إلى البيت توقفت منى لتنطّ على الحبل مع بعض صديقاتها فى شارع مود . ولما حان وقت ذهابها ، افتقدت اليد فلم تجدها . فاقترحت عليها « كاثلين أودانيل » قائلة : « لم لا توقدين شمعة للقديس أنطونيوس ؟ » فأجهشت منى بالبكاء : « ليس معى نقود » . فرطّبت كاثلين خاطرها : « لا بأس ، إنه يثق بك . وأنا مدينة له بثمن شمعتين لحاجتين أضعتهما ثم وجدتهما » . — فتقدّمت منى أمام صديقاتها فى الكنيسة وأشعلت شمعة للقديس أنطونيوس ، وصلّت ثلاث مرات السلام الملائكى — وإذا بها فجأة تتذكر أنها تركت حاجتها على مكتب بائع الخردوات .

ما أعجبك أيها القديس أنطونيوس ، شفيع الأشياء الضائعة ! ... هل شمعة أخرى على الحساب تستطيع حلّ مشكلة المرأة بالسهولة نفسها التى حلت بها مشكلة الفتاة ؟...

— « سيثق بى » ، فكرت منى ، وهى تقترب من المعبد . ثم أشعلت أعلى شمعة فى الأهرامات ثم ركعت أمام تمثال القديس الأغبر وراقبت شمعتها تتمايل على قاعدتها . وإذا بالشعلة ترتفع ، فرأت منى شمعتها تضىء وتلمع كباقى الشمعات ، وحينئذ فقط صلّت ثلاث مرات السلام الملائكى . للمرة الأولى منذ سنى حياتها الفارغة ، لم تكن الصلاة مضغة بين شفاهها . التقطت أذنها المرهفة هذه الجملة من الصلاة : « مباركة ثمرة بطنك يسوع » . سندتها هذه الكلمات وقوّت من عزيمتها ، واختلج قلبها حرارة وفخراً بمساهمتها فى تكوين حياة جديدة .

غادرت منى الكاتدرائية والمغيب يتّشح برداء أحمر سرعان ما غطته نقط الثلج البيضاء . فمدّت يديها إلى فوق لتلتقط نتف الثلج المتساقطة ، ثم مرّت أمام صيدلية السنيور هرمنديز ، وانعطفت شمالاً ، ثم اختفت فى ظلمات الحىّ الجنوبى ، والسعادة تفيض فى نفسها أكثر من أى وقت مضى فى حياتها — وما إن وصلت أمام

الباب الحديدى فى عطفة ستانهوب رقم ٥ ، حتى بدأت آلام وضعها .

* * *

فى قاعة المحكمة عند مفترق روكسبيرى ، جلس القاضى « بيتر سترانانهان » كعادته كل أيام الاثنين صباحاً ، يصدر أحكامه فى المتعطلين المتجولين والسكارى والسارقين . كان سعادته يشكو من زكام شديد ويستنشق بحنق روح النعناع من أنبوبة لم تُفِدْهُ شيئاً ألبتة . القاعة غاصة بالحضور وجدول الأعمال مشحون والأمور سيئة جداً . وكلما امتد النهار طولاً ، تضاءل صبر القاضى سترانانهان أكثر فأكثر .

فى الساعة ٣,٢٢ بعد الظهر استمع بعصبية إلى شهادة الشرطىّ رقم ٦٧٧ : « إن المتهم وجد منطرحاً فى زاوية من شارع " حقل الربيع " الغربى رقم ١٠ فى حالة من السكر الشديد ؛ وضبطت فى جيبه زجاجة من كحول الزنجبيل الجامايكى .

وسأل سعادته : « مذنب أم غير مذنب ؟ » وعند سماعه الجواب نطق بالحكم النهائى ، أعنى : « عشرة أيام فى جزيرة الوعل . . . القضية التالية » .

تقدم شولتز ، مساعد المفتش العام المركزى ، وعينه على ساعة المحكمة وطفق يشرح القضية : « إن الحالة التالية تدور حول سرقة دراجة من دكان " إغْنَطْس لازلو " عامل فى شارع واشنجطون رقم ١١٤٤ . والمتهم ، چيمس سپلين ، قاصر ذو سوابق يعترف بأنه أخذ الدراجة دون إذن صاحبها وباعها مقابل أربعة دولارات » .

سأل القاضى : « هل له ولىّ ؟ »

— « نعم ، يا سعادة القاضى ، إن المكتب الخيرى الكاثوليكى قد عهد إلى . . »

— « اختصر التفاصيل — قال القاضى مقاطعاً بحدة — أحضر المتهم أمام المنصّة » .

ظهر أن المتهم شاب شقى كالمجرمين فى حاجة شديدة إلى تغذية جيدة ، وقص شعر ، وربطة عنق ، أكثر منه إلى أىّ شىء آخر . لما استجوبه المفتش شولتز ، اعترف چيمس بالتهمة الموجهة إليه ثم نظر بخجل إلى امرأة غائرة العينين جلست فى الصف الأول ، كأنه يقول لها : « بالشرف ، يا أماه ، لم أقصد أن أسبب لك إزعاجاً قط » .

ثم تقدّم ولىّ الدفاع ، محام شاب يدعى چورج فرمويل وشرع فى استجوابه بلطف .

— « أين تسكن يا چيمى ؟ »

— « فى مولدن بالشارع العالى ، رقم ٢٢ » .

— « من يسكن معك ؟ »

— « والدتى » . وأشار چيمى بيده القذرة نحو المرأة الملتاعة ذات العينين الزرقاوين الغائرتين .

— « أين والدك ؟ »

— « توفى . قتل فى أثناء معركة فى مقهى منذ ثلاث سنوات » .

استنشق القاضى ستراناهان من روح النعناع فى الأنبوبة وقال : « نرجو من الدفاع ألا يسترسل فى هذه التفاهات وإلا فلن نخرج من قاعة المحكمة هذه الليلة . إلامَ ترمى بأسئلتك هذه ؟ »

— « أرمى إلى تعريف الوسط العائلى الذى عاش فيه هذا الشاب ، يا سعادة القاضى . إنه ثمرة أسرة غزاها الموت والحاجة . وأمّه تعمل طوال النهار خادمة فى بيت . وأملى إفادتكم بأن المتهم يتيم فى حاجة إلى عناية المجتمع وإرشاد نفسانى » .

لم يصدّق ستراناهان أذنيه وقال : « أىّ نوع من الإرشاد قلت ؟ »

فانفجر مزاج فرمويل فى وجه ستراناهان : « قلت إرشاداً نفسانيًّا ، يا سعادة القاضى . لو كان هذا الفتى مريضاً فى جسمه لحصل من الدولة على علاج مجانى . مع ذلك ، فهو الآن يجوز سنى الخبرة والنموّ . . . »

— « نمو المجرمين — قاطعه ستراناهان متهكماً — إنه سرق الدراجة ، أليس هذا صحيحاً ؟ وباعها ، أليس كذلك ؟ وأنفق النقود أيضاً ، هيه ؟ »

— « نسلّم بكل ذلك ، يا سعادة القاضى ، ولكن . . . »

— « لكنك الآن تسأل المحكمة أن تعطف عليه » . أبعد ستراناهان أنبوبة روح النعناع عن أنفه ، ثم رفع المطرقة وضرب بها ضربتين : « إن هذا اللص يحتاج لا إلى العطف بل إلى التأديب . إن كنت انتهيت من مرافعتك ، يا صاحب الدفاع ، فالمحكمة ستنطق بالحكم : ستة أشهر فى إصلاحية كونكورد للأحداث . المحكمة أجلت إلى الغد » .

انحدرت الدموع على خدّى چوليا سپلين .

وقال المفتش المساعد لجورچ فرمويل : « ربما يكون حظك أسعد فى المرة

القادمة . إن " روفوس كوات " نفسه لم يكسب دعواه الأولى . لكن صدّقنى ، يا فرمويل ، لا تحاول التأثير على القاضى ستراناهان بعلاجك النفسانى » .

فقال چورچ : « ليس هذا علاجاً ، إنها الحقيقة الواضحة » . — ثم جمع أوراقه فى حقيبته وتحوّل نحو چوليا سپلين ليقوم بمهمته الكئيبة فى تعزيتها : « من حسن الحظ أن ستراناهان لم يرسل چيمى إلى السجن العام . سيعلّمونه أشياء كثيرة فى الإصلاحية . وسيكون موضع ثقتك فى المستقبل ، يا سيدتى » .

— « إنها طيبة قلب الفرمويل التى تجعلك تنطق هكذا ، يا چورچ ، إن ولدى شريد ، والآن فقط علمت ذلك — ثم هزّت رأسها فى ذهول — إن السؤال الذى أوجّهه الآن لنفسى هو ما السبب فى أن چيمى شرّير ، وچامى صالح ؟ »

وإذ لم يكن لدى چورچ ردّ شاف لمثل هذه المشكلة المطّردة ربت على كتف چوليا سپلين البارزة عظامها وخرج من القاعة إلى عالم مظلم تتساقط فيه الثلوج .

يعدّ مفترق روكسبيرى محوراً للمواصلات . الترام والعربات والسيارات والمشاة ، جميعهم يتزاحمون فى حركة بطيئة على البلاط الموحل . وقف چورچ فى شارع الحديقة ينتظر الترام الذى سيقلّه إلى مكتبه واشترى « العالم » وشرع يجرى ببصره على عناوينه الكبيرة . — « البابا بنديكتوس يهبط » . — « العواصف تكتسح بريطانيا الجديدة » . — « باخرة إيطالية تدخل ميناء بوسطن فى رحلة سياحية » — .

شعر چورچ ببرودة الجو القارسة فصعد إلى الترام واتخذ له مكاناً دافئاً ، وسرّح طرفه من وراء النافذة إلى الدكاكين والمتاجر الوضيعة المتراصّة على طول شارع واشنجطون . ثم تمتم بصوت خافت : « هذه إذن هى إجراءات وتطبيقات القانون ! » — غلى فيه الغضب مرّة أخرى لحماقة ستراناهان ثم خمدت حدّته واستغرق فى التفكير . قفز إلى ذهنه مرّة ثانية سؤال چوليا سپلين فتأمله مليًّا : « ما السبب أن چيمى شرّير ، وچامى صالح ؟ » — إنهما ابنان لأسرة واحدة ، وثمرة وسط اجتماعىّ واحد ، والحال ها هوذا چامى يتقدّم إلى الكهنوت وچيمى يقاد إلى التأديب . ولو قذف بإرميا سپلين فى عرض المحيط لشق طريقه فيه نحو أرجاء السماء ، ونجح — فى حين لو ألقى چيمى فى بركة صغيرة لانحدر فيها دون جهاد وانغمس فى وحل قاعها .

يا للعجب ! . . .

على طول شارع واشنجطون ، تجمّع المتسكعون ممن يملكون عشرة سنتات فى المقاهى المنارة بالغاز . أما المتسكعون الخاوية جيوبهم فاتخذوا زوايا الشارع مأوى لهم وبعضهم سار على الأرصفة المغطاة بالثلج . هذا هو الحىّ الجنوبى ، جحر المتشرّدين الخارجين منه والداخلين إليه ، المفقودين إلى الأبد .

عند المحطة القريبة من الكاتدرائية وقف الترام ليلتقط راكباً . . . دنج ، دنج . . . لم يكد المحصّل يشير إلى السائق بالتحرّك حتى أبصر چورچ فرمويل أخته منى واقفة على عتبة الكاتدرائية . لمحها تحت ضوء المصباح الأزرق المتأرجح . كانت دون معطف ولا قبعة ، وكانت حاملاً ، ويداها ممدودتان تحاولان التقاط نتف الثلج المتساقطة .

انتفض چورچ وشق طريقه بين الركاب المتزاحمين وسط الترام وصاح : « أوقفوا الترام » . لكن بينما جرّ المحصّل حبل الجرس ، كان الترام قد سار خمسين ياردة . فجرى چورچ نحو الكاتدرائية إلى حيث رأى أخته واقفة تحت الثلج المتساقط . كانت قد ذهبت .

فصاح : « منى ، منى ، أين أنت ؟ » وأسرع إلى داخل الكنيسة ، وطفق يجرى فيها دون احترام فى كل اتجاه ، وإذا به يجد نفسه ثانية على عتبة الباب . فى زاوية من الشارع رأى دكاناً عليه لافتة « الصيدلية الإسبانية » فدفع الباب ودخل وقطع على صاحبها عمله فى تركيب دواء : « هل رأيت فتاة — امرأة شعرها أسود — ليس عليها معطف ولا قبعة — فى هذه الأنحاء ؟ »

تذكّر هرمنديز الفتاة : « منذ خمس عشرة أو عشرين دقيقة تناولت هنا فنجاناً من الشيكولاتة الساخنة . إنما شعرها لم يكن أسود » .

— « إذن أشقر ، » قال چورچ مصححاً .

— « قل نصف ونصف . فى الأطراف أشقر ، وفى الجذور أسود » .

— « أتعلم أىّ طريق اتخذت ؟ وأين تسكن ؟ »

فشهق الصيدلىّ قائلاً : « لا يعلم أحد شيئاً عن هذه الأمور فى الحىّ الجنوبى . المعذرة ، يا سيدى . . . زبائنى . . »

كان شعور چورچ بقرب منى منه أشبه برؤيته ولمسه شخصاً فى الحلم . إن

أغمض عينيه شعر بوجودها ، وإن فتحهما تعلّق بظلها. ظل يتعثّر بين هذه الظلال حتى قفزت إلى ذهنه الفكرة الصحيحة :

— « ادع ستافى » .

من كشك الهاتف فى صيدلية هرمنديز طلب مقرّ الكردينال وسأل عن الأب فرمويل . فأجابه صوت رقيق : « قد غادر الأب فرمويل مكتبه الآن . يمكنك الاتصال به فى دار الكاتدرائية قبل العشاء » .

لحق چورچ بستيفن وهو يدخل الدار ، جميل القوام بشال أبيض حول عنقه ومعطف أسود وقفاز من جلد الغزال .

صاح ستيف : « سلام ، أيها الأستاذ . لكن قل لى ما لك أصفر اللون هكذا ، أيها الشقىّ ؟ »

وضع چورچ يده على ساعد أخيه وقال : « ستاف ، رأيت الآن منى » .

جمد ستيفن فى مكانه وقال : « أين ؟ »

— « واقفة على عتبة الكاتدرائية تحت الثلج . لمحتها من الترام . لم تكن ترتدى معطفاً ، وهى حامل » .

جرّ ستيفن أخاه إلى حجرة الجلوس. « ابدأ من البدء وأخبرنى بكل شىء » .

فأخبره چورچ بالقصة من أولها وأنهى حديثه بتقرير هرمنديز عن شعر منى المصبوغ .

— « إنه الدليل ، يا چورچ . إنها منى دون شك . سنجدها وإن اضطررنا إلى طرق كل باب فى الحىّ الجنوبىّ » .

* * *

قبل كل شىء عزم ستيفن على التماس إجازة من الكردينال ، وقرّر أن يقوم بهذا الطلب شخصيًّا . وجد جلينون وحده على وشك الانتهاء من عشائه المكوّن من بطّ محشو وزجاجة نبيذ معتق من إنتاج قصر « أستورنل » المفضل عنده . كان مزاج الكردينال فى ذلك اليوم رائعاً .

— « شاركنى بقدح من هذا المشروب » . قال الكردينال لستيفن وهو يشير إلى زجاجة النبيذ : « إنه الأخير من نوعه . ولن تجد أبداً نبيذاً أحمر غنيًّا

(جراڤ) مثل إنتاج بوردو سنة ١٨٨١ » .

ــ « أخشى أن يضيع عليّ ، يا صاحب النيافة » .

ــ « إذن خذ جرعة من الپورتو . أو جرّب قدحاً من هذا " المزّ الممتاز " الذى على الخزانة ، من إنتاج البرتغال ، إنه جاف ومنعش . . . لكن ، ما بك ، يا بنيّ ؟ »

لم يرغب ستيفن فى جرّ الكردينال إلى التدخل فى أمور فرمويل العائلية . ظنّ أنه بكلمة « مشكلة عائلية » سيشرح الأمر بما فيه الكفاية . لكن مزاج الكردينال فى ذلك اليوم هو الذى جرّ ستيفن إلى سرد قصة منى البائسة ، والكردينال يتناول قدحه من النبيذ .

فسأله جلينون : « ماذا تقترح لتحديد مكانها ؟ »

ــ « أنا وأخواى سنطرق كل باب فى الحىّ الجنوبى . إنها مختبئة هناك ، خائفة ، خجلة . سنطرق كل باب بين شارع تريمونت ومستودعات " الميناء الجديد " (نيوهيڤن) حتى نجدها » .

فهزّ الكردينال رأسه فى شك وقال : « أخشى أنك لا تعلم جيداً الحىّ الجنوبى ، يا ستيفن ، إنه كبحر السرجاسة ، مياهه راكدة وطرقه متشابكة ، وفى نصف ساعة قد ترى ذاتك تائهاً فى منعطفاته وزواياه المظلمة » . ولمعت عينا جلينون البندقيتين بعطف واسع وقال : « لماذا لا نخبر الشرطة ؟ »

ــ « أريد أن أحفظ الأمر بعيداً عن الضوضاء . ألا تتصوّر عناوين الجرائد : « أخت أمين سرّ الكردينال ، يبحث عنها الشرطة ؟ »

ــ « إن الحذر والحرص أجمل دواء ، يا ستيفن . ولكن لا تغال فى استعماله . أقترح أن نتصل بصديقى المفتش « شى » اطلبه على الهاتف فى مقرّ الشرطة وبلّغه أن الكردينال يريد مقابلته حالاً » .

كانت الساعة البلچيكية المعلقة فى القاعة تدقّ الثامنة مساءً ، عندما دخل « هيوشى » وجلس على مقعد مذهب فى حجرة الموسيقى ، وقبعته المستديرة على ركبتيه . استمع إلى قصة الأب فرمويل وشرع يفرك طرف قبعته قبل محاولته التعليق على الموضوع . ثم بدأ :

— « إن البحث عن أختك فى الحىّ الجنوبى كطلب الصيد فى عرين الأسد . ستقول إنه مثل بعيد الشبه ، لكنى أعنى ما أقول . هنالك أربعون ألف شخص ، أغلبهم متسكعون متشردون هاربون من القانون ، لم يعرف لهم اسم أو تشبيه » . وفرك هيوشى قبعته بلطف كمن يمس ظهر فرس أصيل واستطرد لقوله : « إن المنطقة كلها موبوءة بالبيوت السرية حيث يزاولون الإجهاض غير الشرعى ، ويكثر فيها الصيادلة والأطباء الأفاكون ، يبيعون المورفين والكوكائين والأرجوتين — و . . . وأستميح نيافتكم عذراً ، والمكيفات الجنسية . . . »

فعقب الكردينال : « إنها مضرّة بالصحة ومضرّة بالآداب » .

فرك هيوشى قبعته بشدّة ، موافقاً على رأى الكردينال . واستطرد للقول : « إن الاتجار فى المخدرات ليس إلا نقطة من بحر ، يا صاحب النيافة . إن أساس المصيبة التى نريد اقتلاعها هم الأطباء المحتالون الأفاكون . ليس لديهم شهادات أو تصريح ، ومع ذلك يقومون بعملهم الإجرامىّ على الفتيات الجاهلات اللواتى يأتينهم من بيوت الدعارة والمراقص الرخيصة المنتشرة فى الضواحى » .

ارتعش ستيفن لدى سماعه هذا الوصف الارتجالى عن منى . واسترسل هيوشى فى كلامه : « إن العمدة أمر بالقبض على جميع هؤلاء ، وخصّصتُ ستة من أحسن رجالى ليجمعوا لى جميع الأدلة اللازمة . ربما لا يجدى عملنا نفعاً ، لكن إذا وفقنا فى وضع يدنا على هذا المجرم الذى يدعو نفسه الطبيب "بفيلو إيكاڤاريا" — وهنا لمعت عينا هيوشى ببريق الرجل الصياد — إذا وفقنا فى ذلك عددنا حملتنا نجحت نجاحاً باهراً . . . هذا الرجل هو رئيس القوّادين ، وأستاذ الأطباء المحتالين الذين يتعاطون إجهاض الفتيات . إن الشرطة من ريتشموند إلى مونتريال لا تغمض لهم عين على هذا السفّاك . إنما الصعوبة أنه يسافر بأسماء مستعارة عديدة » .— وشهق هيوشى شهقة عميقة وقال : « إنى أتبرّع بسنة من معاشى لمن يقبض على هذا الرجل » .

ثم وقف المفتش والتفت إلى ستيفن قائلاً : « كن مطمئناً يا أبى . سآمر رجالى بالبحث عن أختك ، ولن نهدأ حتى نجدها » .

— « أشكرك ، أيها المفتش ، أعتقد أنك لن تعترض إذا ما حاولت مع أخوىّ

البحث عنها فى الوقت نفسه ؟ »

فقال هيوشى مستعيناً بمثل من الإنجيل : « " إن الحصاد كثير وأما الفعلة فقليلون" — لو كان عندك مئة أخ ، أيها الأب فرمويل ، فلن يكون عددهم كبيراً . . . اتصل بى يومياً فى الأيام القليلة القادمة ».

شرع هيوشى فى الركوع باحترام أمام الكردينال فأوقفه هذا بإشارة من يده وصافحه قائلاً : « أشكرك ، أيها الصديق . اعمل كل ما فى وسعك فى هذا الشأن ، فالأمر يهمنى كثيراً » .

خرج ستيفن والكردينال يباركه وتوجه حالاً إلى دار الكاتدرائية حيث كان چورچ وبرنى ينتظرانه . ثم جلسوا ورسموا خطتهم . قسموا الحى الجنوبى إلى ثلاثة أجزاء متساوية ، وصمم كل منهم على البحث والسؤال عنها من بيت إلى بيت ، كل فى منطقته . واتخذوا دار الكنيسة مكاناً للقائهم وتواعدوا على الاجتماع كل أربع ساعات لتقديم المعلومات والتقارير .

تقدم چورچ باقتراح : « ألا تعتقدون أنه من المستحسن أن ننفح هرمنديز شيئاً من المال ، قد تظهر منى عنده ثانية . فإذا فعلتْ ، فسيستطيع إذن صديقنا الإسبانى طلب عنوانها أو حجزها عنده » .

فقال ستيفن : « يجب أن ننزع من عقولنا فكرة مصادقة هرمنديز . إن ما استنتجته من حديث المفتش هيوشى هو أنه لا توجد صيدلية إسبانية واحدة غير مشبوهة فى هذا الحى . مع ذلك ، فهذه نقطة جديرة بالاهتمام . وورقة بخمسة دولارات تستطيع كسبه لجانبنا » .

كانت الساعة العاشرة مساء ، فى الثامن عشر من يناير ، عندما توغل الإخوة الثلاثة فى الحى الجنوبى من بوسطن وفى منعطفاته التى لا حصر لها . توجه ستيفن إلى المنطقة بين شارعى كانتون وكونكورد الغربى وهى كالغربال ، تختلط فيها جماعة من الأسبان والپورتوريكان والزنوج يعيشون فى بؤرة من الفقر والقذارة . طرق أبواب الفنادق الرخيصة والمقاهى الأرضية موجهاً دائماً السؤال نفسه : « هل رأيتم امرأة شابة ، عمرها اثنان وعشرون سنة . على وشك الولادة ؟ »

فجاءه الرد نفياً فى خمسمائة صنف . مدة يومين وليلتين تعثر فى الطرقات الوعرة

والسلالم المظلمة . التقى بآلاف من السكارى ، والمجرمين والقوّادين والمومسات والمتعطلين والمتشردين لكنه لم يجد أثراً لمنى .

ولم يكن چورچ أو برنى أسعد حظاً . بحثا بكل دقة وأمانة ولم يتركا موطئاً لقدم إلا فتشاه ، لكن دون جدوى . لم يتوصل أيضاً رجال هيوشى إلى نتيجة . قبضوا على عشرات من الفتيات ، بعضهنّ متقدمات فى الحمل ، لكن لم تكن منى فرمويل بينهن .

لما اجتمع المفتش بستيفن قال له : « نحن فى حاجة إلى فرصة أخرى ، ولا بدّ أن تأتى يوماً مع كل ما يعترضنا من عوائق . فلنستمرّ فى البحث » .

عين هيوشى ستة آخرين من المخبرين وعشرين شرطياً فى هذا الحيّ ، على حين ركز هو بحثه فى تجارة العقاقير المحرّمة فى إجراء الإجهاض .

قبض على ثلاثة صيادلة وهم يبيعون الأرجوتين دون أمر الطبيب ، وعلى سبعة من الأطباء الدجالين . كل ذلك عزّز من شهرة المفتش هيوشى وزاد من تشجيع الجمهور له فى أعمدة جرائد بوسطن . أما منى فرمويل فلم يعثر لها على أثر .

* * *

تجدّدت إجازة ستيفن مرّتين . فى الليلة الرابعة من البحث قرّر أنه لا يستطيع من الوجهة الأدبية أن يمكث طويلاً بعيداً عن عمله فى أمانة سرّ الكردينال . مرّة بينما هو يشرب قهوته مع چورچ وبرنى ظهر عليه الوجوم واليأس . أما چورچ ، وعيناه محمرتان من التعب ، فأمسك بجريدة « العالم » وطفق يقرأ العناوين ، ثم قال لستيفن :

— « إن صديقك أورسلّى يسافر غداً الساعة الحادية عشرة صباحاً » .

أورسلى ! هل هو بعد على قيد الحياة ، هذا الرّبان الإيطالى ؟

— « قد نسيت كل شىء عنه — قال ستيفن دون اكتراث — حتى إنى لم أتصل به فى الهاتف . أخشى أن أجرحه فى كبريائه الفلورنسية » .

فقال چورچ : « إن عقله الفلورنسى سيدرك كل شىء عندما تقول له ما كنت تفعله طوال هذه المدّة . — والآن أيها الرجال ، فإنى ذاهب إلى صيدلية هرمنديز لأسمع منه ما يردّدهُ علىّ كل يوم : " ليس من نبأ ، يا سنيور ". من يأتى معى ؟ »

سار ثلاثتهم فى شارع واشنجطون إلى الصيدلية الإسبانية .

فقال برنى لجورج : « أريد أن أشترى علبة سجاير . سأدخل معك » .

أما ستيفن وقد أضناه التعب فأسند ظهره إلى زاوية الشارع تحت المصباح . كل عضلة فيه ، كل عظمة ، كل خلية من مخه كانت تحنّ إلى الراحة والسكينة ، أوشك أن ينذر إلى العذراء المباركة الامتناع عن أكل اللحم مدة سنة إن استطاع العثور على منى ، وإذا ببرنى ينخسه فى مرفقه .

— « هيه ! ستيف ... ألق نظرة من النافذة . فى الداخل واحد من أصدقائنا » .

تطلع ستيفن من وراء الزجاج القذر ورأى رامون كونجارو فى صيدلية هرمنديز ، يتداول معه حديثاً سريًّا . كان هندامه أنيقاً جدًّا : قبعة من المخمل ، ومعطف من الشستر فيلد ، شارب يلمع وحذاء ذو كعب عال . وبالقرب منه على المكتب حقيبة طبيب . راقبه ستيفن فرآه يضع فى حقيبته بعض الزجاجات ، ويعطى هرمنديز بعض النقود ، ثم حياه تحية « الكابلّيرو » واتجه نحو الباب .

فتلقفه الإخوة الثلاثة . جذبه ستيفن من كتفه وقال : « كونجارو ، نريد التحدّث إليك . أنصحك بالسير معنا فى هدوء » .

تصنع كونجارو السخط وقال : « دعونى وشأنى . . . وإلاّ أخبرت الشرطة » .

أجاب ستيفن : « ستخبرنا أوّلاً » .

قادوا الراقص المرتعش إلى عطفة جانبية وانحدروا به نحو خطوط الترام — وأمسكه چورچ وبرنى من معصميه وكتفيه وألصقا ظهره إلى جدار المخزن . وقام ستيفن بالاستجواب .

— « أين منى ؟ »

اصطكت أسنان الإسبانى كالزهر فى يد اللاعب وقال : « لا أعلم . لم أرها منذ شهرين » .

— « أين رأيتها آخر مرة ؟ »

— « فى تروى — ثم افترقنا هناك » .

— « تعنى أنك أهملتها لأنها كانت على وشك الولادة » .

عزّ ذلك على شرف كونجارو الإسبانى وقال : « طلبت إليها أن تجرى

إجهاضاً — ثم خانته كبرياؤه الفنية — وعرضت عليها أن أجريه بنفسى » .

وإذا بقبضة چورچ تنفجر فى وجه الإسبانى : « يا ابن الحرام ! » — قذفت الضربة برأس كونجارو إلى الوراء ، فسقط على الحضيض .

— « عمل جميل — قال ستيفن — إن الشاهد الوحيد علينا غائب عن الوجود » .

وعند مدخل العطفة ظهر قوام شرطى ضخم ، وعصاه مرفوعة ، وظله منعكس تحت مصباح الغاز .

— « ما هنا ؟ »

فتقدّم ستيفن والابتسامة على شفتيه وياقته الرومانية تلمع وقال : لم يحتمل صديقنا برودة الجو ، يا سيدى الضابط . ولا يخفى عليك — فإن الروح نشيط وأما الجسد فضعيف » .

لما رأى الشرطى ياقة ستيفن الرومانية ابتسم وقال : « البعض يستطيعون حمله ، أما الآخرون فلا . أتريدون أن أحضر لصديقكم تاكسى ؟ »

— « هذا لطف منك ، يا سيدى الضابط » .

استدار الشرطى ثم تذكر شيئاً . « أظن أنكم سمعتم بالنبأ ؟ »

— « أىّ نبأ ؟ » .

— « توفى البابا . مات منذ ساعة . فلتسترح نفسه فى السماء هذه الليلة » .

عند هذا الخبر ، تردّد فى أذن ستيفن صوت جلينون يهدر قائلاً : « أين الأب فرمويل ؟ البابا توفّى ، وعرش بطرس خال ، والكرادلة من كل العالم يتوجهون إلى روما . يجب تحضير الحقائب وشراء تذاكر السفر ، وأمين سرى يتسكع فى الحىّ الجنوبى . ابحثوا عنه ، أحضروه حالاً ، فى ساعة من الزمن » .

فصلى ستيفن قائلاً : « أيها الملائكة وخدام النعمة حاموا عنى . لكن يجب أن أجد منى أوّلاً » .

رجع إلى أخويه الواقفين يائسين فوق الراقص المغمى عليه وقال : « فتّشاه . ربما كان معه بعض الأوراق التى تفيدنا شيئاً » .

زجّ چورچ يده فى جيب معطف كونجارو الداخلىّ وأخرج منه حافظة

ومفكرة صغيرة حمراء . وجد فى الحافظة بعض الصور الخليعة وعدة مئات من الدولارات ومجموعة من البطاقات الشخصية . وعثر ستيفن بينها على عشر قد كتب عليها :

الطبيب پمفيلو إيكاڤاريا
أخصائى
(على موعد محدّد)

كان رامون كونجارو وپمفيلو إيكاڤاريا شخصاً واحداً ! . . .

مسكينة منى ! . . .

فى هذه الأثناء كان چورچ يتفحص المفكرة الحمراء : أسماء وعناوين من كل بقعة . فرفع رأسه وقال فى يأس : « إن البحث فى هذه العناوين يتطلب ستة أشهر » .

— « انظر فى حقيبته فلا بدّ من وجود شىء فيها » .

كانت الحقيبة ملأى بالقمصان ذات الألوان الزاهية وربطات العنق وبعض زجاجات من الأدوية لم يكتب عليها شىء وخليط من الأدوات الجراحية . ربما يسرّ هيوشى بإحرازها كأدلة للإدانة ، لكنها عديمة الفائدة للإخوة فرمويل .

وإذا ببرنى يصيح : « هذه رسالة . وجدتها مجعّدة فى جيبه كأنه أراد التخلّص منها . إنها مكتوبة فى لغة أجنبية » .

تحت ضوء المصباح قرأ ستيفن الكلمات المتعرجة ، ثم ترجمها : « لا أستطيع إطعام العصفورة بعد الآن إذا لم ترسل لى عشرين دولاراً » . التوقيع : لاسكيز .

فقال چورچ ممتعضاً : « إنه يهوى العصافير » .

ثم تنبه ستيفن إلى نفسه وقال فى حماسة : « عصفورة ! إنه الاسم الذى اعتاد كونجارو أن يدعو به منى . قد سمعته يدعوها بهذا الاسم فى المرقص . هل كانت هذه الرسالة داخل ظرف ، يا برنى ؟ »

— « نعم » . وقدّم برنى إلى أخيه ظرفاً كتب عليه : « الطبيب پمفيلو إيكاڤاريا ، توزيع مكتب البريد بوسطن » . نظر ستيفن إلى ظهر الغلاف عله يجد عنوان المرسل . فلم يجد حرفاً واحداً . كان كاتب الرسالة حذراً جدّاً فلم يترك أثراً ينم عليه .

– « سدّت علينا الطرق – قال ستيفن – عدم فى عدم » .

– « لحظة ، يا ستاف » . كان چورچ يحاول جمع الأدلة بين يديه : « إن توقيع الرسالة : لاسكيز . والآن إذا استطعنا العثور على اسم لاسكيز فى المذكرة الحمراء . . . » وجرى بإصبعه على حرف اللام . – « لابيانو ، أولبانى ، يورك الجديدة . . . » – « لنجستين ، رتشموند ، ڤرچينيا . . . » ثم قفز يصرخ : « بحق السماء ، هوذا لاسكيز ، والاسم : جيومير » .

– « هل من عنوان ؟ »

فقال چورچ وهو يطوى المفكرة : « عطفة ستانهوب رقم ٥ بوسطن . – يا لها من فرصة ، يا ستافى » .

وإذا بنفير تاكسى قد رنّ عند رأس الطريق : « هل أنتم الذين طلبتم تاكسى للسكران » .

– « تعال » صاح ستيفن . رفع الإخوة الثلاثة كنجارو وقذفوا به داخل التاكسى . وأعطى ستيفن وجهته للسائق : « رقم ٥ عطفة ستانهوب » .

مع هزّات التاكسى ، استفاق كونجارو وقال وأسنانه تصطكّ : « إلى أين تذهبون بى ؟ »

– « إلى منزل لاسكيز ، » أجاب ستيفن .

ثم لكز چورچ كونجارو فى خصره وقال : « إذا اتضح أنه ليس المكان ، فسنعيد الكرّة ثانية » .

وقف التاكسى عند آخر بيت أمام ساحة فضاء . وقال السائق : « هذه هى الزريبة . وأعنى ما أقول . هل ستتأخرون ؟ »

– « انتظرنا » قال ستيفن .

جرّ چورچ وبرنى كونجارو من التاكسى ودفعاه أمامهم كرهينة وصعدا الدرج الحديدى فى حين جرّ ستيفن حبل الجرس وطرق الباب .

– « من الطارق ؟ » كان الصوت ، صوت امرأة .

ركل چورچ بركبته كونجارو فى خصره وهمس فى أذنه : « تكلم » .

– « هو أنا » ، الطبيب بمنيلو » . قال كونجارو بالإسبانية .

— « آه ! يا دكتور ! » وسحبت السنيورا لاسكيز المزلاج . « كم أنا مسرورة بمجيئك » . وفتحت الباب قيد أنملة : « الحالة سيئة مع العصفورة . . . »

ضاعت كلماتها وسط هجوم رجال غرباء اندفعوا داخل المنزل . أبصرت السنيورا لاسكيز اثنين من الغرباء يقذفان بالطبيب بمفيلو على الأرض ويجلسان عليه ، فى حين أن الثالث ، وقد ظهرت حول عنقه ياقة كاهن كاثوليكى ، يمسكها من فتحة قميص نومها القذر ويصرخ فى وجهها بصوت رهيب : « أين العصفورة ؟ »

فشهقت جوسى : « فى الدور الثالث ، إلى الخلف » .

قفز ستيفن الدرج العارى أربعاً أربعاً وهو يصيح : « منى ، منى ، أين أنت يا حبيبتى ؟ »

فى الدور الثالث ، أرهف ستيفن سمعه فى ظلام تكسوه رائحة حادة تخفى فى طياتها عنصر الموت . وسمع فى آخر الممر أنين امرأة . دفع الباب وهناك على فراش قذر فى حجرة باردة رطبة ، رأى منى نصف عارية . كانت تتلوى كحيوان مجروح أضناه الركض ، ورأسها يميل ذات اليمين وذات اليسار فى نزاع مع الألم . فى لحظة كان بجانبها وطوقها بذراعيه .

— « منى حبيبتى ، أنا ستيفن ، لا تخافى » .

توسلت إليه فى نزاعها ، وصرير أسنانها ينبئ بأكثر : « ستيڤى ، لم أعد أطيق . أخرجنى من هنا » .

فرفعها فى يديه وانتزع غطاء ممزقاً ولفها به : « تمسكى بى يا منى . سنخرج بسرعة » . ثم تلمس طريقه فى الظلام ونزل إلى البهو .

اندفع نحوهما چورچ وبرنى كالريح ، يحتضنان منى ، ويزاحمان ستيف ، باكيين ضاحكين من فرحة لقائهما أختهما الصغيرة ، وانكبا عليها يقبلانها . فافترت شفتاها الجافتان عن ابتسامة وقالت : « كنت أعلم أنكم ستجدوننى » .

ثم أخفت وجهها فى صدر ستيفن لما رأت كونجارو وجوسى .

فقال ستيفن لجورچ : « سلم هذين الاثنين إلى هيوشى . سأذهب بمنى إلى المستشفى » .

حمل الإخوة منى ونزلوا بها ورفعوها داخل التاكسى .

وصرخ ستيفن فى السائق : « إلى المستشفى العمومى ، وبسرعة » .

* * *

كانت الرحلة إلى المستشفى مرحة ورهيبة معاً . ضم ستيفن منى إلى صدره وهو يهمس باسمها ليخفف عنها آلامها . غشيتها سحابة من الأوجاع فطفقت تهذى . أحياناً تتلمس يدى ستيفن حولها ، وأحياناً تسرد ذكرياتها وهى طفلة : هضبة الهلال . . . التدحرج على الطريق المنحدر . . « سأتعلق بلك ، يا ستيڤى » . . النط على الحبل فى شارع مود . . اليد الخشبيةالضائعة . . . « أيها القديس أنطونيوس، عزيزى ، ساعدنى على إيجادها » .

انقشعت السحابة فعادت منى إلى رشدها وقالت فى خجل : « ستيڤى ، أتعرف أين يوجد تمثال القديس أنطونيوس فى الكاتدرائية ؟ »

« نعم ، يا عزيزتى . ماله ؟ »

فأسندت منى رأسها إلى كتف ستيفن : « إنىمدينة له بخمسة سنتات ثمن شمعة . ادفع له لأنك وجدتنى . أتريد ! أتعدنى ؟ . . »

فوعدها ستيفن . وأخذ يلاطفها ويجاملها فهدأت روحها ، لكنها كانت فى شبه غيبوبة عندما حملها وصعد بها درج المستشفى .

أخذ الموظف المختص استمارة وشرع يكتب المعلومات الضرورية فى مثل هذه الحال وسأل ستيفن : « اسم وعنوان المريضة ؟ هل هى حامل للمرة الأولى أو . . ؟ »

اختطف ستيفن الاستمارة من يد الموظف وصاح فيه : « ادع سريعاً الطبيب المختص وأرسل هذه المرأة إلى غرفة الولادة » . فانتصب الموظف مرتعداً وشرع يدير عجلة العمل بسرعة فى مستشفى حديث كامل العدة . وجاء طبيب مساعد وجرّ منى إلى المصعد . وأمام حجرة الولادة استقبلتها ممرضة يضىء محياها بالبشاشة والذكاء .

— « سنعنى بها ، يا أبى . لاتشغل بالك . كل شىء سيتمّ على ما يرام » .

ارتمى ستيفن على كرسىّ حديدىّ أبيض كان فى الممرّ ورفع قلبه إلى الله بآيات الشكر .

ثم خرج من حجرة الولادة طبيب يكبر ستيفن قليلا فى السن ، تتدلى على صدره سماعة . ودلّ حذاؤه الأبيض ومعطفه المنشى ، ورأسه المرفوع على أنه من

الأطباء الأوائل الذين تخرجوا فى مستشفيات الدرجة الأولى .

فقدّم نفسه : « الطبيب پاركس ، الجراح المختص . هل هذه المرأة تمتّ إليك بقرابة ؟ »

— « إنها أختى » .

كان الطبيب پاركس على ما يظن خريج هارڤرد ، فقال دون تصنع : « بعد التشخيص أرى أن أختك فى حالة خطرة . إنها على ما يظهر قد عانت ألم الوضع منذ عدة أيام . وحاولت أيد قذرة مراراً إخراج الجنين . ولا عجب أن هذه المحاولات قد باءت كلها بالإخفاق — وهنا توقف الجرّاح هنيهة لينتقى كلماته الأخيرة — والسبب فى ذلك ، من الوجهة الطبية ، أن الولادة العادية مستحيلة فى هذه الحال » .

— « ولماذا هى مستحيلة ؟ »

كان الطبيب پاركس ينفر من شرح هذه الأمور . كيف له أن يوضح أسرار عالم الولادة إلى غير الملمين بها ؟ مع ذلك فقد حاول جهده وقال : « إن تكوين المهبل عند المريضة غير مكتمل النموّ والفتحة صغيرة جدًّا . ورأس الجنين أكبر من المألوف عادة وهو فى وضع منقلب » .

ظن ستيفن أن الصورة قد وضحت فى مخيلته فقال : « ألا تستطيع إجراء عملية قيصرية ؟ »

هزّ الطبيب پاركس رأسه الأشقر نفياً : « إن أختك جاءت بعد فوات الأوان . إنها فى هبوط بسبب فقدان دمها . وضربات قلبها تدلّ على إجهاد كبير . والكلى لا تقوم بعملها جيداً . فالعملية الجراحية فى هذه الحال ستقضى عليها » .

— « ماذا ترى إذن ؟ »

فحدجه الطبيب الأنجلو سكسونى بعينيه الزرقاوين وقال : « أرى وقف آلام الوضع بتحطيم رأس الجنين » .

أجاب ستيفن : « لكن ذلك جريمة قتل » .

فقال الطبيب پاركس فى حدة : « إنى لست كاثوليكيا ولست مضطرًّا أن أعتنق نظريتك فى هذا الشأن ، أيها الأب . وأقدر القرار الرهيب الذى ستتخذه . لكن إذا لم تعطنى تصريحاً بتحطيم الجنين . فلا شىء يجدى فى إنقاذ أختك . الأمر هو :

حياتها مقابل جنين لم يولد بعد » .

فتشبث ستيفن بكرسيه وصلى قائلاً : « يا يسوع . ومريم وماريوسف ، ساعدونى ! »

ردّد السقف صدى كلماته وعاد إليه بأمر الله فى الوصية الخامسة : « لا تقتل » هذا الأمر الصريح الذى يربط الجميع ، دون استثناء الأطباء والجراحين . لا مكان هنا للحكم الفردى ولا مساومة فى المقارنة بتقدير ثمن حياة مقابل أخرى . فى نظر الخالق لم ترتبط قيمة الحياة البشرية بمراحل تطوّرها . الأم وجنينها غير المولود سواء فى نظره تعالى . ولا يحق لإنسان أن يقرّر إبادة الواحد لإنقاذ الآخر . إن من يتخذ قراراً مثل هذا يغتصب حقاً يخص الله وحده .

ألقى الطبيب باركس نظرة إلى ساعته وقال : « يجب أن تتخذ قرارك حالاً ، أيها الأب » .

تحطّمت إرادة ستيفن تحت وطأة اليأس والجزع . وسرحت به مخيلته فى نزعات ثوريّة وتقاذفته أفكار التمرّد والعصيان . أمن المعقول أن يتخلى عن منى ويدعها تموت . فى حين أن كلمة واحدة ، بل إشارة فقط بالقبول ، تستطيع إنقاذها ؟ ألا يحق للحب الإنسانى . مع تخبطه الأليم الشقىّ وتنازعه عوامل البقاء وتعلّقه بخيوط الخيال والأمل ، ألا يحق له التوسل وطلب الشفقة فى ظروف استثنائية ؟ أمن المكابرة أن يتوسل إلى الله ، ويقول له : « ارفع أمرك الرهيب هذه المرة فقط ، يا رب » ؟

— « ما قولك ؟ » سأله الطبيب باركس ثانية .

سقط هذا السؤال على ستيفن كقطعة من حديد ، فعاد إلى رشده . إن تعليمه الكهنوتى وإيمانه العميق بالكنيسة الكاثوليكية أخضع كيانه كلّه إلى الثقة التامة بإله كله حكمة وكله معرفة وكله رحمة . أحنى ستيفن رأسه وخضع لإرادة الله الموضحة فى الوصية الخامسة والمذكورة فى الحق القانونى الكنسىّ .

فقال : « لا سلطان لى لأسمح بالقتل » .

جال فى خاطر الطبيب باركس وأوشك أن يقول : « أنتم أيها الكاثوليك تحيروننى » . لكن ذوقه السليم منعه من ذلك . فاقترح قائلا : « هل تريد أن ترى أختك ؟ »

في حجرة الولادة انحنى ستيفن على منى فى غطائها الأبيض . كان وجهها منقبضاً متوهجاً بالدم ، وتنفسها بطيئاً يخرج لاهثاً بين أسنانها . وشعرها الرائع يوماً أصبح كتلة ملبدة قذرة نصفها أصفر فى لون الذهب والنصف الآخر أسود . زاد هبوطها من جراء ألم المخاض الذى أضناها فغابت عن وعيها .

— « أسرعى بالأوكسجين » ، أشار الطبيب پاركس إلى الممرّضة فى هدوء تام — إن واجبه يملى عليه الاحتفاظ بحياة الجسد أطول مدّة ممكنة ، وبكل وسيلة .

وستيفن أيضاً مرتبط بواجبه ، واجب رهيب يسمو على فناء الجسد ويرتفع إلى حياة الروح التى لا تموت . إن شوكة الحزن وتأنيب الضمير لن يمنعاهُ من القيام بواجبه الكهنوتى الأخير نحو أخته . فقرّب رأسه من رأس منى وقال فى همسة خفيفة :

— « قولى فعل الندامة من كل قلبك يا حبيبتى » .

فرفعت منى نظرها إلى أخيها وحاولت مطيعة أن تتكلم . لكن شفتيها تحرّكتا دون أن تأتيا بصوت .

— « ثقى بى ، مُنَيّتى ، لن أتركك وحدك . حاولى جهدك . قولى الكلام بعدى » .

لفظت منى الكلمات الجوهرية فى زفير وأنين : « إنى نادمة . . . من كل قلبى . . لأنى أهنتك . . . يا ربى ! . . . »

بينما كان ستيفن يمنحها الغفران عن خطاياها ، إذا بالطبيب پاركس يرفع سماعته عن صدرها ، فقد توقف قلبها .

وأسرع الجراح إلى عدّته وقال لستيفن : « لدىّ ثلاث دقائق فقط لأنقذ الجنين . الأجدر بك أن تخرج يا أبى . فالمنظر لن يكون جميلاً » .

خرج ستيفن واتكأ على جدار الممر . قد أدّى واجبه الكهنوتى بكل دقة كما نذر . وقف وقد غشيه جزع مميت وهبوط فى قواه . خطر له أن يرتمى على الأرض ويضرب رأسه على إفريز الخشب . تنازعه الألم والقنوط والحزن وطفقت شفتاه تردّد كلمات مبهمة يائسة . وإذا به يسمع عويلاً حادّاً كصوت بوق حزين : إنها بشرى حياة جديدة حققت دخولها إلى العالم .

ظهرت الممرضة فى إطار الباب وفى يدها شىء ملفوف بغطاء أبيض وقالت : « إنها طفلة صغيرة . ويقول الطبيب إنها ستعيش » .

* * *

فى قصر الفاتيكان ، فى غرفة من الطابق العلوى ، ركع اثنا عشر كردينالاً من الحاشية الرومانية ورنّموا المزمور : « من الأعماق صرخت إليك يا رب » . ولما أتمّوا ترتيل المزمور الرهيب إذا بأسقف يبدو عليه من لونه البنى وتقاطيع وجهه كمنقار الصقر أنه من سلالة الصقلّيين ، قد تحامل على نفسه ببطء وانتصب واقفاً على قدميه وتقدم من سرير ذى أعمدة تغطيه ستائر ، ورفع بيده اليمنى مطرقة صغيرة من الفضة ، وفى تردّد واحترام طرق بها جبهة البابا بنديكتوس الخامس عشر الراحل ، وقال فى همسة : « يواكيم ! » داعياً الحبر المتوفّى باسمه فى المعمودية . ثلاث مرات طرق جبهته معيداً اسمه فى كل مرة . ولما لم يسمع جواباً ، التفت إلى جماعة الكرادلة فى حزن شديد وقال لهم معلناً :

« أيها السادة الأجلاء . قد خلا كرسىّ بطرس . بالحقيقة مات البابا » .

وفى الحال سجّل كاتم الأسرار البابوى محضر وفاة بنديكتوس وعرضه على جماعة الكرادلة ليوقعوا عليه . كان أول من وقع عليه الأسقف ذو المنقار كالصقر ، الكردينال پيترو چيا كوبى ، بصفته نائباً عامّاً ، يعود إليه الإشراف الكلّى فى تسيير دفة الأمور فى الفاتيكان مدة فترة الانتقال حتى ينتخب البابا الجديد .

ثم عيّن فريقاً من الحرس النبلاء لحراسة مخدع البابا ، وتوجّه إلى حجرة مجاورة حيث كسر خاتم وختم البابا بنديكتوس . ولما أتم هذه المراسيم الرمزية أرسل النائب العام إلى جميع كرادلة العالم يخبرهم بوفاة الحبر الأعظم ويأمرهم بالاجتماع فى روما لينتخبوا خلفاً له .

. . .

ليس بين الكرادلة الذين تسلموا مذكرة النائب العام وأوامره ، من اضطرب أكثر من الكردينال لورنس جلينون ، الذى وإن بدا حزنه على الحبر الراحل خفيفاً لعدم معرفته الوثيقة به ، مع ذلك فقد تأثر جداً من هذا النبأ . فتوجه إلى معبده الخاص ليخفّف من اضطرابه ورفع نفسه بالصلاة والتأمّل الهادئ . جلبت الصلاة إلى نفسه

قليلاً من التعزية . أما تأملاته فقد زادت من حدّة مزاجه .

لم يفت الكردينال من مجرى الأمور السالفة وخبرة الأيام السوداء أن كاثوليك الولايات المتحدة سيضامون فى حقوقهم . بعد عشرة أيام سينتخب البابا الجديد ، وفى هذا الانتخاب أيضاً ، سيهمل الكرسىّ الرومانى ما يقرب من عشرين مليوناً من الكاثوليك الأمريكان ، ومن بينهم جلينون .

لم يصعب على جلينون الاعتقاد بأنه لا مجال للعصبية الوطنية فى انتخاب نائب المسيح على الأرض . فالأب الأقدس بصفته رئيس الكنيسة الكاثوليكية جمعاء ، يجب أن يسمو على الحدود الوطنيّة . لكن إذا كانت الكنيسة جامعة حقًّا (وهذا بالذات موضع اضطراب جلينون) فلماذا إذن يتضاءل تمثيل أمريكا فى المجمع القادم ؟ من بين الستين كردينالاً المعتمدين لدى المجمع المقدس ما لا يقل عن خمسة وثلاثين كردينالاً إيطاليًّا . أما من الأمريكان ، فاثنان فقط . وهذه النسبة مجحفة جدًّا فى حقوق الأمريكان . مع ذلك فما يحدث سيكون أكثر إجحافاً : سيلتئم المجمع المقدّس قبل أن يستطيع الكردينالان الأمريكيان الوصول إلى روما .

قد حدث ذلك من قبل وشعر جلينون أن ذلك سيحدث هذه المرّة أيضاً .

إن التشريع الرسولى قد حدّد وجوب عقد المجمع المقدّس فى مساء اليوم العاشر بعد موت البابا . ونادراً جدًّا استطاع الكرادلة الأمريكان عبور الأطلسى ليدلوا بأصواتهم فى الوقت المناسب . مع محبة جلينون لروما بصدق وإخلاص ، ككل كاثوليكى ، مع ذلك ، فقد حرّك فى نفسه تجديد هذا الظلم فى المجمع المقبل مرارة العلقم . ليس معنى هذا أن شفتيه قد زلتا بكلمة معارضة ! كلا ! فإنه قد كتم غيظه مدة سنوات طويلة . لكن الأمر واضح : فأمريكا ، ذلك البلد الذى يقوم بأثقل الأعباء المادية لمساعدة الأب الأقدس ، تُمنع فى الواقع من حقها فى الإدلاء بصوتها لانتخابه .

حثّ جلينون إيمانه الكاثوليكى القوى إلى الاعتقاد بأن إرادة الله التى تعمل بواسطة مجمع الكرادلة المقدّس ستظهر جليًّا (ربما بصورة لا يدركها البشر) فى انتخاب خلف لبطرس . لا فرق فى من يُعقد على رأسه التاج المثلث : إنه من

اختيار الله . أما قبول لورنس جلينون هذه الحقيقة فلم يضطره مع ذلك إلى أن يخضع لها ذليلاً . بصفته كردينالاً ناخباً قد عدّ نفسه على قدم المساواة مع أيّ كردينال إيطالى ليتكلّم باسم الرب . وإذا كان يحق له لاهوتيًّا أن يعتبر نفسه آلةً للتعبير عن إرادة الله . فقد كان لدى نيافته آراء ثابتة محدّدة بشأن الحبر الذى سيخلف الصيّاد على عرشه .

كان مرشح الكاردينال المفضّل . صديقه القديم ميرى دلفال . أمين سرّ الدولة السابق . ما أعظمه بابا ، ميرى دلفال هذا ! . . . تخيل جلينون نفسه فى المجمع المقدّس يناور سرًّا لكسب الأصوات لمرشحه . أقنع الوفود الفرنسيّة والإرلندية والإسبانية والأمريكية الجنوبية . وبدأت الكتلة الإيطالية تنقسم على ذاتها وانفصل بعض أعضائها . وطفق جلينون يعدّ الأصوات على أصابعه .

لم يكد يلمس إبهام يده اليسرى حتى ظهرت له حماقة هذا العمل . ها هو ذا جالس هنا فى بوسطن ينتخب حبر أحلامه على حين أن واجبه الأول هو حزم حقائبه والسفر إلى روما . ما هذه السخافة ! . . .

ولكن ! . . . سباق السلحفاة هذا عبر أربعة آلاف من الأميال فى الأطلسى ، ليصل إلى المجمع وقت انتهائه ، أليس سخافة أيضا ؟ . . .

حثّه التواضع على السفر إلى روما ، لكنه تراجع خوفاً من المذلة ! . . .

خرج الكاردينال من معبده أكثر اضطراباً مما كان حين دخله . فى حجرة البرج رأى كاتم الأسرار يجرّ حقيبة كبيرة جدًّا . كان وجه ستيفن مكفهرًّا مخيفاً ... ظن جلينون أنه يشبه القديس أنطونيوس خارجاً من الصحراء . ربما يكون متأثراً من موت أخته . إنه لا شك يلوم نفسه . ما أصعب قراره ! لكن لم يكن من ذلك بدّ . تضاربت هذه الأفكار فى مخيلة جلينون وأسقط فى يده . ولم تزل أمامه أمور هامة تستحثه . فقال لستيفن :

— « بلّغ النائب العام وحافظ الأختام سپيد أن يحضرا إلى هنا حالاً للمداولة . وأريدك أنت أيضاً بينهم ، أيها الأب فرمويل » .

اجتمع مستشارو الكردينال حول مائدة الطعام وكانت الساعة العاشرة . فقال الكردينال وهو ينظر إلى جريدة « العالم » مطويّة بين يدى مايك سپيد : « أرى

أنكم تعلمون النبأ المفجع . مات بنديكتوس ، فليرح الله نفسه . وبرقية الكردينال النائب تثبّت الأمر رسميًا . قد شغر عرش بطرس وأغلب إخوانى الكرادلة فى طريقهم إلى روما » .

كان الكردينال يبغى من وراء ذلك معرفة آراء مستشاريه . ومستشاروه مثله كانوا ينتظرون منه فكرة واضحة عما يجب فعله فى مثل هذه الحال . فمكثوا صامتين حتى يتكلم جلينون مرة أخرى .

ـ « إن امتياز حضور المجمع المقدس لمن أعظم الامتيازات فى السلك الكردينالى . وأودّ من كل قلبى أن أقوم باستعمال حق هذا الامتياز ـ كان جلينون يتعمّد الإبهام ـ مع ذلك فإنى متردّد فى القيام بهذا السفر » .

سأله النائب العام : « ولماذا تتردّدون ، يا صاحب النيافة ؟ »

لم يستطع جلينون الإشارة أو التلميح فقط بالعصيان نحو روما ، حتى أمام مرؤوسيه الذين يثق بهم كل الثقة . فشرح موقفه بكلمات تمتّ إلى الزمان والمكان : « إن المجمع المقدّس سيفتتح بعد عشرة أيام . وروما تبعد أربعة آلاف ميل . والسؤال هو هذا : كيف يمكننى الوصول إلى هناك لأدلىَ بصوتى ؟ »

حاول ستيفن فهم الأمور مجرّدة ، لكنه وجد ذهنه فارغاً ، بطيئاً لا حركة فيه ، تغطيه سحابة من الألم والحزن . فطرق أذنه اقتراح قدّمه مايك سبيد . « تستطيعون يا صاحب النيافة إرسال برقية إلى الكردينال النائب وتسألونه مهلة يومين أو ثلاثة ؟ »

فأجاب جلينون ساخراً : « الاقتراح جميل ، لو لم يكن الكردينال النائب هو چياكوبى . ولسوء الحظ ، أن العلاقات بينى وبين السيد الكردينال النائب تسودها البرودة أكثر مما تتّسم بها المفهومية . لو طلبت مهلة لجاء ردّه مطابقاً لما فعله فى المجمع المقدس الأخير ، حيث كان چياكوبى كردينالاً نائباً فى ذلك الوقت أيضاً . هل تتذكرون ما حدث ؟ » ـ وهنا قذف جلينون بإبهام قبضته فوق كتفه كما يفعل حكم البيسبول فى حكمه على لاعب أخطأ الهدف ، وقال : « قد عقدوا الاجتماع دونى » .

سرت ذكريات تلك الإهانة فى دم جلينون فاستطرد للقول : « أتستغربون أنى

أتردّد فى القيام بسباقٍ عبر الأطلسى والبحر المتوسط أيضاً ، حتى أسمع حين دخولى المجمع المقدس صوت چياكوبى يتمتم فى سخرية : « قد أتيت متأخراً أيها السيّد الكردينال » .

والتشريع يقضى أيضاً أن يحتفظ جلينون سرًّا ، خارج المجمع المقدّس ، بآماله وميوله فى ترشيح صديقه ميرى دلڤال . كان هذا دافعه القوى إلى السفر ، لكنه لم يستطع ذكره . فنقر بأصابعه على المائدة محاولاً جرّهم إلى الحديث وقال : « هل يستطيع أحد منكم أن يقدّم لى سبباً عن وجوب ذهابى إلى روما ؟ »

أخذ حافظ الأختام مايك سپيد على عاتقه مهمة توضيح الأمور : « سيكون السفر عسيراً شاقًّا ، وربما تصلون متأخرين يا صاحب النيافة . بل ربما تتعرّضون لسخرية الكردينال النائب . لكنى أرى أن هذه الظروف المؤلمة لا تعفيكم من ضرورة السفر لسببين : الأول بالنسبة لواجبكم المقدّس . والثانى بالنسبة لعشرين مليوناً من الأمريكان الكاثوليك » .

لم يشك جلينون فى صدق كلام حافظ أختامه ، فقال له : كلماتك مشجّعة ، يا مايكل » .

ثم استطرد لقوله هازئاً : « الآن وقد بينت لى واجبى ، هل تستطيع إرشادى إلى وسيلة أتمكّن بها من الوصول إلى روما ؟ هل أطير عبر السماء فى منطاد أو أنتقل إلى المدينة الخالدة كالأرواح الخفيفة ؟ »

— « إن البواخر لا تزال تبحر من بوسطن يا صاحب النيافة » . ثم فتح مايك سپيد الصحيفة التى بيده وبحث فيها عن إعلانات السفر : « البواخر المغادرة ميناء بوسطن . . . " ناروميبجا " من شركة الأطلسى الملاحية ، تسافر غداً ظهراً » .

— « أعرف الباخرة تماماً — قاطعه جلينون — إنها لا تعدو أن تكون مركباً صغيراً . ثلاثة عشر يوماً إلى نابولى . كلا ، أشكرك يا مايكل . لو اضطررت إلى التأخير ، فالأفضل أن أتأخر براحة ودون عناء » .

فابتسم حافظ الأختام وعيناه تبدى أسفاً : « يالسوء الحظ ! قد فاتك " الستر ومبولى " . قد أبحر هذا الصباح فى الساعة الثامنة والنصف » .

سمع ستيفن ، وهو لا يزال بعد فى سحابة أفكاره ، اسماً مألوفاً يطرق سمعه .

فقال فى لهفة : « السترومبولى . إنها باخرة أورسلّى الجديدة » .

— « ومن يكون أورسلّى هذا ؟ » سأله الكردينال .

— « صديق لى قديم . لقد ضرب الرقم القياسى فى عبور الأطلسى . عشرة أيام من ناپولى إلى بوسطن » .

« عشرة أيام ؟ » وارتفع صوت الكردينال بالأمل لكن الحقيقة الواقعة خفضته فقال : « لكنه قد أبحر الآن » .

وجد ستيفن فجأة الكلمات تتسارع على شفتيه : « لو أرسلنا برقية إلى أورسلّى، فربما يخفّف من سرعة باخرته من أجل سيادتكم » .

— « هل لربّان السلطة لفعل ذلك ؟ » سأله جلينون ولَفَظَ كلمة « السلطة » بشدة متعمّداً .

— « نستطيع سؤاله » . وانتصب ستيفن على قدميه : « هل أحاول ؟ »

وانتصب أيضاً جلينون مستعداً للمغامرة وقد حفزته فرصة من يغامر بأن فى استطاعة كردينال أمريكى الوصول إلى المجمع المقدّس فى الوقت المناسب ، وحثّ ستيفن بشدة : « حاول ، حاول بكل وسيلة لديك ، يا ستيفن . أرجُ صديقك أورسلّى أن ينتظرنا . لا ضرورة أن يعود على أعقابه . سنلحق به بطريقة ما » .

انفرد قوام جلينون كالقائد فى المعركة لعلمه بأنه سيواجه چياكوبى فى المجمع المقدّس ، واستدار بخفة نحو مساعديه :

— « أنت ، يا مايك ، اهتمّ بأوراق اعتمادى وبجواز سفرى الدبلوماسى . أحضر خمسة آلاف دولار نقداً وإذناً بالتحويل على المصرف — وأنت يا ڤنسنت ، ضع حوائجى فى حقيبة مستقلة واحدة . أريد فقط معطفى الأحمر الكبير ، وقميصى الدنتلا الصغير ، وجبّتى الحمراء . سأقترض الباقى من ميرى دلڤال — وأنت يا ستيفن لا تترك الهاتف حتى تحصل على مكالمة مع السترومبولى . ثم جهز حقيبة لنفسك فسآخذك معى إلى روما كمساعدى » .

بعد خمس ساعات ، ذاق فيها ستيفن مرّ العذاب والإجهاد ، اقتربت سفينة خفر السواحل « الدب الأنيس » (دولبير) ، بقيادة « كوفى ماك كرير » الذى كان له أخ كاهن فى نيوتن الغربيّة ، وحاذت السترومبولى وهى تسير ببطء بالقرب من « رأس القد » .

من على ظهر « الدب الأنيس » تراءت لهم الباخرة سترومبولى كأنها صخرة عالية فتحت فى جوانبها نوافذ مضيئة . وقبلما يسأل جلينون عن إمكان الصعود إليها ، إذا به يرى يداً ضخمة قد امتدت من أعلى هذه الصخرة ممسكة بكرسىّ من حديد أخذ يتمايل نزلا كالعنكبوت على سلك رقيق .

تفحّص جلينون هذه الآلة باهتمام بالغ وقال : « إنها طريقة عمليّة وطريفة ، من يصعد أولاً ؟ »

فقال القائد ماك كرير : « فى شريعة البحار : الأعلى رتبةً هو الأخير حركة » .

فقال جلينون : « إنى معجب بتشريعكم . لكن ألا يكون كسباً للوقت — ونظر إلى ستيفن يستلهمه — أن نصعد معاً » .

وهكذا صعدا فعلاً : الكردينال جالس كطفل كبير أصلع الرأس فى حضن ستيفن . وارتفع بهما الكرسىّ متمايلاً فوق « الدب الأنيس » ، يجره مرفع كهربائى . « كسمكة فى زنبيل » كما وصَفَ جلينون ذلك المشهد .

كان الرّبان أورسلّى فى استقبالهم على سلم باخرته :

— « أهلاً بالشيطان الصغير ! » صاح أورسلّى وهو يفرك يد ستيفن : « قد انتظرتك خمسة أيام فى بوسطن لأراك ، ولم تأتك الفكرة إلا فى اليوم السادس » . ثم لاحظ أورسلى اصفرار ستيفن فقال : « ماذا صنعت بنفسك ؟ لا بأس . إن شمس بحرنا المتوسط ستزيله » .

رفع الربان قبّعته المطرزة ذهباً فى حركة مستديرة عظيمة ، عندما قدّمه ستيفن إلى الكردينال : « لى الشرف بوجودكم على باخرتى ، يا صاحب النيافة » . فمدّ له الكردينال يده شاكراً: « إنك كريم جدّاً ، أيها الرّبان ، إذ تفضّلت علينا بانتظارنا» . ولما انحنى أورسلى ليقبل يد الكردينال مانعه نيافته ونزع من إصبعه خاتم اللازورد المطعم باللآلئ ودفعه إلى يد أورسلّى قائلاً :

— « إنه عربون لتقديرى ، أيها الرّبان أورسلى . إن الأب الأقدس نفسه سيعلم بكرمك نحو أبرشية بوسطن » .

ثبت للفلورنسىّ من نظراته الخبيرة أن خاتم الكردينال هو أروع جوهرة قد

يحلم بالحصول عليها . فقال فى دهشة : « أشكرك ، يا سيدى الكردينال » . ونقل بصره فوقع على نظر ستيفن . لم يعتبر الرّبان ولا الكاهن الوقت الحاضر مناسباً ليقتسما مداعبتهما أمام الكردينال .

* * *

أخضع أورسلّى باخرته لتجربة رهيبة ، حتى يكتسب الوقت الضائع . فبعد مضى أربع وعشرين ساعة أشارت لوحة المقياس إلى أن المسافة بين السفينة ورأس القدّ قد ضربت الرقم الأقصى : ٦٦١ ميلاً بحريًّا . ولما سأله الكردينال : « هل تعتقد أننا سنصل إلى المجمع المقدّس فى الوقت المناسب ؟ » أجاب أورسلّى فى ثقة تامة : « إما نيافتكم ستلقون بصوتكم فى الكنيسة السستينية وإما سينفجر محرّك الستر ومبولى » .

كان ذلك قبل هبوب العاصفة .

فعلاً ، هبت عاصفة هوجاء تصفر صفيراً هائلاً من الشمال الشرقى وقذفت بباخرة أورسلّى كما تفعل بمركب صياد صغير . تعالت الأمواج فوق ظهر الستر ومبولى وتراكمت وتطايرت رغوتها وتناثرت على لحية الرّبان وهو يحاول الخروج من هذا الرذاذ العاصف . كان أورسلّى قائداً قاسياً جسوراً لكنه لم يغامر بالفرص الشاذة . إنه وإن خفف سرعة الباخرة إلى النصف فهذا لن يمنع باخرته من أن يُقصم ظهرها تحت ثقل هاتيك الأمواج العاتية . قدّر أورسلى من الرذاذ المتجمد على لحيته ، وجود جبال الثلوج العائمة على مقربة منه . فقرّر والأسى يعصره الخفض من سرعة الباخرة ، ثم جرع كثيراً من القهوة الثقيلة السوداء وعزم على التمتع بما سيجىء به القدر من وراء هذه العاصفة .

كان أورسلّى واثقاً من أن باخرته الجديدة ستتغلب على العاصفة . لكن كل رجّة وكل قفزة وكل غطسة تأتى بها السفينة كانت تهدّد الوعد الذى قطعه أورسلّى على نفسه أمام الكردينال . لو استمرت العاصفة أكثر من أربع وعشرين ساعة ، فسيدخل الستر ومبلى نابولى متأخراً جدًّا . فنفخ الرّبان فى لحيته المتجلدة ولعن الحظ الذى منع باخرته من التقدّم ثلاثمائة ميل فى اليوم .

صعد ضابط فى معطف أصفر من المطاط وقدّم إلى أورسلى النشرة الجويّة :

« رياح عاصفة سريعة تستمرّ مدة ثمان وأربعين ساعة . جبال من الثلج تظهر جنوبى خط عرض١٥° . الجوّ صحو وهادئ شرقىّ جزر الآزور » .

مزّق أورسلّى النشرة قطعاً أربعاً ونثرها فى الهواء إلى الجهات الأربع ، وصاح : « ما هذا الهراء "الجو صحو شرقىّ جزر الآزور " ! — الجوّ صحو شرقىّ جهنم أيضاً . لا شك فى ذلك . هل هذا يساعدنا على الخروج من جحيم الرياح والجبال الثلجيّة » .

وإذا بموجة عالية عاتية ، كالتى ترى فى رسومات « جوستاف دوريه » ، لطمت برج المراقبة ، فصرخ أورسلّى : « آى — ى — يالها من بغلة ! »

قفز السترومبولى على قمة الموجة ، وشعر أورسلّى بأن باخرته تطيع القوانين الهندسية التى رسمها لها بناؤوها . انتصبت الباخرة ثم ارتفعت كالكرة الطائرة ، على قمة الأمواج واقتربت من السماء . وإذا بها تستوى وتتعلّق فى الهواء بين الأرض والجوزاء ، فى حين أن محركاتها البرونزية الأربعة تدور وتهدر فى الفضاء بعد أن هوى من تحتها الماء ، فارتجت السفينة ارتجاجاً ظنّ انفجاراً ، ثم عادت المحركات وغاصت فى المياه . وإذا بالسفينة قد تأرجحت وغطست بمقدّمها فى بطون الأمواج . كما حدّد لها بناؤوها أن تعمل بكل دقة .

فاض أورسلّى من جراء سلوك سفينته رقّة وعذوبة . وهمس فى نفسه قائلا : « ما أجملك باخرة ! إن خليقة متينة الصنع كهذه تستحق رجلاً حكيماً ليقودها » .

فى الأربع والعشرين ساعة التى تلت ، لم يزل أورسلّى على ظهر الباخرة يراقب السماء والماء ذات اليمين وذات اليسار . كانت حواسّه كلها منصبّة على عمله حتى إنه نسى وجود الكردينال بين ركّابه . ولما هدأت العاصفة ولانت جوانبها ثم انطوت وقد أضناها التعب ، اكتشف أورسلّى ، وحينئذ فقط ، أن باخرته تأخرت يومين عن موعد وصولها إلى روما .

فليسابق الريح إذا شاء ، فلن يسترجع من هذين اليومين سوى يوم واحد فقط ، لا أكثر .

* * *

ساعدت العاصفة ستيفن على نسيان الحزن الذى كان يغمر قلبه . مكث

ممدداً فى مقصورته ثلاثة أيام لا يستطيع فيها الوقوف على قدميه ألبتة . بدء العاصفة ترك باب حجرته مفتوحاً بينه وبين جلينون ، لكن إشارة من يد الكردينال أفهمته أن نيافته ليس فى حاجة إلى خدماته الآن . فأغلق ستيفن الباب على نفسه واستسلم إلى آلام دوار البحر — والذكريات .

قفزت الصور فى رأسه كالخيال وهو يعانى كابوساً مخيفاً : منى تتلوّى على فراشها القذر فى عطفة ستانهوب رقم ٥ — منى تحت غطائها الأبيض فى حجرة الولادة — منى مغسولة وممدّدة فى تابوتها . — ثم دن يهزّ كتفيه يأساً أمام القبر — والسبحة تتدلى من يدى سيليا المنمّلتين .

دارت هذه الخيالات حوله كأنها موكب من الألم والضيق . ومع الريح العاصفة تعالت أصداء الاتهام تارة والندامة أخرى : خذنى بعيداً من هنا ، يا ستيفى . . . أعطِ القديس أنطونيوس خمسة سنتات . . . أقترحُ إنهاء آلام الوضع سريعاً . . . ويل للذين يجهضون الجنين . . . ثق بى مرّة أخرى ، يا منيّتى . . . إنى نادمة من كل قلبى . . . !

بينما كانت مقصورته تتأرجح كالحجر المتدحرج على سفح جبل صخرىّ ، تعلّق ستيفن بفراشه مريضاً كئيب الروح . لم يستطع الصلاة ، ولا البكاء ، ولا الأنين . كان جسمه بالحقيقة عديم القوة والحركة .

ثم هاجمت ذاكرته الروائح أيضاً : العفن الشديد فى منزل جوسى لاسكيز . . . الزيت فى شعر كونجارو . . زهور القرنفل الذابلة فى الباقات على تابوت منى . . . والعطن فى فروة المعطف الذى كانت ترتديه سيليا ، عندما تعلّقت به أمام القبر المفتوح . . . فخفق قلبه وانقبض ، واجتاحت التعاسة نفسه .

لمّا زالت العاصفة ، صعد ستيفن على ظهر الباخرة شاحباً أخضر اللون أكثر من ذى قبل . ثم زال ألمه الشديد وشعر بحنين إلى البحر والشمس ليلطّفا عنه هواجسه بالنسيان — فاتخذ كرسيًّا هزازاً على ظهر الباخرة تحت سماء زرقاء نقية واستسلم إلى نوم هادئ خفيف ، فرجعت إليه قوّته وروحه .

سار الستروميولى ، كاللؤلؤة ، يقطع بسيفه المياه الهادئة . وكما يلتئم جرح المحيط بدوائر المياه الكبيرة العديدة — أولاً بالرغوة ثم بالسكينة التامة — كذلك شعر

ستيفن بأن جروحه تلتئم أيضاً فى راحة وهدوء .

أصبح شغل ستيفن الشاغل إيجاد تسلية لجلينون . وهذا العمل يتطلّب وحده مهارة مكتب للتسلية كامل العدة وصبراً جميلاً كصبر المربية مع ولد شقى . توتّرت أعصاب جلينون من جرّاء يأسه من الوصول إلى المجمع المقدّس كإبرة زئبق اختلّ توازنها . فكان يضرب الحُك (البوصلة) بقبضته ضربات سريعة . ثم ابتعد به شكّه وعدم ثقته بچياكوبى عن حيز التعقل . فقد حدث له عشرين مرّة فى اليوم أن غضب وثار وانهال لذعاً بكلامه على الرجل الصقلى الذى عدّه السبب الوحيد لجميع مصائبه .

وضع ستيفن نظاماً شاملاً يستوعب كل وقت الكردينال ليحول دون هذه النزوات . فكل يوم ، يساعد جلينون فى القداس فى معبد الباخرة الأنيق . وبعد الفطور ، يتنزهان معاً على ظهر الباخرة أو يلعبان بالكرات . ولا يفتأ جلينون يسأل بعصبية عن سرعة الباخرة . ثم تأتى مرحلة تدريب الكردينال فى اللغة الإيطالية التى كان يتكلّمها بطلاقة يوماً ولكنه اضطر إلى إهمالها طويلاً ، فأمسى فى حاجة إلى تمرين لغوىّ ، إلى « مسحة جديدة » — كما وصفها قائلاً : « حتى لا أتعرقل فى استعمال أسماء الفاعل والمفعول عند تحدّثى إلى چياكوبى » .

وفكر ستيفن : « إنه لا يزال ينقر على هذا الوتر » . هل كان جلينون حقيقة فريسة خياله ، أو أن چياكوبى حقيقة وحش ؟ قرّر ستيفن البحث فى هذا الأمر . ذات صباح فى أثناء نزهتهما على ظهر الباخرة تجرّأ ستيفن فسأله : « ماذا تظنّ يكمن وراء عداء چياكوبى ؟ »

فاسترسل الكردينال فى شرح مسهب مدعم بالبراهين : « أستطيع القول إن السيد الكردينال النائب يغذّى فى قلبه نحوى حقداً شخصيًّا ؛ وحقًّا لا أستطيع الشك فى هذا . قد نبت هذا الحقد عنده منذ أيام البابا لاون الثالث عشر ، عندما كنا أنا وهو أساقفة فى حاشية ذلك الحبر العظيم . من جهة طبيعة مزاجينا ، لم يستسغ أحدنا الآخر . هو ، لم يعبأ مطلقاً بلعبى البيانو ، وأنا لم أستسغ هضم ولعه بالببغاوات.

— « الببغاوات ؟ »

— « نعم . كانت حجراته ملأى بهذه الطيور المزعجة ، المعكوفة المنقار

مثله ، لا تكفّ عن الصراخ والصياح فى لهجة موحشة — ربما تكون لغته الصقلّية . إن بعض الأشخاص يستملحون ذلك ، أما رأيى فى المعجبين بالببغاوات فهو أنهم أنفسهم ليسوا إلاّ طيوراً » .

فابتسم ستيفن وقال : « لا بدّ أن شيئاً أعمق أثراً من لعب البيانو وتربية الببغاوات ، حدث بينكما » .

— « حالت بيننا أشياء عديدة . فكونى أمريكيًّا يغيظه . ثم إنه يأبى الرضوخ للواقع من أن الله قد بارك الولايات المتحدة ، أحدثَ مزرعة أقامها فى الغرب ، وجعلها غنيَّة قويّة . وبالاختصار ، فچياكوبى هو واحد من أولئك الطليان الذين حكموا الكنيسة طويلاً حتى خيل إليهم أنها أصبحت ملكهم » .

ثم انتقل جلينون إلى ناحية أخرى من الحديث : « كان چياكوبى يحسد الصداقة التى توطدّت بينى وبين ميرى دلفال . كم كان يستاء عندما كنّا نرجع معاً من إجازة قضيناها بين تلال ألبانيا ! . . . وأىّ تكشيرات سخيفة كانت ترتسم على وجهه عندما يسمعنا نلعب معاً قطعة موسيقية لباخ وضعها مؤلفها لأربع أيد ! » .

توقّف جلينون يتذوّق ذكرى امتعاض منافسه : « واشتعلت النار حقًّا فى أحشاء چياكوبى يوم ابتسم لنا البابا پيوس العاشر فى أثناء لعبة قمنا بها تدعى "اليوسفندى" » .

— « اليوسفندى ؟ ما نوع هذه اللعبة ؟ »

— « خلقناها بأنفسنا ، أنا وميرى . كنا نلعبها بأربع برتقالات ، أو أربع يوسفيّات نتبادلها رمياً فى الهواء دون أن تقع على الأرض ، وفى الوقت نفسه نسرد أبياتاً من الشعر لهوراس » . — وشرع جلينون يأتى بحركات بهلوانية ببرتقالات خيالية ثم سرد هذا الشعر :

« ما أعذبك فتًى يانعاً رقيقاً . . . . »

وخانته ذاكرته ، فخفّ ستيفن إلى مساعدته وأكمل البيت قائلاً :

« تحفّ بك الورود ، يا پيروس ، بعبيرها »

« سائلاً فواحاً »

فحدج جلينون كاتم أسراره دهشاً : « لم أعلم أنك مولع بهوراس ، أيها الأب ! » .

— « إنى واحد من طلاب الأخ فيليكس » .

— « نعم . كان الأخ فيليكس يهوى هوراس أيضاً » . وعاد جلينون سريعاً إلى موضوع مرحه : « ذات مرة دعونا چياكوبى ليلعب معنا . هاها . . . لو رأيته كيف كان واقفاً . . . هوهو ! . . . فاتحاً فمه . . . هوها ! . . . وباسطاً يديه . . . » ومن كثرة الضحك أصبح جلينون قطعة من العجين : « ويداه ملأى بالبرتقالات . . . هاهاها ! . . . »

فقال ستيفن : « لا عجب أنه لا يحبّك . لكن لا يزال هنالك أمر أستصعب إدراكه . لو كان الكردينال النائب غبيًّا إلى هذا الحدّ ، فكيف إذن تصرّف فى إدارة الكنيسة ؟ »

— « أدارها ولا بأس — أجاب جلينون — لأنك وإن ظننت به ما أردت شخصيًّا — فهو فى الحقيقة أبرع رجل فى خدمة روما . إن تاريخه كأمين سرّ الدولة البابوية يدلّ — وأنا أعترف بذلك بصراحة — على أن چياكوبى يمتلك بدرجة ممتازة تلك الموهبة الإيطالية — " الاتفاقيّات " — وهى مزيج من المؤامرات والمنازعات أتقنها الدبلوماسيون . نعم ، يا بنىّ ، إن الكردينال النائب يعرف السياسة الأوروبية كما تعرف أنت الصلاة الربيّة . أما كيف استقرّت دقائق المناورات السياسية فى جسم ضخم كهذا ، فذلك ما لا أدركه . لكنى أعلم شيئاً واحداً ، هو أنها استقرّت فيه » .

بعد أن أخذ جلينون نصيبه من المرح والذكريات عاد فأضحى كئيباً : « ربما أراد الله تعالى فى حكمته التى لا يسبر غورها ألاّ أدلى بصوتى فى انتخاب البابا القادم . مع ذلك ، أريد التأكد بتدقيق عما هى إرادة الله فى هذا الأمر » .

ثم عادت حليمة إلى عادتها القديمة ، وقال جلينون : « والآن يا ستيفن ، كن فتى طيباً وأسرع إلى برج المراقبة واسأل الربّان هل يستطيع الزيادة من سرعة الباخرة » .

* * *

كان ستيفن أحياناً يهرب من سيطرة جلينون عليه ويذهب إلى مقرّ أورسلّى حيث الهواء والشمس ويتجاذب معه أطراف الحديث أو يلعب الموهل . أحدثت

الأيام عند أورسلي انقلاباً . أصبح أهدأ مزاجاً وأقل عصبية . فقد كثيراً من مرحه الفياض بسبب حزنه على مصير بلاده بعد الحرب . كان يقول فى لوعة : « إن إيطاليا بين الأمم تلعب دور ماسح الأحذية أو المتسول العازف على الربابة » . مع ذلك فإنه اكتسب دون شك قوة جذابة ، واجتاح شخصيته تيار شديد جعل حديثه العاطفى بينه وبين ستيفن يتأجج بحرارة جديدة .

أما حب أورسلي للمغازلة ، التى كانت يوماً الظاهرة الأولى فى خلقه ، فقد بدأ يضمحل . على ما يظهر ، لم يعد يشعر بالحاجة تحثه إلى تثبيت رجولته فى استعارات ينتقيها من أعالى البحار . فى سن الخمسين كان لا يزال يفيض حيوية لن يوجد لها اسم أفضل من الحب ، لكن لسبب لم يتضح لستيفن أولاً ، لم يعد أورسلي يميل إلى التظاهر جذاباً بين النساء المسافرات — وكثير منهن جميلات — اللواتى كن يتبادلن الرهان فى جلب أنظاره إليهن . لم يكف فى أسفاره كلها عن شرح أسرار الكواكب للمسافرين ، ولم يتخل قط عن حركاته المسرحية المألوفة ، لكنه أخفى كل إشارة يستدل منها على أنه قاهر عظيم للبحار .

مرة بعد إحدى هذه الأمسيات المسرحية صحب ستيفن أورسلي إلى مقر قيادته وطفقا يتمشيان معاً . مرت بهما رياح ممطرة آتية من الآزور . كانت السماء فى منتصف الليل كالقبة الزرقاء مطعمة بأبراج الربيع . على مسرح رائع فتان كهذا ، كان من السهل على أورسلي أن ينقر خفيفاً رقيقاً على عشر من الكنارات فتستجيب له . ولكنه ظل يجوب ظهر الباخرة ذهاباً وإياباً بصحبة ستيفن ، ينفث دخان سيجاره . ثم أطلق للسانه العنان وراح ينتقد ضياء الكواكب ، والنساء المسافرات ، والتعاسة الكبيرة التى يلاقيها القائد فى الأسفار . وصاح غاضباً :

« إن الفلك علم ، ليس تكهناً بالحب . كم من مرة يعيد الإنسان قصة الكوكبة " ذات الكرسى " — وأشار أورسلي بسيجاره نحو السماء جهة الشمال إلى حرف سين (ш) كوفية — ثم يحاول دائماً أن يجعل منها ملكة فى مسابقة عالمية للجمال ؟ ما هى قصتها بالتدقيق ؟ وما هى ؟ . . .

« إنها كوكبة الربيع تتألف من خمسة نجوم مضيئة ، واحد منها يقود البحارة فى أسفارهم ، لأنه يقع فى دائرة الاعتدال . لكن هل تلك الخلائق المائعة ،

النساء ، اللواتى يغطّين أكتافهنّ العارية بالفراء — هل يعنين بمثل هذه الأمور العلميّة ؟ — وزفر الرّبان فى قنوط ثم قال : — كلا ، إنهنّ يرغبن فى سماع قصّة سماوية عاطفية تحرّك فيهنّ الخيال والحواس . وتطغى عليهنّ نشوة لذيذة عندما أقوم بسرد هذه الأساطير على مسامعهنّ » .

ثم اتخذ أورسلّى طريق الاعتراف : « إن طريقة حياتى تتعبنى ، يا ستيفن . بين أولئك الغانيات الغاويات أشعر بأننى وحيد تائه — وبصق أورسلّى اشمئزازاً — ولو كان " كازانوڤا " قائد باخرة سياحية ، لكان دخل الدير فى سنّ التاسعة والعشرين » .

أدرك ستيفن وجود الخمير يتفاعل فى نفس أورسلّى : الشعور بالذنب وتأنيب الضمير الذى لا يعتّم ، إن عاجلاً أو آجلاً ، أن يظهر فى كل نفس متحرّرة . أما كون ذلك نزوة عاطفية طارئة أو انتعاش الضمير فيه ثانية ، فلم يستطع ستيفن أن يبتّ فى الأمر شيئاً . بل حاول استكشاف الحقيقة بصفته كاهناً وصديقاً .

— « إن ما تنشده ، يا جيتانو ، هو إحداث أعجوبة فى نموّك . أما انتقادك المسافرات معك فلن يجديك نفعاً . وقبلما تحدث الأعجوبة — ووضع ستيفن الطعم فى صنارته بمثل مقنع — يجب عليك أن تركن إلى حبّ ثابت ، تعتمد عليه ويقودك كالنجم القطبىّ هنالك فى أعلى السماء » .

أعجب أورسلى بهذه الاستعارة لكنه لم يقتنع تماماً . فتأمل النجوم يلمع كل واحد منها فى بهاء خاص : الدبّ الذهبى ، والصرفة الزرقاء ، والنسر الواقع ذو اللون اللازوردىّ المتقع .

— « كلها ثابتة فى مكانها ، يا ستيفانو ، إلا أنا فمتقلقل . هل فى استطاعتى اختيار واحدة من بينها جميعاً ؟ كلا ، فإنى أشبه حُكّاً اختلّ توازنه وعجز عن بيان الطريق المستقيم » .

حاول ستيفن أن يخفّف من وطأة المقت والملل الذى يعانيه أورسلى فى نفسه ، فقال له : « هذا محال ! قل إنك لم تمتحن نفسك ، إنك فى حاجة إلى تصحيح فى توازنك . أما أن تكون عديم الاتزان ! . . . أبداً ، فأنت مخطئ ! . . . »

ثم طفق ستيفن يحثه بلطف : « عندك موهبة رائعة فى الحب ، يا جيتانو .

تقدّم بثقة واختبر الأمانة . انبذ رغبتك فى الانتصارات السخيفة على قلوب الغانيات . . . وتزوّج » .

— « ما أعذبك وأصفى نيتك يا ستيفانو ! فليس عندك فكرة واضحة عن مطالبى . إن وسطاء الزواج أنفسهم ، وإن تعاملوا مع الملائكة منهنّ ، ليحتارون فى أمرهن . — وأظهر أورسلّى تلهفاً ليبرهن عن وجهة نظره فقال : — هل أسرد عليك باختصار لائحة طلباتى ؟ »

— « دون شك ! »

استمتع أورسلى بالفرصة المعطاة له ليفيض فى الكلام ، فأشعل سيجاراً جديداً وقال : « إنك مغرم بسماع العجائب ، يا ستيفن . إن حياتى تتجدّد كل مرة أتحدّث إليك . ربما أسرح قليلا فى عالم الخيال ، فهل تمنحنى حرّية التوسع فى البلاغة والبيان ؟ »

— « فى حدود الوضوح والإمكان » .

— « حسناً ! . . . إذن هذا الكنز الذى أنشده ، هذه الأنثى الخيالية ، يجب أن تكون حائزة على ذهن صافٍ تفتّح على خمر الخبرة ، ليس حصرماً يقزّز الأسنان ، وخصوصاً لا فقاقيع فيه . يجب أن تكون خمراً صافية رقيقة الشذا ، خمراً هادئة من فاليرنا تستميل الشم والذوق قبل أن تتغلغل فى الأوردة التى يستقى منها القلب » .

توقف أورسلى برهة واستنشق عبير الهافانا الذى أمسكه بين راحتى كلتا يديه . ثم قال : « هل مطلبى الأوّل واضح المعالم ؟ »

— « فى معظم تقاطيعه » .

— « ثانياً — من الوجهة المادية — يجب أن تكون امرأة ذات دخل مستقلّ ومن أسرة مشهورة . اللقب مستحسن لكنه غير ضرورى . أكره الوصولية والطائشة ، فقد أخسر اسمى وشهرتى . ثم أرى هذه المرأة المثالية متربعة فى أفخم حىّ من إحدى هذه المدن العالمية — روما ، ڤينا أو پاريس — إن رجلاً عالميا مثلى لا يرتبط بالحدود السياسية » .

ثم تحوّل أورسلّى إلى ذكر الأملاك : « لا بدّ أيضاً من النظر فى أمر المسكن :

أطالب بمنزل فى أفخم حىّ من المدينة وبمنزل ريفىّ آخر لا يبعد أكثر من خمسة وعشرين ميلاً عن المدينة – قل ثلاثين على الأكثر – لا منفرداً ولا قريباً من الضواحى . . . أفهمت ؟ »

– « تماماً ! . . . لكن شروطك صعبة التحقيق على ما أظن » .

– « أتتحدّث عن الصعوبات ؟ إنك لم تلمس بعد أصعب مشكلة – مشكلة المشكلات – الجمال ! . . . »

ثم أسرع أورسلّى فى ذوق كبير وسأل ستيفن مرة ثانية : « أتسمح لى بالإضافة فى شرح هذا الموضوع ؟ هل أحرجك فى ذلك ؟ »

– « إن المسرحيّة من إخراجك ، وليست منى . أفِض كما شئت ، فقد تشعر بالراحة » .

– « أيها الطبيب الملائكى ، يا منقذ القلب المضطرب ! – أنّى لى بأناشيد أرفعها لمفهوميّتك ! . . . » ثم خفض أورسلّى من بلاغته : « أما بخصوص موضوعنا ، فكما تعلم – هنا أضحى الرّبان رجلاً يستميله الضعف – إنى أميل إلى النوع الذى تمثله الإلهة " چونو " كما رسمها روبنز . بالصراحة ، أحب النساء المليئات . هل أنا ساذج ؟ إن فى ذلك خطراً من الوقوع على البدينات . لكن من حسن الطالع ، فالنساء الإيطاليات يملكن سرّ الاحتفاظ بجسمهنّ مفتول القوام حتى بعد سنّ الخمسين . الحق يقال ، لقد تعرّفت على كونتيسة من ميلانو فى الستين من عمرها . . . سوف لاتصدقنى يا ستيفن . . . لكن ما الذى أتى بى إلى ميلانو ؟ . . . المهم فى الأمر أنه يجب على الإنسان أن يختار بكل دقة ، وإلاّ – ورسم أورسلّى بسيجاره دوائر كبيرة فى الظلام – وإلا فالنهاية رهيبة » .

– « أكره مقاطعتك – قال ستيفن – لكن هل هذه المرأة الخيالية تحرّكها روح بشرّية ؟ »

– « روح بشرّية حساسة جدًّا ، تحرّك فيها كل صغيرة وكبيرة » . ثم سرح أورسلّى فى وصف آخر بليغ : « عيون هادئة تعكس طيبة قلبها . وفم يستشفّ منه لغز الروح . وشفاه " الچيوكوندا " تفترّ عن ابتسامة وصلاة ، عن سخرية وإغراء معاً . والذقن مستدير ناعم : إنه أعظم برهان على الثبات . والعنق كالرخام فى بياضه ونقاوته . . .

— ثم استدرك أورسلى كلامه فى ندم وقال : — المعذرة ، يا ستيفن ، فى ليلة مثل هذه يتحتم على الإنسان أن يسدل الستار على التفاصيل » .

— « أشكرك ، يا جيتانو » .

أدرك ستيفن بسهولة خطوط الصورة التى يتخيلها أورسلى : المرأة : منها مادة ، ومنها دواء ، ومنها خيال . هكذا ابتغاها وتخيّلها أيضاً دانتى فى حبيبته بياتريس محوّلاً جسدها جوهراً ! . . .

سأله أورسلى : « أترى هذا الضباب الذى يغطّى وجه السماء ؟ »

تطلع ستيفن إلى فوق ورأى لمعان السحب بين ملايين النجوم التى تدور فى الفضاء . ضياء عجيب فريد فى نوعه ، هالة من النور تتألق وتبتسم فى ذاتها ، لذاتها ، فى الوحدة الواسعة ! . . .

— « وقال الله لتكن نيّرات فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآياتٍ وأوقاتٍ وأيامٍ وسنين » .

وأجاب ستيفن : « نعم أراه » .

— « مثل هذا البريق سيكلّل رأس المرأة التى أنشدها . هل تعتقد أننى سأجدها يوماً ؟ »

أضاع لورنس جلينون فرصة التمتع بجمال المياه ، لما دخل السترومبولى البحر الأبيض المتوسط . زاد قلقه من جراء بطء عملية إرساء السفينة فى ناپولى ، متأخرةً ثمانى وأربعين ساعة عن موعدها المحدّد . كان المجمع المقدّس قد بدأ منذ يومين وألقيت الأصوات ثمانى مرات (مرتين كل صباح وبعد الظهر) . لم يحثّ جلينون على المثابرة فى متابعة السباق سوى الأمل فى إطالة هذا المأزق .

على سلم الباخرة اعتذر أورسلى عن حنثه بوعده . فعزّاه الكردينال قائلاً : الغلطة ، يا ربّانى العزيز ، لا تقع عليك أو على باخرتك . رؤساء الملاحة أنفسهم لم يكونوا يستطيعون القيام بأحسن مما قمت . — مع السلامة ، أيها الربّان . هذه بركتى لك ولباخرتك » .

فى هذه المرّة ، لم يوجد سبب يعفى أورسلى من لثم يد الكردينال ، العارية من خاتم يُحلّيها .

فى محطة السكة الحديد دهش جلينون مسروراً عندما تقدّم نحوه موظف ذو شرط ذهبية وذقنه بين ركبتيه وحياه وأخبره بأن قطاراً خاصًّا سيسرع بنيافته إلى روما . وشرح له مدير المحطة الأمر قائلاً : « هذا الإجراء لا بدّ منه بسبب الإضراب الذى أعلنه الشيوعيون ، فقد تعطل السفر بالقطارات العادية بين ناپولى والمدينة المقدّسة . آه ، من هؤلاء الشيوعيين ! . . . إن مؤامراتهم ستشل حركة البلاد كلّها » .

امتنع جلينون عن التعقيب فى الأمور السياسية وقال : « إنى مدين للحكومة الإيطالية إذ تفضلت علىّ بقطار خاص . هل أستطيع الصعود إليه حالاً ؟ »

— « فى الحال يا صاحب السيادة » .

اتضح أن كلمة مدير المحطة « فى الحال » انقلبت إلى ساعتين من التأخير بسبب الاستقبالات الرسمية ، وإنزال العفش والإبراق إلى روما لحجز أماكن فى

الفنادق . كان الوقت ظهراً عندما تحرّك القطار من المحطة . ولما داروا حول قاعدة الصخرة « مونفينا » البركانية فى طريقهم شمالاً نحو روما ، سأل جلينون ستيفن : « من تظن وراء كل هذا ؟ »

— « ربما كان الكردينال النائب قد غير قلبه نحوك » .

— « إنك تمنح الشيطان حصة الأسد » .

سرّح الكردينال بصره من وراء النافذة إلى المناظر الرائعة التى تمتد فى وادى « ليرى » — تتابعت الجبال ، والشلالات ، والقبور والمسارح الأثرية ، أما جلينون فلم يرَ واحدة منها . كانت عيناه جاحظتين تحدّقان داخل حجرة مقفلة بإحكام ، مزيّنة بأبهى الحلل ، يجلس فيها ستون رجلاً على مقاعد مبطّنة ويقومون للمرّة التاسعة بإلقاء أصواتهم لانتخاب خلف بطرس الجديد . لو حالفه الحظ ، فقد يستطيع الكردينال طرح صوته فى الدورة العاشرة . . . إذا كان هنالك دورة أخرى ! . . .

فى الساعة الثانية أحسّ نيافته بالجوع فقال : « ألا تقدّم الحكومة الإيطالية علب طعام للكرادلة الأمريكان المسافرين ؟ » كان السؤال حادّا قاطعاً .

فقال ستيفن : « لو استطعت الانتظار فقط حتى "فروسينون" . . . يقال إن المكان مشهور بفاكهته » . — ثم اقترح ستيفن فكرة عملية حتى يغير جلينون مزاجه : « ألا ترى من الأفضل أن تستبدل بثياب السفر ثياب الانتخاب ؟ »

رضى جلينون بهذه الفكرة فى عصبية ظاهرة . فساعده ستيفن على خلع الجبة البنفسجية التى يلبسها الكرادلة مدّة حزنهم على البابا الراحل . ثم ألبسه القميص الأبيض الدنتلا ، الطويل الأكمام الذى ينزل إلى الركبتين ، ويرمز إلى السلطة العليا التى يتمتع بها الكردينال الناخب . ثم وضع حول عنق جلينون الصليب المطعم باللآلئ ودلاّه على صدره ، وهو يرمز أيضاً إلى السلطة العليا كعضو فى المجمع المقدّس .

— « والآن — قال ستيفن — إنك على أتم استعداد لدخول الكنيسة السيستينية كردينالاً ناخباً » .

إغرورقت عينا الكردينال ودمعت قليلاً ، وقال لستيفن : « توجد فى طبعك

ناحية تحيرنى ، يا ستيفن . إنك تتحدّى جميع قواعد الحساب : تزيد من تفاؤلك فى حين تقتسمه مع الآخرين ! »

* * *

فى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، وصلوا إلى المحطة المركزّية فى روما .

وقف جلينون وستيفن مرتبكين على رصيف المحطة ، وإذا واحد من حاشية الڤاتيكان يلبس معطفاً أرجوانيًّا قد قدّم نفسه إليهما باسم المنسنيور « پنديليونى » وقادهما إلى سيارة ليموزين تحمل علم الڤاتيكان والشارات البابوية . أمر المنسنيور پنديليونى السائق أن يتوجّه إلى الڤاتيكان بكل سرعة . فسارت بهم الليموزين مسرعة غربىّ روما . لم يتعرّف ستيفن على الأحياء إلا بعد ما عبروا نهر التيبر بالقرب من جسر ڤيكتور عمانوئيل . كان ستيفن يعرف هذا الحىّ من روما . ولما عبرت بهم السيارة الطرقات الضيّقة المتشعبة من حىّ « بورجو » ، ترقّب ستيفن رؤية قبة كنيسة القديس بطرس .

فى بدء الأمر ظهرت قبة مايكل أنجيلو الجبارة المخطّطة ترتفع كإكليل بهىّ على أفخم بناية صممها الإنسان فى طموحه . ثم تراءت لهم الواجهة الهائلة من الكاتدرائية : مربّعات ضخمة من الرخام الناصع ترتفع أمامها أعمدة كبيرة عالية ، وفى أسفلها ثلاثة أدوار من الدرج الواسع . فى وسط ميدان القديس بطرس قامت مسلّة « كاليجولا » تحوط بها من الجانبين نافورة مياه ضخمة . الميدان كله محاطٌ بأعمدة رخامية أقامها « برنينى » على شكل بيضىّ . وفى الساحة الوسطى بين هذه الأيدى المرتفعة إلى السماء ، وقف جمهور المؤمنين (نحو من مئتى ألف شخص) صامتين ينتظرون ظهور الدخان الذى ينبئ بانتخاب البابا الجديد .

تذكّر ستيفن موقفه فى هذا المكان بعينه وهو ينتظر ظهور الإشارة التى أنبأت بانتخاب البابا بنديكتوس الخامس عشر سنة ١٩١٥ . الدخان الأبيض يدلّ على انتخاب بابا جديد . أما الدخان الأسود (وهو مزيج من أوراق الانتخاب مع قش مبلول) فيشير إلى عدم حدوث نتيجة فى الانتخاب .

— « الدخان أسود منذ ثلاثة أيام — قال المنسنيور پنديليونى — والمجمع المقدّس فى مأزق حرج » .

فهمس جلينون : « أرجو الله أن أجد له مخرجاً » .

انسابت السيارة داخل مدينة الفاتيكان وسط بوابة يحرسها الحرس السويسريّ فى بذلاتهم الزرقاء والصفراء . وبعد أن عبرت السيارة الحاجز الليونيني توقّفت فى ساحة يحوطها حرسُ النبلاء برماحهم التقليدية وعلى قبعاتهم كرات صغيرة حمراء . كانت هذه المنطقة من القصر البابوى مقفلة بجدار يفصلها تماماً عن كل اتصال خارجيّ . والمجمع المقدس ، بالمعنى الحصرى ، يعقد اجتماعاته داخل منطقة منعزلة مقفلة وراء أبواب ختمت بالرصاص . وإذا ما بدأ المجمع المقدس عمله ، فلا يمكن لمخلوق الدخول إليه ، ولا يسمح لأحد الخروج منه إلا فى حالة الوفاة فقط .

رافق المنسنيور پنديليونى الكردينال جلينون ومساعده الأب ستيفن واقترب من أحد النبلاء عليه معطف قصير . إنه الأمير شيچى رئيس الأسرة المشهورة التى حرست المجمع المقدس مدة مئات من السنين ومنعت عنه التدخل الخارجى . والأمير شيچى باعتباره رئيس حرس المجمع المقدّس ، يلبس معطفاً من مخمل أسود ، ويحمل سيفاً من ذهب ، وربطة عنق من عهد الازدهار ، ويلبس قبعة مزدوجة الزوايا ثبّتت عليها ريشة بيضاء ، ومن حزامه تتدلّى صرّة مطرّزة تحتوى على مفاتيح أبواب المجمع المقدّس .

همس المنسنيور پنديليونى ببضع كلمات فى أذن رئيس الحرس ، فرفع هذا قبّعته وطلب أن يحظى بشرف فحص أوراق اعتماد جلينون . فأبرز ستيفن المستندات التى تؤكد رتبة الكردينال الكنسية ، وامتيازاته ، وألقابه ، وحقوقه . وبينما كان رئيس الحرس يفحص الرقّ ويتحقّق من الأختام والتوقيع ، كان جلينون يقاسى آلام الجحيم . انكمشت أعصاب وجهه فى حركة لاشعورية ، ونفرت فى جبهته عروق زرقاء متشعّبة .

أخيراً أعاد رئيس الحرس المستندات وانحنى احتراماً ، ثم فتح الصرّة المطرّزة وأخرج منها مفتاحاً كبيراً ، وتقدّم نحو الباب الخارجى الحديدى ووضع المفتاح وفتحه من الخارج . أما فى الداخل ، فظهر وجه آخر أمام شبكة حديدية تدور على قاعدتها . فتبودلت الإشارات والإجراءات . ومن الداخل ، دار مفتاح آخر ، وفى بطء فتح الباب .

انحنى الكردينال لورنس جلينون رئيس أساقفة بوسطن لرئيس الحرس ذى الريشة البيضاء ، وانحنى له أيضاً الأب ستيفن فرمويل ، مساعد الكردينال فى المجمع المقدّس . لم يكادا يدخلان من الباب حتّى دوى من الساحة صراخ كالرعد صدر من مئتى ألف حنجرة .

« أبيض ، أبيض ! . . . البابا الجديد انتخب ! . . . »

تبع ستيفن نظر الأمير شيچى فرأى سحابة خفيفة من الدخان الأبيض تتأرجح كالريشة فوق سطح الكنيسة السستينيّة .

ورآه جلينون أيضاً . فصرخ قائلاً : « لا ، لا ! . . . »

ترقرقت دموع الحزن على وجنتيه . للمرّة الثانية ، انتخب البابا دونه . مرّتين خسر سباق الأطلسى إلى روما . مرّتين هضم حقّه فى استعمال صلاحيته الانتخابية . ولن تقدّم له الحياة فرصة أخرى .

اصفرّ وجه جلينون ، واختلّ توازنه قليلاً ، ثم احمرّ ثم اصفرّ ثانية . فسارع ستيفن إلى جانبه ويداه مبسوطتان ليسنده . ظنّ ستيفن أنه سيلمس كومة مسترخية من اللحم ، لكن لما وضع يده على كتف جلينون ، انتفض الكردينال فى عصبية كما لو صعق جسمه تيار كهربى شديد .

ثم انفجر الحنق فى حنجرة جلينون كاللغم فى باطن الأرض . وزعق فى رئيس الحرس قائلاً : « سرْ أمامى إلى چياكوبى » .

عقدت الدهشة لسان الأمير شيچى . كان رئيس الحرس نبيلاً بالوراثة ومليونيراً ولم يتعوّد قط فى حياته أن يزعق إنسان فى وجهه . فشدّ على قوامه واستعدّ ليردّ على الكردينال بما يناسب المقام ، لكن لورنس جلينون لم يأبه بالشكليّات ، ودفع رئيس الحرس بيده جانباً ، وبيده الأخرى أبعد حرساً سويسرياً ثم تقدّم بخطى واسعة إلى داخل المجمع المقدّس .

— « أرجو سعادتكم أن تعذروه — قال ستيفن لرئيس الحرس — إنه مضطرب جدّاً » . ودون أن ينتظر جواب الأمير تقدّم ستيفن جلينون . لكن المنسنيور پنديليونى دفعه فى مرفقه قائلاً :

— « الكرادلة وحدهم مصرّح لهم بالدخول إلى الكنيسة السستينية . اسمح لى

بمرافقتك إلى الأمراء حيث الكهنة المرافقون جميعهم فى الانتظار » .

ألقى ستيفن نظرة أخيرة إلى الكردينال وهو يمرّ كالعاصفة فى حجرة كبيرة واسعة ، ورفع نفسه بالصلاة قائلاً : « يا إله الناخبين أنقذ هذا الرجل من كل تصرّف لا يليق بأحد أعضاء المجمع المقدّس » .

* * *

اندفع لورنس جلينون نحو الكنيسة السستينيّة فوجد نفسه فى حجرة تكسوها العظمة والرهبة فى ضياء الغسق الباهر . كان الكرادلة الأجلاء فى ملابسهم الخاصة بالانتخاب مجتمعين جماعات يهنئون بعضهم بعضاً بسرور كشيوخ رفعوا عن كواهلهم عبئاً ثقيلاً رهيباً . على جانبي الكنيسة صفت مقاعد تعلوها مظلات .

وفى صدر الكنيسة نُصب هيكل منفرد من الرخام الأبيض ، رسمت وراءه على الجدار صورة زيتية بهيّة تمثّل الدينونة الأخيرة من ابتكار مايكل أنچيلو ، زادت الآن من رهبتها ظلال الغسق المعتّمة . أمام الهيكل وضع مقعد شاغر سيجلس عليه البابا الجديد ليتقبل احترام الكرادلة الذين انتخبوه نائباً للمسيح على الأرض ، وبطريركاً على الغرب ، وأسقفاً على روما وحافظاً على المفاتيح البطرسيّة .

لم يتمالك جلينون من الرجوع إلى الأيام السعيدة الغابرة عندما دخل هذه الحجرة التاريخية بصحبة البابا پيوس العاشر . فى ذلك الوقت رفع البابا يده ودلّه على الرسومات العجيبة من قديسين وعرّافين التى خلد ذكراها الفنان العبقرىّ على قبة الكنيسة ، فى هذه الكنيسة عينها رتّل جلينون فى أثناء القداس الذى أقامه البابا نفسه .

والآن أيضاً وقف جلينون فى الضوء الخافت كرجل ضائع ينشد وجوهاً لم يألفها وينتظر بادرة ترحيب أو اهتمام بوجوده .

أين هم پيلو ، وروزينا وڤون هوفن وجيبونتر لابسو القبعات الحمراء فى أوائل هذا القرن ؟ أين ڤانوتلّى ، مستشار وأمين سرّ البابا لاون العظيم ؟ . . . لم يبق واحد منهم ، ماتوا جميعاً .

والأحياء، أين هم ؟ أين ميرى دلڤال ، صديق شبابه الأمين؟ . . . وخصوصاً ، أين چياكوبى ؟

صعق لورنس جلينون من شدّة الجزع الذى انتابه . ألا يكون الكردينال

النائب قد أصبح البابا الجديد ؟ من فاز بالانتخاب ؟ . . .

سمع جلينون بالقرب منه صوتاً تدلّ نبرته على أنه من أكسفورد : « أين كنتم مدة هذه الأيام العديدة ، أيها العزيز جلينون ؟ قد رجونا ، البعض منا على الأقل ، أنكم ستحضرون فى ميعاد مبكر » .

كان الصوت للإنجليزى ، مورن ، الأسقف الأنيق الثرثار ذى الوجه الملائكى ، كما فى رسومات بلاك ، والهالة من الشعر الأبيض تتراقص على جبهته .

— « مرّت لحظة بين الانتخاب الثانى والثالث كان يمكن لصوتك أن يغيّر فيها مجرى الحوادث » .

فسأله جلينون فى لهفة وقلق : « وماذا كانت نتيجة فرز الأصوات ؟ »

— « المجد لله ! . . . إنه أشيل راتى من ميلانو . . . رجل حرّ ورجل علم . . . هاها ! . . . إنه رجل كتب ، أتعلم ؟ إنه مدير المكتبة الأمبروزية السابق » .

— « وأين چياكوبى ؟ »

— « إن السيد الكردينال النائب يساعد البابا فى ارتداء ملابسه الجديدة . ويعتقد الكثيرون أن راتى سيتخذه كاتماً لأسرار الدولة . . . آه ، ها هم أولاء » .

عقد الصمت لسان الجماعة عندما دخل البابا الجديد إلى الكنيسة السستينية برفقة الكردينال چياكوبى والكردينال ميرى دلڤال ، وتقدّم دون اضطراب أو تواضع مصطنع نحو المقعد أمام الهيكل الرخامىّ فى الوسط ، كان مرتدياً قميصاً أبيض برّاقاً ، ومعطفاً أبيض ينزل إلى مرفقه بدائر مخملى أحمر ، وفى قدميه حذاء أحمر مطرّز رسم عليه صليب .

كان أشيل راتى الذى وقع عليه الاختيار رجلاً قصير القامة بديناً ، يضع نظارات على عينيه ، وهو فى نحو الستين من عمره ، مولع بتسلق جبال الألپ وقراءة الكتب . وقد دعاه القدر ليلبس خاتم الصياد مدة سبع عشرة سنة شائكة . فجلس على مقعده المؤقت وانتظر فى صبر جميل حتّى اصطفّ الكرادلة بحسب رتبهم وأقدميّتهم وتقدّموا ليقدّموا له خضوعهم .

اتخذ لورنس جلينون مكانه بمساعدة المشرفين على النظام ، وجاء ترتيبه الثامن عشر بين الكرادلة الكهنة . فاقترب من مقعد البابا وجثا على ركبتيه وقبل يد الحبر

الأعظم ، وركبته ، والصليب المطرّز على حذائه . وانحنى أشيل راتى ، الذى اتخذ اسم بيوس الحادى عشر وعانق أخاه فى المسيح . ولمس بشفتيه خدّ جلينون وهمس فى أذنه قائلاً : « ما أعظم سرورنا إذ نرحب بأخينا الأمريكى » .

لما رأى جلينون أن البابا اعترف بوجوده ، نوعاً ما ، لانت شكيمته ، لكن أعصابه ما زالت مرهفة .

لما انتهت حفلة الخضوع ، انتصب بيوس الحادى عشر وانفرد فى الكنيسة السستينيّة ليستعيد نشاطه بالصلاة . فى هذه الأثناء تفرّق الكرادلة دون ترتيب وتوجهوا إلى قاعة الأمراء حيث كان مساعدوهم ينتظرونهم وفى وسطهم الأمير شيچى مع حرسه النبلاء .

أسرع ستيفن إلى جانب جلينون مستفسراً عن صحته واقترح عليه قائلاً : « لا شك أنكم متعبون ، يا صاحب النيافة . فلنذهب إلى الفندق حيث تستريحون وتستحمون وتتناولون عشاءكم » .

— « لا مجال للراحة الآن — زمجر جلينون — يجب أوّلاً أن أتحدّث إلى چياكوبى . انظر كيف يختال فى وسط المسرح » .

كان الكردينال النائب واقفاً وسط فريق من الرؤساء تحت ثريّا كبيرة رائعة . فلما رأى الكردينال الأمريكى يسير نحوه تقدّم هو أيضاً لملاقاته .

— « أهلا بك وسهلاً ، فى روما ، أيها الأخ الكردينال — قال چياكوبى — أرجو أن تكون فى صحة جيدة وأن تكون قد استمتعت بسفرك » .

— « أما صحتى فجيدة ، أيها السيد الكردينال ، وأما سفرى فلم أستمتع به — وأفرغ جلينون جام غضبه الملتهب — لماذا لم تنتظر قدومى ؟ »

كان چياكوبى يجيد التأدب دائماً . ولم يزل — وإن خسر التاج المثلث — أقوى رجل بنفوذه فى الحاشية الرومانية ، فقد ثبّت فى منصبه أميناً على سرّ الدولة البابوية . فأجاب عن سؤال جلينون باحترام وبرود :

— « ليس لى فى الأمر حيلة ، يا صاحب النيافة . إن البراءة البابويّة تنصّ نصًّا صريحاً على أنه يجب عقد المجمع المقدس فى اليوم العاشر من وفاة البابا » .

— « إن البراءة تمنح الكردينال النائب تصرفاً واسعاً فى تفسيرها » .

فأردف چياكوبى بقوله : « إن هذه البراءة تجزم أيضاً بضرورة الإسراع فى انتخاب البابا الجديد دون إبطاء » .

— « إنك تفسر البراءة كما يروق لك ، فلو تأخر واحد من كرادلتك الطليان العزيزين ، لكنت وجدت مخرجاً وتفسيراً » . فقد جلينون من جراء تعبه السيطرة على عقله واستطرد لكلامه قائلاً : « أما لو تأخر كردينال أمريكى ، فلن يلتفت إليه » .

فابتسم الكردينال النائب متعمداً إثارة الأمريكى ، وقال : « كيف لم نلتفت إليك ؟ إنك متعب جداً ، أيها الأخ العزيز . ألم يخصص لك قطار مفتخر فى ناپولى ؟ ألم يستقبلك لدى وصولك إلى روما أسقف من الحاشية الرومانية ؟ كل شىء أعد كما تقضى به المراسيم » .

أحدث تأدب چياكوبى عند جلينون هيجاناً أكثر مما تفعله الكلمات الحادة : « والآن ، يا صاحب النيافة ، يجب أن تعذرنى . إن واجبى يضطرنى إلى مساعدة البابا الجديد الحبر الأعظم عند منحه بركته الرسولية للمدينة وللعالم » .

لم يرتبك جلينون من هذا المزيد من التأدب ، فزمجر قائلاً : « سأعرض قضيتى على الأب الأقدس نفسه » .

— « هذا بالطبع من حقك ، أيها الأخ العزيز » . وانحنى الكردينال النائب واختفى بين تابعيه فى رفرفة من الثياب الحمراء .

فأمسك ستيفن بيد جلينون وقال له : « هيا بنا » . تحدث إليه كمشير ، كأخ أكبر ينبه صبياً شقياً منهك القوى ، إلى أن الوقت قد حان كى يأوى إلى الفراش .

كتم جلينون غيظه ودموعه ، وانقاد لستيفن .

انهار لورنس جلينون حال وصوله إلى حجرته فى فندق « قصر ريتس » . السباق نحو روما ، الرؤية الألمية للدخان الأبيض أمام بوابة المجمع المقدّس ، ومناقشته المتوترة مع چياكوبى ، كل هذه قبضت قلب الكردينال وأجهدت أعصابه. واتضحت ظاهرة المرض الأولى : ضغط حاد على القلب وألم شنيع فى الرأس . فجزع ستيفن عليه وأخذه إلى فراشه ووضع على جبهته كمادات باردة ، ثم سأل مدير الفندق عن اسم طبيب ثقة .

كان السنيور « ريناتو ميرڤوليا » مدير فندق « قصر ريتس » يمثل بدقة دور مدير الشؤون المنزلية بوجه عام . وخبرته الطويلة فى خدمة الروّاد الأغنياء ، وأغلبهم إنجليز وأمريكان ، قد شحذت معرفته فى تقدير الظروف الصعبة التى يمر بها الغرباء فى أرض ليست بأرضهم . لكن السنيور ميرڤوليا كان متزمتاً فى كل ما يتعلق بأمور النصح والإرشاد ، فأراد قبل أن يذكر اسم طبيب لستيفن أن يعرف نوع الطبيب الذى يحتاج إليه .

فسأله بحذر : « هل المرض الذى يعانيه نيافته يتعلق بنظام الهضم ؟ »

— « كلا ، إنه يتعلق بنظام دوران الدم » .

فداعب السنيور ميرڤوليا شاربه بتفكير عميق وقال : « آه ! فيما يختص باضطراب الدورة الدموية فالطبيب " ڤيليتّريا " هو المطلوب . بالحقيقة ، هل يمكن ذكر غيره فى روما كلّها ؟ »

كان الطبيب ڤيليتّريا بنظارته المنكمشة على أنفه يربطها إلى سترته شريط أسود ، وبلحيته الصغيرة البيضاء المستديرة تحت شفته — ذا مكانة رفيعة بين الأطباء الطليان الذين اتخذوا علم الطب عن أساتذتهم فى ڤينا . ويتبع ڤيليتّريا فى تشخيصه طريقة الطب القديم بالجسّ والدق والنقر ؛ مع ذلك فله دراية كافية بالطب الحديث تؤهله لدعم نتيجة أبحاثه بالطرق العلمية . فبعد أن فحص جلينون فحصاً دقيقاً

ونقر على صدره وظهره بأصابعه ، قاس له الضغط ، فارتفع مقياس الزئبق إلى ٢٢٠° — فاستاء الطبيب ڤيليترّيا من هذه النتيجة الشاذة ، ونبذ بعيداً آلته الحديثة وعاد إلى طريقته القديمة . فألصق أذنه على قلب جلينون وأنصت باهتمام بالغ وأخيراً أصدر حكمه : « إنكم تعانون يا صاحب النيافة ضغطاً شديداً فى أوردة الدم يؤثر فى النظام الدورى كله » .

بالحقيقة قد يستحق هذا الكلام الدخول إلى التاريخ ، أما التشخيص فكان صحيحاً . ثم أصدر الطبيب ڤيليترّيا تعليماته : « راحة تامة فى الفراش ، هدوء كامل ، تمنع التأثيرات الخارجية ، ومحظور دخول الزائرين ، ثم إنى أقرّر اتباع نظام معتدل فى الطعام : حساء أرز وشاى » .

ثم كتب الطبيب وصفتين تتركب إحداهما من مزيج من الأعشاب ذات شهرة سحرية كالطلاسم ، وأعلن أنه سيبعث براهبة ممرضة لتقف على العناية بالكردينال .

— « لا أريد راهبات هنا — صاح جلينون فى جزع — لا أريد أى امرأة تدور حولى فى حجرتى » .

فرفع الطبيب ڤيليترّيا كلتا يديه مستغرباً شذوذ مزاج مريضه وقال : « لكنكم يا صاحب النيافة فى حاجة إلى العناية ليل نهار » .

تدخل ستيفن فى الموقف وقال : « سأعتنى به ، أيها الطبيب » .

وسأل الكردينال : « هل أستطيع حضور حفلة التتويج يوم الأحد القادم ؟ »

— « ذلك غير معقول . إن القلب ضعيف ويخشى حدوث جلطة فيه ، إن حضور حفلة التتويج سيسبب لكم نوبة حادّة فى الدورة الدموية » .

— « كفّ عن استعمال كلمة الدورة الدموية » ، قاطعه جلينون وهو يدير وجهه المنتفخ المحتقن إلى الحائط .

عند الباب ، همس الطبيب ڤيليترّيا إلى ستيفن قائلاً : « الحالة خطرة . والرجل بين أيديكم مريض حقاً » .

لم يكن الرجل بين يدى ستيفن مريضاً فقط بل مشاكساً . لم يعجب جلينون شىء ألبتة ؛ كان يحنق على أصناف طعامه ، ويتضجّر من ضوضاء الشارع ،

ويشاكس كاتم أسراره الممرّض وينكد عليه حتّى فرغ صبر ستيفن أو كاد .

كان جلينون يجد طمأنينة وتعزية فى صلاة سبحته مما جعله يحتفظ بستيفن راكعاً بالقرب من فراشه مدة ساعات يساعده فى صلاته . بين ساعة وأخرى فى أثناء الصلاة كان ستيفن يدلّك جسم جلينون بالكحول ويناوله كمية من الشاى . عمل مملّ مُضْنٍ ، لكنه خفّض من ضغط الدم إلى درجة معتدلة .

فى يوم السبت السابق للتتويج تحسنت حال جلينون وافتقد زائريه : « أين هم جميعاً ؟ — سأل بنكد — ألا يعلمون أنى مريض ؟ لِمَ لَمْ يأت أحد لزيارتى ؟ »

لم يخف على ستيفن أن المدينة كلها تستعدّ ليوم التتويج وأن كبار المسؤولين فى الڤاتيكان فى شغل شاغل عن القيام بزيارات . فشرح الوضع لجلينون بكل لطف : « اصبر حتّى تنتهى حفلة التتويج ، وعندئذ يتهافت عليك الزائرون . وستضطر إلى تحصين نفسك داخل حجرتك كما فعل أسقف بينجن فى برج الفئران على نهر الراين » .

فتنهّد جلينون وبصره فى السقف : « أرجوك ألف مرة ، أيها الأب فرمويل ، بأن تترك أمثالك الشعرية وتعطينى شيئاً لآكله . إنى لا أستطيع العيش على الشاى وحساء الأرز فقط . إنى دمويّ . أو هكذا يدّعى ذلك الدجال الإيطالىّ . لا بأس إذن ، أحضر لى طعاماً دمويّاً : قطعة من لحم خنزير ، أو قطعة من لحم خروف أو قطعة من لحم عجل . ألا يوجد فى هذه المدينة البابوية لحمٌ يعيد إلىّ نشاط الدم ؟ »

فى ذلك المساء قدّم ستيفن لكردينالة على العشاء قطعة مشويّة تسيح بدمها . فكانت النتيجة مجدية سحريّة : استند جلينون إلى مخدات فراشه والتفت إلى ممرّضه قائلا :

— « فى استطاعتك أن تتمتع بحضور الحفلات غداً فى كاتدرائية القدّيس بطرس ، لأنى بالطبع مضطر لأن ألزم الفراش — لم تزل نبرة الألم تحزّ فى صوت جلينون — فإنى لا أرى سبباً يمنعك من حضور التتويج » .

فاعتذر ستيفن قائلاً : « قد رأيت تتويجاً قبل هذه المرّة . على كل ، لا أريد أن أتركك وحدك . فمن يقدّم لك فنجان الشاى اللذيذ ؟ » .

فقطّب جلينون وجهه وقال : « لو حظيتْ أسرة فرمويل بلبس معطف النبلاء ، يا ستيفن ، فسيرسم عليه بخيوط ذهبية قلبٌ كبير واسع مشتعل بالمحبة والعطف . اركع بالقرب من فراشي ، يا بنى ، ولنتلو معاً أسرار المجد الخمسة على نية البابا الخصوصية » .

فى اليوم التالى لتتويج پيوس الحادى عشر ، تدفق سيل من الزائرين إلى حجرة جلينون . فبعد حفلات التتويج التى اضطرتهم إلى المثول أمام الحبر الأعظم وجد موظفو الڤاتيكان وقتاً ليقوموا ببعض الزيارات . فأتى طبيب الأب الأقدس الخاص — وهو صورة طبق الأصل للطبيب ڤيليترِيا — وقام بفحص نبض جلينون . و بعد أن وجّه إليه سؤالاً أو اثنين ثبت التشخيص الأوّل من وجود اضطراب فى الدورة الدموية ، وطمأن الكردينال بزوال الخطر عنه .

بدأ جلينون يجلس — أولاً فى الفراش — ثم لما هبط مقياس الضغط إلى ١٦٠° ، سمح له بالسير قليلاً مدة النقاهة فى القاعة المشمسة الملحقة بحجرته . والحمد لله ! فبفضل النظام الذى اتبعه فى طعامه من شاى وحساء أرز ، انخفض وزنه عشرة أرطال مما مكنه من النظر إلى العالم بعين هادئة لا احتقان فيها ولا شرر .

ذات صباح ، وستيفن يساعد الكردينال على ارتداء ثيابه ، سمع صوت جلبة فى ممرّ الفندق . خرج ستيفن وإذا به يرى السنيور ميرڤوليا ومعه فريق من المساعدين يفسحون الطريق لشخصية عظيمة جدًّا . من طرف الممرّ ظهر أسقف طويل القامة ، واحد من القليلين الذين لم يرَ ستيفن فى حياته أقوى منهم . ثم تقدّم مدير الفندق وقدّم ستيفن إلى صاحب السعادة الكردينال روفائيل ميرى دلڤال .

ركع ستيفن ليقبل خاتم اللازورد فى يد الرجل الذى أوشك مرتين أن ينتخب ليلبس التاج المثلث . كان ميرى دلڤال فى سنّ الستين من عمره قويًّا نحيفاً كسيف من طليطلة . لبس على رأسه النبيل قبعة حمراء ، رمز رتبته ، وقد ارتدى معطفاً كبيراً واسعاً كأمير بحرية القديس بطرس .

— « هل صديقى العزيز القديم فى صحة تسمح له بمقابلتى ؟ » سأل فى صوت رنان كنائسىّ .

فأجاب ستيفن : « دون شك . هل تتفضلون نيافتكم بالدخول » .

ارتدّ موظفو الفندق إلى الوراء . ثم تناول ستيفن معطف الزائر الجليل ، وفتح باب حجرة جلينون قائلا : « الكردينال ميرى دلڤال ، يا صاحب النيافة » .

— « روفائيل ؟ »

كان الأسبوع الذى قضاه جلينون فى فراشه قد كسا صوته وحركاته مرحاً . فقفز كعروس التوراة وتقدّم مبسوط اليدين نحو صديقه القديم .

— « لورانزو ! »

كم كان المشهد وديًّا رقيقاً والرفيقان يتعانقان ! حمل ستيفن معطف ميرى دلڤال وعلّقه فى خزانة . ثم انسحب إلى حجرته ، وانطرح على فراشه تعباً من أسبوع الخدمة الذى قضاه بالقرب من جلينون ، وسرّ فى داخله من أن يرى دلڤال العظيم قد وجد وقتاً كافياً لزيارة صديقه . كان ميرى دلڤال رجلاً تجتمع فيه كل مقوّمات الأمير الكنسىّ : العظمة ، والجاذبية والفكاهة والابتسامة اللعوب . وأخذت ستيفن سنة من النوم وهو يحاول سبر حكمة الله الواسعة فى اختيار خدّامه .

وإذا بصوت جلينون يعيده إلى الحقيقة .

— « إن الكردينال ميرى دلڤال أحضر لى هدية — قال جلينون — إنها فى معطفه . هل تتكرّم ، يا ستيفن ، بالبحث عنها فى جيب معطفه الداخلىّ ؟ »

قفز ستيفن ومدّ يده إلى الجيب الحريرىّ وأخرج منه كيساً من الورق .

— « ها هوذا » ، قال ميرى دلڤال ، وأخذ كيس الورق من ستيفن ورفعه أمام عينى جلينون وهو يثيره بحركاته : « هل تعلم ما به ، يا لورانزو ؟ »

— « حيوان ، أم نباتٌ ، أم جماد ؟ »

— « أتظنّ أنى أحمل لآلئ أو أرانب فى كيس من الورق ؟ »

— « كرز ؟ » — كانت فرحة جلينون فى هذه اللعبة قد رجعت به عشرين سنة إلى الوراء .

— « قد قربت . احزرْ ثانية » .

— « كمثرى ؟ »

— « فى فبراير ؟ أيها الفجع ! احزرْ مرة أخرى » .

— « لا ! يوسفندى ؟ »

انفجر الضحك فى الحجرة وأخرج ميرى دلڤال بضع برتقالات صغيرة من الكيس، وشرع يقذف بها فى الهواء كالبهلوان : « فكّرت فى أنك قد تسرّ بدور من لعبتنا القديمة . هل تذكر قوانين اللعبة » .

— « أذكرها ، لا بأس . لكنى نسيت معظم أشعار هوراس » . ولمع الخبث فى عينى جلينون البندقيتين وقال : « ربما استطاع ستيفن اللعب بدلاً منى » .

فالتقط ميرى دلڤال الاقتراح بسرور : « هل تحبّ ذكر شعر من هوراس ، أيها الأب ؟ »

تقدّم ستيفن وهو واثق بخبرته كحارس أول لمرمى البيسبول من أنه قادر على التقاط البرتقالات دون عناء . لكن ذاكرته الصدئة فى هوراس أزعجته . مع ذلك ، فهل من العار أن يغلب على أمره فى هذه اللعبة الأدبية أمام كردينال شهير ؟

وقال ستيفن : « إن تركتنى أختار قصيدتى ، أحاول » .

— « هذا شرط وجيه جداً . وإذا لم يعترض أحد ، فسنستغنى عن رمى البرتقالات. الحقيقة — والتفت نحو جلينون — أنى فقدت خفة يدىّ بسبب قلة التمرين » .

— « هيه ! أتتهرّب ! عليه ، يا ستيفن . سأكون الحكم » .

بين جميع القصائد اللاتينية ، كان ستيفن يفضّل نشيد هوراس حيث يصف عودة الربيع إلى عالم متجمد من البرد ، ثم يصوّر ويقارن تفاعل الكآبة بين دوران وتتابع الفصول الأربعة المستمرّ فى الطبيعة ، وبين انحدار الإنسان الجامح نحو الظلمة والرماد .

والنشيد يلائم الأحداث الجارية : الربيع يطلّ على روما ، والأنهر تفيض مع ذوبان الثلوج ، وهذان الرفيقان القديمان يعيدان ذكرى الأيام الغابرة .

وقف ستيفن على بعد عشرة أقدام أمام ميرى دلڤال ، وبدأ ينشد :

تبدّدت الغيوم

وعاد العشب إلى الحقول

واكتسى الشجر بالورق...

ابتسم ميرى دلڤال إعجاباً بالنصّ والإلقاء ، وقذف منافسه بالبيت التالى :

بدّلت الأرض ثوبها
وانحدرت الأنهــار
مغرقة شواطئها

قفز جلينون على قدميه ، واللهفة تستحثه كالطفل وصاح قائلاً : « إنى أعرف هذا النشيد . فلنحاول معاً المقطع التالى ، يا رافائيل . سيساعدنى ستيفن إذا تعثرت » .

تبادل الكردينالان المهيبان الأشعار الذهبية مرة تلو الأخرى حتى إذا ما انتهيا إلى المقطع الأخير نال منهما العجب والتأثر لما حواه من معنى بين طياته :

من يعلم ؟ هل الإله چوپيتر
الذى يسيطر على حيـــاتنا
سيقذف بنا إلى صبح جديد ؟ .

لما فرغ جلينون ، بعد تردّد خفيف ، من سرد البيت الأخير من النشيد ، سارع الاثنان الواحد نحو الآخر ضاحكين — وصاح جلينون قائلاً :

— « آه ! لو قدّر لچياكوبى أن يرانا ! كم كان سيمتقع وجه ذلك الصقلى ! »

أدرك ستيفن من مرح الكردينال ونبرة صوته أنه قد تماثل للشفاء ، بعد أن خاض زوابع الأطلسى وذاق مرارة سوء طالعه وتلظّى بسهام الإهمال الذى عاناه من الحاشية الرومانية . إنما جميع هذه ، جملة أو فرادى ، لم تفتّ فى عضده . كان قياس الدم الذى يجرى فى أوردته ويؤثر على حسب تعبير الطبيب ڤيليتّريا فى دورته الدمويّة هو الدم نفسه الذى يجرى الآن جديداً حيّاً فى جسم جلينون الذى أضحى قلبه نشيطاً قويّاً .

* * *

بعد ذلك بمدة قصيرة اتصل ستيفن بألفيو كارنجى وأرسل إليه كلمة صغيرة إلى مكتبه فى أمانة سرّ الدولة البابوية ، وجاءه الردّ بخط كارنجى نفسه :

« عزيزى ستيڤانو : هل تستطيع المجىء إلى مكتبى غداً مساء ؟

ادخل مدينة الڤاتيكان من بوابة قوس الأجراس سيدلك الحارس على الطريق .

أطيب تمنياتى إلى كردينالك المريض . مع الشوق الحار للقائنا — بسرعة لكن بحبّ — المخلص : ألفيو . — »

بينما كان جلينون وميرى دلڤال يتسامران بعد العشاء ، توجه ستيفن إلى مقرّ كارنجى فى مدينة الڤاتيكان . عند بوابة قوس الأجراس ، زوّده الحارس بمعلومات سمحت له بعبور متاهات من الحدائق والممرات ، وأخيراً انتهى إلى بناية حجرية مسندة إلى التجويف الغربىّ من السور الليونينى ، حيث وجد فى كشك الحارس بواباً مسنًا يحدّق ببصره إلى قبة كاتدرائية القديس بطرس ، وقد انعكس رسمها فى ظلّ البدر المشرق على أزهار الربيع . سأل ستيفن البواب عن كارنجى ، فاستدار هذا على مقعده وأشار إلى باب من السنديان فى منتصف درج من الحجر وقال :

— « اطرق . إن المنسنيور كارنجى فى انتظارك » .

طرق ستيفن الباب ففتح . وظهر ألفيو كارنجى واقفاً باسطاً كلتا يديه بترحيب أبوى يبرهن عن الصلة الوثيقة بين الأستاذ وتلميذه . فقاد ستيفن إلى حجرة بيضاء واسعة كملعب التنس وعارية من كل شىء ، لا يزينها سوى صليب فضة وستارة ضيقة بيزنطية . أما الجدران الأخرى فكانت مرصوفة من أسفلها إلى أعلاها بكتب لا حصر لها . فى الوسط أشعل موقد أشاع الدفء فى أرجاء الحجرة ، وفى زاوية بعيدة أقيم مكتب كارنجى يضيئه مصباح مرفوع على أرجل ، وبالقرب منه كرسيان عاليا الظهر . لولا حجم الحجرة الواسع ، لما اختلفت فى مظهرها عن حجرة النساك التقليدية .

— « اجلس، يا ستيفانو . إنى متشوّق لرؤيتك . دعنى ألق نظرة عليك » . ورفع كارنجى غطاء المصباح قليلاً ليلقى مزيداً من الضوء على زائره : « منذ كم لم نلتق ؟ سبع سنوات ؟ نعم . وأرى أن الزمان ، ذلك الفنان الكبير ، قد حفر على شفتيك وجبهتك خطوطاً عميقة . إن ذلك لمرغوب فيه ، وإلا أضحت صفحة الوجه كرقّ لا حروف فيه » . ثم أعاد غطاء المصباح كما كان وقال : « لا تقرأ هكذا بفضول ، يا ستيفانو ، فى قرطاس أيامى » .

قد شاب كارنجى . لا شك فى ذلك . الشعر الذى ألفه ستيفن أسود ، اكتسى الآن رماداً . والنظام النسكىّ الشديد أزال كل مثقال ذرة من الشحم الفائض

فى وجهه وجسمه . فبعد أن مرّ كارنجى بجحيم الدبلوماسية فى عالم تسوده الحرب وتحمل أتعاب السفارات فى صوفيا وبلغراد ، هزل جسمه حتى أمسى هيكلاً أضناه التوتر بين عالم الأحداث وعالم الأفكار .

كان عالم الأحداث منثوراً أمامه على مكتبه : برقيات وتقارير لا تحصى من سفارات قارات ثلاث . وأما عالم الفكر فقد انتصب وراءه على الرفوف المرصوفة بكتب الفلسفة والأدب والحقوق . التقط كارنجى كتاباً مجلداً مذهّباً وقدّمه إلى ستيفن وقال : « هذا هو التجليد الخاص الذى أجريته على نسختك فى ترجمة سلّم المحبة . فى الحقيقة لقد برهنت على كذب المثل السائر الإيطالى القائل : "كل مترجم متاجر" . — لم أكن أتصوّر إمكان إنجاز عمل مثل هذا فى أمانة ورشاقة من لغة إلى أخرى » .

فتح ستيفن الكتاب الثمين ورأى على الورقة الأولى مكتوباً بخط يده : « إلى ألفيو الذى يعمل فى جزء آخر من كرم الرب . المخلص : ستيفن » — ثم تصفح الكتاب وتذكر جملاً ومقاطع استأثرت من وقته بساعات طوال أليمة ذاق فيها عذاب التردّد فى الوصول إلى قرار .

— « إن المترجم ، وإن كان ضعيف الأداء ، لا يستطيع الحطّ من أفكارك ، يا ألفيو . إن أفكارك سامية ، قوية . فى بعض الأحيان عندما كنت أشعر بصعوبة العمل والترجمة ، كنت أشجع نفسى بذكر طباق تشسترتون الذى قاله : "كل ما يستحقّ العمل فاعمله ولو رديئاً" . . . . بعد ذلك كنت أتابع عملى » .

فتألقت عينا كارنجى العسليتين اغتباطاً وقال : « هذا بعينه مختصر الحكمة كلها ، يا ستيفانو . قد تعلمتها حديثاً . فكل محاولة نحو الكمال تشبه فرقة موسيقية ذات صوتين متناقضين : صوت الصنوج فى مراكز الروح العليا يختلط ويتجاوب مع صوت الحديد الجاف فى مراكز المادة السفلى . وعلينا قبول ذلك كما تقدّمه لنا الحياة . — وارتفعت عينا كارنجى لحظة نحو الصليب فى ظل المصباح وقال — ربما يكون ذلك صدًى للصراخ الذى أصدره فادينا الإلهى فى آخر لحظة من حياته » .

لم يزل كارنجى كما كان منذ سبع سنوات . ربما اختلفت أعماله وزادت

مسؤولياته . لكنه لم يزل الأستاذ فى تعليم « الكلمة » والمتحدّث بالحقيقة الثابتة . أما نقاوته فذكرت ستيفن بتلك المادة غير البالية القادرة على إذابة المواد الأخر ، مع أنها هى نفسها عديمة الاستحالة .

تجاذب الصديقان أطراف الحديث وامتدّ بهما الوقت عذباً . وأنصت كارنجى كأنما يستمع إلى مقطوعة موسيقية فى حين استرسل ستيفن فى وصف حياته الرعائية فى السنديان . ذهل كارنجى عند سماعه ما يقوم به كاهن من أعمال عديدة وضيعة فى رعيته . وأعجب بمشروع تقطيع الأخشاب واقتسام الأرباح على أساس شركة تعاونية . ولم يخف كارنجى تأثيره عندما أخبره ستيفن كيف بدأ الأب بولس آيرثون يؤسس رعيته الجديدة ولم يكن فى جيبه سوى خمسة سنتات فقط .

وسأله كارنجى : « كم تساوى الخمسة سنتات ؟ »

— « ليره إيطالية على التقريب » .

— « هل من المعقول أن يشرع فى بناء كنيسة بليرة واحدة فقط ؟ ما أعظم شجاعتكم وحيويتكم أنتم أيها الأمريكان الكاثوليك ! . . . »

— « إنى مسرور لسماعى اعترافك بهذا ، يا ألفيو » . كان حديث ستيفن صريحاً كما هو مألوف بين الأصدقاء المفكرين . ثم أردف ستيفن بقوله : « فى الولايات المتحدة نشعر أحياناً بأن روما تنظر إلى أمريكا نظرة الأم إلى ابن غريب » .

— « ابن غريب ؟ » ، حاول كارنجى بلطف تصحيح ما يخفيه هذا الكلام من اتهام ، فقال : « إن الكنيسة تبسط محبتها ورعايتها بعدل على جميع أبنائها » .

فتجرأ ستيفن وقال فى جفاء : « ليس من برهان مقنع على وجود هذه الرعاية خصوصاً فى المجمع المقدّس المنصرم أو الذى قبله » .

سلّم كارنجى بالواقع وقال : « لا ألومك على شعورك ، يا ستيفانو » . — ثم وقف وطفق يجوب حجرته على جانب مكتبته .

— « إنى لا أفشى سراً بقولى لك إن قداسته قلق جداً مما جاء فى المرسوم الرسولى ، فى فقرة تجعل من المستحيل على الكرادلة الأمريكيين الوصول إلى روما فى الوقت المناسب لانتخاب البابا . إنه متلهّف لإصلاح هذا الخطأ المجحف . هل اجتمع كردينالكم بالأب الأقدس أو لا ؟ »

— « كلا . قد حدّدت المقابلة يوم غد فى الحادية عشرة » .

— « حسن ! . . . فليستعد إذن لذكر موضوع " العشرة الأيام " إلى الأب الأقدس فى اجتماعه السرّى معه » .

عكس ضياء الموقد ظل كارنجى المستطيل على جدران الحجرة النسكية ، واستطرد كارنجى لقوله : « أشكرك يا ستيفانو على توجيهك تفكيرى فى هذا الموضوع . لم تظهر الحالة لى من قبل فى مثل هذا الوضوح كما هى الآن . أعتقد أن اهتمام الكرسىّ الرسولى المفرط بالعالم القديم ربما كان سبباً لإهماله الظاهر بالعالم الجديد . وربما كان تحيز الأساقفة الأمريكيين سبباً — أيضاً — فى أنهم تناسوا طبيعة الكنيسة الجامعة » .

أذكى كارنجى نار الموقد الخافتة فلمعت بضياء وهّاج . ثم قال : « يجب أن تنصبّ سياستنا الخارجية للمستقبل على الفكرة الآتية : كيف السبيل إلى تقريب وجهات النظر بين روما والولايات المتحدة ليفهم الواحد عمل الآخر ؟ لا بد من تسويات ، وتصحيح فى النظريات . إن الحيوية الأمريكية ، فى رعاية وتوجيه من روما ، لا بد أن تأتى بنتيجة حاسمة فى السنوات العصيبة القادمة » .

ثم مزج كارنجى رؤياه للمستقبل بتقديره الواقعى للزمن الذى تسير فيه الحياة الحاضرة . وقال : « المعذرة ، إن عمل التجديد هذا لن يحدث بين ليلة وضحاها . ربما تنقضى عقود وأجيال وقرون قبل إتمام هذا العمل » وتوقف عند كرسىّ ستيفن محاولاً استطلاع ردّ الرجل الشاب على كلماته ، وسأله : « هل ترغب فى وقف حياتك لعمل لن يتمّ فى أيامى أو أيامك ؟ »

— « كل ما يستحق أن تعمله — أجاب ستيفن — فاعمله بطيئاً » .

— « ما أعظم خلقك ، يا ستيفانو ! إنه واسع جامع حتى يقال عنه إنه رومانى ، وصريح بما فيه الكفاية حتى يكون أمريكيًّا » .

غادر ستيفن مقرّ كارنجى فى منتصف الليل وكانت السحب المضاءة بأشعة القمر البيضاء تنساب فى الأعالى فوق قبة مايكل أنجيلو العظيمة ، اتخذ طريقه بين الحدائق المهجورة وفى ظل الأعمدة الضخمة حتى بلغ إلى قوس الأجراس . تصاعدت فى داخله أصوات ، إن هى إلاّ أصداء لحديثه مع كارنجى : إنها

أصوات الصنوج فى مراكز الروح العليا تختلط وتتجاوب مع أصوات المعادن الجافة فى مراكز المادة السفلى . ملأت هذه الأصداء نفس ستيفن بصوت آخر جعل من الحياة أفضلها وأمتعها ، وتردّدت نبراته ظافرة ، قنوعة ، بطيئة .

* * *

باتحاد معنوىّ من الإيمان والهندسة ، صممت الحجرات الألف فى القصر الرسولى لتقود جميعها حتماً إلى حجرة فسيحة فى الطابق الثانى تطل على حديقة كاتدرائية القديس بطرس ، وهى أقرب الحجرات إلى قبر الرسول مؤسس كنيسة روما ، وتؤلف معاً مقرّ عمل الحبر الأعظم ومكتبته . من عتبتها يتدفق سيل لا ينقطع من الشخصيات المدنية والكنسيّة : حكام ومبعوثون عن الدول الأجنبية ، كرادلة وموظفون فى القصر ، رؤساء المحاكم والجمعيات ، موظفو الحاشية البابوية ، والهيئة الإدارية فى الكاتدرائية — جميعهم يطلبون الاجتماع بالمنفذ الوحيد الذى يدير مقاليد الحكم فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . إنهم يبسطون أمورهم ويعرضون مطالبهم على الرجل المتشح بالأبيض والمحتذى بالأحمر الذى يجمع فى شخصه السلطات الثلاث من مشرّع وحاكم وكاهن . مع أن إجراءات المقابلة شديدة محدّدة ، ولا ينطق الحبر الأعظم إلا بصيغة الجمع المتكلم ، فإنه مع ذلك يقود جميع أحاديثه بصبر إنسانى كبير ولباقة شخصية بالقدر الذى حباه به الله وزودته به خبرته لإدارة الأمور . ومع أنه معصوم من الغلط عندما يعلم ويحدّد ، من أعلى المنبر ، الحقائق التى تمُتّ إلى الإيمان والآداب ، فالحبر الأعظم مع ذلك ليس معصوماً من افتراض الخطأ فى أحكامه الزمنية . وهذا الوضع الأخير ، الذى يقدّره الحبر الأعظم حامل التاج المثلث حقّ قدره ، هو الذى يجعل من تاجه حملاً ثقيل العبء .

فى صباح الثانى والعشرين من فبراير سنة ١٩٢٢ ، فى المكتب الخاص ، وراء منضدة مستطيلة ، جلس قداسة البابا پيوس الحادى عشر ، أسقف روما ، ونائب السيد المسيح ، والحبر الأعظم على الكنيسة جمعاء ، بطريرك الغرب ورئيس أساقفة إيطاليا . كان البابا الفيلسوف ذو النظارات يفكر بين مقابلة وأخرى فى مهام منصبه العديدة .

لم تنقض عشرة أيام على تسلمه زمام الرئاسة ، وما كادت تذوب أصداء التراتيل

فى حفلة التتويج الرهيبة ، حتى صدمت الحبر الأعظم زفرات عالم مضطرب منقسم . ارتفعت أنات الشقاء من جميع أرجاء الأرض . كانت أوربا بعد الحرب غارقة فى هوّة من التصدّع الجسمانى والاقتصادى . والنمسا ، التى لبثت زمنا طويلا معقلا وحصناً للكنيسة ، ارتمت إلى الحضيض بائسة جائعة . واشتبكت إرلندا فى حرب أهلية ضروس مع إنجلترا . وفى شمال الاتحاد السوفييتى ارتفعت شُعل المسيح الدجال . أما قصر الكويرينال الذى كان يوماً ملكاً للكرسىّ الرسولى ، فقد تربّع فيه ملك تحوّلت عنه ثقة الشعب ويحاول جاهداً إنقاذ إيطاليا من مهاوى الفوضى . فوق تناحر الأحزاب علا صوت رجل ثورىّ ذى قميص أسود ينادى بعلاج حاسم للأمراض التى تهدّد كيان إيطاليا .

هذا فيما يختصّ بالعالم . لكن ماذا عن الڤاتيكان نفسه ؟ إنه لا يزال سجناً والساكن فيه سجيناً . يا للمصادفة ! تذكر الحبر الأعظم أن بدء حياته الجديدة هذه يوافق أو يكاد يوماً بيوم رفض الكرسىّ الرسولى اعترافه باستيلاء أسرة ساڤوى على أملاك الكنيسة فى سنة ١٨٧٠ . وأصبح السجن الاختيارى داخل جدران الڤاتيكان هو السلاح الوحيد الذى استطاعت البابوية شهره فى وجه مغتصبيها . أما أدبيًّا فقد أصبح هذا السلاح فعالاً للغاية . لم ترتفع قط أسهم سلطة الڤاتيكان الروحية كما هى عليه فى الوقت الحاضر .

أما من الوجهة المالية ، فكان الكرسىّ الرسولى فى أشد أيامه ضيقاً . لم يستغرب الحبر الأعظم ، عند سؤاله أمين مالية الڤاتيكان ، من اكتشافه أن خزائنه فارغة أو تكاد .

كانت الحكومة الإيطالية مدينة بمئات الملايين من الليرات تعويضاً عن اغتصابها أملاك الڤاتيكان . لكن الكرسىّ الرسولى رفض قبول ليرة واحدة من هذه الرشوة . ولا بدّ إن عاجلا أو آجلاً من تسوية هذه المسألة الرومانية التى أساءت إلى العلاقات بين الڤاتيكان والكويرينال مدة خمسين سنة . أما فى هذه الأثناء فسيفضّل پيوس الحادى عشر المكوث بإرادته سجيناً داخل الأسوار الليونية من أن يصبح دخيلاً معتمداً على أسرة ساڤوى .

بالحقيقة كان الأفق مظلماً . ولم يلمع بريق الأمل إلا من جهة واحدة :

أمريكا ! كانت نجمة الغرب ، بهيَّة فى ثوب إيمانها ، ترتقى صعُداً نحو السماء . وكانت روما دون شك مهملة فى اهتمامها بهذا النجم ، حتى لقد بلغ مسامع الحبر الأعظم أن قلة اكتراث الڤاتيكان بالأمور الأمريكية قد أصبح يفهم منه أنه إهانة جاهلة فى حق عشرين مليوناً من الكاثوليك الأوفياء فى العالم الجديد المتكلم بالإنجليزية.

فى هذ الصباح الربيعىّ المعطر وضع الأب الأقدس بين أوائل الأمور فى جدول أعماله مهمة توثيق الروابط بين روما وبين أبرشياتها الغربية المزدهرة . بعد دقائق ، سيجتمع بالأب الأقدس واحد من أمراء الكنيسة المالك على إحدى تلك الأبرشيات : هو الكردينال لورنس جلينون من بوسطن . تصفح پيوس الحادى عشر ورقتين من مذكراته ليجدّد معلوماته فيما يختص بالولايات المتحدة بنوع عام ، وبأبرشية بوسطن بنوع خاص . أحد هذين التقريرين ، وهو يحتوى على عدد كبير من المعلومات المفيدة المنتقاة ، ممهورٌ بتوقيع كارنجى ، والآخر ، وهو يمتّ بصفة خاصة إلى تاريخ لورنس جلينون الشخصىّ ، بتوقيع ميرى دلڤال .

أمام باب الديوان البابوى ظهر مدير التشريفات فى حلته المخملية التقليدية وياقته المجعَّدة :

ــ « نيافة الكردينال لورنس جلينون ، رئيس أساقفة بوسطن ، فى الانتظار فى الحجرة السرّية المجاورة ، يا صاحب القداسة » .

ــ « نحن مستعدون لاستقبال نيافته » .

شرع الحبر الأعظم يعدل ترتيب الدمى القريبة منه على مكتبه كما يفعل أىّ حاكم آخر يرغب فى تهدئة أعصابه قبل اجتماع خطير . أبعَد مقدار بوصتين إلى الشمال تمثالاً صغيراً للقديس أمبروسيوس شفيع الفلاسفة ، ودفع يسيراً إلى اليمين وساماً ذهبيًّا أهدته إليه جمعية الألپ (فقد كان قداسته فى حداثته رياضيًّا ممتازاً يهوى تسلق الجبال) . ثم انحنى إلى الأمام ودفن وجهه فى باقة من زهر الكرز حمراء بيضاء، ثم تلمّس فى جيب جبته الداخلى شيئاً أحبه كثيراً لكنه لم يعد فى حاجة إليه الآن .

فتح باب المكتبة لاستقبال الكردينال الأمريكىّ ، فانتصب پيوس الحادى عشر ليتقبل احترام وخضوع زائره . من طرف المنضدة التى لا يتطرّق إليها الغلط فى التعليم ، رأى رجلاً بديناً يجاريه فى السن قد خرّ على كلتا ركبتيه كما تقتضيه

القواعد البابوية . خلال نظاراته الغليظة راقب قداسته الكردينال جلينون ينتصب بصعوبة كبيرة ويتقدم إلى وسط الحجرة . وقبلما يبدأ الأمريكى ركعته الثانية كان الحبر الأعظم قد دار حول المنضدة مبسوط اليدين وعيناه الضعيفتان تبرق شفقةً ورحمة .

— « دع عنك الركوع ، أيها الأخ العزيز . إن مفاصلنا الواهية لا تتحمل ذلك . إليك هذا المقعد . . . أما أنا فسأجلس على الديوان » . — كان پيوس الحادى عشر رجلاً رقيقاً ويجيد تماماً سياسة الظرف . وإذ لاحظ أن ساقى جلينون تتأرجح مقدار بوصتين فوق الأرض دفع إليه البابا بمسند مطرّز بخيوط ذهبية ليضع زائره عليه قدميه . ثم بدأ الحديث قائلاً :

— « إننا مهتمون جدًّا بما آلت إليه حالة ضغط الدم عندكم ، أيها العزيز جلينون . هل نجح أطباؤنا الطليان فى خفض درجات الزئبق التى ارتفعت فى آلتهم الرهيبة ؟ »

لطّف عطف البابا من مزاج جلينون ، فشعر وهو يضع قدميه على المسند بأمان مزدوج : ثبات قدميه أوّلاً والاهتمام بشخصه ثانياً . مشاعر تختلف تماماً عن تلك التى تركها چياكوبى . فقد كان پيوس الحادى عشر رجلاً رقيق الجانب لزائريه . عقد جلينون يديه البضّتين فى هدوء تام ، وقال :

— « إن الأطباء الطليان يصنعون العجائب ، أيها الأب الأقدس . بدأت علاجى بوصفة الطبيب ڤيليتّريا بتناولى منقوع الشاى ، لكن عطفكم فى إرسال الطبيب " ماركيا فافا " قد أتم علاجى . أشكركم شكراً جزيلا ، يا صاحب القداسة » .

فى جوّ تشيع منه السلطة رفع البابا يده التى تحمل خاتم بطرس وأشاح بها فى الهواء بحركة تدلّ على التجرّد وقال : « علينا نحن الكبار أن نحبّ بعضنا بعضاً . أتتصوّر كم كان موسى يتألم إذا وقع واحد من مستشاريه الأعزاء مريضاً ؟ »

كان المثل الذى أورده الأب الأقدس هو المحور الذى يبتغيه جلينون ليجرّ الحديث حوله . فجمع الكرادلة المقدس فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية صورة طبق الأصل من الشيوخ السبعين الذين انتخبهم موسى ليساعدوه فى إدارة وحكم أسباط إسرائيل . لكن الشيوخ العبرانيين كانت لهم ميزة على جلينون وهى أنهم

لم يضطروا للسباق عبر بحار محفوفة بالأخطار ليحضروا اجتماع المستشارين .

شرع الكردينال الأمريكى يحدد موقفه ، مستنداً إلى ذلك السلاح الرقيق الذى قدّمه الحبر الأعظم بمعرفة منه أو دون معرفة فقال :

— « إن الأب الأقدس يمتدحنى جداً إذ يقترح هذا التشبيه بينى وبين شيخ عبرانى . دون شك ، كان موسى يتألم إذا ما تخلف أحد مستشاريه عن حضور مجمع إسرائيل ، سواء أكان ذلك بسبب المرض ، أم لسبب آخر » — تعمد جلينون الإبهام بكل ظرف ، وافتر ثغره عن ابتسامة يستشف منها ظفر السذّج ، ممزوجة بجفاء ، واستطرد لحديثه قائلاً : « لكن ، يا صاحب القداسة ، هل تستطيعون تصوّر خيبة أمل ذلك الشيخ الغائب ؟ ما أتعسه ! وكم حزّ فى نفس ذلك الرجل المسكين شعوره بأن الله قد ضربه بمنعه إياه من حضور الاجتماع » .

— « ما أعذب توريتك التلموديّة هذه ، أيها الأخ العزيز — أجاب البابا — ما علينا إلا أن نقف موقف العجب من لباقة عرضك . بالحقيقة ، لم يكن فى وسعك عرض موضوع أزعجنا طويلا بأكثر دقة وحرقة . إن الكرسى الرسولى يبكى الجور الذى لحق بالكرادلة الأمريكيين ومنعهم من الاشتراك فى المجمع المقدّس » . وبعد أن مضى البابا فى اعترافه بهذا القدر ، توقف برهة ليثبت موقفه بسؤال : « هل عندك فكرة فى كيفية معالجة هذا الجور ؟ »

كان السؤال معقولاً ، فجاء الجواب صريحاً : « حيث إن قداستكم ترغبون فى اقتراح ، فهل لى أن أشير إلى أن تحديد مدة العشرة الأيام فى المرسوم الرسولى هى المفتاح الوحيد للحالة الراهنة . ألا يمكن مدّ هذه المدّة ، كى يستطيع الكرادلة الأمريكيون فى المجامع المقدسة المقبلة أن يستمتعوا بحقهم فى طرح صوتهم لانتخاب البابا ؟ » .

اعترف پيوس الحادى عشر بعدالة هذا المطلب ثم قال : « إنه من سلطاننا مدّ الفترة بين وفاة البابا وافتتاح المجمع المقدس . سنفعله بتعديل المرسوم البابوىّ . فمنذ الآن سوف تنقضى خمسة عشر يوماً — أو ثمانية عشر يوماً إذا دعت الضرورة — قبل بدء الانتخاب » .

تأثر جلينون من كرم هذا التنازل وأحنى رأسه شكراً ؛ فلم تذهب سدى حرقة

قلبه ومذلته مدّة سفره : « أشكركم شكراً جزيلاً ، أيها الأب الأقدس . عن نفسي ونيابةً عن عشرين مليوناً من الكاثوليك الأمريكيين المخلصين ، مدنيين وكنسيّين ، أشكركم » .

فربّت پيوس الحادى عشر خفيفاً بسبابته على قبعة جلينون وقال: « نجيبكم ، أيها الأخ العزيز ، بشكرنا لكم أيضا على صراحتكم التى بها عرضتم هذا الموضوع » . ثم ظهر فى صوت البابا نبرة مداعبة وقال : « لو كنتم أهملتم التحدّث بصراحة ، ما كنتم استحققتم الاحتفال بعيد ميلاد مواطنكم العظيم چورچ واشنجطون » .

ابتسم الحبر الرومانى لدهشة جلينون وقال : « أتظننا جاهلين تماماً بتاريخ أمريكا ؟ إننا لا ناومكم . إن معلوماتنا عن الولايات المتحدة ضئيلة — وربما ضئيلة جدًّا . مع ذلك نجد هذه المعلومات أحياناً مفيدة جدًّا » .

ثم نزع پيوس الحادى عشر نظاراته الغليظة وطفق ينظفها وهو يفكر مليًّا ثم قال : « فى إقامتنا القداس هذا الصباح أدهشتنى مقارنة عجيبة . كما تعلم ، اليوم عيد جلوس القديس بطرس على العرش — وهو اليوم الذى أسس فيه سيدنا يسوع المسيح كنيسته على الصخرة بطرس » .

— « إنه عيد مجيد ، يا صاحب القداسة . أسألُ الله أن نحتفل به فى كل العالم إلى منتهى الدهر » .

وضع الحبر الرومانى نظارته الذهبية على أنفه ثم حدق فى وجه جلينون مستفسراً وقال : « أليس من سعد الطالع أن هذا التاريخ ، ٢٢ فبراير ، يناسب ذكرى مولد أبيكم ومؤسسكم ، واشنجطون ؟ »

— « يكاد يكون نبوءة ، يا صاحب القداسة . والعجب أنه ما من أحد ، سواءً فى روما أم أمريكا ، أشار إلى ذلك من قبل » .

اغتنم پيوس الحادى عشر هذه الفرصة ليقوم بواجبه التعليمى ، فقال : « إنه يجب الإشارة إلى أشياء كثيرة . وعليه ، يجب على روما وأمريكا أن تتحدا معاً فى اكتشاف الأسس لتكوين قوة مشتركة . هل فقد معناه أحد أقدم ألقابنا ، ألا وهو بطريرك الغرب ؟ . . . فى الوقت الذى بين أيدينا ، أيها السيد الكردينال ، لنتحدّث عن الطرق والوسائل التى تمكن مؤسستين غربيتين عظيمتين من تحسين معرفتهما الواحدة بالأخرى » .

تحدثا ساعة كاملة . طلب الحبر الرومانى مساعدة أمريكا فى السنين القادمة من ملكه . وجدد الكردينال الدموى خضوعه لروما بتبادل الآراء مع الحبر الأعظم . ذكر البابا بحماسة العمل الرائع الذى تقوم به كلية أمريكا الشمالية فى روما ، ووافق على اقتراح جلينون بتجديد مبانيها . وأعرب قداسته عن سروره بالنظام الرائع الذى يتبعه جلينون فى أبرشيته ، وهو يطابق نظام الحاشية الرومانية . قال الأب الأقدس بالحرف الواحد : « إنه مثال لكل العالم الجديد » .

بعد ذلك مدح نيافته بإخلاص كتاب الحق القانونى الجديد ، بأنه عمل عجيب فى وضوحه ومتانته — وبالحقيقة كان كذلك . ثم تحدث جلينون عن لطف أورسلى فى انتظاره عند رأس القد ، فكتب بيوس الحادى عشر اسم الربان فى مذكرته .

ثم تطرق الحبر الأعظم بصراحة إلى مناقشة أمور الكرسى الرسولى المالية . فتنهد وقال : « لم تكن خزائننا يوماً بائسة كما هى عليه الآن » .

فطفق جلينون يشجع الأب الأقدس ويقوى من عزيمته قائلاً : « إن أمريكا ستزيد من تحمل أكبر جزء من أعبائكم المالية » .

أما قداسته ، فدون أن يرتبط بوعد أو كلام آخر من أى نوع ، استطلع رأى جلينون فى أمر زيادة عدد الكرادلة الأمريكان . فسأله بيوس : « ألا تعتقدون بوجوب ترقية رئيس أساقفة شيكاجو إلى رتبة الكردينال ؟ »

أجاب جلينون : « إن مثل هذه الترقية أهل لمستحقها ، وستصفق لها بحرارة الولايات المتحدة بأكملها » .

وإذ قربت الساعة ، تطرق قداسته فى حديثه إلى بعض الأمور الشخصية . « بلغنا أيها الأخ العزيز أن سفركم إلى روما كلفكم خاتمكم اللازورد » .

— « نعم أيها الأب الأقدس ، قد أهديته إلى . . . »

فرفع بيوس الحادى عشر يده معلناً عدم تمسكه بالتفاصيل . وقال : « يكفى أنكم ضحيتم به فى محاولة شريفة للحاق بالمجمع المقدس » . — ثم وضع الحبر الأعظم إصبعين فى جيب جبته الداخلى وأخرج منه خاتماً من اللازورد مرصعاً باللآلئ ، وقدمه إلى جلينون ، كأب يكافئ ابناً مجتهداً وقال : « لسنا بعد الآن فى حاجة إلى هذا الخاتم — ثم أطبق يد جلينون السمينة عليه وقال : — إنه لمن دواعى سرورنا أن

نقدّمه إلى أخينا المحبوب فى المسيح » .

كاد جلينون يفقد النطق . لكنه توصل إلى أن يقول فى همسة : « إن كرمكم يخجلنى ويضعنى » .

— « كل من وضع نفسه ارتفع » . وإيذاناً بانتهاء المقابلة وقف قداسته ورافق جلينون حتى باب المكتبة ، ويده اليسرى على كتف الكردينال الأمريكى وكادت يده اليمنى تفتح أكرة الباب ، وإذا به يتذكر شيئاً فجأةً .

— « عندكم كاهن شاب موهوب ، كاتم أسراركم ، يدعى الأب فرمويل ؟ »

— « نعم ، أيها الأب الأقدس . إن الأب فرمويل مساعد جدير خبير ، وقد اختبرناه فى ظروف عديدة » .

— « قد بلغنا عنه من المقرّبين إلينا كلام ذهبىّ كله مديح . يتحدّث المنسنيور كارنجى عن مقدرته اللغوية ، ويصف الكاردينال ميرى دلقال لباقة شخصيته بعبارة حماسية » . — ثم رمى قداسته بملحوظة غريبة : « وقد بلغنا أيضاً أنه لا يخاف مطلقاً فى حضوره أمام رؤسائه الكنسيّين » .

فتذكر جلينون مقابلته الأولى مع ستيفن ، فأجاب موافقاً : « إنه لا يخاف أبداً ! »

— « مع ذلك — كيف أعبر عن فكرى ؟ — دون كبرياء ودون غرور » .

جاء ردّ جلينون مسنداً إلى آلاف من الأمثلة التى برهن فيها ستيفن عن طاعته ولطفه ومحبته : « إن الأب فرمويل ، يا صاحب القداسة ، لمزيج غريب . قلبه رقيق وذهنه حديد . يحنى عنقه وركبتيه طاعةً . . . لكنى لم أرَ له مثيلا فى صلابة عموده الفقرى » .

فقال قداسته فى تؤدة : « حسن ! حسن! . . . أيها الأخ العزيز . قد فكرنا فى أن الأب فرمويل يستطيع القيام باتصالات هامة فى أعمال أمانة سرّ دولة الفاتيكان . هل عندكم اعتراض على ذلك ؟ » .

ألقى جلينون نظرة إلى الخاتم فى راحة يده وفكر فى نفسه قائلاً : « كسبت خاتماً وخسرت آخر » . ثم أجاب قداسته بصوت مسموع :

— « إن طلبكم أيها الأب الأقدس ، هو عندى كالأمر . مع أنى متألم لفقدانه ،

إلا أنى أفرح للفرصة التى يمنحه إياها الكرسى الرسولى فى خدمته » .

بعد أسبوع — أى بعد سبع سنين تقريباً منذ رسامة ستيفن الكهنوتية تسلم إشارة بابوية تعينه فى الحاشية الخاصة لأمور قداسته مع لقب منسنيور . فأصبح يحق له ارتداء الجبة الحمراء والمعطف القصير . وعين موظفاً فى جمعية الأمور الكنسية الاستثنائية .

* * *

كهدية الوداع ، أرسل الكردينال لورنس جلينون ستيفن إلى أبرع خياط فى روما ، وقال له آمراً : « اقتن لك قطعتين من كل شىء ، وانتق أفضل صنف منها . فإنا لن نقبل أن يظهر كهنتنا الأمريكيون فى روما بمظهر حقير » .

بعد تجربات عدة تسلم ستيفن معاطفه وجببه وقام جلينون بنفسه بترتيب الثياب الحريرية فى دقة خبير ، وعلم ستيفن كيف يلبسها .

* * *

أرسلت برقية إلى ريتشارد كلاراهان بالحضور بسرعة . فحظى بشرف مرافقة الكردينال إلى بوسطن عن طريق لورد ، المعبد الذائع الصيت . لم يكن كلاراهان قد زار روما قط ، فتقدم ستيفن ليساعد رفيقه فى الدراسة على الاستمتاع بإجازته . لم يلبس ستيفن بذلته الجديدة حتى لا تميل نفس كلاراهان إلى الحسد . فقد توطدت صلة شريفة بين هذين الكاهنين المشهود لهما والمرشحين للتقدم فى درجات الكنيسة فكانا يتبادلان المديح فى نجاحهما . مرة فقط زل كلاراهان وانحرف عن قاعدة الذوق السليم .

حدث بعد زيارة رسمية إلى ألفيو كارنجى ، وهو رئيس ستيفن المباشر فى أمانة سر الدولة ، أن تقدم كلاراهان بجبين مشرق وسؤال معسول : « أليس كارنجى هو الشخص الذى ترجمت كتابه إلى الإنجليزية ؟ »

— « ذلك صحيح » .

فأبدى كلاراهان اهتماماً بجمع معلومات جديدة فى هذا الشأن : « لا بد أن ترجمتك قد ساعدتك ، هيه ؟ »

فأجاب ستيفن : « إنها دون شك لم تضر » . وترك الأمر عند هذا الحد .

كان آخر عمل قام به ستيفن بصفته أميناً على سرّ الكردينال ، أنه رافق جلينون إلى المحطة وأجلسه فى قطار لورد . تسابقت كلمات الوداع والنصائح على لسان الكردينال ، كما فعل يوماً پولونيوس : « لا تجعل لك عدوًّا . . . احتفظ بأصدقائك بروابط من فولاذ . . . قرّب أذنك من كل إنسان واخفض لسانك عن الكثيرين . . . » ثم تبللت عيناه واختنق صوته وهو يقول له : « امكث كاهناً صالحاً يا ستيفن . ولا تدع لون ثوبك ينساب إلى طيات قلبك » . ثم جرّ بحنان على شُرُط المعطف الذى يلبسه ستيفن وقال : « إلى اللقاء ، يا بنى » .

— « إلى اللقاء ، يا صاحب النيافة » .

ودّ ستيفن لو استطاع تطويق الرجل المسنّ بذراعيه ، لكنه جثا على ركبتيه لينال بركته .

الجزء الرابع

المرحلة السابعة

الفصل الأول

وسط الحركة الدائمة المتعدّدة المتشعبة التى تدور بها الحاشية الرومانية بمكاتبها ومحاكمها وملحقاتها ، وجميعها تقوم بمساعدة الحبر الأعظم فى إدارة الكنيسة جمعاء ، أضحى المنسنيور ستيفن فرمويل واحداً من الأحرف المهملة . عيّن موظفاً فى قسم من أمانة سرّ الدولة البابوية برآسة كارنجى وأعطى مكتباً صغيراً فى حجرة منزوية منفردة فى الدور الأعلى من قصر الفاتيكان . حجرة لا شكل لها ولا تاريخ ، هى واحدة من الحجرات العديدة المبنية داخل مخزن قديم على السطح ، لم تستعمل منذ عهد لاون الثالث عشر ، قبل زوال ذلك القرن بقليل . أرضيتها مكسوّة بخشب غليظ لا أثر للبسط عليه . والجدران التى كانت يوماً مزركشة مذهّبة أضحت اليوم مصفرة صدئة ، علّق عليها رسمان من البرونز المحفور يمثلان شخصين سابقين من أمانة سرّ الدولة ، يحدقان بعيونهما إلى ستيفن. بدا مكتبه كأنه من مخلفات عهد مجيد انقرض ؛ أرجله « الروكوكو » وغطاؤه المطعم بالصدف تناقض تماماً وجود الهاتف والآلة الكاتبة « ريمنجتون » والسلال ذات الأسلاك الحديدية التى يتطلبها العهد الجديد .

زوّد ألفيو كارنجى موظفه الجديد بالمعلومات الأولية فيما يختص بسياسة الفاتيكان الخارجية . فقال له : « إن جمعية الأمور الكنسية الاستثنائية تعمل على تثبيت روابط الصداقة بين الكرسىّ الرسولىّ والدول ذات السيادة فى كل العالم . ولا فرق فى نظر الكرسى الرسولىّ فى كون هذه الدول ممالك ، أو جمهوريات ، أو ديموقراطيات . فالكنيسة تتمشى مع جميع أنواع الحكومات والمؤسسات المدنية ، بشرط أن تحفظ حقوق الله وحرّية الدين المسيحى . مع ذلك ، أرغب فى أن

أوضح لك شيئاً وهو أن السياسة الداخلية لتلك الحكومات واتفاقاتها التجارية أو الحربية أو السياسية مع البلاد الأخرى لا تهم الفاتيكان فى شىء ألبتة ، إلا إذا شكلت خطراً على حرية ممارسة الإيمان الكاثوليكى » .

لم يفت كارنجى أن يظهر الروح الكهنوتية بجانب موهبته الإدارية : « إن نية الفاتيكان الصادقة لحماية وتعريف مواعيد المسيح للإنسان ، بواسطة الكنيسة ، هى الدعامة الوحيدة لسياسة الفاتيكان الخارجية وكيانها الجوهرى . إن كل إعلام أو مرسوم بابوى ، وكل منشور أو اتفاقية تعيد وتفسر هذه الغاية » . — ثم ابتسم كارنجى وغير من لهجته الفلسفية وقال : « هذه المعلومات تكفيك ، يا ستيفانو ، لتبدأ فى تحمل نصيبك من مسؤوليات الأخطاء فى أمانة سر دولة الفاتيكان » .

أول ما عهد به إلى ستيفن فرز وترتيب البريد الهائل المتدفق إلى قسم كارنجى فى أمانة سر الدولة . كل صباح ، كان موظف بريد الفاتيكان يضع كيسين أو ثلاثة من الرسائل ، على الأرض فى مكتب ستيفن . فكان ستيفن يخرج رزمة من الرسائل ويضعها على مكتبه المطعم بالصدف ، ويفتح غلافها ، ثم يتصفحها بسرعة ويوجهها إلى المكتب المختص ، فكانت رسائل الحكومات الأوربية (ما عدا إيطاليا) توجه رأساً إلى المنسنيور كارنجى . أما رسائل أمريكا الشمالية والجنوبية فكانت توضع فى سلة من السلك وترسل إلى المنسنيور « جواردیانو » رئيس الموظفين فى مكتب كارنجى . أما رسائل الهند والصين واليابان فكانت توجه إلى أمين سر الأمور الشرقية . وأخيراً ، كانت جميع الرسائل والمستندات المختصة بالأوضاع الإيطالية تحزم معاً وترسل إلى الكردينال بيترو چياكوبى فى مكتبه الفخم فى الطابق الأسفل .

يعد تداول هذا البريد الضخم فى حد ذاته ، من الوجهة المادية فقط ، ثقافة وتدريباً . دهش ستيفن من تنوع واتساع اتصالات الفاتيكان مع الدول الأخر . مع سرعة قراءته الرسائل المتدفقة إلى قسم الخارجية البابوى فقد اكتسب ستيفن فكرة واسعة عن عمل الكنيسة الجامعة . لم ينقطع عن مكتبه سيل الرسائل الواردة من المندوبين الرسوليين والسفراء والمبعوثين الأجانب المعتمدين لدى الكرسى الرسولى . وزادته مهارة الإنشاء فى التقارير العديدة علماً بظواهر ودواخل سياسة الفاتيكان .

فتح مرة رسالة من لاهاى وقرأ فيها : « إن حكومة جلالتها ترغب فى أن تبحث مع الكرسىّ الرسولىّ صدى النشاط الحديث الذى تقوم به الإرساليات الكاثوليكية فى باتاڤيا ، مع الأمل فى تحديد حقوق الإرساليات البروتستانية السابقة فى هذا الحقل » . — يقضى النظام بأن توجه تلك الرسالة إلى كارنجى وهذا بدوره يطرح الموضوع للبحث فى اجتماعه اليومى مع چياكوبى .

أحياناً ، يطالب أسقف مكسيكى بإعادة ممتلكات الكنيسة التى اغتصبتها الحكومة المكسيكيّة . فكان مطلبه يرسل إلى المنسنيور جواردديانو .

والسفير البابوى فى وارسو ، بعد وصفه تدخل الشيوعيين ومعاكستهم فى أثناء مرور موكب دينى ، يستحثّ الڤاتيكان بتذكير الحكومة البولندية بتعهداتها للكرسىّ الرسولىّ المنصوص عليها بوضوح فى معاهدة سنة ١٩١٩ .

لم يعلم ستيفن إلا نادراً بما تؤول إليه هذه الأمور ، لكنه على الأقل خرج بنظرة شاملة عن طبيعة نشاط الڤاتيكان الدولى وغايته .

من ثنايا جميع تلك الرسائل المتشعبة المتجدّدة يومياً على مكتب ستيفن أصبح قادراً على تكوين صورة شاملة عن الدور الذى تلعبه الكنيسة فى علاقاتها مع الحكومات الأجنبية . أدرك ستيفن أن الكنيسة وإن هى واحدة لا تتجزأ ، فهى مع ذلك تتصل بالعالم على أساس وسيلتين : بواسطة الأسرار السبعة المقدّسة تتحدّث إلى ثنايا النفس البشرية الخفية ؛ وبطرقها السياسية تعقد اتفاقات زمنية تضمن لها أكبر قدر من الحرية فى تأدية الواجب الملقى على عاتقها لمساعدة الإنسان على البلوغ إلى السعادة الأبدية مع الله . كان الڤاتيكان وسط تقلبات البشر العديدة يحاول على قدر متفاوت من النجاح أن يذكر العالم بالحقيقة الواحدة الثابتة الإلهية ، غير السياسية : الله موجود .

تدريجاً زادت أعباء ستيفن . بدأ كارنجى يكلفه بوضع ملخصات عن المستندات السياسية والتعليق عليها ببعض الملحوظات الشخصية التى يرتئيها فى هذا الشأن ، فيعتمد عليها كارنجى أحياناً فى مناقشاته القادمة مع الكردينال أمين سرّ الدولة أو مع الحبر الأعظم نفسه .

واختصار تقرير من التقارير أو ترجمته يتطلب زمناً يمتدّ من ست ساعات

إلى اثنتى عشرة ساعة . أما تحضير الملحوظات فهمة شاقة مضنية تضطر ستيفن إلى قضاء أيام طويلة فى مكتبة الڤاتيكان مستطلعاً باحثاً حتى يتمكن من تنسيق المطالب والأسئلة التى تلقى ضوءاً على المواضيع التى تهم رئيسه .

* * *

على مثال الموظفين الحديثين فى الجمعيات البابوية الأخر ، نزل ستيفن فى بيت السياسة ، وهو عبارة عن فندق كنسىّ فى حى التراستيڤير . كل مساء ، حول مائدة العشاء ، يجتمع فريق من اللغويّين ، يتجاذبون أطراف الحديث ويحتدم بينهم النقاش بكل اللغات كأنهم فى برج بابل . مع ذلك فاللغة الإيطالية هى الغالبة فى الاستعمال .

ويرئس المائدة المنسنيور « ميكلوس كوربى » الهنجارىّ ذو الحنجرة الحديدية ، المعتمد لدى الجمعية المقدّسة لمصنع القديس بطرس . ومهمة كوربى العناية بكاتدرائية القديس بطرس وترميمها ، وهذا عمل يتطلب معرفة خاصة بحقل من العلوم يمتد ما بين الهندسة والبناء ؛ فاكتسب الهنجارى من جراء سيطرته الطويلة الأمد على جيش من العمال عادات تشبه تصرفات ضابط فرقة عسكرية للتدريب وصوتاً يحاكى جرساً مغلولاً . وتقوده فكرتان : الأولى أن قبة كاتدرائية القديس بطرس ستسقط حتماً إذا لم يراقب هو نفسه عملية ترميمها ؛ والثانية أن سلالات الأمراء جميعها ، ما عدا السلالة الهنجارية ، مستجدة إن لم نقل فاسدة . وكان شديد التمسك بهاتين الفكرتين ، لا يقبل نقاشاً فيهما . لم يسمعه ستيفن قط يتناقش حول فكرة سامية .

مرة مع ذلك ، بينما كان ستيفن يقوم بدورة استكشافية فى الكاتدرائية ، رأى الهنجارىّ معلقاً فى الهواء على صقالة خشبية داخل القبة الواسعة على بعد نحو أربعمائة قدم من الأرض ، وجبّته مشبوكة فى حزام بنطلونه ، كان كوربى أشبه بلاعب العقلة يقوم بدوره الخطر دون وجود شبكة الطوارئ تحته . فنمت حينذاك عند ستيفن فكرة بأن من حق الهنجارىّ الادعاء ، إذا ما رغب ، بأن له علاقات فريدة بقبة الكاتدرائية .

وجلس فى مؤخرة المائدة « ألفونس بيربون » ، وهو فرنسىّ قصير القامة

صفراويّ المزاج ، جعل منه توسعه فى الحقوق الكنسية أمين سرّ جليل القدر فى مجلس الروتا الرومانية . مع كونه شديد الادّعاء والغرور فى المناقشات التى تدور وقت العشاء ، لكن ادعاءه هذا وجد له خصماً عنيفاً فى شخص السلتىّ الذكىّ « پدرايك لوج » الذى جلس بجانبه . وبالقرب من « لوج » جلس المنسنيور « كرلوس مندوزا إى تندارو » . وهو إسبانىّ متجهم الوجه ، معتمد لدى جمعية الطقوس المقدسة . كان المنسنيور تندارو يربى فكرة سوداء عن الديموقراطية ويتنبأ بأنها ستطيح يوماً بالمؤسستين التوأمين : العرش والهيكل ؛ ويتمسك فى عناد بفكرة سلالة « الهابزبورج » من أنه يجب قمع التيار الحديث بقسوة والرجوع إلى أشكال الحكم السالفة ؛ ويستمع على مضض منه إلى ستيفن إذا ما أبدى هذا رأيه فى عدم وجود تناقض أو استحالة بين طريقة الاقتراع بالأصوات وبين التعبد والصلاة فى محبة وتقوى .

أما أحب الأشخاص إلى ستيفن فكان روبيرتو براچيوتى ، أمين السرّ المساعد فى جمعية المجلس الكنسىّ الأعلى ذات النفوذ القوىّ . وينتمى براچيوتى إلى أسرة عريقة رومانية . ولد فى قصر قديم يقع فى منتصف الطريق بين كاتدرائية القديس بطرس والكويرينال . لم تستحثه رغبة فى صعود سلم المجتمع لأنه خلق فى أعلى درجاته . فكان الوحيد على المائدة ، وهو بعد فى الثلاثين من عمره ، يستأثر بلب سامعيه بغزارة علمه ومعارفه . أما سرعة خاطره ووطنيته الراسخة فذكّرت ستيفن بأورسلى ، لكن رجل الكنيسة الفذّ جمع لديه من الذكاء والأدب قدراً عجز عنه الرّبان الفلورنسىّ .

فى أثناء ذلك الربيع ، دار الحديث غالباً حول سقوط الحكومة الإيطالية المرتقب . فالأحداث تسير فى هبوط مستمرّ ، ولن يوقفها شىء على ما يظنّ . والاتفاق الطويل الأمد بين الإقطاعيين فى الجنوب وأصحاب المصانع فى الشمال بدأ يئن ويتفكك تحت ضغط الشعب الذى أخذ يطالب بالإصلاح . والوزارات المتلاحقة فى الكويرينال لا تقوى على الصمود أمام الهجمات والانتقادات الموجهة ضدّ العرش والليرا ، فكانت تتساقط تعيسة .

فى هذه الأثناء ، وفى طول شبه الجزيرة وعرضها ، تعالى صوت موسولينى

يتطاير كالرعد : « يا أيها المدراء ، والمتطوّعون والقمصان السود فى ميلانو وإيطاليا ! . . . سيشرق يوم مجيد على شعب إيطاليا . يجب أن نظفر . الفاشستية تحتاج إلى قوّة وستحصل عليها . عاشت إيطاليا ! عاشت الفاشستية ! . . . »

ذات ليلة ، على العشاء ، سأل ستيفن : « من هذا الثائر ؟ . . . أهو قائد شعبى أم رجل القدر ؟ »

— « لا هذا ولا ذاك — قاطعه كوربى — إنه رجل وصولىّ . . . لا أصل له ولا أسرة . . . »

وأعقبه تندارو بقوله : « وسيعجل نشيده الحربى بيوم مجىء الرعاع إلى الحكم » .

ورمى لوج على مسامع الحضور بكلمة لاذعة رخيصة : « حفظ الله الرجل من الأبقار الثائرة وجحور الأرانب . إن حزب " الشينفين " الإرلندى سيلتف حوله بعد ما ينظف إيطاليا بعصا مقشته . . . وعلى ذكر عصا المقشة ، هل سمعتم بقصة الكاهن الكاثوليكى الذى ضبط امرأة عجوزاً تكنس عتبة بيتها يوم الأحد ؟ »

فاندفع براچيوتى يوضّح الأمر بهدوء ، قال : « أيها السادة ، اخلعوا عن عيونكم نظاراتكم الملتوية ، وكفوا عن المواربة فى كلامكم ، وانظروا سليماً إلى هذا الرجل موسولينى ، تروه وليداً ضرورياً أنتجه التاريخ . ليست إيطاليا الآن سوى مجموعة من العصىّ مهملة وسط مستنقع من الخذلان والعار . وسيجمع موسولينى عصىّ هذه القوى المتفرقة وسيربطها معاً بحبال من النظام الشديد تحت رمز سلطة روما القديمة » .

رنّت كبرياء الأمير فى صوت براچيوتى كما ترن قطعة من نقود الإمبراطوريّة . واستطرد لكلامه قائلا : « إن موسولينى سيتقدم على رأس نخبة من الرجال الحازمين ويعيد بناء إيطاليا فى الداخل ويفاوض أعداءها بشدة وخشونة ، ويثأر لأخطائها ، ويقف مخلّصاً شرفنا الوطنىّ » .

فتقدّم المنسنيور بيربون بسؤال مخفياً وراءه خوفه الجولىّ من انبعاث إيطاليا قوية : « ماذا تكون حال الكنيسة مع هذا النظام ؟ »

— « أحسن مما كانت عليه فى زمن أسرة ساڤوى . هل تكون أفقر أو أقل مكانة مما كانت عليه مدة الخمسين سنة الماضية ؟ »

قال بيربون فى تشبّث : « لكن موسولينى كافر لا يؤمن بالله ، وهو يناهض الدين علناً » .

فأعقبه براچيوتى بقوله : « ولكنه يقاوم أيضاً الشيوعيّة . فقد رأيته فى ميلانو يوقف إضرابا شيوعيًّا ببضع كلمات نارية فقط . . . لكنى أعتبر هذه الأمور ثانوية . إن موسولينى يدرك ، كوطنىّ وسياسىّ ، أن كرامة الكنيسة هى أفضل ضمان لإيطاليا » .

ثم أورد براچيوتى مقتطفات من خطاب موسولينى ورمى بها قنبلة فى وجه بيربون : « ألا تذكر ماذا قال " الدوتشى " فى مجلس النواب السنة الماضية : "إن انتشار الكثلكة الرومانية فى العالم أجمع ، ووجود أربعمائة مليون نسمة فى كل بقعة يتطلعون بأبصارهم نحو روما — هذه الأمور ، أقول ، يجب أن تملأ نفس كل إيطالىّ فخراً ، وتستميل اهتمام كل سياسىّ إيطالىّ ؟ »

ثم عاجله براچيوتى بالضربة القاضية وقال : « إلا أنه ليس فى مقدور فرنسىّ إدراك ذلك » .

حاول ستيفن ، كرجل سلام ، أن يجد مخرجاً للحديث من مأزق العصبيات الوطنية . فسأل : « ما رأى قداسة البابا فى موسولينى ؟ »

— « كما هو فى الواقع ! هل يمكن أن يكون غير ذلك ؟ » — ثم تقمّص براچيوتى رداء النبوءة الخطير وقال : « أتنبأ لكم أن لو طرق موسولينى أبواب الڤاتيكان البرونزية ، لفتحت له على مصاريعها » .

أجاب بيربون : « وأقول إنك على خطأ » .

فجاءه ردّ براچيوتى قاطعاً ساحقاً : « لا تقل لى ذلك فإنى رومانى » .

لا يستطيع إنسان التفوّه بما قاله براچيوتى إلا من سندته ألفا سنة من الحكم الإمبراطورىّ . لم يسمع ستيفن فى حياته قط كلاماً أكثر غروراً وكبرياء . مع ذلك لم تكن نية براچيوتى التظاهر والادعاء الكاذب . فقد افترض ، دون علم منه ، افتراضاً قاطعاً بأن العقليّة الرومانيّة هى المستند الوحيد لجميع العقليات الأخر .

قارن ستيفن نفسه بألفيو كارنجى وبروبيرتو براچيوتى فأدرك أنهما أسمى ذكاءً ، وأوسع علماً ، وأثبت قدماً . ما هذه المواهب الفنية التى جعلت من روما

المشرّع والحاكم الأدبى فى العالم الغربى كله ؟

حاول ستيفن جاهداً إيجاد حلّ لهذا السؤال . فلم يجده عاجلاً أو كاملاً ، لكنه أدرك جوهر السؤال عندما اصطدم شخصياً بذى القوام الضخم ، پيترو چيا كوبى ، أمين سرّ الدولة البابوية .

* * *

وقع الاصطدام يوم الخميس صباحاً وقت انعقاد جمعية الأمور الكنسيّة الاستثنائية .

فى يوم الخميس من كل أسبوع كانت الجمعية تنعقد فى مكتب الكردينال أمين السرّ فى الطابق الثانى من قصر الڤاتيكان . لم يكن ستيفن عادة يحضر هذه الاجتماعات ، لكن كارنچى كان يدعوه أحياناً ليكتسب خبرة فى مراقبة سير الأمور فى اجتماعات الڤاتيكان. أعاد هذا الاجتماع إلى ذاكرة ستيفن الاجتماعات التى كان يعقدها جلينون مع مستشارى أبرشيته ، مع هذا الفارق الوحيد بأن أبرشية چيا كوبى هى العالم كلّه ، ومستشاريه فريق من السياسيين المحنكين . هنالك أيضاً فوارق أخرى لا وجود لها فى بوسطن . فكلما خرج چيا كوبى من جناحه الخاص وسار فى الممرّ ، صاحت ببغاؤه المفضّلة فى حشرجة وقالت : « أنت يا لاعب الورق الغشّاش ! » — يا لها من أنشودة غريبة مطردة ، لكنها حقاً جريئة تناسب النقاش الذى دار بعد ذلك !

إذن فى هذا الصباح الفريد من مايو ، وچيا كوبى يتقدم نحو مكتبه على أرضية مكسوّة ببُسُط من بروچ ، تذكر ستيفن ذلك الفارس الشجاع الذى ينزل إلى الميدان ليقتل عدداً من الثيران . جلس الكردينال أمين السرّ إلى مكتبه الضخم من الجيل الخامس عشر وسرّح طرفه فى مساعديه المحيطين به على شبه نصف دائرة ، وأغلبهم يلبسون الجبب الحمراء . وجلس كارنچى وجواردیانو ، وهما الأداة العاملة فى الجمعية ، إلى مكاتب صغيرة على طرفى نصف الدائرة . أما ستيفن ، وهو أحدث المبتدئين ، فجلس على الكرسىّ الأخير فى الصف الثانى . علّق الكردينال أمين السرّ على أنفه المعكوف زوجاً من النظارات ذات إطار من الصدف وبدأ الحديث دون مقدمات فى المسألة البولندية الشائكة .

كانت وارسو فى أوائل سنة ١٩٢٢ ، مثار همّ كبير للكرسىّ الرسولىّ . زادت

اضطهادات الكهنة الكاثوليك قسوة . ولم تزل الحال تسوء منذ انعقاد الجمعية الأخير .

ألقى الكردينال على تقرير كارنجى عن پولندا ثلاث نظرات خاطفة وفهم فحواه ، ثم وجه كلامه إلى مساعديه فى صوت ثقيل خشن ، قال : « قد أبلغنى الكردينال " پوزنكا " أنه فى الأسبوع المنصرم ، أحرقت ثلاث كنائس فى ضواحى وارسو وأقفلت سبع مدارس دينية فى عرض البلاد . لا حاجة لى ، أيها السادة ، إلى أن أنبهكم بأن اتفاقية سنة ١٩١٩ قد مزقها السوڤييت أعداء الكنيسة . إن الانفجار قريب » .

فساور الشك ستيفن فيما يمكن فعله فى هذا الشأن .

واستطرد چياكوبى لقوله : « إنها رغبة الحبر الأعظم — وهى رغبة أناصرها بكل قلبى — أن يرسل احتجاج شديد اللهجة إلى الدكتور جرابوڤيتش ، السفير الپولندى لدى الكرسى الرسولى . هل تتكرم ، أيها المنسنيور جوارديانو ، بتحضير مسودة لمذكرة احتجاج إلى السفير الپولندى ، مبيناً فى اتفاقية سنة ١٩١٩ الفقرات التى ضمنت بوضوح للكنيسة الحرية التامة فى العبادة والتربية ؟ »

فى صمت ، شرع المنسنيور جوارديانو يكتب المذكرة . كانت المسودة جيدة بالقدر الذى كتبت به .

واستطرد چياكوبى لقوله : « إذا لم تأت المذكرة بالنتيجة المرغوب فيها ، فبلغ الدكتور جرابوڤيتش بأن الأب الأقدس على استعداد لإرسال مندوب عنه إلى وارسو » .

وأحنى جوارديانو رأسه مرة أخرى .

— « اتصل باستمرار "بالمراقب الرومانى" واحمل إليه أخبار مفاوضاتنا . يجب استعمال أكبر قدر من الدعاوة القوية لكى نعرف أوروپا بالمناورات السوڤييتية » .

وإذ انتهت المسألة الپولندية ، التفت چياكوبى إلى كارنجى مستعلماً عن موضوع آخر وقال : « هل لديك ملف تأميم الأراضى فى المكسيك ؟ »

— « ها هو ذا يا صاحب النيافة » .

تصفح چياكوبى الملف كما يفعل جراح بملف أحد مرضاه المزعجين : « ها ! . . . حيث نصب "كورتيز" الصليب ، نزعه "أوبرجون" . لم يكتف ذلك اللص بتأميم أرض المكسيك ، بل إنه يريد ما تحت الأرض أيضاً . هل يجب

سبى الأديرة بسبب اكتشاف البترول بنحو ألف قدم تحت أساساتها ؟ »

فقال كارنجى : « قد عرضت المسألة مراراً على الحكومة المكسيكية . وإلى اليوم لم أحظ برد » .

فزمجر چياكوبى وقال : « يا للصوص ! لو وجد غوريغورى السابع ، بالجند حملة شعواء عليهم . أما اليوم فما لدينا سوى سلاحنا الأدبى . لا بأس ، أيها المنسنيور ، فصوت الكنيسة لا يزال صداه قوياً . هل درست جميع الاحتمالات فى إمكانية إثارة الرأى العام فى أمريكا ؟ »

— « إن الرأى العام فى الولايات المتحدة منقسم على ذاته ، يا صاحب النيافة » .

— « الرأى العام منقسم ؟ » — واشرأب عنق چياكوبى وتصلب رأسه كتيس كبير يهم بالانقضاض على من يتحدى سلطته : « كيف يمكن وجود انقسام رأى على موضوع كهذا ؟ »

رفض كارنجى تأدباً الاشتباك مع رئيسه . وسرح جياكوبى طرفه بين صفوف الحاضرين حتى استقر على ستيفن . وقال : « ربما يستطيع صديقنا الأمريكى هنا إلقاء بعض الضوء على الطريقة الخاصة التى يفكر بها مواطنوه » .

لم يرغب ستيفن قط فى أن يرث عن چياكوبى وجلينون عداءهما القديم المستأصل بينهما . مع ذلك فقد طلب إليه الكلام . فأجاب فى خجل والجمعية كلها تنصت إليه :

— « لا شك أن نيافتكم تدركون قلة إلمامى بالأمور المكسيكية . أما المساعدة الوحيدة التى يمكننى تقديمها فهى تجديد معرفة سعادتكم بشأن الرأى العام فى الولايات المتحدة » .

فهمهم چياكوبى واستعاد ستيفن ثقته . قد يستطيع الكردينال أمين سر الدولة أن يلعب بأجزاء العالم الأخرى على أطراف أصابعه ، أما على هذا الوتر الأمريكى فقد يستطيع ستيفن أن يلقنه — فى أدب جم طبعاً — أين وكيف يضرب عليه . فاستطرد لقوله : « تعلمون ، يا صاحب النيافة ، أن أغلبية السكان فى الولايات المتحدة من البروتستانت . ويوجد أيضاً فى بلادى مبدأ تقليدى أساسى يعترف بانفصال الكنيسة عن الدولة . والكاثوليك عندنا لا يطالبون بمركز خاص تجاه

الحكومة الأمريكية كالذى تتمتع به الكنيسة فى پولندا والنمسا » . — ثم اختصر ستيفن كلامه وقال : — « نظراً لتلك الأوضاع ، أعتقد أنه ليس من السياسة القويمة — إن لم يكن من المستحيل — إثارة الرأى العام الأمريكى فى أمور المكسيك الداخلية » .

مال رأس چيا كوبى على صدره : « إذن ، فرأيكم فى هذا الأمر ، أيها المنسنيور فرمويل ، هو أن الشعب الأمريكى سيشعر بعدم الرضى عن طلب الكرسىّ الرسولىّ لإثارة ضغط أدبى وسياسىّ جنوبىّ "النهر الكبير" (ريوجراند) ؟ »

— « ذلك رأيى يا صاحب النيافة » .

وجّه چيا كوبى إلى ذلك السياسىّ الحديث العهد ضربة من قرنه وقال : « كيف إذن تفسر تدخل الولايات المتحدة المسلح فى المكسيك سنة ١٩١٦ ؟ هل نسيت عاجلاً أيها المنسنيور تدمير مدينة "الصليب الحق" (ڤيرا كروز) بقنابل البحرية الأمريكية ؟ . . . ونزول بحارتكم الظرفاء ؟ . . . واحتلال "شيهواهوا" بجنود القائد پيرشينج ؟ . . . كيف تفسر هذه الأعمال ؟ »

شعر ستيفن بضربة القرن بين ضلوعه . فقال فى رباطة جأش : « تلك كانت حملة تأديبية . فقد اغتصب اللصوص المكسيكيون حقوق الوطنيين الأمريكان » .

وعاجله چيا كوبى بضربة قرن أخرى وقال : « هيا ، أيها المنسنيور . لا مكان للسذاجة فى اجتماعاتنا هذه . ما هى الأوضاع ؟ إن أصحاب رؤوس الأموال الأمريكان ، خوفاً من ضياع حقوقهم على البترول ، أقنعوا سيدكم الخيالىّ المستر ويلسون صاحب المواد الأربع عشرة أن يتدخل فى أمور المكسيك الخاصة . إنى لا أبدى حكماً فى هذا الأمر . إنما أذكره كسابقة تفيد المستقبل . فإذا استطاعت أمريكا رفع صوتها عالياً بخصوص البترول فى سنة ١٩١٦ ، أفلا تستطيع اليوم أن تسمع صوتها همساً لتثبيت حقوق الله ؟ »

خفض چيا كوبى من صوته المرعد وأمسى معلماً ومربّياً : « ملحوظة نهائية ، أيها المنسنيور فرمويل . لا رغبة عندى فى كبت شعلة الوطنية المتوهجة فى صدرك كأمريكى . لكنى أرجوك أن تتحكم فى تشدّقك بكلمة الديموقراطية . فليست هى أسمى ولا أفضل هيئة للحكم » .

ثم اختتم چياكوبي محاضرته هذه ، وتطرّق إلى درس الأوضاع فى پيرو ، وإرلندا ، وجوانا البريطانية ، وإسبانيا . وجلس ستيفن محترق الوجنتين طوال وقت الاجتماع . لم يوجه أحد إليه كلاماً عند مغادرته الحجرة ، مع أن كارنجي تتبعه بنظره بعطف حتى الباب .

صعد ستيفن إلى حجرته فى الدور الثالث ، منكسر الخاطر وجلس إلى مكتبه المطعم بالصدف . لم يذق فى حياته قط علقة مثل هذه ، منذ كان عمره اثنتى عشرة سنة إذ جلده دن بحزام الجلد الذى يشحذ عليه موسى حلاقته . استعاد فى ذاكرته حوادث تلك المناقشة التعيسة التى بدأت دون إرادته ، والتى انحرفت بسبب كراهية چياكوبي لأمريكا ، فغمرته واستفزّته . كم كانت براهينه سخيفة واهية ! . . . ثم قفز أمامه تحليل چياكوبي العميق الأثر : « إذا استطاعت أمريكا رفع صوتها عالياً بشأن البترول فى سنة ١٩١٦ ، أفلا تستطيع اليوم أن تسمع صوتها همساً لتثبيت حقوق الله ؟ »

لاحقته التخيلات والتصوّرات وتعدّدت وتشعبت فى أسئلة مختلفة . هل يعنى الخضوع للكرسىّ الرسولىّ تخلى الإنسان عن إيمانه بالديموقراطية ؟ هل يستطيع ستيفن تغيير اعتقاده الراسخ بأن الكنيسة والدولة ، فى أمريكا على الأقل ، يتحتم عليهما البقاء منفصلتين ؟ هل كان للولايات المتحدة حق بالتدخل فى أمور المكسيك الداخلية ؟ كانت كل جارحة فى ستيفن تجيب عن هذا السؤال الأخير بكلمة : لا . والحقيقة ، إذا أمكن تبرير التدخل بخصوص البترول ، فكيف يمكن منعه فى سبيل الدين ؟

حقيقة واحدة برزت تدريجيًّا من ثنايا هذه الأسئلة المتشعبة ، ومن أعماق مذلته الشخصية . أدرك ستيفن أنه قليل الاطلاع وقصير باع فى العلوم التى تهم عمله فى أمانة سرّ الدولة . وأدرك أيضاً ، خصوصاً بعد اشتباكه مع چياكوبي ، بأنه لن يستطيع خدمة الڤاتيكان أو وطنه بكفاية على السواء إلا إذا اتسعت معرفته بكليهما . فبدأ تدريباً دقيقاً فى قراءة كتب التاريخ والسياسة ، وركّز جهده على درس الاتفاقيات الدولية التى تبين علاقات روما بالسلطات الأجنبية . عرف كيف تصدّى الكرسى الرسولى بصبر ونجاح ، لفكرة تأليه الدولة التى نمت فى الجيل

التاسع عشر ، التى عبر عنها بسمارك فى « كفاح العلم » ، وفيينا فى « الانفصال عن روما » ؛ وفرنسا بنظرية « الجاليكان » .

خرج ستيفن من قراءاته السياسية وهو مقتنع تماماً بأن الكرسى الرومانى هو حقاً الأداة الفكرية الوحيدة العالمية فى الزمن الحاضر . أدهشته عزيمة روما المستمرة فى تذكير الدول والشعوب بأن الإنسان خليقة روحية وسياسية معاً . ولما رأى كيف تماسك بقوة حلقات سلسلة القديس بطرس وسط الأنواء والزوابع العنيفة ، لم يجد مفراً من الاعتقاد بأن الله قد سبك هذه الحلقات من معدن لا تنفصم عراه .

لكن ، ماذا عن الديموقراطية ؟

بعد أشهر من الدرس الدقيق المتواصل ، خرج ستيفن بنتيجة شخصية بأن الديموقراطية بما فيها من فكرة الفردية والتساهل هى أفضل هيئة للحكم تشيع الأمل بين البشر حسب تعاليم المسيح . وبالرغم من اعتقاد چياكوبى عكس ذلك ، استمر ستيفن فى رأيه بأن الواقع الأمريكى من وجود كنيسة حرّة فى دولة حرّة قد أنتج وحدة كاثوليكية ثابتة صادقة قوية كما لم تسبقها إليها قط وحدة من قبل .

وأسند ستيفن رأيه إلى تصريحين ساميين أصدرهما رجلان شهيران من قادة الوحدة الكاثوليكية الحديثة .

التصريح الأول لأحد البابوات الطليان ، لاون الثالث عشر ، الذى قال فى رسالته الرعائية للعالم أجمع : « إن الله يريد أن تبقى السلطة المدنية والسلطة الدينية منفصلتين ، لكن الله لا يريدهما منقسمتين » .

والتصريح الثانى أصدره الأسقف الأمريكى ، الكردينال جيبونز ، حيث قال : « إن انفصال الكنيسة عن الدولة فى أمريكا هو أفضل نظام طبيعى ضرورى يمكن تصوّره — نظام يلائمنا جميعاً ، لخير الدين والدولة معاً . وكل تغيير فى علاقتيهما سيسبب أضراراً مخيفة . إن الكنيسة فى بلادنا تتمتع بحرية أوسع ومركز آمن من أى بلد آخر حيث الكنيسة والدولة تسلكان معاً متحدتين . إن كل تدخل من الدولة فى أمور الدين سيلاقى اشمئزازاً عميقاً واستنكاراً شديداً . . .

« وإنى كمواطن أمريكى — ودون غفلة منى عن عيوب بلادى — أقول بكل فخر وشكر إننى أنتمى إلى بلد حيث السلطة المدنية تبسط علينا أجنحة حمايتها

دون تدخل منها فى ممارستنا العادلة لرسالتنا السامية كخدام لإنجيل المسيح » .

قرأ ستيفن وفكر ، وحاول دوماً أن يقيم ميزاناً دقيقاً بين وفائه لروما وأمريكا — فزاد علماً وتواضعاً . كان يبدأ يومه بإقامة القداس فى كنيسة القديسة مرتا ، ثم يعمل فى مكتبه دون كلل حتى ما بعد الظهر بزمن طويل . أما رياضته فكانت أحياناً نزهة على نهر التيبر وحيناً لعبة بكرة اليد فى مؤخر حديقة الفندق الكنسىّ . بعد العشاء كان يدخن سيجارة ويتحدث قليلاً مع روبيرتو براچيوتى الذى ظهر ، كما عرفه ستيفن على مرّ الأيام ، منبعاً لا ينضب من دماثة الأخلاق والجاذبية والحركة . فى الأمسيات الرومانية الطوال ، كانا يتحدثان عن عملهما فى أمانة سرّ الدولة ، ويجدان لذة كبيرة فى ذلك . ثم يصعد ستيفن إلى حجرته ليواصل دروسه مدة ساعات طوال ، وقرب منتصف الليل يقرأ صلاته ، جاثياً على ركبتيه قرب سريره الحديدى ، متضرعاً إلى الله من أجل نفسه ومن أجل الذين يحبهم .

بدت حياة ستيفن كدبلوماسى حديث العهد ، كاملة من جميع الوجوه أو تكاد ، دقيقة مطردة حتى السأم ، مقيدة فى ظاهرها ، واسعة الآفاق فى داخلها . ظلت حياته على هذا النمط حتى دعاه روبيرتو براچيوتى ذات مساء إلى حفلة اجتماعية فى قصر لونتانا .

لم يكفّ براچيوتى عن أن يحثّ ستيفن على الاختلاط بالمجتمع ، قائلاً له : « إذا رغبت فى تقديم خدمات كبيرة كسياسىّ فى دولة الڤاتيكان ، فما عليك إلا بالجولان فى هدوء بين المجتمع الرومانىّ ، والظهور فى أرقى العائلات ، والتعرّف بكل شخص، والاستماع إلى كل شىء – بما فيه الهمسات ، وأغلبها تافهة – ولزوم الصمت » .

اتضح أن النصيحة لم تكن بلهاء .

بمساعدة روبيرتو ، وبفضل مكانة أسرته وجاذبيته الشخصية التى فتحت له أبواب بيوت النبلاء ، قام ستيفن بأكثر من زيارة إلى عالم « المجتمع الأسود » الغريب فى أطواره .

كان « السود » ومنهم بعض الأسر العريقة فى روما أشدّ الموالين للبابا . قطعوا كل صلة بأسرة ساڤوى المالكة ، احتجاجاً منهم على اغتصاب الحكومة الإيطالية فى سنة ١٨٧٠ أملاك القديس بطرس الوراثية . فى وسط مدينتهم ومسقط رأسهم ، قضوا حياتهم كأمراء تبعوا ملكهم فى منفاه . فى السياسة والاجتماع بدت حياتهم محدودة المراسيم دقيقة . أنِفَ الرجال منهم التدخل فى المناقشات الحكومية ، وزهدت النساء فى لذة حضور حفلات « البيض » فى قصر الكويرينال . أدرج « السود » فى مجتمعهم بعض العادات والأطوار الغريبة ، تعويضاً عن الضيق الذي حصرت فيه حياتهم . رفعوا المراسيم والتشريفات إلى رتبة فنّ من الفنون قد زال عهده كما زال ولع الصيد بالصقور ، لكنه فنّ على كل حال ، كما اتضح ذلك لستيفن .

فى بدء الأمر وجد النظام غريباً ، ولم يتعوّد قواعده العديدة إلا رويداً . وسهل عليه إدراك السبب . فى أوساط المجتمع الأسود المحافظة ، كانوا جميعاً يخصّصون حجرة كبيرة بصفة مستديمة ، تدعى حجرة العرش ، لليوم الذى يستطيع فيه قداسة البابا مغادرة الڤاتيكان والقيام ببعض الزيارات تكريماً لأولئك الذين ظلّوا

موالين له طوال مدة حبسه . وفى حالة عدم وجود هذه الحجرة كانوا يحتفظون بكرسىّ مغطى بستائر ويديرونه إلى الحائط .

قدّر ستيفن هذا الولاء العميق الأثر والإيمان الراسخ فى التشبث بهذه الرموز ، مع ذلك ، فقد ضجر من بعض عادات المجتمع الأسود . لاحظ ، مثلاً ، فى بعض البيوت أن كثيراً من الرجال المتقدّمين فى السنّ يلبسون قفازاً فى يدهم اليسرى فقط ، ويتركون اليمنى عارية . أما فى بعض البيوت الأخرى فكان القفاز فى كلتا اليدين ، ما عدا الإبهام اليمنى فقد تترك عارية » .

فسأل مرة روبيرتو : « ما قصة القفاز هذه ؟ »

فشرح له براچيوتى الأمر قائلاً : « تستند هذه العادة إلى مبدأين : فى البدء كان القفاز يدل على نبل المحتد . فإنك لا ترى فلاحاً يلبس قفازاً ، أليس كذلك ؟ وبالوراثة اقترن القفاز برمز آخر يدل على رتبة حامله ، وهو السيف . إذن ، يعتقد البعض أن على اليد اليمنى أن تكون دائماً حرّة حتى تستطيع بسهولة إشهار السيف دفاعاً عن الملك ؛ على حين تقول مدرسة أخرى بوجوب الاحتفاظ باليد عارية استعداداً دائماً لمصافحة اليد التى يقدّمها الضيف فى الوقت المحدّد ؛ فقد يعتبر كل تأخير فى هذا إخلالاً بقواعد اللياقة » .

— « فهمت . لكن ما قصة الإبهام اليمنى ؟ »

فابتسم براچيوتى بعطف كبير وقال : « فى جميع أوساط المجتمع ، توجد درجات متفاوتة من الصداقة والتعارف . فأسرة عريقة ، مضى عليها سبعمائة سنة ، كأسرة " أوداليسكى " التى وقف أجدادها يدافعون عن سلالة باباوات أسرة "هيلدوبراند" ضدّ اللصوص الجرمان ، لا ينتظر منها تقديم اليد عارية تماماً إلى المستجدين من الأسر الحديثة العهد . فكل شخص يظهر بعد الجيل السابع عشر — وأنت من ضمن هؤلاء ، أيها الأمريكى — عليه أن يعدّ نفسه سعيداً إذا ما حظى بالإبهام والسبابة » .

— « هل هم جادون فيما يعتقدون ؟ »

— « لم يبق سوى أفراد قلائل من المحافظين القدماء . فقصة المجتمع الأسود والأبيض آخذة فى الانقراض . إلاّ أنها لن تختفى تماماً حتى تسوّى المسألة الرومانية

بما فيها سلطة البابا المدنية . فى هذه الأثناء ، أشير عليك بنبذ الآراء التى أتيت بها من العالم الجديد . إذ أنه فى روما . . . »

اتبع ستيفن نصيحة مرشده بالحرف الواحد . بعد انتهاء فترة الصوم الكبير ، رافقه براچيوتى ، بموافقة رؤسائه ، إلى حفلات مسائية عديدة . كانت أبواب القصور القديمة تفتح على مصاريعها أمام روبيرتو الجذّاب وصديقه الأمريكىّ . فاكتسب ستيفن دراية ثمينة فى قواعد الحياة الاجتماعية ، مع تعمّقه فى شؤون الڤاتيكان السياسية . اعتادت أذنه طنين الهمسات السياسية والأخبار الكنسية التى تتناقلها أوساط المجتمع الأسود . استمع إلى الأنباء المشاعة المألوفة : « الحزب الملكى فى فرنسا يستعدّ لتتويج ملك كاثوليكى فى پاريس — عملاء السوڤييت يبعثون بعدد ضخم من المقعدين إلى معبد لورد ليسخروا من العجائب » — فى قمة الأخبار الشائعة ، بلغه أن الملكة ويلهلمينا تستعدّ للارتداد على يد كاهن كرتوسىّ .

استبعد ستيفن ، فى تعقّله ، تلك الإشاعات . امتنع بلباقة عن بعض العبارات فى الآراء ، واتبع خطة سياسية قد تبدو فى نظر العامة ، عن جهل ، أنها مألوفة بين رجال الكنيسة . فقد راقب براچيوتى وأعضاء آخرين بين سلك الرؤساء الكنسيين يمارسون صمتاً مماثلاً ، وأخذه الدهش من طريقة الكرادلة الفنية الماهرة الذين يستطيعون بابتسامة خفيفة ساحرة إثبات أو نفى بعض ما تسرّب من أخبار الڤاتيكان .

بالطبع ، تشترك النساء فى تلك الحفلات . فتجتمع مضيفات المجتمع الأسود ، وجميعهن من ذوات الألقاب ، بنساء وبنات السفراء لدى الڤاتيكان . وتوجه الدعوة إلى الموسيقيين ليجاملوا الحضور بعد العشاء . ولما كان الرومان يعشقون الصوت الجميل ، فقد أتيحت لستيفن فى ذلك الربيع فرصة سماع عدد كبير من المقطوعات الموسيقية أدّاها أصحابها فى روعة وجمال . دهش جدّاً عند اكتشافه أن ليس جميع النساء الإيطاليات سمراً ، فقد التقى مراراً بشُقْرٍ يكسوهنّ اللون الوردىّ والذهبىّ فى خفّة ورشاقة . مرة نال منه الاضطراب وأزعجه فى جلوسه بالقرب من امرأة فارعة القوام بارزة الصدر عارية الأكتاف ، فى حين استرسلت مغنيّة ذات صوت صادح تفيض شجون غرام « إيزولد » . فأخبر روبيرتو بذلك . فأجابه فى رقة وعذوبة ، بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى فى اللغتين الإنجليزية والفرنسية معاً :

— « أيزعجك ذلك ؟ أليس كذلك ؟ إذن فاعلم يا صديقى أن ميزة الحياة الإكليريكية فى روما هى التحصّن الذى تكوّنه ضدّ الملاريا — وضدّ النساء الفاتنات » .

* * *

وجد ستيفن نفسه فى قصر لونتانا كأنه فى بيته . بنى القصر على طراز الباروكو فى حىّ الكورسو ، ويرجع إلى الجيل السابع عشر . وتشبه واجهته المقبّبة المصنوعة من الرخام الترافرتين الوردىّ الأصفر برجاً ملكيًّا خاصًّا. يدخل الشخص إلى القصر من بوّابة جانبية إلى حديقة مسوّرة ، ثم يرتقى مصعداً حديثاً إلى طابق النبلاء ، ثم يسير داخل حجرات عديدة فخمة باردة — تؤلف كل واحدة منها متحفاً من الرسومات والرخامات والستائر والبُسُط — وينتهى به المطاف إلى قاعة الأميرة لونتانا الدافئة الفسيحة .

ولدت الأميرة فى « مدينة ستوبن » (ستوبنفيل) من مقاطعة « أوهايو » فى الولايات المتحدة ، ودعيت باسم « لوريتا كينى » . وعند زواجها قدّمت لزوجها الأمير — وكان واحداً من أربعة هم موظفو الخاصة البابويّة — عدة ملايين من الدولارات مجمّدة فى الأنتراسيت ، وهامة يُكلّلها شعر ذهبى طبيعىّ لم تقوَ أربعون سنة على النيل منه ، وموهبة نادرة فى جلب الأشخاص المختلفى الجنسيّات لمسامرتها . ثم إنها تجيد لغات عدّة ويسهل عليها ترجمة الحديث من الفرنسية إلى الإنجليزية فالإيطالية والألمانية وبالعكس ، وتستعمل مهارتها هذه ، فقط لأنها ترغب فى أن يفهم مدعوّوها ما يقوله الآخرون — لو وجد هذا الطموح عند سيّدة أخرى أقلّ جاذبية ، لسبّب خطراً جسيماً .

لما كان ستيفن يستلطف الأميرة كثيراً ، فقد قبل دعوتها إلى حفلة بعد العشاء فى قصر لونتانا فى أوائل مايو . قد تكون آخر حفلة فى هذا الفصل من السنة . فقريباً جدًّا سيغادر الناس روما ويهربون من حرّها الثقيل ويهرعون إلى شواطئ البحار أو إلى الجبال .

دخل ستيفن وروبيرتو قاعةً طويلةً بيضيّة الشكل مذهّبة السقف تكسو المرايا جدرانها وقد ازدحمت بالضيوف ، وأغلبهم من أعضاء المجتمع الأسود فى

أروع مظاهرهم: منهم السفراء تزيّن أكتافهم شرطُ رتبتهم ، والأساقفة فى حللهم الحمراء والأرجوانية . والنساء والفتيات « السود » وقد تحلّين بالجواهر وأثمن الثياب .

تقدّمت الأميرة لونتانا وقد حبكت شعرها الذهبى بإطار من الدرر البرّاقة نحو الكاهنين الشابين ، وبسطت لهما يديها الاثنتين وهى بعد على مسافة عشرة أقدام منهما ، وفى طريقها بعثت بتحية من عينيها الخضراوين إلى عدد من المدعوّين ، وأشارت بمروحتها فى دلال إلى عدد آخر ، وحيّت الباقين أيضاً بكلمات من جميع اللغات التى تعرفها . رنّت تحيتها إلى ستيفن فى نبرة أمريكية صميمة من أوهايو ، وإلى روبيرتو فى لهجة إيطاليّة تعادلها جودة .

ـ « أهلاً بكما أيّها الملاكان ، لتفضّلكما بالمجىء . والآن الجميع هنا » . ثم خفضت من صوتها كأنها تسرّ إلى الحضور وهمست فيهم : « فى هذه الليلة سيكون محور حفلتنا الكردينال ميرى دلفال . تقدّموا إذن إليه بواجب الاحترام ، ثم افعلوا ما شئتم من خراب بين السيدات » . وبعد أن حياها السفير الباڤارى داعياً إيّاها : « أيتها الأميرة الفاتنة » ، وقبل يدها ، التفتت ثانية إلى ستيفن وروبيرتو وقالت لهما : « لا تغادرا المكان قبل العشاء ، أيًّا كانت الظروف . فسنقدم طبق محار من مرسيليا ، ونبيذ "هوكهيمر" من "سكلوس" إنتاج سنة ١٩١١ ، وستغنى السنيورا "پيومبينو" من فرقة " لاسكالا " » . وبعدما انتهت من إيعازها وتشجيعها شرعت توزّع اهتمامها وشخصيتها بين السفير النمساوى ، جراف ڤون هانتزتين ، وشخص آخر معجب بها ذى نظارة واحدة على إحدى عينيه : اللورد تشاستكومب .

أما روبيرتو فداعب رفيقه قائلاً : « الأجدر بك ، يا فرمويل ، أن تتروّى فى شرب الهوكهيمر ، وإلاّ رأيت كل شىء مزدوجاً » . ثم اختفى بين الجمع وهو يقهقه ضاحكاً .

كانت مداعبة براچيوتى ذات مغزى عميق بعيد الأثر . فقد بلغ بستيفن التأثير ، وإن لم يتذوّق الهوكهيمر ، لدى رؤيته أكتاف النساء العارية وأيديهن التى تكسوها القفازات حتى المرافق ، ومراقبته تلك الوجوه الفاتنة تروح وتغدو تحت أضواء الشمعدانات المتألقة ، حتى إنه شك فى صلاحية محاولته مجاراة صديقه روبيرتو فى

قبوله الاندماج بأوساط المجتمع المختلط ، مع أنه (أى ستيفن) لم يكن خجولاً أو منحرف الشعور .

قرّر ستيفن أن ظهوره هذا سيكون الأخير من نوعه فى المجتمع الرومانى . فتوجّه نحو ديوان أصفر اللون جلس عليه الكردينال ميرى دلڤال يبهر بجاذبيّته الحضور المنصت إليه . وقف ستيفن خارج الحلقة واستمع إلى قصة الكردينال عن قسّيسين — أحدهما إنكليكانى والآخر ميثوديست — اتفق أن اجتمعا فى طريقهما إلى محطة السكة الحديدية . فقال الإنكليكانى : « لا داعى للسرعة .فساعتى تقول لى: إن لدينا متسعاً طويلاً من الوقت » . لكنهما وصلا إلى المحطة حينما بدأ القطار يسير . فتنهّد الإنكليكانى فى دهشة وقال : « يا لمعاكسة القدر ! مع أنى وضعت فى ساعتى كل ثقتى وإيمانى » . فأجابه الميثوديست فى خبث قائلاً : « وما الإيمان بدون الأعمال الحسنة ؟ »

أمام هذه اللذعة اللاهوتية فى قصة ميرى دلڤال ، تطاير الضحك بين الحضور فى أدب جم واشترك فيه ستيفن . فسمع الكردينال نبرة ستيفن المألوفة مما جعله يرفع رأسه للتأكّد من ذلك . فلوّح بيده الأنيقة إلى المنسنيور الأمريكى وألقى فى صوته العريض الجميل بشعر من هوراس متحدّياً :

« الرجـــل الشريف النبيل الطاهر الجنب . . . »

كانت الدعوة إلى النزال مغرية . فأجاب ستيفن :

« يرذل سهام المراكشىّ مع قوســـه الخشب » .

استدارت الرؤوس لرؤية ذلك الشخص الجرىء الذى يستطيع مزاولة الشعر مع ميرى دلڤال . لم تزل تلك اللعبة متداولة ، وميل الكردينال إليها معروفاً . فحثّهما الأميرة لونتانا صارخةً : « هيا ، هيا ! » وصاح آخرون : « مباراة ، مباراة ! »

فابتسم ميرى دلڤال لتحمّس الجميع وقال : « لا حاجة إلى عجم عود المنسنيور فرمويل فى إتقانه شعر هوراس . إنى أقترح مناورة أغرب . لنفرض — ونظر إلى ستيفن مستلهماً — أننا نتداول الشعر فى لغة غريبة عن أحد منّا، فما قولكم فى محاولة إلقائه بالفرنسية ؟ »

فتطاير الفرح من جانب السيدات. فاللاتينية بعيدة المنال منهن . أما الفرنسية فيستطعن فهمها. فأفسح مكان بين المتنافسين. جلس ميرى دلفال على زاوية من الديوان يستمتع بهمسات التأييد، على حين وقف ستيفن تجاهه فى الزاوية الأخرى.

سأل ميرى دلفال : « هل نتابع النشيد السابق ؟ »

— « إنه أحد الأناشيد القلائل التى أعرفها ، يا صاحب النيافة » .

بينما رطّب الكردينال شفتيه بأناقة استعداداً لإلقاء الصدر الأول ، جمعت الأميرة لونتانا معلوماتها اللغوية للمناورة المرتقبة . كان اهتمامها فى ذلك الحين موزّعاً بين اللورد تشاستكومب والبارون رومبولت . لأسوأ الظروف أو أفضلها ، استعدّ هذان السيدان لسماع ترجمة نشيد شعرىّ رومانىّ فى لغتهما الأصلية ، ترجمة كأنها صراع محتدم تقوم به وحدها الأميرة لونتانا الأمريكية من « مدينة ستوبن » فى أوهايو .

بـدأ مـيرى دلفـال بالفرنسيّة :

« الرجل الشريف النبيل الطاهر الجنب . . . »

فهمست الأميرة لونتانا على جانبى مروحتها وألقت ترجمتها بالألمانية والإنجليزية .

ثم قوطع النشيد بوصول ضيوف جدد . ولما شعروا بغرابة الموقف ، اتخذوا لهم أمكنة بالقرب من خط النار . انتظر الكردينال فى سكينة حتى اتخذ المتأخرون أماكنهم ، واغتنم ستيفن فرصة هذا السكون وأدار عينيه فيمن حوله من المستمعين . ولم يكد ينتهى من دورته الاستطلاعيّة فى الوجوه والثياب والزينات حتى رأى سيدة بالقرب منه جداً لدرجة أنها كادت تلمسه بمروحتها المفتوحة — من ؟ — وجهاً وقواماً لن ينساه : جيسلانا فاليرنى .

منذ أكثر من سبع سنوات لم ير ستيفن الكونتيسة فاليرنى إلا فى الخيال . أما الآن فقد تملكته رعشة سرت فى كل جسمه أمام الحقيقة الناطقة الماثلة تجاه عينيه . فسمع فجأة نفسه ينطق بهذا الشعر :

« دون سلاح واجهتُ ذئباً . . . »

فسارعت الأميرة لونتانا إلى ترجمته للحضور .

جاهد ستيفن ليتمالك نفسه . فى فترة صمته الطويلة سمع الأميرة تترجم شعر ميرى دلفال : « كان الذئب خليقة ضخمة » . . . . فحاول نوعاً ما تحريف البيت التالى ؛ قد يستطيع كل ملمّ باللاتينية الاستدلال على الإهانة التى ألمت بهوراس . لم يدرِ ستيفن كيف بلغ إلى نهاية النشيد . وعندما انتهت المناورة دوى المكان بالتصفيق تحيّة للممثّلين .

وقال اللورد تشاستكومب : « هذا غريب حقًّا . لم أسمع مثل هذا قط فى كامبريدج » .

وأضاف براچيوتى : « عرض رائع — ثم عقب بقوله — كان فى الإمكان استعمال السجع لتجعل العرض صعباً ».

تدفق الحضور لتهنئة ستيفن وأحاطوا به مدة بضع دقائق ، ثم تحوّلوا عنه رويداً لسماع السنيورا پيومبينو التى كانت تستعدّ للغناء . فسرّح ستيفن طرفه فى أرجاء الحجرة الواسعة آملاً رؤية جيسلانا فاليرنى مرة ثانية .

« هأنذا » وأشارت إليه الكونتيسة من ديوان فى الزاوية .

فسار ستيفن نحوها ، وهو يتصنع الشجاعة . وقال : « كيف علمتِ أنى كنت أطلبك ؟ »

فبسطت جيسلانا فاليرنى يدها وراحتها إلى أسفل ، فى طمأنينة امرأة لم تشعر قط بحاجة يوماً إلى الإجابة عن مثل هذا السؤال . كانت يدها العارية ما بين القفّاز والكتف أشبه بقطعة من العاج بضّة مستديرة بيضاء . لو أنها قطعة من تمثال ، لكتب الأثريّون تحتها : « ميتانيرا . الجيل الخامس . يونانى » . ثم لوقفوا أمامها معجبين بقوام النساء فى ذلك العصر الفنّى . انحنى ستيفن على يد الكونتيسة ثم سحب يده برهة وجيزة قبل ما تقتضيه قواعد المجتمع الأسود .

اكتسبت جيسلانا فاليرنى من حياة قضتها بين الأوساط الكنسيّة العالية ، ألفة — ولا نقول حريّة — فى حضرتهم . فأشارت إلى ستيفن بمكان على الديوان بالقرب منها . وقالت : « كان ارتجالك رائعاً ، أيها المنسنيور . قد تغيّر فيك ثبات الموقف والقدرة على الكلام منذ رأيتك المرّة الأخيرة » .

جاهد ستيفن لقمع رغبته فى الإطراء ، قال : « وأنتِ أيضاً . فى ذلك الوقت ،

كنت تلبسين ثوباً أخضر » .

فاعترّفت له الكونتيسة ، برفرفة طفيفة من رموش عينيها السوداء ، بذاكرته العجيبة فى الإطراء . وقالت : « كان ذلك منذ زمان بعيد » . رنّ صوتها بمسحة من الأسى (لا علاقة لها بستيفن أو بها) ، مسحة من الألم تائهة كما يشعر بها رسّام الطبيعة أمام لوحته، عندما ينقلب ضوء الظهر الساطع إلى ظلال تجعله يتحيّر فى كيفيّة التعبير عنها .

بدأت السنيورا پيومبينو أدوارها ببعض الأغانى الألمانية العاطفيّة . أحسّ ستيفن وهو جالس بالقرب من جيسلانا فاليرنى بانجذاب لذيذ يسوده . لا ضرورة للكلام ، فقد سرى تيار التجاذب بينهما خفيّاً. ثم ختمت المغنية وصلتها بأنشودة من شومان: « ذكرى »، وأدّتها دون تمثيل عاطفى .

لم يرغب ستيفن فى قطع الصمت الذى ساد الحضور بعد فترة الموسيقى . فكانت الكونتيسة هى التى أعادت صلته بالحقيقة : « أخبرنى ابن خالتى روبيرتو أنك تعمل فى أمانة سرّ دولة الڤاتيكان » .

— « هل روبيرتو ابن خالتك أيضاً ؟ »

— « أمه وأمى أختان . وقد نشأنا معاً » .

تطلّع ستيفن عبر الحجرة فرأى براچيوتى مستنداً فى دلال إلى زاوية مدفأة عالية ، وشعره متموّج كالرسومات المحفورة على أوسمة من المرمر ، وفى يده تمثال صغير من الفخار ، يقوم دون شك بشرح تاريخه إلى فريق من السيدات . لم يزل ستيفن حيران فى أمر روبيرتو وسهولة تصرّفه بين السيدات . هل كان بطبيعته محصّناً ، أو أنه اكتسب مناعةً من حياة قضاها فى التمرين ؟

— « لا شك أن ابن خالتك كان ولداً شقيّاً » .

— « إنه شيطان . . . خرج من ريشة رافائيل . وهو جميل كما ترى ، لكنه يميل إلى الخيال بشدة . كم من لعبة قمنا بها معاً ! . . . هرب ثم إنقاذ ، وهلم جرّاً» .

— « هل تذكرين لعبة منها ؟ الأولى التى تخطر على ذهنك » .

— « الأولى حقّاً ؟ هى لعبة "الملاوى" . فى الواقع ، كنا نلعب دائماً "الملاوى" بطريقة أو بأخرى » .

— « أظن أنك كنت تمثّلين دور الفتاة السجينة ، ما اسمها ؟ — هذه التى أعطت منقذها خيطاً من حرير » .

— « اسمها أرياذنى — نعم ، لم يكن روبيرتو ليسمح لآخر بتمثيل هذا الدور . كان يصنع مخبأ متشعّباً من الأغصان والسدود فى الحديقة ، ويخبئنى تحت شجرة كمثرى فى الوسط . ثم ، بعد محاورات ومناورات عديدة يقتل فيها الممثلين من الأدوار الثانوية — وكان روبيرتو يصرّ دائماً على أن ينطرحوا على الأرض كالأموات — يزيل الأغصان والأوراق ويجدنى تحت شجرة الكمثرى » .

— « وماذا كان يفعل عند اكتشافك ؟ »

فألهبت الكونتيسة ستيفن بوهج عينيها وقالت : « وماذا يفعل كل منقذ لفتاته ؟ إن الأساطير لا تسمح بالخروج على العادات فى هذه الأمور ، أيها المنسنيور » .

شعر ستيفن كأنه آت من عالم أحلام لذيذ شفّاف ، ووجد أن الحقيقة الماثلة أمامه تجذبه بشدة أقوى . رأى جيسلانا فاليرنى تموج فى جاذبيّة تفوق عشر مرات ما تذكّره عنها . ومع أنها احتمت فى عليائها ، لكنها لم تبدُ نجمة بعيدة المنال — فطفق يدهش من أنها اضطرت إلى النزول عن عرشها ، ثم أدرك أنه هو الذى وضعها عليه . فقرّر ، ليأمن على نفسه منها ، أن يعيدها إلى مكانها بسرعة .

فى هذه الأثناء ، حاول ستيفن اكتشاف ثغرة مطمئنة فى هذه المرأة الجالسة فى هدوء بجانبه — عيباً فى الجمال أو التفكير يساعده على التقليل من إعجابه بها — فدله بحثه اليائس على عدم وجود هفوة واحدة ، أو حتى احتمال وجودها . ربّما ينقص الكونتيسة بعض الحرارة ، وربّما وجدها البعض فى ذوقهم مستزيدة فى كمال القوام ، وقد تستطيع شمس الظهيرة كشف النقاب عن غيّر السنّ فى تقاطيع وجهها ، لكن تحت ضوء هذا المكان لم يظهر أثر أكيد . على العشاء تناولت طبقاً من السرطان بالزبدة وشربت نبيذاً أبيض بهذه الروح المرحة التى تنظر بها المرأة إلى المأكول والمشروب كخيرات طبيعية خلقت لتذاق وتستهلك .

لم يبدُ أن الليلة الطويلة أتعبتها ، ولم يستشف منها رغبة فى تغيير مكانها أو فى جلب نظر شخص آخر إليها سوى ستيفن . بعد مضىّ ساعتين من مراقبة جيسلانا فاليرنى بعدسات مجهريّة ، وجد ستيفن ، وهو لايزال يبتهل أن يزول عنه انجذابه ،

وجدها ، يا للعجب ! دون عيب .

فى أثناء العودة إلى البيت ، قال روبيرتو جزافاً : « رأيتك تتحدّث إلى جيسلانا ابنة خالتى . ما رأيك فيها ؟ »

مع رغبة ستيفن فى إبداء رأى ، وجد مهمة الحكم عسيرة : « ماذا يمكننى قوله . قد صدمتنى بعذوبتها واكتئابها » . وإذ لم يتعوّد وصف النساء ، فقد لاذ باستعارة وقال : « إنها أشبه بفتيلة مشبعة بالحزن . إنها غامضة » .

— « غامضة غوطيّة ، أم غامضة إغريقية ؟ »

— « حتماً إغريقية . فليس فيها من زجاج ملوّن » .

— « ربّما لها مسحة من سيريس » .

— « قد لا أمنحها هذا الدور . لكنها حقًّا تمثل الأساطير . ومما أخبرتنى عن الألعاب التى اعتدتم القيام بها ، أعتقد أنها احتفظت دائماً بسرّ حول شخصيتها » .

— « كانت ولا تزال قطعة من الجمال الراقد — أجاب روبيرتو — هذه ابنة الخالة المجيدة ، التى من أجلها اقترفت بسرور جرائم قتل رمزية فى طفولتى ، هذه الخليقة التى لم تذق قط تجاوباً ، أو حتى اختباراً ، فى قواها العاطفية ، لا تزال تنتظر — ولننبذ كل تورية — لا تزال تنتظر ظهور من يعادلها فى العاطفة » .

— « ما الأمر مع زوجها ؟ »

— « رجل ظريف . . . لكنه أكبر سنًّا من جيسلانا بكثير . على كل ، فقد قتل على البياڤا منذ أربع سنوات فى أيام إيطاليا العظمى » .

— « وكيف احتملت المكوث أرملة منذ ذلك الوقت ؟ »

تنازع براچيوتى شعوران : شعور بالدفاع عن البطولة الإيطالية ، وشعور بإخفاقه فى إيجاد أمير جدير بابنة خالته . فقال : « إن حالة جيسلانا تخرج عن المألوف . إنها عاطفية حتى السأم ومتمسّكة جدًّا بعادات الوسط الاجتماعى » . ثم سأل ستيفن فى شىء من الفضول : « ألم تدهش من كون قوامها متيناً كبطلات الروايات ؟ »

— « كلا » .

— « كثيرون يستنكفون من شخصية چونو . إن تصوّرهم فقط بالالتقاء بمثل

هذا الحيوان الضخم – كما يعبّر عنه هوراس – يزيدهم نفوراً » .

– « يمكنني تصوّر ذلك » .

قد يستطيع ستيفن تصوّر أيّ شيء للتحدّث عن هذه المرأة .

ثم استطرد روبيرتو لقوله : « إنما فى الأمر مزيد . عليك أن تدرك أن جيسلانا قد تعرّفت على صنف واحد من الرجال : هو الصنف « الأسود » . وتزوّجت واحداً منهم . ليس معنى ذلك أن أعضاء المجتمع الأسود هم أقلّ رجولة من غيرهم ، لكن فى الأمر صفة مستلزمة . . . ألا وهى الحصر والانزواء الكائن فى العلاقات بين رجال هذا المجتمع ونسائه . لقد خبروا بعضهم بعضاً طويلاً وكثيراً ، حتى إن الزواج يميل إلى الفحش بين الأقرباء الدمويين . فى حالة جيسلانا ، لا بدّ من شخص جديد » .

بعد خوضه فى الموضوع من جميع جوانبه ، عاد روبيرتو إلى حيث بدأ الحديث : « لكن مع ذلك ، هل من المحتمل ظهور مثل هذا الشخص الجديد بالمزايا اللائقة المناسبة : قوّة العاطفة ، الوسط الاجتماعى ، مع القيم الثقافية والروحية ؟ »

– « يبدو أن ذلك بعيد المنال » .

ذهب ستيفن تلك الليلة إلى فراشه وهو يتعثّر فى أحاسيس متناقضة . سرّ فى داخله من كون جيسلانا فاليرنى غير متزوجة ، بليدة فى عاطفتها الجنسية ، وفى مأمن وسط مجتمعها . إن لم يستطع المطالبة بها لنفسه ، فقد ودّ مع ذلك ألا يجرؤ غريب على التسلل بين الفروع والأغصان ليحظى بها ، سواء تحت شجرة كمثرى أم فى المجتمع الأسود المقفل كتابوت من زجاج . أراد فقط ألا يزعج أحد هذه المرأة من نومها .

كان ذلك غريباً حقّاً ، فإن ستيفن قبل أن يستسلم للنوم ، قرّر ألا يراها بعدئذ أبداً .

* * *

اكتوت روما بحرّ ذلك الصيف . فى مكتب ستيفن الكائن على سطح الفاتيكان . سجل مقياس الحرارة سبعاً وثلاثين درجة كل يوم ظهراً من يونية إلى أغسطس ، ثم

أخذ يرتفع . أخيراً نبذ ستيفن المقياس ورجع إلى ثيابه المبلّلة يستدلّ منها على طبيعة الحرّ .

اتفق مع ارتفاع الحرارة الجوّيّة أن توتّرت الحالة السياسيّة وأوشكت أن تنفجر ، فقد كانت سياسة الكويرينال تسارع نحو الانهيار بسبب فشلها أدبيًّا وضعفها فى الدفاع والذود عن البلاد . فى أغسطس ، شلّ إضراب عام أكبر جزء من إيطاليا . فى المزارع والمعامل والمصانع والسكة الحديدية رفض الرجال العمل على أساس اتفاق مبهم منتقد بأجر سبع ليرات فى اليوم . انتشر الاضطراب والفوضى فى مدن الشمال الكبرى . ظهرت فى المقاطعات الزراعية أحزاب حمراء من النبلاء ، واستمعت البلاد بأسرها ، فى أمل يتخلّله الجزع ، إلى أنباء تقدّم فرق موسولينى نحو روما .

بعيداً عن غبار ساحات السياسة الإيطالية وشناعتها ، حاول ستيفن اللجوء إلى التأمل طلباً لراحة الفكر . فلم يفلح . منذ الليلة التى قضاها فى قصر لونتانا ازدحمت أروقة حياته بصور جيسلانا فاليرنى . كل يوم طوال الظهيرة كان يتعذّب بصفة واقعية أليمة بخيال تلك المرأة ذات اليدين الإغريقيتين والجسد العاجى . فى بدء الأمر استلطف حركاتها البطيئة الموزونة ، والآن إذ يستعيدها فى خاطره فهى تؤلمه ألماً شديداً : رفع يدها بالقفّاز فى دلال ، رفرفة رموش عينيها العذبة، تصرّفها الرشيق فى حركات جسدها فى أثناء قيامها أو جلوسها أو اتكائها أو سيرها — كل تلك الصور تزاحمت كالدوّامة فى ذاكرته .

كل كلمة قالتها يتردّد فيه صداها . كلمات تحمل فى حدّ ذاتها أقل ما يظن من رقة وعاطفة ، جُمل غامضة ليس فيها من تعبير شخصىّ ، كلها تدفّقت الآن محمّلة معانى غزيرة (ليس بها معنى خاص ، وإلاّ كان ضرباً من السخافة) ، لكنها هزّته هزًّا عنيفاً . أدرك ستيفن ، اتفاقاً ، أنه لو اضطرت جيسلانا فاليرنى يوماً إلى أن تسرّ إليه بأمر هام ، فسيجد الاستماع إليها عبئاً ثقيلاً . غير أنه وجد نفسه فى ذلك الوقت يتجاذب معها حديثاً ودّيًّا خياليًّا ، ويعقد خيطاً حريريًّا خفيًّا على مكبّ غزل خيالى حول رغبة جامحة ، وإذ يوشك المكبّ أن يمتلىء كان دائماً يجد نفسه على العشب الأخضر بجانب جيسلانا فاليرنى تحت شجرة كمّثرى وقد غطتها البراعم والأزهار .

. . . إن الأساطير لا تسمح بالخروج على العادات فى هذه الأمور ، أيها المنسنيور . . .

عزم ستيفن على التخلص من وطأة هذه التخيّلات . كان الفوز دائماً حليفه إذا ما التجأ إلى الراحة . بدأ يعتقد فى نفسه أنه واحد من أولئك الناس السعداء الذين تتفوّق فيهم مقاومتهم الطبيعية ضدّ التجارب الشهوانية على التجربة نفسها . وإذا لم يكن أقوى بحسب الطبيعة ، فعليه أن يتوسّل إلى معطى النعمة الفائقة الطبيعة ، فيجد دائماً حينئذ العزّة الكافية التى يمنحها الله لمن يسأله فى اتضاع . حتى سنّ الثالثة والثلاثين ، أعفِيَ ستيفن من ذلك التساهل التافه اليائس الذى يضطر أغلب الناس إلى تحمّله فى ظروف عديدة من حياتهم العاطفية .

لكنه لن يعفى بعد الآن .

لم يجرؤ ستيفن على الاعتقاد أنه وقع فى حب جيسلانا فاليرنى . مع ذلك لم يستطع التهرّب من الاعتراف بأن جيسلانا فاليرنى قد أثّرت فى تلافيف قلبه وعقله .

سأل نفسه : « ما الذى يدفعنى نحو هذه المرأة ؟ منذ سبع سنوات اضطربت لرؤياها . والآن أيضاً ، عادت الكرّة . ما الذى يتجاوب فىّ معها ؟ »

فأتته الردود حادة قاطعة : إن جيسلانا فاليرنى تكشف لك ، فى كمال صافٍ ، عن احتمالات عديدة ، بسعادة أرضية رفضتها دائماً ولم تجرؤ على تخيلها قطّ . مع ذلك فها هى ذى غادة الأساطير الملكيّة تفيض طيبة فى محور كيانها وتتألم ، كما هى حالك الآن (كما هى حال كل بشر) لتفرج عن نفسها بالاستسلام إلى من يعادلها فى العاطفة .

ثم افترض ستيفن أنه لا شكّ يوجد أناس يقضون حياتهم فى مثل هذا الألم — لا ينفكّون عن التفكير بامرأة ، مرتبطين بالأمل أو بالخيال إلى شخصها ، لا يهنأ لهم عيش دون تملّكها ، ويخشون عليها أن تنشد سعادتها مع آخر غيرهم .

بدأ ستيفن يشعر بالنتائج الأليمة الناتجة عن منح شخص حبّه دون قياس إلى شخص آخر غير الله . خجل من نفسه لإدراكه بأن جيسلانا فاليرنى قد فازت بالدخول إلى الهيكل المخصص لكهنوته ، وأنها قد استطاعت التقدّم ، مدة حديث واحد فقط ، قريباً جدّاً من باب قدس الأقداس . يجب إذن أمرها بالعودة قبل

إذ تجتاح الحدود المقدّسة حيث لا يجوز أن يسكنها إلاّ حبّ واحد فقط .

قطع ستيفن على نفسه وعداً ، وهو الأعزب المحلّف والكاهن المكرّس ، بإبعادها عنه . فبدأ نظاماً من التقشف الذاتى الصارم ، دون اضطراب كرجل يقاوم مرضاً خطيراً لكن يرجى الشفاء منه — صام ، وامتنع عن أكل اللحم ، وزاد من صلواته اليوميّة . كل يوم ، بعد إقامته القداس الإلهى وتلاوته الفرض الكنائسىّ بخشوع متزايد ، أضاف إلى صلواته طلبات العذراء المباركة . توسّل إلى والدة الإله كى تتشفّع من أجله لدى عرش الآب ، ودعاها بأمجد الأسماء :

أيّها الأم الكلية الطهارة
أيّها الأم الكلية النقاوة
أيّها الأم الشريفة
أيّها الأم العفيفة
أيّها العذراء الكلية الحكمة
أيّها العذراء الكلية القدرة
أيّها العذراء الكلية الرحمة
أيّها العذراء الذائع صيتها جدّاً
يا وردة سرّية
يا برج العاج
يا بيت الذهب
يا باب السماء
يا ملجأ الخطأة
يا معزّية الحزانى

} صلّى لأجلنا

تبع مراحل الصليب وجدّد بها فى نفسه ذكرى ما سببته الخطيئة من آلام قاسية وتعويض واستغفار تحمّلها المسيح كإنسان .

طلب من ألفيو كارنجى المزيد من العمل ، وتطوّع ليقوم بعمل المنسنيور

جواردیانو الذی ذهب فی إجازة مدة شهر . اکتوت روما بحرّ أغسطس وزاد ستیفن من نظامه النسکیّ الشدید . رویداً تضاءلت صورة جیسلانا فالیرنی ، وضعف صوتها ؛ ومثل موجة تتراجع ببطء کمنت فی أسفل منحنیات قلبه ، وترکته وحده أمام قدس الأقداس .

وصل ستيفن إلى حالة متوتّرة من الإعياء . فاقترح عليه مرّة روبيرتو براچيوتى فى أوائل سبتمبر رحلة على الأقدام وسط تلال سابينا . وقال له :

— « قد نضجت الكروم فى تيڤولى . وها هم أولاء يعصرون خمراً جديدة على سفوح سابينا . سنتسلق المسالك فى الجبال ونستلقى على ظهورنا فى حدائق الليمون ، ونستمع إلى هدير الشلالات ، ونسبح فى البحيرات الباردة كالثلج . فما قولك يا ستيفانو ؟ »

— « أقول : رائع . لقد عاد جواردیانو ويستطيع القيام بعملى . لنبدأ غداً » .

اكتفى ستيفن ببعض الحاجات الضرورية حزمها فى جرابه . واشترى قميصاً من قماش خشن ، ثم اشتهى زوجاً من الأحذية الثقيلة ، لكنه خشى إتلافها فى رحلته فاكتفى بحذائه القديم الأكسفورد . أما روبيرتو فاقتنى حذاءً جديداً عالياً ، صناعة إنجليزية ، وبنطلوناً قصيراً من التويد ، وقبعة ألپينية تعلوها ريشة بيضاء .

حتى يسرعا فى الخروج من روما ركبا قطاراً بالقرب من بوابة « القديس لورنزو » ، ونزلا فى « بانيى » على بعد اثنى عشر ميلاً من المدينة .

أسرع براچيوتى فى خطاه الواسعة حتى صعب على ستيفن اللحاق به . فأشار عليه قائلاً : « على رسلك ، أيها النسر . إنا نسير فى رحلة ممتعة ، ولسنا فى سباق نحو القمم » .

— « لكن يجب علينا بلوغ أعلى التلال الليلة . فإنه يوجد فى " ڤيكوڤارو " فندق معلّق على حافة الجبل وأمامه جدول ماء » .

— « سنجده فى مكانه غداً أيضاً » . — كان ستيفن يجيد إفحام صديقه .

— « سِرْ مهلاً فى اليوم الأول ، وأسرع فى اليوم الثانى ، فالعجلة تسبب بثوراً . هذا اعتقادى » .

— « إنك كالسلحفاة — زمجر روبيرتو — أما أنا — ولمس الريشة فى قبعته — فكالنسر الرومانىّ ».

ساراً ثمانية أميال ذلك اليوم ، وقضيا الليلة فى « فندق الشلالات » فى تيڤولى ، وبعد إفطار شهىّ دسم تابعا طريقهما .

اتجها شمالاً عبر منطقة تزينها الكروم حيث الهواء مشبع بضباب بنفسجى . أصبحا على بعد عشرين ميلاً من روما ، ومرّا بقرى لم تزل على حالتها الأصلية منذ عهد قيصر . فى الحقول والكروم ، كان الفلاحون يجمعون خيرات الأرض من زيتون وعنب وأذرة فى قفف من صنع أيديهم . وأحياناً كانت تمرّ بالقرب منهما عربة عجلاتها من خشب ويجرّها حمار . المشهد طريف لكنه متّسم بالفقر .

قرب الظهر توقّفا عند مطعم منفرد هادئ للغداء . حلاّ جرابهما وتناولا حساءً من البسلة ، وشربا نبيذاً مزّاً من إنتاج المنطقة. ثم غسلا أيديهما وأرجلهما ووجهيهما فى جدول ماء ، واستسلما لسنة من النوم تحت أشجار الصنوبر . فهبط التوتر الذى يعانيه ستيفن ، وزالت أيضاً نوعاً ما عصبية روبيرتو .

أحدث الحذاء الإنجليزى الجميل فى كعب قدم روبيرتو اليسرى بثرة ، فاقتنع مسروراً بالسير مهلاً . وبالسير مرّة وبالراحة أخرى ، وصلا قُبيل المساء إلى ڤيكوڤارو ، ووجدا الفندق ، كما تكهن ستيفن ، لا يزال على حافة الجبل متعلقاً فوق جدول الماء .

عشاء ، ومزيد من النبيذ ثم سيجارة على السطح . ولما كانا متعبين ، أنفا الحديث ، فاستسلما للنوم .

فى الصباح التالى وقت الإفطار قال ستيفن سائلا : « هل تعرف تلك المنطقة جيداً ؟ »

— « كان لأسرتى منزل فى ضواحى شيڤيتلاّ ، على بعد عشرة أميال من هنا . وفى طفولتى كنت أقضى هنالك إجازاتى الصيفية » .

— « إذن فأنت تعلم دون شك أن هوراس كان يمتلك قطعة أرض فى هذه النواحى » .

— « هل هى مزرعة سابينا ؟ قد اعتدنا قضاء نزهاتنا فيها . —"يا نبع بندوزيا !"

أتظن أنك الوحيد فى قرض الأناشيد ، يا فرمويل؟ والآن حقًّا ، ما الأمر بينك وبين هوراس ؟ قل لى يا ستيفن ، كيف يستطيع بربرىٌّ مثلك تذوّق أناشيد شاعر رومانى ؟ »

– « إنها قصة طويلة ، ويلذّ لى سردها . انتظر حتى نفضى إلى الطريق » .

اشتريا من صاحب الفندق زجاجة من النبيذ ، وبعض الخبز والجبن ، ثم شدّا الرحال شمالاً نحو جبل چنّارو . سارا فترة من الزمن سيراً حثيثاً ساعدهما على تنشيط عضلاتهما ، ثم خفّفا من سرعتهما فى خطى بطيئة ، لأن الطريق بدأ ينساب صعداً . فأضحى الهواء نقيًّا والأفكار صافية .

تملك براچيوتى المرح . أراد إقامة سباق وألعاب ، ومنازلة رفيقه فى ميدان الذكاء والمصارعة معاً . فقال :

« أراهنك على وجبة غداء ، أنى أستطيع سرد تاريخ العالم الغربى فى دقيقة واحدة – ثم أضاف – وأنا أجرى » .

فقهقه ستيفن : « قد اعتدنا فعل ذلك فى المدرسة الرعائية . اجعله أصعب » .

– « أترغب فى التنويع ؟ حسناً – سأفعله وأنا عائد على أعقابى » .

– « أىّ الاثنين : التاريخ أم الركض ؟ »

فأجابه براچيوتى بعد لحظة من التفكير : « الاثنان معاً » .

– « قبلت الرهان . فابدأ إذن بانتخاب " وارين هاردنج " واشرح سياسة "لنكولن" وناقش موقف "چيمس پولك " من المكسيك » .

فقال روبيرتو : « إن تاريخ بلادكم يقع فى جملة واحدة وها هى ذى : اكتشف أمريكا إيطالىّ ظن أنه ذاهب إلى مكان آخر » .

– « أشكرك على تذكيرك إيانا بهذا القدر الضئيل – أجاب ستيفن – حسناً ! لقد قطعنا مسافة لا بأس بها من الطريق . هيا ، وبعد ؟ »

فاستدار روبيرتو وبدأ من مؤتمر ڤرساى يفيض بالكلام عن الحضارات الحديثة والوسطى والقديمة . قرب نهاية حديثه ، أسرع روبيرتو فى خطاه وفى كلامه مما اضطر ستيفن إلى الجرى وراءه كيلا يفوته الحديث . كان استعراض روبيرتو مدهشاً يقطع أنفاس العلماء بسموّه . ولما انتهى من حديثه أطاح بضربة خفيفة مرحة على رأس ستيفن . وقال :

— « أترى ، أيها الأمريكي ، كيف يعمل العقل الروماني ؟ يجمع في بؤرة واحدة كل العصور ، كل الثقافات . الزمان يجرى إلى الأمام وإلى الخلف وإلى أيّ اتجاه تحبّ » .

فقال ستيفن : « هل تستطيع فعل ذلك بالسير على يديك ؟ »

— « إذا ما تطوّرت هذه البثرة في قدمي، فسأضطر إلى ذلك — أجابه روبيرتو وهو يعرج قليلاً — ربما تساعدني قصتك عن هوراس ، كالمرهم الشافي على تخفيف الألم » .

— « أتريد حقّاً سماع قصته الأصلية ؟ »

— « نعم ، على شرط أن تضرب صفحاً عما يتشدّق به اللورد تشسترفيلد حين يقول : إذا أحسنت الكلام ، ذكرت هوراس » .

رفع ستيفن جرابه ووضعه على كتفه الأخرى ثم قدّم لبراچيوتي جرعة من النبيذ ، وأخذ هو جرعة أخرى . وقال : « القصة تبدأ بأخ راهب كان يدرّس اللغة اللاتينية في مدرسة رعائية بمدفورد ، في ولاية ماساشوستس . كان الأخ فيليكس شخصاً عذباً وأستاذاً موهوباً غريباً ، وتقيّاً ورعاً أكثر من كهنة كثيرين أعرفهم وأستطيع ذكر أسمائهم . والغريب في الأمر ، أنه لم يتقدّم إلى درجة الكهنوت . ربما اعتقد أن مهنة التدريس تضارع الكهنوت أهمية » .

— « إن الأخ فيليكس هذا يثير اهتمامي » .

— « مع كون الأخ فيليكس أستاذاً ، فقد كان أيضاً شاعراً لا يبتذل ممارسة فنّه . وقد اعتاد القول بأنه لا يجوز للشاعر أن يبدو مبتذلاً . ولكي يتغلب على خجله ، أنشأ في نفسه عادة ظريفة في قراءة الشعر بصوت مسموع ليعطيه معنى ووقعاً مستحبّاً . بالطبع كان يحب مؤلفات المتصوّفين أمثال : ساوثويل ، ويوحنا الصليبيّ ، وڤوجان . لم يحبّهم لتقواهم — فمن واجبي أن أوضح لك هذا الأمر ، يا بيرتو — لكن من أجل مقدرتهم الشعرية . كان الأخ فيليكس يعلم تماماً أن جميع الشعراء الدينيين ليسوا بملهمين ، وأن القلب لينتفض ألماً من مجرّد تخيّلهم بطلّتهم الراهبة كقنبرة ترفرف على أبواب السماء » .

— « لا بدّ من محاكم تفتيش لدرس حالة هذا الأخ . هل لقّنكم كفراً غير هذا ؟»

— « هو الكفر بعينه . كان هذا الأخ فيليكس يعلّمنا عقيدة غريبة فى الأناقة ، وذلك فى معترك مجتمع تطبّع بثقافة البيسبول ولعب الورق والرقص . كانت أتفه حركاته تدل على رجل يتوق بكل جوارحه إلى الكمال . لو رأيته يفرد قليلاً من الجبن على قطعة من الخبز المحمّص ويقرّبها من فمه ، أو يشرب كوباً من الماء ، لظننت أنك أمام رجل مثالىّ يعيش فى الخيال . أتتصوّر ذلك ، يا روبيرتو؟ »

— « تعرّفت على رجل أو اثنين من هذا النوع فى حياتى . والاثنان فنانان . الواحد موسيقىّ والآخر مثّال . لكن يجب القول إن مقدرتهم لم تكن فى مستوى فنهم » .

— « هذا هو بعينه . لقد فهمت الآن حالة الأخ فيليكس . قضى حياته يجدّ فى التشبه بفنان تتساوى فيه المقدرة والإنتاج . وبعد جهد كبير وجد ضالته التى ينشدها فى رجل شاعر يستحيل العثور فى مؤلفاته على حدّ فاصل بين طبيعة الجواهر الثمينة والنور الساطع الذى يشعّ منها » .

ثم وقف ستيفن وأمسك بقميص براچيوتى قرب عنقه وقال : « والآن ، من تظنّ هذا الشاعر ؟ »

— « دانتى ؟ »

— « المحاولة طيبة . إن دانتى ، فى أروع مواقفه يشع نوراً . غير أن نقاوة لآلئه تشوبها بعض أوحال السياسة ورواسب اللاهوت . احزر مرة أخرى » .

— « أكره وضع ثقتى فى الدولة التى صنعت هذا الحذاء ، لكن ما رأيك فى شكسبير ؟ »

— « ربما الأناشيد . غير أن مسرحياته محشوّة بلاغة . المعذرة ، نحن لا نتحدث عن شعور من يقف فى طريق جبل ينهار عليه . لكننا نتناقش فى أمور الخيال والتركيب . هيا الآن ، لا تتظاهر بالعناد . قل هوراس وكفاك تهرّبا » .

فجرّ روبيرتو قدمه جرًّا وهو يعرج عليها وقال : « إنى لست عنيداً — ثم جلس على العشب وطفق يخلع حذاءه الأيسر — لكن هذه البثْرة تقتلنى ألماً » .

— « دعنى ألقى عليها نظرة » .

نزع ستيفن الحذاء والجورب ورفع قدم روبيرتو ورأى كعبه منتفخاً ملتهباً :

« قد تسلّخ الجلد يا بيرتو. انتظر ، سأغسله بقليل من الخمر » .

بلّل ستيفن منديله بالنبيذ المزّ وعصر السائل فى رقة على البثرة: « والآن لصقة صغيرة تسوّى كل شىء » .

— « إذا كان لدينا شىء من ذلك ! . . . »

— « قد اشتريت منها شيئاً . . . للطوارئ — ثم فتش فى جرابه وأخرج منه بكرة صغيرة من اللصوق ، وقال :

— « استلق على ظهرك أيها النسر المجنّح » .

فاستلقى روبيرتو على العشب ورفع ساقه فى الهواء : « هل تضع اللصقة على شكل صليب ؟ »

— « نعم » .

— « غوطىّ أم مالطىّ ؟ »

— « الأخير » .

— « ولماذا ؟ ضع إجابتك فى شكل قياس منطقىّ » .

— « فليكن . ما رأيك فى هذا القياس ؟ »

« فى الجرائد السخيفة كل الرقع مالطية
والحال أن براچيوتى جزء من الجرائد السخيفة
إذن توضع لبراچيوتى رقعة مالطية » .

— « نسيج من الخيال — صاح براچيوتى وهو يحاول الوقوف — أرى أنى سأضطر إلى رقع عمودك الفقرى ببعض القياسات المنطقية » .

فقبض ستيفن على قدم براچيوتى وقال : « ليس قبل الفراغ من عملنا الذى بدأناه . فبينما أنت حيث أريدك — ولوى رسغ قدم روبيرتو كما يفعل المصارع — قل هوراس مرّتين » .

— « آى ، يا فرمويل » .

— « لا تقل آى . قل هوراس مرّتين ! »

— « هوراس ، هوراس ! »

— « كلاّ ، ألا تفهم الإيطالية ؟ قل هوراس مرّتين » .

— « هوراس مرّتين ، أنت أيها الغبيّ اللعين » .

ضحك ستيفن وفكّ قبضته ، فقفز براچيوتى على العشب وصاح : « أتلوى قدم رجل رومانى ، أتجرؤ ؟ » ثم طوّح بقبضته نحو رأس ستيفن ، فتفاداها وأمسك بمعصم روبيرتو واستدار به ورفعه على كتفه وقذف بالإيطالى الذاهل على كومة من القشّ .

خرج براچيوتى من التبن كالحيوان الثائر ، والقشّ لا يزال ملتصقاً بشعره المتموّج ، ولم يدر كيف يفسر هذا الأمر : أمزاح أم إهانة . فقال : « إنك ثعلب ماكر يا فرمويل ! »

— « لا تقله لى ، فإنى رومانىّ » . أجاب ستيفن ، فى تكشيرة ظريفة محكمة التصويب حتى لم يجد روبيرتو مفرًّا من الضحك . وشاركه ستيفن فى الضحك وهو يراقبه ينزع التبن من شعره .

* * *

بعد الظهر بوقت قصير وصلا إلى أطلال مزرعة سابينا الحديثة ، واقتربا من قرية « ليشنزا » الصغيرة المكوّرة فى ظل وادٍ تحت سفح جبل چنّارو الصخرى الذى جاء ذكره فى الأناشيد . تسلقا هضبة وعبرا جدولاً مزبداً وأتيا إلى بستان يعمل فيه بعض الرهبان فى قطف الثمار .

فسألهم روبيرتو : « هل مزرعة هوراس قريبة من هذا المكان ؟ »

— « تحت قدميك » ، أجابه أحد العمال .

ألقى ستيفن نظره على طريق طويل تظلله أشجار الليمون . هل كان هذا حقًّا عش سابينا الذى أعاد إلى الشاعر نشاطه عندما كان يهرب تعباً من حرّ روما ومؤامراتها ، ويركب بغلته السريعة ويأوى إلى مزرعته فى الجبل ؟ نعم ، قد تكون هى . ها هو ذا الجدول المتدفق بخريره ، والنبع ذو الماء الصافى ، الذى أشاد به وأحبه وذكره أكثر من جميع ينابيع الأرض . وعلى سفح الجبل من فوق امتدّت الأحراش التى التقى فيها هوراس بالذئب الضخم . كان هنالك قطيع من الماعز يقرض العشب الأخضر تحت الأشجار حيث تمتع الشاعر بحرّ الصيف واستلقى فى ظلّها مع زجاجة النبيذ الفالرنى .

وإذا به وسط هذه الذكريات القديمة يسمع صوت روبيرتو يقول : « المعذرة ، يا صديقى الحميم ، إنما أعتقد أن البثرة بدأت تخزنى جداً » .

— « إذن الأمر خطير . يجب العناية بقدمك ، يا بيرتو . ما هى أقرب مدينة ؟ »

— « القلعة الحديثة . لكن لا شىء فيها » .

فسأله ستيفن فى إلحاح : « هل نستطيع العودة إلى روما ؟ »

— « ليس قبل غد صباحاً . ألا قل لى . . . لو استطعنا استئجار عربة . . . »

— « فماذا إذن ؟ »

— « إن الأميرة لونتانا تمتلك قصراً فى الضواحى وسيكون عندها صابون وماء ساخن على أقل تقدير » .

— « إذن سنشترى عربة » .

جلسا بجانب الطريق أكثر من ساعة من الزمن ، إلى أن ظهرت عربة صغيرة يجرها حمار أعرج يسير بطيئاً ويثير سحابة من الغبار . كان السائق نائماً . ولمَ اليقظة بعد ظهر ثقيل كهذا ؟

فهزّه ستيفن برقة من كتفه ، وقام براچيوتى بالسؤال : « إلى أين ، أيها الصديق ؟ »

— « ميلين بعد القلعة الحديثة » .

فاقترح براچيوتى على السائق الناعس : « هل تأخذنا ميلاً أبعد بعشرين ليرة ؟ »

بعشرين ليرة ! — أىّ أجرة ثلاثة أيام عمل — قد يقودهم السائق إلى حدود نبع الليثى . وضع ستيفن النقود فى يد الرجل وقفز المنسنيوران وتكوّرا فى مؤخرة العربة .

ترجرجت بهما العربة فوق الحصى والشقوق فى منطقة قاحلة ، وعند الغسق وصلت بهما إلى الطريق المعبد الذى يؤدّى إلى منزل الأميرة لونتانا الريفى ، ومرّت تحت ظل أشجار السنديان ، وإذا بهم وسط أرض خضراء تفنّن فيها المهندس والبناء فى إقامة سفوح وأجنحة وأبراج أبرزت باتحادها جمال هذا القصر الريفى .

على سفح واسع مفتوح أبصروا بعض الأشخاص ، ليسوا شباناً أو مسنّين ،

يتمايلون على كراسيّهم الطويلة والشراب فى أيديهم ، وعلى سيماهم أمل واحد فى قضاء مساء منعش عليل . رفع بعضهم رؤوسهم لما مرّت العربة فى طريق الحديقة . وقال روبيرتو :

— « استعد ، يا ستيفانو ، لسماع امرأة تسجل دهشتها فى ست لغات مختلفة » .

تقدّم خادم وجيه فى بذلته الرسمية وسأل الزائرَين فى حذر عن مرادهما . فقال له براچيوتى فى مرح : « أخبر الأميرة لونتانا أن المنسنيور براچيوتى والمنسنيور فرمويل حضرا ليقوما بزيارة للفقراء الصالحين . ساعدنى يا ستيفانو ، على النزول من هذا البرميل » .

صعقت الأميرة لونتانا لرؤيتها كاهنين معفَّرين أمام بابها ، وهرعت كالملاك لمساعدتهما : « أمبرتو — قالت لخادمها آمرة — قدّم ذراعك سنداً إلى المنسنيور براچيوتى ودلّه على الحمّام فى الجناح الجنوبى . سأحضر المطهرات والأربطة » .

بعد نصف ساعة فرغت من ربط كعب روبيرتو وجلست تتحدث إليهما : « سيستقبلونكما فى الحديقة بفرح كبير . . . إن نقص الرجال سبّب عند الجميع إزعاجاً . . . وشهرتى كمضيفة ثبتت الآن وأنقذت . يا أمبرتو الطيب القلب ، حاول اقتراض بعض الملابس الداخلية الطويلة للمنسنيور فرمويل . قل لخادم اللورد تشاستكومب أن يفعل شيئاً لطيفاً جدّاً . هل تحسّن كعبك ، يا روبيرتو؟ »

— « تحسّن كثيراً ، أشكرك . ويا أمبرتو ، اقترض لى شالاً أظرف من هذا من عند الإنجليزىّ . هذه النقط لا تناسبنى . لكن لا ، لا تزعج نفسك . لو اضطررت إلى العرج فسأكون مثل بايرون جريئاً فى مظهر عنّى . من هم ضيوفك ، أيتها البرنسبيسا ؟ »

بدا على الأميرة لونتانا الجد وشرعت تعدّ ضيوفها : « هنا المركيزة ألكسندرا — وبالطبع دون زوجها . ثم الأخوات لوريا ومرجريتا وأمفيليا . ثم اللورد هوروكس الذى يحوم حول مرجريتا ، وأيضا البارونة سيچيسموندا » .

فزمجر روبيرتو وقال : « آه ! الصيادة الباڤارية ؟ لقد اجتنبتها سنين عديدة . لو اضطررت يا لوريتا ، إلى حشو بيتك بسيدات عُنسٍ عُذبٍ ، فلماذا لا تنتقين الجميلات منهنّ ؟ »

— « عندنا أولئك أيضاً . إن ابنة خالتك جيسلانا وصلت البارحة فقط من بايا » .

سمع ستيفن هذا الاسم وهو يربط الشال حول عنقه فسأل : « جيسلانا فاليرنى ؟ هل هى هنا ؟ »

— « بدمها ولحمها ، أيها المنسنيور ، متألقة . وسوف تراها . إن لون بشرتها يتحدّى أشعة الشمس بشكل لا يتصوّره العقل . وإنك ستشكر القدر الذى جعلك أعزب ، عندما تشاهد أحدث الثياب الباريسية التى أحضرتها معها فى سبع حقائب » .

ثم نقرت بأصابعها على رباط روبيرتو وقالت : « والآن ، يا أصدقائى ، زيّنوا وعطّروا أنفسكم . وأسرعوا فى الظهور . سنتناول عشاءنا تحت النجوم فى الثامنة والنصف » .

ثم رفعت الأميرة لونتانا بصرها نحو السماء كما لو كانت جزءاً من حدائقها وقالت : « إن الكواكب ، كما تظهر الآن فى تقاربها ، تنبئ بليلة لن يمحى ذكرها » .

الفصل الرابع

نزل ستيفن إلى الحديقة حيث فرشت مائدة طويلة مكسوّة بالزجاج مدّ عليها العشاء . كان الهواء ساكناً حارًّا ثقيلاً ، وارتفعت شعل الشموع منتصبة دون حركة ، واختنقت الطبيعة والأرض مستجدية مطراً منعشاً . كانت الليلة خليقة بحفلة ملثّمة اصطفّ فيها الممثلون على مسرح الأميرة لونتانا انتظاراً لفتح الستار .

تكلمت الأميرة كعادتها ، وجعلت الجميع يشعرون بالراحة والغرور . ثم عرّفت الحضور بستيفن فى رقّة تقطر عذوبة وقادته ، كغنيمة حرب ، نحو جيسلانا فاليرنى .

استقبلته الكونتيسة ، وهى جالسة على كرسىّ من القش ، بما اعتادت من قلة الكلام والحركات : شفاه أبطأ إلى الكلام منها إلى الابتسام ، ويد عارية راحتها إلى أسفل . أفصحت له عن سرورها برؤيته بغتة ، وقالت بأن الرجال سعداء لاستطاعتهم اقتراض الثياب بعضهم من بعض : « لا توجد امرأة تستطيع الوثوق بغرزة واحدة لم تصنع لها » .

ودّ ستيفن لو استطاع الردّ عليها بأن كل لحمة وسداها فى الثوب الليمونى الذى ترتديه لا بدّ أن تكون مخيطة ومعقودة على اسمها ، ولكنه نبذ هذا الافتتاح باللجوء إلى التملّق . فأخذ حذره وعزم ألا يفيض من نفسه إلاّ ما تقتضيه آداب المعاشرة فقط .

كان ستيفن لا يزال يتجاذب معها أطراف حديث برىء ، وإذا بالأميرة لونتانا أشارت إلى ضيوفها بالتوجه إلى المائدة . وجد ستيفن نفسه بين مضيفته وإحدى التوأمين ألكسندرا . ساعده هذا الترتيب على تفادى أخطار التحدّث إلى جيسلانا فاليرنى ، لكنه جعله عرضة لخطر أكبر وهو النظر إليها عبر الشموع على المائدة . قمع رغبته محاولاً ألاّ ينظر إليها . مع ذلك ، فقد شعر بصورتها تتبلور فى مخيّلته

كأنما على شريط سينمائى .

صفّقت الأميرة بيديها وقالت : « سوف لا نقوم بترجمة من أى نوع هذه الليلة ، لأن الجميع يتكلمون اللغة الإيطالية » .

— « سمعاً . . . سمعاً ! » صاح روبيرتو .

واستطردت الأميرة : إذن لا أستطيع القيام إلاّ بدورين فقط . أيهما ترغبون فى أن أمثله لكم : الجارية الصماء التى فقدت بوق الصوت أم المرابى الشرّير الذى يضطر كل إنسان إلى اللعب برهان باهظ ؟ »

— « المرابى الشرير . . . »

— « الجارية الصمّاء . . . »

— « سأمثل الدورين معاً » . ثم التقطت الأميرة من بين المأكولات المنثورة على المائدة قرعةً فى شكل بوق وأدنتها من أذنها وقالت : « ماذا تقولين . . . ارفعى صوتك » . فضحك الجميع لما أتت به من حركات .

ثم مدّت يدها وجمعت ما استطاعت إليه سبيلاً من ملاعق وملاحات وما شاكل وقالت : « ألقوا بنقودكم ، سادتى ، سيداتى . إن عجلة الحظ تتألّب علينا ، لكن الجميع عرفوا بثقتهم فى الربح . يا أمبرتو ، أحضر النبيذ ، وانتق أضخم الزجاجات » .

عبر المائدة حاكت عينا جيسلانا فاليرنى عينى ستيفن وكأنها تقول : « لا تخف ، كل هذا برىءٌ وهادئ . أرجوك ، استمتع بليلتك » .

تناول ستيفن كأساً واحدةً من الشمپنيا . ولم يتمادَ فى ضحكه أو كلامه . روبيرتو هو الذى أنعش الحديث ، بالرغم من الألم فى كعبه الملتهب . فبدأ يسرد رحلته مع ستيفن على طريقة الأساطير . كان العرض الذى قدّمه روبيرتو مرحاً مسلّياً ، مال به عن سلم الحقيقة قليلاً ولوّنه بطلاء من خياله على قدر ما استطاع الإدلاء به فى برهة لا تزيد على الثلاث دقائق .

فما كان من اللورد تشاستكومب إلاّ أن أفاض فى حديث طويل استمرّ نصف ساعة عن رحلة مشابهة قام بها فى جبال الپيرينيه السفلى منذ عشرين سنة . وبدأ سعادته بقوله : « قد تتبعنا آثار حملة ويلنجتون على پوناپرت » . ثم حاول

على طريقة فرق الفرسان الثقيلة تجديد القتال فى شبه الجزيرة الأسبانية بجميع تفاصيلها . أضحت كل قافلة ، فى وصف اللورد السخيف ، كميناً رهيباً محصّناً .

خشيت الأميرة لونتانا على ضيوفها من الوقوع بين فكّيْ ويلنجتون المنتصر ، فأرسلت إلى روبيرتو إشارة من حواجبها فى طلب النجدة : « سدّد إلى الإنجليزى ضربة قبل أن يحتلّ إيطاليا » .

فاندفع روبيرتو يحلّق كالنسر . دون مقدّمات أو استعداد أحال الحضور إلى جمع متلهف ذاهل تعلّق بشفتيه كالنحل على الزهور . أخذ يقلد تاجراً لبنانياً يحاول بيع شحنة من التين المدوّد إلى أرشمندريت من أثينا كان لديه تين بما فيه الكفاية لكنه فى حاجة إلى سجادة صلاة صغيرة لفرقة الترتيل فى كنيسته . ثم أمسك روبيرتو بفوطة من على المائدة ولعب دور بائع بُسُط سورىّ وجد معه — يا لغرابة القدر ! — الصنف المنشود . فاخترع لهجات وكلمات يصف بها السجادة فى أجمل رسومها حتى بلغت مساحتها مساحة سطح الحديقة . ثم طوى حديثه عن التكلم فى شؤون البسط ، ذاهلاً حزيناً ، وانقلب محامياً يدافع عن قضية شاب عامل فى زريبة وقع يائساً فى حبّ سيدة قصر مبنى على قمة عالية من مقاطعة آكيتين .

ذهل ستيفن كسائر الضيوف من هذا العرض المشحون بالصور الخيالية الجريئة . وبينما لم يزل المطر متعلّقاً بأهداب الجوّ الذى زاد ثقلاً وتوتراً ، والحفلة تدور مرحة صاخبة ، نسى ستيفن أنه امتنع عن النظر إلى جيسلانا فاليرنى .

فى بدء الأمر سمح لنفسه باختلاس الطرف إليها والتمتع برؤيتها . وإذ أخذ القمر يتصاعد مستديراً فى السماء ، شغف ستيفن بدقائق صورتها : وجهها البيضىّ الشكل (مثل روبيرتو تماماً) ، والعنق والأكتاف العاجيّة ، وتقاسيم جسمها البضّ تكتنفه الأسرار ، بعضها أسطورة وكلها سرّ مبهم .

حاول ستيفن خفض بصره وإذا بعينى الكونتيسة التقت بعينيه عبر المائدة . تلاقت النظرات ثم ثبتت ثم ترقرقت ثم التقت مرة أخرى . فتوقف ستيفن عن الضحك ولم يرفع بصره ثانية إلى أن انتهى روبيرتو من عرضه المضحك المسرحىّ .

بعد العشاء زالت الحواجز وتغيّر الموقف . لحق بعض المدعوين بروبيرتو إلى حديقة الكمثرى يلعبون دوراً تمتزج فيه المطاردة مع المرح والضحك . وذهب البعض

الآخر مثنى أو ثلاثاً يتسامرون فى حمى الأشجار . وفى داخل المنزل جلس شخص إلى البيانو يجرى بأصابعه على مقطوعة موسيقية حزينة . واشترك ستيفن فى حديث على العشب الأخضر محاولاً جهده التغلّب على رغبته التى كانت تسوقه نحو جيسلانا فاليرنى . كان القمر فى ذلك الحين يسبح فى مجموعة من السحب الشفافة ، فنزع ستيفن عنه تمنعه وجلس بالقرب من جيسلانا فاليرنى على سطح الحديقة الخالى من المدعوّين أو يكاد :

فنظرت إليه الكونتيسة وفى عينيها الساكنتين عودة إلى ما تبادلاه من نظرات على مائدة العشاء . تعبير واحد لا غير . ثم رنّت نبرتها فى موسيقى هادئة وضربت على الوتر الحسّاس لتثير ذكاء ستيفن دون أن تزعج حواسه :

— « أهى مخيلتى ، أيها المنسنيور ، أم أنك تحاول تجنبى ؟ »

— « إن مخيّلتك شيّقة كمخيلة روبيرتو . الحقيقة أننى كنت أتوق طوال الليلة إلى التحدّث إليك » .

— « لنتحدث إذن ، ببساطة أوّلاً ، ثم بصراحة » .

والكونتيسة لاعبة ماهرة تترك لمنافسها حرّية اختيار الافتتاح ، فقالت : « هلمّ تكلم ، أيها المنسنيور » .

فلوّح ستيفن بحركة شاملة من يده نحو السماء والأرض والكونتيسة ونفسه أيضاً وقال فى مرح : « ومن أين أبدأ ؟ »

— « هل فى الأمر عسر ؟ إن تبادل الكلمات الثلاث الأولى لا يحتسب على كل حال . ثم إذا وجد ما يقال ، فسيقال » .

بطريقتها هذه الرقيقة المتهكّمة ، حصرت اللعب حيث أرادته تماماً . فضحك ستيفن وسألها : « حسن إذن . أين قضيت الصيف ؟ »

— « فى كابرى ، أغلب الوقت . لى منزل هناك . إن الاستحمام والتجديف لمتعة لذيذة » . — ما أبسط هذه الحياة ! — « وأنت ، ماذا فعلت ؟ »

— « كنت متشبثاً بمجداف العمل » .

— « ألم تجد روما خانقة مدة أشهر الصيف ؟ »

بعد الجملة الثالثة ، أدرك ستيفن أن التحدّث عن الجوّ فقط فى وجود هذه

المرأة قد ينقلب خطيراً . لكن ذكريات محاولاته الابتعاد عنها كل مدة الصيف خانته الآن . فقال : « قد استمررت فى الحياة . . . نوعاً ما » .

– « نوعاً ما ؟ إن كلمتك ترنّ حزينة ، أيها المنسنيور . مع ذلك يجب أن أسلّم – قالت وهى تعبث بمنديلها الناعم – بأنه لا توجد كلمة أخرى للتعبير عن الطريقة التى يقضى بها معظم الناس حياتهم » .

انتهت المقدّمات وآن وقت التصريحات . لكن لم يجرؤ أحدهما على المخاطرة فى استكشاف الأعماق المحيطة بهما . فردت جيسلانا فاليرنى منديلها الناعم فى صمت وشدّته على ركبتيها وسرّحت فيه نظرها كملكة سجينة تتأمل قطعة من القماش ثمينة طرّزتها يداها الكسولان . كانت جلستها تفصح بأكثر وضوح من التصريحات عما تريد قوله للرجل القريب منها ، كأنها تضرع إليه : لا تعاملنى كمحرّضة يحذر الاقتراب منها ، لكن كامرأة تعبة من الظهور بمظهر تحفة تزين بها الحديقة . لا تنظر إلىّ كأنى أهدّد نفسك الكهنوتية ، لكن كخليقة محكوم عليها بقضاء أيامها ساعة ساعة فى وحدة قاتلة .

اضطرب ستيفن فى ذهنه وضميره أمام هذه التضرّع الصامت . مرّتين أخطأ فى معرفة حقيقة جيسلانا فاليرنى . فى أحلامه السالفة تصوّرها كسيدة بعيدة المنال ، على شكل بياتريس فوق برج خفىّ . ثم حديثاً رآها كمزيج من إلهة أرضية فارعة مكتنزة وامرأة أنيقة ممشوقة القوام . أهو يراها الآن من وراء ستار آخر من الأوهام ، أم أنه يلمس الحقيقة هذه المرة ؟ : حقيقة امرأة وحيدة سئمت الحياة وتكافح لتستنشق الهواء فى تابوتها الزجاجى . لم يستطع ستيفن الإجابة على نفسه ولم يجرؤ بعد ذلك على الوثوق بحكمه فيما يتعلق بالكونتيسة . أدرك فقط أنه كلما ازداد فى دراسة شخصيتها ، ازدادت هى تنويعاً وأمست طلسما أو سفراً نسائيًّا بعيد الغور يحنّ إلى من يقرأه ويتفهّم معانيه فى مرتبات عديدة مختلفة .

كان مركز ستيفن ، سواء على سطح الحديقة أم فى حياة الكونتيسة ، مرتبكاً مغلوطاً فيه من البدء . حثه شعوره وخبرته على الابتعاد عنها سريعاً ، لكن شعوره وخبرته عجزا عن تحريره من التيار المغناطيسى الذى ينبعث من جيسلانا فاليرنى . خيل إليه (يا لتعاسة هذا الاتفاق !) أنه إذا غيّر مجرى الحديث إلى ناحية محايدة ،

فستهبط قوّة التيار ثم يزول فى بعض الكلمات التافهة .

— « ألم يبدُ روبيرتو الليلة كالمهرّج ؟ » — أحدثت كلماته رنيناً رخواً ، كطفل يضرب بقبضته طبلاً غير مشدود . — « هل رأيت قط عرضاً أفكه من تمثيله لبائع البسط ؟ »

رجعت الكونتيسة من عالم الخيال الذى كانت تسرح فيه . وقالت : « يجب أن تراه فى الماء ، فهو فيه فى أحسن أحواله . قد انقلب فى كاپرى فى الصيف الماضى إلى دلفين أزرق مدة أسبوع كامل . والكردينال چياكوبى نفسه ضحك من حركاته » .

فبدت الدهشة صادقة على وجه ستيفن : « هل الكردينال أمين السرّ يزورك فى كاپرى ؟ »

ارتسم على شفتى الكونتيسة تأنيب رقيق كالطيف وقالت : « الجميع يزوروننى هناك . لو كنتَ قمتَ بزيارتى زيارة مجاملة فى روما فى الربيع الماضى ، كنتُ دعوتك لقضاء إجازتك هناك » .

لم يفه ستيفن بكلمة .

ثم استطردت للقول : « وأنتَ . . . كنتَ رفضتَ دعوتى » .

— « هل أستطيع فعل غير ذلك . إنى لست بابن خالتك — ولست كردينالاً مسنًّا » .

كان الليل ساكناً هادئاً . فقالت : « أهذا يعنى أنك لا تستطيع أن تكون لى صديقاً ؟ »

كان سؤال جيسلانا فاليرنى ينمّ عن رغبة شريفة فى معاملة إنسانية . شعر ستيفن من نبرات صوتها بصدق رغبتها فى أن يشاركها ، وهو عديلها فى العاطفة ، جزءاً من انطوائه وعزلته ووحدته . كبشر قد لا يستطيع رفض طلبها . أما ككاهن فهو لا يستطيع الاستجابة إليه . لم يفته نصح ذينك المرشدين القدّيسين : الذهبى الفم وإيرونيموس: « اتّق الصلة بالنساء المترملات » . أدرك أيضاً أن شعوره نحو جيسلانا فاليرنى ليس من النوع الذى تقوم عليه الصداقة عادةً . مع ذلك داعبته الأوهام ، وارتفع به الأمل على أجنحة من الورود . أليس الأمر ممكناً ؟ ألا يستطيع الإنسان بمساعدة الإرادة القوية والوعى المستمدّ من النعمة الإلهية ،

تحويل هذه الجبلة الترابية الممتنعة إلى إناء نقيّ للعبادة ؟ فأجابها :

— « أودّ لو استطعت أن أكون لك صديقاً » .

في تلك اللحظة ، هبت نسمة بليلة مشبعة رذاذاً ينبئ بمطر مقبل ، ورفعت طرف الشال من على كتف الكونتيسة . فمدّت يديها لتمسك به . لكن فات الأوان ، فقد طار طرف الشال وداعب خدّ ستيفن فسرت في عروق وجهه رعشة فجائية .

اجتاحت سطح الحديقة موجة معطرة من عبير الحقول ، وأنبأ منتصف الليل بقرب سقوط المطر . لم يزل طرف شال الكونتيسة الضائع ملقى على يد ستيفن ، كبرهان دقيق على حقيقة ثابتة أقوى من أن تنكر وأصعب من أن تمحى وإن اختفت .

من سطح الحديقة استطاع ستيفن رؤية بستان من أشجار الكمثرى ، انحنت أغصانها من ثقل الثمار . لو أمكنه القول : « سيرى معى إلى البستان . . . مرة واحدة فقط . . . للذكرى . . . » ولو استطاع سماع جيسلانا فاليرنى تهمس في أذنه قائلة : « نعم . . . للذكرى إلى الأبد ! » — آه ! لكفاه ذلك سعادة ! . . .

لكنه فرّج عن نفسه بذكر اسمها فقط .

— « جيسلانا . . . »

— « ستيفن . . . كم تاقت نفسى إلى دعائك باسمك » .

— « قد ردّدت اسمكِ آلاف المرّات » .

على العشب الأخضر ، تسابقت النسمات البليلة محمّلة ببوادر المطر . فاستعاد ستيفن نفسه وقال في همسة خافتة : « كيف أجبتكِ ؟ »

فأردفت : « بكلمات لا يجوز النطق بها إلاّ على العشب الأخضر تحت شجر الكمثرى » .

سقطت النقطة الأولى من المطر ، فكانت خاتمة حديثهما .

* * *

هرب ستيفن وسط حقل تعالت أعشابه في حين أخذ المطر يهطل مدراراً على أرض وديعة ساكنة ، وروح الشرّ ذو القرنين يحوم حوله ، كذئب في نصف الليل خرج في طلب هلاك النفوس . تحت المطر صعد ستيفن على قمة صغيرة

تكسوها بعض الأشجار وتسلّقها فى طريق تكتنفه الأشواك . فلطمته بعض الفروع فى وجهه وتعلّقت الأشواك بيديه وثيابه . من فوق التل ّ تطلّع وراءه فرأى نوافذ الطابق العلوى من المنزل مضاءة . لولا تمنّعه من توريط نفسه فيما لا تحمد عقباه من أمراض نفسية يضطر بعدئذ إلى علاجها ، لانكفأ على وجهه على الأرض الشائكة واعترف لها بسرّ رغبته فى جيسلانا فاليرنى . لا يجوز له بعد الآن مغالطة نفسه بشأن واجباته الأدبية . لا حيلة فى أن يتخيل المرء هذا الوضع حبًّا عذريًّا ، فقد أمست له جيسلانا فاليرنى — وهى الحقيقة المرّة — سبب عثْرة وخطيئة . قد تكون جيسلانا فاليرنى عاطفية ، وحيدة ، أهلا لصداقة سامية ، لكنها لم تزل (هل يستطيع إنكار ذلك ؟) خطراً يهدّد نفسه الخالدة .

تحت شجرة دفل يتساقط الماء بين أوراقها ، جلس ستيفن ، وذقنه بين ركبتيه ، سابحاً فى هواجسه مستلهماً ما يجب عليه فعله . لم يكن فى حاجة إلى ملاك يسطّر له فى كتاب من ذهب ويحذّره أن واجبه الأول يحتّم عليه أن يحترس لنفسه من التعرّض إلى حواء هذا القصر الريفى . دلّته خبرته فى معاشرتها أنها قد تستطيع المكر به وخداعه حتى لقد تطفئ فيه جذوة بهاء الكهنوت . مرتين فشل فى الصمود لها . وحذار من السقطة الثالثة .

لم يزل المطر يتساقط بين فروع الدفل ، واختفت الأنوار فى المنزل الريفى رويداً رويداً ، حينما بلغ ستيفن إلى قراره . غدا عند الفجر سيغادر المنزل فى سكون تام ، دون جلبة ، دون وداع . أو يتسلّل ويهرب بعد الإفطار ، ويرجع إلى روما ، ويختلى فى رياضة روحية ولن يرى بعد ذلك — أيًّا كانت الظروف — جيسلانا فاليرنى .

بعد أن اتخذ قراره عاد ستيفن إلى المنزل المظلم . دخل حجرته وخلع ثيابه المبلّلة وجلس يخط سطرين إلى براچيوتى :

« عزيزى بيرتو : إنى مضطر إلى العودة إلى روما حالاً ، بلّغ وداعى إلى الأميرة لونتانا وإلى "الكونتيسة". سألاقيك تحت قبة الكاتدرائية بعد انتهاء مدة إجازتك . صديقك المحب : ستيفن » .

طوى الورقة وفى نيته الخروج وإلقاؤها على عتبة حجرة براچيوتى ، وإذا بروبيرتو

يدخل عليه وقد فقد مرحه العجيب الساحر وأضحى رجلا مهدماً أرقاً يجرّ قدماً ألمية ملتهبة . وقال :

— « من فضلك ، يا ستيف ، ألقِ نظرة على هذه البثّرة الملعونة . إنها تزداد سوءًا . لم أستفد شيئاً من كل هذا التمثيل فى المساء » .

تفقد ستيفن حالة الالتهاب وقال : « يا عزيزى إن العفن قد ضرب فى قدمك . والأمر يتطلب إحضار طبيب . هل تستمع إلىّ ؟ إنى ذاهب إلى روما غداً صباحاً . سنؤجر عربة ونعود معاً » .

— « أنعود إلى ذلك الجحيم ؟ لا أنا » . ثم نظر إلى ستيفن متسائلاً : « ما سبب هذا الذهاب الفجائى ؟ ألا يعجبك الناس هنا ؟ »

— « دع عنك السؤال . إنى ذاهب » .

حنق براچيوتى وقال : « لكن لا يجوز لك التخلى عنى فى مثل حالتى ، يا ستيفانو . لقد بدأنا رحلة معاً ، أليس كذلك ؟ أيجوز لك إهمال النسر الواقع الأعرج ؟ »

— « لن تنقصك العناية » .

— « عناية من ؟ البارونة سيچيسموندا ؟ ستداعبنى كما تفعل بحبّة من العنب . أو هل تتصوّر يدى اللورد تشاستكومب اللزجتين تلفّان الربط حول قدمى » .

ثم بدا روبيرتو ضارعاً : « أرجوك ، يا ستيفن ، إنى فى حاجة إليك . سندعو الطبيب صباحاً . أرجو أن تنتظر حضوره » .

قدّر ستيفن جميع الاحتمالات وقال مغمغماً : « فليكن » .

لم يكفّ المطر عن ضرب سطح حجرة نوم ستيفن ، وأدرك من عبير القرنفل المتصاعد من الحقول الموحلة أنه ارتكب خطأ فى تقديره .

كان الطبيب الوحيد فى الضاحية رجلاً أحدب عجيباً ، يمزج الطب البيطرى مع العلاج بالعَلَق ، ويتخذ من الجراحة هواية إذا ما اقتضت الحال .

فتح الطبيب « مانيسكالكو » — وهو اسمه العلمىّ فى المهنة — فى الصباح التالى كعب روبيرتو دون استعمال المطهرات المألوفة ولفه بلزوق ساخن من عجينة الأعشاب ليستخرج القيح ، كما زعم . كانت تعليماته إلى ستيفن قصيرة : « ضعه

فى الفراش وارفع قدمه . غير العجينة كل أربع ساعات . إن رجلاً شابًّا فى صحة جيدة مثله يستطيع بسهولة التغلب على هذه البثْرة المقيحة » .

سأله ستيفن : « لكن لنفرض أن القيح امتدّ » .

— « فى هذه الحال — أجاب الطبيب بعد مراجعة معلوماته الطبية — يجب وضع اللزاق على الساق كلها » .

أدرك ستيفن وجوب التلطف فى معاملة من خدعهم الغرور الفنّى . فسأل : « هل تنصحونه بالعودة إلى روما ؟ »

فأردف مانيسكالكو فى تهكُّم ريفى ظاهر : « روما ! ها ها ! ربما بعد فترة من الوقت . على كلٍّ فمريضنا غير مستعد لقبول الأسرار الروحية الأخيرة . عشر ليرات من فضلك » .

قضى ستيفن فترة الصباح فى الترفيه عن روبيرتو . قرب الظهر جاءت الأميرة لونتانا وضيوفها للسؤال عنه . فى حجرة المريض ، روعيت العادات المألوفة . تظاهر الرجال بالأسف والانقباض ، ودخلت السيِّدات فى خشية على أطراف أقدامهن ، بعد أن نقرن برقة على الباب ، وأيديهنّ محملة بالكمثرى والعنب وباقات الزهور . تجرّأت البارونة « هانتزدورف » على مسح جبين روبيرتو المندّى بمنديلها . ولما انحنت جيسلانا فاليرنى المفتولة فى ثوبها الناصع البياض ومنحت روبيرتو قبلة القرابة ، أشاح ستيفن بوجهه وابتعد .

فصاح روبيرتو : « لا تبتعد ، يا فرمويل ، انظر كيف أستمتع بأعمال الرحمة الجسدية . زيديني من أعمال الرحمة هذه يا جيسلانا ، فإني رجل مريض جدًّا » .

ضحك الجميع ما عدا ستيفن ، الذى صرخ فيهم آمراً : « ليخْرُج الزائرون جميعهم . سأغيِّر له اللزاق » .

لم يذق ستيفن طعم الراحة إلا بعد الظهر . خرج وطفق يسير على سطح الحديقة المشمس وكتاب صلاته فى يده ليقرأ فرضه الكهنوتى الذى أهمله والواجب عليه إتمامه قبل الظهر . كان عيد ميلاد مريم العذراء ، وكانت الصلوات المقرّرة

مناسبة للموقف تماماً وجميلة . حاول ستيفن حصر انتباهه فى تلاوة فرضه المقدّس ، لكنه سمع أصوات صراخ وتصفيق من ملعب التنس المجاور حيث كان اللعب يدور بين ثنائى مختلط . جيسلانا فاليرنى واللورد تشاستكومب ينازلان البارونة هنتزدورف وزميلها . تعوّد ستيفن تخيل جمال الكونتيسة كأنه جمال هادئ فى جوهره . أما الآن وهو يراقبها تنحنى لالتقاط الكرة فقد أدرك أنها تثيره بحركاتها الرشيقة . كان لعبها أشبه بشريط حرير ينفرد عن بكرة لا تفتأ تكرّ . نسى صلاته وهو يراقبها فى طقمها الأبيض تنساب فى ركضة طويلة نحو الشبكة وتحقق ضربة قاضية رائعة فوق رأس غريمها .

ــ « هذا لا يفيدنى ألبتة » . قال ستيفن لنفسه ، وابتعد نحو ظلال بستان الفاكهة ، وسار فى ممرّ بين أشجار الكمثرى وحصر ذهنه فى عظة للقديس أوغوسطينوس يقارن فيها حواء ومريم المرأتين اللتين سيّرتا مجرى حياة البشر .

« حزنت حواء ، وفرحت مريم . حملت حواء الدموع فى قلبها ، ومريم السرور . أنجبت حواء أولاد إثم ، أما مريم فولدت الطاهر الأوحد. حواء جرحت ومريم ضمدت . فلتهتزّ الدفوف تحت نقر أنامل هذه الأم الفتاة . فنشيد مريم أبطل تأوّه حواء » .

عاد ستيفن ، منتعشاً قويًّا ، إلى عمله فى حجرة مريضه . فهالته حالة قدم روبيرتو ، فالخطوط الحمراء امتدت حتى فخذه ، وانتاب براچيوتى سعال حاد وقشعريرة ، وألم فى ظهره ، وصداع أليم فى رأسه . فى يأسه ، زاد ستيفن مساحة اللزوق من الركبة حتى أسفل القدم ، مع علمه ، بأن هذا العلاج البدائى لن يقوى على وقف حركة التسمم التى تجتاح جسم روبيرتو بكامله .

فى المساء تمشى ستيفن على سطح الحديقة والتعاسة تعصر قلبه . وصل ضيوف جدد ، من بينهم شهرة عالمية : لويس دوهاميل ، أحد المعلّقين والمفسرين الأقدمين لمؤلفات « ديبوسّى » . كانت الأميرة مرتبكة بتحضير حفلة عائلية بعد العشاء ، وفى الوقت المناسب ستدعو دوهاميل وتلاطفه ليجلس إلى البيانو ويسمعهم بعض المقطوعات النادرة .

خشى ستيفن إزعاج الحفل بإخبار الأميرة بحالة روبيرتو السيئة . إلى من

يفضى بمخاوفه من أن جبين روبيرتو المحترق وكلامه التائه ليسا إلا بوادر تسمم عام فى الدم ؟ كانت جيسلانا فاليرنى الشخص الوحيد الذى يهمه الأمر حقاً . فتقدم نحوها وأخبرها فى صوت خافت بسوء حال روبيرتو : « ليست نيتى إلقاء الرعب فى قلوب الآخرين . لكنى أعتقد حقاً أننا سنضطر إلى نقله إلى مستشفى » .

— « هذا يعنى العودة إلى روما » .

— « نعم وأظن أن فى الإمكان استئجار عربة للسفر » .

— « إن لدى الأميرة عدداً منها » . — وعرضت جيسلانا أفضل وأبسط طريقة للعمل : « سأضع بعض الحاجات فى حقيبتى وألاقيك عند باب المستودع بعد عشرين دقيقة . ثم ننسحب دون إزعاج حفلة دوهاميل » .

حاول ستيفن بسذاجته الاعتراض فقال : « هل مجيئك معنا . . . ضرورى ؟ »

فأجابته الكونتيسة فى حدة وواقعية : « كلا ، إذا استطعت قيادة سيارة أوربية بمقود على اليمين بين الطرق الجبلية ليلاً ، وفى الوقت نفسه تعنى بمريض فى حالة النزاع . أيمكنك القيام بهذا العمل وحدك ؟ »

— « ربما لا . . . قد يستحسن مجيئك معنا » .

بمساعدة أمبرتو ، هيأ ستيفن مريضه للسفر إلى روما . قبيل المغيب حملوا روبيرتو ونزلوا به الدرج ، ورفعوه إلى سيارة فيات ضخمة كانت جيسلانا قد أرسلت فى طلبها . فقادتها فى الظلام بخفة وصمت عبر الممر الحصوى . ولما أخفتهم أشجار السنديان عن المنزل ، انطلقت بهم السيارة تنهب الأرض .

فشهقت قائلة : « قد نجحنا » .

كانا أشبه بالمتآمرين .

تحت ضوء القمر المستدير الذى تألق فى السماء الليلة السابقة ، ساروا نحو روما . لم يكن ستيفن قد رأى قط امرأة تقود سيارة فى مثل هذه المهارة . كانت جيسلانا تلعب بالفيات المكشوفة على طرقات متعرجة مشققة . مرة واحدة ضلت طريقها بين تلك المتاهات . فى انحدارهم من المنطقة الجبلية الرطبة ، مروا بقرية منفردة فى أسفل تلال سابينا ، وأتوا إلى مفترق طرق . كان الضوء الوحيد فى القرية ينبعث من مصباح مدخن معلق على باب مقهى .

— « من فضلك استعلم عن الطريق المؤدية إلى ڤيكوڤارو — قالت جيسلانا — أعتقد أنه على اليسار ، غير أنى لست متأكدة » .

فنزل ستيفن ودفع باب الحانة ، فوجد فريقاً من الفلاحين جالسين إلى مائدة اللعب ، وقد احمرت عيونهم من الخمر والدخان ، يلعبون « البريسكولا » التى لا نهاية لها . فسألهم : « ما هو الطريق إلى ڤيكوڤارو ؟ »

رفع اللاعبون رؤوسهم مستغربين ذكر عالم غريب عن عالم لعبهم .

أجاب واحد منهم: « دُر إلى اليسار » ، وأومأ الآخرون برؤوسهم إيجاباً كأنهم يتساءلون : « ولماذا ، نعم ، بالطبع . الكلّ يتجه دائماً يساراً إلى ڤيكوڤارو » .

شكر ستيفن الرجل وقفز إلى السيارة ، وقال : « اتجهى إلى اليسار » . وبينما يضع ذراعه حول روبيرتو لمست يده دون انتباه كتف الكونتيسة .

عند مرورهم بڤيكوڤارو ، تذكر ستيفن الليلة التى قضاها مع روبيرتو فى الحانة المعلقة فوق جدول الماء . كانا ، هو الأمريكى وروبيرتو النسر الرومانى — فى إجازة بريئة يلعبان ويضحكان ويتصارعان معاً وأقدامهما حافية . أما الآن ، بعد ثلاثة أيام ، فكان الاثنان مثقلين بالمرض — الواحد تفشى فى جسمه التسمم بحالة خطيرة ، والآخر تعثرت نفسه حتى الهوّة .

كان روبيرتو يستجمع وعيه لحظات فقط ، ثم يشرد بكلامه ويترنح جسمه فى كل اتجاه ، ويذكر أسماء وأمكنة غريبة على ستيفن ، الذى سأل جيسلانا : « أتفهمين ما يقول ؟ »

— « يعتقد أننا ما زلنا أطفالاً — وبكت — أمسك به جيداً ، فإنه يرج السيارة » .

قرب منتصف الليل صعدت الفيات فى طريق ريچيو إلى المستشفى الفرنسيسكانى ، حيث تقدّم بواب يغلبه النوم وساعد ستيفن على حمل روبيرتو .

قالت جيسلانا : « سأنتظر هنا » .

بعد نصف ساعة كانت لا تزال فى الانتظار وإذا بستيفن ينزل درج المستشفى . فسألته : « ماذا يقول الأطباء ؟ »

— « يقولون إنه تسمم عمومى فى الدم ، وهو أخطر نوع » . وارتمى ستيفن بجانبها

على المقعد منهك القوى يلوم نفسه : « كان يجب عليّ إحضاره البارحة ! »

فخفّفت عنه ورطّبت خاطره كالنساء : « لا تلم نفسك يا ستيفن . سيعنى به جيداً الآن » . ثم حاولت تجريد صوتها من كل عاطفة وقالت : « لا شك أنك جائع . هل ترغب فى المجىء إلى بيتى لتتناول بعض الطعام ؟ »

لم يرغب فى طعام أو شراب . كان يرغب فقط فى تخفيف ألمه بالاختلاء بجيسلانا فاليرنى . لكن ذلك مستحيل . فالأمر فى جوهره سبب عثرة له وخطيئة .

— « قد فات الوقت . يستحسن أن توصليني إلى فندقى » .

عبر المدينة الخانقة ، قادت السيارة ببطء كما لو أنها تحاول إطالة الدقائق الباقية . اقتسما خبرة اليومين الماضيين وأحبا معاً روبيرتو براچيوتى ، فتخيلا أنهما قضيا سنوات معاً ، وأن هذه السنوات ستستمرّ فى السير هكذا بفعل أعجوبة ما . غير أن الأعجوبة لم تحدث .

عند باب الفندق ، فتح ستيفن باب السيارة وخطا خطوته الأولى بعيداً عن جيسلانا فاليرنى بقية أيام حياته .

* * *

فى الساعة الثانية صباحاً استسلم ستيفن إلى نوم عميق .

فى التاسعة صباحاً أيقظه هاتف من المستشفى الفرنسيسكانى ينبئه بهبوط حالة روبيرتو . ركع ستيفن بجانب سرير روبيرتو يصلى ويبكى فى حين أعطِيَ المريض أسرار الكنيسة الأخيرة .

عند الظهر ، هبط فى غيبوبة ، أحدث سياسىّ علق عليه الڤاتيكان آمالا كبيرة . وبعد ساعتين توفى ذلك الرجل المرح الفتان من تسمم حاد .

كان ذلك الأسبوع خاتمة شباب ستيفن . أسدل الستار على هذا الجزء من حياته عندما أقفل باب القبر على جثة روبيرتو براچيوتى .

باستثناء قبة الجرس والصليب المرفوع عليها ، قد يبدو دير البندكتان الواقع على حدود الريف الرومانى مخزناً للبارود، أو سجناً عسكريًّا، أو مَحْجَراً صحيًّا للأمراض المعدية . وقد كان كل ذلك فى أوقات مختلفة . داخل جدرانه الممزّقة بالرصاص قضى أعداء « جاريبلدى » نحبهم وأعدموا رمياً بالرصاص . وفى مدافنه الموحشة التى اكتظت بتماثيل مخيفة من الفن الباروكو ، ذابت عظامهم وأمست تراباً مع عظام ضحايا الكوليرا والجدرى والأوبئة الأخرى التى زال عهدها .

بعد سنة ١٨٧٠ قاسى البناء إهمالاً كبيراً ، لكن قرب انتهاء القرن ، اتخذه فريق من البندكتان ديراً لهم — بنشاطهم وذكاء تدبيرهم أعاد أتباع القديس بنديكتوس بناء ما تهدم منه ، وأزالوا الروائح الكريهة التى كانت تحيط به ، وأعطوا المكان شهرة واسعة فى حقل العلم والدين . كان الرئيس الحالى « دوم أرسيبال تيدسكو » عالماً خبيراً بشؤون الهزّات الأرضية وطبيباً ماهراً فى علاج النفوس . من جميع أنحاء أوربا تدفق الزوّار إلى دير البندكتان ، ليعاينوا الآلة الجديدة العجيبة لرصد الزلازل ، أو ليعتكفوا فى رياضة روحية مسترشدين بنصائح دوم أرسيبال السامية .

يوماً بعد الظهر فى سبتمبر ، بعد موت روبيرتو براچيوتى بقليل ، وصل المنسنيور ستيفن فرمويل إلى الدير والغبار معلّق على معطفه بعد مسيرة ثلاثة أميال من أقرب قرية ، وأبعد ما يكون دافعه رغبته فى استطلاع هزّات الأرض .

أمسك بالحبل المتدلى على الباب ودق الجرس . كان متخوفاً ومضطرباً من اعتكافه الروحىّ . قد يستطيع دوم أرسيبال اكتشاف هزّة طفيفة فى قاع بحر الصين لكن هل يستطيع الاستدلال على الأسس المتشققة فى نفس بشرية ؟

شدّ ستيفن حبل الجرس مرّة أخرى . ففتحت طاقة صغيرة ، وظهر فيها رجل رأسه أصلع على شكل طبق حساء ، ومدّ رأسه من الطاقة كما يفعل الديك فى الساعات الزخرفية ، وفى عينه الواحدة حوّل جعل منه شخصاً بشعاً .

قال ستيفن : « أودّ رؤية دوم أرسيبال » .

قلّب الراهب الأصلع فى رأسه هذه الفكرة مراراً ، كما يفعل طفل ببلية فى فنجان . وقال : « إن دوم أرسيبال فى المرصد . إنه اليوم منزعج جدًّا بسبب حالة السترومبولى » . — بالطبع كان الراهب الشاب يظن أن آلات دوم أرسيبال تحدّ من ثورة البركان . — « هل عملك ذو أهمية ؟» .

— « لا يخرج الأمر عن المألوف . أتيت لأعتكف بنفسى » .

— « فى مثل تلك الحالات — أجاب الراهب وهو يحكّ صلعته باهتمام كبير — تنصّ أوامر دوم أرسيبال باستقبال الضيف المعتكف وتخصيص حجرة له بكل لطف » .

دار الباب على قاعدته ، فظهر أخ مترهّب كسول فى جبة قاتمة متهدلة ، حافى القدمين ، وقد برز معصماه الأحمران من أكمام جبته القصيرة ، وفاحت من صدره وهو ينحنى لرفع حقيبة ستيفن رائحة مطبخ حادة .

حالما رآه ستيفن لقبه « بذى الأيدى الجميلة » . ثم تبعه فى ممرّ حجرى إلى باب مصلّب بالحديد . ففتح الراهب الباب ، ثم فى أدب جمّ بفضل الحركات التى أتى بها ، أشار إلى ستيفن بالدخول إلى الصومعة . ثم قال :

— « عندما يحضر دوم أرسيبال سأخبره بوجودك هنا. إليك بعض الماء العذب فى هذه الجرّة » . بعدما سرد الراهب تعليماته تلك ، خانته أفكاره . فغادر المكان ليقوم بأعمال أخرى غريبة تنتظره فى الدير .

سرّح ستيفن طرفه فى الحجرة فوجدها مؤثثة بما هو مألوف عند النّساك : سرير من حديد ، حشيّة من قش ، غطاء واحد ، علاقتان للثياب ، كرسىّ من خشب ، مركع للصلاة ، وصليب فى مستوى العين معلق فى انحراف على جدار خشن من الجبس .

العمل الأول الذى قام به ستيفن هو تقويم الصليب على الحائط ، والثانى ابتلع ثلاث جرعات كبيرة من الماء . ثم نزع ياقته وعلق معطفه المغبّر على إحدى العلاّقتين ووقف أمام النافذة العارية من الستائر وتطلع إلى القبور المزينة المزخرفة فى المدافن .

ففكر فى نفسه قائلاً : « إذا ما فسد الذوق الإيطالى ، فإنه فى الحقيقة ينكفئ على وجهه » . .

لم يقدر على الصلاة أو التأمل ، فطوى الغطاء الخشن على شكل مخدّة وتمدّد على حشيّة القش واستسلم إلى تخيل شخصين ، الواحد ميت والآخر لا يزال يختلج بالحياة ولا يستطيع إبعاده عن فكره .

سرحت به مخيلته فركع مرة أخرى مع جيسلانا فاليرنى بجانب تابوت روبيرتو ، وصلى من أجل راحة نفس صديقه . مرة أخرى ، وهى المرة بعد الألف ، عاش عودته البائسة المملّة من القبر إلى المدينة ، مع جيسلانا وقد غطت وجهها بشال ناعم أسود فبدت فيه كقطعة من المرمر كئيبة . اقتسما حزنهما دون دلال أو ملاطفة فقد امتنعت لهما تعزية الحنان والمودّة .

وقد سألها ستيفن : « ماذا تنوين عمله الآن ؟ وإلى أين تذهبين ؟ »

فأجابته : « لا تخلو الدنيا من مكان ، أو صديق مستعد لمساعدة المرء على النسيان . والغريب فى الأمر ، أن المرء ينسى حقيقة . وما أضعف الأموات ! . . . أصوات أخرى تبعدهم وتحتل مكانهم ، وصور أخر تمحو ذكراهم . بعدما ينقضى الألم الأول ، يعود بنا التفكير فى كيفية إحياء ذكراهم » .

— « هل تعتقدين ذلك حقّاً ؟ »

— « الحقيقة مُرّة — مرّة لدرجة أن الطليان جعلوا منها مثلا يقول : الحب يقضى على الزمن ، والزمن يقضى على الحب . وفى هذا المثل حكمة عميقة ، يا ستيفن » .

حكمة ؟ ربّما ، لكنها لم تتحقّق (كما أدرك ذلك ستيفن) فى شهر أو فى سنة . أصبحت أيامه تدور كالعجلة دون غاية أو معنى . وأمست أعماله الخفيفة كنثرات القش ثقيلة ككتل من الخشب . انتابه ضيق ممزوج برغبة أليمة مزعجة . كان النهار يسير بطيئاً مملاً ، ثم يجيئه الليل بعالم من الأحلام ، تختلط فيه الصور والأشباح فى مادّية سافرة وتقضّ مضجعه فينتفض مذعوراً يتبضّع عرقاً . لم يتوصّل صوت ضميره القوى إلى نبذ كلمة أو مقطع واحد فاهت به جيسلانا فاليرنى .

أدرك ستيفن أنه ينقصه إرشاد لن يجده عن طريق الاعتراف العادى المألوف .

مرّة نبهه كارنجي بلطف إلى بعض الإهمال فى عمله ، فأوشك ستيفن على الاعتراف له باضطرابه الداخلىّ ، لكنه خجل من ذكر حبه لجيسلانا فاليرنى أمامه ، بل عزا اضطرابه وقلقه إلى فاجعة موت صديقه روبيرتو . فى آخر الأمر أشار عليه كارنجى بالاعتكاف مدّة فى رياضة روحية تحت رعاية دوم أرسيبال تيدسكو . وقال له ناصحاً :

— « إن هذا الكاهن البندكتىّ طبيب قدير للنفوس . ضع نفسك تماماً بين يديه مدة شهر . وسينزع عن نفسك تلك المسحة البائسة ، وما هو أفضل ، فإنه سيكتشف عوامل القلق التى تجتاح حياة . . . آه ، كل نفس — وسأكتب إليه كلمة صغيرة » .

ظلّ ستيفن مستلقياً على فرشه النسكىّ فى انتظار ظهور دوم أرسيبال . فى لحظات متفاوتة بلغ إلى مسمعه أصوات رجال يرتلون الفرض الكنسىّ : صلاة الغروب وصلاة النوم .

انقلبت أوراق السنديان البرونزية فى حديقة المدافن إلى أحمر قان ثم فقدت لونها مع حلول المساء . فارتمى ستيفن بوجهه على فراشه ورفع نفسه بالصلاة ليتحرّر من عبوديته لجيسلانا فاليرنى .

ظهرت له بوضوح طبيعة تعلّقه بها . هى الثالثة فى لائحة الخطايا الرئيسية : الدنس ، جرثومة تمتد فى خلايا قلبه لتفسده . لكن ما العمل لعلاج هذا المرض المتفشى ؟ أخفقت جميع وسائل اختبار النفس والتقشف الجسدى القاسى . رغب ستيفن بإخلاص فى الشفاء من هذا الداء لكنه أمسى تعباً من تأنيب نفسه بسوط ضميره .

ليس ذلك هو الدواء . . . فما هو إذن ؟ . . .

الصومعة غارقة فى الظلام ، ونفس ستيفن فى ظلام أكثف تتلاعب بها زوابع الشعور بالذنب والقلق ، وأصوات مخيفة مرعبة تتجاذبه . وإذا به يسمع صوت وقع أقدام آتية من الممرّ ، الواحدة خفيفة والأخرى ثقيلة ، ثم يدخل راهب مقبّع وفى يده شمعة موقدة . فجلس ستيفن على سريره . وضع الزائر الشمعة على إفريز النافذة فظهر قوامه أوقص مستدير الرأس ، فى أواخر عقده الخامس ، ثم جلس

على كرسىّ الخشب .

ــ « أعتذر عن تأخرى فى الترحيب بك » ، قال هذا دوم أرسيبال فى صوت جهير عميق لا يخلو من عذوبة : « ألقِ اللوم فى تأخرى على السترومبولى . إن علماء پاسى يدّعون أن البركان القديم قد أخذ يهدأ أخيراً ، لكن إذا دلت تحرّياتى اليوم على شىءٍ ما فسنرى فى الأربع والعشرين ساعة القادمة ألواناً طريفة من الألعاب النارية » .

جلجل صوته فخراً لظنه أنه أخزى مدرسة تنافسه علماً . لكنه تملّك حماسته وقال لستيفن : « دعنا نتحدّث عنك ، يا صديقى . إن كلمة المنسنيور كارنجى كتومة جدّاً ولا تفيدنى شيئاً عن طبيعة صعوباتك . فإذا رغبت فى عرضها علىّ ومناقشتها ــ وبسط دوم أرسيبال يده فى حركة ناعمة جميلة ــ فأنا مستعد لسماعك » .

دلّ افتتاح دوم أرسيبال هذا على مهارة نفس هادئة تغمرها الثقة . تذكر ستيفن حادثاً مماثلاً أورده له أورسلى يوماً . تسلّم ضابط إيطالى زمام فرقة من الجنود المتعبين بعد معركة كاپوريتو وصفّهم للاستعراض . ثم استلّ سيفه وقذفه فى الهواء . فارتفع السلاح الفولاذى يلمع فى الفضاء ، وتعلق برهة وجيزة فى العلاء ، ثم عاد ينحدر نحو الأرض . وفى اللحظة الحاسمة مدّ الضابط يده وقبض على السلاح الهاوى ورشقه فى غمده دون أن ينبس ببنت شفة .

وكان أن أورسلى سأل ستيفن : « هل تتصوّر ماذا كان سيحدث للضابط وجنوده لو أن عينه أو أعصابه خانته ؟ »

خيل إلى ستيفن أن دوم أرسيبال فاق الضابط فى مجازفته . لو أنه تلكّأ فى افتتاح الحديث أو أخطأ فى كلمة واحدة لأضاع ثقة ستيفن أو ربما أثار عداءه . لكن حديث البندكتىّ الودىّ قرّب فى حذق بين التجرّد العلمىّ الظاهر والاهتمام المهنى الخفىّ . وظاهر كلامه عن السترومبولى يعنى حقيقة ما يأتى : « شيئان يخلبان لبّى : الاضطرابات العميقة فى الأرض وما يماثلها من فوران فى بواطن النفس الخفية . ومن المستطاع تسجيل كليهما : الأولى بواسطة إبرة دقيقة تسطر بالحبر على ورق ملفوف على أسطوانة ؛ والأخرى بواسطة كلمات تتدفق تحت ضغط المشاعر المكبوتة . لقد استمعت إلى قصة السترومبولى طوال النهار ، والآن فإنى مستعدّ

لقضاء الليل فى الاستماع إلى قصّتك » .

شرع ستيفن يلقى الحمل عن كاهله ، فى تردّد أولا ، ثم بثقة متزايدة ، وسرد تطوّر صداقته لجيسلانا فاليرنى . فى أثناء الحديث ، كان دوم أرسيبال يراقب حركات شفتى ستيفن كما يراقب العالم هزّات الإبرة وهى تسجل شقّاً فى القشرة الأرضية . أحياناً ، كان الخط يبدو ضئيلا ويسير فى تقطّع ، ثم يصطدم ويعثر ثم يتابع سيره . ولما توقف الخط عن المسير تكلّم دوم أرسيبال .

— « إن كل ما سردته علىّ ، أيها المنسنيور ، حدث فى الأشهر القليلة الماضية . غير أنى أودّ سماع المزيد عن حياتك فى طفولتك وشبابك . لنفرض أننا عدنا قليلا إلى الوراء . أخبرنى عن حداثتك ، عن أسرتك وعن ماضيك بنوع عام » .

— « فليكن كما تريد » . تنفّس ستيفن عميقاً ، ثم طفق يسرد ذكرياته بسرعة دون توقف : « إنى الأكبر بين ستة أبناء . أبى وأمى كاثوليكيان تقيان ربيانى فى بيت تغمره التقوى والمحبة الأبوية الصادقة . إن أقوى ذكرياتى فى طفولتى هو شعورى بالمسؤولية التى نمت فىّ حينما كنت أعنى بإخوتى وأخواتى الصغار . كنت أشبه بنائب عن أبى عليهم ، وفرضت على أعمالهم سلطة طبيعية . كنت ألبسهم ثيابهم ، وأطعمهم وأنظفهم وأغسلهم جميعاً دون استثناء ، بنات وصبياناً ، إلى أن بلغت الخامسة عشرة من عمرى . ميزة وحيدة حرمت منها ، هى الحق فى معاقبتهم إذا ما عصوا أوامرى » .

— « هل استأت من هذا الحدّ من سلطتك ؟ »

— « أحياناً . لكن عندما أفهمنى أبى أن سلطة الوالدين تأتيهم مباشرة من الله ، ولا يستطيعون تفويض هذه السلطة إلى آخر ، رضيت بهذا الشرح دون مراجعة » .

— « اذهب فى حديثك » .

— « مدّة مراهقتى أحسست بدافع قوىّ فى الظهور الأوّل فى كل شىء : فى الدروس ، والرياضة ، والشهرة . أردت التقدّم على رفقائى ، أن أكون رائدهم فى جميع الفرق الرياضية ، وأن أرافق أجمل الفتيات . كنت أتحرّق لأتفوّق فى كل شىء . وإذا ما هدّدتنى المنافسة كنت أزيد من نشاطى وأصلّى بأكثر

إلحاح لكي أفوز . وإذا ما ابتسم لي النجاح ، كنت أتقبله كأنه من حقّي . وكان دائماً يخالجني شعور بأني واحد من أبناء الله المنتخبين المفضّلين » .

– « على قدر ما أتذكر – قال دوم أرسيبال في خشونة – فإن لوسيفير أيضاً كان يربّي في نفسه غروراً كهذا . كيف تستطيع تخيل نفسك بهذه الصورة المضحكة ؟ »

– « لم أفكر قط أنها مضحكة . شعرت بأن الله حباني بمواهب فريدة ، واعتقدت أنه من واجبي إظهار نعمائه بالتفوّق في أداء دوري » .

– « أداء دورك ؟ . . . هذه الكلمة لا يستعملها إلا الممثلون . أأنت مهرّج أم كاهن ؟ – ودون انتظار ردّ ، استطرد الراهب لكلامه قائلا –: دعنا الآن ولنتكلم في صلب الموضوع » .

فاندفع ستيفن يقول : « منذ بلغت الرابعة عشرة – وهي السنّ التي شعرت فيها بدعوتي الأولى للكهنوت – بدأت أحبّ الفتيات وأسرح بفكري حول ما يحوط النساء من أسرار وخالجني شعور باقتحام هذا العالم واستكشاف أسراره وخفاياه . وبين سنّ الخامسة عشرة والثامنة عشرة استفزّتني تجارب شديدة الوطأة لأفعل ذلك » .

– « لكنك لم تفعل ؟ »

فخفض ستيفن صوته وقال : « لم أجرؤ » .

– « التعبير لطيف . أستنتج إذن أنك ربيت شعوراً شديداً بالذنب بسبب هذه التجارب الشهوانية » .

– « هذا ما شعرت به . وازداد شعوري بالذنب عندما دخلت الدير . وإذ كرّست نفسي للحياة الكهنوتية ، وجدتني متنازعاً بين سموّ العفة وبين ميل شديد للنساء . وقد اشتد فيّ هذا النزاع حتّى إني ساءلت نفسي هل أستمرّ في دراستي نحو الكهنوت أو أنقطع .

– « ما هي الوسيلة التي استعملتها لحلّ هذه المشكلة ؟ »

– « بالوسائل التي اعتدت اللجوء إليها إذا ما ساءت الحال عموماً . أكثرت من عباداتي ، وصليت لأنال نعمة الله الفائقة . وتمالكت نفسي يوماً بعد يوم

بطريقة أو بأخرى . . . ولم يكن ذلك سهلاً أبداً » .

حكّ دوم أرسيبال صلعته خفيفاً وقال : « احذر الغرور يا بنيّ . ولنعد الآن إلى كيفية معالجتك لهذه المشكلة . هل هنالك عوامل أخرى أثّرت فيك كلها ؟ حادث أو حدث أو ظروف أخرى . لا تستعجل الردّ » .

فكر ستيفن طويلاً ثم قال : « لا أذكر شيئاً » .

— « هل ضغطت عليك أمك بنوع أو بآخر ؟ »

— « ليس بفضول . أعلم أنها كانت تصلى من أجل دعوتى . وهذا طبيعى » .

— « إذن والدك ؟ — ومزج دوم أرسيبال صوته بنبرة استطلاعية — أىّ نوع كان والدك ؟ »

فاندفع ستيفن يمتدح دن الآمر الناهى : « كان والدى عاملاً ضئيل الثقافة ، لكنى لم أرَ له مثيلاً فى صلابة الرأى وطيب الخلق . منذ طفولتى كان مثالى ورائدى . وأعتقد أنه لم يزل دائماً العامل الوحيد الذى سيطر على حياتى كلها » .

— « هل تناقشتما مراراً ؟ »

— « ليس علناً . لقد اجتهدت أن أكون ابناً مطيعاً ليّن العريكة . لكن المنافسة لم تخمد جذوتها بيننا . وفى هذا النضال شعرت دائماً بأنى أنازل شخصاً أقوى منى . وهذا الشعور حدا بى إلى زيادة مجهودى فى بذّ والدى . ولم أتوصل قط إلى معرفة السبب الذى جعلنى أناقض والدى — فيما حدا محبته وعطفه — وقد كان دوماً يغمرنى بطيبته » .

— « سنتحدّث فى ذلك فيما بعد — قال دوم أرسيبال — : أما الآن فأعتقد أننا طرقنا موضوعاً مهمّاً جدّاً . فى المدة التى تنازعتك فيها دوافع العفة والميل إلى اللذات الشهوانية ، هل طرأ حادث يذكر بينك وبين والدك ؟ »

— « لا أستطيع تذكر أىّ شىء » .

— « ليس الأمر هو التذكّر . دع فكرك يستعرض فى حرية تامة كل حقبة علاقاتك بوالدك . وأخبرنى بأوّل ما يتبادر إلى ذهنك » .

أجاب ستيفن مستغرباً : « عربات التّرام » .

— « ولماذا عربات التّرام ؟ »

— « كان والدى سائقاً . وعمل على الخط بين بوسطن وميدفورد . وفى طفولتى كنت أحبّ الوقوف بجانبه أمام عجلة القيادة وأراقبه فى عمله ، الذى كان يبدو لى فيه كإله يقود ترامه على القضبان الفولاذية التى تراءت لى بعد ذلك فى حياتى كمثل فى النظام والواجب » .

ثم تزاحمت الصور والمقارنات : « كانت عربات الترام تمرّ أمام كنيسة كاثوليكية — تدعى كنيسة الحبل بلا دنس—واعتاد أبى دائماً رفع قبعته كلما مرّ أمام باب الكنيسة » . وطفق ستيفن يتكلم بسرعة : « يوماً ، وكنت فى نحو التاسعة عشرة وتلميذاً فى الدير فى ذلك الوقت ، ذهبت مع والدى فى دورة لأجل الذكرى فقط . وعندما مررنا بالكنيسة ، رفع قبعته كمألوف عادته . لم يلمس قبعته فى حركة آليّة ، لا بل كشف تماماً عن رأسه احتراماً للحضرة الإلهية الساكنة فى الهيكل ، وشفع ذلك بصلاة خاطفة مثل "مبارك الله ، صانع السماء والأرض" — لم أرَ فى حياتى قط عملاً أكثر تقوى . ثم استدار نحوى وقال لى : "يا ستيفن ، كلما فكرت أن ابنى سيقف يوماً أمام الهيكل ، اختلج قلبى من طيبة الله ورحمته "» .

— « وما كان تأثير هذه الكلمات فيك ؟ »

— « قد أثرت فى كثيراً . ولكى أحقق ثقته بى ، قرّرت أن أصير كاهناً » .

فهزّ دوم أرسيبال رأسه وداعبت شفتيه ابتسامة خفيفة وقال : « إن قولك يشبه قول من يدعى أن دانتى كتب " الفكاهة الإلهية" ليحقق الثقة التى وضعتها فيه اللغة الإيطالية . لا شك ، أن هنالك عوامل أخرى حدت بك إلى هذا القرار ».

— « لا أدرك تماماً ما تعنى » .

زمّ البندكتىّ شفتيه فى مرارة وقال : « لا تدرك لأن موهبتك العجيبة فى التغرير بنفسك تمنعك من ذلك . هيا الآن ، أيها المنسنيور — ألم تفتح أمامك كلمات أبيك هذه عالماً من الاحتمالات ؟ ألم تر فى ذلك الحين فرصة للتفوق على والدك الشبيه بالإله وهو يقود ترامه ، بإقامة الأسرار الإلهية المحرّمة عليه ؟ — إنى أعرض عليك الأمر بوضوح : ألم تدرك أنك ككاهن قد تستطيع حمل جسد المسيح ودمه حقيقة فى يديك فى حين يضطر والدك إلى الاكتفاء بتقديم فعل سجود صغير فقط وهو فى الطريق ؟ »

ارتاع ستيفن لبشاعة مثل هذه العوامل وقال : « أمن الممكن حدوث ذلك ؟ »
— « قد برهنت حياتك كلها على أن ذلك ممكن . إن جزءاً من حياتك الكهنوتية — ولا أقول كلها ، لأن الدعوة الكهنوتية عمل متشعّب يسيّره الله — مؤسس على رغبة منك فى بزّ والدك . هذه المنافسة الخفية هى المفتاح إلى صعوباتك الحاضرة . أكمل حديثك » .

أفاض ستيفن ، دون حذف شىء ألبتة فى سرد قصة حبه لجيسلانا فاليرنى ، ومقاومته ليتحرّر منها . ذكر حلاوة لقائهما ومرارته ، وفرح اختطاف الرؤية إليها على المائدة ، وتيار المودّة المغناطيسى الذى سرى بينهما ، وأخيراً تأنيب الضمير المزعج الذى انتابه بعد كل لقاء . ولما انتهى من كلامه وقد زاد اضطرابه عما كان فى البدء ، رفع ستيفن عينيه الحائرتين نحو دوم أرسيبال طلباً للعون ، وقال :

— « إن ما يزعجنى أكثر من كل شىء آخر هو تواتر شعورى وقوته نحو هذه المرأة . ثلاث مرات حاولت نزعها من قلبى وثلاث مرات فشلت . هل تتجدّد مأساتى إذا ما اتفق أن رأيتها مرة أخرى ؟ هل أضطر إلى قضاء ما تبقى من حياتى هارباً أمامها أو مؤنّباً دوماً نفسى بسياط ضميرى لأنى تحدّثت إليها ؟ — وارتفع صوته فى حنق وحيرة — ولماذا تعذّبنى هذه المرأة ؟ لقد كنت محصناً ضدّ سواها ، فلماذا أضعف معها ؟ »

فأجابه دوم أرسيبال وفى صوته مسحة عطف على التعساء الحيارى وقال :
« قد وجد ملايين العشّاق لذة غريبة فى توجيه هذا السؤال بعينه . إن الرجال والنساء عموماً لا يكفّون أبداً عن التعجب لدى مشاهدتهم هذا التجاذب المادى " الفريد فى ظنهم " الذى يشعر به الواحد نحو الآخر . إننا نسلّم بوجود مثل هذا الحب فى العالم — ثم طرق دوم أرسيبال صوته فى حدة — لكن بطبيعة نذرنا الكهنوتى بالعزوبة الدائمة قد نبذنا ذلك الحب » .

توقف دوم أرسيبال برهة وجيزة ثم استطرد لحديثه قائلاً : « لست أرغب فى الإفاضة فى الوعظ والإرشاد ، أيها المنسنيور ، إنى أذكّرك فقط بأنك إذ كنت رجلاً مكتملاً ، قطعت على نفسك نذراً أبديًّا بالعفة ، ووقّعت مع الله عقداً مقدّساً بقول علنىّ لا التباس فيه . وفسخ هذا العقد أو التلاعب به يعنى موتاً روحيًّا . . . هل كل هذا واضح ؟ »

— « واضح تماماً » .

— « ثم — مع إدراكك فعلاً بأن عفّتك الكهنوتية فى خطر — لماذا تستمرّ فى هذه المجازفة المميتة » .

— « لا أعلم . . . أودّ لو علمت » .

غيّر دوم أرسيبال مجرى حديثه كما كانت تفعل فرق الغناء الإغريقية على المسارح فى أثناء أدائها أناشيد الأيام السالفة . قال : « هل تذكر مقطعاً من كتاب "الاعترافات" أنحى فيه القديس أوغوسطينوس باللائمة على نفسه لسطوه على شجرة كمثرى ؟ »

شجرة الكمثرى ! . . .

— « نعم أذكره » .

— « تذكّر إذن كيف يسأل أوغوسطينوس نفسه قائلاً : "ماذا أحببت فى تلك الخطيئة ؟ " . . . ثم يخبرنا بأن لذّته لم تكن فى الكمثرى — التى لم يأكلها بل تذوّقها ثم رمى بها إلى الخنازير — لكن فى المخالفة بحدّ ذاتها ! ... سرق أوغوسطينوس الكمثرى لأنها أتاحت له فرصة صبيانية لمعارضة الله . وليس فقط لإهانة الله بنقضه الوصية السابعة ، لكن أوغوسطينوس نفسه يقول : " أردت تمثيل حرّية زائفة بإتيانى أعمالاً محرّمة علىّ ، فى تشبه أعمى وشرّير بقدرة الله الفائقة " . . . بعد ذلك اعترف القديس فى ألم وانسحاق نفس بأن إهانته لم تكن فى جوهرها إلا خطيئة الكبرياء الخبيثه الفظيعة » .

دفع دوم أرسيبال رأسه المستدير إلى الوراء وملأ الحجرة من تأوهات أوغوسطينوس :

— « هكذا الكبرياء تلبس ثوب العظمة . . . وهكذا تزنى النفس إذا ما ابتعدت عنك ، يا إلهى . . . هكذا تتشبه فى خبث بك ، أنت الذى ترفع نفوسنا ضدّك . انظر كيف يهرب عبدك من سيده ليجرى وراء الخيال . . . . بالرطانة وفظاعة الحياة وبشاعة الموت . . . أحببت لأنى منعت منه . . . أحببت لا لشىء إلا لأنى حرمت منه ! »

نفر ستيفن من مقارنة عفن الموت الذى أورده أوغوسطينوس بجمال جيسلانا فاليرنى الباهر ، ورفض الاستسلام التام ، واعتقد أن حبه لم يكن مؤسساً على

العصيان ، فتنهد فى ألم ويأس وقال :

— « ليس صحيحاً أنى أحببتها فقط لأنها محرّمة علىّ » .

عصرت ابتسامة ساخرة فم دوم أرسيبال كما يفعل الرجل الحكيم أحياناً مع جاهل لينقذه من ورطته . قال : « ألا تزال تخادع نفسك ؟ إذن ، سنضطر إلى نزع هذه الدمية من يدك دون تأخير » . — انقلب دوم أرسيبال إلى محقق يحاول أخذ الشاهد فى حبال أقواله : — « هل هذه الكونتيسة امرأة فاضلة ؟ »

— « ذلك صحيح » .

— « بما أنها فاضلة ، ستحتقر كل صلة بعيدة عن الزواج ؟ »

— « ذلك أيضاً صحيح » .

— « وجّهت إليك هذه الأسئلة كتوطئة للسؤال الحقيقى ، وهو هذا : هل تهجر كهنوتك لتتزوجها ؟ »

فتنهد ستيفن فى كآبة وقال فى صوت ضيعف : « كلا » .

كفاحص وطبيب للنفوس ، وضع البندكتى إصبعه على الثلمة الخفية فى شخصية ستيفن : « إن ما نعالجه هنا ، أيها المنسنيور ، هو حال الخاطئ الحيران الذى يختار فى دقة وحذر إثماً لن يوضع موضع التنفيذ . أو هو لوسيفير متخفّ لا يجرؤ على تحمل نتائج عصيانه الظاهر سواء على الآب السماوى أم الأرضى . . . ألا تزال تنكر ألاعيب هذه المؤامرة التعيسة ضدّ نفسك ؟ »

فأجاب ستيفن فى يأس وهبوط : « ليست بى رغبة فى إنكار أىّ شىء . فقط قل لى ما يجب أن أعمله لأنقذ كهنوتى » .

عاد صوت دوم أرسيبال إلى نبرته الطبيعية وقال : « قبل كل شىء ، أيها المنسنيور ، يجب أن تمتنع عن سرقة أشجار الكمثرى . وكفّ عن منافسة الله ، فأنت لا تصلح لذلك على كل حال ولن تستطيع الوقوف أمامه . أقترح أيضاً أن تغير فكرتك فى الكهنوت كأنه مباراة أنيقة بين الفرسان — نصفها نضال والنصف الآخر استعراض — وضعت نفسك فيها كفارس مغوار وحيد تائه . ربما تكون الكنيسة فى حاجة إلى كهنة فرسان . لكن دع هذا المسرح للآخرين ، فقد يقصم هذا الدور ظهرك ، وأنت كما تعلم مثقّل بهذا الحمل » .

واستمر كلام الراهب الضخم القوام يبعث الثقة والأمل : « إن الحب يغمر قلبك ، يا بنيّ ، والله يريده كلّه ، وإلا لما جدّ فى طلب عبده الهارب ، دون كلل . . . سنستعرض هذه الأمور مراراً وبالتفصيل فى الأيام القادمة . وأقترح فى الوقت الحاضر أن تتبع كل يوم مراحل الصليب فيما أنت بيننا . تأمل خصوصاً فى المرحلة السابعة ، فى سقوط المسيح تحت الصليب للمرة الثانية ، واتخذها رمزاً للتجربة التى قد تطحن رجلاً فى منتصف حياته هذه الفانية » .

— « سأفعل ما قلت ، أيها الأب » .

زاد ستيفن اتضاعاً بالمعرفة التى اكتسبها من دوم أرسيبال فجثى على ركبتيه بقرب كرسىّ البندكتىّ وقال : « أرغب كثيراً فى عمل اعتراف شامل عن كل حياتى » .

أخرج دوم أرسيبال فى صمت معنقة بنفسجية من جيبه ، وحالما وضعها حول عنقه استحال شخصه إلى شىء آخر . من مرشد بشرى أصبح نائباً عن الله وغافراً للخطايا . اختفى فيه الطبيب والعالم وظهر الكاهن .

— « إنى مسرور بسماع اعترافك ، يا بنىّ » .

ركع ستيفن فرمويل على الأرض وشرع يتمم الشروط المفروضة على كل إنسان ، علمانيًّا كان أم كاهناً، يرغب فى قبول سرّ التوبة . أقرّ بخطاياه كلها ، دون التقليل منها أو طمسها . ثم عقد عزماً صادقاً ألا يعود أبداً إلى إهانة الله مرة أخرى ، وقَبِلَ القصاص الذى فرضه عليه معرّفه .

أخيراً ، رفع دوم أرسيبال يده اليمنى ليمنح الغفران بسلطته الكهنوتية وقال لستيفن : « والآن طهر قلبك فى ينبوع النقاوة واتلُ فعل الندامة » . ثم اشتبكت أصواتهما . دوم أرسيبال يقول : « إنى أحلّك من جميع خطاياك » ، وستيفن يصلّى : « يا إلهى إنى نادم من كل قلبى لأنى أهنتك » .

ارتفعت أصواتهما فى تحقيق وتدعيم المحبة السامية الواسعة التى تمحو خطايا العالم .

* * *

يوماً بعد يوم ، اعتاد ستيفن حياة الدير . لم تعرف هذه الخليّة الكسل فى

أرجائها . لكل واحد من الجماعة، راهباً كان أم أخاً أم مبتدئاً، عمله الخاص به . البعض يعمل فى الحدائق والكروم التى تمتد بعيداً فى الحقول ، والبعض الآخر يعنى بالماعز ويصنع من لبنها جبناً ممتازاً . وكانت العناية بالدير وترميمه تتطلب انتباهاً متواصلاً من البنائين والنجارين . وفى هذه الخلية رعاة وطباخون وغسالون ومساحون وكناسون . وأخيراً هنالك العمل العلمى والفنى فى المختبر حيث يعمل فريق من الرهبان تحت قيادة دوم أرسيبال فى حفظ الآلات الحساسة سليمة ، ومراقبة الإبرة تخط فى رعشة مستمرة الهزات والتغييرات التى تطرأ على القشرة الأرضية فى جميع أنحائها .

تدور حياة الدير كلها على القوانين التى سنها القديس بندكتس، وتعتبر وثيقة ثمينة ، وإن كتبت منذ أربعمائة سنة ، ولا تزال مثالاً فى حكمة التدبير والتعقل لإرشاد الإنسان نحو غايته السامية الأبدية . نبذت هذه القوانين كل تقشف يخرج عن حيز المعقول . فقد كان القديس بندكتس — ومن بعده دوم أرسيبال — ينظر إلى الصوم ، والتقشف والصلاة نظرة معتدلة وإنسانية مدهشة . مع أن أكل اللحم ممنوع ، إلا أن القانون يسمح بوجبتين من الطعام كل يوم . الثرثرة غير مرغوب فيها ، إلا أن الحديث فى المواضيع المفيدة مسموح به . الصلوات العلنية قصيرة ، إلا أنه لم تكن هنالك حدود موقوتة للعبادات الشخصية .

درس ستيفن هذه القوانين فوجدها تستوعب بشكل عجيب حكم جميع الإمكانيات والحدود التى تدور فى فلكها الطبيعة البشرية . فقد رسم القديس بندكتس بدقة فائقة الطريق الذى تسير فيه النفس السليمة النية فى تقدمها التدريجى نحو الله .

العمل الروحى الأول عند البندكتان هو تلاوة الفرض الإلهى ، ويدعونه « عمل الله » ، ولا شىء آخر يفضله ، كما يقول القديس بندكتس . سبع مرات فى اليوم ، يجتمع الرهبان فى الكنيسة ليرتلوا الساعات القانونية : صلاة السحر ، والساعة الأولى ، والثالثة ، والسادسة ، والتاسعة ، وصلاة الغروب ، وصلاة النوم . لما كان ستيفن معتكفاً بنفسه ، سمح له بالحضور فقط دون الاشتراك فى الصلوات . كان يتوق إلى مزج صوته معهم فى آيات المزامير والأناشيد السامية ، لكنه وقف وضيعاً صامتاً

فى حين كان الآخرون يسبّحون اسم الخالق وأعماله . ولما زال عنه يأسه وكآبته ، تعوّد أن يعزّى نفسه بكلمات بولس الرسول التى ينصح بها الكورنثيين قائلاً : « رنموا بالروح . . . رنموا بالفكر » .

قد كان يجوز لستيفن ، كمتريّض وبالتالى كضيف ، المطالبة بأن يعفى من العمل اليدوىّ . لكنه ، على نصيحة دوم أرسيبال اشترك فى أشغال الدير بمساعدته فى المطبخ مدة ساعتين كل يوم . فإذا ما وُجِدَ خضار يقشر ، أو صاجات خبز تدهن بالسمن ، أو نار توقد فى الفرن ، كان ستيفن يقوم بهذه الأعمال البسيطة الوضيعة تحت نظر الأخ ألفونس الفطن — الذى ظهر أنه هو الرجل القصير القامة الذى رآه ستيفن يوم قدومه وظنه طفلاً ساذجاً غبيًّا ولقبه « بذى الأيدى الجميلة » .

كان الأخ ألفونس عامل مطبخ ، وغاسل صحون ، وبرضاه واختياره كان يقوم بجميع الأشغال الخارجية المادية التى تهمّ الدير . لم ينتج خزاف قط قطعة فخار أبشع منه . فى حركاته وعثراته ، وسقطاته وصدماته بكراسىّ المائدة والمناضد ، بدا الأخ ألفونس كالبهلوان . يخيل إلى من يراه وهو يسير من المطبخ إلى المائدة وعلى ساعديه كومة من الأرغفة الساخنة أو هرماً من الصحون ، أن الأخ ألفونس قد فقد كل دراية فى الترتيب والنظام ، وبدا كالمهرج وهو بعد فى منتصف الطريق . وإذا ما بلغ غايته فى سلام والخبز لا يزال بين ساعديه ، أدرك حينئذ ستيفن أن الله خالق العصافير والطيور قد حفظ الأخ ألفونس « ذا الأيدى الجميلة » بنعمة خاصة من لدنه :

كان الأخ ألفونس يضفى على كل ما يعمله مرحاً لا ينضب . بعد انتهائه من عمل الخبز اليومىّ كان يغسل ويكوى ثياب الدير كلها — وكيف ؟ فى هدوء وسكينة فى النفس وحركات غريبة من كل جسمه . لم تساوره رغبة فى التقدم نحو الكهنوت ، بل كان مسروراً بالمكوث فى المطبخ ، فيما كان الرهبان الآخرون يصلّون أو يرتّلون بمفردهم أو يساعدون دوم أرسيبال فى أعمال مرصده . لم يجد لذّة فى الكتب ، مع أنه يجيد القراءة . لا شك أنه خشى من أن كثرة العلم تجعله مغروراً .

فى مدة قصيرة ، تبين لستيفن أن كل عمل يقوم به الأخ ألفونس كان عملاً

تقويـًّا ، يقدمه سرًّا إذا ما كان فى حضرة الآخرين ، وعلناً إذا ما كان وحده .

ذات صباح ، دخل ستيفن المطبخ فوجده ساجداً على الأرض أمام الموقد . فتجرأ بفضول وسأله : « ماذا تفعل هكذا على الأرض ؟ »

فانتصب الأخ خجلاً وقال : « لست قادراً على تقديم أعمال عظيمة إلى الله ، لذلك أقدم ما أستطيع — فبينما أنتظر نضج الخبز فى الفرن ، أسجد أحياناً وأعبد الله الذى أعطانى نعمته لأصنع الخبز ، وأعطانى أيضاً القمح لأصنعه به » .

قد عرف ستيفن بعض النفوس المختارة المكرّسة — مثل أخته هيلانة ونيدهالى — لكنه لم ير قط ولم يسمع بفضيلة تعادل فضيلة الأخ ألفونس فى التواضع .

يوماً بينما كان ستيفن يساعد الأخ ألفونس فى تقطيع البصل والبطاطس لصنع الحساء الذى هو الطبق الأساسىّ لكلّ يوم ، خيل إليه أن الأخ يدعوه باسمه . فسأله ستيفن بين قرقعة السكاكين : « ماذا قلت ؟ » فهزّ الأخ رأسه نفياً وقال : « لا شىء » . وبعد دقيقة سمع أيضاً ستيفن اسمه ، فسأله مرة أخرى : « مع من تتكلم ؟ » فأجاب الأخ ألفونس وهو لا ينفك عن تقطيع البطاطس مخاطراً بقطع أصابعه الغليظة :

— « إنى أسأل الله فقط أن يقبل عملى كفعل محبة . . . »

— « جميل . لكن ما الذى جاء باسمى فى هذا ؟ »

— « كنت أتوسل إلى الله أن يحفظ أصابعك » .

— « أصابعى ؟ وأصابعك أنت ؟ »

أخذ الأخ ألفونس بصلة أخرى وشرع يقطعها وقال : « لو أراد الله أن أقطع إصبعى ، فسأتقبل ذلك منه كعلامة لمحبته . لكن حيث إنى ألقيت الأمر كله بين يديه ، فليس من المعقول أن يقع لى حادث ألبتة » .

راجع ستيفن هذه الكلمات فى ذهنه : « حيث إنى ألقيت الأمر كله بين يديه . . . »

كل حكمة دوم أرسيبال ، كل تأملات ستيفن فى فضيلة التواضع ، كل العبادات والصلوات اليومية ، هذه كلها اجتمعت فى نفس الأخ ذى الأيدى الجميلة ، ذى الإيمان البسيط الناصع النقىّ . فبدلا من محاولة التفوّق على الوالد

الأرضىّ أو مخادعة الآب السماوىّ بالأعمال الباهرة ، يستسلم المرء بثقة تامة إلى إرادة الله . وأىّ شىء يحدث بعد ذلك فهو علامة من عطفه الأبوى . . .

ما أسهل الأمر ! . . . وما أصعبه ! . . .

* * *

مكث ستيفن فى الدير شهراً . انقضت الساعات فى الصلاة والتأمل ، كل ساعة تذكره بتدبير الله غير الموقوت بزمن . لما انقضى الشهر ، لم يتوصل ستيفن إلى حلّ جميع مشاكله ، لكنه تنبّه ، مؤقّتا على الأقلّ ، إلى حقيقة مركزه : نقطة محدودة وضيعة فى دائرة اللانهاية .

عاد إلى روما فى التاسع والعشرين من أكتوبر فوجد المدينة هادئة ساكنة بين يدى موسولينى . كان الدوتشى قد سار أخيراً إلى روما ، ليس تحت الأعلام الخفاقة لكن فى عربة نوم . هبط الطاغية الذى سيقود الشعب الإيطالى نحو عهد من الانتصار الخدّاع والانهيار المخيف ، هبط ذلك الطاغية على المدينة الأزليّة وسكانها جميعاً نيام . . .

اكتسب ستيفن فى السنوات الثلاث التالية خبرة فى الحياة وسمواً فى الخلق . مرّ بتلك الفترة العصيبة التى يكتشف فيها الإنسان فى منتصف العقد الرابع من حياته أن عليه أن يجدد نشاطه أو أن يرقد حياً فى قبر الخمول ! عدّل من نظام حياته على أساس جديد متين ، فنبذ دون عناء كل العادات والأعمال التى لم تفده فى تدعيم كهنوته : رفض كل الدعوات ، وقلّل من ابتسامه ، وفقد بعض إشراقه . ثم إنه لم يعتمد على جاذبية شخصيته بل على تراث خلقه القوىّ . اتبع نظاماً نسكياً فى الحياة ، فلم يكن يسمح لنفسه — إلا نادراً — بسيجار بعد العشاء ، ومع ذلك ، فقد اتسقت كتفاه وعنقه . ولما بلغ الثامنة والثلاثين بدأ شعره يغبرّ . جعلت هذه السنوات الثلاث من ستيفن رجلا صلباً ، ومدبّراً صارماً فى الكنيسة الجامعة .

رويداً رويداً اتضحت له الحكمة التى ذكرتها له يوماً جيسلانا فاليرنى : « الزمن يذهب بالحب » — فى معترك الأعمال اليومية تضاءلت حدّة رسم روبيرتو وتقاطيع وجهه الشبيهة برأس العقاب . قد يميل ستيفن أحياناً إلى هزة من الطرب تسود فؤاده ، ليجد فقط ، يا للأسى ! ، شبحاً هزيلا حيث رأى يوماً صديقاً تجيش فيه الحركة والحياة . أضاف اسم روبيرتو إلى قائمة الذين يصلّى من أجلهم . وأضاف أيضاً اسم جيسلانا فاليرنى ، لكنه لم يعد يراها أو يسمع عنها .

منذ زمن طويل ، جاز ستيفن فترة التعارف والتقارب فى صلاته بزملائه ورؤسائه فى الفاتيكان . أصبح الآن مؤتمناً على أسرار العمل ، وربما على أسرار كارنجى وجوارديانو الخاصة ، وچياكوبى نفسه غيّر الطريقة القاسية فى التعامل مع المنسنيور الأمريكى . قطعاً ، قد لا تزول نزاقة الكردينال أمين السرّ فى معاملته مرؤوسيه ، لكن بعد إذ نجح ستيفن فى تأدية أعباء عديدة صعبة ، بدأ چياكوبى يغيّر شيئاً من شكاسة خلقه . وبرز عنده نوع من المداعبة ، فكان يحلو للصقلى مجاراة ستيفن فى سياسة الدولار الأمريكية . فى سنة ١٩٢٤ ، عندما أقرضت الولايات المتحدة ألمانيا بليونين من الدولارات بمقتضى اتفاقية « داوز » — وقد عدّت يومها عملية مالية مدهشة — اندفع چياكوبى يضحك بملء شدقيه ، ثم صاح مزمجراً :

– «قد زالت الآن متاعب الفاتيكان المالية . فى هذا اليوم بعينه ، سأقترح على قداسة البابا إعلان الحرب على الولايات المتحدة . ثم بعدما يهزم حراس الفاتيكان ويتذوقون "علقة ساخنة" ، سنتقدم إلى الظافرين منا بطلب قرض دسم . كم تقترح علينا بطلبه ، يا منسنيور فرمويل ؟ »

– « حسبما تقتضيه الظروف . على كل حال ، لا تستند إلى تقديرى ، يا صاحب النيافة » .

منذ سنتين قد كان ستيفن يتميز غضباً ، أما الآن فقد يبتسم ويهزّ ذقنه دون اكتراث . ولاحظ چياكوبى هذا التغيير فتمتم بين أسنانه بكلمات مؤداها أن غلاظة الجلد وسماجة الخلق هى من أرفع مواهب الروح القدس !

كثرت الظروف التى دعى فيها ستيفن إلى حضرة پيوس الحادى عشر ، ليطلعه باختصار على بعض نواحى الحياة الأمريكية أو ليقوم بعمل المترجم لبعض الشخصيات البارزة من الناطقين بالإنجليزية . كان البابا يسعى بكل وسيلة ليوثق الروابط بين روما والولايات المتحدة ، وكبرهان على هذه الرغبة منح موندلين رئيس أساقفة شيكاجو وپاتريك هيس ، رئيس أساقفة يورك الجديدة ، القبعة الحمراء ، فرفع بذلك عدد الكرادلة الأمريكان فى المجمع المقدّس إلى أربعة . واجتهد قداسته بنوع خصوصىّ أن يظهر رقيقاً مع أساقفة الولايات المتحدة الذين يقومون بزيارتهم المقررة إلى روما ، ويطيل اجتماعه بهم بروح ودّية ويسألهم عن الأمور الإدارية فى أبرشيتهم والمسائل الأمريكية بنوع عام : كم عدد الطلاب الذين تستوعبهم المدارس الرعائية التابعة لإدارة الأسقف ؟ ما عدد الأسرّة فى المستشفيات ؟ هل مدارس الكهنة والأديرة فى تقدّم مستمرّ ؟ هل لاحظ الأسقف هبوطاً فى عدد أو فى صفة من يتقدمون إلى الكهنوت ؟ – ثم قد يراجع قداسته مذكرة ويسأل زائره : « هل الأقليات الأجنبية فى أبرشيتك على اتفاق مع رعاتهم الناطقين بالإنجليزية ؟ » .

وفى آخر الاجتماع يدهش الأسقف الزائر من دقة الحبر الأعظم وسعة اطلاعه . لم يوجد أسقف إلا وسأل ستيفن : « كيف يعلم الأب الأقدس كل هذه الأمور عن أبرشيتى ؟ » فيجيبه ستيفن : « إن لدى الأب الأقدس وسائل عديدة للاستعلام » . ويضرب صفحاً بلطف عن دوره فى تحضير المذكرات للحبر الأعظم .

اكتسب ستيفن من صلاته المتعددة والوثيقة بالأب الأقدس شخصياً وبدائرة أعماله دراية أوسع فى إدارة الكنيسة الجامعة . أخذه العجب من ضخامة الأمور وتنوع المسائل التى تتدفق فى مذكرات عديدة على مكاتب الڤاتيكان المختلفة . كانت التقارير تأتى من جميع أنحاء العالم بكل وسيلة من وسائل النقل : البريد والبرق ، والهاتف ، والراديو ، وأيضاً مركبات كلاب الجليد ، والمراكب والكياك ، والمشى على الأقدام ، والمخابرات الشفوية . وترسل التقارير عن الحوادث حال وقوعها مثل : تنصير قبيلة إفريقية مهملة عن يد المرسلين الدومينيكان ، وضع الحجر الأساسى لدير فى ويلز ، أو خلاف بين أسقف من أستراليا وبين مجلس كهنة الكاتدرائية . وتعمل اثنتا عشرة جمعية كبرى ، يرئس كل واحدة منها كردينال مدير ، عملاً مركزاً عصبياً يبعث بنبض الحياة من جميع أجزاء الجسد المعنوى الكنسى إلى رأس الكنيسة المنظور ، وترسل كل منها تقارير ضخمة إلى الأب الأقدس .

مع أن اللجان تغربل بدقة الغثَّ من الثمين وتلخّص الجيّد من التقارير ، مع ذلك ، فقد كان هنالك دائماً هرم عالٍ من المستندات ، بما فيها من أمور دقيقة تتعلّق بالإيمان والسياسة والمالية ، فى انتظار الحكم النهائى الذى يصدره البابا نفسه لا غيره . إن مجرد قراءة هذه التقارير العديدة وحدها لعمل مضنٍ . وكان البابا يقوم به على ضوء مصباحه حتّى ما بعد منتصف الليل بزمن طويل ، فى جناحه الخاص فى الطابق الثالث من قصر الڤاتيكان .

اكتشف ستيفن أن جوهر خلق الحبر الأعظم يتبلور فى تمسّكه الصلب الذى لا يلين بجميع ما يتعلق بامتيازات الكرسىّ الرسولى الروحية . فالبابا يعتقد أن حق الكنيسة فى التعليم والتبشير وحفظ الإيمان هو من حقوقها الجوهرية ولا يمكن للغير التصرف به ، وفى براعة تلو أخرى أعلن موقفه هذا . عقد اتفاقيات مع ألمانيا وفرنسا وپولندا ليضمن حقوق الكاثوليك الروحية فى هذه البلاد . ومع موسولينى توصّل پيوس الحادى عشر إلى الاتفاق على وسيلة من التعايش تضمن للكاثوليك فى إيطاليا حرية العبادة والتربية الدينية .

برز پيوس الحادى عشر إنساناً حقّاً ، تحت ظواهر أعماله وأعباء مهمّته .

وجده ستيفن صبوراً جداً ، مما أثار دهشته ، فى الأمور البعيدة المدى ، وميّالاً إلى الحنق فى الأمور التافهة . البلاهة ، ورطانة الحديث ، وتعقيد الأمور ، كلها تستفز الأب الأقدس . لكنه يعجب بالرجال الذين يعالجون لبّ الموضوع دون القشور ويسوقون الحديث دون مزيد . سمعه ستيفن مرة يصيح بعصبيّة : « أنضطرّ إلى قضاء عمرنا فى الاستماع إلى أشياء نعلمها؟ » — مع ذلك لم يدّعِ كمال العلم ، وقد يبدو أحياناً مرحاً إذا ما خانته معرفته .

مرة ، فى أثناء مقابلة له مع الأسقف « چون سپاركر » من إنديانا ، تبسّط قداسته فى الحديث عن عظمة الولايات المتحدة الجغرافية وقال : « كم أود رؤية جبالكم الصخرية المكللة بالثلوج ! . . . إنها تغرينى بتسلقها ! . . . وتلك الأراضى الواسعة التى تزرعون فيها القمح — واستدار نحو ستيفن — كيف تسمونها ؟ هل تدعونها پمپاس ؟ »

— ندعوها مروجاً ، يا صاحب القداسة » .

— « نعم ، مروجاً — ثم انحنى الحبر الأعظم نحو الأسقف سپاركر وقال : — أترى ، أيها الأخ العزيز كيف تحدّ الجغرافيا عصمتنا من الغلط » .

فيما يختص بالحياة المادية ، كان أشيل راتى رجلا قنوعاً ، يأكل قليلا من الفاكهة والجبن وحساء الخضار ، ولا يذوق شراباً سوى الكاكاو الذى يحبه كثيراً ، وينام نحو خمس ساعات فى اليوم . يبدأ نهاره بإقامة القداس الساعة السادسة والنصف صباحاً فى معبده الخاص ، ثم يتناول إفطاره من قرص خبز بالزبدة وكوب من الكاكاو . ثم من الثامنة إلى العاشرة يتفرغ لقراءة بريده الضخم . وبعد ذلك يجتمع بمستشاريه الكرادلة فى جلسات متتابعة . وأخيراً يأتى دور المقابلات مع الأساقفة ورؤساء الأديرة والشخصيّات البارزة المدنية والكنسية .

فى الساعة الثانية بعد الظهر يتناول البابا غداءه وحده (حسب التقليد لم يكن يسمح له قط بكسر الخبز على مائدة واحدة مع آخرين) . يتبع ذلك قيلولة قصيرة ، وبعدها يتفرغ إلى أمور الدولة حتى الخامسة مساءً . ثم يسير فى نزهة خلوية فى حدائق الڤاتيكان ، وبعدها يتناول عشاء من حساءٍ مركز مخفوق بالبيض ، ثم بعض الكمثرى والجبن والكاكاو . بعد ذلك يلتقط جريدة الڤاتيكان ، المراقب

الرومانى ، ويقرأ كل كلمة فيها . وحول التاسعة مساء يلجأ إلى مكتبه الخاص ليدرس التقارير والمستندات المتراكمة .

وتزيد أيام الأعياد هذا النظام المضنى ثقلا بالاحتفالات الدينية والمقابلات العامة . تحت عبء مهمته هذا الثقيل ، أظهر پيوس الحادى عشر عزيمة فائقة كالتى فى أشجار الصنوبر الوحيدة المتناثرة الراسية جذورها فى شقوق الصخور على قمم الجبال الثلجيّة . لم يكن فى استطاعة إنسان مجاراته فى تقشّفه،أو فى تفانيه لعمله ، أو فى وحدته وعزلته كبشر .

* * *

يوم اثنين الفصح سنة ١٩٢٤ . انقضى عيد الفصح فى احتفالات جميلة رائعة فى كاتدرائية القديس بطرس ، واكتست الكنيسة والطبيعة معاً بثياب خضراء وعاشت أفراحَ أعياد القيامة .

جلس ستيفن إلى مكتبه المطعم بالصدف يدرس طلباً قدّمته بعض الرعايا الكنديّة الفرنسية التى تتعاطى الصيد، وتدّعى فيه اغتصاب نقابة أمريكية لحقوقها فى صيد السرطان البحرى . المسألة متعقدة جدًّا ، فقد عقدت فى الماضى اثنتا عشرة اتفاقية عالمية ، ونقضت جميعها. فأخذ ستيفن يعدّ العدّة لدرس القوانين التى تمت إلى هذا الموضوع ، وإذا بالهاتف يرن فى حجرته .

المتكلّم چيتانو أورسلّى ،وصوته يترقرق طرباً : « لابدّ أن أراك ، يا ستيفانو . عندى أخبار فى الدرجة الأولى من الأهمية ــ أخبار لا يمكن سردها إلا مع زجاجة من النبيذ . قابلنى الليلة للعشاء فى مقهى سورنتو على طريق " الحانات المظلمة " ستعرفنى من الوردة فى فمى » .

تفتحت الوردة فى فم أورسلّى عن ابتسامة عريضة أشرق بها وجهه وهو يحيّى ستيفن . ثم جلسا إلى المائدة أمام طبق من الحساء اللذيذ وقطعة من اللحم المشوىّ . فرغت الزجاجة الأولى من نبيذ فاليرنو ، وحينئذ فقط وجد ستيفن فرصة ليسأل صديقه :

ــ « ما لديك من أخبار؟ . . . سياسيّة ؟ . . . هل كلّفت بوزارة البحرية فى حكومة الدوتشى ؟ . . . »

— « الوزارة ؟ . . . الدوتشي ؟ . . . كلها سخافة ، يا ستيفن ! إنما أخبارى عن قلبي . قد أصبحت روميو ، وأنت الأخ لورنس » . — ورفع أورسلى قدحه ، وقرع صدره فى استهزاء طلباً للغفران وقال : — « اغفر لى يا أبى ، لكى أستحق أن أقبل طرف ثوب ملاك انقلب امرأة » .

— « اعتراف مقنع يخفى حيلة ! . . . . ما قصة روميو فى هذا ؟ فى اجتماعنا الأخير ، كنت أبعد ما تكون عن النساء وإلى الأبد » .

— « النساء فى صيغة الجمع ، نعم . أما الآن ، فإنك أمام رجل لا يفكر أو يتكلم إلا عن المرأة ، مفردة وفريدة . . . يا ستيفن ، لقد وجدتها » .

— « لا أظنها المرأة "المستحيلة" ، بقصرها المدنى ، ومنزلها الريفى ، ولقبها ، ومعاشها ، و . . . كدت أنسى . . . وغبار الكواكب فى شعرها » .

فتجمد أورسلى وأجاب دون حركة : « من حقك أن تشك فى الآن ، ياستيفانو. أقر أنى اتبعت طريقاً ملتوياً ، وأن أسطورة حبى مليئة بالأكاذيب دبجتها يد كسلى مهملة . أما الآن فأنا أعلم تمام العلم كيف تهتز إبرة الحك عندما تسيطر عليها نجمة القطب . اجتاحتنى ، فاستسلمت ، فذقت الأمن والسلام . وليس هو السلام فى الركود ! . . . » — واستعار أورسلى تشبيهاً من البحرية وقال : — « هذا الأمن يشبه هدوء الأحلام فى محور الآلة وهى تدور بأقصى سرعتها » .

— « لست على ما يرام ، أيها الربان . أين وجدت هذه المرأة ، أو الآلة المحركة ؟ »

— « فى كابرى، منذ شهر تقريباً . عندما تبادلنا النظرة الأولى ، شعرت بأن نفسى تنساب منى . وفى النظرة الثانية شعرت بقوة الوطأة وكدت أفقد وعيى . لم أكن أتصور احتمال وجود جاذبية قوية مثل هذه إلا عندما التقيت بجيسلانا فاليرنى . . . ما بك تحملق بى هكذا ؟ أتشك فى ؟ »

— « هل أحملق بك ؟ قد . . . قد اتفق لى أن تعرفت على الكونتيسة فاليرنى » .

— « آه منكم يا رجال الدين ! كيف تعرفون كل شىء ؟! . . . إذن تستطيع

إدراك ما أحاول قوله . ألا توافقنى فى أنها تشبه إحدى بطلات كورنيل، ربّما فيدر ؟ . . . »

— «انها امرأة ذات جمال فريد » .

— « هيا يا ستيفانو ، إن كلامك فاتر . تكلّم بحرية وصراحة . فأنت رجل ذو ذوق ورأى صائب فى هذه الأمور . هل سمعت قط صوتاً كصوتها ؟ . . . إنه كخرير جدول فضىّ حصباؤه من ذهب . وأين — إن لم يكن بين التماثيل الإغريقية — يستطيع المرء العثور على خصر كخصرها ؟ . . . سامحنى ، يا صديقى ، إن ذكرت هذه الأمور على مسامعك . لكن زوجتى هذه الموعودة لى ، ما هى إلا لحم ودم . أتدهش من سعادتى ؟ . . . بل هنئنى ، يا ستيفانو » .

شدّ ستيفن على يد أورسلّى ، ونزاع داخلى يعصره، وقال له : « هل حدّدت تاريخ الزواج ؟ »

— « سنتزوج فى أوائل يونيه . وددت لو استطعت سؤالك القيام بمراسيم الزواج ، لكن الكردينال ميرى دلفال صديق عريق لأسرتها ، وأنت تعلم كيف تسير الأمور » .

— « أعلم تماماً » .

— « لكنك ستأتى إلى الفرح ، دون شك ؟ إن امتياز تقبيل العروس محدود لعدد ضئيل من الأصدقاء المقربين » .

ثقلت وطأة النزاع النفسى على ستيفن : « ألم أتحرّر منها بعد ؟ . . . هل أضطر إلى التقيّد بذكراها إلى الأبد ؟ . . . » — وبينما استطرد أورسلّى يشدو طرباً بمديح شخصيّتها وتصرفاتها أحسّ ستيفن بحرج موقفه : « كيف أستطيع الخروج من هذا المكان دون التعرض لكشف أمرى ؟ . . . لو استمر هذا الخليع القذر فى قرقعة شفتيه السمجتين . . . »

التقط أورسلّى بعد العشاء سيجاراً من الهاڤانا بين أسنانه المربعة وأشعله فى بطءٍ ودلال . فحركت رائحته المعطرة فى ذهن ستيفن فكرةً للهروب ، فسمع نفسه يقول لأورسلّى :

— « قد اكتسبت رذيلة جديدة . إذا كان سيجارك من النوع الخفيف ،

فسأشاركك الاحتفال بهذه المناسبة بتدخين واحد منها ».

— « المعذرة ، أيها الصديق العزيز .— وقدّم له الربان علبة سيجاره — جرّب هذه الڤويلتا . أنصحك بتدخينها من أجل جودتها وعطرها . آه ، ما ألذ تعزية التدخين . . . أما المرأة فهى امرأة فقط . . . كما يقول كاتبكم كپلنج . . . »

أشعل ستيفن السيجار ، وتظاهر بتذوّق دخانه كما لو كان خبيراً به وقال : « حدثنى عن مشاريعك ، أيها الرّبان . هل ستترك البحر ؟ »

— « نعم ، إن أسفارى البحرية انتهت ، فزوجتى مخلوقة أرضيّة . ولذلك فعنصرها سيكون عنصرى . ولحسن الحظ قد منحت وظيفة بحرية كمراقب عام للخطوط الإيطالية » .

— « أعتقد أن مرتبك سيكون كبيراً » . — (لابد من تغيير مجرى الحديث إلى مواضيع عامة) .

— « أعتقد ذلك أيضاً . إن جيسلانا مضيفة بارعة . ولاشك أن خدماتها ستوثق صلات الكويرينال بالڤاتيكان . هل أعجبك هذا السيجار ؟ »

— « ممتاز . أظن أنه قوىّ علىّ نوعاً ما » .

— « إنك تحرق التبغ بسرعة كبيرة . أغلب الأمريكان يدخنون بهذه الطريقة ... بالطبع سنحاول الهروب إلى كاپرى لقضاء شهر العسل . إن جيسلانا تمتلك بيتاً هناك . . . ماذا قلتِ بيتاً ، إنه بالحرّى فردوس — ثم حرّك أورسلى سيجاره بلسانه وقال —: ألا تظن الأمر عجباً خارقاً ، يا ستيفانو ، أننى بعد تخبطى مدة حياتى كلها فى البحار أعثر على هذا المرفأ الفريد الهادئ فى الزواج ؟ »

— « إنه حقًّا عجب خارق » . — وبدأت قطرات من العرق تتساقط من جبين ستيفن . فمسحها بمنديله فى حركة ظاهرة متعمداً إثارة انتباه أورسلى ، وقال : « هل هى مخيلتى أو أن الجوّ حارّ هنا ؟ »

— « بل الجو بارد » .

فسحب ستيفن من سيجاره نفساً طويلا وقال : « ربما كان هذا السيجار هو السبب » .

— « تذوقه ببطء . إن رماد سيجارك أطول بوصة من رماد سيجارى . هيا ،

انفض رمادك فى هذا الطبق » .

التقط أورسلى طبق الرماد بالقرب من مرفقه ، وزحلقه على المائدة . كان الطبق قطعة من الصينى الرومانى الرخيص ، أحمر خافت اللون حليت جوانبه برسومات من الدوائر يتوسطها سهم . انحنى ستيفن لينفض رماد سيجاره فى الطبق ، وذهنه مشتت من أبخرة الدخان ، وإذا بعينه تقع على هذه الكلمات المرسومة فى الطبق : « الحب يذهب بالوقت والوقت يذهب بالحب » .

وسأله أورسلى : « ألا قل لى الآن : متى وأين التقيت بخطيبتى جيسلانا ؟ »

مسح ستيفن شفتيه بالفوطة ثم انتصب فى تخاذل وقال : « أسف يا جيتانو . فإنى مضطر إلى الخروج من هنا . إن سيجارك أفقدنى وعيى » . — وتحامل على نفسه وخرج . ولما صار فى شارع « الحانات المظلمة » استند إلى جدار من الطوب وقد أثقله الدوار . فخفّ نحوه أورسلى وسأله فى لطف جم : « هل أرافقك إلى منزلك ، يا ستيفانو ؟ »

— « لا ، لا . ادع لى سيارة أجرة فقط . سأستعيد نشاطى حالما أستريح قليلا على فراشى — وأصدر أنيناً مفتعلا وقال :

— « أعتقد أننى لست من محترفى تدخين السيجار كما ظننت » .

فى الطريق إلى البيت، اجتاحت ستيفن نوبات من القىء . كانت الرسومات والدوائر والأسهم تتراقص أمام عينيه كالدبابيس الحادة ، وفى وسطها : « الوقت يذهب بالحب » .

* * *

استناداً إلى تقليد عريق وتشريع بابوى ، لا يفتح الباب المقدّس فى كاتدرائية القديس بطرس إلا مرة واحدة كل خمس وعشرين سنة ، وترجع هذه العادة القديمة إلى عهد البابا بونيفاس الثامن سنة ١٣٠٠ ، الذى هدم جزءاً من سور كاتدرائية القديس بطرس إثباتاً على أن المعبد مفتوح لجميع الناس أيًّا كانت مذاهبهم . ولا تزال العادة قائمة . فكل ربع قرن يدفع الحبر المالك بيده حجراً ، قد خلعه البناؤون من الجدار ، فيقع الحجر على الأرض . ثم تهدم الأحجار الباقية ، ويبقى الباب المقدس مفتوحاً طوال السنة المقدسة ، ويمر بين دفتيه جمهور غفير من

المؤمنين من جميع الأجناس فى مختلف الأزياء والألوان ، إلى داخل الكاتدرائية .

فى سنة ١٩٢٥ حجّ إلى روما مليون ومئتا ألف سائح لحضور الاحتفالات البهية الفتانة التى أقيمت لفتح وإغلاق الباب المقدّس . أتى هؤلاء جميعاً ليحصلوا على غفران العيد الذى يكتسبه من يتمم الشروط المفروضة ، وقد كانت شروطاً خفيفة معقولة . مطلوب من السائح زيارة كل من الكاتدرائيات الأربع الكبيرة فى روما : كاتدرائية القديس بطرس ، وكاتدرائية القديس بولس خارج الأسوار ، وكاتدرائية القديس يوحنا اللاتيرانى ، وكاتدرائية القديسة مريم الكبرى ، ويصلى فى كل واحدة منها ثلاث مرات الصلاة الربية ، وثلاث مرات السلام الملائكى ، وثلاث مرات « المجد » . ثم بعد أن يعترف اعترافاً جيداً ويتناول القربان المقدس ، يستحق نيل الغفران الكامل .

فى سنة ١٩٢٥ ، كانت طرقات روما تعجّ بالسائحين وهم يحملون الورود والتماثيل إلى معبدهم المفضل ، ومن بينهم سيليا فرمويل التى استطاعت بفضل ما ادخرته بتقتير من مصروفها اليومى وبعض الهبات الضئيلة التى انتزعتها من فلورى بتملّقها إياها ، وأيضاً بفضل مئة دولار أرسلها ستيفن ، استطاعت سيليا فرمويل شراء تذكرة للذهاب والإياب بين بوسطن وروما ، ورغبتها الوحيدة رؤية البناء الذى يعمل فيه ابنها الكاهن وسماع جوقة الكنيسة السستينية وهم يرتلون فى أثناء القداس الاحتفالى . أما معلوماتها الأخرى فيما يختص بالمدينة الخالدة فضئيلة جدّاً. احتجز ستيفن لوالدته حجرة فى دير الراهبات الزرق لقضاء خمسة عشر يوماً فى المدينة المقدّسة . وذهب يوماً لزيارتها .

لم تزل سيليا فى سن الستين محتفظة بخفة حركتها كالعصفور ، كما عهدها ستيفن منذ طفولته . أصبح شعرها الآن أبيض ناصعاً ، أما عيناها فلا تزالان تلمعان ببريق وضاء . وجدّد فيها سفر البحر خفة روحها وخفة قدميها معاً . تخيل ستيفن رؤيتها تعبة ، فرآها مرحة نشيطة حتى إنها لا تكاد تستقر على مقعدها فى حجرة الاستقبال الصغيرة . فهدأ ستيفن من روعها واستطاع جرّها إلى الحديث عن الأسرة :

— « يا بنى — قالت سيليا — إن البيت القديم فى ٤٧ ، شارع مرج الغاب قد فقد حركته المألوفة . أحياناً بعد الظهر أجلس وحدى فى المطبخ وأتذكر الأيام الماضية عندما تقفل المدرسة أبوابها كل يوم فتندفعون جميعكم من الباب الخلفى وتختطفون لعبكم ثم تجرون بها إلى الخارج حتى وقت العشاء . أى صدمة كانت ! ... والأمسيات أيضاً أضحت هادئة بعد انتقال فلورى وآل إلى روزندال حيث اتخذوا لهم شقة جميلة . ربما يوفق بينهما طفل أو اثنان ، إلا أنى لا أرى شيئاً مقبلا » .

— « وكيف هيلانة ؟ »

— « أسعد مما رأيتها . قد باركها الله بإرساله الأب آيرتون إلى ميدفورد ليشغلها ببعض الأعمال . آه ، ما أطيب الأب بولس ! ... فى ثلاث سنوات كسب قلوب الجميع . لقد شرع فى بناء كنيسة جديدة — نعم إنها الآن فى قاعة تحت الأرض ، لكنه يسعى فى رفع البناء » .

— « وسينجح . وكيف برنى ؟ بلغنى أنه يعمل فيما يدعونه الراديو » .

فرفعت سيليا رأسها فى حيرة وقالت : « إنه لا يزال يغنى القطع نفسها التى لم يكونوا يدفعون له فيها سوى عشرة سنتات . إنهم يلقبونه الآن بالدجاج البرى الإرلندى . أتتصور ؟ إنه منذ ستة أشهر يكسب خمسين دولاراً فى الأسبوع ! »

من الصعب حقًّا تصديق ذلك ، ثم جاء دور السؤال الذى يتوق إليه ستيفن منذ زمان طويل : « كيف حال رچينا الصغيرة ؟ »

— « إنها ملاك صغير ، وجميلة كمنى ، ربما تكون سمراء قليلا عن أمها . إن ريتا والطبيب چون يتفننان فى العناية بها . — ثم نبشت سيليا فى حقيبة يدها وأخرجت منديلا لتمسح به عينيها — إنى لا أدرك أبداً تلك المحبة التى يضعها الله فى قلوب البشر . لكن أخبرنى الآن يا بنىّ ، هل صحيح — كما قلت لى فى رسالتك — إنك تشتغل فى قصر الڤاتيكان فى الطابق نفسه الذى يسكن فيه البابا ؟ »

— « نعم ... لكن البابا فى جناح آخر » .

— « هل يوجد أناس آخرون يقتربون منه بهذا القدر ؟ »

فضحك ستيفن : « قليلون جدًّا . إن المكان كبير جدًّا ، كما تعلمين . به أكثر من ألف حجرة » .

— « هل لديك وقت لتصفه لى ؟ »

— « أصفه لك ؟ إنى سآخذك إلى هناك وترين كل زاوية منه : الكنيسة السستينية ورسومات مايكل أنجيلو الشهيرة والقاعة الكليمنتية — وإذا وفقت فستجتمعين فى جلسة خاصة مع الأب الأقدس نفسه » .

وفق ستيفن إلى هذا الاجتماع . صعدت سيليا الدرج الكبير ببطء ، فى ثوب وشال أسود وابنها بجانبها ، وانتظرت وقد تملكتها الرعشة فى حجرة الاستقبال البابوية ، ولما ظهر قداسته جثت على ركبتيها ولثمت خاتم الصياد الذى يلبسه الحبر الأعظم فى إصبعه . ست مئة ألف شخص قبلها لثموا هذا الخاتم فى هذه السنة المقدسة . وبالرغم من التعب فى استقبال أفواج السائحين ، كان فى استطاعة آشيل راتى ، رابع ابن لعامل فى نسج الحرير ، أن يدير الحديث فى طابع ودّى خاص ، مما أدهش ستيفن فى هذه الجلسة العائلية ، فقد تحدث قداسته إلى سيليا بالإنجليزية :

— « هل أنعم الله عليك بأولاد آخرين ، يا ابنتى ؟ »

— « نعم يا صاحب القداسة . إنى أم لثلاثة أولاد وأربع بنات » .

فسألها الحبر الأعظم مداعباً : « هل تفضلين واحداً منهم ؟ »

فاستقرّ نظر سيليا على ابنها البكر الواقف بالقرب منها فى حلته البنفسجية وقالت : « إنى فخورة بابنى البكر ، يا صاحب القداسة . لقد ملأ قلبى فرحاً عظيماً ولم يسبب لى حزناً قط » . — ثم تنازعتها رغبة فى الثرثرة كما تفعل جميع الأمهات فشرعت تحدّ منها ، لكنها تركت لعاطفتها العنان فاستطردت لقولها : — « عندما كان ستيفن صبيًّا صغيراً اعتاد أن يحثنى على أن أقول له إننى أحبه أكثر من الآخرين . كنت أود حينذاك أن أقول له ذلك ، وأود لو أستطيع الآن أن أقول لكم يا صاحب القداسة إنه كان دائماً الأول فى طيّات قلبى . غير أنى لا أستطيع قول شىء من هذا يسىء إلى الآخرين. لأن من واجب الأم أن تجعل جميع أبنائها يشعرون بأنها تحبّهم جميعاً بالقدر نفسه . وغير ذلك لا يسر الله » .

من بين جميع ما سمعه البابا پيوس الحادى عشر تلك السنة ، لم يتأثر كما تأثر بكلمات سيليا . استعاد الحبر الأعظم إلى ذاكرته طفولته وطلبه إلى والدته : « ماما ، قولى إنك تحبّينى أكثر من الكل . اهمسى بها ، يا ماما ، حتى لا يسمع

الآخرون » . لم يتحقق ذلك الطلب قط يوماً . تفرس قداسته بدهشة فى ستيفن ، فقد جمعتهما ظروف مشتركة فى رفض طلبهما . وتساءل قداسته هل يستاء الله حقًّا إذا همست الأمهات سرًّا : « بنىّ العزيز — عزيزى آشيل ، أو عزيزى ستيفن — إنك أنت الذى أحبه أكثر من الجميع » . نعم ، دون شك ، قد يكون ذلك عثرة . فلو تفوّهت الأمهات بمثل تلك الكلمات ، لهلك أبناؤهن فى بحر من السعادة .

صدرت إشارة من مدير التشريفات نبهت الحبر الأعظم المضطرب إلى وجود أناس آخرين ينتظرون دورهم . فأخرج پيوس الحادى عشر من علبة مصنوعة من خشب الورد ، أيقونة للعذراء مريم وقدّمها إلى سيليا قائلا :

— « هذه الأم أيضاً تحب جميع أولادها بالتساوى » . ثم رفع يده وباركها . فكانت هذه اللحظة أسعد لحظات سيليا فرمويل فى حياتها . خيل إليها ، وستيفن يقودها خارج مكتب البابا ، أن أبواب السماء الذهبية قد أصبحت قريبة منها .

* * *

فى سبتمبر من السنة المقدسة ، أبحر الكردينال لورنس جلينون على الباخرة «كانوپيك » » مع ست مئة من السياح الأتقياء ونزلوا فى ناپولى يوم عيد القديسين اليسوعيّين من أمريكا الشمالية . استقبل المنسنيور ستيفن فرمويل وفدهم بصفته مندوباً شخصيًّا عن البابا ، بثيابه الرسمية والصليب والخاتم . ما أكثر عدد الشخصيات والكبراء الذين تدفقوا من الكانوپيك ! . . . .

نزل أولا الكردينال جلينون بمعطفه الأحمر الطويل وتبعه ثلاثة أساقفة ، واحد منهم عليل جدًّا حتى إنهم حملوه على كرسى وأنزلوه على سلم الباخرة . ثم نزل فريق كبير من المنسنيورية بثيابهم القرمزية وتبعهم جمع غفير من الرعاة الرؤساء والكهنة المساعدين (جيش المشاة فى الكنيسة) .

أما الشخصيات المدنية فمثّلها بفخر سيادة حاكم « جزيرة رود » (رود آيلند) ، وأربعة من النواب الكاثوليك ، وسبعة عمد ، وجماعة من الوجهاء ، وجمهور عظيم من المحامين والأطباء ورجال الأعمال والمقاولين ، فى أبهى حللهم . وبين هؤلاء الآخرين جاء كورنيليوس ديجان ، بسلسلته الذهبية ومعطفه المخمل وشارات

رتبته جميعها ، ليقوم بوظيفته الشرفية حاجباً للبابا .

قام بترتيبات هذه الرحلة الكبيرة حضرة الأب مايكل سپيد ، حافظ أختام الأبرشية ذو المستقبل الزاهر ، الذى ازدادت فيه ثقة الكردينال جلينون للأمور الإدارية . لم يخفَ على الكردينال أن سيطرته على خدمات مايك سپيد توشك أن تنتهى ، لأن حافظ الأختام ، بسبب أقدميته واستحقاقه ،كان أول المعدين للتعيين إذا ما شغرت أبرشية . ويقول الجميع إن الأبرشية التى ستحظى به ستكون سعيدة جداً .

عانق جلينون ستيفن وربت على كتفه . أما مايك سپيد فحيّاه بحرارة مماثلة . وبعد ساعة من التعارف على نبلاء ووجهاء وشخصيات الكاثوليك من بريطانيا الجديدة ، بدأ ستيفن يتطلع حوله فى طلب وجه صبوح يعرفه ، فلم يجده . فسأل حافظ الأختام : « أين ديك كلاراهان » .

فضحك مايك سپيد وقال : « لابد من واحد ليدير أعمال الأبرشية . وهذه هى فرصة ديكى الكبرى ليتمرن على ذلك . انظر يا ستيف ، ها هو ذا واحد من أصدقائك القدماء ، يؤكد أنه يعرفك منذ زمن طويل » .

إنه دولار بل موناجان ، رئيس ستيفن الأول ، عشر سنوات انقضت وأخفقت فى انتزاع تموج الشعر فى رأس موناجان . لم يزل محتفظاً فى سن السادسة والستين بكتفيه العريضتين كبطل فى تصفية الديون ، وبعينيه الفاحصتين كرئيس يسعى إلى العثور على كاهن مساعد .

قبض ستيفن على يد دولار بل وقال : « مرحباً بك فى روما ، يا أبى . كيف حال عربة اللبن فى مولدن ! »

ـــ « لا نزال نقوم بخدمة عملائنا من بيت إلى بيت ، يا ستيفن . أما الكهنة المساعدون فليسوا كما عهدناهم . إن روما اختارت الزبدة » .

ثم تأمل موناجان بعطف ودهشة الشريط المعقود على معطف ستيفن وقال : « ما أجمل معطفك ، أيها المنسنيور! » .

فقال ستيفن : « قد أستغنى عنه فى هذه اللحظة لو حظيت برعية فى مكان ما شمال بوسطن . ألا تستطيع التوسط لدى الكردينال ليطلب نقلى من هنا ؟ » .

مكثا بين الجمع المحتشد على الرصيف يتحدثان عن رعية القديسة مرجريتا ومؤمنيها القدماء ، وعن أخبار إرميا سپلين : إنه فى سنته الأخيرة فى مدرسة برايتون للكهنة ، والأول فى فصله ، والأمل معقود على تخرجه كاهناً صالحاً .

ثم استعلم ستيفن عما جرى لليونز الأبيضانى . فقال موناجان : « آه ، مسكين الأبيضانى ، إنه لا يزال كئيباً » .

يثبت من يثبت من الأقوياء . . .

ويسقط من يسقط من الضعفاء . . .

كان قدوم الكردينال إلى روما أشبه بموكب لورد كنسى تتبعه حاشيته . ما انفك الأساقفة والنواب والوجهاء يدخلون ويخرجون من مقصورة جلينون فى القطار الخاص الذى يسرع بهم شمالا نحو روما . أحسّ ستيفن فجأة بحنينه إلى وطنه أمام هذا الجمع المزدحم من الأمريكان ، وجاشت فى نفسه عواطف رقيقة عند سماع رنين لغته الوطنية وهم يتغنون بنشيدهم الوطنى : « إلى الأبد مع النجوم والأعلام ! »

فرفع ستيفن نفسه بالصلاة سرًّا وقال والقطار يطير به نحو المدينة المقدسة : « أرجعنى إلى وطنى ، يا إلهى . لكن ليس كمشيئتى بل كمشيئتك . فقط أرجعنى إلى وطنى ! . . . »

بدأ عمل ستيفن حقيقة عند وصول الوفد إلى روما . بوصفه ضابط اتصال بين الڤاتيكان ومواطنيه ، قام بتنظيم الزيارات إلى الكاتدرائيات الأربع الكبرى ، والرحلات إلى المعابد المشهورة . تنازل الأب الأقدس فارتضى بإقامة قداس خاص للسياح الأمريكان ، ومنحهم أرفع شرف وأندره وهو أن يتناولوا القربان المقدس من يده . فى الاستقبال الذى تبع الإفطار تحدّث پيوس الحادى عشر بالإيطالية ، وامتدح الكردينال جلينون ونعته بالأخ النشيط النبيل ، فى حين وقف ستيفن بالقرب من قداسته ، وقليلا إلى الخلف كمترجم . امتدح قداسته الكاثوليك الأمريكان من بريطانيا الجديدة لتقواهم الصميمة ، وأشاد بهم لكونهم الفريق الأكبر عدداً والأشد ولاء ، والأوسع سخاء دون شك بين كاثوليك العالم الجديد الذين زاروا روما إلى هذا اليوم .

حققت الزيارة إلى روما آمال الجميع وفخرهم . عين حاكم جزيرة رود عضواً

فى فرسان مالطة، ونال أحد عشر آخرون أوسمة بابوية فى حاشية النبلاء . وكان كورنيليوس ديجان يقوم بوظيفته بكل دقة وعظمة . كان يحضر كل صباح بحلّته الرسمية وسيفه ليتسلم عمله من رئيس الحركة فى حاشية الفاتيكان . فلا بد دائماً من وجود بعض النبلاء تحت الطلب للقيام بما يعهد إليهم من أعمال ، فكان فارس القديس سلفستر يسير بين المواكب العديدة أو يقف زينة فى المكان المحدّد له .

لما انتهى دوره فى الخدمة ، أقام كورنى حفلة عشاء كبيرة فى فندق « قصر ريتس » لمئة من المدعوّين ، مدنيين وكنسيين . ووضع أمام طبق كل مدعوّ بطاقة طبع عليها شعاره وجاء فيها : « يسرنا دعوة سيادتكم لتنزلوا ضيفاً على كورنيليوس ديجان فى رحلة إلى معبد سيدة لورد ، على اليخت الخصوصى "الصليب المقدس"... تفضل بالرد » .

تدفقت الردود كالسيل ، وفى يوم عيد جميع القديسين أبحرت جماعة من وجهاء الأمريكان الكاثوليك ، من ميناء نابولى على أعظم يخت استطاع كورنى حجزه ؛ وعلى سارية « الصليب المقدّس » الكبيرة رفع العلم الأمريكى المجيد ، ومن تحته علم فرسان القديس سلفستر . كانت أوامر كورنى إلى الربان تتلخّص فى هذه الكلمات : « سِرْ شمالا بوقار واتجه نحو مرسيليا » . ولما خرج اليخت من المرفأ ، ظنه ضابط فى الجيش الإيطالى سفينة ملكية فأطلق إحدى وعشرين طلقة مدفع تحية لها .

على الرصيف ، ودع ستيفن مواطنيه وكاد يبكى وحدته وحنينه إلى أمريكا .

* * *

فى يوم عيد الميلاد ، أقفل الباب المقدّس بالطوب لمدة خمس وعشرين سنة أخرى . بعد انتهاء الحفلات ومغادرة السياح روما ، عادت الحياة فى الفاتيكان إلى نظامها الطبيعى .

ذات يوم ، وستيفن يقوم بأعماله المألوفة فى مكتبه ، بعد عيد الغطاس ، دخل عليه فجأة ألفيو كارنجى . كانت زيارات كارنجى نادرة ، وحديثه محدوداً ، لضيق وقته . ودون مقدّمات ، جلس أمين سرّ جمعية الأمور الكنسية

الاستثنائية وتطرق إلى موضوع زيارته .

— « إن الأب الأقدس يتتبع باهتمام بالغ ما تطوّرت إليه الحال بشأن القاصد الرسولى فى واشنجطون . إن الذى يشغل هذا المنصب فى الوقت الحاضر ، رئيس الأساقفة ريانزى ، رجل قدير واسع الاطلاع ، لكن نظراً لما أبداه الكردينال جلينون وآخرون أيضاً من ملحوظات — اتضح أن كارنجى يحاول التعبير عن الأمر فى دقة السياسى المحنك — قد يبدو أن ريانزى فَقَدَ نوعاً ما روح التمازج مع الخلق الأمريكى » .

فتساءل ستيفن فى نفسه عما يبتغيه كارنجى من وراء ذلك .

واستطرد كارنجى لقوله : « إن الكرسى الرسولى ، منذ مدة طويلة قد شعر بضرورة تجديد التقارب فى العلاقات بين الفاتيكان والولايات المتحدة الأمريكية . وقد تقرر استدعاء ريانزى ، وسوف يرقى بالطبع إلى رتبة كردينال . لذلك قد شرفنى قداسته بهذا المنصب فى واشنجطن — وخفض كارنجى عينيه تواضعاً — والمنصب يستدعى ترقيتى إلى رتبة رئيس أساقفة » .

قفز ستيفن على قدميه : « ألف مبروك، يا ألفيو . قاصد رسولى فى الولايات المتحدة ! . . . ما أعظم هذا الشرف ! تصوّر روعة العمل الذى ستقوم به هنالك » .

— « لا شك فى أن حقل العمل واسع جدًّا ، ويحمل بين طياته مسؤوليات جساماً ومخيفة — والتقت نظرة كارنجى الثابتة التى لم تعرف الخوف بنظر ستيفن على مستوى واحد ، واستطرد لحديثه قائلا : — إن الأب الأقدس منحنى أيضاً امتياز اختيار مساعدىّ . هل تأتى معى إلى واشنجطون ، يا ستيفن ، كمساعدى ومستشارى الخاص فى الأمور الأمريكية ؟ »

عقدت المفاجأة لسان ستيفن من شدة فرحه لمجرد فكرة رجوعه إلى أمريكا ، وضخامة العمل المرتقب . وكفارس يمسك بمقبض سيفه ولاء لرئيسه ، وضع ستيفن يده على كتف كارنجى .

بعد مضى أسبوع عين بيوس الحادى عشر ألفيوكارنجى رئيس أساقفة على ميتيلينا وعانقه بعطف قبل سفره إلى الولايات المتحدة . وأوصى الحبر الأعظم مبعوثه قائلا : « إن دعاءنا ورغبتنا إليك أن تبرهن للجميع صدق وكمال العمل الذى

تقوم به سفارة روحية فى بلد تختلف فيه المذاهب الدينية والآراء السياسية » .

* * *

أول ما وقع عليه نظر ستيفن عند عودته إلى وطنه أرصفة الميناء فى مانهاتن وقد برزت بين العواصف الثلجية ، فى حين كانت باخرة شركة « كونارد » تشق طريقها بمشقة فى نهر الشمال . على الرصيف ، استقبل القاصد الرسولى وفد من الأساقفة الأمريكان وقد ارتدوا معاطفهم الثقيلة ، وعلى رأسهم الكردينال پاتريك هايس . وفى أثناء مراسيم الاستقبال بدأت أسنان كارنجى تصطك من شدة البرد الذى لم يعهده من قبل . فهمس الكردينال هايس فى أذن أحد مساعديه المرتدى معطفاً بفروة دافئة وقال له : « لو مكثنا هنا دقيقة واحدة أخرى فسيتجمد زائرنا العزيز تماماً . لنذهب به حالا إلى البيت » .

أسرع الموكب الصغير فى ثلاث سيارات ليموزين سوداء يتقدّمه ويحيط به فريق من دراجات الشرطة ، إلى مقر الكردينال فى شارع ماديسون ، المعروف لدى العامة باسم « بيت السلطان » .

بينما اختلى كارنجى فى حجرته لينعم بقسط من الراحة قبل العشاء ، توجه منسنيور ذو شعر متموج يدعى فرجوس كارول إلى ستيفن ليهتم بشؤونه . كان المنسنيور كارول خرّيج مدرسة الصليب المقدّس وهو الآن عضو فى مجلس كهنة الكاتدرائية . فسأل ستيفن :

— « هل لك رغبة فى شىء مدة الساعة أو الساعتين قبل العشاء ؟ »

فأجاب ستيفن : « ما أظرف هذا السؤال توجّهه إلى رجل لم يرَ يورك الجديدة من قبل . إن ما أريده حقيقة هو تحريك قدمىّ قليلا والسير فى أنحاء المدينة » .

— « سأقترض لك زوجاً من أحذية المطاط العالية فالثلج كثير فى الطرقات » .

خرجا والهواء شديد قارس ومقياس الجوّ يدلّ على سبع أو ثمانى درجات فوق الصفر ، وسارا والثلج المتجمد يتكسر تحت أقدامهما على رصيف الشارع الخامس ولم يكن قد نظّف بعد من الثلج المتساقط عليه . وكانت حركة المرور فى يورك الجديدة حثيثة متشابكة كما هى الحال دائماً قرب المساء . كان الثلج المتساقط أشبه بغشاء شفاف منقّط يتقاذفه الهواء ، وبدت السيارات العامة و(التاكسيات)

مشلولة الحركة من شدة تزاحمها ، وساد الشارع هرج ومرج من أصوات الأبواق وهدير السيارات وصفارات عساكر المرور . فى وسط هذا الازدحام أسرع ستيفن وفرچوس الخطى يتنقلان من رصيف إلى رصيف . ومع ذلك ، بدت الحياة شائقة فى يورك الجديدة هذه التى تختلف تماماً عن روما الكسول الخاملة . بلغ سرور ستيفن أشده وهو يستنشق هواء وطنه العذب ونتف الثلج تصفعه على خده .

ثم نبتت فيه رغبة إلى شيء حلم به طويلا . فلما قربا من الشارع الثانى والأربعين سأل فرچوس: « هل توجد " صيدليات " بالقرب من هنا ؟ »

— « بالطبع . إن حىّ المحطة الكبيرة المركزية يغصّ بها . ماذا تريد ؟ »

فأجاب ستيفن : « لا تضحك منى . لكنى أتوق إلى مثلوج بالتوت والصودا . وأريده قويًّا ، وهذه الرغبة تثور فىّ منذ سنين » .

— « أتأكله وأنت جالس إلى المائدة أم وأنت مرتفع على كرسىّ ؟ »

قفز ستيفن إلى أحد المقاعد العالية ورشف طبقه بواسطة أنبوبتين رفيعتين ، وحينئذ فقط تيقن أن نبض الحياة فى بلاده سليم .

ثم توغلا فى شارع ماديسون حتى الشارع الخمسين فسأله فرچوس : « ما قولك فى زيارة قصيرة قبل العشاء ؟ »

أدرك ستيفن مراد رفيقه . فدخلا معاً من باب جانبى إلى الكاتدرائية ووقفا هنيهة صامتين فى الممر الجنوبى بين ظل الشموع المضاءة . ثم تقدّما نحو الهيكل ، وركع ستيفن عن يمين الهيكل ورفع نفسه بصلاة شكر قصيرة ، ثم طلب طلباً واحداً بسيطاً : أن ينجح ألفيو كارنجى فى مهمّته .

بعد السابعة بقليل اصطحب الكردينال المضيف نفسه ضيفيه : كارنجى وستيفن إلى حجرة المائدة . حسب المراسيم المألوفة التى تقضى بتحضير المائدة لاثنى عشر رجلا ، أو ربما مراعاة لعادة أقدم أيضاً فى هذا الشأن ، صفت المائدة لاثنى عشر ضيفاً من جميع الرتب الكنسية . رأسَ الكردينال المائدة وجلس إلى يمينه رئيس الأساقفة كارنجى وعن يساره أسقف يورك الجديدة المساعد . ساد الحفل بساطة فى المعاملة بدلا من جمود المراسيم والتشريفات . بدأ نيافته صلاة المائدة ثم التقط ملعقة وشرع يتناول حساء كثيفاً من الخضر . ثم قدّموا لحماً مشويًّا

ومرقاً ، وكثيراً من البطاطس المحمّرة ، لكن دون « سلطة » ؛ والحلوى: هريسة تفاح وقهوة ؛ ثم سيجاراً لمن يرغب .

دار الحديث فى حدود التعقّل . لم يرتفع نحو المناقشات الفلسفية ولم تُحك سوى قصة واحدة عن الكهنة . لكن المناقشة دارت حول تنظيم المؤتمر القربانى القادم فى شيكاجو ، والمضايقات التى تعانيها الكنيسة فى مكسيكو ، والعناية الفائقة التى توليها بعض المدارس الكاثوليكية لكرة القدم . استفسر كارنجى عن صحة الكردينال دوجيرتى وامتدح العمل العظيم الذى قام به أسقف فيلادلفيا فى الفيليپين .

ظن ستيفن لما له من معرفة بذكاء كارنجى الواسع أن صديقه سيبهر الحضور بروائع كلامه . لكنه بدأ يدرك فى أثناء الحديث أن القاصد الرسولى يتعمّد ترك مقاليد الكلام لمضيفه . ولما لم يكن الكردينال هايس عقلا فذًّا ، ولم يدّع ذلك يوماً ، فقد جاراه كارنجى إلى أقصى حدّ . لأنه لم يكن فى نية المبعوث البابوى الظهور على الأمريكان سواء بجاذبيته الشخصية أم بمعرفته الصحيحة للشؤون الرومانية. أجاب بصراحة ولطف عن جميع الأسئلة التى وجهت إليه ، لكنه لم يفصح عن أى مشروع ولم يعلن عن شىء إلا ما جاء ذكره فى صحيفة المراقب الرومانى ، لو تحرى الأمر قارئ فطن . قبل نهاية المأدبة بوقت طويل ، أدرك ستيفن أن تواضع كارنجى وحذره خلقا شعوراً رقيقاً بين الحضور . مع ذلك ، فقد كانوا فى انتظار شىء ما منه .

لما خرج المدعوّون وتوجّهوا إلى مكتبة الكردينال لتناول القهوة،همس ستيفن فى أذن صديقه : « أعتقد أنهم ينتظرون منك أن تفصح لهم قليلا عن مشاريعك » .

فأجابه القاصد الرسولى بنظرة خاطفة من عينيه العسليتين اللامعتين أودعها هذا القول : « سأحاول ألا أخيّب ظنهم » .

كانت المكتبة بأرففها المرصوفة كتباً ، ونارها الدافئة ومقاعدها الجلدية المريحة ، خير مكان للاجتماع ولما سيدور من حديث . شرع كارنجى يجذب إليه بقوة شخصيته الأساقفة الأمريكان ، فى صوت عذب سلس تذكره ستيفن منذ أيام دراسته . تكلم عن الحزن الذى يحز فى نفس الأب الأقدس بسبب الحياة الكئيبة التى يعيشها البشر . ثم ، كعادته عند توسعه فى شرح فكرة أو التبسط فى موضوع ،

انتصب كارنجى واقفاً وشرع يجوب الحجرة فى هدوء بالقرب من المدفأة ، حيث أقيمت على أحد جانبيها كرة أرضية كبيرة تبين معالم البلاد . وكان كارنجى فى أثناء حديثه يدفع الكرة بيده فى لطف فتدور على محورها . وبعد لحظة ضغط على حركتها بخفة حتى استقر رسم إيطاليا تحت راحة يده . ثم قال :

— « هذه إيطاليا ! . . . أم الحقوق ، محور الثقافة ، رائدة الفنون ، منبهة أوربا من نومها ! . . . ولقد جاء هذا التنبيه ، يا أصدقائى بأروع النتائج وأبعدها أثراً . لأن أوربا اليوم أصبحت ساحة تعترك فيها أجناس البشر ، تتنابذ وتتنافر فى حرب سياسية واقتصادية . وقد شطرتها ومزقتها رواسب من العصبية والوطنية الزائفة ، حتى إن المرء الراسخ العزم قد لا يجد فيها موطئاً لقدم . — وهزّ كارنجى رأسه فى أسف وقال : — إنى أوربّى ، وأحبّ ثقافات إيطاليا وألمانيا وفرنسا ، فهى خمير ثمين لا يقدر بمال سوف يخمّر عجيناً آخر جديداً . غير أننى ، بكل صدق وأمانة ، لا أستطيع القول بأن مستقبل المدنية مرهون نموّه فى قارة أضناها التعب والانقسام كأوربا » .

ثم تحركت يد كارنجى نحو الشمال الشرقى وقال : « وهذه روسيا — أو البلاد الروسية ، كما اعتدنا تسميتها — بلاد ممتدة واسعة انطفأت فيها كلمة الله بأمر الحكام . فى السنة الماضية أرسل قداسته خمسين كاهناً مبشراً ، كأنهم شموع موقدة ، إلى هذه الأرجاء المظلمة . ثم علمنا أن ألسنة النور هذه قد أخمدت جميعها ، ولا يوجد من هذا الفريق الباسل رجل واحد على قيد الحياة . وفى هذه السنة سيرسل مئة آخرين إلى هناك . وهم أيضاً ، سيذوقون شرف الاستشهاد » .

ثم وجه المبعوث الرومانى سؤالا ألبسه شكلا لاتينيًّا يتطلب ردًّا سلبيًّا : « هل يستطيع العالم التطلع فى أمل نحو روسيا كرائد فى الديانة على حين لا يزال كفر لينين يسيطر على البلاد ؟ »

ثم دفع الكرة ثانية فدارت : « وهذا هو العالم الجديد . ماذا يمكن قوله عن أمريكا الجنوبية ؟ مع أن الإيمان السائد هناك هو الإيمان الكاثوليكى ، وهو قوى ومزدهر ، إلا أن أبناء الكنيسة المخلصين هؤلاء تتنازعهم أوبئة المشاكل الاقتصادية والسياسية . وما أسعدهم حظًّا لو استطاعوا حفظ إيمانهم الأول الذى لم يسمح

— و يا للأسف — لإخوانهم المكسيكيين بالاحتفاظ به » .

ثم بسط القاصد الرسولى راحته ووضعها على رسم الولايات المتحدة التى تشبه الدرع فى تقاطيعها ، ثم تحسّسها كرجل يستلطف ويستعذب تفاحة حمراء بين يديه وقال : « هذه هى الأرض التى تخيلتها مراراً . ما الذى لا نرجوه من بلد أسبغ الله عليه بركاته وأفاض ؟ لا أعنى بذلك الحديد فى طيات تلالكم ، أو الفحم فى مناجمكم . أو القوة الهائلة التى تولدها أنهاركم وآلاتكم ، كلاّ ، بل أعنى تلك الروح المنبثقة من شعبكم ، روح التضامن والإخاء والاختراع الأمريكى ، روحاً مؤسسة على ثقة النفس فى مستقبلها » .

تبلور حديث كارنجى فأصبح جسراً بين الحاضر والمستقبل ، حتى خيّل إلى مستمعيه رؤية أمم وديانات تعبر عليه فى هجرة واسعة نحو هدف إلهى . فقد صور لهم كارنجى هذا الأمر العسير حقيقة واقعة . وفى ختام حديثه كشف لهم عن طبيعة مهمته بين الكاثوليك الأمريكان وعن مسؤولياتهم نحو المستقبل ، فقال :

« لم يرسلنى الأب الأقدس إلى بلدكم بنية التسلط عليكم وقهركم . إنى آتى إليكم ، ليس كرجل فضولى أو كمراقب ، بل أتيت لأذكركم فقط بأن العالم يتطلع إلى كاثوليك الولايات المتحدة ليذكى شعلة الروح التى تكاد تخمد الآن فى العالم . فإذا ضعف نوركم ، فهنالك خطر على العالم من انتشار ظلام دامس » .

لم يسمع قط أحد بين الحضور مثل هذا التصريح فى الإيمان والأمل . مكث الجميع فى صمت طويل يناجى كل واحد أفكاره ومشاعره الملتهبة بهذا الحديث . وإذا بصوت الكردينال پاتريك هايس يعبر ببساطة ووضوح ، باسم الجميع ، عن ترددهم ومخاوفهم ، فقال :

« إنك تضع على كواهلنا حملا ثقيلا ، يا صاحب السيادة . فقد تضعف قوانا ، أو يخبو نورنا » .

كان كارنجى يعلم تماماً حقيقة الموقف ، فلم ينكر صدق تصريح الكردينال ، فأجاب : « قد يجوز ذلك . إنما " لن يضير المرء شىء — كما أوضحه سقراط منذ غابر الزمن — إذا ما تطلع إلى المثل العليا فى المحبة والحكم والتربية " » .

* * *

لم ينم ستيفن تلك الليلة إلا قليلا ، مع أنه كان متعباً . أرّقته نشوة شعوره بوجوده فى وطنه مرة أخرى ، وحماسة كارنجى وبلاغته ، وإدراكه بأن باباً جديداً قد فتح من العلاقات بين روما وأمريكا ، حتى أمسى يتلهّف على اليوم الجديد أن يطلّ . نهض نحو الثالثة صباحاً يسرح طرفه من النافذة فى المدينة العظيمة وهى ترقد فى صمت تحت غطاء من الثلج . فمد يده والتقط حفنة من تلك المادة البيضاء الثمينة التى تكسب الجو الأمريكى صلابة ، والخلق الأمريكى شجاعة . ثم انبثق ضوء من مصباح فى الطريق فتألق الثلج كالبلّور فى النار ، ولمعت نتف الثلج كالشهب المتجمدة – إنها الشعلة التى تمناها كارنجى لتتغلّب على سلطان الظلام .

صنع ستيفن بيديه العاريتين كرة من الثلج ومسح بها جبهته فداعبته رقّة برودتها . ثم حرّكه دافع كان يدفعه منذ أيام الطفولة ، وشعر بحاجة ملحّة إلى قذف كرة الثلج على هدف ما . على عمود المصباح ؟ كلاّ ، فقد كان فى زاوية لا تسمح بالوصول إليه . فتفرّس فى غشاء الثلج الشفاف ، فرأى سهم قبة كاتدرائية القديس پاتريك يبعد كثيراً نحو الغرب . فساورته لحظة فكرة صبيانية بالحصول على سلاح يمكنه من قذف أحد أبراج الكاتدرائية . ما أعذبها لعبة ! . . .

تبخر الحلم كذرّة فى الفضاء . فقذف ستيفن كرة الثلج من النافذة وراقب خط سيرها وهى تسقط بريئة على رصيف الطريق . ثم قذف بكرتين أخريين ، وملأ رئتيه من الهواء البارد ، وقفز إلى سريره هادئ الفكر مرتاح الأعصاب واستغرق فى النوم .

* * *

اليوم ١٧ من فبراير سنة ١٩٢٦ . قد لا يذكر هذا اليوم فى التاريخ ، لكنه قد يدل دلالة واضحة على الحقبة التى وقع فيها .

كان العمدة چيمس ولكر المصاب بزكام يقضى إجازته فى « مدينة الأطلسى » (أتلانتيك سيتى) .

قام فرنالد ، عضو مجلس الشيوخ ، من مقاطعة مين ، بحملة أخيرة شديدة ضدّ دخول الولايات المتحدة جمعية الأمم .

رفض الرئيس كوليدچ تخصيص مبلغ نصف مليون دولار لترميم سطح البيت الأبيض .

قام القس إمبرينجهام بجولة فى مقاهى يورك الجديدة معلناً أن قانون منع بيع الخمور وصنعها هو خيبة أمل أليمة .

أعيدت على بساط البحث مسألة سرقة الحقيبة الإسبانية .

أدخل حديثاً فى تشريع ولاية يورك الجديدة قانون جديد يحدد ساعات العمل للنساء والصغار بثمان وأربعين ساعة فى الأسبوع .

اشترى صموئيل إنسول حقوق الإشراف على سكة حديد شيكاجو وأوروا وإلجين .

أمّن رجلان مجهولان ، يدعى كل واحد منهما هوفمان ، على مخيّهما بمبلغ ستة ملايين من الدولارات .

أجّر فى ذلك اليوم مقعد فى بورصة عقود يورك الجديدة بمبلغ مئة وثمانية وأربعين ألف دولار .

تشاجر الناس على مشترى أراضى البناء فى ميامى بمبلغ ثلاثمئة دولار للقدم المسطحة .

فى ولاية ديلاوير المستقلة أعيد التأديب بالجلد للحدّ من موجة الإجرام المتزايدة .

وأخيراً فى « ميناء ابن كيز » (مكّيز پورت) بولاية پنسيلڤانيا ، كان الأدڤنتيست السباعيّين يبشرون بنهاية العالم القريبة .

بني مقر المندوب الرسولي إلى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٢٦ ، من حجر الكلس على ثلاثة أدوار ، فى رقم ١٨١١ ، بشارع بيلتمور الشمالى الغربى ، فى واشنجطون من ولاية كولومبيا .

قام الأساقفة الأمريكان بادخار جزء من رصيد أبرشياتهم واتفقوا على بنائه ، ثم قدموه هدية إلى الكرسى الرسولى عربوناً لولائهم . وفق المهندس إلى جعل مقرّ المندوب الرسولى شبيهاً بمفوضية ، وهكذا ظهرت حقّاً من الخارج ، مفوضية كنسية ليس إلا . بل إنها سفارة تتعامل ، ليس مع الحكومة المدنية ، بل فقط مع الرئاسة الروحية التى تدير شؤون الكنيسة الكاثوليكية فى الولايات المتحدة .

فى مايو سنة ١٩٢٦ ، بعد مضىّ بضعة أشهر على شغل رئيس الأساقفة ألفيو كارنجى منصبه ، جلس فى حجرة مكتبه المبطن بخشب السنديان ، يكتب رسالة إلى قداسة البابا پيوس الحادى عشر . لم يكن تقريراً ، بل رسالة شخصية تجمع بين سرية الأمور وأهمية الموضوع فى إنشاء مؤدب رفيع ، فى مقادير متساوية . كتب خمس صفحات كبيرة بخط صغير يجيده السياسيون المدرّبون ، وقد يكتب خمس صفحات أخر قبل ختام رسالته . فى منتصف الصفحة السادسة بدأ يكتب :

« لا يزال سرّ الخلق الأمريكى يحيرنى . فهذا الشعب يفيض قوة مادية وحيوية لم يجد لها بعد ، على ما أظن ، تطبيقاً كاملاً أو أقله مرضياً . إن تقدمهم الذى لا مثيل له يظهر فى صناعتهم الدقيقة الواسعة التى بلغت أعلى درجات الكمال . وقد توصّلوا ، بفضل آلات تثير الإعجاب ، إلى نظام مدهش من الإنتاج والمقايضة سيمكنهم من خلق ثروة طائلة . مع ذلك ، فقد خلقت هذه الصناعة مشاكل بعيدة الأثر فى حياتهم الخاصة وسياستهم الوطنية . وإذا لم تُسوّ هذه المشاكل ، فيخشى عليهم من تفكك

روح التضامن بينهم فى مستقبل غير بعيد . . . »

ثم أعاد ألفيو كارنجي قراءة ما كتب ، وبدأ صفحة جديدة :

« لقد بدأت أدرك أسباب الصعوبات التى أقلقت سلفى العظيم . يوماً بعد يوم يظهر لى بأكثر وضوح أن الكرسى الرسولى يواجه وضعاً خاصًّا تجاه أساقفة هذا البلد الديموقراطى المزدهر ذى الوطنية الفياضة . ليس معنى قولى أن الرؤساء الروحيين الأمريكان غلاظ الرقاب أو متمردون . كلاًّ ، فالأساقفة الذين أتوا لتقديم احترامهم إلى شخص مندوبكم يكنّون أصدق وأعذب الولاء لروما ، ولا غبار على إيمانهم القويم ، وقد تأثرت جدًّا بسخائهم وكرمهم . لكنى صعقت فى نفس الوقت من روح التحرر التى جعلت من هذا الشعب العجيب ما هو حقيقة فى الواقع ، أى بكلمة واحدة ، أمريكيًّا .

« نقطة واحدة لا تقبل الكنيسة الأمريكية فيها نقاشاً وهى انفصال الكنيسة عن الدولة . ربما يعبر عن موقفهم أصدق تعبير ما قاله الكردينال الراحل العظيم جيبونز : " إن الكاثوليك الأمريكان مسرورون بانفصال الكنيسة عن الدولة . . . ويتضح لنا أن هذا الوضع هو الوضع الطبيعى الضرورى وأحسن ما يمكن تخيله من نظام " . — إنى ، وإن لم أكن مضطرًّا إلى اتخاذ هذا الرأى ، أواصل التنقيب عن أسسه بين طيات الخلق الأمريكى وتاريخه . وقد ساعدتنى مؤلفات كثيرة فى دراستى هذه ، يمكننى ذكر بعضها : " الكومنويلث الأمريكى " بقلم اللورد برايس ، " الحكم النيابى " لوودرو ويلسون ؛ وبالطبع جميع المستندات والنشرات التى تمتّ بقريب أو بعيد إلى المجامع الجزئية أو العامة » .

ثم بدأ كارنجي صفحته السابعة ، وهو غارق فى أفكاره :

« إن مركزى فى هذه البلاد دقيق للغاية . علىّ ، فى جوهر مهمتى ، الاستمرار فى مراقبة تقدّم الكنيسة وثباتها ، وفى الوقت نفسه لا أدخر وسعاً فى المحافظة على سلطة الأساقفة الأمريكان غير منتقصة . إن ماينقص فى هذا البلد هو وضع تشريع للمعاملات يستطيع خدمة الجهتين فى علاقتهما.

وقد وجّهت جهدى لتدبيج مثل هذا التشريع ، ليكون بمثابة هيكل يضم تلك القوى الزاخرة بالحياة التى تتدفق بين روما وكاثوليك الولايات المتحدة » .

ثم ألقى المندوب الرسولى نظرة قصيرة على لوحة لوينى الرائعة : « المسيح يناقش فى الهيكل » ، المعلقة أمامه على الحائط ، ثم استطرد لقوله :

« قد بدأت أدرك أن انفصال السلطتين الأساسى له مزايا عملية عديدة . مع أن الحكومة المركزية لا تمنح الكهنة إعانات ، فهى أيضاً لا تتدخل فى تعيين الأساقفة أو فى تربية الأحداث التربية الدينية . إن الحرية الدينية والسياسية تسير هنا يداً بيد محفوظة ومسندة إلى فقرة من الدستور الأمريكى ينص فيها على أنه : " ممنوع ألبتة الاستعلام عن ديانة الطالب كمؤهل إلى وظيفة ذات منفعة عامة " . — مع أن الاعتقاد بعدم وجود التعصب الدينى قد يبدو ساذجاً ، فقد وجدت أن هذه الفقرة تأتى بنتائج فعّالة فى مقاطعات كثيرة من هذه البلاد . فعلى سبيل المثال ، أن حاكم ولاية يورك الجديدة الحالى ، سعادة السيد ألفريد سميث ، هو كاثوليكى رومانى ، وقد انتخب ثلاث مرات لهذا المنصب باشتراك أصوات الناخبين من يهود وكاثوليك وبروتستان .

« وإذ أذكر البروتستان ، فستسرّون قداستكم بالاطّلاع على محاولتهم الجارية فى جمع طوائفهم العديدة (٢٥٠ على ما أعتقد) فى جبهة واحدة . غداً تبدأ جمعية الإيمان المشترك ، وشعارها دون شك هو عدم التعصب ، وتعقد اجتماعها فى مدينة يورك الجديدة . وقد دعى مندوبون عن كل الملل لحضور هذا الاجتماع . وتسلّمت دعوة لطيفة للحضور شخصياً وارتبكت نوعاً ما فى قبولها . إلا أنى سأتمسك بقواعد اللياقة وسأبعث بالمنسنيور ستيفن فرمويل إلى هذا الاجتماع كمندوب مراقب فقط .

« وإذ أذكر المنسنيور فرمويل ، يطيب لى أن أعرف قداستكم بالعمل الهائل الذى قام به مدة الأسابيع الأولى العصيبة ؟ إنه يعمل معى

كمساعد ، وساع ، ومستشار ، وقد أظهر شجاعة فائقة فى تحمل الصدمات التى تعترضنى فى عالم لم آلفه بعد . وإذا ما طلب محررو الصحف مقابلة ، فالمنسنيور فرمويل هو الذى يحقق رغباتهم ويجيب عن أسئلتهم . وقد رافقنى فى زيارات المجاملة إلى مجلس الدولة وسفارات البلاد الأجنبية . وأثمن من كل ذلك أنه أطلعنى على الطباع والأخلاق الشخصية الخاصة (وبعضها غريبة جداً بسبب اختلاف المواطن) التى يتميز بها كل من الخمسة عشر أسقفاً أمريكياً الذين حضروا لتقديم احترامهم إلى مندوبكم . ولا أكاد أعلم حقاً ماذا كنت أفعل دون مساعدته القيمة ... »

وأين كان فى هذه الساعة مستشار رئيس الأساقفة كارنجى ، ومساعده والمدافع عنه ، المنسنيور ستيفن فرمويل ؟ ولماذا ؟ لقد كان فى حجرة مجاورة يستمع بصبر إلى شكاوى الأب بيتر مورقوناس ، وهو راع ليتوانى ، اختلف مع رئيسه الألمانى ، فرانز چوزف شفابوير ، أسقف « مدينة ستوبن » من أوهايو .

كان الأب مورقوناس يريد بناء نادٍ وراء الكنيسة ، وقدّم لذلك بعضاً من اثنى عشر سبباً للقيام بهذا العمل ، ومن بينها ألعاب كرة السلة واللعب بالورق والأسواق الخيرية وحفلات المناولة الأولى . لكنه مع سرد احتياجاته أغفل بحذر ذكر تعهداته المالية التى كان مرتبطاً بها . ولما حصره ستيفن بأسئلته وناقشه اتضح أن كنيسة الأب مورقوناس تنوء تحت ثقل دين صغير — شىء تافه تماماً — وبالتدقيق ، ضماناً للحقيقة ، مبلغ فى حدود ثلاثة وثلاثين ألف دولار .

— « وما هى — سأل الأب مورقوناس — ثلاثة وثلاثون ألف دولار فى أوقات زدهرة كالتى نعيشها ؟ »

— « قد لا أثق بالأزمنة كثيراً ، أيها الأب » ، أجاب ستيفن وهو يسترق النظر إلى الساعة فى معصمه ، إذ عليه فى أقل من ساعة أن يلحق بقطار النواب المخصوص إلى يورك الجديدة . ثم قال للأب مورقوناس :

— « سواء كانت الأيام جيدة أو شريرة ، فليس للمندوب الرسولى سلطة للتدخل فى هذا الأمر ، الذى يعود إلى اختصاص السلطة المحلية فى الأبرشية . إن الأسقف شفابوير هو الحكم الوحيد والأخير فى أمر ناديك: أتستطيع بناءه أم لا تستطيع؟ ».

سأل الأب مورقوناس وقد أخذته الدهشة :

– « لكن ألا يستطيع المندوب الرسولى تجاوز سلطة الأسقف المحلى ؟ » .

– « كلا . ففيما يتعلق بإنفاق أموال الأبرشية ، ليس للمندوب الرسولى صوت فى ذلك » .

بدأ الشك والقلق يساور الراعى الليتوانىّ . فأخرج من جيبه منديلا قد هربت منه النظافة ومسح به جبينه المتفصّد عرقاً ، وقال : « إنك لن تخبر الأسقف شفابوير أنى أتيت إلى هنا – وأنى حاولت تجاوز سلطته ؟ »

فأجاب ستيفن : « إنك لم تتجاوز سلطة أحد . كل ما فى الأمر أنك أتيت إلى هنا لتستعلم عن حقوقك . أو ربما أتيت لتزور سيادته . هل تود تقديم واجب الاحترام له بنفسك ؟ – وأضاف ستيفن مشجعاً – ألا تعلم ، أن سيادته يتكلم اللغة الليتوانية » .

فى المقابلة القصيرة بين المندوب الرسولى والراعى المجهول من « مدينة ستوبن » ، لم يتناول الحديث أموراً تهز العالم اهتماماً . فقط سأل كارنجى الأب مورقوناس عن مسقط رأسه فى ليتوانيا . ولما أجابه الراعى : « سيولياى » ، تذكر كارنجى أنه سمع يوماً هنالك أجراس الكنيسة فقال للأب : « كان أحد الأجراس من البرونز وصوته رنّان . أما الجرسان الآخران ، على ما أتذكر ، فكان صوتهما ضعيفاً » .

فقال الأب مورقوناس : « قد سرق الألمان جرسين من أفضل أجراسنا فى سنة ١٩١٤ . والأصوات التى سمعتها ضعيفة بالنسبة للتى كانت من قبل . آه ، ليت سيادتكم سمعتم الأجراس الثلاثة الأصلية » .

بعد خمس عشرة دقيقة عاد المندوب الرسولى إلى كتابة رسالته الخاصة إلى البابا . ووقف الراعى الليتوانى فى شارع كونكتيكت وقد أخذه العجب من أذن رجل قد حباها الله بمقدرة على سماع جرس الكنيسة مرة واحدة ، وعلى وصف رنينه بعد عشر سنوات . أما المنسنيور ستيفن فرمويل فودع رئيسه وداعاً حاراً ، وركب قطار النواب الخاص فى طريقه إلى يورك الجديدة لحضور جلسات جمعية الإيمان المشترك .

* * *

كان نصف أماكن عربة البولمان خالياً . فني سنة ١٩٢٦ ، لم يكن سيل الركاب بين واشنجطون وسائر أنحاء البلاد قد بدأ اندفاعه بعد . شعر ستيفن وهو ينعم بقسط من الراحة على كرسي في مقصورته أنه عاد تلميذاً إكليريكيًّا في يوم إجازة . للمرة الأولى منذ عودته إلى أمريكا حظي بنصف يوم راحة بعد الظهر . فراقب المناظر الطبيعية تجرى أمامه بسرعة ، في حين تدقّ عجلات العربة دقات خفيفة منتظمة . ثم شرع يتصفح جريدة « الزمان » وهو في أطيب حال من حسن الهضم بعد الغداء .

الأخبار عديدة متنوعة : الأوراق المالية والأسواق التجارية في ارتفاع مستمرّ . أعلن هربرت هوفر أمين سرّ الغرفة التجارية أن إنتاج السيارات ضرب رقماً قياسيًّا جديداً وجّه فريق من الشيوخ من المنطقة الغربية الوسطى لوماً إلى الرئيس كالفين كولدج لرفضه مساعدة المزارعين الذين يواجهون أسوأ هبوط في موسم الزراعة منذ سنة ١٨٤٥ . اكتفى كولدج بنصح المزارعين بتنويع مزروعاتهم ومحصولاتهم ، ثم طفق يمتدح مآثر الجنرال كاستر . . .

« جرترود إيدرلي » تستعد لعبور القناة الإنجليزية سباحة . عارض الأسقف « ليونارد » من الكنيسة الأسقفية الميثوديستية انتخاب آل سميث مرشح الحزب الديموقراطي وأعلن قائلا : « لا يجوز لمن لثم خاتماً من أتباع البابوية أن يرشح نفسه لوظيفة في البيت الأبيض » . أعلن الساحر « إيفانز » السامي المقام ، إذ كان يرئس اجتماع « عشيرة الكوكلوكس » ، بأن الإخوة الملثمين سيسيرون في استعراض كبير (دون قناع) في شوارع واشنجطون . نبأ من إلينويز يصف الإخفاق الذريع الذى أحاق بالتدابير المشددة التي اتخذت لإقرار قانون منع بيع الخمور وصنعها في مقاطعة كوك . بفضل انتخابات مزوّرة توصلت عصابة « آل كاپوني » إلى الإشراف الفعلي على أداة الحكم في مدينة شيكاجو .

على الصفحة الدينية . صورة تبين « إيميه سامپل ماك فرسون » مرتدية ثوباً طويلا أبيض تخطب في انجذاب والإنجيل بيدها ، في جمع غفير احتشد في هيكل بمدينة الملائكة (لوس أنجلوس) . من مدينة أجوام ، بولاية جزيرة رود ، توالت أنباء عن « أوتيس كوبرلي » ، وهو صبيّ في الخامسة عشرة ، انحدر من

على العمود الذى ظل ماكثاً فوقه عشرة أيام وإحدى عشرة ساعة ، وتسع ثوان ، وعند نزوله اجتمعت الفرقة الموسيقية وعزفت لبطولته . فى فيلادلفيا ، تربع أعضاء شيعة « عبادة الماء » الواسعة الانتشار ، فى ماء ساخن ، ولفوا حول رؤوسهم مناشف مبللة بماء بارد ، وحصروا أفكارهم فى انتظار رد « سيد الماء » على أسئلتهم المعقدة .

ألقى ستيفن الجريدة وحاول جمع نتف الأنباء هذه فى سياق معقول . ماذا ألمّ بالبلاد ؟ إما أن جريدة الزمان أخطأت فى جمع الأنباء ، وإما — ما أتعس هذا الافتراض ! — أن الشعب الأمريكى راح يبعثر مواهبه فى خزعبلات صبيانية .

ثم التقط ستيفن جريدة « بريد مساء السبت » . ما أضخمها ! مئتا صفحة من الورق المصقول ، مليئة بالأنباء والقصص الصغيرة والمقالات الرائعة لأعظم كتاب أمريكا — كل هذا بمبلغ خمسة سنتات. أهمل ستيفن الجزء الأدبى . وطفق يتصفح صفحات الإعلانات فوجد عالماً براقاً تفتح على شفاه ناعمة لمعت بينها أسنان كالدرر وافترت عن ابتسامات فاتنة ولذة شاذة . فى حجرة طعام مضاءة بالشموع تتألق فيها قطع الكريستال والفضيات وقف خادم فى حلته المزركشة يحمل بخفة وفخر على طبق علبة من الفاصوليا البيضاء المحفوظة فى حين يحاول المدعوون قمع سيل لعابهم وهم ممسكون فى أدب جم بفوط يقربونها من شفاههم . امرأة ذات نهدين مغريين برزا من وراء قميص نومها الفرنسى الشفاف مستلقية على ظهرها فوق سرير أبيض كالثلج تتنهد بابتسامة عذبة وتقول : « تجدون عند يومسوتا مفارشى الناعمة من الساتان بأسعار رخيصة تثير العجب العجاب » . فى مطبخ يلمع نظافة وقفت ربة بيت رابطة الجأش تعد طعام سهرة الأحد لثمانية من الزوار فاجأوها بقدومهم ، وهى تشير إلى علبة من اللحم المحفوظ من صنف « النجوم الخمسة » ، وفى يدها الأخرى فتاحة للعلبة . رجل أعمال واسع النفوذ يشير بأصبعه رأساً إلى ستيفن ويصرخ : « أريد رجلا أدفع له خمسة آلاف دولار فى السنة . هل عندك مؤهلات تمكنك من قبول عرضى ؟ »

كان ستيفن لا يزال يحدس بهذا العرض عندما دخل من عربة الأكل رجل فى بذلة لامعة وجلس فى المقعد القريب من ستيفن . نجح القادم الجديد فى التأثير على الحضور حتى خيل لهم أنه مدير شركة البولمان ، وليس هذا فقط بل ظُنّ

أيضاً أنه مدير سكك حديد پنسلڤانيا ، وشركة الهاتف والبرق الأمريكية ، وشركة الولايات المتحدة للصلب ، وبضع شركات أخرى متنوعة . ثم رفع يده وطوى معصمه وأشار بسبابته إلى الخادم فى أظرف حركة متأنقة ، وأمره بإحضار منضدة صغيرة على وجه السرعة حتى يفرغ إلى بعض الأعمال البالغة الأهمية من مراجعة أوراق وكشوفات تحوى أرقاماً من ذوات القوة الحادية عشرة . ثم سحب من حقيبته المصنوعة من جلد الماعز رزمة من المستندات وشرع يؤشر عليها بقلم مذهب يحوى ثلاثة ألوان : أحمر وأزرق وأخضر . أشر بالقلم عشرين علامة ثم رفعه أمام عينى ستيفن ليتأمله ، ثم زفر زفرة طويلة وأعلن :

— « أدق اختراع منذ اختراع الفرامل اليدوية على العجلات » . ثم شرع يشرح نظريته دون الاكتراث إلى رأى ستيفن : « لنفرض أنك تراجع لائحة بأسماء العملاء لتعرف نصيبهم فى أسهم شركة " دان وبراد ستريت" . فالعملاء من الدرجة الأولى ، وهذا يعنى رصيداً من الأسهم يزيد على المليون دولار ، يستحقون علامة زرقاء . وإذا ما انحدر الرصيد إلى ما بين المليون ونصف المليون من الدولارات فحينئذ تستعمل لوناً آخر . ما عليك إلا أن تضغط قليلا على رأس القلم ، فيبرز اللون الأخضر . أترى ، يا سيدى ؟ »

— « كيف لا ؟ » أجاب ستيفن .

— « جميل ، جميل ، أيها الأب » .

ومرة ثانية أشار الرجل المتجول المغرم بالاختراعات إلى الخادم ، فى صوت ملىء آمراً : « يا چورچ ، أحضر لى زجاجة من المياه المعدنية الپولندية . لا مياه ڤيشى ولا مياه ساراتوجا . إنما مياه پولندا . أتفهم ؟ »

لما أحضر له الخادم الزجاجة المطلوبة ، داعب رفيق ستيفن عنق الزجاجة وقال : « ما أجمل أسماء الإعلانات التجارية . تأكد مما بين يديك عندما تطلب شيئاً . قد يستحق هذا القول أن يصير مثلا يُضْرَب . أليس كذلك ، أيها المحترم ؟ — ثم خفض من ادعائه وقال : — إنما أعتقد أنى قد أترك لغيرى مهمة كتابة الإعلان ، فليس هذا من اختصاصى — ثم سأل ستيفن باهتمام : كيف تجرى معك الأمور ، أيها الطبيب ؟ »

— على ما يرام ، شكراً » .

— « مسرور لسماع ذلك . لا أرى مانعاً يحول دون وضع الديانة موضع البيع والشراء فى الولايات المتحدة . أكاثوليكى أنت أم بروتستانى أسقفى ، يا أبى ؟ »

— « كاثوليكى . . . كاثوليكى رومانى » .

— « لا بأس بهذا النظام : ترتيب تام ، واستعراض رائع على طول الخط . لا شك أنه يوجد أناس كثيرون يتخيلون صوراً غريبة عن استيراد الديانة من روما ، لكن ذلك تعصب واضح . أما رأيى ، فآمِنْ ودع الآخرين فى إيمانهم . منذ بضعة أيام كنت على الغداء عند "ويلارد" برفقة عميل كاثوليكى من الشخصيات البارزة ، واتفق أنه كان يوم جمعة فطلب سمكاً واضطررت إلى مراعاة شعور الرجل» .

ففكر ستيفن فى نفسه قائلا : « لاشك أن الرجل سيقول لى : وأى فرق بين الكاثوليكى واليهودى والبروتستانى ؟ » ولم يخب ظنه فقد قالها الرجل ، ثم أضاف : « السفر طويل أمامنا فيستحسن إذن أن نتعارف . إنى هوراس ستونر ، المدير التجارى لشركة التأمين المنزلى . المكتب الرئيسى فى دايتون ، أوهايو . فروع فى جميع أنحاء القطر » . وقدم بطاقته التجارية لستيفن ثم قال : « لو رغبت فى مشورة لإيداع شىء ، فاطلبنى على الهاتف » .

— « شكراً جزيلا — أجاب ستيفن — لا أظن أنى سأضطر يوماً إلى إيداع شىء ما » .

— « ومَنْ يعلم ؟ . . . إن أحد عملائنا فى ديترويت ، وهو كاهن يدير رعية كبيرة ، لا يتخلف عن إيداع مبلغ معين كل شهر فى شركتنا . وعندنا فى ويلكيز بارى أسقف ميثوديستى — ما أخبثهم فى المضاربات المالية ، هؤلاء الكهنة ! — قد حشا جيوبه تأهباً لارتفاع الأسعار المقبل » .

— « هل يحدث ارتفاع آخر فى الأسعار ؟ »

— « هل يحدث ؟ ! . . . يا أبى ، دعنى أشرح لك ذلك فى كلمات ثابتة — فى كلمات من صميم شركتنا : قبل مضى ثلاثة أسابيع سيحدث تطوّر فجائى يطير باقتصادنا الوطنى نحو الأعالى . قد لا تعتبر قولى ثقة فى الأمر » — وفتح هوراس ستونر حقيبته فى قرقعة ملحوظة وقال :

– « فقط ألق نظرة على هذا التصريح الذى أدلى به وزير التجارة » .

سرّح ستيفن نظره فى التصريح المطبوع على الحجر مشفوعاً بالرسومات والتخطيطات . ثم قرأ ما يلى :

« إن الارتفاع الجديد فى الأسعار يمكن اعتباره العامل الأول للازدهار الجديد الشامل الذى استعدّ له بحكمة شعب الولايات المتحدة . وهذا الارتفاع (انظر الرسم ، صفحة ٢) مؤسس على زيادة لا مثيل لها فى الخيرات الوطنية التى تعزى خصوصاً إلى : ١ – الإنتاج المسلسل ؛ ٢ – طرق أكثر فعالية للتوزيع ؛ ٣ – اتجاه جديد من الجمهور بشأن الإيداع » .

– يظهر أن ذلك مقنع تماماً » ، قال ستيفن .

– « مقنع ! . . . لقد فقدت عقلى ! . . . » – ثم وضع السيّد ستونر سبابته متصلّبة تحت أرنبة أنفه كرجل يحاول قمع فواق فاجأه ثم قال : « إن ما يدهشنى ويسلب لبى حقًّا هى تلك الكلمات الصغيرة السحرية ، مثل الإنتاج المسلسل . هل رأيت قط عملية الإنتاج المسلسل ؟ »

– « لا أعتقد أنى رأيتها » .

– « إذن ، يا مستر ، أعنى يا أبى ، أمامك فرصة للترويح عن نفسك . فعندما تسير بنا عملية الإنتاج المسلسل إلى أوجها ، ستسمعها تهدر كالمحرك ويتطاير منها الشرر ذهباً خالصاً . إنها أعظم نصر لروح الاختراع الأمريكية . الإنتاج المسلسل يصفع كل شىء – التعبئة ، القطع ، التخريم ، النشر ، الغزل ، الطلاء – بطريقة أفضل وأرخص أيضاً . والغريب فى ذلك أن الإنتاج المسلسل يزيد من صنع الأصناف باطراد ويخفض من ثمنها بالمثل . أتفهم ؟ . . . ذلك يعنى زيادة فى السيارات والثلاجات والمكانس الكهربية ، والغسالات الآلية وغلايات القهوة لعدد كبير من الناس » .

– « أدرك تماماً هذه النظرية – قال ستيفن – لكن ما فائدتها العملية ؟ هل يستطيع العامل ذو الأجر المتوسط احتمال شراء كل تلك الأصناف التى تتدفق من الإنتاج المسلسل ؟ »

تصرّف السيد ستونر بهذا الاعتراض كما يتصرف جرّاح برباط قذر وقال :

— « إن الشراء بالتقسيط يمهد كل الصعوبات — ولوّح بيده كمن يرثى لحال البشر — آه ، أنا أعلم تماماً ، فمنذ خمس سنوات كان الناس يعتقدون أن عدم المقدرة على الدفع نقداً شيء معيب ومهين للغاية . خذ أبى العجوز مثلا ، فقد يفضل العيش فى الحاجة على أن يشترى شيئاً بالتقسيط . لكن الجيل الجديد مختلف تماماً . فى أيامنا هذه يرغب جميع الناس فى اقتناء كل شيء فى الحال . والصناعة ذكية حقًّا بما فيه الكفاية لتقدّم لهم مايريدون . على كل حال فنحن لم نعد نطلق على هذه العملية " الشراء بالتقسيط " بل " الدفع من الرصيد " أو " الدفع الموقت " . رصيدك مستمر . هذه الطريقة تحفظ للشخص كرامته » .

فهكذا إذن ! . . . الأمانى انقلبت خيالا ، والشحاذون يستطيعون امتطاء صهوة الجواد ، فى عزة وكرامة ، دون شك .

ثم قال ستيفن : « عاجلا أم آجلا سيحصل كل فرد على كل شيء . وماذا يحدث عندئذ ؟ »

لم تلاق هذه الفكرة عند السيد ستونر إلا حركة قاطعة بالرفض . قضى الساعة التالية بين ويلمنجتون وفيلادلفيا يشرح لستيفن مقدرة أمريكا المستمرة على الشراء . وشفع براهينه بمسحة من الشعر والخيال . تحت رعاية رجال الأعمال الأمريكان ، (وقد صوّرهم هوراس ستونر بمزيج من البحارة الشجعان والربابنة الطيبى القلب) ، تسير مركب الصناعة الفردية فى بحر تحوطه موانئ هادئة من الأوهام . أو فى صورة أخرى : إن العملية الثلاثية المحكمة الوثاق من شراء بالتقسيط ، وإعلان ، وبيع ، تسير فى نظام مدهش لن يمكن الفقر ، ذلك الشبح المتجول ، من التسلل إلى البيوت مرة أخرى .

بينما السيد ستونر مسترسل فى حديثه ، كان القطار المفتخر ينساب سريعاً نحو الشمال مارًّا بمنطقة تحيط بها المصانع من كل جانب تأييداً لتكهنات الرجل . ربما كان على حق .

وحينما غادر السيد ستونر مقعده إلى عربة التدخين ليتفرغ إلى أعمال ذات أهمية أعظم ، أتيحت لستيفن الفرصة ليختبر صدق برهان التاجر على ضوء الواقع السليم ، الممتد أمامه والذى صدمه صدمة عنيفة .

فى المدن الصناعية بپنسلڤانيا وچيرسى الجديدة ، لاحظ ستيفن وراء منطقة المصانع ، الأرض الفضاء الغبراء بشوارعها ومنازلها القذرة . لن تستطيع تجارة البلاغة والبيان تغيير صورة تلك البقعة التعيسة : منطقة بائسة تتكدّس فيها المنازل الفقيرة (دون المستوى المألوف) ويسكنها العمال الذين يشقون فى إدارة عجلة الإنتاج المسلسل باستمرار . هل كانت هذه هى السعادة الوهمية التى صورها هوراس ستونر بأبهى الألوان منذ لحظة ؟

مرّ القطار بمستنقعات چيرسى ثم توقف فى انتظار الإشارة ليدخل فى نفق مانهاتان . فتسربت إلى العربات روائح حادة شديدة من الصناعات الكيماوية — كبريت ، وكلور ، ونشادر — امتزجت مع روائح العفن المتصاعدة من المستنقعات. ولما توغل القطار داخل النفق لم يقو ستيفن على ردع مخيلته من التفكير فيما كتبه دانتى عن « مدينة الظلام » ، فقد لا تكون أكثر شناعة أو رهبة .

* * *

فى ذلك المساء ، تناول ستيفن عشاءه برفقة أخيه چورچ على سطح نادى المحامين المطعم بالزجاج الملون الذى أنشئ على قمة بناية حديثة من ناطحات السحاب فى حىّ المحطة الكبرى المركزية . كان چورچ قد بدأ يبنى لنفسه اسماً وشهرة فى حقل تعويض العمال عن خدمتهم — وهو فرع جديد فى القانون ينبثق من التشريع الاجتماعى الذى سنه الحاكم ألفريد سميث . فى سنّ الثانية والثلاثين كان چورچ قد فاق ستيفن بوصة طولا وعشرة أرطال وزناً وأمسى كبير الشبه بچين تونى ، مع فارق فى العزم والعنف لم يوجدا قط عند تونى . اندفع چورچ بثبات فى هذه الحملة الاجتماعية وورث عن أبيه دونيس فرمويل حدّة الذهن وسهولة الكلام . فى السنين الأربع التى افترق فيها عن أخيه ستيفن ، حصر چورچ جهده فى قضية الإصلاح الاجتماعى . بالطبع لم يطالب بإصلاح سريع قاطع ، بل بنظام عملى عادل يحدد ساعات العمل وأجر العامل . كان يساند صعود آل سميث على مسرح السياسة . أما تحمّسه « لذى القبعة البنية » فكان أشبه بالعبادة .

وقال چورچ لستيف : « إن الحاكم قد سبق الجميع بخمس وعشرين سنة بتشريعه لمصلحة الرجل العادى . وإذا حافظ على تقدمه المستمر فستتجمع لديه

فرص كثيرة ليمثل الحزب الديموقراطى فى انتخابات الرئاسة فى سنة ١٩٢٨ » .

— « لكن سميث كاثوليكى . . . »

— « وماذا ؟ لا يوجد فى الدستور نص يمنع كاثوليكيًّا من الارتقاء إلى كرسى الرئاسة . أيوجد مثل هذا النص ؟ — ثم خفض صوته واستطرد لقوله : — إنى أدرك ما تعنى ، يا ستاف . إن أىّ مرشح كاثوليكى رومانى للرئاسة يواجه صعوبات جمة . لكن إذا تركنا الناحية الدينية ، فبرنامج سميث لابدّ أن يكسب له تأييد عدد كبير من العمال الذين ليس لهم نصيب يذكر فى برنامج الرخاء الذى أعلنه كولدج ، إن فلسفة ارتفاع الأسعار ستوفر الكافيار للأقلية ، لكنها لن تطعم الجميع لحماً وبطاطا » .

ثم شرع چورچ يسرد بعض الأرقام تأييداً لكلامه : « هل تعلم ، يا ستاف ، أن عمال الفولاذ حتى يومنا هذا يأخذون سبعة وعشرين دولاراً عن ستين ساعة عملا فى الأسبوع ؟ وأن عمال المناجم يحصلون تقريباً على أربعة وعشرين دولاراً ونصف دولار — إذا ماعملوا ؟ — إنى لا أخترع هذه الأرقام ، إنها مذكورة فى تقرير وزير التجارة ، لو كلّف أحد نفسه عناء قراءته » .

ففكر ستيفن فى نفسه قائلا : « أىّ علامة يضعها هوراس ستونر على هذا التقرير بقلمه الذهب ؟ » .

ثم قال لأخيه : « غريب ، يا چورچ ، قد قلت شيئاً فى هذا المعنى لرجل التقيت به فى القطار اليوم . بائع بالتقسيط ، لقد صمّ أذنىّ ولم يكفّ عن إقناعى بأنى مخطئ » .

— « لا تغتر بكلامهم المعسول ، يا ستاف . فهؤلاء البائعون المتجولون يتشدقون بما لا يفقهون ويخادعون ولا يدرون ما يجرى حولهم فى البلاد » .

— « وما هى الحال الآن يا چورچ ؟ فى السنين الأربع التى غبت فيها ، لا بدّ أن شيئاً غيّر وجه البلاد . وقد شعرت به فى اللحظة التى وطئت فيها أرض الوطن . إن الجرائد ، حتى الهواء الذى نستنشقه ، كل شىء يبدو مليئاً بتناقض خفىّ وخلافات مرّة رهيبة . إنك درست الحالة الاجتماعية ، فما سبب هذا الانقلاب ؟ » .

وزن چورچ السؤال ثم أجاب : « كل يبدى رأيه . فبعض الناس يعتقدون أن ذلك هو ردّ فعل جلبته حرب لم تنته بعد . إن القوى التى أنتجناها فى مغامرة حربية كبرى لم تستعمل ضدّ الألمان ، فكان أن أدرناها الآن على أنفسنا فى حروب العصابات ، والفنّ العنصرية ، والتنكيل والتعذيب . ولا مندوحة من إنكار الحقيقة » .

ثم قلّب چورچ قهوته فى تشاؤم وقال : « ويعتقد بعضهم الآخر أننا نخشى تحمل المسؤولية التى قدّمت لنا فى ڤرساى لنقود العالم المتمدّن ، وأننا نلهى أنفسنا بالتفاهات ونغرّر بأنفسنا بما لا طائل منه » .

— « تلك فقط أعراض سطحية أما الداء نفسه فأعمق أثراً » .

— « ذلك صحيح . إن السبب الحقيقى لضائقتنا هو هذا : دعنى أبسطه لك بهذه الطريقة : فى السنوات الخمس الأخيرة أحرزت الصناعة الأمريكية تقدّماً باهراً فى نظم الإنتاج . هل توافق على ذلك ؟ »

— « هذا ما قاله الرجل فى القطار » .

— « إلاّ أن ما لم يقله هو أن صناعتنا الفنية العجيبة ، ويا للعجب ! ، قد أضحت إلٰهة نتسابق إلى التضحية بأنفسنا تحت عجلاتها ، ونبذنا بعيداً عنا القيم والمؤسسات الاجتماعية . هوّة هائلة مخيفة فغرت فاها وفرّقت بين تقدّمنا الفنى وتراثنا الفكرى ، ولا تزال هذه الهوة تتسع يوماً بعد يوم ولم يُشرعْ فى تخطيط نظام يحصرها ويضيق عليها . جماعات كبيرة من الشعب ، بل الشعب كله ، يا ستافى ، يزجون بأنفسهم فى هذه الهاوية ، فى حين أن الذين يدّعون قيادة زمام بلدنا لا يعلمون حتى بوجودها » .

— « ليس رأيك بجديد — قال ستيفن — إن لاون الثالث عشر صرح بذلك منذ خمس وثلاثين سنة فى منشوره العالمىّ عن " الأمور الجديدة " » .

— « أعلم ذلك . قد دافع لاون دفاعاً قوياً من أجل العدالة الاجتماعية . لكنه لم يقترح حلاً عملياً واحداً للحصول عليها . يؤلمنى هذا القول ، يا ستافى ، لكن الكنيسة الكاثوليكية — كذلك أيضاً نظم التربية ، ومجلس النواب ، وكل شيء آخر — لم تتمشّ مع احتياجات الشعب فى عصر الآلة هذا . أودّ لو تمكنت الكنيسة

من أن تلحق بالزمن وتهتمّ حقيقة بتخفيف آلام البشر المضطربين » .

ـــ « ليس للكنيسة همّ إلا تخفيف حالة الاضطراب بين البشر ، حتى إنها لا تهتم بشيء آخر . ولمن ـــ فى اعتقادك ـــ كان المسيح يوجه كلامه عندما قال : تعالوا إلى يا جميع المتعبين والمثقلين . . . ؟ »

ـــ « عندما قال المسيح ذلك ، كان يتكلم إلى بعض الصيادين ، إلى العمال فى الحقول ، إلى الحطابين ، إلى السقّائين ، إلى رجال عاشوا واشتغلوا فى عهد كانت فيه الحياة بسيطة . ـــ واسترسل چورچ فى حديثه فى صدق وحسن نية : لست أحاول كسب المناقشة ، يا ستاف . كل ما أرمى إليه هو أن الصناعة الفنية جعلت من الحياة مركباً رهيباً جداً حتى إن النظم السالفة فى عصور ما قبل الآلة لم تعد تؤثر فيه مطلقاً . هل يستطيع العامل الكادح ـــ عامل الفولاذ مثلا الواقف أمام فوهة جحيمه ـــ أن يجد عزاء وتشجيعاً فى ما تقوله له الديانة من "تعالوا إلى..." ؟ هل تستطيع مثل هذه الديانة تقديم ضمان عاطفى واقتصادى معاً إلى تيار الإنتاج المسلسل أو وصل طرفى الهاوية المتسعة بين الإنسان والصناعة ؟ لا تبتسم هكذا ، يا ستيف . أجبنى » .

لم يكن لدى ستيفن فرمويل مزاج ألبتة إلى المزاح . لقد قضى يوماً مرهقاً حقاً . استمع إلى نظرية هوراس ستونر فى البيع ، وقرأ الأخبار فى « الزمان » والإعلانات فى « البريد » ، وسرّح نظره فى صفوف المصانع المتناثرة بين ويلمنجتون ويورك الجديدة ، وشاهد الأحياء القذرة الممتدّة وراءها ، وشمّ الروائح الكريهة ، روائح القاذورات الكيماوية والتعفن الطبيعى التى تهبّ عبر مستنقعات چيرسى . والآن أيضاً قد استمع إلى اتهام أخيه الكنيسة الكاثوليكية بأنها تتبع ثقافة عتيقة . أحسّ ستيفن بهذه المناظر والأصوات والروائح والآراء تختلج باضطراب فى نفسه ، وهو يردّ على أخيه :

ـــ « قد اختلفنا دائماً حول الدور الذى يجب على الكنيسة أن تلعبه فى الأمور الإنسانية . وأعتقد أننى أعرف السبب ـــ وانتقى ستيفن كلماته فى حذر كبير ـــ أنت ، كرجل فى العالم ، تنظر إلى الأمر من وجهة هذا العالم ، وأنا كرجل دين وكاهن أنظر إليه من وجهة العالم الآتى . أنت تبغى إصلاح الاضطرابات الاجتماعية ،

وأنا أبغى إصلاح روح الإنسان الخالدة » .

فسأله چورچ : « ألا يمكن دمج النظامين ؟ »

— « لقد بحث اللاهوتيون الكاثوليك هذا الموضوع بحثاً دقيقاً يرجى منه خير . لكن افهم هذا ، يا چورچ . — وانقلب ستيفن إلى أستاذ — ليست رسالة الكنيسة العمل على إيجاد حلول عملية من شأنها إرساء توازن عادل اجتماعى . إن مهمة الكنيسة هى خلق رجال وتثقيفهم لكى يقوموا بهذا العمل : رجال ذوى ضمائر مسيحيّة حيّة تحثّهم غاية سامية ويعتقدون أن الأفراد يتمتعون بحق العيش على صعيد يجمع بين الفضيلة والكرامة والأمانة الّتى يريدها الله للجميع » .

ختم ستيفن برهانه بكلمات قاطعة موزونة فيها شىء من التعليم وشىء من الدفاع : « منذ لحظة ، اتهمتنى بأننى أبتسم ساخراً ، وقد آلمنى ذلك . كنت أقول لنفسى كما أقول لك الآن إن الكاهن ليس بسياسىّ أو مدبّر اجتماعى أو منظّم للعمل ، إنه فقط وسيط بين الله والبشر . وعليه أن يحافظ على عمله هذا غير مشوب (بالهموم الدنيوية) . مع ذلك ، كما أثبته لاون الثالث عشر ، فالكنيسة لا تمكث مكتوفة الأيدى تجاه الكوارث الاقتصاديّة » .

ثم ، فى كلمة مختصرة ، أثبت ستيفن فرمويل الغاية من وجود الكاهن على الأرض بقوله : « الشعراء وحدهم يستطيعون قرض الشعر ، والأمهات وحدهن يستطعن إنجاب البنين ، والكاهن وحده يستطيع تذكير البشر بأن الله كان دائماً ، وهو كائن ، وسيكون دائماً ، — ولتثر — لو استطاعت الجحيم أو المياه العاتية أو الصناعة » .

بدأت جمعية الإيمان المشترك نشاطها بوليمة غداء فى قاعة الرقص الكبرى بفندق والدورف أستوريا . استهل سيادة المطران « ألفريد كرتمل » أسقف « الجزيرة الطويلة » (لونج آيلند) البروتستانى ، صلاته بطلب إلى الله ليبارك الحضور ، وختمها بهذا الدعاء : « أضئ قلوبنا بنورك حتى نرى رؤية العين تلك الحقائق المشتركة تسود جميع الشعوب بواسطة سيدنا يسوع المسيح . آمين » .

جلس ستيفن فى الجهة اليمنى من منبر الخطابة ، فوجد نفسه بين المعلم « يونان مردكاى » الحاخام الأكبر لليهود ذوى الإيمان المستقيم ، وهوبل هوايتمان ، مجاز فى الفلسفة ، ومؤلف كتاب « تقدم البروتستان » . راقه منظر لحية الحاخام مردكاى المنكفئة فى خجل على صدره أكثر من منظر ذقن الأستاذ هوايتمان المرتفع المتحفز للجدال . وبعد أن وجه ستيفن بعض كلمات مجاملة إلى رفيقيه فى الغداء ، استقر نظره على الحاخام الذى كان يتفرس بكآبة ملحوظة فى طبق السرطان الذى افتتحوا به قائمة الطعام . لم يزد الحاخام مردكاى على رفع شوكة صغيرة ثم وضعها ثانية على المائدة فى ابتسامة ضمنها خضوع أربعة آلاف من السنين . ثم همس نحو ستيفن :

— « أرى أنى أخرجت من حلبة السبق ، منذ تلك اللحظة » . — وفى صوته رنين صدى كثيب من سفر الأحبار — « فكل ما ليست له زعانف وفلوس فهو رجس لكم » .

فى الحقيقة ، لم يكن حفظ أحكام شريعة القداسة اليهودية الغابرة ، عند الحاخام نزوة أو تطرفاً فى المآكل بل كان إذعاناً للصوت المرعد على جبل سيناء : « أنا الرب إلهكم قدوس ، وقد فرزتكم من الأمم لتكونوا لى » .

بينما كان ستيفن يتأمل فى كلام الحاخام ، وقع فى أذنه صوت الأستاذ هوبل

هويتمان يسأله : « ماذا تعتقد من آمال لنجاح حركتنا فى الإيمان المشترك ، أيها المنسنيور ؟ »

وإن بدا السؤال شرعياً ، فقد صيغ فى قالب قذيفة أعدت للمناورة . كان الأستاذ هويتمان يبغى فقط من وراء ذلك إيجاد موطئ لقدم .

فأجابه ستيفن : « قد يكسب البروتستان من عقد هذا الاجتماع . لكن بكل صراحة ، لا أرى ما يظفر به الدين الكاثوليكى الرومانى » .

فجاءه رد الأستاذ هوايتمان لطيفاً رقيقاً مع فارق بسيط : « لنفرض أنك تقرأ " أمريكى " بدلا من " رومانى " . ألا يؤول ذلك التعديل إلى تحسينات كبيرة فى الموقف ؟ »

— « هل لديك مثل ، يا حضرة الأستاذ ؟ »

فأفاض الأستاذ هوبل هوايتمان شرحاً وبياناً عما قد يكتسبه الكاثوليك لو اتحدوا « على أساس أمريكى » ، على حد قوله . فى أثناء تناول الحساء (الذى لم يذقه أيضاً الحاخام مردكاى) ارتأى مؤلف « تقدم البروتستان » ، أنه لو تخلص الكاثوليك الأمريكان من ولائهم لسلطة أجنبية لنظرت إليهم معظم الأوساط بعين قد يتضاءل فيها الشك والريبة . وبالتالى فإنهم قد يؤهلون ، كما برهن عليه ، للاشتراك بنصيب أوسع فى الحياة السياسية الأمريكية .

فرد عليه ستيفن بأن الكاثوليك الأمريكان لم يتقيدوا قط بولاء لسلطة أجنبية — اللهم ، ربما ، إذا عد الله نفسه أجنبياً . وبينما كان الجميع منهمكين بتناول الدجاج المحمر ، والحاخام مردكاى شابكاً يديه المجعدتين فى إذعان ، اقترح الأستاذ هويتمان أنه لو اتحدت جميع الملل الأمريكية لنتجت عنها مسيحية أقوى رسوخاً وأبهى جمالا ، على مثال اتحاد الولايات الأمريكية العديدة ، لكن ربما فى شكل أوسع حرية ونشاطاً . كان الأستاذ هويتمان ، فى شرحه فكرة الاتحاد هذه ، ينفث ثلاثمئة كلمة فى الدقيقة ، وإذا بمدير الحفل الأستاذ « كوينسى هاوسون » ، أستاذ الفلسفة الأدبية فى جامعة مانهاتان اللاهوتية قد وقف وقال :

— « الآن ، ستستمع الجمعية إلى صلاة الشكر بعد الأكل ، يقدمها ذلك المجاهد الشهير فى الدفاع عن الإيمان اليهودىّ القويم ، المعلم يونان مردكاى » .

ظهرت علامات الارتياح والسرور على كل فرد عندما وقف الحاخام الشارد الذهن الذى لم يمسّ شيئاً من أصناف الطعام ، وشرع يرتل صلاة الشكر اليهودية القديمة التى تقال فى انتهاء الأكل .

بعد ذلك تكلم الرئيس هاوسون بخفته المألوفة ورشاقته وقدّم للحضور المحاضر الأوّل فى هذه المناسبة ، حضرة القس « برادبيرى تاونى » ، مجاز فى اللاهوت من جامعة كامبريدچ ، ومجاز فى الحقوق من جامعة هارڤارد ، وراعى كنيسة القديس برنابا فى مدينة يورك الجديدة . كان القس برادبيرى تاونى رجلا فارع القوام واسع الاطّلاع على الطريقة الإنجليكانية الأنيقة ، قد لبس ثوب النعمة السامية سنوات طوالا ، وحتّى هذه اللحظة لا يزال الثوب ينحدر على كتفيه فى خفة ورشاقة .

وقعت الكلمة التى ألقاها الأستاذ تاونى موقع الاستحسان فى الإلقاء وإثارة الإعجاب . قال :

« قد اجتمعنا لنمجد الله وأنفسنا بدراستنا تلك الأمور الواجب تتميمها ، نعم ، تلك الأمور التى يجب العمل على القيام بها ، إذا ما ساد ملكوت الله فيما بيننا . ومع أنّ معادن الملل الموجودة حاليًّا (وبكل أسف المتنافسة على وجودها) لا تستطيع الانصهار فى جوهرها ، كما يعبّر عن ذلك الشاعر براوننج ، إلا أنه مع ذلك يمكن الوصول إلى بداية طيبة ربّما لو خُفضت درجة التشدّد فيما يتعلّق بحقائق الإيمان ، وزال ذلك التعلق الشديد بفوارق الطقوس ، واتسعت المحاولات الصادقة لتفهم الطبيعة التاريخية المجردة لتلك الفوارق ، أعتقد أن عمل الاتحاد قد يتقدم حينئذ بسرعة مدهشة » .

واستطرد الأستاذ تاونى لقوله : إنه قد تنبع فوائد جمة روحية وزمنية من تثبيت قواعد الإيمان المشترك . فقد تصبح الكنيسة المتحدة — ربما كانت كلمة « موحّدة » أوفر قسطاً من الصحة فى هذا المقام — أثبت قدماً لمحاربة روح المادّية المتفشية فى هذه الأيام . قد تزول أيضاً التحزبات التعصبية ، فتتقدم بعض الكنائس التى أصابها الركود وتزدهر برعاياها على أساس مالى متين . وقد يجد بعض الرعاة المثقلون بالديون (ولاحت على محيا الأستاذ تاونى ابتسامة مداعبة) أنفسهم وقد تخلصوا من استعمال الحبر الأحمر بالكمية المعهودة إلى اليوم . وأخيراً بعد إذ تزول

جراثيم التعبد المتطرف والتعصّب الديني إلى غير رجعة ، قد يزدهر الدين فى الولايات المتحدة ويتعالى على أسس وقواعد جديدة تترامى أطرافها فى الأثير الأمريكيّ الصافى .

استشف الحضور من خطاب الأستاذ تاونى — وإن لم يجاهر برأيه — أنه على استعداد تام لقبول قيادة الملل المختلفة التائهة حتى يأتى بها إلى الأرض الموعودة أرض الاتحاد . فصفق الجمهور للخطيب الأوّل طويلا. أما سيادة المطران تيموتى كريدون ، أسقف نوارك الكاثوليكى ، فاكتفى ببركة صغيرة من يده . ربما كان فى استطاعة ستيفن سماع تيم كريدون يتمتم فى داخله قائلا : « بحق السماء لا أدرى ما أنا فاعله بين هؤلاء المقرئين » .

ثم توجه الأعضاء إلى دراسة المواضيع المقررة فى جدول الأعمال ، وشذا خطاب الأستاذ تاونى لا يزال يطوف بهم ويعطر جوّهم. طلب إلى ستيفن الاشتراك فى نقاش حول « التساهل الدينى عامل من عوامل الديموقراطية » فجلس إلى مائدة مع خمسة آخرين من رجال الدين وبينهم الحاخام مردكاى ، أمام نحو مائة من المدنيين . ثم وقف مدير المناقشة ، وهو رجل مخضرم ابيض حاجباه فى أثناء الحروب الدينية الطاحنة ، وقرر أن لكل خطيب عشر دقائق فقط وعندما ينتهى الخطباء من كلامهم تُخصّص مدة يوجه فيها المستمعون أسئلتهم لرجال الدين ، ويرجو — حتى ينتهى الخطباء من حديثهم — عدم المقاطعة .

افتتح المناظرة الخطيب الميثوديست الشهير « چون فورت نيوكومب » . قال :

— « إن التساهل الدينى فضيلة تتغلب بواسطتها العقول المتحررة على التعبد المتطرف والحقد . والتساهل الدينى يحوى بين طيات معانيه أكثر من الصبر والرفق فى مفهومه الحقيقى ، التساهل الدينى محاولة إيجابية صادقة لإدراك معتقدات شخص آخر دون ضرورة لقبولها أو مشاركته فيها . وكما عبر عنه " فيلپس بروكس " : " إن التساهل الدينى هو صلة شريفة شرعية سامية بين عقلين متناقضين — إنى أخالف صديقى فى رأيه وأريده أميناً مخلصاً لاعتقاده . مع ذلك أطالب بحقى بل بواجبى فى المحاولة بإقناعه بمعتقدى "... » — ثم ختم المحاضر كلمته بالتنبيه على أن

التساهل الديني هو الأساس المتين للديموقراطية ، « وهو الاتحاد فى تناسق كامل ، وهو الاقتناع المرغوب الذى نصبو إليه ، وهو أثبت ضمان للفرد » .

ثم تلاه الخطيب الثانى ويدعى « ألونزو رانفورث » من الشيوخ البروتستان ، وأشار بوضوح إلى أنه يجب عدم خلط التساهل الدينى بروح عدم الاكتراث المرضىّ . وذكر مقطعاً من « چون مورلى » : « إن أغلب ما يؤخذ مأخذ التساهل الدينى ليس إلا صورة من الادعاء بعدم التمسك بمعتقدات خاصة » . — وقال حضرة الأستاذ رانفورث إن الخطر كامن تحت ستار هذا الشكل من التخاذل الدينى ، « لأن التساهل الدينى نبتة دقيقة رقيقة تجب حمايتها والسهر عليها ، وإلا ذبلت وماتت . وإذا ما بدأت تفقد ألوانها ، فقد تمتد إليها نبتة أخرى سامة — هو فُطر الترفّض الدينى الذى يحتلّ مكانها . فهنا يغتصب حق ، وهناك يرتفع انتقاد ، وتمد الأحقاد جذورها ، وسريعاً نرى أنفسنا نعيش وسط غابة سوداء من التعصّب الدينى ، غابة غابت شمسها وأمست مخيفة للجميع » .

إلى هذا الحدّ ، كانت المناظرة قد اتبعت مستوى رفيعاً من المظاهرة المسرحية . وإذا بالقس « تومبلى موس » ، من المؤسسين فى الجنوب ، قد نهض وضرب المنضدة بقبضة يده وانفجر مشتعلا كالكبريت :

— « معذرة — ونزع عنه ربطة عنقه — هذا هو التساهل الدينى . إن ما ينقص هذه البلاد هو فقط قالب صغير من معدن الكبريت ثمنه خمسة سنتات ! »

فالتفت مدير المناقشة وقد اهتزّ حاجباه الأبيضان اشمئزازاً . من وضع هذا المندفع على اللائحة ؟

أما تومبلى موس فبعد أن نزع ربطة عنقه ، أمسك بعصا هارون وانهال بها على أعجاز الأشرار . قال يصيح :

— « من يجرؤ على التساهل مع مخالفى المادة الثامنة عشرة من قانون التعديل . هاكم رجلا يدّعى لنفسه الحق بتعاطى الروم حتى الثمل ، أو بتدخين التبغ فى جميع أشكاله : فى الغليون ، أو مضغاً ، أو سيجارة . أليس ما يريده هو التحرر وعدم التقيد ؟ الحرية فى طمس عقله وإيذاء جسمه بالسمّ ؟ وإذا كنتم لا تؤمنون بعد بأن التبغ مُسمّم ، فحاولوا تجربة هذا الاختبار . ضعوا لفة صغيرة من تبغ

المضغ تحت إبطكم ، ثم اجلسوا على كرسىّ هزاز وحاولوا طلب الراحة . هلا حاولتم ! . . . لن تنقضى ثلاث دقائق ، حتى تشعروا بالمغص يقرض أمعاءكم فتتلوّون كالكلاب من شدة الألم ؟ » — واستشاط « سافونارولا » الجنوبى غضباً واستطرد يصيح : — « ثم شىء آخر ! . . . إن الرقصات الزنجية قد استفحل أمرها وهى لا تروق فى عينى القس تومبلى موس . ويجب منع رقصات " الخد على الخد ". أقول : نظفوا البيت ، واطرحوا هذه الثرثرة حول التساهل وانتزعوا كل أثر للعربدة ، والرقص والسجائر وأوراق اللعب ، وإلا استفاقت البلاد صباح يوم من أيام الثلاثاء ووجدت نفسها تجمع رماداً فى الجحيم » .

خيم على القاعة سكوت عميق وذهول . وإذا بصوت مرح من المقاعد الخلفية قد قطع على الحضور صمتهم :

— « ما رأى حضرة القس فى الأذرة المحمّصة . هل هذا أيضاً مخالف للتقاليد ؟»

وإذا بموجة من الضحك قد طهّرت الجو المشبع كبريتاً . وفى وسط هذا الطوفان جلس تومبلى موس بعد أن هدأت شعلة غضبه ، وبرد قالب الكبريت بين يديه .

كان من الصعب جرّ الجمهور مرة أخرى إلى الاستماع ، غير أن الرجل الأبيض الحاجبين نجح فى آخر الأمر . فتكلم خطيبان آخران وشرحا وجهة نظرهما بشأن التساهل الدينى ، ثم جاء دور ستيفن . وهذا ما أراد الإشارة إليه ، لو خيّر فى ذلك :

« أصدقائى الأعزاء ، أجد نفسى على اتفاق فى معظم ما قدّم من اقتراحات طريفة فى هذا المقام . مع ذلك ، قد أظلم الصراحة حقها إذا أخفيت عنكم أن الكنيسة الكاثوليكية تقف دون مواربة ولا تبغى ترضية ألبتة فيما يتعلق بعقائد الإيمان والآداب التى ائتمنها الله عليها . قد تجدون الكنيسة سمحة جداً فى نظرتها إلى الطبيعة البشرية الضعيفة . لكنكم قد تجدونها صعبة المراس إذا سئلت باسم التساهل الدينى أن تنحرف عن العقائد اللاهوتية الإلهية الموحاة التى يستند إليها التعليم الكاثوليكى . نحن

نتمسّك بتعليمنا كأنه التعليم الحق الوحيد . ولن نحرّف فيه شيئاً ألبتة ، والحق يقال ، لا نقدر أن نبدل فيه شيئاً لأن الإنسان أضعف من أن يحرف كلام الله الحق . نظراً إلى هذه الأوضاع ، فإنى لا أرى مجالا للإفاضة فى الكلام » .

لو كان عهد إلى ستيفن بإدارة شؤون أبرشية أمريكية ، أو لو كان تكلم باسم أسقف أمريكى وبإشارة منه ، لكان قال تلك الكلمات السابقة نفسها (وأغلب الظن أن الأسقف كريدون كان يصرح بهذه الكلمات عينها ، فى هذه الدقيقة ، فى الحجرة المجاورة) . لكن بسبب حضور ستيفن هذا الاجتماع بصفته ممثلا المندوب الرسولى ، شعر بواجبه فى حماية كارنجى من الجدال الذى قد ينجم – لاشك فى ذلك – عن المجاهرة بمثل هذا التصريح الجرىء . فحثه الحذر أكثر من الحيلة على تخفيف تصريحاته كما يلى ؛ قال :

– « السيد المدير ، إخوانى المحترمين . يخطر لى أننا فى نقاشنا حول التساهل الدينى قد تجاهلنا نوعاً ما مصدره الروحى . فلم يذكر أحد بعد أن التساهل الدينى هو امتداد لوصية الله العظمى " أحبب قريبك " – إنه أمر يتحتّم علينا جميعاً ، أيّاً كان إيماننا أو معتقدنا ، التقيد به وإطاعته » .

لدى سماع المدير هذا التعليم المسيحى الصحيح تألق وجهه سروراً . واستطرد ستيفن لخطابه يقول :

– « هل لى أن أشير إلى أن التساهل الدينى يحمل بين طياته معنيين : التألم والاحتمال . اتحد هذان المعنيان فى فعل واحد عندما صار ابن الله إنساناً ليحمل صليبه ويتألم عليه ليفتدينا . واعتقادى أن أفضل طريقة نستطيع بها حفظ وصية الله هى التشبه بابنه الذى احتمل الآلام » .

رافق جلوس ستيفن تصفيق استحسان .

أما الأخير فى الكلام فكان الحاخام مردكاى . وقف ببطء ، ثقيل الكاهل ،

متجعد الوجه ، منخفض الطرف ، ثم تفرس فى القاعة ، وعيناه الضعيفتان تعكسان فى لمعانهما الخامد سبعين سنة قضاها مكباً على التوراة . وطفق يعبث بلحيته ، مرح المزاج مبتسما مما سمعه من خطباء الديانات الحديثة الحليق الذقون . وإذا بجبينه الذابل الذاوى قد تقطب ذهولا . وقال :

— « لا أدرى أأستطيع قول شىء لفائدة الجمهور . ليس السبب أنى مسن أو تعب ، ولست أرغب فى لوم نفسى وعجزى . إنما قد فرق البعد بيننا حتى إن حكمة ابن ميمون نفسها قد لا تقوى على تقريب وجهات نظرنا . فالطعام الذى يشدكم محرم على . وكلماتكم تنبئ عن نية طيبة ، لكنها مع ذلك لا تملأ قلبى سعادة . إن فيليبس بروكس جيد ، وچون مورلى جيد أيضاً — ودعك الحاخام عرقاً أزرق فى صدغه فى تأمل عميق ، وقال : — ولكن حيث إنى قضيت حياتى فى الاستماع إلى موسى وأشعيا ، فقد فقدت أذنى عادة الاستماع إلى أنبياء أقل قدراً وشأناً » .

ود ستيفن لو استطاع أخوه چورچ أن يسمع هذا القول ويرى يونان مردكاى ، الحاخام الذى ظهر أبعد ما يمكن عن روح العصر الحديث ولم يهادن الثقافة العصرية . حقاً لقد كان الحاخام يونان مردكاى مثلاحياً للكاهن المكرس ، غريباً عن زمانه لا صلة له به ، يكره الظهور بين الناس وإن عاش دائماً بينهم . ثم ارتفع صوت الحاخام يرن جمالا وحكمة بعيداً عن المنازعات والخلافات العقائدية ؛ قال :

— « والآن ، خوفاً من أن ينفرط عقدكم وفى نفوسكم ريبة من هذا الحاخام العجوز التعب المتهكم ، فإنى سأحدثكم بمثل بسيط . كان للملك لؤلؤة نادرة ، وكان فخوراً بها . فحدث يوماً أن أصابها خدش عميق . فدعا الملك أمهر الصناع فى قطع اللآلئ ليصلحوا العيب فى الحجر الثمين ، لكنهم مع كل حذقهم لم يتوصلوا إلى جلاء الخدش . وأخيراً مر بالمملكة فنان مثال عبقرى فذ ، فحفر بمهارة وصبر وردة جميلة على الجزء المعيب من الحجر الثمين . وبفضل حذقه الرفيع ، توصل إلى جعل مجرى الخدش العميق ساق الوردة » .

ثم رفع الحاخام مردكاى كلتا يديه إلى فوق فى حركة قد يكون لها معان كثيرة ،

وترك منبر الخطابة دون أن يقدم تفسيراً لمثله وحركاته .

فى اليوم التالى ، انفض اجتماع الإيمان المشترك . لم يتقدم ، فى أى جلسة من جلسات المؤتمر ، فنان مثال ليحفر وردة على لؤلؤة الإيمان المخدوشة . لا ، بل فى الواقع عند مناقشة مسائل الطلاق وتحديد النسل والتربية الدينية ، تلقت اللؤلؤة خدوشاً جديدة عديدة .

بإرجاء أعمال المؤتمر ، خفت حدة المنازعات لكنها لم تنزع . وبعد بضعة أشهر ، عندما أعلنت قرارات وتوصيات مؤتمر الإيمان المشترك ، اتفق الجميع على وجوب استبعاد العبادة المتطرفة والتعصب الديني ،. تماماً كما كانوا يطالبون بإزالة مزالق السكك الحديدية ، وكلاب البحر أكلة لحوم البشر.

* * *

سنة ١٩٢٧ ، سنة عجيبة ! أوشكت مدة رئاسة كلفين كولدج أن تنتهى . أسدل على البيت الأبيض المتقلب التائه وشاح العرافين واستخدم فى تصريحاته الإبهام والتوجيه ، فجاء كلامه عكسياً جافاً ، واشتهر بهذا التصريح : « نحن فى حاجة إلى قانون ونظام » . مع ذلك ، مدة رئاسته ، كان قانون البلاد فى حالة تشبه التعطيل ، فقد أعلن رجال العصابات شريعة المسدسات والضرب بالنار ، وتنافس ملوك الحانات على حق السباق المضحك المزرى للسيطرة على تجارة الخمور . دعت ديانة كلفين إلى الاقتصاد والتوفير . كان يقتصد خمسة آلاف دولار سنوياً من مرتبه ، لكنه كان يساوم ويتمحك على عدد قطع اللحم التى تقدم فى وليمة رسمية . لم يعترض على جشع المقامرة فى اختزان الأصناف فى السوق السوداء ، والاختلاسات المالية التى يقع عليها نظره المتجمد كعين سمكة القد . لم ينفتح بوقاً ولم يحارب طواحين الهواء ، بل كان يتهرب من كل مسألة لا يستطيع حلها بواسطة آلات الحساب . كل ما فى الأمر أنه – بعد إعلانه بصوته الأخنف أن عمل أمريكا هو التجارة فقط – جلس متراخياً على كرسيه الهزاز وراقب مواطنيه يندفعون فى سباق يقصم الظهر نحو عهد من الرفاهية لا يزال يحمل اسمه .

على افتراض رفاهية تلك السنوات ، ماذا حدث فى الولايات المتحدة ؟ هل ازدهرت الفنون حقاً ، أو انتشر الدين ، أو تأسس الفكر الصحيح الهادئ ؟

كلا . ومع أن الظروف المعيشية كانت تقارب الكمال فى مظهر حياة الفرد وكرامته – على حد تعبير الصحف وإعلاناتها – استرخى الشعب يلهو ويصخب بطريقة – وإن لم تبد مستهجنة فى مؤتمر من المصلين – كانت لا تزكو ألبتة بأمة عظيمة فى أوج رفاهيتها المادية . فبينما كان ملايين الأطفال يعانون من سوء التغذية ، وجمعية الأمم تتسكع خائرة القوى لا تساندها الدول الغربية ، إذا بالشعب الأمريكى قد استسلم إلى حلبات الرقص ، والمنافسات فى الجلوس على الخوازيق ، والمنازعات الشهوانية بين الأقرباء والأنسباء ، كلها سخيفة ، والواحدة منها أسخف من الأخرى .

أما ستيفن فرمويل – بعد مراقبته الحالة الراهنة فى واشنجطون عن كثب – فلم يجد ما يشبع فضوله . لم ينقذه من روح التشاؤم سوى اعتقاده الداخلى البديهى بأن ملايين من المواطنين يعيشون حياة خفية شريفة طاهرة . وشاركه هذا الاعتقاد أصدقاء كثيرون من الكهنة كان قد تعرف بهم فى كاتدرائية القديس متى وفى الجامعة الكاثوليكية حيث كان يستعد لتقديم أطروحته لنيل شهادة الفلسفة . كلما انعقد مجلسهم فى المساء ، يطرحون سؤالا واحداً يزعجهم : « إلى أى حد تستطيع الكنيسة الكاثوليكية ، شرعاً ، توجيه انتباه أمريكا إلى أن " أولوية التجارة فى كل شيء " ونظرية " التحرر المالى " تضطر الأفراد إلى أفعال إجرامية تنافى شريعة الله وتناقض طبيعة البشر ؟ »

لم يكن هذا السؤال مجرد مناورة كلامية أو لاهوتية . بل بالعكس ، كان يخبئ فى جنباته حقيقة مرة لما كانت عليه حال أصحاب العمل والعمال فى كل كبيرة وصغيرة حيث يتصل الاقتصاد بمبادئ الدين الأدبى . وصف البابا بيوس الحادى عشر هذا الصراع كنضال « لا يعيش فيه سوى الأقوى . والأقوى ، فى أغلب الأحيان ، يعنى أولئك الذين يقاتلون دون كلل ، ويستخفون بدوافع الأدب والضمير » .

لو اتبعت الحكومة تعليم لاون الثالث عشر المثالى عن الدولة المسيحية ، لاستطاعت أن تأتى بالعجب فى درء الخطر الزاحف – وما أسرعه ! – على جميع طبقات المجتمع . لكن الحكومة بتباعدها عن كل تأثير روحى ، قد كشفت

عن انحطاطها الأساسى عندما تقصى الله من تفكيرها وتدبيرها .

* * *

ازداد ستيفن – بصفته مساعداً للمندوب الرسولى – معرفة بأحوال الكنيسة الكاثوليكية فى أمريكا . كانت معظم معلوماته تأتيه عن طريق تقارير الأبرشيات المرسلة إلى مكتب كارنجى فى طريقها إلى روما . من دراسة هذه التقارير يتضح أمران : فى الأوساط الكبيرة الآهلة بالسكان كان الدين الكاثوليكى قوياً ومزدهراً . والرعايا فى المدن الكبيرة تتسع وتنمو تحت إدارة أساقفة كفء ورعاة لا يخشون العمل . وقبب الكنائس وأجراسها ترتفع إلى السماء . – لكن إذا ما أدار الإنسان بصره إلى المناطق البعيدة ، فالصورة لا تشيع التفاؤل . هنا وهناك ، قد يحاول أسقف قوى الشكيمة المحافظة على سقوف كنائسه المهدمة فى أبرشيته . إجمالا ، مع ذلك ، لم ينتشر الدين الكاثوليكى الرومانى فى المناطق الزراعية الفقيرة من الولايات المتحدة ، بل كاد يصعب عليه الاحتفاظ بمراكزه .

كان منصب كارنجى يدعوه إلى اليقظة . فأراد الاستعلام عن سبب ركود هذه الحال . لكن واجباته العديدة فى واشنجطون لم تسمح له ألبتة باستقصاء الأمر شخصياً . ويوماً فى أوائل مارس سنة ١٩٢٧ ، نظر إلى ستيفن من وراء هرم من التقارير مكدسة على مكتبه وسأله فى سياق الحديث :

– « أتستطيع ، يا ستيفانو ، القيام بمهمة لا تمت إلى عملك بين أوراق السكرتارية ؟ »

– « جربنى » .

فوضع كارنجى طرف إصبعه على خريطة كبيرة للولايات المتحدة معلقة على الحائط وقال مشيراً إلى المنطقة بين الجبال الدخناء العظيمة ونهر الميسيسيبى :

– « أريدك أن تتجول فى هذه المنطقة ؛ تفقد إن استطعت ما هو مصير الكاثوليك الرومانيين فى الجنوب وفى الجنوب الغربى . خذ ثلاثة أشهر أو أكثر إن اضطرك الأمر ، وقدم لى تقريراً عن تحرياتك » .

فى ثلاثة أشهر ، قطع ستيفن عشرة آلاف من الأميال عبر جزء من الولايات المتحدة لم يره قط من قبل . على ظهر البغال ، أو فى عربات مخلعة ، أو فى سيارات

فورد عتيقة ، جاز أراضى كساها الخنشار والسرخس والصنوبر ، أراضى مهجورة كئيبة إلى أبعد حد ، وقد زاد من وحشتها منظر الغابات المقطوعة أشجارها دون تعقل وجذوع الشجر تغطى كالبثور وجه الأرض ، — أراضى سادها البؤس حتى كاد الناس يموتون فيها جوعاً ولا يستطيع العيش فيها حتى الخنزير البرى الشائك الظهر ، وحيث تعلو فيها قرقعة الأسواط السوداء فى أيدى رجال خيم عليهم الجهل حتى أضحى من المستحيل استئصال شوكته أو يكاد — مر ستيفن بمقاطعات لم تر كاهناً قط . فى بعض المقاطعات كانت حال الكنائس تدعو إلى الشفقة ، فلم تكن تأتيها النجدة إلا نادراً من بعض المبشرين المتجولين ، هذا إذا مروا بها . كانت أسر البيض ، الكاثوليكية أصلا ، قد بدأت تفقد إيمانها بسبب نقص شعائر العبادة . وأدى إهمال الزنوج الروحى إلى إيقاع تسعة وتسعين بالمئة من السكان الملونين فريسة سهلة لا منازع عليها فى أيدى البروتستان .

صعق ستيفن من رؤيته الارتباط الوثيق بين الفقر الاقتصادى والحقد الدينى . فى المقاطعات حيث الكنيسة فقيرة ضعيفة ، كانت « عشيرة الكوكلوكس » تجلد الكاثوليك الرومانيين دون هوادة ، لكن حيثما وجد أسقف جرىء يقاوم هذا الظلم — وإن بَعُد كرسيه مئات الأميال عن المكان — فهناك كان الكاثوليك يعيشون فى حال أقل ضيماً .

* * *

فى متاهات منطقة المستنقعات الخربة الكئيبة وبعيداً عن حماية أى أسقف ، صادف ستيفن متاعب خطيرة . كان عائداً من زيارة مدرسة منفردة للزنوج يديرها المرسلون اليوسفيون ، عن طريق السكة الحديدية « جينسبورو وبيتى » ذات الخط المفرد ، وإذا بالقطار يقف وسط مستنقع . طرق أذن ستيفن صوت قسم قذر ، فمد رأسه من النافذة ورأى السائق يمسح عنقه بمنديل أزرق .

لما كان ستيفن هو المسافر الوحيد فى القطار ، فالأمر يهمه شخصياً . اتضح أن القاطرة رقم ٩ ، من مصانع « ستونوول جاكسون » ، وهى تحمل فى مقدمتها مثلثاً فولاذياً لدرء ما يعترضها على الخط ، قد كسرت عموداً دافعاً . حسب قول « ليم تنجلى » — وهو سائق وفحام ومفتش معاً على هذا الخط — كان إصلاح

الأعمدة الدافعة من أدق الأعمال وأصعبها . أولا يجب السير إلى « راسى » ، أقرب محطة للهاتف ، وهى تبعد مسيرة أربعة أميال على الخط . ومن هناك يطلب مكتب جينسبورو ، وهى المحطة النهائية الجنوبية لهذا الخط . فإذا ما رد أحد على الهاتف ، يطلب منه إرسال عمود دافع آخر على عربة يد .

قال ليم : « على هذا القياس ، يجب أن يصل العمود هنا غداً ظهراً . ثم إذا حسبنا ثلاث ساعات أو أربعاً لتركيبه ، فإنا سنواصل طريقنا يوم الجمعة مساء » .

إن التفكير فى التسكع ثلاثين ساعة فى مستنقع يكتسحه البعوض ، لا يدعو مطلقاً إلى الاطمئنان . كانت أوامر كارنجى صريحة : « اطلع على ما يجرى فى الجنوب » . وقد يستفيد جداً من وقته إذا قام بزيارة المدن القريبة .

فسأل ستيفن السائق : « هل يوجد مكان فى هذه الأنحاء أنزل فيه ؟ »

نعم ، يوجد فندق الهلال فى أواسو على مسيرة ثمانية أميال على الخط ، لا بأس به من مكان ، لكن ليم تنجلى ، فى أعماق ضميره ، لم يستطع حقاً إرشاد ستيفن إليه ، فقال له : « إن الناس فى هذه الأرجاء قد يستاؤون من رؤية ياقة رومانية بينهم » .

— « سأحاول تجربة حظى » .

ترك ستيفن حقيبته فى القطار ، وطفق يسير على السكة الحديدية ، خلع ياقته خوفاً من أن تفسدها الشمس . وبعد ثلاث ساعات — عندما وصل إلى تجاه أواسو — حثته رصانته الكهنوتية ، فربط ثانية ياقته حول عنقه . أحدثت شارة رتبته البيضاء هذه موجة استغراب خفيفة بين فريق من الجالسين على الكراسى الهزازة فى شرفة فندق الهلال . كان سبعة أو ثمانية منهم يتمايلون على كراسيهم ينظرون إلى ما حولهم ، بل إلى العالم أجمع ، كهيئة من الحكام لا عمل لهم . كانوا على ما يظن مشتركين فى منافسة من نوع خاص حول إنتاج سوائل التبغ . كان الأسبق فيهم من يبصق أكبر كمية من لعابه الذى اسود من مضغ التبغ . إلى أبعد مسافة ، بدقة ومهارة . توقفوا برهة عن عمليتهم هذه ، لكنهم ما لبثوا أن ضاعفوها عندما بدأ ستيفن يصعد الدرج .

تقدم موظف قد يجوز أنه خدم كساع للمتآمرين الجنوبيين فى معركة

شيكاموجا ، وأبرز مستاء سجلا ، وفيما كان ستيفن يكتب اسمه ، قال له: « الثمن دولاران، والدفع مقدماً . إليك المفتاح ، يا مستر ، الغرفة رقم ٤ ، اصعد الدرج ، الباب الأخير على اليسار » .

فاحت رائحة الغرفة رقم ٤ ، كبرميل للسمك . سرير قذر تسرح فيه الحشرات ، عليه حشية ذاب وسطها . وعلى الأرض بساط من القش المتعفن . على الحائط تدلت مفكرة دينية قديمة مهملة اصفرت أوراقها ، هي كل ما تبقى من مؤتمر الأناجيل الأربعة المنعقد فى أواسو منذ أمد بعيد . فقرأ ستيفن نص الإنجيل لشهر أغسطس سنة ١٩١٢ : « ما هو الإنسان حتى تذكره ، أو ابن الإنسان حتى تفتقده » .

كانت الأدوات الصحية الوحيدة فى فندق الهلال هى مغسلة واحدة فى الدور الأرضى . فنزل إليها ستيفن . كان منهمكاً فى غسل وجهه ويديه . وفكره يسرح مرحاً فى العشاء الدسم المنتظر ، وإذا بوفد من البصاق المتنافسين قد اندس داخل الحمام . وقذف أحدهم ربع لتر من لعابه الأسود فى حوض الغسيل وسأل :

— « ماذا تعمل هنا فى أواسو ؟ »

— « أهتم بشؤونى » أجاب ستيفن بمرح .

— « وأى شؤون لك ههنا ؟ »

— « إنى كاهن ، وأقوم بزيارة الكنائس الكاثوليكية فى هذه المنطقة» .

— « ربما تريد بناء كنيسة كاثوليكية جديدة فى أواسو ؟ » وتطايرت بصقة من السائل القاتم من شدقيه وارتطمت بطرف حذاء ستيفن .

— « عندك ، يا مستر — أجاب ستيفن — إما أنك أخطأت الهدف وإما أنك أخطأت الأدب» .

— « إنه لم يخطئ الهدف — زمجر أحد الثلاثة — إن چيف يستطيع قتل ذبابة على بعد عشرين خطوة » .

أما قاتل الذباب فلم يثره مديح مواطنه ، بل استرسل فى حديثه يقول : « نحن سكان أواسو لا نرحب بالغرباء الذين يلبسون ياقاتهم عكساً . ونريد كأصدقاء أن نتركهم يغادرون المدينة دون إثارة مشاكل . لكن إذا ما رفضوا الذهاب بسلام ،

بعندنا طرقنا لإقناعهم » .

— « سأغادر المكان حالما أستطيع ذلك — أجاب ستيفن — هل يوافقكم يوم غد صباحاً ؟ »

— « فى الحال يوافقنا أكثر » ، أجاب چيف .

— « أسف لعدم استطاعتى إرضاءكم » . وفتح ستيفن لنفسه طريقاً بكتفيه وخرج من الحمام .

فى فندق الهلال ، يقدم العشاء فى ساعة مبكرة . الطعام بسيط : بضع شرائح من لحم الخنزير ، شعير مسلوق ، عدس بجبنته ، ثم قهوة بماء المطر . لما كان ستيفن تعباً من سيره ثمانية أميال طوال بعد الظهر ، صعد حالا بعد العشاء إلى حجرته وخلع ثيابه واستلقى على حشية سريره الذابلة .

كان ليلا ، عندما استيقظ على صوت قدم ثقيلة تطرق باب حجرته :

— « افتح » .

قفز ستيفن من سريره وارتدى بنطلونه وحذاءه ثم فتح الباب . كان الممر مكتظاً بوجوه ملثمة ببراقع مخروطة الشكل :

— « إنك لم تغادر مدينتنا بطريقتك ، فسنخرجك منها بطريقتنا . البس ثيابك ، الياقة وكل شىء . ستكون العملية تلبيسة ممتعة » . ثم انقضت عليه ست من الأيدى وجرته خارج باب الحجرة ، وأيد أخر ربطت عينيه . ثم دفعوه على الدرج يتعثر وألقوا به على مقعد فى سيارة أخذت تئن تحت ثقل راكبيها . لم ينطق أحد بكلمة طول مدة المسير .

لما فكوا الربطة عن عينيه ، رأى ستيفن نفسه وسط حقل واسع ، يحيط به رجال ملتحفون كالأموات بغطاء أبيض ، على ضوء ثلاثة صلبان تحترق . ووقف أمامه رجل ملثم يداعب جلد سوطه الأسود ، ورجل آخر ملثم أيضاً يحمل فى يديه شيئاً لامعاً .

وسأله الرجل : « أتعلم ما هذا » ؟

فنظر ستيفن إلى ما فى يدى الرجل وقال : « نعم » .

— « وماذا تسمونه أنتم الكاثوليك » ؟

فأجاب ستيفن : « الكاثوليك والمسيحيون فى كل مكان يدعونه صليباً » .

— « هذا عين الصواب ، يا ملعون . وهكذا دعاه ذلك الزنجى الصغير وهو يبكى عندما انتزعناه منه . غريب ، كيف توسل إلينا كى يقبله عندما شنقناه » .

— « كثيرون توسلوا كى يقبّلوه ساعة موتهم » ، قال ستيفن .

ثم تقدم حامل السوط وقال : « حسناً ، ليس اجتماعنا اجتماع " تعالوا إلى يسوع " . ولن يصير الليلة تقبيل صليب . كل ما نريدك أن تفعله ،أيها الغريب — وقرقع سوطه بالقرب من أذن ستيفن — هو أن تبصق عليه» .

لم يصدق ستيفن أن الامتحان الوضيع الذى يريدون إخضاعه له حقيقى . فأخذه شعور بالتوء من جراء ما يقترحه هؤلاء الرجال العقلاء . فسأل :

— « وماذا يعنى ذلك ؟ »

— « ماذا ؟ ذلك يعنى أنه ما من كاهن أبيض اللون يستطيع حشر أنفه حيث لا رغبة فيه » .

فرأى ستيفن مخرجاً وقال : « لقد اتضح لى كل شىء الآن . قد ظننت برهة أنكم خرجتم إلى ههنا كى تهينوا صورة المسيح . لقد كنت على خطإٍ . فى الحقيقة أنكم لا تريدون إهانة مخلصكم . إنكم تريدون فقط إرهاب كاهن كاثوليكى» .

— « هذا ما نريده ، فى الواقع » .

— « إذن ، هيا ابدأوا تخويفى » .

كان حامل السوط يترقب أن يتذلل ستيفن ويتمسكن . فقال : « إذن ، أنت تعنى أنك لا تريد أن تبصق على هذا الشىء » ؟

— « بالحق لا أستطيع ذلك» .

وقلب ستيفن الاقتراح : « ابصق أنت عليه » .

هال هذا الاقتراح مدير الحفل . فأمسك بالصليب ويده مبسوطة ، وتفرس فيه بدهشة كرجل يرى شيئاً للمرة الأولى وقال : « لا أدرى حقاً هل أستطيع ذلك ! »

فوجه ستيفن سؤاله للحاضرين : « ربما استطاع ذلك واحد منكم ، أيها الإخصائيون فى مضغ التبغ ؟ »

فسرت بين الجميع رعشة ، وغمغم أحدهم : « ألق بهذا الشيء اللعين إلى النار » .

— « كلا ، أعطنيه » ، قال ستيفن . ثم رفع الصليب بيده كمصباح فى الظلام ، وصاح : « هيا إلى الجلد » .

— « ليكن كما قلت ، يا مستر » . وانهال رئيس الملثمين بسوطه ولفه على كاحلى ستيفن ، وقال : « إذا كنت لا تريد أن تبصق عليه ، فارقص إذن » .

سرت شجاعة الشهداء السالفين فى كل عضو من أعضاء ستيفن . فسمر عينيه على الصليب الذهبي ولم تهن عزيمته ولم ينبس ببنت شفة .

— « ربما يرغب فى بعض الموسيقى . أسمعه " ديكسى " على الهرمونيكا ، يا ليف » .

فارتفع صوت الآلة المعدنية على لسعات السوط ، ورافقته أصوات كئيبة تغنى اللازمة ، وصفقت بالإيقاع أياد خشنة ، وتصاعد السوط حول جسم ستيفن إلى ركبتيه فما فوق .

آه ! وددت لو كنت فى ديكسى

مرحى ! . . . . مرحى ! . . . مرحى ! . . .

أرض مضغ التبغ ! . . . اغفر لهم ، يا رب ، فإنهم لا يدرون ما يفعلون ! . . .

فى أرض ديكسى سأحط قدمى . . .

لابد للإنسان أن يستقر فى مكان ما : ديكسى ، أو رونسڤال ، أو تلال تيبورن ، لا فرق فى الأمر . كان ستيفن يصلى فى أعماق نفسه كيلا تسقط نقطة واحدة من لعابه ولا يفوه بطلب ذليل إلى الرحمة ، قبل النهاية .

وانتقلت الهرمونيكا إلى لحن أكثر مرحاً « الديك الرومى بين التبن » . لكن لسبب أو لآخر لم يدركوه ، لم تسر الحفلة كما أرادوها . وسمعت بعض همسات الاستنكار : « إنه لا يهتز كما يجب » — « هل فقدت أعصابك ، يا چيف ؟ » .

فطفق الضارب بالسوط يعتذر : « لا أستطيع قرقعته كالمعتاد ، وهو لا يزال يمسك هذا الشيء أمامه . هل يجرب أحد غيرى » ؟

لم يتقدم أحد . ثم انطفأ عطشهم إلى التعذيب . وطوى چيف سوطه فى زمجرة

من السأم ، وقال : « هيا بنا نعود إلى المدينة . ولنتركه إلى البعوض يقضى عليه » .

ثم ركب الرجال الملثمون سياراتهم كصيادين سيطر عليهم الغم والعبوس ، طاردوا فريستهم واضطروها إلى الهرب فوق شجرة وأخفقوا فى إسقاطها . ظل ستيفن رافعاً الصليب فوق رأسه حتى اختفى آخر ضوء فى مؤخرة السيارة ، فأنزله .

وحيداً فى منتصف الليل وسط أرض غريبة ، أيقن ستيفن أنه من الجنون الهيام على وجهه فى هذه الأرجاء . الحل الحكيم الوحيد هو أن يمكث مكانه وينتظر إلى أن يلوح الصبح . فوضع على جمر الصلبان المحترقة بعض الأعشاب والأغصان الجافة المتكسرة ، فاكتسب بذلك حماية ورفقة بالقرب من النار . ثم جلس فى اتجاه الدخان ليأمن شر البعوض ، وعلى ضوء النار تفحص الجروح على الجزء الأسفل من جسمه . فى أماكن عديدة حيث تمزق الجلد وتقطع ، تكونت لطع كبيرة سوداء سال منها الدم ثم جف . لم يكن ذلك عماداً بالدم ، لكنه قريب جداً إليه .

فى المدة بين منتصف الليل والفجر — وقد بدت دهراً — جلس ستيفن يتأمل فى سر المصلوب الذهبى . ألقى هذا الرمز اللامع للفداء الكامل ضياءه وقوته حتى على النفوس الملتحفة بالظلام ، فهدأ — وإن قليلا — من وحشية الرجال .

عند شروق الشمس قدر ستيفن موقفه بكل شجاعة . ثم اتخذ طريقه نحو الجنوب الشرقى مؤملا عاجلا أو آجلا الوصول إلى خط السكة الحديدية « جينسبورو وبيتنى » . تناول إفطاره قليلا من ماء جدول عذب ، وغسل التراب والدم من على جسمه ، ثم تابع طريقه وسط حقول مقفرة لا يستطيع إنسان أو حيوان العيش فيها من شدة البؤس الذى يسودها . ثم بدأ الجوع يهد قواه . كان الوقت ظهراً تقريباً عندما وصل إلى طريق تتراكم فيها الأقذار وتكثر فيها الحفر التى أحدثتها عجلات العربات . فرقد فى حفرة بجانب الطريق واستغرق فى النوم ، فى جحيم شمس الظهيرة .

استيقظ من نومه على نخسات قدم فى كتفه . رفع طرفه فرأى رجلا مقدد الوجه ، قد انتفخ خداه بالسائل المألوف ، يتفرس فيه . فى مظهره ولباسه ، بدا

الغريب صورة مجملة لجميع المتسكعين على شرفة فندق الهلال . قبعة من القش قديمة ، بنطلون قاتم بليت ركبتاه وتشده حمالة قصيرة زادت من ميله وانحرافه ، ذقن غير حليق وحرقدة كبيرة . صورة كاملة طبق الأصل كسالفتها ، ما عدا البندقية وكلاب الصيد .

كان الرجل يقول لستيفن : « يبدو أنك وقعت بين أيدى لصوص ، أيها الأخ » .

غريب ! هذا الكلام تشمّ منه رائحة التوراة . لم يرد عليه ستيفن، بل راقب الغريب يفتش فى جرابه المدلى على كتفه العظمية . وأخرج الرجل قطعة مربعة من خبز الأذرة ، وقطعة من اللحم الدسم ، وقدم الطعام لستيفن ، وأشار عليه قائلا :

— « جدد نشاطك بهذا » .

التهم ستيفن قطعة الخبز ثم تفرس بحزن فى قطعة اللحم الشهية ، وأجاب حيث لا مفر بعد الآن : « شكراً يا سيدى ، لكنى لا آكل اللحم يوم الجمعة » .

— « كاثوليكى ؟ آه ! »

الأفضل المضى إلى النهاية : « نعم ، كاهن كاثوليكى » .

لم يحدث هذا التصريح عند ماضغ التبغ تغييراً ملحوظاً فى قسمات وجهه ، سوى أنه نقل قطعة التبغ من جهة إلى أخرى فى فمه . ثم قال : « إنى لا أرى كثيرين من نوعك فى هذه الأنحاء . أين وجهتك ؟ »

— « إنى أحاول الوصول إلى سكة حديد جينسبورو وپيتنى ، على بعد أربعة أميال جنوبى راسى . هل تعرف المكان ؟ »

فأجاب الرجل فخوراً : « راسى ؟ عندى ضرس ينتظرنى هنالك . كنت عازماً على خلعه غداً ، لكنى أظن أن العم كرومپس لن يمانع فى خلعه اليوم بعد الظهر » .

— « هل أنت طبيب أسنان ؟ » سأله ستيفن .

فزج الرجل يده فى جرابه وأبرز كماشة ، وقال ضاحكاً : « على كل حال ، أحمل معى أدواتى . اسمى تاتسپو مزيل الألم . طرق تطهير حديثة . أسعار معقولة . الضروس والنواجذ أجر خلع الواحد منها خمسة وعشرون سنتاً . أما ضرس العقل فنصف دولار » .

حدق الطبيب المتجول فى ستيفن وقال : « يبدو أنك مثخن بالجراح ، أيها الأخ . ماذا فعلوا بك ؟ » ودون الإشارة إلى من هم هؤلاء ، أخرج تاتسپو علبة صغيرة من جرابه وغمس إصبعه فى قليل من مرهم الكاكاو ، وقال لستيفن مفسراً : « هذا هو مرهم تاتسپو العجيب . مضمون لشفاء الجروح والقروح والبثور — ثم بصق بصقة عظيمة — ولسعات السوط أيضاً . لنجرب بعضاً منه على المواضع التى تؤلمك » .

قبل ستيفن شاكراً خدمات الرجل . وإذ انتعش بقطعة الخبز ، والمرهم العجيب ، وخدمات السامرى عموماً ، انتصب بشدة على قدميه .

سار ستيفن يحاول اللحاق بخطوات تاتسپو الواسعة ، وقد غير ظنه وتقديره بنوع ملحوظ فى خلق أهل الجنوب . كان تاتسپو يمضغ التبغ ويبصق سائله فى دقة ومهارة تماماً كما يفعل أى فرد من الرجال فى فندق الهلال . كان قذراً ، جاهلا ، متحرراً فى ألفاظه ومعتقداته،لكنه كان يملك ميزة لا تقدر بثمن ولا ترتبط بأى جماعة من البشر أو بقعة من الأرض — ألا وهى الروح الطيبة الحقيقية . ولقد برهن عن طيبة قلبه هذه عندما انحنى وجمع حفنة من زهر الكشاتبين الذى قال إنه قد يشدد قلب الجدة « فوچيت » . وظهرت أيضاً روحه الطيبة فى طريقة شده حبل البردعة الذى كان يضايق بغلا أجرب . راقبه ستيفن يخلع ضرساً لمزارع تورم فكه فأدرك أن تاتسپو لم يكتسب شهرته فقط بسبب مهارته ، بل أيضاً بفضل الثقة العمياء التى كان يوحى بها ، كالمنوم المغناطيسى ، إلى مرضاه .

بعد ظهر ذلك اليوم الغالى كالمرجل والمشحون بالغبار ، التهمت ساقا « بن تاتسپو » الطويلة عدداً لا يحصر من الأميال . انهارت قوى ستيفن حتى الرمق فسأل أخيراً رفيقه بأنين : « كم ميلا باقية إلى راسى ؟ »

ودون أن يفقد الطبيب المتجول خطوة من خطواته ، اندفع يشجعه قائلا : « تشجع ، يا محترم ، فقد قربنا » . ثم أخرج من جرابه شيئاً بيضى الشكل أسود اللون ، وقربه من شفتيه ونفخ فيه صوتاً خفيفاً ، وقال : « ربما يشدد لحن سيرٍ عضلات ساقيك . ألم تسمع أغنية البطاطا الحلوة ؟ »

اعترف ستيفن أنه لم يسمعها قط .

– « إذن ، إليك دواء ناجعاً ، أيها الأخ» .

أثبت « بن تاتسپو » براعته وخفته فى اللعب على هذه الآلة البدائية ، بنت خالة القرعة ، وهما لا يزالان يقطعان الوديان والمستنقعات والحقول . لعب أظرف المقطوعات فى الدبلك والرقص . ثم نفخ من صدره الضيق زفرة طويلة واستهل بعظمة أغنية ديكسى :

فى الجنوب النائى ، فى أرض القطن
ما ألذ الأيـــام الغـــابرة
ها هى ذى ! ها هى ذى ! ها هى ذى !
أرض ديكسى .

دائرة تامة الشكل . اللحن نفسه ، والكلمات نفسها ، والبقعة عينها . من الأول إلى الآخر – لكن فى هذه المرة كانت أصابع أخرى تنشد الوقع فى قلب ستيفن . فاندمج فى الغناء مرحاً والغبار يحوطه .

بعد خروجهما من غابة صنوبر ، أوشك ستيفن أن يصطدم بخط سكة حديد أكله الصدأ .

– « راسى » أعلن تاتسپو ، ثم أشار نحو الجنوب : « ستجد رقم ٩ على هذا الخط » . وأسبغ على سؤاله الأخير مسحة من العطف والرقة : « هل تريدنى أن أرافقك ؟ » كان الرجل قد سار مرات الميل الذى ذكرته التوراة ، وكان مستعدّاً أن يسير أكثر أيضاً .

– « كلا ، وشكراً ، أستطيع الوصول وحدى الآن » .

ساعة الوداع ، حاول ستيفن وضع ورقة بخمسة دولارات فى يد دليله ، لكن « بن تاتسپو » ، بطيبته الطبيعية ، رفض نقوداً لم يكن ليستطيع جمع قدرها مدة شهر فى خلع الأضراس . قال :

– « احتفظ بنقودك ، يا محترم ، فإذا جاء يوم لا أستطيع فيه مساعدة قريبى على النهوض من الحفرة التى وقع فيها ، فالأجدر بى أن أترك عملى » .

بعد مسيرة أربعة أميال أخرى على الخط صار ستيفن وجهاً لوجه أمام

ليم تنجلى ، وهو لا يزال يثبت آخر برغى فى العمود الدافع من رقم ٩ .

سأله المهندس : « كيف وجدت الأمور فى أواسو ؟ »

— « لا تختلف الحال كثيراً عما هى فى المناطق الأخرى» .

ما العمل ! هل يستطيع شرح الموقف بطريقة أخرى عن اشتباك خيوط الخير والشر التى تحيكها مصانع الحياة ؟

لم يعلم أحد بأن مساعد المندوب الرسولى قد جلد فى أثناء قيامه بمهمته ، أو أن غريباً مسافراً قد ضمد جروحه . لم يذكر ستيفن شيئاً من ذلك لكارنجى أو لأحد آخر . الذكرى الوحيدة من هذه الرحلة هى صليب ذهبى رخيص كان ستيفن يحتفظ به دائماً فى حقيبته حيثما ذهب .

* * *

عاد ستيفن إلى واشنجطون وحقيبته ملأى بالملاحظات ، وشرع يكتب تقريراً خاصًّا إلى المندوب الرسولى . قضى أسبوعاً كاملا يصف حال الكنيسة فى الجنوب ، وختم تقريره بتوصيات عاجلة للعمل الكاثوليكى السريع فى هذا الجزء المهمل من الولايات المتحدة .

كتب يقول : « لكى نحفظ وننشر الإيمان فى هذه البقعة ، يجب الاعتماد على شيئين : المال والأساقفة . يجب جمع المال بواسطة تقدمات خيرية من المناطق الأكثر ازدهاراً . ويجب تعيين أساقفة جدد فى چورچيا ، وميسيسيپى ، ولويزيانا ، وألاباما ، ويجب أن يكون المنتخبون لهذه المراكز شباناً أقوياء يستطيعون الصمود أمام تحد مزدوج صادر عن البؤس المادى والعبادة المتطرفة» .

أرسل تقرير ستيفن ، بعد أن وافق عليه ووقعه كارنجى إلى جمعية الكرادلة فى روما . فسارع الكردينال عميد الجمعية ، وقد هالته خطورة التقرير ، وقدم توصياته إلى قداسة البابا لفتح أربع أبرشيات جديدة فى الولايات المتحدة كما هو مطلوب فى تقرير المندوب الرسولى هناك .

ليست عملية انتخاب هؤلاء الأساقفة عملية طائشة . إن الكنيسة ، لكى تحصل على أفضل الرجال تلجأ دائماً إلى طريقة اللائحة الثلاثية ، طريقة أثبتت صحتها الأيام . كل سنتين يجتمع أساقفة كل مقاطعة كنسية ، ويقدم كل أسقف

منهم لائحة ثلاثية ، كتب فيها أسماء ثلاثة من الكهنة فى أبرشيته يعتقد أنهم أفضل من يقدر لهم الانتخاب إلى درجة الأسقفية . ثم ترسل هذه اللوائح إلى المندوب الرسولى الذى بدوره يبعث بها ، مرفقة بملاحظات كثيرة ، إلى جمعية الكرادلة فى روما . وهناك تفحص أسماء وملفات هؤلاء المرشحين بكل عناية ودقة ، ولا يحتفظ إلا بأسماء من يرجى منهم أحسن النتائج ، أما الأسماء الباقية فتخضع لفحص متزايد دقيق وتتخذ فى شأنها إجراءات إضافية من مراسلات وملاحظات تطلب من رؤسائهم ، ولرأى المندوب الرسولى وزن كبير فى هذا الشأن . فهذه الكمية الهائلة من التقارير تغربل وتصفى وتفحص تحت المجهر ، فينتج عنها أخيراً من هو أهل للترشيح لهذا المنصب . ثم يرسل اسم هذا المرشح إلى الأب الأقدس الذى بسلطانه السامى كحبر أعظم يقرر الانتخاب نهائياً إذا ما شغرت إحدى الأبرشيات .

فى اللائحة الثلاثية لسنة ١٩٢٧ ، التى أرسلها الكردينال جلينون إلى المندوب الرسولى ، قرأ ستيفن اسمه بالذات مدرجاً مع مايكل سپيد وهوبرت سيلڤيرا من مدينة « بدفورد الجديدة » (نيو بدفورد) . فسرت فى عموده الفقرى من فوق إلى أسفل رعشة وخشية . هل اقترب اليوم الذى يدعى فيه لأن يدافع ويقضى ويفسر ويرسم كهنة ويثبت — ويحكم أيضاً ؟ . . .

إنما لم تأت الدعوة سريعاً . عندما توفى فى صيف تلك السنة الأسقف شيلدس من مين ، نصب خلفاً له حضرة المنسنيور مايكل سپيد . حضر ستيفن رسامة مايك سپيد مع خمسة وستين آخرين من الرؤساء الكنسيين الأمريكيين ، وراقب صديقه القديم يسجد أمام الهيكل ثم ينتصب ليتسلم التاج والعكاز ، رمز السلطة الأسقفية ، من يدى مكرسه الكردينال لورنس جلينون . بعد ذلك أقيمت حفلة استقبال فى مقر الأسقف الجديد حيث تقبل تهانى الجميع . لم يحسد مايك سپيد أحد قط ، فقد كان مسلماً بأن حافظ أختام أبرشية بوسطن هو من بين جميع الكهنة الشبان فى الولايات المتحدة ، الأكثر استحقاقاً ، وأنه سيحمل بكفاية تامة ، شرف مركزه الجديد ومسؤوليته .

لم ينقض شهر ، حتى أسلم الروح أسقف هارتفيلد ، سيادة المطران « چون كالترز » ، المجاز فى اللاهوت ، المثقل بالسنين ، المهدم بخمسة أمراض مستعصية :

القلب ، والكلى ، والكبد ، والشرايين ، والمرارة . وتكريماً للأسقف الراحل ، الذى كانت أبرشيته الثانية فى القدر بعد بوسطن فى بريطانيا الجديدة ، قبل المندوب الرسولى دعوة لحضور الجناز وإلقاء كلمة تأبين .

دعا كارنجى ستيفن ، قبل مغادرته واشنجطون ببضعة أيام ، وقال له : « سأتغيب مدة أسبوع أو أكثر . وفى مدة غيابى ستقوم موقتاً بأعمال المفوضية . إذا ما جدت أمور ذات أهمية خاصة فيمكنك الاتصال بى فى مقر الكردينال جلينون فى بوسطن» .

نقلت شركة « الصحافة المشتركة » النص الكامل لتأبين كارنجى — الذى كان له وقع مثير فى أسمى تقاليد الخطابة الدينية المقدسة . تدفقت الرسائل والبرقيات من جميع أنحاء البلاد . والمعلقون غير الكاثوليك أنفسهم اعتبروا خطاب كارنجى ثمرة تفاهم جديد بين روما وأمريكا .

عندما عاد المندوب الرسولى إلى واشنجطون كان مزاجه هادئاً مرحاً . قال : « قد قمت بجولتى حول الدائرة . أليس هذا هو التعبير الذى يستعمله المحاربون فى هذه البلاد ؟ . . . رأيت شعباً عظيماً وأشياء عديدة عظيمة أيضاً ، إنما أعتقد أن أعظم من رأيت هو كردينالكم لورنس جلينون . نعم ، إنه كالبناء الشاهق هذا الرجل — إنه حَدَث » .

— « إنى مسرور لاكتشافك حقيقة قدره — قال ستيفن — فى روما كان محجوباً فى ظل المراسيم . لكن فى هذه البلاد يعتبره الشعب كالمثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه أمير الكنيسة» .

كان كارنجى يتفقد بريده مشغولا فى طلب ظرف خاص . فقال : « إن نيافته يمتدحك كثيراً يا ستيفانو . فى الواقع ، إنه يبعث إليك بهدية » .

— « هدية ؟ »

— « نعم » . بكل بساطة ، سلم كارنجى إلى ستيفن علبة صغيرة مربوطة بشريط جمستى اللون ، وعاد بنفس البساطة إلى عملية تفقد بريده . نزع ستيفن الشريط والغلاف الخارجى ، وإذا به أمام حق من المخمل الأزرق قد خفت لونه فكشف الغطاء ، ويا للعجب ! ، فى ثنايا قطعة من الساتان الأبيض ، ظهر له

خاتم جمست مخروط طعمت جوانبه باللآلئ .

إنه الخاتم « دولشيتيانو » الذى أهداه إليه أورسلى منذ سنوات بعيدة . إنه الخاتم الذى باعه ستيفن ليسد به مصروفات نيدهالى فى مرضه الأخير . إنه الخاتم الذى اشتراه جلينون . . .

نظر ستيفن دهشاً إلى كارنجى ، الذى بعد أن وجد الظرف المطلوب أخذ يفض أختامه بسكين مقبضه من العاج . وهز المندوب الرسولى رأسه فى ابتسامة وقال : « نعم ، نعم ، يا ستيفانو . لقد رأى الكردينال جلينون أنك قد تكون فى حاجة إلى لؤلؤتك يوماً» . — ثم استطرد لقوله وهو يرمق الصك الذى بين يديه — « وبريدى من روما يقول لى إن الكردينال على حق» .

ثم دفع كارنجى إلى ستيفن الصك وقد رسمت عليه شارة پيوس الحادى عشر . سرح ستيفن طرفه فى الصك فوجد فيه ثلاثة مقاطع باللغة اللاتينية على صفحة واحدة . المقطع الأول ينعى بأسف وفاة سيادة المطران چون كالترز . والمقطع الثانى يقرر شغور كرسى هارتفيلد . والمقطع الثالث يقول :

« لذلك ، بقوة السلطان المخول إلينا دون انقطاع من بطرس التلميذ الأول نصرح ونعلن عن رغبتنا فى أن يرسم حضرة المنسنيور ستيفن فرمويل أسقفاً على هارتفيلد فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وأن يتسلم حالا السلطات والأعمال والواجبات الملقاة على عاتقه بواسطة القسم العلنى فى منصبه . وللبيان أصدرنا هذا الأمر الرسولى فى الرابع عشر من يوليو ، للسنة الميلادية ١٩٢٧ » .

كان الصك ممهوراً بتوقيع پيوس الحادى عشر ، وتحت التوقيع طبع خاتم الصياد .

* * *

الجزء الخامس

صولجان الأسقفية

الفصل الأول

ليس شارع الأثينيوم من الشوارع الرئيسية ، لكنه أحد أجمل الطرق فى الولايات المتحدة . يبدأ هذا الطريق العريض المظلل بشجر الإسفندان من وسط حديقة هارتفيلد العامة ، ثم يتجه جنوباً ماراً بأجمل أحياء المدينة التى تعد الثانية بين المدن الكبيرة فى بريطانيا الجديدة . فى الجزء الأول منه ترتفع بنايات شاهقة . فهنا تقوم شركة فينكس التعاونية للتأمين ، على أعمدة ضخمة — وبالقرب منها ترتفع القبة البيضاء لكنيسة الجمعية البروتستانية ، وهى من أبهى القطع المعمارية الهندسية لعقد الاجتماعات فى أمريكا — وأمام هاتين العمارتين مصرف هارتفيلد الأهلى ، وكنيسة القديس ألفريد الأسقفية ، والأثينيوم ذو البوابات الهندسية اليونانية الذى أطلق اسمه على الشارع . وبعد الأثينيوم ترتفع كاتدرائية القديس فيليپس مقر أسقف هارتفيلد الكاثوليكى الرومانى . وترى أيضاً فى الشارع نفسه مدرسة « حيرام ويذربى » الثانوية ونقطة المطافئ المركزية . وتؤدى هذه البنايات كل واحدة منها بطريقتها الخاصة ، خدمات عامة جليلة ، وتحفظ للمدينة طابعها ونظام حياتها . إلا أن هذا الأمر قد يمر خفياً على سكان هارتفيلد البالغ تعدادهم أربعمئة ألف مواطن ، إما لأن الواقع نفسه واضح لا يحتاج إلى مزيد من الإشارة إليه ، وإما لأن الأمر قد رقد فى ثنايا مخيلتهم مما قد يغنى أيضاً عن مزيد من الشرح .

إلا أن الحال لم تسر دائماً على هذا المنوال . مر زمن لم يسمح فيه بدخول مكتبة الأثينيوم المعتمة إلا للملاك فقط — وكان زمناً لم ينتخب فيه مدير لمصرف هارتفيلد الأهلى إلا من مارس العبادة فى كنيسة القديس ألفريد الأسقفية أو كنيسة الجمعية البروتستانية . كانت تلك الروح التعصبية التجنبية على وشك الانقراض قبل انقضاء

هذا القرن بقليل ، وإذا بالأسقف « چون ديسموند » الملقب بالمجازف ، يقوم بشراء قطعة أرض مساحتها فدانان على شارع الأثينيوم ليبنى عليها كاتدارئية القديس فيليپّس . فنعت بألفاظ أرق ما قيل منها : « متكبر » ، « طموح » ، « يجرى نحو الإفلاس» ، إلا أن الأسقف ديسموند لم يخش سوى الإخفاق فى الجمال الهندسى إذا ما عزم أحد على رفع بناء تجاه كنيسة الجمعية البروتستانية الناصعة الجمال والكمال . حقاً لم يعلم أحد شيئاً مما أسرّبه الأسقف ديسموند إلى مهندسه ، لكن يظن أن تعليماته له جرت على هذا النسق على وجه التقريب :

« ابتكر رسماً لكاتدرائية تضاهى كاتدرائيات شارتر وستراز بورج ، والقديس بطرس فى روما ، وأصهرها فى بوتقة الفن الأمريكى . استعمل فى البناء الحجر الوطنى فهو أكثر احتمالا لنوائب الزمن . إن مقالعنا الوطنية فى حاجة إلى عمل . ليكن البناء ذكرى من الماضى الأزلى وليندمج مع الحاضر التجارى وليدم إلى مستقبل خالد ، أعط الكاثوليك وهارتفيلد بناء يفخرون به » .

أما كيف يستطيع مهندس التوصل إلى التعبير عن رموز النوافذ الوردية والركائز الشاهقة فى إخراج فنى تستسيغه العقول الأمريكية ، فذلك حقاً جزء من السر الذى يحيط بالفن الغوطى . ودون شك قد نجح هذا المهندس فى إخراجه . فبدت كاتدرائية القديس فيليپّس قطعة مجيدة من حجر صلب قد انبثقت من صخرة بطرس الشماء . وسمت فيها الروح الشعرية فى قبتين توأمين ارتفعتا بفخر نحو السماء ، وأعادتا إلى ذاكرة الناس آمال التقوى والعبادة التى تغذى حياتهم . فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٢٧ تجدد البناء بهاء وتحققت الآمال فى الاحتفالات الخشوعية الرهيبة التى تم فيها تكريس ستيفن فرمويل أسقفاً على هارتفيلد .

فى صباح ذلك اليوم ، فى الساعة العاشرة ، تقدم الموكب داخل الباب الرئيسى إلى الكنيسة فى صف طويل من رجال الكنيسة بثيابهم الثمينة ، يتقدمهم حامل الصليب ، ثم خدم الهيكل والمرتلون . واهتز الأرغن طرباً على نغمات « هوذا الكاهن الأكبر » ، وارتجت الكنيسة كلها بأصوات الفرح والظفر ينثرها الأرغن فى جو من العظمة والمجد ، عندما قرب الموكب الرهيب من الهيكل ،

الذى انقلب فى لحظة إلى بركة تموج فيها الألوان الذهبية والحمراء . هنا وهناك فى الكاتدرائية ، بدت بعض الألوان الخفيفة منبئة بوجود مئات من الرهبان : الكرمليون والدومينيكان باللون الأبيض والبولسيون بالأسود والكبوشيون بالبنى القاتم . وفى الصف الأول ركع دونيس وسيليا فرمويل لا يجرؤان على رفع بصرهما إلى الموكب الرهيب الذى يقوم فيه ستيفن بالدور الأول .

اختلجت ألسنة اللهب على الشموع الطوال عندما تحرّك الكردينال لورنس جلينون ، وبرفقته ألفيو كارنجى ومايكل سپيد كمساعدين فى حفلة التكريس ، وتقدّم بخطى بطيئة نحو جناح الهيكل إلى اليسار ليقرأ المرسوم البابوىّ . فى هذه الأثناء ارتدى ستيفن النصيف والقميص والحزام والمعنقة والمشملة . ثم ركع أمام مكرّسيه وأقسم يمين الطاعة لأوامر الكنيسة وتعليماتها ، وقدّم نفسه ليحميها من الرجال الأشرار ، ووعد بزيارة قبر الرسولين بطرس وبولس فى روما كل خمس سنوات ، وتقديم تقرير كامل مفصل إلى البابا عن إدارته . ثم اختُبِر ستيفن باختصار فى إيمانه المستقيم فيما يتعلق بأمور العقائد والآداب ، فأعلن إيمانه الراسخ بتعاليم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية المقدسة .

ثم بُدئ القداس الاحتفالى برياسة الكردينال جلينون ، فى حين اندفع الأرغن والخورص فى ترتيل « يا رب ارحم » من موسيقى هايدن . وفى هذه الأثناء ارتدى ستيفن الجوارب والحذاء الخاصة برتبة الأسقفية ، ثم خلع المشملة وتسلم الصليب والوشاح الأكبر اللذين يرمزان إلى السلطات والواجبات التى تلقيها الكنيسة على عاتقه وتقدم ثانية نحو مكرسيه . فركع مكرسوه والتيجان على رؤوسهم ، أما ستيفن فانطرح بطوله على الأرض منكفئاً على وجهه أمام الهيكل ، فى أوضع شكل يتخذه متسوّل ، متضرعاً إلى الله ألا يحسب عليه معاصيه كإنسان ويتغاضى عن حقارته ككاهن .

صمتت الموسيقى ، فذهب معها الفرح والتعزية . ولم يُسمع إلا همس وتضرع إلى الله لنيل نعمته — تلك الهبة المقدسة التى يسبغ الله بواسطتها على البشر بعضاً من طبيعته الإلهية .

أنصت ستيفن ، وهو ملفوف بثيابه الأسقفية التقليدية ، إلى الجوقة وهى ترتل

باللاتينية طلبات القديسين ، المباركة أسماؤهم فى السماء والمكرمة على الأرض .

أيها القديسون ميخائيل وجبرائيل وروفائيل ،
وأنتم يا جميع الآباء والأنبياء . . . صلوا لأجلنا .

أيها القديسون بطرس وبولس ويوحنا ،
وأنتم يا جميع الرسل والإنجيليين . . . صلوا لأجلنا .

أيها القديسون بنديكت ودومينيك وفرنسيس ،
وأنتم يا جميع الرهبان والنساك . . . صلوا لأجلنا .

أيتها القديسات مريم المجدلية وإغناطيا وسيسيليا ،
وأنتن يا جميع العذارى والأرامل . . . صلين لأجلنا .

ثم تغيرت وجهة الصلاة وتصاعدت إلى الله فى توسل طلباً لحمايته ورحمته :

من سخطك . . . نجنا يا رب .
من الغضب والحقد وسوء النية . . . نجنا يا رب .
من الفجور . . . نجنا يا رب .
من البرق والزوبعة . . .
من الوباء والمجاعة والحرب . . . .
من الموت الأبدى . . . نجنا يا رب .

مرة أخرى تغيرت نبرة الصلاة ، فانخفضت الأصوات وارتعشت خوفاً من الرب :

فى يوم الدينونة . . . نضرع إليك أن تنصت إلينا .
لكى تنجينا وتغفر لنا آثامنا . . . نضرع إليك يا رب .
لكى تسوس وتحفظ كنيستك المقدسة . . . نضرع إليك يا رب .
لكى تثبتنا وتحفظنا فى خدمتك المقدسة . . . نضرع إليك يا رب .
يا حمل الله الرافع خطايا العالم ،
نجنا وأنصت إلينا وارحمنا يا رب .

انتهت طلبات القديسين ، ثم ساد الحضور صمت رهيب لم يجرؤ أحد على

قطعه . فكث الجميع بلاحراك : المؤمنون والجوقة ، والأساقفة المكرّسون والشخص المنكفئ على وجهه أمام الهيكل . لبرهة وجيزة ، مرّ الحفل بعالم من الأسرار الخفية العجيبة توطئة للحدث المجيد المرتقب : الخلافة الرسولية .

انتصب ستيفن على ركبتيه . ووضع لورنس جلينون ، يساعده مرافقوه الأساقفة ، كتاب الإنجيل مفتوحاً على عنق ستيفن ، وقال فى همسة : « خذ الروح القدس» . ثم دهن الكردينال باسم الثالوث الأقدس جبهةَ ستيفن بالميرون المقدس — وهو مزيج من الزيوت الثمينة والصموغ المكرسة لهذه الغاية . بعد ذلك ، سرح جلينون شعر ستيفن بمشط من العاج ذى مقبض مذهب ، وصفّه كما كان من قبل . ثم دهن أيضاً يدى ستيفن مكرساً إياها للعمل من أجل الله ، ثم دفع إليه الصولجان قائلا : « تسلم عصا الرعاة لتستطيع بالمحبة أن تقسو على رذائل الناس وتصلح من انحرافهم ، ولتصدر الحكم دون غضب ، ولتهدئ خواطر مستمعيك وأنت تحثهم على الفضيلة . وتشدد فى النظام بمحبة وهدوء » . ثم بارك الخاتم الأسقفى وأدخله فى إصبع ستيفن إشارة إلى أنه كما أن المسيح قد خطب الكنيسة كذلك الأسقف أيضاً قد خطب أبرشيته .

عند ذلك ، قدم ستيفن للكردينال مكرسه شمعتين وقرصين صغيرين من الخبز وبرميلين دقيقين من الذهب مملوءين خمراً .

لم يتسلم الأسقف الجديد تاجه إلا فى آخر القداس . فلما وضع جلينون التاج المطرز بالذهب على رأس ستيفن ، هدر الأرغن مردداً : « المجد لله » للقديس أوغسطينوس . وللمرة الأولى استدار الأسقف فرمويل نحو شعبه ونزل درجات الهيكل وتقدم سائراً فى وسط الكنيسة ، مزوّداً رعاياه ببركته وهم مطأطئى الرؤوس .

كان أول من تقبل بركته دونيس وسيليا فرمويل . أخذوا بركة ابنهم ورؤوسهم مطأطأة وأيديهم مشتبكة ، الإبهام اليمنى فوق اليسرى . ولما فاتهما ستيفن ، قربا رأسيهما وأسنداهما الواحد إلى الآخر ، كما يفعل أحياناً بعض الناس السذج عندما يسرون بعضهم إلى بعض بشىء لا تمتد إليه أذن الآخرين .

* * *

أقيمت فى حديقة الكاتدرائية حفلة استقبال عامة جمعت بين مظاهر الحياة

الرسمية والمرح الإسبانى والبساطة العائلية . قام فرسان كولومبوس بتحضير موائد الأكل والمرطبات فاختفت فى مدة لا تزيد على عشرين دقيقة ثمانية آلاف شطيرة ومئتا جالون من عصير الكرم . وقامت فرقة موسيقية من فرسان كولومبوس بثيابهم الرسمية ، بعزف مقطوعات خفيفة فى حين توجه الأعيان من كل الطبقات والسياسيون من كلا الحزبين الكبيرين ، نحو ستيفن لتحيته . ألقى حاكم الولاية — من الجمهوريين البروتستان — كلمة ترحيب اختتمها بجملة طريفة : « المجد ظل الفضيلة » . وعمدة هارتفيلد — من الديموقراطيين الكاثوليك — بسط قرطاساً مزيناً برسومات وزخارف ، على شبه ما يرى فى كتاب « كلس » ، وأفاض فى خطابه فى شرح مثل إرلندى معناه : « احرثوا الأرض إلى الأعماق » . — أوفد القساوسة البروتستان وفداً برياسة أحد النبلاء الأسقف « فورسايذ » من كنيسة الميثوديست الأسقفية . وتقبل ستيفن أيضاً تحية المعلم « يشوع فيلشين » من كنيس « بيت إسرائيل » . — وقدم له فريق من البنات الصغيرات من جمعية القديسة روزا باقة روحية من الصلوات . مر أيضاً أمام ستيفن رعاة الكاتدرائية فى الأبرشية ورؤساء السلك الرهبانى وما يقرب من سبعمئة راع وكاهن وراهبة من جميع أنحاء الأبرشية — جميعهم مروا أمامه وجثوا على ركبهم يقبلون الخاتم الأسقفى فى يده . انفجرت آلات التصوير بأنوارها الكهربية ، وتوسل إليه مراسلو الصحف ليدلى إليهم ببعض التصريحات ، وتعذر المرور فى ميدان هارتفيلد .

فى الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر اختفت الشطيرة الأخيرة ، وعزفت الفرقة الموسيقية مقطوعتها الأخيرة « من أجلك يا بلادى » ، ألفها لهذه المناسبة الأستاذ « ڤالنتين مولانى » عميد الهيئة الموسيقية فى هارتفيلد . ولما انفرط عقد الجمهور فرغ ستيفن إلى تحية أسرته وأصدقائه المجتمعين فى بهو الدار الأسقفية .

كان البهو مفروشاً ومؤثثاً على طراز ما يمكن تسميته بالفن الإرلندى الڤيكتورى . وقد حاولت بشدة السيدة جودوين خادمة « الأسقف الراحل » أن تحفظ للبهو طابع متحف جاهدت سنين أطوالا فى صيانته . كانت النوافذ محلاة بستائر من الدنتلا يعلوها غطاء قاتم اللون ضفر على جوانبه فى عقد عديدة شريط من الفضة كان يثير إعجاب ملتزمى دفن الموتى . ومع أن الأسقف الراحل لم يتعود قط تدليك

شعره بالزيوت والدهون ، إلا أن السيدة جودوين لم تقصر فى شىء ألبتة ، فوضعت على رأس كل مقعد وعلى المساند مفرشاً صغيراً مطرزاً زيادة فى التحفظ من الاتساخ . من السقف ، تدلى شمعدان من الكريستال كأنه قطعة متجمدة من رواسب الماء فى سقوف المغاور لا يتناسب مع أى شىء آخر فى الغرفة سوى پيانو قديم صنع «آيڤرز وپوند» ، بندقى اللون ذى أرجل كمخالب الوحش ، ألقت عليه السيدة جودوين غطاء مثلث الزوايا من الدانتلا لتخفى شكله البشع . فى وسط الغرفة ، على منضدة مكسوة بالرخام وضع جرس من الزجاج ، وتحت الجرس كتاب خدمة القداس الذى كان يستعمله أسقف هارتفيلد الأول . لو أفرغ البهو من كل شىء لبدا قبراً . أما الآن بوجود أسرة ستيفن وأصدقائه فهو يئز أزيز المرح والسرور .

خلع ستيفن ثيابه الأسقفية وارتدى جبة سوداء قدمها إليه ذووه هدية فى يوم رسامته وانتصب أمام باب البهو وقال : « أخيراً ، ها نحن أولاء وحدنا » . وانفجر ضاحكاً مع الجميع .

هنا فى هذه الحجرة الواحدة اجتمع كل من يمت إليه بالمحبة أو بالدم . إنهم جزء منه . فحياهم ستيفن واحداً واحداً : دن وسيليا اللذين أعطياه الحياة . كان دن قد حلق ذقنه ونعمها بمشقة ، ولبس لهذه المناسبة حلة زرقاء قاتمة لا تختلف – لو وجدت عليها شرط رتبته – عن بذلة سائق الترام . وبدت سيليا أنيقة فى ثوبها الحريرى المشجر وقبعتها الجديدة التى اضطرتها بناتها إلى لبسها . فى رهبة وفضول تلمست سيليا خاتم اللازورد فى إصبع ابنها وتمتمت بقولها : « جميل ، يا ستيف ، جميل» . ثم لمعت عيناها وأضاء محياها ببريق من الخبث والمداعبة ورفعت يدها اليسرى وأشارت إلى خنصرها حيث تلبس الخاتم الرقيق الذى وضعه فيه يوماً دن منذ ثلاث وثلاثين سنة وقالت فى غمزة وكبرياء : « كان على هذا الخاتم أن يوجد قبل ذاك » . ولن يستطيع جميع اللاهوتيين منذ « أوريغينوس » إلى « مرسييه » أن يدحضوا قولها .

كان أسعد حدث فى ذلك اليوم هو قيام ستيفن بتقديم والده إلى الكردينال جلينون ، بكل فخر قاد دن إلى المقعد الذى جلس عليه جلينون وجعل منه عرشاً

بمجرد جلوسه عليه . فتصافح الرجلان كسيدين عديلين يدرك كل حقه على الأسقف الشاب : دن ، الأب الأرضى ، وجلينون ، الكفيل الروحى . انحنى دن على يد الكردينال احتراماً وحفظاً للتقاليد المجيدة . أما جلينون اعترافاً منه بأن هذا السائق الأشيب يفضله مقاماً فى هذا الموقف على الأقل — فجر دن قريباً إليه جدًّا وطوقه بيده برهة وجيزة ثم قال له :

— « لاشك أن هذا اليوم فخر لك ، يا سيد فرمويل» .

— « نعم ، يا صاحب النيافة » .

ثم تفحص جلينون بعينه البندقية الآمرة رأس دن الضخم وقال : « أسرّ ستيفن إلى يوماً بأننى أذكّره بك . هل ترى وجهاً للشبه ؟ »

وضح لدونيس فرمويل أن وجه الشبه ليس ماديًّا . كان شعره كاملا ، أما رأس الكردينال فكان أصلع كالبيضة . قست يدا دن وضلوع صدره وتصلبت من طول العمل . أما جلينون فكان بديناً رقيقاً . قضى الكردينال حياته فى إصدار الأمر فبدا قوامه ثابتاً قويًّا على حين انخفض رأس دن وكتفاه من العمل المضنى . فهل بعد ذلك من وجه شبه بين هذين الرجلين ؟ مع ذلك ، رأى دن وجهاً ممكناً للشبه بينهما . ولما كان دن مفتقراً إلى المهارة فى مجاملة الناس ، فقد أفضى بالحقيقة كاملة فى أبسط ثوبها :

— « أعتقد ، يا صاحب النيافة ، أنى أدرك ما عناه ستيفن . لقد علمت ابنى أن يقدر قيمة الجرأة . فإذا وجد وجه شبه بيننا ، فذلك لأنه قد أدرك أن تعليمى قد تجسم وتعاظم فيك » .

فغر جلينون فاه مشدوهاً بهذا المديح وقال مردداً : « أنتم ، أيها الفرمويل ! » ثم رجع إلى نفسه وأضاف : « إن أبرز وجه شبه ألاحظه فى هذه الحجرة ، يا سيد فرمويل ، هو التقارب الشديد بينك وبين ابنك » .

برز العرق الأزرق فى جبهة جلينون المستديرة ورآه ستيفن ينتفض بشدة ، دلالة على صداع أليم سببه له الإجهاد فى ذلك اليوم . فاقترح عليه ستيفن بلطف سائلا : « هل تودون نيافتكم الاستراحة قليلا ؟ »

— « ويفوتنى أظرف جزء من الحفلة ؟ كلا ، يا ستيف ابنى ، كلا . بوسعى

أن أتحمل صداعاً كل يوم — فهل بوسعى أن أتمتع مراراً بحفلة عائلية كهذه . ما أكثر الصلوات والاحتفالات فى ذلك اليوم ! دعنا نشعر بوجودنا كبشر ، وإن لبرهة وجيزة من الزمن» .

فأحاط حينئذ جميع أعضاء أسرة الفرمويل بأخيهم الأسقف وزاحموه من كل جهة : أولهم برنى يشع بسترته الصباحية ، وياقته العالية ، وحذائه التيتل العالى ذى المسماة السويدية — فارقته مسحة الفنان المبتدئ ، وأصبح نجماً فى الإذاعة يرتقى صعداً حتى نعتوه بهذا اللقب الوطنى : الشحرور الإرلندى . — ثم چورچ ، المحامى والسياسى ومستشار ألفريد سميث ، أنيق فى اختياره وارتدائه ملابسه على الطريقة المثلى اليوركية الحديثة — ثم هيلانة ، ابنة القديسة تريزا الروحية التى نزعت عنها الخمار والتى لا يزال جسمها النحيل يشتعل كالشمعة ويحترق بالعبادات الخفية والعمل الذى لا يوقفه كلل فى المقدس . — « فى جميع صلواتك اذكرينى يا هيلانة» . — ثم فلورى العاقر التى عاقها مشدها الثقيل من الانحناء لتعانق ستيفن وهو يقبلها . — ثم ريتا والطبيب چون بيرن ، الزوجان السعيدان بزواجهما الكاثوليكى ، مع أبنائهما الأربعة يحومون حولهما كالنحل . — وأخيراً ابنة منى الصغيرة التى تبنتها أسرة بيرن، رچينا ذات الشعر المتموج الأسود تحدق بعينيها فى ستيفن .

وقالت ريتا : « هذا هو الخال ستيفن ، يا رچينا» . فمالت رچينا بجسمها إلى الأمام تحية وقالت دون خشية أو خجل : « مرحباً ، بالخال ستيفن» . ثم رفعت وجهها وتركته يقبلها ، ثم علقت على ذلك بقولها : « تفوح منك رائحة الكنيسة ، يا خالى » .

فتطاير الضحك بين الحضور ، وقال جلينون : « من أفواه الأطفال . . . تنبعث الحقيقة » .

ثم وقفت السيدة جودوين فى الباب وأعلنت بدء الغداء — يؤخذ وقوفاً فى قاعة الطعام . كانت السيدة جودوين قد تصفحت باهتمام بالغ صفحات « كتاب ماريون هارلاند فى الطبخ » وخرجت منه بمحار مقلى ، وطماطم محشوة ، وفطائر ملفوفة باللحم، وحلوى وزبدة مثلوجة بالفستق ثم قهوة . أرادت بهذا الافتتاح العظيم

إظهار براعتها للاحتفاظ بمركزها مع الأسقف الجديد . أخرجت جميع الأطباق الصينية صنع « سپود » ، والأدوات الفضية صنع « جورهام » ، والفوط المطرزة ، مما أثار إعجاب سيليا فرمويل واحترامها . فانفردت بالسيدة جودوين وأسرت إليها بالأصناف التى يحبها ابنها : سمك القد بالزبدة أيام الجمعة ، لحم مشوى وكلى مفرومة بالأرز ، خبز محمص سخن بالزنجبيل مدهون بالزبدة ، وحساء من سمك البطلينوس بدون عصير الطماطم . واستطردت سيليا تقول : « قبل ذهابه إلى الفراش ، يحب أحياناً شرب كوب من اللبن مع قرص أو اثنين من الخبز البيتى ، مع قليل من العسل الأسود » . — كل ذلك ، أثبتته السيدة جودوين فى مذكراتها نفعاً للمستقبل .

بينما ارتفعت أصوات الشوك والملاعق فى حجرة الطعام ، خرج ستيفن يستقبل فى البهو من تأخر من الضيوف ، فوجد دولار بل موناجان وقد كلّ بصره لكنه على كل حال فى صحة جيدة لابأس بها ، فى مناقشة مع كورنيليوس ديجان حول نفقات البناء الباهظة . وجد أيضاً مايك سپيد وبولس آيرتون ، صديقى الدراسة فى برايتون ، يتناقلان أخبار السنوات الماضية . فقادهم نحو المائدة . ومشى وراءهم الأب إرميا سپلين الكاهن الشاب الكستنائى الشعر الأزرق العينين يشع منهما بريق كالكهرب ، ولم يجف بعد ميرون الرسامة الكهنوتية على جبهته . وقال له ستيفن : « يا چامى، إنك تذكرنى بشبه الجزيرة الإيطالية . إن طولك يفوق عرضك. هيا بنا إلى المائدة » .

كانت السيدة جودوين فى برج مراقبتها فى المطبخ ترى أصناف الطعام تتبخر كما لو مستها عصا سحرية ، وبلغتها أصداء الضحك والمرح تتجاوب بين جدران حجرة الطعام . فأدركت أن الشاب القوى ذا السترة الصباحية والياقة العالية لابد أن يكون نديماً مثيراً ، وإلا ، فلم تترقرق دموع الضحك على وجه الكردينال وهو يسمعه يقص عليه قصة أو أخرى عن أحد صغار الموسيقيين ؟

* * *

لما عاد الضيوف إلى البهو ، استعاد بيرنى فرمويل نشاطه فجذب إليه أنظار الجميع . شجعه على ذلك الأكل الطيب الذى تناوله وضحكة جلينون العالية ،

فشعر بدافع إلى الغناء والدق على البيانو. عاجلا أو آجلا سيجد نفسه قد جلس إلى البيانو يفرغ ما فى جعبته من سحر على جمهور بات على استعداد تام لينصت إليه. فسنحت له الفرصة أسرع مما كان يعتقد. كان يتمقق قهوته فى انسجام تام مع الكردينال وستيفن فى زاوية من النافذة تخفيها الستائر. فأمسك برنى شُرُط الفضة المعقودة على الأغطية وقال :

— « ما أروع هذه الزخارف يا ستيف، إنها تختلف تماماً عما عهدناه فى أغنية : " حانة شانهان القديمة " » .

فرفع لورنس جلينون أذنيه وقال : « حانة شانهان القديمة ؟ كان يلذ لأبى غناءها . لم أكن لأتصور أن أحداً ههنا يذكر شانهان فى أيامنا هذه » .

فاقترح ستيفن على أخيه قائلا : « برهن لنيافته على صدق ذاكرتك، يا برنى » . اقتنع برنى سريعاً ، وسار نحو البيانو ، صنع آيفرز وپوند ، ولف قرص المقعد لفتين أو ثلاثاً ثم جلس عليه بأناقة كأنه عبقرى خلق لهذا الفن . نقر على بعض الملامس ثم دفع رأسه إلى الوراء وشرع يلقى على طريقته الخاصة ، الأغنية الخالدة المنسية التى تصف تعاسة رجل يدعى « كاسيدى » يتحسر ، مع كل ماله من غنى ، على الأيام الغابرة السعيدة فى حانة شانهان القديمة :

فى منزلى الجديد الفخم
وستائر الدنتلا تتمايل بدلال
والكاتدرائية على منعطف الطريق
والكردينال على مائدتى
من حقى دون شك الاعتزاز بنفسى
لكنى لا أغالى بمطالبى وآمالى
حسبى فقط التنعم بصبيح منير
فى حانة شانهان القديمة !

. . . .

لذلك إذ أسترخى على وسائدى
أقتل الوقت دون عمل
فى سترتى البراقة المخملية

وأتذوق غدائى مع الشمپانيا
تجيش فىّ الذكرى كساحرة عجوز
وتحول بينى وبين غناى
آه حسبى فقط التنعم بصبح منير
فى حانة شانهان القديمة !

. . . .

ما أسعدنى بصحبة النبلاء
فلست بعد عاملا أشقى
لكن ، يا صاح ، تلك كانت أياماً حلوة
والحديث عنها يحز فىّ
ومراراً ، أقسم لك ، راودتنى الفكرة
بأن أركل هذا المقعد الوثير
وأخلع سترتى المخملية
وأنبذ عزتى السكسونية
وأرذل حكمة الكردينال الأنيقة
لأعود إلى تلك الأيام الغابرة
وأرشف كأس الصباح المنير
فى حانة شانهان القديمة ! . . .

* * *

صفق الكردينال لورنس جلينون بيديه البضتين طرباً وصاح كل من فى البهو : « زدنا ، زدنا » .

فسألهم برنى : « وما يطلبه المستمعون ؟ »

فقال دن : « كن ولداً طيباً ، يا برنى ، وغن لنا : احفروا ، يا رجال ، احفروا » .

— « دون شك ، يا أبى » . — وعاد برنى إلى الغناء فألقى مقطوعة عن السكة

الحديد، كان العمال المهاجرون الإرلنديون يغنونها وهم يعملون فى مد خط سكة حديد أمريكية من المحيط إلى المحيط :

آه ، كل يوم فى السابعة صباحاً
عشرون عاملا يدكون الصخر
ثم يأتى الرئيس ويصيح : « يا ماك چيل ،
ضع البارود كله فى المدك » .

(صوت جهير يتكلم) :

« قف على بعد ، وارفع راية الخطر ، يا ساليڤان . انتبه جداً ، يا أوطول ، هيا! شد الزناد ! انتهى كل شىء » .

هيا احفروا يا رجال احفروا ،
احفروا يا رجال احفروا .

. . . .

آه من التعب طوال اليوم
دون قطعة سكر فى الشاى
والعمل مستمر على طول خط الحديد
وهكذا ، احفروا يا رجال احفروا
اقصفوا ذلك التل
وحطموا تلك الصخور بالمطارق الإرلندية
احفروا ، احفروا ، احفروا .

(صوت جهير يتكلم) :

« ابتعد ، يا ماك كارثى ، احتم بالسياج مع الراية . أين الفتيلة ، يا ماك جينتى ؟ ماذا ؟ أتشعل بها غليونك ؟ . . .

« أوقف تلك العربة على المنحدر . ارجع ! هيا ! شد الزناد ! انتهى كل شىء » .

فى اللحظة التى انفجر فيها اللغم
طار چيم جوف البدين ميلا فى الهواء .
ولما حل يوم الدفع
وجد چيم مرتبه ناقصاً دولاراً
فقال : « وما السبب ؟ » فأجابه الرئيس :

« قد خصصنا لك الوقت الذى قضيته فى الهواء ! »

ثم انسحب برنى عملاً بحكمة المسرح : « انسحب دائماً بينما الجمهور يضحك » . — ود ستيفن لو تطوّع الكردينال للّعب على البيانو ، لكن نيافته لم يبد حراكاً . إنما سرح بصره فى الفتيات الصغيرات حول ريتا بيرن ، وسألهن : « هل ترغب واحدة منكن ، أيتها السيدات الصغيرات ، أن تتحفنا ببعض المنوعات؟ » — فالتصقت لويزا وإليزابيث بأمّهما فى خجل ، أما رچينا فصاحت :

— « أنا ألعب » .

— « ما أحلاك فتاة ! — ثم سألها الكردينال — وماذا تلعبين ؟ »

— « الرسالة إلى إليز والسر » .

— « ماذا ؟ لكنّ هاتين المقطوعتين صعبتان جدًّا . خصوصاً السر » .

— « ليس كما تظن . إن الأخت ڤيرونيكا تقول بأن علامات الرفع والخفض هى التى تصبغ هذه المقطوعة بمسحة من الصعوبة » .

أدارت رچينا قرص مقعد البيانو حتى ارتفع إلى آخر دورته ، ثم صعدت عليه وشرعت تلعب مقطوعة السر سابحة بين علاماتها الملوّنة الدقيقة . كان الإخراج شيقاً لذيذاً ، وإن لم يبدُ رائعاً ، بالنسبة لطفلة لم تتجاوز السادسة من عمرها . تقبّلت رچينا تصفيق الحضور بنشوة ، ثم استطردت إلى عزفها الرسالة إلى إليز ، وقالت : « هذه المقطوعة لبتهوڤن » . ثم ساقت أنغامها الرقيقة بكفاية . فأعجب ستيفن بثقتها بنفسها وجمالها ، وأسف لدى رؤيتها تنزل من على المقعد بعد انتهاء دورها .

وبدا جلينون أيضاً أسفاً ، فسألها : « هل تعرفين مقطوعات أخر ؟ »

— « إن الأخت ڤيرونيكا تقول بأن درسى فى شوپان لن يكون جاهزاً إلا فى الأسبوع القادم » .

— « تقولين شوپان ؟ » وتظاهر جلينون بالرجوع إلى ذاكرته . ثم رفع نفسه من مقعده وسار إلى مقربة من رچينا . ومر بأصبعه على ملامس البيانو لاعباً المقاطع الأربعة الأولى من مقدمة شوپان المربوطة على مقام الحسينى عشيران وقال لها : « هل تبدأ المقطوعة هكذا ؟ »

— « نعم ، نعم — وضربت رچينا كفًّا بكف — كيف علمت ذلك ؟ »

فتعمد نيافته الإبهام وقال : « إيه ، إن الأخت ڤيرونيكا تقول لى بعض الشيء . هل تظنين أنك تستطيعين أداءها الآن ؟ »

بدأت رچينا بجرأة متوسطة ثم تعثرت على صوت خطإ . فاستدارت عيناها القرمزيتان نحو الكردينال طلباً للنجدة وقالت : « لا أظن هذا النغم صحيحاً » .

وافقها جلينون على رأيها وقال لها : « كم علامة صادحة فى مقام الحسينى عشيران ؟ »

فأجابت : « ثلاث : الراست والجهاركاه والنوى » .

— « إذن ، اصدحى بالجهاركاه وسترين ما يحدث » .

ففعلت رچينا ، وابتسمت شكراً لنيافته ، ثم تابعت عزفها . نحو الختام توقفت وقالت : « لا أذكر سياق النغم بعد ذلك » . فطوقها لورنس جلينون بذراعيه وهى جالسة على مقعد الپيانو وسيّر أصابعه على الملامس وختم مقدمة شوپان .

ثم جلس إلى البيانو وارتجل قطعة موسيقية من وحى سكارلاتى .

منذ نحو ربع قرن لعب الكردينال هذه القطعة الموسيقية بالذات فى حضرة أحد البابوات قد توفاه الله منذ زمن طويل . فتأثرت الآن موسيقاه بالحزن الذى يعانيه. وسرحت أصابعه تائهة متلمسة ظلال الذكريات المتأججة التى نشرت كفناً كئيباً على الأصدقاء الغائبين والأيام السالفة . وفجأة برز من بين أصابعه صوت من أصوات الظفر استعاد به الكردينال ذكرى مجده ومقامه الرفيع وسلطته ، التى نعم بها يوماً . فراودته الكآبة مرة أخرى وطبعت موسيقاه بطابع حزن عميق . قد فقد شيئاً كان دونيس فرمويل قد ارتشف من نعيمه حتى الغاية : إنه الحياة العائلية وسعادتها ، إنه الفخر فى التطلع إلى ابن فارع القوام يعكس صورته فى شكل أرفع وأنبل . حقًّا ، كيف يشعر الإنسان لدى رؤيته نفسه محاطاً بذلك الخلود المادى مجسما فى صورة أولاد جميلين يملأون العالم بأناس آخرين على شبههم ومثالهم ؟ كان جلينون دون شك يملك سلطة رسم أساقفة جدد ، لكنه لن يستطيع أبداً أن يلاطف ، كأحد أبنائه ، تلك الفتاة الصغيرة ذات الشعر القاتم والعيون البنفسجية التى كان يمكنها أن تقول له بجرأة وفى أدب جم إن مقام الحسينى عشيران يحتوى على ثلاث علامات صادحة .

أتخذت موسيقى جلينون طابعاً مرحاً وهو يرمق بنظره عبر الحجرة ولده الروحى ستيفن . فنظر إليه ستيفن بحب صامت متأثراً بما سمعه وشعر به بين النغمات الحزينة من عطف الكردينال له . فابتسم له جلينون وهز رأسه وصوت حاله يقول : « لقد ذهب الصداع . أصبح كل شىء على ما يرام » .

ثم قطع الكردينال على نفسه تأملاته الموسيقية وختم استعراضه الفنى بتصوير رائع استوحاه من مقطوعة لإلجار ، « عيد واحتفال » ، تتفق تماماً مع ذوق مستمعيه ومقدرتهم على استيعاب النغم .

ثم ترك البيانو فحياه الجميع باحترام ومحبة فشعر نيافته بارتياح عميق وتعزية جمة . لكن الأمر الذى زاد من سروره هو أن صداعه الأليم قد زال عنه تماماً .

الفصل الثانى

أدرك الأسقف فرمويل فى أثناء زيارته أبرشيته أن جزءاً كبيراً من حقل الرب قد عهد به إلى رعايته .

تقع أبرشية هارتفيلد إلى أقصى جنوب بريطانيا الجديدة وتمتد على مساحة قدرها خمسة آلاف وخمسمئة ميل مربع فى أقدموأنشط مقاطعة من الولايات المتحدة . تقع مدينة هارتفيلد — وهى عاصمة الولاية — فى وسط الأبرشية ، وتعد مركزاً تاريخياً للتجارة والصناعة الثمينة . فمكاتب شركات التأمين الكبيرة تطبع تجارة تلك المقاطعة بطابع ثابت قوى ، ومحطة السكة الحديد الواسعة تجعل من هارتفيلد عقدة وصل بين بريطانيا الجديدة وسائر الولايات المتحدة . فى شمالى العاصمة وشرقيها تقوم مدن صناعية عديدة بإنتاج الأصناف المعدنية الدقيقة : مثل الأقفال والأدوات والساعات ولوازم البناء والسلاح والآلات الدقيقة . وغربى نهر هارتفيلد تمتد أراض زراعية غنية أهم محصولها نوع ممتاز من التبغ يزرعونه داخل المظلات . فى سنة١٩٢٧ وهى السنة التى تسلم فيها ستيفن زمام أبرشيته كأسقف جديد — كان عدد سكان الولاية مليوناً ونصف مليون ، ثلثهم تقريباً من الكاثوليك الرومانيين .

إن سلطة ستيفن الروحية على شعبه ليس لها حد مبدئياً . والتشريع الكنسى يجعل منه ملكاً روحياً ، مسؤولا أمام البابا وحده ولا يحد من سلطته شىء سوى قوانين الكنيسة وحدها . له سلطة القضاء ، والتعليم ، والتفسير ، والمراقبة ، ورسم الكهنة ، والتثبيت . نعم ، إن سلطاته واسعة لكن واجباته أثقل . فعلى عاتقه تقع مسؤولية حفظ العقيدة الكاثوليكية سليمة فى أبرشيته ، ورعاية الإيمان الكاثوليكى . من واجبه أيضاً أن يسهر دوماً على تصرف كهنته وسلوكهم ، وأن يلاحظ تربية الأحداث ، وأن يساعد المرضى والمهملين فى دائرة حدود أبرشيته . وعلى فترات معينة يجب عليه زيارة كل رعية فى أبرشيته ويراجع جميع أعمالها ويعاين مبنى الكنيسة وممتلكاتها ويشدد عزم الرعاة والشعب فيها . إن عمل الأسقف يتطلب دائماً نشاطاً جسمياً كبيراً ، ومهارة تنفيذية نادرة ، وحكمة واسعة ، ومرونة فائقة .

وفى أبرشية كبيرة مثل هارتفيلد يتطلب أيضاً حذقاً فى جمع وتصريف مبالغ باهظة من النقود . وتحف بعرش الأسقف أخطار كثيرة . فعليه الصمود أمام التجربة التى تميل به إلى جعل الأمور المالية والإدارية غايات فى حد ذاتها . وكل يوم أحد وعيد يجب عليه ، تذكيراً له بواجبه الأساسى كراع ، إقامة قداس الشعب — وهو قداس الراعى لرعيته الموكول إليه أمرها ورعايتها . وأخيراً مثله مثل أىّ إنسان آخر ، يجب على الأسقف إيجاد وقت ليثقّف ويحفظ نفسه .

قضى ستيفن الأيام الأولى فى التعرف على أوجه النشاط فى أبرشيته . تبين له من خرائط وسجلات المطرانية أن سلطته تمتد على نحو من مثّى كاهن راع ، وأربعمئة كاهن مساعد ، وسبع وأربعين مدرسة رعائية ، وستة مستشفيات ، وثلاثة مياتم ، وسبعة أديرة ، ومدرسة واحدة لتخريج الكهنة (إكليريكية) . كان من المستحيل أن يتصل رأساً بهذه المؤسسات ويتعرف على أعضاء إدارتها . فلجأ ستيفن ، استزادة من المعلومات ، إلى المنسنيور « أمبروز كانيل » ، ذى الذهن المتوقد ، مدبر الأمور الإدارية فى كاتدرائية القديس فيليبس .

وجد ستيفن فى أمبروز كانيل رجلا من نوع جديد فى ثقافته . ولد المنسنيور كانيل فى دورشستر ببريطانيا ، واعتنق الدين الكاثوليكى ، وورث عن أجداده الأنكليكان تلك الخشونة « البلدية » التى يتميز بها هنالك صيادو الثعالب وغازلو الصوف الخشن . بالإضافة إلى درجة من أفضل الدرجات المدرسية التى تستطيع جامعة أكسفورد منحها ، كان أمبروز كانيل يغذى فى نفسه ميلاً شديداً إلى الأمور الليتورغية والموسيقى الكنسية والهندسة ، كما كانت له حساسية واقعية عجيبة بمعرفة قدرة الخيوط الحريرية على التمدد دون أن تنقطع . وفضلاً عن كون « أمبي » مدبراً حكيماً لكاتدرائية كبيرة ، كان يحذق ما هو أصعب دوراً ، ألا وهو الاحتفاظ بطابعه الإنجليزى ، واضطرار رفقائه ذى المنبت السلتى الأمريكى إلى استملاحه .

عقد ستيفن أول اجتماع له مع المنسنيور كانيل (وكان حديثاً غير رسمى) فى مكتبه الأسقفى فى الطابق الثانى من دار المطرانية . كان ستيفن مكبًّا على دراسة خريطة الأبرشية ، وإذا بالمدبر قد انتصب أمامه بقوامه الزاهى الفضفاض تحيط

به سحابة من الدخان يتصاعد من غليون صنعت قاعدته من المعدن الجيرى لم ير ستيفن مثله قط فى حياته . كان لون الغليون الحمرى يعكس تماماً مزاج أمبى كانيل نفسه : بندقى الطعم ، عطرى الرائحة ، مرح النفس ، واسع الصدر .

تنشق ستيفن ، تقديراً منه ، هالة الدخان المحيطة بمساعده وقال له : « ما اسم هذا التبغ الممتاز الذى تحرقه أهو من "جنات الخلود" ؟ »

فرفع أمبروز كانيل فم الغليون الكهرمانى المعكوف من بين أسنانه وقال : « ربما تظن أنى أحاورك فى الرد ، إنما هذا الصنف هو مزيج من "الراهبات الثلاث" و "سعادة بارسون" » .

فقال ستيفن : « لقد جعلت طعمه يفوح رائحة قصص " أنطونى ترولوب" » .

ـ أما أمبروز كانيل الذى لم يسمع إلا إشارات أدبية نادرة منذ مغادرته جامعة أكسفورد ، فقد استملح هذه المداعبة الإنجليزية . فوضع على مكتب الأسقف بين سحب كثيفة من غليونه ، رزمة كبيرة من الحوادث واللوائح . ثم قال :

ـ « إن كاتدرائية القديس فيليب ليست أغنى رعية فى الولايات المتحدة ، يا صاحب السيادة ، لكن إيرادها منتظم وخصيب . فى السنة المالية الأخيرة ، بلغت إيرادات الرعية مئة وعشرة آلاف دولار . وأضافت التبرعات والإعانات إلى ذلك المبلغ ثلاثين ألفاً أخرى . ولا يخفى على سيادتكم أن هذه الأرقام هى نتيجة لازدهار المعيشة فى أيامنا هذه . فى المتوسط ، أعتقد أنه يمكنكم الاعتماد بثقة على إيراد يتراوح فى حدود مئة وخمسة وعشرين ألف دولار » .

مئة وخمسة وعشرون ألف دولار ! . . . إذن ، طبقاً للقوانين الكنسيّة ، تعود إيرادات الكاتدرائية إلى الأسقف ، وهذا المبلغ سيوضع تحت تصرف ستيفن الشخصى . بالطبع ، بعد خصم جميع المصروفات ! . . .

فسأله ستيفن مستعلماً : « ما هى ميزانية المنصرف ؟ »

نفخ أمبى كانيل فى غليونه فتصاعدت منه دائرة ناصعة من الدخان ، ثم قال : « التدفئة ، والإنارة ، والصيانة ، والترميمات الضرورية فى الكاتدرائية ، ترتفع إلى عشرين ألف دولار . ـ مرتبات الكهنة والمرتلين ولاعب الأرغن ، تصل إلى مبلغ مماثل . ـ لوازم الكنيسة ، والثياب الجديدة ، وما إليها ، آه ، أستطيع القول

بأنها تقارب سبعة آلاف وخمسمئة دولار . ثم هنالك مصاريف الدار الأسقفية . كان الأسقف كالترز ، رجلاً قنوعاً ، يصرف ما بين عشرة آلاف واثنى عشر ألفاً فى السنة على الخدم ، والطعام واللوازم البيتية الأخرى » .

ستون ألف دولار فى مهب الريح ! . . . ثم سأله ستيفن : « وما الحال بخصوص المدرسة الرعائية » .

— « لا أقل من خمسة وثلاثين ألف دولار ، يا صاحب السيادة » .

— « هل الإكليريكية تقوم بأودها ؟ »

— « فى السنة الماضية بلغت عجزاً قدره عشرة آلاف دولار » .

— « ومستشفى القديس أندراوس ؟ »

— « إنه يعتمد على الإعانات ، كان المطران كالترز يمد إليه دائماً يد المساعدة » .

أدرك ستيفن حالا أن إيراده الجميل أصبح رماداً دقيقاً فى غليون أمبى كانيل المتوهج . فصاح قائلا : « حقًّا ، سنكون سعداء لو مكثنا فى حدود الخطوط الحمراء » .

فوافقه المنسنيور كانيل على رأيه . وقال : « إن ذلك يتطلب بعض الحكمة » . ثم شرع يشرح فى جرأة بعض الأمور الهامة التى تغاضى عنها سلف ستيفن . إن الكاتدرائية فى حاجة إلى تبييض شامل ، وسقفها وركائزها فى حاجة أيضاً إلى ترميم جزئى وكلى . وعيادة المرضى فى مستشفى القديس أندراوس تئن من ضآلة الإعانات . ثم أشار أمبى كانيل بفم غليونه الكهرمانى نحو أثاث مكتب الأسقف ، راثياً حالته الكئيبة وقال : « بالطبع ستأتى على بعض التغييرات فى دارك . . . بمساعدة السيدة جودوين ، دون شك » .

فابتسم ستيفن وقال : « لو توسعت فى سلطتى القانونية ، فقد أستطيع الاستغناء عن أغطية المقاعد أيضاً » .

فتنهد أمبى كانيل مستسلماً فى مرح وقال : « ذلك أقدر مما استطاع المطران كالترز فعله » .

فسأله ستيفن بفضول : « إنى لم أعرفه قط . أى نوع من الرجال هو ؟ »

— « فى أوائل عهده ، أدار هارتفيلد بجدارة . كان رجلا نظامياً ومدبراً قديراً ومحاسباً دقيقاً من الوجهة المالية والوجهة الأدبية معاً . — ثم دك المنسنيور كانيل حفنة من خيوط التبغ فى غليونه وقال : — « أما فى سنيه الأخيرة ، فقصة قديمة مألوفة عن المرض المتواصل » . — ثم ختم حديثه فى نبرة مرحة قائلا : « حجر صغير أصاب عملاقاً ! . . . »

منع أمبى كانيل ولاؤه لرئيسه الراحل واحترامه لرفقائه من أن يفيض فى الكلام ، ولم يستزده ستيفن علماً ، بل ترك الأمور جميعها تفصح عن ذاتها حينما تعقد هيئة الأبرشية اجتماعها الأول .

* * *

إن أبرز ظاهرة فى هيئة هارتفيلد الكنسية — وهى جماعة الكهنة الذين يعملون مع ستيفن كمساعدين له ومستشارين — هى كبر سن أعضائها ، الذين يكبرون ستيفن بسنين عديدة . عن يمين الأسقف جلس النائب العام « مارك درورى » وقد بدا كالسنديانة العظيمة فى السبعين من عمره وابيض شعره وعقله من وقوفه مدة خمس وعشرين سنة فى ظل الأسقف الراحل كالترز الذى كان يفوقه طولا ونبلا . كان النائب العام ، كسابقه العميد سويفت ، يعانى هبوطاً عاماً بدأ فيه من قمته ، فيصاب رأسه وصوته برعشة واضحة كلما هم بحركة أو بكلام . عن يسار ستيفن جلس حافظ الأختام « جريجورى شين » وقد لفحته الشمس من جرّاء عمله فى حقل الرب سنين طويلة ، وقد كان الأمل يداعبه فى أن يخلف يوماً « الأسقف العجوز » عند استقالته . غير أن جريجورى شين اضطر إلى إفساح المكان إلى رجل أصغر منه سناً ليمسك بالصولجان ، فأثر ذلك فيه تأثيراً بليغاً ، (وهذه هى طبيعة الإنسان) ، فقد خدم طويلا ، وانتظر صبوراً ثم رأى الجائزة تقدم لآخر . واتخذ أعضاء المجلس الاستشارى أماكنهم حول المائدة : يوسف دروجول قمحى اللون أغبره ، رئيس مكتب الشئون الخيرية ، — ثم إدوار ركابى ، رئيس عمد الأرياف ، — ثم توماس كينى ، رئيس محكمة الزواج .

كان ستيفن على علم تام بأنه ما من أحد يقطع الزبدة بالساطور ، وأن الزبدة لا تقطع نفسها بنفسها . وكان يدرك أيضاً أن كل شخص فى المجلس يعرف ذلك

تماماً ، فقد تدرج ستيفن دون مقدمات إلى دراسة الأمور التى تراكمت وما زالت معلقة منذ الاجتماع الأخير ، وهى تنتظر مدة أشهر طويلة الحكم النهائى أو القرار فى شأنها .

كانت لوائح القضايا فى محكمة الزواج مهملة معطلة بشكل يدعو إلى الأسف ولابد من الإسراع فى عقد جلسات عديدة للبت فى قضايا إعلان بطلان الزواج . أظهر تقرير المنسنيور دروبجول عن الأعمال الخيرية الكاثوليكية عجزاً وضعفاً فى الإدارة أو فى بعض النواحى الأخر : فكانت المبالغ تصرف دون مراقبة . ولم يستطع المنسنيور دروبجول الإجابة بكلمة عن سؤال ستيفن له عما حدث لتجربة قطيع بقر الجرنسى فى مزرعة القديس برندان للأولاد ؟ وهل أصابت نجاحاً ؟ ثم تقدم العميد كينى باقتراح وجيه بأن يستحضر كهنة يتكلمون اللغة البولندية لإرسالهم إلى الرعايا التى تزرع التبغ فى وادى نهر هارتفيلد ، لكن لم يكن للعميد فكرة ألبتة عن كيفية الحصول على هؤلاء الكهنة .

اتخذ ستيفن قراراته فى هذه الأمور بلين ولم يخرج عما هو مألوف .كان الأسقف الجديد قد ألف مئات من أمثال هذه الاجتماعات تحت رئاسة جلينون . زد على ذلك أربع سنوات فى روما وسنتين فى واشنجطون ، مما أكسب ستيفن خبرة واسعة فى مزاولة الأمور الكنسية ومقدرة عجيبة على تقديرها . قضى خمسة عشر عاماً متتلمذاً على يدى أفضل الأساتذة . والآن بعد انتهاء مدة تلمذته ، واختتام دورة خدمته ، قام ستيفن بتصريف أمور مجلس الأبرشية بحنكة ثابتة وصوت لا يرتجف . شعر المستشارون جميعهم بتلك اليد القوية ولم تفتهم معرفة ذلك القانون الطبيعى السامى الذى يريد بأن يقوم بعض الأفراد بالقيادة على حين يتبعهم الآخرون بالطاعة . فرضخ أكثرهم بسرور إلى هذا المصير ومشوا فى ركاب أسقفهم الشاب .

أما المناقشة الوحيدة التى حدثت فكانت عندما انتهى المستشار شين حافظ الأختام من قراءة تقريره عن الحالة المالية فى أبرشية هارتفيلد . كان التقرير فى حد ذاته مشجعاً ، ففى الأبرشية رأسمال متداول العمل به قدره أربعمئة وخمسون ألف دولار . إنه ليس بالرصيد الضخم إذا ما قورن بالمصروفات السنوية . كان نصف هذا المبلغ نقداً ، والباقى أسهماً . بالطبع كانت النقود والأسهم باسم

الأسقف كشخص معنوى .

فتقدم حافظ الأختام بسؤال : « أليس من الأفضل لنا أن نرصد جزءاً كبيراً من النقود لشراء أسهم ؟ »

تفحّص ستيفن الأوراق التى بيد المنسنيور شين واستقر نظره على لائحة الأسهم التى تملكها الأبرشية ثم قرأ محتوياتها : شركة الألومنيوم ، شركة الكربون والفحم ، سكة حديد پنسلڤانيا ، القرش العالمى ، الزيت الممتاز ، فولاذ الولايات المتحدة . كلها أمور تافهة !

فسأل ستيفن : « ما قصة شراء هذه الأسهم ، يا منسنيور شين ؟ متى عقدت هذه الصفقات ؟ ومن أشار بها ؟ وما ثمنها ؟ »

فأجاب المستشار شين والأوراق والبرهان بين يديه : « لقد قام المطران كالترز بشرائها سنة ١٩٢٢ ، على اقتراح سماسرته ديمنج وكونديث وهيوز . كان سهم الفولاذ بخمسة وثمانين ، وسهم الألومنيوم بمئة وخمسين . فى السنوات الست الأخيرة تضاعف رصيد الأبرشية من الأسهم — وخبراء المال المعتمدون يعتقدون بأن الأسهم فى ارتفاع مستمر » .

لو أجرى اختبار بالورق الأزرق على صوت المنسنيور شين لوجد فيه مركب حمضى حاد حينما أضاف قائلا : « والأسعار سترتفع كثيراً جداً » .

وزن ستيف ردّه ثم قال : « لاشك أن ربح مئة فى المئة مكسب معقول . فلنفرض أننا نبيع الآن ؟ »

فزم المستشار عضلات شفتيه وقال : « ولم نبيع ، يا صاحب السيادة ؟ فالأيام خصيبة » .

خصب الأيام وازدهار الزمن ! . . . كانت هذه الكلمات على لسان كل فرد فى البلاد . مع ذلك ، فتحت هذا المد الصاعد من الازدهار فى « شارع السد » (وول ستريت) ، كان الفرد يشعر بتيارات خفية مزعجة . فى السنة الماضية خابت آمال شركة فلوريدا ، فأفلست . والأنباء تترى بأن ضخامة الإنتاج وازدياد عدد المتعطلين قد يسىء إلى النقد . وبين لحظة وأخرى قد يتدهور الميزان التجارى بشكل رهيب . واستعاد ستيفن إلى ذاكرته رحلته الطويلة التى قام بها فى الجنوب المهمل

الجائع . لا وجود للخصب فى ديكسى ! ثم أتته ملحوظة حادة ألقى بها إليه أخوه چورچ : « لو بيعت الذهبيات بعشرة دولارات للواحدة منها ، لما مكّن ذلك أغلب الناس من شراء قطعة من الصابون » .

جمع ستيفن أجزاء هذه المبالغ واستخلص منها الحكمة الحسابية التى تقول : « أضف ست تفاحات إلى خمس كمثرات . فماذا يكون الحاصل ؟ — الجواب : لا شىء » . فقال :

— « لا أدعى لنفسى معرفة واسعة بالميزان التجارى . لاشك أن هذه الأسهم ستستمر فى الارتفاع . إلاّ أنى أشعر بالأمان لو تمسكنا بنقدنا وحولنا هذه الأسهم — ونقر بإصبعه على الأوراق أمامه — إلى ضمانات أقل خطراً » .

وطلب الأسقف رأى مستشاريه فى هذا الأمر : « أرجو ، أيها السادة ، أن يبدى كل فرد منكم رأيه بحريه تامة . ضعوا فقط نصب أعينكم ، أن مال الأبرشية فى كفة الميزان » .

فبدأ الأب دروجول يقول : « قرأت فى "الزمان" هذا الصباح أن سهم الفولاذ صعد أربعة بنوط . فإذا سرنا مع السوق التجارية ستة أشهر أخرى تحصل لدينا ما يكفى لتكميل بناء عيادة المرضى فى مستشفى القديس أندراوس » .

أما فيما يختص بالنائب العام درورى ، فلم يتوصّل ستيفن إلى تفسير حركة رأسه : أكانت إشارة بالموافقة أم رعشة مرضية . لم يفه المنسنيور درورى بكلمة . فتطوع توم كينى يقول : « أخبرنى صديق لى فى شارع السد بأنه لم يحدث شىء بعد » .

واتبع المستشار شين فى اقتراحه طريقة ساذجة فقال : « لم لا نستشير السماسرة ديمنج وكونديث وهيوز فقد يدلّوننا على الاتجاه الصحيح » .

سريعاً فكّر ستيفن فى الاقتراح المعروض ثم قال : « كلنا يعلم ما قد يحدث ، أيها المنسنيور : "اختزنوا" — "ضاعفوا رصيدكم" — "ثقوا بأمريكا" . قد يكون اقتراحك وجيهاً وحكيماً » . وحاول أسقف هارتفيلد الاحتفاظ بهدوئه ، فاستطرد لقوله : « إلاّ أننا لن نأخذ بهذا الاقتراح . يا منسنيور شين أريدك أن تبيع هذه الأسهم غداً بالسعر الذى تفتح به السوق ، وضع المتحصل فى شركة هارتفيلد

المساهمة وقل لهاموند ، نائب رئيسهم ، بأننا نريد إيداع نقودنا فى آمن وأضمن عقود يستطيع شراءها لنا » .

لم تبد على المائدة همسة بالمخالفة . فقد تكلم الأسقف . فعل جريجورى شين تماماً كما أمره ستيفن ، ومدة سنة كاملة ضاق ذرعاً بالسعادة التى كان يشعر بها لرؤيته أسهم شركة فولاذ الولايات المتحدة وأسهم شركة الألومنيوم ترتفع باطراد نحو السماء . وبلغت به السعادة أوجها عندما وصل سهم الفولاذ إلى مئتين وخمسين دولاراً ، وسهم الألومنيوم إلى خمسمئة دولار . فى الواقع كان المنسنيور شين أعنف رجل بين الكهنة عرفه العالم الغربى — إلى أن حل يوم خالد من شهر أكتوبر ١٩٢٩ .

* * *

اقتلعت الريح الشال الأسمر القاتم الذى يتلفّف به الخريف ، ونثر الشتاء على عرى الأرض فروة ناصعة البياض . هذا الفصل هو الفصل المحبوب إلى ستيفن دون سائر الفصول . والأجواء التى يكثر فيها البرد والثلج هى أطيب وألطف شىء إلى دمه ، فيجيش فى عروقه حتى القلب والرأس . ازداد ثباتاً فى أعماله وحنكة فى تقديره الأمور . مع ذلك لم يقم إلا بتغييرات قليلة فى محيط أبرشيته . فضل أن يخلق فى مستشاريه ورعاته شعوراً ثابتاً بأن يعتمدوا فى تصرفهم على كفايتهم ودرايتهم فى معالجة الأمور أكثر مما يعتمدون على رغبات الأسقف وهواه . كان متسامحاً إذا ما زلّ أحد فى تقديره أو تفكيره . فالإنسان ضعيف ، وهذه إحدى عبارات ستيفن المحبوبة إليه ليفرج عن نفس مرؤوسيه وينتشلهم من ارتباكهم : « قد يحدث ذلك لكل واحد منا » . ولسان حاله يقول سرّاً : « لا تدع ذلك يحدث مرة أخرى » .

لم يحدث للأسقف أن تدخل فى أمر لمعالجته ، إلا إذا كان الرجل عديم الخبرة والقدرة كما حدث مع الأب فرانك رونان ، وهو كاهن فى مقتبل كهولته ، يناقض ميزان مزاجه قدرة ذهنه .

كان الأب فرانك رونان مدير مزرعة القديس برندان للأولاد . بدأت هذه المؤسسة على هيئة ميتم محدود بسيط . ثم بدأ الناس يتحدثون عنها وورد ذكرها فى إحدى المجلات فأصبحت شبيهة بإحدى مدن الأولاد المدرسية التى تجذب إليها الأنظار وعاطفة الجمهور . ابتكر الأب رونان فى فصول مدرسته نظام لوائح

الشرف وترك الأولاد يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وفى الوقت نفسه يتفرغون إلى جمع الخضار فى عربة المزرعة وصنع أثاث البيوت على طريقة النجارين البدائية . فى العشرين سنة الأولى كانت المزرعة أشبه بعمل يقصده المشتغلون بأمور المجتمع المتنبهون إلى تقدم الزمن . فطار حديث المزرعة وتحدث الناس عنها كثيراً وأوصى لها بعضهم بهبات قيمة . إلا أن هذا كله ما لبث أن أظهر موطن الضعف فى تصرف الأب رونان ، فوقع فى عادة خطيرة جرته إلى إنفاق مئة دولار مقابل خمسين يجمعها ، وأضحى شغله الشاغل تسديد الفوائد المتراكمة عليه حتى إنه أهمل واجباته الإنسانية .

لما رأى الأب رونان نفسه متورطاً فى مستوحل مالى ، جازف بتثبيت قدمه على أرض أصلب تربة فاشترى قطيعاً من البقر الجرنسى . كانت الفكرة كما عرضها على المطران كالترز قبل وفاته بستة أشهر ، تتميز بفائدتين وجيهتين . الأولى : أن كل يتيم أو مريض فى المؤسسات الكاثوليكية التابعة للأبرشية قد يكتسب صحة بتغذيته من لبن الجرنسى . والثانية : أن قطيع البقر فى المزرعة سيغطى ثمنه ونفقاته بالنقود التى كانت تدفع من قبل لشركات الألبان . الشيء بالشيء ، وهذا ما يجب بيانه ! . . . غير أن هذا المشروع لم ينجح . سار القطيع فى عمله مدة سنة على التقريب ، لكن سيل السمن والزبدة كان — ويا للأسف — نزراً يسيراً .

بنى الأب رونان بالنقود التى جمعها والتى يأمل جمعها أيضاً ، مزرعة مثالية للألبان . أقام مخازن للحبوب ودواراً للبهائم ، واشترى آلات لحلب البقر وفرز السمن والزبدة . كلها باهظة التكاليف . ثم أقام الأولاد على الاهتمام بشؤون البقر ، فكانت النتيجة المحتومة الكئيبة . لم يدر فرانك رونان أين يتوجه ، لسبب بسيط هو أنه لم يكن مزارعاً ولا رجل نظام . فطاف يبحث عن مال جديد . وفى هذه الأثناء لم يوفق الأولاد ولا البقر إلى إيجاد طريقة للتفاهم .

بلغ مسامع ستيفن من مصادر مختلفة أن الحالة فى مزرعة القديس برندان ليست على ما يرام . فأبلغ الأمر مرتين إلى الأب درومجول مؤملا أن يقوم مدير الأعمال الخيرية بتقويم الأمور . ثم حدث بعد عيد الميلاد بمدة قصيرة أن ظهر مقطع صغير فى عمود « بهار وفلفل » يقوم بتحريره الناقد اللاذع « چاك مابوت » فى جريدة هارتفيلد . وهذا ما جاء فى المقطع :

« ما من أحد يحترم عمله يجرؤ على انتقاد سير الأمور فى ميتم
لا يبعد ألف ميل عن عاصمة الولاية . والأمر — على كل حال —
يتعلق ببعض الأولاد والبقر . على افتراض انقلاب السيئ إلى أسوأ
فقد يستطيع الأولاد دائماً السعى وراء رزقهم . لكن ماذا يمكنك
فعله لو كنت بقرة ؟ »

فاستدعى ستيفن الأب دروجول وأراه المقطع فى الجريدة : « ما وراء ذلك ، أيها الأب ؟ »

فضرب رئيس الأعمال الخيريّة الصحيفة بظهر يده وقال : « هذا هو حقًّا ما تترقبه من رجل لاديني سكّير عربيد ، من أمثال چاك مابوت . إنه يكره الكنيسة وكل ما تقوم به من أعمال » .

فقال ستيفن : « لا يهمنى أمر چاك مابوت وعاداته الشخصية أو آراؤه الدينية . إنه لا يناقش العقائد والآداب هنا فى هذه الصحيفة . إنه يتكلم عن الأيتام والبقر . كفاك مطاردة الشيطان حول الدار ، أيها الأب . ماذا يجرى حقًّا داخل مزرعة القديس برندان ؟ »

خلاصة ما أجاب به الأب دروجول هو أن الأب فرانك رونان ورّط نفسه فى مشروعه فأثقلته الديون وهو حتى الآن يجهد نفسه للتخلص منها . ويظهر أن مزاجه متقلب جدًّا ، فاليوم مظلم وغداً مشرق . فلو تفضل الأسقف بالصبر قليلا . . .

فقال ستيفن : « إن عندى صبر العنكبوت . إلا أنى لا أريد بعد اليوم لمزاً فينا على صفحات الجريدة ؟ » .

فى اليوم التالى رن جرس الهاتف فى مكتب ستيفن وكان المتكلم عمدة هارتفيلد لويس نونان . فقال معتذراً : « آسف ، يا حضرة الأسقف ، فقد أبلغنى مفتش الصحة أنه سيضطر إلى توقيع مخالفة على مزرعة الأب رونان ، فالأمور سيّئة جدًّا هناك » .

— « هل تستطيع تأخير ذلك مدة أربع وعشرين ساعة فقط ، يا حضرة العمدة ، حتى ألقى نظرة بنفسى ؟ »

— « دون شك ، يا حضرة الأسقف » .

فى الصباح الباكر قام ستيفن بزيارة فجائية إلى المزرعة . ترك سيارته عند البوابة وسار وسط خراب لا مثيل له : عنابر النوم قذرة والمطبخ فى أسوإ حال ؛ الأولاد الصغار قد أهمل لبسهم والكبار قد أهمل طعامهم . أما الصدمة الحقيقية فقد تلقاها ستيفن عند دخوله الزريبة : أكوام من الزبل وحزم من الشعير وأكياس من الحبوب وأوان عديدة للألبان ، كلها مبعثرة فى غير نظافة أو نظام . وبعد تعريجات وقفزات عديدة ، اكتشف ستيفن الأب رونان يحيط به فريق من الصغار ترتعد فرائصهم من البرد ، يجاهد فى تحويل آلة لفرز الزبدة من تيار متقطع إلى تيار مستمر — أعجوبة قد تفوق مقدرة أعظم القديسين .

أشار ستيفن إلى فرانك رونان وقال : « أريد أن أحدثك على انفراد ، أيها الأب » .

بين قطع الثلج المتساقط ، أسرعا فى صمت إلى مكتب المزرعة — حجرة عارية من الستائر ، أثاثها متكسر ، قد تكدست فيها الكتب والملفات دون ترتيب . أغلق ستيفن باب الحجرة واستدار نحو الكاهن الذاهل الشارد وقد خلع ياقته . وقال له : « لديك عشر دقائق فقط لتقول لى ماذا تحاول فعله ههنا » .

فى عشر سنوات قد لا يستطيع الأب رونان قول شىء ألبتة . فأخفى وجهه غير المحلوق بين يدين قد اسودت أظافرهما . وهزه البكاء خجلا وفرجة عن النفس : خجلا لإخفاقه الذريع ، وفرجة عن نفسه لعلمه بأن المأساة قد بلغت أخيراً نهايتها .

إن كان ستيفن قد تألم لرؤيته الرجل ، فإنه قد تألم أكثر لرؤيته الأولاد والبقر . كان أول عمل أتاه هو إقالة الأب رونان من جميع مسؤولياته وإرساله إلى ملجإٍ للراحة . ثم استدعى الأخ المشرف على المطبخ وعنابر النوم وأمره قائلا : « لديك أربع وعشرون ساعة لتنظيف هذه الأمكنة . سأعود فى مثل هذا الوقت غداً للمعاينة » . فامتثل مرتعداً . ثم اتصل بالهاتف مع شركة للألبان فأرسلت خبيراً فى تربية المواشى ليشرف على البقر الجرنسى ويعنى بها . مع كل هذه الإجراءات الموقتة ، لم تحل بعد مشكلة المزرعة وإعادة تنظيمها .

عاد ستيفن إلى داره ودرس الموضوع مع أمبي كانيل . فدكّ المدبّر نصف أونس من التبغ فى غليونه وقال :

– « لم أعمل قط فى تجارة الألبان، لكن إذا ما وُجِدْتُ فيها فقد أدعو لمساعدتى الإخوة الجزاڤاريين . لا يوجد مثيلهم مع الأولاد والمواشى » .

– « لسوء الحظ ليس عندنا إخوة جزاڤاريّون فى هذه الأبرشية » .

فاقترح المنسنيور كانيل على ستيفن قائلا : « إن صديقك الأسقف سپيد قد يستطيع إرسال فريق منهم على وجه السرعة من ولاية مين » .

– « يا أمبي ، إنك تفكر فى كل شيء . اطلب من فضلك مايك سبيد على الهاتف » .

بعد مضى ثمان وأربعين ساعة كان فريق من الإخوة الجزاڤاريين يقوم بالعمل الكامل فى مزرعة القديس برندان . وبعد مضى أسبوعين بدأت الأبقار الجرنسى تدرّ لبناً كالسيل . وارتدى الأولاد الصغار ثياباً دافئة ووجد الكبار طعاماً كافياً ، وبدأت المؤسسات الكاثوليكيّة فى أنحاء الأبرشية كلها تنال نصيبها من اللبن والسمن والزبدة .

أحدث هذا الانقلاب فى مزرعة القديس برندان نتائج عديدة : منها أن الأب چو دروجول فقد مركزه كمدير للأعمال الخيريّة ونقل فى صمت إلى رعية دنهام الصغيرة ، أما أمبي كانيل فأهداه الأسقف علبة سعة رطل من التبغ وعيّنه خلفاً للنائب العام دروري الذى قضى نحبه نتيجة سكتة قلبيّة . أما الأب فرانك رونان فقد خرج من الملجإ وهام على وجهه فى البلاد ، ورئى أخيراً على طريق بوسطن البريدىّ يستجدى سائقى السيارات المتجهة إلى مدينة يورك الجديدة .

ومع كل ما صرفه ستيفن من مجهود ليستدل على مكانه ، لم يعثر على أثر لفرانك رونان . أصبح واحداً من عشرة آلاف النفوس التى تختفى كل سنة منذ الفجر وتتيه بين التيارات المتقلّبة حتى تستقرّ فى مرفإ الأشخاص المفقودين .

* * *

كانت أمتع ناحية من واجبات الأسقف التى عنى بها ستيفن بوجه خاص ، هى زياراته الرعائية لأبرشيّته .

كان يبدأ رحلته ، مع سائقه بيتر توهى ، دون أن يتناول إفطاره فى الصباح (فقد يتحتم أيضاً على الأسقف أن يصوم إذا ما أراد إقامة القداس متأخراً) ويذهب ليتفقّد أمور رعية من رعاياه فى أبرشيّته .والغاية من تلك الزيارات ، كما حددها مجمع ترانت ، هى « تثبيت التعليم القويم ، وحماية الآداب السليمة ، وحثّ الشعب على التمسك بالدين والسلام والطهارة بواسطة الوعظ والردع ، وتقويم كل شيء حسبما تقتضيه حكمة الأسقف لخير الشعب » .

كان الرعاة يحاطون علماً بزيارة أسقفهم فيحضّرون كتبهم وسجلاّتهم ، وينظّفون كنائسهم ، ويستعدون وقلوبهم على أيديهم لاستقبال ستيفن عندما يظهر على باب كنيستهم بمعطفه وصولجانه .

عندئذ يجرى الاحتفال بكل دقة . يتقدم راعى الكنيسة يحيط به حملة الشموع والصليب والمبخرة ، ويقدم للأسقف صليباً صغيراً ليقبّله . ثم يخلع ستيفن قبّعته ويجثو على ركبتيه فى صلاة قصيرة قرب الباب ، ثم ينهض ويأخذ الرشاشة من يد الراعى ويرش بها جبهته بالماء المقدّس ، ويرشّ من حوله . ثم يتقدمه حامل المبخرة وأولاد الخدمة ، والكهنة المساعدون ، ثم الراعى ، ويسير وسط الكنيسة مباركاً جمهور الشعب . بعد ذلك يبدأ القداس ، أو رتبة سر التثبيت . فيوجه ستيفن إلى الشعب كلمة قصيرة ، ثم يجلس على كرسى كبير يشبه العرش المتنقل ، ويستمع إلى راعى الكنيسة يقرأ باللغة اللاتينية أولا ثم باللغة الإنجليزية الغفران الذى يمنحه الأسقف الزائر لجمهور الشعب :

> « إن صاحب السيادة أبانا ورائدنا فى المسيح ، ستيفن فرمويل ، الأسقف بنعمة الله ورسم الكرسى الرسولى يمنح ويهب جميع الموجودين ههنا خمسين يوماً من الغفران الصحيح ، حسب الشروط التى سنّتها الكنيسة صلوا إلى الله من أجل سلامة البابا الأقدس ، بيوس الحادى عشر الذى أقامته العناية الإلهية رئيساً على الكنيسة ، ومن أجل سيادة المطران ، ومن أجل أمنا الكنيسة المقدسة » .

بعد ذلك يأتى ما كان ستيفن يحبه أكثر من كل شيء آخر . يجلس الأسقف على مدخل باب الكنيسة الرئيسى ليستقبل شعبه . مبدئيّاً تلك كانت فرصتهم

الوحيدة ليعرضوا عليه شكاواهم إذا ما وجدت . أما فى الواقع فكانوا يحيونه يداً بيد أو يقبلون خاتمه (كانت إحدى العادتين مقبولة وملائمة) ، ثم يرجعون إلى بيوتهم ويقضون معظم السنة فى التحدث إلى جيرانهم وأهلهم وأصدقائهم حتى أنفسهم عن ديموقراطية هذا الأسقف الشاب القوى الجميل القديس .

وفى الحقيقة ، كان ستيفن فرمويل فى الثامنة والثلاثين من عمره ، بوجهه الصبوح ، وشعره القاتم المفروق ، وقوامه النسكى الرصين ، وعينيه الزرقاوين الرماديتين ، وصوته العميق القوى ، رجلا محبوباً وقائداً ملهماً وسط شعبه .

تبدأ بعد ذلك معاينة مبانى الكنيسة . يسير ستيفن إلى داخل الكنيسة بصحبة الراعى ويتفقد الهيكل ومنابر الاعتراف ، ومنابر القراءة ، وجرن المعمودية ، والمقاعد ثم يتجه إلى المقدس ويفحص الأوانى المقدسة والثياب الكهنوتية والزيوت المكرسة .

ثم الغداء ، ليجدد الراعى نشاطه ويستعد بشجاعة لمناقشة الميزان المالى فى سجلات الرعية . على الصفحة الأخيرة من السجلات ودفاتر الحساب وقع ستيفن بكلمة « نظر » وبالقرب منها التاريخ والإمضاء . ثم يبدى الأسقف ملاحظاته التى تستدعيها الحال . وبعد زيارة أخيرة إلى القربان المقدس يغادر المكان .

كان تصرف ستيفن فى أثناء هذه الزيارات يتسم بمزيج من بشاشته القلبية ورصانته الأسقفية . وقد أدرك ستيفن أنه بقيامه بدور القائد الذى يتفقد الآداب ، والمهمات والتحصينات لابد له أن يخفض من مرحه وطلاقته ، وأنه لا يستطيع لعب دور الرجل الطيب القلب أو الساذج ، فقد يؤول ذلك إلى إضعاف روح النظام فى مرؤوسيه . ومن الجهة الأخرى ، لا يجوز معاملة الرعاة الذين كدوا فى العمل بطريقة جافة ومن عل . فاختار ستيفن الطريق الوسط ، كان كريماً فى امتداحه ، ثابتاً عملياً فى انتقاده ، ومتنبهاً جداً كى لا يؤخذ على غرة بما يلاقيه من احترام وخضوع فى أثناء زياراته .

أما الرعاة فينقسمون إلى قسمين . المخضرمون الذين يجدون أنفسهم بعد قضاء سنين طويلة فى الخدمة قد اغبر شعرهم على رأس رعية كبيرة فى المدن الرئيسية . والشبان (من عمر ستيفن تقريباً) الذين يتذوقون للمرة الأولى لذة إدارة رعية فى المدن الصغرى . لم يظهر بينهم نوابغ كثيرون لكنهم كانوا مدبرين أشداء ، فهم

يكوّنون العمود الفقرى الفولاذى الذى يستند إليه جسم الكنيسة . كانت دفاترهم المالية وسجلاتهم الكنسية فى حالة جيدة على العموم ، وكنائسهم نظيفة مرتبة وفى إصلاح مستمر . وأحياناً يفكر ستيفن أن انتزاع هراوة هرقل من بين يديه أسهل من انتقاد الأعمال الرعائية الجليلة التى يؤديها أمثال هؤلاء الرجال .

مع ذلك ، لم يخلوا من المضايق . لأسباب خفية هبطت التبرعات فى الكنيسة .

— « إن الناس يشترون الكحول والغاز بالنقود التى اعتادوا تقدمتها فى الصينية » .

هذا ما قاله « دان أولولين » راعى أكبر كنيسة فى « الميناء الجميل » (فيرهاڤن) .

— وقص رعاة آخرون قصصاً مماثلة عن هبوط التبرعات : « القروش والأرباع تخلف قطع الفضة الثقيلة والأوراق الخضراء » .

ورأى رعاة آخرون صعوبة فى التوفيق بين الأمريكان الوطنيين الأصليين (اليانكى) والإرلنديين المستحدثين ، والإيطاليين والبولنديين المهاجرين . فكان الأب « متى كورنيش » راعى كنيسة القلب الأقدس فى بريدچتون يتذمر قائلا : « إنه يصعب علينا كل يوم أحد إلقاء عظة يستطيعون فهمها » .

وأسوأ من كل ذلك على ما يظهر هبوط عدد السكان الكاثوليك : « منذ خمس سنوات كان عندنا خمسون أو ستون من الصغار فى المناولة الأولى . أما هذه السنة فليس عندنا سوى تسعة وعشرين » . هذا ما قاله أندراوس بريلك راعى كنيسة نجمة البحار فى « مدينة الماء » (واترڤيل) .

تجمّعت خيوط هذه المتاعب — المالية والأدبية والتناسلية — فى عقدة واحدة ، ذات يوم قارس البرد من فبراير سنة ١٩٢٨ ، فى أثناء زيارة ستيفن لرعية القديس أنسيلم فى « حقل الربيع » ، إحدى المدن المتوسطة الصناعيّة على الحدود الشرقية من الأبرشية .

عند الباب استقبله الأب پيتر مندوم ، وهو رجل رفيع القوام حاد المزاج عصبىّ الخلق يخيّل إلى من ينظر إليه أنه يركض وهو واقف لا يتحرك . بعد الاحتفالات المألوفة شرع ستيفن فى مراجعة حسابات الأب مندوم . فقابل بين الداخل والمنصرف وقارنهما بدقة بلوائح السنين الماضية . فاتضح له أن مدخول الرعية هبط بمبلغ قدره ألف دولار . فسأله ستيفن عن السبب .

ـ « حقاً ، لا أعلم يا حضرة الأسقف » . ـ كانت ركبتا الأب مندوم ومرفقاه مشدودة الأعصاب كمن ينتظر الإشارة لبدء السبق . قال : « إن سيادتكم تدركون بالطبع أن الشعب يفقد كل يوم عمله . خذ مثلا شركة النسر للأدوات الحديدية والنحاسية ـ إنهم يصنعون أقفالا ومفصّلات وجميع لوازم البناء . كنت أتحدث ذات يوم إلى مدير مبيعات الشركة ، بن مكّى ـ وهو أحد أفراد رعيتى ـ فقال لى إن شركة النسر تحدّ من إنتاجها . فالطلب شحيح على لوازم البناء » .

لاحظ ستيفن أن الرجل أمامه فى حاجة إلى تهدئة أعصابه ، فاقترح عليه قائلا : « لنسر قليلا حول الكنيسة » . فسار الأب مندوم أمامه ، وبدأ ستيفن معاينة بناء الكنيسة . أولا من الخارج : طوب نارى أصفر ، وقطع من حجر الجرانيت ، وسقف منحدر : تحفة من الفن الخيالى . ومن الداخل : جبس بالغراء وألواح من خشب السنديان . كانت كنيسة القديس أنسيلم واحدة من تلك الكنائس الريفية الصغيرة العديدة المبنية منذ الحرب العالمية الأولى . وكانت نوافذها الزجاجية الملونة من ذلك الصنف المألوف الذى يباع فى متاجر اللوازم الكنسية . الهيكل وأيقونات درب الصليب ، بالمثل . الترتيب فيها لا بأس به ونظافتها لا غبار عليها ألبتة ، مع ذلك ، فالأناقة فيها معدومة .

تساءل ستيفن عن السبب الذى حدا بالناس إلى بناء الكنائس على شكل « البونجالو » . ثم قال للأب مندوم : « أريد أن ألقى نظرة على سجلات الرعية » .

أظهرت سجلات الزواج والعماد حقيقة هامة : الزواج فى صعود والعماد فى هبوط . فقال ستيفن : « ما رأيك فى ذلك ، أيها الأب ؟ » .

فقال پيتر مندوم وهو يجوب المقدس ذهاباً وإياباً : « تحديد النسل ، يا صاحب السيادة » .

ـ « هل بيّنت للشعب أن تحديد النسل خطأ مميت » .

مكث الأب مندوم برهة دون حركة ثم قال : « قد يكون الأمر تماماً كما لو نفخت فى قربة مقطوعة ، يا حضرة الأسقف . ليس معنى ذلك أن الأهل

لا يريدون أولاداً . بل يظهر أن مسألة تحديد النسل أصبحت مقرونة بأعمالهم وطريقة معيشتهم . سأضرب لك مثلا : لنفرض أن شاباًّ وفتاة تزوجا وأنفقا ما ادخراه على تأثيث بيتهما . ثم رزقا طفلين — ثلاثة هو الحد الأقصى — فكيف يدبران أجرة الشقة ومصروف السيارة . قد يشعران بأنهما لا يستطيعان المجازفة بتربية عدد أكبر من الأولاد . ثم يأتى واحد ويقول الزوجة بأنها تستطيع شراء أنبوب من المرهم يساعدها على كذا وكذا » . — ونقر الأب مندوم على ظهر السجل وقال : « النتيجة : لا عماد فى تلك الأسرة » .

وفى العودة إلى هارتفيلد ، حصر ستيفن تفكيره فى النواحى الاجتماعية والمالية التى تحيط بمسألة تحديد النسل . كان يعلم تماماً أن هبوط نسبة الولادة يزداد بين الطبقات الغنيّة والمتوسّطة . ولماذا ؟ هل يشعر هؤلاء الناس بقلق خطير يهدّدهم ، أو أنهم يستندون إلى هذا العذر الاقتصادى كبرهان كاذب يخفون وراءه أعمالهم الإجرامية فى تحديد النسل ؟ فأدرك ستيفن أن حملة شديدة من على المنبر لن تحل المشكلة . إنها فى حاجة إلى دراسة جديدة واقعية تشمل جميع نواحى الموضوع .

فبدأ تحرّياته بمراجعة تشريعات الولاية بخصوص بيع الأدوية ونشر التعاليم التى تحدّ من النسل . فوجد قوانين صارمة تشجب البيع والنشر . كانت القوانين المدنية كمثل القوانين الكنسية قد حدّدت موقفها من التدخل الإجرامى لوقف سبل الحياة . لكن القوانين المدنية كانت تفتقر إلى قوة تنفيذية فقد كانت الصيدليات كلها تبيع جميع وسائل تحديد النسل . وظهرت فى المدة الأخيرة هيئة جديدة تدعى « لجنة تنظيم الأمومة » وشرعت توزع نشرات عن تحديد النسل على زوايا الشوارع والطرقات. حصل ستيفن على إحدى هذه النشرات وشرع يدرسها . صُدّرت المقالة فى سخرية فقدت كل وعى بهذا العنوان : « ما يجب على كل امرأة حرة أن تعرفه » . ذهل ستيفن من الروح المرضيّة المتباكية التى تسود النشرة . وجاء فيها :

« أيتها النساء الأمريكيات ! . . . إن صحتكن تسير إلى خراب ، وسعادتكن تهدر فى خبث ، من جراء مؤامرة تسندها القوانين الكنسية البالية والآراء الطبية الرجعية والصحف المأجورة المكممة أفواهها . هذه الفئة الثلاثية الظالمة تريد أن تخضعكن إلى وضع من الجهل الزائل الساقط

يخيم على حقيقة طبيعتكن وكنه وظيفتها . فيوم يتاح للنشرات التى تعلم كيفية تحديد النسل وللوسائل التى تمنعه الوصول إلى يد كل امرأة قاست آلام الوضع المضنية ، ويوم يتاح للنساء والأمهات الأمريكيات التسلح بمعرفة الأهوال والأخطار التى تنتج عن الأطفال غير المرغوب فيهم ، فى ذلك اليوم فقط قد يستطعن تحطيم القيود التى تربطهن إلى هذه العبودية الدنيئة » .

هل هو انفجار قنبلة ؟ . . . فلام ستيفن نفسه على أنه ربما لم يقدر آلام الوضع حق قدرها أو أنه ربما لم يدرك مدى النتائج المؤلمة الهدامة على صحة الأمهات وسعادتهن ! . . . فقارن بين لحن النشرة المتباكى ودلال الأصوات العذبة التى سمع سيليا تشدو بها وهى تنظف أطفالها وتغسلهم . ثم عارض بين التصريحات العصبية الشاذة التى تتشدق بها النشرة وبين مشاعر الفرح تنبعث من عيون نحو ألف من الأمهات كان قد عمد أولادهن ، برهاناً قاطعاً على سعادتهن . من إذن يطمس معالم الحقيقة ؟ . . .

كان دافع ستيفن الأول أن يستعلم من فخامة لويس نونان عمدة هارتفيلد عن السبب الذى يجعل قوانين الولاية ضد انتشار نشرات تحديد النسل عديمة التنفيذ . لكنه حاول أولا معرفة رأى أمبروز كانيل فى الموضوع . فجاءه الرد على لسان نائبه العام بعد أن مكث ثلاثين ثانية ينفث دخان غليونه فى تأمل عميق وقال بعد أن وزن كلماته كلها : « لن أفعل ذلك يا حضرة الأسقف » .

— « ولمَ لا ؟ »

فأجاب أمبروز كانيل : « لأن أهداب ثيابك ستشتبك بين عجلات السياسة والصناعة والاقتصاد التى تدور عليها الحياة فى هارتفيلد . وفى الواقع هذه العجلات ملتحمة بعضها ببعض . ولا يخفى عليك أن السيدة دنيسون تول تدير إحدى الروافع الضخمة بيد ناعمة فى قفاز من حرير ، وهى التى ترئس لجنة تنظيم الأمومة » .

— « وهل ذلك يؤثر فىّ أو يرهبنى ؟ زدنى إيضاحاً » .

— « سأحدثك بكل ما أعرف — وانقلب أمبروز كانيل رجلا واقعيًّا — إن السيدة دنيسون تول (وبالولادة إيموچين بارلو) هى مزيج من أولئك النساء الغنيات ،

النشيطات ، ذوات اللقب والوسط الاجتماعى الراقى ، التى نراها فى المدن الأمريكية من الدرجة الثانية . وهى حفيدة المهاجرين منذ عهد "زهرة مايو" (ماى فلاور) ، وشخصية بارزة بين "فتيات أمريكا الثائرة" ، ومن أرقى تلميذات "برين مور" . وكما قد لا يخفى عليك ، فهى تعيسة فى زواجها — وعاقر . أما ما قد لا يخطر لك بفكر فهو أنها جذابة مكارة » .

ثم اختار أمبى كانيل هذا الوصف التفصيلى الدقيق : « إن السيدة إيموچين ، كما ندعوها ، تفيض حناناً للحشرات والحيوانات وقد سمعتها بأذنى تدعوها كلها "حيواناتى الصغيرة" » .

— « لا ! . . . »

— « نعم » .

— « هل من شىء آخر ؟ »

— « منذ سنتين طبعت على نفقتها كتاباً من الشعر ، ذا غلاف بندقى اللون ، تحت عنوان "أنات من حديقة هادئة" . فتحدثت عنه المجلات والصحف ، ومن بينها صحيفة هارتفيلد التى تملك فيها السيدة إيموچين نصيباً كبيراً من الأسهم . وهى تراسل أصحاب هذه المجلات والصحف ، وتصف لهم بخفة وطلاقة جمال أزهارها ، وسحر موسيقى "پارسيفال" وأيضاً بؤس حالة النساء الحوامل الأمريكيات » .

واختتم أمبى كانيل تصويره بهذا الخبر الأخير : « ومن قلم إيموچين بارلو نفسها قطرت النشرة التى قرأتها يا صاحب السيادة : ما يجب على كل امرأة حرة أن تعرفه » .

— « هل لهذه السيدة ، ذات المقام الرفيع ، تصريح خاص بمخالفة القانون؟ قد تستطيع المحكمة إعادتها إلى رشدها » .

فأجابه أمبى كانيل بذوق وشجاعة ، وخلقه الإنجليزى ينفر من المشاهد العلنية الصاخبة : « قد يؤدى الالتجاء إلى القضاء . . . إلى مهزلة . لماذا لا نحاربها بالأسلحة الأدبية — منشور رعائى مثلا ، يشرح هذه الخرافات ويقضى بشدة على أخطار تحديد النسل ؟ »

لم يستنكف قط أسقف هارتفيلد من الاعتراف أحياناً بوجاهة فكرة جيدة

تأتيه من مرؤوسه فقال : « شكراً لاقتراحك يا أمي . سأفكر فيه » .

* * *

لم تكن مهمة توضيح الأخطاء الأدبيّة والنفسية الكامنة فى نظرية تحديد النسل ، ودحضها بالبراهين القاطعة فى منشور رعائى ، بالمتعة أو العمل الهين . ولقد قام ستيفن بالتعرف شخصياً على أسلم الآراء الطبّية فى هذا الموضوع . وكانت أغلب الآراء متناقضة . ولكن الغريب فى الأمر أن الأطباء ذوى الاتجاهات المتغايرة سلموا بالإجماع بأن أربعة أو خمسة أو حتى ستة من الأطفال لا يسيئون بشىء إلى صحة امرأة أمريكية من الطبقة الراقية أو الوسطى ، إذا ما كان غذاؤها قانونياً والعناية بها جيدة .

وأمثال أولئك النساء قليلات فى الواقع ، فما القول عن الأسر التى سحقها الفقر وتئن من كثرة الأولاد ؟ وما القول عن الأمهات اللواتى يصبحن إذا ما حملن فى خطر محقق بسبب سوء حالتهن الصحية ؟ أمام هذه المشاكل قررت الكنيسة اتباع إحدى طريقتين : إما الامتناع عن الأعمال الزوجية (ولا تنكر الكنيسة صعوبة هذه الطريقة) — وإما اتباع نظام التواتر الحيضى الذى اكتشف حديثاً وأساسه الدقة فى احتساب فترات الحمل .

أخيراً راجع ستيفن تعاليم البابوات فى إعلاء شأن طبيعة الزواج المقدسة وحث المسؤولين على اتخاذ الوسائل الاقتصادية الفعالة لحماية الأسرة . اتبع ستيفن فى بيانه حجة البابا لاون الثالث عشر فى رسالته العالمية « السر المقدس » المدعومة بالأدلة العقلية ، من أن قوة المجتمع المدنى ورفاهيته تعتمد على « المجتمع العائلى » فى البيت . وقال لاون إنه إذا ما دب الضعف فى الأسرة بسبب التساهل أو التحرر أو الانحلال الخلقى أو البؤس الاقتصادى ، فالدولة مهددة بخطر جسيم . وقد نشر البابا المالك پيوس الحادى عشر رسالته العالميّة فى « الزواج المقدس» ، وعظّم فيها شأن الأطفال بأنهم أسمى بركة للزواج ، وينبوع تعزية وتعويض لمتاعب الحياة . وأعاد پيوس الحادى عشر ما قرره لاون فى تعليمه من أنه « يجب على الدولة اتخاذ الوسائل الاقتصادية التى تؤهل كل رب أسرة إلى كسب ما هو ضرورى لنفسه وامرأته ولإعالة أطفاله . . . فإذا ما هضم حقّه فى أجره هذا ، أو إذا ما دفع له أقل

مما تتطلبه العدالة الاجتماعية ، كان ذلك ظلماً فاحشاً يعدّه الكتاب المقدّس خطيئة من أعظم الخطايا » .

جمع إذن ستيفن معلوماته على ضوء التعاليم الكاثوليكية ، والعلوم الطبية والسعادة الإنسانية ، وكتب رسالته الرعائية فى موضوع تحديد النسل . فأعاد تحرير مسودتها مراراً متوخياً وضوح الأفكار وسلاسة العبارات . وفى الأحد الثانى من الصوم قرئت رسالته الرعائية من فوق كل منبر فى أبرشية هارتفيلد . وهذا ما جاء فيها :

« أيها الإخوة المحبوبون ،

« إن النعمة الخاصة التى يمنحها الله فى سر الزواج تكمل المحبة الإنسانية وتقدّس الرجل والمرأة معاً . فى سر الزواج السامى يتحد الزوجان الواحد بالآخر فى سرور من أجل إنماء الجنس البشرى . ومن أجل تبادل المحبة والتعزية بينهما . فإذا ما انتهك الإنسان حرمة هذه الأسرار المقدسة أهان الله وأذل طبيعته وخان المحبة والأمانة الزوجية . مع ذلك ، يجرؤ أتباع تحديد النسل على إتيان مثل هذا الإجرام ، متحدين بذلك القوانين الطبيعية والأدبية . وينفثون سموم نظرياتهم التى تناقض التعليم الكاثوليكى فى الزواج ، وتسىء إلى الفرد ، وتهدد الدولة بالخطر .

« إنه من واجبى ، كأسقف ، أن أحذركم من هذه النظريات الفاسدة التى يتلاعب بها الداعون إلى تحديد النسل . إنهم سيتملقونكم ببراهين زائفة لا أساس لها فى العلم الطبى أو الواقع الاقتصادى . إنهم سيحثونكم على نبذ أنبل عواطف الحب الزوجى بواسطة بعض الوصفات والعقاقير . وبدلا من وعد السعادة الذى تقدمه لكم الكنيسة الكاثوليكية فى صلواتها ”وبنوك يكونون مثل غروس الزيتون حول مائدتك “، سوف يخدعونكم ببعض القشور العقيمة ترددها نشرة تنظيم الأمومة .

« إن نشرات تحديد النسل ، باتباعها سياسة التهويل من الأخطار الصحية التى ترافق الحمل ، ترمى إلى خلق صورة خاطئة مرضيّة عن سعادة الأمومة . إن آلام الوضع شاقة حقّاً ، لكن كما سبق مخلصنا نفسه وقال : ”إن المرأة حين تلد طفلا لا تذكر من بعد شدتها من أجل الفرح ،

لأنه قد ولد إنسان فى العالم ". اسألوا الأطباء يؤكدوا لكم أن النساء اللواتى يرفضن مجىء الأولاد الذين هم الإكليل المكمل للحياة ، يدفعن ثمناً غالياً جداً بعيد النتائج يمتد به الزمن أكثر من آلام الوضع الموقتة . ولا يوجد فساد أشنع من هروب المرأة برضاها وإرادتها من تحمل مسؤوليات الأمومة .

« ويسأل مراراً المروّجون لنظرية تحديد النسل : "ما الداعى إلى إنجاب عدد أكبر من الأطفال وإخراجهم إلى عالم موبوء بالقلق الاقتصادى ؟" — فإلى هؤلاء تجيب الكنيسة الكاثوليكية بحزم : "ليس من واجبنا أن نمنع الحياة من الدخول إلى العالم ، إنما واجبنا هو أن نجعل من العالم مكاناً أفضل تدخله الحياة" . ليست الأسر الكبيرة سبباً فى وجود البؤس ، والمرض وسوء التغذية . إنما السبب هو وجود الفوارق الاجتماعية الظالمة التى شجبها منذ عهد بعيد لاون الثالث عشر . فليس إيقاف مجرى الحياة دواء ناجعاً للفقر والتعطل ، فهذه أضرار يجب تلافيها بواسطة الاقتصاد المنظم ، وليس بوسائل إجرامية .

« ليست رسالة الكنيسة سن القوانين . ومع ذلك ، فمن واجب الكنيسة تنبيه المجتمع إلى أنه إن لم توضع حلول لهذه المشاكل ، فستنقض على شعوبنا أخطار مخيفة لا تلبث أن تدك كيان الدولة .

« وأذكّر الكاثوليك خصوصاً أن ممارسة تحديد النسل جرم ليس ضد الجسد وضد الدولة فحسب ، بل ضد النفس الخالدة وهذا أعظم الخطر ، كما قال پيوس الحادى عشر فى رسالته العالمية عن الزواج الكاثوليكى : "حيث إن العمل الزواجى موجه أساساً بطبيعته إلى إيلاد البنين ، فهؤلاء الذين يقومون به ويفسدون عمداً قوته وغايته الطبيعية يخطئون ضد الطبيعة نفسها ويرتكبون عملا شنيعاً وفاسداً فى جوهره" .

« لاتدعوا أحداً يخدعكم بقوله إن الكنيسة الكاثوليكية تحثّ مؤمنيها على إعالة أسر تفوق قدرتهم المالية أو قدرة الأم الصحية . ربما لايستحسن إنجاب عدد أكبر من البنين بسبب المرض أو الحاجة . إنما الطريقة

الشرعية الوحيدة لاتقاء هذا الأمر هو الامتناع ، سواء كان تامًّا أو تواتريًّا. وهذا هو مجد الزواج الكاثوليكي الأثيل . إن عدداً كبيراً من الرجال والنساء يمارسون القناعة والعفة ولا ينزلقون إلى ممارسة أعمال تمنعها الشريعة الطبيعية والأدبية .

« فأحثكم إذن على تذكر أن الزواج هو سرٌّ أسّسه المسيح . ولايقوم بتتميمه الكاهن ، لكن الرجل والمرأة هما اللذان يمنح كل منهما صاحبه هذا السر أمام الهيكل . فبواسطة طهارة وقوة حبكم المتبادل الظاهر فى أعمال المحبة والتقوى والاحتمال طوال الحياة ، ستخجلون أولئك الذين يسعون إلى تهديدسعادة زواجكم ، وقوة بلادكم ، وخلاص نفوسكم الخالدة » .

المخلص لكم فى المسيح
ستيفن فرمويل ، مطران هارتفيلد

أثار منشور ستيفن الرعائى مناقشة واسعة النطاق وتناقلته « شركة الصحافة المشتركة » فقامت الحرب على قدم وساق . وقاد المعركة صحيفة « السياسى » فى مقال نارى عنوانه « التاج فوق العقل » . قالت : « إن مطران هارتفيلد الكاثوليكى يهذى ببعض الحجج المنبوذة العتيقة ضد تحديد النسل فى منشور رعائى إلى قطيعه الغافل . كيف يستطيع العقل المتحضر فى أيامنا هذه الاعتقاد بأمثال هذه الخرافات التى تفوق الإدراك والتصور ؟ ألم يحن الوقت بعد كى ترفع الكنيسة الكاثوليكية قناع الجهل عن عينيها وتلحق بتقدم العلوم الاجتماعية ؟ » .

أما صحيفة يورك الجديدة ، « العالم » ، فتطرقت إلى الموضوع فى مقال رئيسى ذى صبغة تختلف تماماً عن سابقتها . قالت : « نود إضافة الحقائق التالية إلى رسالة المطران فرمويل التى تناسب الظروف الحالية وتفيض رقة وشعوراً . أولا : إن واحداً وسبعين فى المئة من حالات الطلاق فى الولايات المتحدة تحدث فى الأسر المحرومة من الأطفال . — ثانياً : فى هذه البلاد ينقص عدد الأولاد الذين لم يتجاوزوا سن العاشرة مليوناً عما كانوا عليه منذ خمس سنوات . مع كل ما يتشدق به جمهور "الأمومة المنظمة" فمما لاشك فيه — على ما يظن — أن الخلافات الزوجية والسباق إلى الانتحار هى أولى نتائج تحديد النسل » .

وردت أيضاً إلى دار المطرانية رسائل بذيئة . منها : « إن خطابك الأخير يظهر بوضوح احتقارك وحقدك الذى يغلى فى قلبك لجنس المرأة . إنى أرثى لك » . « ماذا يفهم رجل أعزب فى شؤون الحمل ؟ الزم بخورك ومباخرك وخزعبلاتك » . « أمثالك هم الذين يقيدون النساء المكسيكيات فى الجهل ويخضعونهن للادعاءات الكهنوتية . بصفتى امرأة عضواً فى النادى الأمريكى وأمًّا لاثنين ، أحتقر تلك العبودية الجنسية التى تسعى إلى فرضها علينا » .

وردت أيضاً رسائل أخرى . رسالة من حاكم يورك الجديدة ، وهو نفسه رب أسرة . قال : « شكراً على إلقائك هذا الشعاع المضىء على الطريق حيث تتشابك الاقتصاديات والآداب فى الظلام » . — وكتب كارنجى يقول : « أصوات المدفعية قد وصلت إلينا . إن منشورك الرعائى كالمدفع الرشاش قد مزق العدوّ إرباً » .

أما أفضل رسالة حقًّا فبعثت بها امرأة تقول : « أمسك قلمى بيدى لأشكرك على الأشياء الجميلة التى قلتها عن العائلات الكبيرة والسعادة التى تجلبها . لا شك أنك أنت واحد منها فما من أحد آخر يعلم ذلك . يقول لى أحياناً أصدقائى إنه يجب علىّ التوقف عن إنجاب الأطفال ، لكنى لاأستطيع فإنى أحبهم كثيراً جدًّا . ولو منّ الله علىّ بمئة منهم ، فقد أستمر فى الصلاة طالبة عدداً أكبر » .

وجاء توقيع الرسالة :

« أم لثلاثة عشر »

هلّ شهر مارس يزهو بمواعيد الربيع الكاذبة المألوفة . تحت غطاء متقطع من الثلج ، كنت ترى هنا وهناك بقعاً خضراء فى حديقة هارتفيلد العامة . الشماسى تنقلب من شدة الريح ، وأحذية المطاط ترشح ، والأحذية الواقية أضحت ثقيلة على الأقدام . وتنافس خمسون ألفاً ممن يقرضون الشعر فى النقر على قيثاراتهم ينشدون الأزهار والطيور ومطالع الربيع . وعدّت مقطوعة چاك مابوت « وعد الربيع » ، التى صدر بها عمود « بهار وفلفل » ، أرق وأظرف المقطوعات المنشورة حتى يوم ١٦ مارس ١٩٢٨ . إليك ما جاء فيها :

أيتها الغانية اللعوب ، يا شهر مارس
المتقلب فى نزواته ورياحه

نصفك الأول يكسوه الشتاء
والنصف الآخر أغراه الربيع

أوقعت من العشاق فى غرامك
على وسائد رياشك وثلوجك

أكثر مما يستطيعه الصيف
ببريق لآلئه وجواهره

أحببت جمالك يا شهر مارس
بعد هيامى بجمال الخريف

فإنى وايم الحق قد خطبت
عروساً سمراء من الملائك

فارفع لى النقاب عن أسرارك
وعما تخفيه بين طياتك

في بحيراتــك ، ووديانــك التي
سيحيلها الربيع خضراً تحت سمائه

* * *

يا مارس لو أمكنني دون أن أخون وعدى
أن أعشق غانية قاصرة أو عروساً ناضجة
لهجرت سعادة خريفي لفصلك الخليــع
وعلى سفح الجبل . المتشقــق بالسيــول
والبراعم منتشرة عــلى الغصــون
هل نقطع عهداً ، يا مارس ، بيننا ، وإن كذبنا؟

* * *

كان ستيفن لا يزال يتذوق معاني القصيدة ، وإذا بالهاتف يرن على مكتبه . وقال العامل : « يورك الجديدة تطلب الأسقف فرمويل » . — ثم صوت مألوف يصيح : « ستافى ؟ أنا چورچ » .

— « ومن غيرك يناديني ستافى ؟ وكيف حال الحملة الانتخابية ، يا جاج ؟ »

بان القلق في صوت چورچ : « نريد استشارتك بخصوص مقال سننشره في الشهر القادم في "مجلة أمريكا الشمالية الشهرية" . وقد تسلم حاكم يورك الجديدة مسودة من " رسالة مفتوحة إلى آل سميث" حررها شخص يدعى هوبل هوايتمان . هل تعرف شيئاً عنه ؟ » .

تذكر ستيفن رفيقه في المأدبة في اجتماع الإيمان المشترك — هذا الرجل ذو الذقن العالي الذي اقترح بجرأة أن ينفصل الكاثوليك الأمريكان عن روما .

— « هوبل هوايتمان ؟ ولمَ ؟ لقد اشتهر كثيراً كبروتستانتي نشيط . وماذا يقول في بيانه ؟ »

— « إنه يسأل بين تلافيف كلماته المتشابكة عما سيفعله آل إذا ما اصطدم ولاؤه الكاثوليكي مع قسمه كرئيس للبلاد » .

— « تلك حماقة . من المستحيل حدوث صدام في هذا الأمر » .

— « إن عدداً كبيراً من المنتخبين لا يعلمون ذلك . وربما لا يعلمه أيضاً

أعضاء الحزب الديموقراطى . ولهذا السبب دعوتك ، يا ستاف . هل تستطيع اقتطاع يوم من عملك وتأتى إلينا لترشدنا ؟ فأنت الوحيد الذى يعرف الجواب » .

تردد ستيفن ثم قال : « أنت تدرك تماماً يا جاج ، أنى بصفتى أسقفاً كاثوليكياً لا أستطيع السماح لنفسى بالتدخل فى السياسة » .

ــ « أظن أنه مسموح لك بالتحدث إلى أخيك . ألا تستطيع ذلك ؟ »

فأجاب ستيفن : «إذن هذا ما سأفعله . أرسل إلىّ بالبريد المستعجل المضمون مسودّة الرسالة . سأقرأها ثم أقرر ما أعمله » .

اتضح أن رسالة هوايتمان المفتوحة إلى آل سميث لم تكن إلا دعاوة ضد الكاثوليك صيغت بمهارة كبيرة على مظاهر من السذاجة والرصانة . وجاءت الديباجة سليمة لا شبهة فيها :

« إن الشعب الأمريكى ليفخر إذ يرى تقدم أحد المواطنين الأمريكيين من الحالة الوضيعة التى بدأ بها حياته ثم تدرّج نحو أعلى منصب فى الدولة . لهذا السبب بعينه ، أثار ترشيحكم لمنصب الرئاسة حماسة عدد كبير من أتباعكم المواطنين . إنهم يعرفون الصعوبات والمعارك التى صقلتكم لتصبحوا قادة ، ويسرون لذلك . ويعرفون أيضاً أمانتكم فى المبادئ الأدبية التى تسيرون عليها فى حياتكم العامة والخاصة ، ويقدّرون ولاءكم للديانة التى تكرّمونها ، ويذكرون أعمالكم ومسؤولياتكم المدنية التى قمتم بها بنجاح وإخلاص لا يشوبها عيب أو نقص ، ويحترمون روحكم الرياضية وعدالتكم نحو منافسيكم السياسيين . وقد تقامر الأحزاب بنفسها فى التحدى لقوة شخصيتكم ، حتى الناس الذين يدلون بأصواتهم عادة ضد حزبكم يقدرون ترشيحكم باحترام صادق » .

عند هذا الحد ترك الأستاذ هوايتمان احترامه المحتسب ، ثم قال : « لكن يوجد نزاع أساسى قهرى بين التعاليم الكاثوليكية الرومانية وبين مبادئ الحرية المدنية والدينية التى تستند إليها المقومات الأمريكية » . ــ ولكى يثبت برهانه اقتبس هوايتمان جملة من البابا لاون الثالث عشر فى رسالته العالمية عن دستور الدولة المسيحى ، حيث قال : « إن الله عز شأنه قد قسم قيادة الجنس البشرى بين سلطتين : الكنسية والمدنية ــ الأولى تختص بالشؤون الروحية والثانية بالشؤون المادية» .

الاقتباس صحيح ، لاشك ، لكنه ناقص ! فرجع ستيفن إلى الأصل فوجد أن هوايتمان اقتطع الجملة الثانية من تصريح لاون الثالث عشر ، التى تقول : « وكل سلطة فى نوعها كاملة — وكل منهما لها حدود تعيّن اختصاصها ، حدود رسمتها طبيعة كل واحدة منهما والمصدر الخاص الذى انبثقت منه » .

على حد قول هوايتمان ، تطالب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية « بسلطات كاملة مطلقة » على حكومة الولايات المتحدة المدنية . ويذهب هوايتمان إلى أبعد من ذلك فيقول إنه من حق الكنيسة فى حالة قيام نزاع ، أى نزاع ، بينها وبين الدولة ، أن تتغلب الكنيسة على الدولة ! . . . وصوّر البابا بحاكم أجنبيّ ترجع إليه الكلمة الأخيرة فى الشؤون الأمريكية .

وأخيراً جمع الأستاذ هوايتمان براهينه هذه الخداعة فى صيحة وطنية وسأل آل سميث عما ينوى فعله لفض « هذا النزاع الأساسى القهرى بين السلطتين » . فإذا ما واجه آل سميث ، كرئيس للبلاد ، مثل هذا النزاع ، فهل يريد — بل هل يستطيع — أن يكون صادقاً فى قسمه لمنصبه الرفيع ؟ أو هل يضطر إلى وضع العقيدة الكاثوليكية وسلطة البابا فوق قسمه بحفظ كيان الدستور ؟

ذهل ستيفن من سياق هذه الأسئلة وكاد لا يلجم غضبه وسخطه . وهمّ فى اندفاعه أن يدحض بشدة وحالا لمزات هوايتمان الخبيثة . تضاءلت فرص نجاح آل سميث فى ذهن ستيفن ، ولم يعد يهمه أن يكسب سميث ترشيح حزب الديموقراطيين له أو انتخابه رئيساً للبلاد ، لكن فكره تعلق بالظلم الفادح الذى ألحقه هوايتمان بالكنيسة .

كان غضبه مؤسساً جزئيًّا على شعور منه بتفاهة المناقشة مع أناس لا يزالون يردّدون أقوالا بالية ضد الدين الكاثوليكى ، أمثال : « خطر البابوية الداهم » . « انقسام الولاء بين الكنيسة والدولة » . — كلها حجج نبشوا عظامها من قبور العصور الغابرة . . . إلى متى يستمر هؤلاء الناس فى اعتبار الكنيسة جماعة من المشاغبين يتآمرون على الدولة والدستور ؟ هلا أدرك هؤلاء الناس أن الديانة الكاثوليكية فى الولايات المتحدة هى الحجر السند للنظام المدنى والحصن المتين ضد مبادئ الفوضى الخبيثة والفساد ؟

ودّ ستيفن أن يصرخ فى هؤلاء الذين يتهمون الكنيسة بنسف قواعد الحرية الأمريكية ويقول لهم : « إن غايتنا الوحيدة هى غرس روح الوطنية المؤسسة على الشرائع الإلهية . إن رائدنا الوحيد هو مساعدة الناس على حفظ الحقيقة حية فى نفوسهم ، وإنعاش أملهم بالسماء ، وتثبيت محبتهم بالله » .

كانت سهام من البرد تتساقط على نوافذ حجرة ستيفن ، وسهام أخرى من الحزن والسخط تجرّح قلبه . أدرك ستيفن تفاهة محاربة أمثال هذه الأوهام الضارة . ثم إن الوقت غير ملائم فى هذه الحقبة من السنة المليئة بالأعمال . سار ستيفن إلى مكتبه وشرع يقلّب مفكّرته فرآها مزحومة لمدة أسبوعين بالمحاضرات والزيارات الرعائية وحفلات التثبيت فى أماكن بعيدة من أبرشيته .

أىّ داع إذن لزحم برنامجه المشحون بمناقشات لا طائل منها ؟ إن حصر الأدلة ضد هوايتمان يتطلب منه أياماً كثيرة من العمل المتواصل فى المكتبة . فليجهد شخص آخر نفسه بالرجوع إلى المصادر ويستخلص منها الردود التى يحتاج إليها آل سميث ! . . .

همّ ستيفن بإرسال برقية إلى أخيه چورچ هذا نصها : « أسف ، لا تعتمد علىّ » ، وإذا بنظره المتردّد يقع على نص فى أعلى الصفحة من مفكرته (من أمثال المفكرات التى تهديها متاجر اللوازم الكنسية وتختار نصّاً لكل يوم) . فكان النص المختار ليوم ٢٠ مارس مقتبساً من القديس بولس يحضّ فيه تيموثاوس ، منذ نحو ألفى سنة ، أيام كانت الكنيسة تجاهد فى سبيل تثبيت نفسها وسط أعدائها :

« اكرز بالكلمة واعكف على ذلك فى وقته وفى غير وقته وحاجج ووبّخ بكل أناة وتعليم » .

من بولس إلى تيموثاوس أسقف أفسس ؟ كلا ، من بولس إلى كل أساقفة الأرض — إذن الآن ودائماً — يرشدهم إلى سياسة العالم المثلى .

إذن يجب التبشير بالتعليم الكاثوليكى فى وقته وفى غير وقته ، ليس بغضب أو بكبرياء ، لكن بكل صبر ، سواء استساغه الفرد أم لم يستسغه . فى شدة أساسها المحبة ، يجب تقويم الأخطاء ، وردع أعداء الكنيسة يوماً بعد يوم إلى أن تتم الغلبة للكلمة .

فأرسل ستيفن هذه البرقية إلى چورچ :

« الرسالة محشوة بأخطاء جسيمة فى واقعها وتفسيراتها . دحضها ضرورى. أحتاج بضعة أيام فى المكتبة لجمع المصادر. سأقابلك الأربعاء بعد الظهر بمقر الحزب فى يورك الجديدة . بالمحبة : ستاف » .

* * *

كان چورچ واقفاً تحت الساعة الضخمة من بناية بيلتمور عندما دخل ستيفن البهو . رأى أولا چورچ أخاه فأراد برهة أن يمتّع نظره بمراقبته خفية . كان أسقف هارتفيلد مرتدياً ثياب كاهن بسيط ، لكنه لم يكن فى حاجة إلى شارات تظهره بمظهر شخص كامل الرجولة . فى بنيانه ، كان يحاكى المثل الأعلى الذى تطالب به شركات التأمين عما يجب على رجل طوله ست أقدام أن يزن فى سن الواحدة والأربعين . مع أن شعر ستيفن الأسود القاتم قد اغبرّ قبل الأوان ، ومع أن لونه مال إلى اصفرار لا تستسيغه الأذواق الأنيقة ، مع ذلك بدا فى مشيته أكثر شباباً وليونة مما هو معهود بين رؤساء الكنيسة . وظهر من حركات رأسه وأعضائه أن قوامه بدأ يميل قليلا — لم يستطع چورچ بم يشبهه : أهو ظهر باخرة سريعة مائل ، أم هو درَج عريض يؤدّى إلى منصّة أو إلى هيكل ؟ فيخيّل إلى الناظر إلى أسقف هارتفيلد أنه يبدو مزيجاً من فيلسوف ناسك وأمير من عهد الازدهار وقائد معسكر .

تقدم ستيفن فى البهو نحو أخيه يحييه .

فقال چورچ وهو يسير أمامه نحو باب المصعد : « ما ألطفك بمجيئك ، يا ستافى . لقد حجزت لك جناحاً فى الطبقة السابعة عشرة . كم يوماً تستطيع المكوث عندنا ؟ » .

— « أخشى ألا أستطيع البقاء سوى الليلة فقط . فإن مدة تغيبى عن هارتفيلد تنتهى غداً إلا إذا جددت كل أربع وعشرين ساعة » .

أخذ چورچ حقيبة أخيه ورفعها مستفهماً : « ماذا فيها ؟ »

— « بذلة للنوم وفرشة أسنان — ومكتبة يدوية . علينا التحدث بالكتب ، وإلا أخفقنا » .

— « هل يفهم حقّاً هوايتمان ما يكتبه ؟ »

— « لقد ناقش الموضوع لاهوتياً » .

لما وصل ستيفن إلى جناحه الخاص فتح حقيبته وأخرج منها ظرفاً أصفر اللون مليئاً بالمذكرات وقال : « إليك الملف كله . ألق عليه نظرة ريثما أغتسل » .

التهم چورج المذكرات كمدّع عام جائع إلى الوقائع .

ثم خرج ستيفن من الحمّام يمسح وجهه بالمنشفة . فقال له چورج : « إن الحاكم سيذهل ويتوقف عن مضغ سيجاره إذا ما قرأ مذكراتك هذه . هل أنت مستعد ؟ » .

وفى أثناء توجّههما نحو أركان آل سميث ، عرض چورج على أخيه مسألة أزعجته فى التشريفات : « إنها مسألة بسيطة ، يا ستاف ، لكن كليكما ، أنت والحاكم ، تتمتّعان بلقب واحد "يا صاحب السعادة" فكيف يتصرف مدير التشريفات ليقدم سعادتين ؟ من يقدم منكما إلى الآخر ؟ »

فأجاب ستيفن : « آه ، إنها المشكلة القديمة المستعصية بين الكنيسة والدولة . إن أفضل قاعدة فى هذا هو أن الفريق الزائر له حق الأولوية » .

لم تؤد المقابلة إلى ارتباك عندما اجتمع صاحبا السعادة ، فقال چورج ببساطة : « أيها الحاكم سميث ، هل لى أن أقدمك إلى أخى ستيفن أسقف هارتفيلد ؟ » — كان آل سميث قد تقدم إلى نصف الحجرة باسطاً كلتا يديه قائلا : « إنك تشرفنا بمجيئك أيها الأسقف فرمويل » . لم ينتقص احترام الحاكم لمكانة ستيفن من مهابته أو حرارة لقائه وتحيته .

الرجل العجيب « ذو القبعة البنية » ! قدّر ستيفن الرجل : تاجر السمك القديم فى شارع فولتون الذى برز من بين ظلال جسر بروكلين ليصبح أول حاكم على مدينة يورك الجديدة وانتخب أربع مرات متتالية . ظهر هذا التطور العسير فى صوت آل سميث المتقطع ، الجاف الساخر (أحياناً) من الذين يتكلمون لغة فصحى . بدا « ذو القبعة البنية » ، أو كما يدعونه أيضاً « غلام بيلتمور الحافى القدمين » ، عندما رآه ستيفن عن كثب ، بقوامه البدين وأنفه المندفع وجبهته العريضة وعينيه الزرقاوين كمياه المحيط الصافيتين كالتى فى ميزان النجار ، — بدا أجمل مظهراً من صوره على إعلانات الانتخابات .

ظل الحاكم ممسكاً المقعد بيده حتى جلس عليه ستيفن ، ثم قال : « ألك فى سيجار ، أيها الأسقف ؟ . . . هل تنزعج من تدخينى ؟ » — كان ذو القبعة البنية فى ظاهر مجاملته واحترامه يتحرق على سؤال عيل به صبره . فقال :

— « إذن ، يا صاحب السيادة ، ما رأيك فى قدرة هوايتمان على تفهـّم الأمور ؟ » .

— « لو حكمنا على النية من الأعمال ، فقد أقول إنه نوى خرابك . إن رسالته مؤدبة جدًّا ولكنها خبيثة جدًّا أيضاً » .

— « ذلك كان شعورى » . — ثم سأل ذو القبعة البنّية ستيفن سؤالا واضحاً صريحاً : « هل يمكن الرد عليه » .

— « يمكن » .

نفض حينئذ آل سميث رماد سيجاره وكأنه يلقى عن كتفه حملا ثقيلا . فعكف على عرض الأمر على ستيفن ، وقد فارقته خشونة صوته . قال : « أنت تعلم تماماً ، أيها الأسقف فرمويل ، أنى لست لاهوتيًّا . لم أقتبس إيمانى الكاثوليكى من الكتب . وقد أرى نفسى فى مركز حرج عندما يقفز أمامى منافس مثل هوايتمان من وراء الستار ويبدأ يناقشنى فى أمور عقائدية لم تخطر بذهنى قط . فهل تستطيع إنارة الطريق أمامى بإجابتى عن سؤالين بشأن علاقة الكنيسة والدولة ؟ »

— « سأسر بهذه المحاولة ، أيها الحاكم » .

جاء سؤال آل سميث الأول صريحاً كعينيه الزرقاوين : « هل يوجد فى ديانتنا ما قد يحمل (إذا توسعنا فى التصور والخيال) موظفاً كاثوليكيًّا إلى الدخول فى نزاع مع دستور الولايات المتحدة ؟ » .

فقال ستيفن : « إن الجواب هو : لا ، بكل بساطة ودون مواربة : لا . إن العقيدة الكاثوليكية تعلّم أن الحكم المدنى والكنيسة يستمدان سلطتهما المنفصلة والمختلفة تماماً من مصدر إلهى واحد . وليست إرادة الله أن تصطدم السلطتان . ولن تصطدما إذا ما بوشرتا شرعيًّا . فإذا صرّحت إحدى السلطتين بخلاف ذلك أو حتى لمحّت به تلميحاً ، فهى إما جاهلة أو خبيثة النية » .

— « حسن ! والآن سؤال آخر . لنفرض أن البابا قد أصدر أمراً فى الأمور المدنيّة البحتة . فماذا يكون واجبى كمواطن أمريكى وموظف حكومىّ ؟ »

فأجاب ستيفن: « لن يصدر البابا مثل هذا الأمر. ولكن إذا فعل ، فواجبك هو عصيانه . إن الكردينال جيبونز يعالج هذا الموضوع فى كتابه "الكنيسة والجمهورية" » . رجع الأسقف إلى مذكرة كان قد كتبها على المسودة وقال : « هذا ما يقوله الكردينال جيبونز : لو أصدر البابا أوامر فى الشؤون المدنية البحتة ، فإنه بعمله هذا يكون مخالفاً المجتمع المدنى ومخالفاً الله أيضاً ، ويناهض سلطة انبثقت من الله كما انبثقت سلطته الخاصة . وكل كاثوليكى يدرك بوضوح هذا الوضع لا يكون مقيّداً بإطاعة البابا ؛ بل بالعكس، فإن ضميره يقيّده بضرورة العصيان ، لأن الضمير عند الكاثوليك هو القاعدة العليا التى يجب علينا التمسك بها ولا نستطيع أبداً مخالفته أيًّا كانت الظروف » .

فضرب آل سميث على مكتبه بقبضة يده بشدة وقال : « هذا ما أطلبه . سنفحم هوايتمان بالوقائع . فما رأيك ، كيف نبدأ ؟ » .

– « لماذا لا تلجأ إلى طريقتك المفضلة بالنظر إلى الموضوع تفصيليًّا وتدريجيًّا ؟ ابدأ أولا برفض اتهاماته إجمالا ، ثم تناول أخطاءه واحداً فواحداً بمشرطك حتى لا يبقى منها شىء » .

فقال ذو القبعة البنية : « الجزء الأول سهل علىّ أما الجزء الثانى الخاص بتفنيد الأخطاء فيزعجنى » .

فتقدم چورچ باقتراح عملى : « لنفرض أن الحاكم يقوم بكتابة مقطع أو مقطعين فى مقدمة رده – ليرسم فحوى المقال فقط . ثم تكمله أنت يا ستيفن بعد ذلك . وبعد انتهائك من المسودة يعكف الحاكم على طبعها بطابعه الخاص . وسيكون ذلك منك سنداً كبيراً ، يا ستافى » .

كان چورچ فى هذا يستعمل طريقته القديمة بالدفاع عن قضيته لا بمناقشة الخصم فيها .

لم يعتقد آل سميث أنه من الحكمة مجاراة چورچ فى طلبه . وساد صمت كالموت فى حين كان الحاكم ينظر إلى ستيفن ، وستيفن ينظر إلى الحاكم .

فقطع أسقف هارتفيلد الصمت ، وظهر الأسف فى صوته وهو يخاطب الحاكم . « أسف ، يا صاحب السيادة ، أنى لا أستطيع مجاراة چورچ فيما اقترحه .

أولا ، لأنى قد أجاوز حدود الأمور الكنسيّة . ثانياً ، لأنى أفتقر إلى المهارة فى وضع المواد اللاهوتية فى صيغة شعبية . إن المساعدة الوحيدة التى أستطيع تقديمها هى إبداء رأيى غير الرسمى فى أمور تمت إلى العلاقة بين الكنيسة والدولة » .

أمام هذه الصراحة ، أجاب آل سميث ببساطة : « أدرك ذلك تماماً ، أيها الأسقف فرمويل . يجب أن يكون ردى على هوايتمان ، أيًّا كانت الصيغة التى يكتب بها ، مقتبساً من ضميرى . وفيما سوى ذلك ، قد لا أحتاج إلى مساعدتك ، وأعلم أنك قد لا تستطيع تقديمها » .

* * *

بعد مضىّ ستة أسابيع ، صدر ردّ آل سميث على الأستاذ هوايتمان ، وكان إعلاناً صريحاً صادقاً بما يكنه موظّف حكومى كاثوليكى عظيم الشأن نحو ديانته ووطنه ومسؤولياته كخادم للخير العام . فى لغة صريحة نافذة طلقة ، هى بالحقيقة طابعه الخاص ، فنّد ذو القبعة البنيّة كل فكرة فى رسالة هوايتمان المفتوحة . وعندما قرأ ستيفن هذا المقال سرّ مفتخراً بمنطق سميث وعزة نفسه . وبنوع خاص ، أعجبته المقاطع الثلاثة الأخيرة ، فقد كانت مجاهرة كاملة من رجل حفظ الإيمان عن مثل أعلى بالعبادة الحرةّ فى بلد ديموقراطى .

« ألخص معتقدى كمواطن أمريكى كاثوليكى . أومن بعبادة الله حسب الإيمان الذى تمارسه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . أقرّ بأن لا وجود لسلطة فى تشريع كنيسىّ تصطدم مع ممارسة دستور الولايات المتحدة . أومن بحرية الضمير التامة ، وبالمساواة بين جميع الكنائس ، وجميع الشيع وجميع المعتقدات أمام القانون ليس كمنحة لكن كحق . أومن بالانفصال المطلق بين الكنيسة والدولة ، وأريد أن تنفذ بدقة تشريعات الدستور بأن لا يسنّ مجلس النواب تشريعاً يرمى إلى رفض قيام ديانة معينة أو إلى منع ممارسة ديانة من الديانات .

« أومن بأن لا سلطة مطلقاً لمحكمة أىّ كنيسة بسنّ أى تشريع تكون له فعاليّة ألبتة فى قانون البلاد ، إلا بالقدْر الذى يرمى إلى إقامة نظام أتباعها وحدهم فى كنيستهم فقط . أومن بوجوب التمسّك بالمدارس الحكومية فإنها الحجر الأساسى للحرية الأمريكية . أومن بحق كل أب فى اختيار المدرسة التى يعلم فيها أبناءه ،

سواء فى المدرسة الحكومية أم فى المدرسة الدينية التى تعولها طائفته . أومن بمبادئ عدم تدخل هذا البلد فى الأمور الداخلية للبلاد الأخرى . وأنه يجب علينا الوقوف دائماً ضد أى تدخل قد يقوم به أى شخص . وأومن أخيراً بالأخوة بين جميع الناس تحت رعاية أبوّة الله .

« بهذه الروح ، أتّحد مع مواطنىّ الأمريكان من جميع الملل فى صلاة حارة بألا يُحْرَج موظف حكومى أبداً مرة أخرى فى هذا البلد بسبب الإيمان الذى يحاول السير فيه بوداعة مع إلهه » .

* * *

كان رد آل سميث على هوايتمان عاملا قاطعاً فى ترشيحه للرئاسة باسم الحزب الديموقراطى . لكنه لم يوفّق إلى تخطى الدرجة الأخيرة . فقد هوجم بشكل مرعب فى الحملات الانتخابية التى تلت تصريحه . وأضحت البلاد مستوحلا من الظنون والحزبية . ردد البروتستان اتهامهم القديم بأنه فى حالة انتخاب آل سميث للرئاسة ، فإنه قد يقيم جناحاً للفاتيكان فى واشنجطون . وحذّر الجمهوريون من أنه قد يرفع خيمة للهنود الحمر على حديقة البيت الأبيض . وصاح محاربو الخمور بأن سميث هو صنيعة حلقات الويسكى . وهؤلاء الثلاثة جميعاً — البروتستان والجمهوريون ومحاربو الخمور — اتفقوا على أنه سكير .

فى هذه الأثناء ، فى المعسكر الثانى لانتخابات الرئاسة ما كنت ترى إلا الوعود البراقة تختال كملكات الجمال رشيقات القوام ، ناعمات السوق ، فوّاحات العطر ، محقّقات للرغبات . فلم يصنع هربرت هوفر شيئاً إلا أن يقطع أجمل الزهرات ويقدمها باقات إلى المنتخبين ، فى خطب رنّانة كساها بالورود والتنبؤات الجميلة .

قال فى فاتحة خطابه لقبول الرئاسة : « إن الملاجئ ستختفى من بلادنا . وإذا أعطينا فرصة جديدة لمتابعة سياسة السنوات الثمانى الماضية فإننا فى القريب العاجل سنرى اليوم الذى فيه يتلاشى الفقر من هذا البلد » .

كان هوفر يعتقد ذلك ، والشعب أيضاً مثله . وفى ٦ نوفمبر ١٩٢٨ ، سار المنتخبون إلى الصناديق ، معللين النفس بالوعود الكاذبة بالحصول على سيارتين لكل أسرة ودجاجة فى كل طبق ، ومنحوا الحزب الجمهورى ثقتهم لمتابعة سياسة السنوات الثمانى الأخيرة .

بعد مضى أحد عشر شهراً ، وقف شعب ذاهل يبكى أحلامه الذهبية ويرى رفاهيته تتلاشى وتنحل فى أحماض الارتباك والاضطراب . كان الجرس الذى أعلن توقف السوق التجارية فى ٢٤ أكتوبر ١٩٢٩ ، يؤذن فى الوقت نفسه بتشييع جنازة حقبة من الزمن لن تعود أبداً .

أما الفلسفة البهلوانية التى كانت تعتقد بأن رفاهية البلاد قد تحقق بالقفز من داخل أطواق الأوراق الحسابية ، فقد انهارت . والمهرّجون الذين صدّقوا ذلك يرقدون اليوم على الأرض مصعوقين مثخنين بالجراح .

بدأ إذن عهد الانهيار الاقتصادى ، طويلا رهيباً ، ولم يخفف من وطأته سوى روح الشعب الأمريكى وقوته على الاحتمال والصبر ، وانتشرت المأساة بطيئة على الأمة كلها ، وكان لا بد أن تجرف عدداً كبيراً من الأبرياء فى تيارها .

مرّت العاصفة على أبرشية هارتفيلد فى شكل ملحوظ . بدأت المصارف تعلن إفلاسها ، وهبط إنتاج المصانع ، وتعطل العمال ، وانخفضت التجارة ، وطرد الناس من بيوتهم من جراء الإفلاس والحجز . واجتاحت البلاد آلام الجوع وعذابات البرد ، فازداد اصفرار الأطفال من سوء التغذية ويئس الآباء من ضياع العمل . وأسدلت الأسر المتوسطة ستائر نوافذها وقبعت فى بيوتها قانعة بالموت البطىء ، بعد أن صرفت آخر فلس عندها . وهام الرجال والنساء فى الشوارع باحثين عن عمل ، وتجمعوا فى الكنائس ومراكز الشرطة يستجدون عوناً ، وطالت صفوفهم فى انتظار جراياتهم من الخبز ، وقرعوا أبواب المؤسسات الخيرية يسألون حسنة .

وبدلا من مستودعات تتّسع لسيارتين أنشئت بالقرب من المدن الصناعية « مراكز هوفر » ، وهى لا تعدو أن تكون أكواخاً من الصفيح والورق المقوى المزفّت .

سئل الرئيس باسم الإنسانية الحقة الصادقة أن يسارع برصد مبالغ من أموال الحكومة المركزية لإعانة الولايات التى ثقلت عليها وطأة النكبة . غير أن هذه المقترحات كانت تناقض فلسفة هوفر الاقتصادية . قال : « إنى أعارض قيام الحكومة المركزية بتقديم أى معونة رأسية أو غير رأسية » . ثم أضاف :

« ليس حلاً معرفة ما إذا كان الشعب سيجوع أم سيبرد . إنها فقط مسألة لمعرفة أفضل طريقة يمنع بها الفقر والبرد . إن المسألة هى معرفة ما إذا كان الشعب الأمريكى سيصر على الاحتفاظ بروح المحبة والعون الشخصى المتبادل (بواسطة الهبات والمساعدات الخيرية) ، وعلى التمسك بمسؤوليات الحكومة المحلية بصفتها

مستقلة عن المساعدات التى تقدمها الخزانة المركزية ، أم لا . واعتقادى الراسخ هو أننا إذا ما تخلينا عن معنى هذه المسؤولية ، وعن الكرم الفردى والعون الشخصى المتبادل ، إذا ما بدأنا نقتطع المعونات من الخزانة المركزية ، فإنى أخشى ألا نكون قد هدمنا قيماً عظيمة سامية فى حياة شعبنا الأمريكى فحسب ، بل نكون قد هدمنا أسس الحكم الذاتى » .

ما أسماها فلسفة سياسية ! لكن تصريح هوفر هذا لم يمنح الأفواه الجائعة خبزاً . مع أن الرئيس كان يعتقد بإخلاص أن مجموع المجهود الفردى سيتغلب على الأزمة ، إلا أنه لم يدرك أن الفرد ، وإن عرك الحياة ، لا يستطيع وحده الصمود أمام النكبة الهائلة التى عمت المجتمع كله . كانت الانفرادية سبب هذه الخسارة الفادحة ، لكن الانفرادية لن تستطيع علاجها .

* * *

شدت مدينة هارتفيلد حزامها كسائر الجماعات الأمريكية . وحاولت مواجهة الأزمة بواسطة المساعدات المحلية ، والمؤسسات التى تعنى بالمحتاجين . وأقبل الشتاء الأول ، وشرعت الدوائر الدينية والمدنية تهتم بمن ينتمون إليها ، فوزعت عليهم دون نظام (عملا بالقول : اضرب أو مت) نقوداً وطعاماً وغازاً . فكانت النتيجة مخزية : تبذير وإهمال وضعف فى توزيع المساعدات . فقرر سعادة عمدة هارتفيلد لويس نونان عقد مؤتمر أهلى لعلاج أضرار المساعدات المبعثرة .

اتخذ رؤساء الإدارات أماكنهم حول مائدة العمدة ،زينة المجتمع وأعمدته ، رجال الدولة والكنيسة والتعليم والقضاء والمصارف والتجارة . رأس الاجتماع الحاكم « ويبستر تورنبول » بسترته المقعرة الأطراف وصدرته المقفلة إلى العنق وربطته المخططة الرمادية ، وكان يعتقد بصفته مرشحاً لمجلس الشيوخ الأمريكى أنه قد يكتسب بعض الأصوات لجانبه بانتمائه إلى اللجان الخيرية . وجلس بالقرب منه ، عميد قساوسة هارتفيلد ، ذو الشعر الفضى ، سيادة (وبالحقيقة) المطران « تيلستون فورسايذ » من كنيسة الميثوديست الأسقفية ، وهو مسيحى صميم بالقول والعمل . وجاء بعده الرقم الأول فى المجتمع ، هارمون پول ، مدير « مصرف هارتفيلد ، شركة مساهمة » . بين مدير المصرف ، والعقيد « توم أوفربو » الرئيس المحلى لجيش

الخلاص ، جلس سيادة المطران ستيفن فرمويل ، المجاز فى اللاهوت ، أسقف هارتفيلد الكاثوليكى الرومانى .

أحنى ستيفن رأسه تحية لمن كانوا بالقرب منه . فأحنى القاضى ريج ، من محكمة الاستئناف ، رأسه اعترافاً منه بتحية الأسقف الطيبة . وفعل مثله « كورتنى بايك » مدير شركة « الأقفال والمسامير الممتازة » . أما السيدة دنيسون تول رئيسة « لجنة الأمومة المنظمة » فلم تأت بإشارة ألبتة ، بل كانت كل مرة ينظر ستيفن نحوها ، تتظاهر بتنظيف نظارتها .

خشى سعادة الحاكم أن تعكر السيدة تول صفو الاجتماع قبل اختتامه . وأحس بالشعور نفسه فخامة العمدة نونان ، الذى طلب من الأعضاء الصمت وافتتح الاجتماع بعرض قصير مبيناً الأخطار التى تحيق بعمليات التوزيع الشائنة . وقال العمدة : « يجب أن نوحد إمكانياتنا فى صندوق أهلى عمومى وإلا أصبحنا جميعاً فى مهب الريح » .

بعد هذه الكلمات انقلب الاجتماع إلى برج بابل . طلب الحاكم تورنبول معرفة من سيقوم على تنسيق توزيع الأموال فاستعار فى سؤاله هذا التشبيه : « هل يكون ذلك فرقة كرة قدم سياسية ؟ » .

واستوضح هارمون پول فى سؤاله أمراً معيناً : « فى أى مصرف سيوضع المال ؟ » .

وقدم القس « جيلبى دودز » ، راعى كنيسة القديس ألفريد اقتراحاً (جريئاً دون شك) بقوله : « ألا يجب مطالبة الأشخاص الذين يرجون المساعدة بتقديم شهادة عضوية من كنيستهم ؟ » .

واتخذ رجل الصناعة ، كورتنى پايك موقفاً حازماً بأنه ليس من حق أعضاء نقابة العمال ترقب مساعدة من الصندوق الأهلى العام فى حين أننا نعلم تماماً أن خزائن النقابة محشوة بالمال : « نعم ، وأعنى ما أقول ، إنها محشوة بالمال » .

وسألت السيدة دنيسون فى نشوة ظاهرة : « ألم يحن الوقت بعد لتنشيط دعايتنا بتحديد النسل بين الفقراء ؟ » .!

رفعت هذه الأسئلة وغيرها الاجتماع إلى درجة الغليان ، وكاد الاحتكاك

يذهب بأعصاب المجتمعين ، وكاد زمام الأمر يفلت من الجميع ويختلط الحابل بالنابل ، وإذا بالمطران ستيفن فرمويل ينهض من مكانه . فعاد إلى القوم هدوؤهم الأول .

بدأ ستيفن يقول بجد وخشونة : « ما من أحد ههنا يجرؤ على اتهام كنيستى أنها تتهاون فى حقوقها وامتيازاتها فيما يختص بشؤون الإيمان أو التعليم » — أصدر مدير المصرف پول زمجرة مرحة ، وابتسم تيلستون فورسايد ، تحية وتقديراً لهذه الملحوظة — « فى الظروف الاعتيادية ، قد أقرر موقفى ، باتضاع كلى وحزم تام ، على أساس أن كنيستى لن تتنازل عن نقطة واحدة من امتيازها الروحى ، أو تتوقف لحظة واحدة عن المطالبة بحقها فى نشر هذا الامتياز بكل طريقة شرعية » . — ثم توقف الأسقف فرمويل برهة ليعطى كلامه الوقع الملائم . — « مع ذلك أشعر أنه أمام هذه الكارثة العامة لا يحق لدين أو فريق التفكير بأمور العقائد أو الامتيازات . يجب أن نتجنب خلافاتنا الحزبية . ويجب أن نقدم العون للأفراد على أساس حاجتهم فقط . وبوصفى أسقفاً على كنيسة كاثوليكية رومانية فى هذه الأبرشية ، فإنى لن أطالب بشهادة عضوية دينية أى فرد ، رجلا كان أو امرأة يتقدم بطلب للمساعدة . وأعد فوق ذلك بأنه لن تكون هناك أى محاولة بالتفرقة أو بالتفضيل يقوم بها أى فرد أو جماعة تحت إشرافى » .

وأدار ستيفن نظره فى الحضور وقال : « لو استطاع أعضاء هذا المؤتمر تقديم ضمانات شبيهة بالتى عرضتها ، فإنى أكون مسروراً بالمساهمة بمبلغ مئة ألف دولار من أموال الأبرشية إلى صندوق هارتفيلد الأهلى » .

فانفرجت أسارير الأعضاء بزفير من الارتياح . تلك كانت القيادة الصحيحة ، مشفوعة بالمال الصحيح ، التى كان يترقبها الجميع على المائدة . — الجميع ؟ . . . كلا . ليست السيدة دنيسون تول ، رئيسة لجنة الأمومة المنظمة التى كانت تتحين الفرص للنيل من ستيفن منذ رسالته الرعائية ضد تحديد النسل . فرشقت بشدة نظارتها على جسر أنفها المعكوف ووجهت مدافعها الثقيلة نحو خصمها الشديد البأس . وبدأت :

« لا أشك أننا جميعاً نقدر هبة الأسقف فرمويل الكريمة . إن ما يقوله عن

وجوب تجنّب الخلافات الحزبية لشعور سام جداً لكن حيث إن بلجنة الأمومة المنظمة ليست بجمعية حزبية ، لذلك أضطر إلى الإلحاح – وحقيقة يجب – أن يسمح للجنة بالسير فى برنامجها ، خصوصاً بين الفقراء الذين يستحقون العون » .

فصفع العمدة نونان جبهته بيده فى حركة يائسة . ها هى ذه المرأة مرة أخرى !.. وصلّح الحاكم ويبستر تورنبول وضع ربطة عنقه وقال محاولا تهدئة الجو : « أنصتى الآن يا إيموچين » . اضطر الحاكم إلى استعمال هذه الطريقة فى التحدث إلى إيموچين تول لأنها ذات نفوذ كبير فى مجلس إدارة الحزب الجمهورى . واستعمل بقية الحضور طرقاً أخرى فى التعبير عن شعورهم استناداً إلى معتقداتهم أو آرائهم بشأن العون الجماعى . ولما انخفض ضجيجهم ، وجدوا أنفسهم وهم ينظرون إلى المطران فرمويل فى انتظار قراره . أيسحب اقتراحه ويهاجم السيدة تول ؟ أم ينحنى صاغراً لمطالبها كما فعل كثيرون قبله ، ويسمح للجنة تنظيم الأمومة بالاستمرار فى عملها ؟

راجع ستيفن فى ذهنه ردوداً عديدة ، يكفى رد واحد منها لسحق السيدة دنيسون تول . قد يكون أبشع رد كالآتى : « يا سيدتى ، حيث إن لجنة تنظيم الأمومة تتحدى القانون فى نشاطها ، فيداك فى نظر القانون ليستا نظيفتين تماماً ، فإذا نطقت بحرف واحد أكثر من ذلك أقمت عليك دعوى جنحة ، أنت وجماعتك » . إلا أن صفعة كهذه قد تحرج مركز الحاكم تورنبول والعمدة نونان معاً . فنبذها ستيفن .

وكان فى جعبته رد آخر ، كالآتى : « حيث إن السيدة تول لا تقدر أن تجد فى حافظتها ما يكفى من المال لتتحدى المعونة التى تقدمت بها الكنيسة الكاثوليكية ، فلم لا تحاول بطيبة قلبها أن تجارى احتمال الكنيسة وصبرها ؟ » إلا أن هذه الملحوظة قد يشتم منها رائحة الفريسى المرائى .

فاختار ستيفن بحذق البرهان الوحيد الذى قد يقصف كبرياء أنفها المعتز ، وفى الوقت نفسه يلقى بلسماً على جراح الآخرين . فقال متسائلا :

– « هل من المعقول أن مواطنة جليلة القدر كالسيدة تول تنسى أسمى درس فى تاريخنا الأمريكى ؟ هل لى بأن أذكر السيدة العضو فى المؤتمر بأنه عندما وقع

أجدادها المهاجرون عقد الضمان المشترك فى حجرة السفينة " زهرة مايو " لم يطالب أحد بحقوق أو امتيازات خاصة ؟ كانت الرفاهية العامة غايتهم القصوى حينذاك . والآن أيضاً أعتقد أن الرخاء العام هو الهدف الوحيد » .

ثم استدار ستيفن نحو العمدة وقال : « مع ذلك ، فإنى مستعد لقبول قرار الأغلبية فى هذا الأمر . أقترح ، يا سيادة الرئيس ، أن يطرح طلب السيدة العضو للاقتراع » .

— « أؤيد الاقتراح » ، قال قاضى الاستئناف ريج .

بالاقتراع رفض طلب السيدة العضو بثمانية أصوات لثلاثة .

ثم عكف المؤتمر بسرعة على رصد مبلغ مليون ونصف مليون دولار للصندوق الأهلى يديره مجلس بعيد عن الحزبية الدينية أو السياسية ، ويتكون من العمدة ، والقس جيلبى دودز ، وهارمون پول ، مدير مصرف هارتفيلد (الذى كان قد يسر دون شك بنصف هذا المبلغ) ، والعقيد أوفربو من جيش الخلاص وأسقف الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . وقدمت شركة مختصة فى جمع المال خدماتها مجاناً . فى الحملة التى سيّروها مدة عشرة أيام من الباب إلى الباب ، ارتفعت الإعانات فى أحياء هارتفيلد العامة من الصفر إلى درجة الغليان ، كمقياس الحرارة . جمع مليون وستمئة وخمسون ألف دولار أنفقت جميعها حتى آخر سنت فى توفير الطعام والغذاء والدفء إلى مواطنى هارتفيلد البائسين .

أما السيدة دنيسون تول فاستمرت بصفة فردية ، فى مساعدة الفقراء المستحقين بتقديمها لهم حساء دسماً ، وبطاقات دعوة موسيقية ، ووصفات لتحديد النسل .

* * *

فى فبراير ١٩٣٠ ، بلغ مسامع ستيفن أن بعض الراهبات يقمن بالتسوّل دون ترخيص على أبواب المصانع فى أبرشيته ، بطريقة تدل على وجود عقل مدبر وراء هذه الحركة . فى مدن مختلفة ، أيام دفع المرتبات ، يقف بعض الراهبات (اثنتان أو ثلاث) فى ثوب رمادى على أبواب المصنع ، وفى أيديهن طبق صغير ، يستجدين العمال نزراً من الإحسان . وبعد جمعهن مبلغاً ضئيلا من القروش والأرباع ، يختفين ليظهرن فى الأسبوع التالى فى مدينة أخرى .

جمع ستيفن من مصادر مختلفة تفاصيل متشابهة : راهبات فى ثوب رمادى ، أطباق حمراء اللون ، اختفاء سريع ، ثم ظهور فجائى فى مكان ناء . فأرسل خطابات إلى جميع الأديرة فى أبرشيته يستزيدهم علماً ، فلم يوجد من يعلم شيئاً عن أولئك الراهبات . ولم يزل السر محصوراً فى هذين السؤالين : من هن أولئك الراهبات اللواتى يتسولن ، ولماذا يتسولن ؟

عزم ستيفن على بحث الأمر بنفسه . كان يعلم أن يوم الخميس هو يوم دفع المرتبات فى أحد المصانع الكهربائية الكبيرة على حدود « جزيرة رود » ، فذهب وحده فى سيارته البويك بعد ظهر يوم مثلج ممطر وظل جالساً فى سيارته فى انتظار ظهور الراهبات المتسولات .

قبل ميعاد الخروج بعشر دقائق اتخذت ثلاث نساء ذوات ثوب رمادى أماكنهن على أبواب المصنع . وعندما بدأ سيل العمال يتدفق إلى الخارج ، لاحظ ستيفن الراهبات يمددن أطباقهن فى دعاء صامت ذليل . أثر منظر أولئك النساء القديسات الواقفات تحت الثلج المتساقط تأثيراً عميقاً فى العمال ، فطفق كل واحد منهم يخرج من ظرف مرتبه الضئيل قطعة صغيرة من المعدن ويلقيها فى الطبق . كانت العملية كلها محكمة الترتيب والتوقيت . ولما انتهت ، وضعت الراهبات حصيلتهن فى كيس من القماش تحمله رائدتهن ، ثم قفزن إلى سيارة ركاب وعدن .

على ضوء المغيب المثلج الممطر ، تبعهن ستيفن بضعة أميال وسط منطقة ريفية تقع بين « لانكاستر » « وهوپديل » . أمسى النهار غسقاً عندما برزت الراهبات ثانية واتخذن مسلكاً منحدراً . أوقف ستيفن سيارته عند محطة بنزين وتتبعهن على قدميه حتى اختفين وراء بوابة ذات قنطرة عالية . فاقترب منها وقرأ لوحاً كتب عليه كلمة واحدة : « الرحمة » .

دفع الباب أمامه ، ودخل فناء موحشاً فرأى تحت أشجار صنوبر حزينة منزلا قديماً عفى عليه الزمن ممتداً فى غير ترتيب ، ذا سطح منحدر فتحت فيه نوافذ قائمة ، وتحيط به شرفات واسعة . أضفى الثلج المتساقط ، والريح المنخفضة المزمجرة بين الأشجار ، والنور الخافت الوحيد فى الدور الثانى ، على المنظر رهبة وكآبة . ماذا يجرى فى هذا البيت المظلم ؟ فتح ستيفن الباب الأمامى ودخل .

فصدمته رائحة المواد المطهرة المتعلقة بالهواء . فى الدور الأول المعرض للريح ، أضيئت شمعة فى علبة صفيح صغيرة مرسلة ضوءها المتموج على عدد من الحجرات المقفلة أبوابها ، ألصق ستيفن أذنه على باب الحجرة الأولى وسمع هديراً عميقاً كأنه يتصاعد من قبر . ومن الحجرة الثانية أتاه صراخ منخفض متقطع ، ومن الثالثة زفرات مخيفة .

وإذا براهبة تتسلل فى ظلال الشمعة ، وفى يدها وعاء . فسألها ستيفن : « هل أستطيع رؤية الأخت المسؤولة هنا ؟ »

فأجابته وقد تأكدت من أن ثوبه الكهنوتى وثيقة تكفل له الدخول : « ستجد الأخت مرتا بشارة فى الدور الثانى . الباب الأخير على اليسار » .

صعد ستيفن الدرج المتداعى واشتدت عليه وطأة رائحة المواد المطهرة . فسار على أطراف أصابعه فى ممر ليس عليه بساط ، تضيئه شمعة واحدة وضعت أمام تمثال صغير للعذراء . عند الباب الأخير أنصت ستيفن إلى مكالمة غريبة : صوت يعزى ويشجع ، والآخر يرد عليه بأنات ضعيفة .

نقر ستيفن نقراً ضعيفاً على الباب ، ثم فتحه ودخل . فانكمش أنفه من رائحة العفن والفساد والانحلال والموت الصادرة من شبح مصفر الجلد ، مسنداً إلى مخدات . كان من المستحيل معرفة كونه رجلا أم امرأة ، إنما كانت العيون مفتوحة تائهة فى نظرة مؤلمة ، والفك الأسفل يختلج فى رعشة لا إرادية ، والصفراء تسيل من جوانبه . وبالقرب من ذلك الشبح وقفت بجانب السرير راهبة ذات ثوب رمادى تنظر إلى هذا الوجه المخيف برحمة فائقة ، وفى يدها طبق صغير أحمر اللون أمسكت به تحت ذقن المريض يلقى فيه لعابه السائل . لم تكن الراهبة تعزى مريضها ، ولم تكن تصلى ، بل كانت شفاهها تهمس همسات رقيقة لا تجيدها إلا أم نحو ابنها المحموم . ليس فى العالم إلا صوت واحد فقط يستطيع إجادة هذه الهمسات .

لالاچ ! لالاچ منتون ! . . .

رفعت الراهبة عينيها اللامعتين المبللتين بالدموع نحو ستيفن وعرفته . فأشارت إليه برأسها ، وإصبعها على شفتيها ولسان حالها يقول : « بعد لحظة ينتهى كل شىء . من فضلك انتظر خارجاً » .

سر ستيفن بإغلاقه الباب وراءه . فى الممر المعرّض للريح ، ركع أمام تمثال العذراء وصلى من أجل النفس التى تساعدها لالاچ منتون على عبور هذه الحياة نحو الراحة الأبدية . لاشك أن النهاية كانت هادئة مريحة .

خرجت لالاچ من غرفة المريض وفى يدها شمعة موقدة وطلبت إلى ستيفن أن يتبعها فى الممر المظلم . وأمام السلم استدارت وواجهته فى هدوء تام . فاستطاع ستيفن على ضوء الشمعة رؤية وجه لالاچ الذى فقد معالم الشباب وبريق الجمال الأول . ثم وجد يديها خشنة من كثرة الأعمال اليومية . فى الثانية والثلاثين من عمرها أضحت الفتاة السمراء مسنة قبل الأوان . لكن عينيها كانتا تشعان بنور داخلى ، وما زالت آثار الخبث تتراقص على شفتيها ، وتغمزها .

قالت له : « كنت أترقب زيارتك . إن شئت فوبخنى » .

ـ « ليس فى نيتى توبيخك ، أيتها الأخت مرتا » .

ـ « لقد كان من الخطإ التسول فى أبرشيتك ، خصوصاً بعدما تسلمت رسالتك تأمرنى بالكف عن ذلك » .

ـ « سنتحدث بذلك فى حينه ، أيتها الأخت . أما الآن فحدثينى عما تعملين ههنا . ما هذا المكان ، هل هو مستشفى ؟ »

ـ « كلا . إن "الرحمة" مأوى لذوى الرمق الأخير ، ملجأ للمرذولين الذين لا يرجى فيهم شفاء ، وقد يموتون مهملين إذا لم يعن بهم أحد » .

ـ « لكن هذه الحالات من اختصاص الطب . وتعود عنايتهم إلى الأطباء والمستشفيات » .

فأشارت لالاچ بيدها المعرقة نحو الأبواب المقفلة وقالت : « إن بيت الرحمة يأوى أشخاصاً يئس منهم الأطباء والمستشفيات . إن مرضانا يموتون فى آخر مراحل السرطان والسل . والمورفين لا يقوى على تخفيف آلامهم . الحال ميئوس منها بالنسبة لأجسادهم ، فنحاول فى آخر الأمر أن نقدم لهم العزاء الذى نستطيعه » .

ـ « منذ متى وأنت ههنا ؟ » .

ـ « منذ أقل من سنة . ولسوء الحظ قد بدأنا فى أوقات صعبة » .

ـ « أليس عندك دخل منتظم ؟ »

فهزت الأخت مرتا بشارة رأسها نفياً وافتخاراً وقالت : « إن الجيرالدين دائماً فقيرات . والدير الرئيسى يرسل لنا ما يستطيع الاستغناء عنه » .

— « ولماذا لم تسأليني مساعدة ؟ »

— « إن قانون رهبنتنا يمنعنا من طلب مساعدة مالية من الأبرشية » . — ثم اقتلعت لالاچ كسرة صغيرة من الشمع الذائب من حافة الشمعة وقالت : — « إنا نعيش على الفتات ، يا صاحب السيادة » .

اقتربت أخت تعرف عليها ستيفن ، إنها واحدة من اللواتى كن يتسولن على أبواب المصنع ، وما زال حذاؤها وأطراف ثوبها مبللة بالثلج . وقالت :

— « إن حالة الحنجرة فى الغرفة رقم ٥ تهبط ، أيتها الأم الرئيسة » .

— « إنى ذاهبة ، أيتها الأخت » . ثم استدارت لالاچ منتون نحو ستيفن وقالت : « هل عندك شيء آخر تقوله لى ؟ » .

— « نعم » . ثم قال فى صوت قوى جاف : « أريدك أن تتوقفى عن التسول فى أبرشية هارتفيلد . فذلك مجحف بحق العمال » .

وانتظر برهة ظناً منه أنها ستتوسل إليه . لكنها لم تفعل . وعلم ستيفن أن لالاچ منتون عازمة أن تستمر فى الاستجداء حتى تهتدى إلى مصدر مضمون من الدخل المالى . فلكى يمنع تلك المرأة الجريئة الجسور من اقتراف خطيئة العصيان ، تقدم لها بمساعدة تلقائية . قال :

— « سأقدم مساعدة مالية لما تقومين به من عمل هنا . منذ اليوم ، سيخصص لبيت الرحمة خمسمئة دولار شهرياً من خزانة الأبرشية » .

— « ذلك كرم عظيم ، يا صاحب السيادة » . — وتلاعبت فى صوتها نبرة من المداعبة والمعاكسة وقالت : « أظن أنك لن تقطع أشجار الصنوبر فى حديقتنا . هل تفعل ذلك ؟ » .

فابتسم ستيفن وقال : « كلا ، لا ضرورة لذلك . إنما أريد تقارير منتظمة تبين جميع مصروفاتك ، وعدد المرضى عندك ، والعلاج الذى يتبعونه . هل هذا واضح تماماً ، أيتها الأخت ؟ » .

— « نعم ، يا صاحب السيادة » .

ثم نزلا معاً الدرج المتشقق ، وعاد ستيفن يقول : « عندما تتحسن الحال

المالية سننظر فى بعض الإصلاحات . فهذا المكان شبيه بالأكواخ ومعرض للرياح . سأرسل واحداً من مساعدى ليعاينه بدقة : الأساسات والمدفأة والمواسير ، والسطح ، وكل شيء » .

حاول ستيفن الظهور بمظهر الجد ، فوجد نفسه يقلد صوت جلينون وحركاته الآمرة . قال : « إن التقوى وحدها لا تكفى ، أيتها الأخت ، فعلى أن أراقب صحة الكيان المادى فى المؤسسات الرهبانية التى فى حدود أبرشيتى » .

ـ « دون شك ، يا صاحب السيادة » .

سارت الأخت ما تا بشارة بضع خطوات وألصقت أذنها على باب حجرة لتستعلم من الزفرات عن حالة المريض .

راقبها ستيفن تعود نحوه وقد وضعت يدها حول الشمعة الموقدة تحميها من الريح ، فخفض من موقفه الرسمى وقال لها فى لين :

ـ « هل أنت سعيدة هنا فى عملك ؟ »

فأجابته فى بساطة : « إنه العمل الذى خلقت لأجله » .

رافقت ستيفن طوال طريق عودته إلى هارتفيلد أصداء جواب لالاچ له . فقد أجابته عن سؤاله كما لو كان يجيبه فرنسيس أو تريزا . فى الواقع ، كل ما كانت تقوله لالاچ وكل ما كانت تفعله ، كان انعكاساً كاملا لجوهر ذاتها . جميع الخلائق المحتاجة تطلبها بإلحاح ، وفى استجابتها إلى طلباتهم ، التى كرست خدمتها لهم ، وجدت اكتمال شخصها وكيانها .

* * *

ثقلت وطأة الكارثة المالية على البلاد ، وأصبحت زيارات ستيفن الرعائية أمراً خطيراً ، ورزحت كل كنيسة تحت عبء مشاكلها المحلية ، وانقلبت حجرة الانتظار فى دار المطران إلى خلية نحل تجمع فيها الرعاة ورؤساء الرهبنات يطلبون العون السريع أو تخفيض الإتاوة الكنسية المفروضة عليهم . فكان ستيفن يراجع دفاتر حساباتهم الرعائية بدقة ويقترح عليهم خفض بعض المصروفات أو الاستغناء عن البعض الآخر تمشياً مع العاصفة المالية التى تجتاح البلاد . مع ذلك ، لاحظ ستيفن فى الأيام الأولى من الكارثة ، أن خفض بعض المصروفات يسبب مأزقاً

خطيراً ذا حدين . فعلى سبيل المثال ، لو أوقف بناء مدرسة أو أرجئت بعض الإصلاحات ، لزاد عدد المتعطلين . فأصبحت الوسيلة الحكيمة الوحيدة (وهى تقتضى شجاعة ودراية معاً) أن تحدد المصروفات بفطنة ، وتصرف الأموال من الأرصدة المختزنة ، وفى الوقت نفسه يعيش الإنسان والأمل يراوده بأن الحال ستستقر .

فى هذه الأثناء ، أصدر البيت الأبيض سيلا من التصريحات الغريبة المذهلة ، ينكر فيها أولا وقوع نكبة على البلاد ، ثم يعود إلى الترديد الوقح بأن الكارثة قد انتهت . قال فيما هذى : « ليس فى الحال ما يدعو إلى القلق » — « سيقضى على الأزمة بعد شهرين » — « إن الرفاهية على الأبواب » — وبالرغم من هذه التصريحات المغرورة ، ما زالت البلاد توحل فى أهوال الكابوس حتى انتهى الأمر أخيراً أن قوبلت نشرة البيت الأبيض بالهزء والسخرية .

عجب ستيفن كيف لم يثر الشعب الذى أهمله قادته السياسيون فى هذه الأيام العصيبة السوداء ، ولم ينفجر انفجاراً يؤذن باندلاع نيران العنف والجنون . أما كيف أن الشعب احتفظ بهدوئه ورباطة جأشه ونظامه على جمر هذه الكارثة المتأجج ، فهو السر والدليل المطمئن على أن الخلق الأمريكى متين فى أساسه .

* * *

أصيب ستيفن فرمويل بمرض عضال . وهو فى ذروة نشاطه ، وفى وقت قد يتطلب منه واجبه السامى مزيداً من المجهود العصبى والجسمى .

أصابته نزلة حادة بذات الرئة من جراء الإجهاد والتعب المتواصل فاضطر إلى التزام الفراش فى أوائل أكتوبر ١٩٣٠ . وبمساعدة الطبيب هوارد جافيجان وعنايته الرقيقة ، وبصلوات المؤمنين فى الأبرشية ، تماثل ستيفن إلى شفاء سريع لم يتوقعه أحد . بعد مضى أسبوعين ، استطاع السير فى حجرته . ثم طفق يضايق الطبيب جافيجان بالسؤال المألوف الذى يردده كل من يمر فى طور النقاهة : « متى أستطيع العودة إلى العمل ؟ » .

فوعده الطبيب قائلا : « سوف تتمكن من إقامة القداس يوم عيد جميع القديسين . قدم الشكر لله الذى أجرى فيك الشفاء ، ولا تعد بعد ذلك تضايقه وتضايقنى بأسئلتك » .

ثم حدث فى صباح يوم عيد جميع القدّيسين ، أن لاحظ ستيفن انتفاخاً غريباً فى ساقه اليمنى ، تمدّداً ظاهراً حتى إنه لم يستطع ربط سير حذائه . فقرر فى داخله ألا يقول شيئاً من هذا لأحد ، وأن يحاول السير على قدمه فى أثناء القداس دون إظهار ألمه لأحد قط . لكنه بعد الغداء عدّ نفسه سعيداً بالرقاد فى الفراش . وفى الغد ، زاد الانتفاخ فى ساقه حتى ركبتيه ، فاستدعى مذعوراً الطبيب جاڤيجان .

فحص الطبيب العجوز العضو المنتفخ فحصاً دقيقاً وضغط على الجلد ، وجس بأصابعه قنطرة الركبة وقال مداعباً : « ألم تسرح فى الغابات فى المدة الأخيرة ؟ ».

— « كلا » .

— « إذن ذلك ليس بداء الفيل » .

— « فما هو إذن ؟ »

أجرى الطبيب جاڤيجان فحصاً آخر . فى هذه المرة ألصق سماعته على قلب ستيفن وأنصت طويلا ، ثم رفع رأسه الأغبر فى اطمئنان وقال : « حسن ! إنه دون شك ليس القلب ، يا صاحب السيادة » .

— « هذا جميل . إنه ليس قلبى ، وهو ليس بداء الفيل . فما هو إذن ؟ » .

— « سأطرح عليك السؤال حالا ، يا حضرة الأسقف . هل مرض أحد فى أسرتك بساقه ؟ »

— « عانى أبى تورماً فى العروق » .

مكث الطبيب جاڤيجان برهة يفكر ثم قال فى تردد : « قد يدعوه "الإخوة مايو" شيئاً ، وقد يدعوه " فرسان ألبرفيلد الأذكياء " شيئاً آخر . أما أنا فأدعوه تمدد الأوردة » .

— « هل هذا خير أم شر ؟ »

وضع الطبيب جاڤيجان سماعته فى حقيبته وقال : « إنه داء مألوف بعد ذات الرئة . إنما لم يمت قط أحد منه » .

— « لكنه قد يمنع رجلا من عبور الطريق . هل هذا ما تحاول قوله ، أيها الطبيب ؟ » .

— « لا تبدأ الآن بتصوّر الشيطان أمامك . سنرفع ثقلك عن قدميك مدة أسبوعين أو ثلاثة . ثم نرى ما سيحدث » .

— « أسبوعان أو ثلاثة ! . . . ذلك مستحيل ! . . . فعندى اجتماع للجمعية الخيرية ، ورسامة كهنة ، وتثبيت بعض الصغار — وأطاح ستيفن بيده فى الهواء بحنق وقال : — وعدد كبير من الأعمال الأخرى » .

— « كلها تستطيع الانتظار . إن راحة الفراش هى أفضل علاج تمنحنا إياه الطبيعة » .

وهكذا كان . مكث ستيفن أسبوعين فى الفراش . وربط له الطبيب جاڤيجان ساقه ورفعها على وسادة ، وأمر مريضه باتباع نظام شديد فى الأكل . إلا أن التورم استمر فى الازدياد كأنه يسخر من العلاج البطىء . والآن أصبحت ساق ستيفن ضخمة ، تؤلمه ألماً فظيعاً كل مرة يحاول السير عليها .

وأخيراً أقرّ الطبيب جاڤيجان بقوله : « أعتقد أنه يجب استدعاء طبيب اختصاصى الآن . فالاستشارة ضرورية فى هذه الحال » .

فقال ستيفن : « أحضروا لى الطبيب چون بيرن فهو بالنسبة لى اختصاصى بما فيه الكفاية » .

أسفر فحص الطبيب بيرن عن وجوب تحليل دم ستيفن والبول وجزءاً من السائل الليمفاوى المستخرج من ساقه المنتفخة . وبعد أن درس الطبيب چون بيرن هذه التقارير ، جلس بالقرب من سرير ستيفن وقال له :

— « إن تشخيصى للمرض يناسب تشخيص الطبيب جاڤيجان ، يا ستيڤ . إن عندك تورماً فى الأوردة ، والانتفاخ عميق فى ساقك . والحال قد تضاعفت بوجود سائل ليمفاوى بين عروقك . . . » وطفق يشرح لستيفن ماهية هذا السائل الليمفاوى ، وإذا بستيفن يقاطعه بسؤال جاف .

— « هل يرجى منه شفاء ؟ »

فأجابه الطبيب بيرن فى شىء من الإبهام على غير عادته : « لا نعرف إلا النزر اليسير عن الاضطرابات الليمفاوية . ويقوم " كانون " و " درنكر " ببعض

الاختبارات على هذا المرض فى جامعة هارڤارد . فعاجلا أو آجلا لابد من ظهور شىء فى هذا الشأن » .

— « وفى هذه الأثناء ستستمر ساقى فى شكل القرعة . أليس الأمر كذلك ؟ »

— « قد تزول فترة المرض الحادة . وقد سجلت بعض الأشفية السريعة — ثم عمد چون بيرن إلى التشجيع وقال : — سنحاول كل شىء وكل علاج : المواد السامة ، والفصد ، والحرارة . . . »

وقاطعه ستيفن والحرقة فى قلبه وقال : « واستزادة من الراحة فى الفراش » .

— « هذا كل ما نستطيع فعله . عليك أن تكون صبوراً ، يا ستيڤ » .

الصبر ! . . . ما أسهل فرض الدواء ، وما أصعب تعاطيه ! . . . الصبر ! . . . إنه احتمال الألم والكارثة بشجاعة . الصبر ! . . . إنه إحدى الفضائل الأدبية — هو نعمة خاصة من الروح القدس .

فوعده ستيفن قائلا : « سأحاول » .

* * *

على غرار أغلب الرجال الذين تمتعوا بنعمة الصحة طوال حياتهم ، كان ستيفن قليل الصبر والاحتمال فى مرضه . كان ملقى على ظهره ، وساقاه مرفوعتان على وسائد . عانى من الآلام النفسية فى الشهر الأول ما لا يطاق . فمرّ من العصبية إلى السأم ومن السأم إلى اليأس حتى خيّل إليه أنه منطرح تحت قبة الكنيسة والأجراس تدق رأسه دقًّا شديداً .

فى هذه الأثناء تراكمت أعمال الأبرشية — ثم أدرجت فى عالم النسيان . صرف ستيفن بعض الأمور وهو راقد فى فراشه وأناب مساعديه فى تصريف بعضها الآخر . أما الأمور الهامة ، كالتثبيت والزيارات الرعائية ، فكانت تتطلب وجود الأسقف شخصياً . ألهب ستيفن مساعديه حماسة فاستجابوا جميعاً بروح طيبة وإخلاص إلى ما أمروا به .

شمر النائب العام كانيل عن ساعد الجد وقام بالدور الموكول إليه . ومارك درورى (وقد عاد رجلا وديعاً متواضعاً منذ الكارثة التى حلت بشارع السد) أجهد نفسه ومرؤوسيه فى أعباء أمانة سر الأبرشية . أما النائب العام وحافظ الأختام

فليس لهما سلطة قانونية لمنح سرى التثبيت والكهنوت . فوجد أمبى كانيل حلاً لهذه المشكلة إذ عثر على أسقف متقاعد من جمعية المرسلين ، سيادة المطران « فابيان كوكس » — مجاز فى اللاهوت — الذى كان يعيش مع شقيقته فى ضواحى « الميناء الجديد » . فقام المطران كوكس ، مع ثقل السنين والأمراض التى يعانيها ، بزيارة الأبرشية مثبتاً الصغار وراسماً كهنة بدلا من ستيفن .

أظهر « أوين ستاركى » أمين سر ستيفن الشاب ، نشاطاً نادراً ومهارة فائقة إذ أضاف إلى عمله فى فرز الرسائل الكثيرة واستخلاص الثمين من الغث فيها ، أعمالا أخرى عديدة تطلبت منه تنقلا متواصلا . كان يشرف على عمليات البناء ، والإصلاحات فى المدافن ، ويراقب سير العمل فى المصانع الصغيرة التى أقامها ستيفن قبل مرضه . ولو لم يشعر بالخجل فى معاملته مع من يكبرونه سنًّا ، لكان الأب ستاركى أفضل مدير فى العمل . وكان يفضى بذلك إلى ستيفن قائلا : « إنه يصعب علىّ مراجعة من كانوا يقيمون القداس قبل أن أولد . فقد أشعر أحياناً أنى أشبه بجندى حديث يجرؤ على تنبيه رئيسه على كيفية ربط سير حذائه » .

أثارت ذكرى سيور الأحذية فى ستيفن حزناً شديداً فهدر هديراً مزعجاً . ظهرت له الأحذية فجأة أجمل شىء فى العالم . هل يحظى بالتمتع بلبسها مرة أخرى ؟ فقال لأوين ستاركى محذراً إياه فى شبه تأنيب ممزوج بخبث ومرح : « إن أول من سيذكر أمامى سيور الأحذية ، سيضطر إلى أكلها مغلية بالماء » — ثم خفض الأسقف من نبرة صوته وقال :— «لا تدع ذوى المراكز العليا يخيفونك ، يا أونى ، تذكر فقط أنك تنوب عن ساقى ، وبالتالى فاخط كما يحق لك » .

توصل ستيفن بواسطة سوق مساعديه وأيديهم وعيونهم إلى تسيير دفة العمل فى أبرشيته . لكنه لم يستطع عمل شىء يوقف الكارثة التى حلت بالبلاد وانتشرت فى طولها وعرضها كجبال الثلج ساحقة كل ما يعترض طريقها من مصانع ومصارف وجماعات حتى أصبحت ذرات فى مهب الريح . جفت ينابيع الحسنات والهبات الخيرية الفردية ، وأمعنت الرعايا فى العجز والعوز ، وأوشكت خزانة الأبرشية أن تنضب ، ولا يزال أسقف هارتفيلد طريح الفراش منتفخ الساق مثقل القلب .

توافد عليه الزائرون من أسرته ومن الأصدقاء يحمل كل منهم باقة تشجيع

أو مؤاساة . حثه جلينون على السفر إلى عيادة الإخوة مايو ليطمئن إلى أفضل تشخيص وعلاج . وانحدر كورنى ديجان من بوسطن يحمل هديتين قيمتين: صندوقاً من الكعك المسكر وقسيمة زرقاء بخمسة آلاف دولار . وقال لستيفن بصوت كأنه خارج من قبر ، وهو يضع القسيمة بين صفحات كتاب صلاة ستيفن : « هذا بعض الشيء تقرضه فئران الكنيسة » .

حضر أيضاً برنى فرمويل وأحضر معه أحدث ما أنتجته مصانع الإذاعة وقال لأخيه الأسقف : « لو خطر لك أن تسمعنى ، فأدر هذا المفتاح كل ليلة فى الساعة الثامنة على موجة (٦٦٠) ، فإنك ستستمتع بما لذ وطاب ، فى برنامج "چيلو — پود" » .

منذ تلك الليلة ، وكل ليلة ، ساعد صوت برنى على تخفيف حدة سأم الأيام التى يقضيها ستيفن ، طريحاً على فراشه .

كان له هؤلاء الزوار وكثيرون غيرهم — منهم ألفيو كارنجى وبولس آيرتون وإرميا سپلين — كالنيران تضىء له الطريق فى ظلمات المرض . وكانت صداقتهم له سنداً عذباً لا يقدّر فى وحدته ، وبرهاناً ملموساً على صدق محبتهم .

مع ذلك ، فقد أدرك ستيفن تدريجيًّا أن أصدقاء الدنيا ، مع كل تشجيعهم وعزائهم ، قد لا يستطيعون انتشاله من وهدة اليأس التى يحاول التخلص منها . صديق واحد فقط يستطيع ذلك . لكن أين ذلك الصديق الآن ؟ ذات مرة فى منتصف الليل صاح ستيفن فى حال من البؤس والتذمر ، وقال : « إلهى ، إلهى ، لماذا تركتنى ؟ » لكن لم يأته رد على صراخه اليائس . كانت أذن الله كالحجر الأصم ، وكمن حول وجهه عنه .

لم تتغير حال ستيفن مدة خمسة أشهر وهو مقيد على فراشه . كان الطبيب چون بيرن يحضر كل أسبوع من بوسطن ليستخرج ما تراكم فى ساقه من السوائل أو ليجرب معه علاجاً ودواء جديداً . غير أن مهارته وأدويته لم تعد على ستيفن بفائدة ألبتة . فقد استمرت ساقه كالقرعة المنتفخة معلقة فى الهواء لا تصلح لعمل .

فانتابته الحمى . فكانت الأخت فرانسيسا ڤيرونيكا ، تأتى بمقياس الحرارة بين أصابعها العاجية ، ثلاث مرات فى اليوم وتضعه بين شفتى ستيفن ، ثم ترفعه وتقرأه

فى برود (آه ، ما أسخف تركيب النساء !) وترسم سهماً أو قوساً على بطاقة المريض . السهم يشير إلى (١٠٠,٢) درجة والقوس يشير إلى (٩٩,٤) درجة : رسم متواتر الخطوط يشير إلى وجود حالة خفيفة من التعفن حيرت كل تشخيص وكل علاج .

ذات يوم ، بينما كان چون بيرن يحاول تجربة نوع جديد من مصابيح الحرارة ، سأله ستيفن فجأة : « أتظن أنى قد أستطيع السير مرة أخرى ، يا چون ؟ »

— « إن كلامك مبهم . لنفرض أننى أجبتك : كلا ، فهل يغير ذلك من الحال شيئاً ؟ » .

— « قد أستقر على ما سأتخذه من إجراءات بخصوص أبرشيتى . فربما أقدم استقالتى . . . وأترك رجلا آخر قديراً يقوم بالعمل . فليس لائقاً أن أخدم ستمئة ألف كاثوليكى وأنا فى الفراش » .

— « هل بلغتك أنباء استياء من إدارتك ؟ » .

— « كلا . لكن على كل واحد أن يكون مخلصاً لعمله » .

فقرب چون بيرن مصباح الحرارة من ساق ستيفن وسأله فى هدوئه المعهود : « إذن ، فلم لا تنمى هذا الإخلاص فى نفسك ، وإن يسيراً » .

فانفجر ستيفن بحنق وقد أرهقت أعصابه وعيل صبره ، وصاح فى الطبيب قائلا : « ماذا تريد منى ؟ أن أرقد ههنا بقية حياتى ، مكتف اليدين فى استسلام طيب ، وأبرشيتى تتفكك عراها ، وساقى معلقة بالسقف كفخذ خنزير مذبوح ؟ »

أبعد چون بيرن مصباح الحرارة وجلس بالقرب من سرير صهره وسأله فى حدة : « ماذا جرى لك ، يا ستيف ؟ أعلم جيداً أنك رقدت على ظهرك فى الفراش مدة ستة أشهر . أقرّ بأن ذلك أمر صعب . وقد لا أستغرب من رجل جاهل التذمر المألوف والصراخ المتواصل إلى السماء وما شابه ذلك . ولكن منك ؟ فذلك أمر لا يزكو بك » .

واستطرد الطبيب بيرن إلى تصريح ينفذ إلى أعماق ستيفن بكلمات حادة كالمشرط : « منذ مدة ، كنت أسائل نفسى قائلا : هل أسقف هارتفيلد هذا الشكس العنيد ، هو نفسه الكاهن الذى عهدته قبلا ؟ هل فقد ستيفن فرمويل

نعمة التواضع ؟ هل نسى أن الألم هو علاج الله الأفضل لرذيلة الكبرياء المنتفخة ؟ »

احمرت وجنتا ستيفن خجلا وهو يفكر فى الكلمات التى بسطها أمامه الطبيب بيرن فى صدق وأمانة كأنها مرآة عكست حقيقة نفسية ستيفن . فتقبل تأنيب الطبيب بيرن دون مقاومة ، ثم أمسك بيده المعرقة الناشفة وقال له : « شكراً يا چون ، على هذا الدواء المرّ . زدنى منه إذا رأيتنى فى حاجة إليه » .

ثم بدأت المعركة اليائسة للخضوع لإرادة الله الآب . عكف ستيفن بكل قلبه على وضع حياته بين يدى الله وفى رعايته ، وذلك بتناوله القربان المقدس كل يوم ، وبممارسته صلوات متصلة ، وقراءته بعض الكتب الروحية ، خصوصاً كتاب « توما أكمپيس » : « الاقتداء بالمسيح » . وكاد ينجح فى محاولته .

مدة ساعة أو اثنتين كان يسترجع رباطة جأشه واحتماله للمصاعب ، فيشعر براحة داخلية تسود عقله وقلبه . ثم يأتى أمبروز كانيل أو أوين ستاركى حاملا إليه أنباء متاعب بعض الرعايا ، أو نبأ فجوة فى إدارة الأبرشية لا يستطيع إصلاحها إلا أسقف ذو حزم وشكيمة . فيصدر حينئذ ستيفن تعليماته الصارمة ، وهو مقيد فى سريره . ثم لا يلبث كيانه الداخلى كله أن يعود فيهبط ، فتنهار قواه وعزيمته مرة أخرى . وكلما تقدم خطوة تأخر خطوات .

ما أصعب أن تجد نفسه تعزية روحية بين صفحات كتاب توما أكمپيس الصافية الهادئة !

« طريقك يا رب طريقنا ، وبالصبر المقدس نسير إليك أنت تاج رأسنا . لو لم تسر أمامنا وترشدنا فمن يجهد نفسه باتباعك ؟ وماذا قد يحل بنا لو لم يكن معنا نور يساعدنا على السير فى خطاك ؟ »

وفّق توما أكمپيس إلى بناء عشه مطمئنًا فى أحضان الرب ، أما ستيفن فلم يستطع العثور حتى على بصيص من نوره الإلهى . وعندما حضر دونيس فرمويل من بوسطن ليعود ابنه ، كان القنوط قد بدأ يتسرب إلى قلب ستيفن .

بعد خدمة استمرت أربعين عاماً على عربات الترام أحيل دن إلى المعاش بمرتب زهيد . أذابت الأيام قوامه الذى كان يوماً جباراً ، فبدت عليه بذلته الزرقاء متجعدة واسعة حول جسمه . أما عيناه ففقدتا شررهما الملتهب . وكعادة الرجال

المسنين ، طفق يتحدث عن شبابه ، عن السنين الأول التى قضاها فى دوبلين قبل مجيئه إلى أمريكا .

قال : « هناك ، يا ابنى ، فى دوبلين مثل سائر يقول بأن كل قبيلة تعيش على ضفاف نهر الليفى تنعم بهبة خصها الله بها . فقبيلة " أودانيلز " مشهورة بشعرها . فالرجال فيها والنساء على السواء شعرهم طويل ناعم كالحرير يتدلى حول أكتافهم . أما قبيلة " فلاتلى " فشهيرة بصوتها ، فعندما يتكلم أحدهم أو يغنى ، يخلبك بصوته الجهورى . أما عشيرة " ديسموند " فقد ذاع صيتها بعضلاتها البديعة. وهكذا كل عشيرة اختصت بشىء » .

— « وبأى شىء اختص الفرمويل ، يا أبى ؟ » .

فارتج صوت دن على هذه الذكرى وقال : « اشتهر الفرمويل فى ألعاب القفز والركض . وكانوا فى مشيتهم ثابتين فخورين . وقد اعتاد الناس التلصص من نوافذهم ليراقبوا والدى يسير مختالا فى طريق ڤيكو . لم يكن متغطرساً أو متعجرفاً ، كلا » — وتوقف دن برهة محاولا وصف الخصلة العريقة التى خلدت الفرمويل . فقال : — « قال لى مرة كورنى ديجان إن والدى كان أشبه بآدم وهو يعبر أول مستنقع اعترضه » .

أضاف دن ، إلى نسيج خياله هذا ، خيطاً أسود . فقال : « لكن ، يا بنى ، قد ألصقت عقوبة على كل من يتنعمون بهذه الخصال . وتقول الأساطير إن رجال نهر الليفى كانوا دائماً يصابون بما كانوا به يتفاخرون . بطريقة أو بأخرى ، أمسى الأمر حقيقة . فقبيلة أودانيلز. فقدت شعرها وأصاب أفرادها القرع وهم بعد أحداث . وانقلبت عضلات عشيرة ديسموند إلى كتل من الشحم المكتنز . . . »

فسأله ستيفن مقاطعاً : « وماذا حل بالفرمويل ؟ »

— « إيه ، كما هو الحال فى كل عشيرة ، كانت لهم أيضاً متاعبهم ، يا بنى » .

نعم ، متاعبهم ! . . . أدرك ستيفن للمرة الأولى ، وهو طريح الفراش ، مأساة دونيس فرمويل ، ذلك الرجل الفخور فى مشيته ، ذو المنبت الشهير فى القفز والركض ، الذى رضى بروح طيبة أن يقف مسمراً وهو بعد حديث السن

على عجلة قيادة الترام ، ويقضى حياته كلها ، سنين طوالا ، مرتبطاً مع ترامه ، دون تذمر أو استياء ، وإن آلمته العروق فى ساقه ، وإن تقطّعت عقدها المتورمة فى أثناء العمل . ما أعظم الدرس الذى يلقيه ذلك الرجل القنوع الصبور !

فى الأيام التى تلت زيارة دن ، جدّ ستيفن فى البحث عن طبيعة متاعبه . لم يجد فرقاً كبيراً فى تفسيرها : أكان مرضه نتيجة لما تناقلته أساطير نهر الليفى (ما أسخف هذه الفكرة !) أم كان علاجاً قاسياً لكبريائه ؟ أما الدرس الجوهرى الواجب تعلمه دائماً ومرة تلو مرة (كم مرة يا إلهى) فهو أنه ما من رجل يستطيع إدراك آلام المسيح ونزاعه إلا إذا مرّ بالعذابات نفسها فى ذاته وقلبه . حينئذ فقط قد يستطيع حمل صليبه الخاص بشجاعة ورجاء . وحينئذ فقط يكون أهلا لسماع وعد الله الآب يقويه بقوله : « هأنذا معكم كل الأيام حتى منتهى الدهر » .

على هذه الأسس الروحية السليمة ، شرع ستيفن يبنى نفسه بناء جديداً . فبدت له كلمة أكمپيس وقد كانت يوماً غامضة ، واضحة ساطعة على ضوء حياة دن ومثله الرائع .

من فصل عنوانه « الآلام الزمنية » قرأ ستيفن المقطع التالى :

« يا ربى ، بما أنك كنت صبوراً فى حياتك ، متمماً على أكمل وجه إرادة أبيك ، فيجدر بى أنا الخاطئ البائس أن أتحمل نفسى بصبر طبقاً لإرادتك . لأن الحياة الحاضرة وإن بدت ثقيلة فهى مع ذلك تزخر بالبركات بواسطة نعمتك ، وتبدو للمتعبين أخف حملا وأسطع نوراً إذا ما اتخذوا مثالك الأقدس رائداً لهم واتبعوا خطوات قديسيك » .

وقال ستيفن مخاطباً نفسه : « إن لأبى مكاناً رفيعاً بينهم » .

لم تفارقه الحمى. وبلغت دائرة ساقه المنتفخة ثلاثين بوصة، ضعف قياسها الطبيعى.

* * *

فى هذه الأثناء توقفت (أو كادت) الحركة الاقتصادية فى أغنى أمة فى العالم وازدحمت الطرقات والشوارع بجماعات من الشحاذين يرددون أغنية الجيل المشهورة وفى أيديهم أطباق وعلبٌ يستجدون بها المارة وينشدون : « يا رفيق ، هل أنت فى غنى عن قرش ؟ »

ماذا يستطيع أن يفعل أسقف مقيد على فراش مرضه ؟ إنه يقدم لشعبه ما يقدر عليه. فقد أوشكت خزائن الأبرشية أن تصير خاوية . وكادت هذه النكبة المالية التى انتشرت فوق البلاد كالكابوس ، أن تودى بأسقف هارتفيلد إلى الهاوية لولا أنه تقبل بثقة تامة تعليم أكمپيس الذى قال :

« قد يهب الإنسان جميع أمواله وممتلكاته ، ومع ذلك فهذا ليس بشىء . وقد يمارس أعمالا كثيرة للتوبة ، مع ذلك فهذا شىء زهيد .

« ثم إنه — وإن حاز كل المعرفة وإن أظهر فضيلة عظيمة وغيرة تقوية — ينقصه شىء فى داخله ، نعم ، شىء لا بد منه فوق كل شىء آخر . فما هو إذن ؟ هو أنه — بعد أن يزهد فى كل شىء — يزهد فى نفسه ويتجرد عنها تماماً ولا يتمسك بذرة من حب ذاته » .

* * *

كان الرجل الذى أجرى له الطبيب چون بيرن عملية جراحية فى منتصف أبريل سنة ١٩٣١ ، من أولئك الرجال الذين لم يتمسكوا بحب ذواتهم .

ذات صباح مشرق حضر چون بيرن دون إخطار إلى صهره وأخرج من جيبه آخر نسخة من « مجلة بريطانيا الجديدة الطبية » وأراه مقالا صدر عنوانه بهذه الكلمات : « العلاج الجراحى للاضطرابات الليمفاوية المستعصية » ، وأخبره فى هدوء تام دون رجة فى صوته : « لقد نجح فريق هارڤارد » .

ثم أبدى الطبيب رأيه فى سذاجة مقنعة بحكم وظيفته وقال : « لقد درست النتائج التى توصلوا إليها ، يا ستيڤ . ثلاثة من أحد عشر ماتوا على منضدة العمليات . ونسبة خطر الالتهاب بعد العملية ، كبيرة . . . »

فقال ستيفن : « سأجرب حظّى » .

فاتبع الطبيب بيرن تعليمات هارڤارد بدقة وأجرى شقّاً طويلا على جلد الساق ، ثم استخرج كمية كبيرة من الأنسجة الليمفاوية الفاسدة ، ثم أعاد الجلد إلى مكانه وألصقه بعضلات الساق ، ثم خاط الجرح على مسافات متفاوتة ، وأخيراً أحكم ربط الساق بالأربطة المعقّمة .

ثم نُقل إليه دم جديد ، وأعطى حقناً من السكر تحت الجلد ، وعادته الممرضات طوال الليل والنهار على ثلاث دفعات ، مما ساعد ستيفن على التغلّب

على أخطار هذه العملية الجراحية الفنّية . بعد العملية بثلاثة أيام جاء فى «صحيفة هارتفيلد » مقطع صغير يطمئن القراء على مألوف عادته ويقول : « الأسقف فرمويل فى تحسن مستمر » .

فى الصحيفة نفسها ، على صفحة داخلية ، ورد خبر قصير عن أمور غريبة تجرى فى بلدة « توپسويل » على خمسة عشر ميلا ، جنوبى شرقى هارتفيلد .

ويقول النبأ : « يظهر أن أحداثاً ذات طبيعة عجائبية قد جرت على أحد القبور فى مدافن "أبواب السماء" — أشفية عديدة قد تمت ، ومرضى كثيرون يتوافدون جماعات ويتجمعون حول القبر » .

على الخرائط السياحية التى تقدّمها مجاناً شركات محطات البنزين لأصحاب السيارات ، لم يشر إلى توپسويل لا بدائرة ولا بنجمة ، ولكن بأصغر العلامات العشرية : بنقطة فقط . وينقلب طريق الأسفلت المنحدر من هارتفيلد إلى مدافن « أبواب السماء » التى تبعد ميلين شرقى المدينة ، طريقاً وعراً معفراً قبل بلوغه سدّاً مقفلاً ، ارتفعت وراءه « أبواب السماء » . فى الظروف العادية ، لا يزيد عدد السيارات إلى المدافن على مئة . أما بعد ظهر ذلك اليوم من مايو سنة ١٩٣١ فكان الطريق مزدحماً بالمرور ، حتى إن الأب أوين ستاركى اضطر إلى إيقاف سيارته الفورد ، على بعد نصف ميل من المدافن ، والسير على قدميه حتّى المدافن . ولما وصل إلى البوابة الحديدية كان الأب أوين يتفصّد عرقاً ، وعلت حذاءه قشرة ناعمة صفراء من لقح النباتات . اصطفت السيارات حول البوابة الكبيرة ، وكثير منها اتخذ له مكاناً داخل أسوار المدافن .

قطب الأب أوين حاجبيه استياء فقد شعر بصفته ناظراً على المدافن ببعض المسؤولية تجاه هذا الازدحام الفوضوى . كان من واجب الحارس چو دوكرى أن يسهر على حفظ البوابة مقفلة ؛ ولا مفر له من تأدية حساب لهذا التصرف .

لكن أين هو چو دوكرى الآن ؟ طرق الأب أوين مسكن الحارس وناداه باسمه : « چو . . . چو دوكرى » . لكن ما من مجيب . فظن الأب الناظر أن الحارس لا بد عند القبر : « الأفضل أن أذهب بنفسى إلى هناك وألقى نظرة » .

فسار مع سيل المارة فى طريق ضيق تحوطه أشجار الزان الحمراء القاتمة وهى أجمل ما فى المدافن ، وما سواها عديم القيمة . كانت قطع الأرض المخصصة للعائلات صغيرة الحجم مهملة لا حاجز يحوطها . وكانت أبنية القبور ، لو استحقت أن تدعى أبنية ، عديمة الشكل والفن . وعلى الحجارة العليا نقشت بعض أسماء ملوك إيرلندا الغابرين مثل : فلاهيرتى ، ديجنان ، بويل ، وأوكانور .

فتمتم الأب أوين قائلا : « لتسترح أنفسهم فى سلام خالد » وأضاف فى

خبث : « لو تركوها تستريح ! »

وراء كشك الحديقة – وهو مخبأ صغير تغطيه الأعشاب الخضراء وتحفظ فيه الأدوات والعدد ، ذو باب من الطراز الهولندى ، – وجد أخيراً الأب أوين چو دوكرى . كان الحارس جالساً فى هدوء واسترخاء ، ملتف الساقين ، وفى فمه غليون من الحجر سودته الأيام ، كما يفعل النبلاء الإرلنديون وهم يراقبون أراضيهم . فلما اقترب منه الأب أوين وقف چو ورفع يده إلى قبعته تحية واحتراماً ، لكن دون ارتباك .

– « أسعد الله يومك ، يا أبى . ما أجمله يوماً حارًّا ! اجلس هنا بعيداً عن الشمس ، حتى أحضر لك كوباً من الماء البارد من نبع " تابرتنى " » . ثم فتح صنبوراً بالقرب منه وقدم للكاهن ماء عذباً فى كوز من الصاج .

– « شكراً ، يا سيد دوكرى » .

كان أوين ستاركى فى حاجة ماسة إلى هذا القدح . فشرب غيره ، ثم جلس على الدكة بالقرب من الحارس .

فسأله چو : « ما رأيك يا أبى فى الجمع الذى يحتشد هنا ؟ البارحة ، بلغ عدد السيارات اثنتين وثمانين ، واليوم ، وحتى هذه الساعة ، بلغ عددها ستًّا وتسعين ، ولا تزال تتزايد » .

استهل الأب أوين حديثه بكلمات لاذعة ثم اختتمه فى رقة وحيرة . قال : « لا أدرى حقًّا ماذا أقول ، يا چو . قبل أن أستطيع تكوين رأى ، يجب أن أسمع كل شىء . ولم تبلغ الأسقف إلا الأقاويل ، وهو يريد معرفة الحقائق والوقائع » . ثم أشار أمين سر ستيفن بيده نحو الموكب السائر بين سحاب من الغبار وقال : « لكن كيف بدأت قصة هذا الموكب على كل حال ؟ »

فابتسم چو دوكرى بسذاجة تعبر عن صحة المثل : « اصبر فكل شىء فى وقته جميل » ، وقال للأب ستاركى : « ألم تسمع بقصة " توم أودول " وتصلب شرايينه ، وكيف بدأت ؟ »

– « لم أسمع شيئاً قط »

– « هل ترغب فى سماع القصة من أودول نفسه ؟ »

وضع چو دوكرى إصبعين فى فمه وشرع يصفر بأغنية « أودول الصبوح » وقال : « إن هذه الأغنية ستوقظه » .

لم تكد العلامات الأولى من الصفير تطير عبر الأثير حتّى ظهر رجل فى شكل الموتى من وراء هضبة صغيرة خضراء ، يحمل فى يده منجلاً كان يقطع به الأعشاب الفاسدة ، وينبئ كل شيء فيه على التعب والانهيار . فتقدم بخطى صغيرة بطيئة ، يغالب الألم فى مفاصل قدميه كأنها فى حاجة إلى قليل من الزيت يساعدها على الحركة .

رفع « أودول الصبوح » يده إلى قبعته تحية وانتظر حتّى يمده دوكرى بأوامره .

قال له الحارس : « يا توم، قصّ على الأب ستاركى كيف بدأ كل شيء . ابدأ بيوم الجمعة حين طلبت منك قطع الأعشاب » .

بعد أن تلقى أودول هذه التعليمات ، بدأ قصته ، فقال : « كما سبق لچو أن قال ، فقد طلب منى فى يوم الجمعة ذلك أن أحش الأعشاب النابتة على بعض القبور تحت أشجار الدردار اليابسة الجرداء . كنت أشكو من تصلب فى الشرايين ، وأشعر بألم حاد فى مفاصلى : رسغى ، وركبتى ، ومرفقى ، وكتفى ، ووركى » . كان أودول يشرح داءه كشاهد عيان محترف .

فقال چو : « وكان ألمه فظيعاً ، تصور أن أصابعه كانت أشبه بالجير المحترق » .

واستطرد أودول لقوله : « إذن ، فى يوم الجمعة ذلك بالذات ، بعد أن قطعت الأعشاب على قبر من القبور شعرت بشيء غريب فىّ . غريب ولكنه لذيذ . فقلت لنفسى : يا توم ، لقد ذهب الألم » .

فقال چو دوكرى ، وهو يفتح قبضة يده كمن يطلق عصفوراً حبيساً : « لقد طار الألم ، ولكنه عاد ثانية ، أليس كذلك ، يا توم ؟ »

— « نعم لقد عاد ، يا چو ، بعد يوم على التقريب » .

— « أخبر الأب ستاركى ماذا فعلت عندئذ . هل تسمح لأودول ، يا أبى ، بالجلوس على البرميل ؟ »

— « دون شك . . . اجلس يا توم » .

أسند أودول عجزه العظمىّ فى حذر شديد على برميل مقلوب واستطرد لقصته يقول : « فى ساعة راحة رجعت إلى القبر ونظفت الحشائش على الأطراف ، وأؤكد لك . . . »

وفتح چو دوكرى قبضة يده مرة أخرى بالحركة نفسها وقال : « وطار الألم ثانية » .

وشهد أودول قائلا : « كما يطير الغراب من على شجرة الصنوبر . ومنذ ذلك الوقت لم يعد الألم مرة أخرى » .

وتطلع الاثنان إلى الأب ستاركى . فسألهما : « وقبر من هو ؟ »

— « أخبره ، يا توم » .

— « كان على القبر حجر كبير متشقق متآكل ، فكشطته وأزلت الطحلب الأخضر من فوقه وتمكنت من قراءة ما عليه : هنا يرقد جثمان حضرة الأب وليم فلين (١٨٠٥ — ١٨٧٧) ، كاهن إلى الأبد على رتبة ماك كيصاديك ».

فصحح له الأب ستاركى غلطته وهو شارد الذهن وقال : « ملكيصادق » . ثم حول نظره إلى چو دوكرى وسأله : « هل تحققت من وجود اسمه فى السجلات ؟ »

— « لقد فعلت ، يا أبى . فسجلات المدافن تبين أن الأب فلين كان راعى الكنيسة هنا . وكانت أمى ، رحمة الله عليها ، تتحدث عنه بخوف واحترام » .

أخرج أوين ستاركى منديله وبلله بالماء ومسح به وجهه ويديه . ثم قال : « أود أن أعرف أكثر من ذلك . لنذهب إلى قبر الأب فلين » .

* * *

بعد أربعة أيام من إجراء العملية للأسقف فرمويل ، صدرت النشرة الطبية تقول : « إنه مستريح فى فراشه » . وبعد ثلاثة أيام ، قالت النشرة : « المريض فى تحسن على قدر ما تسمح به الظروف » . وجاء فيها أيضاً على التوالى : « لوحظ بعض التقدم » — « الطبيب الجراح مسرور وعنده أمل كبير » — « الأسقف يتماثل إلى الشفاء ببطء » — « يخشى حدوث بعض النكسات » .

كانت هذه النشرات وغيرها من التعاويذ الطبية ترسل إلى الصحف لتخفى الحقيقة المرة : أن الأسقف فرمويل كان يمر بفترة عصيبة بعد العملية الجراحية .

لم يكن الألم شديداً ، فالمورفين يستطيع تخفيفه . وحيث إنه لم تثبت لوائح وفيات دقيقة لهذا النوع من العمليات الجراحية ، فقد يضطر الإنسان إلى مواجهة احتمال الموت بروح استسلام مسيحية . ولكن ما كان يزعج ستيفن هو التقطيب المستمر فى جبين الطبيب چون بيرن . فبعد أن أدى چون بيرن كل ما يستطيع جراح أداءه من دقة فى العمل ، أصبح الآن يقاسى ألم انتظار ما ستقوم به الطبيعة من تتميم للعمل الذى بدأه . لقد جازف بعمليته هذه . فهل يستطيع ستيفن السير مرة أخرى ؟ لقد ألقى بقطعة النقد فى الهواء ، وها هى ذى بعد مضىّ أسبوع ما زالت بعد فى الفضاء !

ربما بعد أن ينزع الأربطة ، تعود قطعة النقد إلى يده .

حتى ذاك ، وبطريقة بطيئة أو بأخرى ، لابد للحياة أن تجرى مجراها ، وبالطبع مع مشكلات مالية وإدارية وشخصية وقضائية . وفى أول الأمر — كما هى الحال دائماً — ظهرت المشاكل المالية .

فى السنة الثانية من انهيار السوق التجارية ، بلغ عدد المتعطلين فى الولايات المتحدة ستة عشر مليوناً منهم مئتا ألف فى هارتفيلد وحدها ، وأمسى الدولار نادر الوجود ، وهب الشعب الجائع العارى المتشرد يطالب بالطعام والكساء والخباء والعلاج الطبى : أمور عجزت عنها الحكومة ، ولا تقوم بها إلا الجمعيات الخيرية المحلية .

من كومة من المستندات المرصوصة على منضدة منخفضة بالقرب من سرير ستيفن فى مستشفى القديس أندراوس ، التقط أنبوباً طويلا من الورق المقوى ونزع غطاءه المعدنى وشرع يفحص ملفاً من الأوراق الزرقاء . إنها الرسومات الجديدة للجناح المزمع إقامته فى ملجإ بيت الأبرشية . الرسومات جيدة ، وتخصّ الأب « چيد بولان » . قد يأتى الأب چيد فى لحظة أو فى أخرى ليعرض الأمر على سيادته ، ربما غداً . إن ستيفن منذ الآن ينصت إليه وهو يدافع عن رسوماته ويقول : « لكن ، يا حضرة الأسقف ، أين نضع كل هؤلاء الناس ؟ إنهم معدمون ومرضى وجائعون — وحانقون أيضاً . فعلينا أن نعنى بهم . دعنا نبدأ بالبناء على كل حال . . . أما المال فلا بد أن نحصل عليه » .

ما أنشط الأب چيد ! إنه مدير عجيب للأعمال الخيرية . ولكنه — وياللأسف — لن يسمع سوى « لا » جواباً عن مشروعه : « أسف ، يا چيد . إن الأبرشية على الحضيض والمصارف ترفض إقراضنا . ربما فى الربيع المقبل . هل سمعتنى ، يا چيد . قلت لك : لا » .

سيكون الرد : « لا » أيضاً على الأم أليسيا التى شقيت فى جرف الفحم وحمله إلى المدفأة الخربة المتآكلة فى دير راهبات الكلاريس . و « لا » أيضاً للأخ « جريجور پوتوكى » الذى يحتاج إلى كيماوى لتنمية مزروعات التبغ فى شركاته المساهمة . دائماً « لا » .

طوى ستيفن ملف الرسومات الزرقاء وأعاده إلى الأنبوب ، وتساءل فى نفسه عما إذا كانت الساقان أفضل حقًّا من واحدة فى السعى وراء قرض مالى أو استجداء بعض المال يعول به أبرشيته المنهارة .

ثم التقط صحيفة هارتفيلد . ما زالت الأخبار تترى كئيبة . المصارف تشهر إفلاسها فى جميع أنحاء البلاد ، وأناس يلقون بأنفسهم من النوافذ فى يورك الجديدة ، ومباراة الرقص دخلت يومها الثانى والثلاثين . ألن تعود الصحف إلى الأنباء القيمة يوماً ؟

استرعى نظر ستيفن عنوان كبير فى الصفحة الأولى :

عجائب جديدة تحكى فى مدافن توپسويل

الحارس دوكرى يدلى بتصريح

قذف ستيفن بالصحيفة على المنضدة وزمجر بين أسنانه قائلا : « يكاد دوكرى هذا يقنعنى بتصريحه » . وإذا ما طالب أوين ستاركى بعمل حازم فى تقريره ، فقد يقال دوكرى من منصبه . حقًّا ، ما سبب تأخير الأب ستاركى ؟ كان على أمين السر الدقيق فى مواعيده عادة أن يكون قد عاد منذ ساعة .

دخلت الأخت فرنسيسا ڤيرونيكا ممسكة بين أصابعها العاجية الباردة مقياس الحرارة . ففتح الأسقف فرمويل فمه وتقبله صاغراً . فأنبأته نظرتها الحيادية إلى خط الزئبق بأن حرارته قد ارتفعت مرة أخرى . وشرعت الأخت تؤنبه على محاولته الجنونية فى إدارة الأبرشية من فراش مرضه ، وإذا بالأب ستاركى يدخل من الباب المفتوح

إلى نصفه ، معفر الثياب ، يتصبب عرقاً .

— « ما الأخبار فى سوق العجائب ، يا أونى ؟ »

— « قصة عجيبة حقّاً ، يا صاحب السيادة . إن شعرك سينتفض لها كالقنفذ » .

ودون مقدمات خاض أوين فى سرد تقريره بسرعة ، موجزاً الحديث بين دوكرى وأودول ، حتى بلغ إلى معاينته قبر الأب فلين . فقال :

— « إنه قبر عادى تغطيه رخامة رقيقة ، ولا شىء يفرقه عن القبور الأخرى سوى . . . »

— « سوى ماذا ؟ »

— « سوى أن ما يقرب من مئة شخص ، معظمهم مقعدون من جميع الأصناف ، قد أتوا وجثوا حول القبر اليوم . وإذا صحت تكهنات دوكرى ، فسيرتفع عددهم غداً إلى مئتين ، وفى الأسبوع المقبل إلى ألفين » .

— « وكيف يتصرفون ؟ »

— « يؤسفنى القول إنهم لا يتصرفون كما ينبغى . لقد اقتلعوا العشب الأخضر من القبر ثم شرعوا يحملون التراب فى أكياس صغيرة » . وأخرج أوين من جيبه كيساً صغيراً ، يشبه أكياس الشاى ، وقدمه لرئيسه .

فجسه ستيفن بأصابعه وقال : « فكرة من هذه ؟ »

— « إنها فكرة دوكرى . ويدعو ذلك وسيلة لحفظ الأرض ، حتى يستطيع كل واحد أن يحصل على كمية من التراب معتدلة ، دون النظر إلى كمية النقود التى يلقيها فى البرميل » .

فانتصب ستيفن غاضباً وجلس على سريره وقال : « نقود ؟ . . . برميل ؟ »

فجاهد الأب أوين أن يشرح له الموقف : « الأمر كما تعلم ، يا حضرة الأسقف ، أن الناس كانوا يلقون بنقودهم على القبر ، فوضع چو دوكرى برميلا بالقرب منه تسهيلا للأمر . والبارحة قد ألقوا فيه نحو خمسة وثمانين دولاراً ما عدا القطع الفضية الصغيرة » .

— « وما مصير هذه النقود ؟ هل السيد دوكرى يضعها فى جيبه الخاص ؟ »

— « كلا . إنه يدرك تماماً أن النقود لا تخصه . لكنه يرى مع ذلك أنها يجب

أن تنفق فى بناء معبد ، كما فى لورد ، أو كمعبد القديسة حنة فى " المرج الجميل" (بوپريه) » .

رفع الأسقف حاجبيه استنكاراً ، لكن أوين ستاركى استرسل فى حديثه يقول : « لابد من عمل شيء يا صاحب السيادة ، فإن العكازات تتراكم سريعاً بعضها فوق بعض » .

جحظت عينا ستيفن عند سماعه هذا الكلام . فلو صح أن الأعرج أو الكسيح يرمى عكازه ويسير بعافيته الكاملة لوجب إذن أن ينظر إلى الأحداث التى تدور على قبر الأب فلين فى ضوء جديد . ثم جس كيس التراب وأخذ يفكر طويلا . هل حقاً يحوى تراب هذا الكاهن المنسى ، الذى مات منذ خمسين سنة ، قوة عجائبية ؟ أو هل الأمر كله لا يعدو أن يكون مثلا من أمثال الترعّس الجماعى؟

وحينئذ ظهر على الباب أمبى كانيل ، النائب العام وضابط الاتصال بين الأسقف والعالم الخارجىّ ، فقطع مجرى هذه الأسئلة ونزع غليونه من مكانه المعتاد وقال : « إن رجال الصحافة فى الخارج : الصحافة المشتركة ، والصحافة المتحدة مع فريق المصوّرين ، ويريدون معرفة قصة العجائب فى " أبواب السماء " » .

— « سأعطيهم ما يرغبون ، يا أمبى ، وأشياء أخرى أيضاً . أدخلهم وأعد رجلا لاختزال ما سيدور من حديث . فالصحافة الحرة ، فى ظن بعض هؤلاء الغلمان ، تعنى حرية الخيال » .

تقدّم هوتشكيس ، وهو رائد البعثة الصحفية ومراسل مخضرم ، وافتتح الحديث بكلام صريح . قال : « يا حضرة الأسقف فرمويل ، العجائب أنباء . يظهر أن ما يحدث من عجائب فى مدافن "أبواب السماء" هو من الدرجة الأولى ، ومنجم ذهب أيضاً ، لو أجزت لى هذا التعبير . فقبلما تسير الأمور فى الطريق الخطإ ، ألا تتكرمون باعتباركم أسقف هارتفيلد بالإدلاء بتصريح ؟ »

فقال ستيفن : « إن التصريح الوحيد الذى أستطيعه هو أنى لن أستطيع الإدلاء بتصريح حتى تفحص بتدقيق ، من جميع وجوهها ، الحالة فى مدافن "أبواب السماء " . فعلىّ بالصمت حتى تتجمع لدينا المعلومات ونفرزها وندرسها ونعارضها » ثم ابتسم ستيفن وقال : « وإنى واثق أيها السادة أنكم ستحترمون ذلك الصمت» .

مكث الصحفيون خمس ثوان واجمين . ثم سمع صوت ساخر شرّير يقول : « كل هذا جميل ، يا حضرة الأسقف ، لكن من يستولى على النقود ؟ أغلب الظن أنها ستؤلف أكواماً فى الأيام المقبلة » .

فأجاب ستيفن بسذاجة : « إن الأسقف وحده حسب القانون الكنسى مسؤول وله الحق فى جميع النقود التى تجمع فى أبرشيته » .

سجل الصحفيون ذلك فى مذكراتهم . ثم تكلم مراسل الصحافة المتحدة وقال فى عجرفة ظاهرة : « إن الحارس دوكرى يقول بأنه سيُبْنَى معبد خاص فى مدافن " أبواب السماء " . وقد صرّح بأن جثمان الأب فلين سيُخْرَج من قبره ويوضع فى صندوق من زجاج » .

قال ستيفن : « إن السيد دوكرى واسع الخيال ويحذق الإقناع . مع ذلك ، فهو — باعتباره حارساً فقط على " أبواب السماء " ، ليس المرجع الأخير فيما يتعلق بأمور الأبرشية » .

وإذا بوميض كهربى قد أبرق حولهم . فقال ستيفن : « التصوير ممنوع » .

— « أرجوك ، يا حضرة الأسقف ، أىّ ضرر من صورة صغيرة ؟ »

تجاهل ستيفن الطلب وقال فى حزم : « أيها المنسنيور كانيل ، خذ الصورة منه . أيها السادة ، لا أرغب فى الظهور بمظهر المتطرف ، إلا أنكم لستم فى سرك . فإذا رغبتم فى بعض الصور ، فسيقدّم لكم أمين سرّ الأبرشية نسخة واضحة من الصورة الرسمية » .

ثم قال هوتشكيس : « سؤال واحد آخر ، يا حضرة الأسقف فرمويل : ما هو شكل التحقيق الذى ستجريه ؟ »

— « الشكل المنصوص عليه فى قانون الكنيسة . سيواجه مساعدى الأشخاص الذين ادعوا الشفاء ويأخذ عليهم تقريراً وإقراراً خطيًّا . فإذا وجدت حقًّا حالات شفاء عجائبية ، فستعرض على الأطباء الخبراء . وربما اقتضى ذلك بعض الوقت » .

كان هوتشكيس يطلب دائماً المزيد من الأنباء ، فقال : « تقول ، يا حضرة الأسقف ، إن الأمر يقتضى بعض الوقت . فإلى أن تعرف نتيجة التحقيق الذى ستجريه ، أفلا يستحسن إغلاق أبواب المدافن ؟ » .

الطلب عاقل معتدل . فأجاب عنه ستيفن برصانة : « إذا اتضح أن الأمور الجارية فى " أبواب السماء " عجائبية حقيقة — وإذا أراد الله فى حكمته السامية أن يسبغ نعمة الشفاء على تراب هذا الكاهن المنسيّ — أكون مذنباً بخطيئة جسيمة فى معارضة إرادته تعالى . فلن أجازف بقرارى حتّى تفحص الأمور كلها بوضوح ؟ »

— « هل تسمح لنا بأن نسجّل هذا الكلام ؟ »

— « نعم . إلا أنى أخشى عدم فهمكم إياه تماماً ، وأخشى أن كثيرين من قرّائكم لن يدركوه . لكن يمكنكم ذكر كلامى » .

ثم خرج المراسلون . لم يكد أمبي كانيل يغلق الباب وراءهم حتّى أصدر ستيفن أمرا عموميًّا . « اختر لى ، يا أمبي ، اثنى عشر كاهناً من أنبه وأنشط الكهنة فى الأبرشية . وأحضرهم ههنا فى أسرع وقت . سأقوم بنفسى بتدريبهم . فإنا لن نألوَ جهداً فى البحث والتنقيب والتدقيق ، حتّى تمدنا الحوادث بوقائع يمكننا الاعتماد عليها » .

ثم استدار ستيفن نحو أمين سره وقال : « أنت مسؤول عن سير التحقيق ، يا أونى . وعملك الأول هو أن تعلن چو دوكرى بأنى أعده مسؤولا شخصيًّا عن حفظ النظام فى المدافن وعن تقديم حساب كامل دقيق عن كل النقود التى تجمع هناك فى " أبواب السماء " » .

* * *

بعد خمسة عشر يوماً من إجراء العملية الجراحية ، نزع الطبيب چون بيرن الأربطة عن ساق ستيفن . اتضح وجود أمرين : لم يوجد فى الفتحة الطويلة المقوّسة أثر للتعفن ، ودائرة الساق طبيعية . ففاض ستيفن شكراً للطبيب چون ، وأمسك بيده وقد أعجب بالخياطات الدقيقة النظيفة على ساقه وقال له : « يا أيها الجرّاح الكفئ . فى استطاعتك أن تكون خياطاً ماهراً » .

أما الطبيب چون بيرن فلم يبتسم ، ولم تختلج جفون عينيه الثابتتين . بل قال : « أرى أن الجرح نظيف ، لا بأس به ، يا ستيف ، لكننا لم نخرج بعد من الحرش . الاختبار الحق هو عندما تضع ثقلك على قدمك » .

— « ومتى يكون ذلك ؟ »

— « لا أعلم . يجب أولا أن نتحقق تماماً بأن النظام الليمفاوى قد عاد إلى سيره الطبيعى بين الجلد والأعصاب . وفى هذه الأثناء : تجب الراحة فى الفراش وعدم الحركة لمدة أسبوعين آخرين . ولا تحاول الغش فى أحدهما » .

— « أتخشى أن أفسد كل ما عملته إن غادرتُ سريرى ؟ »

فهزّ الطبيب بيرن ذقنه وقال : « الشيء الوحيد الذى أخشاه ، يا ستيف ، هو خطر التعفن . كما تعلم ، إن النظام الليمفاوى هو خط الدفاع الأول فى الجسم ضد اجتياح الجراثيم. فإن دخلت فى الجرح جرثومة واحدة من الستربتوكوكس فستقطع ساقك حتّى وركك » .

فقطع له ستيفن وعداً على نفسه وقال : « سأمكث فى الفراش » .

فى عشرة الأيام التالية ، ازدحمت الأعمال فى شؤون الأبرشية ، وأصبحت حجرة ستيفن فى المستشفى قبلة الرؤساء والموظفين الكنسيين يدخلون ويخرجون بملفاتهم لمعرفة القرار فى بعض المسائل المعلقة . فى مذكرته المشحونة بالمواعيد خصّ ستيفن وقتاً يسيراً لأوين ستاركى الذى كان يأتيه كل يوم بأنباء التحقيق الذى يدور حول عجائب « أبواب السماء » . فقد اضطر أوين ستاركى ومساعدوه إلى التجوال فى جميع أنحاء الأبرشية بجمع المعلومات ، حتّى بلغ عدد التقارير والمكالمات الموقع عليها من شهود العيان والأطباء أكثر من مئتين ، فى الخامس عشر من مايو .

ألقى ستيفن نظرة على رزمة الأوراق فى حقيبة أوين ستاركى وقال له : « اختّر لى حالة نادرة من بين أولئك ، يا أونى » .

فاختار الأب ستاركى من بين مجموعته ورقة نظيفة مطبوعة على الآلة الكاتبة وقدمها لرئيسه قائلا : « إليك هذا المثل من الحالات ، وكيف تجرى على وجه العموم ، يا صاحب السيادة » .

كان المستند مؤلفاً من جزءين : وصف للمكالمة وإقرار موقع عليه يبين وقائع الحالة . وقرأ ستيفن ما يلى :

« إغناطيا لينان ، أرملة . سنها ٤٦ سنة . عملها : نصفه بيتى . نوع المرض : ألم مستمر فى الظهر منذ ولادتها طفلها السادس ، منذ ١٤ سنة . أمراض أخرى : دوخة ، دوائر تتراقص أمام العينين ، ضربات فى القلب ، طنين فى الأذن ،

حبوب على الجلد محرقة (كذا) . رسغ القدم منتفخ ، كابوس فى الليل ، طفح على ظهر اليد ، ضيق بعد أكل الأطعمة الدهنية . — المذكورة بكت أثناء التحقيق ، واعتذرت عن رائحة الخمر فى فمها ونَفَسِها ، وقالت بالحرف الواحد : « أشرب الخمر من أجل معدتى » . ثم قدمت للمحقق زجاجة من الجعة « كى يطفئ عطشه » .

« مختصر إقرار السيدة لينان : كانت دائماً من روّاد الكنيسة ، لم تهمل القداس قط ، تساهم بكرم فى مساعدة راعى الكنيسة إذا وجدت نقوداً فى البيت . العبادات الخاصة : الوردية ومراحل الصليب . عالجها أطباء كثيرون دون فائدة تذكر . شعرت ببعض التحسن على يد إخصائى فى الأعصاب سنة ١٩٢٩ . منذ خمسة أسابيع سمعت بالأشفية التى تحدث فى " أبواب السماء " زارت قبر الأب فلين وصلّت الوردية راكعة على العشب بالقرب من القبر ، وأخذت معها إلى البيت كيساً صغيراً من التراب ، وقدمت نصف دولار . شعرت بالراحة لمدة أسبوع ، وبدأ الألم فى ظهرها يتضاءل . والآن تلبس حول عنقها كيس التراب . تقول إنه يمنحها " راحة مباركة " . تنوى زيارة القبر مرة أخرى لأن الألم فى ظهرها يعود تدريجيًّا . لا تشك فى أن للقبر قوة عجائبية وأنها فى آخر الأمر ستشفى تماماً .

« قرأتُ ما سبق أعلاه وأقرّ أن هذا إقرار صحيح وصادق صدر منى » .

(التوقيع) إغناطيا لينان

مع الإقرار أرفقت شهادة طبيب من هارتفيلد تقول : « قد أجريتُ الكشف على السيدة إغناطيا لينان مرتين فى عيادتى وتبينت أن مرضها الأساسى هو ألم فى أسفل الظهر ، ربما يعود سببه إلى اختلال فى بعض مراكز الأعضاء الداخلية » .

فلوى ستيفن شفتيه استغراباً وقال : « هل كلها على هذا النسق ، يا أونى ؟ »

— « على التقريب ، يا صاحب السيادة » .

— « ليست هذه هى الأسس التى تبنى عليها العجائب. أليس هذا رأيك أيضاً ؟ »

أظهر أوين ستاركى بعض التفاؤل وقال : « توجد بين أوراقى حالة قيمة .

اسم الشخص " هارولد ترودو" » . ودفع إلى ستيفن ملف قصة ترودو :

« شلل الأطفال فى سنّ العاشرة . كان يلبس أحزمة ويتكئ على عكاز ويسير إلى البيت . واليوم يعمل بأجر فى شركة الهاتف فى هارتفيلد » .

فصاح ستيفن وهو يتفحص الشهادات الطبية المرفقة بإقرار ترودو ، وقال : « هذا فى الحقيقة شيء ملموس » .

— « إنى مسرور لتقريرك ، يا حضرة الأسقف . فالرجل قنوع ، متوسط الذهن ، ويظهر أنه شفى تماماً . نعم ، له ساق أقصر من الأخرى ، لكنه يزاول عمله مع ذلك » .

فخفض ستيفن من تحمسه وقال : « لنفرض أنه يعانى شيئاً من التّرعّس» .

— « ذلك محتمل ، بالطبع » .

— « هل تستطيع إحضاره إلىّ . فإنى أودّ رؤية الرجل بنفسى » .

اتضح أن هارولد ترودو شاب مريض ، مكفهر اللون ، متصنع فى كلامه، غبىّ فى ألفاظه ، متبهرج الذوق فى لبس ربطات عنقه . وفى قدمه اليمنى حذاء طبىّ طويل العنق . فلما دعاه ستيفن ، جلس وشرع يسرد قصة متناسقة الأطراف عن شلله أيام طفولته وارتخاء جزئى فى أعضائه السفلى . وفى فترة شبابه الأليمة ، اضطر إلى لبس أحزمة حول ساقه بسبب عاهته ، ولكنه نزعها لما بلغ العشرين من عمره . بعد ذلك ، اعتمد دائماً فى سيره على العكازحتى يوم زار قبر الأب فلين . وقال :

— « ذهبت إلى المدافن لزيارة قبر والدتى — لقد ماتت فى الربيع الماضى . وفى أثناء وجودى هناك ، رأيت عدداً من الناس راكعين حول قبر الأب فلين . فركعت أيضاً وصليت ثلاث مرات السلام الملائكى وفركت ركبتى بقليل من التراب . ولما وقفت على قدمى لم أشعر أنى فى حاجة إلى استعمال العكازات » .

— « ولم تستعملها منذ ذلك الوقت ؟ »

— « ذلك صحيح يا حضرة الأسقف . وأستطيع الآن حتى الرقص » .

قال ستيفن : « عظيم ! ومتى بدأت ترقص ؟ »

فاحمرّ وجه الشاهد ، وقال : « لا يخفى عليك ، يا حضرة الأسقف ، أنى

كنت متيّماً بحب فتاة زمناً طويلا، لكنها كانت تنفرمنى بسبب العكازات . فحالما استطعت الاستغناء عنها ، بدأت مرافقتها » .

— « لقد فهمت » . — قالها ستيفن وحاول ألا ينظر من جهة أوين ستاركى. ثم قال : « وكيف الحال الآن ؟ »

« على أحسن ما يرام . سنعقد خطبتنا حالما أدخر من المال ما أستطيع به شراء خاتم الخطوبة » .

قال ستيفن : «أجمل تهانىّ ، يا سيد ترودو وأشكرك جدًّا على تفضلك بالمجىء » .

لما خرج هارولد ترودو قرص ستيفن شفته بإصبعيه فى شك وقال : « لا أعتقد أن الرجل أقنعنى بقصته ، حتى أدعو حالته أعجوبة . ما رأيك ، يا أونى ؟ »

— « لا أظنّ . لم يفتك اقتناص الدليل من قدرته على الرقص » .

ثم دخل أمبى كانيل وفى يده آخر عدد من صحيفة هارتفيلد ، وقال فى مرح : « إليكم أحدث بلاغ من جبهة العجائب » . سرّح ستيفن بصره فى صور الصفحة الأولى ، فرأى چو دوكرى يشير وهو بين رجال الصحافة إلى موقع المعبد الجديد فى مدافن « أبواب السماء » . وتحت الصورة كتبت هذه الكلمات : « التكاليف المقدّرة تدور فى فلك ستة أرقام » .

قال ستيفن : « إنه يصعب علىّ قطع الأحلام على چو دوكرى » . ثم استدار نحو أمين سرّه وقال : « غداً صباحاً ، يا أونى ، أريدك أن تذهب إلى المدافن وتخبر حارسنا الهمام أن المسرحية قد انتهت . ومرهُ أن يغلق " أبواب السماء " ، ويعلق عليها لافتة : " لاعجائب حتى إخطار آخر " » .

* * *

فى اليوم التالى بعد الظهر — وكان يوم سبت — شق الأب أوين ستاركى طريقه على الأقدام بصعوبة فائقة بين الجمع المزدحم المتكدس دون ترتيب حول بوابة المدافن . مدة الليل كله اتخذ سيل القادمين شكل الحفلات التنكرية . بائعو الذرة المحمصة يصيحون بأعلى أصواتهم . وآخرون بنوا بسرعة بعض الأكشاك وشرعوا يبيعون كرات المطاط ، والتفاح المسكر على أعواد الخشب ، ومسابح ذات حبات مذهبة ، وتماثيل صغيرة للأب فلين ، وأنواعاً كثيرة أخرى من الصور

المقدسة . . . والسجق الساخن . بين عمودى المدخل التحم تياران من الزوار فى مدّ وجزر شنيعين ؛ القادمون فى طلب العجائب والعائدون من زيارة قبر الأب فلين . وجد الأب ستاركى نفسه محشوراً بين هذه الكتل المتراصة تجذبه وتعصره ، حتى وصل أخيراً إلى كشك الحارس ، فأصلح ثيابه المهلهلة ، وطرق الباب .

فسمع صوتاً يصيح من الداخل : « تفضل دون حرج » . دفع الأب ستاركى النصف الأعلى من الباب فرأى چو دوكرى منهمكا فى ألذّ الأعمال جميعها — كان يحسب النقود . جعلت منه هذه المهمة رجلا آخر : تبخّر غليون الحجر الجيرى والقبعة الجلدية . وبدلا منهما وضع الحارس سيجاراً أنيقاً فى فمه تفوح منه رائحة طيبة ، وعلى رأسه قبعة من القماش الثمين . أما المناجل والمقصات ، فلم تعد تهمه فى شىء . معدن آخر سلب لبه ، وهو يغترف بيديه قطع النقود الفضية من البرميل ويسقطها فى كيس من القماش الثقيل وضعه على المنضدة .

كان شخصه يطفح عظمة كأصحاب الأملاك . وقدم للأب ستاركى سيجاراً وهو يحاكى حركات الأمراء . ثم ربط كيس النقود من عنقه بحبل متين كما يفعل الوكلاء . وشرح الأمر لزائره قائلا : « إن النقود تنهال بسرعة حتى إننا نضطر إلى ربطها دون عدّ . لو استمرت الحال على هذا المنوال فسأضطر إلى إحضار شخص آخر يساعدنى فى عدّها » .

لم يعره الأب أوين ستاركى انتباهاً ، بل قال له : « لن يستمر الأمر ، ياچو . إن الأوامر تقضى بإغلاق بوابة المدافن » .

— « أوامر ؟ » — وشرع دوكرى يعبىء كيساً آخر بالنقود . ثم قال : « أوامر من؟ »

فحاول الأب ستاركى بجهد كبير أن يظهر ثابتاً شديداً فقال : « أوامر الأسقف فرمويل . والمسألة كلها من أساسها خرجت من اختصاصك . يجب أن تقفل الأبواب حالاً » .

لكن حبّ المال جعل من چو دوكرى رجلا جريئاً ومداعباً . فقال : « إنك تمزح ، يا أبى » .

— « إنى لا أمزح ، يا چو . فالأسقف فرمويل يشك فى حقيقة ما جرى من أشفية . . . »

فقاطعة چو دوكرى وهو يشير إلى أوراق النقد والقطع الفضية المتراكمة فى البراميل وقال : « لكن الأسقف لا يمكنه أن يشك فى حقيقة هذه النقود » .

— « إن النقود أمر ثانوى . المهم هو وقف هذا الهرج المخزى الذى يجرى هنا » . ثم استطرد الأب ستاركى لحديثه بحدة ، على قدر ما يسمح له طبعه بذلك : « هيا ادع الجميع إلى الخروج . فإنا سنغلق المكان » .

وجد چو دوكرى نفسه منقسماً بين احترامه للكهنوت وبين احترامه الآخر (لا شك أرفع) للنقود بين يديه . فحاول المماطلة وقال : « الأوامر أوامر ، يا أبى ، لكنى لا أستطيع إقفال الأبواب على كلمتك » . ثم ابتسم وقال : « أكون أشبه بمن إذا أمرته أن يشعل النار فى مخزن ملىء بأوراق النقد من ذوات العشرين دولاراً . فيجب أن أرى الأوامر كتابة مع توقيع الأسقف والختم فى أسفل الورقة » .

— « قد تعرّض نفسك لتهمة العصيان ، يا سيد دوكرى » .

— « آه ، يا أبى ، قد لا أدعوه بهذا الاسم . أعطنى فقط دليلا صغيراً على أوامر سيادته . . . وكليك ! — وحاكى چو بيده دورة المفتاح — سأقفل المكان بسرعة البرق » .

فحذره أوين ستاركى قائلا : « إنك تقامر بالغضب » .

* * *

تتطاير العجب والغضب كالبرق من عينى الأسقف فرمويل وهو يستمع إلى الأب ستاركى يشرح له عصيان حارس المدافن .

انتصب ستيفن جالساً على فراشه وقال : « هل فهمت حقًّا ما تقول ، أيها الأب ؟ هل معنى كلامك أن چو دوكرى رفض إغلاق أبواب المدافن » .

— « إنه لم يرفض تماماً ، يا صاحب السيادة . إنه يريد فقط إثباتاً خطيًّا على الأمر الذى أصدرته . يريد كما قال : دليلا صغيراً على السلطة » .

فانفجر ستيفن غاضباً وقال : « سأعطيه دليلا على السلطة » . وقذف بغطاء سريره وقفز إلى الأرض : « ألا يوجد فى هذه الأبرشية شخص يستطيع تنفيذ الأوامر ؟ هات عكازاتى ، أيها الأب . وأحضر لى ثيابى . لا بد من قصم ظهر دوكرى هذا » .

شرع أمين السرّ فى رعشة يفتش فى الخزانة عن ثياب أسقفه ، وإذا بالأخت

فرنسيسا ڤيرونيكا تمدّ رأسها من الباب، بوجهها الناصع البياض . فلما رأت مريضها يحجل فى غرفته على ساقه المربوطة فقدت اتزانها الذى احتفظت به منذ ثلاث وعشرين سنة وصاحت متوسلة : « يا حضرة الأسقف ، يا حضرة الأسقف ، محظور عليك السير الآن . ارجع إلى سريرك . سيغضب الطبيب بيرن غضباً شديداً عندما أخبره بذلك » .

قال لها ستيفن : « إنه لن يكون غاضباً أكثر مما أكونه فى الساعة أو الساعتين المقبلتين . هل تتفضلين بالخروج ، أيتها الأخت ، حتى يساعدنى الأب ستاركى على ارتداء ثيابى ؟ »

انسحبت الأخت فرنسيسا كما تفعل التماثيل الصغيرة فى ساعات الحائط السويسرية . فالتقت فى الممرّ بالأخت وديعة فهمست لها فى أذنها : « إن الأسقف غاضب حتى الجنون » .

سمعتها الأخت مرسيدس فسألتها : « هل هو مجنون شرس ؟ »

ــ « كلا ، من الصنف الآخر . لو مشى على ساقه ، آه ، أيها القديسون الطفوا به واحرسوه . . . هش هش ها هوذا » .

اختبأت الراهبات فى زاوية ، ومرّ أمامهن الأسقف يحجل على عكازاته ويتبعه الأب ستاركى .

فى الواقع ، لم ينتَبْ أسقف هارتفيلد جنون من الصنف الآخر . لكن شرر الغضب الذى أذكاه چو دوكرى بعصيانه بدأ يتطاير نحو برميل البارود الذى يختزنه كل فرمويل أصيل بين طيات أعصابه . قمع ستيفن غضبه لكنه لم يهدأ حتى وجد نفسه فى سيارته بين أمبى كانيل وأوين ستاركى ، فى زيارة تأديبية إلى مدافن « أبواب السماء » .

دعا المنسنيور كانيل بعض رجال الشرطة فساروا على دراجاتهم النارية أمام الأسقف وأفسحوا له الطريق . كان ذلك من حسن الحظ ، لأن الطريق بين توپسويل والمدافن كانت مكتظة بجمهور غفير من الفضوليين يتزاحمون ببطء كالسلحفاة نحو القبر حيث يضيع أمل البعض ويزداد اضطراب البعض الآخر .

لاحظ الأب ستاركى استياء الأسقف من الحزّ العميق على شفتيه ، وتساءل

عما سيحدث إذا ما رأى سيادته منظر الأكشاك التى تسد مدخل المدافن .

هدأت البويك من سرعتها عند أحد المنعطفات ، فتعلق على جوانبها بعض الباعة بمآزرهم القذرة وطفقوا يصيحون : « سجق ساخن من فرانكفورت ! . . . فول سودانى ! . . . . صور مقدسة ! . . يا مستر ! لا تفُتك الأصداف المباركة ! ربع دولار فقط » .

ما هذه الأصداف المباركة ؟ . . ازداد الحزّ عمقاً فى شفتى ستيفن . لقد تضاعف العصيان بانتهاك القدسيات ! . . حقّرت السلطة الكنسية ، وانتهكت حرمة الأموات ! . . .

فقال ستيفن آمراً : « أقفل زجاج النوافذ » .

عندما وقفت السيارة بالقرب من أعمدة الجرانيت شاهد الجمع المتحمس منظراً عجيباً . رأوا رجلاً طويلاً مخطوف اللون يضع قدمه على الأرض باحتراس ، وهو يرتدى ثياباً لا يلبسها إلا الأسقف فى زيارة رعائية رسمية ، وعلى رأسه القبعة الكنسية ، ومن كتفيه يتدلى معطف واسع مطرز بخيوط القصب الذهبية . أمامه سار حامل الصليب ، وبجانبه سار نائب الأبرشية العام يسند له مرفقه .

والأسقف نفسه يتكئ على عكازات .

لما رأى الجمع الساذج تلك الصورة الملتحفة بالرهبة ظنوا ، وخطأهم أمر طبيعى ، أن الأسقف أتى إلى القبر لينال نصيبه من التراب ذى القوة العجائبية الفعالة . فلما بدأ سيره وهو يعرج إلى داخل المدافن عبر الممرّ الذى تحوطه الأشجار من كل جانب ، ارتجل الجمع موكباً وساروا وراءه . تلك كانت فى الحقيقة أظرف ظاهرة فى التقوى . الأسقف يرئس رعيته فى موكب إلى قبر الشفاء .

أخذ الجمهور العجب لما رأوا الأسقف يقف عند كشك صغير أخضر اللون ويقرع الباب بعكازه أولا ، ثم بآلة طويلة معكوفة الرأس قدمها له أحد مساعديه . إنها صولجان المطرانية ، أسمى رموز السلطة الأسقفية . وظنّ جمهور المراقبين أنه إما أن الباب سينخلع أو أن الصولجان سينكسر تحت ضربات الأسقف .

سمع صوت من داخل الكشك يقول : « تفضل دون حرج . أقول لك ادخل . سأغلط فى حسابى لو استمررت فى هذا الضرب الجنونى » .

استمرّ الطرق على الباب . فهدر دوكرى من الداخل يقول : « هل أخرج

وأمسك بك؟ » ودفع چو بيده النصف الأعلى من الباب ، ووقف متجمداً فى مكانه كأنه فى إطار : وجه بدين، القبعة مائلة إلى الخلف ، وكيس النقود فى إحدى يديه ، وسيجار فى اليد الأخرى .

أما ما حدث بعد ذلك ، فلم يتفق فيه اثنان . يقول بعض شهود العيان إن چو دوكرى فى محاولته رفع قبعته وإخفاء النقود والتخلص من سيجاره ، خلط الثلاثة بأشنع شكل . وآخرون يصرّحون بأنه تجلّد وتسمر فى مكانه من شدة الخوف ولم يستطع إتيان حركة أو تحية أو دفاع أو هروب . وبعضهم يؤكدون بأنه رفع قبعته ووضع كيس نقوده على رأسه وابتلع سيجاره . لكن أيا كانت أفعاله فهى لا تقاس خطراً بمقارنتها بأجوبته عن أسئلة الأسقف التى وجهها إليه .

سأله ستيفن : «هل أنت چوزيف دوكرى ، حارس هذه المدافن ؟ »

— « نعم ، يا صاحب السيادة » .

— « لقد أدليت دون إذن ببعض التصريحات التى ترتب عليها حدوث هذه الأمور المخجلة التى لا تليق بالمسيحيين » .

— « نعم ، يا صاحب السيادة » .

« وفى هذا الصباح رفضت إطاعة أوامرى بإقفال أبواب المدافن ؟ »

— « ن. ن. نعم ، يا صاحب السيادة » .

— « وطلبت دليلا صغيراً على السلطة » . وتوقف ستيفن برهة ليسمع ردّ چو دوكرى الذى لم ينبس ببنت شفة .

فاستطرد ستيفن لقوله : « فهأنذا أبرز أمامك على سبيل المعرفة ، يا مستر دوكرى ، هذا الصولجان ، وهذا الخاتم ، وهذا الصليب على صدرى . هل تعترف بأن هذه الأشياء هى دلائل على السلطة الأسقفية الموكولة إلىّ . أجب » .

وجد چو دوكرى صوته مرة أخرى . فأجاب : « نعم ، يا صاحب السيادة » .

« حسن ! » ثم شعر ستيفن بالرحمة نحو الرجل . فقال : « ليس فى نيّتى إيذاؤك ، يا سيد دوكرى . كل ما أريده منك أن تخضع فى المستقبل إلى الأوامر الشرعية التى أصدرها إليك . هل تعدنى بذلك ؟ »

فانهمر الدمع مدراراً على وجه چو دوكرى وأحنى رأسه قائلا : « نعم » .

قال ستيفن : « اذهب إلى البوابة وانتظرنى هناك » .

ثم التفت الأسقف نحو شعبه وقال : « أطلب إلى الجميع أن يغادروا مقرّ الأموات المقدس هذا فى ترتيب واحترام . وأحرّض الذين جاءوا إلى هنا مؤملين بصدق الشفاء من أمراضهم ألا يضعف إيمانهم بقوة الله العجائبيّة فى وقف عمل قانون الطبيعة . وأسال أولئك الناس أن يصبروا حتى تظهر بوضوح إرادة الله . فى الوقت المناسب ، وحسب القانون الكنسى ستخبرون بما حدث حقيقة على قبر الأب فلين » .

ثم اهتزّ صوت ستيفن احتقاراً : « وإلى الذين جاءوا فضولا ، أو ليبيعوا ما لا يليق ، أقول لهم : اتركوا هذا المكان المقدس قبلما أستدعى السلطات العامة » .

فى الساعة الرابعة بعد الظهر كان الأموات يستريحون بسلام مرة أخرى . أقفل چو دوكرى بنفسه الأبواب . ومضت المصابيح الكهربية وهو يسلم المفتاح إلى سيادته . فى الصباح التالى ظهرت كل صحيفة فى الولايات المتحدة بهذا العنوان :

« الأسقف فرمويل ينفى عجائب " أبواب السماء ". يغادر فراش مرضه ليعيد النظام إلى المدافن » .

* * *

فى اليوم التالى حول الظهر حضر الطبيب چون بيرن ووجد مريضه يمشى فى حجرته دون أثر للحجل أو العرج . ففحص ساق ستيفن بعينيه النافذتين وأصابعه الطويلة وقال : « كل شىء نظيف وجميل » .

ثم حنى الساق عند المأبض وقال : « الحركة لينة » . ثم وضع مقياس حرارة فى فم ستيفن وقال : « الحرارة طبيعية » . حينذاك هزّ الطرب الطبيب بيرن كما يفعل الجراحون الذين يتوصلون إلى ما يدعونه فى الأوساط الطبية : « نتيجة سارة » .

وصاح چون يقول : « صبراً حتى يسمع بذلك جماعة هارڤارد . بعد واحد وعشرين يوماً من إجراء عملية خطيرة فى النظام الليمفاوى ، يقف المريض بكل ثقله على ساقه ، ويسير ربع ميل ، ويعرّض الجرح إلى تعفن خطير » .

ثم قطع چون بيرن فيض حديثه العلمى ونظر بإعجاب إلى صهره وقال فى

ابتسامة : « يمكنك أن تنفى جميع عجائب الأموات ، يا ستيف ، أما الآن فأنت واقف على أعجوبة . بحق السماء ، يا رجل ، ارجع إلى فراشك قبلما يغيّر الله فكره فيك » .

* * *

بعد أيام قليلة ، بينما كان أسقف هارتفيلد يجمع حاجياته قبل مغادرته المستشفى ، وقع بصره على شيئين قد نسيهما : الأول كيس صغير من الورق يحوى قدر ملعقة من تراب قبر الأب فلين . والثانى نسخة من « صحيفة بريطانيا الجديدة الطبية » تحوى مقالا عنوانه : « العلاج الجراحى للاضطرابات الليمفاوية المستعصية » .

حقًّا أىّ علاقة بين كيس التراب والمقال العلمىّ ؟ وسأل ستيفن نفسه : هل يتعارضان دائماً ؟ ألا إن كلاًّ منهما بطريقته الخاصة يعبر عن قدرة « الكلمة » الشافية ؟ أوَلا يجوز أن كليهما يعكسان محبة الله العجيبة البعيدة الغور نحو خليقته ، الإنسان ؟

فى هذه اللحظة ، لم يستطع أسقف هارتفيلد الإجابة عن هذه الأسئلة . لكنه كلما فكّر فى حالة شفائه ، مالت نفسه إلى منح ثقته لكليهما . بعد مضى بضعة أسابيع فصل فى الأمر بطريقة تناسب مقدرته المالية وحالته النفسية . اقتطع ستيفن من النقود التى سلمها إليه چو دوكرى (الذى سمح له بمزاولة عمله) مبلغ ألف دولار تبرّع بها إلى مدرسة هارفارد الطبية لمتابعة الاختبارات فى الاضطرابات الليمفاوية . ثم أنفق مبلغاً آخر عديلا فى تشييد ضريح صغير فوق تراب الأب وليم فلين .

لما أعيد فتح مدافن « أبواب السماء » ، اختفى كل أثر للترعّس الجماعى . جاء بعض الناس يصلون عند قبر الأب فلين ، وفى عودتهم كانوا يلقون بقطعة من النقود أو بعكاز . ورقد الأموات بجلال تحت أشجار الزان الحمراء ، فى حين ظلت الحياة البشرية ، تلك الأعجوبة اليومية ، تسير سيرها المألوف .

الجزء السادس

القبعة الحمراء

الفصل الأول

نعم ، ما زالت الحياة تسير سيرها المألوف . وما زال العالم يدور تارة وضيعاً وطوراً عظيما ، مرة بمبضع الجراح وأخرى « بكلمة » الفداء ، حيناً بفاجعة رهيبة ، وأحياناً بنهضة فريدة .

فى ميونخ وقف رجل جبار يصيح : « نريد أيضاً سلاحاً » — عند حدود منشوريا الشرقية توغلت الرماح اليابانية (بعد تقديم الأعذار الكافية) إلى منافذ الصين الحيوية . — من شرفة « قصر البندقية » ، وقف قيصر حديث العهد ، وأقسم أمام رومولس وريموس ، وهوراس كوكليس وغيرهم ، بأن النسور الرومانية على رؤوس الفرق الإمبراطورية سوف تجتاح مرة أخرى أعداء إيطاليا . إلى الأمام أيها الفاشيست . . . يعيش الدوتشى !

فى أنحاء أخر قاحلة من حقل الرب يكدّ الرجال البسطاء طوال يومهم ، كلّ وراء عيشه . وبالتفصيل :

* * *

فى يورك الجديدة، بالقرب من « قاعة كرنجى » ، فتح شاب أسمر ، ومعه صندوق كمنجة بال ، باب أحد الدكاكين سمرت فيه لوحة نحاسية كتب عليها : « ويلهلم فوند — كمنجات للبيع والشراء والتصليح » . — وجد السيد ويلهلم فوند متكئاً على منضدة زجاجية للعرض تحتوى على آلات موسيقية مؤمن عليها بنصف مليون دولار ، فى حين أن السيد فوند نفسه لم يستطع التأمين على حياته بسبب تضخم قلبه وإصابته بداء بيرجر . لكنه فيما عدا ذلك موفور الصحة . فى الواقع ، كان تاجر الكمنجات مثلا رائعاً فى تكوينه لأعمال التصليح والترميم : كان يلبس حزاماً للفتق يزن تسعة أرطال ليحفظ أمعاءه فى مكانها المألوف ، وبردعة من الجلد

ليربط بها وركيه وحرقفته المتفككة ، وسماعة لأذنيه ، وطاقماً مزدوجاً من الأسنان ونظارات مقعرة بشكل غريب . كل هذه جعلت من الهير فوند برهاناً حيًّا على أن كل شيء – بما فيه الهيكل البشرى – يمكن أن يربط بالأسلاك ، ويشدّ بأطواق الحديد ، ويصمغ ، ويشبك بالملاقط ، وتربط أجزاؤه ، حتى بعد مضىّ زمن طويل على فقد تناسقه الأول الجميل .

حيا الهير فوند الشاب تحية ممزوجة بقدر متكافئ من الحلاوة والحدة : « مهلا أيها الغلام ، لحظة ! ماذا عندنا اليوم فى الصندوق الصغير ؟ " كريمونا " مزيف ، أو " أماتى " من مخلفات الأغصان ؟ »

فتح روفائيل منتون حقيبة الجلد التى بيده ، وتأمل بإعجاب كمال الآلة التى خلق تكوينها على مثال حواء ، ثم دفع الكمنجة إلى التاجر ليفحصها . وقال ، وهو ينقر على وتر الحسينى كما يفعل عشيق يداعب لحمة أذن حبيبته : « إنها تشبه البرجونزى » .

فحص الهير فوند الكمنجة كما يجس الطبيب نبض مريضه ، أو كما يعالج إخصائى فى العظام طفلا كسيحا . فربت بيده خفيفاً على بطن الكمنجة ، ودقق النظر فى طلائها الكهرمانى ، ثم أعادها إلى صاحبها ، متمشياً فى ذلك مع أصلح القواعد التى تخلق التاجر الناجح ، وقال فى زمجرة : « لا أعتقد أن " ستراديڤاريوس " سيتحرّك فى لحده اليوم أيضاً . على كل حال ، مهلا . . كم تريد ؟ »

– « ثلثمائة دولار » .

– « ماذا ؟ تطلب ثلثمائة دولار فى عصا بيسبول وبعض الأوتار ؟ الأفضل أن تأخذها إلى الملعب الأمريكى . والأفضل أيضاً . . مهلا . . »

اتخذ الهير فوند لحناً معسولا أبويًّا وأشار إلى آلة برتقالية اللون معلقة فى منضدة العرض وقال : « انظر إلى هذا " البرجونزى " الحقيقى . إنه آية فى الفن ، صنعه تلميذ "ستراديڤاريوس". إن الفنانين لا يدفعون نقوداً إلا فى آلات ذهبية الأصوات ، أمثال هذه فقط » .

لم يفقد الفنان الشاب أمله ، بل قال : « اعزف على الكمنجتين فى " قاعة

كرنچى " ، تـَرَ أن كمنجتى تفوق آلتك فى كل شىء سوى الشهرة ، من فضلك يا سيد فوند ، مرّ بالقوس فقط على الأوتار » .

التقط التاجر قوساً وأصدر بعض أصوات شاذة تحاكى من بعيد مقطوعة « الأحلام » . ثم نفخ فى سماعته متظاهراً بتنظيفها ودقق أيضاً بصره فى نقوش الكمنجة وقال : « إنك حفار موعود ، وذو مستقبل باهر . . مئة دولار » .

فاحتج الشاب بحنق أمام هذا العرض وقال : « اسمع يا سيد فوند . لقد قضيت مئتين وخمسين ساعة فى صنع هذه الكمنجة . ظهرها من خشب الإسفندان المعرّق ، من شجرة نادرة . والطلاء تركيب خاص ، أحتفظ وحدى بسرّه . أقبل مئتين وخمسين دولاراً — أعنى دولاراً عن كل ساعة عمل — ولا أقبل سنتاً واحداً أنقص من هذا المبلغ » .

وتظاهر بإعادة الكمنجة إلى حقيبتها . وإذا بروح المكسب قد غلب الهير فوند على نفسه فبدّل من طريقته وقال فى رقة : « الصبر يسوّى كل شىء . إذا لم ترد أن تبيع ، فربما رضيت بالمبادلة . فعندى هنا قطعة ربما تثير اهتمامك » .

فتح التاجر درجاً وأخرج منه هيكل كمنجة متهشماً ووضعه بين يدى ريف وقال : « إليك هذه " الكريمونا " الضائعة منذ أكثر من مئتى سنة . فى الأسبوع الماضى انتقلت إلى ملكيتى — بحسب القانون ، أتفهم ، ولا أستطيع الإعلان عن مصدرها . فإذا أصلحها رجل فى مهارتك ، فستكون قيمتها — وأتى الهير فوند بحركات واسعة مبهمة — لا أحد يعلم كم » .

فحص روفائيل الكمنجة المتكسّرة : العنق مكسور ، والوجه متشقق شنيع ، والظهر مفقود بالكلية . مع ذلك ، ما زالت ترفرف فوقها فى تصميمها الرائع ونقشها الدقيق ، يد فنان حاذق .

قليلون فى العالم يحلمون بترميم كمنجة كهذه ، سوى هذين الرجلين ، اللذين يكمل أحدهما الآخر كالأجزاء الكيماوية فى تركيبها : روفائيل منتون لاعب الكمنجة الفنان الذى يتوق بكل جوارحه إلى الشهرة والعظمة — وويلهلم فوند البرهان الحىّ على أن الترقيع يعيد إلى كل شىء صلاحيته ، وإن سقط هيكل العذارى (البرثينون) وتهشم .

فقال التاجر : « اصنع ظهراً لهذه الكمنجة . . . فستحصل على آلة ذى صوت نادر . . وستصنع لك اسماً أيضاً » .

– « أقبل المبادلة ، يا سيد فوند : كمنجتك "الجرناريوس" مع كمنجتى "البرجونزى" » .

– « حلمك ، أيها الغلام . بدلا من هذه "الكريمونا" آخذ كمنجتك "البرجونزى" ، ومئتى دولار » .

– « ليس معى كل هذا المبلغ ، يا سيد فوند » .

هى الحقيقة المرّة ! بعد عشر سنوات من العمل المضنى ، لم يستطع روفائيل منتون ادخار حتّى خمسين دولاراً نقداً .

فاقترح عليه الهير فوند فى عطف مغرض وقال : « إذن تقوم ببعض الترميمات لمصلحتى بدلا من النقود . ألا يستطيع تجار الكمنجات أن يمنحوا ثقتهم بعضهم بعضاً ؟ »

بعد ظهر ذلك اليوم أسرع روفائيل منتون إلى دكانه المظلم فى الشارع الثانى وشرع يجمع أجزاء هذه الكمنجة « الكريمونا » ، آية الفن المفقودة منذ ثلثمائة سنة .

* * *

رچينا بيرن . عمرها الآن تسع سنوات . وتختلف التسع عن الثمانى . فى سنّ الثامنة تتصوّر الفتيات الأولاد صبياناً يعذبون القطط ويرمون العصافير بالحجارة . أما فى سنّ التاسعة فوجود الصبيان له غاية أخرى : إنهم إما ينتبهون إلى الفتيات وإما لا ينتبهون إليهن . ويؤلم الفتيات جدّاً معرفة أىّ الأمرين .

لكى تحل سرّ استراق نظر الفتيان إلى الفتيات عمدت رچينا إلى التطلع فى مرآتها . وقالت لنفسها : « إنى لا شك بشعة » .

لم تكن رچينا بشعة ألبتة . كانت خصل شعرها سوداء كالإسبانيات ، وبشرتها فى لون الزيتون . الأمر الغريب هو أن هذا المزيج الطبيعى لم يوجد له مثيل بين فتيات مدرسة القديسة بريچيتا الرعائية . لو استطاعت رچينا اختيار نوع جمالها ، لرغبت فى رسم « ڤيڤيان بورساى » : شعر أشقر ذهبىّ ، عيون

زرق كالأطفال، ولون بشرة كالورد . ولا عجب إذن إذا ما تشاجر الأولاد على الأرضية كل يتسابق إلى ربط أحذية الانزلاق على قدمى ڤيڤيان الناعمتين . لكن لم يوجد أحد يفعل مثل ذلك مع رچينا — إنها مستعدة لتضحى بكل سرور بالحب الذى يحيطونها به فى البيت ، والتصفيق الذى يمطرونها به فى المدرسة فى المباريات الموسيقية على البيانو ، إنها تزهد فى كل ذلك مقابل لفتة صريحة من « شارلى ضون » يعبّر بها عن حبه لها .

لما ضاق قلبها بضعف الأمل ، اتجهت إلى قراءة فألها بمقارنة الأسماء وحروفها فجاءتها النتيجة التالية :

ر ج ى ن ا   ب ى ر ن

ش ا ر ل ى   ض و ن

بعد حذف الحروف المتكرّرة فى الاسمين يبقى تسعة . وطبق القاعدة المألوفة يطرح واحد فيكون الباقى (٨) وهو حرف « الحاء » من اللائحة الأبجدية . وقد يعنى « حقد » أو « حب » — أما حرف « الزين » فيعنى « زواج » وحرف « الطاء » يعنى « طلب » — أما حرف « الحاء » فيتطلب درساً أعمق .

لو كانت النتيجة حقيقة تعنى الحب ، لوجب على شارلى ضون أن يساهم فى ذلك بطريقة ذات فعالية أقوى : كأن يشد خصلة من شعرها أو يرميها بكرة من الثلج ليبرهن لها أنه عالم بوجودها قربه . وإذا صح تخوّفها، فالواجب إذن قبل كل شيء هو استمالة انتباهه إليها بكل الطرق حتى تسعد معه .

سنحت لها الفرصة يوماً أمام دكان الآنسة فيفيلد ، إذ رأت وراء الزجاج قطة مخططة تغط فى نوم هادئ وحول عنقها عقد أحمر من الجلد خيطت فيه أجراس صغيرة . فقفز إلى ذهن رچينا فكرة شيطانية جريئة . « هذا فى الحقيقة ما أريد » .

قالت ذلك ، وفى جرأة إجرامية دخلت دكان الآنسة فيفيلد وقالت : « أريد بكرة من الخيط الأسود رقم ٤٠ ، صنع كلارك و . ن . ت » .

فاستدارت الآنسة فيفيلد لتحضر لها البكرة من الدرج ، فى حين قفزت رچينا إلى القطة وفكت العقد من رقبتها ووضعته فى جيبها . فنفضت القطة كتفيها

فى استغراب وعادت إلى غطيطها .

وضعت الآنسة فيفيلد بكرة الخيط فى كيس صغير من الورق وقالت لرچينا : « الثمن خمسة سنتات » . دفعت رچينا المطلوب منها وتسللت خارج الدكان كسيدة رفيعة الشأن . وفى الشارع بدأت تجرى . ولما وصلت إلى البيت أخرجت عقد الأجراس من جيبها وهزّته ، فامتلأت نفسها نشوة بصوته العذب فقالت : « لذيذ ! لذيذ جدًّا ! هذا حقًّا ما يحقق رغبتى ، ويتم فألى » .

عرقلت الظروف ميل رچينا إلى إثارة انتباه شارلى بسبب انفصال الصبيان عن البنات فى مدرسة القديسة بريچيتا . وأخيراً سنحت لها الفرصة فى اليوم الأخير من الاستعداد للمناولة الأولى . فى القاعة السفلى تحت بناء الكنيسة وقف الصغار صفين ، الصبيان إلى اليسار والبنات إلى اليمين ، يتمرنون على السير والحركة تحت نظر الأخت الرئيسة نفسها التى جاءت خصوصاً لتراقب تمرين الصغار وتلقنهم طريقتها الفريدة الملائكية فى الاقتراب من السرّ المقدس .

قالت لهم الأخت الرئيسة : « ضموا أيديكم كأنكم تحملون باقة من الورد . وانتظروا حتى يتقدم الصبى أو البنت ست خطوات قبل مغادرتكم أمكنتكم . ثم سيروا بتقوى وخشوع إلى الوليمة المقدسة التى أعدها لكم سيدنا يسوع المسيح ، ثم اركعوا أمام درابزين الهيكل . والآن لنبدأ التمرين كلّ بدوره » .

من المقعد الأوّل ، خرج فى وقت واحد صبىّ وفتاة وتقدما نحو الهيكل .

— « ما هذه (الشخلعة) ، يا أوستاشيا . . . ارفع يديك قليلا يا فريديريك » .

لما جاء دور رچينا تقدّمت نحو الهيكل فصدر عند سيرها رنين أجراس خفيف فسرت ضحكة مكتومة بين الصفّين .

فاستدارت الأخت الرئيسة كالبرق وقالت مهددة : « من يلعب بالأجراس هنا ؟ »

لا جواب . وما من حاجة إليه . اتضح مصدر الرنين عندما جثت رچينا على ركبتيها أمام الدرابزين .

تقدمت الأخت الرئيسة من المشتبه فيها وقالت بقسوة : « رچينا بيرن ، أتلعبين بالأجراس ؟ »

تدفقت البراءة كالعسل مع صوت رچينا إذ أجابت : « كلا ، يا سيستر ».
دون شك فى هذه اللحظة ، كان الجميع يتطلعون إليها .

— « فمن أين إذن هذا الرنين » . ثم أمسكت الأخت الرئيسة رچينا من كتفيها وهزّتها . فصدر رنين مكتوم من تحت ثياب رچينا . فهزّ ذلك الصوت الأخت الرئيسة غضباً حتى إنها عدلت عن هزّ الطفلة مرة أخرى .

فقالت لها : « ادخلى إلى المقدس فإنى أريد معرفة مصدر هذا الصوت الشائن » .

سارت رچينا نحو المقدس بخفة وخيلاء ، ورنين الأجراس يلاحقها فى سيرها .
ولما مرّت بشارلى ضون ابتسمت له . فتفرس فيها بعينيه الكبيرتين وابتسم لها بالمثل .

فطارت رچينا نحو المقدس فى نشوة من الظفر . كانت مسرورة من كل ما حدث ، ولم تأبه كثيراً لما قد ينتج عن عملها . قالت تشجع نفسها : « لن يجرؤوا على عمل شىء معى ، فإن خالى ستيفن مطران — إنه سيرشقهم بالحرم » .

دخلت وراءها الأخت الرئيسة والأخت مرسيلا لتحققا معها .

— « أين الأجراس ، يا رچينا ؟ هل هى على ثوبك ؟ »

— « كلا ، أيتها الأخت الرئيسة » .

— « هل هى تحت قميصك ؟ »

— « كلا ، أيتها الأخت مرسيلا » .

لم تكن الراهبتان مستعدتين للتوغل أكثر من ذلك . فتبادلتا النظرات تستلهمان الخطوة التالية . وإذا بالأخت مرسيلا قد مالت على رچينا بسرعة خاطفة ودفعت يدها تحت ثيابها . فحدث رنين طفيف ، وانتصبت الراهبة وقد أخذها الذهول كأنها لمست تياراً كهربيًّا . وأخذت تردد : « أيتها الأخت الرئيسة ، إن رچينا بيرن قد خاطت الأجراس فى حمالات جواربها » .

* * *

فى قصر الڤاتيكان ، كان أمين سرّ الدولة ذو الأنف المعكوف يجمع ببغاواته ويستعد للرحيل .

قد انتهى عمل پيترو چياكوبى . وغدا كمصارع الثيران العجوز يستعدّ لمغادرة

حلبة المصارعة بعد أن قهر مئات الثيران الهائجة ولجم عربدتها بقوة سحرية مذهلة . سمت شهرة الڤاتيكان السياسية يوم رحيل چياكوبى كما لم تسم من قبل . عمل أمين سرّ للدولة فى عهد اثنين من البابوات العظام ، وقاد سياسة الكنيسة الخارجية فى حقل محفوف بالألغام مدة الحرب العالمية . فى عشر السنوات المضطربة التى تلت معاهدة ڤرساى ، توصّل بواسطة المعاهدات والاتفاقات ، إلى أن يمحو كل أثر للأخطار الظاهرة أو المستترة التى كانت تهدد سلامة مياه السياسة الأوروپية . وآخر وأعظم عمل ظفر به هو اتفاقية لتران ، بعد مفاوضات طويلة ودقيقة مع الدوتشى ، وقدعدّها الخبراء فى ذلك الوقت عملا سياسيًّا فريداً للجيل الحاضر .

تنصّ اتفاقية لتران على نزول البابا عن كل مطالبه فى السلطات الزمنية وفى الممتلكات التى اغتصبتها منه أسرة آل ساڤوى فى سنة ١٨٧٠ . فى مقابل ذلك منح تعويضاً نقداً مبلغ سبعمائة وخمسين مليون ليرة إيطالية ، وسندات حكومية بمبلغ بليون ليرا . واعترف للبابوية بالسيادة على مدينة الڤاتيكان : دولة صغيرة مساحتها مئة وعشرة أفدنة . واعترف بكيان المؤسسات الرهبانية. وثبتت طبيعة سرّ الزواج المسيحى ، وتقرّر تعليم الدين الكاثوليكى فى المدارس . عاد الله إلى إيطاليا ، وعادت إيطاليا إلى الله . واعتزل الكردنيال پيترو چياكوبى منصبه بعد أن ألف بين الفريقين المتباعدين

خلفه « أوچينيوپاشيلى » وهو يعدّ – على ما يظنّ – الرجل الوحيد فى العالم الذى وصل إلى درجة المهارة والخبرة السياسية التى كانت لچياكوبى . منذ صغره ، وقف أمين السرّ الجديد حياته لخدمة الكنيسة . نبت من أسرة تعاطت القانون والمحاماة : كان والد أوچينيو محامياً لدى مجمع الكرادلة وعمل جدّه أميناً مساعداً للداخلية فى عهد پيوس التاسع . فى سن العاشرة من عمره أعلن الشاب عن رغبته فى أن يصبح كاهناً . ولما بلغ الخامسة عشرة دخل مدرسة كپريكانا فى روما ، التى تعد أقدم وأرقى مدرسة كهنوتية فى العالم . فحاز فى سن مبكرة جدًّا (كان عمره ٢٢ سنة) شهادات رفيعة فى الفلسفة واللاهوت والحقوق . ثم رسم كاهناً فى الثانى من أبريل سنة ١٨٩٩ . فى اليوم التالى ، وكان عيد الفصح ، أقام القداس الإلهى فى كاتدرائية القديسة مريم الكبرى . ثم تسلم منبر الحقوق فى جامعة أپوليناريوس البابوية فى روما .

كانت حياة أوچينيو پاشيلي موجهة على ما يظنّ نحو الحقوق . لكن للقدر أحكاماً أخرى فى هذا الكاهن الشاب . أقنعه يوماً الكردينال پيترو چياكوبى ، الذى كان وقتئذ أمين سرّ لجنة الأمور الكنسية الاستثنائية بأن يعتزل منبر الحقوق ويمنح وقته كله للعمل فى أمانة سرّ الڤاتيكان . وأمسى البابا المقبل تلميذ چياكوبى وربيب نعمته . فساعد الكردينال أمين السرّ فى العمل الشاق الضخم لإعادة تنظيم التشريع الكنسى بأكمله .

فى الحرب العالمية الأولى عين أوچينيو پاشيلي سفيراً رسوليًّا إلى باڤاريا — وهو منصب ذو أهمية دقيقة جدًّا لأن ألمانيا كانت وقتئذ محور أوروپا السياسى . فى سن الخامسة والخمسين أصبح الكردينال پاشيلي بفضل إدراكه النادر للأمور السياسية ، وموهبته الطبيعية فى تعلم اللغات ، وجاذبيته الشخصية الفريدة ، قوّة مرموقة فى سفارات أوروپا .

من الطبيعى إذن ، عندما اعتزل چياكوبى منصبه ، أن يسعى فى تعيين تلميذه خلفاً له فى أمانة سرّ الدولة البابوية .

لم يكد پاشيلي يتسلم مهام منصبه الجديد حتى بدأت طيور الشر تحوم فوق قبة القديس بطرس آتية من أركان موسولينى العامة فى « قصر البندقية » .

فى سنتين قصيرتين انهارت اتفاقية لتران . أما الدوتشى الذى كان يختال عظمة أمام آلات المصورين يوم وقع اتفاقية لتّران فقد بدأ يتهرب من مسؤولياته عندما دقت ساعة تنفيذ مقرراتها . اصطدم وعده بتربية الناشئة تربية دينية بنظام الشبيبة الفاشستية الثورية ، الذى يتلخص بسيطرة الدولة على الشبيبة من المهد حتّى التدريب على القتال . شرع رجال الشرطة من ذوى القمصان السود يسيئون معاملة شبان النوادى الكاثوليكية فى تطوافهم حول الكنيسة أيام الأعياد . كثرت وازدادت عنفاً الاشتباكات فى الشوارع بين طلاب الأوساط الكاثوليكية وعصابات الفاشيست المسلّحة . وعندما وقف الدوتشى يعلن أن الكنيسة بالرغم من اتفاقية لتّران خاضعة للدولة ، نعته البابا پيوس الحادى عشر بأنه رجل مخلف يحنث بالعهد الذى قطعه .

بعد ذلك بمدة قصيرة ، اتهمت الصحافة الفاشيستية الڤاتيكان بتدبير اغتيال موسولينى . فأنكر الكردينال پاشيلي هذه التهمة وطالب بالبراهين . فكان الصمت

هو الرد الوحيد مع فرق من الفاشيست يصيحون : « الموت للبابا » وهم يسيرون فى شوارع روما ويضربون بعصيهم طلاب المدارس الكاثوليكية وشبان الجمعيات الكاثوليكية فاحتج پاشيلى مرة أخرى . فلم يلتفت إليه . بل أسوأ من ذلك ، فقد خنق موسولينى صوت الڤاتيكان باستيلائه على جميع خطوط ومحطات الهاتف والبرق التى تصل الڤاتيكان بالعالم الخارجى .

هكذا كانت حال الأحداث المحزنة عندما حضر الأسقف ستيفن فرمويل إلى روما ، بإذن خاص فى زيارة رسمية إلى البابا فى يونيه سنة ١٩٣١ .

* * *

أحدثت هذه السنوات الخمس فى مسرح الحياة الإيطالية تغييرات ملحوظة وهى — على ما يظن — لخير الجميع . فقد امتد رصيف جديد فى ميناء ناپولى ، ويغادر القطار المحطة فى ميعاده ويصل إلى روما فى الوقت المحدّد .

فى ركوبه السيارة من المحطة المركزية الحديثة إلى فندقه ، لاحظ ستيفن التحسينات العديدة فى واجهات المنازل وشعر بسرعة التقدم الذى أحرزته المدينة فى محاولتها استرجاع كيانها الإمبراطورى الغابر . وحيث كان ذلك اليوم عيداً عظيماً ، فقد ترقب ستيفن رؤية المواكب المألوفة : تماثيل مزينة بالورود وأعلام دينية ملونة تسير إلى الكنيسة . لكنه أينما حول بصره لم يجد أثراً لعيد .

فسأل سائق التاكسى : « أين مواكب الأعياد ؟ »

هزّ الرجل كتفيه استغراباً بما سمع ، ولم ينفك يحول بصره من جهة إلى أخرى متخوفاً من أن يكون للحجارة آذاناً . ذهل ستيفن من ذهول الرجل واحتفظ بسؤاله لآخر لن يهاب الإجابة عنه .

عند فندق « قصر ريتس» استقبله مدير جديد بتحية فاشستية . وراء المكتب ، حيث ارتفعت يوماً صورة زيتية تمثل الحياه الريفية على « البحيرة الكبيرة » علقت الآن صورة براقة لموسولينى . والحمالون، الذين كانوا يوماً هادئين بطيئين ، يسيرون اليوم بخطى عسكرية مفتعلة . فحملوا حقائب ستيفن على جراراتهم اليدوية كما لو كانوا يجرّون هيكل مدفع .

كان كل شىء يدعو إلى العجب . وزاد الأمر عند ستيفن وضوحاً يوم

طلب رئيسه القديم المنسنيور « چيوسيپه جواردديانو » على الهاتف ليستعلم منه عن موعد اجتماعه مع الأب الأقدس . كانت مصلحة الهاتف ممتازة فى خدمتها . وجاء صوت المنسنيور جواردديانو على الخط واضحاً ، ولكنه كان حذراً يثير الدهشة . فحياه ستيفن بمرح وسرور ، لكن جواب أمين السرّ المساعد جاءه حادّاً متهجماً :

— « تحياتى ، يا صاحب السيادة . إن الأب الأقدس سيستقبلك غداً ، الساعة العاشرة صباحاً » .

— « جميل جدّاً ، يا سيپو . شكراً لترتيبك الأمور . كيف حالك ، أيها الصديق القديم ؟ وكيف تسير الأمور عموماً ؟ »

— « غداً فى الساعة العاشرة ، يا صاحب السيادة » .

وقطع الخط .

فساءل ستيفن نفسه : « حقّاً ، ماذا يجرى ههنا ؟ »

وفى المساء بعد سفر متعب ، تناول ستيفن عشاءه وحده فى غرفته . وبينما هو يتذوق قهوته ، ساورته تجربة فى طلب الأميرة لونتانا على الهاتف ليسمعها تصيح فى دهشة : « هلمّ حالا ، يا صاحب السيادة . أقول الآن ، فى هذه اللحظة ، إن حفلتى ينقصها وجه أسقف صبوح ! »

لكن لا ، فقد انقضت تلك الحقبة من الحياة ، دفنت مع روبيرتو براچيوتى وجيسلانا فاليرنى . ومن الخطر إثارة هذه الأصداء الراقدة الراكدة . إن اهتزازة واحدة طفيفة خليقة بأن تحدث انهياراً فظيعاً يتردد هديره فى ذاكرته .

لكى يشدد عزيمته أخرج ستيفن نسخة ذات حرف صغير وغلاف أبيض ذهبىّ من تقريره الذى سيقدمه غداً صباحاً فى زيارته الخاصة للأب الأقدس . وعند تصفحها ساده بعض الوجوم . لم يظن تقريره عن خمس السنوات الماضية مقنعاً تماماً . كان رصيده النقدى ضعيفاً جدّاً . لم يتبق لديه من ربع المليون من الدولارات التى تركها له الأسقف كالترز سوى خمسين ألفاً فقط . كان ستيفن يستطيع معارضة هذا العجز الضئيل بالإشارة إلى ثلاث كنائس جديدة وأربع مدارس أخر شيدها إبان الأزمة المالية . ويؤيد موقفه أيضاً المزرعات المساهمة فى

المناطق الريفية التى قدم لها المساعدات المالية . وما لم يذكره فى تقريره فى الأمور غير الملموسة التنظيم الذى أدخله على إدارة الأبرشية بتعيينه رجالا شباناً نشيطين يرئسون مختلف الأقسام .

أبعد ستيفن النسخة متردداً حيران . ماذا يكون حكم البابا على إدارة خادمه ؟ فى طاعة بنوية ، وعلى علم بأنه قام بإدراته على أحسن وجه ، رفع أسقف هارتفيلد نفسه بصلاة حارة ملؤها الثقة ، وذهب إلى فراشه .

* * *

فى الغد صباحاً ، دخل ستيفن إلى قصر الڤاتيكان وسط حديقة القديس « دامازو » المعروفة وقدّم نفسه إلى مدير التشريفات فى الجناح البابوى . اضطر إلى الانتظار قليلا قبل بلوغه حجرة البابا . ثم فُتح باب مزدوج وظهر أمامه الأب الأقدس جالساً إلى منضدة طويلة ، وآثار التعب بادية عليه من جراء مسؤولياته التى تثقل كاهله . فاختلجت نفس الأسقف الأمريكى رهبة وجثاً على ركبتيه ثم نهض وتقدّم وجثا ثانية ، وابتلت عيناه لسبب لم يستطع تفسيره .

لم يشعر إلا والأب الأقدس قد طوقه بذراعيه وقال له :

« أيها الابن العزيز ، ستيفانو . خمس سنوات ؟ . . ما أطولها ! . . »

فابتلع ستيفن دموعه وقال : « المعذرة ، أيها الأب الأقدس ، إنى لم أقم بهذا السفر الطويل لأبكى على عنقك.فاجأتنى الذكرى بدموع الزمن ! . . »

نعم ، دموع الزمن ! . . ثم حدق الأب الأقدس بصره فى ستيفن ، من وراء نظاراته المنداة بضباب التأثر وقال : «ما هذه العمليّة الجراحية التى بلغنا نبأها ؟ — كان آشيل راتى ، باعتباره قاهر « جبل الورود » يقدر تماماً قيمة الساق — هل تماثلت تماماً إلى الشفاء ؟ اجلس ، أيها الأبن العزيز . إليك هذا المقعد » .

جلس الأب الأقدس على ديوان من المخمل وأوقف بإشارة من يده السؤال الذى همّ ستيفن توجيهه إليه عن صحتّه وقال : « الأمر كله محصور فى مثل ناپوليتانى " بعد مضى قرن سنصبح جميعاً صلعاً " . — وأشار الحبر الأعظم إلى صلعته البيضاء ، وقال : — كما ترى أننا ما زلنا سعداء ببعض الشعيرات » .

انعكست أشعة الشمس على البلاط المربع فى ساحة القديس بطرس وتردد

وميضها على أطراف نظارات آشيل راتى الذهبية .

واستطرد البابا لحديثه قائلا : « وأنت أيضاً ، يا ستيفانو ، قد اغبرّ شعرك عند صدغيك . أتكون مهامك الرعائية السبب ؟ »

– « لا أكثر من نصيبي ، أيها الأب الأقدس » . ثم وضع أسقف هارتفيلد تقريره بين يدى الحبر الأعظم وقال : « إليك الحساب الدقيق عن عملى . إنه كما لا يخفى على قداستكم ليس مرصعاً بالورود » .

تصفح بيوس الحادى عشر المستند بإمعان . ثم قال : « لقد درسنا النسخة التى أرسلها إلينا رئيس الأساقفة كاريجى . نظراً للحالة التى يمر بها العالم ، أرى أن التقرير مشجّع . شعرنا بالفخر بنوع خاص لرسالتك الرعائية التى تدحض فيها خطيئة تحديد النسل ، وقد زادنا شرفاً تدعيم برهانكم بما اقتبستم من رسالتنا عن سرّ الزواج » .

قلّب الأب الأقدس الورقات حتى وصل إلى صفحة الرصيد . فقال : « وقد ملأ السرور قلبنا أيضاً لعلمنا بأنكم ساهمتم بكرم فى الصندوق الأهلى فى أبرشيتكم ، واضطررتم لذلك إلى خفض رصيدكم » .

وأثنى الحبر الأعظم على ستيفن لبنائه الكنائس والمدارس إبان الضائقة المالية ، وقال : « لقد تطلب ذلك منكم شجاعة نادرة . لكن ما يدل بقدر أكبر على شجاعتكم ، فى نظرنا ، هو إقامتكم هذه المزرعات المساهمة فى المناطق الريفية . وأظنك تذكر أننا طرقنا هذا الموضوع فى منشورنا " فى السنة الأربعين "» .

– « لقد تجرأت على القيام بهذا العمل ، أيها الأب الأقدس . لأن أهل الريف – كما أوضحتم ذلك فى منشوركم السابق الذكر – قد أهملوا جدّاً فى هذا العصر الصناعىّ . مع ذلك ، فإنى أقر بأن النتائج فى هارتفيلد لم تأت بما كنت أقدّر لها من نجاح » .

انحنى الأب الأقدس إلى الأمام قليلا ليثبت أهمية ما يقوله : « لا تغتمّ ، أيها الابن العزيز ، من هذا الحصاد الضيئل . فالثمار تينع ببطء . وفى هذه الأثناء ، يجب على الكنيسة أن تشجع الشباب من الكهنة ليزهدوا فى مناصب المدينة ويتفرغوا لخدمة الملايين الذين يقضون حياتهم فى عزق الأرض . هل تتفضل بإبلاغ

بلادكم وأبرشيتكم دعاءنا وأمنيتنا بأن يتضاعف العمل الكاثوليكى فى الرعايا الريفية ؟ »

ـ « سأعمل كل ما فى وسعى ، أيها الأب الأقدس ، لأنشر التعاليم التى أثبتموها فى منشوركم » .

ـ « أشكرك على هذا الوعد ، أيها الابن العزيز » . ثم سرّح الأب الأقدس بصره حالماً ، من نافذة كبيرة تطل على ساحة القديس بطرس وقال : « إننا متأثرون جدًّا من طاعة أبنائنا فى العالم الجديد وولائهم الثابت البنوىّ . أما إيطاليا ، أكبر أبناء كنيستنا ، فهى التى تسبب لنا أعظم الألم . فالاتفاقيات المبرمة بنية طيبة تنقض الآن . وغيرتنا على الأسرة المسيحية ترذل وتهان . ويريدون إخضاع الله نفسه إلى الدولة وفكرتها الوثنية » .

زاد التأثر عند الحبر الأعظم . فاستطرد لقوله : « فى عهد أسرة آل ساڤوى كنا نعلم موقفنا تماماً . لكن مع هذا القيصر الوصولىّ ، الذى يؤلّه نفسه ، ـ وقذف آشيل راتى كلماته كمن يقذف حسك السمك من فمه ـ فلا صدق ولا ثبات ولا عهد . حلقه كالقبر المفتوح ، ولسانه يتاجر بالخداع » .

ثم سار پيوس الحادى عشر إلى مكتبه وانتزع بقبضته رزمة من الأوراق المخطوطة وقال : « يخيل إلى الدوتشى أنه سيطردنا بتهديداته » .

غرس متسلّق الألپ العجوز نعل خفه الأحمر فى بساط الحجرة كما يفعل محترفو الجبال ليتأكدوا من صلابة الأرض تحت موقع أقدامهم وقال : « إنما الدوتشى ينسى أن فينا شيئاً من خفة ماعز الجبال وأن موقع قدمنا هو صخرة القديس بطرس نفسها » .

موقع لقدم ! . . هذا ما تاقت نفس أرخميدس إليه طويلا ، وهو ما يملكه حقًّا پيوس الحادى عشر ! . . .

واستطرد البابا لقوله : « إننا على وشك أن ننشر رسالة إلى العالم : " لسنا فى حاجة " . تشجب أخطاء الدوتشى وتعدد وعوده الزائفة » .

بينما شرع پيوس الحادى عشر يقرأ فى مخطوطه ، أدرك ستيفن أن رسالة البابا العالمية سند متين ودافع أدبى هائل يستطيع بها إثارة العالم .

فقال ستيفن يخاطب نفسه: « فى الحقيقة أنت الصخرة وقوات الجحيم بأجمعها لن تقوى عليك ! . . . »

* * *

غادر ستيفن حجرة الأب الأقدس والبشر يطفح على محياه ، حتى كاد لا يسمع ما قالــه مدير التشريفات لمساعده : « رافق الأسقف فرمويل إلى جناح الكردينال باشيلى » . فتبع ستيفن حاجباً ذا ياقة عالية متجعدة الثنايا عبر حجرات متجاورة ، ونزلا درجاً واسعاً نحو مقرّ الكردينال أمين السرّ فى الدور الأوّل .

استيقظ ستيفن من نشوته لما رأى دليله يضع قدمه بين ساقيه ليقلبه على الأرض ، ثم يصيح فى وجهه كالمهرّج : « أيها الشيطان الصغير ! . . . »

دون شك ، إنه يعرف هذا الصوت المألوف . فى الواقع ، كان صوت الربان أورسلى .

فطوق ستيفن كتف صديقه القديم بذراعه وقال « جيتانو ! ما هذا المزاح فى هذا المكان ؟ هيا (شقلبنى) ! » ثم أمسك الربان من رأسه بكلتا يديه وقال : « لقد خدعتنى بمعطفك وفروتك ، أيها الفلورنسى اللئيم ! . . »

وتعانقا . فحفّت لحية أورسلى المعطرة بالزيت خد ستيفن . وقال أورسلى : « يا صاحب السيادة الأسمى! يا أنبل أمراء الكنيسة ! حقًا خدعتك ؟ ها . ها . ها . كنت تسير بين السحاب . ولو صادفتك حفرة لكنت سقطت فيها . يا إلهى ! كم أنا مسرور برؤيتك ، يا ستيفانو » .

فضحك ستيفن وقال : « ما الذى جاء بك أيها " الجبلّينو " الشرير إلى هذه الأماكن المقدسة ؟ لا تقل لى إن صلواتى أتت بك إلى ههنا » .

رسم أورسلى إشارة الصليب على صدره كما يفعل لصّ برىء أمام القاضى وقال : « لقد وقعت ضحية امرأة قذفت السماء بوابل من صلواتها وتعويذاتها . كم من التساعيات ، والورديات وأطنان الشموع من أنقى أصناف شمع النحل تصاعدت نحو السماء من أجلى . من أين لى العلم بما سيحدث ؟ من كان يقدّر أن قرصاناً تركيًّا سيرتد عن غيه وينقلب موظفًا بابويًّا ، بمعطف من المخمل وأناقة فى الحركات

والغريب أنه يلذ له ذلك ؟ — وأحنى أورسلى ركبته الواحدة وطوى الأخرى — تلك أعجوبة ، يا ستيفاتو ، أجرتها فىّ أجمل من عرفت من الخلائق ، جيسلانا زوجتى » .

ما زال اسمها يؤذى ستيفن . فضمد جرحه بسؤال : « هل خلصتك من الفاشستية أيضاً ؟ عندما اجتمعنا المرة الأخيرة كنت تمتدح أضواء الكواكب فى برج الدوتشى » .

مالت لحية أورسلى أسفاً وقال : « كنت مأخوذاً ككثيرين غيرى بوعود عن خلق إيطاليا أخرى أعظم وأقوى ، لكنه خدعنا بلآلئ مزيفة من النحاس والزجاج . آه ، أىّ بؤس جلبه على شعبنا هذا القائد الخداع . وتجارته تقوم على الرشوة والاغتيال والانحطاط . — ثم هزّ أورسلى رأسه فى تشاؤم وقال : — مَن مِن أصدقائى تجرّأ على الاحتجاج ، البعض يبلى رويداً فى سجون سردينيا ، والبعض الآخر وهم أوفر حظّاً قد ماتوا » .

فسأله ستيفن فى سذاجة غير مفتعلة : « لماذا لا نسمع شيئاً عن هذه الأمور فى أمريكا ، يا جيتانو . فكل فرد عندنا على ما أظن يعتقد أن الدوتشى هو المحسن الكبير إلى إيطاليا ، لا تفارق الابتسامة شفتيه » .

— « وأى غرابة فى أن يجمع رجل بين الابتسامة والإجرام ؟ »

— « لقد أوعز هملت أن ذلك غير محتمل » . .

— « أفّ ! وهل يدرك هذه الأمور دانمركى ينطق بالإنجليزية ؟ نحن الفلورنسيين قادة العالم فى فن الخداع . وطرقنا مألوفة معروفة ، ولكنها تتلاءم مع جميع الظروف . فى أيام لورنزو كنا نستعمل المعطف والخنجر — والتحف أورسلى بمعطفه مزهوّاً كأحد البورچيا — أما الآن ، فقد أضفنا الطائرات » .

— « لا أرى فى الطائرات خبثاً جهنميّاً » .

فتهادى الفلورنسى كبراً وأشفق على سذاجة ستيفن وابتسم وقال : «الطائرة بحد ذاتها ، آلة كسائر الآلات . لكن المهم فى الأمر هو تنسيق القطع والأدوات أتذكر لعبة الموهل ، يا ستيفانو ؟ حيلة هنا . . وكمين هناك ؟ هذه هى الحال مع طائراتنا » .

فسأله ستيفن : « وطائرات من هذه ؟ »

فرفع أورسلى يده إلى فمه وهمس قائلا : « لقد كوّن بعض الرجال الوطنيين جمعية سرّية ، وأنا أحد أعضائها — وبالمناسبة ، أؤكد لك أنه ما من أحد فى الڤاتيكان ، حتى البابا نفسه ، يعلم بحركتنا — وقد قرّرت الجمعية منذ بعض الوقت القيام بعمل ضد موسولينى . إنا نعمل فى حدود طاقتنا فى مطار طبيعى ضيق ونساعد على الهرب بعض المغضوب عليهم من الذين يودّ الدوتشى إلقاء القبض عليهم » .

واستنشق أورسلى الهواء طويلا متذوقاً رائحة مكره ، ثم استطرد لقوله : « عندنا طائرتان . إحداهما " دى هاڤيلاند " بمحرّك واحد تختال بحرية ودلال فى المطار البلدى أمام أعين الجميع . والأخرى " كپرونى " بعشرة مقاعد ترقد مختبئة تحت الأعشاب والأغصان فى الأرياف ، وبينما يحوم رجال " الأوڤرا " حول هيكل " دى هاڤيلاند " تكون " الكپرونى" فوق جبال الألپ بعيدة المنال » .

— « ما أمكركم أيها الفلورنسيون ! وأين تنزلون ركّابكم ؟ »

— « فى پاريس أو بروكسل — وعند الخطر فى لندن » .

اقتربا من مدخل جناح الكردينال پاشيلى ، وأدرك أورسلى أن مهمته الرسمية فى مرافقة صديقه القديم ستنتهى ، وعليه أن يضع الآن حدًّا لفرحه بلقياه . فتوسل إلى ستيفن أن يجدد معه صداقتهما السالفة . قال : « ما أكثر ما يقال ، يا ستيفانو — وما أضيق الوقت فى الحياة ! ألا تستطيع العشاء معى الليلة ؟ سنكون ثلاثتنا فقط . وتستطيع التحدّث إلى جيسلانا فى حين أستريح قليلا أمام نار المدفأة » .

انتفض ستيفن كأنما شوكة وخزته ، لمجرّد افتراضه وقوع هذا الأمر وقال : « أشكر لك دعوتك ، يا جيتانو . لو استطعت . . »

عند باب الكردينال أمين السرّ انحنى حاجب آخر . فقال له أورسلى : « سيادة المطران أسقف هارتفيلد » . وقاده الحاجب إلى حضرة الكردينال ، أمين سرّ الدولة .

* * *

تركت مقابلة أوچينيو پاشلي أثراً عميقاً في حياة ستيفن . فالكردينال أمين سرّ الدولة في مظهره الخارجيّ يشبه إلى حدّ كبير أبراهام لنكولن كما رسمه « الجريكو» نحيل القوام ، مقشّف الوجه ، يمزج في شخصه تنسك كارنجي بنوع أشدّ ، وجاذبية ميري دلڤال بنوع أدق . في سن السادسة والخمسين كان جلده مشدوداً على وجهه البارزة عظامه وجسمه الضئيل . لم يرَ ستيفن قط عيوناً كاللتين لپاشيلي : نافذتين غامضتين ، كعيني مفتش الجمارك ، إذا وقع بصره على شيء فالأجدر بهذا الشيء لو كان رصاصاً وإلا ثقبه بحدة نظره .

بلغت الكردينال أنباء سارة عن زائره الأمريكي وأراد الآن اختبار كل ما سمعه بعينه وذهنه .

بسط الكردينال يديه نحو ستيفن وقال له : « دعنا من الشكليات ، أرجوك ، فلدينا أعمال أخرى هامة . ثم سأله في ابتسامة — وقد علم بعمليته الجراحية — أكان هنالك أعجوبة أم لا ؟ »

فقال ستيفن : « ذلك عجيب عليّ أيضاً » .

أعجب پاشيلي بهذه المشاكلة اللفظية ، لأن حبّه الروماني للنكتة المرحة لم يتأثر بمركزه كرئيس كهنة كاتدرائية الڤاتيكان أو بمسؤوليته كأمين سرّ للدولة . كان هو نفسه يجيد اللعب بالسيف وكان يقدر حركة المعصم السريعة عند غيره .

ثم قاد الكردينال أمين السرّ ستيفن إلى مكتبه على بساط لا يقدر بثمن ، ووقف به أمام المنضدة . كان في نية الكردنيال ، بعد عودة ستيفن من زيارة الأب الأقدس أن يقدم له هدية صغيرة — أيقونة ، أو مسبحة ، أو ذخيرة . لكنه بعد تبادله هذه المقدمات الكلامية مع ستيفن اضطر إلى أن يفكر في هدية أرفع شأناً وأبرز قيمة . من بين الأدوات العديدة على مكتبه اختار پاشيلي مبضعاً جميلا لشق غلاف الرسائل ، يده من العاج المحفور على طريقة الفن البيزنطي وسلاحه من الفولاذ الدمشقي ، وغمده مسطح مستطيل معقود بخيوط من فضة . فمنه خنجر ومنه صليب . فوضعه پاشيلي على معصمه ومقبضه نحو ستيفن وقال :

— « أيها الأخ العزيز ، أملي أن نتراسل مراراً في المستقبل . عندما تفتح رسائلي بهذه الهدية ، التي تحوي قطعة من الصليب الذي كان يحمله غريغوريوس السابع ،

أرجو أن تذكر التحامنا الأول بالسلاح » .

وعانقه پاشيلى واضعاً السلاح على كتفه ، فتقبل ستيفن منه ذلك باتضاع وقال : « سأحتفظ بهذه الهدية ككنز ، يا صاحب النيافة . ما أعجب صنعه وأجمله ! — وطوى السلاح بين يديه وقال : — وكلماتك قد زادته صقلا » . — ثم ابتسم أسقف هارتفيلد ومدّ يده إلى جيبه وقال : « فى بلادنا إذا قدّم لإنسان هدية حادة ، فإنه فى مقابل ذلك يقدّم قطعة من النيكل بخمسة سنتات » .

أخذ پاشيلى قطعة النقود ، وابتسم شاكراً ، ووضعها فى جيب جبته . ثم قاد ضيفه إلى ديوان وثير . كان پاشيلى يتحرّق إلى معرفة مجريات الأمور الأمريكية ، وكانت الانتخابات القادمة للرئاسة تثير دهشته . اتخذ پاشيلى له مكاناً على الديوان وأسند ظهره إلى قاعدة لوحة كبيرة على الحائط رسمها « پنتوريتشيو » . ثم قال : « لقد دهشت دائماً من حملاتكم السياسية العنيفة ومن الطريقة الهادئة التى يتقبل بها شعبكم نتائج الاقتراع . كيف تفسر هذا التناقض الظاهر ؟ »

لا شك أن الكردينال أمين السرّ يتوق إلى شرح مستفيض عن دقائق الخلق الأمريكى . وليس هذا بالمهمة السهلة ! كيف يوضّح له ، دون مسحة من التحزّب ، سرّ الحكم الديموقراطى ؟ أىّ دليل يقدمه إلى هذا السياسى ذى الثقافة والميول الأوروبية على أن الإيمان والنشاط قد صهرا الولايات المتحدة فى قالب فريد من نوعه ؟

بعد تفكير قال أسقف هارتفيلد : « لو استطعت استرجاع قطعة نقودى برهة ، يا صاحب النيافة ، فإن ذلك حسبما أظن سيساعدنى على الإجابة عن سؤالك » .

انحنى رأساهما فوق قطعة النقود التى على راحة الأسقف المفتوحة . وقال ستيفن : « هذه القطعة هى الأكثر تداولا . وفيها تتلخص كل أمريكا . كما ترون ، يا صاحب النيافة ، على أحد الوجهين سُكّت صورة أبراهام لنكولن وكلمة " الحرية " . والاثنان مترادفان . وغاية الاثنين تذكير مواطنى بأن الحكم الذى هو من الشعب وبالشعب وإلى الشعب ، هو تراثهم ومسؤوليتهم » .

قال پاشيلى : « تفكير نبيل . لكن ألا يسيئون فهمه عادة ؟ ألا يعتقد كثير من الأمريكيين بأن الديموقراطية تستمد قوتها من الشعب أكثر مما تستمدها من الله ؟ »

ـ « لا شك ، يا صاحب النيافة ، أن هذا الانحراف موجود عند البعض . لكن هل لى أن أسترعى انتباهكم إلى ما كتب فوق رأس لنكولن ؟ " ثقتنا بالله " . يدرك الأمريكيون فى أعماق قلوبهم — وربما بصفة خفية ـ أن الله هو مصدر ثقتنا بالديموقراطية » .

بدأ الآن أوچينيو پاشيلى يدرك التقدير العظيم الذى يكنه الأب الأقدس لأسقف هارتفيلد . واستمر ينصت بانتباه فى حين استطرد ستيفن لقوله : « تسألون نيافتكم لماذا يتصارع الأمريكيون بهذا القدر من العنف من أجل انتخاب مرشح واحد ، ثم يخضعون للقرار الشعبي فى هدوء تام وبساطة ـ وأدار ستيفن قطعة النقود على وجهها الآخر وقال : ـ أعتقد أن الجواب مطبوع على هذا الوجه » .

فقرأ پاشيلى فى عجب متزايد : « واحد من بين الكثيرين » . ثم قال : « إن هذه الكلمات تفتح آفاقاً للتفسير التصوفى » .

ـ « صحيح ، يا صاحب النيافة ، وإن كنت أعتقد أن قليلين يفهمونها على هذا النحو . فى الوقت الحاضر ، هذه الكلمات تعنى أنه من بين الآراء الكثيرة المتضاربة ومن بين الخلافات العميقة الخطيرة ، ينبع مثلنا الأعلى الذى اكتسبناه بالفضائل : الوحدة » .

اتسع الحديث وطال وپاشيلى يقوده حتى وصل به المطاف إلى موضوع أثار الاضطراب فى روما .

قال پاشيلى : « لا شك أن البابا أخبرك بأننا نواجه أزمة فى المفاوضات بين الكويرينال والكرسىّ الرسولىّ . وأعترف أن الحالة مؤلمة . وليس فى الأفق بادرة حلّ مشرّف . فاحتجاجاتنا تهمل باطراد . . . والوسائل السياسية قد استنفدت » .

سأل ستيفن : « ألا توجد طريقة لجذب تأييد الشعب ؟ لا شك أن أغلبية الإيطاليين يستنكرون طرق موسولينى » .

داعب پاشيلى ذقنه الناتئ وقال : « إن وسائل الشرطة ترهب الشعب . وجميع وسائل المواصلات مراقبة . وإن بدا الأمر غريباً للأمريكيّين ، فلا يوجد فى إيطاليا وسيلة لإبداء الآراء الصائبة » .

— « لا يستطيع الدوتشي تجاهل رأى العالم . ألا يستطيع المراسلون الأجانب الاتصال بجرائدهم لعرض قضية الفاتيكان ؟ »

فقال پاشيلي : « إن الرقابة الفاشستية كالطوق الحديدى . وأناس أبطال كثيرون ملقون الآن فى السجن لأنهم حاولوا كسر هذه الأطواق. إن التصريحات الوحيدة التى تصدر عن إيطاليا هى كما يسميها أصدقائى الصحفيون " قطع السكر " » .

يعلم كلا الرجلين أن المنشور الموجود على مكتب الحبر الأعظم فى الطابق العلوى ليس بقطعة سكر . منعت پاشيلي خبرته الطويلة الدقيقة فى السياسة أن يذكر هذا المنشور إلى ستيفن . وهذا من جهته لم ير من المناسب إظهار معرفته بالمخطوط ، لكنه فضّل توجيه هذا السؤال :

— « لنفرض أن الأب الأقدس يريد إصدار رسالة يشجب فيها النظام الفاشستى ، فهل يعارض موسولينى طبعه ؟ »

أدرك پاشيلي لباقة ستيفن فى سؤاله ، وقال له فى ابتسامة : « أستطيع أن أخبر سيادتكم بأن قداسته فى سبيل إصدار مثل هذه الرسالة . وأستطيع الإضافة أيضاً أن الدوتشي هدد بإعدام مدير الشرطة السرّى — مخلوق يدعى مارانانتشى — إذا تسرّب حرف واحد من احتجاج البابا إلى العالم الخارجى » .

— « لنفرض أيضاً أنه يعهد إلى أحد الأفراد بتسليم رسالة البابا إلى صحيفة " الزمان " فى لندن ، أو " المساء " فى باريس » ؟

سمع پاشيلي كثيراً عن تفتق الحيلة عند الأمريكيين. لكنه الآن رآها رؤية العين فى أسقف هارتفيلد . قال : « إن الشخص الذى يحمل هذا المستند سيتعرض لبعض الأخطار. فإذا قبض عليه، فسيشد وثاقه إلى كرسى ويضرب بالرصاص من الخلف » .

قال ستيفن : « شىء مخيف ! لكنه لن يخيف رجلين أعرفهما تمام المعرفة » .

فى خمس الدقائق التى تلت شرح أسقف هارتفيلد طريقة بسيطة للعمل ، سريعة ومحتملة النجاح ، تمكّن البابا من عرض قضيته على محكمة الرأى العالمىّ .

فى آخر المقابلة وقف پاشيلي بقوامه النحيف الطويل وسار أمام زائره دون حاجة إلى مساعدة الحجاب حتى وصلا إلى مكتب الأب الأقدس . وهناك عقد اجتماع آخر حضره جيتانو أورسلى يحيط به عدد من الأساقفة الإداريين . فى تلك الليلة

نفسها ، ومدة ثلاث ليال متتالية ظلت الأنوار مضاءة فى حجرة الأب الأقدس إلى ساعة متأخرة من الليل .

بعد أربعة أيام ، عند الفجر ، من بقعة مهجورة من الريف الرومانى ، ارتفعت طائرة « الكبرونى» ذات المحركين . قطعت الألپ وهبطت فى مطار « بورچيه » . وعند الظهر تقدّم أسقف أمريكى إلى مدير تحرير « المساء » وسلمه نسخة من « لسنا بحاجة » . وأرسلت نسخ بالإنجليزية عبر الأثير إلى « الزمان » فى لندن ، « والزمان » فى يورك الجديدة . وفى الصباح التالى ، طلعت صحف العالم برسالة البابا پيوس الحادى عشر يقضى بها على الفلسفة الفاشستية التى ترفع الدولة فوق الله ، وفوق الأسرة المسيحية ، وفوق النفس البشرية .

وقت الإفطار ، عندما قرأ الدوتشى ما حدث ، أرسل فى طلب مدير الشرطة السرّى ، وراقب الرجل يزحف على الأرض حتى أعدم . ونفى أيضاً أربعة عشر ضابطاً من « الأوڤرا » . ولكن كانت الخسارة قد حلت .

هبطت الاحتجاجات بعنف شديد من جميع أرجاء العالم على شرفة « قصر البندقية » حتى اضطرت الظروف إلى فتح باب المفاوضات مرة أخرى بين الكويرينال والڤاتيكان . وأظهر آخر فصل فى هذه المأساة الدوتشى والملك ڤيكتور عمانوئيل يتوجهان فى موكب رسمى إلى الڤاتيكان . فجثى الملك على ركبته وخلع الدوتشى قبعته أمام الرجل ذى الحذاء الأحمر المنتصب على صخرة خفيت عن الأبصار .

لم يدر بخلد الدوتشى ، ولم يأبه ڤيكتور عمانوئيل بالأمر ، أنه توجد صلة بين إعلان رسالة البابا والرتبة الشرفية التى منحها پيوس الحادى عشر للأسقف ستيفن فرمويل . ربما لم توجد صلة بين الأمرين . وربما أيضاً أن الأب الأقدس فى مراجعته بعض المسائل مع أمين سرّ دولته الفذ ، فكّر فى أن كرسىّ هارتفيلد ، بقائده المحنك ومدنه الكبيرة ، يستحق رفعه إلى رتبة « أبرشية أولى » — على كل حال ، فى ٢ يناير سنة ١٩٣٣ ، عين ستيفن فرمويل رئيس أساقفة هارتفيلد . وأبلغ إليه التعيين بقرار بابوى بتاريخ ٨ يناير ، وأعلن عنه رسميًّا فى مجمع الكرادلة يوم ١٨ يناير .

فوجد ستيفن نفسه ، وهو بعد فى سن ، الرابعة والأربعين ، أصغر رئيس أساقفة فى الولايات المتحدة .

فى ربيع سنة ١٩٣٣ ، شعر معظم الأمريكيين أنهم لحسن طالعهم لا يزالون بعد أحياء .

وقف سياسىّ ملهم يخطب فى شعبه ويقول : « ليس عندنا ما نخاف منه سوى الخوف . ستقاسى هذه الأمة العظيمة الأمرّين كما قاست فى الماضى ، لكنها ستحيا وتزدهر » .

سيق عدد كبير من الشبان اليائسين المتسكعين على زوايا الشوارع ، الذين لم يروا قط — أو كادوا — قسيمة لدفع مرتباتهم ، إلى العمل فى قطع الأشجار فى الغابات ، أو بناء القناطر والسدود .

دبّ النشاط فى الموسيقيّين والرسامين والكتّاب وأحيوا فنهم مرة أخرى بعد أن أشرف على الاضمحلال . دعا البعض هذه اليقظة « حركة مسرحية » ، لكن الرئيس دافع عن هذه المشاريع على اعتبار أنها تحفظ كيان الأفراد — أى المواطنين الأمريكيين من الانهيار الاقتصادى والأدبى .

بينما أخذ الأمل يداعب الأمة بأجمعها ، وشرعت صناديق الموسيقى المتجوّلة تلعب « عادت الأيام السعيدة » ، رأى رئيس أساقفة هارتفيلد — الذى سحب ترشيحه من « برنامج المساعدة الجديد » — أن رصيده النقدىّ يتدهور إلى نقطة الصفر . لم يستسلم ستيفن بطبيعة خلقه إلى هموم المال . فقد حصّنته خدمته ككاهن مساعد مع الأب نيد هالى ضدّ الهموم المالية التى تفسد على الكهنة أيامهم وتقضّ مضاجعهم . لكن باعتباره ناظراً على أملاك كنائسية واسعة ، ومدبراً لما يقرب من ثلثمائة رعية ، لم يفت ستيفن أن بعض أجزاء أبرشيته الكبرى مزدهرة أكثر من بعضها الآخر . فرعاة المدن الصناعية يتداولون مبالغ دسمة من المال ، فى حين أن رعاة المناطق الريفية يكتفون بلقمتهم اليومية . هل من المستطاع تسوية هذه الفوارق الشاذة وتبسيطها إلى مستوى أكثر عدالة ؟

شعر ستيفن بحاجة إلى مشورة فاستقل الطائرة إلى ألفيوكارنجى . وفى أثناء الغداء ، وفى المناقشة الطويلة التى تبعت ذلك ، تقدم المندوب الرسولى بتوصيات عديدة ملؤها الأمل لكنه رفض الانحياز إلى أىّ حلّ . قال لستيفن « إن الأمر بين يديك ، يا ستيفانو . طبقاً للقانون الكنسىّ لك السلطة فى اتخاذ أىّ تدبير مالىّ يناسب أبرشيتك . لماذا لا تناقش الموضوع فى مجمع محلّىّ؟ »

اتّبع ستيفن هذا الاقتراح ، وعند عودته إلى هارتفيلد ، وفى الطريقة المقرّرة فى تشريع الكنيسة ، دعا إلى عقد اجتماع محلى من جميع رعاة الكنائس لتسوية الفوارق المالية التى كانت تعرقل سير الأمور فى الأبرشية .

والمجمع المحلّى – كما حدّده بنديكتوس الرابع عشر – هو « اجتماع شرعى يعقده الأسقف ويدعو إليه جميع الكهنة وذوى الرتب الكنسيّة من أجل إنشاء أو مناقشة الأمور التى تمتّ إلى مصلحة الرعية » . وفى يوم عيد الغطاس ، ٦ يناير سنة ١٩٣٤ علّق قرار الدعوة على أبواب الكاتدرائية ، وأعيد قراءته مدة ثلاثة آحاد متتالية فى الكنائس الرعائية . وفى أوائل فبراير ، اجتمع نحو مئتين من الرعاة فى الكاتدرائية ليسمعوا القداس ويستعدوا روحيًّا للمداولات القادمة .

مع أن قرارات المجمع ، التى يقدمها الأسقف ، لا تنال قوتها الفعلية إلاّ منه وحده ، إلا أن المعمول به ، وهذا يتمشى مع روح الكنيسة ورغبتها ، هو أن جميع من يهمّهم الأمر لهم الحق فى إبداء رأيهم . وفى هذا الاجتماع أبدوا آراءهم حقًّا – وفى عنف لم يشهد له مثيل ، حتى إن الشمعدانات فى قاعة مدرسة القديس يوسف حيث عقد المجمع ، رجّت وتأرجحت كالأغصان أمام ريح عاصفة .

رتب ستيفن بمساعدة أمبى كانيل جدول الأعمال بطريقة مقبولة معتدلة . بدئ بالمواضيع الصغيرة : اقترح تأليف لجنة استشارية للأعمال الهندسية البنائية من اختصاصها مراجعة جميع رسومات البناء . وألفت لجنة أخرى لدراسة وسائل إنشاء صحيفة كاثوليكية فى هارتفيلد ، لعدم وجود مثيل لها . سار كل شىء بانتظام ووئام إلى أن عرض على بساط البحث تنظيم الأبرشية المالىّ . حينئذ لما شعر الرعاة باللمزة فى عصب جيبهم الحساس – وربما كان جيبهم البقعة الحساسة الوحيدة فى جسمهم – شرعوا يصرخون ويتألمون فى توجّع شديد .

لم يكن ستيفن ساذجاً بهذا القدر حتى يعقد مجمعاً دون أن يسبق ويستشير فى الطريقة التى يزمع فرضها عمليًّا . فكان — قبل أيام قلائل — قد اجتمع بفريق من مديرى الأبرشية الممتازين وعرض عليهم بصراحة الموضوع بكامله .

بدأ ستيفن حديثه . قال : « لا يخفى على واحد منا أنه توجد فوارق جسيمة فى توزيع المال فى الأبرشية . طبقاً للنظام الحالىّ ، ترسل كل رعية إلى الأسقف إتاوة لا تتجاوز العشرة بالمئة من مجموع دخلهم . فحسب هذا التنظيم ، قد توصلت بعض الرعايا القديمة المحظوظة ماليًّا إلى حشد مبالغ كبيرة فى المصارف ، فى حين أن الفقر فى أجزاء أخرى من الأبرشية يعرقل عمل الكنيسة » .

أنصت الرعاة ، كلّ بخلقه . شدّ دان أولولن ، راعى أغنى كنيسة فى « الميناء الجميل » ، لحمة أذنه بعنف ، وارتعش ذقن مايكل كرنان (ويلقبونه كوزى) فى حركة ملحوظة . ماذا يبغى إذن رئيس الأساقفة ؟

واستطرد ستيفن لكلامه قائلا : « لقد آن الأوان لتكون مصلحة الأبرشية العامة هى رائدنا الأوّل . ففى اجتماع يوم غد سأتقدم باقتراح أرجو ألا يظهر لكم تعسفيًّا — والتفت إلى أمبروز كانيل وقال : — هل يتفضّل النائب العام بقراءة مشروع القرار ؟ »

شرع أمبى كانيل يقرأ بنبرته الأكسفوردية ، وكان لها أسوأ وقع فى آذان مستمعيه الإرلندية :

« ابتداء من أول يوليو سنة ١٩٣٤ يدفع شهريًّا إلى خزانة الأبرشية ، كل دخل الرعايا ، أيًّا كان مصدره . . »

اختفى الدم من أنف دان أولولن وقال : « يدفع — أين ؟ »

وسأل كوزى كرنان فى ذهول : « هل أفهم ما أسمع ؟ »

فقال ستيفن : « من فضلكم دعوا النائب العام يتابع قراءته » .

فاستطرد أمبى لقراءته : « يجب على جميع الكهنة رؤساء الرعايا أن يرفقوا بحسابهم الشهرى تقريراً كاملا عن المصروفات . ويدخل تحت بند المصروفات مرتبات الراعى ومساعديه الكهنة ومستلزمات الكنيسة والمدرسة والمؤسسات الأخر التى تكون تحت إدارة راعى الكنيسة » .

فقاطعة دان أولولن بتهكم قائلا : « وهل يدخل فى الحساب أيضاً فنجان شاى للشرطى على الناصية ؟ »

– « نعم – أجاب ستيفن – ويدخل فى الحساب أيضاً الشاى الذى يقدمه راعى الكنيسة إلى أخواته وأبناء عمومه وأبناء خالاته وعماته ، وأيضاً رحلات للترفيه إلى فلوريدا ، والبقاشيش وغير ذلك . اقرأ ، يا أمبروز » .

تابع النائب العام قراءته : « يخصم مجموع هذه المصروفات من المبلغ المرسل إلى خزانة الأبرشية . وجميع هذه المبالغ المتبقية ترجع إلى أبرشية هارتفيلد ، باعتبارها شخصاً معنوياً وتوضع تحت تصرف مدبّر الأبرشية ، ستيفن فرمويل » .

هدير . . . وزمجرة . . . واستنكار . . . وكراسىّ تجرّوتشدّ وواحد يصيح : « يا صاحب السعادة . . » وآخر يصرخ : « إنى أحتجّ . . . »

فقال ستيفن : « أيها السادة ، كل بدوره . سيعطى كل واحد فرصة للكلام . وأظن أنى رأيت يد الأب أولولن أولا » .

أدلى دان أولولن بتصريح جاف مفاده أن الاقتراح ليس إلاّ استيلاء اشتراكياً لم يسمع به من قبل ولا يتفق مع القانون الكنسىّ . وحذا حذوه بشدة مايكل كرنان وأعلن أنه سيرفع الأمر إلى المندوب الرسولى ليحكم فيه .

– « ذلك بالطبع من حقك ، أيها الأب – أجابه ستيفن – إلا أنى أخبرك بأن المندوب الرسولى يؤكد لى بأن اقتراحى يتفق تماماً مع القانون الكنسىّ . . هل من أحد آخر يريد الكلام ؟ »

وإذ امتدت المناقشة وقف بعض الكهنة الشبان ودافعوا عن نظرية الأسقف واقتراحه . وكان أفصحهم الأب جريجور پوتوكى الپولندى ، راعى كنيسة القديس لادسلاس ، الفقيرة المعدمة ، فى منطقة مزارع التبغ غربىّ نهر هارتفيلد .

قال الأب پوتوكى : « إن التغيير المقترح سيساعد رئيس الأساقفة على إحياء الأجزاء الهزيلة بمدها بالمال اللازم لها . وأعتقد دون شماته منى برعايا المدن الكبيرة بل رغبة فى نشر العدل للجميع – أن يوضع هذا القرار موضع التنفيذ » .

عارض الرعاة القدماء القرار بشدة ، لكن لم يكن بدّ من قبوله ، فأدرجه المجمع بين قراراته فى اليوم التالى . ثم طبعت قرارات المجمع وأرسلت منها نسخ إلى

دار محفوظات الأبرشية ، وأخر إلى المندوب الرسولى الذى بعث بها إلى روما . وبعد مدّة تسلم ستيفن رسالة من الكردينال رئيس لجنة المجمع يهنئه فيها على اتباعه النظام المالى الجديد الذى يناسب تماماً حاجة الأبرشية .

* * *

فى انتظار ورود المبالغ الجديدة ، شعر ستيفن بحاجة ملحة إلى المال . فى نصف الصوم الأربعينى ، سنة ١٩٣٤ ، اضطر إلى اقتراض مبلغ خمسين ألف دولار من « شركة مصرف هارتفيلد المساهمة » ، ليواجه المصروفات الجارية . بعد أسبوع ، كان نصف هذا المبلغ قد صرف فى أمور ضرورية . ثم على حين غرة فوجئ ستيفن بفرصة نادرة .

مطبعة « أرجوس » تعرض للبيع . رخيصة !

جاء بالنبأ أوين ستاركى مع بريد الصباح وقال لستيفن : « بلغنى أن " أولى جرينليف " يريد بيع مطبعته » .

كان ستيفن قد سمع بمطبعة أرجوس وبعدّتها الكاملة وأنها يمكنها القيام بطبع الصحيفة الكاثوليكية التى تحتاج إليها هارتفيلد فى هذه الأيام . لقد باءت جميع المحاولات لإنشاء مثل هذه الصحيفة بالإخفاق إما بسبب نقص المال وإما بسبب نقص الخبرة فى هذا المضمار . بين نصف مليون الكاثوليك الذين ينتمون إلى أبرشية ستيفن ، قليلون من كانت عندهم فكرة وإن ضئيلة عما يجرى خارج رعيتهم .

حاول ستيفن أن يقف موقفاً محايداً . فقال : « ولماذا يريد جرينليف بيع مطبعته ؟ هل يعانى خسارة ؟ »

— « كلا ، بل الربو . هذا الجو يقتله . وهو مضطر إلى السفر » .

خيل إلى ستيفن برهة أنه يلبس تاج الصحافة فحوّل وجهه عنه ، ثم قرّر أن يجربه ليستدل على قياسه فقط ، هل يناسبه ؟ فقال للأب ستاركى : « اطلبه على الهاتف يا أونى . وأبلغه أنى سألقى نظرة على المكان بعد الغداء » .

كان حبر الطباعة يغلى فى دم ستيفن وقد سبب له ألماً شديداً بعد ظهر ذلك اليوم . سار أولى جرينليف بجانبه وهو يتنفس بمشقة كبيرة ، وفحص ستيفن المطابع والمعدّات التى كلفت فى أول الأمر ما يزيد على خمسة وسبعين ألف دولار :

آلتان لجمع الحروف (لينوتيپ) ، وآلة طبع صغيرة ، وآلة لقطع الورق ، ودباسة وأطنان من الحروف من جميع الأحجام . وفى وسط المكان مطبعة طويلة تستطيع بسهولة طبع مجلة أسبوعية من ثمانى صفحات . وخيل إلى ستيفن أنه يتصفح الجزء الأول ، العدد الأول من « رسالة الملاك فى هارتفيلد » (الاسم جميل ، لا بأس به) وهو يخرج من آلات الطباعة ويعبأ للتوزيع .

وقال أولى جرينليف وهو يهتزّ من السعال والألم ، بأنه مستعد للتساهل فى بيع كل شيء بخمسة وعشرين ألف دولار .

فامتنع ستيفن عن تحديد موعد لتتميم الصفقة وقال وهو يجرّ نفسه جرًّا خارج المكان : « سأقضى الليلة فى التفكير فى هذا الأمر ، أيها السيد جرينليف » وحينما غادر المطبعة ، كان مشتريان آخران قد مالا على ركبهما يفحصان الآلة الكبيرة .

أرق رئيس الأساقفة ليلته تلك . تضاربت الصور فى مخيلته وهو يرى مجلته تقفز من خمسة عشر ألفاً إلى خمسين ألفاً بين نصف الليل والثانية صباحاً . ثم توقف عند هذا الحد إذ أخذت حماسته تبرد . إن الأبرشية دون شك فى حاجة إلى مجلة . نعم . ودون شك كان شراء مطبعة أرجوس صفقة رابحة . نعم . ولكن كيف يتسنّى للإنسان أن ينفق آخر خمسة وعشرين ألف دولار على مطبعة ؟ ماذا يقول الأب الأقدس فى هذا ؟

خرج ستيفن من حجرة نومه فى الصباح التالى دون أن يتوصل إلى قرار عمليّ . فى القداس صلى إلى الله كى ينير له الطريق . عند الفطور قرأ الأحرف الأولى من صحيفة هارتفيلد : « القانون يعارض حمل طلاب المدارس الرعائية بالسيارات العامة » فشعر من جديد بضرورة إنشاء صحيفة للأبرشية ليوضح وجهة النظر الكاثوليكية فى هذه القضية .

كان ستيفن قد قرر فعلا شراء مطبعة أرجوس ، وإذا بالأب جريجور پوتوكى يدخل مكتب رئيس الأساقفة لحضور الاجتماع الأول من النهار . وكان مضطرباً مهدماً جاحظ العينين .

قال الأب پوتوكى : « يا صاحب السعادة ، إن مؤسسة التبغ تنهار ، ويجب عمل شىء من أجلها » .

لم يكن هذا الكلام إنذاراً ، بل تأكيداً للواقع فقط . كان الأب پوتوكى قد قام بشجاعة بمشروع التبغ فى الفترة الأولى من الأزمة المالية . وهو مشروع جرىء يتلخص فى نزوح عدد من الأسر الپولندية الكاثوليكية من الأكواخ القذرة فى المدن الصناعية إلى مناطق زراعة التبغ غربى نهر هارتفليد . فقد تكسبهم هذه الهجرة منافع كثيرة فردية واقتصادية . فالپولنديون بطبيعتهم مزارعون . فإذا عملوا بأجر فى مزارع التبغ فإنهم بذلك سيصبحون مواطنين قادرين على سدّ حاجتهم بسواعدهم . ثم إن الكهنة الذين يتكلمون لغتهم ، كما أشار إلى ذلك الأب جريجور ، فى تجوالهم بين الرعايا الريفية يستطيعون منح أبناء بلدهم العناية الشخصية والروحية التى هم حقًّا محرومون منها فى المدن الكبيرة .

على الورق ، كان مشروع الأب پوتوكى جذاباً ، ولكنه فعلا أخفق بمرارة .

كان ستيفن يعلم تماماً سبب هذا الإخفاق . فالتبغ يمتصّ بشراهة الفوسفات والبوتاس من الأرض . ويجب رشّ أطنان من الكيماويات فى كل فدان كل سنة لتنتج الأرض محصولا جيداً يستطيع الصمود فى السوق . لم يستطع الأب پوتوكى فكّ الحصار الشديد الذى ضربته الشركات متّفقة فيما بينها على أسعار الكيماويات . كان قد أقنع بتفاؤله وفصاحته ما يقرب من مئة أسرة پولندية — أمريكية على الاستقرار فى الحقول الفقيرة التى تؤلف رعية القديس لادسلاس . لكن التبغ لا ينمو على التفاؤل فقط . إنه يحتاج إلى كيماويات ، ومظلات وأدوات حديثة . ولما لم يستطع شراءها ، اضطرب العمل فى مؤسسات التبغ المساهمة ، والآن ، كما قال الأب پوتوكى ، بدأت تنهار .

أراد ستيفن أن يشدد عزم الكاهن الشاب الهمام . فسأله أن يعدّد له ما هو فى حاجة إليه الآن ليحفظ للمشروع رمق الحياة .

قال له رئيس الأساقفة : « أيها الأب ، أعرض أقل ما تحتاج إليه ، ومن فضلك ، أقل شىء » .

لم يفتح الأب پوتوكى مذكرة ، بل قال عن ظهر قلب : « إننا فى حاجة إلى ألف طن من الكيماوى ، ومئتى ألف قدم من الأخشاب لإصلاح المظلات ، وجرار للحرث والزراعة . المجموع واحد وعشرون ألف دولار » .

فخاطب ستيفن نفسه قائلا : « ألا يمكن شراء شىء فى أيامنا هذه بأقل من عشرين ألف دولار ؟ »

ثم سار ستيفن نحو نافذة مكتبه ليهرب من نظرات الأب پوتوكى الفاحصة . كان يعلم أنه إن لم تبدأ الزراعة حالا ، فالمزارعون الپولنديون سيغلبهم اليأس و يعودون إلى الأكواخ القذرة فى المدن . وكان يعلم أيضاً أنه إن لم يصل إلى اتفاق مع أولى جرينليف بعد ظهر هذا اليوم ، فسيختطف المطبعة رجل آخر . بعبارة بسيطة تردد رئيس الأساقفة بين أمرين :

هل إنشاء صحيفة أبرشية هو أهم شأناً من بعض الأسر الپولندية ؟ والآن بصراحة أمام حكم الضمير ما هو الحلّ ؟

كانت معلومات ستيفن عن الپولنديين ضئيلة . كانوا يتكلمون لغة غريبة ، ويأكلون الكرمب ، ولا يزالون يقاومون « بنجاح » أفكار الأمريكيين وعاداتهم فى الأمور الصحية .

من جهة أخرى ، ما أبهى وما أبسط اقتناء مجلة للأبرشية ! . . . إنها تناسب روح العصر الحاضر ، إنها مرغوب فيها لا بل ضرورية ، لا شك فى ذلك ، لرصد أخبار وأعمال الأبرشية اليومية ، لوصل رعية بأخرى ؛ ضرورية للتعليم والتربية ، والإعلان ، والشهرة أيضاً . ستحوى بين دفتيها عموداً للأدب وصفحة للألعاب الرياضية (العقل السليم فى الجسم السليم) ، ومقالات تهاجم تحديد النسل والشيوعية والأفلام السيئة . وقد تقتبس الصحف الأخر من مجلة الأبرشية . وفى جميع أنحاء الولايات المتحدة ، سيسمع الناس عن رئيس أساقفة هارتفيلد ومشروعاته التقدمية فى — آه ، فليقرأوا ذلك فى مجلة الأبرشية . . هيا فليبدأوا منذ الآن بالاشتراك فيها ! . . .

الفكرة جميلة جذابة ! . . .

لكن ستيفن سمع فى داخله صوتاً واحداً فقط يعارضه فى ذلك ، وكأن الصوت يأتيه من رجل بنظارات ، أصلع الرأس تغطيه قبعة بيضاء ، علقت صورته فوق رأسه وراء المكتب :

« علينا أن نشجع الكهنة الشبان كى يزهدوا فى المناصب المدنية الرفيعة ويذهبوا لخدمة الملايين من الناس الذين يعزقون الأرض » .

حسن جدًّا . وههنا يوجد كاهن شاب يتوسل لكى يعطى فرصة لمساعدة قطيعه المهمل . اضرب جريجور پوتوكى بعشرة أمثاله ، ثم بمئة ، ثم بألف ، وستجد حلاً لمشكلة العمل الكاثوليكى فى الريف الأمريكى .

ثم تذكر ستيفن وعده لپيوس الحادى عشر : « سوف أعمل كل ما فى وسعى أيها الأب الأقدس ، لأنشر تعاليم رسالتكم فى " السنة الأربعين " » .

فألقى ستيفن عن رأسه تاج الصحافة ، ووضع يده على محراث المؤسسة الزراعية . ثم جلس إلى مكتبه وكتب قسيمة بعشرين ألف دولار وسلمها إلى الكاهن البولندىّ وقال : « اشتر الكيماوى والمعدات بهذا المال ، ياجريجور . وإذا أينع محصول التبغ فأرجو أن تقودنى إلى هناك بين حقولك » .

* * *

يوم الاثنين بعد الفصح ، بدأت زراعة التبغ فى رعية القديس لادسلاس ، والشمس تعد الجميع بأشعتها وخيرها .

انغرست المحاريث فى الأرض تشدّها الجرارات وشقت فيها خطوطاً برّاقة . وتناقلت الأيدى الحبوب تزرعها فى الشقوق وتغطيها بالطمى . وأروت الرشاشات الزرع بالكيماويات الغنية . وجاء مطر أبريل وشمس مايو فأطلقا السوق الخضراء اليانعة . وقبل أن تشتد حرارة الشمس ، نصبت المظلات ونشرت الستائر البيض فوق حقول التبغ فنمت الأوراق الخضر فى شهرى يونيه ويوليو . وعندما زار ستيفن رعية القديس لادسلاس فى أغسطس ، وجد محصولا كبيراً من التبغ الممتاز قد تم حصاده . ورأى الرجال يقطعون الأوراق العليا الطريئة ، وكان يسير بينهم ويسمعهم يقولون : « الله يعطى » فيرد عليهم الأب پوتوكى قائلا : « أعطوا لله » .

حملت النساء والأطفال الأوراق إلى الأكشاك حيث حزمت رزماً وعلقت فى السقف . ثم أشعل الفحم حتى انقلب جمراً فأرسل حرارته الزمرّدية تداعب الأوراق الخضر المدلاة وأشبع جوّ الأكشاك بوهج وُضّاء جفّف أوراق التبغ وقلب لونها الأخضر الأزرق إلى لون الكهرمان

فى أوائل سبتمبر حضر مندوبو شركات السيجار إلى مزرعة القديس لادسلاس وبيع المحصول كله بالمزاد بأسعار طيبة . بيع من الأوراق الممتازة التى تستعمل فى كساء السيجار ثلاثون ألف رطل ، ومن الأوراق الرخيصة التى تستعمل فى حشو السيجار عشرة آلاف رطل .

سدّدت مزرعة القديس لادسلاس جزءاً من دينها للأبرشية وادخرت خمسة آلاف دولار لشراء الكيماوى فى الربيع القادم ثم وزعت فوائد قدرها ١٣,٢٠٠ دولار على إحدى وتسعين أسرة پولندية .

قد يقول قائل إن هذا المبلغ لا يدعو إلى الزهو والفرح ، بالنسبة لعمل شاق مدة أربعة أشهر بأجر عامل يومىّ . لكن شعب رعية القديس لادسلاس ينظر إلى الأمر عكس ذلك . فى اليوم الأول من أكتوبر أقاموا مهرجاناً للحصاد ليمجدوا الله معطى الأرض خيراتها ، ودعوا رئيس أساقفتهم لحضور الحفل .

فى أحد الأكشاك الواسعة حيث يجفف التبغ ، أقيمت مائدة طويلة وازدحمت بالمأكولات : سلامى ، وقرنبيط بالأرز واللحم ، وأرغفة من الخبز الأسود . كانت بعض النساء تغترف حساء الكرمب المركز بعظم الخنزير ، من وعاء كبير يغلى فوق نار موقدة . تقدّم ستيفن يصحبه أمبروز كانيل وبارك الطاجن المدخن واتخذ مكانه على رأس المائدة . فتقدم منه ولد فى الخامسة عشرة ذهبىّ الشعر قد لفحته الشمس فاحمرّ ، وقدم إلى رئيس الأساقفة خبزاً . كان الصبى نحيل القوام جميل اليدين كأنهما اقتطعتا من تمثال فيدياس .

سأله ستيفن : ما اسمك ؟ » .

— « كونراد زالى ، ياصاحب السعادة » .

— « هل تعمل فى حقول التبغ ، ياكونراد ؟ »

— « نعم ، يا حضرة رئيس الأساقفة . فى الصيف أساعد فى التجفيف وفى الشتاء أذهب إلى المدرسة » .

قال الأب پوتوكى بفخر : « إن كونراد لاعب كمنجة ممتاز ، يا صاحب السعادة . بعد قليل ، سيسمعنا بعض مقطوعاته » .

ثم بدأ عشاء الحصاد . تبخرت مخاوف ستيفن من عادات الشعب الپولندى عندما رآهم يتناولون حساء الكرمب . لم يرَ قط أناساً مرحين تلقائيين كأبناء الأب پوتوكى . كانوا مثل « جرجنتوا » وهم يلتهمون كميات ضخمة من السجق ، والقرنبيط والخبز الأسود ، يضحكون ويومئون بأيديهم طوال الوقت ، ليسوا كالأمريكيين أو الإرلنديين أو الإيطاليين ، بل على طريقة السلاڤونيين البربرية نصف الشرقية . ثم بدلا من أن يخروا نياماً كالألمان أو السويديين ، تركوا المائدة وذهبوا يرقصون ألحان كراكوڤيا ترافقهم أنغام الناى والربابة والكردان (أكورديون) .

ارتفع القمر صعداً وازدادوا هم قفزاً . وبعد ساعة أعلنت فترة استراحة ارتمى الراقصون على الأرض يستعيدون أنفاسهم . وإذا أحدهم يصيح : « كونراد . . . كونراد زالى . . . أسمعنا شيئاً يا كونراد . هيا العب لنا » .

فمال جريجور پوتوكى نحو رئيس أساقفته وقال : « الآن ستسمع ما يسرّك يا صاحب السعادة » .

تقدم الصبى ذو الشعر الذهبى الذى قدم إلى ستيفن خبزاً ووقف فى ضوء النار بالقرب من طاجن الحساء . بدا كونراد وهو يشدّ أوتار آلته متردداً خجولا . ثم خصر كمنجته تحت ذقنه ، فبدا كأحد أمراء الغجر يطرب مستمعيه المعسكرين حول ضفاف المستنقعات الممتدة بين پولندا وروسيا . واختار لحناً من كراكوڤيا وارتجل عليه دوراً صعباً أدهش به المستمعين . كانت موسيقاه تحكى حزن أمة تفرّقت وألم شعب كئيب تجيش فيه الذكرى ورقة الشعور . وفجأة تنبه إلى وجود أناس مثقفين حوله ، فقطع ارتجاله وانحنى نحو ستيفن وقال : « منوعات من السارافان الأحمر ، تأليف ڤينيوسكى » .

مال أمبى كانيل على أذن رئيس أساقفته وقال : « إنها مقطوعة متينة ، مليئة بالدقائق الفنية » .

تبين أن هذه الدقائق الفنية لم تعجز كونراد زالى على الإطلاق . فإنه انتزع مقطوعة السارافان الأحمر كما ينهب صبيّ ثمار الشجرة . واصطحبه فى ذلك عازف الكردان . لم تعقه الإيقاعات المزدوجة ولا النغمات المصطحبة فكان يجيدها كلها بسرعة تفوق التصوّر ، حتى إن أمبى كانيل تنفس الصعداء وقال : « يا إلهى من أين له هذا الفن ؟ »

فى ختام الفترة الموسيقية المرتجلة ، نهض ستيفن وتوجه نحو الفنان الشاب . كانت معرفة رئيس الأساقفة بالموسيقى سطحية فاكتفى فقط بالتعبير عن سروره وشكره . فقال وهو يحيي الشاب :

ــ « إن عندك موهبة عظيمة ، ياكونراد . هل تريد أن تأتى عندى أحياناً وتلعب ؟ »

فاحمر وجه الصبى خجلا وقال : « كلما أردتم ، يا صاحب السعادة » .

أما مديح أمبروز كانيل فدلّ على معرفة أوسع فى الموسيقى . قال للشاب : « ياكونراد ، ، إنك تعزف عزفاً رائعاً ، ولا أعلم ما أفضل الأثنين : ارتجالك لحن كراكوفيا أم إخراجك المتين لمقطوعة ڤينيوسكى . ــ ثم سأله :ــ من علمك العزف ؟ »

حدج الصبى الأب پوتوكى ، وهذا أشار إلى مخلوق معقود القوام والأعضاء ، أحدب الظهر ، وقف خلف الفنان الشاب . قال الأب جريجور : « يسرّنى أن أقدم لكم " مكس لاسو " . فهذا هو الأستاذ الذى هذب فنّ كونراد » .

فقال الرجل الأحدب دون خشية من وجود رجال الدين حوله : « إن فنه لم يكتمل بعد . فقد سمعت طوال مدة عزفة مقطوعة السارافان أصواتاً شاذة تشبه عواء الخنازير . لا شك أن نصف اللوم يقع على الآلة . هل هى سوى صندوق سيجار مطلىّ ؟ »

على ضوء الجمر الخافت ظهر مكس لاسو كأنه الإله ڤولكان ينتقد تلميذاً موهوباً موعوداً بالنجاح . واختتم حديثه قائلا : « مع ذلك ، فالوقت والتمرين المتواصل كفيلان بإزالة هذه الأصوات الناشزة . سنعالجها بقليل من الشحم ، أليس كذلك ياكونراد ؟ »

ثم أحنى الأستاذ الأحدب رأسه احتراماً لستيفن والمنسنيور كانيل وانصرف وهو يحجل على قدميه .

رافق الأب پوتوكى رؤساءه نحو سيارتهم . فسأله ستيفن فى الطريق : « من هو مكس لاسو هذا ؟ »

— « إنها قصة غريبة ، يا صاحب السعادة . إن مكس بائع متجول يهودىّ أتى إلينا يبيع صوراً مقدسة وتماثيل كالتى رأيته يحملها على ظهره فى كيس كبير من المشمّع . لكنه لم يبدأ بائعاً . فى شبابه كان مكس ولداً نابغة ، وقدم حفلات موسيقية فى وارسو وپاريس وبرلين . ولما بلغ الحادية والعشرين أصابه تصلب فى العروق والشرايين حتى تعقدت جميع مفاصله . فتبخر كل شىء : الوظيفة والشهرة والمال . فحضر إلى هذه البلاد سنة ١٩١٥ ولم يكن يتكلم الإنجليزية فانقلب بائعاً متجولا . ويوماً سمع كونراد يخربش على ربابة رخيصة بثلاثة دولارات فتبرّع بتعليمه العزف . ومنذ عشر سنوات لم يكف مكس عن مراقبة تلميذه . والليلة سمعتم النتيجة » .

ثم هزّ الأب پوتوكى رأسه أسفاً وقال : « إن أتعس ناحية من القصة هى أن مكس لاسو يتقدم فى السن . فالتجوال يهدّ قواه . ولن يمضى عليه وقت طويل حتى يقعد عن كل عمل وحركة » .

أحسّ ستيفن فى طريق عودته إلى هارتفيلد مع أمبروز كانيل ، ولا تزال أضواء المهرجان مع الأب پوتوكى وشعبه تشع نوراً فى ذاكرته — أحسّ بسعادة هادئة تجتاح قلبه وعقله . ألم تكن هذه الضحكات والرقصات والموسيقى صدى لعواطف الشكر وعرفان الجميل التى يقبلها الله وتلذّ لواهب جميع الخيرات ؟ وما أسمى هذا التمجيد والمديح الذى عبّر عنه ذلك الفنان الشاب بآلته الرخيصة ! حقا لم يبلغ الكمال ، ولكن كما قال مكس لاسو الأحدب . . . !

قال ستيفن لرفيقه فى السيارة : « يا أمبى ، ما قولك فى أن نؤسس جائزة موسيقية ، وندعوها جائزة القديسة سيسيليا ، ونقدمها للطالب الأكثر استئهالا ؟ »

— « أقول إنّ ذلك بركة من الله ، يا صاحب السعادة » .

وهذه كانت بداية الجائزة المدرسية فى دراسة الموسيقى تمنحها سنوياً أبرشية هارتفيلد الكبرى . عادت الجائزة ثلاث سنوات متتالية لكونراد زالى الذى كان يتمرن سبع ساعات كل يوم على يد مكس لاسو ، الأستاذ الموهوب العاجز . ثم زالت رويداً تلك الأصوات الناشزة (التى لم يكن يسمعها أحد سوى ذلك الأستاذ النقادة) بفضل فن كونراد الراقى . بعد سنة ، بدل صندوق السيجار المدهون بكمنجة ألمانية دفع فيها مئتين وخمسين دولاراً . أما مكس لاسو فما زال يهدر ويزمجر ويئن مردداً :

— « هل يستطيع كرايزلر نفسه العزف على صندوق للتعبئة ؟ لكن ، إن شاء الله ، عاجلا أم آجلا ؟ لا بد للشاب من كمنجة حقيقية » .

على مرّ الأيام شعر ستيفن بمزيد من السعادة : ازدهرت أبرشيته الكبرى ، وتحققت مشاريعه ، وزاد عدد أصدقائه . بحكمة ودراية دعا رجالا شباناً ليحملوا مسؤولية المراكز الهامة فى أمانة السرّ والرعية . فى سنة ١٩٣٥ كان معظم مساعديه ، باستثناء أمبروز كانيل ، دون سن الأربعين . لم يجزع أوين ستاركى بعد الآن من تذمّر واستياء الكهنة الذين يكبرونه سنًّا . فعندما كان يقول لأحد الكهنة المتصعّبين « إن سيادته يريد ذلك » . فقد يكون كما يريده . وجلب مشروع مزرعة الأب پوتوكى عدداً أكبر من الپولنديين الذين نزحوا عن المدن وجاءوا يسكنون الأرياف . برهنت مؤسساته المساهمة فى زراعة التبغ على أن الثمار المادية والروحية يمكن زرعها معًا إذا ما ألقيت الحبوب فى أرض جيدة .

أما أمبروز كانيل ، وقد أصبح الآن أسقفاً مساعداً فقد كان ذلك المنفّذ النشيط وضابط الاتصال القدير الذى ينشده كل رئيس فى الكنيسة . حمل مسؤولياته دون تعسّف . تحت إدارته الشديدة ، عاد الترتيل إلى الكنيسة وعاد الشعب يردّ بالإجماع على الطلبات فى أثناء القداس — أحلام جميلة فاتت على الأب ليونز الأبيضانى . ووضع الأسقف كانيل آراءه الهندسية موضع التنفيذ . ورسم وراقب بناء ثلاث كنائس جديدة حديثة الفن ، تجارى فى تقاطيعها الفنّ الغوطىّ . وفى مجلة « الخدمة الكنسية » شرح نظريته المدهشة بأن الهيكل ، من حيث هو مسرح تتجدّد عليه كل يوم ذكرى وقائع الجلجلة الأليمة ، يجب أن يراه كل واحد من كل جهة فى بيت الله .

كان يحث الكهنة قائلا : « لا تزحموا الكنيسة من الداخل ، وليظهر الهيكل كالجوهرة فى أبسط زينة » .

قابلت بعض الأوساط هذه الأفكار الجريئة بشىء من المعارضة التقليدية أهملها أمبى لعلمه بأن رئيسه يسنده بكل عزم .

بدأ المال يتدفق من جميع أنحاء الأبرشية إلى الخزانة العامة — فقد سار النظام

الجديد على الجميع الآن – مما سمح لستيفن أن يخصص المبالغ اللازمة حيث يقتضى الأمر . خصّص لبيت « الرحمة » مبلغ عشرة آلاف دولار سنويًّا . فلن تضطر بعد الآن الراهبات الجيرالدين إلى التسوّل على أبواب المصانع . ومع أنه أجريت بعض الإصلاحات الضرورية فى ملجإ الأخت مرتا بشارة ، إلا أن المكان لم يزل معرضاً للتيارات الهوائية وتنقصه معدات كثيرة . ومن جهة أخرى كان لابد من إيجاد مبلغ يزيد على ثلثمائة ألف دولار لبناء مستشفى حديث حيث يجد المرضى الميئوس منهم العناية الطبية والتعزية الروحية فى نزاعهم الأخير . وكان ذلك أوّل أهداف رئيس الأساقفة العزيزة عليه .

فى سهول هارتفليد الصناعية ، وفى المدن التى لا تزال تحت وطأة الأزمة المالية ، أبقى ستيفن على المنشئات الصناعية فى الأبرشية ، ليتمكن مئات الصناع من التمرين فيها على الصناعات الأساسية من صبّ وصقل وقطع الأدوات المعدنية . صناعات تشكل أساس النظام والكيان الأمريكى الاقتصادى . ولما بدأ الإنتاج المسلسل ينتعش من جديد ، تخرج هؤلاء الشبان من مدارسهم وانخرطوا للعمل فى المصانع المعدنية شمالى هارتفيلد ، منهم صناع مهرة ومنهم مراقبون ومشرفون ومديرون .

فى أواخر سنة ١٩٣٥ ، استطاع ستيفن أن يحقق رغبته التى أرّقته طويلا فأصدر العدد الأول من « رسالة الملاك » . كان قد رفض ، بناء على مشورة أمبى كانيل ، فرصاً عديدة لشراء مطبعة خاصة ، إذ كان من السهل عليه وأرخص أن يكلف بالطبع شخصاً آخر . وأدرك رئيس الأساقفة صحة هذا الرأى . فجمع بعناية فريقاً صغيراً من الرجال . معظمهم علمانيون – وأسند إليهم شؤون التحرير بإدارة الأب « تيرنس ماليه » ، وهو كاهن شاب ميّال إلى الصحافة . وكانت تعليمات ستيفن إليه فى غاية البساطة :

– « تذكر ، أيها الأب – قال ستيفن – أننا لا نبغى منافسة شركة الصحافة المشتركة أو المجلات التى تصدر فى يورك الجديدة . إنه من المستحيل استيعاب جميع حوادث العالم . أعطِ فقط الكاثوليك الرومانيّين فى هارتفيلد فكرة عامة عما يجرى فى الأبرشية وفى رعية كل منهم . اطرق المواضيع التى تهم الكنيسة . واستشرنى إذا ترددت فى الأمور الدقيقة الرسمية » .

اتبع الأب ماليه تعليمات رئيس أساقفته حرفيًّا . فسدّت الصحيفة ثغراً ، وانتشرت . وبعد سنة كانت « رسالة الملاك » توزّع على عشرين ألف أسرة كاثوليكية واستطاع تيرنس ماليه أن يكتب فى تقريره : « لو وفقنا إلى إشراك خمسة آلاف قارئ آخر ، وجلب عدد أكبر من الإعلانات فقد نتمكن من إعالةِ أنفسنا بأنفسنا » .

* * *

بدأت بعض السحب القاتمة تتجمع فى سماء ستيفن الصافية . فقد ناهز تلك السن التى يرى فيها رؤساءه القدماء ممن لعبوا دوراً حاسماً فى حياته يهبطون فى قواهم أو يرحلون إلى العالم الآخر .

توفى دولار بل موناجان وترك كرسيًّا شاغراً فى مجلس المدراء الذين عنوا بشباب ستيفن . كان لورنس جلينون مريضاً أيضاً ، ولا يزال ضغط دمه المتصاعد يسبب له آلاماً فى الرأس ودوخة واسوداداً كاملا فى بعض الأحيان . وعندما بلغ الكردينال السابعة والسبعين وسأله ستيفن مرّة : « كيف حالكم ، يا صاحب النيافة ؟ » ، أجابه جلينون بهذه الكلمات السوداوية : « دائماً على أحسن ما يرام — لمدة عشر دقائق فقط فى اليوم » .

أما كورنى ديجان فقد تكونت على عينيه قرنية لا يرجى شفاؤها بعملية جراحية وبات مهدداً بالعمى . فمكث فى بيته الفاخر الذى بناه على أعالى ضفاف نهر شارلس لا يقوى على لعب دوره المفضل الذى يمثل فيه « إله الحركة » . وفى إحدى زيارات ستيفن له ، حاول كورنى بصعوبة الرضوخ لمصيره باستسلامٍ مسيحىّ . قال لستيفن :

— « يقولون لى ، يا ستيف ، إن الرجل التائه على جبل من الثلج يحلم غالباً بالبحار الاستوائية . فليكن . والآن إذ أرى الظلام يخيم علىّ أعود بالذكرى إلى ما كنت أتمتع به من قدرة على النظر بعينى المجرّدة . هل تتصوّر أنى عندما كنت بناء حديثاً ، كنت أستطيع معرفة وزن الطوبة بمجرد النظر إليها ؟ »

ثم جرّه الحاضر الأليم إلى الحقيقة فقال : « أما اليوم فلا أستطيع التمييز بين طوبة وجناح أوزة غبراء — ورفرف بعينيه السائلتين نحو زائره وقال : — إلا إذا وقعت إحداهما على رأسى » .

فقال ستيفن : « إن الشيء الوحيد الذى سيهبط عليك ، يا كورنى ، هو سلام الله ، ألطف وأرحم من ريش الطيور . استرح وانعم بمغيب حياة ملأتها بالصالحات ، ودع سلام الله يخيم عليك فى سكينة وهدوء » .

إلا أن سحابة وجومه لم تنقشع فقال : « قبلما أتذوّق تلك الرحلة اللطيفة ، يا ستيف ، يجب علىّ أن أنبش قبر جثّة طال عليها الزمن — وهى ضميرى » .

وطارت الذكرى بفارس القديس سلفستر إلى إحدى جولاته المشهورة حول حانة أوهوليهان . ثم قال :

— « قد لا تتصوّر ذلك ، يا ستيف ، لكن المقاول معرّض لتجارب مخيفة . مراراً قصرّت زاوية هنا أو هناك ، وتلاعبت ببعض التفاصيل فى حين انشغال المهندس عنى ، ومزجت قفة من الرمل حيث كان يجب أن أضع أسمنتا ، ووضعت طنّاً أو اثنين من الكسر على اعتبار أنها حجارة صخرية » .

حاول ستيفن تعزية صديقة القديم دون التساهل معه على ما أتى من أفعال . فقال : « كفّ عن تأنيب نفسك يا كورنى . فهل سقطت إحدى عماراتك ؟ »

— « كلا ، يا ستيف ، لم تكن باطلة بهذا القدر حتّى تسقط . لكنى كنت أختلس أحياناً ، وهذه الفكرة تعاودنى وتقبض قلبى » .

لم يفت ستيفن واجبه الكهنوتى فقال : « وماذا تريد أن تفعل بهذا الشأن ؟ إن التعويض يعيد دائماً إلى النفس راحتها » .

— « هذا ما كنت أتوقع سماعه ، يا ستيف ، لكن حيث إنى لم أحتفظ قط بمذكرات لاختلاساتى ، فلا أعلم إلى من أعوّض الأسمنت ، أو الزلط أو المال » .

ثم رفع كورنى عينيه الكليلتين فى أمل ورجاء وقال : « كنت أفكر ، يا صاحب السعادة ، أننى ربما استطعت جمع هذه الاختلاسات المادية فى إقامة بناء نبيل فى مكان ما . وفكرى يدور حول مستشفى أو مؤسسة للمسنين والعجزة . ألا تعلم مكاناً يسدّ فيه هذا البناء حاجة ؟ »

— « نعم أعلم ، يا كورنى » .

تراقصت فى مخيلة رئيس الأساقفة صور مختلفة لما سيكون عليه بيت « الرحمة »

الجديد . ولكى يريح ضمير صديقه ، رسم له ستيفن صورة حزينة للملجإ الحيرالدين للأشخاص الميئوس من شفائهم ، ثم ختم تصويره ببعض الألوان البيانية وقال : « إن المكان ، ياكورنى ، أكبر قليلا من الزريبة . ليتك تسمع الريح تصفر بين مصاريع الأبواب . ولو سقط عليه ثلج فوق المتوسط لاقتلع السقف الخشبى تحت ثقله » .

هذه هى الفرصة ! فى طرفة عين قد يستطيع كورنى تنقية ضميره ويعود إلى إصلاحاته المحبوبة . وفى الحقيقة اقتلعت الريح والثلوج قراره . فنهض بعد اعترافه ، باسطاً كلتا يديه وقال لستيفن :

— « أرسل مهندسك إلى هذا البناء المتداعى حالا دون إبطاء ، يا ستيفن . ومُرْهُ بأن يصنف كل شيء على أكمل وجه . أساسات من الجرانيت ، والبناء كله بالفولاذ وحجر النار ، والسقف من نحاس ، والبلاط من رخام . فما من شيءٍ يبدو غالى الثمن بالنسبة لتلك النفوس المسكينة التى تعانى نزاعها الأخير . سأتصل بمحامىّ ، بعد ظهر اليوم ، لوضع جميع التفاصيل » .

لم يتح لكورنى ديجان رؤية بيت الرحمة الجديد الجميل الذى وهبه لأبرشية هارتفيلد ، لكنه كان حاضراً ساعة وضع الحجر الأساسى ، قطعة جرانيت من فيرمونت . ومرّت يده الخشنة على قطعة الصخر يتحسس بها عروق الصوان ، وتحقق من وضع الصقالات الضخمة ، وفرك بأصابعه الأسمنت المتدفق من الخلاط العظيم .

ثم همس فى أذن ستيفن : « لا اختلاس هنا ، يا ستيفن » . ولو سقطت ريشة أوزة غبراء على حقل ، وقت المغيب ، فلن يكون سقوطها أحن وألطف من وقع كلمات كورنى ديجان الأخيرة ، التى حقق بها تعويضه .

* * *

دن فرمويل يفقد قواه رويداً ، ويستعين بعصا سوداء متعقّدة تجعل منه آلة مثلثة الأرجل تتنقل الهوينا . كان يقضى صباحيّاته ، كما يقول ، « ليستعيد نشاطه » ، ثم بعد الغداء الخفيف الذى تهيئه له سيليا ينحدر السائق المتقاعد حجلا على مثلثاته إلى المستودعات ليدخن غليونه ويقرض الحديث مع برتولوميو (باتى)

جلين المتقاعد مثله . فى الأيام المشمسة يجلس الاثنان على دكة خارج كشك المراقبة ذى الزوايا الثمانى الذى كان يوماً مقر باتى . ترك جلين عمل المراقبة بسبب كبر سنه وانقلب قارئاً ومفسراً للتوراة . كانت له سهولة فائقة ومقدرة نادرة على تبسيط الحقائق السامية فى سفر الجامعة وسفر أشعيا النبي ، وقدرة فى الوقت نفسه على الاستماع بأذن مرهفة إلى المذياع المتنقل وهو يصف مباراة « الجوارب الحمر » .

كان يقول لدن وهو يشير بإصبعه الغليظة إلى آية من الآيات : « أنصت ، يا دن ، إلى عظمة هذه الآية : " رأيت كل شيء تحت الشمس ، فإذا كل شيء باطل وسأم للروح " — هل نطق إنسان قط بمثل هذه الحكمة ؟ »

فى أثناء شرح باتى ، سجل « اليانكى » هدفاً . فقال باتى : « هل هذا سأم حقاً ؟ ماذا يفهم رجال العهد القديم فى اللعب ؟ لو كان " تريس سبيكر " فى وسط الملعب ، لسجّل لمسة على اللاعب أمام المرمى » .

ثم عندما ينتهى اللعب ، أو عندما يجف سيل حكمة باتى ، يعود دن إلى منزله . ويوماً بعد يوم يشعر دن بصعوبة الطريق الصاعد إلى شارع مرج الغاب ، فيقف عند أوّل صنبور للحريق على الرصيف يستعيد أنفاسه ، ويقف ثانية أمام منزل « بات كريدون » حيث يلعب أولاده (أو ربما أحفاده) لعبة المربّعات ثم يتحامل دن على عصاه ويتقدم عشرين خطوة أخرى . وإذ يصل إلى منتصف الطريق الصاعد ، يلتفت خلفه ويسرّح أفكاره فى أيام حياته الماضية . ثم يبلغ قمة التل خطوة خطوة ، ويدخل المنزل رقم ٤٧ ، الذى لا يزال يشبه صندوقاً كبيراً قاتماً شنيع المنظر — لكن لا دَيْنَ عليه ؛ شكراً لأولاده وبناته ! . . .

فى الثانى من يونيه ١٩٣٥ ، تسلق دن التلّ متثاقلا على غير عادته ، وسرّح طرفه طويلا فى الوادى وراءه ودخل بيته من الباب الخلفى . حيا امرأته بكلمة عذبة حتى لا يقلقها ثم دخل القاعة وتمدّد على الديوان ليستريح قليلا .

وبعد لحظات صرخ فى شهقة غريبة : « سيليا ، سيليا » ! وبعد خمس دقائق كان قد فارق الحياة .

قصّت سيليا فرمويل على ابنها ستيفن كيف توفى والده . قالت :

— « أتى إلى البيت من المستودع حيث كان أحياناً يدخن غليونه ويستمع إلى

باتى جلين يشرح له تكوين العالم منذ الابتداء . ودخل المطبخ وقال لى : ظننت باتى قد حلت عليه موهبة الألسنة بعد ظهر اليوم . وفى لحظة قبلما يسجل جاريج هدفاً آخر على الاثنين الأولين ، كان باتى قد قطع أوراق سفر المزامير وبعثرها جميعاً على أرض المستودع — لكنه عندما انتهى اللعب التقطها كلها وجمعها كما تخيطين قصاصات القماش فى أحد مفارشك، يا سيليا . فسألته : هل اشتبكت معه فى نقاش ، يا دن ؟ — فأجاب : كلا ، كانت الكلمات تتدفق من الرجل كالسيل ، فتركته فى مجراه . . . وبعد ذلك ، يا عزيزى يا ابنى ، توجّه والدك نحو القاعة ليخلع حذاءه ويستريح قليلا ريثما أحضر له عشاءه . كنت أرفع حلّة الفاصوليا عن الموقد وإذا بى أسمعه يدعونى ، سيليا ، سيليا ، فى صوت مخنوق . فهرعت فوجدته ممدداً على الديوان ، يجاهد التنفس بصعوبة ، وقبضته معقودة على قميصه ، وعينه تلمع كالزجاج. فقلت له : ماذا بك ، يا دن ؟ هل أدعو الطبيب هاردجان ؟ فقال: لا ، فإلى أن يحضر الطبيب ، يكون كل شيء قد انتهى، اركعى بالقرب منى ، يا نجمتى » .

دفنت سيليا وجهها بين ذراعى ستيفن وقالت : « هو الاسم الذى اعتاد أن يدعونى به عندما التقينا للمرة الأولى ، يا بنىّ — إنه اسم نجمة بديعة . ثم قال لى : اركعى بجانبى يا نجمتى . وضعى خــدك على خدى ليسهل علىّ الأمر وتخف وطأته عنى ، فإنى أشعر بأنى سأخلف الوعد الذى قطعته معك ، يا حبيبتى . فركعت بجانبه يا ابنى ، وأنا عالمة بوعده ، الوعد الوحيد الذى أخلفه مدة حياته كلها . ثم صرخت أقول له باكية : يا فارسى الشجاع ، دعنى أذهب قبلك ، لا تتركنى وحدى ، كما وعدتنى . . . »

ثم جففت سيليا دموعها وقالت : « لكنه ذهب من دونى ، وهو يتمتم بكلمات غريبة لم أفهمها » .

— « وماذا قال يا أماه ؟ »

— « لا أذكر تماماً كلماته . ربما تكلم عن "هجعة من الليل" هل تعلم ماذا قال يا بنى ؟ »

— « نعم . هى آية من المزمور التاسع والثمانين . وقد جاء فيها : إن ألف سنة فى عينيك (يارب) كيوم أمس العابر وكهجعة من الليل » .

وقال ستيفن مخاطباً نفسه : « ليمنحنى الله أن أموت ، وشفتاى ترددان أمثال هذه الحكم السامية ! »

أقام ستيفن قداساً وجنازاً عن راحة نفس أبيه ، يساعده فى ذلك الأب بولس آيرتون . وألقى التأبين سيادة المطران ريتشارد كلاراهان ، أسقف بوسطن المساعد . فصور دونيس فرمويل بالمثال السامى للزوج والأب الكاثوليكى . وأشاد بقوة استقامته ومتانة خلقه التى تركت آثارها فى حياة أبنائه .

كان الخطاب عظيماً ومؤثراً ، أهلا بالرجل الراحل . لكن ، بين تلافيف البديع والبيان ، كان يطرق أذن ستيفن صوت رجل وامرأة يتبادلان الهمسات قبل مجيئه إلى العالم ، ويقول أحدهما للآخر :

— « يا نجمتى ، يا قائدى ، أضيئى لى دوماً طريقى » .

— « يا فارسى ، يا منعشى ، قف دائماً بالقرب منى » .

كيوم أمس العابر ، وكهجعة من الليل ! . . .

* * *

اشتهرت حفلات العشاء فى دار رئيس الأساقفة فرمويل . كانت مائدته تجمع بين المقربين والأعيان من الرجال فقط . المحامون والفنانون والمؤلفون والأطباء والجراحون والقضاة والناشرون والسياسيون والماليون ، هؤلاء جميعاً قد يأتون ليشيدوا معجبين بالطيور السمان ومتغامزين على زجاجة معتقة من النبيذ كساها الغبار وخيوط العنكبوت .

أسرّ مرّة « باتس فورنالد » عضو مجلس الشيوخ إلى امرأته قائلا : « هذا العشاء هو من الصنف الذى لا تشعرين بعده بتخمة » . — واستطاع « أليكس سورتيس » القصصىّ والمحاضر الإنجليزى ، أن يكتب فى مذكراته : « جلست الليلة إلى العشاء مع رئيس الأساقفة فرمويل . إن للرجل ذوقاً رفيعاً فى اختيار الأنبذة . بعد فرخ البط اللذيذ قدّم لنا طبقاً شهيًّا مزيناً من " ليالى القديس جرجس " . وبعد الفاكهة تناولنا قدحا من البورتو المفتخر . ودار الحديث متنوعاً شيقاً فى

أثناء العشاء وبعده . إنه بلباقته يجعل الشخص منا يفيض فى كلامه دون الانزلاق إلى المجون » .

كان ستيفن يرئس مائدته ، كالأول بين السواء ، ويستمتع بأحلى أوقات حياته فى مجالسة رجال المجتمع الراقى . بدأ قوامه يكتسب سمنة ، إلا أن هذا الوزن الإضافى ساعده على حماية أعصابه من وطأة أعماله الرسمية الكثيرة وآلامه النفسية . وساعده إدراكه الواسع لمهمته كأسقف كاثوليكى على الارتياح إلى صداقة هؤلاء الرجال الذين يرئسون المجتمع ويوجهون أفكاره ويتقبلون الانتقاد أو المديح بروح عالية نزيهة. كانوا يستمعون إلى آرائه ويلتمسون قرباه ويقدرون حكمه فى أمور كثيرة لا تمتّ إلى إدارة أبرشيته فى شيء . قضى ستيفن فى هارتفيلد سبع سنين جعلت منه عاملا جوهريًّا فى حياة كل فرد من أفراد الشعب يستريحون إليه ويسيرون بهديه .

ذات مساء — وكان يوم خميس — من أكتوبر ١٩٣٥ ، كان القاضى « سيث فيكنز » ، وهو من ألمع رجال القانون فى هارتفيلد ، يتذوق كأساً من البراندى على مائدة ستيفن ، وينثر القصص والفكاهات وهو ينفض رماد سيجاره . وفى تلافيف حديثه قال للحاضرين :

— « لقد نوقشت اليوم فى المحكمة حالة غريبة . إنها شكوى من محاولة اختلاس بالغش من شركة كولومبيا للتأمين . المدعى عليه صانع ربابة مجهول . ويظهر أن صانع الربابة هذا أمن على آلة بمبلغ خمسة وعشرين ألف دولار وادعى أنها قطعة فنية أثرية من إيطاليا . وقد امتدح الخبراء الآلة ودفع هو القسط الأول وسلم إليه صك التأمين » .

استنشق القاضى فيكنز رائحة البراندى المعطرة وقال : « لم يمض أسبوع على ذلك ، حتى وقع حادث » .

فقال هارمون بول ، مدير مصرف هارتفيلد المساهم ، الذى كانت له فراسة عجيبة فى الاستدلال على الأشقياء أمثال هذا الصانع : « وقد هرب العصفور من القفص ، أليس هذا ما حدث ، أيها القاضى » .

أجاب القاضى فيكنز : « لم يتضح الأمر بعد ، إن المدعى عليه لم يكن

مشتركاً فعلا فى الحادث . يظهر أنه أقرض الكمنجة إلى " موسيل پولا " العازف المشهور ، على أمل أن يشتريها پولا منه . وكان پولا يحمل معه الآلة فى طريقه إلى حفلة موسيقية حين صدمته سيارة وأوقعته على الأرض . فأصابته كدمات طفيفة ، لكن الكمنجة تهشمت » .

واستطرد القاضى فيكنز لكلامه قائلا : « أقول حقًّا ، أيها السادة ، لقد تهشمت » .

ثم دار الحديث على طريقة تحليل القطع الخشبية المتكسرة . فقد ظهر من الفحص بالمجهر أن ظهر الكمنجة من خشب الإسفندان الأمريكى وليس من إيطاليا — واتضح أن عمر الإسفندان عشرون سنة » .

وسأل ستيفن : « وماذا يقول صانع الكمنجة ؟ »

— « إن دفاعه يثير الاهتمام . إنه يعترف بأن ظهر الكمنجة مصنوع من خشب الإسفندان الأمريكى . ويقول إنه حفره بيديه وألصقه على الكمنجة الأصلية » .

— « لا شك أنه رجل ذو مهارة نادرة » .

— « لا شك فى ذلك ، يا صاحب السعادة . لكن ليس هذا كل ما فى الأمر . فالمسألة المعروضة على المحلفين هى هذه : هل من المعقول اعتبار كمنجة عمرها ثلثمائة سنة بظهر خشب أمريكى ، قطعة فنية أثرية إيطالية ؟ »

فزمجر هارمون پول قائلا : « بالطبع لا . إن الرجل مزيف كبير » .

فأجاب ستيفن محاولا التوفيق بين التشريع الأدبى والمدنى وقال : « حسب تعليم اللاهوت الأدبى لا وجود للخطيئة المميتة إلا بوجود النية . وتتكوّن النية من المعرفة الكافية والقبول التام فى الإرادة . والسؤال الذى أودّ طرحه هو هذا : هل أراد الرجل الغش والتزييف ؟ »

— « هذه النقطة مهمة جدًّا ، يا صاحب السعادة . إن محامى الدفاع يعترف بأن موكله لم يطلع شركة التأمين على مدى الإصلاحات التى أجراها على الكمنجة . ومن جهة أخرى ، ربما لم يتنبه خبراء الشركة بالقدر الكافى إلى قيمة الكمنجة . على كل ، هذه المسألة تخص المحلفين » .

فقال مدير المصرف پول ، مطبقاً اختبار « مورجان » على مثل هذه الحالات :

« هل صانع الربابة هذا ذو خلق حميد ؟ ما هى حياته الماضية ؟ »

أجاب القاضى فيكنز : « لا أحد يعرف عنه إلا القليل ؛ إنه يعمل فى دكان صغير كالجحر فى يورك الجديدة ويقوم بإصلاح الآلات الموسيقية ليكسب عيشه . إنه من نوع الرجل الكندىّ الفرنسى الأسمر . وأصله من ماساشوستس » .

سأل ستيفن : « وما اسمه ؟ »

— « منتون على ما أظن » .

— « روفائيل منتون ؟ »

— « بالضبط . هل تعرف الرجل ؟ »

فاضطرب رئيس الأساقفة بشكل غريب وقال : « عرفته صبيًّا فى رعيتى الأولى . كان فى نحو السادسة عشرة . ذكىّ وموهوب . كان طموحه الوحيد أن يصبح صانع ربابة » .

— « حقًّا لقد أصبح صانع ربابة وما أمهره ! »

كانت نبرة القاضى تفيد بأن قد يمكن أن يكون روفائيل منتون لصًّا أيضاً .

تجاهل ستيفن هذا اللمز الخفى وقال : « هل أفيد القضية فى شىء إن وقفت شاهداً على سلوك الرجل ؟ » .

أشعل القاضى فيكنز سيجاراً آخر وقال : « لست محامى هذا الغلام ، ولو كان موكلى فقد أعتبر ذلك ضربة من الحظ السعيد أن تقفوا سعادتكم شاهداً فى مصلحة عميلى » .

فى الصباح التالى ، جلس ريف منتون ومحاميه واجمين فى انتظار افتتاح الجلسة ، وإذا بستيفن يدخل القاعة ليدلى بشهادته . فكانت لحظة تعارف وفرح ظهر أثرها العميق على ملامح روفائيل الذى أمسك بيد ستيفن وسأله : « ألا تورط نفسك بالشهادة لى ؟ »

أجاب ستيفن : « ولماذا أورّط نفسى ؟ إنى أعرف أمك وأباك ، وأعرف أختك . ولا بد للمحكمة من التعرّف على أخلاق أسرة منتون » .

ثم جلس ستيفن فى قاعة مزدحمة ، واستمع إلى ويلهلم فوند يدلى بشهادة الخبير . قال التاجر : « نعم ، إن الكمنجة هى من نوع " الكريمونا " الأصلى من

الجيل السابع عشر ، لكنها كانت فى حالة سيئة » .

فسأله المدعى العام ، يستوضحه أمراً : « هل تعتقد يا سيد فوند ، أنهم يستحسنون فى مهنتكم عمل إصلاحات أساسية من هذا النوع — أى إلصاق ظهر بكامله على كمنجة — ثم يسمون ذلك قطعة فنية أثرية رائعة ؟ »

أجاب الهير فوند : « ولم لا ؟ ! إنه لعمل جليل ، إذا وجد من له المهارة للقيام به . بالطبع ، لا يستطيع نجار إخراج مثل هذه الروائع من بين طيات أكمامه » .

وجاء دور موسيل پولا ليدلى بشهادته . قال العازف الفنان : « كان صوت الكمنجة فريداً فى نقاوته وقوّته . وكنت أنوى شراءها من المدعى عليه عندما وقع الحادث » .

ولما تقدم رئيس أساقفة هارتفيلد للشهادة ، أدلى بأنه عرف روفائيل منتون مدة خمس عشرة سنة ، وأنه من سلالة أسرة طيبة ، وأن أخته رئيسة دير الچيرالدين فى هارتفليد . ثم التفت رئيس الأساقفة نحو القاضى فيكنز وقال : « هل يمكننى أن أذكر أمام المحكمة محادثة جرت بينى وبين المدعى عليه بخصوص صنع الكمنجات ؟ » .

لم يعارض فى ذلك المدعى العام احتراماً لمركز الشاهد الجليل . وقررت المحكمة سماع هذه المحادثة .

عاد ستيفن بالذكرى عبر السنين الماضية ، ووجد نفسه يدخل كوخاً حقيراً مغطى بأوراق القطران مستنداً إلى سفح التل الصخرى فى السنديان . ورأى على خوان التجار المزدحم بالأخشاب والأدوات ، صبيًّا يعلو وجهه الجدّ يتصفح كتاباً مصوّراً . واليوم هذا الصبىّ نفسه ، وقد غدا شابًّا وسيماً يعصر وجهه اليأس ، ينصت إلى رئيس الأساقفة يسرد ظروف الأيام الغابرة .

قال ستيفن : « عندما ناهز روفائيل منتون السادسة عشرة من عمره أعطيته كتاباً عنوانه ” فن صنع الربابة عند الطليان “ تملأه رسومات لأروع الكمنجات الإيطالية . وكلما أكب الضبىّ على درس الكتاب ، ازداد يأسه وشعر بالقنوط . فى ذلك الوقت ، وجه إلىّ الصبىّ سؤالا لن أنساه أبداً » .

توقف ستيفن برهة يستعيد فى ذاكرته حقيقة الكلمات وقيمتها . قال :

ــ « سألنى الصبىّ وهو يشير إلى الرسومات : هل تظنّ ، يا أبى ، أنه من المستطاع صنع آلات جميلة كهذه مرة أخرى ؟ »

ــ « فأجبته : دون شك ، يا ريف ، إن الصناع الأمريكيين ، بتصنيعهم المواد الأولية فى العالم الجديد على رسومات العالم القديم ، سينتجون كمنجات ــ وأشياء أخرَ كثيرة ــ أجمل من التى صنعت حتى الآن » .

ثم اختتم رئيس الأساقفة شهادته قائلا : « لا أريد التدخل فى التعقيب على قوانين التأمين أو على فن صنع الكمنجة . إنما أريد أن أعلن أمام المحكمة عن فرحى العظيم بأن روفائيل منتون ، الذى لم تكن له سوى هذه الأمنية وفى ظروف صعبة شاقة ، قد جاهد بكل قواه ليحقق تكهنى » .

سارع المدعى العام إلى التشاور مع وكيل شركة التأمين . فحدثت إيماءات من الرؤوس ، وطلبوا إلى القاضى فيكنتز أن يأذن لهم بتسوية خلافاتهم مع المدعى عليه .

فقال لهم القاضى : « تفضّلوا إلى مكتبى » . ــ ثم أومأ إلى المدعى عليه : « وأنت أيضاً . فإنى أريد أن يخرج الجميع راضين بالقرار النهائى فى هذه القضية » .

ماذا يهم روفائيل منتون الآن من القضية. واجب واحد يدعوه، فقطع قاعة المحكمة نحو رئيس الأساقفة وقبل يده باحترام وشكر قائلا : « كيف أستطيع شكرك ، يا صاحب السعادة ؟ »

ــ « بأن تأتى وترانى مراراً ، يا ريف. يجب ألا يفقد الواحد منا أثر الآخر » . ثم وضع ستيفن يده على رأس الشاب وباركه قائلا : « والآن اذهب إلى هذا الاجتماع ودافع عن كل سنت تستحقه كمنجتك الكريمونا » .

* * *

شعر ستيفن وهو يغادر قاعة المحكمة بأن أحداً يجرّه من ذيل معطفه . فالتفت فرأى الأستاذ المقوس المتصلب الأوصال يهتزّ كله فرحاً . وإذا بمكس لاسو يسحب رئيس الأساقفة من يده وينفرد به على درج دار المحكمة ويسأله فجأة فى حنق : « لماذا لم تخبرنى بأن صانع الكمنجة هو صديق لك ؟ »

— « لقد فقدت أثره منذ بضع سنين ، يا مكس . وكم سررت للقياه ثانية ؛ وأستنتج مما شهد به موسيل پولا والهير فوند أنه صانع ماهر فريد » .

فقال مكس لاسو : « ليكن ماهراً نصف هذا القدر ، فإنه لا يزال الرجل الذى بعثت به العناية الإلهية ليصنع كمنجة لكونراد » .

قال ستيفن : « لم تراودنى هذه الفكرة قط » .

— « لم تراودك الفكرة ، لأنك لا تسمع كل يوم كونراد يحزّ قلبه — وقلبى أيضاً — على هذه الربابة اللعينة التى تشبه علبة الجبن » .

ثم تطرّق مكس إلى مساومة عملية . قال : « إن صنع كمنجة كريمونا جديرة بفن كونراد ستكلفنا آلافاً من الدولارات . وحيث إن صانع الربابة هو الآن مدين لك بالشكر والعرفان فى كل جارحة من كيانه ، فلِمَ لا تسأله أن يصنع كمنجة لربيبنا ؟ »

— « لا أستطيع استغلاله بهذه الطريقة ، يا مكس » .

— « استغلاله ؟ — أجاب مكس فى شهقة ، وقد عاودته روح المساومة الجارية فى دمه ، وغدا صوته يقطر نعومة : — المعذرة ، ياسيادة رئيس الأساقفة ، إنما هذه هى الفرصة التى يتطلع إليها صديقك الفنان . أرجوك ، اسعَ فى دعوتهما إلى حفلة صغيرة ، ليتسنى له أن يسمع كونراد وهو يلعب . ألا تتكرم بذلك ، يا صاحب العطف ؟ »

فقال ستيفن واعداً : « نعم ، سأفعل » .

بعد أيام قليلة ، دعا رئيس الأساقفة نخبة من الأصدقاء إلى حفلة موسيقية عائلية فى داره . كان بين المدعوّين روفائيل منتون ، وقد زاد دخله الآن عشرة آلاف دولار نتيجة اتفاق بينه وبين شركة كولومبيا للتأمين خارج قاعة المحكمة ، ولم تساوره فكرة ألبتة عن مقدرة ذلك الفتى الموسيقى الذى كان فى تلك اللحظة يضبط أوتار ربابته الألمانية الرخيصة .

ثم نهض كونراد زالى ، وقد بلغ الآن الثامنة عشرة ، بشعر كالذهب وخدود كالورد ، واقترب وحده من البيانو ليعزف مقطوعة چوهان سيباستيان باخ « الشاكون » على الكمان المنفرد . فصفق له ريف فى غير حماسة ، وعيناه مثبتتان فى ستيفن

أكثر مما فى الفنان ضيف هذه السهرة .

استهلّ كونراد المقاطع الأولى من لحن استعراضىّ قديم . وفى سلسلة من الائتلافات الرخيمة زحف قوسه فى ثبات وعزم على الأوتار متعطشاً فى أنفة إلى التمثل بنقاوة باخ فى أعماق نبعها المظلل الصافى . واصلت الأنغام سيرها بين هذه المنعطفات العميقة الباردة وخلقت من تجمعها وانفرادها قصراً بهيجاً يزخر بالأبراج والمقامات الباهرة الساحرة . كان كونراد فى هذه اللحظة يسعى بأنامله الناعمة القوية إلى بناء معبد سرّى تأتلف فيه النغمات الحزينة الرخيمة واللحيظات المزدوجة الصامتة . ثم ناجت نفسه الأعالى ، فتركت الأرض على أجنحة رقيقة من الحرير ، وصعدت أدراج الأوتار فى هالة تموج بالنغم السماوى ، وما زالت حتى حنتّ ثانية إلى مقرّها فعاد بها كونراد جذلا إلى حيث بدأ . ثم تهادت أنامله فى نشوة طروب واستمرّت تغمز الأوتار فى انجذاب روحىّ . فإذا بالأنغام قد تفتقت فى سحاب شذىّ من قارورة طيب زاهية الألوان ، وتصاعدت معها رائحة بخور لذيذ هادئ أخاذ بالشعور والألباب . ثم عصف اللحن بنبرات رنانة تسلق بها أدراجاً واسعة حتى استقرّ فى العلا على هيكل محجوب بالوقار حيث اندمج مع الأضواء الخافتة الساكنة . وما عتم اللحن أن عاد أدراجه إلى نغماته المألوفة متهادياً فى ثياب معطرة مقدسة .

لم يسمع أحد قط من بين هذا الحفل الصغير ، لا روفائيل ولا أمبروز كانيل ، موسيقى أروع من هذه .

أما ستيفن وقد أخذ بفن كونراد وطلاوته ، فكان يحدّق فى رسم القديسة سيسيليا المختبئ بين ظلال فرقة موسيقية سماوية ، وخيل إليه أن شفيعة الموسيقى وحاميتها كانت تنصت باهتمام وعلى محياها ابتسامة رضى .

أما رچينا بيرن ، الفتاة ذات الأربعة عشر ربيعاً ، الجالسة بالقرب من خالها ، فقد كانت تشبه فى قوامها الناعم وثوبها المخطط تلك الكمنجة الخفيفة التى يداعبها كونراد بقوسه .

أما أمبروز كانيل فقد نسى حيناً براعة الفنان الشاب لينخطف بالروح فى أعماق الموسيقى الساحرة . ما أبعد كونراد الآن عن لاعبى الربابة الغجر الذين

يعزفون على وتر واحد وينقرون عليه بأصابعهم . بالعكس كان عزفه يسمو بالشعور إلى أعلى درجات الحساسية الموسيقية الدقيقة التى تستمد بهاءها وقوتها من جوهر الحياة .

التفت ستيفن نحو مكس لاسو ، ذلك البائع المتجول الموهوب النابغة ، الذى ألبس تلميذه هذه الثقة بالذات والمهارة النادرة فخلق منه إنساناً فريداً سمت به الروح الموسيقية نحو أرجاء الفن وسعادته الخالدة ، فرآه منطوياً على كرسيه يتنازعه الألم والفخر من إخراج تلميذه الذى سلب لب الجميع ، وسمعه يتمتم بكلمات حزينة ويقول : « لن أستطيع بعد اليوم تعليمه شيئاً أكثر من ذلك ، فيجب عليه متابعة تعليمه مع آخر أفضل منى . لكن قبل كل شىء يجب علىّ أن أحصل له على كمنجة حقيقية » .

نحو الجزء الأخير من « الشاكون » انكمش كونراد بروحه فى تأمل خافت وسارت قوسه على الأوتار سيراً بطيئاً رهيباً جليلا فى هالة من النسك والتجرّد . ثم كمن يلوم نفسه على هذا المفرّ السهل المنال ، تطرّق بخطى ثابتة واسعة حثيثة نحو أرجاء فسيحة من عالم الحقيقة والخلود ، حتى استقر به المطاف على الدوكاه فى رنة قوية حيث ختم رحلته كما كان قد بدأها ، مهيباً مجيداً وحيداً .

بعد ذلك سمع صراخ وتصفيق حاد وأصوات تقول : « مرحى ، مرحى! » — « زدنا ، زدنا » — « أعد يا كونراد » .

نهض كونراد مرة أخرى ، وفى هذه المرة رافقته رچينا بيرن على البيان ، ولعبا معاً المقطع الأخير من سوناتا لشيزار فرانك على ثنائى الكمان والبيان .

هبطت على اللاعبين الشابين هالة من السكينة والهدوء . فعزفت رچينا على البيان لحنا رصيناً يكاد يكون استسلاماً ، وردّده كونراد على الكمنجة . لقد وجدا طريقهما إلى سلام الروح ، فشرعا ينسجان بآلتيهما حول مذهبه أنغاماً رائعة . وما زالا يعالجانه حتى سمت بهما الروح نحو العلا فى تجاوب من سؤال وردّ بين الآلتين طار بالنفوس نحو السماء . ولما بلغا غايتهما ، التقيا فى نبرة واحدة قوية ظافرة ختمت مناجاتهما السماوية التى سحرت لب المستمعين الذاهلين .

لم يكن فى الإمكان طلب مزيد من الإبداع . لم يبق سوى شىء واحد . وهذا ما فعله مكس لاسو .

فى اللحظة المناسبة ، تقدم البائع المتجوّل العجوز من كونراد ، ووقف بين رئيس الأساقفة وروفائيل منتون ، ونقر بسبابته المعكوفة على الربابة ، لاوياً شفته فى تبرّم مزدرياً شكلها البشع وقال : « هل يستطيع " هيفتز " نفسه خلق موسيقى من رمامة كهذه ؟ »

فاندفع فى الفخ ريف منتون وقال فى نشوة وحماسة : « اسمحوا لى أن أصنع كمنجة لكونراد . سأرسم شكلها على مثال " ستراديفاريوس " ، فى أنتى صورها وتقاطيعها » . ثم التفت نحو ستيفن وقال : « باعتمادنا على الرسومات الإيطالية ، وباستعمالنا خشب الصنوبر والإسفندان الأمريكى ، ربما توصّلنا إلى صنع كمنجة تفضل ما قد صنعته يد بشر حتى الآن » .

* * *

الفصل الرابع

فى أواخر مارس ١٩٣٧ ، جلس رئيس وزراء إيطاليا فى قاعة « خريطة العالم » يقرأ مستنداً يناقض ظروفه السياسية الحاضرة . والمسند رسالة بابوية عالمية ، عنوانها « مع اهتمامنا البالغ » ، موجهة إلى الشعب الألمانى ، تفنّد بكلام لاذع مزاعم أدولف هتلر ، صديق رئيس الوزراء الحميم . كتب الرسالة رجل مريض يقترب من نهايته ، كان يوماً من أمهر متسلقى جبال الألپ ، اسمه آشيل راتى ، ومعروف عند الجميع باسم پيوس الحادى عشر . والرسالة شديدة اللهجة فى كلماتها وجملها ومقاطعها كلها ، حتى إنها نالت من حساسية الدوتشى الذى كان يفيض رقة وعذوبة ، خصوصاً فى هذه الأيام ، التى يترقب فيها تشريف الهير هتلر لروما فى إحدى زياراته النادرة لها .

خيل إلى موسولينى أنه يرى الفوهرر يؤنبه على تخاذله فى الصمود أمام الڤاتيكان ، فى صوته الحاد الجهورى ، ويقول فى تهكم : « إننا فى برلين ، نفضلكم فى معالجة الأمور » .

نعم ، هى الحقيقة ، فالفوهرر عالج الأمور بطريقة أفضل ، وأفضل كثيراً . ففى أربع سنوات قصيرة أعاد تسليح بلاده ، وأعاد تنظيم الجيش فى منطقة الراين ، وهدد النمسا ، وأذلّ بريطانيا ، وأرهب فرنسا ، وأسوأ من كل ذلك ، اضطر إيطاليا إلى الخضوع تحت نيره لأنها كانت أضعف عضو فى المحور .

ما أصعب وما أذل الوقوف أمام هذا القاهر الظافر فى جميع الجبهات ، والاعتذار له عن إخفاقه فى وقف هذيان رجل عجوز أعزل من السلاح ! . . .

دعا الدوتشى سفير الڤاتيكان ليمثل أمامه ، رغبة منه فى تخفيف وهق حنقه ، وليملى عليه درساً شديداً . فى الواقع ، فى هذه اللحظة ، كانت فريسة الدوتشى تمرّ بين أبواب قاعة « خريطة العالم » المحاطة بالحراس المدججين بالسلاح ، وفى الستين ثانية المقبلة كنت تسمع صرير حذاء السفير البابوى على أرضية القاعة الملساء الناعمة اللامعة ، حيلة جهنمية دبرّها المقيمون على تصميمها لإلقاء الرعب فى قلوب أقسى المخضرمين السياسيين .

لكن حدث فى ذلك اليوم أن الكردينال ألفيو كارنجى ، سفير الڤاتيكان لدى الكويرينال ، لبس حذاء لا يسمع له صوت . وعلاوة على ذلك ، كان يحمل تحت معطفه قواماً ثابتاً لا يجزع ولا يتزعزع . كان يعلم ، وبالعلم كفاية ، ماذا سيسمعه من الدوتشى ، وكان يعلم أيضاً فى ثبات وثقة ما سيقوله له . سيصيح الدوتشى فى صوت جهير قائلا : « أنا » . فيهمس له كارنجى قائلا : « الأب الأقدس » . سيهدر الدوتشى كالرعد قائلا : « المحور » فيجيبه كارنجى بقوله : « الكنيسة » . وفى ختام الحديث ، سيستعين الدوتشى بهذا الاسم المخيف : « هتلر » فيرد عليه كارنجى باسم الجلالة : « الله » .

بدأت المقابلة كما ترقبها السفير . حيا موسولينى زائره باحترام وأنفة كالجليد . ثم انساق فى حديث لاذع ضد الأب الأقدس . ثم لوّح بالمنشور البابوى فى وجه كارنجى وقال وأنفاسه تغلى وتجيش : « ألم يحن لهذا الرجل العجوز المتعب أن يموت . وإذا بدا لك طلبى هذا صعباً ، أفليس لديه من الذوق السليم قدراً يحمله على وقف تدفق كلماته هذه الهزيلة وهذيانه ضد الفوهرر ؟ »

قلب الدوتشى بعصبية صفحات الرسالة البابوية ذاكراً بعض أمثلة من الإهانات ضد السلطة المدنية . ثم قال : « أنصت إلى هذا : " إن كل من يحاول قلب أوضاع الأجناس أو الأشخاص ، والدولة أو الدستور ، من رتبها الزمنية الأرضية ، ويؤلهها فى عبادة وثنية ، فهو يفسد ويزيف النظام الإلهى الذى خلقه لها الله " » .

ثم ضرب المكتب بالرسالة فى حنق وقال : « ربما النظام الإلهى فى خلق القمر ! ألا يدرى البابا ماذا يجرى فى أوروبا ؟ »

أجابه كارنجى : « إن الأب الأقدس يعلم تماماً ماذا يجرى . ولذلك فهو يصرف قواه الباقية فى الاحتجاج على نظام هتلر المخيف فى إفساد القيم الروحية » .

— « إنه ليس من شأن البابا انتقاد التدابير الداخلية لحكومة أجنبية . إن الهير هتلر عزز قوة ألمانيا ، ووحّد الشعب ضدّ أعدائه » .

— « إن الأب الأقدس لا يعترض على توحيد الشعب الألمانى . لكنه لا يستطيع الصمت ، فيما يتعرض له المسيح والكنيسة من هجوم » .

بعد هذه المناورة السخيفة ، حاول الدوتشى سلوك طريق التملق . قال : « عندما

بدأت حياتى السياسية كانت الكنيسة تكتفى بالموافقة على الحكومات القائمة . كانت ترضى بالوقوف كعضو مساعد ، وتساند الحكم القائم . فهل تتكرم ، يا صاحب النيافة ، رفقاً بجهلى ، أن تنبئنى بطبيعة التغيير الذى طرأ على الكنيسة ؟ هل أفهم أن الكرسى الرسولى يتطلع إلى لعب دور أكبر فى الشؤون العالمية ؟ »

لم يغترّ كارنجى بهذه الصراحة الكاذبة . فقال : « إن الكرسى الرسولى لا يرمى إلى التدخل فى شؤون السلطة الزمنية ، لكنه لا يستطيع المكوث ساكناً ، فى حين تهدد ديكتاتورية الدولة النفس الخالدة . مرّتين فى الشهر الماضى رفع الحبر الأعظم صوته عالياً ضدّ القادة الكفار الذين ينكرون الله وينكرون عليه خلقه الإنسان على صورته ومثاله » . — وأشار كارنجى بيده نحو رسالة البابا على مكتب الدوتشى وقال : « هذه الرسالة تنبه الشعب الألمانى إلى أن صليب هتلر المعكوف يحمل بين جنباته الموت للنفس الخالدة . وفى رسالة سابقة ، " الفادى الإلهى " ، يكشف الأب الأقدس عن الأكاذيب الرهيبة التى تخبئها الشيوعية اللادينية ، ويفنّد مواعيدها الخداعة المعسولة ، ويبين أن الشيوعية تحط الإنسان من كرامته وتنفى مصدره الإلهى » . واختتم كارنجى حديثه بالإشارة إلى موقف الكرسى الرسولى من نظرية دكتاتورية الدولة . قال : « فى المعركة القادمة بين الدولة والروح ، ستقف الكنيسة بجانب الروح » .

وجد الدوتشى فى ذكر الكردينال لرسالة البابا « الفادى الإلهى » مخرجاً جديداً للمناقشة . قال : « إذا فازت الشيوعية ، فلن يكون هنالك بعد من روح . أما الفوهرر فهو نصير المسيحية ضد الكفر السوفييتى » .

ومرة أخرى لم يتردد كارنجى فى الجواب فقال : « إن من مصلحة هتلر ، ياصاحب السعادة ، أن يلعب مثل هذا الدور فى مثل هذه الظروف . مع ذلك ، فقد بلغ إلى علم الكرسىّ الرسولى بأن الهير هتلر يشحن كميات هائلة من المعدّات والأسلحة والذخائر إلى روسيا فى محاولة يائسة منه ليعقد مع موسكو معاهدة عدم اعتداء . ولو كان من مصلحة هتلر صهر الأوانى المقدسة فى كل كنيسة من أوروپا ليشترى بها صمت السوفييت — بينما هو يثير الحروب — لفعل » .

ولم يكن الكردينال السياسى فى حاجة إلى الإضافة بقوله : « وإنكم يا صاحب

السعادة ، بإدراككم لحقائق الأمور ، تعلمون هذا تماماً كما أعلمه أنا » .

كان الدوتشى فى الحقيقة رجلا واقعيًّا وكان يعلم ذلك وأكثر منه كثيراً . كان يعلم أنه أصبح أحطّ وأذلّ وأخنع إنسان فى التاريخ . ولما كان من الصعب على الإنسان أن يقر بهذه الأوصاف لنفسه ، حاول موسولينى طرق موضوع آخر .

قال فى عظمة : « إن غايتى من دعوة نيافتكم هنا اليوم هى إبلاغ الكرسى الرسولى بأن الهير هتلر سوف يشرّف الفاشستية عن قريب بزيارة إلى روما . ولن أسمح بحدوث مظاهرات فى أثناء هذه الزيارة . ويجب أن تعدنى قولا شرفاً أن يمتنع شبان الجمعيات الكاثوليكية عن المظاهرات السخيفة فى أثناء وجود ضيفى فى روما » .

فسأله كارنجى فى ابتسامة خفيفة هازئة : « من يستطيع التظاهر مع وجود عشرة آلاف شرطىّ سرّى فى الطرقات ؟ »

فقاطعة الدوتشى بحدة : « لقد حدث ذلك من قبل . والشرف الفاشستى يحتم علىّ أن أطالبكم بوعد صريح بأن هذا لن يحدث مرة أخرى » .

إذن هذا ما يريده قيصر ، فكّر كارنجى ثم قال للدوتشى : « سأبلغ طلب سعادتكم إلى الكردينال أمين سرّ الدولة » .

لما أشرفت المقابلة على النهاية ، نهض كارنجى ، ثم انحنى وهمّ بمغادرة القاعة الواسعة ، وإذا بالدوتشى يستوقفه ، ثم يتصفح مذكرة على مكتبه ويقول له :

— « مسألة أخرى ، ياصاحب النيافة . أغتنم هذه الفرصة للاحتجاج على نشاط مريب يقوم به شخص يدعى جيتانو أورسلى . إنه رجل متزمت وخائن . ولقد خطف مراراً كثيرة من قبضة يدى أعداء سياسيين ونقلهم بالطائرة إلى فرنسا وبريطانيا » .

— « ولماذا تعرضون سعادتكم هذه الأمور علىّ ؟ »

— « لماذا ؟ . . لأن أورسلى يعمل حاجباً فى الفاتيكان ، أليس ذلك صحيحاً ؟ »

فهزّ الكردينال رأسه نفياً وقال : « إن السنيور أورسلى لا يعمل الآن فى الفاتيكان . ولا علم لى بنشاطه أو تنقلاته » .

فقال الدوتشى فى وجوم : « فى هذه الحال ، لن يكون لديك ما تعترض به إذا قبض رجالى على هذا الخائن الهارب » .

* * *

بينما أخذت أحداث أوروبا تزداد خطورة وتعقّداً ، كانت مدينة هارتفيلد تستعدّ للاحتفال بعيد تأسيسها الثالث بعد المئة .

فى ربيع سنة ١٩٣٨ ، ارتفعت درجة العزّة القومية عند الشعب ـــ وما أكثر ما تعتز به أمريكا ! ـــ حتى بلغت ذروتها فى اليوم الرابع من يوليو . احتفل الشعب بهذا اليوم العظيم فى أبهى التقاليد الأمريكية . فأقيم فى الصباح استعراض عسكرى ، وبعد الظهر مباراة فى البيسبول . وبلغ الفرح بأهالى هارتفيلد أشده عندما هزمت « سيوف هارتفليد » « طلائع الميناء الجميل » بأربعة عشر هدفاً مقابل تسعة . وقامت الغرفة التجارية بتقديم الشطائر والسجق مجاناً ، فعم السرور جميع الحاضرين. ثم نحو الساعة الثامنة والنصف مساء احتشد أربعـــة آلاف مواطن فى « قاعة السيمفونية » فى دار البلدية وعقدوا اجتماعاً عظيماً .

افتتح الاجتماع بالنشيد الوطنى رتله جميع الحاضرين . وحالاً بعد ذلك وقف العمدة « كوبنسى چانكينز » وسرد تاريخ هارتفيلد ونشأتها منذ أن كانت نقطة للشرطة على الحدود إلى أن أصبحت فى مركزها الحالى من أوائل المدن الصناعية الأمريكية . وقام خطباء آخرون أمثال « أسود الروتارى الكيوانى » وأشادوا بأمجاد هارتفيلد : « إن هارتفيلد تحتل المكان الأول بين المدن . . زادت شوارع مدينتنا عرضاً . . واتسعت خزانات المياه . . وارتفعت بناياتنا جميلة قوية » .

بهذا الكلام وغيره تتابع الخطباء فى ذكر محاسن مدينتهم هارتفيلد ، والكل ينصتون مسرورين مستبشرين .

كان رئيس الأساقفة فرمويل جالساً على منصة الخطباء يفكر فى سير أمور الاجتماع ، فرآها تدور كلها حول محور الشؤون المدنية فى تحيّز ظاهر . كان بودّه أن ينبه مستمعيه إلى أن هارتفيلد قد تستطيع التشبه ، بدرجة أفضل ، بمدينة الله التى وصفها القديس أوغوسطينوس ، بدلا من أن تظهر فقط بمظهر الغرفة التجارية وأرقامها المادية . وكان يستعد لاقتباس آية من سفر المزامير هذا نصها : « إن لم يحفظ الرب المدينة ، فباطلا يسهر الحراس » . لكن حيث إن حضرة القس المحترم « تيلستون فورسايد » والمعلم « يشوع فيلشين » قد اتبعا طريق الحياد فى خطبتيهما ، شعر ستيفن بوجوب اتباع الطريق نفسه ، لأن اللياقة والشرف بين رجال الكهنوت يقضيان بعدم التحيز لمذهب أو لآخر فى الاجتماعات العامة .

فكان شغل ستيفن الذى شغله وهو ينتظر دوره فى الكلام هو كيفية استطاعته جلب أنظار الجمهور إلى الناحية الروحية دون ذكر الديانة الكاثوليكية الرومانية .

جاءه الحل على هذه المشكلة عندما وقف فريق من الطلاب . وأنشدوا نشيد « المجد الخالد » . وجاء فى نشيدهم :

« نقسم الولاء لعلمنا وللجمهورية التى يمثلها . أمة واحدة لا تنقسم . حرية وعدل للجميع » .

تجاوبت هذه الكلمات فى ذهن ستيفن كوميض الشرر . الجمهورية ؟ . . . أفلاطون — وأفلاطون ؟ . . العدل . — والعدل للجميع ! . . .

كلها أفكار أقدم بكثير من هارتفيلد ، وأرسى من بنايات الجرانيت الضخمة ، وأبعد أثراً من المكانة والعزّة المدنية — . العدل ؟ . . إنه عهد بين الله والبشر ، هو فضيلة تناقش فيها الأثينيون فى حماسة شديدة ، هو نعمة وبركة لا تزال الشعوب والأفراد تنشدها بلهفة .

بينما وقف العمدة كوينسى چانكينز ليقدم الخطيب القادم رئيس أساقفة هارتفيلد ، عزم ستيفن فى نفسه أن يلقى بعض الضوء على فضيلة العدل . فبدأ :

« أيها الأصدقاء الأعزاء والإخوة المواطنون . لقد خطب قبلى كثيرون فى هذا المساء ورسموا تاريخ هارتفيلد المجيد وما حققته من أعمال عظيمة فى الميادين العملية . إن الإحصاءات باهرة وتاريخنا يحثنا على التقدم . لكن ذلك كله يفقد معناه الجوهرى إذا لم يكن مؤسساً على المثل الأعلى الخالد ، ألا وهو العدل الذى تغنى به فريق طلابنا فى سلامهم إلى العلم . فهل لى إذن ، بكونى مواطناً أمريكياً ، أن أتحدث إليكم فى هذه الليلة عن هذا المثل الأعلى ؟ »

ثم صمت ستيفن برهة يستميل بها انتباه المستمعين . ثم قال : « منذ ألفين وثلثمائة سنة ، اشترك فريق معدود من الأثينيين فى مناقشة حول العدل ، الفضيلة التى تزين المواطن كما أنها الدليل السامى للدولة . إننا نعلم تماماً كيف دارت المناقشة ، لأن أفلاطون أحد أعضاء الفريق قد دوّن لنا هذه المحادثة التى وصلت إلينا باسم " الجمهورية " ، وهى تعدّ إحدى المقالات الرئيسية ذات الأثر البعيد فى السياسة والآداب ، وأقوى ما خطته يد بشر .

« كان سقراط ، ذلك الرجل البشع المظهر ذو الأفكار السامية ، الذى مهّد لمجىء المسيح منذ الأجيال الغابرة ، يقود تلاميذه فى تعرجات مناقشة هامة . فالتفت إلى أحد أتباعه الشبان وسأله :

« يا جلوكون ، إنا ما زلنا ، منذ بعض الوقت ، نتحدّث بلهفة عن العدل ، مع ذلك أرانى مضطراً إلى الاعتراف بعدم إدراكى بعد طبيعة هذه الفضيلة . فهل تستطيع أن تقول لى ، يا جلوكون ، إما بكلمات من عندك وإما بلغة الشعراء ، ما هو العدل ؟

« ويحاول جلوكون بشجاعة ، لكنه لا يستطيع تحديد العدل لسقراط . فيتدخل فى المناقشة " ثراسياخوس " ذلك المغالط المتهوّر ويعرّف العدل بأنه " مصلحة الأقوى " فيخذله سقراط ببيانه أن الطبيب مع كونه أقوى من المريض فهو يقدم علاجه من أجل مصلحة المريض .

« ثم تشعب الحديث ، وسقراط يقوده ، واحتدمت المناقشة ، حتى عرّف العدل أخيراً ، بالنسبة للدولة والفرد معاً ، بأنه " التوازن الائتلافى بين كل الفضائل " . والعجيب فى ذلك ، أن الجمهورية التى يصفها سقراط فى نظامها الموزون الائتلافى ، تشبه إلى حدّ بعيد مثلنا الأعلى فى الحكم . . »

وإذا باضطراب يحدث فى القاعة ورجل يقف على قدميه ويصيح فى سخرية ومرارة : « ما كل ذلك سوى ذرّ رماد فى العيون ، وأنت تعلم ذلك » .

فصاح بعض الأعضاء الحاضرين : « ياللعار . . استأجر قاعة أخرى . . اطردوه » .

رفع ستيفن يده ليهدئ الخواطر . لم يختبر من قبل موقفاً حرجاً يهاجمه فيه أحد المستمعين . ولا بد من معالجة هذا الموقف . فقال : « دعوا صديقنا يتكلم . فإنا جميعاً نرغب فى سماع ما يريد قوله » .

أجاب المشاغب : « ربما ترغب أو لا ترغب » . وكان كل شىء فى مظهره يدل على الخطيب المحترف الذى يراوغ الجماعات . ثم التفت نحو الجمهور كأنه يحذرهم من وباء لعين . قال : « ألا تدركون ما يخفيه هذا " الحاوى "

الكاثوليكيّ فى تلافيف كلامه ؟ لا تنخدعوا بترهات السيد المحترم . كل ما يرمى إليه هو هذا : انظروا ما أرحب صدر الكنيسة الكاثوليكية — انظروا ما أعظمنا نحن الأمريكيين . . الولاء للعلم؟ دون شك . . أمريكا جميلة وعظيمة . . السلام لجميعكم . — هذه هى خطة روما المرسومة ، وخطيبنا لم يحد عنها » .

لم تَقْوَ صيحات الجمهور على إخماد صوت المشاغب الذى توجه إلى ستيفن يقول له : « أيها الكاهن الأعلى " للوضع القائم " أودّ أن أوجه إليك سؤالا بسيطاً واحداً » .

المشاعب الدائم ثراسيماخوس ! . . .

قال ستيفن : « اسأل » .

— « أوكى ! . . هل فى استطاعتك أن تذكر لى مثلا واحداً فقط فى كيف ومتى ، وأين ساهمت الكنيسة الكاثوليكية بفكرة العدل ؟ » .

لابد للرجل أيًّا كانت نزعته ، من جواب شاف يدعمه المنطق والإيمان الصحيح. بنى ستيفن رده على أعلى مستوى أدبى ممكن . قال :

— « لقد افتتح هذا الاجتماع على اعتبار أنه حفل قومىّ. وكانت رغبتى ، ورغبة الجميع أيضاً ، أن يحتفظ الحفل بهذا الطابع القومىّ . لكن الطلب الذى تقدم به أحد الحضور يبرهن على استحالة فصل المقدرات الروحية الأزلية عن الشؤون البشرية . فأقول إذن ، ردًّا على السؤال السابق الذكر ، إن الكنيسة الكاثوليكية تساهم بأكبر جزء فى العدل الاجتماعى بتذكير الناس بأن الله ، والله وحده ، هو منبع العدل وصورته الكاملة . وأذهب إلى أبعد من هذا . أقول إن محاكمنا الأمريكية ، وتشريعاتنا ، وطريقة حياتنا ، كلها تستمد صورها وتعبيراتها من العدل . وأضيف بكل سرور — وانحنى رئيس الأساقفة بمهابة نحو حضرة القس فورسايذ والمعلم فيلشين — أن الكنيسة الكاثوليكية لا تستأثر بهذا التعليم » .

ثم بسط ستيفن يديه واسعتين والتفت مرة أخرى نحو المستمعين وقال : « لم نر بعد فى أى بقعة من العالم عدل الله منتشراً بين الجميع ، ولا أظن أننا سنسعد برؤيته يوماً بأعيننا هذه الزائلة . لكنى أومن إيماناً عميقاً بأن النظام الذى نعيش فيه هو أقرب ما يحقق العدل بين المواطنين أكثر مما فى أى دولة أخرى

أعرفها . لأننا فى أمريكا نستطيع التقرب من المثل الأعلى الذى عبّر عنه سقراط :
" أن ينمو الإنسان ويتشبه بالخالق على قدر ما يستطيعه المخلوق" » .

واسترسل ستيفن فى حديثه خطيباً مفوّهاً ، وأباً واعظاً وكاهناً غيوراً : « والحياة الأمريكية مندفعة نحو هذا المثل الأعلى فى قوة لا تقاوم — كما أن شجرة السنديان تلك القلعة الشاهقة المورقة التى تحن إلى البروق والصواعق ، توجد منكمشة متوثبة كاملة التكوين فى قُمزتها ، كذلك فى الإنسان يوجد دافع قوىّ جياش يحثه على التقرّب بقدر ما يستطيع من الكمال الإلهى . وواجب المجتمع هو تهيئة الفرص للإنسان بالتقدم نحو هذا الكمال ، ويجب على المجتمع ألا يساعد الأفراد على تحقيق أمانيهم المادية فحسب ، بل أن يحقق لهم أيضاً جميع الإمكانيات الروحية » .

واستطرد رئيس الأساقفة لقوله فى صوت يتخلله التنبؤ والإدراك الواقعى : « فى الوقت الحاضر تدور معركة طاحنة ضد قوى الخير فى كثير من النفوس وكثير من الدول . ويتكهن البعض بأن النزاع رهيب وخيم العاقبة ، إلا أننى لا أجزع جزعهم . لأنى إذا نظرت إلى بلادى ، لا يتطرق اليأس إلى قلبى . لأن شعبنا هو البرهان النابض بالحقيقة على أن الروح الشرير لا يتقدم إلا عسيراً فى أوساطنا . فإننا حتى يومنا هذا قد حققنا أموراً جبارة ظنها العالم القديم ، فى حقده وقسوته مستحيلة علينا . وهل من مستحيلات تخيفنا فى المستقبل ؟ إننا إذا توصلنا إلى هذا القدر من الكمال الذى نحياه بفضل نعمة الله التى تعمل فينا ، أفلا يمكننا بفضل هذه القوة الإلهية التى تدفعنا ، أن نشق طريقنا إلى أعلى نحو منبع النور الأزلى ؟ »

ونسى ستيفن أن جمهور مستمعيه ليسوا جميعاً من رعاياه ، فرفع يده وباركهم وقال : « لننصرف بسلام وعدل » .

وأجابه الجميع بنبرات مختلفة فى هدير يشبه صوت رعد بعيد : « آمين » .

* * *

فى أغسطس من تلك السنة ، قام الطبيب چون بيرن بكشف عام اعتيادى على حالة ستيفن الصحية فجرى على صدره وظهره بالسماعة ، وقاس له ضغط الدم ، فحص له عينيه بآلة دقيقة ترسل شعاعاً رفيعاً من النور . وفى ختام الكشف

سأله : « كيف تشعر عموماً ، يا ستيف ؟ »

ــ « لا أشعر تماماً بالنشاط .. لقد تضاءلت شهوتى للأكل ، ولا أستطيع النوم ليلا » . ــ ثم حدق ستيفن بصره فى الطبيب بيرن متسائلا : « هل وجدت فىّ شيئاً يزعجك ؟ »

ــ « لا . لا . غير أن ضغط الدم عندك مرتفع قليلا ، وذلك طبيعى فى رجل يناهز الخمسين » .

ــ « نحو الخمسين ــ قال ستيفن مخاطباً نفسه ــ هذا على التقريب عمر موناجان ، عندما لقيته للمرة الأولى . لا بأس ، لا بأس ، فكلنا على هذا الطريق » .

ثم قرص الطبيب چون بين إبهامه وسبابته جلدة يد ستيفن العارية وقال : « إن حالة أعصابك ليست على ما يرام ، ولونك مال إلى الاصفرار . لقد أجهدت نفسك فى العمل ، يا ستيف . إنك فى حاجة إلى راحة ، أسبوعين على الأقل بعيداً عن مكتبك . دع الشمس تداعب بشرتك . وعالج رئتيك باستنشاق الهواء النقى » .

ــ « الدواء جميل ، أيها الطبيب . لكن أين أقضى هذه الإجازة . إنى أكره أماكن الاصطياف ، ولا أجد لذة فى السفر . لأنه إذا علم الناس أنى رئيس أساقفة ، فلن يتركوا لى راحة بأسئلتهم التافهة ، أمثال هذه : هل سألاقى زوجتى الكاثوليكية فى السماء ؟ ــ هل فى إمكانك أن تدبر لى اجتماعاً مع البابا ؟ »

ضحك چون بيرن وقال : « أعلم كيف تسير الأمور ، يا ستيف . ولكن لماذا لا تسأل چورچ أن يذهب معك فى رحلة على ذهبيته ؟ لقد قضينا أنا وريتا معه فى الصيف الماضى أسبوعين لذيذين على بحيرة أونتاريو » .

راقت ستيفن هذه الفكرة : إجازة مشتركة مع أخيه چورچ . فطلبه على الهاتف بعد ظهر ذلك اليوم فى يورك الجديدة . وشاءت الظروف أن كان چورچ يعد رحلة إلى بحيرة شمپلين ، وقبل بلهفة اقتراح ستيفن بالذهاب معاً فى إجازة . قال چورچ :

ــ « قابلنى صباح السبت القادم فى " نادى الجناح الأحمر للزوارق " على ركن شارعى النهر الشرقى والخمسين . ابحث عن ذهبية ذات برج عال كتب

على مقدمتها المستديرة كلمة « فلوتسام » . أحضر معك بعض الثياب القديمة ، ولا تكثر منها ، فإننا سنقضى معظم وقتنا فى لباس الاستحمام » .

أثارت فى ستيفن رؤية الذهبية المربوطة على رصيف « الجناح الأحمر » فرحة ودهشة . كانت الذهبية بطلائها الجديد ومتنها العريض وطولها البالغ ثلاثين قدماً تبدو جميلة وعلى أتم استعداد للسفر إلى حيث يريد قائدها .

صاح ستيفن : « هل من أحد على الذهبية ؟ » وإذا بچورچ يمد رأسه من مقصورته ، وقد بدا بحاراً أنيقاً على مثال بحارة المياه العذبة ، مرحاً سعيداً بقميصه الأزرق البروتونى وبنطلونه الأبيض . كان چورچ فى سن الخامسة والأربعين لا يزال أعزب ويعمل محامياً لدى شركات التأمين والتجارة . فقفز على الرصيف حافى القدمين مرحباً بأخيه وصاح فى فرح ونشوة :

— « ستافى ، كنت أترقب حضورك راكباً زورقاً أسقفياً ، تنثر البركات على طريقك يمنة ويسرة . هل فقدت عادتك ؟ »

— « لقد تركتها لبضعة أسابيع فقط ، يا جاج » .

أمام بهاء الذهبية المتمايلة ولمعان النحاس وبريق خشب الكابلى ، أحس ستيفن أن همومه الأسقفية قد بدأت تزول .

التقط چورچ حقيبة ستيفن وقال : « إن الملاحين يرقدون فى المقدمة ، ولا بد لك من أن تقتسم حجرتك مع طباخ الذهبية ، فهو لا يميز السداسية من المرساة » .

اتضح أن طباخ الذهبية لم يكن غير برنى فرمويل — الدجاجة البرية الإرلندية بذاتها — وقد زاد وزنه ثلاثين رطلا . وقد اضطر إلى تحمل هذه « الزوادة » كما كان يحلو له أن يدعوها ، ليحفظ أوتاره الصوتية عذبة لينة . ثم شرب الإخوة الثلاثة قدحاً من السكوتش ، استعداداً للرحيل .

أمسك چورچ عجلة القيادة ، واندفع الفلوتسام عبر « بوابة الجحيم » ثم تسلل تحت جسر نهر هارلم ثم شق طريقه فى نهر الهدسون العريض .

بعد يونكرز إلى الشمال ، اكتشف ستيفن كم كان تعبه شديداً . فاستلقى على كرسى هزاز فى المقدمة وسلم أمره إلى موجات النهر تزوده بعلاجها فى تهدئة أعصابه ، وإلى أشعة الشمس الدافئة والمناظر الطبيعية الجميلة . سارت الحياة

على هذه الطريق المائية التاريخية بطيئة هادئة متواترة كدقات نبض امرأة نائمة . كانت قصص الخرافات والأساطير تتصاعد أصداؤها من بين الوديان والتلال المنخفضة وتتردد فى منعطفات النهر متشابهة منذ عهد قبائل « الإيروكواز » التى حطت رحالها فى هذه البقاع على ضفاف النهر .

أحياناً يتسع مجرى النهر حتى يصبح فى حجم بحيرة كبيرة ترتفع على جوانبها الأعشاب والأشواك ، والمنازل والمقاهى المهجورة أو المدن السالفة التى غمرتها المياه . ما كنت تجد منظرين متشابهين فى سيرك على ضفاف النهر الذى كان يضفى على الطبيعة أشكالا متعدّدة ويخلق منها مشاهد لاحصر لها ساعة بعد ساعة .

كان ستيفن يستيقظ من نومه أحياناً ليسمع برنى يتغنى ببعض أغنياته المعهودة « عروس أورورك المزيفة » أو « جدول بندمير » . ثم يشتم ستيفن رائحة شواء اللحم البقرى يتصاعد مع الهواء الذى تقذفه المروحة الدافعة من المطبخ وتعيد إلى ذاكرته لذة الشعور بالجوع مرة أخرى . تشبع جسمه من أشعة الشمس وجذبته سكينة النهر ، فأعجب فى قرارة نفسه بحكمة الطبيب چون بيرن وقدّم شكره للقديس (أيًّا كان) شفيع المراكب الصغيرة .

فى اليوم الثانى من الإجازة رأى ستيفن چورچ يحشو مدفعاً صغيراً من النحاس فقال له : « ماذا تفعل يا جاچ » ؟

فأشار چورچ إلى بيت بين جنبات الغابة يرتفع عالياً على ضفة النهر الشرقية وقال : « هذا مقر الرئيس فرانكلين ديلانو روزڤلت . وإنى أستعد لأبعث بتحيتى إلى "جدع" عظيم » . ثم شد على المقبض ، فدوت طلقة مكتومة ضعيفة تردد صداها على ضفة النهر .

لما مات صوت الصدى ، سأل چورچ ستيفن : « هل رأيته يا ستاف ؟ » فهزّ ستيفن رأسه فى تردد .

قال چورچ : « وما هو شكله ؟ »

— « تماماً كما وصفته : جدع عظيم » .

— « أرجوك لا تبدُ كتوماً إلى هذا الحد . علامَ دار الحديث بينكما ؟ »

« أسف يا جاچ ، إذا بدوت لك كتوماً . لكنى لا أستطيع إطلاعك على

مجرى حديثنا . ستسمع عنه يوماً فى الصحف وتقرأه » .

لما دخلت الذهبية السدّ الأول من قناة شمپلين كان ستيفن قد استراح تماماً ، بمساعدة چورچ وبرنى اللذين لم يتركاه لحظة . كان الثلاثة الإخوة يقضون الأيام فى الصيد وهم جالسون على حافة الذهبية ، أو فى الاستحمام فى الخلجان الصغيرة التى تظللها أشجار البتولا . وفى المساء ، كانوا يتداولون أحاديث متنوعة ويتناقشون فى الشؤون العالمية التى تدور حولهم أو يتحاورون فى بعض مواد القانون أو الفلسفة أو الآداب .

لكن الدم أقوى أثراً من الأفكار ، ولا أعذب منه عندما يجرى فى عروق أسرة واحدة ، فلذلك ، كان الإخوة الثلاثة يستعيدون إلى ذاكرتهم تاريخ قبيلة الفرمويل فى سرّائها وضرّائها .

تكلموا عن منى مرة أخرى وساروا وراءها فى طرقات ومنعطفات الحى الجنوبى ليكشفوا عن مقرها . ومرة أخرى حاولوا إيجاد سبب لخلق فلورى المشاكس الذى أخفق فى علاجه كل دواء . تذكروا اليوم الذى فيه خلّص دن حياة هيلانة بصلواته المتواصلة التى دكت أبواب السماء ، ثم ضحكوا معاً عند ذكر عادة سيليا فى وضع الأشياء جانباً من مناشف ومفارش ، حتى يوم لم يستهل صبحه بعد .

علم ستيفن من برنى الذى ما زال يقطن فى رقم ٤٧ شارع مرج الغاب أن سيليا ما زالت تحتفظ بحيويتها القديمة . قال له برنى : « إنها تذهب إلى القداس كل صباح ، وتهيئ لى طعامى ، وما زالت تردد : رجل جائع رجل غاضب — عندما تقدم لى طبق الطعام » .

فى أثناء إحدى هذه المسامرات العائلية طرح چورچ هذا السؤال : « لماذا لم يتزوج منا سوى القليل ، يا ستاف ؟ إن ريتا هى الوحيدة التى قبلت هذه الفكرة . وأنت ، وبرنى ، وهيلانة ، وأنا ما زلنا عزاباً . هل تعتقد أن فى الأمر نقصاً منا ؟ »

فهز ستيفن رأسه نفياً وقال : « إن الكنيسة تعلّم بأن الإنسان له كامل الحق فى أن يتزوج أو يبقى أعزب ، كما يروق له . لا أظنك تشعر بالذنب إذا لم تتزوج » .

— « لا أقول إنى مذنب ، مع ذلك . هنالك شىء غريب يكتنفنا نحن العزاب الثلاثة » .

التفت ستيفن نحو الدجاجة البرية الإرلندية وقال : « لماذا لم تتزوج يا برنى ؟ »

فجاءه الجواب بكل بساطة ، كإحدى أغنيات برنى : « أعتقد أننى لم أجتمع بشخص أحببته أكثر من نفسى » .

وقال ستيفن مخاطباً نفسه فى قلبه : « وأنا لقيت واحداً أحببته أكثر من نفسى وأكثر من أى شخص آخر » .

على ضوء القمر الأحمر كالذهب الساطع فوق بحيرة شمپلين تبادلوا الحديث فى الميل إلى العزوبة المتأصل عند الفرمويل . هل هى الوراثة ؟ كلا ، فدن وسيليا اعتنقا الزواج وتعانقا . هل هو التهرب من الواجب ؟ اعترف برنى بأن ذلك هو السبب ، أما ستيفن وچورچ فأشارا إلى المسؤوليات الجسيمة التى يتحملانها . هل هو الخوف من النساء ؟ كيف يكون ذلك مع بركات أمٍّ تحب أولادها ؟

وقال چورچ ما يستشف منه بارقة جواب : « ربما كان لدن أثر فى هذا الأمر » .

فسأله ستيفن : « فى أى شكل ، يا جاج ؟ »

— « إن التعبير عن ذلك بكل دقة صعب . لكن الوالد العجوز كان مزيجاً من بطريرك ووحش ذى شنب . كان يستطيع التحدث مباشرة إلى "يهوه" ، ويقصم ظهر كل منافس رضيع بمسحة من شاربيه . أستغفر الله على ما أقول ، لكنى أعتقد أنه كان يخيفنا ، يا ستيڤ » .

وقال برنى موافقاً : « إنه دائماً أخافنى جدًّا » .

فى تلك الليلة ، بينما كان ستيفن ممدداً مستيقظاً على فراشه ، والعاصفة تدوى بشدة آتية من كندا ، ترددت شهادات الأخوين فى ذهن ستيفن وعارضها مرة أخرى . أيكون شارب دن المقنفذ — وإن كان قد لان عوده بالحياة العائلية وتلطفت أهدابه بالمحبة لأولاده — قد أوقع الرعب فى قلوب أبنائه فصدهم عن التمتع بخصب مراعى المحبة الزوجية ؟

لو صح ذلك ، فما أغربه ! . . .

استسلم ستيفن للنوم وهو يصلى من أجل راحة نفس والده البطريرك .

فى الصباح ، حالت العاصفة المتزايدة عنفاً دون تقدم الذهبية شمالا ، فاتجه

الفلوتسام جنوباً والريح تدفعه من المؤخرة . وسرّ الجميع ، البحارة والذهبية ، عند ما التجأوا إلى رصيف « القاعة البيضاء » (هوايتهول) واحتموا به .

كانت العودة على نهر الهدسون مريحة مفيدة لستيفن ، فى الأول من سبتمبر وصل إلى هارتفيلد مستجماً ، أسمر البشرة ، متلهفاً إلى العمل والطعام . وما لبث أن أكب بنشاط على أعماله الأسقفية فى الأبرشية .

* * *

ديسمبر ١٩٣٨ — أمسك رئيس أساقفة هارتفيلد بمبضع لفتح الخطابات على شكل خنجر وصليب ، وشق ظرفاً طويلا مختوماً بخاتم الڤاتيكان ، وأخرج منه ورقتين عرف من الخط الذى كتبتا به أن الرسالة من ألفيو كارنجى .

عزيزى ستيفانو ،

عندى لك صرة ملأى بالأنباء ، إن الأب الأقدس قد عاوده المرض بشدة . وقد جزعنا جميعاً للنوبة القلبية الأخيرة التى صدمته. مع تعبه الشديد هذا ، فإنه قد نهض من فراش مرضه عندما علم بقدوم هتلر إلى روما. وقال : «إنى لا أستطيع المكوث فى مدينة واحدة مع المسيح الدجّال » . وذهب إلى قلعة « جندولفو » حيث مكث كل المدة التى قضاها هتلر فى روما .

منذ زيارتك القانونية الأخيرة ، لا ينفك الأب الأقدس يسأل عنك باستمرار فى محبة وشوق ويدعوك « البنيامين الأمريكى » وهى كلمة تقطر محبة وتدل فى جملتها وتفصيلها على طبيعة حبه لك، كما أحب يعقوب بنيامين فى العهد القديم .

إن الكردينال أمين سرّ الدولة مسرور جداً من محادثتك مع الرئيس الأمريكى ، فقد ساعدت بطريقة عجيبة على تتميم التقارب بين الڤاتيكان والبيت الأبيض. وبالخصوص كلماتك « العمل المشترك من أجل السلام » قد بينت بوضوح تام ما كنا نأمله من تحقيق الرئيس لفكرة تعيين ممثل شخصى لدى الڤاتيكان . واقتراحك بكون الممثل بروتستانتياً قد لاقى

قبولا حارًّا هنا . فإننا جميعاً نوافق على وجوب خضوع النزعات الحزبية التعصبية للغاية المثلى التى ينشدها الرئيس والحبر الأعظم فى عزم واحد ، وهى تجنب الحرب على قدر ما تسمح به الإمكانيات البشرية .

مع أن الكرسى الرسولى يرفع صلواته إلى الله ويعمل ما فى وسعه من أجل تحقيق هذه الغاية ، فإن اعتقادنا الراسخ هنا هو أننا نتعامل مع رجل عصبى مخبول فى شخص الهير هتلر . فالأمر يتضح يوماً بعد يوم بأنه يريد حرباً مدمرة ويريد فرضها على العالم أجمع . ولا أحد يعلم تماماً متى ستنفجر . وموعدها الدقيق يتوقف على اتفاقية عدم الاعتداء التى يحاول ريبنتروب عقدها الآن مع مولوتوف .

تشجع الآن لسماع أنباء مفجعة تخصك ، يا ستيفانو : لقد وجدت جثة صديقك جيتانو أورسلى تحت قنطرة مهجورة فى الريف الإيطالى . عند اكتشاف الجثة ، كان ميتاً منذ بعض الوقت . ضرب بالرصاص فى ظهره . لاشك أن ذلك من اقتراف جماعة الأوفرا المجرمين . وموته إحدى مئات الجرائم التى ستبقى دون جزاء ما بقى ذلك الأخطبوط الفاشستى يعبث بهذا البلد الكئيب . . .

أسقط ستيفن الرسالة وغطى وجهه بيديه ليمحو صورة صديقه الملقى مهملا فى الريف الحزين . مات أورسلى ! . . . عاودته الصور والأصداء فى عاصفة جامحة صمّت أذنيه وبهرت عينيه .

أورسلى كما عرفه ستيفن للمرة الأولى يشير إلى النجوم على متن الفيزوفيو ، الخاتم فى سبابته ، والعطر فى لحيته ، والقبعة المتجعّدة على رأسه . . . كبرياؤه وازدراؤه فى قهر قطعة حربية بريطانية فى أعالى المحيط بكلمة باردة ساخرة : « أنا ، جيتانو أورسلى ، أقاوم أوامرك » ! . . .

ثم صور أخر ، وكلمات أخرا . . . « الفلك علم ، وليس أسطورة عشق » . — « أيها الشيطان الصغير ، هل أسرعت فأصبحت أسقفاً ؟ » — ثم أورسلى يتذوّق سيجاراً بين أسنانه البيضاء الناتئة : « تنشق عبير سيجارك على مهل ، يا صديقى » . — « آه ، إنها ملاك ، يا ستيفانو » . — « الحب يذهب بالزمن » ! .

آه ، كم كان جيتانو متعطشاً إلى الحياة ! . . . « يا تورينو أحضر فتاحة القنينة . يجب أن نشرب ونتحدث فى وقت واحد » . — لقد نضب الآن ذلك العطش . اغبرّت إلى الأبد وتعفـّرت هاتان الشفتان المتلهفتان إلى اللذات . . . « الزمن يذهب بالحب ! » . . .

سالت الدموع من عينى ستيفن وهو يصلى من أجل راحة نفس صديقه أورسلى . واستمرّ حزنه مدة مواسم عيد الميلاد البهيج ، وأثقل كاهله بالألم .

فى منتصف يناير ١٩٣٩ ، استقل ستيفن الباخرة إلى روما وبصحبته أوين ستاركى . وقد حثه على هذا السفر سببان : أولهما ، إطْلاَعـُهُ الكردينال پاشيلى على محادثاته مع الرئيس . وثانيهما ، تَلَـهـُّفـُهُ فى محبة بنوية كئيبة ، وهو البنيامين الأمريكى ، إلى أن ينظر للمرة الأخيرة وجه يعقوب أبيه .

بعد أن أصبح پيوس الحادى عشر عاجزاً عن عقد الاجتماعات فى حجرة مكتبه ، التزم الفراش وشرع يستقبل زائريه وهو مستند إلى مخداته فى سرير مربع كبير ذى أعمدة فى حجرة من الدور الأعلى فى قصر الڤاتيكان . هبطت حركة قلبه ، ذلك النبض العجيب الذى يصدر عادة اثنتين وسبعين نبرة كهربية فى الدقيقة عبر أعصاب القلب الدقيقة . مع ذلك ، ما زالت شعلة الذكاء وقوّة الحزم تتأجج فى ذلك الجسم الضعيف البالى . وما زال الحبر الأعظم فى اجتماعاته اليومية بالكردينال پاشيلى يقبض بيد من حديد على جميع الأمور السياسية التى تهمّ الكرسىّ الرسولىّ والتى تنشد قبل كل شىء ، الآن كما كان دائماً ، حق الله ومكانته الأولى فى جميع أمور البشر . والتنازل الوحيد الذى رضى به تنفيذاً لتعليمات طبيبه الخاص ماركياڤاڤا ، هو تحديد كل اجتماع من اجتماعاته إلى نصف ساعة فقط ، يتخلل كل واحد منها ربع ساعة راحة .

فى أوقات الراحة هذه التى تشبه الواحات الخصيبة المنعشة ، يمكث الحبر الأعظم فى فراشه مغلق العينين يرتشف الذكريات من ينابيع الماضى . فطوراً تعود به هذه الذكريات إلى ماض واقعى حقيقىّ فيرى نفسه مدة السنين الطوال السابقة غارقاً بين كتب ومؤلفات المكتبة الأمبروسية ، أو متسلقاً أعالى الجبال المكسوّة بالثلوج حيث لم يكن يرهب شبابه المتدفق أو عصاه الصلبة الجبلية قمة شاهقة أو مفازة وعرة . وتارة تنقلب هذه الذكريات أحلاماً فى يقظة ، حيث تلتقى الصور بالرغبات والأمنيات ، ظلال الأوهام ، تتلوّن وتتبدّل على هوى ظهور أحداث التاريخ القديم . فيخيل إليه أنه واقف على جبل سيناء يسمع وصية الله الكبرى : « أنا هو الرب إلهك . لا تقم لك آلهة غريبة أمامى » . — أو يتصوّر نفسه متسلقا مع يعقوب سلماً مرتكزة إلى الأرض ورأسها إلى السماء .

مرة ، بينما الحبر الأعظم فى فراشه فتح عينيه ورأى الطبيب ماركياڤاڤا منحنياً يحدّق فيه ، فقال فى همسة تكاد لا تسمع : « ألم يأتِ بعد بنيامين ؟ »

فقال له الطبيب فى لطف وهو لا يدرى معنى كلمات مريضه : « إنه ههنا ،

يا صاحب القداسة » . ثم التفت الطبيب نحو ستيفن وقال له فى صوت خافت : «حاول ألا تطيل اجتماعك به ، يا صاحب السعادة . فالحديث يجهد الأب الأقدس».

أومأ ستيفن برأسه وجثا على ركبتيه بجانب سرير الحبر الأعظم .

فهمس نحوه البابا قائلا : « يا بنيامين . . . قد انتظرتك طويلاً » .

ثم انقشعت سحابة الحلم ، وأظهرت له الحقيقة شخصاً محبوباً فقال : « لماذا أبطأت فى المجىء يا بنىّ ؟ »

— « خشيت إزعاجك والتثقيل عليك . فقد بلغتنا فى أمريكا نشرات طبية أقلقتنا » .

أشرقت على وجه البابا ابتسامة خفيفة حيث قال : « كيف يكتسب الأطباء شهرة إن لم يصوّروا مرضاهم فى أحلك ساعات الخطر بواسطة نشراتهم الطبية ؟ ولقد ساهمنا مرتين فى شهرة أطبائنا . وبعون الله سنستمرّ فى إذاعة شهرتهم » .

— « إن صلوات كثيرة تشدّ من أزركم ، أيها الأب الأقدس » .

— « والخبث وسوء النية والاضطهاد تحط من قوتنا ، يا ستيفانو . ما أشد وأحدّ المعركة القائمة فى العالم بين قوى المحبة وقوى الشر الهدامة . فى شبابنا ، عندما كنا مسلحين بالصحة والقوة لم تظهر لنا المعركة ميئوساً منها أبداً » .

ثم ظهر التعب على الحبر الأعظم وهو يشدّ على غطاء سريره قائلاً : « لكن امتحان الإيمان الأخير هو الاعتقاد ، فى ساعات الضعف والمرض ، بأنّ قوى الظلام لن تتغلب على العالم » .

— « ألا تخشون قداستكم تغلب قوى الظلام ؟ »

ارتفع صوت الحبر الأعظم فى نبرة قوية وقال : « إن واجبنا فى أيامنا هذه الأخيرة هو العمل على وقف قوى الشرّ . ولهذا السبب بعينه قد دعوناك أيها الابن العزيز . فى المعركة القريبة على الأبواب ، سوف يضطر الحبر الأعظم إلى الدفاع عن لقبه ومركزه . وللوصول إلى هذه الغاية ، يجب أن نقوّى أنفسنا بالاعتماد على أذهان يقظة وقلوب فتية » .

ثم استعار الحبر الأعظم إطاراً جميلاً لفكرته . قال : « إن الأشجار العريقة تلقى ظلاًّ نبيلاً ، لكن عندما تهب العاصفة تصبح الحاجة ماسة إلى قلوب صلبة وجذور ثابتة شديدة » . ثم اتجه البابا فى تشبيهه نحو العالم الجديد . قال : « آه ،

كم أحببت أن أرى أمريكا ، وأتسلق جبالها الرائعة ، وأسمع الرياح تصفر فى مراعيها — ثم ابتسم وقال مداعباً : — ألا تذكر ، يا ستيفانو ، أنى دعوت مراعيكم بمپاس ؟ »

— « أذكر ذلك ، أيها الأب الأقدس » . وانهمرت الدموع من عينى ستيفن .

أصبح تنفس البابا ثقيلاً ، وأجهده التعب فى كل كلمة قالها : « لم يقدّر لنا زيارة أمريكا ، لكنا نستطيع الاستفادة من قواها الناشئة العجيبة لمجد الله ورفع شأن الكنيسة ، فنحن نرغب ، يا ستيفانو ، أن تمكث فى روما لتمدّ مجامع الڤاتيكان بقوة العالم الجديد ونشاطه » .

— « إن رغبتكم يا صاحب القداسة هى عندى أمر » .

تبخرت آثار الحلم والاستعارة من ذهن البابا حيث قال : « إن واجبك يتركز جوهرياً فى إقامة صلة للعمل بين الكرسىّ الرسولىّ والبيت الأبيض . لقد فتحت لنا جميعاً ، يا ستيفانو ، أبواباً جديدة للتفاهم . ولكى نمدّك بالسلطة الضرورية لتحمل أعباء هذا العمل الجليل — وهنا جلس پيوس الحادى عشر مستنداً إلى وسائده فى فراشه — وكبرهان لثقتنا غير المحدودة بك ، فقد اخترناك كردينالاً فى مجمع كرادلتنا السرّى الأخير » .

لو كان ستيفن واقفاً لسقط على ركبتيه جاثياً . ولكن لأنه كان راكعاً بجانب سرير البابا ، ولأن كلمات الحبر الأعظم عقدت لسانه ، فإنه لم يستطع الإتيان بحركة أو كلمة . وأىّ كلمات تستطيع التعبير عن مشاعره ودهشته وعدم استحقاقه ! فتملكته انفعالات لم يقوَ على كبتها . بدأت جذور شعر رأسه تتبضع بالعرق ، وتصاعد الدم رويداً رويداً إلى وجنتيه فى موجات حارة . كان يعلم أنه لو تكلم فسيتلعثم ، وأنه لو استمر يحدّق بنظره إلى ذلك الجسم البالى الواهى الملقى أمامه بين الوسائد فسيجهش بالبكاء .

فى الواقع لم يكن لدى ستيفن فرمويل سوى شىء واحد يفعله — وقد فعله قبل ذلك فى حياته آلاف المرات . شبك يديه ، الإبهام الأيمن فوق الأيسر ؛ وأحنى رأسه كمن قام منذ لحظة بتناول القربان المقدّس ثم همس فى صوت ضئيل :

« يا سيد ، إنى لست مستحقاً » .

— « إن تواضعك يسرّ قلبنا ، أيها الابن الرفيع الشأن » .

ثم عاد پيوس الحادى عشر إلى مرحه وطيبته وقال لكردينالة الحديث العهد : « هيا الآن . فيجب أن تشرع فى تحضير ثيابك الكردينالية . فأنت تعلم أننا نمنحك فقط القبعة الحمراء . أما ما سوى ذلك ، من الجبة الحمراء والمعطف ذى الفرو الأبيض ، فعليك أنت. ولعلك تنتهى من تحضير ما يلزمك لحضور اجتماع الكرادلة العلنى الذى سيعقد بمشيئة الله بعد أسبوع ، من يوم غد » .

فى ٢٥ يناير ١٩٣٩ ، أضفى پيوس الحادى عشر على شهرة طبيبه الخاص بريقاً جديداً بأن نهض من فراشه ليمنح ثلاثة من الكرادلة الجدد القبعة الحمراء . أمام مجمع الكرادلة المقدس وأمام السلك السياسى البابوى بأكمله ، انطرح الكرادلة الثلاثة المنتخبون أمام الهيكل الرئيسى البابوى فى كاتدرائية القديس بطرس ، ثم نهضوا ليتسلموا قبعاتهم الحمراء ذوات العقد الذهبية إشارة إلى أن حاملها قد أصبح أميراً فى الكنيسة .

تقدّم ستيفن وهو لابس المعطف ذا الفرو الأبيض والذيل الطويل يحمله له مساعدوه ، ثم جثا أمام الحبر الأعظم نائب المسيح على الأرض ولثم خاتم الصياد الذى فى إصبعه برهاناً على خضوعه وطاعته . ثم نزل درج الهيكل وعانق الكرادلة أعضاء المجمع المقدس الذين أصبحوا إخوته بالروح . وتبادل قبلة السلام مع السادة الأجلاء پاشيلى وكارنجى ، ومع أساقفة القصر البلاتينى پنياتلّى دى بلمونتى وكاسيا دومينيونى .

بعد ذلك ، فى حفل رسمى عقد فى قصر شيچى ، تقبل ستيفن تحيات السفراء ومبعوثى الدول الرسميين ، وهو يستمع فى تكتم إلى كل شىء ، ولا ينطق إلا باليسير من الكلام (حتى لا يؤخذ كلامه اليسير هذا فى غير معناه أو يؤوّل عن سوء نية) . واندمج ستيفن بين المدعوّين وهو عالم تمام العلم بالظروف التى تعترض الكردينال السياسى فى مجرى المحادثات ، ولكنه غير متخوف منها .

فى العاشر من فبراير ١٩٣٩ ، اجتمع ستيفن بالأب الأعظم يستودعه ويستأذنه بالرحيل . قال له البابا : « يؤلمنا فراقكم ، إلا أننا نسمح لكم بالافتراق عنا مدة

قصيرة من الزمن . إننا ندرك تماماً أنكم تحتاجون إلى بعض الوقت لترتيب وتسليم أمور أبرشيتكم قبل أن تعودوا إلى روما لتسلم مهام منصبكم. اذهبوا سريعاً لتتمكنوا من العودة إلينا عاجلاً . هل تسافرون عن طريق البحر أو عن طريق الجو ؟ »

— « عن طريق الجو ، يا صاحب القداسة . وقد حجزت مكاناً ليوم غد . وسأعود قبل آخر هذا الشهر » .

لم يكد ستيفن يغادر الحجرة ، حتى انحطت قوى البابا پيوس الحادى عشر . فى مساء ذلك اليوم عاد الحبر الأعظم إلى فراشه غير قادر على رفع شهرة الطبيب ماركيافافا . وبعد ذلك هبط فى غيبوبة لم يفق منها .

فى صباح الغد ، فى الفندق ، وستيفن يستعد للذهاب إلى المطار ، ظهر أمامه حاجب من حاشية البابا ، وقد بدت عليه دلائل الحزن وهو يدلى بتصريحه لستيفن :

— « أيها السيد الجليل ، إن الأب الأقدس قضى نحبه فى الليلة الماضية . وأصبح كرسى بطرس شاغراً . ويرغب الكردينال پاشيلى إلى نيافتكم أن تمكثوا فى روما لحضور المجمع المقدس المقبل » .

* * *

جرت العادة بتحديد فترة الحزن على البابا الراحل بتسعة أيام . عرض جثمان البابا پيوس الحادى عشر فى كاتدرائية القديس بطرس ، وأقيمت كل يوم القداسات لراحة نفسه ، وسهر حوله الأساقفة وهم يرددون الطلبات والصلوات .

انتقلت إدارة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية إلى جمعية خاصة مؤلفة من ثلاثة كرادلة من الأقدمين يرئسهم الكردينال أوچينيو پاشيلى كرئيس على الخاصة البابوية . وعلى هذه الجمعية يقع عبء ترتيب المجمع المقدس السرى .

من جميع أرجاء العالم ، بدأ الكرادلة يتوجهون إلى روما . ومن بين أمراء الكنيسة الذين أحيطوا علماً بوفاة البابا ، رئيس أساقفة بوسطن الذى يناهز الثمانين عاماً ، الكردينال لورنس جلينون . فى قصره فى حجرة البرج قرأ مراراً البرقية التى وضعها بين يديه أمين سره المنسنيور إرميا سپلين . بفضل مزيج عجيب من طول البقاء وحكمة القدر ، قد منح نيافته فرصة العمر مرة ثالثة ليحقق أمنية طال أمدها . سيذهب إلى روما ليشترك فى انتخاب بابا جديد ! . . . بعد أن أذله الله مرتين

فى ظروف سابقة ، عاد فمنح عبده المسنّ فرصة أخرى !

قال لورنس جلينون لكاتم أسراره فى صوت وإن لم يزل حادًّا لاذعاً ، إلا أنه فقد كثيراً من نبرته القوية الجهورية المألوفة : « يا إرميا ، اجمع مستشارى أبرشيتى .. أخرجهم من جحورهم أو من أى مكان يختبئون فيه كلما جدّ الجدّ . وبينما هم فى اجتماعهم وثرثرتهم ، أريدك أن تكتب لى طلب تحويل إلى المصرف — اجعله عشرة آلاف دولار — ثم احجز مكانين على الطائرة . وأبلغ رجال الصحافة أن "البحار لارى" سيتخذ هذه المرّة طريق الجو » .

واجه المنسنيور سپلين هذا السيل المتدفق من الأوامر . لكنه دهش مما سمعه بعد ذلك . قال له جلينون : « ابحث بين مكاتب أمانة السرّ ، واختر لى كاهناً لبقاً ذكيًّا يجيد كتابة اللغة الإنجليزية . ودلّه على تفاصيل عملك ، فإنى آخذك معى إلى روما كمساعدى داخل المجمع المقدس » .

لم يكد المنسنيور سپلين ينسحب حتّى استدعاه الكردينال ثانية وقال له : « أبرق إلى الكردينال فرمويل فى فندق "قصر ريتس" . وقل له أن يحجز لى جناحاً بالقرب منه » .

* * *

بعد مضى أربع وسبعين ساعة ، كنت ترى كردينالاً مرحاً مسنًّا يعانق كردينالاً آخر أكثر مرحاً لكنه أصغر سنًّا .

صاح ستيفن : « لقد فعلتها ، يا صاحب النيافة . بعد خمس سنوات ، استطعت الوصول إلى روما فى الوقت المناسب لحضور المجمع المقدس » .

فقال جلينون : « المجمع المقدس ! . . . ولماذا ؟ إنه لن يعقد إلاّ بعد أسبوعين . لقد أتيت للاشتراك فى تسعة أيام الحزن ، يا ستيف . إن الإنسان فى سنى ، إذا ما رفرفت عليه أجنحة الموت ، يستطيب الشعور بهالة المجد التى تحيط بالأموات» .

بدا جلينون فى أحسن حالاته وإن فقد شيئاً من تهجمه وزادت التجاعيد فى وجهه ويديه كما يحدث فى سن الثمانين . استدار نحو كاتم أسراره وقال : « يا إرميا ، دعنى أقدّمك إلى الكردينال فرمويل . تمثل به ، يا إرميا — إنه الحكّ الذى يهدى الأساقفة الأمريكان طريقهم . ماذا ؟ . . . هل يعرف أحدكما الآخر ؟ »

قال ستيفن : « منذ أمد بعيد . لقد كان المنسنيور سپلين أول من خدم لى القداس . هل تتذكر ، يا چيمى ، حركاتك بالكتاب والجرس ؟ »

— « لن أنسى ذلك أبداً ، يا صاحب النيافة ، وكم كنت لطيفاً معى بعد هذا الحادث » .

— « ولن أنسى أبداً أنا أيضاً التأنيب الذى أتحفنى به دولار بل موناجان » . وحاكى ستيفن صوت راعيه القديم وعبوسه : « بلغنى أنك وخادمك قد قمتما ببعض الحركات البهلوانية فى نقل الكتاب هذا الصباح . هل ذلك آخر ما وصل إليه طلاب الجامعة الأمريكية فى روما ؟ »

بالنسبة لرصانة جلينون ، كانت المداعبة التى قام بها ابناه الشابان لا تأتلف مع مهابة سنه وتفكيره ، وهو الذى لم يقبل قط فى حياته أن يلعب دوراً ثانويًّا . فقال لستيفن مسترعياً انتباهه : « هل يوجد أحد من أصدقائى القدامى فى المجمع المقدّس ؟ »

بعد استطلاع الأسماء كلها لم يوجد اسم واحد من معاصرى جلينون . چياكوبى ، ميرى دلڤال ، مورن وڤانوتلى — كلهم ذهبوا . كان جلينون أقدم عضو فى المجمع المقدّس بعد الكردينال پنياتلى دى بلمونتى . فأذهلت هذه الحقيقة رقم واحد .

فى أثناء تشييع جنازة البابا پيوس الحادى عشر ، وفى أثناء انعقاد المجمع المقدس الذى افتتح فى اليوم الأول من مارس ١٩٣٩ ، تشجّع جلينون بذكرى هذه الحكمة من سفر المزامير : « كلهم كالثوب يبلون ، وكالرداء تغيرهم » .

فى صباح اليوم الأول حضر اثنان وستون كردينالاً ناخباً القداس الاحتفالى الذى أقامه الكردينال پنياتلى دى بلمونتى فى كنيسة القديس بولس ، وهى كنيسة الڤاتيكان الرعائية . واستمعوا بانتباه كامل إلى العظة التى ألقاها باللغة اللاتينية المنسنيور « أنطونيو باتشى » مساعد أمين سرّ المراسلات مع الدول الأجنبية .

استماح المنسنيور باتشى مستمعيه عذراً وشرح رهبة الموقف والظروف الحاضرة ، وحالة العالم الكئيبة ، والمسؤولية المخيفة التى تقع على عاتق من سينتخبون البابا الجديد . وحث مستمعيه على أن يضعوا تجاه أعينهم وفى تقديرهم ضرورة كون الرجل الذى سينتخبونه حافظاً للمفاتيح البابوية ، الأصلح والأقدس بينهم .

قال الواعظ : « يجب أن تسألوا ذواتكم ، أيها السادة الجزيلى الوقار ، من هو بينكم الحائز على الخلق القوى ليصمد تجاه فكرة تأليه الدولة ، تلك الفلسفة التى تستعد الآن لالتهام العالم بالعنف والدماء . يجب أن تفحصوا قلوبكم لتكتشفوا من بين صفوفكم النبيلة الحائز فى أسمى درجة على العلم والخبرة ونعمة الله وحكمته ليقود الكنيسة — والمدنية أيضاً — عبر الطريق المحفوف بالمخاطر ، المفتوح أمامنا » .

ثم توقف المنسنيور باتشى قليلاً ليحسن إيقاع بديعه وبيانه . ثم قال : « أأقول طريقاً وعرة ؟ اسمحوا لى ، أيها السادة الجزيلى الوقار ، أن أستعير صورة أوضح مستقاة من فنون تسيير البواخر فى البحار . إن الرجل الذى تنتخبونه سيدعى لتسيير دفة مركب القديس بطرس عبر بحار موبوءة بالثلوج العائمة التى بدأت الآن تنحدر من ذلك الجبل الثلجى المخيف : الوحشية والبربرية » .

عظة أنيقة ، منمقة ؟ ربما . على كل حال عندما بلغ الخطيب خاتمة عظته ، أيقن ستيفن أن خطاب المنسنيور باتشى كان أحسن ما سمعه فى حياته من جمال فى المعنى وروعة فى الأسلوب .

بعد ظهر ذلك اليوم ، اجتمع الكرادلة الناخبون مرة أخرى — وفى هذه المرة اجتمعوا فى الكنيسة السستينية — ليحلفوا اليمين المألوفة التى تربط أعمالهم القادمة فى المجمع المقدس ، كل واحد بدوره حلف اليمين على أن يحفظ جميع حقوق الكنيسة وامتيازاتها وألا يسمح لعامل خارجى قهرى ان يؤثر على حكمه واختياره . ثم « بأذهان حرة وضمائر نقية » — كما حدده البابا غوريغوريوس الخامس عشر — انسحب كل واحد إلى صومعته للصلاة والتأمل .

فى الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم سمع رنين جرس ناعم فى حديقة القديس دامازوس . وفى داخل المجمع المقدس الذى كان مقفلاً بحائط من كل جهة عن العالم الخارجى ، سار الحراس السويسريون وهم يصرخون عبر الممرات المفروشة بالبسط : « الجميع خارجاً » . ثم تقدمت لجنة مؤلفة من ثلاثة كرادلة وفى أيديهم شعل مضاءة ، وعلى رأسهم رئيس الخاصة البابوية طويلاً شاحب اللون ، وفتشوا كل ركن من المجمع المقدس خشية وجود أحد الغرباء . فلم يجدوا أحداً .

بعد ذلك بدأت العملية الرسمية فى إقفال بوابة المجمع المقدس البرونزية الثقيلة .

ويقوم بهذا العمل شخصان . تقدم الأمير شيجى وأغلق المزاليج الثلاثة الخارجية بصفته حارساً وراثيًّا على المجمع المقدس بعد أن حلف اليمين القانونية كأجداده ليقوم على حراسة قصر الڤاتيكان فى أثناء انتخاب البابا الجديد . ومن طاقة صغيرة راقبه رئيس الخاصة البابوية وهو يدير المفتاح فى المزاليج الثلاثة ثم يضع المفتاح فى صرة مطرزة . ومن الداخل ، فى حضور الكردينال جلينون وپنياتيلى دى بلمونتى ، وضع رئيس الخاصة البابوية المفتاح فى المزاليج الثلاثة الداخلية وأقفلها . ولما أقفل عليهم ، من الخارج والداخل ، تناول الكرادلة الناخبون عشاءً خفيفاً واتجهوا كل إلى صومعته للصلاة والراحة .

استيقظ ستيفن فى الصباح التالى على صوت حارس يصرخ على باب حجرته : « إلى الكنيسة ، أيها السادة » . فنهض ، وأقام القداس على أحد الهياكل المتنقلة التى أقيمت فى قاعة الأمراء . ثم بعد أن تناول فطوراً خفيفاً من القهوة والكعك ، استدعى أوين ستاركى ليساعده فى ارتداء ثيابه الرسمية الخاصة بالمجمع المقدس . لبس جبة حمراء مشبوكة على الصدر ومرفوع ذيلها من الخلف . وفوق الجبة لبس قميصاً من الدنتلا الناعمة . ووضع على صدره الصليب فى وضع ملحوظ إشارة إلى سلطته كناخب بابوى .

ارتجفت يد أوين ستاركى وهو يقدم لستيفن قبعته الحمراء . لكن رعشته زالت عندما أطبق الكردينال على يده وقال : « صَلّ من أجلى يا أوين » . ثم اتخذ ستيفن مكانه فى الموكب نحو الكنيسة السستينية .

قضى مهندسو الڤاتيكان طوال الليل فى ترتيب الكنيسة وجعلها مقرًّا مقدساً للانتخاب . على جانبى الحجرة المقنطرة صُفت عروش صغيرة تعلوها مظلة مربعة . وأمام كل عرش وضع مكتب ذو غطاء أخضر للكرادلة القدامى ، ومكتب ذو غطاء أحمر للكرادلة الذين انتخبهم پيوس الحادى عشر . وقام أمناء السرّ بتزويد كل مكتب بأقلام الحبر والمداد والورق النشاف والشمع الأحمر لختم الأوراق ، وكمية من بطاقات الانتخاب .

على الهيكل فى الطرف البعيد من الكنيسة وضعت كأس ضخمة مذهبة ليلقى فيها الكرادلة الناخبون أوراق انتخابهم . وبجانب الهيكل أقيم موقد صغير يمتد أنبوبه

الطويل إلى ما فوق السطح ، وتحرق فيه الأوراق بعد الانتهاء من كل جلسة للانتخاب .

جلس الكرادلة الأقدمون ، ومن بينهم جلينون بالقرب من الهيكل . واتخذ ستيفن مكانه قرب الباب لكونه أصغر الناخبين ، ثم ألقى نظرة أمامه بانحراف إلى صف الكرادلة الجالسين تجاهه فرأى الكردينال « فولهابر » من باڤاريا الذى كان موعوداً بالمضايقة والاضطهاد من جراء تحديه السافر لهتلر . بالقرب من الكردينال الألمانى جلس الكردينال « جسپار » من تشيكوسلوڤاكيا الذى اجتاح النازيون بلاده . رأى أيضاً الكردينال « ڤيردييه » من پاريس ، الذى كان يحمل على وجهه المتجعد دلائل الاضطرابات العصبية التى توشك أن تحل بيلاده . فى منتصف صف الكرادلة جلس الكردينال پاشيلى الوارث للتاج المثلث حسب تقدير الأغلبية قبل الانتخاب . تجاه ستيفن على التقريب جلس ألفيو كارنجى والابتسامة تعلو شفتيه أمام مكتب ذى غطاء أحمر .

ثم أعلن الكردينال پنياتلى دى بلمونتى : « أيها السادة الأجلاء ، سنبدأ الانتخاب » .

تفحص ستيفن بطاقة الانتخاب التى أمامه : ورقة مستطيلة من الرق الناعم ، مقسمة ثلاثة أقسام . فى القسم الأعلى منها طبعت هذه الكلمات باللاتينية :

« أنا ، الكردينال . . . "فلان" . . . »

كتب ستيفن اسمه فى هذا المكان .

فى القسم الثانى طبعت هذه الكلمات :

« أنتخب الكردينال . . . "فلان" . . . كحبر أعظم » .

كان ستيفن يعلم أن عملية فرز الأصوات فى الدور الأول ستؤدى إلى ظهور بعض الأسماء لأسباب شرفية محضة أو للمجاملة . لاشك أن الكردينال « فولهابر » و « جسپار » سينالان بعض الأصوات إكراماً لمكانتهما . كم تكون فرحة الكردينال لورنس جلينون عظيمة إذا رأى اسمه مكتوباً على بطاقة واحدة فقط ! . . .

بدافع المحبة لا أثر فيه لمعنى سياسى أو وطنى ، كتب ستيفن اسم « لورنس جلينون » على بطاقته .

أما القسم الأسفل من البطاقة فكان خالياً . فى هذا المكان اعتاد الناخبون

كتابة بعض آيات من الكتاب المقدّس ليستدلوا بها على صحة بطاقاتهم إذا نوقشت أو شُك فيها بأى طريقة من الطرق . فى هذا المكان كتب ستيفن الآية الرابعة من المزمور التاسع والثمانين ، ذكراً لكلمات دونيس فرمويل الأخيرة :

« إن ألف سنة فى عينيك [يا رب] كيوم أمس العابر وكهجعة من الليل » .

ثم طوى البطاقة ، كل قسم فوق الآخر ، حتى لا يظهر اسمه ، وختمها بالشمع الأحمر ، ثم انتظر دوره ليلقيها فى الكأس الذهبية الضخمة التى على الهيكل .

تقدّم الكرادلة ، حسب أقدميتهم ، واحداً فواحداً ، نحو الهيكل وألقوا ببطاقاتهم فى الكأس المكشوفة ، وجلس أمام الهيكل ثلاثة كرادلة مراقبون . عندما انتهى الجميع من طرح أصواتهم فى الكأس ، نهض المراقب الأول وأخذ صينية من الفضة وغطى بها الكأس ، ثم رجّ الكأس وهزّها هزًّا مستفيضاً ووضعها ثانية على الهيكل . ثم شرع يسحب البطاقات منْ الكأس واحدة فواحدة ويسلمها إلى المراقب الثانى الذى يضعها ووجهها إلى أعلى ويعدّها بصوت عال واضح . فى هذه الأثناء يقوم المراقب الثالث بتعداد الكرادلة الحاضرين . فكانوا اثنين وستين ، وكان عدد البطاقات المصفوفة على الهيكل اثنتين وستين أيضاً . وحيث إن العددين متفقان فى مجموعهما ، فسيشرع فى الجزء الثانى من عملية الانتخاب .

وضع المراقبون الثلاثة البطاقات فى كأس أخرى وحملوها إلى منضدة فى وسط الكنيسة . وشرع أقدمهم يسحب البطاقات من الكأس واحدة فواحدة ويقرأ اسم المرشح المكتوب على البطاقة ثم يسلّمها إلى رفيقيه للتحقق والتأكد . فى هذه الأثناء كان الكرادلة الجالسون فى أماكنهم يثبتون فى أوراقهم عدد الأصوات التى نالها كل مرشح . فى الفرز الأول نال أوچينيو پاشيلّى خمسة وثلاثين صوتاً ، أى أقل من ثلثى الأغلبية الضرورية للفوز بالترشيح بسبعة أصوات .

فى أثناء فرز الأصوات أصابت أحد الكرادلة الأعضاء صدمة عنيفة لم يعهدها قط حياته . هو الكردينال لورنس جلينون . فعندما سمع الرقيب الأول يقرأ اسمه على البطاقة ، رفع رقم واحد رأسه مشدوهاً لا تقوى عيناه على رؤية ما يدور حوله : لو قدّر لفلكى رؤية نفسه فى صورة تنعكس إليه من مرآة نجم بعيد لما انتابه الذهول كما انتاب جلينون . ففى تاريخ البابوية الطويل العريق فى القدم ، كانت

هذه هى المرة الأولى التى ينال فيها كردينال أمريكى صوتاً فى انتخابات المجمع المقدس .

أعيد الانتخاب مرة أخرى . وعند فرز الأصوات نال الكردينال پاشيلى أربعين صوتاً ، أى أقل من الأغلبية المطلوبة بصوتين . لم يَحُلْ إذن دون رئيس الخاصة البابوية وعرش بطرس سوى دور ثالث شكلىّ . بعد استراحة قصيرة بعد الظهر ، عادت الأقلام تصرّ على الرقوق ، وللمرّة الثالثة وضعت البطاقات فى الكأس الذهبية ثم هزّت ثم عدّت . وعندما جاوز عدد الأصوات التى للكردينال پاشيلى الاثنين والأربعين– وهو العدد المطلوب للفوز بالترشيح – أخفى رئيس الخاصة البابوية وجهه بكلتا يديه ..

ما زالت الأصوات تتجمع وتزداد . . . أربعة وأربعون ، خمسة وأربعون ، إلى أن أعلنت الأغلبية الساحقة بواحد وستين صوتاً . الجميع ، فيما عدا أوچينيو پاشيلى نفسه ، انتخبوا رئيس الخاصة البابوية ليصبح خليفة بطرس الثانى والستين بعد المئتين .

ثم استدعى مدير التشريفات البابوية فدخل مع مساعديه وشرعوا يخفضون المظلات التى تعلو العروش الصغيرة ، سوى عرش واحد تركوا مظلته مفتوحة وجلس عليه رجل نحيل مفتول القوام . جلس على عرشه كردينالاً وسينهض حبراً أعظم .

لم يبق سوى عملية واحدة رسمية ليصبح الانتخاب صحيحاً قانونيًّا . تقدّم ثلاثة كرادلة يحفهم الوقار : پنياتلى دى بلمونتى وجلينون وكاسيا دومينيونى – وساروا بمهابة نحو العرش الجالس عليه أوچينيو پاشيلى ليطرحوا عليه السؤال التقليدى باللغة اللاتينية .

قال أقدمهم والمتكلم باسمهم لپاشيلى : « هل تقبل انتخابك لمنصب الحبر الأعظم ؟ »

بكلمات أخرى كان معنى هذا السؤال ، ما يأتى : هل تقبل أن تحمل على عاتقك أعباء أعظم وأرفع وأثقل منصب فى العالم ؟ – هل تتجمل بالصبر لتواجه سيل المتاعب التى تنتظرك ؟ – هل تكرّس نفسك منذ هذه اللحظة حتى الممات

لكى تقوم بالقيادة الروحية لأربعمائة مليون من النفوس التى تتطلع إليك كقائدها ومرشدها ؟

يخبرنا التاريخ أن رجالاً آخرين عندما وجهوا بهذا السؤال انخرطوا فى البكاء وتوسلوا أن يعفوا من تحمل أعباء هذا العمل المضنى . تردّد پاشيلى وقد بدت عليه دلائل الاضطراب . ثم قال :

ــ « إنى لست مستحقاً هذا المنصب » .

ثم أحنى رأسه وهمس فى صوت خافت : « إنى أقبل حمله كالصليب » .

وتذكاراً لما حدث مع البابا الأول الذى غير له المسيح اسمه من سمعان إلى بطرس ، سأل الكردينال پنياتلى دى بلمونتى المنتخب الجديد قائلاً : ما هو الاسم الذى تريد أن ندعوك به ؟ »

ــ « أرغب فى أن أدعى پيوس ، لأنى قضيت معظم حياتى الكهنوتية مع أحبار عظام حملوا ذلك الاسم» . وانهمرت الدموع على وجه پاشيلى المتجعّد ، ثم استطرد لقوله : « وخصوصاً لأنى مدين للبابا الراحل پيوس الحادى عشر بلطفه الفائق نحوى » . فى الساعة الخامسة والنصف بعد ظهر ذلك اليوم تصاعدت فوق سطح الكنيسة السستينية سحابة خفيفة من الدخان الأبيض معلنة للجمع المحتشد فى ساحة القديس بطرس أنه قد تم انتخاب البابا الجديد .

بينما انفرد پيوس الثانى عشر مع مدير تشريفاته لارتداء ملابسه الجديدة الرسمية ، ظل لورنس جلينون يبحث عن ستيفن حتى وجده ، فصاح به : « أيها الشيطان الجليل القدر ، اعترف بجرمك . لماذا ألقيت لى بصوتك فى الدور الأول ؟ »

ــ « أنا ؟ » أجاب ستيفن متجاهلاً تماماً ما حدث .

فقال جلينون بعذوبة : « ومن غيرك ؟ من غيرك يستطيع أن يسكب على نفس ذلك الرجل العجوز ذلك البلسم الشافى ؟ لن أعيش طويلاً ، يا ستيف ، لأرد لك صنيعك ــ وهنا مزج رقم واحد صوته بالعطف والنبوءة وقال : ــ لكن تذكرنى ، يا ستيف ، غيرى سيفعلون » .

رنّت أجراس كنائس روما الأربعمائة ، وفى مقدمتها « الكمپونونى » أكبر جرس فى كاتدرائية القديس بطرس الذى يزن أحد عشر طنًّا . ثم ظهر الكردينال

كاسيا دومينيونى فى الشرفة الرئيسية التى تطل على ميدان القديس بطرس وحملت مكبرات الصوت كلامه باللغة اللاتينية إلى الجميع :

— « أنبئكم بفرح عظيم . لنا بابا جديد . إنه سيدى الكلى الاحترام والجزيل الوقار ، أوچينيو . . . »

فانفجر نصف مليون حنجرة بالهتاف . الجميع يعرفون من هو أوچينيو . وعلت صيحات « يعيش البابا » على أصوات الأجراس الرنانة . وزادت حماسة الجمهور عندما ظهر البابا نفسه على شرفة القديس بطرس ليمنح المدينة والعالم بركته . هدأت رويداً رويداً عاصفة الهتافات فركع الجميع فى صمت ورفع البابا يده ليبارك المدينة والعالم .

أدرك ستيفن وهو يراقب الحبر الأعظم يمنح بركته صحة المثل الإيطالى : « مات البابا ، عاش البابا » . قضى مئتان وواحد وستون من حملة التاج المثلث واختفوا من المسرح الأرضىّ ، أما البابوية نفسها — المتجسمة الآن فى شخص أوچينيو پاشيلى النحيل الرهيب — فهى خالدة لا تموت .

* * *

حسب التقاليد العريقة ، ينقضى أسبوع ما بين الانتخاب والتتويج فى حفلات وأفراح . ترعرعت لهب الشعل الأثرية من العصور الوسطى فى حدائق القصور العظيمة ، وتنافست سيدات القصور النبيلات فى إقامة حفلاتهن المرحة فى أبهى مظاهرها . وكانت الأميرة لونتانا (واسمها بالميلاد لوريتا كينى من « مدينة ستوبن » فى مقاطعة أوهايو) تعدّ أظرف وأمرح حفلة فى المجتمع كما يليق بمقامها . كانت تأمل فى غرورها أن تضفى لائحة ضيوفها المختارين وعشاؤها الملوّن الأنيق وحفلتها الفريدة فى نوعها بريقاً لامعاً على شهرتها الذائعة الصيت التى توّجها بها المجتمع الرومانى النبيل منذ سنين كثيرة .

إلا أن السنين لم تتلطف بالأميرة . فقد أخمدت فى شعرها الأحمر تلك الشعلة البراقة دون أن تخفض اللهيب المتأجج فى عروقها ودمها ، ثم انتزعت بعض اللون الأخضر من عينيها الجميلتين وألقت به فى قاع نفسها الحسودة . بدت الأميرة فى سن الواحدة والستين كاللبلاب الذاوى — ليس كاللبلاب الذى يجمّل الجدران المدرّجة ، لكن

كاللبلاب السام الذى يسبب هرشا لكل من يلمسه .

لم تقبل الأميرة قط الرضوخ أو الاستسلام . زاد غمها عند تفكيرها بأن السنين التى ذهبت بجمالها قد أضفت بريقاً ناضجاً وهاجاً على جمال من كانت يوماً صديقتها العزيزة ، جيسلانا أورسلى . والأنكى من ذلك ، أن زوج الأميرة لونتانا لا يزال يهبط فى شيخوخته ، فى حين أن الربان أورسلى قد حظى بشرف الموت بطلاً مكرماً كما يفعل النبلاء ، مانحاً بعمله هذا جيسلانا الرائعة الجمال حرية الترمل التى لا تقدر بثمن .

على ديوان فى شكل الكلْية ، فى مخدعها المنفرد المضاء باللون الوردى ، كانت الأميرة تبحث أمر ترتيب حفلتها مع السيد روچيرو بارى ، الذى كان يوماً ممثل المآسى الأشهر فى إيطاليا . فاق السنيور بارى مرحلة شبابه علماً ، لكنه لم يفلح قط فى التمويه على من يعرفون بواطنه . كان يشكو مرضين مألوفين عند محترفى التمثيل : حاجة مستعصية إلى المال وميلاً زائفاً للعودة بذاكرته إلى انتصاراته السالفة . فى مدة خمس السنوات الماضية كان السنيور بارى أشبه بقطعة أثاث فى بيت الأميرة لونتانا : منه سجين ومنه صفى وكله صديق خدوم . والآن فهو ينصت بانتباه تام إلى الأميرة وهى ترتب تفاصيل حفلتها المقبلة .

قالت له الأميرة وهى تجول بنظرها من خلال نظارتها ذات البؤرة المزدوجة فى ورقة زرقاء بين يديها : « سأقدم لضيوفى منوعات من كل صنف على سبيل التفكهة . وبالطبع ، سنستمع إلى بعض الموسيقى فى أوائل السهرة . وقد دعوت لاعبة أمريكية شابة للعزف على البيانو » .

— « أمريكية تعزف على البيانو ؟ هل يوجد مثل هذه الأشياء ؟ »

— « سوف تدهش وتسر ، يا روچى . فإن السنيوريتا بيرن تعزف جيداً ، فقد درست على يد " لوجونى " مدة تزيد على السنة . لا بد أنك سمعتها مرة فى إحدى أمسيات جيسلانا أورسلى فى الشتاء الماضى . إن الفتاة موهوبة حقًّا » .

فابتسم بارى فى غموض وقال : « لكن ليس هذا هو السبب لدعوتك إياها » .

— « لا تسرع فى معرفة كل شىء ، يا روچى — ثم كشفت له خطتها وقالت : — فى الواقع ، طلبت إليها أن تعزف لكى أضمن حضور خالها إلى حفلتى » .

— « كل ذلك الاضطراب من أجل الخال ؟ »

— « ليس الكردينال فرمويل خالاً فحسب . إنه مستشار فى القصر الپالاتينى . ولكى أتمكن من صيده ، اضطررت إلى استعمال الطعم الجذاب » .

ثم شرعت لوكريتزيا العجوز تكشف عن بقية مؤامرتها . قالت : « عندى فكرة فريدة مدهشة ، يا روچى . ويمكنك مساعدتى — بالطبع على أساس المعاملة . قد يمكننا معاً خلق سهرة تكون حديث روما بأجمعها » . — ثم لمست بيدها فى مهارة فائقة موطن الغرور فى نفس بارى وقالت : « سيكون أمامك حضور ومستمعون — أما أنا ، إيه ، فسأمتع نفسى بشىء آخر » .

— « أوضحى وفسرى ، أيتها المتآمرة العزيزة » .

فى الدقائق القليلة التى تلت أوضحت الأميرة تفاصيل خطتها ، والسنيور بارى يستمع إليها وهو تارة يداعب شعره المستعار وطوراً يرتجف من وحشية النساء فى الأخذ بالثأر .

ختمت الأميرة حديثها وقالت : « لو أخرجت لى هذا الدور ، يا روچى ، فإنى أكتب لك حالاً فى اللحظة قسيمة بعشرة آلاف ليرة » .

ألصق السنيور بارى شفتيه بكل تقوى على العروق الزرقاء البارزة فى يد الأميرة وقال : « يا سيدتى ، فى سبيل عشرة آلاف ليرة أستطيع استظهار مؤلفات روديارد كيپلينج أمام الجميع » .

أجابت الأميرة : « حسناً » ، ووقعت له قسيمة . ثم قالت : « هذه فقط دفعة أولى . ضع روحك ومهجتك فى عملك ، يا روچى ، وستنال منحة أخرى بخمسة آلاف » .

* * *

فى منتصف السهرة أدركت الأميرة لونتانا أن حفلتها أحرزت نجاحاً باهراً . تزاحم ضيوفها المدنيون والكنسيون الذين اختارتهم من المجتمع الراقى النبيل فى قاعتها البيضية الشكل وهم يجرون ذيل العظمة ويرفعون كأس الشمپانيا . عدت الأميرة المضيفة بين مدعويها تسعة من السفراء من الدرجة الأولى بشرطهم المميزة ، ومن حجاب الخاصة البابوية ، كم ؟ عشرة ، أحد عشر ، اثنى عشر . وكان فرسان

مالطة فى كل ركن من القاعة ، وعدد الرجال النبلاء يدعو إلى الارتياح .

حضر من بين العلماء ، اللورد إلتوين ، العالم الإسكتلندى المشهور فى علم الهزات الأرضية ، وبرفقته دوم أرسيبال ، رئيس البندكتان العام : رجلان عجيبان لا يبديان اهتماماً على ما يظن إلاّ بالزلازل والهزات الأرضية .

على رأس مدعوّيها من الجنس اللطيف ، عدّت الأميرة ستة تيجان مرصعة باللآلئ يعادل ثمنها التاج الذى يبرق على شعرها الذى صبغته بلون « التيسيان » .

فى الساعة العاشرة مساءً كانت الحفلة تسير مثل عقارب ساعة سويسرية ، وإنصافاً لهذا التشبيه ، نقول إنه كان ينقص تلك الساعة عقرب الساعات . والسبب أن ضيف الحفلة الرئيسى ، الكردينال ستيفن فرمويل ، لم يكن قد حضر بعد .

لم تكف الأميرة عن النظر إلى باب البهو ، وهى تتجول بين ضيوفها والمروحة بيدها تحييهم كلاً بلغته . فى كل ذلك لم تفك قبضتها عن معصم الفتاة السمراء الجميلة ذات الثمانية عشر ربيعاً التى كانت تتبعها كظلها .

كانت الأميرة تقترب من فريق يتبادل الشمپانيا وتقول لهم : « اسمحوا لى بأن أقدم لكم الآنسة بيرن ، فنانتنا فى هذا المساء . لا تعجبوا من جمالها ، إنكم ستشعرون بالدهشة الحقة عندما تسمعونها تعزف على البيانو . ولرچينا ميزة أخرى . . . إنها ابنة أخت الكردينال فرمويل . وإنى فى انتظار نيافته من لحظة إلى أخرى » .

قالت الأميرة هذا الكلام أكثر من ثلاثين مرة . وأخيراً فى الساعة العاشرة والربع ، استطاعت أن تضيف إلى كلامها : « وها هو ذا قد أتى » .

تقدّمت الأميرة لونتانا لتحية ستيفن ، وما زالت قبضتها ممسكة بيد رچينا . منذ سبع عشرة سنة حين رأته للمرة الأولى ، لم تجده قد فقد شيئاً من رجولته فى مظهره . ربما استقت خاصرتاه قليلا ، لكنّ شعره دون شك قد اغبر تحت قبعته ، وبدا الحزم فى عينيه وذقنه . لم يزل قوامه منتصباً ورأسه مرفوعاً ثابتاً يدل دلالة واضحة على مهابة الكاهن المكرّس .

طوت الأميرة ركبتها ثم لثمت خاتم اللازورد فى يد ستيفن وقالت فى عظمة وشوق معاً : « يا صاحب النيافة ، إن سبع عشرة سنة لوقت طويل فى فراق الأصدقاء . فراق آخر مثل هذا — وسحبت رچينا بالقرب منها ليراها الجميع —

وسرّانا مجتمعين للاحتفاء بابنة بنت أختك » .

— « إنك تصوّرين المستقبل جذاباً كالحاضر » — أجاب ستيفن وهو ينحنى ليقبل وجنة رچينا وقال لها : « هل تتمرّنين بجدّ ونشاط ، يا عصفورتى ؟ » (كم كان هذا اللقب القديم الذى اعتاد أن يدعو به منى ، يناسب تلك الفتاة ذات العينين البراقتين التى تحدّق فيه ! . . .)

— « إنى أتمرّن ساعات طوالاً ، أيها الخال ستيفن . والسنيور لوجونى يقول لى — احزر ماذا يقول لى؟ »

— « ذلك يتوقف على اللغة التى يكلمك بها . ربما قال إن عندك ذكاءً . ماذا قال لك السنيور لوجونى ؟ »

— « يقول إن عندى حذقاً — وضحكت رچينا من كلمة أستاذها التى ليس فيها إلا مديح مبهم ، وقالت : — إنى أكره يا خالى أن ألقب بعازفة حاذقة فقط » .

لم يكن فى نية الأميرة لونتانا أن تدع رچينا تحتكر ضيف الحفلة ، فهمست إلى ستيفن : «طلاقة ، هى الكلمة التى تناسب ابنة أختك » . ثم قادت ستيفن إلى حلقة المدعوين فى قاعتها كمن يقود غنيمة حربية .

على كل خطوة ، كانت مقدمات وتشريفات وتعريف بالكردينال وبابنة أخته رچينا . امتدت بستيفن هذه المقدمات وهو الذى جاء بنوع خاص ليستمع إلى موسيقى رچينا . فكاد أن يقترح على الأميرة أن تختصر هذه الرسميات ، وإذا بمضيفته قد أسرّت له قائلة :

— « استعد ، يا صاحب النيافة ، لأظرف لحظة فى هذا المساء . إنك ستجتمع بصديقة قديمة » .

مع أن نبرات صوتها كانت تثير الفضول ، إلا أن ستيفن لم يكن مستعداً للمفاجأة التالية . قالت الأميرة :

— « انظرى ، يا جيسلانا ، إلى المفاجأة التى أعددتها لك . لقد عاد ستيفن إلينا . إن المنسنيور الأمريكى يعود إلينا أميراً من أمراء الكنيسة » .

برزت فجأة بين تلافيف هذه العظمة الظافرة المصطنعة ، الحيلة التى دبرتها الأميرة . استاء ستيفن من هذه الروح المشاكسة ، ووصمها بالتفاهة . هل من

ضرورة لإقامة هذه المأساة المسرحية والتدليل عليها بهذه الجلبة الخداعة ؟ مع ذلك ، بالرغم من استيائه ، فقد سرّ ستيفن لرؤية جيسلانا أورسلى مرة أخرى .

أضفى الزمان على وجهها وشعرها مسحة غبراء خفيفة خفضت من حدة جمالها . فعل بها الزمان كما يفعل لاعب الكنـّارة بالأوتار الصادحة إذ يضغط عليها بيده ليخفض من قوة نبراتها . ما زالت آثار الغموض تكتنفها ، إلا أنها بدت فى سن الثانية والخمسين امرأة مكتملة رصينة لا تغرب الابتسامة عن شفتيها ولا يميل الهدوء عن عينيها .

قالت جيسلانا وقد استقر نظرها على الصليب فى صدر ستيفن : « أهنئك ، يا صاحب النيافة ، على تقدّمك وارتقائك . وأهنئك أيضاً بابنة أختك . كنت أستطيع التنبؤ بتقدمك فى الدرجات . أما الأمر الثانى — وابتسمت إلى رچينا — فقد كان علىّ أن أكتشفه بنفسى » .

فقال ستيفن : « إنى مسرور لأنكِ ورچينا قد وجد أحدكما الآخر » . فى الحقيقة ، كان ذلك أصدق تعبير لمشاعره . لو قدّر له أن يختار صديقاً واحداً لابنة منى ، لكان أشار إلى جيسلانا أورسالى ، باعتبارها أرق وألطف حارسة ووصية بين نساء العالم أجمع .

أدركت الأميرة لونتانا أن مسرحيتها الرنانة المغرضة قد باءت بالإخفاق ، فقالت وفى صوتها حرقة وحنق : « عزيزتى چينا ، أعتقد أن الجميع يرغبون فى سماعك تعزفين ، هلمـّى . دعينى أولا أقدّمك للضيوف لأعرّفهم من أنت » .

بعد أن تكلمت الأميرة وساد الصمت ، اتخذت رچينا مكانها أمام البيانو ، وعزفت فى بساطة تامة مقطوعة من أمسيات شوپان . لمس ستيفن ، كما لمس جميع الحاضرين ، فى الفتاة الموهوبة مقدرة عجيبة على إخراج معانى الموسيقى سَلِسَة عذبة لا كلف فيها ، تفسر نفسها بنفسها . بعد ذلك ، عزفت « أشعة فى الماء » وهى مقطوعة خيالية لديبوسى . ثم ابتسمت برقة لهتاف الحاضرين وتصفيقهم ، واستهلت فى ثقة وروعة مقطوعتين من مؤلفات « باخ توزيج » الأولى « عواطف » والثانية « فرار » من مقام دوكاه الصغير (بياتى أو نهاوند الكبير) ، أدتهما برشاقة وقوة فى الإخراج والتعبير .

فيما كان ستيفن يراقب رچينا تعزف على البيانو ، شعر بسعادة جمة تملأ روحه لم يشعر بمثلها عذوبة ورقة فى حياته كلها . فرچينا هى ابنة منى ، أجمل وأكمل عقلاً وفناً من منى ، إنها روح ترتقى إلى الكمال دون عناء وتفيض فيه حبها وتنمو فى ظل جناحه . إنها تلك الطفلة التى أوشك الطبيب ذو المعطف الأبيض أن يفتك بها تمشياً مع عادة إجرامية . فى ثمانى عشرة سنة قصيرة تلألأت عناية الله فى رسم خلائقه ، فقد أخرج من حياة منى التى قصف عودها يانعاً تلك الدائرة الجميلة الكاملة الصنع .

ملكت موسيقى رچينا مشاعر الحضور كما تملك المياه العميقة أرجاء البحار ، وسيطرت على تفكيرهم . ولما انتهت قام الجميع رجالاً ونساءً يحيونها . ووقف ستيفن أيضاً وعيناه تشعان سعادة وفخراً . وشعر بالقرب منه بجيسلانا أورسلى تتحمس لنجاح رچينا . فتبادلا ابتسامة خفية وانتظرا معاً حتى تلحق بهما رچينا . إلا أن الأميرة قد رتبت دون شك أمراً آخر ، لأنها قادت الفنانة إلى حلقة أخرى من المعجبين فى زاوية بعيدة من القاعة .

ثم جاء دور السنيور روچيرو بارى فى الظهور . فتقدم زاهى اللون فى شكله ، ثابت القوام فى وقفته ، غريب الأطوار فى حركاته . وقال :

— « إن الأميرة مضيفتنا ، أخت آلهة الفنون ورائدة الشعراء وحاميتهم ، قد رغبت إلىّ فى أن أقدم لكم على سبيل التسلية بعض مواقف ومشاهد من المآسى الأدبية الشعرية . سأبدأ إذن بتمثيل " فرانشيسكا دى ريمينى " من مؤلفات « دانونزيو » — وقد خلقت من هذه المأساة دور " پاولو " — وانحنى فى تواضع مفتعل — وقد حظيت فى الماضى بشرف الوقوف أمام الممثلة الشهيرة "إليونورا دوزى" » .

لم يرتد السنيور بارى ثياب الممثلين بل وقف ببذلته الأنيقة ذات السترة المقعرة من جانبيها وربطة عنقه البيضاء وشرع يبرهن على عظمة فنه وإلقائه . أعاد فى أبيات دانونزيو الرائعة ذكرى الحب المحرّم بين پاولو وفرنشيسكا دى ريمينى . فجاء تصويره لمأساة الحبيبين بديعاً استحق عليه إعجاب المستمعين وتقديرهم .

أخذ ستيفن بفن الرجل ، وتساءل لماذا اختار السنيور بارى هذه المقطوعة الشعرية بالذات . إنها دون شك أقدم من دانتى . ولا شك أيضاً أن هذا الدور

قد منح الممثل فرصة للظهور فى أبهى أصول التمثيل . مع ذلك لم يكن موضوع الحب المحرّم — من الوجهة الأدبية الصرفة — مما يرجى سماعه فى مثل هذه الحفلة .

ثم أعلن السنيور روچيرو عن المشهد الثانى . قال : « سأقدّم الآن "غضب شمشون" من مؤلفات " ألفريد دى فيني" ، حيث يصوّر المعركة الخالدة بين الإنسان الذى يتطلع إلى رؤية الله والمرأة التى تحاول بشتى الطرق ودون ملل أن تصدّه عن هذا الأرب . فبعد أن فقد شمشون قوته ، أخذ يرثى خيانة دليلة — دائماً حيلة المرأة — التى يذهب ضحيتها الرجل » .

قام بارى بدوره فى متانة وروعة . لكن ما سبب هذا الاهتمام الزائد فى كشف مواطن الضعف فى الحب الزائف ؟ استغرب ستيفن هذا الوضع ، والتفت نحو جيسلانا وقال : « حقًّا إنّ السنيور بارى قد يستطيع اختيار مقطوعات أخر ، فهى عديدة . هل أشتمّ من ذلك سبباً آخر خفيًّا لا يمسّ أحداً من الحضور ؟ »

— « أرى ، يا صاحب النيافة ، أن الغاية واضحة تماماً » .

— « لكن ما وراء ذلك ؟ »

فأجابته جيسلانا برقة : « حيلة المرأة » .

لم يصدق ستيفن أن مؤامرة الأميرة لونتانا قد تكون خسيسة دنيئة بهذا القدر . فليس بين المدعوين المائة ، أو أكثر ، من على علم بعاطفة الحب القديم الذى شبّ يوماً بين جيسلانا وبينه سوى الأميرة وحدها . هل تتعمد الأميرة إثارة الماضى وأصدائه ؟ أو أنها تشعر بلذة خبيثة شريرة فى قولها المتخفى (تحت ستار إلقاء السنيور بارى) : « إنى أعرف عنكما الكثير » .

لا يعقل ألبتة أن أحداً ، وإن كانت عجوزاً شمطاء خسيسة ، يسبب لنفسه مثل هذه الانفعالات والآلام النفسية ، أو يكون لديه من القسوة والنذالة لإحراج موقف من كانوا يوماً أصدقاءه . أما الآن فقد اتضح لستيفن أن الأميرة قد استغلت سذاجة رچينا فاستعملتها طعماً لتجلب خالها إلى الحفلة وترتب الأمور بطريقة تجعله يجلس بالقرب من جيسلانا فى حين يقوم السنيور بارى بتمثيل أدواره . فاستاءَ ستيفن جدًّا وأخذ منه الحنق مأخذاً لبشاعة هذه المؤامرة الدنيئة فالتفت مضطرباً إلى جيسلانا وقال لها :

— « لا شك أن الأميرة لونتانا قد جنت حقًّا » .

فجاءه ردّ جيسلانا رقيقاً عذباً فى همسة : « لا تعطها فرصة لرؤيتك مضطرباً فتشمت بك » .

كانت النصيحة جيدة ومناسبة ، وراقت لستيفن فلم يكن فى مقدوره الآن الابتعاد أو الهرب ، وحاول التمسك بالهدوء والصبر ، وإذا به يسمع صوتاً رناناً جهيراً لذيذاً من بين المدعوّين .. إنه دوم أرسيبال الذى كان يوجه كلامه إلى الممثل ويقول له : « يا سنيور بارى ، ألا تذكر نشيد الفردوس لدانتى الذى يصوّر رؤيا الشاعر الأخيرة لبياتريس ؟ أعتقد أن المشهد مذكور فى النشيد الحادى والثلاثين » .

لاحظ ستيفن أن سحـــابة من الانزعاج قد أحاطت بوجه الأميرة . ولاحظ ذلك أيضاً السنيور بارى . فشرع الممثل يختلق الأعذار ، ليحتفظ بحقه فى خمسة آلاف الليرة التى ستمنحه إياها شريكته فى المؤامرة . نعم ، بالطبع ، المقطع معروف لديه تماماً ، لكن لسوء الحظ ربما قد تخونه ذاكرته .

أما دوم أرسيبال فلم يضطرب بل قال : « لا شك أن مضيفتنا ، شقيقة آلهة الفنون ، تحتفظ فى مكتبتها بنسخة من دانتى . ما أعظم السرور الذى سيغمر نفس ذلك الراهب العجوز عند سماعه هذا المقطع الخالد يلقيه ذلك الممثل البارع السنيور بارى » .

غلبت الأميرة لونتانا على أمرها ، فأرسلت فى طلب نسخة من « الفكاهة الإلهية » . فوقف السنيور بارى والكتاب فى يده ، يتصفحه فى يأس واضطراب ، وإذا بدوم أرسيبال يغير الوضع مرة أخرى . قال :

— « من أجل تسهيل الأمور على صديقى اللورد إلتوين — الذى ليس فيه نقص سوى أسفه على عدم معرفة اللغة الإيطالية ، ألا تستحسنون أن تدور ترجمة بديهية باللغة الإنجليزية ؟ »

سرّح الراهب نظره فى القاعة وأخيراً استقرت عينه على ستيفن وقال : « إن الكردينال فرمويل مشهور بموهبته النادرة فى معالجة اللغات وكثيرون فى هذه القاعة يذكرون ذلك . فيا صاحب النيافة ، إذا لم تجد إحراجاً وتثقيلا عليك ، هل تتفضل

علينا الليلة بشيء من مهارتك فىهذا الفن ؟ » وشفع دوم أرسيبال كلامه لستيفن بغمزة من عينيه ذات معنى .

كان دوم أرسيبال هو الشخص الثانى الوحيد فى العالم الذى كان على علم بتعلق ستيفن السالف بجيسلانا . تشبث ستيفن بهذه الفرصة التى وضعت بين يديه سلاحاً كان بعيد المنال ، وشعر بلذة حقيقية شرعية (فهو بشر على كل حال) فى استعماله ضد مضيفته اللئيمة . فنهض وابتسم لدوم أرسيبال وقال: « إنه يسرّنى جداً أن أقوم بالترجمة مجاملة لصديقك . إلاّ أنى أرجوكم معذرتى لو تعثرت فى أدائى أمام عبقرية " أليجيارى" » .

بدأت القراءة بأبيات دانتى التى يصور فيها النور الإلهى الذى يشع على الكون أجمع وينفذ فيه ، فترجمها ستيفن دون تقيد بالحرف :

أيها النور الثلاثى فى كوكب واحد
المفرّح جميع من تشرق عليهم
ألق ضوءاً على عاصفة حياتنا . . .

استطرد بارى لقراءة المقطع التالى حيث يصوّر الشاعر انجذابه وهو يتطلع إلى بياتريس تتلألأ ضياءً بالقرب من الضوء الخالد . فقال ستيفن وهو يشعر بضعف ترجمته :

رفعت عينى فرأيتها ،
والتاج يكلل رأسها ،
ويعكس ضوء الأشعة الخالدة ! . . .
وإذا بصورتها الطاهرة قد حلت فىّ
لا تكدّر صفوها الأجواء الفاسدة ! . . .

ثم ترجم ستيفن الأبيات التى تخلد عرفان دانتى بجميل بياتريس ، فى أبيات رائعة باللغة الإنجليزية تعبر أصدق تعبير عن شعوره واحترامه لجيسلانا أورسلى :

بفضل قوة حبك قد انتشلتنى
من قيود العبودية إلى الحرية .
فحافظى فىّ على جمالك الطاهر ،

حتى تستطيع روحى وقد تطهرت من كل رغبة ،
أن تتخلص بفضلك من قيد جسدى .

هب دوم أرسيبال من مكانه يصفق لستيفن ، وقد شغفته لباقة ستيفن فى أدائه ، أو تحركت فيه بعض الإحساسات الخفية التى لم يستطع الجمهور مشاركته فيها وإن بلغت به الحماسة ما بلغت بالراهب المحنك . وصلت هتافاته إلى أذن ستيفن فى موجات مألوفة الرنين ، كأنها أصداء من الماضى البعيد سمعها ستيفن فى حجرة نسكية فى الريف الإيطالى قضى فيها أيام توبته . كانت الأصداء تقول له :

« إن فى قلبك حبًّا كبيراً ، يا بنى العزيز . والله يريده بأكمله . . . بنعمته تعالى وبقهرك ذاتك قد قدمت إليه أكمل وأرفع هدية يطلبها من خدامه المكرّسين » .

* * *

صدحت الأبواق الفضية النشيد الاستعراضى البابوى وتردّدت أصداؤها فى أعالى قبة القديس بطرس . بدأت حفلة تتويج البابا بيوس الثانى عشر . دخل الموكب من أبواب الكاتدرائية العظيمة بين جمهور يزيد على السبعين ألفاً احتشد داخل الكاتدرائية فى حين ازدحم نصف مليون من الناس فى الساحة الخارجية .

أحيطت الحفلة بجميع مظاهر العظمة والزينة . على رأس الموكب سار موظف من الروتا المقدّسة يحمل عالياً صليباً على شكل حربة مسننة ، ويحيط به سبعة من النبلاء بالدم . وسار خلفهم الحرس البابوى بقبعاتهم المخملية الطويلة السوداء وبنطلوناتهم البيضاء وتبعهم حجاب الخاصة البابوية بياقات الدنتلا المتجعّدة حول أعناقهم والسلاسل الذهبية المدلاة على صدورهم . ثم جاء فريق فرسان مالطة بمعاطفهم البيض تحليها الصلبان المطرزة البنفسجية . ووراءهم سار فى خطى بطيئة الرهبان بكافة رتبهم ، والبطاركة ، والأساقفة ورؤساء الأساقفة ، الجميع بحللهم الرسمية . وأخيراً ظهر الكرادلة أمراء الكنيسة ، بمعاطفهم الطويلة الواسعة ، يسيرون مثنى مثنى ، الحديثو العهد فى الأوائل والأقدمون وراءهم بالقرب من العرش البابوى . بين الكرادلة والبابا سار المنادون وحملة الهراوات يحرسون التاج المثلث الذى على شكل خلية النحل ، المرصّع بالأحجار الثمينة والموضوع على مسند من المخمل الأحمر .

ثم ظهر حملة العرش الاثنا عشر بحللهم الحريرية الحمراء ، يرفعون العرش على أكتافهم فوق حشود الجمع الزاخرة . كان البابا يلبس معطفاً مطرزاً بالذهب الخالص يضمه عند العنق دبوس من الماس ، وعلى رأسه قبعة بيضاء مستطيلة . على جانبي العرش البابوى سار عدد من رجال الكنيسة وهم يحملون مراوح ريش النعام الفاخرة . وبينما كانت جوقة الكنيسة السستينية ترتل « أنت الصخرة » لم يكفّ البابا عن منح بركته يمنة ويسرة ، وقد لبس فى يديه قفازا أبيض ناصعاً .

أمام معبد الثالوث الأقدس توقف الموكب ونزل بيوس الثانى عشر عن عرشه ليسجد أمام القربان المقدّس . وعلى مثال أى كاهن آخر ، ركع البابا وأحنى رأسه وصلّى . توقفت الموسيقى وصمت الجميع . وساد المكان سكون رهيب كأنه ستار ثقيل أسدل على الجميع من أعالى القبة الشامخة حتى بلاط الأرض .

بعدما أنهى بيوس الثانى عشر صلاته ، نهض من مركعه واستعد للجلوس ثانية على عرشه . فتقدم منه حينئذ راهب مقنع وفى يده الواحدة سراج مشعل وفى يده الأخرى فتيلة من القطن مشبعة بالشمع . فانحنى الراهب أمام قداسة البابا وقرب الشعلة من الفتيلة فتصاعد منها لهيب ثم تضاءل فى سحابة من الدخان .

فصاح الراهب : « هكذا يزول مجد العالم » .

لما تحرّك الموكب ثانية وصار أمام تمثال القديس بطرس أعيدت حفلة زوال مجد العالم . وفى هـــذه المرة ترددت أصداؤها فى أرجاء الكاتدرائية فى نبرات رهيبة .

أمام الهيكل الرئيسى فى الوسط ، المحجوز للحبر الأعظم وحده ، وقف بيوس الثانى عشر ليرتدى ثيابه المقدسة لإقامة القداس الاحتفالى البابوى .

فى آخر القداس سيرتدى البابا التاج المثلث الذى يرمز إلى وحدة المؤمنين فى الكنيسة المجاهدة (التى على الأرض) والكنيسة المتألمة (التى فى المطهر) والكنيسة الظافرة (التى فى السماء) . وسيحنى الأمراء رؤوسهم أمام حامل هذا التاج الذى تحيط به العظمة والرهبة وترن كلماته بقوة من عند الله . لا يستطيع رفع هذا الحمل الثقيل إلاّ من تحصنت رأسه ضد الغرور والكبرياء .

لكى يذكّر البابا الأخطار المخيفة التى تحيق به مدة حياته الزائلة ، ويذكّره

أن آخرة كل أمجاد الدنيا هى التراب ، تقدم الراهب المقنع للمرة الثالثة من الحبر الأعظم وقرّب الشعلة من الفتيلة ، وصرخ فى رهبة مذكراً ومحذراً : « هكذا يزول مجد العالم » .

ثم بدأ القداس . جلس ستيفن بين إخوته الكرادلة يراقب سير القداس ، تلك الذبيحة الإلهية السرّية التى لا تتغير بل تمثل آلام المسيح وموته لأجل خلاص البشر لكى يحصلوا على الحياة الخالدة . فى كل مكان ، سواء أقيم القداس فى كنيسة كبيرة بهية أم فى كوخ حقير ، يعيد الكاهن هذه الذكرى الخلاصية .

رفع پيوس الثانى عشر يديه وبسطهما على القرابين المزمع أن يقدّسها ، واشترك ستيفن معه فى الصلاة بصمت :

« نتضرّع إليك ، أيها الرب ، أن تقبل برحمتك تقدمة عبوديتنا هذه ، وهى أيضاً تقدمة كنيستك جمعاء . احفظ أيام حياتنا بسلامك وخلصنا من الهلاك الأبدى وعدّنا بين قطيع مختاريك ، بواسطة المسيح سيدنا . آمين » .

العظمة والجاه وأمجاد هذا الدهر ، الشهرة الكاذبة ، ومظاهر القوة وتملق الناس الزائف — كل ذلك سيتبدد كومضة فى الظلام وكيوم أمس العابر .

لكن التقدمة ستستمر ، وتستمر معها الذبيحة الخالدة التى يشترك فى تقديمها الكهنة والشعب الذين ورثوا وعده الإلهى إذ قال لهم : « ها أنا معكم كل الأيام حتى منتهى الدهر » .

الخاتمة

بين عالمين

على غرار ذلك الربان الإنجليزى الذى ملأ صيته الآفاق ، كان « السير همفرى جريلز » ، قائد فرسان الحمام ورئيس الباخرة الفاخرة « أوريانا » ، لا يعانى أبداً دوار البحر ، وإن كان فى شبابه شعر ببعض التخوّف من جبال الثلوج العائمة — خوف معقول ، لا شك فى ذلك ، بالنسبة للكارثة التى حدثت للباخرة « تيتانيك » . أما الآن وقد بلغ منتصف العقد الخامس من عمره ، فلم يبق فيه من ذلك التخوف القديم سوى وخز طفيف فى غدد منخريه ، كلما صارت باخرته على مسافة مئة ميل من أحد جبال الثلج العائمة . ويعتبر السير همفرى فى مهنته ربان الربابنة . ويشهد له بأنه كان يحفظ باخرته فى أبهى مظاهر النظافة والأناقة والولاء ، من قمتها إلى مقرها . فى الأسفار الثلثمائة والثمانية والثمانين التى عبر فيها الأطلسى لم يسمع قط أن أحداً خالف له أمراً .

سرّح السير همفرى شعره المتناثر الذى فى لون شعر كلب الكولى ، بفرشاة عسكرية ، ورسم بها الفرق الذى ما زال يتسع فى رأسه ، ثم ثبت قبعته بانحراف على طريقة « بتّى » من چوتلاند ، وألقى نظرة أخيرة على هندامه فى مرآة مزدوجة على الحائط . فوجد نفسه رفيع القوام مهيباً . وقد يُظن جميلا لولا اصفرار فى عينيه الزرقاوين ربما لا تستملحه بعض الأذواق لقرب الواحدة من الأخرى بدرجة تفوق المألوف . كان يحمل على الجانب الأيسر من سترته أوسمة كثيرة من بينها صليب ڤكتوريا مدلّى بسلسلة ، اكتسبه فى الحرب العالمية الأولى يوم كان فى الاحتياطى . ويعجب الآن السير همفرى متسائلاً : هل تتاح له الفرصة لأن يدعى إلى قيادة طراد حربى فى المعركة القادمة . إن لم يكن طراداً فمدمرة ، أو أى شىء آخر . إن بريطانيا فى الانتظار . . .

ملأ السير همفرى علبة سيجاره وشدّ على أطراف سترته ثم صعد على متن باخرته . كانت السماء صافية ، والليل قد اختفى منه القمر . ورسمت الكواكب

المتلألئة البراقة خطوطاً هندسية فى أعالى الجوزاء . وقدّر الربان جريلز موقع باخرته من زاوية النجم القطبي فى بنات نعش ، فوجد أنها قطعت ثلاثة آلاف ومئتى ميل من ليفرپول فى خط منحرف دائرى نحو يورك الجديدة . فإذا ابتسمت له الأقدار فإنه سيرسو بسفينته فى فجر غد .

لكنه شعر بوخز غريب فى منخره الأيسر . ماذا ؟ أيكون ثلج ؟ لكن ذلك ليس دلالة قاطعة . ومرّ بالقرب منه على سلم الدرجة الأولى ضابط مساعد فقال له : « أبلغ برج المراقبة أن يكون على سهر وحذر ، يا مستر راميلى . وأديروا الكشافات فى جميع الجهات . وإذا انخفضت درجة الحرارة خمس درجات أخر فأبلغنى حالاً وسريعاً » .

كانت أصغر كلمة يتفوه بها السير همفرى كالموسى الحادة وهى تعمل فى الشمع . فبعد أن اطمأن على سلامة باخرته ، دخل الربان قاعة « الوصاية » ، مانحاً فى فترات متفاوتة منتظمة انحناءً من رأسه للمسافرين الممتازين فقط .

كانت القاعة على غير مألوفها تلك الليلة ، مزدحمة بالمسافرين . وقد ارتفع من الموائد طنين غريب زادته شدةً المشروباتُ الروحية التى تناولها الركاب قبل موعد الغداء . فأصبحوا كأنهم فى برج بابل .

لاحظ السير همفرى أن موجة المهاجرين الأوربيين – من ذوى الألقاب والمال والفن – قد ارتفعت إلى درجة ملحوظة فى هذه المرة . يظهر أن كل من استطاع الخروج من أوربا والهرب منها بجلده – أو بماله أو بما يستطيع حمله – قد سافر على الأوريانا فى الدرجة الأولى ، طلباً للحياة والحرية والسعادة بين أرجاء العالم الجديد .

ولم يقتصر الأمر على كثرة عدد المسافرين. بل كانت الأوريانا نفسها مشحونة بالنفائس : قطع فنية رائعة ، جواهر التيجان ، مشروبات نادرة ثمينة ، أثاث فاخر من تركات الأجداد فى القصور والقلاع ، مخطوطات نفيسة لا تقدر بثمن ، أدوات منزلية أثرية ، وأقمشة ثمينة ناعمة نادرة . مع كل ذلك ، كانت الأوريانا تحمل ما قيمته ثلاثون مليون دولار من الذهب الخالص قد رصّت فى خزائن من الفولاذ فى مقر الباخرة تحت خط الماء . مدينة بكاملها كانت فى هذه اللحظة

تعبر الأطلسي إلى شواطئ الولايات المتحدة البربرية (فى عرف الكثيرين) لكنها أثبت أمناً من كل بقعة أخرى .

عند مدخل قاعة الطعام خلع السير همفرى قبعته وناولها للخادم وسار نحو مائدته البيضية الشكل بخطى وئيدة كالأمراء حتى وصل إلى وسط القاعة .

لو كانت السفينة فرنسية لكان من واجب الربان أن يقف مرة على أقل تقدير ويسأل : « هل يعجبك يا سيدتى طبق المحار البحرى ؟ » — أما قائد سفينة إيطالية فمفروض فيه أن يمتدح ، وإن لحظة فقط ، أناقة أو جمال سيدة من السيدات . وأما القائد الإنجليزى ، فلم تلق عليه فرائض مثل هذه . فسار السير همفرى رأساً إلى مائدته وانحنى تحية للسيدات الجالسات وأشار إلى السادة الرجال راجياً ألا يقفوا له ، ثم اتخذ مكانه بين سيدتين رشيقتين وفى نفسه رغبة أن يقضى بالمرح هذه الليلة الأخيرة من أسفاره الكثيرة عبر الأطلسى . عن يمينه جلست الليدى أديلا براسنجتون وهى شقراء فى نحو الأربعين من العمر ، وعن يساره جلست رچينا بيرن سمراء كاملة النضوج . .

فى ظروف كتلك ، لو كان الربان ألمانيًّا ، لصاح فى دهشة وإعجاب : « شوكة بين وردتين » . لكن إن وردت هذه الكلمات على لسان السير همفرى فستبدو رطانة . وذلك لا يعنى أن الربان كان متحصّنا ضد جاذبية الجنس اللطيف . كلا ، بالعكس . فقد وصل إلى مسامع الليدى أديلا براسنجتون ، كما علم الجميع ، أن الرسالة الشهيرة المدعوة « هامفى — بامفى » قد بيعت فى مزاد بأسعار خيالية ليلة نشرها فى صحيفة « مايفير تاتلر » .

كانت الليدى أديلا ستلحق بزوجها السياسى فى واشنجتون وفى نفسها كره لكل دقيقة من هذا اللقاء . مما جعلها تعانى حالة عصبية اضطرت السير همفرى إلى تحمل نتائجها . فقالت له فى صوت جاف حاد لم تألفه سوى السيدات الإنجليزيات فى المجتمع :

— « أين كنت مختبئاً كل اليوم ، يا سيد همفرى ؟ لقد بحثت عنك ساعات طوالاً فى كل أنحاء الباخرة فيما عدا المطبخ » .

— «وبالضبط كنت هناك، يا سيدتى . من تظنين صنع لك هذه الأقراص بالزبدة؟»

استملح الحضور هذه النكتة الإنكليزية وتطاير الضحك من أشداقهم . بعد ذلك ، أحنى السير همفرى رأسه تحية لضيوفه الآخرين من ذوى الألقاب النبيلة الغابرة : الأرشيدوق رولو الوريث الثانى لعرش هنجاريا الشاغر ، والأرشيدوقة هيلانة ذات الجمال الكئيب الخافت – ثم منح السير همفرى نظرة احترام وتقدير للرجل الذى يحمل لحية المجمع اللغوىّ الفرنسىّ ، أندريه چيراردو ، القصصى الذى نال جائزة « جونكور » . ثم صدرت منه التفاتة باردة حملها اعترافه بوجود الأستاذ كورت جوتوالد ، مؤلف ذلك الكتاب الضخم « الفكر والسياسة العالمية » الذى يعدّ أساس الفلسفة النازية . وعلى خلاف كاسيوس ، لم يجعل الفكر من الأستاذ جوتوالد رجلاً نحيف القوام . ولقد يسرّ الربان فى آخر هذه الرحلة بأن يتنفس الصعداء بقوله : « مع السلامة » للهير جوتوالد ، ولتصرفاته الشاذة على المائدة ، ولكلماته المشبعة سخرية واستهزاء .

ثم تبادل السير همفرى الابتسامة مع نيافة الكردينال ستيفن فرمويل المرفوع حديثاً إلى عضوية المجمع المقدّس ، تلك الجمعية الانفرادية الغريبة التى لا مثيل لها فى العالم أجمع ، كما قيل للسير همفرى . والكرادلة معظمهم عجزة ومرضى . لكن يظهر أن هذا الأسقف الأمريكى جميل المنظر ، قوىّ البنية ، ويقول البعض إنه سيكون البابا الأمريكى الأول المرتقب ، معقول أيضاً . . . إذا كانت جميع الألقاب تعبر الأطلسى ، فلم لا يكون للبابوية نصيب فى ذلك ؟

قال السير همفرى لستيفن : « أسفت لما بلغنى أن صديقى القديم الكردينال جلينون اضطر إلى التزام حجرته بسبب المرض . فقد برهن نيافته فى الماضى على أنه بحار جدير بكل تقدير » .

قال ستيفن : « إن مديحك هذا سيملأ قلبه عزاءً . وإنا نأمل رؤية نيافته معنا فى الحفلة الموسيقية هذه الليلة » .

سمع القائد همفرى صوت الليدى براسنجتون الحاد يصرّ فى أذنه . قالت : « لى إليك سؤال ، يا سيد همفرى . فقد فكرت فيه بعد ظهر هذا اليوم على أثر تصرف وقح أتاه أحد الخدم ، فقد تمتم ببعض الكلمات فى حقى » .

بعد هذا الاستعراض الرائع وجهت الليدى أديلا سؤالها للسير همفرى : « هل

يستطيع ربان باخرة ضرب أحد الخدم بالنار لعصيانه أحد الأوامر ؟ »

جاء ردّ السير همفرى مثلاً يحتذى فى المحافظة على التقاليد : « لو كان الربان إنجليزيًّا ، يا سيدتى فالجواب : نعم ، إنه يستطيع ذلك ، لكنه لن يفعله » .

فى تلك اللحظة أصدر الأستاذ جوتوالد صوتا مزعجاً وهو يتناول حساءه . قال : « تقول ، أيها الربان ، إنه لن يفعله . هل تخلت إذن بريطانيا عن رغبتها فى استتباب النظام ، ميلاً منها إلى مجاملة بعض الأشخا ؟ ص»

احتفظ السير همفرى بصوته هادئاً فى حدود الكلام الإنشائى : « إن الملاحين الإنجليز لا يعصون أمراً يصدر إليهم بأدب » .

نفد صبر الأستاذ جوتوالد سريعاً وقال : « أرى أنك نسيت كارثة التيتانيك » .

– « إنى لا أنسى تلك الكارثة ، فقد كنت واحداً من الضباط المساعدين عندما غرقت الباخرة » .

استمر الأستاذ الألمانى فى ضغطه وحصاره وقال : « لقد ضرب بعض الملاحين بالنار فى هذه المناسبة ، أليست هذه هى الحقيقة ؟ »

انصبت نظرات السير همفرى الحادة شزراً على ضيفه . هل الرجل يحاول إرهابه أو إحراجه ؟ وجد الفيلسوف النازى ، دون سبب ، وفى شماتة ، لذة خبيثة فى نبش حوادث محزنة دفنت منذ زمن طويل فى أعماق البحار . رجف منخرا السير همفرى . فمنذ أكثر من ربع قرن ، فى هذا المكان بالذات ، وفى مثل هذا الوقت من السنة على التقريب ، قذفته من فوق فراشه صدمة عنيفة حطمت السفينة الفولاذية على جسم جبل ثلجىّ صلب . فحدث هرج ومرج شنيع ومشاهد كئيبة يائسة إذ حاول ألفان وخمسمائة شخص الاندفاع نحو زوارق النجاة ليحتلوها . وقام حينئذ الضابط همفرى جريلز ، نصف عريان والمسدس فى يده بمراقبة عملية إنزال قارب النجاة رقم ٤ ، وساعد مئة وتسعة من الركاب المصعوقين كالمجانين على النجاة بأرواحهم بعيداً عن هوة الموت . عدت هذه العملية أروع عمل بطولىّ فى تلك الليلة السوداء .

أجاب السير همفرى الأستاذ الألمانى قائلا : « إن كان قد رفع سلاح فى هذه المناسبة ، فقد كان لحماية النساء والأطفال ومنحهم الفرصة الأولى للوصول إلى زوارق النجاة » .

— « حقـًّا ؟» أجاب الهير جوتوالد ، وقد بدا لستيفن كأحد هواة علوم الأحياء وهو يهمّ والدبوس فى يده بإلصاق فراشة نادرة على لوحته ، إذ استطرد لقوله : « فكيف حدث إذن أنك من بين الأحياء ، أيها الرّبان ؟ »

لم يرَ ستيفن قط رجلاً فى مركز حرج كالسير همفرى . إلا أن الإنجليزى لم يبد انزعاجاً ألبتة وهو ينتشل من بين أحشائه الدبوس الذى غرسه فيها الألمانى ، فأجابه :

— « لو كانت لك رغبة ، أيها الأستاذ ، فى قراءة تقرير مفصل عن الحادث ، فأشير عليك بالرجوع إلى تقرير الأميرالية البريطانية الذى أصدرته لجنة التحقيق الرسمية » .

فانفجر جوتوالد لذة وشماتة وقال : « ما هذه التقارير التى تذكرها ، أيها الربان؟ بوصفى كاتباً مؤرخاً محترفاً هل لى أن ألفت نظرك إلى أن هذه التقارير قد أثبتها موظفون إنجليز ، بخصوص كارثة إنجليزية ، كما وصفها أناس إنجليز — هل أقول ؟ — قد نجوا من الموت » .

حتى هذه اللحظة ، كان السير همفرى قد ترك لضيفه لذة المضاربة بأوراق لعبه ضربة واسعة ، وإذا به الآن يختطف جميع الأوراق الرابحة من يده بقوله له:

— « سيكتب التاريخ دوماً بهذه الطريقة ، أيها الأستاذ » .

ثم فرد « البارونيت » الإنجليزى بعض الزبدة على قطعة من الخبز المحمص والتفت نحو الآنسة على يساره وقال : « إنى أتوق بسرور إلى سماع حفلتك الموسيقية فى هذه الليلة ، أيتها الآنسة بيرن . هل ضمنت قائمتك بعض المؤلفين الإنجليز ؟ »

جعل سؤال الربان وطريقة طرحه الجدية الغريبة ، الضحك يتطاير من بين شفتى رچينا التى أجابته بسؤال آخر : « وأىّ مؤلف إنجليزى تودّ سماعه ، أيها الرّبان ؟ »

فقال السير همفرى : « ما أسعدنى لو استطعت ذكر اسم واحد منهم — ثم أضاف : — بالطبع ، لا ييأس الإنسان من العثور على لحن أو آخر فى مئزرة أحد خدم صاحبة الجلالة » .

* * *

كان الركاب على متن الأوريانا التى تشق طريقها عبر شمال الأطلسى يسيرون هم أيضاً نحو هدفهم وغايتهم التى حدّدها لهم القدر .

فى جناح من الدرجة الأولى ، قذف كردينال فى الثمانين من عمره إحدى ساقيه خارج فراشه وصاح قائلاً : « يا إرميا ، هذه الجدران تضايقنى . هل محكوم علىّ أن أمكث ههنا أعدّ حبات سبحتى إلى الأبد ؟ ضع علىّ بعض الثياب بأقصى سرعة ، أيها المنسنيور . وأحضر لى عصاى ذات الرأس المذهبة فإنى أريد الجلوس فى إحدى الكراسى الأمامية حينما تبدأ رچينا بيرن عزف سوناتا براهمس ، فى حفلة الليلة » .

فى حجرة من الدرجة الثانية ، كان كونراد زالى يحاول تهدئة أعصابه بعزف بعض الأسطر الموسيقية على كمان جديد أهداه له ولىّ نعمته الكردينال فرهويل . كانت الآلة بين يديه صغيره رائعة من الكريمونا الإيطالية . وقد وقعها صانعها بإمضائه « روفائيل منتون ، ١٩٣٧ » على رقّ ألصقه على ظهر الآلة من الداخل . قضى روفائيل سنتين فى صنع هذا الكمان الذى جاء آية فى الفن ، كما أن صانعه اكتسب مهارة كبيرة فى هذا المضمار . وفى هذه الليلة أمام عدد كبير من الشخصيات ذوى جنسيات مختلفة ، سيقدّم النابغة الشاب ثمار تمرينه مدة ثمانية عشر شهراً على يد چورچ أنيسكو أحد أشهر أساتذة أوربا فى ذلك العصر .

حسب العادة المتبعة ، كانت لوائح الموسيقى على البواخر تقدم ألوانا شعبية مختلفة . لكن فى هذه الليلة سيكون النظام جديداً حافلاً . وذلك لسببين . أولاً ، من الواجب أن يقدم الفنان الشاب برهاناً عملياً صادقاً للكردينال فرهويل على أن تشجيعه ومساعدته لم يذهبا سدًى . ثانياً ، سيكون بين الحضور مدير الحفلات الموسيقية الأمريكى فريدريك شانج ، الذى سيراقب بدقة ما أذيع عن شهرة كونراد الواسعة التى جاءته من پاريس ولندن . فلو اقتنع « شنجونى » (كما يدعوه أصدقاؤه من الفنانين) بمقدرة كونراد فى العزف على الكمان ، فلا شك أنه سيعقد معه اتفاقاً لإحياء حفلات موسيقية فى أمريكا . وإن حصل كونراد على هذا العقد ، فسيستطيع حينئذ التقدم إلى رچينا بيرن يطلب يدها للزواج .

* * *

جلست رچينا بيرن — فى مقصورة قريبة من جناح خالها الكردينال — إلى

منضدة زينتها تشبك لؤلؤة فى لحمة أذنها . كان الخال ستيفن قد أهداها هذا الحلق الثمين فى روما ، وقبلها من أذنيها حيث ستعلقه . أهذا غريب ؟ كلا مطلقاً . فما الغرابة فى أن يقبلها رجل تحبه أكثر من أى شخص آخر فى العالم أجمع — فيما عدا كونراد بالطبع .

حدّقت رچينا فى مرآتها ولم تتنهد تائقة إلى شعر متموّج أشقر وإلى عينين لوزيّتين زرقاوين . كانت تعلم أن لون بشرتها العاجىّ مع ما يعكسه من احمرار بنفسجى فى ظل شعرها وعينيها ، هو نوع الجمال الأسمر الذى يفضله كونراد على سائر أنواع الجمال ، كما أفضى إليها بذلك ذات مرة ، سواء فى كلمات من عنده ، أو مقتبساً لغة ذلك الشاعر الذى أقسم أن الأسمر جميل . ابتعدت رچينا عن منضدة زينتها ودارت على نفسها مستندة إلى إبهام رجلها فى حذاء رقيق من الساتان ، فدار ثوبها معها هفهافاً كثوب الراقصة . إن الموسيقى التى ستعزفها الليلة لن تستطيع اللحاق بالنبضات السريعة التى تتراقص فى قلبها .

* * *

وفى زاوية من المقصف ، جلس أندريه چيراردو إلى منضدة صغيرة ووجد أذناً صاغية يسرّ إليها بشكوكه العلمية ، كما اعتاد فعله المفكرون الفرنسيون فى أوقات فراغهم .

ولد جيراردو كاثوليكيًّا رومانيًّا وتثقف على أيدى الآباء اليسوعيين ، ولما بلغ السادسة عشرة من عمره انحرف نحـــو التحرّر الفكرى الذى يميل إليه الفرنسيون بشغف وسهولة . أما الآن وقد أصبح فى سن الخامسة والخمسين وصار قصصيًّا عالميًّا طيرت صيتَه الآفاقُ ، فهو يجد لذة فى العودة إلى أيام إيمانه الفتىّ . فشرع يسرد ظروف حياته وخبرته إلى الكردينال فرمويل .

قال يشرح موقفه لستيفن : « إن الصعوبة الوحيدة التى تمنعنى من قبول أسرار الكنيسة بطيبة قلب هى الأهمية الزائدة التى تضعها روما فى مراسيمها التقليدية . كم أكون سعيداً ، يا صاحب النيافة ، لو تغاضت الكنيسة عن تلك الاعتبارات الزمنة وعادت إلى بساطتها الأولية العريقة فى عهد المخابئ والقبور » .

إن ستيفن — بحكم دعوته — صيادٌ للنفوس ، فحاول فى حذر شديد معالجة هذه السمكة الكبيرة . فأجاب : « فى استطاعة كل إنسان أن يحقق تلك العودة على انفراد . إن المسيح فى سرّ قربانه المقدس ، هو فى متناول الجميع ، كما كان منذ البدء » .

فتشبث السيد چيراردو برأيه وقال : « تلك حقيقة . لكن ألا تحقق الكنيسة كسباً أكبر إذا تخلّت عن شهر الأسلحة السياسية ، وحملت الصليب وتقدمت به معلنة : بهذه الراية ، وبهذه الراية وحدها ، سنحقق الظفر ؟ »

استعدّ ستيفن للإجابة على المفكر الفرنسى ، وإذا بقوام الأستاذ كورت جوتوالد الضخم يتقدم متثاقلاً نحوهما ، ووراءه سار القائد العام بطرس كولودنوف ، الملحق العسكرى فى السفارة الروسية فى واشنجتون ، وهو طويل القوام ، محلوق الرأس ، ثابت الخطى .

واعتماداً على روح الزمالة المألوفة بين روّاد حانات البواخر ، ظنّ الأستاذ جوتوالد أنه يستطيع قطع الحديث على الجالسين كيفما طاب له . وبالتالى اعتماداً على تلك الروح نفسها اضطر ستيفن وچيراردو إلى قبول هذا التدخل الفضولىّ . ودّ القصصى الفرنسى لو استطاع الاستمرار فى الإدلاء بتفاصيل حياته للكردينال الأمريكى ، لكنه شغف بالفرصة التى أتيحت له للنيل من الحبر جوتوالد . أجل ؛ كان السيد جيراردو ، وهو الفرنسى المتعصب ، يتوق بكل جوارحه إلى سحق الألمانى شكلاً ومعنى .

فلم يكد الأستاذ جوتوالد يتخذ له مقعداً حتى انبرى السيد جيراردو يرسل نكاته ولواذع كلامه تباعاً . كان على استعداد لأن يلعب بأقداح النبيذ ويتقاذفها من يد إلى أخرى ، أو يقوم بأىّ لعبة أخرى من ألعاب الحواة ، لسبب واحد فقط ، هو الاستمتاع برؤية الأستاذ الألمانى مكمّم الفم لا يجد فرصة للكلام . كان ستيفن يتمتع بمشاهدة هذين الرجلين ، من محترفى الحديث والخطابة ، يتصارعان فيمن يستأثر بالكلام دون غريمه ، كأنهما فى سباق ستة أيام على الدراجات لإحراز قصب السبق . كان چيراردو بطلاوته ورشاقته وخفته فى المقدمة . وجاء وراءه جوتوالد يضرب على مداس دراجته بعزم وعناد ، فى حين قنع القائد

الروسى بالمكوث فى المؤخرة يقلّب أفكاره فى قدح الويسكى الذى أمامه .

فجأة انقلبت المراكز . سرد چيراردو مثلاً ساخراً (كان متداولاً فى ذلك العصر) عن أربعة مؤلفين — إنجليزى وأمريكى وألمانى وفرنسى — حاولوا عرض مميزاتهم الوطنية فى إخراج كتاب عن الفيلة . وانتظر چيراردو طويلاً حتى يفتر ثغر مستمعيه عن ابتسامة . فلم يفعلوا . فاقتنص جوتوالد هذه الفرصة ، فقوّس منكبيه واندكّ على روادفه البدينة وأعمل ساقيه فى المداس وشق طريقه أمام منافسه الغوطىّ . قائلا :

— « قصتك ظريفة ، يا مسيو . ومفيدة أيضاً حيث إنها تميل بنا رأساً إلى موضوع القومية — الذى استنفده بحثاً الفيلسوف الألمانى ، هيجل » .

بعد أن ظفر الهير جوتوالد بالمقدمة ، أخذ يشرح نظرية هيجل فى تطوّر التاريخ . قال : « فى كل عصر تظهر أمة تضطلع بمسؤولية قيادة العالم للتقدم به فى شتى أطواره وتطوّراته » .

ورفع الهير جوتوالد يده الضخمة كالإشارة مشيراً إلى الفرنسى والروسىّ باتخاذ جانبى الطريق إلى أن يمر قطار هيجل السريع . ثم استطرد لقوله :

— « يحدثنا هيجل أن الدولة فكرة محضة روحية مجسمة فى شخص قائدها الذى يبرهن من أعماله على وحدة التاريخ ومعناه الحقيقى . والذين قرأوا كتابى " الفكر والسياسة العالمية " ، ليسوا فى حاجة إلى مزيد من الإيضاح بأن الفوهرر يجسم فى أكمل وجه فكرة تاريخنا الحاضر » .

اشرأب عنق القائد العام كولودنوف استنكاراً . هل يمكث صامتاً وهو الملحق العسكرى فى السفارة الروسية ؟ فقال : « لقد هدم ستالين نظرية هيجل الاحتكارية فى التاريخ . فالتاريخ هو نتيجة صراع الطبقات المعبر عنه فى الثلاثية الماركسية : الإقطاعية ، فالرأسمالية ، فالسوفييت . وقد ماتت الطبقة الأولى والثانية — ورفع كولودنوف قدح براندى ناپوليون وقال : — أشرب نخب ستالين ، رائد المستقبل والناطق بلسانه » .

تمتم چيراردو : « ما هذه العواطف ؟ » . ثم التفت نحو ستيفن وقال : « هل ترضون نيافتكم أن تغلبوا على أمركم أمام محكمة قويمة الرأى كهذه ؟ لقد شرب

أتباع هتلر وستالين نخبهما . فماذا إذن ؟ ألا ترفعون قدحكم لشرب نخب قداسة البابا پيوس الثانى عشر ؟ »

حمل ستيفن هذه اللمزة على محمل المرح وقال ابتسامة : « لا أريد الظهور بينكم وصوليًّا . فإن خليفة بطرس الثانى والستين بعد المئتين لا يحتاج إلى رفع الكؤوس وشرب الأنخاب ليثبت موقفه » .

فأجاب چيراردو بمرح : « تلك لا شك حقيقة ملموسة » .

بلغت مسامع المتسامرين فى حانة الباخرة أنغام موسيقى شجية تدل دلالة قاطعة على أنها لبراهمس . فانفرجت أساريو الهير جوتوالد سروراً وقال فى زهو توتونى : « دلالة مشجعة ، أيها السادة . إن تفوّق الموسيقى الألمانية على ما أرى وأسمع ، أمر معترف به حتى على البواخر الإنجليزية » .

قال ستيفن : « هيا بنا نرى من يلعب هذه الموسيقى الألمانية ؟ »

تقدّم الرجال الأربعة بخطى واسعة نحو القاعة القريبة حيث احتشد ما يقرب من مئتى شخص يستمعون إلى سوناتا براهمس من مقام الحسينى الكبير .

كانت رچينا بيرن جالسة إلى البيانو ووجهها مستدير قليلاً نحو الجمهور ، فى حين وقف كونراد زالى وجهاً لوجه أمام الحضور ، والكمنجة بين يديه ، يعزف فى ثقة وثبات مقدمة السوناتا . عزف دون حياء أو خجل أو تردّد . وكان صوت كمنجته يملأ القاعة صفاءً ونقاوة .

استحسن الهير جوتوالد هذا الإخراج وقال فى تقدير : « الصوت رنان صاف . هى طريقة الإخراج التى تليق ببراهمس » .

فى نهاية السوناتا انتحى كونراد جانباً ليفسح لرچينا مجالاً لتقبل الهتافات والتصفيق .

وقال كولودنوف : « فن رائع . إنه يعزف كما يفعل الروس » .

لم يرَ ستيفن الظروف ملائمة أو تستحق التنبيه على الروسىّ بأن كونراد أمريكى ، من أصل پولندى .

ثم أعلن كونراد : « إن المقطوعة المختارة التالية هى "مقدمة وسلسلة مرحة" للمؤلف الفرنسى " سانت سانس" » .

فقال چيراردو : « الآن سنستمع إلى شيء ذى شأن » .

فى صمت شامل حطت أنامل رچينا على ملامس البيانو فخرجت منها أنغام أجراس ناعمة واشترك معها الكمان فى أنين رخيم . ثم استرسل فى ألحان جميلة متلاحقة متراصة كأنها طيف من النغمات اصطحبت بعضها بعضاً فى سلسلة أنيقة مرنة . وما لبث هذا الطيف بلمسة سحرية من قوس كونراد أن انفجر فجأة وانفرط عقده وتناثرت درره كالعناقيد والفقاقيع وانتشرت فى سماء القاعة متلألئة ضاحكة . وعاد الأنين الرخيم مرة أخرى ثم ما عتم أن اختفى فى وثبة خاطفة كالضربات المتواترة على مقام الديوان الغليظ .

ثم خرج كونراد بوتر اليكاه وأخذ يتسلق درجات أوتاره بخفة ورشاقة حتى وصل إلى أعلى جواب فى ديوانه وظل برهة يداعب درجاته الحادة ثم انحدر كالطير متهادياً متراقصاً على الأوتار . وإذا برچينا تصطحبه على البيانو فجأة فى اتفاقات إيقاعية خاطفة سريعة مقتضبة ، فخرجت منها بلحن راقص خفيف رشيق ، أثار الحماسة فى الحاضرين فطفقوا يصفقون بأيديهم مسيّرين بإيقاعات البيانو ، واندمج معهم الكمان حتى استقر أخيراً فى نشوة وطرب على وتر السيكاه .

تنهد لورنس جلينون فى دهشة كبيرة وذقنه على عقلة عصاه المذهبة . أما شانج ، عميل الموسيقى الأمريكى ، فقد احتفظ بحكمه النهائى حتى يستمع إلى المقطع التالى الذى يعد حجر عثرة لجميع عازفى الكمان سوى عدد ضئيل منهم . وودّ ستيفن وهو يستمع إلى سيل الموسيقى المتدفق من كمان كونراد لو استطاع ريف منتون سماع صوت كمنجته تلك الليلة .

ثم مال كونراد على كمنجته وغمز الأوتار بطرف قوسه واندفع بها عالياً تهتز وتنقر الأوتار كأنها على أمواج الأثير ، وأنامل يده اليسرى تنساب بخفة فى دقة آلية مدهشة تدفعها روحه الملتهبة المنجذبة نحو العلا . ومكثت أنامله تداعب القمم حتى لم يعد مجال للصعود ، فانحدرت تنثر نغمات خاطفة كأنها شهب من نار .

حتى هذه اللحظة كان المير جوتوالد قد اعتاد أن يسخر من الموسيقى الفرنسية . أما الآن فإنه قد تخلى عن سخريته .

صمت البيانو برهة فى حين استهل الكمان نغماً موزوناً على ثلاثيات إيقاعية

متفقة أداها كونراد فى ضربات واسعة من قوسه كمن يهوى بمطرقة . ثم عاد البيانو والكمان معاً إلى مطلعهما . واندفعت أنامل كونراد تغمز الأوتار وقوسه تضربها كحافر الخيل فدانت له دون عناء وسيّرها كيف شاء . وألهبت الكمنجة البيانو حماسة فلحق بها ثابتاً قويًّا جهيراً وارتجت الملامس تحت أنامل رچينا التى ختمت المقطوعة مع كونراد فى إيقاع موحّد سريع جبار .

فهبّ الحاضرون كالصاروخ . واتفقت للمرة الأولى منذ ذلك المساء أصوات جوتوالد وچيراردو وكولودنوف وهم يهتفون : « مرحى ! مرحى ! زدنا ! » — وضرب لورنس جلينون الأرض بعصاه — واستل شنجونى قلمه بحركة تلقائية . وصفق السير همفرى طرباً حتى اهتز صليب ڤكتوريا على صدره .

انحنى كونراد ورچينا للحضور وقد احمرت وجنتاهما خجلاً وسعادة ، ثم تبادلا التحية . ومالت رچينا على أذن كونراد وهمست فيها بكلمة فابتسم وهزّ رأسه ثم استدار نحو الجمهور وقال :

— « عن طلب خاص ، سنقدّم لحناً من مئزرة صاحبة الجلالة » .

فاستطار ربان الأوريانا مرحاً وبدأ يهمهم بهذه الأغنية : « عندما تهب الرياح ، اعتادت نفسى الحلوة » . وإذا بضابط مساعد دخل مسرعاً إلى القاعة واقترب منه . لا شك أن ما أفضى به الضابط خطير جدًّا ، فقد غادر السير همفرى القاعة حالاً ، وبدلاً من أن ينشد الراحة فى حجرته ، صعد إلى برج المراقبة وتسلم القيادة بنفسه ، واضعاً ثقته فى أيقونة ذهبية للقديس كريستوفر كان يحتفظ بها دائماً فى جيب سترته الصغير .

* * *

صعد ستيفن على ظهر الأوريانا والتحف بمعطفه الكبير الذى يرتديه أمراء البحار والكنيسة ليتقى قرس الهواء الجليدىّ ، ثم لفّ به رأسه واتجه إلى مقدّمة السفينة واستند إلى الحاجز الحديدى وترك لمخيّلته العنان تطفو على صفحات الحياة كلوح من الخشب . استعاد أحداث تلك الليلة . ما أضيق الوقت وما أسرعه ! . . . تمتزج فيه الأفراح والأحزان ، المحبة والحقد ! . . . كان أهم حدث فى تلك الليلة ودون شك هو عزف كونراد الرائع وسرعته العجيبة المذهلة وتأثيره المغناطيسى على

الحضور ، وخصوصاً حبه الخفى المتبادل مع رچينا الذى خفقت له قلوب الجميع رقةً ودعاءً .

مع أنغام الفرح والحب ، سمع ستيفن أيضاً أوتار الخصام تهتز باضطراب فى قاعة الأوريانا . آه ، ما هذه المشادة وقت العشاء بين السير همفرى والهير جوتوالد ؟ لقد أدّى النقاش حول فاجعة باخرة سيئة الحظ ،فى الظاهر ، إلى حقد متأصل بين فوارق العصبيات الوطنية فى الواقع . وفى مقهى الباخرة ظهرت هذه المنافسة الوطنية فى المناقشة التى دارت بين جوتوالد وكولودنوف .

بين هذه الأصوات المتضاربة ، سمع ستيفن صوتاً رقيقاً يتوسّل : « كم من مرة أردت أن أجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، فلم تريدوا » .

دق الجرس فى البرج الأعلى ثمانى دقات ، تعنى فى اصطلاح سكان الأرض نصف الليل ، أى سمت القدم من النهار ، أى أعمق بئر فى الظلام سوف تصعد منها الشمس متعبة حتى تصل إلى فجر يوم آخر محتمل الوجود . لم يجد ستيفن منتصف ليل أبرد من هذا يشيع الخوف والرعدة ، مع ما تحمله هذه الساعات القلائل من مهالك وأخطار قبل انبلاج الفجر وصياح الديك .

رفع ستيفن بصره إلى الكواكب المتلألئة فى قبة السماء الزرقاء . ها هو ذا النجم القطبى يتألق . إنه الشمال حقاً . وها هو ذا الدب الأكبر البرّاق يُشير برأسه باستمرار إلى النجم القطبىّ ويُرسل نوره الوهاج دليلاً للرعاة وقائداً للبحارة ورائداً لسائقى الترام أحياناً . وهناك عند أسفل الأفق على طرف المحيط ذلك النجم المتعدّد الأسماء المشتعل الملتهب — لوسيفير ، الزهرة ، هيسپيروس — الذى لم يزل متوثباً مخيفاً مهدّداً ، والذى اندمج بنوع خاص فى أحداث عديدة من حياة ستيفن فرمويل .

ثم تذكر أورسلتى وهو على متن الڤيزوڤيو يرفع سبابته الأنيقة ويشير إلى النجم ويسأله : « لماذا تريد معرفة موقع لوسيفير . يا أبى ؟ هل تخشى مصيره ؟ » وبعد ربع قرن تذكر ستيفن ردّه عليه : « أنا أخشى ، أنت تخشى ، نحن كلنا نخشى » .

بعد تلك السنين الطوال التى تفصل سفره الأول نحو الغرب وهذا السفر الثانى ،

ستبقى كلمات ستيفن خالدة لا تتبدّل . فى هذه اللحظة ، كانت الدول تسير نحو الحرب بجميع إمكانياتها . والناس فى غفلتهم وكبريائهم ما زالوا ينبذون وصية المسيح : « أحبوا بعضكم بعضاً » .

تصاعدت من الأفق بقعة من الضباب الكثيف وحجبت النجم الشرير . وتبعتها بقع أخر زحفت على المحيط . فدهش ستيفن من وجود ضباب فى ليلة جميلة كهذه . على ما هو معلوم ، يتكوّن الضباب من تفاعل تيارات رياح دافئة عند مرورها فوق مياه بحار تقل عنها حرارة . لكن الهواء كان فى ذلك المكان وفى تلك اللحظة جليديًّا . ما سبب الضباب إذن ؟

ارتسم الجواب فى نظر ستيفن عند مقدمة الأوريانا : جبل هائل من الثلج قد حجب الضباب المتكاثف قاعدته ، وتلألأت قمته تحت ضوء النجوم . اندفع داخل مياه تفوقه دفئاً فأخذ يولد ذلك الضباب المخيف الذى يرهبه الملاحون والربابنة ، خصوصاً أن الخطر فى هذه الحال مزدوج : فجبال الثلج وحدها تشكل خطراً جسيماً ، فكيف الحال حينما تكون تلك الجبال محجوبة وراء ستار من الضباب كثيف ؟ إن نسبة الخطر تتضاعف مخيفة مرعبة .

تنبه أحد المراقبين فى عيون السفينة إلى الخطر فأعلنه إلى برج القيادة : « جبل من الثلج إلى الأمام عن يسار السفينة ! »

كان السير همفرى فى برج القيادة يراقب الموقف بأعصاب من جليد . فأصدر أمراً إلى حجرة العمليات والآلات . فشعر ستيفن برجّة محركات السفينة وهى تهبط سرعتها إلى الربع .

ثم جاءت إشارة أخرى : « جبل من الثلج إلى الأمام عن يمين السفينة ! »

تفرّس ستيفن أمامه ، فرأى جزراً من الجليد تزحف على المياه . ولا بدّ للأوريانا أن تشق طريقها وسط هذا الأرخبيل .

ثم صعد من هذا الحقل الجليدى شبح هائل من ضباب كثيف فحجب السفينة والنجوم وكل شىء .

وقف على ظهر الباخرة كردينال أمريكى ، وقف وحيداً ، ملتحفاً بالضباب ، على قاب قوسين من وطنه ، يتأمل ويصلّى.

كان ستيفن فى تلك الساعة رجلاً متوقد الذهن طويل باعٍ فى شؤون الناس ، عجمته الأيام وزادته خبرة عميقة ودراية واسعة فى إدارة أمور الدنيا ، فأمسى ثمرة ناضجة بإيمانه القويم وخلقه الصحيح ونشاطه الفكرىّ . تعادلت فيه كفتا الميزان شجاعة فى الكلام وأمانة فى الصمت . لم تحرمه حريته واستقلاله كرجل خمس وعشرون سنة قضاها فى الكهنوت طائعاً خاضعاً ، ولم يصدّه اندفاعه الفطرى إلى السلطة والسيطرة عن ذلك الدافع الفطرى الآخر الأعمق أثراً نحو العبادة والمحبة . فأمسى فى سن الواحدة والخمسين رجلاً رقيق القلب ، شديد العزم فى الروح ، موفور الصحة فى الجسم ، وقد وُكل إليه الآن أمر جليل : أن يضع سلطاته هذه كلها فى خدمة الكنيسة المقدّسة الكاثوليكية الرومانية .

ما هى أفضل الطرق لممارسة هذه السلطات ؟ ما هى وظيفة الكنيسة الجوهرية إذا جرّدناها من الأعراض الثانوية ؟ ما هو موقف الكنيسة ؟ وأىّ عمل تقوم به فى عالم أفسده قوم أشرار وخرّبته الحروب ؟

هل تعود الكنيسة إلى مخابئ القبور ، كما ألمح إلى ذلك چيراردو؟ كلا . فذلك قول ساذج ، عاطفى بل طائش . فهذا التراجع يناقض أمر المسيح إلى رسله : « اذهبوا وعلموا كل الأمم » . نعم ، كل الأمم ! لا تفضّل أمة على أخرى ، ولا تهمل ، ولا تعفى . فالرسالة الإلهية لحفظ الإيمان ونشره هى رسالة دائمة عمومية وتضطرّ الجميع . ولكى تتحقق هذه الرسالة يجب على الكنيسة أن تعرّف ذاتها بوضوح بأعمالها ونشاطها الروحى فى عالم يئنّ ويتوق فى إلحاح إلى بصيص نور من الروح القدس.

ما هى الوسائل التى تستخدمها الكنيسة لتحقيق رسالتها ؟

أوّلاً بواسطة الأسرار — تلك العلامات الحسية السبعة التى أسسها المسيح لكى تهب النعمة . ولا بدّ من إدارة واسعة وترتيب دقيق للقيام بمنح هذه الأسرار . وبالتالى فلا بدّ للكنيسة هذه المنظورة أن تثبت كيانها بمراسيمها وشرائعها وماليتها بواسطة الأساقفة (خلفاء الرسل) الذين هم فى طاعة البابا ، رأس الكنيسة الروحى .

من الضرورى إذن أن تعمل هذه الإدارة المنظورة وسط اجتماعى معين . وبالتالى فهو حقّ وشرعىّ أن تتخذ الكنيسة من المعاهدات والطرق السياسية الأخرى وسيلة للوصول إلى اتفاق مع الحكومات المدنية المختلفة التى تعترف بحقوق الله

ومقتضيات الضمير المسيحى . أما مع السلطات التى لا تعترف بهذه الحقوق ، ومع السلطات التى ترفع الدولة أو الفرد الحاكم فوق الله عزّ وجلّ ، فلا سبيل إلى التفاهم أو الاتفاق . فهى العدو ، روح الشر ، الذى يجول فى العالم يطلب هلاك النفوس .

وفى هذه الآونة أكثر من أى وقت مضى ، لا بدّ للكنيسة من أن تتعاون مع تلك الحكومات التى تعترف بحقوق العبادة ومكانة الله الأولى فى حياة البشر .

وحيث إن تكوين المجتمع البشرى فى الظروف الحاضرة هو كيان وطنىّ ، فلا بدّ للكنيسة فى شكلها الإنسانى أن تعمل داخل هذا الإطار . وفى الوقت الذى يحدّده الله فى حكمته ، قد تستطيع الكنيسة الإعلان عن طرق الله الواسعة لتحقيق غايته تعالى . وفى مستقبل غير محدود قد يرفع الناس الصليب ويتقدّمون تحت لوائه ليحققوا الظفر المنشود بهذه الراية وحدها . لكنهم قبل ذلك سينضوون تحت لواءات شتى : الرايات الوطنية ، والأسلحة الرهيبة ، والرموز الكاذبة، والإهانات المشينة المهينة لله . وفى لغاتهم المختلفة المتنافرة الأصوات سيهزأون بهذه التعاليم السامية التى أعلنها المسيح على الجبل :

« طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السماء .
طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض .
طوبى للحزانى فإنهم يعزّون .
طوبى للجياع والعطاش إلى البر ، فإنهم يشبعون .
طوبى للرحماء فإنهم يرحمون .
طوبى للأنقياء القلوب ، فإنهم يعاينون الله .
طوبى لصانعى السلامة ، فإنهم أبناء الله يدعون .
طوبى للمضطهدين من أجل البر ، فإن لهم ملكوت السماء » .

هل نسى الناس حقًّا هذه التعاليم المباركة ؟ هل يرث الودعاء الأرض يوماً ، أو ينال الحزانى عزاءً ؟ كانت صفارة الأوريانا ترسل إنذارها كل دقيقتين ، وتبعث الشك فى حقيقة هذا الأمر ، وأصوات الصفارة تنبعث من السفينة لتذهب وتصدم جبلاً من الجليد ثم تعود أصداءً شوّهها الثلج والضباب . فشعر ستيفن برعشة

تهزّه من جراء هذا التجاوب الساخر الذى يشبه نعيق التشاؤم بما آلت إليه خلافات الشعوب . إنه صدى الخراب الذى أحدثه الإنسان وردّدته عناصر الطبيعة ! . . . هل هذا هو الصوت الذى تصدره الحياة إذا ما أنصت إليها الإنسان ؟ هل هى انبعاثات من القسوة والقنوط قد تجرف أخيراً صوت الله العذب فى النفوس ؟

اجترأ ستيفن مع ذلك على الاعتقاد بأنه وإن اجتاحت العالم تيارات قاسية من الوحشية والبربرية فلابدّ للناس من أن ينشدوا — وإن كان الأمل ضعيفاً — بوادر الوفاق والتضامن بين بعضهم بعضاً . لم يغترّ ستيفن بعاطفته ولم ينشد المستحيل لكنه غذّى فى نفسه حتى فى هذه الآونة الرهيبة أملاً حقيقيًّا فى هذا الوفاق الذى لم يزل بعيد التحقيق .

رأى ستيفن أن أمله هذا قد ثبت ورسخ متيناً بعد الحفلة الموسيقية التى أجاد فيها كونراد فى أوائل سهرة المساء — والحق يقال شكلاً ومعنىً . كانت كمنجة كونراد أشبه بالكنّارة الروحية السرّية التى تخلق الاتفاق من عناصر مختلفة ومتنافرة أيضاً . فقد صنع الكمان من خشب الإسفندان الأمريكى ومن زخارف أمريكية ، وحفره صانع ربابة كندى فرنسى ماهر . واستلهم شكله من الرسومات الإيطالية . ثم عزف على هذه الكمنجة شاب من أصل پولندى أمريكى تثقف فى طفولته على يد أستاذ روسىّ يهودىّ ثم على يد أستاذ رومانى . ثم لعب كونراد على باخرة إنجليزية مقطوعات من براهمس وسانت سانس أمام مستمعين من مختلفى الجنسيات نبذوا — حيناً — خلافاتهم ليهتفوا ويصفقوا لفن كونراد العالمى . وقد رافق عازف الكمان على البيان فتاة منبتها مزيج من الأمريكى والإرلندى والإسبانى ، وهى على وشك أن تدمج لا موسيقاها فحسب بل كيانها كله بالرجل الذى تحبّه .

لم يشأ ستيفن تطبيق هذا المثل بحذافيره على واقع الأمور . فهو لا يستطيع التكهن بما عسى أن يتمّ عليه الاتفاق بين الناس فى المستقبل . لكن إيمانه أكد له أنه لا بدّ للدول يوماً من أن ترفع قلوبها وألسنتها فى الوحدة والاتفاق . واعتقد أيضاً بكل ما فيه من قوة وثقة أن الوسيلة التى يتبعها الروح القدس فى الوصول إلى أعماق النفوس وتطهيرها فى جوهرها ، هذه الوسيلة قد بدأت عملها فى العالم .

لكن من سيساعد هذا العمل على أن يكون فعالاً ؟ من سيعجّل ويضمن تحقيقه ؟

سمع ستيفن وهو بعدُ متكئ على حاجز الأوريانا الحديدى ، زمجرة المحيط تتصاعد من الأعماق . فقفزت إلى ذهنه سريعاً أبيات الشاعر چون كيتس :

« إن المياه المتدفقة
حول شواطئ أرض البشر
تواصل عمل تطهيرها
كما يقوم الكاهن بعمله . . . »

عمل الكاهن ! هل توجد كلمة أفضل منها للتعبير عن العمل الإلهى الملقى على عاتق الكنيسة ؟ قد تكون شواطئ السماء بعيدة المنال الآن ، لكن حول شواطئ أرض البشر سيستمر عمل التطهير دون توقف . حول هذه الشواطئ التعيسة سيسير الكهنة بين الرجال والنساء التائهين المحزونين فيرطّبون آلامهم ويشجعونهم حتى لا يرتموا فى أحضان اليأس ، ويعلّمونهم أن يتحملوا بعضهم بعضاً فى محبة وأناة ، ثم يتوسلون إليهم كى يقبلوا نعمة الله فى قلوبهم ويحتفظوا فى وسط هذه الأهوال الفانية الفاسدة بشعاع من الخلود .

استعاد ستيفن فى ذاكرته صور الكهنة القديسين الطيبين : نيدهالى — بيل موناجان — بولس آيرتون — دوم أرسيبال . جريجور پوتوكى — ثم ألفيو كارنجى . فدفئت نفسه إيماناً وتقوى لهذه الذكرى . ولفظ أسماءهم بكل خشوع . وقد يستطيع إضافة أسماء أخرى كثيرة لا يعرفها — من الرعاة والكهنة المساعدين والمعترفين ، يضمدون الجروح ، ويغسلون الأرجل المتعبة ، ويمسحون بالزيت ، ويشجعون ، ويعزّون ، ويعملون فى مختلف مشاريع الكنيسة ويسيرون مع الموكب على الطريق الغبراء ، كلّ نحو عمله الكهنوتى .

والناس يدْعونهم : « يا أبى » .

يا أوسع الأسماء ثقة ! . . . إنك صدى من ذلك الاسم الجليل الذى تنطق به صفوف السارافين التى تحيط بهيكل الله ، ونفوس المعذّبين فى المطهر ، وأولاد آدم المحزونون الباكون فى وادى الدموع هذا ! . . .

اسم يردّده فى لحن واحد متواتر بالشكر : الفهد ولقياثان ، والحشرات ، والرياح والأمواج ! . . .

اسم يهابه الرعد والعاصفة والبرق ! . . .

اسم يغلى فى قلوب البراكين ! . . . ويزمجر فوق الصخور المنهارة ! . . .

رأى ستيفن رأس أحد جبال الثلج يميل ويغرق فى المياه محدثاً صوتاً كالرعد ، على بعد قريب من الأوريانا .

. . . اسم يُخشى غضبه ، وتُهاب أوامره ! . . . اسم كالجليد فى سخطه إذا ما خولفت وصاياه ! . . .

تعلّق ستيفن بحاجز السفينة وهى تهتز وتختلج فوق المياه .

. . . اسم يلوّح بالموت للساخرين ! . . .

ارتدت أصوات الصفارة بعد أن صدمت جبلاً هائلاً من الجليد ، تزأر كأرواح المعذّبين فى جهنم .

. . . اسم يتنسم الغفران لمن يسألون رحمته بتواضع . . .

ولما مرت السفينة بين مضيق الثلوج ، مجّد ستيفن ذلك الاسم بكل خضوع وثقة وصلى قائلاً :

— « أبانا الذى فى السماوات ، ليتقدس اسمك . . . »

ليتقدس فوق جميع الأسماء : الأمم والحكام والسلالات والسلطات .

— « ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض . . . »

فى إراداتك سلامنا ، وستظل قلوبنا مضطربة حتى تجد فيك الراحة .

— « أعطنا خبزنا كفاف يومنا . . . »

امنح أبناءك أحقر طلباتهم ليكسبوا خبزهم بعمل شريف .

— « واغفر لنا ذنوبنا . . . »

هذا بنوع خاص أيها الرب . لأنك إن كنت للآثام راصداً ، يا رب ، فمن يثبت ؟

— « كما نحن نغفر لمن أساء إلينا . . . »

نعم حتى للذين يحتقرون ويهينون كنيستك ويتآمرون عليها بأحقر الوسائل .

— « ولا تدخلنا فى تجربة . . . »

فى شقّ بين الضباب استطاع ستيفن رؤية بريق لوسيفير ، أحمر قانياً

كالدم ، ينثر الشؤم والرعب ويجثم دوماً فوق حياة البشر .

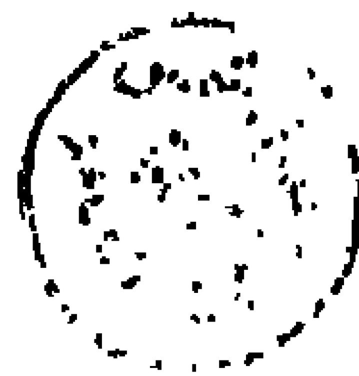
— « لكن نجنا من الشرير . . . »

نجنا يا رب من الموت الفجائي الداهم ، من الوباء والمجاعة والحرب ، من الرعد والجليد والغرق ، من القادة الكذبة ، من الهلاك الأخير في الكبرياء — نجّنا بغزير رحمتك من غضبك ، أيها الآب الذي في السماء ، نتضرع إليك فنجنا ! . . .

شقشق الفجر وتخلّصت أشعته من بئر الظلام . وأقبلت من الأرض نسمات بليلة من الربيع مشبعة أملاً . وفوق رأس ستيفن ، في أعالي الجوزاء ، كانت بنات نعش تفيض ضوءها المجيد على المياه ، وكان ربيع العالم الجديد يشق الضباب باعثاً الأمل والثقة إلى من في السفينة . قليل من الصبر والإيمان والانتباه ، وتكون الباخرة قد مرّت بسلام .

الليل والجليد ، المحيط والكواكب ، السفينة والعالم — جميعها مسيّرة بشريعة الحب التي تربط جميع الإرادات والرغبات إلى اسمه تعالى وحده . كانت تسير كلها نحو طريقها المرسوم ، حينما ختم ستيفن صلاته في همسة مردّداً :

— « آمين ! »



تم طبع هذا الكتاب على مطابع
بدار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

الثمن ١٠٠